مِلاكُ التَّأْوِيل

القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل

للإمام الحافظ العلامة

أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الغرناطي

الجزء الأول

تحقيق

سعيد الفلاح



الإمام الحافظ العلامة
أحمد بن إبراهيم الغرناطي











مِلَاكُ التَّأوِيلِ

القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللّفظ من آي التنزيل

للإمام الحافظ العلاّمة

أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الغرناطي

الجزء الأول

تحقيق

سعيد الفلاّح



الطبعة الأولى
1403 هـ / 1983 م

الطبعة الثانية
1428 هـ / 2007 م

دار الغرب الإسلامي

ص: ب. 5787 ـ 113 بيروت

الإهـــداء

إلى روح والدي الطاهرة وإلى والدتي وزوجتي وأبنائي أهدي نور هذا الإنتاج شاكراً الله العلي القدير على منّه وفضله وإنعامه.

سعيد الفلاّح

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمد الشاكرين، حمد من يطمع في توفيق ربه للتفقه في دينه، وفي هديه لتدبر كتابه وخدمة تنزيله، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، صلاة من رام اخلاص الاتعاظ بقوله: من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين.

أما بعد فان كتاب ملاك التأويل هو من الكتب المهمة في مجال تفسير كتاب الله وهو من أجل الأعمال المقدمة لخدمة القرآن الكريم. فموضوعه في تفسير متشابه الكتاب، وهو فن قل فيه التصنيف عامة وندر منه المطبوع خاصة، وذلك بشهادة الجلة من العلماء[1] بل إن هذا الكتاب يعتبر من أوفى وأبسط وأحسن ما ألف في مسائله ومباحثه. ثم أن تحقيقه وإخراجه مساهمة في إثراء المكتبة الإسلامية وتسديد لنقص في ميدان تفسير المتشابه الذي كثيرا ما شكل معترك الأقران في علوم القرآن، وما كان مجال تأويل وتحليل بين مفكري الفرق الإسلامية على اختلاف دوائرهم، بالإضافة إلى أن مؤلفه علم من الأعلام النادرة، ولم يسبق أن درس دراسة تليق بمقامه،

(1) الخطيب الإسكافي في مقدمة درّة التنزيل، ص 8؛ ابن الزبير الثقفي في مقدمة ملاك التأويل، ص 144؛ الزركشي في البرهان 112/1؛ السيوطي في الإتقان 194/2.

وتعرف به وتبوئه المكانة التي يستحقها في هذا المقام. وهذا الكتاب يعتبر أهم مؤلفات ابن الزبير ويمكن أن يكون ترجمانا صادقا عن مؤلفه. وأعترف أني وجدت من أستاذي المشرف: عبد الله الأوصيف من وجوه المساعدة والتشجيع ما حفزني وأزاح ترددي، وقوى إصراري على تحقيقه بكامله رغم ضخامته، جزاه الله عني كل خير.

وللكتاب نسخ عديدة يعود بعضها إلى عهد قريب من عصر المؤلف يمكن أن تكون أرضية لتحقيق سليم وقد حصلت على أربع نسخ لهذا الكتاب أعانني أهل الفضل على استجلاب اثنتين منها من معهد إحياء المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية بمصر، وثالثه من مكتبة الأوسكوريال بإسبانيا، ولا يفوتني هنا أن أنوه بالمساعدة الكبيرة التي وجدتها من أستاذي الدكتور عبد المجيد النجار على اقتناء نسختي معهد إحياء المخطوطات، ومن المستشرق الأستاذ «ميكال دي إبلزا» على الحصول على نسخة الأوسكوريال.

أما النسخة الرابعة فهي بالمكتبة الوطنية بتونس وهي أحدث المخطوطات الأربع نسخا. وقد رتبت هذه النسخ ترتيباً زمنياً ورمزت لأقدمها بِـ ـ ن 1 وللتي تليها بـ ن 2 وللثالثة بـ ن 3 وللرابعة بـ ن 4، واعتمدت في التحقيق أولاها وأقدمها كأصل ثم قابلت بينها جميعاً. وفي نهاية هذا التقديم وصف مفصّل لكل نسخة منها.

المنهج العام للعمل:

بدأت عملي بدراسة حياة المؤلف ــ يدفعني في ذلك إيمان راسخ بأن لا سبيل إلى فهم صحيح لأثر أو إنتاج إلا بعد معرفة كاملة بصاحبه. ورأيت أن أقدم للترجمة بدراسة للعصر إذ الإنسان ابن البيئة ومرتبط بالأحداث والظروف المحيطة به، فألقيت الأضواء: **أولاً**، على الوضع السياسي بالأندلس من بداية القرن السابع الهجري إلى بداية الثامن. وقد

كانت بلاد الأندلس عندها خضما متلاطما من الأحداث، وحرصت على أن أبرز من خلال هذا مدى تفاعل ابن الزبير مع هذه الأحداث. ثم ألقيت الأضواء: **ثانياً** على الوضع الفكري قبل ظهور مملكة غرناطة ثم في ظلها، وتتبعت الخصائص المميزة للحركة الفكرية يومها وتفاعل صاحب ملاك التأويل أخذاً وعطاء معها. إثر هذا كله قمت بترجمة المؤلف وتتبعت كل من ترجم له ــ وكانوا كثيرين ــ وبدا لي الأمر لأول وهلة ميسوراً ولكن سرعان ما تبين لي خلاف ذلك، كان ما أوردته كتب التراجم مكرراً في أغلبها مقتضباً غير معلل ولا منظم بل ومختلفاً أحياناً، فكان علي إذن أن أجمع وأن أتأمل وأتدبر ثم أبوب وأرتب وأستنتج. وصغت من كل ذلك ما يعرف باسم المؤلف ونسبه ومولده ونشأته، وما يكشف الغطاء عن خصاله ومعارفه وأعماله، وما حلت به من محن، واقتبست منه ما يزيح اللثام عن شيوخه وتأثيرهم فيه، وتلاميذه وتأثرهم به، ومؤلفاته وما تناولته من معارف وفنون، وما يجسم ذلك الفراغ الذي تركه المؤلف بموته، والوقع الأليم الذي عاناه معاصروه وأحباؤه.

ثم شرعت بعد كل هذا في التحقيق، واتبعت فيه المنهج التالي:

ــ اعتمدت في التحقيق أربع نسخ، والتزمت المقابلة بينها جميعاً وبكل دقة، وقد وجدت في ذلك صعوبة كثيرة نظراً لكثرة ما فيها من أخطاء ومن مواطن نقص وسقوط، الأمر الذي جعل عبارة: سقط من، أو هذا خطأ، والصواب كذا...، أو هذا لا يناسب... أو ما شابهها مترددة كثيراً بالهامش.

ــ وقفت عند كل اختلاف بين النسخ والتزمت ذكر ما يوجد بكل نسخة منها، ولم أكتف بهذا بل ألحقته في كل الحالات ببيان ما كان منها على صواب وما كان منها على خطأ وما يناسب المعنى وما لا يناسبه.

ــ حصرت ما نقص في نسخة من النسخ بين قوسين وأشرت بالهامش إلى النسخة المنقوص منها.

ـ وضعت اللفظة المختلف فيها بين قوسين وعلقت عليها بالهامش.

ـ أبرزت مكان العبارة الساقطة وتركته بياضاً، وعملت في أغلب الحالات على استنتاج العبارة التي يمكن أن تلائم السياق وتناسب المعنى.

ـ خرجت الآيات بإرجاعها إلى سورها وذكر أرقامها في تلك السور ـ وقد كانت كثيرة جداً، لأن أصل هذا التفسير قائم على جمع الآيات المتشابهة وتوجيهها بربطها بما يتقدمها من الآيات وما يتلوها. ونتيجة لما سبق تجاوز عدد التعليقات بهامش بعض الصفحات العشرين تعليقاً.

ـ وعملت على تخريج ما أومأ أو أشار إليه المؤلف من آيات، وحرصت على ذكر نص تلك الآيات بالهامش مع إثبات سورها وأرقامها فيها.

وكثيراً ما اختلفت كتابة الآية من نسخة إلى أخرى تبعاً للقراءة فعملت على تعليل ذلك ببيان القراءات المختلفة لتلك الآية وعزو كل قراءة لناقلها.

والمؤلف كثير الاعتماد على القراءات، فقد تعددت تنبيهاته إلى ذلك، وقد حرصت كل الحرص على تتبعها ورفع إشكالها سواء منها المشهورة أو الشاذة. وقد وجدت صعوبة في تحرير ما اكتفى فيه المؤلف بالإيماء أو الإشارة الغامضة كقوله عند تفسير معنى الآية: وللآية معنى آخر على قراءة من قرأ بكذا. . . أو نحو من ذلك.

ثم إن المؤلف كثير الاعتماد على أسباب النزول، وكثيراً ما أثار حول ذلك بعض القضايا كاختلاف العلماء في سبب النزول أو في المعني بالأمر، فلم أغفل عن إيراد ملخص للمشكل أو إحالة القارىء على الكتب التي صنفت في هذا الباب مع ذكر اسم الكتاب واسم المؤلف والصفحة.

وخرجت الأحاديث والآثار بإرجاعها إلى مصادرها وذكر المواضيع التي تندرج فيها ورقم ترتيبها، ونبهت إلى النص الأصلي للحديث أو الأثر كلما كان إيراده بالمعنى. ورغم أن المعجم المفهرس لألفاظ الحديث قد سهل لي المهمة فإني قد وجدت صعوبة كبيرة في تخريج بعض الآثار إذ أن المؤلف كثيراً ما يروي بالمعنى أو يكتفي بالإيماء كأن يقول: وقد ورد في الأثر، أو قد أشارت إلى هذا السنة، أو نحو ذلك.

ــ وخرجت الأشعار ــ وقد كانت كثيرة ــ بذكر الشاعر والبحر والكتب التي توجد بها والجزء والصفحة، والتزمت في كل ذلك بالتنبيه إلى ما يوجد من تحريف في هذه الأشعار بمقارنتها بأصلها. كما قمت بإتمام الأبيات التي اقتصر فيها على ذكر الصدر أو العجز أو وقع الإيماء إليها إيماء. وقد ترجمت للشعراء وأحلت على الكتب التي ترجمت لهم.

وقد اعترضتني صعوبات كثيرة في التعرف على قائلي بعض أبيات غير مشهورة أوردها المؤلف عرضاً، ولكن وقع تجاوزها ــ والحمد لله ــ بالرجوع إلى المصنفات الكثيرة في هذا الفن.

ــ ترجمت لغير المشهورين من الأعلام، وأحلت على الكتب التي ترجمت لهم مع ذكر الجزء والصفحة.

ــ عرفت بالفرق والأماكن والوقائع وكل ما احتاج إلى تعريف.

ــ تتبّعت نقول المؤلف وإحالاته على كتب التفسير والحديث واللغة وضبطت مواقعها في كتبها ليتسنى للقارىء الرجوع إليها.

ــ عملت على التنبيه إلى ما كتبه النساخ بالهامش، مع التنبيه إلى اختلاف الخط إن حصل ذلك، وهل أن ذلك من أصل النص أو غريب عنه.

شرحت بعض الألفاظ الصعبة بالرجوع إلى معاجم اللغة المشهورة وخاصة لسان العرب فمن ذلك ما ورد بالتحقيق ص 225.

مفتاح الإشارات والرموز:

ن : متبوعة برقم رمز لإحدى النسخ الأربع.

ن 1: أقدم النسخ وهي نسخة مكتبة الشهيد علي باشا، نسخت في القرن الثامن.

ن 2: نسخة مكتبة مراد ملا: نسخت سنة 842هـ.

ن 3: نسخة مكتبة الأسكوريال، نسخت سنة 947هـ.

ن 4: نسخة المكتبة الوطنية بتونس، نسخت سنة 1037هـ.

( ): حصرت بهما ما سقط من إحدى النسخ أو خالفت فيه غيرها.

غ : إشارة إلى أن الآية من مغفلات الخطيب الإسكافي في درة التنزيل وهي من وضع المؤلف وقد أشار إليها بالمقدمة.

﴿ ﴾: حصرت بها الآيات القرآنية الشريفة.

« »: حصرت بها الأحاديث والآثار تمييزاً لها عن غيرها.

/ : خط مائل: فصلت به بين الرقم المشير إلى جزء الكتاب وبين الرقم المشير إلى الصفحة أو بين التاريخ الهجري والتاريخ الميلادي.

سقط من: عبارة دالة على أن المحصور بين حاصرتين ساقط من النسخة المرموز إليها.

بهامش: عبارة دالة على أن المحصور بحاصرتين كتبه الناسخ بالهامش.

(ص) اختصار كلمة صفحة.

(ط) اختصار كلمة طبعة.

(ج) اختصار كلمة جزء.

* * *

وعلى هذا المنهج ووفق هذه الرموز تم بعون الله تحقيق الكتاب.
ولقد حرصت كل الحرص على أن يكون عملي في المستوى المرضي، سليمًا ـ قدر الإمكان ـ من النقائض، ولا أدّعي أبداً أنّي بلغت فيه الكمال فالكمال لله وحده، وما أوتينا من العلم الا قليلاً.

ولقد رأيت من المجدي أن أتوج هذا العمل بإلقاء بعض الأضواء على ملاك التأويل، أبرز من خلالها قيمة هذا الكتاب. وقدمت لذلك بلمحة عن متشابه القرآن، عرفت فيها بهذا الفن، وبمن ألف فيه إلى عصر ابن الزبير. وتطرّقت من خلال ذلك إلى بيان موضوع الكتاب والغاية من تأليفه، ثم إلى توضيح الخطوط العامة للمنهج الذي رسمه المؤلف لعمله في المقدمة، ومدى التزامه به في إنجازه لهذا العمل، وفي هذا النطاق ضبطت أهم العلوم والوسائل التي استعان بها ابن الزبير على تحقيق المراد وبلوغ الغاية المنشودة، ومدى اعتماده عليها واستغلاله لها: من معرفة بالقرآن والسنة، وعلوم لغوية، وقراءات، وأسباب نزول، وفقه، وقواعد أصولية... وغيرها.

ـ وحملني كل ذلك على عقد مقارنة بين ملاك التأويل وبين درة التنزيل للإسكافي التي حذا ابن الزبير حذوها وكانت له أهم حافز على تأليف كتابه، فكانت مقارنة من جهة الموضوع والغاية والكم والكيف، تجلت من خلالها مميزات ملاك التأويل، وقيمته الحقيقية، والمكانة التي يمكن أن يحتلها بين ما صنف في علم المتشابه.

المصادر والمراجع المعتمدة في التحقيق:

اعتمدت في إنجاز عملي مصادر ومراجع متعددة في فنون شتى، تنحصر عموماً في المحاور التالية:

1 ـ القرآن وعلومه:

إن كتاب ملاك التأويل قد صنفه ابن الزبير في توجيه متشابه القرآن.

وأشار المؤلف في المقدمة أن علم المتشابه علم جليل لم يقرع بابه قبله أحد إلّا ما كان من الخطيب الإسكافي في درة التنزيل، فاستلزم ذلك التعريف بهذا العلم وتتبعته في مصنفات السابقين إلى عهد ابن الزبير، ورجعت في ذلك إلى الكثير مما صنف في علوم القرآن قديماً وحديثاً، فلم أعثر على دراسات ذات بال إذا استثنيت ما أورده الزركشي في البرهان(1) والسيوطي في الإتقان(2). ولقد كثر في هذا المصنف ورود الآيات القرآنية وترددها، ولا يكاد يخلو سطر من سطوره من ذكر آية قرآنية أو تلميح لها أو إحالة عليها، واستوجب تخريجها بذل مجهود كبير وصرف وقت طويل رغم ما يتسم به هذا العمل من آلية.

كما كثر فيه التعرض إلى القراءات، وقد اعتمدت في تحرير مسائلها وبيان أوجهها على «التيسير» لأبي عمرو الداني «والنشر في القراءات العشر» لابن الجزري و«حجة القراءات» لابن زنجلة.

وكان اعتمادي في تحرير ما تعلق بأسباب النزول على كتاب الواحدي النيسابوري وعلى «لباب النقول في أسباب النزول» للسيوطي، واستعنت على ما لم يتعرضا إليه بكتب التفسير بالمأثور وخاصة «جامع البيان» للطبري أو كتب السيرة والتراجم «كسيرة ابن هشام» و«الإصابة».

---

(1) البرهان للزركشي 112/1، الطبعة الأولى، دار احياء الكتب العربية، 1957.

(2) الإتقان للسيوطي 194/2، الطبعة الثالثة، القاهرة 1941.

أما عن استشهاد ابن الزبير بآراء المفسرين وإحالاته على كتبهم فقد كانت في أغلبها ــ إن لم أقل كلها ــ منصرفة إلى مفسرين مشهورين وتفاسير معروفة، كالطبري في جامع البيان، والإسكافي في درة التنزيل، والزمخشري في الكشاف، والرازي في مفاتيح الغيب، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن وغيرهم وقد اعتمدت على هذه التفاسير في تخريج نقول المؤلف والتثبت من صحتها.

وقد استعنت في هذا المجال بتنوير المقباس من تفسير ابن عباس وتفسير مجاهد وبأبواب التفسير في كتب السنة إذ كثيراً ما يستشهد المؤلف بأحاديث وآثار في التفسير.

2 ــ السنة والآثار:

ورد في ملاك التأويل ذكر الكثير من الأحاديث والآثار، وقد عدت في تخريجها إلى الصحاح، واستعنت على ذلك بالمعجم المفهرس لألفاظ الحديث فقدم لي في هذا المجال خدمة جليلة، غير أني كثيراً ما وجدت نفسي أمام أحاديث وآثار لا ذكر لها في هذا المعجم، أوردها المؤلف خالية من السند أحياناً، ومروية بالمعنى أحياناً أخرى، رجعت في تخريجها إلى كتب التفسير بالمأثور وإلى كتب السير والمغازي كجامع البيان للطبري وسيرة ابن هشام. واعتمدت في تبين المعنى على بعض شروح الصحاح كشرح النووي على صحيح مسلم وعارضه الأحوذي بشرح صحيح الترمذي للمالكي، كما استعنت في تبين علوم الحديث بمقدمة ابن القلاح بشرح الزين العراقي وبمرجع حديث هو كتاب: علوم الحديث ومصطلحه لصبحي الصالح.

3 ــ اللغة وفنونها:

ابن الزبير إمام في اللغة وكتابه ملاك التأويل كنز لغوي ثمين، كثر فيه الاستشهاد بالشعر والأمثال والأقوال المشهورة من كلام العرب، فحملني كل هذا في مناسبات عديدة إلى جولات شيقة بين كتب اللغة

والدواوين الشعرية ومجامع الأمثال والمعاجم. وقد كان دليلاي المفيدان في تخريج كل ما ذكرت: معجم شواهد العربية لعبد السلام محمد هارون، وفهرس شواهد سيبوية لأحمد راتب النفاخ، وكان أهم ما اعتمدته من المصادر: كتاب سيبوية، وقد تعددت إحالات المؤلف عليه وكثر استشهاده بشواهده من شعر ونثر. كما اعتمدت المجامع والدواوين الشعرية كالجمهرة لأبي الخطاب القرشي، وديوان الحماسة لأبي تمام والشعر والشعراء لابن قتيبة، ومعجم الشعراء للمرزباني. ومجمع الأمثال للميداني ودواوين شعرية كثيرة. غير أن المؤلف كثيراً ما يستشهد بأبيات شعرية أو أمثال وأقوال غير مشهورة يصعب تخريجها، ولكن ــ والحمد لله ــ وقع تخريج جلها ــ ان لم أقل كلها ــ بتتبعها في دواوين الشعراء وكتب التراجم والأخبار.

وقد كان للسان العرب لابن منظور دوره الفعال في عملي خاصة في تذليل ما اعترض سبيلي من صعوبات لغوية وردت في كلام المؤلف أو فيما استشهد به من شعر ونثر.

4 ــ التاريخ والتراجم:

اعتمدت كتب التاريخ والتراجم لغرضين أساسيين: اعتمدتها أولاً في المدخل الذي صدرت به هذا التحقيق، وبالتحديد في دراسة الوضع السياسي والفكري في عصر ابن الزبير، ثم في ضبط ترجمة المؤلف وما تبعها من بيان لخصائص المؤلف وشيوخه وتلاميذه ومؤلفاته.

واعتمدتها ثانياً في التعريف بما ورد ذكره في ملاك التأويل من أعلام وأحداث تاريخية.

فمن جهة الغرض الأول كانت المصادر والمراجع التي يمكن الاعتماد عليها في بيان خصائص الوضع السياسي والفكري لعصر ابن الزبير قليلة والمعلومات عن هذه الفترة الممتدة من انحدار دولة الموحّدين إلى ظهور مملكة غرناطة وازدهارها معلومات مشتتة في مصادر كثيرة، وأهم هاته

المصادر: تاريخ ابن خلدون، والإحاطة لابن الخطيب، وكتب التراجم الأندلسية كالتكملة لابن الآبار، والذيل والتكملة لابن عبد الملك، وصلة الصلة لابن الزبير، وقد استعنت على هذا بمراجع معاصرة منها: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين لمحمد عبد الله عنان، والمجمل في تاريخ الأندلس لعبد الحميد العبادي. أما كتب التراجم التي اعتمدتها في ضبط ترجمة المؤلف فكانت كثيرة تزيد عن عشرين، ولئن كانت في أغلبها تنقل عن بعضها فقد أفادتني كثيراً في التعرف على شخصية ابن الزبير ومكنتني من ضبط ترجمة وافية مستفيضة تتناول كل جوانب حياته، تليق بمكانته العلمية الجليلة، وأوفى هذه الكتب ترجمة لابن الزبير: الذيل والتكملة لابن عبد الملك الأنصاري والإحاطة لابن الخطيب، وأغلب من ترجم له ينقل عنهما. وأما من جهة الغرض الثاني فقد تطلب مني التعريف بالأعلام والأحداث التاريخية الرجوع إلى العديد من كتب التراجم وكتب السير. وقد تمكنت ــ بعون الله ــ من الترجمة لكل من ورد ذكره في ملاك التأويل من الأعلام وكان في حاجة إلى التعريف.

5 ــ الملل والنحل:

عرف ابن الزبير بتصديه لأهل الأهواء والبدع وشدته على أصحاب الملل، وفي هذا السياق يندرج ما ورد في ملاك التأويل من ردود كثيرة عليهم. وقد حرصت على التعريف بهذه الفرق والملل والنحل وإحالة القارىء على المصادر والمراجع التي تمكنه من معرفتها أكثر. وقد اعتمدت في هذا خاصة كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ثم كتاب الملل والنحل للشهرستاني.

التعريف بالمخطوطات المعتمدة في التحقيق:

□ **النسخة الأولى (ن 1):**

مصدرها معهد إحياء المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية بمصر عن نسخة مصورة (مكروفيلم) تحت رقم: 259 بتاريخ 1969 عن مخطوطة بمكتبة الوزير الشهيد علي باشا (1815 ــ 1871) تحت رقم 168، وعلى الصفحة الأولى منها ختم بوقفها جاء فيه «مما وقفه الوزير الشهيد علي باشا، رحمه الله، تعالى بشرط أن لا تخرج من خزانته»، ويرجع تاريخ نسخها إلى القرن الثامن (1)، وأما الناسخ فهو مجهول لحد الآن، وقد كتبت بخط مغربي أندلسي يقل وضوحه أحياناً، وبلغ عدد أوراقها 207 من الأوراق، ومقاس الصفحة 29,7 سم × 22 سم وهي تشتمل على 25 سطراً ـ وهذه المخطوطة على حالة حسنة عموماً.

ملاحظات عامة حول هذه النسخة:

1 ــ ورد بها أحياناً بعض مواطن نقص، وقع التنبيه إليها في التحقيق، وقد وقع تداركها وسددت من النسخ الأخرى بما لايدع مجالاً للشك في إتمام النقص المشار إليه باستثناء ما ورد في النسخ الأربع وحجم هذا النقص لا يؤثر في قيمة المخطوط ولا يتكرر إلا نادراً. وسعيت اجتهاداً إلى سده وأثبت ذلك في الهامش تاركاً الأصل على ما هو عليه مراعاة للأمانة.

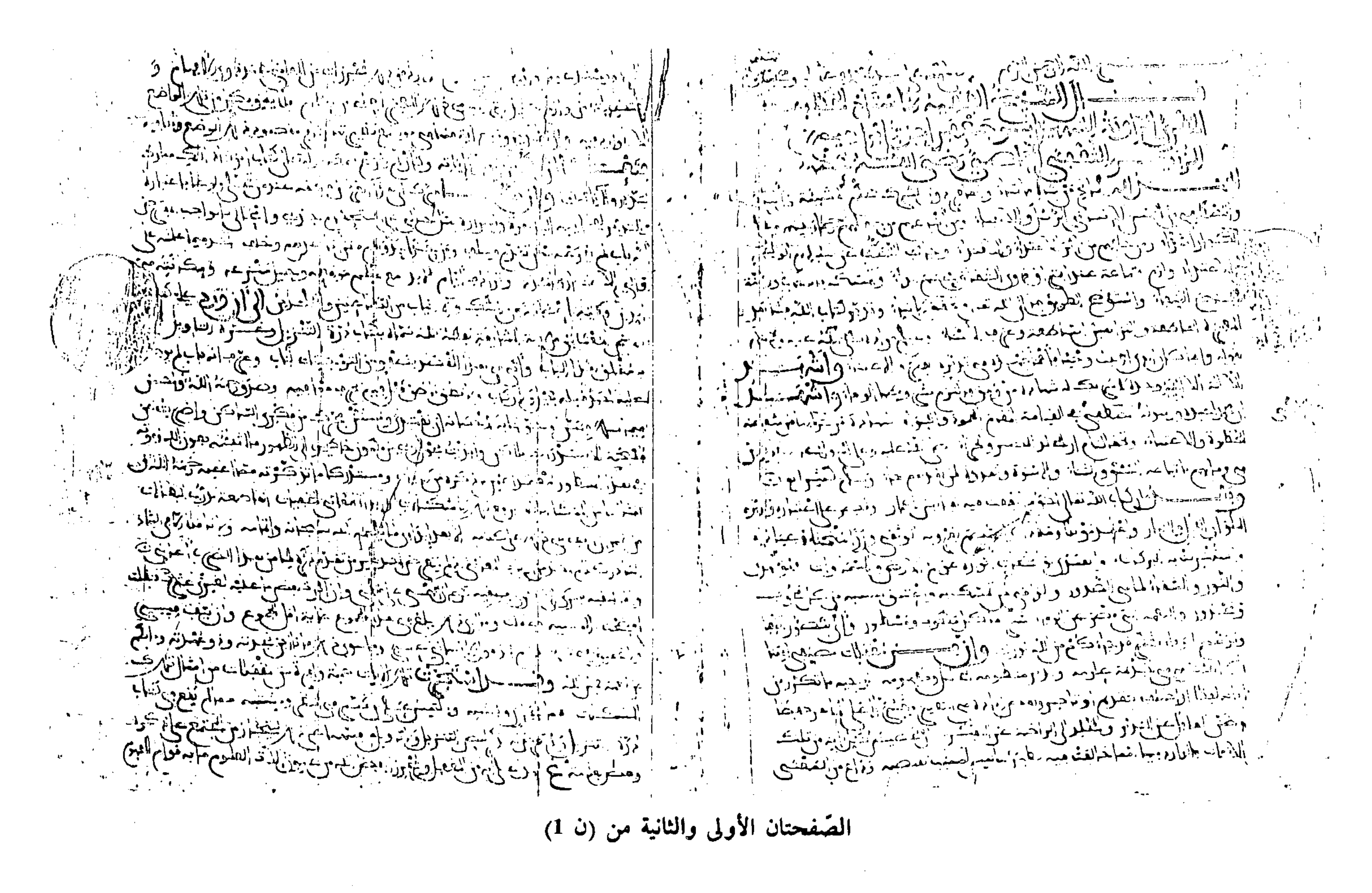
2 ــ ثم هي أقدم النسخ الأربع إذ كان نسخها في القرن الثامن تقريباً وهو القرن الذي توفي فيه ابن الزبير. وقد كتبت فيها بخط بارز أسماء السور وترتيب الآيات والأسئلة والأجوبة وبداية أمهات المسائل، ويبدو من هذا كله أن ناسخها عالم بموضوعه، ملم به.

---

(1) كذا جاء في فهرس المخطوطات المصورة بمعهد إحياء المخطوطات 47/1. أما النسخة ذاتها فلا تحمل تاريخ نسخها.

3 ـ لهذا وقع اعتمادها في التحقيق كأصل لقدمها وقربها من عصر المؤلف ولقلة أخطائها ومع ذلك فقد قوبلت بالنسخ الأخرى. ولما كانت بعض صفحاتها مطموسة بفعل الرطوبة، فإني وجدت صعوبة في قراءتها أحياناً، لكن أمكن التغلب عليها بالمقارنة.

ـ وفيما يلي صورة للصفحتين الأوليين من المخطوطة وصورة للصفحة الأخيرة.



الصّفحتان الأولى والثانية من (ن 1)

الصفحة الأخيرة من (ن 1)

□ **النسخة الثانية (ن 2):**

مصدرها معهد إحياء المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية بمصر عن نسخة مصورة (مكروفيلم) تحت رقم: 260 عن مخطوطة بمكتبة مراد ملا تحت رقم 308. ويعود تاريخ نسخها إلى سنة 842هـ، وقد جاء في آخر الصفحة الأخيرة: «ووافق الفراغ منها آذان العصر يوم الثلاثاء تاسع عشر جمادى الأول من شهور سنة اثنتين وأربعين وثمان مائة». وقد تولى نسخها بخط نسخ نفيس محمد بن محمد بن محمد البكري الشافعي في 238 ورقة من مقاس 28 سم × 13 سم، وضمن كل صفحة منها 25 سطراً. وهي عموماً في حالة حسنة.

ملاحظات عامة حول هذه النسخة:

1 ــ كتب على الوجه الأول من الورقة الأولى بخط مغاير ترجمة المؤلف منقولة عن بغية الوعاة للسيوطي.

2 ــ وبالنسخة بعض مواطن نقص وقع التنبيه إليها في الهامش، وقد وقع تداركها وتسديدها بالمقارنة مع النسخ الأخرى إلا ما كان منها متواجداً في كل النسخ، وقد حرصت على استنتاج هذا النقص من السياق وإثباته بالهامش تاركاً الأصل على حالته الأولى مراعاة للأمانة.

3 ــ وقد كتب فيها بخط بارز أسماء السور وترتيب الآيات، وتميزت في جملتها بقلة أخطائها نسبيا.

ــ وفيما يلي صورة للصفحتين الأوليين من المخطوطة وصورة للصفحة الأخيرة.

الصفحتان الأولى والثانية من (ن 2)

الصفحة الأخيرة من (ن 2)

□ النسخة الثالثة (ن 3):

مصدر هذه النسخة مخطوطة الأسكوريال باسبانيا ضمن مجموع يحوي:

1 ـ كتاب ملاك التأويل لابن الزبير الثقفي.
2 ـ كتاب الاقتصاد في الاعتقاد للشيخ الإمام أبي حامد الغزالي.
3 ـ شرح البرهانية للشيخ الإمام زين الدين وحجة الإسلام أبي عبد الله ابن محمد بن أبي العباس أحمد بن عبد الله بن أحمد الأنصاري الأشبيلي المعروف بالخفاف.
4 ـ شرح العقيدة الكبرى لأبي عبد الله محمد بن أبي يعقوب بن يوسف السنوسي.

ويرجع تاريخ نسخها إلى سنة 947هـ. جاء بالصفحة الأخيرة منها: «كمل السفر الثاني بحمد الله وحسن عونه، وبتمامه تم جميع التأليف وذلك ليلة الأحد من تسع عشرة خلون من شعبان المعظم عام سبعة وأربعين وتسعمائة للهجرة. وقد نسخها بخط مغربي واضح أحمد بن محمد الفخار في 171 ورقة ضمن كل صفحة منها 30 سطراً. وهي في الجملة في حالة حسنة.

ملاحظات عامة:

1 ـ تميزت هذه النسخة بقلة مواطن النقص فيها فقد اعتمد عليها في إتمام ما نقص من النسخ الأخرى.

2 ـ وقد كانت أخطاء النسخ فيها كثيرة على درجة ملفتة للنظر وقد ظهر أثر ذلك في التحقيق إذ كثر التنبيه في الهامش إلى ما أسقطه الناسخ أو أخطأ فيه ويبدو من كل ذلك أن ناسخها كان على مستوى علمي ضعيف.

3 ـ وقد كتبت بخط من حجم واحد والنسخ فيها مسترسل يصعب معه تمييز بداية السور أو أرقام الآيات، واكتفي الناسخ بوضع علامة خاصة (سَ) بالهامش عند بداية كل سورة.

ـ وفيما يلي صورة للصفحتين الأوليين من هذه المخطوطة وصورة للصفحتين الأخيرتين.

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله

الصفحة الأولى والصفحة الثانية من (ن 3)

الصفحتان الأخيرتان من (ن 3)

□ النسخة الرابعة (ن 4):

إن مصدر هذه النسخة المكتبة الوطنية بالجمهورية التونسية وهي بها تحت رقم 05653، وهي من نفائس مخطوطات المكتبة العبدلية ويرجع تاريخ نسخها إلى سنة 7 103هـ، وقد جاء بالصفحة الأخيرة «وكان تمام كتابته ضحى يوم الأربعاء الثامن والعشرين من ربيع الثاني من عام سبعة وثلاثين وألف. وقد قام بنسخها محمد بن سعيد شادوا بخط مغربي واضح جميل في 262 ورقة من مقاس 28 × 21. وضمن الناسخ كل صفحة منها 21 سطراً وهي عموماً في حالة حسنة.

ملاحظات عامة حول هذه النسخة:

1 ـ كتب على الوجه الأول من الورقة الأولى للمخطوطة إسم الكتاب والمؤلف ثم نص تحبيس هذه المخطوطة من طرف الباشا علي باي على مدرسة «بسا باط عجم» قرب تربة والده القديمة بتاريخ أوائل محرم من عام ثمانية وثمانين ومائة وألف (1188هـ).

2 ـ اعتنى الناسخ بشكلها شكلاً كاملاً.

3 ـ كتبت أسماء السور وأرقام الآيات التي تناولها المؤلف ورؤوس المسائل بخط بارز.

4 ـ تعددت بها مواطن النقص وكثر فيها الخلل في النسخ بسقوط كلمات أو خطأ في الرسم أو تبديل كلمة بأخرى. ومما تجدر الإشارة إليه أن بها نقصاً كبيراً وقع التنبيه إليه أثناء التحقيق يمتد من سورة المؤمنين إلى الآية الأخيرة من سورة الطور والمتأمل في هامش التحقيق يتبين كثرة التنبيه إلى ما فيها من سقوط وأخطاء.

ـ وفيما يلي صورة للصفحة الأولى من المخطوطة وصورة للصفحة الأخيرة.

وآله وصحبه وسلم تسليما

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وعلى
قال الشيخ الفقيه الأستاذ الخطيب
المدرس بالزاوية الشهير أبو جعفر أحمد
ابن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي
رضي الله عنه

الحمد لله المانح من شاء ما شاءه، والغافر [illegible] والمنفرد بحكم
المشيئة لمن أساءه، والمصطفي من الجنس الإنساني الرسل
والأنبياء، ومن أتباعهم من جعلهم رحماء بينهم وعلى الكفار
أشداء، ومن خلفهم من أئمة الاهتداء والاقتداء، ومجانب
التنكب عن سبيلهم الواضحة والاعتداء، ولازم الجماعة عند
افتراق ذوي الشقاق فحسم الداء، وتمسك بالكتاب والسنة
ففيهما الشفاء، واستوضح الطريق بهما إلى الله تعالى وتفقه
الأنباء، وتدبر كتاب الله فشاهد المعجزة القاطعة
والبراهين الساطعة وعرف الأنباء، وعلم مراده صلى الله
عليه وسلم بقوله وإنما كان الذي أوتيته وحيا فأعمل جهده
في تدبره البكر والعشاء، وأشهد أن لا إله إلا الله
وحده لا شريك له شهادة من وفى والتزم بشروطها
الوفاء، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله المخصوص
في القيامة بالمقام المحمود واللواء، شهادة نرجو بها من
شفاعته الحظوة والاجتباء، وتجعل الناطق بها [illegible]
صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الحائزين [illegible]
والثناء

الصفحة الأولى من (ن4)

الصفحة الأخيرة من (ن 4)

مدخل

المبحث الأول:

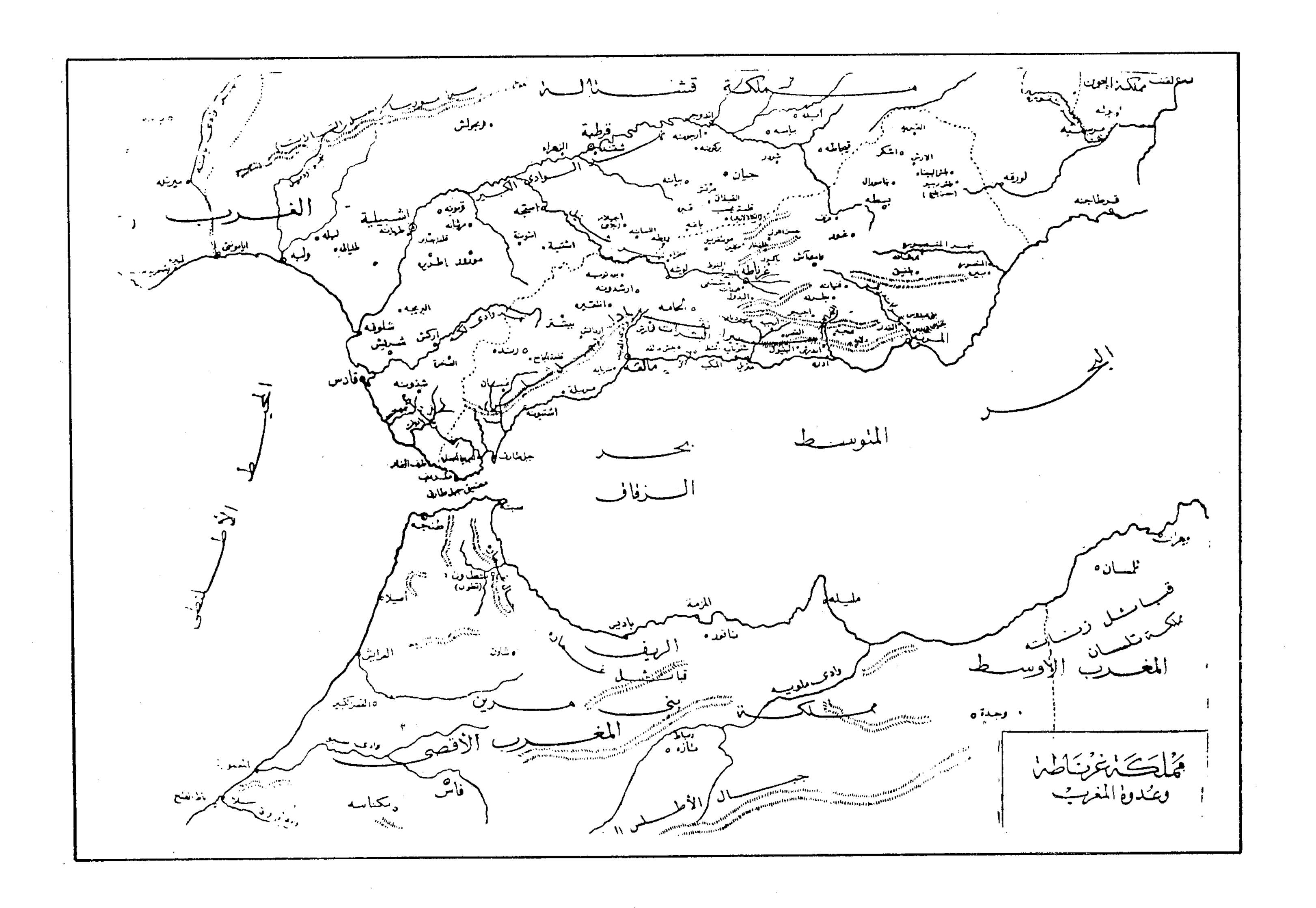
أضواء على عصر ابن الزبير: الوضع السياسي والفكري.

المبحث الثاني:

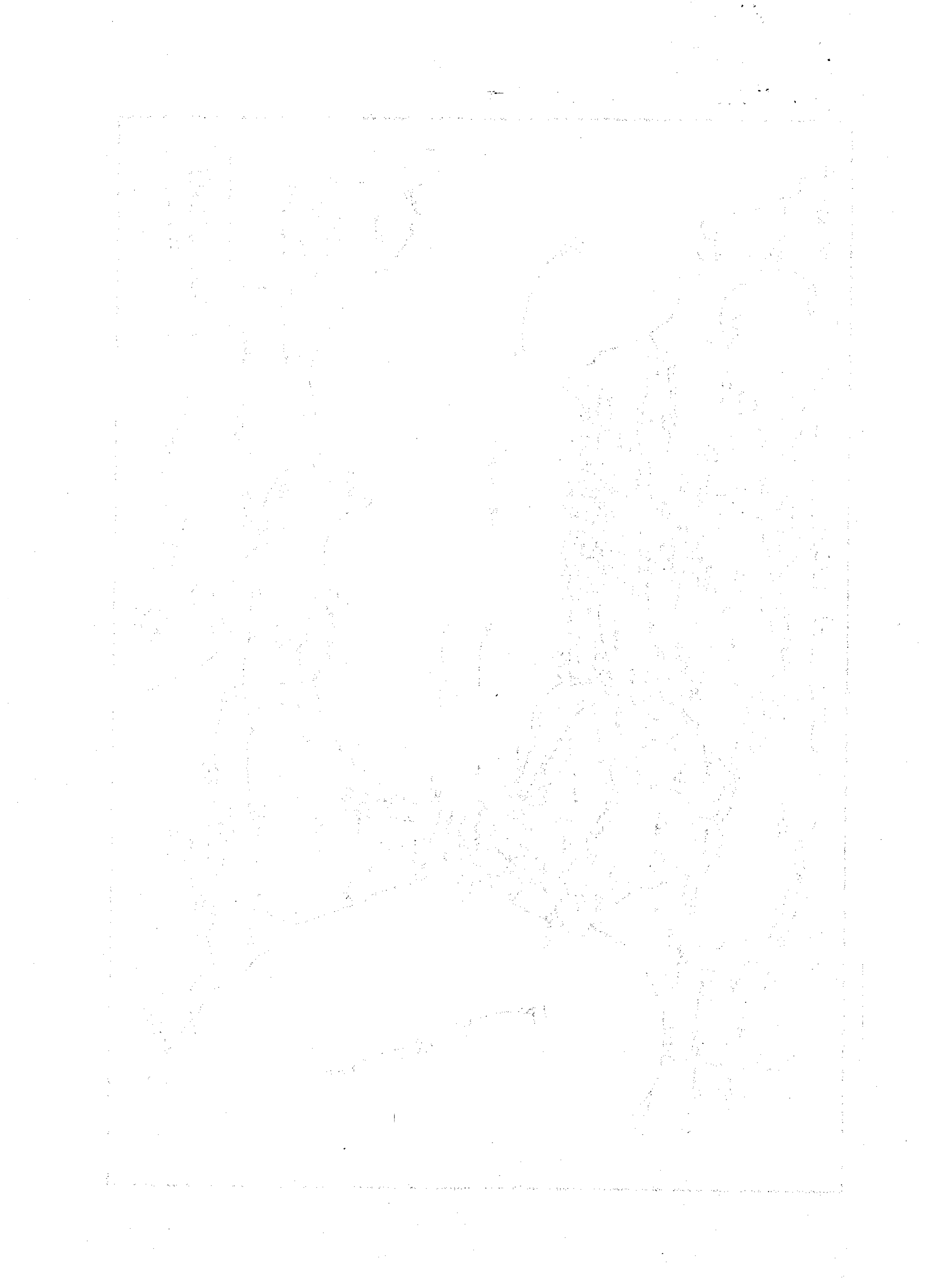
ترجمة المؤلف.

المبحث الثالث:

أضواء على ملاك التأويل.



مملكة غرناطة
وعدوة المغرب
مملكة قشتالة
البحر المتوسط
بحر الزقاق
المحيط الأطلنطي
الغرب
اشبيلية
قرطبة
حيان
غرناطة
مالقة
المرية
قادس
الوادي الكبير
سبتة
طنجة
فاس
مكناسة
مليلية
تلمسان
وجدة
مملكة بني مرين
المغرب الأقصى
المغرب الأوسط
مملكة تلمسان
قبائل زناتة
جبال الأطلس
الريف
بادس
وادي ملوية
مرسية
قرطاجنة
لورقة
رندة
جبل طارق



المبحث الأول

أضواء على عصر ابن الزبير

الوضع السياسي والفكري بالأندلس فيما بين أوائل القرن السابع الهجري وأوائل القرن الثامن

الوضع السياسي:

امتدت حياة ابن الزبير فيما بين أوائل القرن السابع الهجري وأوائل القرن الثامن، إذ كان مولده سنة 627هـ الموافق لسنة 1230م ووفاته سنة 708هـ الموافق لسنة 1308م. وتنقسم هذه المدة عموماً إلى عهدين سياسيين متمايزين: عهد ابن هود أو عهد ما قبل مملكة غرناطة، ثم عهد ظهور هذه المملكة أو عهد بني الأحمر.

(أ) عهد ابن هود:

يصادف ميلاد ابن الزبير ظهور ابن هود[1] ودعوته إلى تحرير الأندلس من سيطرة النصارى وتدخل الموحدين. وقد كانت شبه الجزيرة الأندلسية يومها تتجاذبها أطماع مملكتي «قشتالة» و«أراجون» النصرانيتين[2] من جهة وتدخلات الموحدين من جهة أخرى. وكان حكام الأندلس المسلمون يميلون إلى هذا الشق مرة وإلى ذاك الشق أخرى.

---

(1) ابن هود: هو محمد بن يوسف بن هود الملقب بالمتوكل، من أعقاب بني هود من ملوك الطوائف، ثار على الموحدين ثم تنازع مع ابن الأحمر رئاسة الأندلس توفي سنة 635هـ (ابن خلدون: العبر 536/3، 168/4 ــ الأعلام 23/8).

(2) مملكتان نصرانيتان سيطرتا على أغلب مناطق الأندلس، جرت بينهما وبين المسلمين وقائع عديدة (يقع الرجوع لتحديد موقعهما إلى الخريطة المصاحبة للبحث).

ظهر ابن هود فانضم إليه الأندلسيون أملاً في أن يكون على يديه خلاصهم وتحرير بلادهم وإعادة مجدهم، وكان ابن هود تحدوه نفس الآمال، فقد سعى دائمًا إلى تحرير البلاد وجمع شتات أهلها، وشعر بخطورة الموقف فعمل على كسب سند قوي يؤازره ويساعده على تحقيق أهدافه، فدعا إلى المستنصر الخليفة العباسي ببغداد، ولقب نفسه بالمتوكل على الله، وانضم إليه الكثير من القواعد الإسلامية كقرطبة وماردة وجيان[1] فقويت شوكته، وازداد قوة بانتزاع غرناطة القلعة الكبيرة بجنوب الأندلس من الموحدين سنة 628 هـ رغم استعانتهم بالنصارى[2].

ولعل الذي رفع من شأن ابن هود لدى الأندلسيين ظهوره في وقت كان فيه سلطان الموحدين بالأندلس يتقلص ويدنو شيئاً فشيئاً من نهايته، ففي سنة 629 هـ توفي المأمون ملك الموحدين[3] وهو في طريق العودة إلى مراكش لقمع ما ثار هناك من فتن وثورات، وتواصلت بعده الفتن، وعمت الفوضى بلاد المغرب في ظل حكام ضعاف، فانهار سلطان الموحدين سنة 668 هـ، وقامت على أنقاضه دولة بني مرين[4].

عزم ابن هود على مواجهة النصارى والموحدين، وتطهير الأندلس منهم، فخاض ضدهم معارك متعددة، بدأ بمواجهة ملك «قشتالة» فكانت بداية قاسية، إذ انتهت المعركة لصالح النصارى، وخسر ابن هود قلعتي

(1) يقع الرجوع إلى الخريطة لتحديد مواقع المدن والقلاع والأماكن.

(2) عن كتاب نهاية الأندلس لمحمد عبد الله عنان، ص 22-23، الطبعة الأولى، القاهرة 1949.

(3) المأمون ملك موحدي: هو ادريس بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الملقب بالمأمون من خلفاء دولة الموحدين بمراكش، عرف بشجاعته وعلمه، استعان بالنصارى وأدخلهم إلى بلاد المغرب، عرف عهده بعدم الاستقرار، توفي سنة 629هـ (الإحاطة 247/1 ــ الأعلام 269/1).

(4) نهاية الأندلس، ص 23.

«ماردة» و «بطليوس»، ولكن رغم انهزامه بقي ملك «قشتالة» يخشاه ويرى فيه زعيم الأندلس الخطير. واستغل «فرديناند»[1] فرصة ظهور بعض الفتن في صفوف المسلمين فسير قواته لمقاتلة ابن هود، وكان هذا الأخير يبسط نفوذه في تلك الآونة على أهم مناطق الجنوب فيما بين «الجزيرة الخضراء» وبلدة «المرية» وفيما بين «قرطبة» و «غرناطة». والتقى ابن هود بالنصارى في جيش كبير ولكن هزم مرة أخرى رغم تفوقه العددي سنة 630هـ[2].

وإن مما يزيد من خطورة المأساة الأندلسية، أن يترك حكام الأندلس المسلمون عدوهم المشترك المتمثل في النصارى ويواجهوا بعضهم، من ذلك أن ابن هود جمع قواته واستجمع شتاته بعد هزيمته أمام النصارى وسار لمواجهة منافس جديد هو محمد بن الأحمر[3] بـ «غرناطة». واغتنم النصارى الفرصة وهاجموا «قرطبة» واحتلوا بعض قلاعها واستنجد أهلها بابن هود، فعمل على نجدتهم، ولكنه تراجع لما علم بتفوق النصارى عدداً وعدة، وفي الآن نفسه هاجم «جايم» ملك «أراجون» النصرانية مدينة «بلنسية» فاستنجدت هي الأخرى بابن هود، فهب لنجدتها، وترك قرطبة تواجه مصيرها المحتوم بمفردها، وسقطت قرطبة في أيدي النصارى سنة 633هـ فاهتزت لسقوطها بلاد الأندلس وسائر البلاد الإسلامية[4].

□ موت ابن هود واشتداد أمر النصارى:

في سنة 635هـ مات ابن هود، فتبخرت آمال الأندلسيين، ووجد النصارى الفرصة سانحة، فوسعوا من حملاتهم، من ذلك أن «جايم» ملك

---

(1) هو ملك قشتالة في عهد ابن هود.

(2) نهاية الأندلس، ص 23.

(3) محمد بن الأحمر: هو محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي المعروف بابن الأحمر، سليل بني نصر يرجعون في نسبهم إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج (ابن خلدون: العبر 170/4، طبعة بولاق ـ الإحاطة 59/2).

(4) ابن خلدون: العبر 169/4-183؛ نفح الطيب 585/2، وفيه سقطت قرطبة سنة 636هـ.

«أراجون» غزا مدينة «بلنسية» سنة 636هـ وضمها إلى الجزائر الشرقية (جزر البليار) التي كان استولى عليها سنة 627هـ، وواصل زحفه، فاستولى على بلدتي «شاطبة» و«دانية» سنة 638هـ. وفي سنة 645هـ استولى القشتاليون على «مرسية»، وبذلك تمت للنصارى سيطرتهم على شرق الأندلس[1].

(ب) عهد مملكة غرناطة:

□ ظهور ابن الأحمر وتركيز مملكة غرناطة:

ضعف أمر الموحدين بالأندلس، وازداد ضعفاً بخروج محمد بن يوسف بن هود عليهم وخروج قواعد الأندلس من قبضتهم إلى ابن هود تارة وإلى النصارى تارة أخرى. وفي هذا الظرف بالذات ظهر ابن الأحمر محمد بن يوسف النصري كعنصر جديد في حلبة الصراع. وكان ظهوره في مناطق وسط البلاد الأندلسية، وسرعان ما بسط نفوذه على حصون وقلاع كثيرة رغم معارضة ابن هود، وقد انضمت إليه مدينتا «بياشة» و«وادي آش»، وقوي أمره فامتد نفوذه إلى القواعد والثغور الجنوبية، ففتح الكثير منها، مستعيناً في ذلك بأبي زكرياء الحفصي[2] صاحب إفريقية، وقد انضمت إليه مدن «قرمونة» و«قرطبة» و«إشبيلية» وأطاعته «جيان» و«شريش» و«مالقة» وحصون أخرى كثيرة بينما بقي غرب الأندلس مستقلاً تحت نفوذ أمراء الموحدين.

كان ابن الأحمر على غرار ابن هود أمل الكثير من الأندلسيين في إنقاذ البلاد واستعادة المجد الضائع وخاصة أمل أولئك الذين فروا من المدن الإسلامية الكثيرة التي سقطت في أيدي النصارى الغزاة، وقد ازداد الأندلسيون تعلقاً بابن الأحمر بعد وفاة ابن هود أملهم الضائع.

---

(1) نهاية الأندلس، ص 26.

(2) أبو زكرياء الحفصي: يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاني الحفصي أبو زكرياء أول ملوك الدولة الحفصية بتونس، توفي سنة 647هـ (فوات الوفيات 321/2؛ ابن خلدون: العبر 280/6-285).

ولما بسط ابن هود سلطانه على الغرب والجنوب وتم له أخذ «غرناطة» قوي أمره، فعمل ابن الأحمر على مهادنته ومصانعته فانضم تحت لوائه وبقي يتحين الفرصة للإيقاع به. ولم تطل المواجهة بين الرجلين إذ توفي ابن هود في أوائل سنة 635هـ[1]. ووجد ابن الأحمر الفرصة سانحة لبسط نفوذه.

وصادف أن ثار أهل غرناطة على أميرهم عتبة بن يحيى المغيلبي ــ وكان خصمًا لدوداً لابن الأحمر ــ ثاروا عليه وقتلوه وأعلنوا ولاءهم لابن الأحمر الذي دخل «غرناطة» سنة 635هـ وجعل منها مقر حكمه. ولم يمض وقت طويل حتى امتد سلطانه إلى كل الشواطىء الجنوبية لبلاد الأندلس.

وكان من أعوان ابن الأحمر فيما حققه من انتصارات أصهاره «بنو أشقيلولة»[2] وعلى رأسهم أبو الحسن ابن أشقيلولة من رجالات الأندلس وزعمائها وقت الفتنة ومن ألد خصوم ابن هود. ولما استقر الأمر لابن الأحمر جعل صهره أبا الحسن ــ زوج أخته ــ حاكمًا على «وادي آش»، وانتدب أبا محمد بن أبي الحسن ــ زوج ابنته ــ لحكم «مالقة»، ومات أبو الحسن فخلفه في الحكم ابنه أبو اسحاق، وهكذا تمكن نفوذ بني أشقيلولة بمرور الأيام وصاروا العضد الأيمن لابن الأحمر، ولكن سريعاً ما ظهرت أطماعهم في الحكم، وخاب ظن ابن الأحمر فيهم[3].

ومن خلال هذا الوضع المتردي الذي ساد الأندلس عقب انهيار دولة الموحدين ظهرت إمارة غرناطة. فكان لزاماً على باعثها محمد بن يوسف أن يصمد أمام الصعاب الكثيرة التي تعترض سبيله، وأن يواجه ما تعيشه البلاد الأندلسية من تشتت وانقسام، فقد مزقتها الحروب الأهلية شيعاً،

---

(1) نهاية الأندلس، ص 28؛ ابن خلدون: العبر 190/7.

(2) بنوا شقيلولة: أسرة أندلسية قوية نابهة من المولدين كانوا أصهاراً لبني نصر حكموا الكثير من القواعد وقاموا بعدة ثورات واستقلوا خلال ذلك بعدة مدن وثغور.

(3) ابن خلدون: العبر 197/7.

وتعددت الحكومات ومناطق النفوذ. ولعل الذي قوى من عزيمة ابن الأحمر وشد من أزره تأييد شعب جنوب البلاد له واعتباره المنقذ المنتظر.

وإذا كان الشعب قد آثر الوقوف إلى جانب ابن الأحمر فإن الحكام قد تأصلت فيهم روح التفرقة والعداء، وآثر الكثير منهم الانضواء تحت سلطان النصارى مقابل الاحتفاظ في ظله بملكهم، ووصل الأمر بحكام مدن «مرسية» و«لقنت» و«أريولة» و«قرطاجنة» و«جنجالة» وغيرها إلى عقد صلح وتحالف مع ملك «قشتالة»، يحتفظون بموجبه بنفوذهم على مناطقهم مقابل إعلان الطاعة للنصارى ودفع الجزية لهم. ونتيجة لكل ذلك سقطت «مرسية» في يد النصارى ودخلها «الفونسو»[1] سنة 641هـ[2].

وهكذا يضحي أبناء الأمة الواحدة بأقدس الروابط والمبادىء في سبيل المصالح الشخصية والأطماع، وكم كان أجدر بهؤلاء أن يتخلوا عن الفرقة والعداوة وأن يواجهوا النصارى عدوهم المشترك.

□ المواجهة بين مملكة غرناطة والنصارى:

كان كل من الطرفين يتوجس خيفة من الثاني ويرى فيه الخصم اللدود. وما إن استقر الأمر لابن الأحمر حتى بدأ في تنفيذ مخططه المتمثل في كسر شوكة النصارى ودحرهم. وبدأ بمحاصرة قلعة «مرطوش» سنة 636هـ ولكنه اضطر إلى رفع الحصار عنها عند تكاثر مدد النصارى، واشتبك مع أعدائه فكان النصر حليفه، وازداد بذلك تخوف النصارى منه، واشتدت رغبتهم في منازلته والقضاء عليه. وما إن انتهى «فرديناند الثالث» من فرض سيطرته على الثغور الشرقية واستيلائه على «مرسية» حتى بعث بآبنه «الفونسو» في جيش كبير لمهاجمة ابن الأحمر وتمكن الفونسو من الاستيلاء

---

(1) الفونسو: هو ابن فرديناند الثالث ملك قشتالة وقائد جيوشه.

(2) نهاية الأندلس، ص 30.

على عدة حصون وقلاع، وحاصر «غرناطة» سنة 642هـ ولكنه رد عنها متكبداً أفدح الخسائر. وفي سنة 643هـ حاصر النصارى «جيان» وكادت أن تسقط بأيديهم[1].

ولمس ابن الأحمر تفوق قوة النصارى، وظهر له تخاذل المقاومة وضعفها، فآثر مصانعة ومهادنة ملك «قشتالة» إلى حين. ففي سنة 643هـ الموافق لسنة 1245م قدم إليه طاعته واتفق معه على حكم أراضيه في ظله، فقبل منه «فرديناند» ذلك مقابل تضحيات وتنازلات كبيرة:

- يدفع ابن الأحمر للقشتاليين جزية سنوية ذات بال.
- يعينهم في حروبهم ضد الممالك الإسلامية الأخرى.
- يتنازل لهم عن بعض الحصون والقلاع عربون ولاء. وقد تنازل لهم عن حصن «بيغ» وقلعة «جابر» و«أرجونة» و«جيان» و«بركونة» و«الحجار» وأرض «الفرنتيرة»[2].

وفي مقابل هذه التضحية الجسيمة يشهد ابن الأحمر مجلس قشتالة النيابي (الكورتيس) كأمير تابع للعرش، ويهادنه النصارى مدة عشرين عاماً، ويقرونه على حكم ما بقي تحت نفوذه من القواعد والحصون.

ولم يكن حكام بقية القواعد الإسلامية في الأندلس أحسن حالاً من ابن الأحمر، فقد كانوا يتسابقون إلى مصانعة ملك قشتالة ومهادنته والتنازل له على القلاع والحصون مقابل كسب وده.

---

(1) في هذه السنة، غادرت أسرة ابن الزبير جيان. جاء في الإحاطة: خرج به أبوه عند تغلب العدو عليها ـ يعني جيان ـ عام ثلاثة وأربعين وستمائة (الإحاصة 188/1).

(2) الفرنتيرة: هي المنطقة الساحلية الواقعة غربي الجزيرة الخضراء والممتدة من ثغر «قادس» جنوباً حتى طرف الغار (راجع الخريطة).

تمت لاسبانيا النصرانية السيطرة على الولايات الشرقية ففكرت في مد نفوذها على المنطقة الغربية، وبدأت بالاستيلاء على «قرمونة» حصن «إشبيلية» الأمامي بمعاونة ابن الأحمر. وبتدخل هذا الأخير استسلمت بقية الحصون للقشتاليين حقناً لدماء المسلمين.

□ سقوط إشبيلية وانحسار دولة الإسلام بالأندلس:

في ربيع الثاني سنة 645هـ وفي أوت سنة 1247م شرع النصارى في حصار إشبيلية، وتمت لهم السيطرة على كل ما حولها من قلاع وحصون، وكان يعينهم في ذلك ابن الأحمر في نطاق تطبيق بنود المعاهدة المبرمة بينه وبين ملك قشتالة. ودافع أهل إشبيلية عن مدينتهم دفاعاً مستميتاً، وتواصل الحصار ما يزيد عن ثمانية عشر شهراً، أظهر أثناءه المسلمون أروع البطولات، ولكنهم اضطروا أخيراً إلى قبول الهزيمة، وسلموا إشبيلية إلى «فرديناند الثالث» في رمضان من سنة 646هـ على أن يؤمن لهم حياتهم وأموالهم وأن يترك لهم الاختيار بين البقاء بإشبيلية أو مغادرتها[1].

وبمجرد دخول النصارى إشبيلية حولوا مسجدها إلى كنيسة وأزالوا منها كل معالم الإسلام وشتتوا أهلها، فنزل أكثرهم بمدينة غرناطة.

ولقد كان سقوط إشبيلية محفزاً للنصارى على ضم مدن وحصون أخرى، فاستولوا على كل المدن والقلاع والحصون الواقعة فيما بين «إشبيلية» ومصب «الوادي الكبير». وهكذا أخذت رقعة الدولة الإسلامية بالأندلس تتقلص يوماً بعد يوم، والمؤسف في ذلك كله أن يشارك في انكماشها البعض من أبنائها. فقد كان موقف ابن الأحمر المساند للنصارى وموقف من احتذى حذوه من الحكام المسلمين موقفاً مؤلماً، على أن بعض المؤرخين يلتمسون له العذر، ويعتبرون ذلك منه خطة يرمي من ورائها إلى مصانعة النصارى ومهادنتهم حتى تتركز أسس مملكته الفتية ويصلب عودها وتسنح له الفرصة المناسبة لضرب النصارى الضربة القاضية.

---

(1) نهاية الأندلس، ص 33.

□ **ابن الأحمر يستعين بإخوانه في عدوة المغرب:**

رأى ابن الأحمر في ملوك العدوة ــ إخوانه في الدين ــ السند الذي يمكنه الاعتماد عليه للخروج من محنته ومواجهة أعدائه النصارى الذين يتزايد خطرهم يوماً بعد يوم. وكانت بلاد المغرب في تلك الفترة تعيش صراعاً بين البقية الباقية من دولة الموحدين المحتضرة وبين دولة بني مرين الناشئة. وكان الوضع لا يساعد على إنجاد الأندلس بصفة فعالة. غير أن ذلك لم يمنع من وصول كتائب من المجاهدين المتطوعين المغاربة، تبعه عبور القائد أبي معرف محمد بن أدريس ابن عبد الحق المريني سنة 662هـ في نحو ثلاثة آلاف مقاتل. واستطاع ابن الأحمر بإعانة المجاهدين الوافدين من العدوة أن يواجه النصارى عندما نقضوا عهدهم وغزوا أرضه سنة 660هـ، وأن يلحق بهم أول هزيمة بعد انهيار دولة الموحدين.

ولما وصل المرينيون إلى الأندلس بادروا بضرب النصارى واستطاع قائدهم الفارس عامر بن ادريس أن يفتك منهم مدينة «شريش»[1]، وكان كل هذا التحول في ميزان القوى مثيراً لتخوفات النصارى، وخشوا تواصل المدد من عدوة المغرب واشتداد شوكة ابن الأحمر، فعقدوا العزم على القضاء على ما بقي من القواعد الإسلامية وشددوا ضغطهم عليها. وفي سنة 663هـ هزموا قوات ابن الأحمر.

وازداد الضغط النصراني على ابن الأحمر فاضطر إلى مهادنتهم مرة أخرى، فتنازل لملك قشتالة في أواخر سنة 665هـ عن مدن وحصون كثيرة، وازداد بذلك الوطن الأندلسي انكماشاً حتى صار لا يتجاوز مملكة غرناطة الصغيرة[2].

---

(1) نهاية الأندلس، ص 35.

(2) نفس المصدر السابق، ص 36.

□ بين ابن الأحمر وأصهاره:

لا يهدأ الوضع لابن الأحمر من جهة أعدائه النصارى إلا ليثور بينه وبين أنصاره وأصهاره بني أشقيلولة. وكان ابن الأحمر قد زوج ابنته سنة 664هـ لابن عمه ووعده بولاية «مالقة» التي كان عليها زوج ابنته الأخرى فغضب هذا الأخير وأعلن العصيان والاستقلال. فخرج ابن الأحمر لإخضاعه وتأديبه، تعينه قوة من حلفائه النصارى، فارتدوا عن «مالقة» خائبين سنة 665هـ بعد حصار دام ثلاثة أشهر. وأعاد ابن الأحمر الكرة بمفردة سنة 663هـ، فلم يفلح.

واغتنم النصارى تدهور علاقة ابن الأحمر باصهاره فنقضوا عهدهم معه، وهجم ملك قشتالة على «الجزيرة الخضراء» وعاث فيها، مما اضطر ابن الأحمر إلى طلب النجدة والغوث من سلطان المغرب أمير المسلمين أبي يوسف المريني، ولكن الأجل وافى ابن الأحمر قبل أن يلمس نتيجة صرخته واستنجاده[1].

□ نهاية ابن الأحمر:

توفي محمد بن الأحمر في 29من جمادي الثانية سنة 671هـ، الموافق لسنة 1272م، وإليه يعود الفضل في تركيز مملكة غرناطة التي استطاعت على أيدي بني نصر أن تعيد شيئاً من مجد الأندلس الضائع، وتمكنت من الصمود في وجه النصارى زهاء قرنين ونصف[2].

وخلف ابن الأحمر في الملك ولده أبو عبد الله محمد بن محمد بن يوسف الملقب بالفقيه لعلمه وتقواه. وبمجرد توليه هب ملك قشتالة «الفونسو العاشر» إلى محاربته، ولم يكن محمد الفقيه بغافل عن الخطر الذي

---

(1) نهاية الأندلس، ص 38.

(2) نهاية الأندلس، ص 40.

يهدد ملكه، وكان أمله كبيراً في إخوانه المرينيين بالمغرب، فحسن علاقاته معهم.

◻ بين محمد الفقيه وبني مرين:

وصل خبر استنجاد ابن الأحمر إلى السلطان أبي يوسف وهو في طريقه إلى غزو تلمسان فاستوقفه هذا النداء، وعرض على يغمراسن صاحب تلمسان الصلح ليتمكن من نجدة الأندلس فلم يجد منه استعداداً، فقاتله وانتصر عليه(1) وعمل السلطان على نجدة إخوانه بالأندلس، ولكن الظروف لم تكن مساعدة على الإسراع بالنجدة، الأمر الذي حمل محمداً الفقيه على تكرير صرخة الاستنجاد بمجرد توليه الحكم. وتوالت رسل ابن الأحمر وبني أشقيلولة إلى أبي يوسف، فاستجاب لدعوتهم بعد أن عقد صلحاً مع صاحب تلمسان، وجهز لذلك جيشاً عظيًما في خمسة آلاف رجل بقيادة ابنه، فكان نزولهم بثغر «طريف» سنة 673هـ، ومن هناك كان توغلهم في أرض النصارى حتى «شريش» فسبوا وغنموا(2).

وفي أواخر سنة 674هـ عبر السلطان نفسه إلى الأندلس في جيش كبير، واهتزت الأندلس لعبوره، وأسرع لملاقاته كل من ابن الأحمر وبني أشقيلولة. وتوغل السلطان إلى منطقة «الفرنتيرة» النصرانية وأخضعها ثم واصل غزوه حتى وصل إلى حصن «المقورة» و«أبده» على مشارف «قرطبة».

وخرج النصارى في جيش كبير لملاقاة أبي يوسف وصده بقيادة «دون نني دي لارا» صهر ملك قشتالة، والتقى الجمعان قرب «استجة» سنة 674هـ، وكان النصر حليف المسلمين، وقتل قائد النصارى، وتشتت

---

(1) نهاية الأندلس، ص 73.

(2) نهاية الأندلس، ص 75.

جيشه، وكان نصراً عظيًا أعاد إلى الأذهان ذكريات وقائع المسلمين الكبرى[1].

وبعد مدة قضاها أبو يوسف «بالجزيرة الخضراء» في الراحة واستجماع القوى أعاد الكرة على النصارى، وتوغل غازياً في أراضي قشتالة حتى مشارف «إشبيلية»، وحاصر «شريش» وأخضعها. وفي رجب سنة 674هـ عاد السلطان المريني إلى المغرب، بعد خمسة أشهر قضاها بالأندلس في نجدة ونصرة إخوانه[2].

ولكن سرعان ما تعكر صفو العلاقة بين ابن الأحمر والسلطان أبي يوسف نتيجة لما ظهر من تحالف وتعاطف بين هذا الأخير وبين بني أشقيلولة». المنشقين عن ابن الأحمر. وارتاب محمد الفقيه من هذا التحالف، وحاول السلطان أبو يوسف المصالحة بين الطرفين فلم يفلح، وفي سنة 676هـ، زادت الأحداث من تأزم هذه العلاقة، إذ في هذه السنة بالذات توفي محمد بن أشقيلولة صاحب «مالقة»، فتنازل ابنه عن مالقة إلى السلطان أبي يوسف، وحاول ابن الأحمر الاستيلاء عليها فلم يفلح ولم يزد عمله هذا إلا في اشتداد الأزمة بينه وبين السلطان.

وفي سنة 677هـ، عاد أبو يوسف المنصور إلى الأندلس ونزل بمالقة وهاجم أرض النصارى. والتقى أبو يوسف بابن الأحمر قبل عودته إلى المغرب قصد التصالح فهدأت الخواطر ولكن لم تصف القلوب[3].

وفي سنة 677هـ استولى ابن الأحمر على «مالقة»، وتحالف مع ملك قشتالة لصد السلطان المنصور ومنعه من العبور مرة أخرى، ونزلت لأجل ذلك القوات النصرانية بالجزيرة. ومن جهة أخرى كاتب ابن الأحمر

(1) ابن خلدون 191/7؛ الإحاطة 372/1.
(2) نهاية الأندلس، ص 77.
(3) نهاية الأندلس، ص 78.

يغمراسن خصم السلطان المنصور وملك المغرب الأوسط وسأله التحالف والعون. وبمجرد أن علم السلطان المنصور بذلك حتى قرر العبور إلى الأندلس لتأديب ابن الأحمر، وفي سنة 678هـ بعث بولده أبي يعقوب في أسطول ضخم فكان له النصر على النصارى في معركة بحرية كبيرة. ثم زحف جند المغرب على ثغر «ماربلة» التابع لابن الأحمر واغتنم النصارى الفرصة وهاجموا «غرناطة» بالتحالف مع بني أشقيلولة خصوم بني الأحمر. ولئن تمكن ابن الأحمر من صدهم عن عاصمة ملكه فإنه شعر بالخطر يتهدده ورغب في التصالح مع السلطان المنصور. ووجد ابن الأحمر لدى السلطان نفس الرغبة فتصالحا على أن يتنازل ابن الأحمر عن «مالقة» للسلطان المنصور لتكون له قاعدة انطلاق[1].

وفي سنة 674هـ عبر السلطان المنصور إلى الأندلس لمرة الرابعة، وجدد زحفه على النّصارى فغزا مدينة «شريش»، ووصل ابنه أبو يعقوب إلى مشارف «إشبيلية». وشدد المنصور ضغطه على النصارى فزحف على «قرمونة» و«الوادي الكبير» وبسائط «إشبيلية» و«لبلة» و«استجة» و«الفرنتيرة»، وكان في كل ذلك يتلقى المدد والعون من صاحب غرناطة. ولما اشتد الأمر بملك قشتالة جنح إلى الصلح، فصالحه السلطان على شروط مشرفة للمسلمين.

وفي سنة 635هـ توفي السلطان أبو يوسف المنصور عندما كان بالجزيرة يستعد للعودة إلى المغرب، بعد حروبه الموفقة ضد النصارى، فخلفه على العرش ابنه أبو يعقوب[2].

وتواصلت علاقة ابن الأحمر ببني مرين صافية متينة، وازدادات متانة بتنازل سلطان المغرب عن «وادي آش» لابن الأحمر. وسلك أبو يعقوب

---

(1) نهاية الأندلس، ص 79.

(2) نهاية الأندلس، ص 32-33.

نهج أسلافه، فواصل نجدة إخوانه بالأندلس وإعانتهم على مواجهة النصارى.

نكث النصارى عهدهم مع بني مرين كما هي عادتهم. ففي أوائل سنة 690هـ أغار «سانشو» ملك قشتالة على الثغور الأندلسية، ولم يتردد أبو يعقوب في الرد عليه، فأمر قائده على الثغور بغزو «شريش» وأرض العدو، فزحف عليها وأعلن أبو يعقوب الجهاد، فعبرت إلى الأندلس بعثات المجاهدين والمتطوعين، وعبر أبو يعقوب بنفسه سنة 690هـ، واقتحم أرض النصارى وأدب المعتدين، ورجع إلى المغرب في العام الموالي[1]. وتعددت إثر ذلك نجدات بني مرين للمسلمين بالأندلس، فتوجس ملك قشتالة منهم خيفة، فعمد إلى الخدعة والحيلة فصانع ابن الأحمر وأوغر قلبه على بني مرين وحذره منهم ومن أطماعهم في ملك الأندلس، وتحالف معه على صدهم بالاستيلاء على «طريف» طريق عبورهم، وحالفه ابن الأحمر على أن يؤول إليه الثغر بعد فتحه.

ولكن ما إن فتح الثغر حتى نقض ملك النصارى وعده وامتنع من تسليمه لابن الأحمر، وأدرك ابن الأحمر خطأه في تحالفه مع النصارى ضد أبي يعقوب، فعاد يطلب ود بني مرين، وعبر من أجل ذلك البحر إلى المغرب سنة 692هـ، ليقدم اعتذاره لأبي يعقوب ويتنازل له عن «الجزيرة» و «رندة» وحصون كثيرة عربون إخلاص وولاء، وهكذا عادت العلاقات بينهما إلى الصفاء. وقد قضى محمد الفقيه الأعوام الأخيرة من حياته مسالماً لبني مرين، ثابتاً على عهده معهم إلى أن وافاه أجله سنة 701هـ ــ 1302م.

---

(1) نهاية الأندلس، ص 84.

◻ عهد محمد المخلوع:

خلف محمد الفقيه ابنه أبو عبد الله محمد الملقب بالمخلوع فلم يحسن تدبير شؤون الدولة رغم ما عرف به من نباهة وعزم. وقد استبد بالأمر دونه وزيره ووزير أبيه من قبل أبو عبد الله محمد بن الحكيم اللخمي[1].

ولم تسلم علاقة مملكة غرناطة ببني مرين من التدهور من جديد، فقد عدل المخلوع فجأة عن تحالفه مع سلطان المغرب، وأعلن تواطؤه مع ملك قشتالة، ولم يكتف بهذا بل جاهر بعداوته لأبي يعقوب، فأوعز إلى عمه وصهره الرئيس أبي سعيد فرج بن اسماعيل صاحب «مالقة» أن يحرض أهل «سبتة» في الضفة الأخرى على الخروج عن طاعة أبي يعقوب. واستعد ابن الأحمر لمنازلة أبي يعقوب إذا ما عنَّ له العبور، وجهز أبو سعيد صاحب «مالقة» بايعاز من المخلوع، حملة بحرية بحجة مطاردة النصارى، ونزل بها بسبتة سنة 705هـ فاحتلها وأعلن ولاءها لابن الأحمر[2].

وكان أبو يعقوب وقتها يحاصر «تلمسان»، فبعث بابنه أبي سالم ليسترد «سبتة» فلم يفلح، وفكر في الخروج إليها بنفسه ولم يتم له ذلك إذ اغتيل سنة 706هـ[3].

◻ الوضع السياسي بدولة بني مرين بعد موت أبي يعقوب:

اغتيل أبو يعقوب فنشب صراع على العرش بين ولديه أبي ثابت وأبي سالم، انتهى فيه الأمر لأبي ثابت بعد حرب أهلية طاحنة.

وما ان تربع أبو ثابت على العرش حتى شرع في توطيد ملكه. وفكر في استرداد «سبتة» من ابن الأحمر وإخضاع عثمان بن أبي العلاء المريني

---

(1) أبو عبد الله محمد بن الحكيم اللخمي: المعروف بذي الوزارتين، كان أديباً مجيداً، توفي سنة 708هـ.

(2) نهاية الأندلس، ص 85-86.

(3) نهاية الأندلس، ص 86.

الخارج عن سلطان الخلافة. ففي سنة 707هـ سار أبو ثابت في جيش ضخم نحو الشمال، ولما أحس عثمان بن أبي العلاء بعجزه عن مجابهته فر بجنده وفتح، أبو ثابت كل الحصون الخارجة عنه، ثم قصد «سبتة» حيث تحصن عثمان، وضرب عليها الحصار، ولم يتم له فتحها إذ مرض أثناء ذلك وتوفي سنة 708هـ[1].

□ الوضع بالأندلس سنة 708هـ:

تواصل بالأندلس عهد محمد المخلوع بتناقضاته. ولم تمض غير أشهر قليلة على موت أبي ثابت سلطان بني مرين بالمغرب حتى ثار على محمد المخلوع أخوه أبو الجيوش نصر بن محمد وثلة من كبار الدولة رافضين الطغيان الذي فرضه الوزير ابن الحكيم، وكان ذلك يوم عيد الفطر سنة 708هـ أوائل سنة 1309م. قتل الوزير ابن الحكيم واعتقل محمد المخلوع وأرغم على التنازل عن العرش لأخيه نصر[2].

إن تاريخ الأندلس الدامي لم ينته هنا وإنما أكتفي بهذا وأتوقف عند حدود السنة الثامنة من القرن الثامن لأن في هذه السنة بالذات كانت وفاة ابن الزبير، رحمه الله.

□ تفاعل ابن الزبير مع أحداث عصره:

في هذا الخضم الهائل من الأحداث، وفي هذه الحقبة المروعة من تاريخ الأندلس المليئة بالصراعات والمتناقضات والمتأرجحة بين الأمل واليأس والمتسمة عموماً بعدم الاستقرار، في هذه الحقبة عاش صاحب ملاك التأويل. فهل تفاعل ابن الزبير مع أحداث عصره؟

لم يكن ابن الزبير بمعزل عما دار في عهده من أحداث فقد عاش الكثير منها وهو بمسقط رأسه «جيان» التي كانت مسرحاً لأحداث كثيرة،

---

(1) ابن خلدون: 237/7.

(2) نهاية الأندلس، ص 87.

وعاشت غزو النصارى وجبروتهم. وعاش الجم من هذه الأحداث وهو «بمالقة» ثم «بغرناطة» قطب الرحى فيها وقع سرده من أحداث. ولا أدل على تأثره بالأحداث وتأثيره فيها وتفاعله معها إيجاباً وسلباً، مما أشارت إليه المصادر التي ترجمت له من العلاقات التي كانت تربطه بالملوك وأصحاب السلطان في عهده، وما كان بينه وبينهم من ود حيناً ونفرة حيناً آخر. من ذلك ما جاء في البدر الطالع: كان ثقة، قائمًا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، دامغاً لأهل البدع، وله مع ملوك عصره وقائع، وكان معظمًا عند الخاصة والعامة[1]. ومنه ما جاء في الاعلام: أقام بمالقة فحدثت له فيها شؤون ومنغصات فغادرها إلى غرناطة فطاب بها عيشه[2]. وقال ابن حجر: كانت له مع ملوك عصره وقائع وكانت بينه وبين أميري مالقة وغرناطة صداقة[3]. ومنه ما جاء في بغية الوعاة: ثم عرض له أن السلطان تغير له فجعل سجنه داره وأذن له في حضور الجمعة... ثم قال: جرت له في ذلك أمور مع الملوك صبر فيها ونطق بالحق حيث أدى إلى التضييق عليه وحبسه[4]. ويضاف إلى ما تقدم قوله في مقدمة ملاك التأويل: وأن يؤيد بالنصر والتمكين ومولاه الفتح المبين مولانا أمير المسلمين ابن أمير المسلمين[5]. ومما يدل على تفاعله مع أحداث عصره توليه لمناصب ذات صلة بالحياة السياسية فقد ولي قضاء الأنكحة والخطابة والامامة بجامع غرناطة. وقد جاء في البغية: ولي الخطابة والامامة بالجامع الكبير وقضاء الأنكحة[6] وجاء في الاحاطة: ولي قضاء المناكح والخطبة بالحضرة[7].

---

(1) البدر الطالع، ص 35.
(2) الاعلام 83/1.
(3) الدرر الكامنة 91/1.
(4) بغية الوعاة 291/1.
(5) مقدمة ملاك التأويل، ص 148.
(6) بغية الوعاة 291/1.
(7) الإحاطة 188/1.

ومن تآليفه ما يمكن أن يقوم دليلاً على تفاعله مع عصره وتأثره بأحداثه، من ذلك كتابه: «سبيل الرشاد في فضل الجهاد»[1] وما أظنه إلا مساهمة منه في تحفيز الهمم وإيقاظ النفوس للجهاد والتضحية في سبيل الله، وما أحوج الناس إلى مثل هذا في تلك الفترة العصيبة. وإذا كان الجهاد في سبيل الله يتخذ أشكالاً مختلفة جهاداً بالنفس وجهاداً بالنفيس وجهاداً بالسيف وجهاداً بالفكر والقلم فيمكن اعتبار ملاك التأويل من الضرب الأخير، فقد ألفه ابن الزبير للقطع بذوي الالحاد والتعطيل من أعداء الإسلام المتعلقين بشبهة التكرار والحشو في القرآن. فملاك التأويل سيف رفعه ابن الزبير في وجه الملاحدة المعطلين دفاعاً عن كتاب الله وذوداً عن حمى الإسلام، وهذا ما يفسر مواقفه الشديدة الصارمة من المخالفين المنتشرة في صفحات تفسيره.

الوضع الفكري:

شهد عهد ابن الزبير انحدار دولة الموحدين بالأندلس، وظهور مملكة غرناطة الفتية، وقد اتسم هذا العهد بعدم الاستقرار، وكان لذلك أثره السلبي على الحركة الفكرية والثقافية سواء قبل ظهور مملكة غرناطة أو بعدها.

وقد انشغل أدباء الأندلس ومفكروها عموماً بالمحنة التي عمت البلاد، فاختار البعض الهجرة إلى حيث يتوفر الأمن والاستقرار، فعبروا إلى المغرب أو رحلوا إلى المشرق، من هؤلاء محيي الدين بن عربي المتصوف المعروف[2] وابن الآبار[3]

---

(1) أنظر ما يتعلق بآثاره، ص 95.

(2) محي الدين بن عربي: أعظم متصوفة الأندلس صاحب فصوص الحكم والفتوحات المكية، توفي سنة 638هـ.

(3) ابن الآبار: أبو عبد الله بن محمد بن عبد الله القضاعي البلنسي، الشاعر، الفقيه، اللغوي، توفي سنة 659هـ.

وابن رحمون النحوي[1] وابن البيطار[2] وغيرهم وآثر البعض الآخر البقاء ومقاسمة أبناء الوطن حلو الحياة ومرها، والوقوف إلى جانبهم في محنتهم. والقيام بواجب الدفاع عن الوطن، ومن هؤلاء ابن الزبير الثقفي صاحب ملاك التأويل.

والمتتبع للحياة الثقافية في عهد ابن الزبير يتبين أنها تنقسم إلى عهدين متمايزين: عهد انحدار حكم الموحدين بالأندلس، وعهد ظهور مملكة غرناطة.

(أ) الحركة الفكرية قبيل قيام مملكة غرناطة:

بالرغم مما عرف به مفتتح القرن السابع الهجري من عدم الاستقرار السياسي فقد ظل التراث الفكري فيه متميزاً بكثير من نواحي القوة ولعل ذلك موروث وبقية باقية من الازدهار الذي شهده في عنفوان دولة الموحدين. ولقد شمل هذا التراث الفكري فنوناً شتى شهد البعض منها حركية ملحوظة منها:

□ الأدب والشعر:

كانت الرئاسة في تلك الفترة للحركة الأدبية من شعر ونثر، وقد شاركت الأحداث بصفة مباشرة وفعالة في إذكاء هذه الحركة.

شهد الشعر المأسوي والمراثي ازدهاراً منقطع النظير وسما النثر في الخطب والرسائل المستعملة في تحفيز الهمم وإيقاظ النفوس واستحثاث المناصرين ومن هذا الكثير في كتابي المقري: «نفح الطيب» و«ازهار الرياض». وقد برز في تلك الفترة الكثير من أعلام الأدب والشعر نذكر منهم:

---

(1) ابن رحمون: عبد الرحمان بن محمد النحوي، توفي سنة 649هـ.

(2) ابن البيطار: العالم النباتي والطبيب المشهور، توفي سنة 646هـ.

ـ **ابن مرج الكحل**: أبا عبد الله محمد بن إدريس الذائع الصيت، وأعظم شعراء غرناطة، برز في الغزل والشعر الوصفي، توفي سنة 634هـ(1).

ـ **عزيز بن عبد الملك القيسي**: أصيل مرسية وأميرها حيناً من الزمن، كان شاعراً مجيداً، توفي سنة 633هـ(2).

ـ **ابن الفخار، علي بن إبراهيم**: من أعلام النثر والنظم، توفي سنة 642هـ(3).

ـ **إبراهيم بن سهل الاشبيلي**، المعروف ببراعته في التوشيح، توفي سنة 649هـ(4).

ـ **أبو عبد الله محمد بن الجياب المرسي**، كان عالماً بالحديث والرواية بارعاً في النظم والنثر صديق ابن هود وكاتبه ثم وزيره، توفي سنة 650هـ(5).

ـ **ابن الآبار: أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي البلنسي**، الكاتب الشاعر الفقيه اللغوي، برع في النظم والنثر، تولى الكتابة لأمير بلنسية ثم هاجر إلى تونس كتب في الأدب والتاريخ. توفي سنة 659هـ(6).

---

(1) الإحاطة 342/2.
(2) صلة الصلة، ص 165؛ ابن الآبار في التكملة، ت 1952.
(3) صلة الصلة، ص 135.
(4) نفح الطيب 304/4.
(5) نفح الطيب 432/4.
(6) فوات الوفيات 226/2.

□ العلوم اللغوية:

من أقطاب اللغة في تلك الفترة:

ـ اللغوي الذائع الصيت في زمانه: **علي بن محمد بن خروف الاشبيلي**، وقد اشتهر بشرحه لكتاب سيبويه، توفي سنة 609هـ[1].

ـ **الشلوبين**: عمر بن محمد الأزدي الاشبيلي، كان إماماً في العربية، بارعاً في النحو، متضلعاً في الفقه، توفي سنة 645هـ[2].

ـ **ابن رحمون**: عبد الرحمان بن محمد النحوي، كان ذا لسن وفصاحة ومعرفة جيدة بالنحو، توفي سنة 649هـ.

□ العلوم الشرعية:

وممن برز في الفقه وعلوم الدين:

ـ **علي بن أحمد بن محمد الغساني الوادي آشي**، صاحب كتاب: «نهج السالك للتفقه في مذهب مالك»، في شرح الموطأ ـ توفي سنة 609هـ[3].

ـ **المحدث عيسى بن سليمان الرعيني الرندي**، المتوفي سنة 632هـ[4].

---

(1) صلة الصلة، ص 122.
(2) صلة الصلة، ص 71.
(3) صلة الصلة، ص 121.
(4) صلة الصلة، ص 51.

- **محيي الدين بن عربي**، أعظم متصوفة الأندلس وكبير حكمائها، صاحب فصوص الحكم والفتوحات المكية، المتوفي سنة 638هـ[1].

ويمكن أن نذكر هنا من ورد ذكرهم مع الأدباء واللغويين ممن جمع بين العلوم اللغوية وبين الفقه وعلوم الدين كابن الأبار والشلوبين.

□ الطب والعلوم الأخرى:

تواصل ازدهار العلوم بالبلاد الأندلسية في أوائل القرن السابع الهجري وربما كان آخر مرحلة لازدهاره إذ شهد بعد ذلك فتوراً تواصل حتى في عهد مملكة غرناطة ومن أبرز علماء هذه الفترة:

- الطبيب الأديب **أبو الفضل محمد بن عبد المنعم الجلياني**، من أعلام الطب في عصر الموحدين، عرف بمنظوماته الكثيرة في الرياضيات وآداب النفس[2].
- الطبيب **أبو العباس بن الرومية الاشبيلي**، اشتهر ببراعته في الطب، من آثاره: كتاب في الأدوية المفردة[3].
- **ابن البيطار المالقي**: الطبيب والعالم النباتي المشهور عني بدراسة النبات والأعشاب في مصر والشام وآسيا الصغرى وبلاد اليونان. والف في ذلك كتابين. توفي سنة 645هـ[4].
- **مطرف الإشبيلي الفلكي**: برع في الفلك وصنف فيه، نسب للزندقة لشدة عكوفه عليه[5].

---

(1) فوات الوفيات 241/2.
(2) نفح الطيب 16/2.
(3) نفح الطيب 137/2.
(4) فوات الوفيات 204/1.
(5) نفح الطيب 138/2.

إن المستعرض لهذه الصفحات من الحركة الفكرية بالأندلس في أوائل القرن السابع الهجري يلحظ بأنها كانت حلقة وصل هامة بين ماض مزدهر وغد مشرق. فقد كانت حلقة وصل بين حركة فكرية كانت نشيطة في عهد الموحدين وبين أخرى بعثت ونمت في عهد غرناطة. وبالرغم مما عرف به مفتتح القرن السابع من تدهور على المستوى السياسي، فقد كانت الحركة الفكرية نشيطة نسبياً برز فيها الكثير من العلماء في مختلف الفنون، ولعل ذلك راجع إلى ما ورثته هذه الفترة من خصب فكري عن الفترة التي سبقتها. ولم يتواصل نشاطها بل تناقص يوماً بعد يوم وتقلص نطاقها وكادت تنحصر في حركة أدبية سيطر عليها شعر المآسي والمراثي.

(ب) الحركة الفكرية في ظل مملكة غرناطة:

ظهرت مملكة غرناطة فشهدت الحركة الفكرية في ظلها انتعاشاً وحيوية ويعود ذلك لتضافر جملة من العوامل:

- رعاية ملوك غرناطة للعلماء وحمايتهم للعلوم والآداب، فقد سلكوا في ذلك مسلك أسلافهم، وكان بلاط غرناطة يعج بمجالس العلم والأدب. فقد كان لأبن الأحمر ــ مؤسس مملكة غرناطة ــ أيام خاصة بمجالس الشعر.
- تضلع الكثير من أمراء بني الأحمر ووزرائهم في العلم والأدب. فقد كان محمد بن محمد بن الأحمر المعروف بالفقيه على درجة عالية من العلم والحكمة، يقرض الشعر ويعشق مجالس العلم، وكذلك كان ابنه محمد الملقب بالمخلوع ووزيره ابن الحكيم اللخمي.
- مساعدة الظروف ومناسبتها لنمو الأدب بصفة عامة والشعر بصفة خاصة، خاصة في وصف الانتصارات ومدح المنتصرين ورثاء المستشهدين وتسلية المنهزمين وإيقاظ همم المتخاذلين.

امتدت الحركة الفكرية في ظل مملكة غرناطة على مدى القرنين والنصف التي عاشتها هذه المملكة، ويهمنا هنا طورها الأول إذ لم تبلغ هذه الحركة الفكرية ازدهارها واكتمال نضجها الا في عصر السلطان أبي الحجاج يوسف بن إسماعيل النصري (733هـ ــ 755هـ) وولده محمد الغني بالله (755هـ ــ 793هـ).

ويمتد الطور الأول أو طور الفتوة لهذه الحركة الفكرية من أواخر القرن السابع الهجري إلى أوائل القرن الثامن.

□ **الأدب والشعر:**

ازدهر الأدب والشعر في هذه الحقبة وبرز فيه جمهرة من الأدباء والشعراء منهم:

ــ **الوزير ابن الحكيم وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمان بن إبراهيم بن يحيى اللخمي الرندي**، تولى الكتابة في ديوان الإنشاء أيام السلطان محمد الفقيه ثم الوزارة في عهده وعهد ابنه أبي عبد الله الملقب بالمخلوع. كان ابن الحكيم شاعراً مجيداً وكاتباً بليغاً قتل سنة 708هـ في الثورة التي قام بها أبو الجيوش على أخيه المخلوع[1].

ــ **أبو عبد الله محمد بن خميس التلمساني**، من المقربين للوزير ابن الحكيم مدحه بالعديد من القصائد. كان من فحول الشعراء وإعلام البلغاء. توفي «بألمرية» سنة 708هـ[2].

ــ **أثير الدين أبو حيان الغرناطي محمد بن يوسف بن علي**، كان

---

(1) الإحاطة 444/2.

(2) أزهار الرياض 303/3.

بارعاً في اللغة والأدب، إماماً في النثر ونظم الموشحات، وكان إلى جانب ذلك متضلعاً في الحديث والتفسير[1].

□ **علوم اللغة:**

من أقطاب اللغة في تلك الحقبة:

- **أبو بكر محمد بن إدريس الفراني القضاعي**: ألف في العروض كتاب «الختام المفضوض عن خلاصة علم العروض». توفي سنة 707هـ.

- **أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الحافظ النحوي**، صاحب كتاب ملاك التأويل، محل بحثنا، يعد علمًا من أعلام العربية في عصره. قال فيه ابن الخطيب: انتهت إليه رئاسة العربية بالأندلس وكان عالماً بالقرآن والحديث مجيداً للنثر والنظم. صنف في مختلف الفنون توفي سنة 708هـ[2].

- **الفخار: أبو عبد الله محمد بن علي الالبيري**، كان شيخ النحاة بالأندلس في عصره، أستاذ ابن الخطيب، توفي بغرناطة سنة 754هـ[3].

□ **العلوم الشرعية:**

نبغ من علماء الفقه والدين في تلك الفترة:

- **القاسم بن عبد الله بن الشط الأنصاري الاشبيلي**، له كتاب «البرنامج عن قضاة الأندلس». توفي سنة 725هـ[4].

---

(1) فوات الوفيات 282/2.
(2) الذيل والتكملة لابن عبد الملك 39/1-45.
(3) نفح الطيب 182/3.
(4) نفح الطيب 264/2.

- **أبو القاسم أبو عبد الله بن جزي الكلبي الغرناطي**، تولى الخطابة بغرناطة من مؤلفاته: كتاب التسهيل لعلوم التنزيل. توفي سنة 741هـ[1].

- يضاف إلى من ذكر **ابن الزبير وأبو حيان** اللذان سبق ذكرهما من بين أعلام اللغة وقد كان لهما تضلع في العلوم الشرعية وخاصة الفقه والتفسير.

□ الطب والعلوم الأخرى:

لم تشهد العلوم في هذه الفترة ازدهاراً ملحوظاً بل شهدت انكماشاً وتراجعاً ومن أشهر علماء ذلك العصر:

- **يحيى بن هذيل حكيم غرناطة وفيلسوفها**. برع في الطب والفلسفة والعلوم الرياضية، من شيوخ ابن الخطيب[2].
- **أبو عثمان سعد بن أحمد بن ليون التجيبي**، من أكابر أئمة الفقه اختصر الكثير من أمهات الكتب مثل كتاب «بهجة المجالس» لأبن عبد البر، وألف في الهندسة والفلاحة[3].

□ خصائص الحركة الفكرية في عهد ابن الزبير:

من خلال ما تقدم يمكن القول بأن الحركة الفكرية في عهد ابن الزبير تميزت بجملة من الخصائص:

- كانت في مستوى مقبول إذا ما نظر إليها من خلال الوضع السياسي المتدهور التي برزت فيه.

---

(1) نفح الطيب 514/5.
(2) نفح الطيب 52/3.
(3) نفح الطيب 302/3.

ـ كانت حلقة وصل بين حركة فكرية بلغت شأوى في عهد الموحدين الأول وبين أخرى نشطت وازدهرت في العهد الثاني من مملكة غرناطة.

كان نصيب الأسد فيها للأدب من نظم ونثر. شهد الأدب في تلك الفترة حيوية وحركية ملحوظة تلته في الأهمية علوم اللغة ثم العلوم الشرعية، أما العلوم الطبية والرياضية فقد شهدت فتوراً وركوداً.

□ تفاعل ابن الزبير مع الحركة الفكرية في عصره:

تفاعل ابن الزبير مع الحركة الفكرية في عصره أخذاً وعطاء، فكان بما برز فيه من علوم لغوية وشرعية صورة صادقة لما تميزت به هذه الحركة من خصائص، والعالم ابن بيئته ونتاج عصره. والدارس لملاك التأويل يلمس تضلع أبي جعفر في اللغة وفنونها ورسوخ قدمه فيها، يلمس هذا في عربيته المتينة الأصيلة وقدرته الفائقة على استعمالها والاستعانة بفنونها المختلفة في بلوغ المراد. فتفسيره إلى جانب ما طفح به من معان سامية، موسوعة لغوية، ولا غرابة في ذلك فابن الزبير ابن عصر كان الولوع فيه باللغة كبيراً، وكان نصيبها منه نصيب الأسد، وهو تلميذ لأساطين اللغة بالأندلس أمثال العشاب[1] وابن الناظر[2] وابن رحمون[3] والطراز[4]...

---

(1) أحمد بن محمد المرادي المعروف بالعشاب، كان مقرئاً عالماً بالتفسير والبيان، توفي سنة 736هـ (معجم المؤلفين 62/2).

(2) الحسن بن عبد العزيز بن محمد بن أبي الأحوص المعروف بابن الناظر، محدث مفسر لغوي، توفي سنة 699هـ (الإحاطة 463/1).

(3) عبد الرحمان بن محمد المعروف بابن رحمون النحوي، توفي سنة 649هـ (بغية الوعاة 86/2).

(4) محمد بن سعيد بن علي الأنصاري المعروف بالطراز كان موصوفاً بالبيان والبلاغة، توفي سنة 645هـ (التكملة 1، ت 1032).

وإذا كان ابن الزبير مفسراً، قارئاً، محدثاً، أصولياً، فإنه نتاج عصر تواصل فيه ما شهدته العلوم الشرعية من ازدهار وخصب في عهد الموحدين، وبرز فيه علماء أفذاذ في شتى العلوم. فقد تتلمذ ابن الزبير للكثير من المفسرين والقراء والمحدثين والأصوليين أمثال أبي مطرف بن عميرة[1] المحدث الفقيه الأصولي، والعشاب المقرىء المفسر، وابن الشيخ[2] الفقيه الأصولي... وغيرهم.

وإن ما تميز به ذلك العصر شغف العلماء بتصنيف كتب التراجم وتقييد برامج الرواية ومعاجم الشيوخ، ولم يشذ ابن الزبير عنهم فألف صلته على صلة ابن بشكوال، والإعلام بما ختم به القطر الأندلسي من الأعلام، وبرنامج رواياته، ومعجم شيوخه[3].

ومجمل القول فإن ابن الزبير كان ابن بيئته ونتاج عصره وصورة صادقة للحركة الفكرية التي واكبها وتأثر بها وأثر فيها.

□ □ □

---

(1) أحمد بن عبد الله المعروف بابن مطرف بن عميرة، توفي سنة 658هـ (بغية الوعاة 319/1).

(2) عبد العظيم بن عبد الله البلوي المعروف بابن الشيخ، توفي سنة 666هـ (صلة الصلة، ص 50).

(3) أنظر ذلك في مؤلفات ابن الزبير، ص 96.

المبحث الثاني

ترجمة المؤلف

إسمه ونسبه[1]:

هو: أحمد بن ابراهيم بن الزبير بن محمد بن ابراهيم[2] (ابن الزبير)[3] (ابن الحسن بن الحسين بن الزبير)[4] بن عاصم بن مسلم بن كعب[5] بن مالك بن علقمة بن خباب بن مسلم بن عدي بن مرة بن عوف بن ثقيف[6]. يكنى بأبي جعفر، وعرف بنسبته إلى جده الأول الزبير وغلب عليه ذلك.

وهو العاصمي نسبة إلى جده الثامن، والثقفي من بني ثقيف نسبة إلى جده الأخير، الجياني نسبة إلى مسقط رأسه: «جيان»، والغرناطي نسبة إلى «غرناطة» التي استقر بها وصار علمًا من أعلامها. ولي بها قضاء المناكح

---

(1) أخذت ترجمته عن: البدر الطالع، ص 33-35؛ تذكرة الحفاظ 265/4-266؛ الذيل والتكملة 39/1-45؛ شجرة النور الزكية، ص 212؛ بغية الوعاة 291/1-292؛ الديباج، ص 245؛ الدرر الكامنة 89/1-91؛ درة الحجال 11/1-12؛ فهرس الفهارس للكتاني 341/1؛ الوافي بالوفيات 222/6-223؛ نفح الطيب 98/6؛ الإحاطة 188/1-193؛ بروكلمان 376/2-377.

(2) إلى هذا الحد تتفق أغلب كتب التراجم. وفي معجم المؤلفين: ابن الزبير، ابن الحسن بن الحسين ويبدو أنه خطأ.

(3) سقط من الإحاطة ومن البدر الطالع والدرر الكامنة.

(4) سقط من تذكرة الحفاظ والبدر الطالع والدرر الكامنة.

(5) يقول ابن عبد الملك في الذيل والتكملة 39/1: كذا نقلت نسبه من خطه.

(6) كذا ورد في الذيل والتكملة وفي الإحاطة.

وإمامة جامعها الكبير، والأندلسي نسبة إلى وطنه الأندلس[1]. وهو من أبناء العرب الداخلين إلى الأندلس [2]

مولده ونشأته:

ولد ابن الزبير الثقفي في ذي القعدة[3] أواخر سنة[4] سبع وعشرين وقيل ثمان وعشرين[5] وستمائة للهجرة (627 أو 628هـ) الموافق لسنة ثلاثين ومائتين وألف للميلاد (1230م)[6] بمدينة جيان[7].

كانت جيان يومها من القواعد الإسلامية الهامة تقع شمال غرناطة وشرقي قرطبة وجاء في الاحاطة: أنها كانت منزل قنسرين من العرب الداخلين[8].

يقول ياقوت الحموي في معجمه[9]: جيان بالفتح ثم التشديد وآخره نون مدينة لها كورة واسعة بالأندلس، تتصل بكورة ألبيرة مائلة عن ألبيرة إلى ناحية الجوف في شرقي قرطبة بينها وبين قرطبة سبعة عشر فرسخاً وهي كورة كبيرة تجمع قرى كثيرة وبلدانا. . . وكورتها متصلة بكورة تدمير وكورة طليطلة[10].

---

(1) جاء في معجم المؤلفين: الثقفي العاصمي الجياني أبو جعفر، وفي درة الحجال الثقفي العاصمي الغرناطي الأندلسي.

(2) الاعلام 83/1.

(3) عن الدرر الكامنة.

(4) عن الإحاطة.

(5) معجم المؤلفين، فهرس الفهارس، التكملة.

(6) الاعلام، معجم المؤلفين، بروكلمان.

(7) تجمع المصادر على أن ابن الزبير جياني المولد.

(8) الإحاطة 188/1.

(9) معجم البلدان 169/2.

(10) «جيان» اليوم مدينة بإسبانيا ومركز ولاية تسمى باسمها.

ولد ابن الزبير في أسرة عريقة النسب ذات ثراء ويسار ووجاهة، جاء في الإحاطة: نسبه بها كبير وحسبه أصيل وثروته معروفة. . . ولأبيه إذ ذاك إثراء وجدة أعانته على طلب العلم وإرفاد من أحوجته الأزمة في ذلك الزمان من جالية العلماء عن قرطبة وإشبيلية. . .[1].

ولد بجيان وترعرع بها إلا أن إقامته بها لم تطل إذ خرج به أبوه منها سنة ثلاث وأربعين وستمائة (643هـ) عند تغلب العدو عليها[2] فكان عند مغادرته لها ابن ست عشرة سنة تقريباً. وجاء في بغية الوعاة: هو جياني المولد غرناطي المنشأ[3]. نشأ ابن الزبير إذا بغرناطة وبها تكون واشتهر وإليها نسب وبها عرف فغلب عليه نسب «الغرناطي».

من خصاله:

عرف ابن الزبير بجملة من الفضائل والخصال النبيلة منها:

□ إخلاصه للعلم:

كان محباً للعلم صبوراً على تحصيله. مخلصاً في نشره جاء في الإحاطة: كان نسيج وحده في حسن التعليم والصبر على التسميع والملازمة للتدريس[4]، وجاء في الذيل والتكملة: وهو الآن متصدر لاقراء كتاب الله تعالى وإسماع الحديث وتعليم العربية وتدريس الفقه، عامراً بذلك عامة نهاره، عاكفاً عليه، مثابراً على إفادة العلم ونشره[5]. وفي الدرر الكامنة: كان معظمًا عند الخاصة والعامة حسن التعليم ناصحاً[6] وفي بغية الوعاة: كان كثير الانصاف ناصحاً في الاقراء.

---

(1) الإحاطة 188/1.

(2) الإحاطة 188/1.

(3) بغية الوعاة 291/1، جاء في التكملة لابن عبد الملك 39/1: «جياني نزل غرناطة».

(4) الإحاطة 188/1-193.

(5) الذيل والتكملة 39/1-45.

(6) الدرر الكامنة 89/1-91.

□ **تفانيه في نصرة الحق:**

كان لا يخاف في الحق لومة لائم وآنجرّت له بذلك المصاعب والمحن فصبر عليها. جاء في الاحاطة أنه كان صليباً في الحق شديداً على أهل البدع[1] وفي بغية الوعاة: جرت له في ذلك أمور مع الملوك صبر فيها ونطق بالحق بحيث أدى إلى التضييق عليه وحبسه[2].

وكان في هذا النطاق أماراً بالمعروف نهاء عن المنكر.

□ **ورعه وعفة نفسه:**

عرف ابن الزبير بورعه وعفة نفسه لم تحمله صلاته بالملوك والأمراء على طمع أو تزلف، يصفه تلميذه أبو حيان بالورع ورجاحة العقل[3] وفي بغية الوعاة: لا ينقل قدمه إلى أحد[4]. ومن شعره الدال على عفة نفسه قوله:

مـــالـي ولـلـتـســآل لا أم لـي إن سلت من يعزل أو من يلي[5]

□ **لطف معشره:**

يروي ابن الخطيب في الإحاطة أنه كان عـذب الفكاهـة طيب المجالسة حلو النادرة، تؤثر عنه في ذلك حكايات لا تخل بوقار، ولا تخل بجلال منصب[6]. وجاء في البغية أنه كان خيراً، صالحاً، كثير الصدقة، معظمًا عند الخاصة والعامة.

---

(1) الإحاطة 193-188/1.
(2) بغية الوعاة 292-291/1.
(3) الوافي بالوفيات 223-222/6.
(4) بغية الوعاة 292-291/1.
(5) الإحاطة 193/188/1.
(6) الإحاطة 193-188/1.

□ **شدة تقواه:**

يبدو ابن الزبير من خلال ما وصفه به معاصروه شديد التقوى كثير الورع، قال ابن الخطيب في الاحاطة: كان كثير الخشوع والخشية مسترسل العبرة ملازماً للسنة، ويصفه تلميذه أبو حيان بالورع ورجاحة العقل[1].

هذه بعض ما تميز به ابن الزبير من خصال وفضائل أختمها بما قاله فيه أبو الحسن النور بن سعيد:

لابن الزبير مكارم أضحت بها ... طير المدائح في البلاد تغرد

إن قيدوه وبالغوا في عصره ... فالكرم يعصر والجواد يقيد

من أعمال ابن الزبير:

قام ابن الزبير إلى جانب التأليف بعدة أعمال جليلة أخرى، اعترف له بفضلها معاصروه ومن بعدهم، وبقي من أجلها يذكر فيمجد ويشكر، من تلك الأعمال:

1 ــ **ولاية القضاء:** جاء في الإحاطة: ولي قضاء المناكح[2].

2 ــ **ولاية الخطابة والامامة:** انتهت إليه الرئاسة العلمية بالأندلس فولي الخطبة والإمامة بجامع غرناطة الكبير. جاء في بغية الوعاة: ولي الخطابة والامامة بالجامع الكبير[3] وفي الاحاطة: «ولي قضاء المناكح والخطبة بالحضرة وبلغ من الشهرة والاشادة بذكره ما لم يبلغه سواه[4].

(1) الوافي بالوفيات 222/6-223.
(2) الإحاطة 188/1.
(3) بغية الوعاة 291/1.
(4) الإحاطة 188/1.

3 ـ **نشر العلم**: تذكر المصادر العديدة جلوس ابن الزبير للتدريس ونشر العلم يقول ابن عبد الملك في الذيل والتكملة: وهو الآن متصدر لاقراء كتاب الله تعالى وإسماع الحديث وتعليم العربية وتدريس الفقه عامراً بذلك عامة نهاره عاكفاً عليه مباشراً على إفادة العلمَ ونشره انفرد بذلك في بلده قاعدة جزيرة الأندلس وصارت الرحلة إليه(1). وجاء في بغية الوعاة: أقرأ القرآن والنحو والحديث بمالقة وغرناطة وغيرهما وقعد بالجامع يفيد الناس(2).

4 ـ **أمر الناس بالمعروف ونهيهم عن المنكر**: عرف ابن الزبير بشدة حرصه على الوفاء بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واشتهر بتصديه لأهل البدع ومقاومتهم، وتحمله في سبيل ذلك المحن والمصاعب. جاء في البدر الطالع: وكان قائمًا بالمعروف والنهي عن المنكر، دامغاً لأهل البدع(3). وجاء في الدرر الكامنة: قاوم البدع، وقد تصدى للفزاري الساحر المتنبي(4).

وقد تعرض ابن الزبير نتيجة تمسكه بهذا الواجب إلى محنة قاسية عند تصديه للفزاري الممخرق.

محنته:

أوردت كتب التراجم(5) خبر تعرض ابن الزبير لبعض المحن، وبتتبع ما جاء فيها يمكن إرجاع ذلك إلى سببين رئيسين: كيد حساده له وشدة تمسكه بالحق ومقارعته لأهل البدع.

---

(1) الذيل والتكملة 1/39-45.

(2) بغية الوعاة 1/291.

(3) البدر الطالع، ص 33.

(4) الدرر الكامنة، ص 89.

(5) الذيل والتكملة 1/39-45؛ الإحاطة 1/188-198؛ البدر الطالع، ص 33-35؛ الدرر الكامنة 1/89-91.

1 ـ كيد الحساد:

بلغ ابن الزبير المراتب العالية في العلم والجاه وصار مقرباً من الملوك معظمًا عند الخاصة والعامة وقل أن يسلم أمثاله من حسد الحاسدين ومكائدهم يقول ابن عبد الملك في الذيل والتكملة[1]: وأنجـرت إليه مطالبات أصلها الحسد الذي لا يكاد يسلم منه إلا من عصمه الله من غائلته وسوء مغبته أدته إلى التحول عن وطنه تارات أو إلى التحـامل والانقباض به مرات. ومن هذا القبيل أيضاً ما أورده صاحب التكملة بعد: وقد ولعت طائفة من أهل عصره بالطعن على تصانيفه وتنقصه بسببها ولاسيما أرجوزته المذكورة (يعني أرجوزته في ذم الشوذية)[2] فإنهم يتخذونها سخرياً ويرددونها هزءة. ويروي ابن الخطيب في الاحاطة حادثة تندرج في هذا النطاق يقول: لحق ابن الزبير بغرناطة آوياً إلى كنف سلطانها الأمير أبي عبد الله بن الأمير الغالب بالله بن نصر، فأكرم مثواه، وعرف حقه، وانثال عليه الجم الغفير لالتماس الأخذ عنه، إلى أن نالته لديه سعاية بسبب جار له من صلحاء القرابة النصرية، كان ينتابه لنسبة الخيرية نميت عنه في باب تفضيله واستهالت للأمر كلمة أوجبت امتحانه وتخلل تلك الألقية من الشك ما قصر في المحنة على إخراجه من منزله المجاور لذلك المتهم به، ومنعه من التصرف، والتزامه قعر منزل انتقل إليه بحال اعتزال من الناس محجوراً عليه مداخلتهم، فمكث على ذلك زمناً طويلا، إلى أن سريت عنه النكبة، وأقشعت الموجدة، فتخلص من سرارها بدره، وأقل من شكاتها جـاهه، وأحسنت إثـرها حـاله، وكـثر ملتمسـه، وعـظمت في العلم غاشيته[3].

---

(1) الذيل والتكملة 39/1-45.

(2) الشوذية فرقة من فرق الصوفية معروفة بالمغرب تنسب إلى عبد الله الشوذي الإشبيلي المعروف بالحلوي دفين تلمسان (أنظر مدخل تاريخي إلى دراسة الشوذية لمحمد بن شريفة، 1965).

(3) الإحاطة 188/1-193.

2 ـ شدة تمسكه بالحق ومقارعته لأهل البدع:

كان ابن الزبير صليبا في الحق شديداً على أهل البدع[1] فأنجزت له محن ومنغصات. رد على الشوذية وأبدى غوائلها الخفية في كتابه ردع الجاهل عن اعتساف المجاهل. ووقف في وجه الفزاري الممخرق حتى أوقع به.

وابراهيم الفزاري رجل ممخرق مشعوذ، انتحل الكرامة وامتطاها إلى النبوة، غريب المنزع، فذ المآخذ، أعجوبة من أعـاجيب الفتن، يخبر بالقضايا المستقبلية، ويتسور سور حمى العادة، تبعه ثاغية وراغية من العوام الصم البكم[2].

واجهه ابن الزبير وقاومه بمالقة، فاستظهر عليه بمفتونه وظهير محاله أميرها المتغلب بالله من بني أشقيلولة، فأوذي الأستاذ وبلغ النياحة، ففر لوجهه وكبس منزله لحينه، فاستولت الأيدي على ذخائر كتبه وفوائد تقييده عن شيوخه على ما طالت له الحسرة وجلت فيه الرزية. ولحق بغرناطة آوباً إلى كنف سلطانها الأمير أبي عبد الله بن الأمير الغالب بالله بن نصر فأكرم مثواه وعرف حقه[3].

ودالت الدولة للأمير أبي عبد الله نصر بمالقة، واتفق قدوم الفزاري رسولاً من أمير مالقة فاجتمع أبو جعفر بصاحب غرناطة ووصف له حال الفزاري فأذن له إذا انصرف بجواب رسالته أن يخرج إليه ببعض أهل البلد ويطالبه من نائب الشرع ففعل فثبت عليه الحد، وحكم بقتله، فضرب بالسيف فلم يجل فيه، فقال أبو جعفر جردوه، فوجدوا جسده مكتوبا، فغسل، ثم وجد تحت لسانه حجراً لطيفاً فنزعه، فجال فيه

---

(1) الإحاطة 188/1.

(2) الإحاطة 188/1-193.

(3) الإحاطة 188/1-193.

السيف حينئذ[1]. وروى ابن الخطيب في الاحاطة عن شيخه أبي الحسن ابن الجياب: إنه لما أمر بالتأهب للقتل وهو في السجن الذي أخرج منه إلى مصرعه جهر بتلاوة يس فقال له أحد الذعرة ممن جمع السجن بينهم: اقرأ قرآنك على أي شيء تتطفل على قرآننا اليوم؟ أو ما هو في معناه، فتركها مثلاً للوذعيته[2].

ولابن الزبير في تفسيره مواقف من بعض الفرق وردود عليها تندرج في نطاق ما عرف به من مقاومة شديدة للبدع وأهلها من ذلك رده القوي على «الشوذية» عند تفسيره للآية الأولى من سورة النمل[3] قال: . . . فإن الرسل، عليهم السلام معصومون من الكفر مطلقاً باتفاق من أهل القبلة إلا ما قالته «الشوذية» ومن قال بقولهم من المارقين ممن لا عبرة به. ويقول في رده على الامامية: وأما قول الامامية أنه لابد في كل مصر وقرن من إمام معصوم ليشهد عليها في القيامة فباطل[4].

مذهبه:

ابن الزبير الثقفي سني العقيدة، مالكي المذهب، عده ابن فرحون من أعيان المذهب المالكي وترجم له بترجمة ضافية رفع فيها من شأنه قال: إليه انتهت الرئاسة بالأندلس في صناعة العربية وتجويد القرآن ورواية الحديث إلى المشاركة في الفقه والقيام على التفسير والخوض في الأصلين[5]. وأورده صاحب شجرة النور الزكية في طبقات المالكية وترجم له وأعلى شأنه[6].

---

(1) البدر الطالع، ص 33-35؛ الدرر الكامنة 1/89-91.
(2) الإحاطة 1/193.
(3) التفسير، ص 898.
(4) التفسير، ص 760.
(5) الديباج المذهب، ص 42.
(6) شجرة النور الزكية، ص 212.

وفي تفسيره مواقف تبرز عقيدته السنية من ذلك رده القوي على الفرق المخالفة ودحض آرائهم كلما عرضت مسألة من المسائل الخلافية وإبراز رأي أهل السنة في ذلك. من ذلك ما جاء عند تفسيره للآية الثامنة والعشرين من سورة الأنعام: . . . في استقباح الشرع إياها وإلا فالعقل عندنا لا يحسن ولا يقبح[1]. وجاء في تفسيره للآية الأولى من سورة يوسف قوله: . . . وجل عن التغيير والحدوث كلام الحكيم الخبير فكلامه سبحانه قديم ليس بمخلوق فيبيد ولا صفة لمخلوق فينفد. . .[2]. وجاء في تفسيره للآية الثانية والعشرين من سورة السجدة بعد استشهاده بقول الزمخشري قوله: انتهى نص كلامه إلا في لفظة أسقطتها لجريها فيما لا يكاد ينفك عنه في إحراز مذهبه الخبيث. فتركها وادحاضها لا يخل بشيء من المعنى[3] وبالرجوع إلى الكشاف تبين أن ابن الزبير أسقط مما نقله عن الزمخشري لفظة «العدل» التي عرف بها مذهب المعتزلة. ومن ذلك رده على الخوارج في تكفيرهم مرتكب الكبيرة عند بيانه للحكمة الالهية من وصف من لم يحكم بما أنزل الله بأوصاف مختلفة: الكفر والظلم والفسق مع أن الموصوف واحد. قال: إن المفسرين قد أجمعوا على أن الوعيد في هذه الآية يتناول يهود وقد ثبت في الصحيح إنكارهم الرجم مع ثبوته في التوراة وفعلهم فيما نعى الله تعالى عليهم من مخالفة ما عهد إليهم فيه ونص في كتابهم حسبما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم﴾، إلى قوله: ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض﴾ إلى ما بعد وهذا كله من حكمهم بغير ما أنزل الله ثم يقول بعد: وقد تعلقت الخوارج بعموم هذه الآي واشباهها في تكفير مرتكب الكبيرة وليس شيء

(1) ملاك التأويل، ص 480.

(2) ملاك التأويل، ص 675-676.

(3) ملاك التأويل، ص 786.

من ذلك نصا في مطلوبهم وهم محجوجون بغيرها[1]. ومن ذلك ما جاء في تفسيره للآية السابعة عشرة من سوة: ص قال: وقد أجاب الزمخشري عن ذلك بما جرى فيه على شنيع المرتكب وسوء الأدب بناء على استبداد العبيد وفعلهم ما لا يرضاه الخالق سبحانه ولا يريده فجعل لله شركاء وأفرد العباد بأفعالهم استبداداً وملكاً وأجاب بناء على ما أصل ولم يوفق في هذا الموضوع لوجه المطابقة ولا حصل...[2]. ولا يترك مناسبة تمر دون أن يبرز فيها مذهبه السني أو يرد على من خالفه من ذلك ما جاء صفحة 464 من تفسيره: ولا يجب عليه سبحانه إلا ما أوجبه على نفسه. أو قوله صفحة 463: وجل كلام ربنا عن الحرف والصوت وعن شبه كلام البشر...

شيوخ ابن الزبير:

طلب ابن الزبير علوماً كثيرة وبرز في فنون شتى فكثر بذلك شيوخه، ومنهم من التقى بهم وسمع منهم، ومنهم من راسلهم أو أجازوه دون أن يلتقي بهم. جاء في الديباج المذهب: وشيوخه نحو الأربعمائة[3]. ولقد شد الرحال وتنقل في طلب العلم داخل الأندلس وخارجها، جاء في التكملة لابن عبد الملك: عني بالرواية كثيراً ورحل بسببها إلى سبتة[4] وإلى كثير من بلاد الأندلس[5]. ومن أشهر شيوخه:

- **إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر الطبري أبو إسحاق الشافعي المكي الفقيه إمام المقام الشريف**، ولد بمكة سنة 636هـ، وتوفي سنة 722هـ[6] وقد ورد في الذيل والتكملة أنه كتب إليه ولم يلقه[7].

---

(1) ملاك التأويل، ص 398-399.

(2) ملاك التأويل، ص 831.

(3) الديباج، ص 42.

(4) جاء في جذوة الاقتباس، ص 46: كان بسبتة سنة 645هـ.

(5) الذيل والتكملة 44/1.

(6) درة الحجال 187/1.

(7) الذيل والتكملة 39/1.

ـ **ابراهيم بن محمد، أبو اسحاق المعروف بابن العاصي الخطيب**، توفي بغرناطة سنة 726هـ، كان لين الجانب دمث الأخلاق[1].

ـ **أبو عبد الله محمد بن عيسى بن هلال الرعيني**، من أهل مالقة توفي سنة 652هـ[2] جاء في الذيل والتكملة: أنه كتب إلى ابن الزبير من مالقة ولم يلقه.

ـ **أبو عبد الله بن عطية القيسي**، من أهل مالقة رحل حاجاً وسمع بالمشرق من أبي الفضل جعفر بن علي الحمداني وغيره، كان من أهل الزهد والفضل، توفي ببجاية سنة 646هـ[3].

ـ **أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسين المعروف بأبي مطرف ابن عميرة**، كان عالماً بالفقه والنحو واللغة والطب والحديث وكان مجيداً في النظم والنثر، تفنن في العلوم ونظر في المعقولات وأصول الفقه ومال إلى الآداب فبرع فيها. ولد سنة 582هـ وتوفي سنة 658هـ[4] وقد كان له التأثير الكبير على ابن الزبير في علوم الحديث والأصول والفقه.

ـ **أحمد بن محمد بن ابراهيم بن محمد المرادي المعروف بالعشاب**، توفيَ سنة 736هـ ممن تأثر بهم ابن الزبير في القراءات وعلوم العربية. كان مقرئاً عالماً بالتفسير والمعاني والبيان له تفسير صغير وكتاب في المعاني والبيان[5].

---

(1) درة الحجال 179/1.
(2) التكملة 1/ ترجمة 1040.
(3) التكملة، 2 / ترجمة 1460.
(4) بغية الوعاة 319/1؛ الذيل والتكملة 150/1.
(5) معجم المؤلفين 62/2.

ـ **أحمد بن محمد القرطبي ضياء الدين**، كان محدثاً متسع الرواية مشاراً إليه بالبراعة والتفنن في علم الحديث، ولد سنة 602هـ، كان حياً إلى حدود سنة ستين وستمائة[1].

ـ **أحمد بن محمد بن التجيبي الغرناطي أبو جعفر**، يعرف بالرواد. طبيب فاضل مقرىء ممن تأثر بهم ابن الزبير في فنون العربية، قال أثير الدين أبو حيان: نقلت من شعره بخط الأستاذ أبي جعفر ابن الزبير شيخنا شعراً في فتى انثلم ثغره[2].

ـ **أحمد بن محمد خديجة ـ أبو جعفر**، من أهل قرطبة تصدر لإقراء القرآن وتعليم العربية. توفي سنة 643هـ ممن تأثر بهم ابن الزبير في القراءات والعربية. من كتبه: «تسديد اللسان لذكر أنواع البيان» و«مختصر التبصرة في القراءات»[3].

ـ **أحمد بن يوسف بن فرتون**، مؤرخ ولد بفاس سنة 530هـ وتوفي سنة 660هـ من آثاره ذيل على صلة ابن بشكوال في تراجم من جاء بعد ابن بشكوال من مشاهير علماء الأندلس وربما نحا ابن الزبير نحوه في تأليفه لصلته على صلة ابن بشكوال[4].

ـ **الحسين بن عبد العزيز بن محمد بن أبي الأحوص ـ أبو علي**، يعرف بابن الناظر، محدث، مفسر، لغوي، مؤرخ، ولد سنة 650هـ وتوفي سنة 699هـ[5].

ـ **سعد بن محمد الحفار**، سمع منه أبو جعفر القراءات سنة 645هـ وسمع

---

(1) الذيل والتكملة 475/1.
(2) الوافي بالوفيات، ص 8، ترجمة / 3475.
(3) الأعلام 210/1.
(4) معجم المؤلفين 208/2.
(5) الإحاطة 463/1-465.

منه جامع الترمذي فبرز على يديه في فن القراءات وفي علوم الحديث. توفي سنة 646هـ وكان صالحاً ثقة عدلاً[1].

ـ **عبد الرحمان بن علي بن الجوزي ـ أبو علي**، شاعر، توفي ببغداد سنة 656هـ[2] يذكر ابن عبد الملك في التكملة أنه كتب إليه من مصر ولم يلقه[3].

ـ **عبد الرحمان بن محمد بن عبد الرحمان بن رحمون المصمودي أبو القاسم النحوي**، كان ذا لسن وفصاحة ومعرفة جيدة بالنحو. مات سنة 649هـ أخذ عنه ابن الزبير علوم اللغة وخاصة النحو[4].

ـ **عبد الصمد بن عبد الوهاب بن عساكر الدمشقي ثم المكي**، كان قوي المشاركة في العلوم ولد سنة 614هـ وتوفي سنة 686هـ[5] يذكر ابن عبد الملك في التكملة أنه كتب إليه من مكة ولم يلقه[6].

ـ **عبد العظيم بن عبد الله البلوي**، من أهل مالقة يكنى بابن الشيخ، كان فقيهاً جليلاً وأصولياً، من بيت علم ودين، ومن جلة أهل الأندلس في وقته علماً وعملاً، على رسوخ قدم في الورع. كان يقرىء الفقه وأصول الفقه. يقول ابن الزبير: صحبته، رحمه الله، مدة ثلاثة أعوام وأخذت عنه مسائل من مستصفى أبي حامد مما كان له فيه اختيار أو مفهوم ما، وقرأت عليه أشياء خلال تلك المدة من الأصول وغيرها، وهو من علية من لقيت في فضله وورعه. توفي سنة 666هـ[7].

---

(1) التكملة، ص 2، ترجمة 1996.

(2) معجم المؤلفين 200/5.

(3) الذيل والتكملة 39/1.

(4) بغية الوعاة 36/2.

(5) الإعلام 133/4.

(6) الذيل والتكملة 39/1.

(7) صلة الصلة، ترجمة 50.

ـ **عبد اللطيف بن عبد المنعم بن علي بن نصر بن منصـور بن هبة الله الحراني أبو محمد**، عالم بالحديث، ومن فقهاء الحنابلة، ولد سنة 587هـ وتوفي سنة 672هـ جرت بينه وبين ابن الزبير مراسلات ولم يلتقيا[1].

ـ **عـز الدين بن عبـد العزيـز بن عبد السـلام بن أبي القـاسم السلمي الدمشقي أبو محمد المعروف بابن عبد السلام**، فقيه ولغوي ومفسر توفي سنة 660هـ جاء في التكملة لابن عبد الملك أنه راسله من مصـر ولم يلقه[2].

ـ **علي بن أحمد بن محمد بن يوسف الأنصاري المعروف بالغزال**، كان شيخاً سنياً ورعاً فاضلاً زاهداً. يقرىء القرآن وشيئاً من العربيـة والفقه، على خير وفضل منافراً لأهل الأهواء، يقول ابن الزبـير: استجزته فأجازني، رحمه الله. توفي سنة 670هـ[3].

ـ **علي بن محمد الشاري** (ولد سنة 571هـ وتوفي سنة 649هـ) سمع منه ابن الزبير السنن الكبير للنسائي. قال في صلة الصلة: رحلت إليه فسمعت منه وقرأت كثيراً وتلوت عليه الكتاب العزيز، وأقبلت إليه من حضرة غرناطة مراراً إلى أن أدركته وفاته وكان شيخاً فاضلاً ورواية ثقة وعدلاً جليلاً متحرياً ضابطاً متيقظاً عارفاً بالأسانيد والطرق والرجال، وكان، رحمه الله، سنياً منافراً لأهل البدع والأهواء معروفاً بذلك. وكنت أتلو عليه الكتاب العزيز ليلاً لاستغراق نهاره في التدريس[4]. ولقد كان لأبي الحسن التأثير الكبير على ابن الزبير فقد تخرج عليه في القراءات والحديث وتأثر به تأثراً كبيراً في مقاومة أهل الأهواء والبدع.

---

(1) الإعلام 182/4؛ معجم المؤلفين 12/6.

(2) معجم المؤلفين 249/5.

(3) صلة الصلة، ترجمة 287.

(4) صلة الصلة، ترجمة 300.

ـ **عمر بن محمد بن خليل السكوني أبو الخطاب**، مقرىء من فقهاء المالكية، إشبيلي نزل بتونس وتوفي سنة 717هـ ممن تأثر بهم ابن الزبير في الأصول والقراءات، له كتب منها: «التمييز لما أودعه الزمخشري من الاعتزالات في تفسير الكتاب العزيز» وكتاب «الأربعين مسألة في أصول الدين على مذهب أهل السنة»[1].

ـ **محمد بن ابراهيم بن عبد الواحد المقدسي**، مدرس الحنابلة توفي سنة 673هـ أول من درس مذهب أحمد بن حنبل بالصالحية، حصلت بينه وبين ابن الزبير مراسلة[2].

ـ **محمد بن أحمد بن محمد بن زكرياء المعافري الأندلسي، أبو عبد الله النحوي المقرىء**، ولد سنة 591هـ. من الذين تكون على أيديهم ابن الزبير في القراءات له منظومة في القراءات على مثال منظومة الشاطبي صرح فيها بأسماء القراء[3].

ـ **محمد بن أحمد بن عبيد الله بن العاصي الخطيب المقرىء أبو بكر اللخمي الاشبيلي**، شيخ مالقة رحل إليه أبو جعفر ابن الزبير فتلا عليه بالسبع وقال: كان أضبط من قرأت عليه بطرق الكافي وأعرفهم لإعهاده إياه وتلقيه له عن جده[4].

ـ **محمد بن سعيد بن علي بن يوسف الأنصاري أبو عبد الله المعروف بالطراز**، توفي سنة 645هـ. كان شديد العناية بالرواية معروفاً بالضبط والاتقان، موصوفاً بالبيان والبلاغة، حدث وأخذ عنه[5].

---

(1) الإعلام 224/5.

(2) الوافي بالوفيات، 2، ترجمة 263؛ الذيل والتكملة لابن عبد الملك 39/1-45.

(3) بغية الوعاة 43/1.

(4) التكملة، 2، ترجمة 2132.

(5) التكملة، ١، ترجمة 1032.

ـ **محمد بن علي الدهان، أبو عبد الله**، كان حسن السمت بارع الخطّ، طيب الخلق والخلق، جال في البلاد فأخذ بمكة والشام ومصر عن جماعة كثيرة وكان عدلاً فاضلاً على خير ودين، مات بقوص سنة 653[1].

ـ **محمد بن علي بن وهب بن مطيع المعروف بابن دقيق العيد أبو الفتح القشيري المصري المالكي الشافعي وقاضي القضاة**، صاحب التصانيف البديعة كالإلمام وعلوم الحديث وشرح عمدة الأحكام، ولد سنة 625هـ وتوفي سنة 702هـ وقد جرت بينه وبين ابن الزبير مراسلة[2].

ـ **محمد بن محمد بن محرز**، ولد سنة 569هـ وتوفي سنة 655هـ، كان أحد رجال الكمال علمًا وإدراكاً وفصاحة مع الحفظ بالفقه والتفنن في العلوم والمتانة في الآداب وحفظ اللغات والغريب وله شعر رائق بديع[3].

ـ **محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن سيد الناس ـ أبو الفتح ـ الشيخ الإمام العالم الحافظ المحدث اليعمري**، ولد سنة 661هـ وتوفي سنة 734هـ كان ممن أخذ عنهم ابن الزبير الحديث من مصنفاته «عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير» و«النفح الشذي في شرح الترمذي»[4].

ـ **محمد بن يحيى بن محمد العبدري الفاسي أبو عبد الله**، يعرف بابن مفرج ممن أخذ عنهم ابن الزبير القراءات والعربية، كان سرياً فاضلاً شديد الانقباض والتعفف على دين وخير. توفي سنة 657هـ[5].

ـ **محمد بن يوسف الطنجالي، أبو عبد الله**، محدث نحوي، مات

---

(1) نفح الطيب 58/2.

(2) فوات الوفيات 434/2؛ شذرات الذهب 5/6.

(3) التكملة، 1 / ترجمة 1041.

(4) فوات الوفيات 344/2.

(5) بغية الوعاة 265/1.

سنة 653هـ ممن تأثر بهم ابن الزبير في الحديث والنحو. كان من أهل الفضل والدين يحترف صناعة التوثيق[1].

- **محمود بن سلمان بن فهد ـ شهاب الدين الدمشقي**، ولد سنة 644هـ وتوفي سنة 725هـ. كان ممن اتقن الفنين المنظوم المنثور، جرت بينه وبين ابن الزبير مراسلة[2].

- **يحيى بن أبي الغصن ـ أبو زكرياء**، لقيه ابن الزبير في غرناطة وأجاز له سنة 690هـ عامة ما يحمله ويرويه عن أشياخه[3].

- **يحيى بن أحمد بن عبد الرحمان بن المرابط ـ يكنى بأبي بكر ـ ولد سنة 582هـ وتوفي بـ «مالقة» سنة 658هـ، يقول ابن الزبير في صلة** الصلة: وكان الشيخ أبو بكر، رحمه الله، من جلة من أخذنا عنه عدالة وفضلاً وتمسكاً بالسنة عقداً وفعلاً، كاتباً جليلاً أديباً بارعاً، متورعاً سرياً... وكتب لي بإجازة ثم لقيته وشافهني بها ورأيت منه رجلاً عظيمًا من أفضل من لقيته[4].

- **يحيى ابن عباس بن أحمد القيسي ـ أبو زكرياء ـ** من أهل «قسنطينة» رحل إلى الأندلس سنة 608 وأخذ من علمائها يقول عنه ابن الزبير: وكان الشيخ أبو زكرياء من عدول الشهود بـ «بجاية» وممن أخذ الناس عنه... كتب إلـيَّ من «بجاية» مرتين بإجازة عامة ما رواه وتاريخ كتبه الثاني تاسع شهر ربيع الأول سنة 649هـ[5].

- **يحيى بن عبد الله المولي أبو زكرياء**، من أهل «مولة» وسكن «مرسية»

---

(1) بغية الوعاة 276/1.

(2) فوات الوفيات 564/2؛ الذيل والتكملة لابن عبد الملك 39/1.

(3) درة الحجال 329/3؛ التكملة، 2 / ترجمة 2069.

(4) صلة الصلة، ت 389.

(5) صلة الصلة، ت 393.

رحل إلى المشرق وحج ولقي في رحلته جلة وأخذ عنهم. . . كان لهذا الشيخ اعتناء بالحديث ولقاء أهله وكان من أهل السنة والفضل قال ابن الزبير: لقيته «بمرسية» ــ أعادها الله ــ وقرأت عليه غير شيء وأجاز لي واستحسنت اعتناءه توفي سنة 659هـ وكان مولده في نحو سنة 575هـ[1].

ــ **يوسف بن أبي ريحانة المالقي أبو الحجاج، لعله: يوسف بن أحمد ابن طاوس أبو الحجاج النحوي المتوفي سنة 720هـ.** كان ممن تأثر بهم ابن الزبير في العربية عموماً. فقد كان أبو الحجاج إماماً في العربية والطب، آخر الأطباء بشرق الأندلس، عارفاً بكتاب سيبويه[2].

* * *

أخذ ابن الزبير عن عدد كبير من العلماء إما بصفة مباشرة أو بصفة غير مباشرة والجميع أجازوه فيما رووه أو ألفوه. جاء في الذيل والتكملة أن ابن الزبير قال: كل من ضمنت ذكره في هذا التعليق ــ يريد برنامج رواياته الذي أرسل به إلى ابن عبد الملك. ــ ممن ذكرت أني أخذت عنه عمم لي بالإجازة فيما رواه وألفه من له تأليف منهم إلاّ أبا الحسن الحفار والأستاذ أبا جعفر ابن خلف. أما الحفار فلم تتفق إجازته مع كثرة قراءتي عليه لموته وأنا غائب عن غرناطة، وأما الأستاذ أبو جعفر فلازمته ولم تتفق منه الإجازة.

والمستعرض لشيوخ ابن الزبير على اختلاف اختصاصاتهم تتضح له المكانة العلمية العالية والموسوعية التين بلغهما أبو جعفر، فلا غرابة أن تنتهي إليه الرئاسة بالأندلس في صناعة العربية إذا كان قد تتلمذ لجمع من أساطينها أمثال أبي مطرف ابن عميرة اللغوي الأديب الحاذق لفني النظم

---

(1) صلة الصلة، ت 390.

(2) عن درة الحجال 354/3.

والنثر، والعشاب العالم بفنون العربية صاحب التصانيف في المعاني والبيان، وابن رحمون النحوي ذي اللسن والفصاحة. ولا غرابة أن يبرز في القراءات وقد تتلمذ لأمثال ابن العاصي شيخ «مالقة» المقرىء. جاء في التكملة لابن الآبار: رحل إليه أبو جعفر فتلا عليه بالسبع وقال ابن الزبير: كان أضبط من قرأت عليه وأعرفهم[1]. ولأمثال علي بن محمد الشاري، يقول ابن الزبير في صلته: رحلت إليه فسمعت وقرأت كثيراً وتلوت عليه الكتاب العزيز[2].

وقد برز ابن الزبير في الحديث والنقد على أيدي أمثال ابن سيد الناس الحافظ المحدث صاحب: «عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير»، و«النفح الشذي في شرح الترمذي»[3]، وأمثال الحفار الذي سمع منه جامع الترمذي. وقد تتلمذ ابن الزبير لابن الشيخ وأبي مطرف ابن عميرة وغيرهما ومن هنا جاءت معرفته بالأصلين. أما عن التفسير فقد تسلح ابن الزبير بعيون آلات العلوم التي تعينه عليه هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد تلقاه عن جلة من شيوخه أمثال أحمد المرادي المعروف بالعشاب العالم بالتفسير وصاحب التصانيف فيه وابن الناظر المفسر واللغوي المشهور.

مكانته العلمية:

«تلقى ابن الزبير العلم عن عدد كبير من علماء عصره داخل الأندلس وخارجها، فتضلع وبرز في فنون كثيرة، واحتل منزلة علمية جعلته وحيد عصره ونسيج وحده، بلغ من الشهرة والإشادة بذكره ما لم يبلغه سواه»[4]. . «انتهت اليه الرئاسة بالأندلس، في صناعة العربية،

---

(1) التكملة لابن الآبار، 2، ت 2132.

(2) فوات الوفيات 344/2.

(3) صلة الصلة، ت 300.

(4) عن الإحاطة 188/1.

وتجويد القرآن، ورواية الحديث إلى المشاركة في الفقه، والقيام على التفسير، والخوض في الأصلين»[1] . . «صار قبلة طلاب العلم وصارت الرحلة إليه»[2] . . «ارتحل إلى بابه العلماء لسعة معارفه»[3] . . «وكان محدث الأندلس بل المغرب في زمانه به أبقى الله ما بأيدي الطلبة من العربية وغيرها»[4] . . «فكان بحق أستاذ الزمان[5] معظمًا عند الخاصة والعامة»[6].

ابن الزبير اللغوي:

اشتهر ابن الزبير بتضلعه من اللغة وحذقه لفنونها. قال ابن الخطيب في الاحاطة: انتهت إليه الرئاسة بالأندلس في صناعة العربية[7] وقال فيه تلمذة أبو حيان: كان يحرر اللغة وكان أفصح عالم رأيته[8]. والمطلع على تفسيره: ملاك التأويل يلمس تمكنه من العربية ورسوخ قدمه فيها، يلمس ذلك في أسلوبه المتين واستعمالاته الفصيحة وشدة تحريه في ذلك بالإكثار من الاستشهاد وضرب الأمثلة بالشعر وأقوال العرب وآراء أعلام اللغة وأساطينها.

وقد كان في تفسيره كثير الاعتماد على النحو، كثير الاستشهاد بسيبويه والمذاهب المتعددة للمدارس النحوية حتى يصل في ذلك أحياناً إلى الإفراط وسأزيد ذلك بياناً وتوضيحاً عند دراستي لمنهج ابن الزبير في تفسيره عقب هذا البحث.

---

(1) عن الديباج، ص 42.
(2) عن الذيل والتكملة 1/39-45.
(3) عن الوافي بالوفيات 6/222-223.
(4) عن بغية الوعاة 1/291-292.
(5) عن نفح الطيب 6/98.
(6) الاعلام 1/83.
(7) الإحاطة 1/188؛ الديباج، ص 42.
(8) البدر الطالع، ص 33.

ان رسوخ قدم ابن الزبير في النحو لا تؤكده فقط كثرة إعتماده عليه في تفسيره وإنما يؤكده أيضاً تأليفه فيه فقد جاء في كشف الظنون أنه علق على كتاب سيبويه تعليقة[1] وقد عده السيوطي في البغية من النحاة وأورد قولة تلميذه أبي حيان: كان محدثاً جليلاً ناقداً نحوياً[2]. وكثيراً ما نسبه المترجمون له إلى النحو، جاء في تذكرة الحفاظ: أنه الغرناطي النحوي[3]، وفي البدر الطالع: أبو جعفر الأندلسي الحافظ النحوي[4] وفي الوافي بالوفيات: عالم الأندلس النحوي[5].

هذه شهادات كثيرة على رسوخ قدم ابن الزبير في النحو أؤكدها بإيراد مثال من تفسيره. جاء في تفسيره لأم القرآن وبالتحديد في جوابه عن السؤال الأول يقول: والجواب عن السؤال الأول بعد تمهيده وهو أن نقول: إن قوله سبحانه: ﴿الحمد لله﴾ مبتدأ وخبر وكذلك قوله: ﴿فلله الحمد﴾ وتأخر في هذه الثانية المبتدأ والحاصل في الموضعين معنى واحد وهو حمده تعالى بما هو أهله ومعلوم أن التقديم والتأخير فيما بين المبتدأ والخبر إذا لم يقع عارض مما يعرض في التركيب ككون المبتدأ مما يلزم صدر الكلام أو كون الخبر كذلك فيلزم تقديم ماله الصدرية إلى غير ذلك من العوارض وهي كثيرة فما لم يعرض عارض يوجب لأحدهما التقديم أو التأخير فتقديم أيهما كان وتأخير الآخر عربي فصيح الا أن مرتبة المبتدأ التقديم ليبنى عليه الخبر فتقديمه عند عدم العوارض اللفظية أولى كما في القرآن وإذا وضح هذا فللسائل أن يقول ما الموجب لتقديم الخبر على المبتدأ في سورة الجاثية وهل كان يسوغ عكس الواقع؟ والجواب أن العوارض الموجبة لتقديم ما مرتبته

---

(1) كشف الظنون 1427/2.

(2) بغية الوعاة 291/1-292.

(3) تذكرة الحفاظ 265/4-266.

(4) البدر الطالع، ص 33-35.

(5) الوافي بالوفيات 222/6-223.

التأخير وتأخير ما مرتبته التقديم ليست منحصرة في جهة التركيب اللفظي بل قد يعرض من جهة المعنى وتقدير الكلام يقتضي ذلك ويوجبه[1] ويستمر المؤلف في تقرير المسألة والإجابة عن السؤال معتمداً في ذلك على تمهيد نحوي مستفيض. هذه عينة ومثيلاتها في ملاك التأويل كثيرة، ومن رام الوقوف على عينة أخرى فعلية بما أورده المؤلف في تفسيره للآية الثانية من أم القرآن والذي يضيق المقام عن إيراده هنا، ففيه يتبيّن مدى رسوخ قدم ابن الزبير في علوم العربية ومدى اعتماده عليها في تفسيره لكتاب الله وإبراز مكنوناته.

ابن الزبير القارىء:

كان ابن الزبير راسخ القدم في القراءات وشهد له بذلك من جهة تلاميذه ومعاصروه وكل من ترجم له وشهد له بذلك من جهة أخرى اعتماده. في تفسيره على القراءات اعتماداً متزايداً ملفتاً للنظر.

فمن الجهة الأولى: ما قال فيه ابن عبد الملك في التكملة: وهو من أهل التجويد والاتقان عارف بالقراءات[2]. وجاء في الدرر الكامنة: صار علامة عصره في الحديث والقراءة[3] وقال فيه تلميذه أبو حيان: له اليد الطّولى في علم الحديث والقراءات. . .[4] وقال ابن ناصر الدين: كان نحوياً حافظاً علامة أستاذ القراء[5] وجاء في الدرر الكامنة: تلا بالسبع على أبي الحسن الشاري وسمع منه[6] وفي الإحاطة: كان خاتمة المحدثين وصدر العلماء المقرئين. . . أخذ عن الجلة المقرئين كالمقرىء. أبي عبد الله

(1) ملاك التأويل، ص 151-152.
(2) الذيل والتكملة 39/1-45.
(3) الدرر الكامنة 89/1-91.
(4) الوافي بالوفيات 222/6-223.
(5) شذرات الذهب 16/6.
(6) الدرر الكامنة 89/1-91.

محمد بن إبراهيم بن مسمغور الغرناطي الطائي[1]. ومن الجهة الثانية فإن ابن الزبير قد اعتمد على القراءات في تفسيره لكتاب الله اعتماداً أساسياً فكثيراً ما نبه إلى القراءات المختلفة لآية أو لفظة وهو في ذلك يرجع القراءة لصاحبها أحياناً ويترك أحياناً أخرى مما يدل على تضلعه في هذا الفن، وصدق الذهبي في التذكرة حين قال: أفاد الناس في القراءات وعللها ومعرفة طرقها[2].

ومن إشاراته إلى القراءات في تفسيره ما جاء في بيانه للآية الثانية من أم القرآن: الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿الحمد لله رب العالمين الرحمان الرحيم مالك يوم الدّين﴾ اتفق القراء السبعة على الاتباع في هذه الصفات العلية وإجرائها على ما قبلها[3] وزاد بعد: واتفق القراء السبعة في هذه الصفات الأربع وهي قوله في آية البقرة: ﴿والموفون. . . والصابرين﴾ وفي آية النساء: ﴿والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة﴾ على القطع كما اتفقوا في أم القرآن في الأربع صفات الواردة فيها على الاتباع[4] ومن الأمثلة التي أرجع فيها المؤلف القراءة لصاحبها ما جاء في بيانه للآية الرابعة من سورة الفاتحة: الآية الرابعة قوله تعالى: ﴿ملك يوم الدين﴾ وفي قراءة عاصم والكسائي ﴿مالك يوم الدين﴾ وفي سورة آل عمران: ﴿قل اللهم مالك الملك﴾ ولم يقرأ بغيره وفي سورة الناس ﴿ملك الناس﴾ ولم يقرأ أيضاً بغيره. ثم ينطلق من بيان القراءة إلى تتبع المعنى يقول بعد: فللسائل أن يسأل فيقول: ما وجه هذا الاختلاف وهل اختصاص آية أم القرآن بالقراءتين لموجب يخصها مع اتحاد المقصود في الآيات الثلاث من أنه سبحانه المنفرد بملك الكل وإيجادهم وانه الملك المالك أم ذلك لاختلاف

---

(1) الإحاطة 1/188-193.

(2) تذكرة الحفاظ 4/265-266.

(3) ملاك التأويل، ص 159.

(4) نفس الصفحة والتي تليها.

المقاصد[1]؟ ثم يجيب معتمداً في ذلك ما أثاره من اختلاف في القراءة. ويقول في بيانه للآية الثانية عشرة من سورة البقرة: والسؤال الخامس قوله في البقرة ﴿يغفر لكم خطاياكم﴾ وفي الأعراف في قراءة الجماعة غير أبي عمرو وابن عامر ﴿خطيئاتكم﴾ مجموعاً جمع سلامة[2].

ابن الزبير المحدث:

اشتغل ابن الزبير بالحديث والرواية واشتهر بذلك بين علماء عصره. سمع الحديث عن الجلة من علماء بلاد الأندلس وغيرها من بلاد الإسلام وشرف بفضل الرحلة في طلب الحديث يقول عنه ابن عبد الملك في التكملة: حافظ للحديث مميز لصحيحه من سقيمه ذاكر لرجاله وتواريخهم متسع الرواية عني بها كثيراً ورحل بسببها إلى «سبتة» وإلى كثير من بلاد الأندلس[3]. وجاء في الوافي بالوفيات: عني بالحديث أتم عناية ونظر في الرجال وفهم واتقن وجمع وألف[4] وجاء في البغية: كان محدث الأندلس بل المغرب في زمانه[5] وعن البدر الطالع: جمع وصنف وحدث بالكثير وصار علامة عصره في الحديث والقراءة[6] وعن تذكرة الحفاظ: سمع السنن الكبير للنسائي من أبي الحسن الشاري بسماعة لجميعه من أبي محمد بن عبيد الله، وعني بهذا الشأن ونظر في الرجال[7] وعن فهرس الفهارس: قال الحافظ بن ناصر: كان حافظاً علامة أستاذ القراء وشيخ الاسناد عني بالحديث ونظر في الرجال وكان ثقة وعمدة[8].

(1) ملاك التأويل، ص 169-170.
(2) ملاك التأويل، ص 203.
(3) الذيل والتكملة 1/39-45.
(4) الوافي بالوفيات 6/222-223.
(5) البغية 1/291-292.
(6) البدر الطالع، ص 33-35.
(7) تذكرة الحفاظ 4/265-266.
(8) فهرس الفهارس 1/3411.

هذه جملة من الشهادات تؤكد رسوخ قدم ابن الزبير في علوم الحديث رواية ودراية ولم يقتصر ابن الزبير على الأخذ والسماع وإنما حدث وأسمع وكان في ذلك عمدة وثقة. جاء في التكملة: روى عنه جماعة من أهل بلده وطائفة من الراحلين إليه من أقطار الأندلس وغيرها. . . وهو الآن متصدر لاقراء كتاب الله تعالى واسماع الحديث. . .[1].

وابن الزبير متحر في الرواية فقد دون برنامج رواياته. يقول ابن عبد الملك في التكملة: وإنما استخرجت هؤلاء المذكورين هنا ـ (يعني من ذكرهم من شيوخه) ـ من برنامج رواياته التي بعث بها إلي محملاً لي ولبني إياه وقال ـ يعني ابن الزبير ـ في قريب من آخره: وكل من ضمنت ذكره في هذا التعليق ممن ذكرت أني أخذته عنه عمم لي بالإجازة فيما رواه وألفه من له تأليف منهم الا أبا الحسن الحفار والأستاذ أبا جعفر بن خلف. أما الحفار فلم تتفق إجازته مع كثرة قراءتي عليه لموته وأنا غائب عن غرناطة، وأما الأستاذ أبو جعفر فلازمته ولم تتفق منه الإجازة[2] ـ كما اهتم بالجرح والتعديل ومعرفة الرجال جاء في فهرس الفهارس: عني بالحديث ونظر في الرجال[3].

ابن الزبير الفقيه الأصولي:

إن معرفة ابن الزبير بالفقه أمر أساسي إذ الفقه حجر الزاوية للعلوم الشرعية كلها، وتمكن ابن الزبير من الفقه يشهد له أكثر من دليل.

جاء في الإحاطة أنه ولي قضاء المناكح[4] ولا سبيل له إلى ذلك

(1) الذيل والتكملة 1/39-45.
(2) الذيل والتكملة 1/39-45.
(3) فهرس الفهارس 1/341.
(4) الإحاطة 1/183-193

الا بمعرفة راسخة بالفقه، وفي التكملة: وهو الآن متصدر لاقراء كتاب الله تعالى وإسماع الحديث وتعليم العربية وتدريس الفقه[1].

وكان إلى ذلك أصولياً وما جاء في تفسيره من اعتماد على القواعد الأصولية في تقرير بعض المسائل لأكبر دليل على ذلك. وتذكر كتب التراجم أن له شرحاً لكتاب الإشارة للباجي في الأصول[2]. وجاء في الوافي بالوفيات أنه صنف في أصول الفقه وفي علم الكلام والفقه[3]. وذكر تلميذه أبو حيان أن له مشاركة في أصول الفقه[4] وجاء في الإحاطة: انتهت إليه الرئاسة في العربية... إلى المشاركة في الفقه والقيام على التفسير والخوض في الأصلين[5].

وهذه عينة من تفسير ابن الزبير استعمل فيها المؤلف القواعد الأصولية: «فالآية هنا واردة في مخصوصين والكلام مقيد فلم يكن ليناسبه الإطلاق والتعميم الحاصل من التأكيد بكل المحرزة للعموم والمقتضية الإحاطة والاستغراق، وأما آية الأنفال فقد قال قبلها: ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يُغفر لهم ما قد سلف﴾[6] وهذا بمقتضى اللفظ في كل كافر، ومثل هذا وان ورد على سبب خاص فان وروده على ذلك السبب غير مانع من دعوى العموم فيه وهذا متفق عليه في فن الأصول.[7]

---

(1) الذيل والتكملة 39/1-45.
(2) معجم المؤلفين 133/1؛ الإحاطة 188/1-193؛ شجرة النور الزكية، ص 212؛ الديباج، ص 42؛ درة الحجال، ص 11-12.
(3) الوافي بالوفيات 222/6-223.
(4) الوافي بالوفيات 222/6-223.
(5) الإحاطة 188/1-193، ويعني بالأصلين، أصول الفقه وأصول الدين.
(6) سورة الأنفال: آية 38.
(7) ملاك التأويل، ص 262.

ابن الزبير المؤرخ:

لا غرابة في أن يعد ابن الزبير من المؤرخين فقد كان له اليد الطولى في التأريخ لاعلام الأندلس، وتآليفه في هذا الميدان أصدق شاهد على ذلك. ألف «صلة الصلة» وذيل بها على صلة ابن بشكوال، ترجم فيها لعدد كبير من الاعلام[1] جاء في تذكرة الحفاظ: عمل تاريخاً للأندلسيين ذيل به على الصِّلة لابن بشكوال[2] وله كتاب: الإعلام بمن ختم به قطر الأندلس من الأعلام[3] ومن تآليفه في هذا الميدان: معجم شيوخه: جمع فيه أسماء شيوخه وتراجمهم[4] يضاف إلى ما سبق: برنامج رواياته يقول ابن عبد الملك في التكملة: إنما استخرجت هؤلاء المذكورين هنا يعني شيوخه ــ من تاريخ برنامج رواياته التي بعث بها إلي محملاً لي ولبني إياه[5].

إن كل هذه التآليف شاهد صدق على ما وصفه به تلميذه أبو حيان في النضار حين قال: كان محدثاً جليلاً ناقداً أصولياً أديباً فصيحاً مفوهاً حسن الخط مقرئاً مفسراً مؤرخاً.

ابن الزبير المفسر:

اشتغل ابن الزبير بتفسير كتاب الله وأكبر شاهد على ذلك تفسيره الجليل الذي وفقني الله إلى العناية به وتحقيقه. قصد فيه المؤلف إلى توجيه ما تكرر من آيات القرآن لفظاً، أو آختلف بتقديم أو تأخير أو بعض زيادة في

---

(1) كشف الظنون 286/1؛ معجم المؤلفين 138/1؛ فهرس الفهارس 341/1؛ الاعلام 83/1؛ البدر الطالع، ص 33-35.

(2) تذكرة الحفاظ 265/4-266.

(3) كشف الظنون 286/1؛ الاعلام 83/1؛ البدر الطالع، ص 33-35؛ الدرر الكامنة 89/1-91.

(4) الاعلام 88/1؛ الذيل والتكملة 39/1-45.

(5) الذيل والتكملة 39/1-45.

التعبير[1] وإبراز المعاني الكامنة وراء ذلك كله لدحض شبهة التكرار والقطع بذوي الألحاد والتعطيل القائلين بأن تخصيص كل آية من تلك الآيات بالوارد فيها مما خالفت فيه نظيرتها ليس لسبب تقتضيه وداع من المعنى يطلبه ويستدعيه[2] ولأجل هذا سماه: ملاك التأويل القاطع بذوي الألحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ في أي التنزيل[3] تناول فيه القرآن كله سورة سورة من الفاتحة إلى الناس.

يضاف إلى ما تقدم شهادة تلميذه أبي حيان له باشتغاله بتفسير كتاب الله قال أبو حيان: كان محدثاً جليلاً ناقداً نحوياً أصولياً أديباً فصيحاً مفوهاً حسن الخط مقرئاً مفسراً مؤرخاً[4]. قال ابن الخطيب في الاحاطة: إليه انتهت الرئاسة بالأندلس في صناعة العربية وتجويد القرآن ورواية الحديث إلى المشاركة في الفقه والقيام على التفسير والخوض في الأصلين.

ابن الزبير الناقد:

إن من جملة ما ينكشف لدارسي ملاك التأويل المسلك النقدي الذي التزمه المؤلف في نقله لآراء العلماء، فقد كان ابن الزبير لا يكتفي بالاستشهاد بآراء الآخرين بل كان كثيراً ما يعقب على ذلك وينقد، أنظر إليه كيف يؤاخذ الرازي على بعض تقصيره يقول: قلت تعرض أبو الفضل ابن الخطيب لقوله تعالى: ﴿نزل عليك الكتاب... وأنزل التوراة والانجيل﴾[5] ووجه ذلك على ما ذكرته. ثم اعترض على ذلك بقوله «الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب» ولم يفصل وقال إنه مشكل وقد

---

(1) مقدمة التفسير، ص 145.
(2) مقدمة التفسير، ص 145.
(3) مقدمة التفسير، ص 148.
(4) بغية الوعاة 291/1-292.
(5) سورة آلة عمران: آية 3.

بينا أنه لا إشكال في ذلك على ما تقعد قبل والحمدلله[1]. ويقول في موضع آخر: ناقداً الإسكافي: ففي هذه الآية ثلاثة سؤالات تعرض منها صاحب كتاب الدرة للفرق بين «يذبحون» وقوله في سورة إبراهيم «ويذبحون» وأغفل سوى ذلك[2].

ويوجه ابن الزبير نقداً للمفسرين عند تعرضه للآية الثالثة عشرة من سورة النحل فيقول: «وأشار بعضهم (يعني المفسرين) إلى الفرق بين الآيتين من غير تحرير ولا ركون إلى توجيه يعتمد..[3] ثم عقد بعد هذا فصلاً نقد فيه بعض المفسرين ونخص بالذكر منهم أبا الفضل بن الخطيب فقال بعد أن أورد ما جاء في التفسير الكبير: هذا حاصل ما وقع في هذا التفسير، ولم يقع فيه تعرض لشيء من ألفاظ الآية وتنزيل هذه المآخذ على الآية وأخذها من أبعد شيء. وقد ذكرت في ذلك منزلاً على الآية ما أراه أولى في المراد بها والله أعلم. وأما قول الأمامية: أنه لا بد في كل عصر وقرن من إمام معصوم ليشهد عليها في القيامة فباطل، وقد كفانا وجه فساده من تقدم. وقول الأصم بعيد لما قاله القاضي، وأما ما اعتمده أبو الفضل فبعيد أيضاً، وفيه ما يشبه الصغو إلى الإمامية[4]. وجاء في تفسير الآية الأولى من سورة مريم: وما قاله المفسرون من أن المراد هنا منعه عن النساء بأي وجه قالوه فلا يصح ــ والله أعلم ــ لأن عدم القدرة على النساء نقص، والأنبياء منزهون عن النقص[5].

هذه بعض أمثلة من مواقفه النقدية الكثيرة التي يزخر بها تفسيره ملاك التأويل، تؤكد كلها بأن ابن الزبير لا يكتفي بالنقل وإنما يتصدى للرد والنقد والتصويب كلما سنحت الفرصة.

---

(1) ملاك التأويل، ص 290.

(2) ملاك التأويل، ص 198.

(3) ملاك التأويل، ص 756.

(4) ملاك التأويل، ص 760.

(5) ملاك التأويل، ص 794.

ابن الزبير الشاعر:

أشار ابن الخطيب في الإحاطة[1] إلى أن ابن الزبير كان يقرض الشعر، ولاحظ أن شعره كان مختلفاً عن نمط الإجادة. ويؤكد ابن عبد الملك في التكملة[2] هذا فيقول: وقد ولعت طائفة من علماء أهل عصره بالطعن على تصانيفه وتنقصه بسببها ولا سيما أرجوزته المذكورة (يريد الأرجوزة التي نظمها في الرد على الشوذية)، فإنهم يتخذونها سخرياً ويرددونها هزءة، وقد كان الأولى به أن لا يتعرض لنظمها فإنه منحط الطبقة في النظم...).

وقد أورد ابن الخطيب أبياتاً من شعره يقول:

ما لي وللتسئال لا أم لي	إن سلت من يعزل أو من يلي
حسبي ذنوب أثقلت كاهلي	ما إن أرى إظلامها ينجلي
يا رب عفواً إنها جمة	إن لم يكن عفوك لا أم لي

مؤلفات ابن الزبير:

صنف ابن الزبير في كثير من المعارف التي عني بها[3]. قال تلميذه أبو حيان: صنف في أصول الفقه وفي علم الكلام والفقه وله كتب كثيرة وأمهات[4] ووصفه صاحب درة الحجال: بأنه ذو التآليف الجمة[5].

تجمع هذه الأدلة وتؤكد على أن لابن الزبير مصنفات كثيرة ولكن بعد تتبع الفهارس وكتب التراجم لم يقع العثور على أكثر من اثني عشر عنواناً. ولعل هذا التناقض يفسره ما ورد في الإحاطة من حديث مطول

---

(1) الإحاطة، ص 188.

(2) الذيل والتكملة 39/1.

(3) الذيل والتكملة 1/39-45.

(4) الوافي بالوفيات 6/222-223.

(5) درة الحجال، ص 11.

عن محنة ابن الزبير[1] وفقدانه بسبب ذلك الكثير من كتبه، يقول ابن الخطيب: .. وبلغ الأستاذ النياحة ففر لوجهه وكبس منزله لحينه فأستولت الأيدي على ذخائر كتبه وفوائد تقييده عن شيوخه... وجاء بعد: «بعد ثبات أمره والظفر بكثير من منتهب كتبه دالت الدولة للأمير أبي عبد الله نصر بمالقة»[2].

بعد هذا التمهيد أورد مصنفات ابن الزبير الأول فالأول معتمداً في ذلك ترتيب أسمائها ترتيباً أبجدياً:

1 ـ أرجوزة في بيان مذهب الشوذية[3]:

أشار إلى هذه الأرجوزة ابن عبد الملك في التكملة[4] يقول: وقد وقفت على فهرسة رواياته وكتاب ردع الجاهل وبعض تاريخه في علماء الأندلس وأرجوزته المذكورة. ويشير بعد إلى أن هذه الأرجوزة كانت منحطة النظم وكانت منفذاً لطعن أعدائه في مصنفاته والتنقيص من قيمته العلمية يقول صاحب التكملة: وقد ولعت طائفة من أهل عصره بالطعن على تصانيفه وتنقيصه بسببها ولا سيما أرجوزته المذكورة فإنهم يتخذونها سخرياً ويرددونها هزءة ولقد كان الأولى به أن لا يتعرض لنظمها فإنه منحط الطبقة في النظم.

2 ـ كتاب الإعلام بمن ختم به القطر الأندلسي من الأعلام:

أوردت ذكره الكثير من كتب التراجم[5] إلا أنها لم تفصح عن محتواه ويبدو من خلال عنوانه أنه كتاب ترجم فيه أبو جعفر للأعلام من علماء الأندلس المتأخرين.

---

(1) أفرد لها عنصر خاص فيما سبق، ص66.

(2) الإحاطة 188/1-198.

(3) فرقة من فرق الصوفية أنظر ص67.

(4) الذيل والتكملة 39/1-45.

(5) ورد ذكره في الذيل والتكملة 39/1-45؛ الطالع، ص 33-35؛ الدرر الكامنة 89/1-91؛ كشف الظنون 286/1؛ البدر.

3 ـ برنامج رواياته:

ذكره ابن عبد الملك في التكملة[1] قال: فمن تصانيفه برنامج رواياته وقال: وإنما استخرجت هؤلاء المذكورين (يعني شيوخ ابن الزبير) من برنامج رواياته التي بعث بها إلي محمّلاً لي ولبني إياه، ونقل عن ابن الزبير قوله في آخر البرنامج: وكل من ضمنت ذكره في هذا التعليق ممن ذكرت أني أخذت عنه عمم لي بالاجازة فيما رواه وألفه من له تأليف منهم إلا أبا الحسن الحفار والأستاذ أبا جعفر ابن خلف أما الحفار فلم تتفق إجازته مع كثرة قراءتي عليه لموته وأنا غائب عن غرناطة، وأما الأستاذ أبو جعفر فلازمته ولم تتفق منه الاجازة.

وذكر عقب ذلك الفصل روايته الأربعين للسفلي عن أبي زيد العشاب وتعقبه في أصول الفقه والعربية على أبي عبد الله العبدري الصوفي وإنشاده إياه فلم يسمهما في جملة شيوخه الذين ذكرهم في صدر برنامج رواياته المشار إليه لأن أبا زيد لم يجز له، وأبا عبد الله لم يكن يقول بالاجازة.

هذه بعض نقول عن التكملة تعطينا فكرة عن محتوى هذا البرنامج.

4 ـ البرهان في تناسب[2] سور القرآن:

قال صاحب كشف الظنون[3]: ذكر فيه مناسبة كل سورة لما قبلها[3] وقد ذكره وأحال عليه في مواضع من تفسيره. من ذلك ما جاء في الصفحة 155، قال: أما سورة الأنعام فمشيرة إلى إبطال مذهب الثنوية ومن قال بمثل قولهم ممن جعل الأفعال بين فاعلين إلى ما يرجع إلى هذا وقد بسطت هذا في كتاب البرهان. وجاء في صفحة 801 من تفسيره قوله: وإنما

---

(1) الذيل والتكملة 1/39-45.

(2) في الديباج ودرة الحجال والاعلام والإحاطة، في ترتيب.

(3) كشف الظنون 1/241.

خصت هذه السورة ببيان كيفية أخذ المكذبين كما بينته في كتاب البرهان.
ومنه ما جاء صفحة 316: وقد أوضحنا في كتاب البرهان أن ترتيب السور بتوقيف على أصح المأخذين، وأما ترتيب الآيات فلا توقف فيه...

5 ـ تعليقه على كتاب سيبويه:

أشار إليها صاحب كشف الظنون بقوله: علق على كتاب سيبويه تعليقة[1] وجاء في بغية الوعاة: صنف تعليقاً على كتاب سيبويه[2] وكذا في معجم المؤلفين[3] ومما يؤكد تأليف ابن الزبير لهذه التعليقة كثرة إحالاته في تفسيره على الكتاب واستشهاداته المتعددة بما ورد فيه من أشعار وأمثال.

6 ـ ردع الجاهل عن اعتساف[4] المجاهل
في الرد على الشوذية وإبداء غوائلها الخفية:

ورد ذكره في أغلب الكتب التي ترجمت لابن الزبير[5] وجاء في الذيل والتكملة أنه في الرد على الشوذية وإبداء غوائلها الخفية[6] وقال ابن الخطيب في الإحاطة: هو في الرد على الشوذية[7] وهو كتاب جليل ينبىء عن التفنن والاضطلاع. وجاء في الديباج شيء قريب من هذا: هو في الرد على الشوذية وهو كتاب جليل القدر ينبىء عن تفنن وإطلاع. أما ما جاء في كشف الظنون فيبدو غريباً، قال حاجي خليفة: هو في الرد على الشعر

---

(1) كشف الظنون 1427/2.
(2) بغية الوعاة 291/1-292.
(3) معجم المؤلفين 138/1.
(4) في الإحاطة: عن اغتياب.
(5) الإحاطة، شجرة النور الزكية، هدية العارفين، درة الحجال، الديباج المذهب، الدرر الكامنة، كشف الظنون.
(6) الذيل والتكملة 39/1-45.
(7) فرقة من فرق الصوفية بالمغرب تنسب إلى أبي عبد الله الشوذي الإشبيلي المعروف بالحلوي دفين تلمسان.

وذمه[1] وقد أورد ابن الزبير في تفسيره ذكر الشوذية ورد عليها من ذلك ما جاء في تفسيره للآية الأولى من سورة النمل[2] قال. . . فإن الرسل عليهم السلام معصومون من الكفر مطلقاً بإتفاق أهل القبلة إلا ما قالته الشوذية ومن قال بقولهم من المارقين ممن لا عبرة به.

7 ـ الزمان والمكان:

ورد ذكر هذا الكتاب في كل من الإحاطة[3] ومعجم المؤلفين[4] والإيضاح[5]. ووصفه صاحب الإحاطة بقوله: وهو وصمة تجاوز الله عنه.

8 ـ سبيل الرشاد[6] في فضل الجهاد:

ورد ذكره في كثير من الفهارس وكتب التراجم[7] وهو كما يدل عليه اسمه في بيان فضل الجهاد وهو مساهمة من المؤلف في تحفيز همم المسلمين إلى الجهاد في سبيل الله وحماية أرض الإسلام بالأندلس من الغزو النصراني الذي استفحل أمره في عهده.

9 ـ شرح الإشارة للباجي:

تجمع الكتب التي أوردت ذكره[8] أنه في الأصول شرح فيه المؤلف كتاب الإشارة للباجي[9].

---

(1) كشف الظنون 340/1.

(2) ملاك التأويل، ص 898.

(3) الإحاطة 188/1-193.

(4) معجم المؤلفين 138/1.

(5) إيضاح المكنون 301/2.

(6) في درة الحجال: سبيل الإرشاد.

(7) في الإحاطة 188/1-193؛ إيضاح المكنون 5/2؛ درة الحجال ص 11-12؛ الديباج ص 42.

(8) الإحاطة 188/1-193؛ معجم المؤلفين 138/1؛ شجرة النور الزكية ص 212؛ درة الحجال ص 11-12؛ الديباج المذهب ص 42.

(9) الباجي: علي بن محمد الباجي المغربي الأصولي (631هـ ـ 714هـ).

10ـ صلة الصلة البشكوالية[1]:

سماه بعضهم بتاريخ علماء الأندلس[2] قال ابن عبد الملك في التكملة[3] فمن تصانيفه برنامج رواياته، وتاريخ علماء الأندلس وهو المعروف بصلة الصلة الذي وصل به صلة الراوية أبي القاسم ابن بشكوال. . .

هذا الكتاب مطبوع حققه وأخرجه المستشرق لفي بروفنصال، طبع بالرباط بالمطبعة الاقتصادية سنة 1938.

11ـ معجم شيوخه:

ورد ذكره في كل من كشف الظنون[4] والأعلام[5] والدرر الكامنة [6] وجاء في الأعلام: ومن كتبه معجم جمع فيه أسماء شيوخه وتراجمهم. وجاء في التكملة قول ابن الزبير متحدثاً عن شيوخه: وقد استوفيت ذكرهم في جزء مشيختي، ويعلق صاحب التكملة على ذلك فيقول: ولم أقف عليه (يعني معجم شيوخه)[7].

12ـ ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل:

كذا ورد اسمه في النسخ الأربع التي اعتمدتها في التحقيق دون أي اختلاف بينها. قال ابن الزبير في مقدمة تفسيره: «ولما تيسر بفضل الله

---

(1) معجم المؤلفين: الذيل على صلة ابن بشكوال وسماه صلة الصلة البشكوالية حققه وأخرجه المستشرق لفي بروفنصال سنة 1938.
(2) الدرر الكامنة 1/89-91.
(3) الذيل والتكملة 1/39-45.
(4) كشف الظنون 2/1735؛ الإعلام 1/33؛ الدرر الكامنة 1/89-91.
(5) الأعلام 1/83.
(6) الدرر الكامنة 1/89-91.
(7) الذيل والتكملة 1/39-45.

تعالى المقصود من هذا الغرض بهر حسناً وكمالاً ولاح في أفق التفاسير لنجومها هلالاً سميته بكتاب: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل»[1] ومن هنا يصبح ما جاء في الفهارس وكتب التراجم من اختلاف في اسمه تحريفاً للأصل. ورد في بعضها مختصراً[2] وورد في البعض الآخر كاملاً مع شيء من التحريف: ملاك التأويل القاطع لذوي الإلحاد والتعطيل وتوجيه المتشابه اللفظي من آي التنزيل[3]. وقد تعددت أقوال العلماء وآراؤهم فيه. قال صاحب كشف الظنون: هو في متشابه القرآن في فنون التفسير لخص فيه كتاب الحصنكيفي وزاد عليه أوله: الحمد لله المانح من شاء ما شاء[4]. . . وجاء في الدرر الكامنة: جمع كتاباً في فن من فنون التفسير سماه ملاك التأويل نحا فيه طريق الحصكفي الخطيب في ذلك، فلخص كتابه وزاد عليه شيئاً بنفسه[5]. ووصفه بعضهم بأنه غريب في معناه[6] وربما ترجموا بقولهم هذا عما قاله ابن الزبير في المقدمة: إنه باب لم يقرعه ممن تقدم وسلف ومن حذا حذوهم ممن أتى بعدهم وخلف أحد فيما علمته على توالي الأعصار والمدد وترادف أيام الأبد مع عظيم موقعه وجليل منزعه ومكانته في الدين[7]. . .

---

(1) أنظر صفحة 148.

(2) الدرر الكامنة 89/1-91؛ الديباج، ص 42؛ درة الحجال، ص 11-12؛ البدر الطالع، ص 33؛ معجم المؤلفين 138/1؛ الإحاطة 193/1؛ شجرة النور الزكية، ص 212.

(3) كذا ورد في كشف الظنون 1813/2؛ وفي إيضاح المكنون 551/2.

(4) كشف الظنون 1813/2.

(5) الدرر الكامنة 89/1-91.

(6) الإحاطة 188/1-193؛ شجرة النور الزكية، ص 212؛ درة الحجال، ص 11-12؛ الديباج، ص 42.

(7) مقدمة التفسير، ص 146.

تلاميذه:

روى عن ابن الزبير جماعة من أهل بلده وطائفة من الراحلين إليه من أقطار الأندلس وغيرها[1] «وتفقه عليه خلق»[2] من هؤلاء:

1 ـ ابراهيم بن محمد بن علي بن محمد بن أبي العاصي التنوخي أصله من طريف واستوطن بغرناطة. كان نسيج وحده حياء وصدقة وتخلقاً ومشاركة وإيثاراً أقرأ فنوناً من العلم بعد مهلك أستاذ الجماعة أبي جعفر ابن الزبير بإشارة منه به، جمع بين القراءة والتدريس فكان مقرئاً للقرآن مبرزاً في تجويده مدرساً للعربية والفقه متكلمًا في التفسير. وكان على غرار أستاذه مخالفاً لأهل البدع ملازماً للسنة قرأ على الأستاذ أبي جعفر بن الزبير بغرناطة[3].

2 ـ أحمد بن الحسن بن علي بن الزيات الكلاعي، المعروف بالزيات (ولد سنة 649هـ وتوفي سنة 728هـ). كان مقرئاً وله مشاركة في العربية والفقه واللغة والعروض والمحاسة في الأصلين والحفظ والتفسير[4].

3 ـ أحمد بن محمد بن أحمد بن قعنب الأزدي. ولد سنة 670هـ وتوفي سنة 732هـ كان من شيوخ كتاب الشروط معرفة بالمسائل واضطلاعاً بالأحكام وانفرد بصحة الوثيقة باقعة من بواقع زمانه وعيابة في مشايخ قطره، ولي القضاء بأماكن عديدة.

4 ـ سلمون بن علي بن عبد الله بن علي بن سلمون الكناني ولد سنة 688هـ بغرناطة وتوفي سنة 767هـ. كان فقيهاً جليلاً فاضلاً

---

(1) الذيل والتكملة 39/1-45.

(2) البدر المطالع، 33-35.

(3) الإحاطة 374/1.

(4) الإحاطة 287/1-296.

أصيلاً، أخذ عن جملة من الشيوخ أولهم الأستاذ أبـو جعفر بن الزبير[1].

5 ــ محمد بن ابراهيم بن علي بن باق الأموي، توفي سنة 652هـ، كان كاتباً أديباً ذكياً لوذعياً مرسلاً للنادرة، بذ السباق في الأدب الهزلي بالأندلس[2].

6 ــ محمد بن أحمد بن فرج اللخمي الغرناطي، أخذ عن ابن الزبير القراءات وكان قيّماً في العربية مشاركاً في الأصلين، مات في حدود سنة 730هـ[3].

7 ــ محمد بن أحمد بن محمد بن جزي الكلبي ــ أبو القاسم ــ قرأ عن أبي جعفر العربية والفقه والحديث والقرآن، توفي سنة 741هـ[4].

8 ــ محمد بن الأشعري القاضي أبو عبد الله، مات شهيداً في موقعـة طريف سنة 741هـ وكان مولده سنة 673هـ. كان ممن جمع له بين الرواية والدراية، صار سباق الحلبات معرفة بالأصـول والفروع والعربية والتفسير والقراءات مبرزاً في علم الحديث[5].

9 ــ محمد بن جابر بن محمد المقرىء الحافظ أبو عبد الله المعروف بالوادي آشي، كان من مشاهير القراء والمحدثين له معرفة تامة بالنحو واللغة والحديث ورجاله، توفي سنة 749هـ[6].

---

(1) عن قضـاة الأنـدلس، ص 167، لأبي الحسن النبـاهي، نشـر لڤي بـروفنصـال، ط. القاهرة 1948.
(2) الاحاطة 2/338-341.
(3) بغية الوعاة 1/38.
(4) نفح الطيب 5/514.
(5) تاريخ قضاة الأندلس، ص 141.
(6) لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ، ص 115.

10ـ محمد بن عثمان بن يحيى أبو عمرو ابن المرابط الزاهد، ولد سنة 680هـ وتوفي سنة 752هـ، سمع من ابن الزبير سنن النسائي الكبرى وتلا عليه بالسبع[1].

11ـ محمد بن علي البياسي الأنصاري ناصر الدين توفي سنة 703هـ كان عارفاً بعلم الحديث وكتب منه كثيراً، مال إلى مذهب الظاهرية[2].

12ـ محمد بن قاسم بن محمد بن قاسم القرشي الفهري المعروف بابن رمان الغرناطي قرأ على أبي جعفر ابن الزبير بغرناطة ثم انتقل إلى القاهرة سنة 722هـ ومات بالمدينة المنورة سنة 729هـ[3].

13ـ محمد بن محمد بن ابراهيم المعروف بابن الحاج من مشاهير قضاة الأندلس توفي سنة 773هـ كان معروفاً بمصاحبة العلماء والأخذ في المعارف كلها والتكلم في أنواعها. وكان التكلم بالشعر من أسهل شيء عليه جمع منه ديواناً سماه «العذب والاجاج»[4].

14ـ محمد بن محمد بن أحمد بن جزي الكلبي: من أهل غرناطة وأعيانها توفي سنة 758هـ، برز في الأدب واضطلع بمعاناة الشعر[5].

15ـ محمد بن محمد بن سهل الوزير أبو القاسم: من العباد والزهاد، ولد سنة 662هـ وتوفي سنة 730هـ، قرأ بالسبع عن ابن الزبير الثقفي[6].

---

(1) عن ذيل طبقات الحفاظ للسيوطي، ص 359.
(2) نفح الطيب 59/2.
(3) نفح الطيب 63/2.
(4) تاريخ قضاة الأندلس، ص 164.
(5) الإحاطة 256/2.
(6) الوافي بالوفايات 155/1.

16ـ محمد بن يوسف بن علي الغرناطي أثير الدين أبوحيان ـ إمام النحاة ـ ولد سنة 654هـ وتوفي سنة 745هـ، أخذ عن ابن الزبير القراءات وفنون العربية وخاصة النحو[1].

17ـ يوسف بن ابراهيم بن محمد بن قاسم بن علي الفهري الغرناطي أبو الحجاج الساحلي، توفي سنة 702هـ، جاء في نفح الطيب[2] أنه كان صدراً من صدور حملة القرآن على وتيرة الفضلاء وسنن الصالحين، حج ولقي الأشياخ بعد أن قرأ على الأستاذ أبي جعفر بن الزبير وطبقته.

وفاة ابن الزبير:

توفي ابن الزبير الثقفي أبوجعفر يوم الثلاثاء[3] ثامن[4] ربيع الأول[5] سنة ثمان وسبعمائة[6] للهجرة (708هـ) الموافقة لسنة ثمان وثلثمائة وألف للميلاد (1308م) بغرناطة عن إحدى وثمانين سنة[7] وعلى حال جميل[8].

---

(1) فوات الوفايات 555/2.
(2) نفح الطيب 235/2.
(3) عن بغية الوعاة 292/1.
(4) في البدر الطالع والدرر الكامنة: ثاني عشر.
(5) وقيل: رمضان، كما في الدرر الكامنة 91/1.
(6) جاء في الديباج، ص 42: وتوفي عام ثمانين وسبمعمائة، وعلق على ذلك صاحب شجرة النور الزكية وهو خلاف الصواب، وفي معجم المؤلفين 138/1: توفي 708 أو 707هـ.
(7) وفي شذرات الذهب 16/6، عن ثمانين سنة.
(8) البدر الطالع، ص 35.

وكانت جنازته جنازة بالغة أقصى مبالغ الاحتفال، نفر لها الناس من كل أوب، واحتمل طلبة العلم نعشه على رؤوسهم إلى جدثه، وتبعه ثناء جميل وجزع كبير[1].

رثاه طائفة من تلاميذه وشيوخه منهم القاضي أبو جعفر ابن أبي حبل في قصيدة أورد منها ابن الخطيب في الإحاطة هذه الأبيات[2].

عزيز على الإسلام والعلم ماجد فكيف لعيني أن يلم بها الكرى
وما لمآق لا تفيض جفونها نجيعاً على قدر المصيبة أحمرا
فوالله ما تقضي المدامع بعض ما يحق ولو كانت سيولاً وأبحرا
حقيق لعمري أن تفيض نفوسنا وفرض على الأكباد أن تتفطرا

□ □ □

(1) الإحاطة 193/1.
(2) الإحاطة 193/1.

المبحث الثالث

أضواء على ملاك التأويل

أولاً
التعريف بالكتاب

(أ) موضوعه:

إن ملاك التأويل كتاب تفسير حصر ابن الزبير موضوعه في توجيه ما تكرر واشتبه من آيات الكتاب العزيز لفظاً أو اختلف بتقديم أو تأخير أو بعض زيادة في التعبير. جاء في المقدمة قوله:

وإن من مغفلات مصنفي أئمتنا، رضي الله عنهم، في خدمة علومه وتدبر منظومه الجليل ومفهومه توجيه ما تكرر من آياته لفظاً أو اختلف بتقديم أو تأخير وبعض زيادة في التعبير[1]. تتبع المؤلف هذا النوع من الآيات في كل سور القرآن من الفاتحة إلى الناس فتيسر له بفضل الله تعالى المقصود من غرضه، وبهر كتابه حسناً وكمالاً، ولاح في أفق التفاسير لنجومها هلالاً سماه: «ملاك التأويل القاطع بذوي الألحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل[2] فأضاف بذلك لبنة أخرى في ميدان علم متشابه القرآن.

وعلم متشابه القرآن مراد به هنا: «ايراد القصة الواحدة في صور شتى وفواصل مختلفة ويكثر في إيراد القصص والأنباء، وحكمته التصرف في

---

(1) مقدمة التفسير، ص 144-145.

(2) مقدمة التفسير، ص 148.

الكلام وإتيانه على ضروب ليعلمهم عجزهم عن جميع طرق ذلك مبتدأ به ومتكرراً[1] وقد حصر الزركشي هذا النوع من التشابه في ثمانية أقسام:

الأول ـ أن يكون في موضع على نظم وفي آخر على عكسه، وفي القرآن منه كثير، ومثاله في سورة البقرة ﴿وَٱدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وقُولُوا حِطَّةٌ﴾[2] وفي الأعراف: ﴿وقُولُوا حِطَّةٌ وٱدْخُلُوا البَابَ سُجَّداً﴾[3].

الثاني ـ ما يشتبه بالزيادة والنقصان، ومثاله في سورة البقرة: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾[4] وفي طه: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ﴾[5].

الثالث ـ التقديم والتأخير، ومنه في سورة البقرة: ﴿واتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنهَا عَدْلٌ﴾[6] وقال بعد: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾[7].

الرابع ـ بالتعريف والتنكير: ومنه في سورة البقرة ﴿هَذَا بَلَداً آمِناً﴾[8] وفي إبراهيم ﴿هَذَا البَلَدَ آمِناً﴾[9].

---

(1) البرهان، للزركشي 112/1.
(2) سورة البقرة: آية 58.
(3) سورة الأعراف: آية 161، أنظر في هذا ملاك التأويل، ص 202.
(4) سورة البقرة: آية 38.
(5) سورة طه: آية 123، أنظر في هذا ملاك التأويل، ص 190.
(6) سورة البقرة: آية 48.
(7) سورة البقرة: آية 123، أنظر في ذلك ملاك التأويل، ص 196.
(8) سورة البقرة: آية 126.
(9) سورة إبراهيم: آية 35، أنظر ملاك التأويل، ص 234.

الخامس ـ بالجمع والأفراد: ومنه في سورة البقرة ﴿لَنْ تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّاماً مَعْدُودَةً﴾[1] وفي آل عمران: ﴿مَعْدُودَاتٍ﴾ [2].

السادس ـ إبدال حرب بحرف غيره، ومنه في طه: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ [3] بالفاء وفي السجدة: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ [4] بالواو.

السابع ـ إبدال كلمة بأخرى، ومنه في البقرة: ﴿فَٱنْفَجَرَتْ﴾[5] وفي الأعراف: ﴿فَٱنْبَجَسَتْ﴾[6].

الثامن ـ الادغام وتركه، ومنه في الأنعام: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [7] وفي الأعراف: ﴿يَضَّرَّعُونَ﴾[8].

□ متشابه القرآن في أعمال السابقين:

أشار ابن الزبير في المقدمة إلى أن متشابه القرآن ميدان أغفله الأئمة المصنفون في تفسير القرآن، وباب لم يقرعه ممن تقدم وسلف ومن حذا حذوهم ممن أتى بعدهم وخلف أحد فيما علمه مع عظيم موقعه وجليل منزعه ومكانته في الدين وفته أعضاد ذوي الشك والارتياب من الطاعنين الملحدين إلا ما كان من كتاب: «درة التنزيل وغرة التأويل» الذي قرع به الخطيب الاسكافي مغلق هذا الباب وعرف فيه أنه باب لم يوجف عليه أحد

---

(1) سورة البقرة: آية 30.
(2) سورة آل عمران: آية 24، أنظر ذلك في ملاك التأويل، ص 224.
(3) سورة طه: آية 123.
(4) سورة السجدة: آية 26. أنظر في ذلك ملاك التأويل، ص 827.
(5) سورة البقرة: آية 60.
(6) سورة الأعراف: آية 160. أنظر ذلك في ملاك التأويل، ص 211.
(7) سورة الأنعام: آية 42.
(8) سورة الأعراف: آية 94. أنظر ذلك في ملاك التأويل، ص 455.

قبله بخيل ولا ركاب[1]. والمتتبع لمسيرة التفسير الطويلة وما طفحت به من تفاسير عديدة يتبين أن متشابه القرآن قد حظي باهتمام بعض العلماء وقد أفرده بالتصنيف خلق»[2] ويقول السيوطي في الاتقان: إن أولهم فيما أحسب الكسائي[3] وصنف في توجيهه أبو عبد الله الرازي المعروف بالخطيب الاسكافي «درة التنزيل وغرة التأويل»[4] وقد نسبها صاحب كشف الظنون خطأ إلى فخر الدين الرازي صاحب مفاتيح الغيب قال: درة التنزيل وغرة التأويل في الآيات المتشابهات للإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازي المتوفي سنة 606هـ، مجلد أوله «الحمد لله حمد المشاركين». . . [5] وكذا نسبها إليه صاحب هدية العارفين[6] ولعل الذي حمل على الخطأ أن كليهما يكنى بأبي عبد الله الرازي نسبة إلى الري. ومما يرفع هذا الالتباس ويؤكد نسبة درة التنزيل للخطيب الاسكافي أن محقق درة التنزيل برواية ابن أبي الفرج الأردستاني يشير بالهامش تحت تعليق رقم واحد: «في نسخة: الحمد لله حمد الشاكرين»[7] وهذا هو نفس ما افتتحت به النسخة التي أشار إليها صاحب كشف الظنون والتي نسبها لفخر الدين الرازي ثم قال صاحب كشف الظنون معرفاً بهذا الكتاب: تكلم فيه على

---

(1) مقدمة ملاك التأويل، ص 145-146.

(2) الاتقان للسيوطي، الطبعة الثالثة، القاهرة 1941.

(3) الاتقان 194/2.

والكسائي: هو علي بن حمزة بن عبد الله الكوفي إمام في اللغة والنحو والقراءة. له عدة تصانيف منها معاني القرآن والمصادر والحروف والقراءات والنوادر ومختصر في النحو (غاية النهاية 535/1، ابن خلكان 330/1). توفي سنة 189هـ.

(4) في البرهان للزركشي: وصنف الرازي كتاب «درة التأويل» وعلق على ذلك محمد أبو الفضل إبراهيم اسم كتابه في كشف الظنون: «درة التنزيل وغرة التأويل».

(5) كشف الظنون 739/1.

(6) هدية العارفين 107/2.

(7) درة التنزيل وغرة التأويل، ص 7، طبع دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1979.

الآيات المتكررة بالكلمات المتفقة والمختلفة. وهذه العبارة مأخوذة حرفياً من خطبة درة التنزيل[1] وكل هذا يعني أن كتاب: «درة التنزيل وغرة التأويل» للخطيب الاسكافي[2] وأن نسبة ذلك للفخر الرازي التباس وخطأ.

تناول الخطيب الإسكافي في درته توجيه الآيات المتكررة بالكلمات المتفقة والمختلفة وحروفها المتشابهة المنغلقة والمنحرفة رداً لطعن الجاحدين وسدّاً لمسلك الملحدين.

وذكر الخطيب أنه أول من قرع باب متشابه القرآن قال: تأملت أكثر كتب المتقدمين والمتأخرين وفتشت على أسرارها معاني المتأولين المحققين المتبحرين فما وجدت أحداً من أهلها بلغ غاية كنهها، كيف؟ ولم يقرع بابها ولم يفتر لهم عن نابها ولم يسفر عن وجهها، ففتقت من أكمام المعاني ما أوقع فرقاناً وصار المبهم المتشابه وتكرار المتكرر بياناً»[3].

وممن صنف في هذا الفن بعد الخطيب الاسكافي الكرماني[4] في كتابه: البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان[5] أوله: «الحمد لله الذي أنزل الفرقان» ذكر فيه الآيات المتشابهة التي تكررت فيه وسببها وفائدتها وحكمتها وقد ذكر بشرائطه في كتابه «لباب التفاسير» الذي أوله: «الحمد لله منزل القرآن غير محدث ولا مخلوق»[6].

---

(1) درة التنزيل وغرة التأويل، ص 7.

(2) الخطيب الإسكافي: هو عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بالخطيب الإسكافي، عاصر الصاحب بن عباد (326-385هـ)، ولي الخطابة بالري، توفي سنة 420هـ.

(3) درة التنزيل، ص 3.

(4) هو أبو القاسم برهان الدين محمود بن حمزة بن نصر الكرماني الشافعي الملقب بتاج القراء المتوفي بعد سنة 500هـ (بغية الوعاة، ص 387).

(5) يذكر محمد أبو الفضل إبراهيم في تعليق له بالصفحة 112 من الجزء الأول من برهان الزركشي: منه نسخ خطية في المكتبة التيمورية ودار الكتب.

(6) كشف الظنون 241/1، 1541/2.

وقد نظم السخاوي[1] علم المتشابه في منظومته: «هداية المرتاب في المتشابه» المعروفة بالسخاوية[2].

ويذكر السيوطي في الاتقان[3] أن للقاضي بدر الدين بن جماعة[4] في ذلك كتاباً لطيفاً سماه «كشف المعاني في متشابه المثاني». وقد كان ابن جماعة من المعاصرين لابن الزبير.

وأحسن هذه المصنفات وأبسطها ملاك التأويل لابن الزبير الثقفي يقول الزركشي في البرهان: وصنف في توجيهه (يعني المتشابه) أبو جعفر بن الزبير وهو أبسطها في مجلدين[5]. ويقول السيوطي في الاتقان بعد ذكر بعض المصنفات في هذا الفن: وأحسن من هذا ملاك التأويل لأبي جعفر بن الزبير وقد حذا فيه المؤلف حذو «درة التنزيل» للإسكافي ونهج نهجها فاعتمد عين ما ورد فيها من آيات مع استدراك ما أغفل وتمييزه عن غيره بحرف «غ».

(ب) القصد من تأليفه:

اهتم ابن الزبير في تأليفه بتوجيه ما تكرر من آيات الكتاب العزيز لفظاً أو اختلف بتقديم أو تأخير أو بعض زيادة في التعبير فأبرز ما في تلك الآيات من حكم ومعان إلهية سامية تعلو بها عن نقيصة التكرار والحشو والابتذال، وقصده من وراء ذلك كله القطع بذوي الالحاد والتعطيل ممن تعلق بمثل

---

(1) هو علم الدين علي بن محمد بن عبد الصمد السخاوي صاحب كتاب هداية المرتاب في المتشابه، توفي سنة 643هـ (ابن خلكان، وفايات 345/1).

(2) الزركشي: البرهان: 112/1، السيوطي. الإتقان: 194/2.

(3) الاتقان 194/2.

(4) ابن جماعة: هو محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة قاضي القضاة، بدر الدين أبو عبد الله الشافعي (639-733هـ)، (فوات الوفيات 353/2).

(5) المجلد الأول: إلى نهاية ما تعلق بسورة يونس، والمجلد الثاني: من سورة هود إلى النّاس.

هذه الآيات المتشابهة للطعن في كتاب الله والنيل من الدين، قال ابن الزبير:

وإنما كلامنا معتمد فيه القطع بذوي الزّيغ والارتياب ممن يتعلق بما تشابه منه طعناً في الدين وآتباعاً لسبيل الملحدين وشأن هؤلاء التعلق بأدنى احتمال من غير تسليم لما وراء ذلك[1]. وفي سبيل تحقيق هذه الغاية ما فتىء المؤلف يؤكد على الحكمة الإلهية الكامنة فيما يبدو من تكرار لبعض الآيات وما فتىء يبرز المعاني التي اقتضت التغاير، قال: إثر إبراز الفوائد من تكرر آيات القبلة[2]، وبهذا اللفظ لم يتكرر شيء في الآية لمجرد توكيد بل كل ما يظن تكراراً مفيد معنى لم يحصل محرزاً مما قبله، ووضح التناسب في ذلك كله والله أعلم[3] وقال بعد هذا[4]: للسائل أن يسأل عن وجه اختصاص آية العنكبوت بمن دون الآخرين. . . والجواب: أن زيادة من في قوله في العنكبوت: ﴿من بعد موتها﴾[5] زيادة بيان وتأكيد نوسب به ما تقدم من قوله: «من نزل» فإن بنية فعل للمبالغة والتكثير وذلك مما يستجر البيان والتأكد فنوسب بينهما. ولما لم يقع في الآيتين الأخريين[6] إلا لفظ أنزل ولا مبالغة فيه ولا تأكيد ولا أنجر في الكلام ما يعطيه لم يكن فيهما ما يستدعي زيادة «من» ليناسب بها فلم تقع في الآيتين ولو قدر ورود عكس الواقع بزيادة «من» في آيتي البقرة والجاثية وسقوطها في آية العنكبوت لما ناسب ذلك أصلاً فوضح تناسب الوارد وامتناع خلافه[7].

---

(1) ملاك التأويل، ص 242.
(2) سورة البقرة: آية 144، وما بعدها.
(3) ملاك التأويل 244.
(4) ملاك التأويل 244 .
(5) سورة العنكبوت: آية 63.
(6) سورة البقرة: آية 164، سورة الجاثية: آية 5.
(7) ملاك التأويل 245 .

هذه عينة مما كان يؤكد به غايته من تأليف تفسيره، ومثيلاتها فيه كثيرة. والمستعرض لعنوان الكتاب يجده شاهداً على الغاية التي رسمها المؤلف لنفسه من وراء تفسيره: «ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل».

ثانياً
منهج ابن الزبير في تفسيره

خطط ابن الزبير لنفسه منهج عمل حدد معالمه في المقدمة يتلخص في النقاط التالية:

(أ) تحديد الموضوع:

حدد ابن الزبير في المقدمة موضوع تفسيره، وحصره في توجيه ما تكرر من آيات الكتاب العزيز لفظاً أو اختلف بتقديم أو تأخير أو بعض زيادة في التعبير[1]. والمتتبع لما جاء في ملاك التأويل يتبين أن المؤلف كان وفياً للضربين الذين بنى عليهما مقصود كتابه. تجده يورد من جهة الآيات المتشابهة لفظاً في السورة الواحدة أو في السور المختلفة، ويبرز ما خفي وراء هذا التكرار من معان وحكم إلهية سامية، ويورد من جهة ثانية الآيات التي سيقت في الموضوع الواحد واختلفت فيما بينها بتقديم أو تأخير أو بعض زيادة في التعبير، ويظهر الأسباب التي اقتضت هذا الاختلاف، سواء منها ما رجع إلى المعنى أو رجع إلى النظم، ويؤكد التناسب التام والتلاؤم الكامل بين الآي وما ورد فيها.

وكثيراً ما يشير المؤلف عند توجيهه للتشابه بين الآي إلى الضرب الذي يرجع إليه، بل وينبه أحياناً إلى ما يخرج عن موضوع كتابه، أو ما هو تتمة له. من ذلك ما جاء في توجيهه لما بين الآية التاسعة والأربعين من

(1) مقدمة التفسير، ص 145.

سورة آل عمران والآية العاشرة بعد المائة من سورة المائدة من تشابه واختلاف. قال: وبقي السؤال عن وجه تخصيص كل من الموضعين بالوارد فيه وهو مقصودنا في هذا الكتاب[1] ومنه ما قاله بعد إيراده لآيات سورة طه وما شابهها من الآيات: هذه الآي من مشكلات الضرب الثاني الذي بيننا عليه مقصود هذا الكتاب لأن محصولها الاخبار عن ابتداء أمر موسى، عليه السلام، في رسالته وتكليم الله سبحانه إياه وهو خبر واحد عن قصة واحدة قد وقعت وعين وقوعها ما وقعت عليه من الصفة التي اتحدت بوقوعها وتبينت فلا يمكن فيها العدول عما وقعت عليه فكيف هذا الواقع الوارد في السورتين: ﴿ٱمْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً﴾[2] ولم يقع لفظ «امكثوا» في سورة النحل... [3] ومن ذلك ما جاء في توجيهه للتشابه بين الآية الحادية عشر من سورة آل عمران وما شابهها من الآيات قال: والسؤال السادس: تعلق المجرور من قوله: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾[4] وليس هذا مما بني عليه هنا الكتاب إلا أنه تتمة[5]. ومن الأمثلة التي نبه فيها على خروجها عن مقصود كتابه ما تعلق بالآية الثانية من سورة البلد قال: الآية الثانية من سورة البلد قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾[6] وفي سورة والتّين والزيتون: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلإِنْسَانَ في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[7] إن سئل عن قوله في الأولى «في كَبَدٍ» وفي الثانية «في أحسن تقويم» فالجواب عنه أنهما حالان من حالات الإنسان لا تعارض بينهما لأن مصرف كل من هاتين الحالتين بين وكلام المفسرين في ذلك شاف وليس هذا بالجملة من الغرض المبني

---

(1) ملاك التأويل، ص 302.
(2) سورة طه: آية 10.
(3) ملاك التأويل، ص 806.
(4) سورة آل عمران: آية 11.
(5) ملاك التأويل، ص 291.
(6) سورة البلد: آية 4.
(7) سورة التين: آية 4.

عليه هذا الكتاب إذ لا إشكال فيه[1] ومن ذلك ما جاء في توجيه الآية الأولى من سورة البقرة قال: إن وجه اختصاص كل سورة من المفتتحة بهذه الحروف بما افتتحت به منها فهذا مما يسأل عنه وهو راجع إلى ما قصدته هنا وما سوى هذا مما يتعلق من السؤال على الحروف كورودها على حرف وعلى حرفين إلى خمسة وتخصيص هذه الحروف الأربعة عشر وكثرة الوارد منها على ثلاثة إلى غير هذا فليس من مقصدنا في هذا الكتاب أما الأول فمن شرطنا[2].

(ب) تحديد الغاية:

جعل غايته من توجيه الآيات المتشابهة خدمة الكتاب العزيز والقطع بالملاحدة المعطلة الذين يختلقون من هذا شبهة يمتطونها للكيد للدين جهلاً منهم بما خفي وراء هذا التكرار والتشابه من مقاصد سامية، قال ابن الزبير: وإنما كلامنا معتمد فيه القطع بذوي الزيغ والارتياب ممن يتعلق بما تشابه منه طعناً في الدين. . .

(ج) ضبط طريقة العمل:

لم يكتف ابن الزبير بتحديد الموضوع والغاية بل ضبط لتحقيق غايته طريقة عمل واضحة المعالم تتلخص معالمها فيما يلي:

ـ اعتماد عين الآيات التي ذكرها الخطيب الاسكافي في درة التنزيل مع استدراك ما أغفله صاحب الدرة، يقول المؤلف: وأبديت بحول ربي من مكنون خاطري إلى الظهور ما أثبته بعون الله وقوته في هذا المسطور معتمداً عين ما ذكره ـ يعني الخطيب الاسكافي ـ من الآيات ومستدركاً

---

(1) ملاك التأويل، ص 1145-1146.

(2) ملاك التأويل، ص 174.

ما تذكرته مما أغفله، رحمه الله، من أمثالها من المتشابهات بـرفع تلك الاشكالات وإبداء الخفيات القاطعة بدرب البطالات. . .[1].

ـ تمييز المغفل وفصله عما تناوله صاحب الدرة بعلامة غ: يقول المؤلف: فنبهنا على ذلك لينحاز من المجتمع على ذكره ويفصل فعلامة ـ غ ـ تدل على أنه من المغفل. . .[2].

وبمقارنة بين محتوى ملاك التأويل ومحتوى كتاب درة التنزيل تبين أن مجموع الآيات التي تناولها الاسكافي في كتابه بلغ ثلاثاً وسبعين ومائتين (273 آية) بينما بلغ ما تناوله ابن الزبير سبعاً وسبعين وثلثمائة (377 آية) فيكون بذلك عدد ما أغفله صاحب درة التنزيل وحظي بعناية صاحب ملاك التأويل مائة وأربع آيات (104 آيات). يضاف إليه عدد كبير من الآيات أوردها ابن الزبير في نطاق سرد الآيات المتشابه، أغفلها صاحب درة التنزيل فقد كان ابن الزبير أكثر استقراء وتتبعاً وتحرّياً ولنأخذ مثالاً لذلك ما جاء في الآية الحادية عشرة من سورة البقرة[3] إن هذه الآية قد تناولها الاسكافي ولكنه أغفل آية تشبهها نبه إليها ابن الزبير وأبرز ما فيها من معان وعبر قال: وفي سورة الأعراف: غ ـ ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾[4]. . . ثم قال: ففي هذه الآية ثلاثة سؤالات تعرض منها صاحب كتاب الدرة للفرق بين ﴿يُذَبِّحُونَ﴾[5] وقوله في سورة إبراهيم: ﴿وَيُذَبِّحُونَ﴾[6] منسوقاً بحرف العطف وأغفل ما سوى ذلك[7] يعني أنه أغفل المقارنة بين

---

(1) مقدمة المؤلف، ص 146-147.
(2) مقدمة المؤلف، ص 147.
(3) ملاك التأويل، ص 197.
(4) سورة الأعراف: آية 141.
(5) سورة البقرة: آية 49.
(6) سورة إبراهيم: آية 6.
(7) ملاك التأويل، ص 198.

﴿يُذَبِّحُونَ﴾ الـواردة في سورتي البقـرة وإبراهيم وبـين ﴿يُقَتِّلُونَ﴾ في الأعراف[1].

ـ إيراد الرأي الخاص قبل الوقوف على ما قاله الخطيب أو الاعتماد على شيء منه يقول المؤلف: من غير أن أقف في أكثر ذلك على كلامه إلا بعد إبدائي ما يلهمه الله سبحانه وإتمامه[2].

نسبة الآراء المنقولة إلى أصحابها: يقول وإن آثرت بعض ما عليه لغيري عثرت فنقلت أفصحت بالنسبة وعقلت. ولم يلتزم المؤلف بذلك كل الالتزام إذ نراه في تفسيره يفصح في الأكثر بنقله عن الزمخشري أو القرطبي أو ابن عطية أو الرازي أو سيبويه أو غيرهم ولكنه يغفل عن ذلك أحياناً فيكتفي بالقول مثلاً: وآعتمده بعض الجلّة[3] دون أن يفصح بمن يعني منهم. وتجدر الاشارة هنا إلى أنه يسلك في نقله سبيلين: يلتزم أحياناً نص ما ينقل ويتصرف أحياناً أخرى فيروي بالمعنى ويعبر عن ذلك بتعابير متعددة: هذا معنى كلامه أو انتهى معنى كلامه. . . ويصرح أحياناً بتعمده إسقاط شيء مما نقله كما جاء في نقله عن الزمخشري عند تفسير الآية الثانية والعشرين من سورة السجدة قال: انتهى نص كلامه إلا في لفظة أسقطها (يعني لفظة العدل) لجريها فيما لا يكاد ينفك عنه في إحراز مذهبه الخبيث وإدحاظها لا يخل بشيء من المعنى[4].

ـ تتبع كل ما تكرر واشتبه من الآيات في كامل القرآن تتبعاً مراعى فيه ترتيب التلاوة سورة سورة وآية آية إلا ما خلا منها من المتشابه أو خرج عن قصد الكتاب مع التنبيه إلى ما أغفله صاحب درة التنزيل وتمييزه بحرف (غ).

---

(1) سورة الأعراف: آية 141.
(2) مقدمة المؤلف، ص 147.
(3) ملاك التأويل، ص 391.
(4) ملاك التأويل، ص 786.

ثالثاً
أهم ما اعتمده ابن الزبير في توجيه المتشابه

(أ) المراحل:

اتبع ابن الزبير في تفسيره طريقة عملية محددة يمكن حصرها عموماً في النقاط التالية:

1 ــ يورد ذكر السورة ثم يتناول ما فيها من آيات متشابهات على ما حدده في موضوع كتابه بالمقدمة فيبدأ بأولاها في الترتيب فيقول مثلاً: سورة آل عمران، الآية الأولى منها. . . ثم إذا انتقل إلى غيرها قال الثانية منها أو نحو ذلك، وهكذا إلى أن ينتهي من كل ما في السورة من متشابه فينتقل إلى السورة التي تليها. وهو في كل هذا ينبه إلى ما أغفله صاحب درة التنزيل بحرف ــ غ ــ فإذا كانت السورة لا تحتوي الا على آية واحدة قال سورة كذا. . . قوله تعالى: كما في سورة الواقعة[1] وإذا خلت السورة مما بني عليه مقصود تفسيره أغفل ذكرها كما وقع للسور الممتدة من الطارق إلى البروج. ومن القدر إلى القارعة أو غيرها. أو نبه إلى أن ما فيها من متشابه قد تقدمت معالجته كما قال عند تناوله لسورة نوح: وقد تقدم ما في سورة المعارج[2]. غير أنه يغفل أحياناً تحديد المكان كما في هاته الحالة فيتسرب إلى عمله شيء من الخلل.

2 ــ يضع المشكل بأن يورد الآية الأم ويلحقها بما يشبهها من الآيات من نفس السورة أو من غيرها بطريقة استقرائية مدققة فيقارن بينها مبرزاً

---

(1) ملاك التأويل، ص 1067.

(2) ملاك التأويل، ص 1097.

لنقاط الاتفاق والاختلاف ثم يردف كل هذا بذكر ما يثيره الموضوع من أسئلة كأن يقول: للسائل أن يسأل عن الوجه فيما تكرر في هذه الآيات. أو في ذلك كذا سؤالات... ويسردها تباعاً وينبه فيها أحياناً عن اغفال صاحب الدرة لها[1].

وقد يمهد للسؤال بتمهيد يكشف به عن جوانب غامضة من الموضوع أو يجعله مدخلاً كما ورد في توجيه الآية الأولى من الفاتحة وما شابهها من الآيات[2].

3 ـ وبعد وضع الأسئلة يشرع المؤلف في الإجابة عنها وتوجيهها أولاً بأول فيقول: والجواب عن السؤال الأول... أو ووجه ذلك أو نحو هذا.

وقد يمهد المؤلف للجواب بتمهيد يبسط فيه جانباً يعتمد عليه الجواب اعتماداً أساسياً كما جاء في توجيه الآية الأولى من سورة البقرة فقد مهد للجواب باستعراض لأشهر أقوال العلماء في فواتح السور[3]. ومن ذلك ما جاء في توجيه الآية الرابعة من سورة مريم وما شابهها. قال المؤلف: للسائل أن يسأل عن ذلك والجواب عنه والله أعلم محصل طي تمهيد..[4] وأمثلة هذا كثيرة.

(ب) الوسائل:

اعتمد المؤلف في توجيه الآيات المتشابهة وسائل وعلوماً كثيرة قال في المقدمة: ومحرزاً بفضل الله من عيون الات العلوم ما به قوام المفهوم[5] فمما اعتمده:

---

(1) أنظر في ذلك ما جاء في توجيه الآية الثانية عشرة من سورة البقرة وما شابهها، ص 202-203.

(2) ملاك التأويل، ص 149 وما بعدها.

(3) ملاك التأويل، ص 173.

(4) ملاك التأويل، ص 801.

(5) مقدمة التفسير، ص 148.

1 ـ القرآن:

اعتمد المؤلف في تحقيق غرضه على القرآن نفسه، والقرآن يفسر بعضه بعضاً، من ذلك ما جاء في الجواب عن السؤال الثاني المتعلق بالآية الأولى من سورة المؤمنين فقد وقع فيه تقرير المسألة بالاعتماد على الآيات القرآنية.

وقد اعتمد مناسبة الآية لما قبلها وما بعدها. فهو كثيراً ما يربط الآية بما قبلها ليبرز وجه اختصاص الآية بما ورد فيها. جاء في توجيه ما بدا لبعضهم من تكرار في آية القبلة قوله:

فان قيل فقد تكرر قوله أخيراً: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[1] قلت لما أعقب قوله أولاً: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ (بقوله): ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[2] وجاءت هذه الآية بين آية الأمر في قوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾. وبين ما شأنه أن يكون مبنياً عليها من قوله: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ فلما تباعد عنها كرر توكيداً ولينبني عليه ما ينبغي اتصاله به. ثم يؤكد ما أقره بإيراد آية قرآنية نظيرة لما تقدم يقول: وهذا كقوله تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ﴾[3] فأعيد «أَنَّكُمْ» تأكيداً ولينبني عليه الخبر وكذا أعيد قوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ لينبني عليه: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ﴾... الآية.

---

(1) سورة البقرة: آية 150.
(2) سورة البقرة: آية 150.
(3) سورة المؤمنين: آية 35.

وبهذا اللحظ لم يتكرر شيء في الآية لمجرد توكيد بل كل ما يظن تكراراً مفيد معنى لم يحصل محرزاً مما قبله ووضح التناسب في ذلك كله، والله أعلم.

ولم يكتف المؤلف باعتماد سياق الآيات في توجيه المتشابه بل استعان بما في السور من ترابط، من ذلك ما جاء في بداية سورة غافر، قال المؤلف: . . . والجواب والله أعلم ان ذلك جار بحسب المناسبة ولما تقدم الآية الأولى فيما ختمت به سورة الزمر. . .[1].

وكانت الفاصلة من جملة ما اعتمده ابن الزبير من الآلات في توجيه المتشابه، من ذلك قوله في الآية التاسعة عشرة من الأعراف: والجواب عن السؤال الثاني: ان كل واحدة من الآيتين (يعني الآية 115 من الأعراف والآية 65 من طه) جرت على وفق فواصل تلك السورة ورؤوس آيها. فآلعكس لا يناسب بوجه فوجب اختصاص كل سورة بما ورد فيها[2].

وقد استعان على بلوغ المراد بالمكي والمدني فكثيراً ما وجه آية أو غلب رأياً أو أبرز حقيقة بالاعتماد عليهما. من ذلك ما جاء في توجيه الآية الرابعة من سورة المائدة وما شابهها من الآيات قال: وأما آية النحل فإن السورة كلها مكية الا آيات من آخرها. . . وقال بعد: فهذا أوضح تناسب والسورة مكية[3].

ومن أوجه اعتماد المؤلف على القرآن ارتكازه في تقرير المسائل على الترتيب الثابت لسور القرآن، يقول ابن الزبير في توجيهه للتشابه بين الآية الثانية من سورة الأعراف وآيتي الحجر وصّ: فان قلت فما وجه تقديم الموجز على المطول؟ قلت: شبه ذلك بالمجمل من الكلام والمفصل وانما يرد

---

(1) ملاك التأويل، ص 998.

(2) ملاك التأويل، ص 569.

(3) ملاك التأويل، ص 372.

التفصيل بعد الإجمال فهذا جواب منزل على الترتيب الثابت والله سبحانه أعلم بما أراد[1]. وفي هذا النطاق تعددت إحالات المؤلف على كتابه «البرهان في تناسب سور القرآن» يقول: والجواب عن هذين السؤالين والله أعلم أنا أوضحنا في كتاب البرهان أن ترتيب السور أصل مراعي وترتيب الاي في هذا الحكم أولى وأبين وإذا تقرر هذا فاعلم...[2]

2 ـ أسباب النزول:

من مظاهر اعتماد المؤلف على القرآن في تقرير المسائل وتوجيه التشابه استناده في ذلك إلى أسباب النزول فهوكثيراً ما يورد سبب نزول الآية ليستعين به على البيان والتوجيه وليؤكد به مناسبة الآية لما ورد فيها، ومن هذا القبيل ما أورده المؤلف في بيانه للآية السابعة من سورة الإنعام قال: فالجواب أن إرادة الواحد بها وان كان الأقل مبق حكم الإبهام قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا..﴾ الآيات[3] إلى قوله: ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾[4] نزلت هذه الآي في الأخنس بن شريق وقد تكرر الضمير فيها ثماني مرات ضمير مفرد وتأكد بذلك أن المعني بها واحد كما قال المفسرون وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ٱئْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي﴾[5] نزلت في الجد بن قيس لما دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جهاد الروم وقال: هل لك في جلاد بني الأصفر؟ وقصته مشهورة وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ...﴾ الآية[6] نزلت في ثعلبة بن حاطب إلى غير هذا من المواضع. وقد تقدم أيضاً أنها تصلح

---

(1) ملاك التأويل، ص 491.
(2) ملاك التأويل، ص 530.
(3) سورة البقرة: آية 204.
(4) سورة البقرة: آية 206.
(5) سورة التوبة: آية 49.
(6) سورة التوبة: آية 75.

(يعني: من) للاثنين. . .[1]. هذا مثال من أمثلة كثيرة منتشرة في ملاك التأويل يبرز لنا فيها مدى اعتماد المؤلف على أسباب النزول.

3 ـ السنة والآثار:

اشتغل ابن الزبير بالحديث والرواية واشتهر بذلك بين علماء عصره[2] وقد انعكس هذا جلياً على تفسيره فقد كان كثير الاعتماد على الأثر في توجيهه للآيات المتشابهة وتفسير ما بينها من تغاير. من ذلك ما استشهد به في بيانه للآية الثانية عشرة من سورة المائدة وما شابهها من الآيات قال: . . . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في الضب حين قرب إليه فرده: «لم يكن بأرض قومي فأجدني أعلفه»[3] ومنه ما أورده في الآية الأولى من سورة مريم لتأكيد أن المراد بالحصور الممنوع من المعاصي. قال: وقد روى عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم: «كل ابن آدم يأتي يوم القيامة وله ذنب الا يحيى بن زكريا[4] ومنه ما استشهد به على بيان معنى الحسرة في قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾[5] قال. . . ونص الحديث على ما رويناه في صحيح مسلم عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح زاد أبو كريب: فيوقف بين الجنة والنار. وآتّفقا في باقي الحديث. فيقال يا أهل الجنة هل تعرفون هذا فيشرئبون وينظرون ويقولون نعم: هو الموت، قال ويقال يا أهل النار هل تعرفون هذا فيشرئبون وينظرون ويقولون نعم هذا الموت. قال فيؤمر به فيذبح قال ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت، ثم قرأ رسول الله صلى الله

---

(1) ملاك التأويل، ص 439.
(2) أنظر ابن الزبير المحدث في التعريف بالمؤلف، ص 85.
(3) ملاك التأويل، ص 388.
(4) ملاك التأويل، ص 794.
(5) سورة مريم: آية 39.

عليه وسلم: «وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون». وأشار بيده إلى الدنيا[1] ومنه ما استشهد به على التفصيل في الغيوب وانها ليست من حيث استعلامها والاطلاع عليها على منهج واحد قال: ألا ترى أن منها أموراً يعظم موقعها في العالم ويعم ولا يخص كتقلب الدهور والدول وتغير الحالات التي تعم وما يرجع إلى هذا وهذه هي المرادة بحديث ابن عباس الذي أخرجه الترمذي قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في نفر من أصحابه إذ رمي بنجم فاستنار... ويورد كامل الحديث، ثم يقول بعد: وفي حديث أبي هريرة الذي أخرجه البخاري وهو أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: إذا قضى الله أمراً في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله... ويورد كامل الحديث[2].

هذه عينات من أحاديث كثيرة أوردها المؤلف في تفسيره تشهد باعتماده السنة النبوية والآثار في توجيه ما تشابه من آيات الكتاب العزيز. والمتتبع لما أورده المؤلف في تفسيره من أحاديث يتبين أنها:

ـ وردت معلقة لم يلتزم فيها المؤلف بذكر كل السند وغالباً ما يكتفي فيها بالصحابي.

ـ منها ما أرجعه إلى مصدره بذكر الصحيح الذي روي فيه ومنها ما غفل فيه عن ذلك.

ـ منها ما أدرجه في سياق الكلام دون أن ينبه إلى أنه من السنة، من ذلك ما جاء صفحة 250 قال: ... إذ ليس قوله: «إنما الولاء لمن أعتق» مثل قوله: «فيما سقت السماء العشر» «وفي سائمة الغنم الزكاة» في قوة المفهوم المسمى بدليل الخطاب.

---

(1) ملاك التأويل، ص 799.
(2) ملاك التأويل، ص 1109.

ـ يكتفي أحياناً بالقول: وقد ثبت في الصحيح ويأتي بمعنى الحديث[1].

4 ـ القراءات:

إن من أهم ما اعتمده المؤلف في بلوغ المراد القراءات فكثيراً ما استعان بها على توجيه الآيات المتشابهة لفظاً وتأكيد تناسب ما اختلف منها بما خصت به. من ذلك ما جاء في بيان الآية الثالثة من سورة الأنبياء وما شابهها قال: الآية الثالثة قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ﴾[2] قراءة الجماعة الا ابن عامر: ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَاءَ﴾ وقرأ ابن عامر: ﴿وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ بضم التاء وفتح الميم من الصم وفي النمل والروم: ﴿وَلَا يُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾[3] قراءة ابن كثير بضم الياء وفتح الميم كقراءة ابن عامر في الأنبياء وقراءة الباقين: ﴿وَلَا تُسْمِع الصُّمَّ﴾ بضم التاء وفتح الميم كقراءة ابن عامر في الأنبياء فاستوت الآي الثلاث في ورود القراءتين على الجملة وفي المعنى المقصود ثم ختمت الأولى بقوله: «إِذَا مَا يُنْذَرُونَ»[4] ومن ذلك ما جاء في توجيه التشابه بين الآية الحادية عشرة من سورة الأنعام وآية العنكبوت قال المؤلف. . . وفي سورة العنكبوت: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ﴾[5] في قراءة نافع وأبي عمرو وابن عامر وحفص ولم يختلف في توحيد لفظ آية في الأنعام والمقصود واحد. . .[6].

---

(1) ملاك التأويل، ص 398 .

(2) سورة الأنبياء: آية 45.

(3) سورة النمل: آية 80، سورة الروم: آية 52.

(4) ملاك التأويل، ص 836-837.

(5) سورة العنكبوت: آية 50.

(6) ملاك التأويل، ص 199-200.

هذان مثالان من أمثلة كثيرة منتشرة في ملاك التأويل تدلان على اعتماد المؤلف القراءات في بلوغ المقصود ولا نستغرب ذلك إذا علمنا تضلع ابن الزبير في القراءات وحذقه لفنونها وقد أوضحت هذا عندما تعرضت لما كان يحذقه المؤلف من فنون تحت عنوان: ابن الزبير القارىء[1].

5 ـ اللغة:

كانت اللغة بفنونها المختلفة في مقدمة العلوم الكثيرة التي استعملها واعتمدها في تحقيق المقصود وبلوغ المرام من تفسيره، والملفت للنظر في هذا المجال تمكن المؤلف من اللغة وحذقه لفنونها وقد أبرزت هذا في موطنه[2]، ومن أهم فنون اللغة التي اعتمدها:

◻ النحو:

كثيراً ما اعتمده المؤلف في بلوغ المقصود من ذلك ما جاء في بيان التشابه اللفظي بين الآية الخامسة عشرة من سورة المائدة وبين آية الممتحنة ووجه اختصاص كل واحدة منهما بما ورد فيها قال: فان قلت فما جوابك عما ذكر عن بعض المتأخرين من أن جواب قوله تعالى: ﴿وان تغفر لهم﴾ محذوف أي: ﴿وان تغفر لهم فإنهم عبادك﴾ ثم عطف عليه وقوله: ﴿فانك أنت العزيز الحكيم﴾. وان المناسبة انما تحصل بهذا التقدير قلت هذا خطأ من وجهين: توجيه المناسبة وتوجيه الإعراب. أما المناسبة فقد تبينت على أتم وجه وأما الإعراب فيمتنع تقديره فيه على ما بينه ثم في هذا المرتكب فساد المعنى إذ ليس الكلام وارداً مورد الاستلطاف وقد بين وأما امتناع ما اختاره في الإعراب فمن وجهين أحدهما التبعية والقطع وهو متفق على منافرته إذا أمكنت المندوحة والثاني وهو عاضد لهذا وقاطع في المسألة

(1) المقدمة، ص 83.
(2) المقدمة، ص 81.

وهو أن سيبويه رحمه الله قد نص أن العرب لا تتكلم به الا في الشعر، قال في باب الجزاء: وقبح في الكلام أن تعمل أن أو شيء من حروف الجزاء في الفعل حتى تجزمه في اللفظ ثم لا يكون له جواب فيجزم ما قبله الا ترى أنك تقول: آتيك ان أتيتني ولا تقول: اتيك ان تأتني الا في الشعر لأنك أخرت إن وما عملت فيه فلم تجعل لها جواباً ينجزم بما قبله فهكذا جرى هذا في كلامهم وقد زاده الإمام بسطاً في الكتاب فهذا قاطع من كلام سيبويه وقد تقدم قبله ما يحصل في الكلام من التهيئة والقطع وهو كاف لاتفاق النحويين على قبح التهيئة والقطع ثم قد انضم إلى ذلك من نص سيبويه ان العرب لا تتكلم بهذا فلا تأتي بكلام قد انجزم فيه الفعل بأداة الشرط ثم لا تأتي بجواب مجزوم في اللفظ أما إذا أتيت بالفاء في الجواب فلا خلاف في هذا كما في الآية وعلى ما قاله سيبويه رحمه الله كافة النحويين من متقدميهم ومتأخريهم فوضح خطأ هذا القول[1].

وكثيراً ما يختم تقرير مسألة من المسائل بعقد فصل يتناول فيه مسألة نحوية يوضح ويؤكد بها ما تناوله في تقرير المسألة من ذلك: الفصل الذي عقده لبيان معنى «أم» قال المؤلف: فصل: آعلم أن «أم» الواقعة في هذه الآي هي الواردة في قولهم: إنها لأبل أم شاء... وبسط المسألة بسطاً مفصلاً[2] ومنه الفصل الذي عقده في مسألة نحوية أيضاً عقب فراغه من بيان الآية الثانية عشرة من سورة الأنعام وما شابهها بسط فيه موضوع تعدي فعل المضمر المتصل إلى مضمره المتصل[3].

☐ **الاستعمالات اللفظية:**

استغل المؤلف الجوانب المختلفة للفظ العربي واعتمدها في بلوغ مقصوده وقد أبرزت كل استطراداته اللغوية رسوخ قدمه في هذا الميدان،

---

(1) ملاك التأويل، ص 410-411.

(2) ملاك التأويل، ص 267.

(3) ملاك التأويل، ص 454.

وأصدق الأمثلة على ما ذكرت ما جاء متعلقا بالاية الاولى من سورة طه وما شابهها. أورد المؤلف تحليلاً لغوياً قيّمًا امتد على أكثر من ثلاث صفحات قال المؤلف في مفتتحه: ان المعاني المتصورة في الأذهان المعقولة القائمة بنفوس العقلاء لا تحصل تعديتها إلى غير ما قامت به الا بالعبارات المترجمة عنها من الألفاظ الاصطلاحية... وقال بعد: ومرجع الألفاظ بالنظر إلى مسمياتها ينحصر في أربعة أقسام: أما أن يتحد اللفظ والمعنى أو يختلف اللفظ والمعنى أو يتحد اللفظ ويختلف المعنى أو يختلف اللفظ ويتحد المعنى ولا يقتضي النظر العقلي زائداً على هذا التقسيم وعلى مقتضاه دارت اللغات وتخاطب العقلاء[1] وقال في موطن آخر في توضيح معنى القبس والجذوة والشهاب: وأما القبس والجذوة والشهاب فان ذلك مما يتصل في لغتنا بمراعاة أدنى شيء يسوغ افتراق التسمية وذلك كثير في لغتنا كقولهم: سيف وصارم ومهند وقولهم في التمر: طلع وضحك وإغريض وبلح وسياب إلى تمام أحواله العشر له في كل حالة منها اسم والمسمى واحد ومتى كان للعرب تهمم بشيء من الموجودات وكان مما يكثر في كلامهم وضعوا له عدة أسماء اتساعاً حتى انهم قد أنهوا بعض المسميات إلى مائة آسم أو نحوها...[2].

ومن الأمثلة الدالة دلالة واضحة على رسوخ قدمه في اللغة واعتماده عليها كثيراً في تقرير المسائل وبلوغ المراد التحليل اللغوي القيم الذي أورده في سورة الإخلاص في بيان الفرق بين أحد في الآية الأولى وأحد في الآية الأخيرة ويضيق المقام عن إيراده هنا فليرجع اليه إلى موطنه[3] وهو هنا يلوم الزمخشري على تقصيره في إظهار هذا الملحظ اللغوي: قال: أما اقتصار الزمخشري على تزاكيه في البيان وتوفر حظه من علم اللسان على

(1) ملاك التأويل، ص 807.
(2) ملاك التأويل، ص 807-811.
(3) ملاك التأويل، ص 1155 وما بعدها.

أن قال: أحد بمعنى واحد وأصله وحد ولم يزد على هذا فغير مناسب. ولم يغفل المؤلف عن الاشتقاق اللفظي كآداة لغوية تعين على بلوغ المرام، انظر ما ورد(1) فيما تعلق بالآية الثانية من سورة القيامة(2).

□ فنون الكلام:

كثيراً ما اعتمد ابن الزبير بعض فنون الكلام في إبراز الحكمة الإلهية في اختلاف الآيات الواردة في الموضوع الواحد بالتقديم والتأخير أو الزيادة في التعبير. كثيراً ما رد ذلك إلى الإيجاز والإطناب أو الإظهار والإضمار أو التصريح والتلميح أو الحقيقة والمجاز أو غيرها من وجوه البلاغة.

من ذلك ما ورد في توجيه التشابه والاختلاف بين الآية الخامسة من سورة مريم والآيات 68-70 من سورة الفرقان، قال: للسائل أن يسأل عن قوله في الأولى: ﴿وعمل صالحاً﴾ وفي الثانية: ﴿وعمل عملاً صالحاً﴾.

وأجاب: ان الآية الأولى ورد قبلها بعد ذكر المنعم عليهم ومن اهتدى بهديهم قوله: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾(3). وهذا قول موجز مجمل فناسبه الإيجاز في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾(4) الآية فتناسبَا في التقابل الإيجازي كما تناسبَا أيضاً في الفواصل ومقاطع الآي وذلك كقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ وقوله: ﴿ولا يظلمون شيئاً﴾ والمسهل من القراء يقول شياً فيقف بالياء المشددة وأما قوله في آية الفرقان: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ

---

(1) ملاك التأويل، ص 1159.
(2) ملاك التأويل، ص 1120 وما بعدها.
(3) سورة مريم: آية 59.
(4) سورة مريم: آية 60.

وَعَمِلَ عملاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَات﴾[1] فإطناب يناسب التفصيل الواقع قبله.

ثم قال في النهاية، فإيجاز بإيجاز وإطناب بإطناب مناسبة بين الجواب وما جووب به وكل على ما يجب ولا يسوغ العكس على ما تمهد والله أعلم[2].

وقال في نهاية ما تعلق بسورة الحديد: وتحصل نظم السورتين على أتم مناسبة وأجل تلاؤم وجرى ذلك على مسالك العرب وتفننها في كلامها وتصرفها إذا أطالت لداع موجب وفصلت أوجزت لمقتض من المعنى وأجملت:

يرمون بالخطب الطوال وتارة وحي الملاحظ خيفة الرقباء...

ولا يمكن على ما تبين عكس الوارد في السورتين بوجه والله أعلم بما أراد[3].

وقال في موضع آخر[4] ـ مستنداً في تقرير المسألة على الحقيقة والمجاز ـ: ان أمر الإماتة والإحياء لا مطمع فيه لأحد بخلاف أمر الإطعام والسقي إذ قد يتوهم من ضعف نظره أنّ ذلك مما تصح فيه النسبة حقيقة لغيره تعالى إذ يقال: أطعمني فلان وسقاني ويسبق إلى الوهم الاستقلال وإنما ذلك على المجاز ولا يقال أمات فلان فلاناً أو أحياه إلاّ ويسبق إلى الوهم ما الأمر عليه من المجاز.

---

(1) سورة الفرقان: آية 70.
(2) ملاك التأويل، ص 803-804.
(3) ملاك التأويل، ص 1074.
(4) ملاك التأويل، ص 894.

□ **الأصول:**

عرف ابن الزبير بتمكنه من الأصلين أصول الدين وأصول الفقه[1] وقد انعكس هذا جلياً على تفسيره فكثيراً ما اعتمد قواعد أصولية في تقرير مسألة من المسائل أو تغليب رأي على رأي من ذلك ما ورد في بيان الآية الثانية والثلاثين من سورة البقرة قال: فالآية واردة في مخصوصين والكلام مقيد فلم يكن ليناسبه الإطلاق والتعميم الحاصل من التأكيد «بكل» المحرزة للعموم والمقتضية الإحاطة والاستغراق. وأما آية الأنفال فقد قال قبلها: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾[2] وهذا بمقتضى اللفظ من كل كافر ومثل هذا وإن ورد على سبب خاص فإن وروده على ذلك السبب غير مانع من دعوى العموم فيه وهذا متفق عليه في فن الأصول وقد استقر معلوماً في الشريعة أن كل كافر بأي كفر كفر فإنه إذا أسلم فإن إسلامه يجب ما قبله ويمحوه فلما اقتضت الآية الاستغراق والعموم ناسب ذلك التأكيد المعمم فقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾[3].

وفي هذا النطاق تندرج مواقف المؤلف من المخالفين وردوده على الفرق من هذه المواقف ما جاء في توجيهه للتشابه والتغاير بين الآية الأولى من سورة الزخرف ونظيرتها من سورة الجاثية[4] قال: فكلامهم يعني كلام الشياطين لأوليائهم، تخرّص بالقول لا علم وراءه إذ الكلام في القدر وأحكامه وأن الإرادة تخالف الرضا وأن الآمر قد يأمر بما لا يريده وأنّه سبحانه قد يريد إيقاع ما لا يرضاه وبيان ما تبنى عليه التكاليف وتتعلق به الأوامر والنواهي من القدرة الكسبية التي بمعرفتها وثبوتها حصول السلامة

---

(1) ارجع إلى ابن الزبير الأصولي في ترجمته، ص 86 وما بعدها.

(2) سورة الأنفال: آية 38.

(3) سورة الأنفال: آية 39.

(4) ملاك التأويل، ص 1014.

من مذهب الجبر وبإنكارها التورط في مذهب الاعتزال أو قول أهل القدر، وكلا المذهبين ضلال ونزوح عن الحق وكل من المذهبين له تهجم سبقية إلى الأذهان يدفعها التوفيق إلى النظر الصحيح وإلا كان التخرص المورط في الضلالات وهنا بحار طامية عن دقائق العلم والنظر لا شيء عند هؤلاء الكفار منها ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾[1] ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾[2]. فقد وقع التناسب في هذا.

ومنها رده على الخوارج في تكفيرهم مرتكب الكبيرة عند بيانه للحكمة الإلهية من وصف من لم يحكم بما أنزل الله بأوصاف مختلفة: الكفر والظلم والفسق مع أن الموصوف واحد. قال: إن المفسرين قد أجمعوا على أن الوعيد في هذه الآي[3] يتناول يهود وقد ثبت في الصحيح إنكارهم الرجم مع ثبوته في التوراة وفعلهم فيما نعى الله عليهم من مخالفة ما عهد إليهم فيه ونص في كتابهم حسبما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾[4]. إلى ما بعد، وهذا كله من حكمهم بغير ما أنزل الله فهم الكافرون والظالمون والفاسقون.

ففيهم وبسبب مرتكبهم نزلت آيات المائدة ثم نقول مع ذلك أن الحكم إذا نزل بسبب خاص يمنع ذلك من دعوى العموم المنزل. وهذا اتفاق من حذاق الأصوليين وقد رددوا التمثيل بشاة ميمونة وهذا مع عدم القرائن أما فيما نحن بسبيله في آيات المائدة، فقد عضد العموم في ذلك وغيرها مواضع من الكتاب والسنة. فنقول بناء على ما ذكرنا أن هذه الآيات وإن نزلت بسبب فعل يهود ومرتكبهم في الرجم وغيره فإن ذلك

---

(1) سورة يونس: آية 39.
(2) سورة يونس: آية 66.
(3) الآيات 44 و 45 و 47 من سورة المائدة.
(4) سورة البقرة: آية 84، 85.

عام في كل من حكم بغير ما أنزل الله ما لم يفعل ذلك جاهلاً غير متعمد للمعصية أو عاصياً متعمداً مع صحة اعتقاده وسلامة إقراره بلسانه، فقد خصت الشريعة هذين وقد تعلقت الخوارج بعموم هذه الآي وأشباهها في تفكيرهم مرتكب الكبيرة وليس شيء من ذلك نصاً في مطلوبهم وهم محجوبون بغيرها. وإذا كانت هذه الآي على عمومها فيمن بينا فمن في المواضع الثلاثة شرطية وهي من المتفق عليه في ألفاظ العموم عند أربابه وهم الجمهور[1] . . .

هذه عينات ثلاث ومثيلاتها في ملاك التأويل كثيرة، تقيم الدليل على اعتماد ابن الزبير على الأصلين في بلوغ المقصود وتحصيل المراد وتشهد برسوخ قدمه فيهما.

6 ـ الاستشهاد بآراء العلماء:

إن من جملة ما استعان به ابن الزبير على بلوغ المقصود من كتابه آراء غيره من العلماء على تنوع اختصاصاتهم واختلاف مشاربهم من أصوليين ومفسرين وقراء ولغويين ونحاة وشعراء وفرق وفلاسفة.

أكثر من استشهد به من المفسرين فنقل عنه أو أشار إليه:

- الخطيب الاسكافي وكتابه درة التنزيل كالذي بصفحة 235 .
- الزمخشري وتفسيره الكشاف كالذي بصفحة 393 .
- أبو الفضل ابن الخطيب وكتابه التفسير الكبير كالذي بصفحة 290 .
- ابن عطية وتفسيره المحرر الوجيز كما جاء بصفحة 212 .
- القرطبي وتفسيره: الجامع لأحكام القرآن كما جاء بصفحة 212 .
- مكي بن أبي طالب وتفسيره الهداية إلى بلوغ النهاية كالذي جاء بصفحة 794 .

---

(1) ملاك التأويل، ص 399-400.

ـ الطبري وتفسيره جامع البيان كما جاء بصفحة 600.

لم يكتف ابن الزبير بنقل آراء المفسرين والاستشهاد بها، بل كان في أغلب ذلك ناقداً، يستحسن الآراء أو يضعفها، ينوه بمن أجاد وأبدع ويلوم من أغفل عن شيء أو قصر. قال عند استشهاده بالـزمخشري: ومثله الزمخشري بجواب من قيل لـه: ألك ثمر؟ فقال: ولا ثمـرة واحدة. وهو تنظير حسن[1] وقال في نقده لأبي الفضل ابن الخطيب الرازي: تعرض أبو الفضل ابن الخطيب لقوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ... وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾[2] ووجه ذلك على ما ذكرته ثم اعترض على ذلك بقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾[3] ولم يفصل وقال إنّه مشكل وقد بينا أنه لا إشكال في ذلك على ما تقعد قبل والحمد لله[4].

ويقول في بيانه للفرق بين واحد وأحد من سورة الإخلاص: وقد استشعر الفرق من المفسرين من قال: أحد بمعنى واحد فرد من جميع جهات الوحدانية ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[5] وهو قول بعض جلة المفسرين وقد أحسن، أما اقتصار الزمخشري على تزاكيه في البيان وتوفر حظه من علم اللسان على أن قال: أحد بمعنى واحد وأصله وحد، ولم يزد على هذا فغير مناسب لمسلكه[6].

ومن الأمثلة التي تتجلى فيها مواقف ابن الزبير النقدية ما جـاء صفحة 600 يقول: هذا حاصل قول الطبري: وإن قلنا بما قال أبو محمد بن عطية ورغم أنه الظاهر من أنه المراد بقوله: ﴿وقل اعملوا... الآية﴾

---

(1) ملاك التأويل، ص 540.
(2) سورة آل عمران: آية 3.
(3) سورة الكهف: آية 1.
(4) ملاك التأويل، ص 290.
(5) سورة الشورى: آية 11.
(6) ملاك التأويل، ص 1159.

المعتدون الذين لم يتوبوا، المتوعدون المعنيون بقوله: ﴿أو لم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم﴾. فيعارضنا إيصالها بما اتصلت به. وأما على قول الطبري فلا إشكال وهو أظهر[1].

واستناد ابن الزبير إلى القراءات في تقرير المسائل وبلوغ المقصود أمر ملفت للنظر. فهو كثيراً ما نبه إلى القراءة واستعان بها في توجيه المتشابه وإبراز المعاني التي اقتضت التغاير وهو في أغلب ذلك ينسب القراءة لصاحبها كقوله: قراءة الجماعة إلا ابن عامر ﴿وَلاَ يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ﴾[2] وقرأ ابن عامر: ﴿وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ﴾ بضم التاء وفتح الميم من الصم[3]... ويغفل أحياناً عن ذلك فيبهم كقوله: وقرىء بالتاء[4]، وقوله في موضع آخر: والمسهّل من القراء يقول: شيّا، فيقف بالياء المشددة[5] وقد ينبه إلى القراءة الشاذة كقوله: قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ قيل في أحد هنا أنه بمعني واحد وأصله وحد وربما يعتضد من قال بهذا بقراءة من قرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ﴾[6] فيجعل هذه القراءة مفسرة للأخرى وهي قراءة شاذة خارجة عن خط المصحف فليست مما يقطع به[7].

وقد كثرت نقول ابن الزبير عن أئمة اللغة على مختلف اهتماماتهم كالفراء والأخفش ويونس بن حبيب والفراهيدي والمبرد، وسيبويه، وقد كان هذا الأخير أكثر من اعتمد عليه المؤلف إذ تعددت نقول ابن الزبير عن الكتاب وإحالاته عليه واستشهاداته بما ورد فيه من شواهد شعرية وغير

---

(1) ملاك التأويل، ص 600.
(2) سورة الأنبياء: آية 45.
(3) ملاك التأويل، ص 836-837.
(4) ملاك التأويل، ص 372.
(5) ملاك التأويل، ص 804.
(6) قرأ بذلك الأعمش وهي قراءة شاذة.
(7) ملاك التأويل، ص 1155.

شعرية. ويدخل في مجال الاستشهاد بآراء العلماء ما استعرضه ابن الزبير من آراء الفرق المتعددة من جبرية وقدرية ومعتزلة وخوارج وإمامية وصوفية وفلاسفة وردوده عليهم دحضاً لآرائهم وتأكيداً لما ذهب إليه في توجيهه للآيات المتشابهة. والملفت للانتباه هنا الشدّة التي اتسمت بها ردوده يقول في رده على الزمخشري المعتزلي: انتهى نص كلامه إلا في لفظة أسقطتها لجريها فيما لا يكاد ينفك عنه في إحراز مذهبه الخبيث فتركها وادحاضها لا يخل بشيء من المعنى[1] ويقول في موضع آخر: وكلا المذهبين (يعني الاعتزال والقدرية) ضلال ونزوح عن الحق[2]... ولا غرابة في مواقفه إذا علم أنه بنى مقصود كتابه على القطع بذوي الإلحاد والتعطيل والزيغ والارتياب، قال، رحمه الله: وإنما كلامنا معتمد فيه القطع بذوي الزيغ والارتياب ممن يتعلق بما تشابه منه طعناً في الدين واتباعاً لسبيل الملحدين وشان هؤلاء التعلق بأدنى احتمال من غير تسليم لما وراء ذلك[3].

7 ـ طرح السؤال:

من الوسائل العديدة التي استعملها المؤلف لبلوغ المقصود وتحقيق المراد طريقة طرح السؤال أو افتراض السؤال أو أسلوب إذا قلت كذا... قلت، تلك الطريقة التي عرف بها الزمخشري في الكشاف. نجد ابن الزبير يجمع الآيات المتشابهة في السورة الواحدة أو في السور المختلفة ثم يردف ذلك بصيغة من الصيغ التالية: للسائل أن يسأل، في هذا عدد كذا من السؤالات[4]، أو في هذا عدد كذا من السؤالات[5]، أو يبرز نقاط التشابه أو نقاط الاختلاف ثم يقول: يسأل عن ذلك[6] أو فللسائل أن يسأل

---

(1) ملاك التأويل، ص 786.

(2) ملاك التأويل، ص 1014-1015.

(3) ملاك التأويل، ص 242.

(4) ملاك التأويل، ص 150.

(5) ملاك التأويل، ص 168، ص 203، ص 218.

(6) ملاك التأويل، ص 196.

فيقول[1]، يسأل عما أعقب به في كل من الموضعين[2] إلى غيرها من الصيغ العديدة التي تنبىء عن تفنن.

وكثيراً ما يتوقع السؤال أثناء تقريره للمسائل ويستعمل في ذلك صيغاً متعددة يثير بها تساؤلات تكشف عن جوانب متصلة بالموضوع كقوله: فإن قيل كذا... قلت[3] أو فإن قلت كذا... قلت[4]... والجدير بالملاحظة في كل هذا أن المؤلف تمكن عن طريق طرح السؤال من التعمق في البحث والتمحيص والإحاطة بجوانب الموضوع.

8 ـ عقد فصول تكميلية:

كثيراً ما يعقد ابن الزبير فصولاً يُعَنْوِن لها بقوله: فصل: يتناول فيها بالتحليل المعمق جانباً من جوانب الموضوع قد يكون لغوياً كالذي عقب به ما تعلق بالآية الثالثة والثلاثين من سورة البقرة، وتناول فيه بالبيان الاستعمالات المختلفة لـ «أم»[5] أو كالذي تناول فيه واحدة من مغفلات صاحب الدرة وهي زيادة «من» في كل من آية الأنعام[6] وصَ[7] والسجدة[8] وسقوطها مما عداها[9].

هذه مجموعة من عيون آلات العلوم بلغ بها ابن الزبير قوام المفهوم فكان تفسيره ملاكاً للتأويل حقاً غريباً في معناه كما وصف في بعض كتب

---

(1) ملاك التأويل، ص 170.
(2) ملاك التأويل، ص 194.
(3) ملاك التأويل، ص 181، ص 189.
(4) ملاك التأويل، ص 182.
(5) ملاك التأويل، ص 267.
(6) سورة الأنعام: آية 6.
(7) سورة صَ: آية 3.
(8) سورة السجدة: آية 26.
(9) ملاك التأويل، ص 415.

التراجم[1]، موسوعة جمع فيها مؤلفها إلى جانب التفسير علوماً كثيرة. كل هذا يبوىء ملاك التأويل المكانة المرموقة بين كتب التفسير ويجعله لبنة أخرى في سبيل خدمة الكتاب العزيز.

رابعاً
بين ملاك التأويل ودرة التنزيل

قال ابن الزبير في مقدمة تفسيره: «وأبديت بحول ربي من مكنون خاطري إلى الظهور ما أثبته ــ بعون الله وقوته ــ في هذا المسطور معتمداً عين ما ذكره (يعني الخطيب الاسكافي في درة التنزيل) من الآيات ومستدركاً ما تذكرته مما أغفله، رحمه الله، من أمثالها من المتشابهات برفع تلك الإشكالات وإبداء المعاني الخفيات القاطعة بدرب البطالات من غير أن أقف في أكثر ذلك على كلامه إلا بعد إبدائي ما يلهمه الله سبحانه وإتمامه[2]. . . وقال بعد: «وقد استجرت تلك الآيات جملة وافرة من المقفلات من أمثال تلك المشكلات مما يجاري ويشبه ويلتبس على من قصر في النظر ويشتبه مما لم يقع في كتاب درة التنزيل ولا تعرض له بذكر بنص التنزيل ولا التأويل فنبهنا على ذلك لينحاز من المجتمع على ذكره ويفصل فعلامة ــ غ ــ تدل على أنه من المغفل[3]. . .

إن المتأمل في هذه المقتطفات من المقدمة يتبين ضرورة عقد مقارنة بين «درة التنزيل» «وملاك التأويل» يستشف منها مدى وفاء المؤلف لما التزم به ويبرز من خلالها قيمة المؤَلَّف الحقيقية هل هو على ما وصفه به صاحب

(1) شجرة النور الزكية، ص 212؛ درة الحجال، ص 11؛ الديباج، ص 42.
(2) مقدمة التفسير، ص 147.
(3) مقدمة التفسير، ص 147-148.

كشف الظنون: تلخيص لكتاب الحصنكيفي[1] أم هو «غريب في معناه كما وصف في كثير من كتب التراجم[2].

يلتقي المؤلَفان في الموضوع والهدف، فمن حيث الموضوع نجد في كل منهما توجيهاً لما تكرر من آيات القرآن أو تشابه واختلف بتقديم أو تأخير أو بعض زيادة في التعبير وإبرازاً للحكمة الإلهية الكامنة وراء ذلك. قال الخطيب في مقدمة كتابه درة التنزيل: تدعوني دواع قوية، يبعثها نظر وروية، في الآيات المتكررة بالكلمات المتفقة والمختلفة وحروفها المتشابهة المنغلقة والمنحرفة، تطلباً لعلامات ترفع لبس إشكالها، وتخص الكلمة بآياتها دون أشكالها[3].

وقال ابن الزبير في ملاك التأويل: وإن من مغفلات مصنفي أئمتنا، رضي الله عنهم، في خدمة علومه وتدبر منظومه الجليل ومفهومه، توجيه ما تكرر من آياته لفظاً أو اختلف بتقديم أو تأخير أو بعض زيادة في التعبير[4]. . .

وفيما يتصل بالموضوع أشار ابن الزبير إلى أنه تناول في تفسيره عين ما اعتمده الخطيب الاسكافي في الدرة من الآيات وزاد على ذلك ما استجرته تلك الآيات من المقفلات وما أغفله صاحب الدرة من المغفلات. وبالمقارنة يتبين أن ملاك التأويل كان أوفى وأشمل وأكثر إحاطة من درة التنزيل. فقد بلغ مجموع ما تناوله ابن الزبير في كتابه ثلثمائة وسبعاً وسبعين آية بينما لا يتجاوز عدد هذه الآيات في الدرة مائتين وثلاثاً وسبعين.

---

(1) كشف الظنون، المجلد الثاني، ص 1013.

(2) شجرة النور الزكية، ص 212؛ درة الحجال، ص 11-12؛ الديباج، ص 42.

(3) درة التنزيل، ص 7-8.

(4) مقدمة التفسير، ص 144-145.

هذا من حيث الكم، أما من حيث الكيف فإن ابن الزبير قد تميز في عمله بجملة من الخصائص:

ـ كان أكثر إحاطة بالموضوع أو أكثر تمكناً في الاستقراء. غالباً ما ينبه إلى جوانب أو آيات ذات صلة متينة بالموضوع غفل عنها صاحب الدرة. من ذلك ما تعلق بالآية الحادية عشرة من سورة البقرة يقول ابن الزبير: ففي هذه الآية ثلاثة سؤالات تعرض منها صاحب كتاب الدرة للفرق بين «يذبحون» وقوله في سورة ابراهيم: «ويذبحون» وأغفل ما سوى ذلك[1] ومنه أيضاً ما تعلق بالآية الثانية عشرة من سورة البقرة ومشابهتها من سورة الأعراف أثار صاحب ملاك التأويل حول ذلك عشرة أسئلة[2] بينما اقتصر الأمر في درة التنزيل على ست مسائل[3] والأمثلة من هذا القبيل كثيرة تلحظ بالمقارنة بين الكتابين.

ـ كان عموماً أكثر بسطاً وتحليلاً للمسائل يتجسم هذا في تقليبه الأمر من جميع جوانبه، وفيما يثيره من أسئلة بأسلوبه الذي تميز به: فإن قلت قلت. وكذلك فيما يعقده من مداخل تمهيدية أو فصول تكميلية[4].

ـ أكثر استشهاداً بآراء العلماء من مفسرين ولغويين وشعراء.

ـ متميزاً بردوده على الفرق والملل والنحل وبمواقفه السنية من بعض المسائل الخلافية. فقد كان كتابه «ملاك التأويل» موسوعة بحق، ففيه إلى جانب التفسير فنون اللغة والعقائد والأصول ومناهج النقد.

ـ أما من جهة الهدف فقد كان مقصود كل من الخطيب وابن الزبير من تأليف كتابيهما خدمة الكتاب العزيز والقطع بذوي الإلحاد والتعطيل

---

(1) ملاك التأويل، ص 198.

(2) ملاك التأويل، ص 40.

(3) درة التنزيل، ص 14.

(4) ارجع في هذا إلى ما قيل حول منهجه بالمقدمة، ص 110 وما بعدها.

الذين تعلقوا بشبهة التكرار وظنوا أن اختلاف الآيات الواردة في الموضوع الواحد بتقديم أو تأخير أو زيادة في التعبير واختصاص كل آية بما ورد فيها ليس لسبب تقتضيه وداع من المعنى يطلبه ويستدعيه.

قال الخطيب: ففتقت من أكمام المعاني ما أوقع فرقاناً وصار المبهم المتشابه وتكرار المتكرر تبياناً ولطعن الجاحدين رداً ولمسلك الملحدين سداً[1]. وقال ابن الزبير: وإنما كلامنا معتمد فيه القطع بذوي الزيغ والارتياب ممن يتعلق بما تشابه منه طعناً في الدين واتباعاً لسبيل الملحدين وشأن هؤلاء التعلق بأدنى احتمال من غير تسليم لما وراء ذلك[2].

ومن خلال ما عرفناه عن ملاك التأويل يمكن القول بأن وصفه بكونه تلخيصاً لدرة التنزيل وصف لا يعكس الحقيقة وربما استند صاحب كشف الظنون[3] في وصفه بذلك إلى ما أورده المؤلف في المقدمة حين قال: «معتمداً فيه عين ما ذكره صاحب الدرة من الآيات».

ومما ينبغي التنبيه إليه هنا هو أن ابن الزبير وإن اعتمد ما اعتمده صاحب الدرة من الآيات فقد جاء فيها بتوجيهات وتخريجات جديدة وجيدة أبعد ما تكون عن التلخيص وقد أشار إلى هذا في المقدمة قال: من غير أن أقف في أكثر ذلك على كلامه إلا بعد إبدائي ما يلهمه الله سبحانه وإتمامه ولا ناقلاً إلا في الشاذ النادر كلام أحد من أرباب المعاني إذ لم يتعرض أحد غير من تقدم ذكره (يعني الخطيب) لما في هذا الضرب أعاني وإنما يلقيه فكري إلى ذكري فيلقيه ترجمان فهمي على قلمي[4]...

---

(1) درة التنزيل، ص 8.
(2) ملاك التأويل، ص 242.
(3) كشف الظنون 1813/2.
(4) ملاك التأويل، ص 147.

وفعلاً فقد كان ملاك التأويل عملاً جليلاً كشف به ابن الزبير جوانب أخرى من مكنونات المعجزة القرآنية الخالدة وكان كما وصفه السيوطي أحسن ما ألف في المتشابه إلى زمانه قال: وأحسن من هذا (يشير إلى درة التنزيل) ملاك التأويل لأبي جعفر بن الزبير[1].

ولعل أنسب ما يمكن أن يوصف به ما وصفه به الزركشي في البرهان حين قال في سياق كلامه عما ألف في المتشابه: وصنف فيه أبو جعفر بن الزبير وهو أبسطها في مجلدين[2].

□ □ □

---

(1) الاتقان 194/2.

(2) البرهان، للزركشي 112/1.

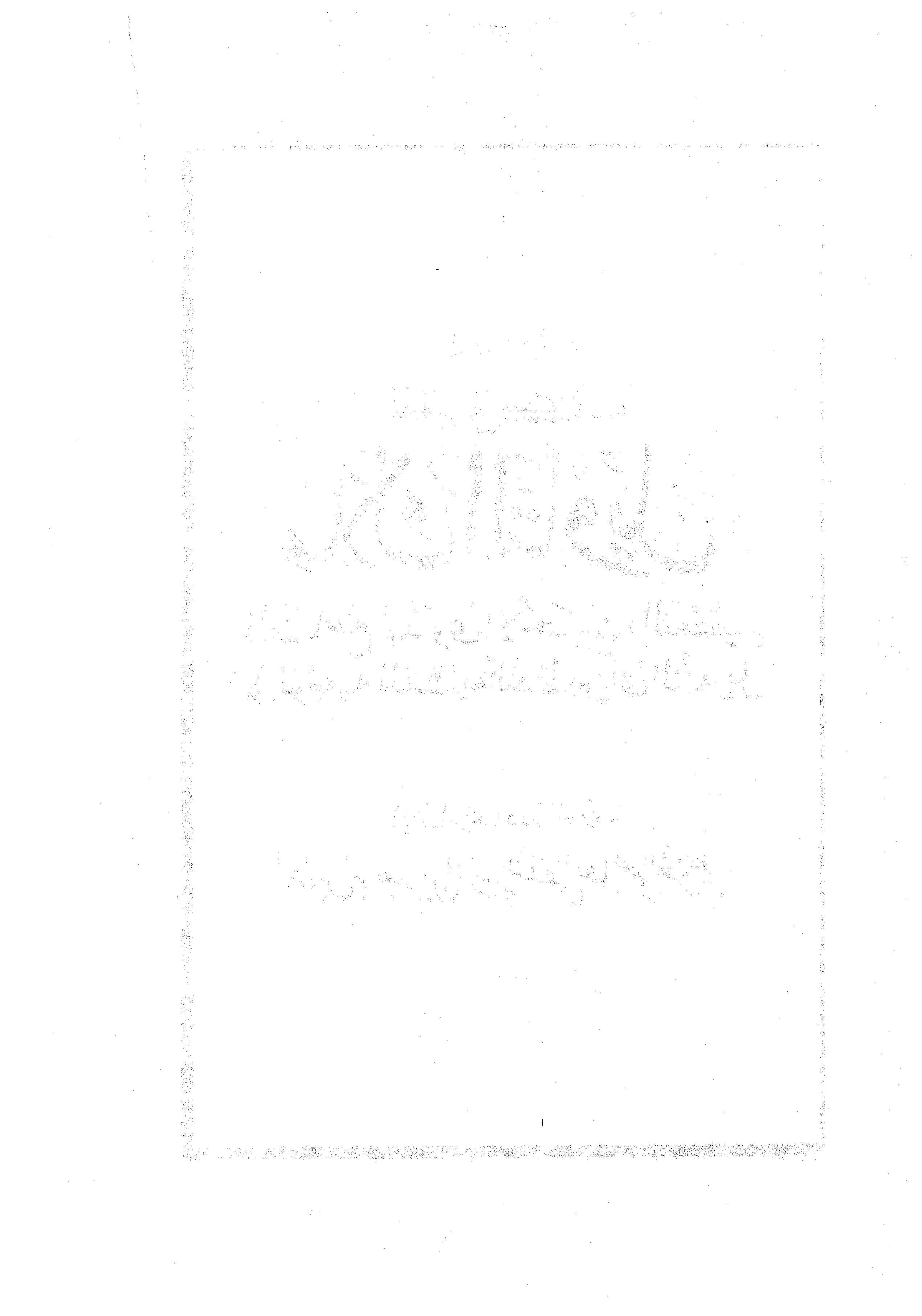
تحقيق كتاب

مِلاكُ التَّأوِيل

القَاطع بذوى الإلحاد والتّعطيل في توجيه المتشابه اللفظ مِن آى التَّنزيل

للإمام الحافظ العلّامة

أحمد بن ابراهيم بن الزّبير الثقفي العاصمي الغرناطي



بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

قال الشيخ الفقيه الأستاذ الخطيب المقرىء الراوية الشهير: أبو جعفر ابن ابراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي، رضي الله عنه.

الحمد لله المانح من شاء ما شاء، والغافر دون الشرك[1] بحكم المشيئة لمن أساء، والمصطفي من الجنس الإنساني الرسل والأنبياء[2]، ومن أتباعهم من جعلهم رحماء بينهم وعلى الكفار أشداء[3]، ومن خلفهم ممن آثر الاهتداء والاقتداء، وجانب التنكب عن سبلهم الواضحة والاعتداء، ولزم الجماعة عند افتراق ذوي الشقاق فحسم الداء، وتمسك بالكتاب والسنة فمنح الشفاء، واستوضح الطريق بهما[4] إلى الله تعالى وتحقق الإنباء، وتدبر كتاب الله فشاهد المعجزة القاطعة والبراهين

---

(1) إشارة إلى الآية 48 من سورة النساء: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾.

(2) مستمد من قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ المَلاَئِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾. سورة الحج: آية 75.

(3) إيماء إلى قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾. سورة الفتح: آية 29.

(4) في ن 1، ن 2: بما ــ ولا يستقيم بها المعنى.

الساطعة وعرف الأنباء، وعلم مراده صلى الله عليه وسلم بقوله: «وإنما كان الذي أوتيت وحياً»[1] فاعمل جهده في تدبره الفكر والاعتناء، واشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة من وفق فالتزم بشروطها الوفاء، واشهد أن محمداً عبده ورسوله المصطفى[2] المعطى في القيامة المقام المحمود واللواء، شهادة نرجو بها من شفاعته (العـظمى)[3] الحظوة والاعتناء، وتجعل لنا (من)[4] دار الخلد المصير والجزاء، صلى الله عليه وعلى آله الحائزين في وفائهم باتباعه السبق والثناء، والأسوة والقدوة لمن بعدهم جاء، وسلم كثيراً.

وبعد، فإن كتاب الله تعالى أحق ما أنفقت فيه نفائس الأعمار، وقصر على اعتباره وتدبره الملوان الليل والنهار، واعتمد موئلاً وملاذاً، واعتصم بعروته الوثقى وزراً منجياً وعياذاً، واستنزلت بـه البركـات، واهتدي بواضحات أنواره عوالم الأرض والسماوات. فهو الهدي والنور، والشفاء لما في الصدور، والواقي لمن تمسك به واعتلق بسببه من كل مخوف ومحذور، والنعمة التي قصر عن الوفاء بشكرها كل مكتوب ومسطور، وأنّى[5] يتصور الكفاء وتوهم الوفاء بشكر: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُــورٌ﴾[6].

وإن من مغفلات[7] مصنفي أئمتنا، رضي الله عنهم، في خدمة

---

(1) صحيح البخاري، فضائل القرآن، 1، مسلم: إيمان، 239.

(2) سقط من ن 3، ن 4 ـ بهامش ن 1 المعطي.

(3) سقط من ن 1، ن 4.

(4) سقط من ن 1، ن 3، ن 4.

(5) في ن 3: وإني، ولا يستقيم بذلك المعنى.

(6) سورة المائدة: آية 15.

(7) أنظر المقدمة، ص 105 وما بعدها.

علومه، وتدبر منظومه الجليل ومفهومه، توجيه ما تكرر من آياته لفظاً أو اختلف بتقديم أو تأخير وبعض زيادة في التعبير[1]، فعسر[2] إلا على الماهر حفظاً، وظن الغافل عن التدبر، والمخلد إلى الراحة عن التفكر، أن تخصيص كل آية من تلك الآيات (بالوارد فيها مما خالفت فيه نـظيـرتهـا[3] ليس لسبب تقتضيـه، وداع من المعنى (يـطلبـه)[4] ويستدعيه[5]، وأن ليس على جميع الوارد من ذلك محرزات من المعاني عند ذوي الأفهام، ومقتضيات من لوازم جليل التركيب من ذلك المعجز العليّ من النظام، فلا يليق بكل من تلك المواضع إلا الوارد فيه، وإن تقرير وقوع آية منها في موضع نظيرتها[6] ينافي مقصود ذلك الموضع [7] وينافيه. فتعساً لمن تنكب عن واضح آياته، وكأن لم يقرع سمعه قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [8].

وإن مما حرك إلى هذا الغرض، وألحقه عند من تحلى ولوعاً باعتباره، والتدبر لعجائبه الباهرة وأسراره، بمثل حالي على استحكام جذبي [9] وإمحالي بالواجب المفترض، إنه باب لم يقرعه ممن[10]

---

(1) في ن 2: التعبّر.
(2) في ن 2: معشر.
(3) ما بين القوسين ساقط من ن 2.
(4) سقط من ن 2، ن 4، وفي ن 2: أليه، وفي ن 4: الذي.
(5) في ن 2: إليه يستدعيه، وفي ن 4: الذي تستدعيه. وأنسبها جميعاً ما جاء في ن 3 وهو الوارد هنا.
(6) في ن 3: زيادة وشبيهتها.
(7) في ن 3: تلك المواضع ــ والضمير في: ينافيه ــ يؤكد الافراد.
(8) سورة ص: آية 29.
(9) في ن 3: حزني.
(10) في ن 2: من، ومما يؤكد أن ــ ممن ــ أنسب ورودها مكررة بعد.

تقدم وسلف [1]، ومن حذا حذوهم ممن أتى بعدهم وخلف، أحد فيما علمته على توالي الأعصار والمدد، وترادف أيام الأبد، مع عظيم موقعه، وجليل منزعه، ومكانته في الدين، وفتّه أعضاد ذوي الشك والارتياب من الطاعنين والملحدين، إلى أن ورد علي كتاب لبعض المعتنين من جلة المشارقة[2]، نفعه الله، سماه بكتاب درة التنزيل وغرة التأويل[3]، قرع به مغلق هذا الباب، وأتى في هذا المقصد بصفو من التوجيهات لباب، وعرّف أنه باب لم يوجف عنه أحد قبله بخيل ولا ركاب، ولا نطق ناطق قبل فيه، بحرف مما فيه[4]. وصدق، رحمه الله، وأحسن فيما سلك وسنّ[5]، وحق لنا به ــ لإحسانه ــ أن نقتدي ونستن، فحرك من فكري الساكن، وأضربت عن فسحته بالاستدراك بلكن، وأبديت بحول ربي من مكنون خاطري إلى الظهور، ما أثبته بعون الله وقوته في هذا المسطور، معتمداً[6] عين ما ذكره من الآيات[7]، ومستدركاً ما تذكرته

---

(1) في ن 3: ذوي الشكوك.

(2) يعني الخطيب الاسكافي: وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب الاسكافي، عالم باللغة والأدب من أهل أصبهان، من كتبه: مبادىء اللغة ونقد الشعر ودرة التنزيل وغرة التأويل، وغلط كتاب العين والغرة في بعض ما يغلط به أهل الأدب ولطف التدبير، مجهول الولادة، متوفي سنة 420هـ/ 1029م.

راجع: إرشاد الأريب 20/7؛ الوافي بالوفيات 337/3؛ بغية الوعاة 63؛ بروكلمان، م 91/1.

(3) درة التنزيل وغرة التأويل: مؤلف مطبوع من تأليف الخطيب الاسكافي تناول فيه توجيه ما تكرر من آيات القرآن واشتبه لفظاً ومعنى أو اختلف بتقديم أو تأخير، وقد نسبه صاحب كشف الظنون خطأ إلى الفخر الرازي (أنظر المقدمة، ص 106).

(4) أنظر المقدمة، ص 105 وما بعدها.

(5) في ن 4: بين وبها أيضاً يستقيم المعنى.

(6) في ن 3 معتداً، وهو خطأ.

(7) أنظر المدخل، ص 135 وما بعدها.

مما أغفله، رحمه الله، من أمثالها من المتشابهات، برفع تلك الإشكالات، وإبداء المعاني الخفيات القاطعة بدرب[1] البطالات، من غير أن أقف ــ في (أكثر)[2] ذلك ــ على كلامه[3]، إلا بعد إبدائي ما يلهمه الله سبحانه وإتمامه، ولا ناقلاً ــ إلا في الشاذ النادر ــ كلام أحد من أرباب المعاني، إذ لم يتعرض أحد غير من تقدم ذكره لما من هذا الضرب أعاني، وإنما يلقيه فكري إلى ذكري، فيلقيه ترجمان فهمي على قلمي. وإن آثرت بعض ما عليه لغيري عثرت فنقلت، أفصحت بالنسبة [4] وعقلت، وما أرى ذلك يبلغ في هذا المجموع غاية أقل الجموع، وإن نيف فيسير[5] ، والتحقق في ذلك بلازم الذهول الإنساني عسير، وما سوى ذلك فأنا ابن نجدته وذو عهدته، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [6] . وقد استجرت تلك الآيات جملة وافرة من المقفلات، من أمثال تلك المشكلات، مما يجاري ويشبه، ويلتبس على من قصر[7] في النظر ويشتبه، مما لم يقع في كتاب: «درة التنزيل»، ولا تعرض له بذكر بنص التنزيل (ولا تأويل)[8]، فنبهنا[9] إلى ذلك لينحاز من المجتمع على ذكره ويفصل، فعلامة: غ ــ تدل (على)[10] أنه من

---

(1) في ن 3: بذوي، وبها أيضاً يستقيم المعنى.
(2) يسقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(3) أنظر المقارنة الواردة في ذلك بالمقدمة ص 113.
(4) في ن 4: بالنية ــ وبها أيضاً يستقيم المعنى.
(5) أنظر المدخل، ص 110.
(6) سورة النحل: آية 53.
(7) في ن 2: مضى، وهو منافر للمعنى.
(8) بهامش ن 2.
(9) في ن 3: منبهاً.
(10) سقط من ن 3.

المغفل. ومحرزاً ــ بفضل الله ــ من عيون آلات العلوم ما به قوام المفهوم[1]، عائذاً بالله (سبحانه)[2] من سوء الوعي، والقول في (مثل)[3] هذا المقصد العليّ بالرأي، فقد ملأ المسامع وعمر الأفكار قوله صلى الله عليه وسلم: «من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار»[4].

ولما تيسر بفضل الله تعالى المقصود من هذا الغرض، بهر حسناً وكمالاً، ولاح في أفق التفاسير لنجومها هلالاً، سميته بكتاب: «ملاك التأويل، القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل، في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل»[5].

وأنا أضرع إلى من وسعت رحمته كل شيء، وشملت نعمته[6] كل حيّ، أن ينفع فيه بباعث النية، وأن يبلغني من عفوه ومغفرته الأمنية، (وأن يؤيد بالنصر والتمكين وموالاة الفتح المبين مولانا أمير المسلمين [7] ابن أمير المسلمين) [8]. وها أنا أبتدىء بحول الله وقوته، ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [9].

---

(1) في ن 4: الفهوم، وهو عندي أنسب.

(2) سقط من ن 3، ن 4.

(3) سقط من ن 1، ن 2.

(4) البخاري ــ علم، 38؛ الترمذي ــ تفسير، 1.

(5) وقع بعض الاختلاف في اسم هذا المؤلف. أنظر المقدمة، ص 96.

(6) في ن 2، ن 3: نعمته بالإفراد، والجمع هنا أنسب.

(7) يريد بذلك الأمير عبد الله محمد ابن الأمير محمد المعروف بالغالب بالله: ابن يوسف بن نصر الخزرجي.

جاء في الإحاطة في ترجمة ابن الزبير: «ولحق بغرناطة: آوياً إلى سلطانها الأمير عبد الله بن الأمير الغالب بالله بن نصر فأكرم مثواه وعرف حقه. 188/1 وما بعدها.

(8) ما بين القوسين ساقط من ن 3.

(9) سورة الصافات: آية 96.

سورة أم القرآن[1]

غ [1] ـ وهي بجملتها من مغفلات صاحب كتاب الدرة، وكذا ما بعد إلى الآية السادسة من سورة البقرة، وهي قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ آسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾[2]. وقد تقدم أني أعلم على المغفل بعلامة: غ.

وأرجع إلى أمّ القرآن، فأقول: هي أمّ القرآن، ومطلع الكتاب العزيز، وأول سورة في الترتيب الثابت، ومشروعية حمده سبحانه في ابتداء الأمور وختامها متقرر معلوم، وقد تكرر في الكتاب العزيز افتتاحاً واختتاماً. وأمر الله به نبيه صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾[3]. والمتردد من صفة حمده سبحانه، في معظم الوارد منه في الكتاب العزيز، ما افتتحت به أم القرآن من قوله تعالى: ﴿آلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾[4]، وما ورد في سورة الجاثية (من قوله)[5]: ﴿فَلِلَّهِ آلْحَمْدُ﴾[6].

---

(1) غ ـ يرمز به المؤلف إلى ما أغفله صاحب الدرة.
(2) سورة البقرة: آية 35.
(3) سورة النمل: آية 93.
(4) أم القرآن: آية 2.
(5) سقط من ن 1، ن 3، ن 4.
(6) سورة الجاثية: آية 36.

ثم وقع إتباع المفتتح من السور بحمده جلّ وتعالى بأوصاف مختلفات مما انفرد به سبحانه. فللسائل أن يسأل في ذلك أربعة سؤالات:

السؤال الأول: ما الفرق بين الوارد في أم القرآن وما جرى مجراها مما افتتح بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وبين الواقع في سورة الجاثية من قوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾؟

السؤال الثاني: ما وجه افتتاح السور الخمس ــ وهي: سورة أم القرآن، وسورة الأنعام، وسورة الكهف، وسورة سبأ، وسورة فاطر ــ بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، واختصاصها بذلك، مع تساوي السور كلها في استقلالها بأنفسها، وامتياز بعضها من بعض؟

السؤال الثالث: ما وجه تخصيص كل آية منها بما ورد فيها من أوصافه تعالى المتبع به حمده؟ ففي أم القرآن: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾[1]، وفي سورة الأنعام: ﴿(ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ)[2] الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾[3]. وفي سورة الكهف: ﴿الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ ٱلْكِتَابَ﴾[4]، وفي سورة سبأ: ﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[5]، وفي سورة فاطر: ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ﴾[6]. فهل هذا التخصيص لمناسبة تقتضيه حتى لا يلائم سورة منها ما ورد من ذلك في غيرها؟

---

(1) أم القرآن: آية 2.

(2) ما بين القوسين ساقط من ن 3.

(3) سورة الأنعام: آية 9.

(4) سورة الكهف: آية 1.

(5) سورة سبأ: آية 1.

(6) سورة فاطر: آية 1.

السؤال الرابع: ما وجه كون الوارد من حمده في الخواتم والانتهاءات لم يطرد فيه (ما أطرد)[1] في افتتاح هذه السور من اختلاف التوابع، بل جرى على أسلوب واحد، فقال سبحانه: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ربِّ العَالَمِينَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾[4] وقال تعالى: ﴿وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ والحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾[5] (فورد هذا مكتفي فيه بوصفه سبحانه بأنه رب العالمين)[6].

والجواب عن السؤال الأول: بعد تمهيده، وهو أن نقول أن قوله سبحانه: ﴿الحمد لله﴾ مبتدأ وخبر، وكذلك قوله: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ﴾، وتأخر في هذه الثانية المبتدأ، والحاصل في الموضعين معنى واحد، وهو حمده تعالى بما هو أصله. ومعلوم أن التقديم والتأخير فيما بين المبتدأ والخبر إذا لم يقع عارض مما يعرض في التركيب، ككون المبتدأ مما يلزم صدر الكلام، أو كون[7] الخبر كذلك، فيلزم تقديم ما له الصدرية، إلى غير ذلك من العوارض وهي كثيرة، فما لم يعرض عارض يوجب لأحدهما التقديم أو التأخير فتقديم أيهما كان وتأخير الآخر عربي فصيح، إلا أن مرتبة المبتدأ التقديم ليبنى عليه الخبر، فتقديمه عند عدم العوارض اللفظية أولى، كما في القرآن. وإذا وضح هذا فللسائل أن

---

(1) سقط من ن 3.

(2) سورة الأنعام: آية 45.

(3) سورة يونس: آية 10.

(4) سورة الزمر: آية 75.

(5) سورة الصافات: آية 182.

(6) ساقط من ن 1، ن 2، ن 4.

(7) في ن 3: كان ــ وكون: أنسب لما تقدمها من استعمال ككون.

يقول: ما الموجب لتقديم الخبر على المبتدإ في سورة الجاثية؟ وهل كان يسوغ عكس الواقع؟ والجواب: أن العوارض الموجبة لتقديم ما مرتبته التأخير وتأخير ما مرتبته التقديم ليست منحصرة في جهة التركيب اللفظي، بل قد يعرض من جهة المعنى. وتقدير الكلام ما يقتضي ذلك ويوجبه. وإذا تقرر هذا فنقول: إن قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ﴾ ورد على تقدير الجواب، بعد إرغام المكذب وقهره ووقوع الأمر مطابقاً لأخبار الرسل، عليهم السلام، وظهور ما كذب الجاحد به، فعند وضوح الأمر كأن قد قيل لمن الحمد ومن أهله؟ فجاء الجواب على ذلك فقيل: فلله الحمد. نظير هذا (قوله تعالى)[1]: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ﴾[2]؟ ثم قال: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[3]، ألا ترى تلاقي الآيتين فيما تقدمهما فالمتقدم في سورة المؤمن[4] قوله تعالى: ﴿لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾[5]. فعند ظهور الأمر للعيان، ومشاهدة ما قد كان خبراً، قيل لهم: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾[6]. وتقدم في سورة الجاثية قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّآتُ مَا عَمِلُوا. . .﴾[7] الآيات. وإنما ذلك يوم التلاقي[8] والعرض عليه سبحانه، فعند المعاينة وزوال الارتياب والشكوك كأن قد قيل لهم: لمن الحمد ومن أهله؟ فورد الجواب بقوله:

---

(1) سقط من ن 2.

(2) سورة غافر: آية 16.

(3) سورة غافر: آية 16.

(4) سورة المؤمن هي سورة غافر.

(5) سورة غافر: آية 15.

(6) سورة غافر: آية 16.

(7) سورة الجاثية: آية 33.

(8) في ن 1، ن 2، ن 4: التلاق.

﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ﴾. فالآية كالآية، والمقدر المدلول عليه كالمنطوق، والإيجاز مستدع لذلك. ولما تقدم ذكر الملك في آية المؤمن منطوقاً به لم يحتج إلى إعادة ذكره، فقيل: ﴿لِلَّهِ الوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾، ولم يقل: فلله الملك لتقدم ذكره. ولما كان الحمد في سورة الجاثية لم يتقدم ذكره، وإنما هو مقدر يدل عليه السياق، لم يكن بد من الإفصاح به في الجواب، فقيل: فلله الحمد. ولأجل ما قصد من تقريع المكذبين وتوبيخهم عند انقطاع الدعاوي ووضوح الأمر أتبع حمده تعالى بقوله: ﴿رَبِّ السَّماوَاتِ ورَبِّ الأرضِ رَبِّ العَالمينَ﴾[1]. فذكر[2] ربوبيته تعالى لما (أبداه)[3] وأوجده من أعظم مخلوقاته وأبدع مصنوعاته، قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾[4] وأعاد ذكر ربوبيته مع كل من هذه المخلوقات العظام، المنصوبة للاستدلال بها والاعتبار بعظيم خلقها وما فيها[5]، فقال: ﴿رَبِّ السَّماواتِ ورَبِّ الأرْضِ﴾[6]، ثم أتبع بما يعم ربوبيته (لذلك كله)[7] فقال: ﴿رَبِّ العَالَمينَ﴾. والعالم ما سواه سبحانه من جميع مخلوقاته، ثم قال: ﴿وَلَهُ الكِبْرِيَاءُ فِي السَّماوَاتِ والأَرْضِ﴾[8]، أي الانفراد بالعظمة والجلال والخلق والأمر، وهو العزيز الذي ذلّ كل مخلوق لعزته وقهره، الحكيم

---

(1) سورة الجاثية: آية 36.
(2) في ن 4: بذكر.
(3) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(4) سورة غافر: آية 57.
(5) في ن 3: وما في هما، وهو خطأ في الرسم.
(6) سورة الجاثية: آية 36.
(7) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(8) سورة الجاثية: آية 37.

في أفعاله، الذي جلت حكمته عن أن تدرك الأفهام غايتها أو يحيط ذوو التفكر بنهايتها فناسب ما ورد (هنا)[1] من الإطالة بتكرر ـ ما ذكر ـ مقصود الآية، وذلك هو الجاري متى قصد تعنيف المشركين ومن عبد مع الله غيره، وهو وارد في غير ما موضع من كتاب الله تعالى وتكرير[2] لفظ «رب» في قوله: ﴿وَرَبِّ الأَرْضِ﴾[3]. مما يشهد لهذا الغرض من قصد تقريع الجاحدين. ولما كان الوارد في أم القرآن خطاباً للمؤمنين وتعليماً للمستجيبين مجرداً عما قصد في آية[4] الجاثية من توبيخ المكذبين ورد على ما قدم من الاكتفاء. وكل على ما يجب ويناسب.

والجواب عن السؤال الثاني: إن وجه تخصيص السور الخمس[5] بما افتتحت به من حمده تعالى ما ذكر[6] آنفاً. أما أم القرآن فهي أول السور ومطلع القرآن العظيم بالترتيب الثابت، فافتتاحها بحمده تعالى[7] بيّن. أما سورة الأنعام فمشيرة إلى إبطال مذهب الثنوية[8] ومن قال بمثل قولهم ممن جعل الأفعال بين فاعلين، إلى ما يرجع إلى هذا وقد بسطت

---

(1) في ن 1، ن 2، ن 4: منها.

(2) في ن 3 تكرار، وفي ن 4 تكرر. قال الجوهري: كررت الشيء تكراراً وتكريراً. (لسان العرب، المجلد الثالث، ص 240).

(3) سورة الجاثية: آية 36.

(4) في ن 3: سورة ـ وآية أنسب.

(5) هي: أم القرآن، الأنعام، الكهف، سبأ، فاطر.

(6) في ن 3: نذكر بسقوط الضمير.

(7) في ن 3: سبحانه.

(8) التنويه: يجعلون الأفعال خلقاً لله وكسباً للعبد. جاء في كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل، ط 1، ج 3، ص 81: هي خلق الله، كما نص على أنه خالق كل شيء وهي كسب لنا كما قال: ﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾.

هذا في كتاب: البرهان[1]. وإذا كانت هذه السورة مشيرة إلى ما ذكر وانفردت بذلك فافتتاحها بحمده تعالى بين، وفي الجواب عن السؤال الثاني لهذا زيادة بيان. وأما سورة الكهف فكذلك [2] لبنائها على قصة أصحاب الكهف [3] وذكر ذي القرنين [4]، حسبما ألفت يهود لسائلهم من كفار قريش، وذلك مما لم يتكرر في القرآن، فافتتحت بحمده تعالى، وذلك بين. وأما سورة سبأ، فإن قصة سبأ لم يرد فيها أيضاً [5] في غير هذه السورة إلا الإيماء الوارد في قوله في سورة النمل ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [6]، فلما تضمنت سورة سبأ من هذا ما تضمنت، ومن قصص داود وسليمان، عليهما السلام، وما منحهما الله سبحانه وتعالى، من تسخير الجبال، والطير، والجن، والانة الحديد، ولم يجتمع مثل هذا التعريف في سواها، افتتحها سبحانه بحمده وانفراده بملك السماوات والأرض وما فيهما، وإنه أهل الحمد في الدنيا والآخرة، وأما سورة فاطر، ففيها التعريف بخلق الملائكة، عليهم السلام، وجعلهم رسلاً أولي أجنحة، إلى خلق السماوات والأرض وإمساكهما أن تزولا، وانفراده بذلك، ولم يقع هذا التعريف في غيرها من سور القرآن فناسب هذه[7] المقاصد المفردة التي لم ترد في غير هذه السور

---

(1) كتاب البرهان: في تناسب سور القرآن ــ ذكر فيه مناسبة كل سورة لما قبلها ــ. أنظر ما يعلق بمؤلفات ابن الزبير بالمقدمة، ص 93.

(2) في ن 3: فذلك، وهذا لا يناسب السياق.

(3) وردت قصتهم مفصلة في سورة الكهف من الآية 9 إلى الآية 29.

(4) ذو القرنين: هو الاسكندر الذي ملك الدنيا. قيل ملكها مؤمنان: ذو القرنين وسليمان وكافران: نمرود وبختنصر، وقيل: عبد صالح، وقيل نبي وقيل ملك.

(5) في ن 2: منها.

(6) سورة النمل: آية 22.

(7) في ن 3 هذا وهو خطأ.

ما افتتحت به، ولا يلزم على هذا إطراد ذلك في كل سورة انفردت بحكم أو تعريف ليس في غيرها، بل جواز ذلك منسحب على الجميع، واختصاص هذه السور بذلك واضح[1] لانفرادها بما ذكرناه.

والجواب عن السؤال الثالث: أن أم القرآن لما كانت أول سورة ومطلع آياته وهو المبين لكل شيء والمعرف[2] بوحدانيته سبحانه وانفراده بالخلق والاختراع وملك الدارين فناسب ذلك من أوصافه العلية ما يشير إلى ذلك كله من أنه رب العالمين وأنه الرحمان الرحيم وأنه ملك يوم الدين حتى تنقطع الدعاوي وتظهر الحقائق ويبرز ما كان خبراً إلى العيان وهذا واضح[3]. وأما مناسبة الوصف الوارد في سورة الأنعام فمن حيث ما وقع فيها من الإشارة إلى من عبد الأنوار وجعل الخير من النور والشر من الظلمة فافتتحها تعالى بوصفه بأنه خالق السماوات والأرض وهي الأجرام التي عنها الظلمات وفيها الأجرام النيرات وذكر تعالى أنه خالق الأنوار وأعاد سبحانه ذكر ما فيه الدلالة (البينة)[4] على بطلان مذهب من عبد النيرات أو شيئاً منها في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي ابراهيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاواتِ والأرضِ﴾[5] الآيات فقال: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا﴾[6]، ثم قال، عليه السلام، على جهة الفرض لإقامة الحجة على قومه: ﴿هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾[7]، ثم قال ذلك في

---

(1) في ن 3 أوضح وهو غير مناسب للسياق.

(2) في ن 1، ن 2، ن 4: المعروف والمعرف أنسب.

(3) في ن 3 واضح.

(4) سقط من ن 4.

(5) سورة الأنعام: آية 75.

(6) سورة الأنعام: آية 76.

(7) سورة الأنعام: آية 76.

الشمس والنمر مستدلاً بتغيرها وتقلبها[1] في الطلوع والغروب على أنها حادثة مربوبة مسخرة طائعة لموجدها المنزه عن سمات التغير والحدوث، فقال، عليه السلام، عند ذلك لقومه: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾[2] فأخبر عن حاله قبل هذا الاعتبار وبعده. قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلَا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[3] وفي طي قوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تنزيه عن عبادة النيرات وغيرها مما سواه تعالى وبان من هذا كله ما افتتحت به السورة من انفراده تعالى بخلق السماوات والأرض والظلمات[4] والنور، فوضح التناسب والتلازم. وأما سورة الكهف فإنها لما انطوت على التعريف بقصة أصحاب الكهف، ولقاء[5] موسى، عليه السلام، الخضر وما كان من أمرهما، وذكر الرجل الطواف[6] وبلوغه مطلع الشمس ومغربها، وبنائه[7] سد ياجوح وماجوح[8] وكل هذا إخبار بما لا مجال للعقل في إدراكه، ولا تعرف حقيقته إلا بالوحي والإنباء الصدق الذي لا عوج فيه ولا أمت ولا زيغ، ناسب[9] (ذلك)[10]ذكر افتتاح السورة المعرفة بذلك

(1) في ن 4: بتغيرهما بالتثنية وما بعد يغلب الافراد.
(2) سورة الأنعام: آية 78.
(3) سورة آل عمران: آية 67.
(4) في ن 2: وبجعل الظلمات. . .
(5) في ن 3: ولقي ــ وبه أيضاً يتم المعنى.
(6) الرجل الطواف: يعني به ذا القرنين وقد سبق التعريف به، ص 8.
(7) في ن 4: بنيانه ــ وهو فصيح، جاء في لسان العرب: بنى البناء بنياً وبناء وبنًى.
(8) يا جوج وماجوج: اسمان أعجميان، وهما من ولد يافث وقيل ياجوج من الترك وماجوج من جبل الديلم. وفي الصحاح: جيل من الناس وفيه الديلم: جيل من الناس.
(9) في ن 3: فناسب.
(10) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.

الوحي المقطوع به قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً﴾ [1]، والتناسب في هذا أوضح من أن يتوقف فيه. وأما سورة سبأ، فلما تضمنت ما منح سبحانه داود وسليمان من تسخير الجبال والطير والريح والانة الحديد، ناسب ذلك ما به افتتحت السورة من أن الكل ملكه وخلقه، فهو المسخر لها، والمتصرف في الكل بما يشاء، فقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلأَرْضِ﴾[2]، وهذا واضح التناسب. وأما سورة الملائكة، فمناسبة وصفه تعالى باختراع السماوات والأرض لما ذكره من خلق عامري السماوات من الملائكة، وجعلهم رسلاً أولي أجنحة، وإمساكه السماوات والأرض أن تزولا، أبين شيء وأوضحه، وليس شيء من هذه الأوصاف العليّة بمناسب لغير موضعه كمناسبة [3] موضعه الوارد فيه. فقد بان مجيء كل واحد منهما في موضعه ملائماً لما اتصل به، والله أعلم.

والجواب عن السؤال الرابع: ان الخواتم والانتهاءات في[4] السور والآيات لما كان غير مقصود بها ما قصد في المواضع المتقدمة، وإنما هي مشروعة للمؤمنين عند خواتم أعمالهم وانقضاء أمورهم، وقع الاكتفاء فيها بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾[5]، إذ في طي ذلك اعتراف للمؤمن وعلمه بانفراد موجده جل وتعالى بالخلق والأمر وملك الدارين، وأهليته سبحانه وتعالى لكل ما تضمنت الأوصاف كلها في

---

(1) سورة الكهف: آية 1.
(2) سورة سبأ: آية 1.
(3) في ن 4: لمناسبة ــ وما أثبت أنسب.
(4) في ن 4: مع، ولا يستقيم بذلك المعنى.
(5) أم القرآن: آية 2.

السور المذكورة، وليس موضع توبيخ ولا تقريع، فناسب الاكتفاء بما ذكر، والله أعلم.

الآية الثانية قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ الـرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ مَلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[1] اتفق القراء السبعة[2] على الإتباع في هذه الصفات العلية، وإجرائها على ما قبلها. وقال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى ٱلْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي ٱلْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَٱلْمَسَاكِينَ وَٱبْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾[3] وفي سورة النساء: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ في الْعِلمِ مِنْهُمْ والْمُؤمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾[4]. واتفق القراء السبعة في هذه الصفات الأربع وهي قوله في آية البقرة: والموفون والصابرين وفي آية النساء: والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة. على القطع[5]، كما اتفقوا في أم القرآن في الأربع صفات الواردة فيها على

---

(1) أم القرآن: آية 2-4.

(2) القراء السبعة: أبوعمرو البصري (ت 154هـ)، ابن عامر الشامي (ت 118هـ)، ابن كثير المكي (ت 120هـ)، حمزة الكوفي (ت 156هـ)، عاصم الكوفي (ت 127هـ)، الكسائي الكوفي (ت 189هـ)، نافع المدني (ت 169هـ).

(3) سورة البقرة: آية 177.

(4) سورة النساء: آية 162.

(5) الاتباع والقطع. الاتباع: توالي الكلمات بنفس الحركة كتوالي الجر في الحمد لله رب العالمين الرحمان الرحيم ملك يوم الدين. جاء في لسان العرب: والاتباع في الكلام مثل حسن بسن ــ وقبيح وسقيح ــ والقطع: عكس الاتباع وهو العدول عن الأمر إلى غيره كعدول زيد بن علي برب العالمين فقرأها: رب العالمين بالنصب وقرأ أبو حنيفة ملك بلفظ الفعل.

الاتباع، وقد اتفقت ثمانيتها في أنها صفات ثناء ومدح وتعظيم، ثم اختلفوا فيما ذكرنا من الاتباع والقطع، ولم يجروها مجرى واحداً، وقد ترجم سيبويه[1] رحمه الله على ما ينصب على التعظيم والمدح، وقال في الترجمة، بعد إشارتها إلى أن الوجه الانتصاب على ما ذكر من القطع بمقتضى مفهوم الترجمة فاتبع بأن قال[2]: «فإن شئت جعلته صفة مجرى على الأول، وان شئت قطعته فابتدأته» واستشهد على القطع بما ورد من قول العرب: الحمد من قول العرب: الحمد لله الحميد هو والملك لله أهل الملك، فنصب الحميد، ولهذا اتبع بالضمير المؤكد المستتر في الصفة ليظهر النصب، ولم يحتج إلى ذلك في أهل لإضافته، فبين النصب في الصفتين. ثم اتبع بجواز الرفع والإتباع، وأشار إلى أن القطع هو المختار في الباب إذا كان الموصوف معلوماً والصفة المدح والثناء. وهذا حاصل قوله وقول الجمهور، وعليه ورد ما أورده من الآيات، وما ذكر عن العرب من الإثبات. ثم إنّه أشار إلى ضعف القطع في قوله في أثناء كلامه، وسمعت بعض العرب يقول: «الحمد لله رب العالمين» ــ يعني بالنصب ــ فسألت عنها يونس[3] فزعم أنها عربية. وعادته رحمه

---

(1) سيبويه: (148هـ/ 765م ــ 180هـ/ 796م) إمام النحاة عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء ــ الملقب بسيبويه ــ بسط علم النحو، ولد بإحدى قرى شيراز، وتوفي بالأهواز، كتابه في النحو لم يصنع مثله. وفي سنة وفاته ومكانها خلاف (أنظر الأعلام: 252/5؛ ابن خلكان 385/1؛ البداية والنهاية 176/10؛ طبقات النحويين 66، 74.

(2) كتاب سيبويه، ج 1، ص 288، 289، ط 2، بيروت 1967م.

(3) يونس بن حبيب الضبي بالولاء أبو عبد الرحمان النحوي، إمام نحاة البصرة في عهده، أخذ عنه سيبويه والكسائي والفراء من كتبه معاني القرآن، اللغات، النوادر، الأمثال. ولد سنة 94هـ/ 713م ــ 182هـ/ 798م. أنظر تذكرة الحفاظ 299/1؛ مرآة الجنان 460/1؛ تهذيب التهذيب 434/11.

الله التعبير بهذه العبارة عما هو دون غيره في القوة، من ذلك قوله في أول أبواب الاشتغال، عقب بيت ذي الرمة[1].

إذا ابن أبي موسى بلال[2] بلغته فقام بفأس بين وصليك جازر[3]

فقال عقبه: «والنصب[4] عربي كثير والرفع أجود»[5]. ولما استشهد على اختياره النصب، فيما تقدم قبله جملة فعلية، ببيتي الربيع بن ضبع الفزاري[6]:

أصبحت لا أحمل السلاح ولا أرد[7] رأس البعير ان نفرا
والذئب أخشاه ان مررت به وحدي وأخشى الرياح والمطرا[8]

بنصب الذّئب، وهو المختار، أتبع بأن قال: «وقد يبتدأ فيحمل على مثل ما يحمل عليه وليس قبله منصوب، وهو عربي، وذلك قولك: لقيت زيداً وعمرو كلمته، ولم يخالف أحد في أن النصب في هذا

---

(1) ذو الرمة (77هـ/ 696م ـ 117هـ/ 795م): غيلان بن عقبة بن نهيس بن مسعود العدوي من مضر، أبو الحارث، شاعر من فحول الطبقة الثانية، له ديوان شعر مطبوع.
أنظر وفيات الأعيان 404/1؛ الشعر والشعراء 206؛ خزانة الأدب 51/1، 53).
(2) في كل النسخ بلالاً ـ بالنصب ـ وفي الكتاب ج 1، ص 55: بلال بالضم.
(3) البيت لذي الرمة من البحر الطويل.
(4) في كل النسخ: فالنصب وفي الكتاب والنصب.
(5) الكتاب ج 1، ص 55.
(6) الربيع بن ضبع الفزاري: مجهول المولد والممات، هو ربيع بن ضبع بن وهب الفزاري الذبياني، شاعر جاهلي أدرك الإسلام واختلف في إسلامه.
أنظر: الأعلام 39/3؛ خزانة البغدادي 108/3.
(7) في كل النسخ أملك، وفي الكتاب أرد.
(8) البيتان لربيع بن ضبع الفزاري في البحر المنسرح.

أفصح. وقال في مسألة: أنت عبد الله ضربته، واختياره الرفع في عبد الله، لما جعل الضمير المنفصل قبله مبتدأ، وهو أنت فضعف مقوي النصب في عبد الله وهو الاستفهام للفصل بالمبتدأ، فقال بعد اختياره الرفع لما ذكر: الا أنك إن شئت نصبته كما نصبت زيداً ضربته. ثم قال عربي جيد بعد ما قدم أن الرفع عنده أولى. وقال في مسألة: رأيت متاعك بعضه فوق بعض». وجوز الرفع والنصب على معنيين فقال عقب ذلك والرفع في هذا أعرف. ثم قال بعد: وان نصبت فهو عربي جيد وقال بعد انشاده:

إن علي الله أن تبايعا تؤخذ كرهاً أو تجيء طائعاً[1]

قال: فهذا عربي حسن والأول أعرف وأكثر[2]. فقد تبين من متعارف اطلاقه ما يريد بهذه العبارة، وقد ترددت في كتابه كثيراً. فحكايته هذه القراءة عن بعض العرب بعد إيثار القطع عن جميعهم، إذ لا يقتضي اطلاق كلامه غير ذلك، وعليه فهمه الناس عنه، وجرى عليه كلام جميعهم اعتماداً على تلقيه من العرب، ثم حكى ما يعارض ما تمهد من ذلك بما ذكر من هذه القراءة. فهذا مع سؤاله يونس عن هذه القراءة وجواب يونس بأنها عربية، وقد بينا مراده بهذه العبارة وقول سيبويه في إخباره عن قول يونس: «فزعم» حاصل من ذلك كله ضعف القطع في هذه الصفة مع أنها مدح وتعظيم. فالوجه على ما تأصل فيما قدمنا قطعها بتضعيف هذه القراءة معارض. لما اتفقوا عليه، فهو مما يشكل ولم أر من

(1) البيت مجهول الصاحب وهو من الرجز.
أنظر: الجزء الثاني من خزانة البغدادي، ص 373.
(2) كذا في الكتاب وفي المخطوط: أكثر وأعرف.
أنظر: الكتاب، ج 1، ص 97.

تعرض له من نحوي ولا مفسر الا بما لا يصح. وقد أطنب أبو الفضل بن الخطيب[1] ـ رحمه الله ـ في التفسير المنسوب إليه[2]، فيما أورد في تفسير الفاتحة، وما تعرض لهذا بشيء، وكذلك غيره من النحويين والمفسرين، الا من قال إن القطع في هذه القراءة هو الوجه، وإياه أراد سيبويه، وإن جواب يونس بقوله: «عربية»، إنما يريد انها فصيحة كالمثل المذكورة معها، وهذا خطأ بين، ومن أمعن النظر في الكلام يراه من هذا.

وقد زعم بعض من عاصرناه من النحويين أن سيبويه إنما قصد بما حكاه عن بعض العرب من هذه القراءة فسأل يونس عنها الرد على من قال: أن القطع لا يكون إلا بعد إتباع. فهذا أيضاً فاسد، إذ لم يتقدم من كلام سيبويه رحمه الله ما يبنى عليه هذا، لا في الترجمة، ولا في المثل، ولا فيما أنشده من قول[3]

---

(1) أبو الفضل ابن الخطيب: الفخر الرازي (544هـ/ 1150م ـ 606هـ/ 1210م) محمد بن عمر بن الحسين بن الحسين التيمي البكري، الإمام المفسر أوحد زمانه في المعقول والمنقول. ولد بالريّ وتوفي بهراة من تصانيفه: مفاتيح الغيب في تفسير القرآن؛ لوامع البينات في شرح أسماء الله تعالى والصفات؛ ومعالم أصول الدين، وغيرها كثير.

أنظر: الأعلام 203/7؛ الوفيات 474/1؛ مفتاح السعادة 445-451؛ لسان الميزان 426/4.

(2) هو التفسير الكبير المسمى بمفاتيح الغيب، ويشير ابن الزبير بقوله: «المنسوب إليه» إلى شكوك العلماء في نسبة هذا التفسير إليه وقد تعرض الشيخ الفاضل ابن عاشور لهذا في كتابه: التفسير ورجاله عند حديثه عن الرازي فجاء فيه بالقول الفصل.

(3) قال الأخطل:

نفسي فداء أمير المؤمنين إذا ... أبدى النواجد يوم باسل ذكر
الخائض الغمر والميمون طائره ... خليفة الله يستسقي به المطر

(البحر البسيط)

وقال المهلهل:

ولقد خبطن بيوت يشكر خبطه ... أخوالنا وهم بنو الأعمام

(البحر الكامل)

الأخطل[1] ومهلهل[2]، ولا تعرض له الا بعد ما ذكر بعض ما سمعه من قراءة بعضهم: الحمد لله رب العالمين بالنصب، وسؤال يونس عنها، وبناء الباب على ما تقدم وتعقيبه بما به اتبع الترجمة، وكل ذلك جار على ما فهمه الجماعة من اختيار القطع، وان لم يتقدم اتباع. ثم ان القطع قبل الإتباع قد تحصل مما أورده من المثالين المسموعين والآيات، وما أنشده قبل الإتباع وبعده من غير تفصيل في الحالين، وذلك كله يقتضي استواء الحكم ما لم يكن الموصوف يفتقر إلى زيادة بيان، فانه قد يحسن إذ ذاك بيان، ولما لم يقع فيما صدر به سيبويه الباب[3] الا ما هو معلوم غير محتاج إلى زيادة بيان، وإذا ثبت هذا ولم تقع إشارة إلى ما زعم هذا القائل من هذا التفصيل فلا يتوقف القطع على الشرطين المذكورين: من كون الصفة للثناء والتعظيم، وكون الموصوف معلوماً. وهل يطرد هذا الحكم في كل ما وجد فيه أم يتفصل؟ هذا حكم آخر، وسيستوفي بعد إن شاء الله. أما تقدم الاتباع فليس بشرط، وإنما تعلق القائل بذلك بما ذكر أبو طاهر في باب شاذ مما يشير إلى أنه قول قائل من النحويين، الا أنه لم يتعرض لكلام سيبويه، وإنما الخطأ في نسبه ذلك لسيبويه مع فساد هذا القول في

---

(1) الأخطل (19هـ/ 640م ــ 90هـ/ 708م): هو غياث بن غوث من بني تغلب، شاعر مصقول الألفاظ في شعره إبداع، اشتهر بمدح ملوك بني أمية، له ديوان شعر مطبوع.
أنظر: الأعلام 318/5؛ الأغاني 280/8...

(2) المهلهل (ت نحو 100ق. هـ/ 525): عدي بن ربيعة من بني جشم من تغلب، شاعر جاهلي، خال امرىء القيس الشاعر، أول من هلهل الشعر، نسج الشعر أي رقعه. عرف بزير النساء، شعره عالي الطبقة.
أنظر: الأعلام 9/5؛ خزانة البغدادي 300/1-304؛ الشعر والشعراء 99.

(3) يريد به باب ما ينتصب في التعظيم والمدح، الكتاب، ج 1، ص 268.

نفسه. فإذا تقرر ما أصلناه من أن الوجه فيما الصفة فيه مدح أو ذم والموصوف معلوم قطع الصفة وانه الأفصح، فللسائل أن يسأل عن وجه ضعف النصب في القراءة المذكورة مع حصول شرط القطع؟ ولم اتفق القراء على خلاف ما تمهد انه الوجه؟

والجواب عن ذلك ــ والله أعلم ــ ان اختيار القطع بعد حصول شرطية مطرد ما لم تكن الصفة خاصة بما جرت عليه لا تليق بغيره ولا يتصف بها سواه، ولا شك أن هذا الضرب قليل جداً، فلذلك لم يفصح سيبويه رحمه الله باشتراطه، واكتفى بالوارد مما ذكره عن بعض العرب. فإذا[1] كانت الصفة مما لا يشارك فيها الموصوف غيره وكانت مختصة بمن جرت عليه فالوجه فيها الاتباع، ويطرد ذلك في صفات الله سبحانه مما لا يتصف به غيره، وأوضح ذلك هذه الصفة العلية، ألا ترى أن ربوبيته تعالى للعالم بأسره لا تنبغي لغيره ولا يتصف بها سواه، فلما كانت على ما ذكرته لم تكن فيها القطع، والمراد السماع على هذا كاف في الدلالة فمنه الآية المذكورة ومنه قوله تعالى: ﴿حمٓ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾[2]. لما كان وصفه تعالى بغافر الذنب وما بعده لا يليق بغيره تعالى لم يكن فيه الا الاتباع، والاتباع لا يكون بعد قطع فلزم الاتباع في الكل، ومن هذا قول عمرو بن الجموح[3]:

---

(1) في ن 3: فإذا ولا تتناسب مع السياق.

(2) سورة غافر: آية 1-3.

(3) عمرو بن الجموح (ت 3هـ/ 625م): هو عمرو بن الجموح بن زيد بن حرام الأنصاري السلمي ــ صحابي ــ كان في الجاهلية من سادات بني سلمة، وهو آخر الأنصار إسلاماً استشهد بأحد.

أنظر: الإصابة، ت 57/99؛ وصفة الصفوة 265/1؛ الأعلام 241/5.

الحمد لله العلي ذي المنن   الواهب الرزاق ديان الدين[1]

وهذا مع تكرار الصفات وذلك من مسوغات القطع على صفة ما، وعند بعضهم من غير تقيد بصفة، وأما الاتباع فيما لم يقع فيه الا صفتان من صفاته تعالى فأكثر من أن يحصى، فهذا شاهد السماع وهو كاف وله وجه من القياس وهو شبيه بالوارد في سورة النجم في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَى﴾[2] ثم قال تعالى بعد: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَى﴾[3]. فورد في هذه الجمل الأربع الفصل بالضمير المرفوع بين إسم ان وخبرها ليحرز بمفهومه نفي الاتصاف عن غيره تعالى بهذه الأخبار، وكان الكلام في قوة أن لو قيل: وانه هو لا غيره وذلك أنه لما كان يمكن المباهت الجاحد ادعاء هذه الأوصاف لنفسه مباهتاً ومغالطاً كقول طاغية[4] إبراهيم، عليه السلام، جواباً لإبراهيم، عليه السلام، حين قال: «ربي الذي يحيي ويميت»، فقال الطاغية مباهتاً ومخيلاً لأمثاله: أنا أحيي وأميت، فأوهم بفعلة يطلق عليها هذه العبارة مجازاً بقتله من لم يستوجب القتل وتسريحه من وجب عليه القتل، وهذا جار في هذه الجمل المفصول فيها بالضمير فأتى به لما ذكر ولم يرد هذا الضمير في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَى﴾[5] لأن ذلك مما لا يتعاطاه أحد لا حقيقة ولا مجازاً، وبالاعتراف بذلك أخبر تعالى عن عتاة الكفار العرب وغيرهم حين قال

---

(1) البيت لعمرو بن الجموح ـــ البحر السريع.
(2) سورة النجم: آية 43-44.
(3) سورة النجم: آية 48-49.
(4) يريد بذلك النمرود.
(5) سورة النجم: آية 45.

تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[1] وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً ٱلْأُولَى﴾[2] لكون اهلاك القرون المكذبة مما لا يمكن أن ينسب لغير الله تعالى فلم يعرض في هذا مفهوم، فلما لم يكن في هذه الآي الثواني مفهوم يحتاج إلى التحرز منه لم يرد هنا فصل بضمير كما ورد فيما تقدم.

وإذا تأملت القطع في صفات الثناء والمدح وجدت ما مهدناه جارياً على هذا، ألا ترى أنك إذا قلت: مررت بزيد العالم، فاتبعت الصفة لموصوفها مع كون الصفة صالحة لمن أجريت عليه ولغيره لم يكن ذلك ليدفع غير زيد عن مشاركته في صفته التي أجريتها عليه، فإذا قطعت قلت: مررت بزيد العالم هو، برفع الصفة على تقدير مبتدأ أي هو العالم أحرز ذلك الضمير المبتدأ بمفهومه أن غير زيد ليس بعالم أو أنه ليس كزيد، وكأنك قلت هو العالم لا غيره كما في الآي المتقدمة، وكذا القطع في النصب من غير فرق. فإذا كانت الصفة لم تخص من جرت عليه لم يكن هناك مفهوم محرز منه فلم يكن القطع ليحرز هنا فائدة فلم يحتاج إليه وعليه ورد السماع كما تقدم، فقد تعاضد السماع والقياس كما بينا، ووجب الاتباع في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾[3] وهو مما لم يتعرض له أحد بما يخلص مع لزوم الجواب عنه[4].

---

(1) سورة الزخرف: آية 87.

(2) سورة النجم: آية 50.

(3) أم القرآن: آية 2.

(4) إن كل ما جاء متعلقاً بقوله تعالى: ﴿الحمد لله رب العالمين الرحمان الرحيم ملك يوم الدين﴾ بداية من ص159 إلى ص167 ساقط من ن 1، ن 2، ن 4، ولم يوجد إلا في ن 3.

الآية الثالثة[1] من أم القرآن: غ ـ قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَـانِ ٱلرَّحِيمِ﴾[2] فيها سؤال واحد، وهو أن يقول القائل: ما وجه الفصل بهاتين الصفتين العليتين من قوله: ﴿الرحمان الرحيم﴾ بين الصفتين المقتضيتين ملك الدارين بما فيها وهما «رب العالمين» ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ من حيث أن الحمد لله (رَبِّ العَالَمِينَ)[3] يتضمن أن لا رب سواه فهو ملك الكل فقد كان المطابق لهذا إيصال ملك يوم الدين به حتى يقع وصفه بملك الدارين جميعاً وبالانفراد فيهما بالخلق والأمر والحكم كما هو وكما ورد في قوله: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ﴾[4]. فالجاري مع هذا أن لو قيل: الحمد لله رب العالمين ملك يوم الدين. والفصل بالرحمان الرحيم. مما يكسر سورة[5] هذا الغرض فما وجه ذلك؟

والجواب عن هذا: انه تعالى خصص هذه الأمة بخصائص الاعتناء والتكريم، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[6]. وجعل نبينا صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم والمصطفى من كافة الخلق، والتابع يشرف بشرف المتبوع، وقد خاطبه تعالى بخطاب الرحمة

---

(1) هي في ن 1، ن 2، ن 4: الثانية.

(2) أم القرآن: آية 2.

(3) ما بين قوسين سقط من ن 1، ن 2، وفي ن 4 سقط: ﴿لله رب العالمين﴾.

(4) سورة القصص: آية 70.

(5) في ن 3: صورة بالصاد المهملة.

والسورة: الحدة، سورة السلطان: سطوته واعتداؤه. ومنه قول عائشة، رضي الله عنها: «كل خلالها محمود ما خلا سورة من غرب» أي سورة من حدة (لسان العرب).

(6) سورة آل عمران: آية 110.

والتلطف والاعتناء فقال تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾[1] فقدم العفو بين يدي ما صورته العتب لئلا ينصدع[2] قلبه صلى الله عليه وسلم، فكذلك تلطف لعباده[3] من أمة هذا النبي الكريم وأمنهم عند خوفهم وإشفاقهم من عرض أعمالهم وحسابهم فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾[4]. لما كان تعالى قد وصف هذا اليوم بأنه يوم تشخص فيه الأبصار[5] ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى﴾[6]، قدم هنا تعريفهم بأنه: «الرحمان الرحيم» وانه ملك ذلك اليوم فأنس هذه الأمة كما أنس نبيهم وذلك أبين شيء.

الآية الرابعة: غ[7]ــ قوله تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾[8] وفي قراءة عاصم[9] والكسائي[10] ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾. وفي سورة آل

---

(1) سورة التوبة: آية 43.

(2) في ن 2: تصدع، وهي تنافر المعنى المراد.

(3) في ن 3: بعبادة، وفي لسان العرب يقال لطف به وله.

(4) أم القرآن: آية 2-3.

(5) في الآية 42 من سورة إبراهيم.

(6) سورة الحج: آية 2.

(7) في ن 1، ن 2، ن 4: الثالثة.

(8) أم القرآن: آية 4.

(9) عاصم: ابن أبي النجود (ت 127هـ/ 745م) الكوفي الأسدي بالولاء، أبو بكر أحد القراء السبعة، تابعي، ثقة في القراءات، كانت وفاته بالكوفة.
أنظر: الاعلام 12/4؛ وميزان الاعتدال 5/2؛ وغاية النهاية 346/1).

(10) الكسائي (ت 189هـ/ 805م): علي بن حمزة بن عبد الله الأسدي بالولاء الكوفي، إمام اللغة والنحو والقراءة، توفي بالري وهو مؤدب الرشيد العباسي وابنه الأمين. من تصانيفه: معاني القرآن والقراءات؛ ومختصر في النحو؛ والنوادر. أنظر: الاعلام 93/5-94؛ وابن خلكان 330/1؛ وتاريخ بغداد 403/11؛ إنباه الرواة 256/2.

عمران: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ ٱلْمُلْكِ﴾[1] ولم يقرأ بغيره، وفي سورة الناس: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾[2] ولم يقرأ أيضاً بغيره. ومدار الآيات الثلاث على تعريف العباد بأنه سبحانه الملك المالك، ثم ورد فيها من الاختلاف ما ذكر. فللسائل أن يسأل فيقول: ما وجه هذا الاختلاف؟ وهل اختصاص آية أم القرآن بالقراءتين لموجب يخصها مع اتحاد المقصود في الآيات الثلاث من أنه سبحانه المنفرد بملك الكل وإيجادهم وانه الملك المالك؟ أم ذلك لاختلاف المقاصد؟

والجواب: إن الآيات الثلاث حاصل منها ما ذكر (انه مقصود)[3] من أنه سبحانه ملك مالك، أما آية الفاتحة فبإفصاح القراءتين، وأما آية آل عمران فلفظ الملك المضاف إليه مالك في قوله: «مالك الملك» يفهم أنه الملك لأن الملك من له الملك، فأفهم لفظ الملك المضاف إليه مالك أنه ملك، فحصل الاكتفاء بهذا، وأفهمت الآية الأمرين. وأما آية الناس فقوله تعالى: ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾[4] مغن عن الإفصاح بمالك الناس لأن الرب المالك، فكأن قد قيل: (قل)[5] أعوذ بمالك الناس ملك الناس، فاقتضى الإيجاز الاتصال ووحدة الكلام من حيث المعنى. أما آية الفاتحة، فقوله فيها: ﴿ملك يوم الدين﴾ آية انفردت عما قبلها بالتعريف بما لم تعرف به الآية التي قبلها من التنصيص على أنه ملك يوم

---

(1) سورة آل عمران: آية 26.
(2) سورة الناس: آية 2.
(3) سقط من ن 3.
(4) سورة الناس: آية 1.
(5) سقط من ن 3.

الحساب، فمصرف الكلامين في الآيتين إلى مقصودين، وذلك أن[1] قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَاةلَمِينَ﴾[2] كلام مصـرفه بحسب التفصيل الوارد هنا إلى حال الدنيا مع انسحاب معناه على الدارين، ولكن ورد الكلام مفصلاً فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾، فمصرف هذا بسبقية المفهوم وتقييد ما بعده وما يقتضيه التناظر والتقابل إلى حال الدنيا، ثم قال ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾[3] فمصرف هذا إلى حال الآخرة، فهذا في التفصيل كقوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَى وَٱلْآخِرَةِ﴾[4]. فلم يكن ما مصرفه إلى حال الدنيا ليقع به الاستغناء عما مصرفه إلى حال الآخرة، فلم يكن بد من الإفصاح بالصفتين، فورد ذلك في القراءتين بخلاف ما في آية آل عمران وآية الناس، فان الآيتين من حيث الاتصال في المعنى في قوة آية واحدة، والكلام فيهما[5] مطلق غير مقيد، فيتناول بحسب إطلاقه الحكم في الدارين مع أنه كلام واحد.

فإن قلت: إذا كان قوله ﴿مَلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[6] ــ (بحسب)[7] المصرف كما تقدم ــ آية انفردت وباين مقصدها الآية قبلها ــ على ما تمهد ــ فقد صارت آيتا أم القرآن بحسب مصرف كل آية منهما[8] كآية آل عمران وآية الناس، فيحتاج في كل واحدة منهما ــ على ما تمهد ــ

---

(1) في ن 4: لأن.
(2) أم القرآن: آية 2.
(3) أم القرآن: آية 4.
(4) سورة القصص: آية 70.
(5) في ن 1، ن 2، ن 4: فيها والأولى فيهما.
(6) أم القرآن: آية 4.
(7) سقط من ن 3.
(8) في ن 1، ن 2: فيها والأولى منهما.

(إلى ما يفهم)[1] انه سبحانه ملك مالك، وقد حصل ذلك من الآيات الثلاث، فما المفهم[2] لذلك من قوله: ﴿رب العالمين﴾؟

فالجواب انه مفهوم من عموم قوله: ﴿رَبِّ العَالَمِينَ﴾ إذ لم يقع مثل هذا العموم والاستيفاء من هذه الآي[3] في غير هذه، فان لفظ العالمين يشمل كل مخلوق، وإذا كان رب الكل ومالكهم فان جميعهم تحت قهره وملكه، فلا ملك لغيره سبحانه. فقد حصل من كل واحدة من هذه الآي الأربع أنه سبحانه الملك المالك، وتبين أنه لا يلائم الآية من أم القرآن الا ما ورد فيها من القراءتين، وان الآيات الأخر[4] لو قرئت بالوجهين لكان تكراراً، فورد كل على ما يجب، ولا يناسب خلافه. والله أعلم.

---

(1) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.

(2) في ن 1، ن 2، ن 4: المفهوم، والمفهم أولى لوجود لذلك بعدها والسياق يؤكد ذلك.

(3) في ن 1، ن 2، ن 4: الا، ولا يستقيم بذلك المعنى.

(4) في ن 4: الآية الأخرى، وهو خطأ.

سورة البقرة

غ ـ قوله سبحانه: ﴿الم﴾[1]. أقول وأسأل الله توفيقه أن القول الوارد (عنهم)[2] في هذه الحروف المقطعة (الواردة)[3] في أوائل السور على كثرته وانتشاره منحصر في طرفين: أحدهما: القول بأنها مما ينبغي أن لا يتكلم فيه ويؤمن[4] بها كما جاءت من غير تأويل، والثاني: القول بتأويلها على مقتضى اللسان وهذا مسلك الجمهور، وهذا[5] الذي نعتقد أنه الحق، لأن العرب تحديت بالقرآن وطلبت بمعارضته أو التسليم والانقياد[6]، وبمعرفتهم أنه بلسانهم ومعروف تخاطبهم وعجزهم مع ذلك عنه قامت الحجة عليهم وعلى كافة الخلق، وإذا سلم هذا فكيف يرد في شيء منه خطابهم بما لا طريق لهم إلى فهمه؟ فلو كان هذا لتعلقوا به ووجدوا السبيل إلى التعلل[7] في العجز عنه، وهذا مبسوط في كتب الناس وغير خاف، وقد انتشرت تأويلات المفسرين وتكاثرت، والملائم بما نحن بسبيله ما أذكره، مما لم أر من تعرض له. وهو وجه

(1) سورة البقرة: آية 1.

(2) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.

(3) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.

(4) في ن 4: نومن.

(5) في ن 3: وهو وبه أيضاً يتم المعنى.

(6) في ن 1، ن 2، ن 4: أو ولا داعي لها هنا.

(7) في ن 4: المتعلل، وبه أيضاً يتم المعنى.

اختصاص كل سورة من المفتتحة بهذه الحروف بما[1] افتتحت به منها، فهذا مما يسأل عنه، ولم أر من تعرض له، وهو راجع إلى ما قصدته هنا، وما سوى هذا مما يتعلق بالسؤال على الحروف كورودها على حرف وعلى حرفين إلى خمسة، وتخصيص هذه الحروف الأربعة عشرة، وكثرة الوارد منها على ثلاثة، إلى غير هذا، فليس من مقصدنا في هذا الكتاب، أما الأول فمن شرطنا.

والجواب: عنه[2] أن وجه اختصاص كل سورة منها بما به اختصت من هذه الحروف حتى لم يكن ليرد آلم في موضع الر[3] ولا حم في موضع طس ولا نٓ في موضع قٓ إلى سائرها، إن هذه الحروف لافتتاح السور بها ووقوعها مطالع لها[4] كأنها أسماء لها، بل هي جارية مجرى الأسماء من غير فرق وهذا إذا لم نقل بقول من جعلها أسماء للسور[5]. والعرب تراعي[6] في الكثير من المسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون في المسمى من خلق أو صفة تخصه أو تكون فيه أحكم أو أكثر أو أسبق لإدراك الرائي للمسمى، ويسمون الجملة من الكلام والقصيدة الطويلة من الشعر بما هو أشهر فيها

---

(1) في ن 4: مما والأولى: بما.

(2) سقط من ن 3.

(3) في ن 1، ن 2، ن 4: آلمر.

(4) في ن 1، ن 2، ن 4: كلها، ولها ــ أولى وأنسب للسياق.

(5) هو قول أكثر المتكلمين واختيار الخليل وسيبويه، قال القفال: وقد سمت العرب بهذه الحروف أشياء فسمّوا بلام والد حارثة بن لام الطائي وكقولهم للنحاس صاد وللنقد عين وللسحاب غين وقالوا: جبل قاف وسموا الحوت نونا.

(عن التفسير الكبير للرازي 5/2)

(6) في ن 1، ن 2، ن 4: تساوي ــ والأنسب تراعي.

أو بمطلعها إلى أشباه هذا، وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز كتسمية سورة البقرة بهذا الاسم لغريب قصة البقرة المذكورة فيها وعجيب الحكمة في أمرها، وتسمية سورة الأعراف بالأعراف لما لم يرد ذكر الأعراف في غيرها، وتسمية سورة النساء بهذا الاسم لما تردد فيها وكثر من أحكام النساء، وتسمية سورة الأنعام لما ورد فيها من تفصيل أحوالها وإن كان قد ورد لفظ الأنعام في غيرها إلا أن التفصيل الوارد في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً﴾[1] إلى قوله: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾[2] لم يرد في غير هذه السورة، كما ورد ذكر النساء في سور إلا أن ما تكرر وبسط من أحكامهن لم يرد في غير سورة النساء، وكذا سورة المائدة لم يرد ذكر المائدة في غيرها فسميت بما يخصها.

فإن قلت: قد ورد في سورة هود ذكر نوح وصالح وابراهيم ولوط وشعيب وموسى، عليهم السلام، ولم تختص باسم هود وحده، عليه السلام، فما وجه تسميتها بسورة هود على ما أصلت وقصة[3] نوح فيها أطول وأوعب؟ قلت: تكررت هذه القصص في سورة الأعراف وسورة هود وسورة الشعراء بأوعب مما وردت في غيرها، ولم يتكرر في واحدة من هذه السور الثلاث اسم هود، عليه السلام، كتكرره في هذه السورة، فإنه تكرر فيها[4] عند ذكر قصته في أربعة مواضع، والتكرر من أعمد الأسباب التي ذكرناها[5]. فإن قيل: فقد تكرر اسم نوح في هذه السورة

---

(1) سورة الأنعام: آية 142.
(2) سورة الأنعام: آية 144.
(3) في ن 4: قضية، وقصة أنسب لأن السياق يشير إلى قصص الأنبياء لا إلى قضاياهم.
(4) في ن 3: منها.
(5) في ن 3 ذكرنا بسقوط الضمير.

في ستة مواضع منها وذلك أكثر من تكرر اسم هود قلت: لما أفردت[1] لذكر نوح وقصته مع قومه سورة برأسها فلم يقع فيها غير ذلك كانت أولى بأن تسمى باسمه، عليه السلام، من[2] سورة تضمنت قصته وقصة غيره من الأنبياء، عليهم السلام، وإن تكرر اسمه فيها أكثر من ذلك. أما هود، عليه السلام، فلم يفرد لذكره سورة، ولا تكرر اسمه مرتين فما فوقها في سورة غير سورة هود، فكانت أولى السور بأن تسمى باسمه، عليه السلام.

وتسمية سائر سور القرآن جار فيها من رعي التسمية ما يجاريها، فأقول: ــ وأسأل الله عصمته وسلامته ــ إن هذه السور إنما وضع في أول كل سورة منها ما كثر ترداده فيما تركب من كلمها، ويوضح لك ما ذكرت أنك إذا نظّرت سورة منها بما يماثلها في عدد كلمها وحروفها وجدت[5] الحروف المفتتح بها تلك السورة إفراداً وتركيباً أكثر عدداً في كلمها منها في نظيرتها ومماثلتها في عدد كلمها وحروفها، فإن لم تجد سورة منها ما يماثلها في عدد كلمها ففي إطراد ذلك في المتماثلات مما يوجد له النظير ما يشعر بأن هذه لو وجد مماثلها لجرى على ما ذكرت لك، وقد أطرد هذا في أكثرها فحق لكل سورة منها أن لا يناسبها غير الوارد فيها، فلو وقع (في)[6] موضع «قَ» من سورة «قَ» «نَ» من سورة «نَ والقلم»

---

(1) في ن 4: حوت، ولا يستقيم بذلك المعنى.
(2) في ن 3: ومن، ولا داعي للواو هنا.
(3) في ن 3: اسمه فيها، بتقديم وتأخير.
(4) سقط من ن 4.
(5) في ن 4: وفي، ولا يستقيم بذلك المعنى.
(6) سقط من ن 1، ن 2، ن 3.

وموضع نَ قَ لم يمكن[1] لعدم المناسبة المتأصل رعيها في كتاب الله تعالى، فإذا أخذت كل افتتاح منها معتبراً بما قدمته لك لم تجد: «كهيعص» يصح في موضع «حم عسق» ولا العكس، ولا «حم» في موضع «طس» ولا العكس، ولا المر[2] في موضع [3] الَم [4] ولا عكس ذلك، ولا المَر في موضع المص بجعل الصاد في موضع الراء ولا العكس، فقد بان وجه اختصاص كل سورة بما به افتتحت، وأنه لا يناسب سورة منها ما افتتح غيرها، والله تعالى أعلم بما أراد.

الآية الثانية: غ ـ قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾[5] فوصفه سبحانه بكونه هدى للمتقين، وقال تعالى في وصف التوراة والإنجيل في أول سورة آل عمران: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَٱلْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ﴾[6] ولم يقل هنا هدى للمتقين، فللسائل أن يسأل عن الفرق الموجب اختصاص كل من الموضعين بما ورد فيه، وهل كان يحسن ورود الناس في موضع المتقين وورود المتقين في موضع الناس؟

والجواب: إن الملائم المناسب ما ورد وإن عكسه غير ملائم ولا مناسب. ووجه ذلك (أن)[7] الكتاب المشار إليه هو الكتاب العزيز على ما في مآخذ المفسرين من التفصيل، وهو مما خصت به هذه الأمة،

---

(1) في ن 4: يكن ويمكن أنسب.
(2) في ن 3: آلر وهو خطأ.
(3) سقط من ن 4.
(4) في ن 4: الر وهو خطأ.
(5) سورة البقرة: آية 2.
(6) سورة آل عمران: آية 3.
(7) سقط من ن 3.

والتوراة كتاب موسى، عليه السلام، لبني إسرائيل، والإنجيل كتاب عيسى، عليه السلام، ولأمة محمد صلى الله عليه وسلم الفضل المعلوم فأشير بالمتقين إلى حال المخصوصين به، وقيل في الآخرين: هدى للناس ليشعر بحال أهل الكتابين وفضل أهل الكتاب العزيز عليهم، فلا يلائم كل موضع إلا ما ورد فيه، فإن قيل: إنما صح لهم الوصف بالتقوى بعد اهتدائهم بالكتاب وتصديقهم به والتزامهم ما تضمنه.

قلت: لحظ في ذلك الغاية، فهو من باب التسمية بالمآل[1]، وهو باب واسع ومنه ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً﴾[2]. وإذا تقرر ما ذكرناه فعكس الوارد غير ملائم، والله أعلم بما أراد.

الآية الثالثة: غ ــ قوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ ٱللَّهَ وَالَّـذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ[3] إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[4] وقال بعد: ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾[5]. ثم قال بعد: ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[6] فنفى عنهم هنا العلم وفي الآيتين (قبل)[7] الشعور. فيسأل عن الفرق الموجب لهذا التخصيص.

والجواب عن ذلك: إن الشعور راجع إلى معنى الإحساس مأخوذ من الشعار، وهو ما يلي الجسد ويباشره، فيدرك ويحس به من غير افتقار

---

(1) في ن 2: المثال وهو خطأ ينافر السياق.
(2) سورة يوسف: آية 36.
(3) قرأ الحرميان وأبو عمرو: يخادعون. وقرأ الباقون: يخدعون.
(4) سورة البقرة: آية 9.
(5) سورة البقرة: آية 12.
(6) سورة البقرة: آية 13.
(7) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.

إلى فكر أو تدبر[1]، فيشترك في مثل هذا الإدراك العاقل من الحيوان وغير العاقل، وأما العلم فلا يكون إلا عن فكر ونظر يحصله، وقد تكون مقدماته حسية (أو غير حسية)[2] على قول المحققين من أرباب النظر، فهو مما يخص العقلاء. ولما كان الإيمان وهو التصديق لا يحصل إلا عن نظر وفكر يحصل العلم بالمصدق به، ولا يكون النظر والفكر إلا من عاقل يعرف الصواب من الخطإ، وقد نفى المنافقون ذلك عن المؤمنين (ونسبوهم إلى السفه، ونسبوا أنفسهم للعلم ونفوه عن المؤمنين)[3] بنسبتهم إياهم إلى السفه، وهو خفة الحلم وعدم التثبت في الأمور، وذلك في قولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾[4] فرد الله ذلك عليهم بقوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾[5] ونفى عنهم العلم، فنفى عنهم ما نفوه عن غيرهم ووصفوا بما نسبوه لغيرهم، ولما كان الفساد في الأرض وروم مخادعة من لا ينخدع منتحل[6] لا يخفى فساده على أحد ويوصل إلى ذلك بأول إدراك ناسبه أيضاً نفي الشعور ولم يكن ليناسبه نفي العلم، فجاء كل على ما يناسب ويلائم.

وتعرض أبو الفضل ابن الخطيب لما ورد في هذه الآي فقال: إنما قال في آخر[7] هذه الآية: ﴿لا يعلمون﴾ وفيما قبلها: ﴿لا يشعرون﴾

---

(1) في ن 1، ن 2، ن 3: تدبير ــ وتدبر أولى ــ جاء في لسان العرب: التدبير في الأمر أن تنظر إلى ما تؤول إليه عاقبته والتدبر: التفكر فيه.

(2) سقط من ن 3.

(3) ما بين القوسين سقط من ن1، ن 2، ن 4.

(4) سورة البقرة: آية 13.

(5) سورة البقرة: آية 13.

(6) في ن 4: مستحيلاً، وهو منافر للسياق.

(7) كذا في التفسير الكبير.

لوجهين: أحدهما[1] أن الوقوف[2] على أن المؤمنين على الحق وهم على الباطل أمر[3] عقلي نظري، وأما أن النفاق وما فيه من البغي يفضي إلى الفساد في الأرض فضروري جار مجرى المحسوس. والثاني أنه لما ذكر السفه وهو جهل[4] كان ذكر العلم أحسن طباقاً له، والله أعلم[5]. انتهى. وما ذكرته أجري مع لفظ الآي[6] وأبين.

الآية الرابعة: غ ـ قوله تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾[7]، وورد فيما بعد: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[8]. ففي الأولى: «لا يرجعون» وفي الثانية «لا يعقلون» مع اتحاد الأوصاف الواردة مورد التسبب والعلة فيما نسب لهم.

والجواب: عنه[9] أنه لما مثل حال المنافقين بحال مستوقد النار لطلب الإضاءة وأنه لما أضاءت ما حوله أذهبها الله وطفيت فلم يكن له ما يستضيء به ويرجع إليه فنفى عنهم وجود ما يرجعون إليه من ضياء يدفع حيرتهم وهذا بين.

---

(1) في التفسير الكبير: الأول.
(2) في النسخ الأربع: الوفق.
(3) في ن 1، ن 2، ن 4: أي وهو خطأ يؤكده ما جاء في مفاتح الغيب.
(4) في ن 2: الجهل.
(5) التفسير الكبير، للرازي، ج 2، ص 68.
(6) في ن 1، ن 2، ن 4: ألا، وهو خطأ لا يستقيم به المعنى.
(7) سورة البقرة: آية 17-18.
(8) سورة البقرة: آية 171.
(9) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.

أما الآية الثانية فإنه مثل حال الكافرين فيها بحال الغنم في كونها يصاح بها وتنادي فلا تفهم عن راعيها ولا تسمع إلا صوتاً لا تعقل معناه ولا تفهم ما يراد به، كذلك الكفار في خطاب الرسل إياهم فلا يجيبونهم ولا يعقلون ما يراد بهم وهذا مناسب وكل[1] على ما يجب. فإن قيل أما[2] تمثيل الكفار وتشبيههم بالغنم فيما ذكر فقد أفصح ذلك[3] قوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ[4]﴾[5] فقد وضح هذا ما ذكرته إلا أن آية البقرة إنما ورد فيها ببادي سياق (الكلام)[6] وظاهره تشبيه الكفار بالناعق بالغنم لا بالغنم فكيف يرجع تقدير الآية إلى ما ذكرت؟

فالجواب: إن إيجاز الكلام يقتضي حذف ما يفهمه السياق اختصاراً، فالتقدير في الآية ما مر من الإشارة إلى التشبيه بالطرفين[7] ومنه قول الشاعر[8]:

---

(1) سقط من ن 2، ن 4.

(2) في ن 2: ما والأنسب اما.

(3) في ن 3: بذلك، في لسان العرب: أفصح عن الشيء بينه وكشفه، وأفصح كلامه إفصاحاً.

(4) في ن 3: كأنعام، وهو خطأ في الرسم.

(5) سورة الفرقان: آية 44.

(6) سقط من ن 3.

(7) في ن 3: في الطرفين.

(8) أبو صخر الهذلي (ت 80هـ/ 700م): عبد الله بن سلمة الشهمي من بني هذيل، شاعر فصيح عاصر الأمويين ومدحهم.
أنظر: الاعلام 223/4؛ الأغاني 185/5.

وإني لتعروني لذكراك فترة كما انتفض العصفور بلله القطر [1]

فشبه في ظاهر الكلام ما يعروه من الفترة بانتفاض العصفور وليس مراده هذا وإنما يريد تشبيه ما يعروه بما يعرو العصفور بعد ما يدركه من بل المطر من الفترة، وإنه ينتفض عندها كما ينتفض العصفور، فحذف في كل من الطرفين ما أثبت نظيره. فالتقدير في البيت: وإني لتعروني[2] لذكراك[3] فترة فانتفض كما تعرو[4] العصفور فترة فينتفض، فشبه ما يعروه بما يعرو العصفور والانتفاض بالانتفاض، وعلى هذا حمل سيبويه الآية: قال: «لم يشبهوا بما ينعق وإنما شبهوا بالمنعوق به» وإنما المعنى: مثلكم ومثل الذين كفروا كمثل الناعق والمنعوق به الذين لا يسمع. قال: ولكنه جاء على سعة الكلام والإيجاز لعلم المخاطب بالمعنى[5] وهذا تقدير معنى الآية. فإن قلت فكيف تقدير الإعراب؟ قلت: الأقرب فيه أن يكون على حذف مضاف، أي ومثل داعي[6] الذي كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع، وعلى هذا حمله أكثر الناس، وإن شئت جعلت ما قدرنا عليه المعنى تقديراً للمعنى والإعراب وقد أخذه على ذلك جملة[7] من شيوخنا ومن قبلهم.

---

(1) البيت لأبي صخر الهذلي من البحر الطويل.
أنظر: خزانة الأدب 55/1، فيها هزة مكان فترة.

(2) في ن 1، ن 2: ليعروني وهو جائز للفصل بينه وبين فاعله.

(3) في ن 1، ن 2، ن 3: لذكرك والصحيح لذكراك.

(4) في ن 1، ن 2: يعرو، وهو فصيح لوجود الفاصل بين الفعل وفاعله.

(5) الكتاب 131/1.

(6) في ن 4: داع، والصحيح داعي للإضافة.

(7) في ن 3: جلة وبها يتم المعنى.

الآية الخامسة: غ ــ قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَٱدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [1] وفي سورة يونس: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ (إِنْ كُنْتُمْ) [2] صَادِقِينَ﴾ [3]، وفي سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ (مِثْلِهِ) [4] مُفْتَرَيَاتٍ وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [5].

يسأل عن قوله في الأولى: من مثله، وفي الثانية: مثله، وما الفرق بين الموضعين؟ ولم قيل في سورة هود بعشر سور؟ ولم وصف بمفتريات؟ ولِمَ قال في البقرة: ﴿فَٱدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ﴾ وفي الموضعين الآخرين: ﴿﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ فهذه أربع سؤالات.

والجواب عن السؤال الأول [6]: إن المراد إراءتهم ما يرفع شكهم في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، فكأن قد قيل: إن شككتم في نبوته وتخصيصنا إياه بذلك فلتأتوا برجل منكم غيره يصدر عنه أو يأتي بسورة واحدة من نمط ما سمعتم من محمد صلى الله عليه وسلم وائتوا بشهداء يشهدون أن غيره قد سمع منه ما طلبتم به، فإذا عجزتم عن ذلك مع التماثل في الخلق والعلم بمقادير [7] الكلام، إذ ليس بغير لسانكم

(1) سورة البقرة: آية 23-24.
(2) سقط من ن 3.
(3) سورة يونس: آية 38.
(4) سقط من ن 3.
(5) سورة هود: آية 13.
(6) في ن 3: والجواب عن الأولى وهو خطأ.
(7) في ن 4: بتقادير.

المألوف عندكم فإذا عجزتم عن ذلك ولا بد من عجزكم فاتخذوا وقاية تنجيكم من النار التي يخبركم أنها معدة لمن يكذبه، فلما كان المراد هنا ما ذكرناه من التبعيضية في قوله: ﴿من مثله﴾ وأما الوارد في سورة يونس فإنما أريد به ما يجري مع قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ﴾. فقيل لهم: إذا كان مفترىً كما تزعمون فما المانع لكم عن معارضته فائتوا بسورة مماثلة للقرآن، فالمراد هنا نفي كلام مماثل للقرآن وإقـامة الحجـة عليهم بعجزهم عن ذلك، والمراد في البقرة نفي شخص يماثله صلى الله عليه وسلم في أن يسمع منه ما يماثل سورة واحدة من مثل القرآن في فصاحته وعجائبه، فاختلف المقصدان في السورتين مع الائتلاف في تعجيزهم عن هذا وهذا، فلما اختلفا[1] لم يكن بد من «من» في الأولى لإحراز معناها ولم يأت في يونس لحصول المعنى المقصود فيها دون من. فإن قلت فإن من لا تمنع هذا المعنى المقصود في يونس قلت: إذا كان المعنى يحصل بثبوتها وسقوطها على السواء فقد بقي[3] رعي الإيجاز وهو مقتض[2] سقوطها، أما المعنى المقصود في البقرة فلا يحصل إلا بمن فلم يكن بد منها هنا، فورد ذلك كله على ما يجب ويناسب.

والجواب عن السؤال الثاني وهو قوله عز وجل في سورة هود: ﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ﴾، فإنه ــ والله أعلم ــ لما قيل هنا مفتريات فوسع عليهم ناسبه التوسعة في العدد المطلوب لأن الكلام آلمفترى أسهل فناسبته التوسعة. أما الوارد في السورتين قبل فلم يذكر لهم فيها أن يكون مفترىً بل السابق من الآيتين المماثلة مطلقاً فذلك أصعب وأشق عليهم مع

---

(1) في ن 4: اختلف وهو خطأ، لأن السياق ملزم بالمثنى.

(2) في ن 3: نفي والصحيح: بقي.

(3) في ن 4: مقتضي وهو خطأ.

عجزهم في كل حال، فوقع الطلب حيث التضييق بسورة واحدة وحيث التوسعة بعشر سور مناسبة جليلة واضحة، وقد جاوب بما هذا معناه بعض المفسرين.

والجواب عن الثالث: أنه وصف لهم المطلوب منهم هنا بأن يكون مفترىً ليحصل عجزهم بكل جهة فلا يقدرون على وجود شخص مماثل له صلى الله عليه وسلم في ظاهر الصورة الجنسية سمع منه ما يسمع من محمد صلى الله عليه وسلم، ولا يقدرون على مثل سورة واحدة من سور القرآن. ولما كان ظاهر هاتين الآيتين المماثلة مطلقاً قيل بعد ذلك: **ائتوا**[1] **بكلام مفترىً على سهولـة ما لا يتقيـد**[2] بسوى الفصاحة وجاء ذلك من طلبهم بالتدريج، فأولاً[3] بالمماثلة من غير ذكر: مفترى ثم قيل لهم: جيئوا[4] بمفترى فلم يبق لهم عذر الا العناد.

والجواب عن الرابع: ان قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَٱدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ﴾ المراد به من يشهد لكم أن شخصاً مثله صلى الله عليه وسلم قد سمع منه ما طلب منكم إذ لا يُكتفى[5] في مثل هذا بمجرد دعوى المدعي فقيل لهم: ائتوا بسورة من شخص مثله في الجنسية وبمن يبتعد لكم بان قد فعلتم. وقيل لهم في (سورة)[6] يونس فائتوا بسورة مثل القرآن واستعينوا على ذلك بمن قدرتم، فلم يطلبوا هنا بمن يشهد لهم

---

(1) في ن 4: لا يأتوا، وهو خطأ لا يستقيم به المعنى.
(2) في ن 4: يتغيّر، وهو خطأ لا يستقيم به المعنى.
(3) في ن 4: فاولى، وأولا أصح لأن السياق يفهم العد والترتيب.
(4) في ن 4: أجيبوا وهو خطأ لا يستقيم معه المعنى.
(5) في ن 4: يكفي وهو منافر للمعنى.
(6) سقط من ن 4.

وإنما قيل لهم: استعينوا في النظم والتأليف بمن قدرتم، لأن سماع ذلك منهم أن لو كان ولا سبيل اليه لا يحتاج معه إلى شهادة شاهد، أما[3] لو ادعوا أن أحداً سمع منه مثل القرآن لما قنع منهم بمجرد دعواهم. ألا ترى استرواحهم إلى إقناع جهلتهم[4] بما حكى سبحانه وتعالى عنهم قولهم ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾[5] والوارد في هود كالوارد في يونس.

الآية السادسة: هي أول آية تعرض لها صاحب كتاب الدرة[6] وأجاب بغير ما هنا والله ينفع جميعنا[7] بفضله. وما يقع بعد مما لم يتعرض له صاحب كتاب الدرة من الآيات فننبه[8] عليه بعلامة: غ ـ ليعلم أنه من المغفل كما تقدم[9] قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ آسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ آلْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـٰذِهِ آلشَّجَرَةَ﴾[10]وفي سورة الأعراف: ﴿وَيَا آدَمُ آسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ آلْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾[11]في هذا سؤالان:

الأول: ورود أمرهما بالأكل في البقرة بواو النسق المقتضية عدم

---

(1) في ن 4: مجرد بحرف الجر والأولى إثباته.
(2) سقط من ن 3.
(3) في ن 4: ما، وهو خطأ ينافر السياق.
(4) في ن 4: جهلهم وهذا خطأ.
(5) سورة الأنفال: آية 31.
(6) درة التنزيل وغرة التأويل، ص 10، طبع دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 3، 1979.
(7) في ن 3 جميعاً ولا يستقيم بذلك المعنى.
(8) في ن 4: منبه ولا يتماشى ذلك مع المعنى المراد.
(9) أنظر: مقدمة الكتاب، ص 147.
(10) سورة البقرة: آية 35.
(11) سورة الأعراف: آية 19.

الترتيب ما لم يفهم من غيرها، وفي الأعراف: بالفاء المقتضية الترتيب والتعقيب والأمر واحد والقصة واحدة.

والثاني: وصف الأكل في البقرة بالرغد ولم يقع هذا الوصف في الأعراف مع اتحاد الأمر كما ذكرنا.

والجواب عن السؤال الأول ــ والله أعلم ــ ان ما ورد في الآيتين مختلف في الموضعين، أما الوارد في البقرة فقصد به مجرد الإخبار والإعلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم بما جرى في قصة آدم صلوات الله وسلامه عليه وابتداء خلقه وأمر الملائكة بالسجود له وما جرى من إبليس عن السجود ثم ما أمر آدم من سكنى الجنة والأكل منها ولم يقصد غير التعريف بذلك من غير ترتيب زماني أو تحديد غاية، فناسبه[1] الواو وليس موضع[2] الفاء، وأما آية الأعراف فمقصودها تعداد نعم الله جلّ وتعالى على آدم وذريته، ألا ترى ما تقدمها من قوله: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[3] وما اتبع به هذا من ذكر الخلق والتصوير وأمر الملائكة بالسجود لآدم ثم قوله مفرداً لإبليس ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا مذءوما مَدْحُوراً﴾[4] ثم بعد ذلك أمر آدم، عليه السلام، بالهبوط متبعاً بالتأنيس له ووصية ذريته[5] في قوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ﴾[6] فناسب هذا

---

(1) في ن 4: فناسب بسقوط الضمير والأولى ثبوته.
(2) في ن 2: موضعة، ولا يناسب هذا سياق الكلام ولا يؤدي المعنى المراد.
(3) سورة الأعراف: آية 10.
(4) سورة الأعراف: آية 18، وجاء في ن 1، ن 2، ن 3: أهبط وهو خطأ.
(5) ساقط من ن 4، وفي ن 3: الذرية.
(6) سورة الأعراف: آية 27.

القصد العطف بالفاء المقتضية الترتيب[1] والواو لا تقتضي ذلك وانما بابها الجمع حيث لا يراد[2] ترتيب وليس موضع شرط وجزاء فيكون ذلك مسوغاً[3] لدخول الفاء، وإنما ورد هنا لما ذكرته من قصد تجريد[4] التفصيل المحصل لتعداد النعم، ولما اختلف القصدان اختلفت العبارة عنهما، فورد كل على ما يناسب والله أعلم.

وأما السؤال الثاني فالجواب عنه: ان ورود الرغد في آية البقرة وسقوط ذلك في الأعراف إنما ذلك لأن معنى من هنا التبعيض، ومعناها بما هو تبعيض قد يسبق[5] منه إرادة التقليل وهو غير مراد هنا، وإنما مصرف التبعيض هنا إلى المأكول منه، فان ما اشتملت عليه الجنة من ذلك إذا أكلت منه ذرية آدم بأجمعها فإنما تأكل بعضاً إذ فيها من كل متنعم به ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فاجتمع هنا أن البعضية مرادة بالنظر إلى ما انطوت عليه الجنة وإباحة التوسعة في أكلها مقصودة وليس ثم ما يحرزها[6] فقال تعالى: «رغداً» ليحصل معنى التوسعة وتجردت من لا حراز معناها ورغداً لإحراز معناها، ولم يكن هنا بد إذ ليس في السياق ما يحرز معناها، وأما سقوط: رغداً في سورة الأعراف فلوجود ما يحرز ذلك المعنى من التوسعة وذلك قوله تعالى:

---

(1) في ن 3: المحرزة معنى الترتيب، وما ورد في النسخ الأخرى أنسب ويؤكده ما ورد بعد.

(2) في ن 1، ن 2، ن 4: لا يرد وما ورد في ن 3 أنسب للمعنى المراد.

(3) في ن 4: متبوعاً، وما ورد في النسخ الأخرى أوفق.

(4) في ن 4: تحديد بالحاء المهملة وهو غير مناسب للسياق.

(5) في ن 4: تسبيق، وهو فصيح.

(6) في ن 4: ما تحرز به، وبه يستقيم المعنى أيضاً.

﴿مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾. لإباحة ما في أماكنها [1] ومن المحال أن يباح لهما الأكل من حيث شاء [2] منها على اتساع المساحة وكثرة المآكل ثم يحجر [3] عليهما التوسع في الأكل والترغد فيه، هذا متناقض، فإن قيل قد وقع في سورة البقرة ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ وتلك توسعة في الأماكن، قلت ليس موقع حيث شئتما موقع «من حيث شئتما» لأن «من حيث شئتما» يحرز ويعطي إباحة الأكل من ثمر كل موضع فيها. أما حيث إذا لم يكن معها من فانها تعطي بأظهر الاحتمالين إباحة الأكل في كل موضع لا من ثمر كل موضع، فقد يقال للشخص كل هذا العنقود حيث شئت من هذا البستان فإنما أبيح له أكل عنقود معين مخصوص حيث شاء من أماكن ذلك البستان، ولم يتعرض بهذ العبارة لإباحة أكل ما في كل موضع منه الا باحتمال ضعيف. أما إذا قيل له كل من حيث شئت من مواضع هذا البستان فقد أبيح له الأكل من كل ما في مواضعه، وحصلت التوسعة في المأكل [4] ولم يحصل ذلك عند سقوط من على ما تقدم آنفاً، فقد وضح افتراق الموضعين، وتعين ورود رغداً في البقرة إذ ليس ثم ما يحرزه، وتعين سقوطه في الأعراف لوجود ما يحرزه والله أعلم (بما أراد) [5].

الآية السابعة: غ ــ قوله تعالى: ﴿قُلْنَا آهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ [6]. وفي الأعراف: ﴿قَالَ آهْبِطُوا بَعْضُكم لِبَعْضٍ

---

(1) في ن 4: إمكانها، وهو خطأ منافر للمعنى المراد.
(2) في ن 3: ساء، والصحيح شاءا إذ به يستقيم المعنى.
(3) في ن 4: عجز، ولا يستقيم به المعنى.
(4) في ن 3: المثال، وهو خطأ ينافر المعنى المراد.
(5) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(6) سورة البقرة: آية 38.

عَدُوٌّ﴾[1] وفي سورة طه ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾[2]. ويسأل عن أي شيء لم ترد هذه الزيادة في قوله في البقرة: ﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً﴾.

والجواب عن ذلك: انه لم يرد ذلك هنا اكتفاء بما في الآية قبلها وهي قوله: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾[3]. فلو قيل ذلك في الآية بعدها مع الاتصال والتقارب لكان تكراراً لا يحرز فائدة لم تحصل بخلاف ما في سورة الأعراف وسورة طه، فورد كل على ما يجب ويناسب والله أعلم.

الآية الثامنة: غ ــ قوله (جل)[4] وتعالى في البقرة: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾[5] وفي سورة طه: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ﴾[6]. هنا سؤالان: ما فائدة اختلافهما وما وجه تخصيص كل موضع منهما بما اختص به؟

والجواب عنه، والله أعلم: ان تبع واتبع محصلان للمعنى على الوفاء، وتبع: فعل وهو الأصل واتبع فرع عنه لأنه يزيد عليه وهو منبىء عن زيادة في معنى فعل بمقتضى التضعيف فعلى هذا وبحسب[7] لحظه ورعيه ورد فمن تبع وفمن اتبع، وتقدم في الترتيب المتقرر فمن تبع لإنبائه عن الاتباع من غير تعمل ولا تكلف ولا مشقة، وأما اتبع فان هذه

---

(1) سورة الأعراف: آية 34.
(2) سورة طه: آية 123.
(3) سورة البقرة: آية 36.
(4) في ن 3 فقط.
(5) سورة البقرة: آية 38.
(6) سورة طه: آية 123.
(7) في ن 4: أو بحسب، والسياق لا يستدعي أو.

البنية أعني بنية افتعل تنبىء عن تعمل وتحميل للنفس، فقدم ما لا تعمل فيه وآخر اتبع لما يقتضيه من الزيادة، ولم تكن إحدى العبارتين لتعطي المجموع، فقدم ما هو أصل وآخر ما هو فرع عن الأول وكلاهما هدى ورحمة، وورد كل على ما يناسب ويلائم.

وجواب ثان ينبىء عليه ما تقدم فيكون جواباً واحداً وهو أن اتبع مزيد منبىء عن التعمل والعلاج كما تقدم ولا يفهم ذلك من تبع الذي هو الأصل وانما ينبىء في الأظهر عن قضية يتلو فيها التابع المتبوع متقيداً به في فعله من غير كبير تعمل ولا علاج، وكل من العبارتين أعني تبع واتبع انما يستعمل في الغالب حيث يراد مقتضاه مما بينا[1]، الا ترى[2] قول الخليل، عليه السلام في إخبار الله تعالى عنه ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾[3] حين أشار بقوله: «فانه مني» إلى الخاصة من سالكي سبيله بأتباعه القديم، فعبر بما يشير إلى غاية التمسك والقرب حين قال: مني، فناسب ذلك قوله: «تبعني» يريد الجري على مقتضى الفطرة وميز الحق بديهاً بسابقة التوفيق من غير إطالة نظر أو كبير علاج لسبقية الهدى[4] ووضوح الشواهد، وفي طرف من حال هؤلاء من قيل فيه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾[5] وهذه الآية وأمثالها مراد[6] بها من

---

(1) في ن 4: مما يبنى، وهو ينافر المعنى المقصود.

(2) في ن 4: للأمرين، وهو خطأ، وسياق الكلام يؤكد ذلك.

(3) سورة إبراهيم: آية 36.

(4) في ن 4: الهوي، والصحيح الهدي وما ورد بعد يؤكد ذلك.

(5) سورة القصص: آية 50.

(6) في ن 1، ن 2، ن 4: المراد، بالتعريف والصحيح ما ورد في ن 3 إذ، هي خبر وليست صفة.

تعامى عن النظر في الدلالات وترك واضح الاعتبار وحمل نفسه بقدر الله على ما لا يشهد له نظر ولا يقوم عليه برهان فكأن هؤلاء تعلموا في ذلك وعالجوا[1] أنفسهم حتى انقادت طباعهم إلى غير ما تشهد به الفطرة، ولذلك استعير لمن جرى على حال هؤلاء البيع والشراء فقيل: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضلالة بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تجارَتُهم﴾[2] لما كان ما بسط من الدلائل ونصب من الآيات والشواهد واضحاً وكانوا ذوي أسماع وأبصار وأفئدة فما اعتبروا ولا أجدت عليهم كان سلوكهم سبل[3] الْغَيّ والضلال تعملا وتركا للرشد[4] على بصيرة، ولذلك أخبر تعالى عن حال هؤلاء في فعلهم ومرتكبهم بالجحود فسماه بهذا في قوله تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾[5]. ولا يقال جحد الا فيمن كتم معلوماً بعد حصوله وتظاهر بباطل فقد اعمل نفسه في ذلك فعبر عن مثل هذا بأتبعَ ولم يكن موضع: تبع وكذلك قيل لمن وسم بالإسراف في المخالفات من عصاة الموحدين فقيل لهم: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[6] وذلك لإلفتهم المخالفات وانقياد نفوسهم لها حتى احتاجوا في الإقلاع عَن ذلك والأخذ في خلاف حالهم إلى التعمل والعلاج، وكذا[7] قيل لمن ألف الطاعات

---

(1) في ن 3: عاجلوا والأصح ما ورد في بقية النسخ.
(2) سورة البقرة: آية 16.
(3) في ن 4: سبيل، وورودها بالجمع في بقية النسخ أبلغ.
(4) في ن 4: وترك المرشد.
(5) سورة الأحقاف: آية 26.
(6) سورة الزمر: آية 55.
(7) في ن 3: كذلك، وفي ن 4: لذلك ولا داعي في السياق لمثل هذا.

وآرتاض لالتزامها: ﴿لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾[1] لالفة نفوسهم الطاعات حتى انهم ان وقعت منهم مخالفة فبتعمل وعلاج لأنها خلاف المألوف، فتأمل ما يرد من هذا فانه يوضح بعضه، وإذا تقرر هذا فتأمل[2] ما بين القضيتين، فأقول: لما تقدم آية البقرة قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ آسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ آلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا﴾[3] إلى قوله: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾[4] ولم يرد (فيها)[5] مما كان من إبليس سوى ما أخبر به تعالى عنه من قوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا آلشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾[6] من غير تعرض لكيفية تناوله ما فعل ولا إبداء علة ولا كبير معالجة ناسب هذا: تبع، ولما ورد في آية طه ذكر الكيفية في إغوائه بقوله له: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ آلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾[7] وقد حصل في هذا. الإشارة إلى ما بسط من قوله في الأعراف:

﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ آلشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخَالِدِينَ﴾[8] وقسمه[9] على ذلك فكان هذا كله قد تحصل مذكوراً في آية طه (بما)[10]تضمنته من الإشارة إليه، فأفهمت الآية قوة كيد اللعين

---

(1) سورة النور: آية 21.
(2) في ن 4: بتأمل، وما ورد في بقية النسخ هو المناسب للمعنى المراد.
(3) سورة البقرة: آية 35.
(4) سورة البقرة: آية 38.
(5) سقط من ن 3.
(6) سورة البقرة: آية 36.
(7) سورة طه: آية 120.
(8) سورة الأعراف: آية 20.
(9) في ن 2، ن 4: قاسمه ولا يستقيم به المعنى.
(10) سقط من ن 3.

واستحكام حيلته حتى احتنك[1] الكثير من الذرية وحملهم على عبادة الطواغيت، وتلقت النفوس المتعاقبة ذلك منه بقبول فصار تمييز[2] الحق لا يحصل الا بمعالجة وتعمل فناسبه؛ فمن اتبع كما ناسب ما تقدم في آية البقرة: فمن تبع، من حيث لم يبسط فيها من كيد اللعين ما بسط في آية طه فورد كل على ما يناسب معنى ونظماً إيجازاً بإيجاز وإطالة بإطالة ثم إذا لحظ الترتيب فالجاري على رعية تقديم ما هو الأصل وتأخير ما هو الفرع فقيل في آية البقرة: فمن تبع وفي آية طه: فمن اتبع، وحصل رعي الوجوه الثلاثة ووضح أنه مقتضى النظم والله أعلم بما أراد.

الآية التاسعة: غ ـ قوله جل وتعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَاشِعِينَ﴾[3] وقال بعد: ﴿ٱسْتَعِينُوا[4] بِالصَّبْرِ وَٱلصَّلَاةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ﴾[5].

يسأل عما أعقب به في كل من الموضعين وما وجه تخصيصه وهل يجوز وقوع كل منهما في موضع الآخر؟

والجواب: إن قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ... الآية. وقوله في (الآية)[6] وآلثانية: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾. كلا الاخبارين[7] مناسب

---

(1) في ن 1، ن 2، ن 3: احتال، والصحيح احتنك لقوله تعالى حاكياً عن إبليس: ﴿لأحتنكن ذريته إلا قليلاً﴾ (سورة الإسراء: آية 62).
(2) في ن 4: يسير ولا يستقيم به المعنى.
(3) سورة البقرة: آية 45.
(4) في ن 1، ن 2، ن 4: واستعينوا، وهو خطأ.
(5) سورة البقرة: آية 153.
(6) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(7) في ن 4: كل من الأخبار، وهو غير مناسب.

لقوله ﴿وَٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَاةِ﴾ فلا سؤال في هذا وإنما يسأل عن تخصيص كل من الموضعين بما خص به [1] اتباعاً؟

والجواب عن ذلك ان قوله جل وتعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَاشِعِينَ﴾ مشير إلى التثاقل عنها والتكاسل [2] الجاريين في الغالب والأكثر مع ضعف اليقين وقلة الإخلاص، وذلك مناسب لحال بني اسرائيل ممن [3] ذكرت في الآيات قبل، ألا ترى قوله تعالى في المنافقين وإنما أكثرهم من يهود: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾ [4]. وقوله: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى ٱلصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى﴾ [5] فلما كان قوله تعالى في الآية الأولى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَاةِ﴾ مكتنفاً بأمر بني إسرائيل ونهيهم [6] ناسب هذا قوله تعالى ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَاشِعِينَ﴾ [7] ولما كانت الآية الثانية معقباً بها أمر المؤمنين في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَاةِ﴾ [8] وحال من وسم بالإيمان حال رضى واستقامة ناسبهم [9] وصفهم بالصبر إذ بالصبر على

---

(1) في ن 1، ن 2، ن 4: خصص به، وخص به أفصح في لسان العرب. خصه وخصصه بالشيء: أفرده به دون غيره.
(2) في ن 4: لا يجاز بين وهذا منافر للمعنى.
(3) في ن 4: مما، وما في النسخ الأخرى أنسب.
(4) سورة التوبة: آية 54.
(5) سورة النساء: آية 142.
(6) في ن 1، ن 2، ن 4: نبيهم، وهو خطأ.
(7) سورة البقرة: آية 45.
(8) سورة البقرة: آية 153.
(9) في ن 3: ناسبهم، وكلا الاستعمالين يؤدي المعنى المراد، وناسبه، أفصح وأنسب للسياق.

الطاعات حصول الدرجات فجاء كل على ما يناسب، ولم يكن ليلائم واحداً من الموضعين غير ما أعقب به، والله أعلم بما أراد.

الآية العاشرة: قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [1] (ووقع بعد) [2]: ﴿(وَلَا يُقْبَلُ [3] مِنْهَا عَدْلٌ [4] وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾ [5]، فأخر ذكر الشفاعة في هذه الآية وقدم في الأولى. يسأل عن ذلك. ووجه ذلك والله أعلم انه لما تقدم في الآية الأولى قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [6] والمأمور بالبر قد يأخذ به ويتمسك بموجبه فيسلم من العصيان وتكون في ذلك نجاته وإذا أمكن هذا فقد وقع الاهتداء بأمر هؤلاء الذين قيل لهم: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [6] فهو مظنة عندهم لرجائهم أن ينفع عند مشاهدة الجزاء الإحساني للمأمورين بالبر حين قبلوا وامتثلوا أخذاً بظاهر حال الأمرين وان كانوا يبطنون خلاف ما يظهرون، وهذا جار على مألوف طمع يهود، وقد ورد في ذكر المنافقين تعلقهم في القيامة بقولهم للمؤمنين ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ [7]، فطمع [8] من زاد على كونه مع المتعلق به أنه أمره فاقتدى بأمره واهتدى المأمور لما بخلوصه أخذاً بظاهر ما صدر عن الآمر وان كان

---

(1) سورة البقرة: آية 48.
(2) سقط من ن 1، ن 4، وفي ن 2: وقال في الثانية.
(3) في ن 2: يؤخذ، وهو خطأ.
(4) ما بين القوسين ساقط من ن 1، ن 4.
(5) سورة البقرة: آية 123.
(6) سورة البقرة: آية 44.
(7) سورة الحديد: آية 14.
(8) في ن 4: بطمع.

الآمر يبطن[1] خلاف ما أمر به غيره الا أن هذا أمكن من التعلق بالكينونة في الدنيا مع الناجين وإذا تعلق هؤلاء بمجرد كونهم كانوا مع المؤمنين فتعلق من أمر بالبر زائد[2] إلى كونه مع المأمورين، وإن كان أمره تظاهراً[3] ورياء أمكن، الا أن كل ذلك لا ينفع ما لم يكن إيمان مخلص، فلتوهم هؤلاء إمكان شفاعة من أمرهم بالبر وطمعهم في ذلك كان آكد شيء نفي الشفاعة لهم لإمكان توهمها، ولم يتقدم في الآية الأخرى ما يستدعي (هذا)[4] فقدم فيها ذكر الفئة التي هي أولى وأحرى في كمال التخلص على ما عهد في الدنيا لو أمكنت، والله أعلم بما أراد.

الآية الحادية عشرة من سورة البقرة قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾[5] الآية. وفي سورة الأعراف[6]: غ ـ ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ (وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ)﴾[7] فالقضية في السورتين واحدة وقد ورد[8] في سورة البقرة: ﴿نجيناكم﴾ مضعفاً، وَفِي الأعراف ﴿أنجيناكم﴾ غير مضاعف، وفي سورة البقرة: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾، وفي سورة الأعراف: ﴿يُقَتِّلُونَ﴾، وقد ورد في سورة

(1) في ن 1، ن 2، ن 4: ينطق وهو منافر للمعنى المقصود.
(2) في ن 1، ن 2، ن 4: ظاهراً والسياق يقتضي ما ورد في ن 3: تظاهراً.
(3) في ن 4: زائد، وهو خطأ.
(4) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(5) سورة البقرة: آية 49-50.
(6) سورة الأعراف: آية 141.
(7) سقط من ن 3.
(8) في ن 4: وقد تقدم.

إبراهيم: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ...﴾[1] منسوقاً بحرف العطف، ففي[2] هذه الآية ثلاث سؤالات تعرض منها صاحب كتاب الدرة[3] للفرق بين يذبحون وقوله[4] في سورة إبراهيم: ويذبحون وأغفل ما سوى ذلك.

والجواب عن الأول: إن الوارد في سورة البقرة مقصود به تعداد وجوه الإنعام على بني اسرائيل وتوالي الامتنان ليبين شنيع مرتكبهم في مقابلة ذلك الإنعام بالكفر، ولنقدم لذلك تمهيداً فنقول: إنه تعالى بدأ عباده بالنعم وأحسن اليهم قبل إيجادهم حين ذكرهم في الأزل بخصوص التكريم، وسبقت رحمته غضبه وله المن والطول، وعلى لحظ ما ذكرنا ورعيه جرى خطاب الخلق في دعائهم إلى عبادته فقال تعالى في أول وارد[5] من ذلك في كتابه العزيز على المعتمد من مقتضى الترتيب الثابت ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ (لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)﴾[6] إلى قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[7] فذكرهم سبحانه بإيجادهم بعد العدم، وجعله الأرض فراشاً لهم والسماء بناء، وانزال الماء من السماء وإخراج الثمرات به، وكل هذا انعام وإحسان منه لعباده من غير حاجة به إلى ذلك، فدعا سبحانه الخلق

---

(1) سورة إبراهيم: آية 6.

(2) في ن 3: في، والسياق يناسبه الربط بالفاء.

(3) يريد به الخطيب الاسكافي: درة التنزيل، ص 7.

(4) في ن 1، ن 2، ن 4: ويقتلون وهو خطأ، اعتماداً على ما ورد في درة التنزيل، ص 7.

(5) في ن 3: وأراد، ويبدو أنه خطأ في الرسم.

(6) لم يثبت إلا في ن 4، والآية من سورة البقرة: 21.

(7) سورة البقرة: آية 22.

لعبادته مذكراً بإنعامه عليهم، وبهذا أمر رسله فقال لموسى، عليه السلام، : ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ ٱللَّهِ﴾[1] أي بآلائه ونعمائه، وعن هذا جرى خطاب بني اسرائيل في سورة البقرة في أول خطاب خوطبوا به[2] ودعوا إلى عبادة الله وتصديق من قدم لهم في أمره وأخذ عليهم العهد في الإيمان به فقال تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾[3]. فأجمل تعالى ثم فصل، فذكر نجاتهم من آل فرعون وفرق البحر بهم ونجاتهم وهلاك عدوهم بالغرق، ثم ذكر عفوه عنهم في عبادة العجل وتوبته عليهم، وبعثهم من موتهم عند طلبهم الرؤية، وتظليلهم بالغمام، إلى ما ذكر تعالى بعد هذا. فلما كان موضع تعداد نعم وآلاء ذكروا بها ليزدجروا عن المخالفة والعناد ناسبه التضعيف لاثباته بالكثرة، ولو قيل هنا وإذ أنجيناكم لمّا أنبأ بذلك ولا ناسب المقصود مما ذكر، وأيضاً فإن التضعيف في: نجيناكم يناسب التضعيف الوارد بعده في قوله: ﴿يذبحون﴾، ولم يكن لفظ: أنجيناكم غير مضاعف ليناسب.

والجواب عن السؤال الثاني . . والله أعلم ــ إن الذبح منبىء عن القتل وصفته وأما اسم القتل فلا يفهم إلا إعدام الحياة ويتناول من غير المقتول في الغالب، فعبر أولاً بما يوفي[4] المقصود من الإخبار بالقتل مع إحراز الإيجاز، إذ لو ذكر القتل وأتبع بالصفة لما كان إيجازاً، فعدل

---

(1) سورة إبراهيم: آية 5.
(2) في ن 1، ن 2، ن 4: في أول ما خوطبوا به، وكلا الاستعمالين فصيح.
(3) سورة البقرة: آية 40.
(4) في ن 4: يوافي ــ يوفي أنسب، وفي التنزيل «فوفاه حسابه».

إلى ما يحصل عنه[1] المقصود (مع إيجاز)[2] فقيل: «يذبحون»، وعبر في سورة الأعراف بالقتل لأنه أوجز من لفظ يذبحون لأجل التضعيف إذ لفظ يذبحون أثقل لتضعيفه وقد حصلت صفة القتل[3] في سورة البقرة فأحرز الإيجاز في الكل، وجاء على ما يجب ويناسب، والله أعلم.

والجواب عن الثالث وهو قوله في سورة ابراهيم: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾[4] منسوقاً بواو العطف، فوجه ذلك والله أعلم: إن هذه السورة مبنية على الإجمال والإيجاز فيما تضمنته من قصص الرسل وغير ذلك ولم يقصد فيها[5] بسط قصة كما ورد في غيرها مما بني على الاستيفاء، وكلا المرتكبين مقصود معتمد للعرب:

يـرمون بـالخطب الـطوال وتارة   وحي الملاحظ خيفة الـرقباء[6]

وعلى ذلك جرى خطابهم في الكتاب العزيز، وتأمل المقصدين فقد ورد في سورة الأعراف وسورة هود قصص نوح وهود وصالح ولوط وموسى، عليهم السلام، فتأمل ما بين ورود هذه القصص الخمس في هاتين السورتين وورودها خمستها في سورة القمر وكيف مدت أطناب الكلام في السورتين الأوليين ثم أوجزت في سورة القمر أبلغ إيجاز وأوفاه

---

(1) في ن 3: منه.

(2) سقط من ن 4.

(3) في ن 1، ن 2، ن 3: الفعل، ولكلمة القتل أنسب ويؤكدها ما ورد قبل «وعبر في سورة الأعراف بالقتل».

(4) سورة إبراهيم: آية 6.

(5) في ن 1، ن 2، ن 3: فيها، وهذا غير مناسب للمعنى المراد.

(6) جاء في العقد الفريد: 120/2 وأنشدني بيتاً في خطبة إياد:

يومون باللفظ الخفي وتارة   وحيـى الملاحظ خيفة الرّقباء

بالمقصود، فلما كان مبنى سورة ابراهيم، عليه السلام، على الإيجاز فيما تضمنت[1] من هذه القصص افتتاحاً واختتاماً لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ﴾[2] إلى قوله: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾[3] وما بعد هذا من الآي، وإنه انضم في هذه السورة إلى قصد الإيجاز تغليظ الوعيد، فلبنائها على هذين الغرضين ورد فيها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾[4] إلى قوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾[5] فأشار قوله سبحانه: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ ٱلْعَذَابِ﴾ إلى جملة ما امتحنوا به من فرعون وآله من استخدامهم وإذلالهم بالأعمال الشاقة وامتهانهم واستحياء نسائهم لذلك وذبح الذكور، فلما وقعت الإشارة إلى هذه الجملة مما كانوا يمتحنونهم به جرد[6] منها وعين بالذكر أشدها وأعظمها امتحاناً فجيء به معطوفاً، كما أنه مغاير لما تقدمه فقيل: ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ فعين من الجملة هذا وخص بالذكر تعريفاً بمكانه وشدة الأمر فيه[7]، وهو مما أجمل أولاً وشمله الكلام المتقدم. كما ورد في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ﴾[8] ثم قال: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ﴾[9] فخصهما بالذكر والتعيين

---

(1) في ن 3: تضمنته.
(2) سورة إبراهيم: آية 9.
(3) سورة إبراهيم: آية 9.
(4) سورة إبراهيم: آية 6.
(5) سورة إبراهيم: آية 6.
(6) في ن 1، ن 4: جدد، وفي ن 2: تجرد والأنسب ما ورد في ن 3 وهو ما أثبته في موضعه.
(7) في ن 3: فيها وهو خطأ.
(8) سورة البقرة: آية 98.
(9) سورة البقرة: آية 98.

إعلاماً بمكانهما في الملائكة بعد أن شملهم قوله: ﴿وملائكته﴾ فالوارد في سورة ابراهيم من هذا القبيل وقد تبين وجهه واتضحت مناسبته والله أعلم بما أراد.

وأما إعراب آية[1] البقرة فيمكن في قوله (تعالى)[2] ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ أن يحمل على البدل وعلى الاستئناف وهو الأولى، وكأن قد قيل وما ذاك؟ فقيل: يذبحون أبناءكم، ولا إشكال في الأخرى[3].

الآية الثانية عشرة: قوله (جل) [4] وتعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ يَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ ٱلسَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [5] وفي سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ ٱسْكُنُوا هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّداً تُغْفَرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ [6] سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمْ

---

(1) في غير ن 3: سورة.

(2) سقط من ن 2.

(3) في ن 4: الآخرين وهو غير فصيح.

(4) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.

(5) سورة البقرة: آية 58-59.

(6) في ن 2، ن 3: نغفر بالنون، وفي ن 2، ن 3: خطاياكم.

قرأ نافع وابن عامر: «تغفر لكم» بالتاء المضمومة وفتح الفاء، والباقون بالنون مفتوحة وكسر الفاء. وقرأ أبو عمرو: «خطاياكم» على لفظ قضاياكم من غير همز، وابن عامر خطيئتكم بالهمز ورفع التاء من غير ألف على التوحيد، ونافع كذلك إلا أنه على الجمع، والباقون كذلك إلا أنهم يكسرون التاء (عن التيسر لأبي عمرو الداني، ص 114).

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ ٱلسَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾[1]. في ذلك عشرة سؤالات[2]:

الأول: غ ــ قوله جل وتعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا﴾ وفي سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا﴾.

الثاني: قوله في البقرة: ﴿فكلوا﴾ وفي الأعراف: ﴿وكلوا﴾.

الثالث: قوله في البقرة: ﴿رغداً﴾ ولم يأت ذلك في سورة الأعراف.

الرابع: قوله: ﴿ٱدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾. وفي الأعراف: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّداً﴾.

الخامس: قوله في البقرة: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ وفي الأعراف في قراءة الجماعة غير أبي عمرو[3] وابن عامر[4] «خطيئاتكم» مجموعاً جمع السلامة.

السادس: قوله: ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ وفي الأعراف: ﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

السابع: زيادة: منهم، في الأعراف وسقوط ذلك في البقرة.

---

(1) سورة الأعراف: آية 161-162.

(2) في ن 4: عشرة أسئلة.

(3) أبو عمرو البصري: هو أبو عمرو بن علاء بن عمار بن عبد الله، أحد القراء السبعة، توفي بالكوفة سنة 154هـ.

(4) ابن عامر: هو عبد الله بن عامر اليحصبي الشامي، أحد القراء السبعة، توفي بدمشق سنة 113.

الثامن: غ ـ قوله: ﴿فَأَنْزَلْنَا﴾، وفي الأعراف ﴿فَأَرْسَلْنَا﴾.

التاسع: غ ـ قوله: ﴿عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وفي الأعراف: ﴿عَلَيْهِمْ﴾.

العاشر: غ ـ ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾، وفي الأعراف: ﴿بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾.

والجواب عن الأول: إن أمرهم بدخول القرية مغاير من حيث المعنى لأمرهم بسكناها وإن كان الأمر بدخولهم قد يشير بما نسق معه إلى سكناها لكن ليس نصاً بل ولا هو ظاهر فبينت آية الأعراف ذلك وأوضحت المقصود، وحصل الأمران بالدخول والسكنى، وتبين وجه ورود العبارتين على الترتيب.

والجواب عن الثاني أن قوله تعالى: ﴿فكلوا﴾ بحرف التّعقيب وجهه أن الأكل لا يكون إلا بعد الدخول ولا يكون قبله بوجه ولا معه لتعذر ذلك وإنما يكون مرتباً عليه، فجيء بالحرف المحرز لذلك المعنى وإنه على التعقيب من غير مهلة. وأما الوارد في سورة الأعراف فإن السكن منجر معه الأكل ومساوق له ولا يمكن أن يكون مرتباً عليه فجاء بالحرف الصالح لذلك المعنى.

والجواب عن الثالث[1] وهو ورود (قوله)[2] رغداً في البقرة وسقوط ذلك في الأعراف أن تحته معنى مقصوداً لا يحصل من شيء مما ورد في الآية وانطوت عليه من الكلام، بخلاف آية الأعراف فإن مفهوم

---

(1) سقط من ن 3.
(2) سقط من ن 3.

السكنى وهو الملازمة والإقامة مع الأمر بالأكل، حيث شاؤوا مع انضمام معنى الامتنان والإنعام المقصود في الآية، كل ذلك مشعر ومعرف بتمادي الأكل وقوة السياق مانعة من التحجير والاقتصار فحصل معنى الرغد فوقع الاكتفاء بهذا المفهوم الحاصل قطعاً من سياق آية الأعراف (ولو لم يرد في سورة البقرة لم يفهم من سياق الآية كفهمه من سياق آية الأعراف)[1]. وأما قوله سبحانه في سورة البقرة: ﴿وَٱدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ وعكس ذلك في الأعراف، فوجه ذلك والله أعلم أن قولهم: حطة دعاء أمروا به في سجودهم فلو ورد في السورتين على حد سواء لأوهم من حيث مقتضى الواو من الاحتمال أنهم أمروا بالسجود والقول منفصلين غير مساوق أحدهما للآخر على أحد محتملات الواو في عدم الرتبة، فقدم وأخر في السورتين ليحرز المجموع أن المراد بهذا القول أن يكون في حال السجود لا قبله ولا بعده، وتعين بهذا معنى المعية من محتملات الواو وتحرّر المقصود، وإن المراد: وادخلوا الباب سجداً قائلين في سجودكم حطة، فاكتفي بتقلب[2] الورود عن الإفصاح بمعنى المعية (إيجازاً جليلاً)[3] وبلاغة عظيمة. وقدم في البقرة الأمر بالسجود لأن ابتداء السجود يتقدم ابتداء الدعاء ثم يتساوق المطلوبان، فجاء ذلك على الترتيب الثابت في السور والآي، والله أعلم.

ومما يجب تمهيده لتخليص[4] هذا المفهوم أن العرب الفصحاء

---

(1) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(2) في ن 4: تغليب، وهو منافر للمعنى.
(3) سقط من ن 4.
(4) في ن 3: لتخلص.

إذا أخبرت عن مخبر ما أو[1] أناطت به حكماً من الأحكام وقد شركه غيره في ذلك الحكم أو في ما أخبر به عنه وقد عطفت أحدهما على الآخر بالواو المقتضية عدم الترتيب فإنهم (مع ذلك)[2] إنما يبدأون بالأهم والأولى، قال سيبويه، رحمه الله: كأنهم يقدمون ما بيانه أهم لهم وهم به أعنى[3] هذا معنى كلامه، رحمه الله، قال (الله)[4] سبحانه تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾[5] فهذان مطلوبان مقامهما في الطلب الايماني معلوم ولكن المبدو به أهم. وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿آمِنُوا[7] بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[8]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾[9]. وهذا أكثر من أن يحصى، وعكس الوارد منه ليس بالأفصح، فعلى هذا التمهيد يفهم ما قدمنا[10] فإن قوله تعالى ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾[11].

مقتضاه على ما تمهد الابتداء بأول الأمرين فلا يمكن تحصيل ذلك في الآيتين إلا بالمساوقة وكونهما معاً في حالة[12] واحدة، فتدبر ذلك

(1) في ن 4: إذ، ولا يناسب ذلك المعنى المراد.
(2) سقط من ن 4.
(3) الكتاب، ج 1، ص 24.
(4) سقط من ن 3.
(5) سورة المزمل: آية 20.
(6) سورة النساء: آية 59.
(7) في ن 3: وآمنوا، بواو النسق وهو خطأ.
(8) سورة الحديد: آية 7.
(9) سورة التوبة: آية 62.
(10) في ن 3: قدمناه.
(11) سورة البقرة: آية 58.
(12) في ن 3: حال، وكلاهما فصيح.

والله أعلم (بما أراد)[1] . وأما الاختلاف في جمع خطيئة في السورتين فإنها تجمع من حيث ثبوت تاء التأنيث في الواحدة منها بالألف والتاء وتجمع أيضاً مكسرة[2] على فعائل كظعينة وظعائن وسفينة وسفائن وصحيفة وصحائف فالأصل[3] خطاي مثل ظعائن ثم ترجع بمقتضى التصريف إلى خطايا كمطية ومطايا فورد جمعها في البقرة مكسراً ليناسب ما بنيت عليه آيات البقرة من تعداد النعم والالاء حسبما يتبين في جواب السؤال (بعد)[4] ، لأن جموع التكسير ما عدا الأربعة أبنية التي هي: أفعل وأفعال وأفعلة وفعلة إنما ترد في الغالب للكثرة، فطابق الوارد في البقرة ما قصد من تكثير الآلاء والنعم، وأما[5] الجمع بالألف والتاء فبابه القلة في الغالب أيضاً ما لم يقترن به ما يبين أن المراد به الكثرة، فناسب ما ورد في الأعراف من حيث لم تبن آيها[6] من قصد تعداد النعم على ما بنيت عليه آي البقرة، فجاء كل على ما يناسب، والله أعلم. وأما زيادة واو العطف في قوله: «وسنزيد» في البقرة وهو السؤال الخامس فإنما جيء بها هنا لأن المتقدم قبل هذه الآية من لدن قوله سبحانه: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾[7] إنما هي آلاء[8]

---

(1) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.

(2) في ن 1، ن 2: مفسرة، وهو خطأ يؤكده السياق.

(3) في ن 3: فاصل.

(4) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.

(5) في ن 3: إنما، وهو خطأ.

(6) في ن 4: انها، وهو خطأ لا يناسب المعنى.

(7) سورة البقرة: آية 40.

(8) في ن 4: الاؤه، وما ورد في بقية النسخ أصبح ويؤكد ذلك أن نعم مجردة هي الأخرى من الضمير.

(ونعم)[1] كما تقدم عددت[2] عليهم على التفصيل شيئاً بعد شيء، فناسب ذلك عطف قضية الزيادة بالواو ليجري[3] على ما تقدم من تعداد الآلاء وضروب الإنعام بالعفو عن الزلات والامتنان بضروب الإحسان، لهذا القصد من إحراز[4] التعداد ورد: وسنزيد هنا بالـواو ولم يكن ليحصل (ذلك)[5] لو لم ترد الواو هنا، وأما آية الأعراف فلم يرد قبلها ما ورد في سورة البقرة، وأما قوله: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ [6] وفي الأعراف: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ [7] فوجهه والله أعلم أن لفظ الذين ظلموا لفظ عام يحتمل التخصيص، والتخصيص يكون بدليل عقلي ودليل سمعي، و (من)[8] المعلوم أن الأمة من الناس والطائفة الكبيرة إذا خوطبوا بأمر أو نهي لم يكونوا في تقبله على حد سواء وهذا معلوم، ويبين هذا في هؤلاء المقصودين بهذا الإخبار قوله تعالى: ﴿مِنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَاسِقُونَ﴾ [9]، وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾[10] وغير ذلك. وإذا تأملت هذه الآية فهمت منها نفسها أنها ليست على عمومها، فزادت آية الأعراف تخصيصاً سمعياً بما يعطيه حرف التبعيض في قوله:

(1) سقط من ن 4.
(2) في ن 1، ن 2: عتت، وهو خطأ.
(3) في ن 4: لتجري، والصحيح ما ورد في بقية النسخ لعودة الضمير على ذلك قبل.
(4) في ن 4: إحسان وهو غير مناسب.
(5) سقط من ن 3.
(6) سورة البقرة: آية 59.
(7) سورة الأعراف: آية 162.
(8) سقط من ن 4.
(9) سورة آل عمران: آية 110.
(10) سورة آل عمران: آية 113.

«منهم»، وآية الأعراف مخصصة للعموم البادي من آية البقرة، ولهذا القصد[1] من التخصيص ورد في البقرة ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾[2] ولم يرد فيها فأنزلنا عليهم لأنه لو ورد كذلك لكان يتناول المتقدم ذكرهم على التعميم وليس مقصود فتحرز بقوله: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾[3] أن المعذب هو الظالم ممن تقدم، وجاء في الأعراف «عليهم» لتخصيص ذكر الظالم بقوله: «منهم» فجاء كل على ما يجب.
ويزيد ذلك بياناً أن قوله: «فأرسلنا» يقتضي بظهور ما وذلك بحسب مفهوم الإرسال انسحاب العذاب لأن المعذب قد حرز ذكره وأما لفظ أنزل فلا يقتضي الانسحاب والتعميم بحسب اقتضاء أرسل فلهذا ورد (مع)[4] ما لم يرد عمومه وهذا جواب السؤال الثامن، ولم يبق إلا قوله: ﴿بما كانوا يفسقون﴾ و ﴿بما كانوا يظلمون﴾ وهو السؤال التاسع[5]، ووجه ذلك والله أعلم أنه لما وصف اعتداؤهم نيطت بهم أولاً صفة الظلم ومن المعلوم أن مواقعه تتسع، ثم لما ذكر من اعتدائهم وسوء مرتكبهم غير ما تقدم وتضاعف موجب وبيل جزائهم وصفوا بالفسق المنبىء عن حال أوبق من الظلم. ألا ترى أنه صفة إبليس قال تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ[6] كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾[7]. وقد جعل الله تعالى

---

(1) في ن 4: المقصود.
(2) سورة البقرة: آية 59.
(3) سورة البقرة: آية 59.
(4) سقط من ن 3.
(5) في ن 4: تعليق بالهامش، «لعله العاشر» وبالرجوع إلى ما تقدم نتبين أنه السؤال العاشر.
(6) سقط من ن 3.
(7) سورة الكهف: آية 50.

الفسق نقيض الايمان وفي طرف منه في قوله: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ﴾[1]، والظلم قد يقع على أضعف المعاصي، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾[2] وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾[3]. ولوقوعه على مختلفات المآثم ومطابقته لما قل أو كثر منها وصف بالعظم حين أريد به الشرك. قال (الله)[4] تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[5] ويقول الشاكي للحاكم: إن هذا ظالم وقد ظلمني في خردلة فما فوقها ولا يلزمه من[6] هذا القول شيء إذا صح له أدنى تعلق. أما إن قال: فاسق أو فسق فليس كذلك. وكما يترقى في الجزاء الإحساني كذلك يترقى في الطرف الآخر وهي في الحقيقة[7] ضد الترقي، وسنزيد هذا إن شاء الله في سورة المائدة بياناً في وصفه سبحانه من لم يحكم بما أنزل الله بالكفر، ثم بالظلم، ثم بالفسق. وإذا تقرر هذا فتأمل آيات البقرة من لدن قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾[8] إلى ذكر وصفهم بتظليلهم بالغمام كيف ذكروا أولاً بالظلم فقال تعالى عقب ذكر تظليلهم بالغمام: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا

---

(1) سورة السجدة: آية 18.
(2) سورة النساء: آية 110.
(3) سورة آل عمران: آية 135.
(4) سقط من ن 3.
(5) سورة لقمان: آية 13.
(6) في ن 1، ن 2، ن 4: في.
(7) في ن 1، ن 2، ن 3: بالحقيقة.
(8) سورة البقرة: آية 47.

وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[1]، ثم أردف ذكر اعتدائهم في تبديلهم قولاً غير الذي قيل لهم وأعقب بقوله: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[2] وجعل الفسق ختام وصفهم الجاري جزاء على مرتكباتهم، ولم يقع بعده ذكر علة منوطة بجزاء ما وقع منهم، وإذا تأملت آية الأعراف وجدتها جارية على منهج[3] ما ورد في سورة البقرة وإن أول وصفهم المبني[4] جزاء على مرتكباتهم قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ آلسَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾[5]، ثم (قال تعالى)[6]: ﴿وَآسْأَلْهُمْ[7] عَنِ آلْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ آلْبَحْرِ﴾[8] إلى قوله: ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[9] فطابق هذا ما ورد في البقرة من تقدم وصفهم أولاً بالظلم ثم بعد ذلك بالفسق، ووضح الاتفاق في ختام القصة في السورتين من غير اختلاف فيهما[10].

الآية الثالثة عشرة من البقرة: غ ـ قوله تعالى: ﴿فَآنْفَجَرَتْ مِنْهُ آثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً﴾[11] وفي الأعراف: ﴿فَآنْبَجَسَتْ﴾[12]

---

(1) سورة البقرة: آية 57.
(2) سورة البقرة: آية 59.
(3) في ن 4: منعهم وهو خطأ.
(4) في ن 4: المنبىء، وهو غير مناسب للمعنى المراد.
(5) سورة الأعراف: آية 162.
(6) سقط من ن 4.
(7) في ن 3: وسلهم.
(8) سورة الأعراف: آية 163.
(9) سورة الأعراف: آية 163.
(10) في ن 4: بينهما، وفيهما ألصق بالمعنى المراد.
(11) سورة البقرة: آية 60.
(12) سورة الأعراف: آية 160.

مع[1] أن المعنى واحد فمعنى الانبجاس الانفجار، يسأل عن وجه اختصاص كل من الموضعين بما ورد فيه.

والجواب، والله أعلم أن الفعلين وإن اجتمعا في المعنى فليسا على حد سواء بل الانبجاس ابتداء الانفجار والانفجار بعدة غاية له، قال القرطبي[2] «الانحباس أول الانفجار»[3]، وقال ابن عطية[4] ابنجست انفجرت لكنه أخف من الانفجار[5] وإذا تقرر هذا فأقول أن الواقع في الأعراف طلب بني اسرائيل من موسى، عليه السلام، السقيا، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ ٱسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾[6] والوارد في البقرة[7] طلب موسى، عليه السلام، من ربه، قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾[8] فطلبهم ابتداء فناسبه[9] الابتداء، وطلب موسى، عليه

---

(1) سقط من ن 4.

(2) في ن 1، ن 2، ن 3: الغزنوي، القرطبي: صاحب كتاب الجامع لأحكام القرآن، هو محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي من كبار المفسرين، توفي بمصر سنة 671هـ/ 1273م.

أنظر: الأعلام 217/6؛ مقدمة الجامع، تفسيره؛ نفح الطيب 428.

(3) الجامع لأحكام القرآن 416/1.

(4) ابن عطية (481هـ/ 1088م ـ 542هـ/ 1148م): هو عبد الحق بن غالب بن عطية المحاربي الغرناطي أبو محمد، مفسر فقيه أندلسي من أهل غرناطة، عارف بالأحكام والحديث، توفي بلورقة، له: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، طبعت أجزاء منه.

أنظر: الاعلام 53/4؛ نفح الطيب 585/1؛ كشف الظنون 439 و 1613.

(5) تفسير بن عطية، ج 2، ورقة 77، الوجه الأول.

(6) سورة الأعراف: آية 160.

(7) سقط من ن 4.

(8) سورة البقرة: آية 60.

(9) في ن 1، ن 2، ن 4: فاشبه.

السلام، غاية لطلبهم لأنه واقع بعده ومرتب عليه، فناسب[1] الابتداء الابتداء والغاية الغاية، فقيل جواباً لطلبهم: «فانبجست» وقيل إجابة لطلبه «فانفجرت»، وتناسب ذلك وجاء على ما يجب ولم يكن ليناسب العكس والله أعلم.

الآية الرابعة عشرة من سورة البقرة: غ ــ قوله جل [2] وتعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ﴾ [3] وفي سورة آل عمران: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثقفُوا إلاَّ بِحَبلٍ مِنَ الله وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ الله وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ [4] ، فأخر في سورة آل عمران ما قدم ذكره في سورة البقرة فيسأل عن ذلك، ووجهه والله أعلم أنهم لما سالوا في البقرة عن مأكلهم ما فيه خِسّة وما يستلزم الذلة والصغار والمهنة في التوصل إلى [5] الانتفاع به وذلك ما طلبوه في قولهم: ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأرضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ [6] عوضاً مما لا تكلف فيه ولا مشقة من المن والسلوى الذي كان ينزل عليهم عند الحاجة بغير مؤنة، ولهذا قيل لهم: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُو خَيْرٌ﴾ [7] ، فلما سألوا ما يستلزم مهنة النفس ودناءة الحال لما أجرى به الله تعالى العادة من أن الذي

---

(1) في ن 1، ن 2، ن 4: فأسبه، ويبدو أن ما ورد في ن 3 أنسب للمعنى.
(2) سقط من ن 3.
(3) سورة البقرة: آية 61.
(4) سورة آل عمران: آية 112.
(5) في ن 3: في، وهو خطأ.
(6) سورة البقرة: آية 61.
(7) سورة البقرة: آية 61.

سألوه لا يتوصل إليه إلا بتكلف ومشقة، فلما سألوا [1] ما حاصلهُ خسة وامتهان [2] ناسب ذلك أن يناط به وينبىء عليه ذكر ضرب الذلة والمسكنة عليهم ثم أعقب ذلك ما باؤوا به من غضب الله الذي سبق به القدر عليهم ونعوذ بالله من غضبه. ولما تقدم في آل عمران قوله تعالى ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إلاَّ أَذًى وإنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمْ ٱلأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنْصَرُونَ﴾[3] ناسب هذا تقديم ما لا نصرة[4] لهم معه ولا فلاح وهو ما باؤوا به من غضب الله عليهم فقال تعالى: ﴿وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ﴾[5] فجاء كل على ما يناسب ويلائم والله أعلم (بما أراد)[6].

الآية الخامسة عشرة: قوله جل وتعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بالله وَيَقْتُلُونَ النَّبيئينَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[7] وفي سورة آل عمران: ﴿إنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ الله وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيئِينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾[8] وفيها بعد: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إلاَّ أَذًى﴾[9] إلى قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُون بِآيَاتِ الله وَيَقْتُلُونَ ٱلأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾[10] بتنكير حق في هذين الموضعين وتعريفه في البقرة واختصاص الآية الأخيرة بجمع التكسير فيما جمع في الآيتين

(1) في ن 3: سألوه.
(2) في ن 4: امتنان، وهو خطأ لا يستقيم به المعنى.
(3) سورة آل عمران: آية 111.
(4) في ن 1، ن 2، ن 4: مضرة، والأنسب: نصرة، ويدعم ذلك قوله بعد: ولا فلاح.
(5) سورة آل عمران: آية 112.
(6) سقط من ن 4.
(7) سورة البقرة: آية 61.
(8) سورة آل عمران: آية 21.
(9) سورة آل عمران: آية 111.
(10) سورة آل عمران: آية 112.

جمع سلامة فقيل: النبيئين في الآيتين وقيل في هذه الأخيرة الأنبياء مكسراً فهذان سؤالان.

والجواب عن الأول، والله أعلم، بعد العلم بأن المذكورين في الآيات الثلاث من بني اسرائيل قد اجتمعوا في الكفر والاعتداء أن هذه الآية الأخيرة لما كانت فيمن شاهد منهم أمر محمد صلى الله عليه وسلم، وعاين تلك البراهين واستوضح أنه الذي أخبر به موسى وغيره صلى الله عليهم أجمعين وتكاثرت الأدلة في أمره ثم لم يجد ذلك عليهم)[1] إلا التمادي في الكفر والعناد من بعد ما تبين [2] لهم الحق كان الأنسب لمرتكبهم في كفرهم أن يعبر عنهم أنهم ارتكبوه بغير شبهة ولا سبب يمكن التعلق به فقوله تعالى: ﴿بغير حق﴾ كأنه مرادف [3] لأن لو قيل: بغير سبب ولا شبهة، وذلك أوغل في ذمهم وسوء حالهم لأنهم لا يمكنهم في مرتكبهم تعلق بشيء البتة ولا أدنى شبهة، ولما كانت الأولى في سورة البقرة إنما هي، في سلفهم ممن لم يشاهد أمر محمد صلى الله عليه وسلم. وقد وقع الافصاح فيها بكفرهم بعد تعريفهم بذكر آلاء ونعم وقد ورد فيها أن بعض تلك المرتكبات أو أكثرها قد عفي عنهم فيها ولا شك أن بعضهم قد سلم مما وقع فيه الأكثر من كفرهم وقد أفصحت آي بذلك فيما ذكر عقبها من أن الكفر السابق عمومه في جميعهم ليس على ما يبدو منه والله أعلم، وإنما هو راجع إلى أكثرهم، فقد دخله خصوص يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ

(1) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(2) في ن 3: تبن، وهو خطأ في النسخ.
(3) في ن 3: مرادفة.

(قَوْلاً)[1]﴾[2] وقوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾[3]، فهم وإن وصفوا من الكفر والاعتداء بما وصفوا ليسوا في ارتكاب البهت والمجاهرة بالباطل وموالاة التمرد والاعتداء وحال معاينة البراهين كحيىي بن أخطب[4] وأشباهه من المعاصرين لنبينا صلى الله عليه وسلم، والمشاهدين أمره، فناسب حال أولئك الذين لم يشاهدوه ما وقع التعبير به من قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[5] إذ ليس المعرف في قوة المنكر المرادف لقولك بغير سبب، وأيضاً فقد تقرر عندهم من كتابهم أن مسوغ[6] قتل النفس (تقدم قتل نفس)[7] بغير حق، قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا ـ أي في التوراة ـ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾[8]، وتقرر أيضاً في كتابهم رجم الزاني المحصن وقد عرفنا ذلك من دينهم بالخبر الصحيح وأنهم اعترفوا بذلك عند النبي صلى الله عليه وسلم بعد إنكارهم وقوله تعالى في خطاب موسى، عليه السلام، لهم بقوله: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾[9] فعرف بعظيم جريمة الارتداد، والظاهر أن حكم المرتد عندهم القتل كحكمه عندنا، وكيف ما كان فقد استقر عندهم ما يسوغ

---

(1) سقط من ن 1، ن 2، ن 3.

(2) سورة الأعراف: آية 162.

(3) سورة التوبة: آية 8.

(4) حيي بن أخطب (ت 5هـ/ 626م): جاهلي من الأشداء العتاة كان ينعت بسيد الحاضر والبادي، أدرك الإسلام وآذى المسلمين فأسروه يوم قريظة وقتلوه.
أنظر: الاعلام 331/2؛ وسيرة ابن هشام 148/2-149.

(5) سورة البقرة: آية 61.

(6) في ن 4: أن لا يسوغ، وهو خطأ ينعكس به المعنى.

(7) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.

(8) سورة المائدة: آية 45.

(9) سورة المائدة: آية 21.

القتل ويوجبه بعد الايمان، وقد علموا أن الأنبياء، عليهم السلام، مبرؤون من ذلك كله فقوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي بغير وجه الحق المبيح للقتل، فالألف واللام للعهد في المسوغ المتقرر في شريعتهم فقد افترق مقصد الآيتين، وأما الأولى من آيتي آل عمران فخاصة بالمتمادين منهم على الكفر ولا تتناول الآية من أولها إلى آخرها خلافه فهي كالآية الثانية فيما أعطته ودلت عليه من التمرد والتمادي على الضلال فناسبها التذكير كالتي بعدها وهما معاً بخلاف آية البقرة إذ لم يتقدم في هاتين ما تقدم في تلك ولا حال المذكورين في هاتين كحال من ذكر في تلك والله أعلم بما أراد.

والجوب عن السؤال الثاني، أن جمع التكسير يشمل أولي العلم وغيرهم وجمع السلامة يختص في أصل الوضع بأولي العلم وإن وجد في غيرهم فبحكم الالحاق والتشبيه كقوله تعالى: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾[1] وما يلحق بهذا. وإذا تقرر هذا فورود جمع السلامة في قوله في سورة البقرة: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيئِينَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[2] مناسب من جهتين: إحداهما[3] شرف الجمع لشرف المجموع، والثانية مناسبة زيادة المد لزيادة أداة التعريف في لفظ الحق، وأما الآية الأولى من سورة آل عمران فمثل الأولى في مناسبة الشرف ومناسبة زيادة المد للزيادة في الفعل العامل في اللفظ المجموع في قراءة من قرأ: «يقاتلون» ولما لم يكن في الآية الثالثة سوى شرف

---

(1) سورة يوسف: آية 4.

(2) سورة البقرة: آية 61.

(3) في ن 3: أحدهما، والأولى ما جاء في بقية النسخ إذ المراد بها الجهة وهي مؤنثة.

المجموع وكانت العرب تتسع في جموع التكسير فتوقعها على أولي العلم وغيرهم[1] أتي بالجمع هنا مكسراً لتحصل اللغتان حتى لا يبقى لمن تحدي بالقرآن حجة إذ هم مخاطبون بما في لغاتهم، فلا يقصر في شيء من خطابهم على أحد الجائزين دون الآخر إلا ألا[2] يتكرر فإذ[3] ذلك يرد على وجه واحد مما يجوز فيه، فتفهم ما أجملته فسوف يتضح لك به (إذا)[4] استوفيته ما يعينك على فهم الاعجاز.

الآية السادسة عشرة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَٱلصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بالله وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[5] وقال في المائدة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بالله وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[6] وفي سورة الحج: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَٱلصَّابِئِينَ وَٱلنَّصَارَى وَٱلْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ الله يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ إِنَّ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[7]. فيها أربع سؤالات: تقديم «النصارى» في سورة البقرة وتأخيرهم في المائدة، وتخصيص آية البقرة بقوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ

---

(1) في ن 4: وعنوه هم، وهو خطأ.
(2) في ن 4: الا لئلا.
(3) في ن 4: فإن، والسياق يقتضي: إذ.
(4) سقط من ن 3.
(5) سورة البقرة: آية 62.
(6) سورة المائدة: آية 69.
(7) سورة الحج: آية 17.

﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾[1] ورفع «الصائبون» في المائدة ولم يتبع، وانفراد سورة الحج بسياقها وزيادة ذكر «المجوس» والذين أشركوا.

فأقول وأسأل الله توفيقه: إن المؤمنين أحق بالتقديم وهم أهل الخطاب والمتكلم[2] معهم في الآي قبل[3]، فهم من حيث أحوالهم معظم من قصد بالخطاب والتأنيس، ثم إن أهل الكتابين يلون المؤمنين، فإنهم ليسوا كافرين بكل الرسل ولا منكرين لكل[4] ما أنزل من الكتب، فقد كانوا أقرب شيء لولا التبديل والتغيير والتحريف المقدر وقوعه عليهم، فإنهم قد قدم إليهم فنكثوا ونقضوا وكفروا بمن قدم إليهم من أمره، واليهودِ أقدم تعريفاً وأسبق زماناً، فلما اجتمع الأصناف الثلاثة في أنهم أهل الكتاب والمقرون بآلبداءة والعودة وإرسال الرسل على اختلاف حالاتهم في ذلك وأزمانهم كان تقديمهم على غيرهم أوضح شيء على الوارد في سورة البقرة، إلا أن ذكرهم لم يقع بحرف مرتب بل وقع الاكتفاء بترتيب الذكر لاستوائهم في الغايات مِن استواء[5] العواقب، وإن الفائز[6] من الكل إنما هو من كانت خاتمته في دار التكليف الموافاة على الإيمان والإسلام، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم، وإن آلموافَى في الكل على الكفر في النار، ثم عذابهم بحسب جرائمهم جزاء وفاقاً فرتبوا ذكراً بحسب حالهم الدنياوي، ولم يتقعد [7] الترتيب بالحرف المرتب

---

(1) سورة البقرة: آية 62.

(2) في ن 4: التكلم وما جاء في بقية النسخ ألصق بالمعنى المراد.

(3) في ن 4: قيل وهو خطأ.

(4) في ن 3: بكل.

(5) في ن 3: التفات، ولا يلتئم به المعنى.

(6) في ن 4: العابدين، خطأ لا يلتئم به المعنى.

(7) في ن 4: يقع.

لحظاً لحالهم الاخراوي، فجرى ذكرهم في سورة البقرة على هذا وأخر ذكر الصابين لتأخرهم عن هؤلاء الأصناف في أنهم ليسوا أهل الكتاب أو ليسوا مثلهم في ما وراء ما ذكر من أحوالهم، فإيراد ذكرهم على ما في سورة البقرة بين، ثم قدم ذكر الصابين في سورة المائدة وزيادة بيان للغرض المذكور من أنه لا ترتيب في الغاية الاخراوية إلا بنظر آخر لا بحسب الدنياوي والاشتراك فيما قبل الموافاة بل المستجيب المؤمن من الكل مخلص والمكذب متورط ثم مراتب[2] الجزاء بحسب الأعمال فأوضح تقديم ذكر الصابين في سورة المائدة ما ذكرناه، فإن قلت لم لم يقدم ذكرهم على الكل؟ قلت: لا وجه لهذا لمكانة المؤمنين وشرفهم، فإن قلت فهلا قدموا على يهود قلت: قد كانت يهود أولى الناس بأن يكونوا في رعيل من المستجيبين ومعهم جرى الكلام قبل هذا نعياً عليهم (وبياناً لمرتكباتهم)[2] ولعظيم ما جرى على من لم يؤمن منهم وترددت فيهم عدة آيات وذلك مما يوجب تقديم ذكرهم على من عدا المؤمنين. فإن قلت فالنصارى مثلهم: قلت النصارى أقرب إلى الصابين من حيث التثليث[3] وسوء نظرهم في ذلك وتصورهم، ثم إنهم لم يجر لهم ذكر فيما تقدم هذه الآية بخلاف يهود فبان[5] من هذه الجهة تقديم يهود عليهم وإن كان يهود شر الطائفتين.

---

(1) في ن 4: كتاب، ولا يستقيم به المعنى.

(2) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.

(3) في ن 4: التنكيث، وهو خطأ ينافر المقصود.

(4) في ن 1، ن 2، ن 4: فإن، والصحيح ما جاء في ن 3: إذ به فقط يلتئم المعنى.

(5) الكتاب 339/1.

السؤال الثاني، وهو ورود اسم الصابين في المائدة بالرفع، والجواب عنه أنه إنما ورد مرفوعاً تنبيهاً على الغرض المذكور وتأكيداً للتسوية في الحكم وإذا اتفقوا في الموافاة على الإيمان فنبه التقديم على هذا كما تقدم وزاد القطع على الرفع تأكيداً لأن قطع اللفظ عن الجريان على ما قبله محرك للفظ توجيهه وهو عند سيبويه، رحمه الله مقدم من تأخير[1] وكأنه لما ذكر حكم المذكورين سواهم قيل والصابون كذلك أي لا فرق بين الكل في الحكم الاخراوي وهو على هذا التقدير أوضح شيء فيما ذكر، وأما على طريقة الفراء[2] ومن قال بقوله من حمله على الموضع ففيه[3] التقديم وأن التحريك القطعي في اللفظ وإن لم يكن مقطوعاً في المعنى لا يكون إلا لإحراز[4] معنى وليس إلا ما تقدم.

والجواب عن السؤال الثالث: إن قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ قد[5] تقدم في المائدة ما يعطيه ويحرزه فٱكتُفِيَ به، ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَابِ آمَنُوا وَٱتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾[6] تفسير بين للأجر الاخراوي

---

(1) الكتاب 339/1.

(2) الفراء (144هـ/ 761م ـ 207هـ/ 822): هو يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي، مولي بني أسد، أبو زكرياء إمام الكوفيين في النحو واللغة وفنون الأدب، ولد بالكوفة وتوفي بطريق مكة، يميل إلى الاعتزال، من كتبه معاني القرآن، المذكر والمؤنث ما تلحن فيه العامة، مشكل اللغة...

أنظر: الاعلام 178/9؛ وفيات 228/2؛ مفتاح السعادة 144/1؛ تاريخ بغداد 155-149/14.

(3) في ن 1، ن 2، ن 4: فيه، والسياق يقتضي الفاء.

(4) في ن 4: للإحراز، وهو خطأ.

(5) في ن 1، ن 2، ن 4: فقد، والسياق يقتضي الفاء.

(6) سورة المائدة: آية 65.

المجمل في قوله في سورة البقرة: «﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾[1] إلى آخر الآية، فقد حصل ما في سورة المائدة مفصلاً مبيناً ما ورد في البقرة مجملاً، فلو قيل في آية المائدة: فلهم أجرهم لكان تكراراً ورجوعاً إلى الاجمال بعد التفصيل وذلك عكس ما ينبغي.

والجواب عن السؤال الرابع: أن آية سورة الحج إنما وردت معرفة بمن ورد في القيامة على ما كان من يهودية أو نصرانية أو غير ذلك والآي الآخر فيمن ورد مؤمناً فافترق القصدان واختلف مساق الآي بحسب ذلك.

الآية السابعة عشرة: غ ـ (قوله تعالى)[2] ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾[3]. وفي الآية الأخرى مما بعد: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾[4] للسائل أن يقول: إن الخطاب في الآيتين لبني اسرائيل وهم المخبر عنهم بما بعد والمقول لهم: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [5] وهم بأعيانهم المقول لهم في الآية بعد: ﴿واسمعوا﴾، فما وجه تخصيص كل من الآيتين بما أعقبت به؟ وهل كان يمكن تعقيب الأولى بقوله واسمعوا وتعقيب الثانية بقوله: واذكروا ما فيه الآية؟

---

(1) سورة البقرة: آية 62.
(2) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(3) سورة البقرة: آية 63.
(4) سورة البقرة: آية 93.
(5) سورة البقرة: آية 63.

والجواب: أنه لا يناسب كل آية منهما[1] إلا ما به أعقبت، ووجه ذلك أن الآية الأولى تقدم قبلها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ وَٱلْفُرْقَانَ﴾[2] والكتاب: التوراة وقد سمعوه وعنه قيل وإليه أشير بقوله: ﴿خُذوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا مَا فيه﴾[3]، وقد زاد هذا ايضاحاً قوله في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّة﴾[5] والاشارة بالقوة إلى عظيم تخويفهم برفع الجبل فوقهم كالظلة)[6] فقوله: ﴿خُذُوا مَا آتيناكُمْ﴾ عقب ذكر كتابهم أوضح شيء وأنسبه، ولما تقدم قبل الآية الثانية قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾[7] وهذا الكتاب هو الكتاب العزيز وإليه الاشارة بقوله: ﴿وَإِذْ قِيلَ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾[8] بدليل قولهم ـ حيدة عن الايمان ـ: ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾[9] قال تعالى: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾[10] أي ويكفرون بالقرآن، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾[11] والاشارة للقرآن: ﴿مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ﴾ أي من التوراة، فلما تقدم هنا ذكر القرآن، وخلف يهود المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه

---

(1) في ن 4: منها، وهو خطأ.
(2) سورة البقرة: آية 53.
(3) سورة البقرة: آية 63.
(4) سقط من ن 4.
(5) سورة الأعراف: آية 171.
(6) سقط من ن 4.
(7) سورة البقرة: آية 89.
(8) سورة البقرة: آية 91.
(9) سورة البقرة: آية 91.
(10) سورة البقرة: آية 91.
(11) سورة البقرة: آية 91.

وسلم معرضون إلا القليل عن الايمان وسماع القرآن، فناسب إعراضهم عن سماعه تخصيصه هذا الموضع من المقول لسلفهم بقوله للخلف: «واسمعوا»، ليكون إخباراً عن سلفهم وتعريضاً لخلفهم، فوضح التناسب وأن العكس لا يناسب.

الآية الثامنة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً﴾ [1] وفي سورة آل عمران: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ﴾ [2] فأفرد في البقرة الوصف وجمع في آل عمران فقيل معدودات والجاري عليه الوصف في السورتين قوله: أياماً بلفظ واحد فيسأل عن موجب اختلاف الوصف، فأقول: إن المجموع بالألف والتاء منحصر في أربعة أضرب: ثلاثة متفق عليها والرابع مختلف فيه. فأما الثلاثة: فكل علم لمؤنث نحو: هند ودعد، وكل ما فيه تاء التأنيث لمذكر كان أو لمؤنث[3] عاقل أو غير عاقل نحو طلحة وحمزة وشجرة، وكل مصغر لغير العاقل نحو دريهم دريهمات وما أشبه ذلك، فهذه الضروب الثلاثة متفق عليها وضرب رابع مختلف فيه وهو كل اسم مكبر لغير العاقل مذكراً كان أو مؤنثاً لم يسمع فيه عن العرب جمع تكسير نحو حمام وحمامات وسبطر وسبطرات[4] وجمل سبحل وسبحلات[5]

---

(1) سورة البقرة: آية 80.

(2) سورة آل عمران: آية 24.

(3) في ن 3: أو مؤنث.

(4) سبطر: جمل سبطر وجمال سبطرات سريعة، والسبطر من نعت الأسد بالمضاءة والشدة.

(5) جمل سبحل: عظيم وفي الحديث خير الإبل السبحل.

وسرادق وسرادقات[1] وايوان وايوانات[2] وربحل وربحلات[3]، فإن سمع من العرب شيء من هذا جمع جمع تكسير لم يجز جمعه بالألف والتاء.

قال سيبويه، رحمه الله: قالوا جوالق وجواليق[4] فلم يقولوا جوالقات حين قالوا جواليق يعني حين كسروا وقالوا في المؤنث عيدات حين لم يكسروها على بناء يكسر عليه مثلها[5].

ثم إن صفة كل مؤنث جارية عليه في حكمه من التأنيث إلا أربعة أضرب وهي: فعلى أفعل، وفعلى فعلان، وما يشترك فيه المذكر والمؤنث من الصفات كمعطار[6] ومذكار[7] وميناث[8]، وما ينفرد به المؤنث كحائض وطامث[9]، فهذه الضروب الأربعة لا يجمع شيء منها بالألف والتاء وسائر ما يجري على المؤنث من الصفات لا يمتنع من ذلك.

ثم إن ما يجمع جمع التكسير من مذكر غير عاقل قد يتبع بالصفة المفردة مؤنثه بالتاء كما يفعل في الخبر تقول: ذنوب مغفورة وأعمال

---

(1) سرادق: السرادق ما أحاط بالبناء والجمع سرادقات، وفي التنزيل: «أحاط بهم سرادقها».

(2) الإيوان والأوان: الصفة العظيمة وجماعة الأوان أون، وجماعة الإيوان أواوين وإيونات.

(3) ربحل: الجمل الربحل العظيم الضخم يقال جمل سبحل ربحل.

(4) جوالق: الجوالق والجوالِق بكسر اللام وفتحها: وعاء.

(5) الكتاب 127/2.

(6) معطار: كثير التعطّر، ويقال: المُعطر.

(7) مذكار: يقال أرض مذكار لا تنبت إلا ذكور العشب، وقيل هي التي لا تنبت، فلاة مذكار: ذات أهوال.

(8) ميناث: وفي ن 4 ميثاق، وهو خطأ، والميناث المرأة المنجبة للإيناث وكذلك الرجل، وسيف مئناث لين الحديدة.

(9) طامث: امرأة طامث حائض وعن عائشة، رضي الله عنها: حتى جئنا سرف فطمثت.

محسوبة، وقال تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ [1] ومنه قوله تعالى مخبراً عن يهود: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً﴾ [2] ، ثم قد يجمع هذا الضرب بالألف والتاء رعياً لمفرده وان لم يكثر الا أنه فصيح ومنه ﴿وَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾[3]. وإذا تبين ما ذكرناه وانه الجاري الكثير[4] مع ما وقع في آية البقرة من الإيجاز وفي الأخرى من الإطالة، الا ترى قوله تعالى في (آية)[5] آل عمران: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ﴾ [6] وفي البقرة: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً[7]﴾ [8] واخباره تعالى باغترارهم بقوله: ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[9]، وهذا بسط[10]لحالهم الحامل على سوء مرتكبهم، ولم يقع في سورة البقرة تعرض لشيء من ذلك بل أوجز القول ولم يذكر سببه، فناسب الإفراد الإيجاز[11]وناسب الجمع الإسهاب[12]، ولو جمع

---

(1) سورة الغاشية: آية 14.
(2) سورة البقرة: آية 80.
(3) سورة البقرة: آية 203.
(4) في ن 3: وانه الجاري في الكثير.
(5) سقط من ن 4.
(6) سورة آل عمران: آية 24.
(7) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(8) سورة البقرة: آية 80.
(9) سورة آل عمران: آية 24.
(10) في ن 4: أبسط، ولا يستقيم به المعنى.
(11) في ن 4: والإيجاز، ولا داعي هنا للواو وإلا اختل المعنى.
(12) في ن 4: للإسهاب، وبه يختل المعنى.

في سورة البقرة وأفرد في سورة آل عمران أو أفرد فيهما أو جمع فيهما لما ناسب، فورد كل على ما يناسب ويجب، والله أعلم) [1].

الآية التاسعة عشرة: قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ (أَبَدًا) [2] بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [3] وفي سورة الجمعة: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [4] فيسأل عن تخصيص آية البقرة بقوله: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ﴾ (وآية الجمعة بقوله: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ﴾) [5] مع اتحاد الأخبار؟ ووجه ذلك ـ والله اعلم ـ أن آية البقرة لما كان الوارد فيها جواباً لحكم أخراوي يستقبل وليس في الحال منه إلا زعم مجرد واعتقاد أن الأمر يكون كذلك ناسبه النفي بما وضعه[6] من الحروف لنفي المستقبل لأن لن يفعل جواب سيفعل، ولما كان الوارد في سورة الجمعة جواباً لزعمهم أنهم أولياء الله من دون الناس وذلك حكم دنياوي ووصف حالي لا استقبال [7] فيه ناسبه [8] النفي بلا [9] التي لنفي ما يأتي من غير تخصيص (الا)[10] بغير الماضي، وقد تتعاقب مع ما التي لنفي الحال.

---

(1) في هامش ن 4.
(2) سقط من ن 3.
(3) سورة البقرة: آية 94.
(4) سورة الجمعة: آية 7.
(5) سقط من ن 3.
(6) في ن 1، ن 2، ن 4: وصفه وبه يختل المعنى.
(7) في ن 2: حالتي الاستقبال، وهو خطأ يخل بالمعنى.
(8) في ن 4: ناسب.
(9) في ن 2: بلن، وهو خطأ.
(10) سقط من ن 4.

فإن قلت: فان «ما» النافية أخص بالحال فهي[1] أنسب، قلت: قد يفهم من ما نفي مجدد الحال دون ما يتصل به فقد يقول القائل: ما يقوم زيد، يريد ما يقوم اليوم ولا يريد أنه لا يقوم غداً وما صالحة لهذا المعنى[2]، وهم انما أرادوا انهم أولياء مستمرون على ذلك وان تلك صفتهم في الحال وما يليه إلى آخر حياتهم إذ ذلك هو[3] الموجب أن تكون لهم الدار الآخرة خالصة من دون الناس كما زعموا، فلما كان زعمهم هذا ناسبه نفي دعواهم وتكذيب زعمهم بحرف أنص في نفي ذلك وانه لا يقع منهم التمني في حالهم ولا فيما بعده أبداً. فان قلت: ان قوله أبداً قد أحرز هذا، قلت: تأكيد ذلك أبلغ فنفى بلا[4] وأكد بآلتّأبيد، فجاء كل على أعلى البلاغة، والله أعلم.

الآية الموفية عشرين: قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ آتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ آلْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾[5]، وورد فيما بعد: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ آلَّذِينَ أُوتُوا آلْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ آتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ آلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾[6] وفي الرعد: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً وَلَئِنِ آتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ آلْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ آللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ﴾[7].

---

(1) في ن 4: في، وهو خطأ مخل بالمعنى.
(2) في ن 2: النفي، وهو خطأ لا يناسب المعنى.
(3) في ن 3: من، وهو خطأ.
(4) في ن 2: بلن، والصحيح بلا.
(5) سورة البقرة: آية 120.
(6) سورة البقرة: آية 145.
(7) سورة الرعد: آية 36.

للسائل أن يسأل عما اختلف في هذه الآي مع اتفاقها في مطالعها ومعناها؟ والجواب عن ذلك، والله أعلم بما أراد: (ان)[1] الوارد في سورة الرعد لم يتقدم قبله من مرتكبات أهل الكتاب في كفرهم وعنادهم مثل ما تقدم قبل الآية الأولى من سورة البقرة، ألا ترى أنه لم يذكر قبل آية الرعد من أمرهم في ذلك مفصحاً به الا قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾[2] على قول من قال[3] ان المراد بالأحزاب هنا أهل الكتاب، وهذا بعد مدحه من آمن منهم بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾[4] وهم: عبد الله بن سلام[5]، رضي الله عنه، وأمثاله ممن آمن (منهم)[6]، ثم اتبع بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾[7]، يريد ــ والله أعلم ــ ومن أحزابهم على من قال ذلك كما تقدم، فلما لم يتقدم بسط ذكرهم وأوجز الكلام واكتفي بالإيماء ناسبه إيجاز التحذير[8] من حالهم فقال تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾[9]، فجيء بما

---

(1) سقط من ن 3.
(2) سورة الرعد: آية 36.
(3) قال بذلك الزمخشري مثلاً: الكشاف 533/2.
(4) سورة الرعد: آية 36.
(5) هو عبد الله بن سلام الصحابي المعروف (ت 43هـ/ 663م).
أنظر: الاعلام 122/4؛ صفة الصفوة 301/1.
(6) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(7) سورة الرعد: آية 36.
(8) في ن 1، ن 4: التحديد، خطأ يخل بالمعنى، وفي ن 2: التجديد، وهو غير مناسب أيضاً.
(9) سورة الرعد: آية 37.

وهي أوجز من الذي لفظا[1] ما لم يقترن بها ما يقتضي التوسعة في معناها حسبما يتبين بعد، وقيل: «ولا واق» وذلك أوجز من قوله في آية البقرة: ﴿ولا نصير﴾ لفظاً ومعنى فورد هذا كله موجزاً ليناسب ما قبله، ولما تقدم قبل الآية الأولى من سورة البقرة عدة آيات في بسط أحوالهم وقبيح مرتكباتهم ولقرب[2] ذلك إلى الآية المقصودة[3] تَوجّب[4] الوارد فيها قوله تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ [5] إلى قوله: ﴿يُوقِنُونَ﴾، ثم عرف من حال أهل الكتابين وبعدهم عن الإيمان بقوله: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [6]، فبعد هذا الاطناب في وصفهم قال تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ ٱلَّذِي جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [7] وهذا مناسب لما قبله من الإطناب لفظاً، كما أن آية الرعد مناسبة لما قبلها لإيجاز لفظ ما فإنها على حرفين وأما الذي فعلى خمسة أحرف، ثم ان معنى نصير أوسع من حيث أن فعيلاً من أبنية المبالغة فيعطي كثرة وفاعل ليس كذلك، ثم أن لفظ واق أوجز، فقد تبين فرقان ما بينهما، وناسب الإسهاب الإسهاب والإيجاز الإيجاز.

---

(1) في ن 4: أوجز لفظاً من الذي.

(2) سقط من ن 4، ومكانه بياض.

(3) في ن 1، ن 2، ن 3: المقصود.

(4) في ن 3: يوجبه، وذلك مخل بالمعنى المراد، في ن 4: وجب، وهو بدوره بعيد عن المعنى المراد.

(5) سورة البقرة: آية 113.

(6) سورة البقرة: آية 120.

(7) سورة البقرة: آية 120.

ولما ذكر بعد هذه الآية من مرتكبات أهل الكتاب وعنادهم ما بسطته الآي بعد وجاء قوله بعد: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾[1] بعد إطناب زائد وتعريف بأكثر مما تقدم وردت الآية المتكررة مراعى فيها ذلك فجيء فيها بمن التي للغاية أو لابتدائها والمقصود أوفى وأمعن، وجيء بما عوضا من الذي لأنها هنا بسياقها بعد من كيف ما قدرتها من موصولية أو موصوفية تعطي الاستيفاء وتقتضيه فروعي هنا[2] معناها وروعي فيما[3] تقدم لفظها، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ ٱلظَّالِمِينَ﴾[4] يتضمن من أشد مما[5] يتضمن نفي الولي والواقي والنصير، ألا ترى قوله سبحانه: ﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾[6]. فقد انتفى هنا الولي والنصير مع زيادة الوصف بالظلم، وليس نفي الظلم حاصلاً من انتفاء الولاية والنصرة حصوله بالذكر والتنصيص فهذه الآية أبلغ من الآيتين فناسب ذلك زيادة الإطناب فيما قبلها، ولشدة موقعها قدم الله لنبيه صلى الله عليه وسلم تنزيهه عن اتباع أهوائهم فقال: ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾[7]، فقد وضح افتراق المقاصد في إفراد هذه الآي على الأنحاء الثلاثة.

---

(1) سورة البقرة: آية 145.
(2) في ن 1، ن 2: في، والصحيح هنا ويؤكده ما ورد بعد، وروعي فيما تقدم. . .
(3) في ن 1، ن 2، ن 4: فيها، وهو خطأ مخل بالمعنى.
(4) سورة البقرة: آية 145.
(5) في ن 4: ما، وما ورد في بقية النسخ ألصق بالمعنى المقصود.
(6) سورة الشورى: آية 8.
(7) سورة البقرة: آية 145.

ويحتمل ذلك توجيهاً آخر ان ثبت أن آية الرعد من المكي[1] وذلك أن[2] المنزل بعد المكي زاده صلى الله عليه وسلم في علم أحكام شريعته وغير ذلك مما لم يكن عنده، فترتيب الآي الثلاث بحسب الحاصل عنده صلى الله عليه وسلم، فكانت آية الرعد أوجزها مناسبة للحاصل قبل نزول سورة البقرة ثم كانت آية البقرة الأولى أبلغ في الإسهاب لما زاد بعد تلك الآية ثم كانت الآية الثانية أبلغ في ذلك لما زاد أيضاً، ويمكن التقاء[3] التوجيهين وربنا أعلم بما أراد.

الآية الحادية والعشرون: غ ــ قوله تعالى: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[4] وفي سورة الحج: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[5]. للسائل أن يسأل عن تخصيص سورة البقرة بقوله: ﴿والعاكفين﴾ وتخصيص سورة الحج بقوله: ﴿والقائمين﴾ مع اتحاد الأمر بتطهير البيت لمن ذكر في الموضعين.

والجواب عن ذلك ــ والله أعلم ــ ان المراد بالقائمين هنا ذوو الإقامة والملازمة على صفة مخصوصة، وإذا أريد بالقائمين (هذا)[6]

---

(1) اختلف العلماء في سورة الرعد، ذهب الجمهور إلى أنها مدنية واختلفوا في الآيتين 31 و 43 منها، وقال الأصم: هي مدنية بالإجماع سوى قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾.

(2) في ن 4: لأن.

(3) في ن 4 غير واضحة.

(4) سورة البقرة: آية 125.

(5) سورة الحج: آية 26.

(6) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.

(فهو)[1] والعكوف مما يصح أن يعبر بأحدهما[2] عن الآخر مع ان لفظ العكوف أخص بالمقصود، فيكون خصوص آية الحج بقوله: ﴿والقائمين﴾ لتقدم ذكر العكوف في قوله قبل الآية: ﴿سَوَاءً ٱلْعَاكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾[3]، فلما تقدم ذكر العكوف متصلاً بالآية وقع الاكتفاء بذلك وعدل عن التكرار الذي من شأن العرب العدول عنه الا حيث يراد تعظيم أو تهويل نحو قوله تعالى: ﴿ٱلْحَاقَّةُ مَا ٱلْحَاقَّةُ﴾[4] وشبه (ذلك)[5]. ولما لم يقع ذكر العكوف قبل آية البقرة ولا بعدها ـ وهو مراد لكونه أخص بالمقصود ـ لم يكن بد من الإفصاح، وكأن قد قيل في آية الحج: والقائمين معتكفين فأغنى ذكرهم متقدماً عن الإتيان به حالاً مبينة، وأغنى قوله في آية البقرة: «والعاكفين» عن قوله: «القائمين» لأن العكوف الملازمة وهو المراد بالقيام، فورد كل على ما يجب ويناسب، وقوله: «والركع والسجود» يراد به المصلون، ومن قال ان المراد بقوله: «والقائمين» المصلون فوجهه أن ذكر العكوف قد حصل فيما تقدم فأكتفي به[6] ولم يكن وقع قبل آية البقرة ولا بعدها فلم يكن بد من ذكره. وعبر عن المصلين بالركع السجود، وتحصل أنه المقصود في الآيتين، ووردتا على ما يجب ويلائم، والله أعلم (بما أراد)[7].

---

(1) سقط من ن 3.
(2) في ن 1، ن 2، ن 4: يعبر عنه بأحدهما ولا محل لـ عنه هنا.
(3) سورة الحج: آية 25.
(4) سورة الحاقة: آية 1.
(5) سقط من ن 4.
(6) في ن 1، ن 2، ن 3: فاكتفى فيه، والأنسب ما ورد في ن 4: فاكتفى به.
(7) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.

الآية الثانية والعشرون: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَداً آمِناً﴾ [1] وفي سورة إبراهيم: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ آمِناً﴾ [2]، فنكر في سورة البقرة وعرف في سورة إبراهيم بأداة العهد، فيسأل عن ذلك. ووجهه ـ والله أعلم ـ أن آسم الإشارة الذي هو هذا في سورة البقرة لم يقصد تبعيته اكتفاء بالواقع قبله من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً﴾[3]، وقوله: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَٱلْعَاكِفِينَ... الآية﴾[4] وتعريف البيت حاصل منه تعريف البلد لا سيما بما تقدم من قول إبراهيم عند نزوله بولده بحرم الله ودعائه أولاً بقوله ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ... الآية﴾[5]، فتعريف البيت تعريف للبلد، فورد إسم الإشارة غير مفتقر إلى التابع المبين جنسه[6] كالجاري في أسماء الإشارة اكتفاء بما تقدمه مما يحصل منه مقصود البيان، فانتصب بلداً مفعولاً ثانياً وآمناً نعتاً له وآسم الإشارة مفعولاً أول غير محتاج إلى تابع لقيام ما تقدم[7] مقامه، ولو تعرف لفظ بلد بالألف واللام وجرى على إسم الإشارة لم يكن ليحرز بياناً زائداً على ما تحصل مما تقدم بل كان يكون كالتكرار. فورد الكلام على ما هو أحرز للإيجاز وأبلغ في المقصود مع حصول ما كانت التبعية تعطيه، فجاء على ما يجب.

---

(1) سورة البقرة: آية 126.
(2) سورة إبراهيم: آية 35.
(3) سورة البقرة: آية 135.
(4) سورة البقرة: آية 125.
(5) سورة إبراهيم: آية 37.
(6) في ن 4: حينئذ، وهو خطأ لا يستقيم به المعنى.
(7) في ن 1، ن 2، ن 4: ما يقوم، خطأ مخل بالمعنى المراد.

وأما آية سورة إبراهيم فلم يتقدم فيها ما يقوم لإسم الإشارة مقام التابع المعرف بجنس ما يشار إليه فلم يكن بد من إجراء البلد عليه تابعاً له بالألف واللام على المعهود الجاري في أسماء الإشارة من تعيين جنس المشار إليه بإسم جامد في الغالب عطف بيان على قول الخليل. أو نعتاً على الظاهر من كلام سيبويه[1]، وانتصب إسم الإشارة المتبع على أنه مفعول أول «وآمناً»[2] على أنه مفعول ثانٍ، ولم يكن عكس الوارد ليحسن[3] ولا ليناسب، وقيل في الوارد في سورة البقرة أنه أشار إليه قبل استقراره بلداً فأراد آجعل[4] هذا الموضع أو هذا المكان بلداً آمناً، واكتفى عن ذكر الموضع بالإشارة إليه، وآسم الإشارة على هذا مفعول أول «وبلداً» مفعول ثان «وآمنا» نعت له، وأشار إليه في سورة إبراهيم بعد استقراره بلداً فجرى البلد على آسم الإشارة نعتاً له وآمنا مفعول ثان، قاله صاحب كتاب الدرة[5]: وهو عندي بعيد إذ ليس بمفهوم من لفظ الآي وهو بعد ممكن، والله أعلم.

الآية الثالثة والعشرون: غ ـ قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُم يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾[6] وفي آل عمران: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[7] وفي الجمعة:

---

(1) الكتاب، ج 1، ص 260.
(2) في ن 3: وأما، وهو خطأ بين.
(3) في ن 4: يحسن.
(4) في ن 4: جعل، وهو خطأ بين.
(5) درة التنزيل، للخطيب الاسكافي، ص 23-24.
(6) سورة البقرة: آية 129.
(7) سورة آل عمران: آية 161.

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[1]، فقدم في الأولى: «ويعلمهم الكتاب والحكمة» وأخر «ويزكيهم». وورد في السورتين بعد على العكس من ذلك. فللسائل أن يسأل عن وجه ذلك.

والجواب عنه ــ والله أعلم ــ انه لما كانت دعوة إبراهيم، عليه السلام، قبل وجود الضلال في الذرية المدعو لها وإنما تحصل[2] لهم تزكيتهم ورفع ضلالهم المتوقع وقوعه بما يمنحونه من[3] التعليم وما يتلى عليهم من الآيات لأن ذلك هو السبب في حصول التزكية والسلامة من الضلال إذا وفقوا للانقياد له، ألا ترى أن ارتباط التزكية بأعمال الطاعات، قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾[4]، وإنما كانت تزكية لهم بانقيادهم للطاعة فيما يطالبهم[5] به من ذلك ويأخذه منهم، فتأخر ذكر التزكية المسببة عما به تحصل وذلك بعد هدايتهم للإيمان، فجاء على الترتيب من بناء المسبب على سببه. ولما كان مقصود الآيتين الأخيرتين إنما هو ذكر الامتنان عليهم بهدايتهم بعد الضلال الذي كان قد وجد منهم والتعريف بإجابة دعوة إبراهيم، عليه السلام، أخر ذكر تعليمهم الكتاب والحكمة المزيلين لضلالهم ليكون تلوه ذكر الضلال الذي أنقذهم الله منه بما علمهم وأعطاهم وأمتن عليهم وهو ثاني المسببين، فكان الكلام في قوة أن لو قيل: ويعلمهم

---

(1) سورة الجمعة: آية 2.

(2) في ن 4: يحصل، وهو فصيح أيضاً لوجود الفصل.

(3) في ن 4: في، ومن ألصق بالمعنى المراد.

(4) سورة التوبة: آية 103.

(5) في ن 4: يطلبهم.

ما به زوال ضلالهم[1]، وآخر في هاتين الآيتين ذكر السبب ليوصل بمسببه[2] الأكيد[3] هنا الذي كان قد وقع وهو رفع ضلالهم من عظيم محنته، ولو أخر ذكر التزكية لما أحرز هذا المعنى المقصود هنا، فاختلاف الترتيب إنما هو بحسب اختلاف المقصدين ورعي[4] ما ذكر، فورد كل على ما يجب ويناسب، والله أعلم بما أراد.

الآية الرابعة والعشرون: قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[6]. للسائل أن يسأل عن وجه تكرر هذه الآية بنصها فيما بعد[6]؟ ووجه ذلك ـ والله أعلم ـ انهم (لما)[7] تعلقوا بأسلافهم ممن كان على سنن إبراهيم وإسماعيل ومن كان فيهم من الأنبياء، عليهم السلام، وظنوا أن تعلقهم بهم نافع لهم قيل لهم لن[8] ينفعكم الا عملكم وأما التعلق بأولئك من غير اقتداء بهم ولا اهتداء بهديهم فليس بنافع بل لهم أعمالهم ولكم عملكم[9]: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾... الآية. ثم لما قرروا على ما يعتقدونه فيهم وقيل لهم: أتقولون إنهم كانوا على كذا، ليسوا على

---

(1) في ن 3: اضلالهم، وهو غير مناسب ويؤكد ذلك ما ورد قبل في قوله: ﴿المزيلين لضلالهم﴾.

(2) في ن 4: لوصل مسببه وبه يختل المعنى المراد.

(3) في ن 4: الأكد، ويبدو أنه خطأ في الرسم.

(4) في ن 4: فروعي، ورعى أنسب لعطفه على اختلاف.

(5) سورة البقرة: آية 134.

(6) سورة البقرة: آية 141.

(7) سقط من ن 3.

(8) في ن 4: ان، وهو خطأ مخل بالمعنى.

(9) في ن 3: أعمالكم والافراد أولى لما تقدم من استعمال الافراد.

ما ظننتم، أأنتم أعلم أم الله؟ فهل أظلم منكم إذ قد علمتم تحريفكم واجترامكم؟ وبعد هذا فكل مطلوب بنفسه وما اجترحه: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾. . . الآية. فتكريرها [1] لتنوع ما نص عليه من مرتكباتهم الدائرة على جامع واحد من تخيل التعلق بهم [2] مع مخالفتهم فيما كانوا عليه، وسنزيد هذا بياناً ان شاء الله.

الآية الخامسة والعشرون: قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [3] وفي سورة آل عمران: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [4].

في هذا ثلاثة سؤالات: قوله: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ وفي الثانية: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾، وقوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ وما عدي بعده بإلى، وفي الثانية: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ وما عدي بعده بعلى، الثالث قوله: ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾، وفي الثانية: ﴿وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾.

والجواب عن الأول: (إن) [5] قوله تعالى: «قولوا»، أمر لجميع المخاطبين المقصودين بهذا [6]، وأما قوله: «قل» فأمر للنبي، عليه

---

(1) في ن 4: فتكرر هذا وهو أيضاً مناسب.
(2) في ن 1، ن 2، ن 4: من تعلق التخيل بهم، وهو خطأ.
(3) سورة البقرة: آية 136.
(4) سورة آل عمران: آية 84.
(5) سقط من ن 4.
(6) في ن 1، ن 2، ن 4: بها.

السلام، فلحق ضمير الجمع[1] أولاً لخطابهم ولم يلحق ضمير في الثاني لإفراد الخطاب، وضمير الواحد لا يبرز.

والجواب عن الثاني: إن قوله في البقرة: ﴿وما أنزل إلينا﴾، لما قيل قبله: «قولوا». وهو أمر للرسول ومن اتبعه على التشريك كالوارد في قوله: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾[2]، ثم قال: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾[3] فشرك بينهم، وأخبر سبحانه أن الجميع قالوا ذلك، وكذا أمر هنا جميعهم فقال: «قولوا». وإذا كان الأمر للجميع وجرى على حقيقته فإنما أنزل إليهم لأن المنزل عليه حقيقة هو الرسول لا المؤمنون، وإذا قلنا أنزل على المؤمنين فمجاز، كما أنا إذا قلنا أنزل إلى الرسول لم يقع موقع أنزل عليه وإن كان كل منهما جائزاً، إلا أنا إذا أخذنا الكلام على أن لا تضمين ولا تقدير فإنما نقول: أنزل على الرسول، وأنزل إلى المؤمنين، مع فصاحة أنزل إلى[4] الرسول وروده في القرآن. فلما قال في سورة البقرة: «قولوا» وأمر الجميع ناسبه إلينا كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾[5]. حين خوطب الجميع، ولما قال في آل عمران: «قل» وكان[6] الخطاب للرسول ناسبه: علينا لأنه أنزل عليه، فجاء كل على ما يجب.

---

(1) في ن 3: الجميع.
(2) سورة البقرة: آية 285.
(3) سورة البقرة: آية 285.
(4) في ن 1، ن 2، ن 4: على، ولا تصح على وإلا أدى إلى التكرار وفسد المعنى.
(5) سورة العنكبوت: آية 46.
(6) في ن 3: فكان، ولا داعي هنا للفاء.

والجواب عن السؤال الثالث: أي زيادة قوله في البقرة: ﴿وَمَا أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾[1] وسقوط ذلك في السورة الأخرى، ووجه ذلك أن الأمر في البقرة لما كان للرسل وللمؤمنين ناسبه تأكيد ذكر الإنزال على النبيئين، لأن المؤمنين لا يفرقون بين أحد منهم وقد فرق غيرهم، فناسب حالهم (وسجل)[2] إيمانهم بالجميع تأكيد مقالهم وتثبيت اعتقادهم فقالوا: ﴿وَمَا أُوتِيَ النَبِيئُونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾. ولما كان توجه الأمر في السورة الأخرى ببادي الخطاب من قوله: «قل» خاصاً به وبعد ذلك وقع التعميم ناسبه[3] عدم التأكيد لتنزه الرسول، عليه السلام، حالاً ومقاماً عن التفريق بين أحد من الرسل.

الآية السادسة والعشرون: قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾[4]، وقال بعد: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾[5]. للسائل أن يسأل عن الوجه في ما تكرر في هذه الآيات من الأمر بالتولي وهل ذلك لحامل من المعنى أم لا ؟

---

(1) سورة البقرة: آية 136.
(2) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(3) في ن 4: ناسب.
(4) سورة البقرة: آية 144.
(5) سورة البقرة: آية 149-150.

والجواب عن ذلك، والله أعلم: إن كل قضية تكليفية إذا كانت مما يتأكد فإنها ترد ملحوظة الجهات[1]، منبهاً على ما يحرز[2] مطلوبها على الكمال، مدفوعاً عنها ـ وإن ضعفت ـ طوارق الاحتمال، اعتناء منه سبحانه بهذه الأمة لتحصيل سلامتها من الأمر المحمول على من قبلها. ألا ترى أن بني إسرائيل إنما لحقهم الامتحان في أمر البقرة من جهة الإطلاق في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾[3] فورد الأمر مطلقاً مع ما جبلت عليه نفوسهم من التثاقل في تلقي الطاعات من المأمورات فتابعوا لتحرير المطلوب وشددوا فشدد عليهم، وهذا مما حفظت منه[4] هذه الأمة. ألا ترى قوله تعالى في فرضية الصيام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّـذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ... الآيات﴾[5] كيف حدد بشهر، وعين بالتسمية، وبين وقت الإمساك بضبط طرفيه، وبين لهم حال المرض وحال السفر، وأمروا بتكميل العدة على ما أوضح الشرع، إلى غير ذلك مما يحصل به على المطلوب فيرفع حكم الإطلاق الداخل منه الاختلاف للاحتمال[6]، وكل هذا أو أكثره قبل أن يسألوا، وكذا جرى في أمر القبلة عند التحويل. فقوله تعالى في أول الأمر بالتوجه قبل البيت: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ

---

(1) في ن 4: للجهات، ولا يتناسب ذلك مع السياق.
(2) في ن 1، ن 2، ن 4: يحوز، والصحيح يحرز.
(3) سورة البقرة: آية 67.
(4) في ن 3: فيه، وهو خطأ مخل بالمعنى.
(5) سورة البقرة: آية 183.
(6) في ن 1، ن 2، ن 4: بالاحتمال.

﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[1] وإن كان قد تقيد بالأداة المعينة للجهة فإن فيه احتمالاً أن يكون خاصاً به صلى الله عليه وسلم أو عاماً له ولأمته.

فإن قيل قد علم من قبله صلى الله عليه وسلم أن حكمه على الواحد حكم على الجميع، وأن الخطاب له خطاب له ولأمته وذلك كله ما لم يرد تخصيص. فجوابنا عن هذا (أن)[2] الكلام في هذه الآية[3] ليس خاصاً بمن سلم بالقواعد المستقرات من الكتاب والسنة وإنما كلامنا معتمد فيه القطع بذوي الزيغ والارتياب ممن يتعلق بما تشابه منه طعناً في الدين واتباعاً لسبيل الملحدين، وشأن هؤلاء التعلق بأدنى احتمال من غير تسليم لما وراء ذلك. وعلى هذا نقول: إن قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، ثم أتبع بقوله: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾. أمر يدفع احتمال خصوصه صلى الله عليه وسلم دون أمته بالأمر بالتولي، ثم تحصل مع هذا من قوله: ﴿وحيث ما كنتم﴾ أن ذلك لا يختص بمكان دون مكان، ثم يبقى[4] احتمال نذكره وما يزيله بعد.

وأما قوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾[5] فإعلام له صلى الله عليه وسلم بتسوية حالي[6] الظعن والإقامة، وإنه خرج عن المدينة مسافراً فحاله حيث توجه كحاله في

---

(1) سورة البقرة: آية 144.
(2) سقط من ن 3.
(3) في ن 3: الآيات، والصحيح الافراد.
(4) في ن 4: تبقى.
(5) سورة البقرة: آية 149.
(6) في ن 4: حالتي، وهو مناسب أيضاً.

المدينة مقيماً، ولم يكن هذا ليحصل نصاً لا احتمال فيه مما تقدم من الأمر، فقد حصل من هذا ما لم يحصل نصاً مما تقدم.

وقوله بعد: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [1] هذا مما كرر لا لمجرد التوكيد[2] وإن كانت القصة لها تعلق بيهود[3] وإنكارهم التحويل، فالتأكيد يلائم ولكن ذكر ليحصل منه التوكيد وبناء ما بعده عليه: (من قوله: ﴿وَحَيْثُ (مَا كُنْتُمْ)[4] فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾، والمراد بهذا وحيث)[5] ما كنتم من البلاد والمواضع التي خرجتم إليها حيث كانت من الأرض كلها. فإن قيل أن هذا قد تقدم حيث ذكر هذا اللفظ بعينه الذي هو: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾. فالجواب أن ذلك محتمل أن يراد به وحيث ما كنتم من نواحي المدينة وما يرجع إليها إذ لم يتقدم ذكر الخروج عنها كما تقدم هنا، فارتفع بهذا التكرار ذلك الاحتمال المتقدم مع انجرار التوكيد. فإن قيل: فقد تكرر قوله أخيراً: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ قلت: لما أعقب قوله أولاً: ﴿ومن حيث خرجت فَوَلِّ وجهكَ شطر المسجد الحرام﴾ بقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[6] وجاءت[7] هذه الآية بين آية الأمر من قوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ وبين ما شأنه أن يكون مبنياً عليها من قوله:

---

(1) سورة البقرة: آية 150.

(2) في ن 4: التولية، وهذا منافر للمعنى.

(3) في ن 4: ليهود، والباء هنا أنسب.

(4) سقط من ن 3.

(5) ما بين القوسين بهامش ن 3.

(6) في ن 4: «يعملون»، وفي قراءة أبي عمرو وقرأ الباقون بالتاء.

(7) في ن 3: حالت، وهو خطأ.

﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾، فلما تباعد عنها كرر توكيداً ولينبني عليه ما ينبغي اتصاله به، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ﴾ [1] فأعيدت «أَنَّكُمْ» تأكيداً[2] ولينبني عليه الخبر، وكذا أعيد قوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾. لينبني عليه: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾. وبهذا اللحظ لم يتكرر شيء من الآية لمجرد توكيد، بل كل مما يظن تكراراً مفيد معنى لم يحصل محرزاً مما قبله، ووضح التناسب في ذلك كله، والله أعلم.

الآية السابعة والعشرون: غ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[3]. وفي سورة العنكبوت: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[4]. وفي سورة الجاثية: ﴿وَٱخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[5].

للسائل أن يسأل عن وجه اختصاص آية العنكبوت بمن دون الأخريين وعن قوله في سورة الجاثية: ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ

---

(1) سورة المؤمنين: آية 35.
(2) في ن 3: توكيداً.
(3) سورة البقرة: آية 164.
(4) سورة العنكبوت: آية 63.
(5) سورة الجاثية: آية 5.

رِزْقٍ﴾ فسمي الماء النازل من السماء رزقاً بخلاف ما في آيتي البقرة والعنكبوت.

والجواب عن الأول: أن زيادة «من» في قوله في العنكبوت: ﴿من بعد موتها﴾. زيادة بيان وتأكيد نوسب به ما تقدم من قوله: ﴿من نزل﴾، فإن بنية فعل للمبالغة والتكثير وذلك مما يستجر البيان والتأكيد فنوسب بينهما، ولما لم يقع في الآيتين الأخريين إلا لفظ «أنزل»، ولا مبالغة فيها ولا تأكيد ولا انجر في الكلام ما يعطيه، لم يكن فيهما ما يستدعي زيادة «من» ليناسب بها فلم تقع [1] في الآيتين، ولو قدر ورود عكس الواقع بزيادة «من» في آيتي البقرة والجاثية وسقوطها في آية العنكبوت لما ناسب ذلك أصلاً، فوضح تناسب الوارد وامتناع خلافه.

والجواب عن (السؤال)[2] **الثاني**: إن آية الجاثية لما تأخرت في الترتيب الذي استقر عليه القرآن كانت مظنة لبيان أنما الرزق عن الماء، قال تعالى: ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ رِزْقاً لِلْعِبَادِ﴾[4]، فقال في سورة الجاثية: ﴿من رزق﴾[5] تسمية للماء بما عنه يتسبب، وتكون مبالغة في بيان ما تقدم كما قال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[6].

---

(1) في ن 4: يقع، وهو خطأ إذ أن الضمير يعود على من.
(2) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(3) سورة النمل: آية 11.
(4) سورة ق: آية 9.
(5) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(6) سورة الذاريات: آية 22.

الآية الثامنة والعشرون: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾[1]، وفي سورة لقمان: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾[2]. فللسائل أن يسأل عن الفرق، ووجه اختصاص كل من الموضعين بالواو فيه؟

والجواب: أنه يقال ألفى بمعنى وجد التي في قولهم: وجدت الضالة فتتعدى إلى واحد، ولا يقال ألفى بمعنى وجد التي بمعنى علم متعدياً إلى اثنين. وما[3] يقع منتصباً بعد مفعوله في مثل قولك: ألفيت زيداً عالماً فإنما انتصابه على الحال بدليل أنه لا يوجد إلا نكرة. فوجد لفظ مشترك يقال بمعنى العلم وبمعنى العثور على الشيء (و)[4] الذي هو الوجدان، تقول من هذا: وجدت الضالة أي عثرت عليها. وإذا تقرر هذا فنقول[5]: إنه قد تقدم قبل آية البقرة قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ[6] كُلُوا مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ﴾[7]، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ[8] بِٱلسُّوءِ وَٱلْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا[9] عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[10]، وخطوات الشيطان وأمره أهواء مضلة، وذلك كله في

---

(1) سورة البقرة: آية 170.
(2) سورة لقمان: آية 21.
(3) في ن 1، ن 2، ن 4: لا، والصحيح ما بمعنى الذي.
(4) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(5) في ن 4: فأقول.
(6) في ن 1، ن 2، ن 4: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾، وهو خطأ.
(7) سورة البقرة: آية 168.
(8) في ن 3: يأمر، وهو خطأ.
(9) في ن 3: تقوا، وهو خطأ.
(10) سورة البقرة: آية 169.

طرف نقيض من مقتضى العلم، وحصل من هذا أن الشيطان هو الذي يأمرهم ويدعوهم إلى أن يقولوا على الله ما لا يعلمون، فحصل من هذا أنه لا علم عندهم و(لا)[1] توهم علم، وإنهم اعتمدوا اتباع آبائهم فيما يأمر به الشيطان، فناسب هذا قولهم: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ لأن ما ألفوا عليه آباءهم وجدان لا علم معه حاصلاً ولا متوهماً، فناسب جوابهم ما عليه حالهم وما هم عليه ولما تقدم في سورة لقمان قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾[2] فحصل ذكر «عِلْمٍ» وإن كان منفياً، ولأن جدالهم ينبىء أنهم توهموا أن ذلك علم وأنهم على شيء، فقد حصل من مجادلتهم أنهم يظنون أنهم على علم كما قال تعالى: ﴿يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ﴾[3]، ولا يجادل إلا متعلق بشبهة يظن أنها علم، فناسبه قوله تعالى مخبراً عنهم: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾[4] لاشتراك لفظ وجد إذ[5] يكون بمعنى العلم.

وجواب ثان: هو أن ألفى أكثر حروفاً من وجد فناسب لفظ ألفى طول آية البقرة وناسب لفظ وجد إيجاز آية لقمان مراعاة لفظية ملحوظة في البلاغة فحصل التناسب في اللفظ والمعنى، والله أعلم (بما أراد)[6].

---

(1) سقط من ن 3.
(2) سورة لقمان: آية 20.
(3) سورة المجادلة: آية 18.
(4) سورة لقمان: آية 21.
(5) في ن 4: ان، وهو خطأ لا يستقيم به المعنى.
(6) سقط من ن 4.

الآية التاسعة والعشرون: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1]، وجاء في ثلاثة مواضع: ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِ﴾ أولها في سورة المائدة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ (ٱلْخِنْزِيرِ)[2] وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِ﴾[3]، والثاني في سورة الأنعام: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِ﴾[4]، والثالث في سورة النحل: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ ٱللَّهُ حَلَالاً طَيِّباً وَٱشْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ، إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِ﴾[5].

يتعلق بهذه الآي الأربع خمسة سؤالات: أحدها تقديم المجرور الذي هو (به)[6] في سورة البقرة وتأخيره فيما سواها، الثاني تخصيص آية البقرة بقوله: ﴿فلا إثم عليه﴾، الثالث: تخصيص آية الأنعام بقوله: ﴿فإن ربك غفور رحيم﴾، الرابع: زيادة ما زيد في آية المائدة من المحرمات، الخامس: تخصيص آية المائدة بقوله: ﴿فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لأثم﴾.

---

(1) سورة البقرة: آية 172-173.
(2) سقط من ن 3.
(3) سورة المائدة: آية 3.
(4) سورة الأنعام: آية 145.
(5) سورة النحل: آية 115.
(6) سقط من ن 4.

والجواب عن الأول: أن العرب مهما اعتنت بشيء أو قصدت به قصد زيادة من تأكيد أو تشريف قدمته أو قدمت ضميره، وليس من كلامهم إجراء هذه الأغراض مجرى غيرها فلكل مقام مقال، ألا ترى قول قائلهم: إياك أعني، وقول مجاوبه: وعنك أعرض، وأنشد سيبويه، رحمه الله[1]:

لتقــربن قــربــاً جلذيــاً　　مـا دام فيهن فصيل[2] حيـاً[3]

فتقديم فيهن يحرز معنى لا يحرزه التأخير[4]، وقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[5]، وبسط هذا في مظانه، وقال تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾[6]، وقال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[7]، وهو كثير في المضمرات والظروف والمجرورات، ومن نحوه قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾[8]، وقوله تعالى: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾[9]، ولكون هذا في صلة الموصول تكلف بعض النحويين في تعلقه تقدير اسم فاعل يفسره ما بعد الموصول وإذا حقق رجع إلى الأول، قال

---

(1) الكتاب، ج 1، ص 38.

(2) في ن 1، ن 2، ن 3: فصيلاً، والصحيح فصيل، وكذا في الكتاب، ج 1، ص 38.

(3) البيت لابن ميادة الرماح بن أبرد، (البحر الرجز).

(4) استشهد به سيبويه على تقديم فيهن على فصيل وجعله لغواً مع التقديم ومسوغ ذلك أنك لو حذفت انقلب المعنى إلى معنى آخر، وهو الأبد فلما لم تتم الفائدة إلا به حسن تقديمه لمضارعته الخبر في الفائدة.

(5) سورة الإخلاص: آية 4.

(6) سورة يونس: آية 58.

(7) سورة الفاتحة: آية 5.

(8) سورة يوسف: آية 20.

(9) سورة الشعراء: آية 168.

سيبويه، رحمه الله: كأنهم يقدمون الذي هو أهم (لهم) [1] وهم ببيانه أعنى [2] . وآية البقرة قد تقدم قبلها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ [3] كُلُوا مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [4]، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾[5]، فورد تعريفهم بذكر ما أبيح لهم، وورد[6] ما يقصد إيجابه وندبيته[7] وإن كان إنما يراد به هنا الإباحة مفتتحاً بنداء المخاطبين ومعقباً فيه ما أعلموا بإباحته لهم بالأمر بالشكر لجليل تلك النعمة وعظيم التوسعة فيها من قوله: ﴿مما في الأرض﴾ وقوله: ﴿من طيبات ما رزقناكم﴾ فلتوسعة الإحسان والأنعام ما أمروا بالشكر. فلما تحصل بهذه المقاصد الجليلة ما ليس في شيء من تلك المواضع والآيات الأخر وخص ما ذكره بعد بما حرم عليهم بكلمة «إنما» المقتضية الحصر والرافعة لضعف المفهوم حسب ما تقرر من الأصول إذ ليس قوله: ﴿إنما الولاء لمن أعتق﴾[8] مثل قوله: ﴿فيما سقت السماء العشر﴾[9]، ﴿وفي سائمة الغنم الزكاة﴾[10]في قوة المفهوم المسمى بدليل الخطاب، فلما تحصل في هذه الآية ما أشير إليه من تأكيد هذا المحرم ما ليس في الآي الأخر ناسبه تقديم المضمر المجرور في قوله: ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ

---

(1) سقط من ن 4.
(2) الكتاب، ج 1، ص 24.
(3) في ن 4: يا أيها الذين آمنوا، وهو خطأ.
(4) سورة البقرة: آية 168.
(5) سورة البقرة: آية 172.
(6) في ن 1، ن 2: ورود، سقطت واو العطف في ن 4 وورد.
(7) في ن 1، ن 2، ن 4: وقد بينه وهذا منافر للمعنى المراد.
(8) البخاري: كفارات 8، مسلم: عتق 5-6.
(9) البخاري: زكاة 55، مسلم: زكاة 8.
(10) النسائي: زكاة 5-10.

ٱللَّهِ﴾[1] ليكون الكلام بتقديم[2] المجرور بقوة أن لو قيل: إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير والمهل به لغير الله، وهذا مقصود الكلام ولم يكن تأخير المجرور ليحرز هذا الذي قدرناه[3] ولا ليناسب ما تقدم[4] فجرى الكلام كله من أول القصة إلى آخرها على أسلوب من البلاغة ملحوظ في آخره وأوله. أما الآي الآخر فليس فيها ما في هذه فتأخر الضمير المجرور إلى محله الذي هو موضعه إذ لم يقصد هذا القصد ولم يكن ليلائمه التقديم. ولهذا المجموع وما جرى في الآية من الإطناب الجليل أعقب هذا الكلام بقوله: ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ ليناسب ما ذكر ووقع الاكتفاء في غيرها بما فيها كل ذلك على ما يناسب وهذا هو الجواب عن السؤال الثاني.

والجواب عن السؤال الثالث: إن الله سبحانه لما قدم في آية الأنعام زجر من قدم ذكره وتعنيفهم بقوله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّاكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[5]. أتبعه بقوله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾[6]، ثم قال: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ...﴾[7] وهذا التفات

---

(1) سورة البقرة: آية 172.

(2) في ن 3: تقديم، بسقوط حرف الجر، وسقوطه يخل بالمعنى.

(3) في ن 4: قدمناه.

(4) في ن 3: قدم.

(5) سورة الأنعام: آية 144.

(6) سورة الأنعام: آية 145.

(7) سورة الأنعام: آية 145.

لأن الجاري على لا أجد فيما أوحي إلي أن لو قيل: فإن ربي أو فإن الله، فعدل إلى الخطاب التفاتاً فقيل: ﴿فإن ربك﴾ لأن الكلام إذا تنوع حرك الخواطر إلى تفهمه، فقال تعالى: ﴿فإن ربك﴾، ومع قصد الالتفات لم يعدل فيه، عند تخصيص الخطاب لأنه موضع تعنيف وزجر لمن تقدم، فورد الالتفات باسم الربوبية مع الإضافة إلى ضمير خطابه صلى الله عليه وسلم ولم يقل: فإن الله وكان يكون فيه الالتفات لما قصد فيه من نحو الوارد في قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ ٱلْكَافِرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُمْ﴾[1]، وما ورد من مثله ليكون ذلك معرفاً بمكانته، عليه السلام، وتحكيماً[2] للإعراض عنهم وعدم التفاتهم وتناسب آخر الكلام وأوله.

والجواب عن (السؤال)[3] الرابع والخامس: أن آية المائدة من آخر ما نزل، فورد فيها استيفاء ما حكم سبحانه بتحريمه وإلحاقه بالميتة والدم ولحم الخنزير، وأعقب الكلام بقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾[4] تتميماً لبيان حال المضطر ومظنة الاضطرار زيادة على ما ورد في الآي الأخر ليرتفع ما عسى أن يكون باقياً فيها من إجمال أو إشكال ليجري مع قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ. . . الآية﴾[5].

---

(1) سورة محمد ـ القتال: آية 11.
(2) في ن 4: محكمًا.
(3) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(4) سورة المائدة: آية 3.
(5) سورة المائدة: آية 3.

الآية الموفية ثلاثين قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَاتِ وَٱلْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّاعِنُونَ﴾[1]، وبعد هذه الآية بأزيد من عشر آيات: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ ٱلنَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2]، وفي سورة آل عمران: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِإِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[3].

للسائل أن يسأل عن تخصيص آيتي البقرة بذكر الكتم بقوله في الآيتين معاً: ﴿إن الذين يكتمون﴾ وهؤلاء بالسابق من ظاهر الآية هم المذكورون في آية آل عمران ولم يذكر فيها الكتم، وعن الاختلاف الواقع فيما ذكر من الآي الثلاث من الوعيد (مع)[4] البادي من اتحاد مرتكبهم، وعن تخصيص كل موضع من هذه بما ورد فيه مرتكباً وجزاء، فهذه ثلاثة أسئلة.

والجواب عن الآيتين الأولين، والله أعلم أنه تقدم قبلهما في السورة نفسها قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَلْبِسُوا ٱلْحَقَّ بِٱلْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا ٱلْحَقَّ

---

(1) سورة البقرة: آية 159.

(2) سورة البقرة: آية 174.

(3) سورة آل عمران: آية 77.

(4) سقط من ن 4.

وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1]. فنهاهم سبحانه عن الكتم ولم يجر مع هذا النهي ذكر جزاء في هذه الآية بل تذكير ودعاء إلى ما به نجاتهم واستلطاف في الدعاء، ألا ترى أنه تعالى أمرهم بسلوك طريق المتقين قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ. . .﴾[2] إلى ما بعدها فتضمن من التلطف في الدعاء مع الايماء إلى مرتكباتهم والاضراب عما يستوجب فاعل ذلك ما يوضح للمعتبر عظيم رفقه سبحانه وجليل حلمه، فلما لم يجد ذلك عليهم وكتموا بعد أن حذروا عن الكتم وردت الآية بعد معرفة بجزاء من كتم بعد أن حذر فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَاتِ وَٱلْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلْكِتَابِ. . . الآية﴾[3]، فذكر حال الكاتمين وجزاءهم المترتب على فعلهم من استحقاق اللعن من الله سبحانه وممن ذكر من عباده، واللعن الطرد والابعاد، ثم إنه سبحانه تدارك من تاب منهم وأصلح وبين (بعد)[4] إن كان كتم، فلما بين في هذه الآية أمر هؤلاء أعقب في الأخرى، بعد ذكر[5] حال المتمادين على مرتكبهم من الكتم وما زادوا إلى ذلك من اشترائهم به ثمناً قليلاً وحظاً من دنياهم لا خطر له وذكر ما زيدوا في الجزاء من العقاب موازنة لزيادة المرتكب فقيل ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[6]، ولم يذكر لهؤلاء حال توبة

---

(1) سورة البقرة: آية 42.
(2) سورة البقرة: آية 43.
(3) سورة البقرة: آية 159.
(4) سقط من ن 3، ولا يستقيم المعنى بدونه.
(5) في ن 1، ن 2، ن 3: فذكر، ولا يستقيم به المعنى.
(6) سورة البقرة: آية 174.

إن تابوا لسوء[1] المُرتكب، وليس المراد أنهم لا توبة لهم، ولكن عدم ذكرها أوقع في الإغلاظ لما ذكر من سوء مرتكبهم ليجري مع قوله تعالى: ﴿ولا يزكيهم﴾، فإن التزكية تطهير من الاثم ومحوّله، وذلك هو الذي تثمره التوبة النصوح، فلم يكن ليلائم هنا ذكر التوبة، وليناسب بذلك أيضاً ما عرفت به الآية بعد من حالهم الاخراوي في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلضَّلَالَةَ بِٱلْهُدَى وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾[2]، فلما عرف بهذه الغاية من جزائهم لم يكن ليناسب ذلك ذكر التوبة.

ووجه الوارد في هذه الآية من قوله: ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾[3] وتخصيصها بهذا إنما هو لما تقدم من قوله تعالى: قبل هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً﴾[4] وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾[5]، فذكر تعالى لهؤلاء ما أحل لهم أكله وما حرم عليهم، فلما تقدم هذا أتبعه بإعلام هؤلاء الآكلين بالتحريف[6] والتبديل بخبث مأكلهم وشنيع مشتراهم، وأنه لو كشف عن أبصارهم لرأوا أنهم إنما يأكلون ناراً. وقيل: «في بطونهم» لأن الأكل كأنه ضمن معنى الجعل إذ النار في المعهود المعلوم لا تؤكل، فكأن قد قيل: إنما يجعلون بذلك المأكل الخبيث في بطونهم ناراً كما

---

(1) في ن 1، ن 2، ن 4: لحال، ولا يستقيم به المعنى.
(2) سورة البقرة: آية 175.
(3) سورة البقرة: آية 174.
(4) سورة البقرة: آية 168.
(5) سورة البقرة: آية 172.
(6) في ن 3: التخويف، ولا يناسب ذلك المعنى.

ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ مَالَ ٱلْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً﴾[1]، فالأكل مقصود ملفوظ به ودل عليه السياق. وقوله: «في بطونهم» على الجعل وكأنه من باب التضمين فدل اللفظ على ما وضع له من المعنى وعلى ما يعطيه من حيث ما يتم به المعنى ويعضده السياق. ومن هذا النحو من دلالة اللفظ على ما تحته من المعنى وعلى غيره من معناه مما به يتم المعنى ويحصل المقصود قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِالله ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾[2].

المعنى والله أعلم: وما فعلوا ذلك وما[3] يفعلونه إلا لإيمانهم، ألا ترى أنّ أن في قوله: «أن يؤمنوا» من حيث أن مقتضاها الاستقبال لا بد من تعلقها بفعل مناسب، ولا يتعلق بالماضي فلا بد من تقدير[4] فعل مستقبل يدل عليه الماضي الملفوظ به، فكأن قد قيل: ولا ينقمون إلا لأجل إيمانهم، وعلى هذا هو المعنى لأن المراد تماديهم على ذلك الفعل وبذلك يحصل ذمهم على مرتكبهم ومن نحو هذا قول الشاعر[5]:

ونـدمـان يـزيـد الكـأس طيبـاً سقيت إذا تغـورت النجـوم[6]

---

(1) سورة النساء: آية 10.

(2) سورة البروج: آية 8.

(3) في ن 1، ن 2، ن 3: لا، ولا تتناسب مع المعنى المراد.

(4) مكررة في ن 3.

(5) البرج بن مسهر الطائي (ت نحو 30ق.هـ/ 595م): هو البرج بن مسهر بن جلاس بن الارث الطائي، شاعر له أبيات في ديوان الحماسة لأبي تمام، ص 336.
أنظر: الاعلام 16/2؛ شرح ديوان الحماسة 339؛ التبريزي 186/1، ثم 85/2.

(6) البيت لبرج بن مسهر الطائي، (البحر الوافر).
أنظر: مغني اللبيب، ص 100.

إنما يريد سقيت وأسقيه لأن إذا من حيث هي ظرف زمان مستقبل لا يعمل فيها إلا فعل مستقبل وبذلك يتم المعنى إذ لم يرد أنه فعل ذلك مرة إذ لا يمتدح بذلك وإنما يريد أن ذلك دأبه وعادته وقد شهد المعنى للمقدر من اللفظ، ومن هذا قول الكندي[1]:

تجاوزت أحراساً وأهوال معشر   عليّ حراصاً[2] لويشرون[3] مقتلي[4]

ثم قال: إذا ما الثريا في السماء تعرّضت... البيت[5]. ولا يعمل تجاوزت في إذا لما تقدم، فالتقدير تجاوزت وأتجاوز حتى يعلم أن تلك عادته ودأبه وبه يحصل ما أراد وهذا كثير بديع، وفي القرآن منه كثير، وقد [6] خرج من الكلام وحصل الجواب عن السؤالين.

والجواب عن السؤال الثالث: أن آية آل عمران إنما وردت في مرتكب مخصوص غير الكتم وقد يكون من غير الكاتمين وإن كان أنسب لحالهم وجرى مع مرتكبهم فهو يقع منهم (و)[7] من غيرهم انفرد هذا

---

(1) امرؤ القيس (130ق. هـ/ 457م ـ 80ق. هـ/ 545م): هو امرؤ القيس بن بحر بن الحارث الكندي من بني أكل المرار، أشهر شعراء العرب على الإطلاق، مات بأنقرة، وكان يعرف بملك الضليل.

أنظر: الاعلام، ج 1، ص 351؛ الشعر والشعراء 31؛ الأغاني 77/9؛ الجمهرة 39.

(2) في ن 1، ن 2، ن 4: كاحراس، وفي ن 3 حراص.

(3) في ديوان امرؤ القيس، ص 39 يسيرون، وفي النسخ الأربع يشرون، الأسرار: الإظهار والإضمار جميعاً وهو من الأضداد ويُرْوَى لو يشرون: بالشين المعجمة وهو الإظهار لا غير.

(4) البيت في البحر الطويل.

(5) عجز البيت: تعرض أثناء الوشاح المفصل.

(6) في ن 1، ن 2، ن 4: فقد، والواو أنسب.

(7) سقط من ن 4.

المرتكب الشنيع بما توعدوا[1] عليه، ولكونه أجرى في مرتكبات من قدم في آيتي البقرة اشتد فيه الوعيد، واتبعت الآية بما يشعر أنهم الأهلون لهذا المرتكب فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِٱلْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَابِ. . . الآية﴾[2]، فليهم ألسنهم من ضرب الكتم. وبالجملة فالآية مرتبطة بما يفصلها عن آيتي البقرة، ومناسبتها موضعها بين لما تقدمها من قوله: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً﴾[3] إلى ما يتلو هذا، فخصوص هذه الآية بموضعها أوضح شيء، وكل من هذه الآيات جار على أوضح مناسبة، والله أعلم.

الآية الحادية والثلاثون: قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي ٱلْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ الله فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾[4] وفيما بعد من (هذه السورة)[5]: ﴿تِلْكَ حُدُودُ الله[6] فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾[7]. (للسائل أن يسأل عن الفرق الموجب لقوله في الأولى: «فلا تقربوها» وفي الثانية: «فلا تعتدوها»)[8].

وقد يجاب عن هذا والله أعلم بأن يقال: أن النهي عن مقاربة الشيء عنوان على تأكيد التحريم وتغليظه، ولما كان قرب النساء

(1) في ن 3: توعد، وما جاء في النسخ الأخرى أنسب للسياق.
(2) سورة آل عمران: آية 75.
(3) سورة آل عمران: آية 75.
(4) سورة البقرة: آية 187.
(5) بهامش ن 2.
(6) بهامش ن 2.
(7) سورة البقرة: آية 229.
(8) بهامش ن 2.

بالمباشرة بالأجساد وما يجاري ذلك داعياً إلى المواقعة، وقل من يملك في ذلك نفسه ويغلب هواه، ولهذا قالت عائشة، رضي الله عنها: «وأيكم يملك إربه... الحديث[1]، والمقصود منعه في أمثال هذه المواطن إنما هو الجماع وهو مؤكد التحريم نهى[2] عما هو أقرب شيء وأدعاه إليه تحذيراً من مواقعته وتعريفاً بتأكيد تحريمه، وتأمل إطراد ذلك فيما يرجع إلى نحو هذا كقوله تعالى في الحيض: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾[3] وإنما المحرم الجماع، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾[2]، ومن هذا منع الطيب للمحرم لأنه داعية[4] إلى الجماع، ففي هذا الضرب وما يلحق به مما يراد شدة تحريمه من مآل مرتكب[5] محرم مؤكد التحريم يرد[6] النهي عن المقاربة، وإذا نهي عن مقاربة محرم ما علم من ذلك تأكيد تحريم ذلك[7] المحرم، فأما إذا قصد بيان عام وفارق بين ما يحل ويحرم، فلا يقع النهي عن مقاربة إذ لم يقصد إلا فرقان[8] حاجز بين ما يحل ويحرم ولم يقصد بيان حال محرم ما من شدة أو خفة فإنما النهي في مثل هذا عن تجاوز حد مضروب بين محرم ومحلل، ومن هذا قوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾[9] إلى قوله: ﴿فَإِنْ

---

(1) البخاري: حيض 5.

(2) في ن 4: ينبيء، ولا يستقيم به المعنى.

(3) سورة البقرة: آية 222.

(4) سورة الإسراء: آية 32.

(5) في ن 3: داعياً، وهو خطأ مخل بالمعنى.

(6) في ن 3: مرتكبات، وهو خطأ لا يستقيم به المعنى.

(7) في ن 1، ن 2، ن 4: يريد.

(8) بهامش ن 3.

(9) في ن 4: للأمر فارق، ولا يستقيم به المعنى.

(10) سورة البقرة: آية 229.

خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ الله فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِ﴾[1] ثم قال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ الله فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [2] فحصل من الآية الكريمة أنه سبحانه حرم أموالهن على الأزواج بغير حق ما لم يقع منهن نشوزاً أو إباية عن القيام بما يجب عليهن أو يطلبن به من حقوق الأزواج وإقامة الحدود فإن أبين وخيف منهن أن لا يقمن حدود الله أو خيف ذلك منهما معاً برئت ذمة الرجل من الإضرار جاز له إذ ذاك ما يأخذه مما تعطيه المرأة من مالها مفتدية به قال تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِ﴾ [3]، فليس هنا إلا حلال أو حرام لا واسطة بينهما ولا ما هو مسبب [4] للحرام قصد تحريمه لتغليظ ما يتسبب عنه مثل هذا إنما يرد النهي فيه عن الاعتداء الذي هو مجاوزة ما يحل إلى ما يحرم، وتأمل الضربين يلح لك ما ذكرته وورود كل واحد منهما [5] على ما يجب ويناسب.

الآية الثانية والثلاثون: قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لله فَإِنْ ٱنْتَهَوْا فَلَا عُدْوانَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّالِمِينَ﴾ [6]، وفي سورة الأنفال ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله فَإِنِ ٱنْتَهَوْا فَإِنَّ الله بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [7].

---

(1) سورة البقرة: آية 229.
(2) سورة البقرة: آية 229.
(3) سورة البقرة: آية 229.
(4) في ن 1، ن 2، ن 4: مناسب ولا يستقيم به المعنى.
(5) في ن 1، ن 2، ن 4: كل شيء واحد، وهو خطأ لا يناسب المعنى.
(6) سورة البقرة: آية 193.
(7) سورة الأنفال: آية 39.

للسائل أن يسأل عن تخصيص آية الأنفال[1] بالتأكيد الحصري فقيل: «كله» تأكيداً للدين ولم يرد ذلك في آية البقرة، وعن تعقيب آية البقرة بقوله: ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّالِمِينَ﴾ وآية الأنفال بقوله: ﴿فَإِنَّ الله بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، فهذان سؤالان.

والجواب عنهما معاً أن آية البقرة نزلت في مخصوصين وهم الذين كانوا بمكة ممن نصب لعداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعرض بالظلم والتنكيل لمن آمن به صلى الله عليه وسلم وطردوهم كل مطرد فأذن الله لرسوله في قتالهم لظلمهم إياهم فقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾[2]. وهي أول آية أنزلت في القتال وقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ الله الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾[3] (فقيد قتالهم بمن قاتلهم)[4]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾[5] فأكد ما تقدم من التحصيص، وقال تعالى: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾[6] والضمير للمذكورين، ويعضد ذلك ويبين خصوصه بمن ذكر قوله تعالى: ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾[7] وإنما أخرجهم أهل مكة، وقال تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾[8]، فأشعر بأن قتالهم جزاء على فتنتهم إياهم وأنهم قد

---

(1) في ن 1، ن 2، ن 4: سورة الأنفال، والصحيح ما جاء في ن 3.
(2) سورة الحج: آية 39.
(3) سورة البقرة: آية 195.
(4) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(5) سورة البقرة: آية 195.
(6) سورة البقرة: آية 191.
(7) سورة البقرة: آية 191.
(8) سورة البقرة: آية 191.

بدؤوا المؤمنين بالفتنة كما قال: ﴿وَهُمْ بَدَؤُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [1]، وفتنتهم المؤمنين في دينهم أشد من قتال المؤمنين إياهم، ثم حذر المسلمين من قتالهم عند المسجد الحرام حتى يبدأهم المشركون بذلك، ثم قال: «فإن قاتلوكم» أي عند المسجد الحرام فاستحلوا حرمته فٱقتلُوهم، فقد علموا صنع الله بمن استحل ذلك وهتك حرمة بيته فإن فعلوا فقاتلوهم عنده جزاء على فعلهم، ثم قال نهاية الآية: ﴿فَإِنِ ٱنْتَهَوْا فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى ٱلظَّالِمِينَ﴾ [2]، باستحلال قتالهم وفتنة المسلمين وتعذيبهم بحرم الله وبيته، فالآية هنا واردة في مخصوصين، والكلام مقيد فلم يكن ليناسبه الاطلاق والتعميم الحاصل من التأكيد بكل المحرزة للعموم والمقتضية الاحاطة والاستغراق.

وأما آية الأنفال فقد قال قبلها: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾[3] وهذا بمقتضى اللفظ في كل كافر، ومثل هذا وإن ورد على سبب خاص فإن وروده على ذلك السبب غير مانع من دعوى العموم فيه وهذا متفق عليه في فن الأصول، وقد استقر معلوماً في الشريعة أن كل كافر بأي كفر كفر فإنه إذا أسلم فإن إسلامه يجب ما قبله ويمحوه، فلما اقتضت الآية الإستغراق والعموم ناسب ذلك التأكيد المعمم فقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُ للهِ﴾[4]، ثم لما كان قتال عامة الكفار على أن يدخلوا في الدين وينبذوا ما سوى دين الإسلام وكان الحاجز عن قتالهم تظاهرهم بالإسلام ونطقهم

---

(1) سورة التوبة: آية 13.
(2) سورة البقرة: آية 193.
(3) سورة الأنفال: آية 38.
(4) سورة الأنفال: آية 39.

بالشهادتين وتوكل سرائرهم إلى الله أعقبت الآية بما يشير إلى ذلك فقال تعالى: ﴿فَإِنِ ٱنْتَهَوْا﴾ أي عن كفرهم ـ ﴿فَإِنَّ الله بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي لا تخفى عليه أعمالهم وليس لك أن تنقب عن قلوبهم، فجرت الآية مع الحديث المفسر لها من قوله صلى الله عليه وسلم: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»[1]، فلما اختلف المقصد في الآيتين أعقبت كل واحدة منهما بما يناسب مقصودها على ما يجب، والله أعلم.

الآية الثالثة والثلاثون: قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَاءُ وَٱلضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ الله أَلَا إِنَّ نَصْرَ الله قَرِيبٌ﴾[2]، وقال في سورة آل عمران: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَم الله الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[3]، وفي سورة براءة ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ الله الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ الله وَلَا رَسُولِهِ[4] وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾[5]، (ففي البقرة وآل عمران: ﴿أن تدخلوا الجنة﴾، وفي براءة: ﴿أن تتركوا﴾ وفي سورة البقرة: ﴿ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم﴾، وفي آل عمران

(1) عن ابن عمر أن النبي (ص) قال: أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله.
(البخاري: إيمان 17).

(2) سورة البقرة: آية 214.

(3) سورة آل عمران: آية 142.

(4) في ن 3: رسورة، وهو خطأ بين.

(5) سورة براءة: آية 16.

وبراءة: ﴿ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم﴾ وسورة آل عمران: ﴿ويعلم الصابرين﴾ وفي براءة: ﴿ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة﴾[1] فهذه ثلاثة سؤالات.

والجواب عن جميعها على الجملة أن وجه اختلافها والله أعلم ورودها أعقاب قصص مختلفة وقضايا متغايرة، فآية البقرة (واردة)[2] على ما تقدمها من خطاب المؤمنين على العموم والتسوية في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آدْخُلُوا فِي آلسِّلْمِ كَافَّةً﴾[3] ثم حذرهم بقوله: ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾. الآية[4]، وأشار الواقع جواباً من قوله: ﴿إِنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[5] إلى قدرته تعالى على من زل فحاد وتنكب بعد وضوح الأمر، فكان الكلام في قوة أن لو قيل بحسب أفهامنا القاصرة: فإن زللتم فحدتم وتنكبتم عن[6] سلوك المنهج [7] الذي أمرتم به [8] بعد بيان الأمر فآعلموا أنه قادر على أخذكم وعقابكم لا يفوته هاربكم ولا يخرج عن قهره أحد منكم عليم بما تخفونه وتسرونه، ثم ذكرهم بحال غيرهم فقال تعالى: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ... الآية﴾ [9]، ثم عرفهم بتزيين الدنيا للكافرين تسلية للمؤمنين

---

(1) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(2) سقط من ن 3.
(3) سورة البقرة: آية 205.
(4) سورة البقرة: آية 209.
(5) سورة البقرة: آية 209.
(6) في ن 4: على، وعن أنسب.
(7) في ن 4: المنهي، وهو خطأ بين.
(8) في ن 2: بها، وهو خطأ إذ المنهج مذكر.
(9) سورة البقرة: آية 211.

فيما حف بمطلوبهم الاخراوي من المكاره وأخبرهم بما لهم في الآخرة إن صبروا واتقوا فقال: ﴿وَالَّذِينَ ٱتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلقِيَامَةِ﴾ [1]، ثم أخبرهم بما كان الأمر عليه أولاً من كون الناس أمة واحدة ثم اختلفوا فبعث الله النبيين. الآية [2]، فلما خاطبهم بهذا كله وحصل من ذلك ومن إحالة الآي على أحوال من تقدم وإشارتها إلى ما ابتلوا به. مما وضح منه صعوبة التخلص إلا بعد الصبر وتحمل المشقة مع سبقية التوفيق أعقب بقوله إشارة إلى تسلية المؤمنين فيما يصيبهم فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ... الآية[3]، فعرفهم أنه لا بد من الابتلاء والاختبار ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ ٱلْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾[4] وأتبع بقوله تعالى: ﴿مَسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ﴾[5] إلى ما ذكر سبحانه في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِٱلْبَأْسَاءِ وَٱلضَّرَّاءِ﴾[6]، فهذه الآية أعني آية البقرة لم يقع فيها تخصيص بغير المستجيبين المحسنين في إجابتهم لا من وجهة اللفظ ولا من وجهة المعنى فناسبها الإطناب وذكر حال من تقدم من الأمم في ابتلائهم.

وأما آية آل عمران فخوطب بها أهل أُحد تسلية فيما أصابهم، وخص فيها ذكر الجهاد والصبر ولم يقصد في الآية أخبار بغير ذلك لأنها

---

(13) سورة البقرة: آية 212.
(14) سورة البقرة: آية 213: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّينَ...﴾ الآية.
(1) سورة البقرة: آية 214.
(2) سورة محمد ــ القتال: آية 31.
(3) سورة البقرة: آية 214.
(4) سورة الأنعام: آية 42.
(5) في ن 4: ترتبت.

ترتيب[1] واقعة مخصوصة، فهذا وجه ما انفردت به واختصت عن آية البقرة فقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ ٱلَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّابِرِينَ﴾[2] فلم يذكر هنا غير الجهاد والصبر.

أما آية براءة فخطاب للمؤمنين ممن شاهد فتح مكة وإعلام لهم بأنهم لا يكمل إيمانهم إلا بمطابقة ظواهرهم بواطنهم في ألا يقع منهم صغو إلى (غير)[3] ما بايعوا الله عليه من الاخلاص، فلا يجحدون ولا يعتمدون من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين ما يعتمدونه موئلاً أو مرجعاً فإنه سبحانه لا يخفى عليه ما أسروه. وتحويم الآية على ذم من اتصف بصفة النفاق فأظهر خلاف ما أبطن، وقد تقدم قبلها ما يدل على ذلك من قوله تعالى: ﴿يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ﴾[4]، فحذر المؤمنون من هذه الصفة وعرفوا أنه[5] لا بد من ابتلائهم واختبارهم لتخلص أحوالهم وتمتاز من أحوال المنافقين، وأنهم لم يتركوا دون ابتلاء واختبار ليميز الله الخبيث من الطيب، وهذا من بعضهم لبعض أعني الاطلاع بعد الاختبار والله سبحانه غني عن هذا وعليم[6] بما تنطوي[7] عليه كل نفس وما تكنه الضمائر، وإنما ثمرة الابتلاء والاختبار عائدة علينا ليطلع بعضنا من بعض على ما لم يكن ليطلع[8] عليه لولا الاختبار،

---

(1) سورة آل عمران: آية 142.
(2) سقط من ن 3، وبدونه لا يستقيم المعنى.
(3) سورة التوبة: آية 8.
(4) في ن 3: بأنه، وهو فصيح أيضاً.
(5) في ن 4: عليهم، وهو خطأ بين.
(6) في ن 3: تنطروي، وهو خطأ بين.
(7) في ن 4: يطلع والسياق يقتضي اللام في ليطلع.

وعمله[1] سبحانه لا يتوقف على ابتلائنا ولا يتجدد[2] عليه شيء تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. فالمراد بالآية: أم حسبتم أن تتركوا دون اختبار يفصل بين أحوالكم وأحوال المنافقين المذكورين فيما قبل، ولم تتعرض الآيتان من سورة البقرة وآل عمران لذكر نفاق بالافصاح ولا بإيماء بخلاف آية براءة، فلما اختلفت المقاصد[3] اختلفت العبارات في مطلع الآي وختامها بحسب ذلك، والله أعلم. فتأمل اتحاد[4] الوليجة[5] وقوله: ﴿وَالله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[6] وتخصيص اسمه سبحانه: «الخبير» يلح لك ما قصد [7] بهذه الآية.

فصل: وأعلم أن «أم» الواقعة في هذه الآي هي الواردة في قولهم: «إنها لا بل أم شاء» [8] أخبر المتكلم بهذا من العرب أنها إبل ثم لحقه الشك فأضرب عما أخبر به واستفهم عما بعد أم فكأنه قال: بل أهي شاء، فمعناها الاضراب عما قبلها والاستفهام عما بعدها، (فلقطعها ما بعدها عما قبلها) [9] يسميها النحويون المنقطعة والمنفصلة، وأما المتصلة فهي الواقعة في العطف والوارد بعدها وقبلها كلام واحد والمراد

---

(1) في ن 3: علم الله، وبه يستقيم المعنى.

(2) في ن 3: يتجد وهو خطأ في النسخ بين.

(3) ما بين القوسين مكرر في ن 3.

(4) في ن 1، ن 2، ن 4: اتخاذ والصحيح اتحاد بالمهملتين.

(5) الوليجة: جاء في لسان العرب وليجة الرجل بطانته وخاصته ودخلته ويقول أبو عبيدة: هي من ولج يلج إذا دخل ولعلها هنا المدخل.

(6) سورة التوبة: آية 16.

(7) في ن 3: واقصد، وهو خطأ بين.

(8) الكتاب 566/1.

(9) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.

بها الاستفهام عن التعيين فلهذا تتقدر بأي والمنقطعة خلافها وهي المتقدمة في الآي وإن الواقعة بعدها سادة مسد مفعولي حسبت [1] عند سيبويه رحمه الله.

وأبو العباس[2] يراها سادة مسد المفعول الواحد والثاني عنده مقدر، (ويشهد)[3] لسيبويه ان العرب لم يسمع من كلامهم نطق بما ادعاه ولو كان على ما يقوله لنطقوا به يوماً ما، وبسط الرد عليه في غير هذا.

الآية الرابعة والثلاثون: غ ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾[4] وفي سورة الطلاق ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾[5].

للسائل أن يسأل عن الفرق بين قوله: أو سرحوهن «وقوله» أو فارقوهن، واختصاص كل من الموضعين بما خص به من ذلك.

والجواب والله أعلم، إن آية البقرة قد اكتنفها النهي عن مضارة النساء وتحريم أخذ شيء منهن ما لم يكن منهن ما يسوغ ذلك من الا يقيما حدود الله، فلما اكتنفها ما ذكر واتبع ذلك بالمنع عن عضلهن

---

(1) في ن 4: حسب.

(2) أبو العباس المبرد (210هـ/ 326م ـ 286هـ/ 399م): محمد بن يزيد إمام العربية في زمنه واحد أئمة العربية، ولد بالبصرة وتوفي في بغداد، اشتهر بكتابه الكامل.
أنظر: الاعلام 15/8؛ البغية 16؛ وفيات الأعيان 495.

(3) سقط من ن 3: وبذلك يختل المعنى.

(4) سورة البقرة: آية 231.

(5) سورة الطلاق: آية 2.

وتكرر أثناء ذلك ما يفهم الأمر بمجاملتهن والإحسان اليهن حالي الاتصال والانفصال لم يكن ليناسب ما قصد من هذا أن يعبر بلفظ أو فارقوهن لأن لفظ الفراق أقرب إلى الإساءة منه إلى الإحسان، فعدل إلى ما يحصل منه المقصود مع تحسين العبارة وهو لفظ التسريح فقال[1] تعالى ﴿فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف﴾ وليجري مع ما تقدم من قوله تعالى: ﴿الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾[2]، وقيل هنا «بإحسان» ليناسب ما به تعلق[3] المجرور من قوله: «أو تسريح»، وقد روعي في هذه الآي كلها مقصد التلطف وتحسين الحال في المحبة والافتراق، ولما لم يكن في سورة الطلاق تعرض لعضل[4] و (لا)[5] ذكر مضارة لم يذكر ورود التعبير بلفظ «أو فارقوهن» عن الانفصال ووقع الاكتفاء فيما يراد من المجاملة في الحالين بقوله: «بمعروف» وبان افتراق القضيتين في السورتين، وورد كل من العبارتين على ما يجب من المناسبة، والله أعلم.

الآية الخامسة والثلاثون قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [6] (وفي سورة الطلاق: ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ[7] ﴾[8] فقال في آية البقرة: «ذلك» فأفرد

---

(1) في ن 4: قال.
(2) سورة البقرة: آية 229.
(3) في ن 4: ما تعلق به.
(4) في ن 1، ن 2، ن 4: فصل، وهو خطأ بين.
(5) سقط من ن 3.
(6) سورة البقرة: آية 232.
(7) سورة الطلاق: آية 2.
(8) سقط من ن 3.

(الخطاب)[1] وقال: «منكم»، (و)[2] في آية الطلاق «ذلكم»[3] بأداة خطاب الجميع ولم يقل: «منكم».

ووجه ذلك والله أعلم: ان آية البقرة ترتبت على تصنيف المضرين بالزوجات واحتيالهم على أخذ أموالهن بغير حق، ألا ترى (إلى)[4] ما تقدمها[5] من قوله تعالى ﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما أتيتموهن شيئاً﴾[6] وقوله بعد ذلك ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا﴾[7]، وقد بالغت الآية في زجرهم حين قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾[8] وهذا من أشد شيء في تعنيف المضرين بهن[9]، ثم نهى سبحانه عن عضل النساء وهو ممن فعله من الضرار والاعتداء ومناسب لأخذ أموالهن لأنه قطع عن قصد شرعي به قوام دينهن ودنياهن إذا نكحن من يقدرون فيه ذلك، فعضلها ظلم لها، فحصل من مجموع هذا أن المنهي المتوعد[10] عليه في سورة البقرة أبلغ من التعدي وأسوأ[11] في المرتكب من الواقع عليه الزجر في آية الطلاق، ومن المعلوم أن

---

(1) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(2) سقط من ن 4.
(3) سقط من ن 3.
(4) سقط من ن 3.
(5) في ن 3: بتقدمها.
(6) سورة البقرة: آية 229.
(7) سورة البقرة: آية 231.
(8) سورة البقرة: آية 231.
(9) في ن 1، ن 2، ن 4: فمن، وهو خطأ بين يخل بالمعنى.
(10) في ن 3: الموعد والصحيح ما جاء في النسخ الأخرى.
(11) في ن 1، ن 2، ن 4: ابتداء، وهو بعيد عن المعنى المراد.

المطلب [1] إذا اعتاص كانت السلامة فيه أعز وسالك طريق النجاة فيه أقل. والخطاب وان عم فأولى المخاطبين بأهليته والذين هم كأنهم هم المعنيون به على الخصوص إنما هم الممتثلون وكأن (غير) [2] الممتثل غير داخل تحت الخطاب، فعلى رعي هذا ورد إفراد الخطاب في البقرة فقيل: ذلك بحرف الخطاب الذي للواحد إشارة لتقليل المستجيبين المتورعين عن الطمع في أموال الزوجات والإضرار بهن عضلاً أو [3] احتيالاً على ما لديهن، وعلى هذا الرعي ورد في هذه الآية «منكم» يشعر [4] أن المستجيبين ليسوا الكل بما يعطيه مفهوم منكم، ولما كان الوارد في سورة الطلاق أخف في المطلب وأيسر في التكليف، ترى أن الأحكام المتعلقة بالطلاق وهي التي دارت عليها آي هذه السورة كلها فروع (ثوان) [5] فالسلامة فيها أيسر وسالك طريقها أكثر فناسب ذلك ورود الخطاب بالحرف الذي يخاطب به الجميع ويشملهم فقيل: «ذلكم» وقيل: «من كان يؤمن» ولم يرد هنا: «من كان منكم». لم يرد هنا إشعار بتبعيض وهو الذي يعطيه المفهوم، فروعي في كل من السورتين ما بنيت عليه القصة في الأخرى، والله سبحانه أعلم.

الآية السادسة والثلاثون: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[6] وفي الآية الأخرى بعد:

---

(1) في ن 1، ن 2، ن 4: الطلب، وهو فصيح أيضاً.
(2) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(3) في ن 1، ن 2، ن 4: و، وأو أنسب هنا.
(4) في ن 4: المشعر، لا يستقيم به المعنى.
(5) في ن 4: بياض.
(6) سورة البقرة: آية 234.

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1] فيهما ثلاثة سؤالات.

الأول: ما وجه التعريف في قوله: «بالمعروف» والتنكير في الثانية في قوله: من معروف؟ والثاني ما وجه خصوص الأول بالباء والثاني بمن؟ والثالث ما وجه تعقيب الأولى بقوله: «والله بما تعملون خبير» والثانية بقوله: «والله عزيز حكيم»؟

والجواب عن الأول: ان الواقع في الآية الأولى من قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً﴾[2] ثم قال: «فإذا بلغن أجلهن» أي باستيفائهن أربعة أشهر والعشر، والمراد يخرجن عند ذلك من تمام الأجل المضروب لعدتهن، فهذا كله بما تقتضيه «إذا» قد أحرز أمداً محدوداً معلوم القدر معروف الغاية يتقيد به خروجهن، فناسبه التعريف في قوله (تعالى)[3]: ﴿فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف﴾ إن المعلوم من موجب الشرع. وأما قوله تعالى في الآية الأخرى: «فإن خرجن» ولم يذكر بلوغ الأجل، وليس التقييد الحاصل من «إن»[4] بلوغ الأمد المضروب قبل وهو الحول مثل التقييد الحاصل من الظرف المستقبل الذي هو «إذا» إذ ليست إن كإذا، ألا ترى أنك تقول: أقوم إذا قام زيد

(1) سورة البقرة: آية 240.
(2) سورة البقرة: آية 234.
(3) سقط من ن 3.
(4) سقط من ن 4، ومضاف بهامش ن 3.

فيقتضي هذا أن قيامك مرتبط بقيامه ولا يتقدم عليه ولا يتأخر عنه بل يعاقبه[1] على الاتصال، وأما إذا قلت أقوم إن قام زيد فأقصى ما يقتضي هذا أن قيامك بعد قيامه وقد يكون عَقِبَهُ وقد يتأخر عنه، فإنما يحصل (من إن)[2] التقييد بالاستقبال دون اقتضاء تعقيب أو مباعدة، فحصل في ظاهر اللفظ إبهام[3] من جهتين: إحداهما كون الأجل لم يذكر بلوغه، والثانية ما تقتضيه إن على ما بين فناسبه التنكير في قوله «من معروف».

فإن قيل: الحول المذكور في قوله في أول الآية: «متاعاً إلى الحول» معلوم التوقف وهو كأن الأجل المضروب لهن في العدة قبل أن ينسخ الأربعة أشهر والعشر وقد اتصل بقوله فان خرجن قوله: ﴿فلا جناح عليكم (فيما فعلن في أنفسهن من معروف﴾ وذلك منبىء ــ أعني)[4] قوله: «فلا جناح عليكم» ــ برفع[5] الحرج وانهن لم يقع منهن معصية في الخروج وإنما ذلك لخروجهن عند الأمد فقد تقيد خروجهن[6] بوقت معلوم وهو تمام الحول فارتفع الإبهام[7]، قلت: بقي رعي المناسبة في اللفظ وذلك مما يتأكد التفاته فوضح ورود[8] كل من العبارتين على ما يجب من المناسبة.

---

(1) في ن 4: تعاقبه، ولا يتناسب هذا مع ما سبق.
(2) في ن 3: بالهامش.
(3) في ن 4: إيهام ولعله خطأ في الرسم.
(4) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(5) في ن 4: يرفع ولا يستقيم به المعنى.
(6) في ن 3: خرجهن، وهو خطأ بين.
(7) في ن 4: الإيهام، والأنسب ما جاء في بقية النسخ.
(8) في ن 1، ن 2، ن 4: وضوح، ولا يستقيم به المعنى.

وجواب ثان وهو ان قوله في الآية الأولى: «بالمعروف» المراد (به)[1] الوجه الذي لا ينكره الشرع ولا يمنعه، ولهذا وصل الفعل ها هنا بالباء، والإحالة[2] على متقرر معلوم وهو الشرع، فورد معرفاً بأداة العهد وعدي فعلن بالباء، ثم جاءت الآية الثانية لتأخرها في التلاوة مشيرة إلى تفصيل ما يفعلن في أنفسهن من التزين والتعرض للخطاب وما يجاري ذلك من معروف مما ليس بمنكر شرعاً، والتنكير[3] هنا محرز للمعنى المقصود ومن للتبعيض وهو تفسير، وكأن قد قيل في الوجه المباح لهن الذي لا يمنعه الشرع فجووب بتفصيل مشير إلى أنه ليس وجهاً واحداً لا يتعدينه بل لهن أن يتزين ويتعرض للخطاب (ويفصحن بما)[4] يطلبنه من صداق وغير ذلك من مصالحهن المباحة لهن شرعاً، فهذا موضع من وموضع التنكير والأول موضوع الباء والتعريف بحسب ما قصد في كل من الموضعين على ما تقدم، وقد وضح جواب السؤالين.

والجواب عن السؤال الثالث أن تعقيب الأولى بقوله: ﴿والله بما تعملون خبير﴾[5] مناسب لما قبله من تأمينهن على أنفسهن فيما يلزمهن في مدة العدة (المذكورة)[6] من إحداد وما يتعلق به وفيما يفعلن بعده، فان أضمرن أو كتمن شيئاً[7] لا يجوز فعلم الله سبحانه محيط بذلك وهو الخبير به، ولما وقع في الآية بعد قوله: «فان خرجن» وقام فيه

---

(1) سقط من ن 4.

(2) في ن 4: والا حال، وهو خطأ بين لا يستقيم معه المعنى.

(3) في ن 1، ن 2، ن 4: المنكر، ولا يستقيم معه المعنى.

(4) في ن 2: بالهامش.

(5) سورة البقرة: آية 234.

(6) بهامش ن 2.

(7) في ن 4: ما، وبه يستقيم المعنى.

احتمال أن يخرجن غير طائعات فيستعجلن أو يتعدين ناسبه ذكر قدرته سبحانه عليهن بالمعاقبة بما شاء أو العفو عن مرتكبهن، فهو العزيز الذي لا مغالب له والذي لا يفوته هارب ولا يغيب عنه شيء.

الآية السابعة والثلاثون: غ ـ قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾[1]، وقال تعالى في سورة يوسف: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ﴾[2]، فالمعدود واحد والعدد واحد[3] وقد اختلف المفسر للمعدود فورد في سورة البقرة «سنابل» وبنيته: فعائل من أبنية جمع الكثرة وفي سورة يوسف: «سنبلات» وباب ما يجمع بالألف والتاء أن يكون للقليل ما لم يقتصر عليه أو يعرض عارض. فللسائل أن يسأل عن الفرق الموجب لتخصيص كل من الموضعين بما ورد فيه؟

والجواب: أن آية البقرة مبينة على ما أعد الله للمنفق[4] في سبيله وما يضاعف له من أجر إنفاقه وإن ذلك ينتهي إلى سبعمائة ضعف، وقوله ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾[5] قد يفهم الزيادة على ما نص عليه من العدد كما أشارت إليه آيات وأحاديث، فبناء هذه الآية على التكثير. فناسب ذلك ورود المفسر على ما هو من أبنية الجموع للتكثير لحظاً للغاية المقصودة، ولم يكن ما وضعه[6] للقليل في الغالب ليناسب

---

(1) سورة البقرة: آية 261.

(2) سورة يوسف: آية 43.

(3) في ن 4: تقديم وتأخير فالعدد واحد والمعدود واحد.

(4) في ن 3: للمنفقين، والصحيح بالانفراد ويؤكده ما جاء بعد من ضمائر مفردة.

(5) سورة البقرة: آية 261.

(6) في ن 4: وصفه.

ما تلحظ فيه الغاية من التكثير. أما آية يوسف فإنما بناؤها على إخبار الملك عن رؤياه سبع سنبلات فلا طريق هنا للحظ كثرة ولا قلة لأنه إخبار برؤيا، فوجهه الإتيان من أبنية الجموع بما يناسب المرئي وهو قليل لأن ما دون العشرة قليل، فلحظ في آية البقرة ما بعده مما يتضاعف إليه هذا العدد وليس في آية يوسف ما يلحظ، فافترق القصدان، وجاء كل على ما يجب ويناسب، والله أعلم.

الآية الثامنة والثلاثون: قوله تعالى ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَا وَيُـرْبِي ٱلصَّدَقَاتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾[1]، وفي سورة النساء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّـاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾[2]، وفي موضع ثان بعد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً﴾[3] وفي سورة الحديد: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾[4].

للسائل أن يسأل في هذه الآي عن شيئين: أحدهما: ما وجه اختصاص كل آية من هذه الأربع بالوصف المذكور فيها الموجب لكونه تعالى لا يحب المتصف به؟ السؤال الثاني: ان تلك الأوصاف إذا كانت موجبة لما حكم به تعالى عليهم من أنه لا يحبهم وقد استوت في إيجاب هذا الحكم فما وجه اختصاص آيتي النساء منها بتأكيد ذلك الحكم بإنّ.

---

(1) سورة البقرة: آية 276.
(2) سورة النساء: آية 36.
(3) سورة النساء: آية 107.
(4) سورة الحديد: آية 23-24.

وورود[1] آية البقرة وآية الحديد معطوف فيهما ما ورد في آيتي النساء مؤكداً بإن؟ وهل ذلك لموجب يقتضيه؟.

والجواب عن الأول: ان وجه اختصاص كل آية منها بما ورد فيها من الوصف الموجب لكونه (تعالى)[2] لا يحب المتصف به[3] مناسبة كل آية منها لما تقدمها. أما آية البقرة فإن قبلها قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَانُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَا﴾[4] فوصفهم بأكل الربا حتى أعقبهم ذلك تخبطهم في قيامهم كفعل المجانين. وانهم سووا بين البيع المشروع والربا الممنوع وذلك كفر وتكـذيب، فوصفـوا بما يقتضي المبالغة في مرتكبهم من منع حب الله تعالى إياهم فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾[5]، وفعال وفعيل أبنية للمبالغة وهو وصف مناسب لحالهم.

وورد قبل آية النساء قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِٱلوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي ٱلْقُرْبَى وَٱلْيَتَامَى وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱلْجَارِ ذِي ٱلْقُرْبَى وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنْبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾[6] فأمرهم سبحانه بعبادته وتوحيده وبالإحسان إلى المذكورين في الآية، ومن الإحسان إليهم خفض الجناح ولين المقال والاتصاف بما وصف[7]

---

(1) في ن 1، ن 2: فإن ورود، وهو خطأ لا يستقيم به المعنى.
(2) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(3) في ن 4: بها، والصحيح به لأنه يعود على مذكر وهو هنا الوصف.
(4) سورة البقرة: آية 275.
(5) سورة البقرة: آية 276.
(6) سورة النساء: آية 36.
(7) في ن 4: وصفه.

الله به من يحبهم ويحبونه في قوله: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ﴾[1]، والاختيال والفخر خلق مضاده لهذه الأوصاف الحميدة مانعة منها ولا يمكن معها الإحسان المطلوب في الآية، فلهذا أعقبت الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾[2] فان المتصف بهذا متصف بنقيض الإحسان، فمناسبة هذا بينة.

وأما الآية الثانية من سورة النساء فقد تقدمها قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَابَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَا أَرَاكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً﴾[3]، ثم قال: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾[4]، قدم الخائنين وحذر نبيه صلى الله عليه وسلم من معاونتهم والجدال عنهم وأعقب بأنه[5] لا يحب من اتصف بصفاتهم فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً﴾[6]، وتناسب هذا أوضح شيء.

وأما آية الحديد فان قبلها قوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوا أَنَّمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ...﴾ الآية[7] فناسب هذا قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[8] فقد وضحت مناسبة كل آية من هذه لما اتصلت به وان كل آية من هذه المعاقبات لا يلائمها غير ما اتصلت به والله أعلم.

---

(1) سورة المائدة: آية 54.
(2) سورة النساء: آية 36.
(3) سورة النساء: آية 105.
(4) سورة النساء: آية 107.
(5) في ن 1، ن 2، ن 4: انه.
(6) سورة النساء: آية 107.
(7) سورة الحديد: آية 20.
(8) سورة الحديد: آية 23.

وقد وضع في هذا الجواب جواب السؤال الثاني وهو أن آية البقرة إنما ترتبت على آكلي الربا [1] والمسوين بينه وبين البيع المشروع وهؤلاء صنف واحد ومرتكبهم واحد، وان آية الحديد ترتبت على حكم الخيلاء والفخر وذلك إذا حقق أيضاً راجع إلى الكبر فالمادة واحدة. أما آية النساء فان[2] الأولى منها تقتضي بحسب من ذكر فيها واختلاف أحوالهم تفصيل المرتكب وتعداد المطلوب فيها، وقد اشتملت على أمر ونهي فناسب اتباع المطلب تأكيد المترتب عليه من الجزاء فأكد بإن المقتضية تأكيد الخبر، وكذلك الآية الثانية لأن خيانة النفس تنتشر مواقعها، فتارك الطاعة قد خان نفسه وفاعل المعصية كذلك، وأفعال الطاعة كثيرة لا تنحصر [3] وكذلك المخالفات فناسب الكثرة التأكيد، وهذا كله بخلاف آية البقرة وآية الحديد في المرتكب فيهما كما تقدم، فجاء كل على ما يجب ويناسب، والله أعلم.

الآية التاسعة والثلاثون: غ ــ قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[4] وَإِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ ٱللَّهُ﴾[5] وفي سورة آل عمران: ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾[6] فتقدم في هذه الآية ذكر الإخفاء وتأخر في آية البقرة والحاصل من الآيتين تعريف العباد بإحاطة علمه سبحانه بما ظهر

---

(1) في ن 2: أكل الربا، وما ورد بعد يؤكد صحة ما جاء في النسخ الأخرى.
(2) في ن 1، ن 2، ن 4: فلان والسياق لا يقتضي اللام.
(3) في ن 4: لا تحصر، وهو فصيح مناسب للمعنى المراد.
(4) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(5) سورة البقرة: آية 284.
(6) سورة آل عمران: آية 29.
(7) سورة الرعد: آية 10.

وما بطن على حد سواء كما قال تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ فللسائل أن يسأل عن وجه الخلاف في الآيتين.

والجواب عنه، والله أعلم: أن ابداء الشيء واخفاء خلافه في المعتقدات[1] صفة المنافقين وبها امتيازهم من غيرهم من الكفرة، قال[2] تعالى ﴿يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [4]، وهذا كثير في القرآن، وقد أعلم سبحانه أن المنافقين هم الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، وتوعدهم على ذلك بأليم العذاب قال تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [5]، فحذّر المؤمنين من ذلك فقال: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ [6] آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ٱلْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُبِيناً﴾[7]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾[8] إلى غير هذه من الآي، فلما تقرر هذا النهي وتكرر، وقد تقدم آية آل عمران قوله تعالى ناهياً وزاجراً: ﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ

(1) في ن 4: المعتقد، وهو مناسب أيضاً.
(2) في ن 1، ن 2، ن 4: وقال ولا داعي لواو النسق.
(3) سورة آل عمران: آية 154.
(4) سورة البقرة: آية 14.
(5) سورة النساء: آية 138.
(6) سقط من ن 3، وهو خطأ بين.
(7) سورة النساء: آية 144.
(8) سورة الممتحنة: آية 1.

﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، وحذر تعالى من ذلك أشد التحذير الا عند التقية[2] فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّآ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾[3]، ثم اتبع تعالى بتأكيد التحذير فقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾[4]، ثم قال: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[5]، فلما نهاهم عن المرتكب الذي به امتياز المنافقين كان آكد شيء وأهمه[6] إعلامهم بأنه سبحانه يعلم ما يخفون[7] كعلمه ما يبدون [8] لبناء المنافقين كفرهم على ما جهلوه من عليه سبحانه بخفيات ضمائرهم والحادهم في ذلك جهلاً بما يجب لله سبحانه وتكذيباً لرسوله، ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وان الله علام الغيوب. فهذا وجه تقديم الإخفاء في آية [9] آل عمران، وتأمل تقديمه في الجاري مجرى هذه الآيات كقوله سبحانه في قصة حاطب بن أبي بلتعة[10] رحمه الله: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ﴾[11].

أما آية البقرة فلم يجر فيها ذكر النفاق ولا صفة أهله وإنما الخطاب

(1) سورة آل عمران: آية 28.
(2) جاء في لسان العرب: التقية والتقاة بمعنى يريد أنهم يتقون بعضهم بعضاً ويظهرون الصلح والاتفاق وباطنهم بخلاف ذلك.
(3) سورة آل عمران: آية 28.
(4) سورة آل عمران: آية 28.
(5) سورة آل عمران: آية 28.
(6) في ن 4: كلمة غير واضحة.
(7) في ن 3: يخفونه.
(8) في ن 3: يبدونه.
(9) في ن 1، ن 2، ن 4: سورة، وهو خطأ.
(10) حاطب بن أبي بلتعة ترجمته ص 572.
(11) سورة الممتحنة: آية 1.

فيها وفي آية الدين قبلها وفيما أعقبت به بعد للمؤمنين فيما يخصهم من الإحكام فورد فيها قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [1] مقدماً [2] فيها بادي أعمالهم بناء على سلامة بواطنهم وتنزههم عن صفة المنافقين، ومنه قوله تعالى [3] ﴿مَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمونَ﴾، فتقدم ذكر ما يبدو لأنه خطاب للمؤمنين، ومنه تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ والخطاب للمؤمنين، وهذا جار مطرد فيما يلحق بهذا الضرب كما أطرد [4] البدء بالإخفاء على الإعلان حيث يتقدم ذكر أهل الكفر أو [5] ينتظم الكلام بذكرهم كقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [6] بعد قوله تعالى: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [7]، وكقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [8] بعد قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ [9]، وكقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [10] وقد تقدمها (قوله تعالى) [11]: ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً

---

(1) سورة البقرة: آية 284.
(2) في ن 4: فقدم.
(3) سورة النور: آية 29.
(4) في ن 1، ن 2: المراد، وهو خطأ بين مخل بالمعنى.
(5) في ن 4: و، عوض أو والثاني أنسب للسياق.
(6) سورة الأنعام: آية 3.
(7) سورة الأنعام: آية 3.
(8) سورة التغابن: آية 4.
(9) سورة التغابن: آية 2.
(10) سورة النمل: آية 74.
(11) سقط من ن 3، وفي ن 1، ن 2، سقط لفظ: تعالى.

وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ [1]، فاطرد ما ذكرناه في الطرفين على رعي الإيمان والنفاق، وجاء كل على ما يناسب، والله أعلم.

الآية الموفية أربعين: غ ــ وهي من تمام ما قبلها: قوله تعالى: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [2]، وفي سورة آل عمران ﴿وَلِلَّهِ ما في آلسَّمَاوَاتِ ومَا فِي آلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [3]، وفي المائدة قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ آلْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ آللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [4]، وفي (سورة) [5] الفتح: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَآلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [6]، فورد في هذه الآي الأربع تقديم الغفران وتأخير التعذيب وورد في سورة المائدة: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ آللَّهَ لَهُ مُلْكُ آلسَّمَاوَاتِ وَآلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [7] بتقديم التعذيب وتأخير المغفرة على خلاف ما ورد في الآي (الأربع) [8] المذكورة. فللسائل أن يسأل عن ذلك.

والجواب عنه والله أعلم ان هذه الآية لما تقدمها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَه وَيَسْعَوْنَ فِي آلْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ آلْأَرْضِ

---

(1) سورة النمل: آية 67.
(2) سورة البقرة: آية 284.
(3) سورة آل عمران: آية 129.
(4) سورة المائدة: آية 18.
(5) سقط من ن 4.
(6) سورة الفتح: آية 14.
(7) سورة المائدة: آية 40.
(8) سقط من ن 1، ن 2، ن 3.

ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1] ثم بعد ذلك قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ ٱللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[2]، فقدم في هاتين القصتين من خبر المحاربين والسارقين ذكر تعذيبهم جزاء على فعلهم ثم ذكر المغفرة لهم ان تابوا وأتبع ذلك بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ . . . الآية﴾[3] وبناؤها على ما تقدمها، قبلها ويليها كما تبين، فقدم ذكر العذاب على المغفرة لمناسبته لما اتصلت به وبقيت عليه[4].

وأما (الآي)[5] الأربع فلم يقع قبل شيء منها ذكر مثل الواقع في سورة المائدة وإنما تقدمها ما يفهم قوة الرجاء لمن أحسن وأناب كقوله في آية البقرة: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾[6] والخطاب للمؤمنين، وورد قبل الآية الثانية من الأربع قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[7]، وَقَبْلَ الثالثة: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ ٱللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾[8] إلى قوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾[9]، وفي هذا وان

---

(1) سورة المائدة: آية 33.
(2) سورة المائدة: آية 38.
(3) سورة المائدة: آية 40.
(4) في ن 1 بقيت عليه، وهو خطأ مخل بالمعنى.
(5) سقط من ن 3.
(6) سورة البقرة: آية 284.
(7) سورة آل عمران: آية 128.
(8) سورة المائدة: آية 18.
(9) سورة المائدة: آية 18.

كان خطاباً لأهل الكتابين تنبيه لهم وأنهم إن أسلموا وأنابوا لربهم رجوا عفوه ومغفرته، وقبل الآية الرابعة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾[1]، ولم يخرج الكلام إلى غير هذا من تعريف نبيه صلى الله عليه وسلم بعلي حاله وما منحه والإعلام بحال المخالفين من الأعراب وما جرى في ظنهم، وكل ذلك تثبيت للمؤمنين ومنبىء بما تعقبهم الاستجابة لله ولرسوله، ثم اتبع ذلك بالإعلام بأنه سبحانه المالك للكل والمتصرف فيهم بما يشاء، فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[2]، وأفهم ذلك أن فعل المخلفين من الأعراب غير خارج عما أراده وقدره، وأن مخالفتهم لا تضره تعالى، وانها صادرة عن قضائه. فناسب هذه الآي الأربع بجملتها تقديم ذكر المغفرة، وجاء كل على ما يناسب، والله أعلم.

* * *

(1) سورة الفتح: آية 10.
(2) سورة الفتح: آية 14.

سورة آل عمران

الآية الأولى منها: غ ـ قوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[1]، ثم قال: ﴿وَأَنْزَلَ ٱلتَّوْرَاةَ وَٱلإِنْجِيلَ﴾[2]، (فليسأل عن تخصيص الكتاب بلفظ «نزّل» المضعف وتخصيص التوراة والانجيل)[3] بلفظ «أنزل»؟

والجواب عن ذلك أن لفظ نزّل يقتضي التكرار لأجل التضعيف، تقول ضرب مخففاً لمن وقع ذلك عليه مرة واحدة ويحتمل الزيادة والتقليل أنسب وأقوى. أما إذا قلنا ضرّب بتشديد الراء فلا يقال إلا لمن كثر ذلك منه، فقوله تعالى ﴿نزّل عليك الكتاب﴾ مشير إلى تفصيل المنزل وتنجيمه بحسب الدّعاوي وأنه لم ينزل دفعة واحدة، أما لفظ أنزل فلا يعطي ذلك إعطاء نزّل وإن كان محتملاً، وكذا جرى في أحوال هذه الكتب، فإن التوراة إنما أوتيها موسى صلى الله عليه وسلم جملة واحدة في وقت واحد وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾[4] الآية أي المجموع،

---

(1) سورة آل عمران: آية 3.
(2) سورة آل عمران: آية 3.
(3) بهامش ن 2.
(4) سورة الأعراف: آية 145.

وأما الكتاب العزيز فنزّل مقسطاً من لدن ابتداء الوحي وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾[1] إلى آخر عمره صلى الله عليه وسلم ونزول قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إلى الله﴾[3]، ولنزوله مقسطاً ما قال الكفار ﴿لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً﴾[4]. فقال تعالى: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾[5] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلذين آمَنُوا آمِنُوا باللهِ وَرَسُولِهِ والكتاب ٱلذِي نَزَّل على رَسُولِهِ﴾[6] (وهو القرآن، ثم قال) [7] ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ [8] والمراد التوراة، فورد ذكر التوراة، فجاء كما ورد حين أفصح بذكر أسمائهم في قوله: «نَزَّلَ عليك الكتاب» ثم قال: «وأنزل التوراة والانجيل»، وحيث يذكر أحد هذه الكتب مفرداً عن غيره أو بغير الألف واللام العهدية فيأتي بلفظ: أنزل[9] فيهما، وإن أريدا معاً كقوله (تعالى)[10] ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ﴾[11] ومنه ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ

---

(1) سورة العلق: آية 1.
(2) سورة المائدة: آية 3.
(3) سورة البقرة: آية 281.
(4) سورة الفرقان: آية 32.
(5) سورة الفرقان: آية 32.
(6) سورة النساء: آية 136.
(7) بهامش ن 1.
(8) سورة النساء: آية 136.
(9) في ن 4 نزّل وهو خطأ.
(10) سقط من ن 1، ن 2، ن 3.
(11) سورة المائدة: آية 59.

بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾[1]، وهذا كثير في القرآن حيث يعبر عن ذلك بما وإن كانت موصولة فليس فيها من العهد ما (في الذي)[2] وفي الألف واللام ولا وَقَعَ الافصاح بإسم المنزل، وهذا فرق واضح لأن ما تفارق الموصولية فتخرج إلى الابهام فلا تكون فيها عهدية[3]، أما الذي فلا تفارق ولا تخرج، فالعهدية فيها لازمة، وكذا إذا ذكر أحد[4] هذه الكتب مفرداً عن غيره لم ينكر وروده بلفظ أنزل ونزّل لأنهما يكونان بمعنى واحد كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لله الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ ٱلْكِتَابَ﴾[5]، وأما حيث يجتمع ذكرهما مفصحاً بإسم كل واحد أو بأداة العهد كما تقدم فلا يكون إلا على ما تقرر من حيث أن لفظ التضعيف أقوى من إعطاء معنى[6] التنجيم والتفصيل كما تقدم، وهذا مطرد على كثرة ما ورد منه وتكرر.

ولم يرد إنزال التوراة بٱلتضعيف إلا في قوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَاةُ﴾[7]. وله وجه. وهو أن المراد ثبوت أحكامها وتقعيدها[8]، وذلك أن بني اسرائيل لما حرم عليهم ببغيهم وظلمهم ما حرم في قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ

(1) سورة البقرة: آية 4.
(2) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(3) في ن 4: فلا يكون فيها عهد ولا يستقيم المعنى بذلك.
(4) في ن 3: آخر وهو خطأ بين.
(5) سورة الكهف: آية 1.
(6) في ن 3 لفظ وهو خطأ يخل بالمعنى.
(7) سورة آل عمران: آية 93.
(8) في ن 4: تنفيذها وهو غير مناسب للمعنى المراد.

أُحِلَّتْ لَهُمْ. . .﴾ الآية [1] وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ. . . الآية﴾ [2] وعرف الله سبحانه نبيه والمؤمنين بذلك أنكرت بنو اسرائيل تخصيصهم بذلك وزعموا أنهم لم يخصوا به وأنه قد كان محرماً على نوح وإبراهيم وكل من تقدم بني اسرائيل من الأمة فأكذبهم [3] الله تعالى في ذلك وقال ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَاةُ﴾ [4] أي من قبل حصولها منزلة وتقعيد [5] حكمها وثبوته، فلما قصد معنى استقرارها وتقعيد [6] حكمها ورد اللفظ مضعفاً ليشير إلى حكم ثبوتها واستقرارها والله أعلم (بما أراد، ولهذا والله أعلم لم يرد من غير هذا الموضع ذكر إنزالها بالتضعيف) [7]، وقد تعرض أبو الفضل بن الخطيب [8] لقوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ. . . وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَآلإِنْجِيلَ﴾ [9] ووجّه ذلك على ما ذكرته ثم اعترض على ذلك بقوله تعالى: ﴿آلْحَمْدُ لله الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ آلْكِتَابَ﴾ [10] ولم يفصل [11]

---

(1) سورة النساء: آية 160.
(2) سورة الأنعام: آية 146.
(3) في ن 4: فأكد بهم وهو غير مناسب.
(4) سورة آل عمران: آية 93.
(5) في ن 1، ن 2، ن 4: تنفيذ.
(6) في ن 4 تنفيذ.
(7) في ن 2 مثبت بالهامش.
(8) أبو الفضل ابن الخطيب: هو الفخر الرازي وقد تقدمت ترجمته.
(9) سورة آل عمران: آية 3.
(10) سورة الكهف: آية 1.
(11) في ن 3: ولم ينفصل: ولا يستقيم بذلك المعنى.

وقال أنه مشكل[1]، وقد بينا أنه لا إشكال في ذلك على ما تقعد[2] قبل، والحمد لله.

الآية الثانية: قوله سبحانه «كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بَآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ الله بِذُنُوبِهِمْ وَالله شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[3]، وفي سورة الأنفال: ﴿كَفَرُوا بِـآيَاتِ الله فَـأَخَذَهُمْ الله بِـذُنُوبِهِمْ إِنَّ الله شَـدِيـدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [4]، وبعدها: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [5].

للسائل أن يسأل عن هذه[6] الآي في ستة مواضع: السؤال الأول: الإخبار عنهم في آية آل عمران وفي ثانية الأنفال بقوله: «كذبوا»، وقال في الأولى (من الأنفال) [7]: «كفروا». ما وجه ذلك؟ والثاني: ما وجه اختلاف الاضافة في كذبهم (وتكذيبهم) [8]؟ ففي آل عمران: «بآياتنا» وفي الأولى من الأنفال: «بآيات الله» وفي الثـانية: «بـآيات ربهم»، والثالث: قوله في ثانية الأنفال: ﴿فأهلكناهم بذنوبهم﴾، وفي الأخريين «فأخذهم الله بذنوبهم»، والرابع: قوله في سورة آل عمران: ﴿والله شديد العقاب﴾، وفي الأولى من الأنفال: ﴿إن الله قوي شديد

---

(1) التفسير الكبير للرازي 173/7.
(2) في ن 3 ققصل.
(3) سورة آل عمران: آية 11.
(4) سورة الأنفال: آية 52.
(5) سورة الأنفال: آية 54.
(6) في ن 4: عن.
(7) بهامش ن 4.
(8) بهامش ن 3.

العقاب﴾، ولم يرد في الثانية هذا الوصف، والخامس: تفصيل العقاب في ثانية الأنفال ولم يرد في الآخريين ذلك التفصيل، والسادس: تعلق المجرور من قوله: «كدأب آل فرعون»، وليس هذا مما بني عليه هذا الكتاب [1] إلا أنه تتمة [2].

والجواب عن الأول: إن آية آل عمران لما تقدم قبلها ذكر تنزيل الكتب الثلاثة والاشارة إلى ما تضمنته من الهدي والفرقان وإنما أتي على من كفر بصده عنها. وتكذيبه ناسب ذلك قوله تعالى: ﴿كذبوا بآياتنا﴾، ولما لم يقع في سورة الأنفال من أولها إلى الآية الأولى من الآيتين ذكر شيء من الكتب المنزلة ولا ذكر إنزالها، وإنما تضمنت حال المسلمين مع معاصريهم من كفار العرب، ومعظم ذلك في قتالهم وحربهم، ناسب ذلك التعبير بالكفر فقال تعالى: ﴿كفروا بآيات الله﴾، ثم لما تلتها الآية الأخرى من غير طول بينهما وقع التعبير فيها بالتكذيب فقال: «كذبوا بآيات ربهم»، وعدل عن لفظ كفروا لثقل التكرر مع القرب، وليحصل وسمهم بالكفر والتكذيب.

والجواب عن السؤال الثاني: أن الآية الأولى من سورة الأنفال إنما جيء فيها بالاسم الظاهر فقيل: «كفروا بآيات الله»، لتقدم ذكر الملائكة في قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا المَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [3] بنسبة الفعل [4] للملائكة، وتقدم أيضاً ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ

---

(1) في كل النسخ: الكتاب وبهامش ن 4 تعليق: «لعله الكلام»: ويبدو أنه صحيح.
(2) في ن 4 تتمته.
(3) سورة الأنفال: آية 50.
(4) في ن 4: العقل وهو خطأ بين.

ٱلشَّيْطانُ أَعْمَالَهُمْ﴾، ولم يتقدم في آل عمران ذكر فعل لغير الله سبحانه ولا نسبة شيء لسواه، فجيء بآيات مضافة إلى ضميره تعالى فقال: ﴿كذبوا بآياته﴾، على طريقة الالتفات. وجاء في الأنفال: ﴿كذّبوا بآيات الله﴾ بالاضافة إلى الاسم الظاهر ليعلم أن الأمر له عز وجل، وأنه مريهم الآيات ولا فعل إلا له، وأن الملائكة مسخرون بأمره وفعلهم من خلقه، وتزيين الشيطان لهؤلاء الكفار إنما هو بقدر الله وسابق مشيئته، و (كل)[1] ذلك خلقه وملكه، والآيات آياته، وله المثل الأعلى. وقيل في الثانية «بآيات ربهم»، ليجري مع ما تقدمه متصلاً به من قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الله لَمْ يَكُن مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ﴾[2] فذكر ابتداءه بالنعم فناسبه ذكر ملكيته[3] سبحانه لهم بقوله: «بآيات ربهم» فهو المحسن والمالك ثم جرى القدر بما سبق لهم، فإيراد قوله: «كذبوا بآيات ربهم» مع ما تقدم أوقع في نفوسهم وأشد في تحسرهم وندامتهم إذا شاهدوا الأمر فعلموا أنه مالكهم وأنه[4] ابتدأهم بالنعم فغيروا، فحصل من ذلك أنهم قابلوا نعم ربهم بالكفر مع بيان الأمر ووضوحه، ولو قيل: بآيات الله لما أحرز هذا المعنى المعرف بملكيته لهم والمشير لندامتهم وتحسرهم، ولا خفاء بالفرق[5] بين قول القائل لمن كفر بنعمة الله: إنما كفرت بنعمة مالك المحسن إليك ومبتديك بالنعم، وبين أن (لو)[6] قيل له: إنما

---

(1) سقط من ن 3.
(2) سورة الأنفال: آية 53.
(3) في ن 1، ن 2، ن 4: ملائكته، وهو خطأ بين لا يستقيم معه المعنى.
(4) في ن 2: وإنما: وهو خطأ ينافر المعنى المراد.
(5) في ن 4: في الفرق وهو أنسب كما يبدو.
(6) سقط من ن 3.

كفرت بنعمة الله، فتأمل ما بينهما، ولهذا ابتدىء دعاء الخلق في سورة البقرة إلى الإيمان بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ﴾[1] إلى آخر الآية.

والجواب عن السؤال الثالث: أنه قصد في الآية الثانية من الأنفال تفصيل عقابهم بإغراق آل فرعون وأخذ من عداهم بغير ذلك وقال: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾. ليخالف قوله في الآية قبل: ﴿فَأَخَذَهُمُ الله بِذُنُوبِهِمْ﴾، لاستثقال لفظ التكرار فيما تقارب ولما قصد من التفصيل، وقد ضم الفريقين من المهلكين بذنوبهم والمغرقين في قوله: ﴿وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِين﴾.

وعن الرابع أن قوله في الآية الأولى من الأنفال: ﴿إِنَّ الله قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾. مقابل (به)[2] قول الشيطان لمن قدم ذكره من الكفار: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾[3] فقوبل قوله المضمحل بإسناد القوة لله عز وجل كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لله جَمِيعاً. . . الآية﴾[4]، ولما لم يرد في سورة آل عمران مثل هذا وقع آلإكتفاء بقوله: «والله شديد العقاب»، وزيد التأكيد في أول الأنفال بإن وزيادة اسمه سبحانه القوي لما ذكرنا آنفاً من رعي التقابل.

---

(1) سورة البقرة: آية 21.
(2) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(3) سورة الأنفال: آية 48.
(4) سورة البقرة: آية 165.

والجواب عن السؤال الخامس[1] ما قدم في الجواب عن السؤال الثالث من قصد التفصيل، ثم إن الوجه في تخصيص هذا الموضع بذلك أنه آخر موضع وقع التذكير فيه بعبادة آل فرعون في تكذيبهم وأخذهم بكفرهم، والترتيب الذي استقر عليه الكتاب العزيز متوقف على الآتي به صلى الله عليه وسلم وقد بينا ذلك في غير هذا، وأن من ظن أن الترتيب من قِبَلِ الصحابة فقد غفل وذهب عما بني عليه من جليل الاعتبار، وسنذكر ذلك في سورة القمر إن شاء الله[2].

والجواب على السؤال السادس: أن الكاف متعلقة بمحذوف هو الخبر للمبتدأ (المقدر)[3] إذ التقدير دأبهم أو دأب هؤلاء أو هذا كدأب آل فرعون، وما قدر الناس من التعلق بقوله: وأولئك وفود النار أو غير هذا من التقدير لا يرجح عند الاختبار[4] ويضعف (تقدير)[5] ذلك في ثانية الأنفال[6] ويتكلف في الأولى منها ولا يحسن معه المعنى (ولا يفوز)[7]، وفي استقلال الجملة من قوله: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ وعدم التعلق الإعرابي بما قبله في جملة أخرى جزالة النظم وقوة المعنى فتأمله.

الآية الثالثة: غ ــ قوله تعالى: ﴿تُولِجُ[8] اللَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وتُولِجُ

---

(1) في ن 2: وعن الخامس.
(2) سورة القمر، ص 1052.
(3) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(4) سقط من ن 2، ن 4 الاعتبار ولا يستقيم المعنى به.
(5) سقط من ن 3.
(6) في ن 4: في آيتي الأنفال. وهو خطأ.
(7) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(8) في ن 1، ن 2، ن 3 يولج ويخرج بالياء وهو خطأ فآية آل عمران بالتاء ولا خلاف في هذا بين القراء السبعة.

النَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾[1]، وكذلك في سورة يونس: ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾[2]، وكذا في سورة الروم وحيث وقع، (وورد)[3] في سورة الأنعام: ﴿إِنَّ الله فَالِقُ ٱلْحَبِّ والنَّوَى يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾[4]، فوقع (هنا)[5] اسم الفاعل موقع الفعل وعاقبه فقال: «ومخرج»، فيسأل عن هذا؟

ووجه ذلك، والله أعلم: أن بناء آية الأنعام على آية بنيت على اسم الفاعل وإن كان خبراً وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الله فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَى﴾[6] ثم أعقب ذلك بقوله: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَاعِلُ ٱللَّيْلِ سَكَناً﴾[7]، فلما اكتنف الآية[8] أسماء فاعلين جيء فيها باسم الفاعل في قوله: ﴿وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ ليناسب ذلك، فعطف «ومخرج» على «فالق» إذ هو معطوف على ما عطف عليه فهو معطوف عليه، ثم جيء بعد باسم فاعل وهو قوله: «فالق الاصباح» فتناسب هذا. ولم يقع في الأخر الآخر المتضمنة إخراج الحي من الميت والميت من الحي مثل هذا فذلك لم يعدل إلى اسم الفاعل، والله سبحانه أعلم.

---

(1) سورة آل عمران: آية 27.
(2) سورة يونس: آية 31.
(3) سقط من ن 4.
(4) سورة الأنعام: آية 95.
(5) سقط من ن 4.
(6) سورة الأنعام: آية 95.
(7) سورة الأنعام: آية 96.
(8) في ن 1، ن 2، ن 4: اكتنفت.

فإن قلت فما بال قوله يخرج الحي من الميت في هذا الموضع ورد بالفعل وقد اكتنفه قوله: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَى وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾. وهما إسما فاعلين؟

فالجواب عن ذلك ما قاله الزّمخشري[1] قال: موقع قوله: «يخرج الحي من الميت» موقع الجملة المبينة لقوله: «فالق الحب والنوى» لأن فلق الحب والنوى بالنبات، والثمر اليابس من جنس إخراج الحي من الميت لأن اليابس في حكم الحيوان، ألا ترى قوله: ﴿يُحْيِي ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[2]، انتهى قوله، ذكر هذا عقب قوله: «ومخرج الميت من الحي» أنه معطوف على فالق الحب والنوى كما تقدم، وهذا من حسناته[3].

الآية الرابعة: غ ــ قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ الله نَفْسَهُ وَإِلَى الله ٱلْمَصِيرُ﴾[4] ثم قال في الآية الأخرى بعد: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ الله نَفْسَهُ والله رَؤُوفُ بِالْعِبَادِ﴾[5]. للسائل أن يسأل عن وجه تعقيب الأولى بقوله: ﴿وَإِلَى الله ٱلْمَصِيرُ﴾ وتعقيب الثانية بقوله: ﴿والله رؤوف بالعباد﴾.

---

(1) الزمخشري: 467هـ/ 1975م ــ 538هـ/ 144م) هو محمود بن عمر الخوارزمي الزمخشري جار الله أبو القاسم، من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والآداب، ولد بزمخشر وتوفي بالجرجانية، من أشهر كتبه: الكشاف، والمفصل، وهو معتزلي المذهب. (أنظر الأعلام 55/8 ــ الوفيات 81/2).

(2) سورة الروم: آية 19.

(3) أنظر الكشاف: 47/2 و48.

(4) سورة آل عمران: آية 28.

(5) سورة آل عمران: آية 20.

والجواب عن ذلك والله أعلم أنه لما تقدم قبل الأولى قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـافِرِينَ أَوْلِيَـاءَ مِنْ دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] فنهاهم سبحانه عن ذلك ثم أردف بالتحذير بقوله: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ﴾[2] ثم استثنى سبحانه (من ذلك)[3] حال التقاة[4] فقال: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾[5] ثم قال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ ـ أي عذابه ـ وَإِلَى اللهِ ٱلْمَصِيرُ ـ أي ومرجعكم إليه فلا يفوته هارب، فهذا كلام ملتحم جليل النظم والتنضيد، ثم اتبع هذا بإعلامه أنه سبحانه لا يخفى عليه شيء مما أكنوه أو أظهروه. فقال: ﴿قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[6]، فأعلم فيها بعلمه المحيط بالأشياء، والعلم والقدرة هما القاطعان بمنكري العودة، وعلى إنكارهما بني المنكرون حشر الأجساد شنيع مقالهم وبثباتهما[7] آضمحل باطلهم. وقد أشارت هذه الآية العظيمة إلى علمه سبحانه بالجزئيات وقدرته عليها وفي ذلك الشأن كله، ولعل الكلام يعود بنا إلى مقصود هذه الآية العظيمة فنبسط من ذلك ما يشفي صدر المؤمن ويقطع بالملحدين وإن كان أيمتنا من أهل الفن الكلامي قد شفوا في ذلك رضي الله عنهم، فعرف سبحانه بالرجوع الأخراوي إليه ثم أخبر بأنه لا يغادر من أفعال عباده صغيرة

---

(1) سورة آل عمران: آية 28.

(2) سورة آل عمران: آية 28.

(3) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.

(4) سقط في ن 3 التقية وكلاهما فسيح.

(5) سورة آل عمران: آية 28.

(6) سورة آل عمران: آية 29.

(7) في ن 4: إنكارها وثباتها وفي بقية النسخ بالتثنية.

ولا كبيرة إلا أحصاها فقال: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُل نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً﴾ الآية[1] ثم قال معيداً ومحذراً: ﴿وَيُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾[2] وأعقب بقوله: ﴿وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾[3]، لما تقدم من التذكير والوعظ والبيان والتحذير المبني على واضح الأمر والتبيان وذلك إنعام منه سبحانه وإحسان يستجر خوف المؤمنين العابدين، فناسبه التعقيب بذكر رأفته بعباده رفقاً بهم وإنعاماً وتلطفاً فقال: ﴿والله رؤوف بالعباد﴾، ولم يتقدم قبل الأولى ما تقدم قبل هذه متصلاً بها وإنما تقدمها النهي عن موالاة الكفار والتبري من مواليهم بالكلية، فناسبه ما أعقب به وناسب هذه ما أعقبت به، والله أعلم.

الآية الخامسة: غ ـ قوله تعالى في قصة زكرياء، عليه السلام، ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾[4] وفي سورة مريم: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً﴾[5] للسائل أن يسأل عن اختلاف السياق في الآيتين مع اتحاد معناهما.

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن المعنى وإن كان في السورتين واحداً وفي قضية واحدة فإن مقاطع آي[6] وسورة مريم وفواصلها استدعت ما يجري على حكمها ويناسبها من لدن قوله تعالى في افتتاح

---

(1) سورة آل عمران: آية 30.
(2) سورة آل عمران: آية 30.
(3) سورة آل عمران: آية 30.
(4) سورة آل عمران: آية 40.
(5) سورة مريم: آية 8.
(6) في ن 1، ن 2، ن 4: آية وهذا لا يتناسب مع السياق.

السورة: ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِياً﴾[1] إلى قوله في قصة عيسى، عليه السلام: ﴿وَٱلسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً﴾[8]، لم تخرج فاصلة منها عن هذا المقطع ولا عدل بها إلى غيره، ثم عادت إلى ذلك من لدن قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً﴾[3] إلى آخر السورة، فاقتضت مناسبة آي هذه السورة[4] ورود قصة زكرياء، عليه السلام، على ما تقدم، ولم يكن غير ذلك ليناسب. أما آية آل عمران فلم يتقيد ما قبلها من الآي وما بعدها بمقطع مخصوص فجرت هي على مثل ذلك، والله أعلم.

الآية السادسة: غ ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَلْ لِي آيَةً﴾[5] يريد والله أعلم آية[6] على الحمل ليستعجل البشارة، فقيل له: ﴿آيَتُكَ[7] أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزاً﴾[8] وفي سورة مريم: ﴿آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً﴾[9] مع اتحاد القصة. فيسأل عن ذلك.

والجواب، والله أعلم: أنه لما كان الإخبار مقصوداً به التعريف بمنعه الكلام (ثلاثة أيام بلياليهن)[10] منصوصاً على ذلك حتى لا يقع

---

(1) سورة مريم: آية 2.
(2) سورة مريم: آية 33.
(3) سورة مريم: آية 41.
(4) في ن 4 فاقتضت هنا مناسبة هذه السورة وهذا بعيد عن المعنى المراد.
(5) سورة آل عمران: آية 41.
(6) في ن 1، ن 2، ن 4: انه وهو خطأ يخل بالمعنى.
(7) في ن 3 اباتك، وهذا خطأ.
(8) سورة آل عمران: آية 41.
(9) سورة مريم: آية 10.
(10) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.

احتمال أن يكون المنع في الليالي دون الأيام أو الأيام دون الليالي، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ (لَيَالٍ)[1] وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً﴾[2]، فوقع التنصيص على الوقتين ليرتفع توهم أفراد أحد الوقتين دون الآخر، وكذا في آية آل عمران بذكر الأيام ليناسب قوله: «إلا رمزاً» إذ الرمز ما يفهم المقصود دون نطق كالاشارة بالعين وباليد[3]، وقال مجاهد[4] بالشفتين[5]، وكيفما كان فإنما يدرك بالعين، ولما لم يذكر الرمز في آية مريم ذكر فيها الليل. وحصل التعريف باستيفاء الوقت الممنوع[6] فيه الكلام وما جعل له عوضاً منه وهو الرمز، وزيد في آية مريم التعريف باستواء الليالي في ذلك فالمراد مستويات، فسويا من صفة ليال انتصب على الحال، أو يكون المراد لا خرس بك ولا مرض فيكون سوياً حالاً من الضمير في تكلم، فورد هنا سوياً مناسباً للفواصل ومقاطع الآي وليس في اية آل عمران ما يستدعي ذلك، فورد كل على ما يجب ويناسب، والله أعلم.

الآية السابعة: قوله سبحانه: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَاةَ وَٱلإِنْجِيلَ وَرَسولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي

---

(1) سقط من ن 3.

(2) سورة الحاقة: آية 7.

(3) في ن 3: أو اليد بسقوط حرف الجر.

(4) مجاهد (21هـ/ 642م ــ 164هـ/ 722م) وهو مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكي مفسر شيخ القراء والمفسرين أخذ عن ابن عباس وعرف بأخذه عن أهل الكتاب (أنظر الاعلام 16/6 ــ الإرشاد 242/6 ــ صفة السفوة 117/2).

(5) جاء في تفسير مجاهد ص 126-127: يومىء إيماء اعتقل لسانه من غير مرض.

(6) في ن 4: المسوغ: وهو غير مناسب ويؤكد ذلك ما جاء بعد: «وما جعله عوضاً منه».

أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْئَةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَائِراً بِإِذْنِ الله وَأُبْرِىءُ ٱلأَكْمَهَ وَٱلأَبْـرَصَ وَأُحْيِي ٱلْمَوْتَى بِـإِذْنِ الله. وأُنَبِّئُكُمْ بِمَـا تَـأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُم﴾[1]، وقال في سورة المائدة: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْئَةِ ٱلْطَيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَائِراً بِإِذْنِي وَتُبْرِىءُ ٱلأَكْمَه وَٱلأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَى بِإِذْنِي... الآية﴾[2]، للسائل أن يسأل عن تذكير الضمير وتأنيثه، وعن وجه تكرير قوله سبحانه: «بإذني» في آية المائدة مضافاً إلى ضميره سبحانه في أربعة مواضع مع وجازة الكلام وتقارب ألفاظ الآية وقد جرى هذا الغرض في آية آل عمران فورد فيها ذلك في موضعين خاصة مضافاً إلى الظاهر من اسمه سبحانه؟

والجواب عن السؤال الأول بعد تمهيد الجواز في تذكير الضمير في قوله: «فأنفخ فيه» في الآية الأولى وتأنيثه في الآية الثانية في قوله: «فأنفخ فيها» مع اتحاد ما يعود عليه. فأقول وأسأل الله توفيقه، قال الزّمخشري في الأولى: الضمير للكاف أي في ذلك الشيء المماثل لهيئة الطير فيكون طائراً أي فيصير طائراً كبقية الطيور[3]، وقال في قوله: «فتنفخ فيها» الضمير للكاف لأنها صفة الهيئة التي كان يخلقها عيسى وينفخ فيها ولا يرجع إلى الهيئة المضاف إليها لأنها ليست من خلقه ولا نفخه في شيء، قال: وكذلك الضمير في تكون انتهى نص كلامه[4] وهو بين.

---

(1) سورة آل عمران: آية 45-48.

(2) سورة المائدة: آية 110.

(3) الكشاف 346/1.

(4) الكشاف 691/1.

وبقي السؤال عن وجه تخصيص كل من الموضعين بالوارد فيه وهو مقصودنا في هذا الكتاب[1]. وعن وجه التكرار في قوله تعالى في سورة المائدة: «بإذني» في أربعة مواضع مع وجازة الكلام وتقارب ألفاظ الآية؟

الجواب عن وجه التخصيص، والله أعلم: أن الترتيب الذي استقر عليه القرآن في سوره وآياته أصل مراعى، وقد تقدم بعض إشارة إلى ذلك ولعلنا سنزيد في بيانه إن شاء الله، وعودة الضمير على اللفظ وما يرجع إليه أَوْلَى[2] وعودته على المعنى ثان عن ذلك وكلا الرعيين (عال)[3] فصيح فعاد في آية آل عمران على الكاف لأنها تعاقب مثل وهو مذكر (فهذا)[4] لحظ لفظي، ثم عاد في آية المائدة إلى الكاف من حيث هي في المعنى صفة لأن المثل صفة في التقدير المعنوي فحصل مراعاة اللفظ أولاً ومراعاة المعنى ثانياً (على ما يجب)[5] كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[6] بعودة الضمير من يقنت مذكراً رعياً للفظ مَن. ثم قال: وتعمل بالتاء رعياً للمعنى وهو كثير، وقد بينا أن رعي اللفظ في ذلك هو الأولى فجرى في آية آل عمران على ذلك لأنها متقدمة في الترتيب وجرى في آية المائدة على ما هو ثان إذ هي ثانية في الترتيب الثابت وذلك على ما يجب.

---

(1) هو تذكير بما أشار إليه في مقدمة كتابه ص 145، فليرجع إليها.

(2) في ن 4 أولاً ولا يستقيم به المعنى.

(3) سقط من ن 3.

(4) سقط من ن 3.

(5) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.

(6) سورة الأحزاب: آية 31.

وجواب ثان: وهو أنه قد ورد قبل ضمير آية آل عمران من لدن قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ﴾[1] إلى قوله: ﴿فأنفخ فيه﴾[2] نحو من عشرين ضميراً من ضمائر المذكر فورد الضمير في قوله: ﴿فأنفخ فيه﴾ ضمير مذكر ليناسب ما تقدمه ويشاكل[3] الأكثر الوارد قبله.

أما آية العقود فمفتتحة بقوله تعالى: ﴿ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾[4] وخلقه الطائر ونفخه فيه من أجل نعمه تعالى عليه لتأييده بذلك، فناسب ذلك تأنيث الضمير ولم تكثر الضمائر هنا ككثرتها هناك، فجاء كل من الآيتين على أتم مناسبة.

والجواب عن السؤال الثاني: وهو تكرر قوله سبحانه: «بإذني» في آية المائدة أربع مرات مع تقارب الألفاظ؟ ووجهه أن آية آل عمران إخبار وبشارة لمريم بما منح ابنها عيسى، عليه السلام، وبمقاله[5]، عليه السلام، لبني إسرائيل تعريفاً برسالته وتحدياً بمعجزاته وتبرئاً من دعوى استبداد أو انفراد[6] بقدرة في مقاله: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْئَةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَائِراً بِإِذْنِ اللَّه وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِي ٱلْمَوْتَى بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[7] إلى قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ﴾[8] إلى

---

(1) سورة آل عمران: آية 44.
(2) سورة آل عمران: آية 49.
(3) في ن 4 ليشاكل وهو أنسب.
(4) سورة المائدة: آية 110.
(5) في ن 1، ن 2، ن 4: وبماله وهو خطأ.
(6) في ن 3: وانفراد: والسياق يقتضي: أو.
(7) سورة آل عمران: آية 49.
(8) سورة آل عمران: آية 49.

ما بعده ولم تتضمن هذه (الآية)[1] غير البشارة والإعلام، وأما آية المائدة فقصد بها (غير هذا)[2] وبنيت على توبيخ النصـارى وتعنيفهم (في مقالهم)[3] في عيسى، عليه السلام، فوردت متضمنة عَدَّهُ سبحانه إنعامه على نبيه عيسى، عليه السلام، على طريقة تجاري العتب وليس بعتب تقريراً يقطع بمن وقع في العظيمة ممن عبده، ومثل ذلك فيما[4] يجري بيننا ــ ولكلام الله سبحانه المثل الأعلى ــ قول القائل لعبده الأحب إليه المتبرىء من عصيانه: ألم أفعل لك كذا، ألم أعطك كذا، ويعدد عليه نعماً ثم يقول: أَفَعَلَ لك ذلك غيري، هل أحسنت إلى فلان (إلا)[5] بما أعطيتك، هل قهرت عدوك إلا بمعونتي لك، فيقصد السيد بهذا قطع تخيل من ظن أن ما كان من هذا العبد من إحسان إلى أحد أو إرغام[6] عدو أن ذلك من قبل نفسه مستبداً به وليس من قبل سيده، فإذا قرره السيد على هذا واعترف العبد بأن ذلك [7] كما قال السيد انقطعت حجة من ظن خلافه وتوهم استقلال العبد، فعلى هذا النحو والله أعلم وردت الآية الكريمة ولذلك تكرر فيها مع تكرر [8] الآيات قوله تعالى: «بإذني» وتكرر ذلك أربع مرات عقب أربع آيات مما خص به، عليه السلام، من خلق الطير والنفخ فيه فيحيا وإبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى وهي

---

(1) سقط من ن 3.
(2) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(3) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(4) في ن 4: مما: وبه أيضاً يستقيم المعنى.
(5) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(6) في ن 3 وإزغام وهو خطأ في الرسم.
(7) في ن 3 أن ذلك والسياق يقتضي الباء.
(8) في ن 3: ذكر ولا يستقيم بذلك المعنى.

الآيات التي ضل بسببها من ضل من النصارى وحملتهم على قولهم بالتثليث تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [1]، فأعلم الله سبحانه أن تلك الآيات بإذنه، وأكد ذلك تأكيداً يرفع توهم حول أو قوة لغير الله سبحانه أو استبداد ممن ظنه، ونزه نبيه عيسى، عليه السلام، عن نسبة شيء من ذلك لنفسه مستقلاً بإيجاده أو ادعاء فعل شيء إلا بقدرة ربه سبحانه وإذنه، وبرأه من شنيع مقالتهم.

ويزيد هذا الغرض بياناً ما أعقبت به هذه الآية من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ... الآيات﴾ [2] فهل هذا للنصارى إلا أعظم توبيخ وتقريع والمقصود منه جواب عيسى، عليه السلام، بقوله [3] في إخبار الله سبحانه عنه: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [4] فافتتح بتنزيه ربه ثم نفى عن نفسه ما نسبوا إليه وأتبع بالتبري والتسليم لربه فقال: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ [5]، فآية آل عمران بشارة وإخبار لمريم، وآية المائدة واردة فيما يقوله سبحانه لعيسى، عليه السلام، توبيخاً للنصارى كما بينا، فلما اختلف القصدان اختلفت العبارتان.

الآية الثامنة قوله تعالى: مخبراً عن قول عيسى، عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ [6]، وفي سورة مريم: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي

---

(1) سورة المؤمنين: آية 91.
(2) سورة المائدة: آية 116.
(3) في ن 3: في قوله والأنسب بقوله.
(4) سورة المائدة: آية 116.
(5) سورة المائدة: آية 116.
(6) سورة آل عمران: آية 51.

وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾[1]، فعطف الآية على ما قبلها بواو النسق. (وفي سورة الزخرف[2]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾)[3] بغير حرف النسق مع زيادة الفصل بالضمير من قوله هو، ولم يقع ذلك في الآيتين قبل، كما لم يقع العطف في الأولى والثالثة، فانفردت كل آية من الثلاث بما وردت عليه مع اتحاد المقصد فيما أعطته كل واحدة منها. فللسائل أن يسأل عن ذلك.

والجواب، والله أعلم، إن آية مريم لما تضمنت مقالة عيسى، عليه السلام، وآية كلامه في المهد مخبراً[4] عن حاله النبوية وما منحه الله من الخصائص الاصطفائية فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ آتَانِيَ ٱلْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً﴾[5] إلى ما أعقب به هذا من الخصائص الجليلة[6] منسوقاً بعضها على بعض ليبين[7] تعداد تلك النعم إلى قوله: ﴿وَٱلسَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً﴾[8]، فذكر ما حفظ الله عليه من كرامته في هذه الأحوال الثلاثة البشرية وهي: حال الولادة، وحال الموت، وحال البعث بعده، وهذه أحوال تتنزه الربوبية عنها وتتعالى عن تجويزها عليه سبحانه، وإذا صحبتها السعادة لم تكن

(1) سورة مريم: آية 36.
(2) سورة الزخرف: آية 64.
(3) ما بين القوسين بهامش ن 2.
(4) في ن 4 عبر ولا يستقيم بذلك المعنى.
(5) سورة مريم: آية 30-31.
(6) في ن 4: الجلية وهو خطأ.
(7) في ن 4 مستوفاً وهو خطأ لا يستقيم به المعنى.
(8) في ن 3 ليبين.
(9) سورة مريم: آية 33.

نقصاً في البشرية إذ بها امتيازها، وهي من حيث الحيوانية الحادثة فصلها. ثم لما كان من تمام إخبار عيسى، عليه السلام، وتعريفه بما عرف به وتكميل ما قصد (به)[1] إقراره[2] لله سبحانه بالربوبية للكل في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾[3] وكان متصلاً بما تقدم وكأن قد قال: إني عبد الله ومخصوص منه بكذا وكذا ومعترف بانفراد خالقي بملك الكل وقهرهم وخلقهم فهو ربهم ومالكهم والمعبود الحق، فلما كان الكلام من حيث معناه متصلاً، وقد ورد أثناءه (ما يعطي بظاهره)[4] حين أخبر تعالى عنه بقوله، عليه السلام: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[5] إن كلام عيسى، عليه السلام، قد تم وانقضى وشرع في قضية أخرى من التعريف بحقيقة أمر عيسى، عليه السلام، فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ تَمْتَرُونَ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[6]، فورد هذا مورد الجمل التي كأنها مفصولة مما قبلها مع الحاجة إليها واتصال ما بعدها بما قبلها[7] لم يكن بد من حرف النسق ليحصل منه أنه كلام غير منقطع بعضه من بعض ولا مستأنف، بل هو معطوف على ما تقدمه من كلام عيسى، عليه السلام، فلم يكن بد من حرف النسق لإحراز هذا الالتحام إذ لم يكن ليحصل دون حرف النسق

---

(1) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(2) في ن 1، ن 2، ن 3: افراده وما ورد في ن 4 أولى ويؤكده تعديته باللام.
(3) سورة مريم: آية 36.
(4) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(5) سورة مريم: آية 33.
(6) سورة مريم: آية 35.
(7) في ن 4: ما قبلها بما بعدها، عكس ما في بقية النسخ وهو غير مناسب.

حصوله معه فقيل: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾[1] وهو حكاية قول عيسى متصلاً من حيث معناه بقوله: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[2]، فالوجه عطفه عليه مع الحاجة إلى ما توسط الكلامين[3] فهذا وجه ورود الواو هنا، ولم يعرض في آية آل عمران فصل بين الآية وما قبلها يوهم انقطاعاً فيحتاج إلى الواو فهذا وجه دخولها في هذه الآية، والله أعلم.

وأما زيادة الضمير الفصلي في سورة الزخرف فيحرز بمفهومه[4] معنى ضرورياً دعا إليه ما تقدم في الآية (قبله)[5] وذلك ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصُدُّونَ﴾[6] إلى ما يتلو هذه. ففي التفسير أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ الآية[7] تعلق بها الكفار وقالوا قد عبدت الملائكة وعبد المسيح وأنت يا محمد تزعم أن عيسى[8] نبي مقرب وأن الملائكة عباد مقربون فإذا كان هؤلاء مع آلهتنا في النار فقد رضينا وجادلوا بهذا فأنزل الله تعالى[9]: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا ٱلْحُسْنَى (أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ)﴾[10]وهذا مبسوط في كتب التفسير، فلما كان قد

---

(1) سورة مريم: آية 36.
(2) سورة مريم: آية 33.
(3) في ن 3: بين الكلامين.
(4) في ن 4: مفهومه بدون الياء.
(5) بهامش ن 2.
(6) سورة الزخرف: آية 57.
(7) سورة الأنبياء: آية 98.
(8) في ن 3: المسيح.
(9) سورة الأنبياء: آية 101.
(10) سقط من ن 3.

تقدم في سورة الزخرف ذكر آلهتهم وقولهم: ﴿آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾[1] يعنون المسيح ناسبه ما أعقب به من قوله تعالى حاكياً عن المسيح، عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾[2]، فكأن قد قيل: هؤلاء غيره، فأحرز «هو» هذا المعنى، ولم يرد[3] في آية آل عمران وآية مريم من ذكر آلهتهم ما ورد هنا فلم يحتج إلى الضمير المحرز لما ذكرنا، وسنورد إن شاء الله في قوله تعالى في سورة والنجم: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾[4]، قوله بعد: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾[5] بإثبات هذا الضمير في أربعة مواضع، وكونه لم يثبت في قوله: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ﴾[6] ولا في قوله: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَى﴾[7] ولا في قوله: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَى﴾[8] وتوجيه ذلك والفرق بين ما ورد فيه منها الضمير وما لم يرد فيه ما يوضح وجه وروده في آية الزخرف وسقوطه في الآتين قبلها أتم إيضاح وأشفاه، ومن هذا قوله: تعالى: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾[9] فأنت هنا كهو فيما ذكر ومحرزة ذلك المعنى من إفراد المشار إليه بالضمير[10]بما حصله الخبر، فتأمله فإنه بين فيما ذكرناه، والله أعلم.

---

(1) سورة الزخرف: آية 58.
(2) سورة الزخرف: آية 64.
(3) في ن 3 لم ير والصحيح لم يرد.
(4) سورة النجم: آية 43-44.
(5) سورة النجم: آية 48-49.
(6) سورة النجم: آية 45.
(7) سورة النجم: آية 47.
(8) سورة النجم: آية 50.
(9) سورة المائدة: آية 117.
(10) في ن 4: فالضمير ولا محل للفاء هنا.

الآية التاسعة: قوله تعالى[1]: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ ٱللَّهِ آمَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[2]، وفي سورة المائدة: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتَ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾[3] فحذفت النون من «أَنَّا» في آية آل عمران تخفيفاً وثبتت في آية المائدة فقيل: «أَنَّنَا» مع أن التخفيف بالحذف جائز (فيهما والإثبات جائز)[4] وهو الأصل، فللسائل أن يسأل عن وجه تخصيص كل (من)[5] الموضعين بما ورد فيه؟

والجواب عن ذلك والله أعلم، أن آية المائدة لما ورد فيها التفصيل فيما[6] يجب الايمان به وذلك قوله: ﴿أَن آمنوا بي وبرسولي﴾ فجاء على أتم عبارة في المطلوب وأوفاها ناسب ذلك ورود «أننا» على أوفى الحالين وهو الورود على الأصل. ولما لم يقع إفصاح بهذا التفصيل في آية آل عمران حين قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ ٱللَّهِ آمَنَّا بِٱللَّهِ﴾[7] فلم يقع هنا «وبرسوله» إيجازاً للعلم به وشهادة السياق[8] ناسب هذا الإيجاز الإيجاز كما ناسب الإتمام في آية المائدة الإتمام فقيل هنا: ﴿وأشهد بأنا مسلمون﴾، وجاء كل على ما يجب، ولو قدر ورود العكس لما ناسب[9]، والله سبحانه أعلم بما أراد.

---

(1) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.

(2) سورة آل عمران: آية 52.

(3) سورة المائدة: آية 111.

(4) سقط من ن 3.

(5) في ن 4: بما ولا يستقيم بذلك المعنى.

(6) سقط من ن 3.

(7) سورة آل عمران: آية 52.

(8) في ن 4 وشادة السياق وهو خطأ.

(9) في ن 3 تناسب.

الآية العاشرة: غ ـ قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ﴾[1]، وفي سورة براءة: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾[2] إن قيل: إن الآيتين قد اتفقتا في أن المذكورين[3] فيهما قد وقع منهما[4] كفر بعد إجابة وإذعان فلم عبر عنه في آية آل عمران بالايمان وفي آية التوبة بالإسلام؟

والجواب أن ذلك لاختلاف حال من عني بهما، وقد ذكر المفسرون أن آية آل عمران نزلت في الحارث بن سويد[5] الأنصاري[6] وكان قد أسلم ثم ارتد ولحق بالكفار ثم ندم فأرسل إلى قومه ليسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم هل له من توبة فسألوا فنزلت الآية فكتبوا بها (إليه)[7] فأسلم وحسن إسلامه ولم يكن في إسلامه أولاً من عرف بنفاق ولا أنه أبطن خلاف ما ظهر منه من[8] إسلامه، فكانت حاله حال إيمان وتصديق صحيح لم يظهر خلافه وذلك هو الإيمان، فناسب حاله وصفه بالإيمان وهو التصديق بالقلب.

---

(1) سورة آل عمران: آية 86.

(2) سورة التوبة: آية 74.

(3) في ن 1، ن 2، ن 3: المذكور وهو خطأ ويؤكده ما جاء بعد.

(4) في ن 4: منه.

(5) في ن 4: ابن الأسود، والصحيح ابن سويد كما هو في أسباب النزول، للواحدي، ص 83.

(6) الحارث بن سويد الأنصاري: قال ابن الأثير اتفق أهل النقل على أنه الذي قتل المجذر بن زياد فقتله النبي صلى الله عليه وسلم به وفي هذا خلاف بين العلماء فمنهم من يرى أن المقصود بذلك أخوه الجلاس وليس هو وورد أنه ارتد ولحق بالكفار فنزل فيه قوله تعالى: ﴿كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم﴾. وفي هذا خلاف وتفصيل ذلك في الإصابة، ج 1، ت 1423.

(7) سقط من ن 4.

(8) في ن 4: في، وهذا لا يناسب السياق.

أما آية التوبة فنزلت في الجلاس[1] حين قال في غزوة (تبوك)[2]: لئن كان ما يقول محمد حقاً لنحن شر من الحمر، فنمي ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستدعاه فحلف ما قال وكان منافقاً معروف النفاق يتظاهر بالإسلام ويبطن خلافه فأنزل الله في قضيته[3] ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾[4] (فقيل هنا: «بعد إسلامهم»)[5] مناسبة للحال، إذ الإسلام يقع في الغالب على الإنقياد في الظاهر[6] وقد لا يكون المتصف به مصدقاً بقلبه، قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[7]. وروي أن الجلاس أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه. فاختصاص كل آية منها بالوصف الوارد فيها بين لاختلاف (الحالين)[8]، وفي كل من السببين قصة[9] ذكرها المفسرون وأهل السير.

---

(1) في ن 1، ن 4: الخلاس بالخاء، والصحيح الجلاس بالجيم، وقد ورد ذكره في التفسير الكبير للرازي 136/16 بالخاء، والجلاس هو الجلاس بن سويد بن الصامت الأنصاري، كان من المنافقين ثم تاب وحسن إسلامه قيل إنه كان ممن تخلف من المنافقين ونزل فيه القرآن وحكى العذري أنه هو الذي قتل المجذر بأبيه سويد، ثم قال والصحيح أخوه الحارث. له ترجمة مطولة في الإصابة، ج 1، ت 1176.

(2) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.

(3) في ن 2، ن 4: قصته.

(4) سورة التوبة: آية 74.

(5) بهامش ن 2.

(6) في ن 3: بالظاهر، وما ورد في النسخ الأخرى أنسب.

(7) سورة الحجرات: آية 14.

(8) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.

(9) بهامش ن 3.

الآية الحادية عشرة: غ ــ قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[1]، وفي النحل: ﴿وَلكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[2]. للسائل أن يسأل عن ورود كان الناقصة في آية النحل[3] وعرو آية آل عمران[4] عنها مع اتحاد المعنى المقصود في الموضعين لاجتماع المذكورين فيهما في ظلمهم أنفسهم.

والجواب عن ذلك والله أعلم ان آية آل عمران إنما نزلت في المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم الحاضرين عند نزول الآية فورد الإخبار مساوقاً لحالهم في وقت نزول الآية وما يلي ذلك متصلاً به من الزمان فلم يكن لدخول كان التي تقتضي وقوع الشيء فيما تقدم من الزمان معنى تحرزه، وأما آية النحل فإخبار عمن تقدم زمانهم وعظ به غيرهم يبين ذلك قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾[5]، ثم قال: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾[6] فالإخبار عن هؤلاء القبليين[7] المشبه[8] بهم من بعدهم من معاصريه صلى الله عليه وسلم فأحرزت كان هذا المعنى ولاءمت الموضع ولم تكن لتلائم آية آل عمران ولا الوارد في آية آل عمران ليناسب ما قصد في آية النحل، فجاء كل على ما يجب، والله أعلم.

---

(1) سورة آل عمران: آية 117.
(2) سورة النحل: آية 33.
(3) في ن 1، ن 2، ن 3: آل عمران، وهو خطأ.
(4) في ن 1، ن 2، ن 3: النحل، وهو خطأ.
(5) سورة النحل: آية 33.
(6) سورة النحل: آية 33.
(7) في ن 2: القبيلتين، وهو خطأ بين.
(8) في ن 4: أشبه، ولا يتناسب ذلك مع المعنى المراد.

الآية الثانية عشرة: قوله تعالى[1]: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ (وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ)﴾[2]، وفي سورة الأنفال[3]: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [4]. للسائل أن يسأل فيقول: مقصود الآيتين واحد في الموضعين من حيث المعنى وهما لقوم بأعيانهم وهم أهل بدر، رضي الله عنهم، فما وجه زيادة «لكم» في آية آل عمران ولم تزد في الأخرى؟ وتقديم القلوب على المجرور هنا وتأخيرها عنه في آية الأنفال؟ واستئناف تأكيد الإخبار بالصفتين العليتين في سورة الأنفال بإن ولم (تردا جاريتين) [5] على آسم الله سبحانه كما في آية آل عمران؟ فهذه ثلاث سؤالات.

والجواب عن الأول والثاني، والله أعلم: أن آية آل عمران لما تقدم فيها [6] قوله تعالى: ﴿وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ﴾ [7] والإخبار عن عدوهم فاختلط ذكر الطائفتين وضمهما كلام واحد فجردت [8] البشارة لمن هدي منهما وانها لأولياء الله المؤمنين، فجيىء بضمير خطابهم متصلاً بلام الجر المقتضية الاستحقاق فقيل: «بشرى لكم»، وبين أن

---

(1) سورة آل عمران: آية 126.
(2) بهامش ن 4.
(3) بهامش ن 2.
(4) سورة الأنفال: آية 10.
(5) غير واضح في ن 4.
(6) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(7) سورة آل عمران: آية 125.
(8) في ن 1، ن 3، ن 4: فحرزت وهو خطأ.

قلوبهم هي المطمأنة بذلك فقيل: ﴿ولتطمئن قلوبكم به﴾، فقدمت القلوب على المجرور اعتناء وبشارة ليمتاز أهلها ممن ليس لهم نصيب. أما آية الأنفال فلم يتقدم فيها ذكر لغير المؤمنين فلم يحتج إلى الضمير الخطابي في لكم، وأيضاً فإن آية الأنفال قد تقدم قبلها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾[1] فأغنى عن عودته فيما بعده اكتفاء بما قد حصل مما تقدم من تخصيصهم بذلك.

والجواب عن السؤال[2] الثالث: ان آية الأنفال تقدم فيها أوعاد جليلة كقوله تعالى: ﴿وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين انها لكم﴾ ثم قال: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَنْ يُحِقَّ ٱلحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَافِرِينَ﴾[3] (ثم قال)[4] ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[5]، فهذه أوعاد علية[6] لم يتقدم إفصاح بمثلها في آية آل عمران فناسبها تأكيد الوصفين العظيمين من قدرته جل وتعالى على كل شيء وحكمته في أفعاله فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[7]، ولما لم يقع في آية آل عمران إفصاح بما في آية الأنفال وردت الصفتان تابعتين دون تأكيد، وجاء كل على ما يناسب، ولم يكن عكس الوارد في تعقيب الآيتين ليناسب، وذلك واضح، والله أعلم.

---

(1) سورة الأنفال: آية 7.
(2) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(3) سورة الأنفال: آية 7.
(4) سقط من ن 4.
(5) سورة الأنفال: آية 8.
(6) في ن 4: عليه، وهو خطأ لا يؤدي المعنى.
(7) سورة الأنفال: آية 10.

الآية الثالثة عشرة: غ ـ قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَاوَاتُ وَٱلْأَرْضُ... الآيـة﴾[1]، وفي سورة الحديد: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ... الآية﴾[2]، والمراد في الموضعين الحث على المبادرة إلى أفعال البر وجزيل الثواب، للممتثل، وقد اختلفت عبارة الأمر بذلك في الموضعين فحذف المضاف في الأولى وجيء في الثانية بكاف التشبيه عوضاً منه، وقيل في الأولى: ﴿عرضها السماوات﴾ على الجمع وأفرد في الثانية فقيل: ﴿عرضها كعرض السماء والأرض﴾، فيها ثلاثة أسؤلة.

والجواب عن الأول، والله أعلم: ان المسارعة إلى الشيء قبل مسابقته، قـال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾[3]، وقد أوضحنا في كتاب البرهان[4] أن ترتيب السور بتوقيف على أصح المأخذين وأما ترتيب الآي فلا توقف فيه[5] وان ذلك كله معتمد فيه غير ترتيب النزول، وإذا ثبت هذا فوجه تقديم لفظ «سارعوا» تقديم المسارعة ووجه تأخير سابقوا بناء المسابقة على المسارعة، ألا ترى أن المسارع إلى الشيء قد يحصل لـه ما سارع إليه وقـد لا يحصل، ولا يقال في الغالب سبق الا فيمن تحصل له مطلوبه هذا هو الأكثر، والمسارعة متقدمة في الرتبة[6] قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ

---

(1) سورة آل عمران: آية 133.

(2) سورة الحديد: آية 21.

(3) سورة المؤمنين: آية 61.

(4) أنظر ما يتعلق بمؤلفات ابن الزبير في المقدمة 93.

(5) في ن 1، ن 2: فلا توقيف، وفي ن 4: فلما توقف فيه.

(6) في ن 3: والمسارع متقدم، وفي ن 4: بالمسارعة فتقدمه بالترتيب، وفي هذا كله تداخل مخل بالمعنى.

فِي ٱلْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾[1] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا ٱلْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾[2] أي ثبتت وحقت لهم. وعن علي، رضي الله عنه: سبق رسول الله صلى الله عليه وسلم وثنى أبو بكر وثلث عمر...[3]، وقيل في قوله تعالى: ﴿فَٱلسَّابِقَاتِ سَبْقاً﴾[4] انها الملائكة تسبق الجن في (   )[5]، فلما كانت المسارعة والمسابقة على ما ذكرنا ورد المتقدم في الترتيب أولاً والمتأخر ثانياً مراعاة للترتيب.

والجواب عن الثاني، أن آية آل عمران على حذف المضاف كما تقدم أي عرضها مثل عرض السماوات والأرض وقد أفصحت آية الحديد بما (يقوم) [6] مقام هذا المضاف ويحصل معناه وهو كاف التشبيه إذ معناها معنى مثل، وحذف المضاف مما يكون كثيراً عند قصد المبالغة، وكذا جعل الشيء نفس الشيء وهو مما يتقدم [7] في آية آل عمران وهو نحو قول الشاعر:

ان الربيع الجود والخريفا   يدا أبي العباس والصيوفا [8]

---

(1) سورة المؤمنين: آية 61.

(2) سورة الأنبياء: آية 101.

(3) مسند أحمد 112/1، 132، 147.

(4) سورة النازعات: آية 4، في ن 2، ن 4 والسابقات بالواو وهو خطأ.

(5) بياض في النسخ الأربع ربما يكون تقديره: «في إيصال الوحي إلى الأنبياء». قال الفراء والزجاج أن الملائكة تسبق الشياطين بالوحي إلى الأنبياء إذ كانت تسترق السمع (عن التفسير الكبير للرازي 28/31).

(6) في ن 4: هو.

(7) كلمة غير واضحة في ن 4.

(8) البيت لرؤبة في الرجز (الكتاب 333/1) ورؤبة هو: رؤبة بن عبد الله العجاج التميمي السعدي أبو الجفاف من الفصحاء المشهورين يحتج بشعره ويقال بإمامته في اللغة. قال الخليل عند موته: دفنا الشعر واللغة والفصاحة.

أنظر: الاعلام 62/3؛ وفيات الأعيان 187/1؛ خزانة الأدب 43/1.

وهذا كثير، وإليه يرجع الوارد في قولهم: نهارك صائم وليلك قائم، وباب ذلك مما يقصد به المبالغة فيجعل نفس الشيء، وأنشد[1] سيبويه، رحمه الله، نحواً من ذلك[2].

أما النهار ففي قيد وسلسلة   والليل في بطن منحوت من آلسّاج[3]

فجعل النهار في قيد وسلسلة وجعل الليل في بطن منحوت من الساج مبالغة وإنما المجعول الشخص، وقوله تعالى: ﴿عَرْضُهَا آلسَّمَاوَاتُ وَآلْأَرْضُ﴾[4] يمكن إلحاقه بهذا القبيل وان ظن أنه يباينه. والجامع قصد المبالغة كأن السماوات والأرض إذا أوصل بعضها ببعض مصطفاً نفس عرض الجنة، ومن أبيات الكتاب:

لقد لمتنا يا أم غيلان في السّرى   ونمتِ وَمَا ليلُ المَطيّ بنائم[5]

فنفي النوم عن الليل حين جعله نفس الشخص مبالغة كما في البيت قبل[6]، ويمكن في هذا كله حذف المضاف أي ذو ليل المطي وذو النهار وذو الليل، قال[7] الإمام[8]، رحمه الله، لما أنشد هذا البيت

---

(1) في ن 4: أنشأ وهو خطأ بين.
(2) في ن 3 من نحو ذلك.
(3) البيت مجهول قائله، (البحر البسيط). الكتاب 99/1.
(4) سورة آل عمران: آية 133.
(5) البيت لجرير في البحر الطويل.
أنظر: الكتاب، ج 1، ص 99.
(6) في ن 4 قيل وهو خطأ لا يستقيم به المعنى.
(7) في ن 4: فإن.
(8) في ن 3: الأم وهو خطأ والمراد بالإمام سيبويه.

جعله للإسم ومن هذا الضرب ما يتخرج على حذف المضاف ويمتنع ما سواه نحو قوله:

كأن غديرهم بجنوب سلى نعام قاق في بلد قفار[1]

أي كأن غديرهم (غدير)[2] نعام قاق، والغدير الصوت، وتخريج آية آل عمران على (هذا)[3] أوضح، وكلا الضربين يحرز المبالغة وبالجملة فقصد المبالغة في مثل ما تقدم يستلزم في الغالب الإيجاز إما بالحذف وإما (بجعل)[4] الشيء نفس الشيء أو بتكرر لفظ يفهم بتكرره التهويل والتعظيم ويقوم مقام أوصاف وذكر أهوال كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَاقَّةُ مَا ٱلْحَاقَّةُ﴾[5] و﴿ٱلْقَارِعَةُ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾[6]، وقد ذكر سيبويه، رحمه الله، هذه الضروب في أبواب شتى لافتراقها في أحكام تقتضي تفصيل (التبويب)[7] مع اتفاقها في ما ذكرنا وفي جري الإيجاز في جميعها، ولما اتصل بقوله: «عرضها» في آية آل عمران وهو مبتدأ والخبر عنه مجموع فقيل: «السماوات» فأفصح الجمع ما مهدناه من قصد المبالغة والتعظيم، ثم اتبع ذلك ما يحرز مقصود ذلك من التعظيم والمبالغة أيضاً وهو وصف من أعدت له الجنة الموصوفة، ووسمهم بالمتقين وهم الذين وفوا بالإيمان وتوابعه التي بها يكمل مما ذكر في آية: «ليس البر» من لدن

---

(1) البيت للنابغة الجعدي، (البحر الوافر).
الكتاب 132/1.

(2) سقط من ن 3.

(3) بهامش ن 4.

(4) بهامش ن 2.

(5) سورة الحاقة: آية 1-2.

(6) سورة القارعة: آية 1-2.

(7) كلمة غير واضحة في ن 4.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ إلى قوله ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[1]، ولم يكن قوله تعالى: «عرضها السماوات» بالجمع كقوله في آية الحديد «كعرض السماء» فأفرد، ولا قوله ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ كقوله في آية الحديد: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾، فلما تضمنت آية آل عمران من قصد المبالغة من هذه الجهات والقرائن التي ذكرنا ما لم تتضمن آية الحديد ناسب ذلك جعل العرض نفس السماوات والأرض من غير إفصاح بالمضاف المقدر الذي لا بد منه عند بيان المعنى على ما تقدم، ولما لم يقصد في آية الحديد ذلك أفصح فيها بما يعطي معنى مثل وهي كاف التشبيه، وورد كل على ما يناسب ويلائم.

فإن قيل: لم خصت آية آل عمران بما تمهد من قصد المبالغة والتعظيم دون آية الحديد، قلت: لبنائها على الحض على الجهاد وعظيم فضله وذكر قصة بدر واحد من لدن قوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾[2] إلى ما بعد الآية المتكلم فيها، ولما لم يكن في آية الحديد شيء من ذلك ناسب كُلًّا ما ورد (فيه)[3] والله أعلم.

الآية الرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَامِلِينَ﴾[4]، وفي سورة العنكبوت: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ

---

(1) سورة البقرة: آية 177.
(2) سورة آل عمران: آية 121.
(3) سقط من ن 4.
(4) سورة آل عمران: آية 136.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَامِلِينَ﴾[1]. للسائل أن يسأل عن وجه العطف في الأولى وقوله في الثانية: ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَامِلِينَ﴾ غير معطوف على ما قبله.

ووجه ذلك والله أعلم أن الآية الأولى لما وقع فيها ذكر الجزاء مفصلاً معطوفاً فقيل: ﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ (فِيهَا)﴾[2] ناسبه أن عطفت الجملة الممدوح بها الجزاء فقيل: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ﴾، ولما لم يفصل الجزاء في سورة العنكبوت (ولا وقع)[3] فيه عطف جاءت جملة المدح غير معطوفة ليتناسب النظم، والله أعلم.

الآية الخامسة عشرة: غ ـ قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾[4]، وفي الجمعة: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾[5]. للسائل (أن يقول: إن مقصد)[6] الآيتين الإخبار بامتنانه تعالى على العرب بأن بعث فيهم رسولاً منهم ولم يكن من غيرهم ثم اختلفت العبارة في البيان فقيل في الأولى: «من أنفسهم» وفي الثانية: «منهم» فيسأل عن وجه ذلك؟

والجواب عَنْ ذلك: أن قولك: (فلان)[7] من أنفس القوم أوقع

---

(1) سورة العنكبوت: آية 58.
(2) سقط من ن 4.
(3) في ن 4: ولم يقع.
(4) سورة آل عمران: آية 164.
(5) سورة الجمعة: آية 2.
(6) في ن 4: أن يسأل عن مقصد، وهذا لا يناسب السياق.
(7) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.

في القرب والخصوص من قولك فلان منهم، فإن هذا قد يراد للنوعية فلا يتخلص لتقريب المنزلة والشرف الا بقرينة، أما «من أنفسهم» فأخص، فلا يفتقر إلى قرينة ولذلك وردت حيث قصد التعريف بعظيم النعمة به صلى الله عليه وسلم على أمته وجليل إشفاقه وحرصه على نجاتهم ورأفته ورحمته، بهم، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾[1] وقال تعالى فيمن كان على الضد من (حال)[2] المؤمنين المستجيبين: ﴿وَلَقَدْ جاءهم رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ﴾[3]، فتأمل موقع قوله هنا: «منهم» لما قصد أنه إنعام عليهم لم يوفقوا لمعرفة قدره ولا للاستجابة المثمرة النجاة فقيل هنا: «منهم» فأما قوله صلى الله عليه وسلم: «سلمان منا أهل البيت»[4] بأنه لما لم يكن، رضي الله عنه، من قريش وأراد، عليه السلام، تقريبه وتشريفه عبر بما يعطي ذلك ولا يخص خصوص قوله: من أنفسنا وانما تخلص لحرف[5] الخصوصية بقرينة قوله عليه السلام: ﴿(سلمان[6] منا أهل البيت﴾، وأما قوله عليه السلام)[7] في فاطمة: إنما هي بضعة مني[8] فقد تحصل فيه أتم

---

(1) سورة التوبة: آية 128.

(2) بهامش ن 4.

(3) سورة النحل: آية 113.

(4) الاستيعاب في أسماء الأصحاب بهامش الإصابة، ج 2، ص 56.

(5) في ن 3: لحذف. وهذا منافر للمعنى، وفي ن 4: طرف وهو فصيح في لسان العرب الحرف في الأصل الطرف والجانب.

(6) سلمان الفارسي، صحابي كان يسمي نفسه سلمان الإسلام، أصله من مجوس أصبهان هو الذي دل المسلمين على حفر الخندق في غزوة الأحزاب (ت 36هـ/ 656م). أنظر: الاعلام 169/3؛ الإصابة ت 3350.

(7) ما بين القوسين بهامش ن 2.

(8) البخاري: فضائل الصحابة 12-16.

خصوص من وجهين: أحدهما قوله عليه السلام: «مني» وهذا أخص من قوله عليه السلام: منا (فتأمله)[1] فهو مناف للشياع الداخل في قوله منا، والثاني قوله: بضعة فجعلها عليه السلام جزءاً منه وذلك أعلى خصوص. وأما قوله عليه السلام «مولى القوم منهم»[2] فالمراد منه تقريب الولاء من النسب وليس من أنفسهم، وقد تقدم أن قوله: «من أنفسهم» في مقابلة قوله: «منهم»، وان «منّا» دونه في الشياع، «ومنّي»[3] أخص وأبعد في الشياع، فتأمل هذا. ولما كان لفظ الآيتين يتناول قريشاً وغيرهم من العرب ممن ليس من أهل الكتاب قيل: «منهم»، فناسب هذه الكناية بما فيها من الشياع الذي مهدناه عموم الأميين من العرب ممن أسلم ومن لم يسلم، ولما قال في آية آل عمران: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[4] فخص من أسلم ناسب ذلك قوله: «من أنفسهم» لخصوصه كما تقدم، ولم يكن العكس ليناسب، والله أعلم.

الآية السادسة (عشرة)[5]: غ ـ قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾[6]، وفي سورة الفتح: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾[7]، للسائل أن يسأل فيقول: إن مقصود الآيتين قد اتحد لأن حاصله التعريف بأن كلا من المذكورين في الآيتين أظهر خلاف

---

(1) سقط من ن 3.
(2) البخاري: مناقب 14؛ فرائض 24.
(3) في ن 1، ن 2، ن 4: وهي وهو خطأ يختل به المعنى.
(4) سورة آل عمران: آية 164.
(5) سقط من ن 3.
(6) سورة آل عمران: آية 167.
(7) سورة الفتح: آية 11.

ما أبطن، فلم قيل في الأولى: «بأفواههم» وفي الثانية: «بألسنتهم» مع اتحاد المعنى؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن قوله في الأولى: «بأفواههم» ينبىء عن مبالغة واستحكام وتمكن في اعتقاد أو قصد لا يحصل من قوله: «بألسنتهم»، ألا ترى قولهم: تكلم بملء فيه حين يريدون المبالغة، وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾[1]. والمراد المبالغة في منعهم عن الكلام، وإذا ختم على الأفواه امتنعت الألسنة عن النطق، وكان أحكم في المنع. ولما كان المراد بالآية الأولى الإخبار عن المنافقين كعبد الله بن أبي[2] وأصحابه ممن استحكم نفاقه وتقرر فقال يوم أحد ما حكى الله تعالى من قولهم في المخالفين لهم من الأنصار ممن أكرمه الله بالشهادة في ذلك اليوم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾[3]، إلى ما قالوه من هذا ثم وروا عنه بقولهم لصالحي المؤمنين: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ [4] فأخبر تعالى عنهم بما أكنّوه من الكفرَ فقال تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾، فناسب الإبلاغ في قوله تعالى: «بأفواههم» ما انطووا عليه واستحكم في قلوبهم من الكفر، وأما آية الفتح فاخبار عن أعراب ممن قال تعالى

---

(1) سورة يس: آية 65.

(2) عبد الله بن أبي، المعروف بابن سلول نسبة لجدته لأبيه (ت 9هـ/ 630م) من خزاعة رأس المنافقين في الإسلام. أظهر الإسلام بعد وقعة بدر تقية. خذل الرسول والمسلمين في وقعة أحد ويوم تبوك ولما مات صلى عليه رسول الله فنزل قوله تعالى: ﴿ولا تصل على أحد منهم. . .﴾ الآية.

أنظر: الاعلام 188/4؛ تاريخ الخميس 140/2؛ الجمهرة 335.

(3) سورة آل عمران: آية 168.

(4) سورة آل عمران: آية 167.

فيهم: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾[1] وهؤلاء لم يستقر نفاقهم كالآخرين وإنما أخل بهم قرب[2] عهدهم بالكفر وإن لم يتقرر الإيمان في قلوبهم لكن لا عن نفاق كنفاق الآخرين، قال تعالى مخبراً عن هؤلاء الأعراب[3]: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا (فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا)﴾[4] فعن هؤلاء قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾[5]، فعبر بالألسنة إشعاراً بأن حال هؤلاء ليس كحال المنافقين المقصودين في آية آل عمران. فلاختلاف حال الطائفتين اختلفت العبارة[6] عما صدر منهم، وورد[7] كل على ما يناسب ولم يكن عكس الوارد ليناسب، والله أعلم.

الآية السابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاؤُوا بِٱلْبَيِّنَاتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَابِ ٱلْمُنِيرِ﴾[8]، وفي سورة الملائكة: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾[9]، ورد في هاتين الآيتين المفعول المقام مقام الفاعل وهو رسل مكسر والأسم المجموع جمع تكسير يجوز فيه التذكير والتأنيث، فورد في الآية الأولى: «فقد كذب» على رعي التذكير ولم يقرأ بغيره، وفي الآية الثانية:

---

(1) سورة الحجرات: آية 14.
(2) في ن 3: أقرب، وهو خطأ بين.
(3) سورة الفتح: آية 11.
(4) سقط من ن 3.
(5) سورة الفتح: آية 11.
(6) في ن 3: للعبادة، وهو خطأ بين يخل بالمعنى.
(7) مكرر في ن 3.
(8) سورة آل عمران: آية 184.
(9) سورة الملائكة ــ فاطر: آية 4.

«فقد كذبت» على (معنى) [1] التأنيث لزوماً أيضاً مع وحدة اللفظ في المرفوع المفعول وما يجوز فيه من التذكير والتأنيث، فيسأل عن ذلك.

والجواب والله أعلم أن كلا الآيتين مراعى فيه ما يلي تابعاً للمرفوع من الوصف في الأولى وما عطف في الثانية. أما الأولى فقال تعالى: ﴿جاؤوا بالبينات﴾. ولا يمكن هنا الا هذا فجرى على ما هو الأصل في جمع المذكر المكسر من التذكير فلم تلحق الفعل علامة التأنيث، وأما آية الملائكة فلحقت التاء الفعل رعياً لما عطف على الآية من قوله: ﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾، فليس في هذا الا التأنيث سواء بني الفعل للفاعل أو للمفعول فنوسب بين الآيتين فقيل: «كذبت» على الجائز الفصيح في تأنيث المجموع المكسر ليحصل التناسب، ولا يمكن عكس الوارد في الآيتين، والله أعلم.

الآية الثامنة عشرة: غ ــ قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [2]، وفي سورة لقمان: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [3] بغير لام في خبر إن في الآيتين وفي سورة الشورى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [4] فزيد في هذه الآية اللام المذكورة في الخبر فقيل: ﴿لمن عزم الأمور﴾، فللسائل أن يسأل عن الفرق.

والجواب، والله أعلم: اختلاف ما وقع الحض على الصبر عليه في هذه الآيات وأشير إليه بذلك وأنه [5] من عزم الأمور أما الأولى فإن

(1) سقط من ن 3.

(2) سورة آل عمران: آية 186.

(3) سورة لقمان: آية 17.

(4) سورة الشورى: آية 43.

(5) في ن 1، ن 2، ن 4: فإنه.

قبلها: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً﴾[1] فوقع الإخبار بالابتلاء في الأموال والأنفس وسماع الأذى ممن ذكر فعرفوا بثلاثة ضروب وأمروا بالصبر عليها وهي أربعة أشياء بالتفات التفصيل[2] في المسموع منه الأذى واعلموا أن الصبر عليها من عزم الأمور، وأما آية لقمان فأشير فيها بذلك إلى أربع خصال أمر بها لقمان ابنه وذلك قوله: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾[3] وأتبعت بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾، والأربعة في الآيتين من العدد القليل، وأما آية الشورى فالإشارة فيها بقوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ إلى اثني عشر مطلوباً من لدن قوله تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾[4]، وهذه إشارة إلى التنزه عن ذلك. ثم قيل للذين آمنوا: ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[5]، فالإشارة إلى الإيمان والتوكل التزام ذلك، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾[6] فهذه التزامات ثلاثة، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾[7] فهذه التزامات أربع، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾[8]

---

(1) سورة آل عمران: آية 186.
(2) في ن 1، ن 2، ن 4: الشخصين.
(3) سورة لقمان: آية 17.
(4) سورة الشورى: آية 36.
(5) سورة الشورى: آية 36.
(6) سورة الشورى: آية 37.
(7) سورة الشورى: آية 38.
(8) سورة الشورى: آية 39.

فأشار إلى أن هؤلاء لا يظلمون أحداً وإن أقصى ما يقع منهم الانتصار ممن يظلمهم وذلك مباح لهم غير قبيح، وقد قيل بقوله بعد: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾[1]، ثم عرف بحال أجلّ من ذلك وأعلى عملاً فقال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى ٱللَّهِ﴾[2]، وأعلم مع علو هذا الملتزم أن المنتصر من ظلمه ما عليه من سبيل وإنما السبيل إنما هو على ظالمي الناس والباغين، وبعد هذه الخصال النيفة على العشر قال تعالى في التزام جميعها: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[3]، فناسب كثرة هذه الخصال الجليلة زيادة اللام المؤكدة في قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾، ولم يكن في الآيتين قبلها كثرة فناسبها عدم زيادة اللاّم[4]، على أن ما ختمت به آية الشورى من قوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى ٱللَّهِ﴾[5] وهي الخصلة الشاهدة بكمال الإيمان للمتصف بها، فلو لم يكن قبل قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ غيرها لكانت بمعناها أعم من الخصال المذكورة في آية آل عمران إذ تلك الخصال داخلة تحت هذه الخصلة الجليلة ومن منطوياتها، فناسب[6] ذلك أتم المناسبة ولم يكن العكس ليناسب، والله سبحانه أعلم.

* * *

---

(1) سورة الشورى: آية 40.

(2) سورة الشورى: آية 40.

(3) سورة الشورى: آية 43.

(4) في ن 3: يناسبها زيادة اللام، وهذا عكس المراد.

(5) سورة الشورى: آية 40.

(6) في ن 3: فتناسب.

سورة النساء

الآية الأولى منها: غ ـ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾[1]، وفي سورة الأعراف: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[2]، وفي سورة الزمر: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[3]، فيها ثلاثة سؤالات، أحدها: الفرق بين الخلق والجعل، والثاني: وجه تخصيص الأخيرتين بجعل والأولى بخلق، والثالث: وجه ورود ثم في آية الزمر عوضاً من الواو.

والجواب عن الأول أن العبارة بخلق واردة على ما ينبغي ومطابقة للمعنى المقصود وهو المراد بجعل إلا أن جعل ثانية عنها[4] لتوقف الجعل على ما يتقدمه لأن العبارة بخلق (تكون)[5] عند المتسرعين عن عدم سابق، حيث لا تتقدم مادة ولا سبب محسوس، وآستيفاء الكلام (هنا)[6] وتحرير التمثيل يطول وله مظان. وأما الجعل فيتوقف على

---

(1) سورة النساء: آية 1.
(2) سورة الأعراف: آية 189.
(3) سورة الزمر: آية 6.
(4) في ن 4: نائبة عنها، وهو لا يناسب المعنى.
(5) سقط من ن 3.
(6) سقط من ن 4.

موجود مغاير للمجعول يكون منه المجعول أو عنه كالمادة والسبب، ولا يرد في الكتاب (العزيز)[1] لفظ جعل في الأكثر مراداً به الخلق إلا حيث (يكون)[2] قبله ما يكون عنه الجعل أو منه أو سبباً فيه محسوساً عنه يكون ذلك المخلوق الثاني، بخلاف خلق فإن العبارة تقع كثيراً به عما لم يتقدم وجوده وجود مغاير يكون عنه هو الثاني، وقل ما تقع واحدة من العبارتين في القرآن على خلاف ما ذكرناه، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَاتِ وَٱلنُّورَ﴾[3]. وإنما الظلمات والنور عن أجرام توجد بوجودها وتعدم بعدمها، أما السماوات والأرض فليست كذلك أعني أنها لا ترتبط بموجود حادث توجد بوجوده وتعدم بعدمه، وإن قلنا بتقدم مادة حسبما ورد في القرآن في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَى إِلَى ٱلسَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾[4] في الخبر المذكور في خلقها وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً﴾[5]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾[6]، وفي هذه الآية والمتصلة بها قبلها[7] شوب[8] تصيير[9] لتقارب المعنى في التصيير[10] وما يكون عن المادة، فقد لاح الفرق بين خلق وجعل ووجه

---

(1) سقط من ن 4.

(2) سقط من ن 4.

(3) سورة الأنعام: آية 1.

(4) سورة فصلت: آية 11.

(5) سورة الرعد: آية 3.

(6) سورة الزخرف: آية 12.

(7) في ن 3 مثلها.

(8) في ن 4: ثوب وفي لسان العرب: الشوب الخلط، وشاب الشيء خلطه.

(9) في ن 1، ن 2، ن 3: تصير وهو فصيح أيضاً.

(10) في ن 4: التصوير وهو خطأ بين.

تخصيص كل آية مما تقدم بالوارد فيها. وأما ورود جعل في آية الأعراف في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ فلما قصد هنا من معنى السكن (وكأنه أريد نفي المغايرة تقريباً وتأنيساً لحصول الركون والسكن)[1] الذي جعله الله من آياته ونعمه لتستحكم سببية التناسل والتكثير، فكانت جعل أوقع في هذا الغرض، ثم إن الخبر وارد بخلق حواء من ضلع من آدم، فهذا نحو من المتقدم في سورة الأنعام، وعبر في سورة النساء بخلق لمقصود الآية من التعريف بالأولية والابتداء ولمناسبة ما اتصل بها من قوله: «خلقكم» حتى يوافقه من اللفظ ما قصد من المعنى.

وأما الجواب عن السؤال الثالث وهو زيادة «ثم» في سورة الأنعام فلما قصد من الامتنان والإنعام على هذا الجنس الآدمي ولتفاوت ما بين الآيتين العجيبتين من خلق الصنف الإنساني من شخص واحد وخلق زوجه منه فجيء بثم المنبهة[2] على معنى الاعتناء بذكر ما عطف بها والتأكيد لشأنه للمزية على المعطوف عليه القائمة مقام التراخي في الزمان. قال الزمخشري[3] فإن قلت ما معنى قوله: ﴿ثم جعل منها زوجها﴾. وما تعطيه من معنى التراخي؟ قلت: هما آيتان من جملة الآيات التي عددها دالاً على وحدانيته وقدرته وهما تشعب هذا الخلق الفائت للحصر وانتشاره من نفس آدم وخلق حواء من قصيراه، إلا أن إحداهما جعلها الله عادة[4] مستمرة والأخرى (لم يجر بها العادة وَلم تخلق أنثى غير حواء من قصيرَى رجل فكانت أدخل في كونها آية

---

(1) سقط من ن 3.

(2) في ن 3: المبينة، وهذا لا يناسب.

(3) الكشاف 113/4، وقد تصرف المؤلف في نقله عنه.

(4) في ن 1، ن 2: عبادة، والصحيح عادة ويؤكد ذلك المعنى ما بعد.

وأجلب)[1] لعجب السامع فعطفها بثم على الآية الأولى للدلالة على مباينتها لها فضلاً ومزية، وتراخيها عنها فيما يرجع إلى زيادة كونها آية فهو من التراخي في الحال والمنزلة لا من التراخي في الوجود. قلت وعلى هذا المأخذ يسقط الاعتراض بأن «ثم» قد تجري[2] مجرى الواو فلا تقتضي ترتيباً ولا مهلة لأن هذا الاعتراض إنما يتنزل على أن «ثم» تقتضي الترتيب الزماني لزوماً[3]، أما إذا قلنا إنها ترد لقصد التفاوت والتراخي الزماني ولا تحتاج إلى آنفصال عن ذلك الاعتراض ولا أن تقول: إن ثم قد تكون بمعنى الواو، قلت ومن ورود «ثم» لما ذكرنا من تراخي الرتبة قوله جل وتعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ آهْتَدَى﴾[4]، قال الزمخشري[5]: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا آللَّهُ ثُمَّ آسْتَقَامُوا﴾[6]. وكلمة التراخي دلت على ثبات المنزلتين دلالتها على تباين المرتبتين[7] في جاءني زيد ثم عمر، أعني أن منزلة الاستقامة على الخير مباينة لمنزلة الخير نفسه لأنها أعلى منها[8] وأفضل، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾[9]، قال الزمخشري: إن قلت ما معنى ثمّ الداخلة في تكرير

---

(1) سقط من ن 1، ن 2، ن 3 وثبت بهامش ن 4.
(2) في ن 4: جرى وهو خطأ.
(3) في ن 4: وجوباً.
(4) سورة طه: آية 82.
(5) سورة فصلت: آية 30.
(6) الكشاف 80/3.
(7) في ن 4: الرتبتين وهو خطأ بين.
(8) في ن 1، ن 2، ن 4: أعني وفي الكشاف أعلى.
(9) سورة المدثر: آية 18-19.

الدعاء قلت: الدلالة على أن الكرة الثانية أبلغ من الأولى ونحوه قوله[1]:

ألا يا اسلمي ثم اسلمي ثمت اسلمي

أنشده النحويون على إلحاق تاء التأنيث بثم وأنشده الزمخشري[2]، ومثل ذلك: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾[3] قال: جاء بثم لتراخي الإيمان وتباعده في الرتبة والفضيلة عن العتق والصدقة لا في الوقت لأن الإيمان هو السابق المقدم على غيره ولا يثبت عمل صالح إلا به[4]. فثم حيث لا يقصد مهلة الزمان تحرز تنبيهاً على حال ما يعطف بها ومحله والإشارة إلى أنه بحيث أنه لو لم يذكر ما قبله لكان كافياً في المقصود، هذا ما تحصله حيث لا يقصد مهلة الزمان، فلما قصد في آية الزمر الإنعام والامتنان وتعداد ذلك تعظيماً وتفخيماً ورد بثمّ، فقال تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ ٱلْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾[5].

فإن قلت: فقد كان الوجه على هذا (أن)[6] لو قيل: ثم أنزل لكم من الأنعام، قلت: هذه نعمة لا تفتقر لبيان أمرها إلى التنبيه بثمّ، وليست

---

(1) لعله بيت العجاج:

يا دار سلمى يا أسلمي ثم أسلمي   بسمسم أو عن يمين سمسم

من الرجز. عن ديوان العجاج، ص 289، ط بيروت 1971.

(2) الكشاف 549/4.

(3) سورة البلد: آية 17.

(4) الكشاف 757/4.

(5) سورة الزمر: آية 6.

(6) سقط من ن 1، ن 4، وبهامش ن 2.

موضع [1] تغفل أو تخف، وإنما موضع ثمّ حيث يراد الاعتناء والتنبيه على قدر المعطوف بها لاحتمال أن يخفى، فإذا كان غير خاف وبين الاستقلال بنفسه لم يفتقر (إلى هذا) [2] ، ومن حيث قصد معنى الامتنان كانت «جعل» أولى لما تقدم من معناها، فقد وضح ورود كل آية من الثلاث على ما يناسب المقصود من كل واحدة.

الآية الثانية: غ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا ٱلسُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً﴾ [3]، وفي آية أخرى بعد: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُولُو ٱلْقُرْبَى وَٱلْيَتَامَى وَٱلْمَسَاكِينَ فَٱرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً﴾ [4]. للسائل أن يسأل عن زيادة: «واكسوهم» في الأولى وسقوطها في الثانية.

والجواب: إن قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا ٱلسُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ﴾ إنما المراد به السفيه المتصير إليه المال بإرث ولا يحسن القيام عليه فيحجر عليه ماله إبقاء عليه ولا يُمكّن منه إلا بقدر ما يأكله ويلبسه، فالنهي إنما هو للأوصياء، ونسبة المال إليهم مجاز بما لهم فيه من التصرف والنظر، أما الآية الأخرى فليست في شأن أحوال السفهاء وحكمها، وإنما المراد بها المقتسمون لميراث يخصهم لا حق فيه لغيرهم فيحضرهم قريب فقير ويتيم محتاج ومسكين فندبوا إلى التصدق عليهم والإحسان. لا لحق هؤلاء في المال فمن أين تلزم كسوتهم والتنصيص عليها؟ إنما ندبوا إلى

---

(1) في ن 3: بحيث وهذا منافر للمعنى.
(2) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(3) سورة النساء: آية 5.
(4) سورة النساء: آية 8.

الإحسان إليهم بالعفو مما يخف عليهم وسع ذلك كسوتهم أو لم يسع، فافترق مقصد الآيتين، وجاء كل على ما يناسب.

الآية الثالثة: غ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنهارُ خالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[1]، وفي سورة المائدة: غ ـ قوله تعالى: ﴿فَأَثَابَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2]، وفي آخر هذه السورة قوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ ٱلصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبداً رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[3]، وفي سورة براءة: ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَاتُ وَأُولئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[4]، وفي آية منها فيما بعد قوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلْأَنصارِ وَالَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيهَا أَبداً ذَلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[5]، وفي سورة إبراهيم: غ ـ ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتَها ٱلْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾[6]، وفي سورة الكهف: غ ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

---

(1) سورة النساء: آية 13.
(2) سورة المائدة: آية 85.
(3) سورة المائدة: آية 119.
(4) سورة براءة: آية 88-89.
(5) سورة براءة: آية 100.
(6) سورة إبراهيم: آية 23.

ٱلصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ (عَدْنٍ)[1] تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ... الآية﴾[2]، وفي سورة الحديد: ﴿بُشْرَاكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[3]، وفي سورة المجادلة: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمِ ٱلْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[4]، وفي سورة الصف: غ ـ ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾[5]، وفي سورة الطلاق: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُ رِزْقاً﴾[6]، وفي سورة البروج: غ ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ ذَلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾[7]، وفي سورة البريئة: غ ـ ﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ

---

(1) سقط من ن 3.
(2) سورة الكهف: آية 31.
(3) سورة الحديد: آية 12.
(4) سورة المجادلة: آية 22.
(5) سورة الصف: آية 10-12.
(6) سورة الطلاق: آية 11.
(7) سورة البروج: آية 11.

﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [1]. فهذه ثلاث عشرة آية يجمعها التعريف بالجزاء الأخراوي للمؤمنين والإشارة إلى حال آلجزاء ووصفه، وقد عرض فيها مما يسأل عنه مما اتفقت فيه أو اختلفت، وانفرد به بعضها دون بعض، ست سؤالات.

الأول: وهو اتفاق [2] أكثرها في ذكر الخلود وقد كثر اختلافها فيما سوى ذلك. والجواب عنه: أن وجه اتفاق أكثرها على ما ذكر أن كل نعيم ينقطع فليس بنعيم في الحقيقة، وكذلك العذاب، وهذا واضح، فلولا الخلود لما كان نعيماً، فلهذا كثر ترداده مع ضروب الجزاء.

والسؤال الثاني: ما وجه اجتماع الرضا والتأييد في الآية الثانية من المائدة وثانية براءة وآية البريئة ولم يجمع بينهما في البواقي؟ ووجه ذلك والله أعلم أن هذه الآيات على ما يذكر:

أما آية المائدة فقد قال تعالى فيها: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ ٱلصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾[3]، وورد التصديق لعيسى، عليه السلام[4]، فوسمهم فيها بالصدق وهو أسنى حالات الإيمان، وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا ٱللَّهَ وَكُونُوا مَعَ ٱلصَّادِقِينَ﴾[5]، فالصدق حال الأنبياء والرسل وأولى السوابق.

---

(1) سورة البينة: آية 8.

(2) في ن 1، ن 2، ن 4: اختلاف، وهذا لا يناسب السياق.

(3) سورة المائدة: آية 119.

(4) في ن 4: عليهم وهو خطأ.

(5) سورة التوبة: آية 119.

(6) سورة التوبة: آية 100.

وأما الآية الثانية من سورة براءة ففيها: ﴿وَالسَّابِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلْأَنْصَارِ﴾[1] وسبقية هؤلاء رضوان الله عليهم وما عرف من حالهم وأنهم صفوة المحسنين[2] من هؤلاء الأمة معلوم ملحق لهم بنمط[3] الأعلين من الصادقين من أتباع الرسل، فلما كان المشار إليهم في الآيتين هم الأسوة والقدوة لمن سواهم ناسب حالهم الإطناب فذكر الرضا والتأييد، ولم يقع في الآيات البواقي وصف يلحق أصحابه بهؤلاء وإن شملهم الرضا والخلود في الجنة، لكن تحديد الذكر والإفصاح بالمقدر المفهوم من سياق الكلام وعمومه له حكم قد بين في نحو قوله: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ﴾[4] وبابه.

وأما الآية البريئة فإنها على حكم مقتضى الترتيب الثابت آخر آية ذكر فيها حال المؤمنين في الجزاء الأخراوي معقباً به ذكر جزاء من كان في طرف من حالهم من مستوجبي النار على التأييد، فكانت هذه الآية مظنة استيفاء للحال فوردت ورود الآيتين قبلها.

والسؤال الثالث، وهو ما وجه تخصيص الآيات الأربع: آية المائدة، والثانية من سورة براءة، وآية الطلاق، وآية ابريئة، بذكر التأييد مع الخلود فقيل: ﴿خالدين فيها أبداً﴾. ولم يقع ذلك في البواقي؟

والجواب عن ذلك: استدعاء هذه المواضع الأربعة ذكر ذلك. أما آية المائدة وثانية براءة فلما بنيتا عليه من الإطناب، ولما حمل فيهما على جمع التأييد والرضا حسبما تقدم في السؤال قبل هذا، وأما آية الطلاق

(1) في ن 4: المحبين.
(2) في ن 4: بخط.
(3) سورة البقرة: آية 98.

فوجه ذكر التأييد فيها ما تكرر في هذه السورة من ذكر غايات بينها قوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾[1]، فلما أشارت آي السور[2] إلى غايات ونهايات ناسب ذلك التعريف بأن خلود الجنة متأبد لا ٱنتهاء له ولم يجمع بينه وبين ذكر الرضا إذ لم يجتمع لمن ذكر هنا ما اجتمع لأولئك الموصوفين في آية المائدة وثانية براءة ولم يبلغوا مبلغهم. وأما آية البريئة فإنها كما تقدم ختام حال الفريقين فاقتضت الاستيفاء.

والسؤال الرابع: ما وجه اختصاص آية المجادلة بالرّضا فقط دون التأييد؟

والجواب عنه: إن المذكورين في هذه الآية قد وصفوا بما يلحقهم بأعلى نمط وذلك قوله: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمِ ٱلْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾[3]، ثم قال: ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾[4]، ثم قال: ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[5]، والفلاح الفوز والظفر ببغية الراغب، وحيث يذكر الفوز فهو مغن عن ذكر التأييد إلا أن يقصد الإطناب، ولذلك لم يقع ذكر التأييد في آية النساء والأولى من براءة وسورة الحديد والمجادلة إذ الفلاح الفوز، فذكر الفوز أو الفلاح مغن عن ذكر التأييد، فلم يجمع بينهما، ولما لم يذكر في آية الطلاق الفوز ولا ما يرادفه لم يكن بد من ذكر التأييد.

---

(1) سورة الطلاق: آية 3.

(2) في ن 3: السورة والأنسب الجمع.

(3) سورة المجادلة: آية 22.

(4) سورة المجادلة: آية 22.

(5) سورة المجادلة: آية 22.

فإن قلت: فإن مقصود آية المجادلة الإطناب فلم لم يجمع فيها بين التأييد والرضا؟ قلت: عدل إلى أوصاف حصل منها خصوص وإطناب فوقع الاكتفاء بها[1]، والله أعلم.

والسؤال الخامس، وهو وجه اختصاص آية المجادلة بقوله: ﴿أولئك حزب الله﴾. ووجه ذلك أنه قوبل به قوله فيمن قبل: ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾[2]، ثم لما طال الكلام بهذا المسوق للمقابلة مع دلالته ودلالة ما قدم من كتب الإيمان والتأييد بروح[3] منه سبحانه وذكر الفلاح، لم يحتج إلى ذكر «أبداً» كما أشير قبل.

والسؤال السادس قد تحصل جوابه وهو اختصاص التّأبيد فقط بآية الطلاق.

الآية الرابعة: غ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾[4]، (وفي سورة الإسراء[5] ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾[6]. للسائل أن يسأل عن زيادة قوله: «ومقتاً» في سورة النساء وسقوط ذلك في سورة الإسراء؟

والجواب عن ذلك: أن نقول: إن المقت هو النقص والإستحقار. ومتزوج امرأة أبيه فاعل رذيلة يمقت فاعلها ويشنأ وتستخسه الطباع

---

(1) في ن 3: فيها، وهذا خطأ لا يستقيم معه المعنى.
(2) سورة المجادلة: آية 19.
(3) في ن 1، ن 2، ن 4: خروج، وهو خطأ منافر للمعنى المراد.
(4) سورة النساء: آية 22.
(5) سورة الإسراء: آية 32.
(6) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.

السليمة، فوسمت فعلته بالمقت، وساوت الزنا فيما وراء ذلك. فلهذا زيد في آية النساء قوله: «ومقتاً».

الآيـة الخامسـة: قولـه تعـالى: ﴿مُحْصَنَـاتٍ غَيْـرَ مُسَـافِحَـاتٍ وَلاَ مُتَّخِـذَاتِ أَخْـدانٍ﴾[1] وفي المـائـدة ﴿مُحْصِنِينَ غَيْـرَ مُسَـافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدانٍ﴾[2]، لا إشكال في هذه الآية لأن مصرف الوصف في الأولى للإماء المتزوجات عند عدم الطول، ومصرف الوصف في المائدة للمتزوجين من الرّجال، وهذا السؤال والـذي قبله لا إشكال فيهما[3].

الآية السادسة: غ ــ قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً﴾[4]، وفي سورة النحل: ﴿وَجِئْنَا بِـكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ﴾[5]، للسـائل أن يسـأل عن وجه اختـلاف ما اختلف في هاتين الآيتين في التقديم والتأخير من قوله: «وجئنا بك (على هؤلاء)[6] شهيداً، وقوله: «وجئنا بك شهيداً على هؤلاء». مع اجتماعهما في معنى واحد من شهادة الرّسل على أممهم وشهادة نبينا صلى الله عليه وسلم (على أمته)[7]؟

---

(1) سورة النساء: آية 25.
(2) سورة المائدة: آية 5.
(3) في ن 1، ن 2، ن 4: فيه والسياق يقتضي التثنية.
(4) سورة النساء: آية 41.
(5) سورة النحل: آية 89.
(6) بهامش ن 1.
(7) سقط من ن 3.

والجواب عن ذلك: والله أعلم أن آية النحل تقدمها قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [1]، فتقدم اسم الشهيد (على المشهود[2] عليه، فورد ما نسق على (ذلك) [3] من الإخبار بشهادته، عليه السلام، على أمته مرتباً على ما تقدمه من مقتضى النظم في التناظر والتناسب، فقيل: وجئنا بك شهيداً على هؤلاء متوازناً مع قوله شهيداً عليهم، وذلك على ما يجب، والله أعلم). أما آية النساء فلم يرد فيها إفصاح بذكر المشهود عليهم ولا كناية عنهم بضمير ولا اسم إشارة بل في آية النساء داع إلى تقدم المجرور بعلى، وهو أنه لما تقدم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ﴾ [4] وذلك من صفة[5] المنافقين، ناسب هذا تقديم المجرور في قوله: «وجئنا بك على هؤلاء شهيداً» حتى كأنه بحسب المفهوم لم يقصد به غيرهم ولا شهد على من سواهم، وقد تقدم نحو هذا ومنه.

لتقربن قرباً جلذياً ما دام فيهن فصيل حياً[6]

وقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[7]، وليس في آية النحل ما يقتضي ذلك بل مقتضاها إطلاق شهادته عليه السلام للجميع من

---

(1) سورة النحل: آية 89.
(2) بهامش ن 2.
(3) سقط من ن 1، ن 2، وبيان في ن 4.
(4) سقط من ن 1، ن 2، ن 3.
(5) سورة النساء: آية 38.
(6) في ن 4: صفات.
(7) البيت لابن ميادة في الرجز «الكتاب 38/1». . وابن ميادة هو الرماح بن أبرد الغطفاني المضري، شاعر رقيق هجاء من مخضرمي الأموية والعباسية (149هـ/ 766م).
(8) سورة الإخلاص: آية 4.

صالح وطالح إذ لم يتقدم قبلها التقييد، بل الظاهر مما تقدمها أن المراد جميع من بعث صلى الله عليه وسلم إليه، فهذان حاملان من الآيتين على وجوب[1] ورود النظم على ما ورد.

وأيضاً فإن قوله: «شهيداً» في آية النحل لم يقع في الفواصل (بل)[2] أثناءها، وتأمل ذلك من لدن قوله تعالى: ﴿وَالله أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾[3] إلى قوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[4]، ثم قال: أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ ٱلسَّمَـاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الله﴾[5] إلى قوله: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[6] واستمرار الآيات على ذلك إلى آخر السورة، ولم يتخلل فيما اكتنف الآية قبلها وبعدها فيما قرب منها غير ذلك فقد تقررت فواصل هذه الآي من سورة النحل. أما آية النساء فبناء نظمها على فواصل روعي فيها مجيء المنّون المنصوب من غير التزام حرف بعينه واستمرت الآي قبلها[7] على ذلك. وقوله: ﴿جِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً﴾[8] فاصلة استدعى ورودها على ذلك ما تقدمها من الفواصل وما تأخر عنها. وانتظم ذلك على أعلى نظام وأجل مناسبة ولم يكن عكس الوارد في الآيتين ليناسب، والله أعلم.

---

(1) في ن 3: وجود وهو خطأ لا يستقيم معه المعنى.
(2) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(3) سورة النحل: آية 78.
(4) سورة النحل: آية 78.
(5) سورة النحل: آية 79.
(6) سورة النحل: آية 79.
(7) في ن 1، ن 2، ن 4: قبله.
(8) سورة النساء: آية 41.

الآية السابعة: غ ـ قوله تعالى: ﴿فَٱمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ الله كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً﴾[1]، وفي سورة المائدة: ﴿فَٱمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ الله لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2]، للسائل أن يسأل عن زيادة «منه» في آية المائدة، وعن الواقع فيما أعقبت به كل آية منهما، وعن الواقع من الطول فيما أعقبت به آية المائدة، فهذه ثلاثة سؤالات.

والجواب عن الأول منها: أن زيادة «منه» في آية المائدة[3] زيادة بيان، ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿فأمسحوا بوجوهكم وأيديكم﴾. لا يحصل منه ما يحصل من زيادة «منه» فزيدت بياناً، واختصت بذلك آية المائدة لتأخرها في الترتيب الثابت عليه المصحف، والبيان يتأخر عما هو بيان له، فجاء على ما يجب.

والجواب عن السؤال الثاني: وهو وجه التناسب بين الآي وما أعقبت به وهو أن آية النساء نزلت قبل تحريم الخمر، وقد ذكر المفسرون وغيرهم السبب في نزول قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا ٱلصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾[4] وأنها نزلت قبل التحريم كما تقدم، وكان شاربها قبل أن تحرم ربما عرض له بسببها التأخير لصلاته كما أشارت إليه الآية وفي تأخيرها عن أول وقتها نقص للفضل الموجود[5] في آدائها أول وقتها فلما كان ذلك مظنة لنقص

(1) سورة النساء: آية 43.
(2) سورة المائدة: آية 6.
(3) في ن 4: سورة المائدة، والصحيح ما ورد في بقية النسخ.
(4) سورة النساء: آية 43.
(5) في ن 3: المرو.

والوقوع في أدائها في آخر وقتها أو بعد وقتها ربـما كان الإثم، والآية قد أعقبت بآية التيمم ناسب ما تقدم[1] التعقيب بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً﴾[2] إذ العفو والمغفرة مرجوان في نحو ما تقدم. وأما آية المائدة فإنه لما تقدم قبلها حلّية طعام أهل الكتاب وجواز نكاح نسائهم على الحاصل من قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾[3] وحال بني اسرائيل من تحريم الشحوم[4] عليهم وغير ذلك مما شدد عليهم فيه مما هو أمر مرفوع عنا، ناسب ذلك تعقيب آية المائدة بقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[5]، فجاء كل على ما يناسب.

والجواب عن السؤال الثالث: أن آية النساء غير مقصود بهـا ما قصد بآية المائدة من الإطناب، وتأمل ما انطوت عليه كل آية منها من عدد الكلم والحروف من لدن قوله تعالى في النساء: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا ٱلصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾. إلى قوله: ﴿وَأَيْدِيكُمْ﴾[6] وقوله في المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَاةِ فَٱغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ.﴾ إلى قوله: ﴿وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾[7] تجد آية العقود (يزيد)[8] عدد حروفها

---

(1) في ن 3: الوقتها، وهذا خطأ بين.
(2) سورة النساء: آية 43.
(3) سورة المائدة: آية 5.
(4) سقط من ن 3.
(5) سورة المائدة: آية 6.
(6) سورة النساء: آية 43.
(7) سورة المائدة: آية 6.
(8) سقط من ن 3.

على آية المائدة بضعاً وثلاثين حرفاً، فلما أطيل في هذه ناسبها ما أعقبت به وبني[1] عليها من قوله: ﴿مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2]، وناسب إيجاز آية النساء ما بني[3] عليها من قوله: ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً﴾. إيجازاً بإيجاز وإطناباً بإطناب.

فإن قيل: إن الإيجاز في الكتاب[4] عمدة[5] (ما)[6] بني عليه وهو الجاري في بلاغته وإنما (يكون)[7] إطناب الكلام لحامل وداع فما الحامل على ذلك في آية المائدة؟ قلت: الحامل على ذلك فيها تفصيل ما وقع في الآي قبلها مما حلل وحرم من لدن قوله عز وجل[8]: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ (وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ)﴾[9] إلى تفصيل ما أحل لكم من قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ﴾[10] إلى الآية المتكلم فيها، فلما جرى ذلك كله مفصلاً مستوفى ناسبة الوارد في الآية وليس في آية النساء من مثل هذا شيء مما حلل أو حرم، فجرى حكمه على نسبة ما تقدمها بناء على رعي المناسبة، والله أعلم بما أراد.

---

(1) في ن 4: ينبني، وهذا غير مناسب للسياق.
(2) سورة المائدة: آية 6.
(3) في ن 4 ينبني.
(4) في ن 1، ن 2، ن 4: في آي الكتاب.
(5) في ن 1، ن 2، ن 4: عهدة.
(6) سقط من ن 3.
(7) سقط من ن 4.
(8) سورة المائدة: آية 3.
(9) سقط من ن 3.
(10) سورة المائدة: آية 4.

الآية الثامنة: غ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ ٱفْتَرَى إِثْماً عَظِيماً﴾[1]، (وفي نصف: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ﴾[2] ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكَ باللهِ[3] فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً﴾[4]، للسائل أن يسأل عن وجه اختلاف تعقيب الأولى بقوله: ﴿فَقَدِ ٱفْتَرَى إِثْماً عَظِيماً﴾ وتعقيب الثانية بقوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً﴾.

والجواب: إنه لما وقع قبل الآية الأولى ذكر أهل الكتاب وذكر اعتدائهم وتحريفهم من لدن قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ ٱلْكِتَابِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا ٱلسَّبِيلَ﴾[5] ثم قال بعد هذا: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾[6]، وهذا إفصاح بكذبهم وافترائهم، ثم أتبع ما ذكر بقوله تعالى ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾[7]، ناسب ما تقدم من أوصاف الشرك الافتراء الذي هو أخص صفات من كذب من أهل الكتاب مع أن المشرك[8] مفتر، فقال عز وجل: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ ٱفْتَرَى إِثْماً عَظِيماً﴾[9]، ولما لم يتقدم مثل

---

(1) سورة النساء: آية 43.

(2) سورة النساء: آية 114.

(3) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.

(4) سورة النساء: آية 116.

(5) سورة النساء: آية 44.

(6) سورة النساء: آية 46.

(7) سورة النساء: آية 43.

(8) في ن 3: الشرك وهذا لا يتناسب مع ما أعقب به من وصف.

(9) سورة النساء: آية 48.

ذلك في الآية الأخرى إنما تقدم قبلها (قوله) [1] ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَى﴾ [2] وقبلها ما يخص منافقي [3] أيام نبينا عليه السلام من لدن قوله سبحانه ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَابَ بِٱلْحَقِّ لَتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَا أَرَاكَ الله وَلاَ تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً﴾ [4] ثم قال ﴿وَلاَ تُجَادِلْ عنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ. . . الآية [5] ، فلم يقع في هذه الآي ذكر تحريف ولا افتراء إنما ذكر منافقو أيامه عليه السلام بنفاقهم وما صدر منهم من غير الكذب والافتراء، فناسب ذلك ما بني عليه من قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِالله فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً﴾ [6]، كما ناسب قوله في الأولى: ﴿فَقَدِ ٱفْتَرَى إِثْماً عَظِيماً﴾ [7] ما تقدمه وبني عليه، وجاء كل على ما يجب. ولو أعقبت الأولى الثانية والثانية بما أعقبت به الأولى لما ناسب عَلَى ما تقدم، والله أعلم.

الآية التاسعة: غ ــ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ الله وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً﴾ [8]، وفي سورة المائدة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ الله [9] قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا

---

(1) سقط من ن 3.
(2) سورة النساء: آية 115.
(3) في ن 4: مما في وهذا خطأ بين.
(4) سورة النساء: آية 105.
(5) سورة النساء: آية 107.
(6) سورة النساء: آية 116.
(7) سورة النساء: آية 48.
(8) سورة النساء: آية 61، وهي ساقطة من ن 1، ن 2.
(9) في ن 3: زيادة وإلى الرسول وهو خطأ.

عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾[1]، للسائل أن يسأل عني وجه ما ورد في هاتين[2] الآيتين من قوله في الأولى: ﴿إِلَى مَا أَنْزَلَ الله وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ والاكتفاء في الثانية بقوله: ﴿إلى ما أنزل الله﴾ مع استوائهما في دعاء المخالفين ممن ذكر قبل كل آية منهما إلى متابعة الحق والرجوع إليه. والجواب أن حال المدعوين مختلف، فإن الآية الأولى في منافق ويهودي تخاصما وتحاكما إلى كعب بن الأشرف[3] ورضيا بحكمه، فالمراد بالآية المنافقون لأنهم المظهرون أنهم آمنوا بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وعلى موسى عليه السلام القائلون ذلك بألسنتهم، ولكون ذلك نطقاً بألسنتهم عبر بالزعم وكني بالطاغوت فيما ذكره المفسرون عن كعب بن الأشرف، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى ٱلطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾[4] ولم تؤمر يهود أن يكفروا بأحبارهم ما لم يحرفوا وإنما المأمورون بالكفر بهم المؤمنون حين ظهر تحريفهم وتبديلهم. ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ الله وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ أي للحكم بينهم بما أنزل الله[5] صدوا عنه ونفروا إلى التحاكم عند كعب بن الأشرف أو عند الكاهن على الاختلاف في ذلك.

---

(1) سورة المائدة: آية 104.

(2) بهامش ن 2.

(3) كعب بن الأشرف: (ت 3هـ/ 624م) من بني نبهان، شاعر جاهلي كانت أمه من بني النظر فدان باليهودية، أدرك الإسلام ولم يسلم، أكثر من هجو الرسول والصحابة وتحريض القبائل عليهم والتشبب بنسائهم، ندب قتلى قريش في بدر فأمر الرسول بقتله فقتل.
أنظر: الاعلام 79/6-80؛ ابن الأثير 53/2؛ الروض الآنف 123/2. . .

(4) سورة النساء: آية 60.

(5) في ن 1، ن 2: في إنجيل الله وهو خطأ بين.

وأما آية المائدة فمبنية على ما تقدمها من مرتكبات أهل الجاهلية وما سنوه تقليداً أو إتباعاً لعمرو بن يحيى [1] وأشباهه ممن سنّ مثله تغييراً لملة إبراهيم، عليه السلام، فدان بفعلهم في البحيرة والسائبة والوصيلة والحام. أما البحيرة فهي المشقوق أذنها طولاً بنصفين متروكة ترعى وترد الماء لا ينتفع بشيء منها فإذا ماتت أكلها الرجال وحرمت على النساء وذلك إذا ولدت أبطنا قيل عشرة وقيل غير ذلك وكل ضلال باطل. وأما السائبة فالناقة تسيب للآلهة وأيضاً إذا تبعت إناثاً ثنتي [2] عشرة لا ذكر فيها. وأما الوصيلة فالشاة إذا ولدت ثلاثة بطون أو خمسة إن كان آخرها ذكراً ذبحوه لآلهتهم وإن كان أنثى استحيوها وقالوا إن الأنثى قد وصلت آخاها [3] ومنعته أن يذبح وقيل غير هذا. والحام: فحل الإبل إذا ضرب فيها عشرة أعوام أو ولد من ظهره عشرة قيل حمى ظهره فسيب. فآلضّمير من قوله: «وإذا قيل لهم» راجع إلى القائلين بهذه الأشياء المتبعين فيها لآبائهم، فبين تعالى وحكم فيها بقوله: ﴿مَا جَعَلَ الله مِنْ بَحِيرَةٍ وَلاَ سَائِبَةٍ﴾. إلى قوله: ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى الله آلْكَذِبَ﴾ [4] فحكم هذه الأشياء بين واضح من كتاب الله لا يفتقر في تعرفه إلى غير سماعه إذا حصل التصديق به وسواء سمع ذلك (منه) [5]

---

(1) عمرو بن يحيى (بدون تاريخ)، أزدي من قحطان أول من غير دين إسماعيل ودعا العرب إلى عبادة الأصنام، نقل إلى مكة أوثاناً من مآب بواد الأردن ونصبها ودعا الناس إلى تقديسها والاستشفاء بها فكان أول من فعل ذلك.
أنظر: الاعلام 257/5.

(2) في ن 4: إثنتي.

(3) في ن 3: خاها وهو خطأ بين.

(4) سورة المائدة: آية 103.

(5) سقط من ن 3.

صلى الله عليه وسلم أو من غيره لتواتر نقله، فلهذا لم يذكر هنا دعاء إلى زائد على المنزل.

أما آية النساء ففي قضية تخاصم لا بد من التحاكم فيها (إلى مجتهد يفصل فيها)[1] بما فهمه الله من كتابه والآتي به صلى الله عليه وسلم هو المبين ما فيه والمعصوم فيما يبين منه به ويحكم به، والقضية واقعة حال وجوده وحضوره فإليه صلى الله عليه وسلم المرجع، فلهذا قيل في تلك الآية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى ما أَنْزَلَ الله وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾، ولم يكن عكس الوارد في الآيتين ليناسب، والله أعلم.

الآية العاشرة: غ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ الله حَدِيثاً﴾[2] وبعد هذا: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ الله قِيلاً﴾[3]، للسائل أن يسأل عن اختلاف التعبيرين مع أن المتقدم في كل من الآيتين إخبار أخراوي. ففي الأولى: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[4] وفي الثانية وما وعد الله به المؤمنين في قوله: ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلأَنْهَارُ﴾[5] ثم جيء بالتمييز مختلفاً فقيل في الأولى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ الله حَدِيثاً﴾ وفي الثانية: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مَنِ الله قِيلاً﴾ فخولف في العبارة مع وحدة المعنى، فيسأل عن ذلك وهل كان يجوز العكس؟

---

(1) في هامش ن 2.
(2) سورة النساء: آية 87.
(3) سورة النساء: آية 122.
(4) سورة النساء: آية 87.
(5) سورة النساء: آية 122.

والجواب أن التعبير الثاني مبني على ما يجب ربطه به من قوله: ﴿وَعْدَ الله حَقّاً﴾ وقيل[1]: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ الله قِيلاً﴾ وأنيب مناب وعدا فكأن قد قيل: ومن أصدق من الله وعدا وهو ما وعدهم به تعالى من النعيم وعظيم الاحسان، فجيء بلفظ يوازن المصدر عن قبله وهما وعدا وحقاً ويشابههما في الخفة فسكون عين الكلمة وعدد حروفها كالمصدرين قبلها وكأنه إنما أريد تكرار المصدر بلفظه فاستثقل التكرار للتقارب[2] وعادة العرب في ذلك فعدل إلى ما يجاريه ويحرز المعنى ولتجري المصادر الثلاثة مجرى واحداً خفة ووزناً إحرازاً للتناسب والتلاؤم. ولما لم يتقدم في الآية الأولى ما يستلزم هذا وإن قوله تعالى: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ﴾ إخبار وحديث عن البعث بعد الموت وجمع الخلق لحسابهم ومجازاتهم على الخير والشر فهو إخبار وإنباء، ومثله ما ورد في قوله تعالى إخباراً عن قول منكري البعث: ﴿هَلْ نَدُلُّكم عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ الآية[3] فالإنباء هنا هو ذلك الخبر الصدق منه تعالى بقوله: ﴿ليجمعنكم إلى يوم القيامة...﴾ الآية، فقد وضح ورود كل واحدة من الآيتين على ما يناسب ويلائم، والله أعلم.

الآية الحادية عشرة: غ ــ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ...﴾ الآية[4]، وفي سورة الأنفال: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الله وَرَسُولَهُ فَإِنَّ الله شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[5]،

---

(1) في ن 3: فقيل.
(2) في ن 1، ن 2: المتقارب، وفي ن 4: المتعارف، والثاني بعيد.
(3) سورة سبأ: آية 7.
(4) سورة النّساء: آية 115.
(5) سورة الأنفال: آية 13.

وفي الحشر: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا الله وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ الله فَإِنَّ الله شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[1]، للسائل أن يسأل عن إدغام الوارد في الحشر وفك الادغام في السورتين قبل، ما وجه ذلك مع أن الفك والادغام فصيحان؟

والجواب ان الادغام تخفيف وليس بالأصل، فورد في النساء على الأصل ولم يقترن به ما يستدعي تخفيفه ولا سؤال في ذلك، ولما تقدم في سورة الحشر قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وتقدم الماضي مدغماً، ولم يسمع في الماضي الا تلك اللغة، فجيء بما[2] حمل عليه من قوله: ﴿وَمَنْ يُشَاقِّ ٱللَّهَ﴾ مدغماً ليحصل مجيء الادغام قبله في الماضي من قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، وعطف «ورسوله» على إسم الله تعالى وقد وردت نسبه المشاقة لله ورسوله وورد ذلك بالعطف بالواو الجامعة وهو ما يناسب الفك فاستدعى الموضع داعيان: أحدهما ما قبله من الادغام، والثاني ما بعده من العطف المشبه للفك، فروعي البعدى لأنه أقوى في الرعي كما فعلوا في الإمالة فلم يميلوا نحو مناشيط وما كان مثله مما تأخر فيه حرف الاستعلاء وان حال بينه وبين الألف حرفان[3] ومع ذلك فانه يمنع الإمالة وليس كذلك في قوته المنع إذا تقدم مع حائل فكذا فعلوا فيما تقدم فراعوا ما بعد كما ذكرنا فلم يدغموا إذ المتقدم في قوة المفروع منه المنقطع المتصل بعد في النطق أقرب، فورد على ما يجب ويناسب.

الآية الثانية عشرة: قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَصَّالَحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ

---

(1) سورة الحشر: آية 4.

(2) في ن 3: ما.

(3) في ن 3: حرفاً وهو خطأ بين.

وَأُحْضِرَتْ ٱلْأَنْفُسُ ٱلشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾[1]، وفي آية أخرى بعد: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ ٱلنِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾[2] فيهما سؤالان: قوله في الأولى[3] ﴿وان تحسنوا وتتقوا﴾ وفي الثانية: ﴿وان تصلحوا﴾، والختامان: «خبيراً» في الأولى «وغفوراً» في الثانية.

والجواب، والله أعلم: ان الآية الأولى فيما بين المرأة وزوجها، فإذا خافت منه وأرادت تآلفه وبقاءه وكينونتها في عصمته فلا جناح عليهما أن تعطي شيئاً من نفسها وتترك بعض حقها كأن تؤثر ضرتها في القسمة أو تترك هي حظها كما فعلت سودة[4]، رضي الله عنها، أو تهب له من حالها لا جناح عليها في هذا ولا على زوجها في قبول ذلك منها وان كان الطبع[5] يأبى من إسقاط حق أو تنقصه لما جبلت عليه النفوس وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنْفُسُ ٱلشُّحَّ﴾[6] ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا﴾[7] فندب كلاً منهما إلى الإحسان والتقوى والزوج أخص بذلك وأولى وأن يحتمل كل منهما من صاحبه ويصبر فان الله

---

(1) سورة النساء: آية 123.
(2) سورة النساء: آية 129.
(3) سقط من ن 4.
(4) سودة بنت زمعة (ت 54هـ/ 674م) من لؤي، من قريش إحدى أزواج النبي صلى الله عليه وسلم تزوجها النبي ثيباً بعد خديجة وتوفيت بالمدينة.
الاعلام 214/3؛ الإصابة كتاب النساء، ت 603.
(5) في ن 1، ن 2: الطمع.
(6) سورة النساء: آية 128.
(7) سورة النساء: آية 128.

مطلع عليه خبير بما يكنه ويخفيه، ثم قال: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ ٱلنِّسَاءِ وَلَوْ حَرِصْتُمْ﴾[1] لأن القلوب لا تملك ولا بيد الإنسان فسادها وَلاَ صلاحها، فان عدل في القسمة والمحادثة والإنفاق والنظر وبشاشة الوجه وجميل الملاقاة وفرضنا اجتهاده في هذا كله حتى تحصل المساواة لم يقدر أن يميل بقلبه إلى كلهن على حال سواء: ﴿فلا تميلوا كل الميل﴾، بل على الإنسان أن يجتهد وفي الحديث عنه عليه السلام: «اللهم هذه قسمتي فيما أملك فلا تلمني فيما لا أملك»[2] ﴿فتذروها كالمعلقة﴾: لا ممسكة ولا مطلقة، ثم قال تعالى: ﴿وان تصلحوا وتتقوا﴾ والمراد ما استطعتم وكان في إمكانكم فان الله يغفر لكم ما سوى ذلك والآية الأولى مقصودها يستدعي ما ختمت به من أنه تعالى خبير بأفعال عباده وأعمالهم الظاهرة والباطنة ومساق هذه الأخرى يستدعي مغفرته تعالى إذ قد عرفت الآية أن العدل لا يستطاع فان لم تكن المغفرة هلك المكلف، فورد أعقاب كل آية بما يناسب وأما ورود: «وان تحسنوا» في الآية الأولى وورود: «وان تصلحوا» هنا فمفهوم مما تمهد وانسب شيء، والله أعلم.

الآية الثالثة عشرة: قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ ٱللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ آوتُوا ٱلْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّاً حَمِيداً وَلِلَّهِ مَا فِي

---

(1) سورة النساء: آية 129.

(2) الترمذي: نكاح 4؛ أبو داود: نكاح 38.

ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَكَفَى بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾[1]، للسائل أن يسأل عن وجه اختلاف ما أعقبت به هذه الآي الثلاث من أوصافه العلية سبحانه وتعالى، ففي الأولى: ﴿وكان الله واسعاً حكيماً﴾ وفي الثانية: ﴿وكان الله غنياً حميداً﴾ وفي الثالثة ﴿وكفى بالله وكيلاً﴾ يسأل عن ذلك وعن تكرار اخباره تعالى وقوله: ﴿ولله ما في السماوات وما في الأرض﴾ ثلاث مرات مع تقارب الكلام واتصاله.

والجواب عن الأول، انه لما قال سبحانه في الزوجين عند عدم انقيادهما لحسن المعاشرة: ﴿وان يفترقا يغن الله كلاً من سعته﴾، قال الزمخشري يرزقه زوجاً خيراً من زوجه وعيشاً أهنأ من عيشه[2] ولما قال: ﴿يغن الله كلاً من سعته﴾ ناسب هذا ذكر ما يقتضي من صفاته عموم وجوه الإحسان وانه لا نفاد لما عنده مما به قوام عيشهم وكمال حال كل واحد منهم من الرزق والسكن والتأنيس وانه سبحانه المنفرد بعلم وجه الحكمة في تآلفهم وتفرقهم فقال: ﴿وكان الله واسعاً حكيماً﴾ (أي كثير العطاء جم الإحسان عليم بخفيات مصالح العباد فقوله: ﴿وكان الله واسعاً حكيماً﴾)[3] عقب ما تقدمه من قوله: ﴿وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته﴾ أوضح شيء في المناسبة، ثم اتبع بما يلائم ذلك ويزيده وضوحاً من اخباره تعالى من أن السماوات والأرض وما فيهما ملكه تعالى فقال: ﴿ولله ما في السماوات وما في الأرض﴾، ثم اتبع سبحانه انه بما يرجع إلى عموم إحسانه إلى من تقدم من المخاطبين بكتبه المنزلة رحمة لعباده

---

(1) سورة النساء: آية 130-132.

(2) الكشاف 573/1.

(3) بهامش ن 2.

واحسانه كما أحسن إلى المواجهين بهذا الكتاب والمهيمن من على هذا الخطاب فقال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ واعلم سبحانه انه محسن بذلك اليهم لأن[1] تقواهم إياه تعالى مثمرة لهم السلامة من عذابه والنجاة من اليم عقابه وانه ليس به إلى تقواهم من حاجة ولا يعود إليه سبحانه من كل ذلك منفعة إذ هو الغني عنهم وعن عبادتهم فقال: ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فهو الغني عنكم وعن عبادتكم، كما قال سبحانه في آية أخرى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[2] وقال تعالى: ﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[3]، وإذا كان الكل ممن في السم'وات والأرض ملكاً له سبحانه وتحت قهره وفي قبضته يفعل فيهم ما يشاء ولا يكون منهم الا ما يشاؤه ويريده وهو الغني الحميد ثم أكده بقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لما بني عليه (من قوله)[4]: ﴿وكفى بالله وكيلا﴾ أي حافظاً لجميع ذلك منفرداً بتدبيره (وامساك السماوات والأرض ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده، فختام الآية بهذه الصفة)[5] من أنسب شيء وأبينه، والله أعلم.

الآية الرابعة عشرة: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾[6] وفي المائدة: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ

---

(1) في ن 3: لا. وهو خطأ.
(2) سورة إبراهيم: آية 8.
(3) سورة التغابن: آية 6.
(4) سقط من ن 4.
(5) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(6) سورة النساء: آية 135.

بِٱلْقِسْطِ﴾[1]، فقدم في آية النساء قوله: «بالقسط» وأخر في آية المائدة[2]، فيسأل عن وجه ذلك.

والجواب عنه والله أعلم أن الآيات المتصلة بآية سورة النساء مبنية على الأمر بالعدل والقسط قال تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ. . . الآية﴾[3]، وقال بعد: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَاءِ﴾[4]، ثم قال: ﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِٱلْقِسْطِ﴾[5]، وتوالت الآي بعد على هذا المعنى فقدم قوله القسط ليناسب ما ذكر، واما آية المائدة فثبت قبلها الأمر بالطهارة ثم تذكيره سبحانه بتذكر[6] نعمه والوقوف مع ما عهد به إلى عباده والأمر بتقواه فناسبه قوله: ﴿كونوا قوامين لله﴾ ثم اتبع بما بني على ذلك من الشهادة بالقسط، فتأمل ما بني على هذه وما بني على آية النساء يتضح لك ما قلته، والله أعلم بما أراد.

الآية الخامسة عشرة: غ ــ قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا[7] ثُمَّ ٱزْدَادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً﴾[8]، وفيما بعد من السورة نفسها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ. . .﴾ الآية[9]،

---

(1) سورة المائدة: آية 8.
(2) في ن 3: آية العقود.
(3) سورة النساء: آية 123.
(4) سورة النساء: آية 127.
(5) سورة النساء: آية 127.
(6) في ن 1، ن 2، ن 4: بتذكير.
(7) سقط من ن 3.
(8) سورة النساء: آية 137.
(9) سورة النساء: آية 168.

للسائل أن يسأل عن وجه اختلاف الكنايتين عما إليه الهداية الممنوعة عمن ذكر في الآيتين مع استواء حال من ذكر فيهما من التلبس[1] بالزيادة على الكفر وفي الجزاء بعدم الغفران ومنع الهداية ومع أن مسمى السبيل والطريق واحد فما وجه اختلاف الكناية عنه باسم السبيل في الأولى والطريق في الثانية؟

والجواب، والله أعلم: ان السبيل والطريق وان استويا واتحد معناهما فيما ذكر فبينهما فرق واضح عن حيث أن مواضع السبيل أكثر تردداً في الكلام، ففي اطلاق لفظه توسعه وعموم ليست في إطلاق لفظ طريق، فقد ورد ذكر السبيل في الربع الأول من الكتاب العزيز في بضع وخمسين موضعاً أو نحو ذلك. من ذلك في سورة البقرة أربعة عشر موضعاً أولها قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[2] وآخرها قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[3]، وفي آل عمران ستة مواضع، وفي النساء ستة وعشرون موضعاً، وفي المائدة والأنعام تسعة مواضع. ولم يقع ذكر الطريق في كتاب الله (كله)[4] الا في: (   )[5]، ثم إن إسم السبيل مع ما تقرر من كثرة ترداده أغلب وقوعاً في الخير وسبيل السلامة إفصاحاً وإشارة، ولا يكاد إسم الطريق يرد مراداً به السلامة والخير الا مقروناً بوصف

---

(1) في ن 3: بالتلبس، وفي ن 4: في التلبس.
(2) سورة البقرة: آية 108.
(3) سورة البقرة: آية 273.
(4) سقط من ن 3.
(5) بياض في كل النسخ لعله يريد أربعة مواضع إذ أن لفظ طريق لم يرد في الكتاب العزيز إلا بهذا العدد.

أو إضافة أو (ما)[1] يخلصه لذلك كقوله تعالى: ﴿يَهْدِي إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2].

وإذا تقرر هذا فقوله في الآية الأولى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ٱزْدَادُوا كُفْراً﴾ حاصل منه وسم هؤلاء بشر[3] وصف وأعظمه وأبلغه بأقصى غاية في شنعة المرتكب فليست حال من كفر بعد إيمان كحال من لم يتقدم كفره إيمان، قال تعالى فيمن توعده بأشد[4] الوعيد: ﴿مَنْ كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِٱلْإِيمَانِ وَلٰكِنْ مَنْ شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[5] إلى ما وصفوا به من استحبابهم الحياة الدنيا على الآخرة وانما وقع ذلك منهم بعد علمهم (بكيان)[6] الآخرة وتصديقهم بها ثم اختاروا الدنيا عليها فحالهم حال من أضله الله على علم ولا أسوأ حال من هؤلاء، أما الموصوفون في الآية الثانية بالكفر والظلم فدون هؤلاء في شنعة المرتكب والمبالغة في الضلال، ألا ترى أن حال الكافر الذي لم يتقدم منه إيمان[7] ليست كحال من تقدم منه إيمان لكفر هذا على علم ولا حال من وصف بالظلم وان كان يقع على الكفر وما دونه كحال من وصف في الآية الأولى بعوده إلى الإيمان ثم إلى الكفر بعد ذلك ثم

---

(1) سقط من ن 3.
(2) سورة الأحقاف: آية 30.
(3) في ن 4: بشنيع.
(4) في ن 3: بأشر.
(5) سورة النحل: آية 106.
(6) سقط من ن 4.
(7) في ن 4: حال الكافرين ــ بالجمع ــ الذين لم يتقدم منهم إيمان.

الازدياد في الكفر، فلما بلغت حال هؤلاء فيما وصفوا به أشنع غايات الكفر والضلال وأشدها تخبطاً ناسب ذلك الكناية عما صدوا عنه ومنعوه «بالسبيل» مناسبة بين حالهم والممنوع من محسود مآلهم، ولما لم يكن وصف[1] الآخرين بالكفر والظلم يبلغ شنعة المرتكب مبلغ أولئك عدل في الكناية عما منعوه إلى ما يناسبه، وجرى كل على ما يجب ويناسب، ولم يكن عكس الوارد ليلائم ولا ليناسب، والله أعلم.

الآية السادسة عشرة: قوله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرَاً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُواً قَدِيراً﴾[2]، وفي سورة الأحزاب: ﴿إِن تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾[3]، للسائل أن يسأل هنا في ثلاثة مواضع: أحدها قوله: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْراً﴾ وفي الأحزاب: «شيئاً»، فيسأل عن وجه الفرق؟ والثاني: ما الموجب لخلاف جواب الشرط في الآيتين؟ ففي الأولى: «فان الله كان عفوا قديراً» وفي الثانية: ﴿فان الله كان بكل شيء عليماً﴾، والثالث: زيادة قوله في الأولى: ﴿أو تعفوا عن سوء﴾.

والجواب عن الأول: ان قوله: إن تبدوا خيراً أو تخفوه» مقصود به خصوص طرف الخير وعمل البر جرياً على ما دارت عليه سورة النساء وتردد فيها من اصلاح ذات البين والندب إلى العفو والتجاوز عن السيئات[4]، ألا ترى قوله تعالى لمقتسمي الميراث

---

(1) في ن 2: من وصف.
(2) سورة النساء: آية 145.
(3) سورة الأحزاب: آية 54.
(4) في ن 2: الهنات، وفي ن 3: الهيئات، وهذا يناسب المعنى.

فيمن حضرهم من ذوي القربى وذوي الحاجات ﴿فَٱرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً﴾[1]، وقوله في الآتين[2] الفاحشة: ﴿فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾[3]، وقوله في النساء: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[4]، وقوله: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾[5]، وقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ﴾[6] وقوله: ﴿وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾[7]، إلى أمثال هذه الآي مما يطول ذكره ولا يكثر في غير هذه السورة ككثرته فيها، ومن هنا لم يتعرض فيها لأحكام الطلاق وان كانت السورة مبنية على أحكام النساء لكن خص من ذلك ما فيه التآلف والإصلاح وما يرجع إلى ذلك، ولم يرد فيها من أحكام الطلاق الا ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ﴾[8]، فذكر هذا القدر عند استدعاء معنى الكلام وتمام المقصود به إليه بأوجز لفظ وبما يؤنس الفريقين، ولم يذكر فيها اللعان ولا الظهار ولا الخلع ولا طلاق الثلاث بل ذكر فيها استصحاب العشرة إلى التوارث، فلما كان مبنى السورة على هذا ناسب لك طرف الخير غير مشار إلى ضده الا بالعفو عما وقع بالمكلف فيه فقال تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾، فنوسب بهذا الخصوص خصوص ما تكرر في السورة بما ذكر من

---

(1) سورة النساء: آية 8.

(2) في ن 1، ن 2، ن 3: الآيتين وهذا لا يناسب السياق.

(3) سورة النساء: آية 16.

(4) سورة النساء: آية 19.

(5) سورة النساء: آية 34.

(6) سورة النساء: آية 63.

(7) سورة النساء: آية 129.

(8) سورة النساء: آية 130.

العفو وما يحرزه. وفي سورة البقرة: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [1] وذلك في مثل ما تقدم هنا من أحكام النساء. وأما آية الأحزاب فمقصود بها ما يعم الطرفين من الخير والشر، ألا ترى ما تقدمها من قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ آللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً﴾ [2]، (وما تقدم) [3] في هذه السورة من ذكر المنافقين وسوء مرتكبهم في قصة الأحزاب وقولهم: ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُروراً﴾ [4] وقولهم في الاستئذان ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ [5] وكذبهم في ذلك، فحذر الله المؤمنين من مرتكبات المنافقين وأعلمهم انه تعالى لا يخفى عليه شيء: ﴿سَوَاء مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ [6] فقال تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ﴾، فلما قصد في هذه الآية عموم الطرفين ورد بلفظ مطلق يعم الخير والشر فقال تعالى: ﴿إن تُبْدُوا شيئاً﴾، والشيء يقع على كل موجود من ذات أو معنى، حتى أن بعض المتكلمين يطلقه على المعدوم المقدر الوجود فيقول بشيئة المعدوم ــ وليس هذا من قولنا ــ ولكن الإطلاق حاصل كيفما قيل، والشيء المخفي المشار إليه في الآية إنما هو عمل قلبي موجود بمحله فلا اعتراض علينا به والخير والشر داخلان تحت ذلك، وأما لفظ خير في آية النساء فقد تقدم خصوصه ومناسبته، فورد كل على ما يجب ويناسب ولا يمكن فيه العكس.

---

(1) سورة البقرة: آية 237.

(2) سورة الأحزاب: آية 53.

(3) سقط من ن 3.

(4) سورة الأحزاب: آية 12.

(5) سورة الأحزاب: آية 13.

(6) سورة الرعد: آية 10.

والجواب عن السؤال الثاني: ان اختلاف جواب الشـرط في الآيتين إنما هو بحسب ما يستدعيه فقوله تعالى في الأحزاب: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ يبين الجوابية لقوله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ﴾، وأما قوله في آية النساء: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُواً قَدِيراً﴾ فمنزل على قوله: ﴿أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾، فندب سبحانه العباد إلى العفو بمفهوم هذا الكلام بإعلامهم أن تلك سنة في خلقه[1] من عفوه عن المسيء مع القدرة على أخذه والانتقام منه ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾[2] وهذا الجواب لقوله تعالى: ﴿أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ﴾ يفهم جواب الأمرين من إبداء الخير وإخفائه وان ذلك يحبه تعالى ويثيب عليه، فقد بان التناسب في هذا كله في كل واحد من الشرطين وجوابهما.

والجواب عن السؤال الثالث: أن قوله تعالى: ﴿أو تعفوا عن سوء﴾. من تمام ما قصد بالآية من الندب إلى تحصيل أفعال البر وان العفو عن السوء[3] من أجلها وبذلك أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾[4] في غير ما آية، فقد بان التناسب في هذا كله. ووضح أن كل ما ورد في الآيتين لا يلائمه غير موضعه، والله أعلم بما أراد.

* * *

---

(1) في ن 4: من خلقه.

(2) سورة فاطر: آية 45.

(3) في ن 3: المسيء، والصحيح ما جاء في بقية النسخ لموافقته ما جاء في الآية.

(4) سورة المائدة: آية 13.

سورة المائدة

الآيـة الأولى منها: غ ــ قـولـه تعـالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَامِ﴾[1] وفي سورة الحج ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَامُ﴾[2]، للسائل أن يسأل عن وجه ما ورد في هاتين الآيتين مع اجتماعهما في التعريف بحلية هذا الضرب من الحيوان البهيمي مفصحاً فيهما بتقرير حكم التحليل بالماضي وهو قوله: ﴿أحلت لكم﴾، ثم خصت آية المائدة بزيادة لفظ «بهيمة» ولم يرد ذلك في آية الحج، فيسأل عن وجه ذلك؟ والجواب عنه والله أعلم: أن المقصود في الآيتين مختلف فوردت الألفاظ بما يحرز ذلك، وبيانه أن اسم الأنعام إنما يقع على ما ذكر في آية سورة الأنعام من الأزواج الثمانية حين تفسرت مفصلة فقال تعالى: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾[3] ثم قـال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾[4] وهي أصناف أربعة الإبل والبقر والضان والمعز تفصلت بحسب التذكير والتأنيث إلى ثمانية، والحمولة منهـا ما أطاق الحمل على ظهره وهي الإبل والفرش ما سواها وقيل غير هذا، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ

---

(1) سورة المائدة: آية 1.

(2) سورة الحج: آية 30.

(3) سورة الأنعام: آية 143.

(4) سورة الأنعام: آية 143.

فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ﴾[1] وإنما اللبن المراد هنا المنعم به علينا لبن الأنعام وهي الأزواج الثمانية أما لبن الوحشي غير الإنسي فلم يقصد هنا وإن كان حلالاً لتعذر إدراكه وليس هو المراد في الأنعام وإن جاز إطلاق اسم الأنعام على الوحشي مجازاً لجامع سنذكره بعد. قال الهروي[2] الأنعام المواشي من الإبل والبقر والغنم، وإذا وضح أن الأنعام هي الأزواج الثمانية فمن المعلوم أن غيرها من الوحشي الذي لا يدرك إلا بالصيد محرم على الحاج ما دام في عمله، قال تعالى: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً﴾[3]، ولما كانت آية سورة الحج مناطة بما أمر به الحاج في قوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾[4] والأمر بتعظيم تلك الحرمات والشعائر الإيمانية في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾[5] وصل بها ما يحل أكل لحمه للمحرم حال إحرامه، فقال تعالى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَامُ﴾[6] ولم يكن ليلائم هذا الموضع ما ورد في آية المائدة من قوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَامِ﴾ لأن المراد ببهيمة الأنعام

---

(5) سورة النحل: آية 66.

(6) الهروي، (396هـ/ 1006م ــ 1089/481): عبد الله بن علي الأنصاري الهروي أبو إسماعيل، شيخ خراسان في عصره من كبار الحنابلة، كان بارعاً في اللغة حافظاً للحديث عارفاً بالتاريخ والأنساب من كتبه: ذم الكلام وأهله؛ الفاروق في الصفات وكتاب الأربعين في التوحيد وغيرها، وجاء في ذيل كشف الظنون 1310/3 أن له تفسيراً (الاعلام 267/4).

(7) سورة المائدة: آية 96.

(8) سورة الحج: آية 29.

(9) سورة الحج: آية 30.

(1) سورة الحج: آية 30.

الوحشي، قال القرطبي[1] «بهيمة الأنعام وحشيها»[2]، وقال الزمخشري في أحد تفسيريه: «الظباء وبقر الوحش»[3]. ووجه وقوعها في آية المائدة أن آية المائدة من آخر ما نزل وقد تضمنت متممات من الأحكام كآية الوضوء والتيمم وتفاصيل الصيد واستيفاء المحرمات من المأكولات والمشروبات على التحرير، وأحكام هذه السورة كثيرة ومحكمة غير منسوخة، وفيها ورد: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَامَ دِيناً﴾[4] فناسب هذا ذكر حلية بهيمة الأنعام إلحاقاً لها بالأنعام إذ لم يذكره الله في غيرها على ما ورد في تحرير ذلك وبيان العوارض التي قد تحرم لأجلها وذلك قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ﴾[5] ثم أتبع بقوله: ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ﴾[6] لأن هذه عوارض تكثر في الوحشي لمخالفة حاله في التذكية وما تحل به الإنسية من الأنعام، ثم أتبع ذكر ما يعرض مما ذكر مما وقعت الإشارة إليه بقوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾[7] ثم أشار قوله: ﴿غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾[8] إلى ما أفصح به قوله تعالى: ﴿وَحُرِّمَ

---

(1) القرطبي: في كل النسخ الغزنوي وهو محمد بن أحمد الأنصاري الخزرجي الأندلسي (ت 671هـ/ 1273م) تقدمت ترجمته.

(2) أحكام القرآن، للقرطبي 34/6.

(3) الكشاف 601/1.

(4) سورة المائدة: آية 3.

(5) سورة المائدة: آية 3.

(6) سورة المائدة: آية 3.

(7) سورة المائدة: آية 1.

(8) سورة المائدة: آية 1.

عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً﴾ [1]، فوضح التناسب وإن عكس الوارد في الآيتين لم يكن ليناسب، والله أعلم بما أراد.

الآية الثانية من سورة المائدة[2]: غ [3] ـ قوله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً﴾ [4]، وفي سورة الفتح: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَاناً﴾ [5]، وكذا في سورة الحشر[6]. فيسأل عن موجب اختصاص سورة المائدة بما ورد فيها من إضافة اسم الرب تعالى إليهم بخلاف السورتين.

والجواب، والله أعلم: أن آية المائدة مبنية على تأنيس وتقريب واستلطاف وقد أحرز قوله: «من ربهم» هذه المعاني الثلاثة حسبما يتبين بعد. ومن التأنيس أيضاً افتتاح خطاب من قصد بها بقوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ مع أنهم نهوا عن عدة منهيات والنهي مما يثير الخوف لمن قصد بالنهي، ثم يحكمه ويقويه ما وصف به آمّ البيت الحرام من ابتغاء الفضل والرضوان إلى ما تعضيده إضافة التخصيص في قوله: «من ربهم» إذ لا يحصل ذلك من أن لو قيل: يبتغون فضلاً من الله عوض قوله: «من ربهم» وإذاية[7] من خص بتقريب ليست كإذاية من ليس كذلك، والمعصية قد تكون واحدة ثم تعظم بإيقاعها على صفة ما، وتأمل ما ورد

---

(1) سورة المائدة: آية 96.
(2) سقط من ن 3.
(3) سقط من ن 4.
(4) سورة المائدة: آية 2.
(5) سورة الفتح: آية 29.
(6) سورة الحشر: آية 8، وهي قوله تعالى: ﴿يبتغون فضلاً من الله ورضواناً﴾.
(7) في ن 4: وأراد به غير واضحة.

في الزنا بحليلة الجار والزنا كله كبيرة ولكن لوقوعه بحليلة الجار زيادة وذلك لحرمته، وكذلك ما عظم الشرع من الإلحاد في البيت الحرام والإلحاد كله كفر ولكن في وقوعه في البيت الحرام زيادة، وتأمل هذا في الكتاب العزيز وفي صحيح الأخبار تجد ذلك كثيراً، كما أن هذه الإضافة في قوله: «من ربهم» مشعرة إذا اقترن بها بعض القرائن بالتلطف[1] والتقريب[2] وتأنيس من عني بها وتخويف من انتهك حرمة من جرت الكناية عنه بها تخصيصاً وتأنيساً فلهذا خص هذا الموضوع بها وقدم أيضاً تأنيس من خوطب بالنهي إذا هم امتثلوا فأنسوا من شدة الخوف الحاصل من مجموع ما ذكرنا، فلمجموع ما قصد في هذه الآيـة من التأنيس والتخويف والاستلطاف خصت بما ورد فيها.

فإن قلت قد ترد هذه الإضافة حيث لا يقصد التلطف ولا التأنيس كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[5] إلى أمثال هذا مما يكثر، قلت: أما آية الفتح فلم ينجر فيها تخويف مرتكب ولا بنيت على ذلك ولا داعية إلى ما يستدعي التأنيس كما في آية المائدة وهذا مع أن المذكورين في آية الفتح أعظم الأمة قدراً وأجلهم خطراً وهم أهل المزية والإختصاص فلم تبن الآية إلا على مدحهم وبيان مزيتهم التي لا يدركها غيرهم ولم ينجر فيها تخويف مرتكب يدعو إلى تأنيس من خوطب بها كما في آية المائدة، بل وردت هذه مورد البشارة وتعريف حال الأنعام، وعلى ذلك وردت آية الحشر من الثناء والمدحة

---

(1) في ن 3: للتلطف.

(2) في ن 1، ن 2: التقرب.

(3) سورة الملك: آية 6.

ولم يتخللها نهي ولا تخويف ولا ورود تفصيل بذكر مخالفي تلك الحال، فقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ ٱلْمُهَاجِرِينَ﴾[1] إلى قوله: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلصَّادِقُونَ﴾[2]. فقد وضح الوجه في ورود كل من هذه الآي على ما ورد، وإن عكس الوارد فيها لا يناسب على ما تمهد، والله سبحانه أعلم.

الآية الثالثة من سورة المائدة: غ ــ قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾[3]، وقال تعالى (فيما بعد)[4]: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾[5]، فاتفقت الآيتان على وصية المؤمنين وحضهم على مكارم الأخلاق والعفو ممن تقدمت منه إساءة أكسبت بغضه، فكأن قد قيل لهم: لا يحملنكم ما وقر في صدوركم من بغضكم إياهم على متقدم إساءتهم بصدهم إياكم عن المسجد الحرام عام الحديبية[6] ومنعكم عن الاعتمار لا يحملنكم ذلك على الانتقام منهم والانتصار لأنفسكم: والعفو أقرب للتقوى وقد ملكتم فاسجحوا[7]، خوطب المؤمنون بهذا بعد فتح مكة وقهر كفار العرب وإعلاء كلمة الله فندبوا إلى العفو عما تقدم، ولا يحاسب من إنقاد

---

(1) سورة الحشر: آية 8.

(2) سورة الحشر: آية 8.

(3) سورة المائدة: آية 2.

(4) سقط من ن 4.

(5) سورة المائدة: آية 8.

(6) عام الحديبية: أي السنة السادسة للهجرة، والحديبية بئر على مرحلة من مكة بالقرب منها تم الصلح بين المسلمين وكفار قريش فعرف بصلح الحديبية.

(7) في ن 3: فاسمعوا، وفي لسان العرب الإسجاح حسن العفو ومنه المثل السائر في العفو عند المقدرة: ملكت فاسجح.

واستجاب ودخل في دين الله بما كان تقدم من عداوتهم وإن وقر في النفوس من بغضهم على إساءتهم ما وقر فاستوت الآيتان بأمر المؤمنين بمكارم الأخلاق، ثم اختلف تعليق ما حذروا منه أن يحملهم عليه لحظ ما بقي في نفوسهم، فقيل في الآية الأولى: ﴿أن تعتدوا﴾ وفي الثانية ﴿على ألّا تعدلوا﴾ والاعتداء أشد وأعظم من عدم العدل، فللسائل أن يسأل عن وجه ما ورد في كل من الموضعين ومناسبته لما تقدمه.

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن الآية الأولى ورد فيها الإفصاح بعلة البغضاء الحاملة على الانتصار والانتقام وهي صدهم عن البيت الحرام عام الحديبية وذلك قوله تعالى: ﴿أَنْ صَدُّوكُمْ﴾ أي من أجل أن صدوكم أي منعوكم «فأن» هنا مصدرية في موضع المفعول من أجله، فلما وقع الإفصاح بسبب الشنئان ناسب النظم الإفصاح بالعفوية عليه وهو الاعتداء بالانتقام والمجازاة السيئة بالسيئة لولا ما ندب سبحانه إليه من التخلف الإيماني المشروع للمؤمنين تقديمه واختياره، فقيل: ﴿أن تعتدوا﴾ أي لا[1] يحملنكم ذلك على أن تعتدوا أي على الاعتداء أو لا يكسبنكم ذلك المرتكب الفارط منه الاعتداء، ولما لم يرد في الآية الثانية إفصاح بجريمة بل بنيت على أمر المؤمنين بالعدل فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِٱلْقِسْطِ﴾[2] فلما أمروا بالعدل ناسب ذلك وصيتهم وأمرهم ألا يحملهم شيء على ترك العدل الذي أمروا به فقيل: ﴿عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا﴾. فوضح جليل الالتئام والمناسبة وورود كل من المنهي عن ارتكابه في الآيتين على ما يجب ويناسب ولا يمكن خلافه، والله أعلم.

---

(1) في ن 3: ان وهذا خطأ بين.

(2) سورة المائدة: آية 8.

الآية الرابعة في سورة المائدة: غ ـ قوله تعالى: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1] وفي النحل: ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾[2]، فورد في الآيتين إتمام نعمته (سبحانه)[3] على عباده بعبارة متحدة ثم اختلف المترجى منه سبحانه جزاء على ذلك.

والجواب، والله أعلم: أن آية المائدة خطاب للمؤمنين بما يجب عليهم من الطهارة لصلاتهم وتعليم لهم كيفية عملهم في ذلك وإنعام عليهم برخصة التيمم إذا عدموا الماء، وكل هذا مستوجب للشكر لله سبحانه فقيل في ختام هذه الآية: ﴿لعلكم تشكرون﴾. وأما آية النحل فإن السورة كلها مكية إلا آيات[4] من آخرها، وغالب (حالها)[5] أنها خطاب لكفّار قريش ومن كان مثلهم، ألا ترى افتتاحها بقوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾[6] وإنما هذا خطاب للمرتابين في الساعة تكذيباً وكفراً ثم قال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[7]، وقرىء بالتاء[8] فأوضح أن الخطاب كما قلنا للمرتابين، وقوله بعد: ﴿أَفَمَنْ

---

(1) سورة المائدة: آية 6.

(2) سورة النحل: آية 81.

(3) بهامش ن 3.

(4) في ن 4: إلا آية، والصحيح إلا آيات بالجمع، لأن الآيات المدنية في سورة النحل الثلاث الأخيرة.

(5) سقط من ن 3.

(6) سورة النحل: آية 1.

(7) سورة النحل: آية 1.

(8) وقرىء بالتاء: قرأ حمزة والكسائي بالتاء وقرأ الباقون بالياء على الابتداء (عن كتاب حجة القراءات لأبي زرعة عبد الرحمان بن محمد بن زنجلة، ص 384-385، تحقيق سعيد الأفغاني، نشر جامعة بنغازي 1974م).

يَخْلُقُ كَمَنْ لاَ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾[1] وقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ آللَّهِ لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾[2] إلى ما بعد، ثمّ قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ[3] مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ آلْأَوَّلِينَ﴾[4]، ثم قال: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ آلْقَوَاعِدِ﴾[5]، وقال: ﴿إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ آللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾[6]، ثم قال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِآللَّهِ جَهْدَ أيمانهم لاَ يَبْعَثُ آللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾[7]، ثم قال: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [8] ، ثم قال بعد آي فذكر بما امتن به سبحانه فقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ آللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً... الآية﴾ [9] ، وعلى هذا استمرت آية سورة النحل وقد تخللها من تذكيرهم بإنعام الله عليهم كثير إلى قوله: ﴿وَآللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلاَلاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ آلْجِبَالِ أَكْنَاناً﴾[10]، وكل هذا تذكير بعجائبه[11] من إنعامه تعالى لا يمكن نسبة شيء منها لغيره، ثم أعقب ذلك بقوله: ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾[12] أي تدخلون في دين

---

(1) سورة النحل: آية 17.
(2) سورة النحل: آية 20.
(3) بهامش ن 4.
(4) سورة النحل: آية 24.
(5) سورة النحل: آية 26.
(6) سورة النحل: آية 37.
(7) سورة النحل: آية 38.
(8) سورة النحل: آية 62.
(9) سورة النحل: آية 73.
(10) سورة النحل: آية 81، وقد وردت في ن 3 محرفة.
(11) في ن 4: لعجائبه.
(12) سورة النحل: آية 81.

الإسلام الذي لا يقبل في الآخرة سواه، فهذا أوضح تناسب والسورة مكية.

أما آية المائدة فلم يقع قبلها خطاب لغير المؤمنين ولا ما قصد به سواهم ولم يخاطبوا باسم الإيمان إلا وإسلامهم حاصل، ثم علموا طهارتهم بعد بيان ما أحل لهم وحرم عليهم، ثم أعقب تعليمهم برخصة التيمم عند تعذر الماء، فناسب ذلك رجاء إنعامه عليهم بهدايتهم للشكر، فقيل: ﴿لعلكم تشكرون﴾، ولم يكن ليلائم في كل من ختام الآيتين إلا الوارد فيه، ولا يناسب عكس الوارد بوجه، فورد كل على ما يجب ويناسب، والله أعلم بما أراد.

الآية الخامسة من سورة المائدة قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[1]، وفي سورة الفتح: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ الَّذِينَ (آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ)[2] مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾[3]، فقيل ها هنا: «منهم» ولم يقل في آية المائدة: «منكم» على مقتضى الخطاب ولا «منهم» على الالتفات فيخصص كما في آية الفتح، بل قطع وعد عن نصب مفعوله وجيء بالجملة في موضعه فقيل لهم مغفرة وأجر عظيم وجرى ذلك على ما يعم الكل ولا يخص، فيسأل عن ذلك.

والجواب عنه، والله أعلم: أن آية المائدة لما تقدمها خطاب المؤمنين في قضيتين: الأولى منهما: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى

(1) سورة المائدة: آية 9.

(2) بهامش ن 2.

(3) سورة الفتح: آية 29.

ٱلصَّلَاةِ. . . إلى قوله لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1]، والثانية قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِٱلْقِسْطِ. . الآية﴾[2] وقد وقع فيما بين هاتين الآيتين (قوله تعالى)[3] ﴿ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾[4]، ولم يقع أثناء هذه الآي إشارة إلى غيرهم ولا انجر معهم أحد ممن سواهم لم يحتج إلى تخصيص الخطاب الوعدي فأطلق القول ولم يقيد بأن يقال: «منهم» ولا عملت وعد في مفعولها الثاني كما جاء ذلك كله في آية الفتح، بل عدل عن عملها في لفظ المغفرة وجيء بالجملة في موضع المفعول وقطع بقوله لهم على الابتداء والخبر ليكون أبلغ في استحقاقهم ذلك، وأما آية الفتح فأعقب بها التمثيل الجاري في ذكر الزرع في قوله تعالى: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾[5] مع أن العلية[7] الموصوفين بقوله ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[6] إلى ما وصفوا به وعرف أنه مثلهم في التوراة وأن مثلهم في الإنجيل قد كان كذا، فمع ما وصفوا به قد عاصرهم وكان في أيامهم ومعهم من علم نفاقه فمن كان يتظاهر بالإيمان ويسر الكفر: ﴿وَإِذَا جَاؤُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾[8] وقد صاروا معهم بظاهر أمرهم وأعلم بذلك قوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ

---

(1) سورة المائدة: آية 6.
(2) سورة المائدة: آية 81.
(3) ما بين القوسين بهامش ن 2.
(4) سورة المائدة: آية 7.
(5) سورة الفتح: آية 29.
(6) في ن 4: أهلية وهو خطأ مخل بالمعنى.
(7) سورة الفتح: آية 29.
(8) سورة المائدة: آية 61.

مِنْكُمْ﴾[1]، وعرف سبحانه بأحوالهم وحذر نبيه والمؤمنين منهم فقال: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَافِرِينَ وَٱلْمُنَافِقِينَ﴾[2]، وقد شمل الكل عموم قـوله: ﴿والذين معه﴾ بظاهر الإيمان إذ كانوا يتظاهرون بما وصف به المؤمنون، فجيء هنا بالوعد محرزاً (مخرجاً)[3] منه من كان يتظاهر[4] بالإيمان ويلزق بالمؤمنين وليس منهم فقيل: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ﴾[5] فجيء بقوله: «منهم» ليحرز هذا المعنى الجليل، فمن على هذا للتبعيض.

أما آية المائدة فلا يتناول قبلها مما ذكر من الآيات غير المخلص في إيمانه بخصوص خطابهم بما لا يتناول غيرهم من قوله: ﴿ياأيها الذين آمنوا﴾ فخصصوا بالنداء ولا يتناول إلا مؤمناً. أما مع فيتناول المجتمعين في الظاهر من حيث تألف أشخاصهم وإن اختلفت قلوبهم، ويدل على ذلك قول المنافقين في القيامة للمؤمنين ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾[6] وجواب المؤمنين لهم بقوله: «بلى» أي قد كنتم معنا ولكن لم تكونوا مخلصين، هذا معنى قولهم: ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ... الآية﴾[7]، فقد كانت معية في الظاهر وصح إطلاقها لغة وهذا القدر من الاحتمال في اللفظ وإن لم يكن مقصوداً في المعنى حسن التحرير والتحرز في آية الفتح

---

(1) سورة التوبة: آية 56.
(2) سورة الأحزاب: آية 46.
(3) سقط من ن 1، ن 2.
(4) في ن 3: يتظاهرون، والصحيح يتظاهر ويؤكده ما ورد بعد.
(5) سورة الفتح: آية 29.
(6) سورة النساء: آية 141.
(7) سورة الحديد: آية 14.

بقوله منهم، أما قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾ بعد أن لم يتقدم إلا ذكر من أفصح بلسانه، وإنما الإيمان عمل قلبي لأنه التصديق وإن اتسع في إطلاقه على الإيمان والإسلام، فالتصديق حاصل على كل حال كما لو قيل في آية سورة الفتح: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُمْ﴾، إذا تقرر هذا فلا حامل غير التحرز بأن يقال: «منهم» لأنهم مستوون غير مختلفين في ظاهر ولا باطن بخلاف آية الفتح لما في ظاهر لفظ مع مما تقدم. فإن قيل: وصفهم بما وصفوا به في آية الفتح يرفع ما ذكرت من الاحتمال، قلت: إذا أمكن رجوعه إلى الأكثر واحتمل لم يندفع ذلك الاحتمال، فورد كل من الآيتين على ما يناسب، والله أعلم.

الآية السادسة: (قوله تعالى)[1]: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾[2]، وقال فيما بعد: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾[3]، (ففي الأولى: ﴿عن مواضعه﴾ وفي الثانية: ﴿من بعد مواضعه﴾)[4]، فيسأل عن موجب ذلك.

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن الفرق بين الموضعين: أن الآية الأولى تضمنت إخبار الله سبحانه لنبيه، عليه السلام، مرتكب من تقدم من كفار بني إسرائيل حين أخذ عليهم الميثاق فيما عرفه سبحانه في

---

(1) سقط من ن 4.
(2) سورة المائدة: آية 13.
(3) سورة المائدة: آية 41.
(4) بهامش ن 2.

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً﴾ . . . إلى قوله: ﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ (ذَلِكَ)[1] مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[2]، فأخذ تعالى عليهم الميثاق وأخبرهم أنه تعالى معهم مواليهم بالتأييد وتكفير السيئات إن هم وفوا بما أخذ عليهم في قوله: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ ٱلزَّكَاةَ وَآمَنْتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ . . . الآية[3]، فنقضوا العهود، وقتلوا الأنبياء، وحرفوا كلام الله، فجعل الله قلوبهم قاسية ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم، فهذا كله تعريف بمرتكب سلف المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإخبار بحالهم من تحريفهم وتبديلهم.

وأما الآية الثانية فتعريف له، عليه السلام، بأحوال معاصريه منهم وكل هذا تسلية له صلى الله عليه وسلم لئلا يحزنه قولهم ويشق عليه ارتكابهم وليعلم أن ذلك من بعدهم جار على ما قدر عليهم في الأزل قد تبع في ذلك الخلف السلف، فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ ٱلَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَإِذَا جَاؤُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾[4]، فلما كان هذا الإخبار بحال خلفهم والأول إخبار بحال سلفهم ناسب حال الأولين ذكر ما تناولوه بأنفسهم وباشروه بالتحريف والتبديل، فقيل: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾، فهم المزيلون لما خوطبوا به عما أريد به لم يتقدمهم في ذلك غيرهم، وأما المعاصرون فقد حرفوا أيضاً

---

(1) بهامش ن 3.
(2) سورة المائدة: آية 12.
(3) سورة المائدة: آية 12.
(4) سورة المائدة: آية 41.

بعد[1] الاستقرار، ألا ترى إنكارهم صفته، عليه السلام، بعد مشاهدته ورؤيته وهذا مما اختص[2] به الخلف دون السلف إذ لم يباشر أمره، عليه السلام، هؤلاء بعد أن كان سلفهم يعترفون بذلك، فقد حرف هؤلاء بعد الاعتراف والثبوت زائداً إلى ما ارتكبه سلفهم فالمقلدون لأسلافهم في التحريف والتبديل قائلون بما قالوه، فناسب الإخبار عن مرتكبهم ذكر البعدية إذ قد تقدمهم غيرهم لما ذكر، فالسلف منهم مبتدع مخترع والخلف محرف أيضاً ومقلد متبع، فالبعدية لمن بعد والحالية المحكية لمن قبل على ما يناسب، والله أعلم.

الآية السابعة قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا (كُنْتُمْ)[3] تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾[4]، وفيما بعد: ﴿يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ ٱلرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾[5]، للسائل أن يسأل عما ورد في هاتين الآيتين من الاختلاف فيما خوطب به بنو إسرائيل ووجه خصوص كل من الموضعين بالوارد فيه مع اتحاد مقصودهما من تذكيرهم وتعنيفهم على إعراضهم وانحرافهم عن الجادة من اتباع من أعلموا بأمره وقدم لهم فيه ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عرفوا (كفروا)[6] به﴾[7].

---

(1) في ن 4: هذا.
(2) في ن 3: أخص وهذا خطأ بين.
(3) سقط من ن 3.
(4) سورة المائدة: آية 15.
(5) سورة المائدة: آية 19.
(6) بهامش ن 2.
(7) سورة البقرة: آية 89.

على هذه المقدمة من المعنى مدار الآيتين، وإذا وضح هذا فلا سؤال في غير تخصيص كل واحدة من الآيتين بما ورد فيها؟

والجواب، والله أعلم: أنه لما تقدم قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً. . الآية[1] فبين تعالى ما عهد إليهم فيه أي في معرفة نبوته وأن يؤمنوا به ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾[2] وألزموا الوفاء به وأعلموا بما يكون من أمرهم أن وفوا فقيل لهم: ﴿لأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ٱلأَنْهَارُ﴾[3]، فالتزموا بما ألزموا بدليل: قالوا أقررنا ثم نقضوا وحرفوا فجوزوا باللعنة وقساوة القلوب قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾[4]. فلما تقدم هذا ناسبه قوله تعالى لهم: ﴿يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَابِ﴾[5]، وهذا أوضح تناسب.

ولما تقدم الآية الثانية قول النصارى في المسيح، عليه السلام، وإخباره تعالى عنهم بذلك في قوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾[6] وبين تعالى حال المسيح في عبوديته وانسحاب القهر الرباني عليه كسائر المخلوقات فقال تعالى: ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي ٱلأَرْضِ

---

(1) سورة المائدة: آية 12.
(2) سورة آل عمران: آية 81.
(3) سورة المائدة: آية 12.
(4) سورة المائدة: آية 13.
(5) سورة المائدة: آية 15.
(6) سورة المائدة: آية 17.

جَمِيعاً. . . الآية﴾[1]، ثم جمع أهل الكتابين في التعريف بقولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ الله وَأَحِبَّاؤُهُ﴾[2] وليس هذا الاخبار كالمخبر به من حال اليهود[3] في قبيح عنادهم وشنيع تحريفهم ولم يجر خطاب النصارى وما عرف به من حالهم في الكتاب العزيز على حد ما جرى في ذلك في يهود من التعنيف والتوبيخ وضرب الذلة واللعنة عليهم والبوء بالغضب، فلما كان هذا التعريف المتقدم على الآية الثانية أوطأ مساقاً ودون ما تقدم الآية المتقدمة من التوبيخ والمبالغة في شنعة المرتكب ناسب هذا ما بني عليه واتبع به من قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ ٱلرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾[4]، وفي هذا الخطاب استلطاف ورفق ولم يرد هنا ذكر تحريف ولا تبديل ليلائم ما تقدمه في لين القول ووطأة الاخبار، وتأمل التناسب بين الخطابين وما بنيا عليه يلح لك جليل الانتظام وعظيم التلاؤم، وإن عكس الوارد لا يمكن ولا يلائم، والله سبحانه أعلم.

الآية الثامنة من سورة المائدة قوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ الله شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً﴾[5]، وفي سورة الفتح ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ الله شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً﴾[6]، للسائل أن يسأل عن زيادة «لكم» في سورة الفتح وحذف ذلك في سورة المائدة؟

---

(1) سورة المائدة: آية 17.
(2) سورة المائدة: آية 18.
(3) في ن 3: يهد وهذا خطأ.
(4) سورة المائدة: آية 19.
(5) سورة المائدة: آية 17.
(6) سورة الفتح: آية 11.

والجواب عن ذلك: إن (في)[1] آية المائـدة عموم يستـدعي الاطلاق وعدم التقييد بالمخاطبين وفي سورة الفتح خصوص يستدعي التخصيص بآية[2] الخطاب للمواجهين به، وذلك أن الاخبار في سورة المائدة إنما هو النصارى قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ الله هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾[3] وهذا حكاية قولهم، ثم أعلم تعالى بقدرته وقهره للكل فقال: قل لهم يا محمد من يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً أي من يدفع مراده في خلقه إن أراد هلاكهم، ثم ذكر سبحانه خلقه المقهورين من سكان الأرض فبدأ بالمسيح وأمه عليهما السلام ثم قال: ﴿وَمَنْ فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ فعم الكل فلم يكن ليناسب هذا العموم أداة خطاب تخص.

أما آية سورة الفتح فقبلها إخباره سبحانه عن المتخلفين عن غزوة الحديبية قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾[4]، ثم أعلم تعالى نبيه عليه السلام والمؤمنين أن قول هؤلاء المخلفين قول بألسنتهم غير مطابق لما في قلوبهم فقال تعالى: قل لهم يا محمد من يملك لكم معشر المخلفين من الله شيئاً (أي)[5] من يدفع عنكم الضر إن أراده بكم أو يوصل إليكم النفع إن منعه عنكم فالإخبار إنما هو عنهم وتقدير النفع والضر مرفوعاً أو لاحقاً خاص بهم لم يرد بذلك غيرهم فورد بخطاب المواجهة فقال: «لكم»

---

(1) بهامش ن 3.
(2) في ن 3: بإفادة، وهذا يؤدي المعنى المراد.
(3) سورة المائدة: آية 17.
(4) سورة الفتح: آية 11.
(5) بهامش ن 2.

ولم يكن بد من ذلك ليعلم أن الإخبار عنهم والخطاب بما بعد لهم، فجاء كل على ما يناسب ويجب ولا يتصور فيه العكس. والله أعلم.

الآية التاسعة وهي (من)[1] تمام هذه التي فرغنا منها وهي قوله تعالى: إثر قوله ﴿وَمَنْ فِي ٱلْأَرْضِ جَميعاً﴾ فقال: ﴿وَلله مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَالله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2]، وقال تعالى فيما بعد: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ الله وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلله مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[3]، للسائل أن يسأل عن تعقيب[4] الأولى بقوله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَالله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وتعقيب الثانية بقوله «وإليه المصير».

والجواب عن ذلك: أنه سبحانه لما ذكر في الأولى قدرته وعظيم سلطانه في قوله: ﴿قُلْ مَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ الله شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً﴾[5] وعرف سبحانه أنه لا معاند له ولا مانع لما يريده أشار بقوله: «يخلق ما يشاء» إلى ما أفصح به قوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾[6] وقوله: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[7]، فصارت الآية بهذا في قوة أن

---

(1) بهامش ن 3.
(2) سورة المائدة: آية 17.
(3) سورة المائدة: آية 18.
(4) في ن 3: تقيب وهو خطأ في الرسم.
(5) سورة المائدة: آية 17.
(6) سورة النساء: آية 133.
(7) سورة إبراهيم: آية 19.

لو قيل: قل من يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك من ذكر ويأت بآخرين سواهم فأعقب هذا بقوله ﴿وَالله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وهذا واضح.

ولما قال في الآية الأخرى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ الله وَأَحِبَّاؤُهُ﴾. ثم ذكر تعذيبهم بذنوبهم بإنه سبحانه يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء أعقب هذا بما يشير إلى وقت التعذيب وظهور المغفرة والمجازاة فقال: «وإليه المصير» وهذا واضح أيضاً، فلما اختلف مقصود الآيتين أعقبت كل واحدة منهما بما يناسب مقصودها بالقهر في الأولى والاختراع يناسب وصفه عز وجل بالقدرة كما أن التعذيب والغفران في الثانية يناسبها ذكر ٱلْمآل[1]، فجاء كل على ما يناسب.

الآية العاشرة قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَداً مِنَ ٱلْعَالَمِينَ﴾[2]، وفي سورة إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ[3] يَسُومُونَكُمْ سُوءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[4]، فافتتح

(1) في ن 1، ن 2، ن 4: المثال وهذا خطأ لا يؤدي المعنى المقصود.

(2) سورة المائدة: آية 20.

(3) فرعون: فرعون لقب ملك مصر في التاريخ القديم وأصله باللغة المصرية القديمة (برعو)، ومعناه البيت العظيم، وفرعون لقب كل عات متجبر والذي عليه الجمهور أن رمسيس الثاني هو فرعون الذي ولد في عهده موسى، عليه السلام، وتربى في بيته وأنه هو الذي اضطهد بني إسرائيل، وان ابنه منفتاح هو فرعون مصر وقت خروج موسى وقومه وهو الذي ناله الغرق.

(4) سورة إبراهيم: آية 6.

قول موسى لقومه في سورة المائدة بندائهم ولم يقع نداؤهم في سورة إبراهيم، فيسأل عن الموجب لذلك وعن وجه الفرق؟

والجواب عن ذلك: أنه لما اعتمد في آية المائدة تذكيرهم بضروب من الآلاء والنعم الجسام من جعل الأنبياء فيهم وجعلهم ملوكاً وإعطائهم ما لم يعط غيرهم، كان ذلك تعريفاً باعتنائه سبحانه بهم وتفضيلهم على من عاصرهم وتقدمهم من أمم الأنبياء قبلهم فناسب ذلك نداء موسى، عليه السلام (اياهم)[1] بقوله: (يا قوم» بالاضافة إلى ضميره إنباء بالقرب والمزية، وناسب هذا النداء المنبىء بالاعتناء ما تقدم من تخصيصهم بما عقب به النداء من التشريف بما منحهم من الآلاء والنعم الجسام، ولما قصد في آية سورة إبراهيم تذكيرهم بنجاتهم من آل فرعون وما كان يسومهم به من ذبح ذكور أبنائهم واستحياء نسائهم للمهنة[2] ولم يذكر هنا شيء مما في آية المائدة لما اقتصر عليه هنا من التذكير بمجرد الإنجاء، فناسب ذلك الاقتصار على خطابهم دون النداء رعياً للمناسبة، والله أعلم.

الآية الحادية عشرة: غ ـ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ الله لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَالله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3]، وفي سورة الفتح: ﴿وَلله مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ الله غَفُوراً رَحِيماً﴾[4]، فقدم في المائدة ذكر

(1) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(2) في ن 4: للمنية وهذا غير مناسب.
(3) سورة المائدة: آية 40.
(4) سورة الفتح: آية 14.

التعذيب وآخر في سورة الفتح، وأعقبت الأولى بقوله: ﴿والله على كل شيء قدير﴾ والثانية بقوله: ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ فهذان سؤالان.

والجواب عن الأول: أنه لما تقدم آية المائدة قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَاداً...﴾ الآية[1] وقوله ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ... الآية﴾[2] وقد وقع في الآيتين ذكر تنكيل الطائفتين ممن حارب أوسرق مقدماً، فقيل في الطائفة الأولى: ﴿أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾[3] فهذا ما يعجل لهم في الدنيا ثم أعلم تعالى بوعيدهم الاخراوي وجزائهم[4] إن هم وافوا على فعلهم هذا مستحلين ذلك المرتكب أوغير مستحلين إن أنفذ الوعيد عليهم، وأعقب تعالى بذكر إقالتهم إن تابوا قبل أن يقدر عليهم بما أعطاه الاستثناء وأشار إليه قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[5]، وقيل في الطائفة الثانية ﴿وَالسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾[6] ثم قال: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ﴾[7] إذ أشار إلى من أقلع منهم تائباً وأصلح فإن الله يتوب عليه،فقد تقدم في هاتين القصتين[8] ذكر الامتحان قبل ما به رجاء الغفران وهذا في مآلهم الدنياوي، ثم أعقب الآية التي أعلم فيها بإنفراده بملك

(1) سورة المائدة: آية 33.
(2) سورة المائدة: آية 38.
(3) سورة المائدة: آية 33.
(4) في ن 3: وجائزهم، وهذا خطأ بين.
(5) سورة المائدة: آية 34.
(6) سورة المائدة: آية 38.
(7) سورة المائدة: آية 39.
(8) في ن 1، ن 2، ن 4: القصتين.

السماوات والأرض وأنه تعالى يعذب من يشاء، فقدم ذكر العذاب على المغفرة تنظيراً لما تقدم ومقابلة تطابق إذ كل ذلك بقدره تعالى وسابق مشيئته فهذا وجه تقديم التعذيب في آية المائدة.

وأما آية الفتح فقد تقدمها قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيراً﴾[1] وبالايمان رجاء[2] الغفران وهو متشبث به كما أن العذاب مرتبط بالكفر ومناط به، فتقدم في هذه الآية مثمر الغفران وهو الايمان وتأخر موجب التعذيب من الكفر والخذلان، ثم أعقب تعالى بقوله: ﴿وَلله مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾[3] فناسب بين الآيتين بالتناظر في الجزاءين من الغفرة لمن أناب والتعذيب لمن كفر وارتاب وبحسب مشيئته[4] سبحانه وما قدر لكل من الفريقين أولاً.

الآية الثانية عشرة قوله تعالى[5] ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ الله فَأُلَئِكَ هُمُ ٱلْكَافِرُونَ﴾[6]، ثم قال بعد: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ الله فَأُولَئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ﴾[7]، ثم قال بعد: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ الله فَأُولَئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ﴾[8]، فللسائل أن يسأل عن موجب افتراق هذه الأوصاف الوعيدية بوسم من وصف بها بما يستلزم العقاب الأخراوي من

---

(1) سورة الفتح: آية 13.
(2) في ن 1، ن 2، ن 4: جائو ما جاء في ن 3: أنسب.
(3) سورة الفتح: آية 14.
(4) في ن 4: تحسينه وهذا يخل بالمعنى.
(5) في ن 4: زيادة عز وجل.
(6) سورة المائدة: آية 44.
(7) سورة المائدة: آية 45.
(8) سورة المائدة: آية 47.

الكفر والظلم والفسق إن لم يكن إقلاع وغفران؟ ولم اختلفت مع وحدة الموصوفين بها؟ وكيف ورد فيها الأخف بعد الأثقل؟ وذلك ضد الترقي في مقابل الوعيد الذي تشير إليه هذه الصفات وهو الوعد.

وطريقته الترقي من حال إلى أعلى وعلى ذلك وردت آي الكتاب[9] كقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ... ﴾ الآية[10] فبشروا أولاً بالجنات ثم وصف بجري أنهارها وبذلك حياتها ثم بموالاة رزقها وتشابهه لتأنس النفوس بما ألفت لأن غير المألوف من المطعم ينافره الطبع ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في الضب حين قرب إليه فرده: «لم يكن بأرض قومي فأجدني أعافه»[11] ثم أتبع ذكر الرزق المأكول بالأزواج المطهرة فازداد النعيم واتسع الملاذ ثم أعقب بالخلود وذلك كمال النعيم، وقال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا الله وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[1] فتأمل ورود الغفران بعد إصلاح الأعمال وكلاهما جزاء على ما منحوه من التقوى وسداد الأقوال، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا الله وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَعَدَ الله ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها ٱالأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ الله أَكْبَرُ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ

---

(1) في ن 3: وعلى ذلك ورداً في الكتاب، وهذا خطأ.
(2) سورة البقرة: آية 25.
(3) البخاري: أطعمة 10.
(4) سورة الأحزاب: آية 70.
(5) سورة الحديد: آية 28.
(6) سورة التوبة: آية 72.

خَيْرُ ٱلْبَرِيئَةِ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتَهَا ٱلأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾[1]، فتأمل ختام الجزاء المذكور في آية الحديد بالغفران وعظيم ما يثمره والترقي من ذكر ما تقدمه إليه وختام هاتين الآيتين بعد بالرضى وهو أعظم ما يعطاه أهل الجنة والحديث الصحيح في ذلك مشهور[2]، ومفهوم الرضى لو لم يرد الحديث أعظم نعمة، والترقي في هذه الآي بين ولم ينكسر[3] هذا المطرد في آي الوعد على تكررها وعلى ذلك جرت آيات الوعيد، وإلى[4] الوعيد مرجع آي المائدة المتكلم فيها لما ذكرنا من السببية، ومقابل الوعيد الوعد وقد اطّرد ذلك فيه في كل آي الفرآن وكذلك في الآي[5] الوعيدية.

ومن أبين الوارد في ذلك وأقربه شبهاً بآي المائدة قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي الله قَوْماً كَفَرُوا بَعدْ إيمانِهِمْ وَشَهدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ...﴾[6] الآيات إلى قوله: ﴿وَمَالَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾[7]، فقد وقع في هذه الآي ذكر ثلاثة أصناف اجتمعوا في الكفر بعد الايمان ثم اختلف حكمهم فيما بعد وقد تحصل في وعيدهم الانتقال من أخف إلى أثقل فقال تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي الله قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾[8] إلى قوله:

---

(1) سورة البينة: آية 7.

(2) مسلم: جنة 9.

(3) في ن 2: ينكر وهذا غير مناسب للسياق.

(4) في ن 1، ن 2، ن 4: على.

(5) في ن 2: الآيات.

(6) سورة آل عمران: آية 86.

(7) سورة آل عمران: آية 91.

(8) سورة الإسراء: آية 86.

﴿وَأُولَئِكَ هُمْ ٱلضَّالُّونَ﴾[1] فهؤلاء مع وعيدهم وما ذكر من لعنهم قد أعقب ذلك بقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾[2] فهذا إبقاء خفت به حالهم عن المذكورين بعدهم وكذا ورد في سبب هذه الآية أن الذي نزلت بسببه[3] كتب بها إلى مكة بعد سؤاله هل له من توبة حين كفر بعد إسلامه ولحق بمكة فلما وفد عليها راجع الإسلام وحسنت توبته ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمانِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا كُفْراً﴾[4] فذكر هؤلاء بازدياد الكفر بعد الكفر المعقب به إيمانهم ثم أعقب ذلك بقوله: ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾[5] فأبقى تعالى على الأولين حين قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾[6]، واشتد حال المذكورين بعدهم حين قيل فيهم: ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ ٱلضَّالُّونَ﴾، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾[7] فأعلم من حال هؤلاء بموتهم على الكفر فانقطع رجاؤهم وهؤلاء أشد حالاً ممن ذكر قبلهم في الآية المذكورة قبلها إذ لم ينص فيها على موتهم على الكفر ونص في هذه الأخيرة فكانت أشد، فقد وضح في هذه الآيات[8] الانتقال من أخف إلى أثقل وهو مطرد في الوعد

---

(1) سورة آل عمران: آية 90.
(2) سورة آل عمران: آية 89.
(3) هو الحارث بن سويد، وقد تقدمت ترجمته، ص 110.
أنظر: أسباب النزول، للسيوطي، ص 29.
(4) سورة آل عمران: آية 90.
(5) سورة آل عمران: آية 90.
(6) سورة آل عمران: آية 89.
(7) سورة آل عمران: آية 91.
(8) سقط من ن 3.

والوعيد (واللّطف)[1] والتعريف بالامتنان والأحوال وما يرجع إلى ذلك وعلى هذا كلام العرب في هذه الضروب التي أشرنا إليها.

ومن آي الامتنان قوله (تعالى)[2] ﴿وَأَنْزَلَ (الله)[3] عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾[4]، وفي هذه الآية الترقي وهي من قبيل ما ذكر، وإنما يرد عكس الترقي فيذكر الأخف بعد الأثقل في التكاليف والأوامر والنواهي وما يرجع إلى ذلك، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ... الآيات﴾[5] فهذا الضرب وما يرد منه ويرجع إليه لا يشترك فيه ما قدم من الترقي والانتقال من أخف إلى أثقل ومن حكم إلى ما هو أعلى منه، أما الوعد والوعيد فالمطرد فيهما وفي الضروب المذكورة معهما ما بيناه من الترقي وهو كلام العرب.

فللقائل أن يقول إذا ثبت ذلك فما جوابكم عما ورد في آية المائدة وظاهره على خلاف ما زعمتم إطراده؟ (فأقول: أما القول بخروج آية المائدة عما أطرد في نظائرها وأنها مما ورد فيه الأخف بعد الأثقل فمرتكب لا يسلم لقائله وغفلة عما عليه آي القرآن وكلام العرب وإن كان قد اعتمده بعض الجلة رحمهم الله)[6]، والجواب عنه جواب عن السؤال الأول.

---

(1) سقط من ن 1، ن 2، ن 3.
(2) سقط من ن 3.
(3) سقط من ن 4.
(4) سورة النساء: آية 113.
(5) سورة المائدة: آية 45.
(6) بهامش ن 2.

وحاصل كلام من أشرنا إليه سؤالاً وجواباً أن قال: إن قيل لم قال في الأولى: «هم الكافرون»؟ وفي الثانية «هم الظالمون» والكفر أعظم من الظلم فما الفائدة في ذكر الأخف بعد الأثقل؟ ثم جاوب بما معناه (أنه)[1] لما تقدم الآية الأولى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً﴾[2] وإن آرتكاب شيء مما نهوا عنه وعدم خشيته تعالى تقصير فيما يجب له سبحانه وجحد الواجب له، وإنكار نعمه تعالى كفر (فأعقب بقوله تعالى)[3] ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ الله فَأُولَئِكَ هُمُ ٱلْكَافِرُونَ﴾[4].

ولما تقدم الآية الثانية قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾... الآية[5] فلم تتضمن هذه الآية غير الحقوق المتعلقة بالنفوس والوقوع في شيء من ذلك يوجب إيلامها[6] ودوام عقابها وذلك ظلم لها فأعقبت هذه بقوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ الله فأولئك هُمُ ٱلظَّالِمُونَ﴾ انتهى معنى كلامه، وفيه ببادىء النظر مناسبة وملاءمة في النظم. إلا أن ما تمهد من المطرد في آي القرآن وما عليه كلام العرب في الوعد والوعيد يرد ما اعتمده هذا القائل وقد تقدم في قوله تعالى في سورة البقرة ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا هَذِهِ ٱلْقَرْيَةَ... الآية﴾[7] ما فيه شفاء فيما

---

(1) سقط من ن 3.
(2) سورة المائدة: آية 44.
(3) بهامش ن 2.
(4) سورة المائدة: آية 44.
(5) سورة المائدة: آية 45.
(6) في ن 3: إتلافها وهذا لا يناسب.
(7) سورة البقرة: آية 58.

ذكرته هنا[1]. ثم إن الكلام لو كان جارياً على ما قال لبني عليه اعتراض يلزمه تكميلاً لما ألزمه نفسه في هذه الآي من توجيه الوارد فيها من الأوصاف الثلاثة وهو قصره السؤال والجواب على الوصفين من الكفر والظلم، وكأن قوله تعالى في الآية الثالثة بعد: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ الله فَأُولَئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ﴾[2] غير مناط بما قبله وليس الأمر كذلك، فإن المذكورين في الآي الثلاث قد اجتمعوا في الحكم بغير ما أنزل الله وقد شملهم ذلك فهم من حيث ذلك صنف واحد، ومدار الآي الثلاث[3] إنما هو على فعل يهود المنصوص على حكمهم بغير ما أنزل الله ومخالفتهم منصوص كتابهم في الرجم وغيره، وما قبل هذه الآي وما بعدها لم يخرج عنهم، فهم أهل الأوصاف الثلاثة، وقد نقل المفسرون عن ابن عباس أنه قال: الكافرون والفاسقون والظالمون أهل الكتاب[4]، وعن ابن مسعود: هو عام في اليهود وغيرهم[5] وقال الزمخشري مشيراً إلى وجه الترتيب في هذه الأوصاف وتفسيراً لقول ابن عباس: «وأن يهود هم الأهلون بهذه الأوصاف والمرادون بها فقال: الكافرون والظالمون والفاسقون وصف لهم بالعتو في كفرهم حين ظلموا بالاستهانة وتمردوا بأن حكموا بغير ما أنزل الله فجعل الظلم استهانة والفسق تمردا[6]، وقد فسر الفاسقين من قوله تعالى في آية البقرة:

(1) أنظر الآية 12 من سورة البقرة، ص 202 وما يليها.

(2) سورة المائدة: آية 47.

(3) في ن 1، ن 2، ن 4 ومراد الآي في الثلاث: وهذا لا يناسب المعنى المراد.

(4) أنظر: تفسير الطبري 345/10 وما بعدها؛ والكشاف 44/1.

(5) الكشاف 45/1.

(6) الكشاف 637/1.

وما يكفر بها إلا الفاسقون[1] بأنهم المتمردون من الكفرة[2]، قلت: جعل الزمخشري الاستهانة مسيرة ظلمهم ومادته فظلمهم المسبب[3] عنها بعد حصول كفرهم أشد من الكفر، ثم إن التمرد المعبر عنه في الآية بالفسق وإن تقدمته الاستهانة وكانت له كالمادة فإنه أشد من الاستهانة، لأن التمرد تفعل من مرد أي عتا، والتفعل ينبني[4] على [5] التعمد والتعمل فتأمل حصول الترقي في كلامه من أخف إلى أثقل وانسحاب كلامه على الأوصاف الثلاثة من الكفر والظلم والفسق وإن لم يفصح بسؤال ولا جواب، وكثيراً ما يعتمده وينقل كلامه من قدمنا مأخذه في هذه الآي وهو أبو الفضل بن الخطيب، ثم أنه عدل عن اعتبار كلامه هنا وارتكب خلافه ولم يستوف توجيه الأوصاف الثلاثة وقصر السؤال (على فصل)[6] ما بين الكفر والظلم دون الفسق[7]. وأرى ذلك غير ما ينبغي، والله أعلم.

وقد تعرض صاحب كتاب الدرة لهذه الآي[8] من حيث خصوص مقصده، وبنى جوابه على ذلك، فانفصل في الأوليين بأن الظلم في الآية الثانية واقع على الكفر والظلم، فهو أشد من الكفر مجرداً، هذا معنى ما أراد، وقد جرى فيه على المطرد في الترقي، الا أنه لم يخلص ما بعد

---

(1) سورة البقرة: آية 99.

(2) الكشاف 171/1.

(3) في ن 3: السبب وهذا لا يناسب السياق.

(4) في ن 3: يبني.

(5) في ن 3: من.

(6) بهامش ن 3.

(7) التفسير الكبير، للرازي 8/12.

(8) درة التنزيل، ص 99.

ذلك، وجعل الآية الثالثة منقطعة عن الآيتين قبلها، وحاصل كلامه بالجملة أن ما تقدم من الوصف بالكفر والظلم خاص بيهود لتقدم ذكرهم قبل هذه الآيات، وقوله تعالى: إِنَّا أَنْزَلْنَا ٱلتَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ. . .﴾ إلى قوله نهياً لهم: ﴿فَلَا تَخْشَوُا ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً. . .﴾ إلى قوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ ٱلْكَافِرُونَ﴾[1]، (ولم يتقدم ذكرهم بغير كفرهم وتحريفهم من غير التفات إلى (ذكر)[2] ظلمهم غيرهم، إنما مجرد كفرهم ظلم لأنفسهم فأعقب هذا بقوله: هم الكافرون)[3].

ثم لما اجتمع في الآية الثانية ظلمهم لأنفسهم ولغيرهم بما ذكر من مخالفتهم في القصاص المشار إليه بقوله: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾[4] إلى آخره، أعقب هذا بقوله: ﴿فأولئك هم الظالمون﴾ لظلمهم أنفسهم بالكفر وزيادة ظلمهم غيرهم، فكان أشد من وصف الكفر، إذ هو كفر وزيادة، فعبر بالوصف العام للكفر وغيره، ثم لما أعقب بذكر انزال الإنجيل، وكان الكلام انقطع عما قبله، ومن المعلوم أن الحكم بغير ما أنزل الله قد يكون من غير الكافر، وان لم تبلغ منزلته الكفر، فهو فاسق لا كافر، فقيل هنا: ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾، انتهى معنى كلامه، ثم أعقب هذا بأن قال: فقد بان لك أن كل موضع من الآي الثلاث أخبر فيه عن المذكورين قبل[5] بالكفر والظلم والفسق،

---

(1) سورة المائدة: آية 44.
(2) بهامش ن 3.
(3) بهامش ن 2.
(4) سورة المائدة: آية 45.
(5) في ن 2: المذكور من قبل. والصحيح ما ورد في النسخ الأخرى.

ولم يحسن غير ذلك. قلت فقد حصل من كلامه أن الكفر والظلم لفي الآيتين خاص بيهود وهم المقصودون بذلك، وان الفسق يعمهم مع غيرهم، وهو مأخذ بناه على ما حكاه من غيره من أن «من» في ثلاث الآي موصولة بمعنى الذي واعتمده هو في الأولیين، واختار في الثالثة من شرطية ليحصل في الموصولة خصوص وعهد فيمن تقدم، وليحصل في الشرطية عموم كما تقدم، ثم انه لم يتعرض لبيان ترق ولا انتقال.

فإن قيل إنما بني كتابه على مقصد خاص وهو فرق ما بين المتشابهات من الآي، ونص السؤال الذي فرض إن قال: لسائل أن يسأل فيقول: الموضع الذي وصف فيه من لم يحكم بما أنزل الله بالكفر هل باين الموضوع الذي وصف فيه تارك ذلك بالظلم والفسق؟ ثم أجاب بما تقدم، فجوابه مطابق لما فرض من السؤال. قلت هذا صحيح ولكنه لم يتخلص له جوابه فيما بين الآيتين الا باعتماد طريقة الترقي، وهو لم يقصده بسؤال ولا جواب، وإنما قصد الفرق الموجب لاختلاف الوصفين، فتحصل له بما في الآيتين من الانتقال، فلو اعتبر ذلك ومشى عليه في الآية الثالثة لكان أنسب وأبين في جواب ما فرض من السؤال مع زيادة فائدة أهم وأكبر، ولما لم يلح ذلك ارتكب التفصيل في الجواب، فجعل «مَنْ» فِي الآيتين الأوليين موصولة ليحصل من خصوص هاتين الآيتين بيهود ما اعتمده كما تقدم من كلامه، وجعلها في الآية الثالثة شرطية ليحصل له ما قصد من العموم، وليس ذلك كما ذهب إليه، ولا انفصلت منها آية أخرى الا بما أعقبت به من الوصف، وتوجيهه حاصل منه ما أراده على ما نبينه، مع رعي الترقي الثابت على ما (قد)[1]

(1) سقط من ن 1، ن 2، ن 4 وبهامش ن 3.

تقدم، وهو أوضح في توجيهه هذه الأوصاف وأولى في الجواب عن عين ما فرض صاحب كتاب الدرة من السؤال، ووصف يهود بالفسق أعظم من وصفهم بالظلم، ووصفهم بالظلم أعظم من وصفهم بالكفر، وقد نقل المفسرون عن الحسن أنه قال: «إذا استعمل في نوع من المعاصي ــ يعني الفسق ــ وقع على أعظم ذلك لنوع من كفر وغيره»[1]، ثم في آي سورة البقرة ما يبين وجه (ختم آية المائدة بوصف الفسق)[2]، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِٱلرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَاتِ... الآيات﴾[3] إلى قوله: ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا ٱلْفَاسِقُونَ﴾[4]، فتأمل ما تضمنت هذه الآيات فقد ورد فيها بضع عشرة خصلة من شنيع مرتكباتهم منها: اتباع ما هوته أنفسهم أشار[5] إليه قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ﴾[6]، ومنها استكبارهم وتكذيبهم الرسل وقتلهم إياهم وقولهم: قلوبنا غلف، إلى ما بعد من المرتكبات، وقد وقع في أول هذه الآي ذكر عيسى، عليه السلام، والتقفية من بعده بالرسل، وفي آيات المائدة قوله تعالى: ﴿وقفّينا على آثارهم بعيسى بن مريم﴾[7]: والضمير في: آثارهم لمن تقدم في قوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾[8]، فورد

---

(1) الكشاف 171/1.
(2) بهامش ن 2.
(3) سورة البقرة: آية 87.
(4) سورة البقرة: آية 99.
(5) في ن 4 ثم أشار.
(6) سورة البقرة: آية 87.
(7) سورة المائدة: آية 46.
(8) سورة المائدة: آية 44.

مفصلاً في آي البقرة ما ورد مجملاً في المائدة، وختمت آيات البقرة بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا ٱلْفَاسِقُونَ﴾[1]، وآيات المائدة بقوله: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ﴾[2]، فإلى مجموع[3] ما في آيات البقرة أشارت آية المائدة، وختمت هذه من وصفهم بالفسق بما ختمت تلك، وحصل من وصفهم به أنه أعظم من وصفهم بالكفر والظلم لأنه كفر جامع لكل شنيع من مرتكباتهم، ولذلك اختير التعبير به عن مرتكب إبليس في إبايته عن[4] السجود واستكباره فقيل: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾[5]، فلم تقع هنا عبارة: بكفره ولا ظلمه لأن الفسق بما يعتضد به من القرائن أعظم من الكفر والظلم[6]، وقد حصل الجواب عما فرض السؤال عنه من تقدم، وزاد إلى ذلك بيان الترقي المطرد وهو السؤال الأول، وأما التفصيل فخطأ بين، فأقول، وأسأل الله توفيقه، إن المفسرين قد أجمعوا على أن الوعد في هذه الآي يتناول يهود، وقد ثبت في الصحيح[7] إنكارهم الرجم مع ثبوته في التوراة، وفعلهم فيما نعى الله تعالى عليهم من مخالفة ما عهد إليهم فيه ونص في كتابهم حسب ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾[8] إلى قوله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَابِ

---

(1) سورة البقرة: آية 99.
(2) سورة المائدة: آية 47.
(3) غير واضح في ن 4.
(4) في ن 2: علي.
(5) سورة الكهف: آية 50.
(6) في ن 2: التحكم، وهذا غير مناسب للمعنى.
(7) البخاري: تفسير 3، مناقب 26؛ وفي سنن أبي داود أقضية 27.
(8) سورة البقرة: آية 34.

وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾[1] إلى ما بعد، وهذا كله من حكمهم بغير ما أنزل الله، فهم الكافرون والظالمون والفاسقون، ففيهم وبسبب مرتكبهم نزلت آيات المائدة، ثم نقول مع ذلك أن الحكم إذا نزل بسبب خاص يمنع ذلك من دعوى العموم المنزل، وهذا باتفاق من حذاق الأصوليين، وقد ردوا التمثيل بشاة ميمونة[2] وهذا مع عدم القرائن.

أما فيما نحن بسبيله في آيات المائدة فقد عضد العموم في ذلك وغيرها موضع من الكتاب والسنة، فنقول بناء على ذكرنا أن هذه الآية وان نزلت بسبب جعل اليهود ومرتكبهم في الرجم وغيره فإن ذلك عام في كل من حكم بغير ما أنزل إليه، ما لم يفعل ذلك جاهلاً غير متعمد للمعصية أو عاصياً متعمداً مع صحة اعتقاده وسلامة إقراره بلسانه، فقد خصت الشريعة هذين.

وقد تعلقت الخوارج[3] بعموم هذه الآي وأشباهها في تكفيرهم مرتكب الكبيرة، وليس شيء من ذلك نصاً في مطلوبهم، وهم محجوجون بغيرها. وإذا كانت هذه الآي على عمومها فيمن بينا، فمن في المواضع الثلاثة شرطية، و(هي)[4] من المتفق عليه في ألفاظ العموم عند أربابه، وهم الجمهور. وأما القول (بتفصيل حكم)[5] مَنْ في هذه

---

(1) سورة البقرة: آية 85.

(2) لعله يشير إلى حديث شاة ميمونة عن ابن عباس قال: تصدق على مولاة لميمونة بشاة فماتت فمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: هلا أخذتم إهابها فدبغتموه فانتفعتم به، فقالوا إنها ميتة فقال إنما حرم أكلها. (مسلم: حيض 100).

(3) المعروف عن الخوارج قولهم: بكفر مرتكب الكبيرة.

(4) بهامش ن 3.

(5) غير واضح في ن 3.

الآي وانها مع اجتماع المذكورين في الآيات فيما تقدم من حكمهم بغير ما أنزل الله، ووحدة السبب في نزول الآيات، فلا يصح بوجه، فقصر السؤال على فصل ما بين الكفر والظلم دون الفسق كما ذكرنا عمن تعرض لهذه الآية (من الجلة)(1)، وجعله الآيتين الأوليين مما ورد فيه الانتقال من الأثقل إلى الأخف غير صواب، والله أعلم.

واطراد ما تقدم من الترقي والانتقال في الوعد والوعيد وتحكيم ما تقرر من ذلك هو الحق الذي لا ينبغي أن يعدل عنه، ثم أقول ـ وأسأل الله التوفيق ـ إن هذه الآي جارية على المطرد في الوعد والوعيد والانتقال في الوصف بالكفر والظلم والفسق من أخف إلى أثقل جار على ما قد تبين بحول الله، إنما يدخل الغلط من أخذ هذه الصفات مجردة عن القرائن وما يثمره الاشتراك، فالكفر إذا ورد مجرداً عن القرائن إنما يقع على الكفر في الدين، ثم إنه قد يقع على كفر النعمة ويفتقر إلى قرينة ومنه: ﴿وَفَعَلْتَ فِعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ﴾(2).

وأما الظلم فلفظ مشترك، فإذا ورد مجرداً عن القرائن لم يكن نصاً في شيء من مواقعه، وإنما يتخلص بالقرائن، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(3)، وقال تعالى مخبراً عن نبيه يونس، عليه السلام: ﴿سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ﴾(4)، ومعاذ الله من الكبيرة فكيف بالشرك الذي لا فلاح معه، ولم يخالف أحد من أهل السنة ممن يعتمد نظره انهم معصومون من الكفر قبل الوحي وبعده، وجمهورهم

---

(1) بهامش ن 3.
(2) سورة الشعراء: آية 19.
(3) سورة لقمان: آية 13.
(4) سورة الأنبياء: آية 47.

(متفقون)[1] انهم معصومون من الكبائر، وجلة أهل السنة على عصمتهم (مما فيه)[2] دناءة من الصغائر، وبعضهم في طائفة كبيرة من سيئة المتصوفة يقولون بعصمتهم من الصغائر على الإطلاق، وكل هذه الضروب يصح وقوع إسم الظلم عليه، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾[3] أوضح شهادة على ذلك.

أما الكفر فلا تنتشر مواقعه، وكأن دلالته على كفر النعمة من قبيل ما يدل بتشكيك، كدلالة موجود على العرض، وأما الظلم فعلى ما تقدم، فإذا اقترن بالظلم الكفر كان أعظم من الكفر.

قال المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا ٱلظَّالِمُونَ﴾[4] انهم المتوغلون في الظلم المكابرون، فهذا كفر وزيادة، وقد تقدم تسمية الشرك ظلماً. وأما الفسق فلم يرد في القرآن (واقعاً)[5] على صغيرة، وقد يقع على الكبيرة حيث يقصد تعظيمها، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا[6] بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ الآية [7] وقد ختمت بوصفهم بالفسق ولا أذكر غيرها، وقد عد عليه السلام هذه في السبع الموبقات[8] ، وإنما يقع في الأكثر على الكفر كقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً﴾[9] لأن المراد هنا

---

(1) سقط من ن 3.
(2) غير واضح في ن 4.
(3) سورة النساء: آية 40.
(4) سورة العنكبوت: آية 49.
(5) بهامش ن 3.
(6) في ن 3: لم يتولوا وهو خطأ.
(7) سورة النور: آية 4.
(8) البخاري: وصايا 23.
(9) سورة السجدة: آية 18.

الطرفان، كقوله تعالى: ﴿فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾[1]، وأكثر وقوعه في القرآن انما هو في وصف يهود والمنافقين، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا ٱلْفَاسِقُونَ﴾[2]، نزلت في ابن صوريا لعنه الله[3]، وكقوله تعالى: ﴿مِنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَاسِقُونَ﴾[4]، وكقوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَاسِقِينَ﴾[5]، وكقوله تعالى: ﴿ولَكِنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[6]. في بضع وعشرين آية. وورد الوصف بالفسق في قوم لوط، عليه السلام، كقوله تعالى ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾[7]، وكقوله تعالى ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ ٱلسَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[8]، وقد وردت[9] فيمن ختم عليهم بالكفر قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[10]، وقد تقدم وصف إبليس[11] بالفسق[12]، فهذا الوصف لا يقع أبداً في كتاب الله الا على ذوي التمرد من الكفرة، وأكثر ذلك من يهود والمنافقين، ولم يجر الوصف بالظلم في كتاب الله مجرى الفسق

---

(1) سورة التغابن: آية 2
(2) سورة البقرة: آية 99.
(3) ابن صوربا. أنظر أسباب النزويل، للواحدي، ص 20.
(4) سورة آل عمران: آية 110.
(5) سورة المائدة: آية 66.
(6) سورة المائدة: آية 81.
(7) سورة النمل: آية 12.
(8) سورة العنكبوت: آية 34.
(9) في ن 3: وقد ردت، وهذا خطأ.
(10) سورة يونس: آية 33.
(11) في ن 1، ن 2، ن 4: أمر إبليس، وهذا خطأ مخل بالمعنى.
(12) في ن 3: في الفسق.

في ما ذكرنا، وقلما يوصف يهود والمنافقون وان كانوا ظالمين لأنفسهم الا بالفسق. فالظلم والفسق وان وقعا على المتوغلين في الكفر حين ذكرنا، وبالقرائن فالفسق أشد وأعظم ولا يوصف به من الكفرة في كتاب الله الا شرهم. لما بلغ قوم نوح، عليه السلام، في إصرارهم على الكفر وتماديهم عليه إلى قطع رجائه، عليه السلام، منهم، حتى قال: ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً﴾ [1]، قال تعالى فيهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ [2]، ولما ارتكب قوم لوط، عليه السلام، من فحش المرتكب بما لم يسبقوا إليه وسُموا بالفسق، ولما بلغ يهود والمنافقين ما أعلم به القرآن من حالهم واستحقوا اللعنة والغضب تكرر وصفهم بالفسق. فقد وضح أبين الوضوح ان الظلم بالقرائن ــ حسبما تقدم ــ أشنع من الكفر مجرداً، وان الفسق أشد وأعظم إذا شهدت له القرائن، فحصل بالانتقال في آي المائدة من أخف إلى أثقل على المطرد في آي الوعيد وفي المقابل من الترقي في آي الوعد، وان عكس الوارد على ما وضح لا يناسب، والله أعلم.

الآية الثالثة عشرة: وهي من تمام ما قبلها: غ ــ قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ [3] بِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ﴾ [4] وفي سورة الحديد: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾[5]، للسائل أن يسأل عن وجه ما اختلف في هاتين السورتين من التفصيل فيمن قفي بهم؟

---

(1) سورة نوح: آية 27.

(2) سورة القصص: آية 32.

(3) سقط من ن 4.

(4) سورة المائدة: آية 46.

(5) سورة الحديد: آية 27.

ووجه ما زيد في آية الحديد من المقفى بهم قبل عيسى، عليه السلام، ولم يقع ذلك في سورة المائدة مع اتحاد ما قصد في الموضعين من تواتر الرسل وتقفية بعضهم ببعض؟

والجواب، والله أعلم: أن آية المائدة ورد الكلام فيما تقدمها في بني اسرائيل من لدن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ[1] أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَر نَقِيباً﴾[2] إلى الآية التي نحن فيها، ثم استمرت الآيات بعد فيهم إلى قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَاوَةً...﴾ الآيات[3]، فأكثر آيات هذه السورة إنما نزلت فيهم تعريفاً بمرتكباتهم وتحريفهم ونقضهم الميثاق وحكمهم بغير ما أنزل الله، وفي أثناء ذلك تسلية نبينا صلى الله عليه وسلم عنهم كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ...﴾ الآية[4]، وقوله تعالى ﴿وَمَنْ يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْئاً﴾[5]، وقوله: ﴿فَإِنْ جَاؤُوكَ فَٱحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾[6]، وقوله بعد الآية المتكلم فيها: ﴿وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [7]، وقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوا فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [8]، وفيما قبل هذا: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا

---

(1) في ن 4: وإذ، وهذا خطأ.
(2) سورة المائدة: آية 12.
(3) سورة المائدة: آية 82.
(4) سورة المائدة: آية 41.
(5) سورة المائدة: آية 41.
(6) سورة المائدة: آية 42.
(7) سورة المائدة: آية 48.
(8) سورة المائدة: آية 49.

ٱلتَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا. . .﴾ الآيات[1]، ولم يقع في هذه الآي ذكر لغير بني اسرائيل ومن كان فيهم من الأنبياء من بعد موسى، عليه السلام، إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾[2]، ولا توقف في تعقيب الرسل والأنبياء بعيسى، عليه السلام، فلهذا لم يقع هنا ذكر واسطة.

وأما آية الحديد فمقصدها غير هذا، إذ هي وما اتصل بها قبلها وبعدها خطاب للمؤمنين وعظات وترغيب وتمثل وتحذير أن يكونوا كمن عرفوا به ممن طال عليه الأمد وقسا قلبه، فهذا وما يتلوه إلى أول قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[3] إلى آخر السورة خطاب للمؤمنين فيما لهم وعليهم وما وعدوا به وحذروا منه، وكذا سورة الحديد بجملتها وهم المعرفون بقوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَاتِ﴾[4]، فالمراد عامة الرسل، عليهم السلام ممن كان من بني اسرائيل وقبلهم تعريفاً بما أنعم سبحانه على العباد من رحمتهم بإرسال الرسل، ونص من جميعهم على نوح وإبراهيم إعلاماً بحالهما في الرسل كما قيل: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ﴾[5] بعد دخولهم تحت قوله: «وملائكته» وشمول لفظ الملائكة لهم ولغيرهم. ثم لما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ﴾[6] وذكر ما جعل في ذريتهما من النبوة والكتاب، اتبع

---

(1) سورة المائدة: آية 44.
(2) سورة المائدة: آية 46.
(3) سورة الحديد: آية 16.
(4) سورة الحديد: آية 25.
(5) سورة البقرة: آية 98.
(6) سورة الحديد: آية 26.

تعالى بتوالي الإنعام بمن بعدهم فقال: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا﴾ إشارة إلى من كان بعد نوح وإبراهيم وبينهم وبين عيسى، وذلك كثير، ثم قال ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى﴾، وهذا مقصد مباين ما قصد بآية المائدة، فاختلف ما ورد في الموضعين لاختلاف المقصد فيهما، ولم يكن عكس الوارد ليناسب والله أعلم بما أراد.

الآية الرابعة عشرة: غ ـ قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ﴾[1]، وفي سورة التغابن: ﴿وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ﴾[2]، فورد في الأولى زيادة: «واحذروا» وزيادة: «فاعلموا» (مع اتحاد)[3] ما تضمنته[4] الآيتان من الأمر بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله والتحذير من التنكب عن ذلك والتولي. فيسأل عن ذلك؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن آية المائدة لما أعقب بها آية الأمر باجتناب الخمر وما ذكر معها، ثم اتبع بعد ذلك بذكر العلة في تحريمها فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَاءَ فِي ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ...﴾ الآية إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾[5] فختمت من التهديد بما يشعر بشديد الوعيد، ناسب ذلك

---

(1) سورة المائدة: آية 92.

(2) سورة التغابن: آية 12، وهي بهامش ن 2.

(3) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.

(4) في ن 1، ن 2، ن 4: بما تضمنه وهذا لا يناسب السياق.

(5) سورة المائدة: آية 91.

قوله تأكيداً لما تقدم من الإشعار بمخوف الجزاء قوله: «فاحذروا» وقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوا﴾ لما في ذلك من التأكيد لما تقدم.

أما آية التغابن فلم يرد قبلها ما يستدعي هذا التأكيد، الا ترى الوارد فيها من قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٍ﴾[1]، فلما لم يرد هنا نهي عن محرم متأكد التحريم بما اتبع النهي من التهديد والتأكيد لم يرد هنا من الزيادة المحرزة لمعنى التأكيد ما ورد هناك، فجاء كل على ما (يجب)[2] ويناسب وليس عكس الوارد بمناسب، والله أعلم.

الآية الخامسة عشرة: غ ـ قوله تعالى: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[3]، وكذا في آية الممتحنة: ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا (رَبَّنَا)[4] إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[5]، فورد في هاتين الآيتين وصفه تعالى بهاتين الصفتين المشيرتين إلى العزة والقهر، وانما المطرد في الكتاب العزيز مهما جرى ذكر المغفرة طلباً أو إخباراً ورود ما به يقوى رجاء السائل ويطمع تعلقاً به المتذلل الراغب كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ ٱلرَّاحِمِينَ﴾[6]، فقوله هنا: ﴿وأنت خير الراحمين﴾ توسل مناسب لما تقدم من طلب المغفرة والرحمة، وفي سورة يوسف قوله تعالى حكاية

---

(1) سورة التغابن: آية 11.
(2) بهامش ن 3.
(3) سورة المائدة: آية 113.
(4) سقط من ن 4.
(5) سورة الممتحنة: آية 5.
(6) سورة المؤمنين: آية 109.

عن يوسف، عليه السلام: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ﴾[1]، وفي سورة القصص: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[2]، فهذا كله مناسب للطلب وهو كثير في الكتاب العزيز وجار على ما تمهد، وأما وصفه سبحانه بالعزة والملكية والحكمة فإنما يرد حيث يراد معنى الاقتدار والاستيلاء والقهر وإحاطة العلم وإفراده سبحانه بالخلق والأمر والربوبية والتعالي وما يرجع إلى هذا، كقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَأُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ ثم قال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ ثم قال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[6]، وهذا كثير مطرد حيث يراد معنى القهر والملكية والإحاطة والاقتدار، فللسائل أن يسأل عن وجه ورود آيتي المائدة والممتحنة معقبتين بما ذكر؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: يتفصل[7] في الآيتين: أما آية المائدة فمبنية على التسليم لله سبحانه وانه المالك للكل يفعل فيهم

---

(1) سورة يوسف: آية 92.
(2) سورة القصص: آية 16.
(3) سورة آل عمران: آية 62.
(4) سورة الروم: آية 27.
(5) سورة الفتح: آية 7.
(6) سورة الحشر: آية 1.
(7) في ن 4: بتفصيل.

ما يشاء، فلو ورد هنا عقب آية المائدة: ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَأَنْتَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ لكان تعريضاً بطلب المغفرة، ولم يقصد ذلك بالآية وإنما قيل ذلك على لسان عيسى، عليه السلام تبرياً وتسليماً لله سبحانه وليس موضع طلب مغفرة لهم وإنما هو تنصل من حالهم وتسليم لله فيهم، قال القرطبي، رحمه الله[1]: لم يقل: «الغفور الرحيم» لأن مخرجه على التسليم، ولأن في ذكر الغفور[2] تعريضاً للسائل والكلام لتسليم الأمرين والحكمة تقتضيهما، وكأنه قال: فالمغفرة لا تنقص من عزك ولا تخرج عن حكمتك.

وأما قوله في سورة الممتحنة ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[3] فالجواب عندي هنا ان قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ مبني على قوله: ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، فإن المراد لا تظهرهم علينا فيظنوا أنهم على الحق فيكون سبب فتنتهم، فلا تفعل ذلك بنا فأنت القادر على كفهم ونصرنا عليهم فانك العزيز الذي لا معارض لما تريده ولا مانع مما تشاؤه، لما كان المؤمنون يعلمون أن ما يصيبهم من مصيبة إنما هي بما كسبت أيديهم سألوا المغفرة من مجترحاتهم، وأورد سؤالهم مورد جمل الاعتراض فقدم، وهو قوله: ﴿واغفر لنا ربنا﴾، فإن الكلام في تقدير التقديم والتأخير: رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا، فقدم قوله: ﴿واغفر لنا ربنا﴾ أثناء الكلام إحرازاً لآدابهم

---

(1) القرطبي (ت 671هـ/ 1273م) تقدمت ترجمته، ص 367.
أنظر: الجامع لأحكام القرآن 378/6.

(2) في ن 4: العفو، والصحيح الغفور كما جاء في الآية.

(3) سورة الممتحنة: آية 5.

ومعتقدهم الإيماني، فقد تبين حال المناسبة في آية العقود وآية الممتحنة بين الآيتين وبين ما أعقبتا به، وانه لا يمكن على ما تقرر سواه، والله أعلم بما أراد.

فان قلت فما جوابك عما ذكر عن بعض المتأخرين من أن جواب قوله تعالى: ﴿وان تغفر لهم﴾ محذوف، أي وان تغفر لهم فانهم عبادك، ثم عطف عليه قوله: ﴿فإنك أنت العزيز الحكيم﴾، وان المناسبة إنما تحصل بهذا التقدير؟. قلت: هنا خطأ من وجهين: توجيه المناسبة وتوجيه الإعراب، أما المناسبة فقد تبينت على أتم وجه، وأما الاعراب فيمتنع تقديره فيه على ما نبينه، ثم في هذا المرتكب فساد المعنى إذ ليس الكلام وارداً مورد الاستلطاف وقد بين، وأما امتناع ما اختاره في الإعراب فمن وجهين: أحدهما التهيئة والقطع وهو متفق على منافرته إذا أمكنت المندوحة، والثاني وهو عاضد لهذا وقاطع في المسألة وهو أن سيبويه، رحمه الله، قد نص أن العرب لا تتكلم به الا في الشعر، قال في باب الجزاء: وقبح (في)[1] الكلام أن تعمل أن أو شيء من حروف الجزاء في الفعل حتى تجزمه في اللفظ ثم لا يكون له جواب فيجزم ما قبله، ألا ترى أنك تقول: آتيك ان أتيتني ولا تقول آتيك إن تأتني الا في الشعر لأنك أخرت إن وما عملت فيه فلم تجعل لها جواباً ينجزم بما قبله، فهكذا جرى هذا في كلامهم، وقد زاده الإمام بسطاً في الكتاب[2]، فهذا قاطع من كلام سيبويه وقد تقدم قبله ما يحصل في الكلام من التهيئة والقطع وهو كاف لاتفاق النحويين على قبح التهيئة

(1) سقط من ن 3.
(2) الكتاب 510/1.

والقطع، ثم قد انضم إلى ذلك من نص سيبويه: ان العرب لا تتكلم بهذا فلا تأتي بكلام قد انجزم فيه الفعل بأداة الشرط ثم لا تأتي بجواب مجزوم في اللفظ أما إذا أتيت بالفاء في الجواب فلا خلاف في هذا كما في الآية، وعلى ما قاله سيبويه، رحمه الله، كافة النحويين من متقدميهم ومتأخريهم، فوضح خطأ هذا القول.

* * *

سورة الأنعام

الآية الأولى منها قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[1]، وفي سورة الشعراء: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[2]، فانفردت آية الأنعام بزيادة قوله: ﴿بالحق لما جاءهم﴾ وبقوله: «فسوف» من حرفي التنفيس بدل السين، فيسأل عن وجه ذلك؟

والجواب، والله أعلم: أن آية الأنعام لما ترتبت على إطناب وبسط آيات من حمده[3] سبحانه وانفراده بالخلق والاختراع فقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَاتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[4]، فذكر سبحانه خلق السماوات والأرض وخلق الظلمات والنور، فالظلمات عن أجرام هذه المخلوقات والأنوار عن أجرام ما جعل في السماوات وزينها بها من شمس وقمر وكواكب للاقتداء والضياء. ثم ذكر خلقهم من طين وقد تردد في الكتاب العزيز تنبيه المكلفين بما صدرت به سورة الأنعام فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي

---

(1) سورة الأنعام: آية 5.
(2) سورة الشعراء: آية 6.
(3) في ن 1، ن 2، ن 3: قهره.
(4) سورة الأنعام: آية 1.

ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً﴾[2]. ثم قال بعد آية الأنعام: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾[3]، فلما تقدم هذا الإطناب ناسبه ما أتبع به من قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[4]، فناسب الإطناب الإطناب. وقال تعالى قبل آية الشعراء: ﴿تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ﴾[5]، ثم اعترض بتسلية نبيه صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[6]، وليس هذا المعترض به مما ذكروا به، ثم قال بعد: ﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾[7]، وهذا راجع إلى تسليته، عليه السلام، فلم يبق مجرداً لتذكيرهم سوى قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ﴾[8] وما بعد من وعيدهم وتهديدهم بقوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ﴾... الآية[9]، وهذا إيجاز فناسبه ما نيط به من قولهم: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[10] إيجازاً لإيجاز وإطناباً لإطناب.

---

(1) سورة الجاثية: آية 3.
(2) سورة الفرقان: آية 61.
(3) سورة الأنعام: آية 4.
(4) سورة الأنعام: آية 5.
(5) سورة الشعراء: آية 2.
(6) سورة الشعراء: آية 3.
(7) سورة الشعراء: آية 4.
(8) سورة الشعراء: آية 2.
(9) سورة الشعراء: آية 5.
(10) سورة الشعراء: آية 6.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾[7]، وفي سورة الشعراء: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾[8]، للسائل أن يسأل هنا عن شيئين: أحدهما ثبوت الواو العاطفة في آية الشعراء وسقوطها من آية الأنعام؟ والثاني وجه اختصاص كل واحدة منهما بموضعها وإبداء المناسبة؟

والجواب عن ذلك: إن آية الأنعام لم يتقدم قبلها التنبيه على ما به التذكار والاعتبار مفصحاً به تنبيهاً مع تخويف وتهديد متأكد مكرر يستدعي التقريع والتوبيخ بمقتضى الهمزة الداخلة على واو العطف كما في سورة الشعراء وإن كان المتقدم في كل واحدة من السورتين متضمناً ما يحصل به الاعتبار مع ما في المتقدم في الأنعام من التفصيل والإطناب، إلا أن المتقدم في سورة الشعراء أوضح وأنص من حيث التخويف لعدم الاعتبار بالدلائل المنصوبة مشاهدة للمعتبرين، فلما لم يكن وضوح التنبيه فيما قبل آية الأنعام كوضوحه في السورة الأخرى بما انجر معه من التخويف المتكرر وإنما المتقدم قبل قوله: ﴿ألم يروا﴾ إيماء إلى الاعتبار بأحوال القرون السابقة وليس كالواقع قبل آية الشعراء لم يرد ما بعده مما هو تنبيه مخوف معطوفاً عليه إذ لا يناسبه «كفروا» المتقدم من شديد التخويف المنجر فيما بعده، أما آية الشعراء فإن قوله تعالى قبلها: ﴿تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ﴾[1] تحريك وتنبيه، ثم إن

---

(1) سورة الأنعام: آية 6.

(2) سورة الشعراء: آية 7.

(3) سورة الشعراء: آية 2.

ما يتلوه من قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [1] وإن كان تسلية لنبينا صلى الله عليه وسلم في طيه أعظم وعيد وتهديد لمن اعتبر، ثم بعد ذلك قوله تعالى: ﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [2] إلى ما بعده، فهذا أوضح تنبيه بما صحبه من مخوف التهديد فعطف عليه (قوله) [3]: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا﴾... الآية [4] وناسبه أوضح مناسبة.

فصل: ومما يتعلق بهذه الآية من المغفل زيادة «من» في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [5]، وفي سورة السجدة: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ [6]، وفي صٓ: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا...﴾ [7]. وردت هذه الآي الثلاث بزيادة «من» فيها وسائر ما ورد في القرآن من مثل هذه الآي لم ترد فيها «من» كقوله تعالى في سورة مريم: ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثاً ورئياً﴾ [8]، وفي آخرها ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ [9]، وفي طه: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي

---

(1) سورة الشعراء: آية 3.
(2) سورة الشعراء: آية 4.
(3) بهامش ن 3.
(4) سورة الشعراء: آية 7.
(5) سورة السجدة: آية 26.
(6) سورة ص: آية 3.
(7) سورة مريم: آية 74.
(8) سورة مريم: آية 98.

مَسَاكِنِهِمْ﴾ [1]، وفي يس: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [2]، وفي سورة ق: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ [3]، فهذه خمسة مواضع لم ترد فيها «من»، فيسأل عن وجه زيادتها في الآي الثلاث الأول وسقوطها في هذه الخمس مع اتحاد المقصود أو تقاربه؟

والجواب، والله أعلم: أن «من» إنما تزاد في هذه الآي حيث يراد تأكيده ضمن الآي من المعطيات [4] والإشارة إلى الوعيد، وهي أبداً في أمثال هذه المواضع محرزة معنى التأكيد لا تنفك عن ذلك، ثم إن حذفها أوجز [5] من إثباتها، ولكل مقام مقال، فحيث ورد في هذه الآي ما قبله استيفاء تفصيل وعيدين في أمة بعينها أو أكثر أو تكرر التهديد وشدة التخويف من مقتضى السياق وفحوى الكلام فذلك موضع زيادتها والتأكيد بإثباتها، وحيث لا يتقدم تفصيل على ما ذكرناه أو تكون آي التهديد لا تبلغ في اقتضاء مقتضاها نفوذ الوعيد فهذا يناسبه الإيجاز بحذفها إذ لا يراد من تأكيد الوعيد ما يراد في الآي الأخر، فهذا إن شاء الله يوضح ما ورد من الحذف والإثبات في هذا الحرف[6]، ثم نقول: أما آية الأنعام فقد تقدمها قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَاتِ وَٱلنُّورَ﴾[7]، وقد كانوا يعترفون بأنه تعالى

(1) سورة طه: آية 128.
(2) سورة يس: آية 31.
(3) سورة ق: آية 36.
(4) في ن 4: العظات، وهذا خطأ.
(5) في ن 2: جزء، وهذا خطأ مخل بالمعنى.
(6) في ن 2، ن 4 ولا يناسب في هذا الحذف وهذا لا يناسب المعنى المراد.
(7) سورة الأنعام: آية 1.

الخالق ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾(1)، ثم تتابع ما بعد على هذا إلى قوله: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾(2) على بيان الأمر ووضوحه ثم قال ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾(3) فحصل التسجيل ببقائهم على الإعراض وإنفاذ الوعيد عليهم، ولا أشد من هذا ونحوه، بل مثله في الشدة والإشارة إلى إنفاذ الوعيد قوله تعالى في سورة السجدة ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾(4) ثم قال في آخر السورة ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾(5) فاكتنف الآية ما تضمنته الآيتان من الوعيد والتهديد، فناسب ذلك ما اقتضته زيادة (من)(6) من مناسبة التأكيد فقيل: ﴿من قبلهم﴾ وأما آية صٓ فحسبك ما تضمنته من أولها إلى قوله: ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ (7)، ثم قال (8) تعالى مخبراً عن حالهم في تكذيبهم واستبعادهم: ﴿عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ (9)، ولعظيم تمردهم ووعيدهم المحكي عنهم في هذه الآي ما أمر به صلى الله عليه وسلم من الصبر(10)

---

(1) سورة الزخرف: آية 87.
(2) سورة الأنعام: آية 4.
(3) سورة الشعراء: آية 6.
(4) سورة السجدة: آية 22.
(5) سورة السجدة: آية 30.
(6) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(7) سورة ص: آية 16.
(8) في ن 3: قوله.
(9) سورة ص: آية 16.
(10) في ن 4: المصير.

في قوله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾[1] ثم أعقب تعالى بقصة داود عليه السلام اعلاماً لنبيه بأن ذلك مراده منهم بما قدر لهم في الأزل، فقد سخر الجبال والطير لداود وألاَنَ له الحديد فلو شاء لهدى هؤلاء فلعظيم ما ورد في هذه الآي من مرتكبات كفار قريش وغيرهم[2]، لذلك ما ورد التأكيد بزيادة «من» في قوله بعد ذكر شقاقهم[3] واغترارهم ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾، فهذا وجه زيادة «من» في هذه الآي. أما الآي الأخرى خمستها فلم يرد فيها ولا فيما اتصل بها ما ورد في هذه من التغليظ في الوعيد ومتوالي التهديد وإن كانت قل ما ترد إلا لذلك، ولكن اشتداد التهديد إنما هو بحسب ما يقارن أو يكنف[4] أو يتقدم أو ينجر معها من التغليظ في الوعيد، فبحسب ذلك يقوى الرجاء أو يضعف. وإذا تأملت قوله تعالى في الآية الأولى من سورة مريم: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْيَا﴾[5] لم تجدها في نفسها أو فيما انتظم معها متقدماً أو متأخراً توازن[6] في التهديد واحدة من تلك الآي الثلاث. ألا ترى فيما نوظر بين المعنيين بهذه الآية والمهلكين قبلهم من القرون السالفة وأن ذلك إنما هو فيما غرهم من سعة الحال وكثرة المال حسبما أشار إليه قوله تعالى عن المهلكين قبل هؤلاء أنهم كانوا أحسن أثاثاً ورئياً، فهذه الآية كقولهم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ

(1) سورة ص: آية 17.
(2) في ن 3: عتوهم.
(3) في ن 4: شقائهم، وهذا لا يناسب السياق.
(4) في ن 4: يكتنف.
(5) سورة مريم: آية 74.
(6) في ن 2: توارد، وفي ن 4: تكرار، وهذا لا يناسب المعنى المراد.

بِمُعَذَّبِينَ﴾[1]، ولو استبصروا لاهتدوا من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً﴾[2]، ومع ما أعقبت هذه الآية من المنتظم معها من قوله: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضْعَفُ جُنْداً﴾[3] فليست في التغليظ كتلك (الآي إذا) [4] حقق ما قبلها وكذلك الآية الثانية وهي قوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾... الآية [5] في نفسها وفيما انتظمت به، وأما آية طه فأوضح في إيحاء الرجاء (في نفسها)[6] وما انتظمت به، ألا ترى ما في قوله تعالى ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾[7] وما تضمن تذكيرهم بهذا إلى قوله: ﴿لِأُولِي النُّهَى﴾[8] من عظيم الحلم وعَلِيّ الرفق وكذا ما بعد، فإن هذا من منتظم تلك الآي الثلاث. وأما آية يٓس وآية قٓ فأوضح فيما ذكرنا، وتأمل مفهومهما[9] وما انتظم معهما، وإنما حاصلهما بما اتصل بهما تحريك للاعتبار وتذكير بالالاء والنعم، وتأمل قوله في المنتظم بآية يٓس والمعقبة به من قوله: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾[10]وعلى ما يترتب الشكر إذ لا يمكن إلا مترتباً على حصول الإيمان والتصديق وقوله عقب آية قٓ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ

---

(1) سورة سبأ: آية 35.
(2) سورة آل عمران: آية 178.
(3) سورة مريم: آية 75.
(4) في ن 1، ن 2: ولا في إذا، وفي ن 4: ولا فيها إذا، وهذا خطأ مخل بالمعنى.
(5) سورة مريم: آية 98.
(6) بهامش ن 2.
(7) سورة طه: آية 128.
(8) سورة طه: آية 128.
(9) في ن 1، ن 2، ن 4: مفهومها وكذا ما تلاها من الضمائر.
(10) سورة يس: آية 35.

قَلْبٌ وَأَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[1]، فقد وضح فرق ما بين الضربين وورود كل منهما على ما يناسب ويجب، والله أعلم.

الآية الثالثة من سورة الأنعام قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[2]، وفي سورة النمل: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنْشِىءُ ٱلنَّشْأَةَ الآخِرَةَ﴾[3]، وفي سورة الروم: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾[4]. هنا سؤالان أحدهما: اختلاف حالاتهم فيما وسموا به في أعقاب الآي من التكذيب والإجرام ومن التعامي عن النظر في البدأة والنشأة الآخرة والإشراك مع أن الأمر للكل باعتبار إنما وقع بلفظ واحد وهو قوله: ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا﴾، ثم تنوع ما أحيل عليه[5] في النظر واختلف، وإذا لحظ الجواب عما وقع به التعقيب في كل واحدة من هذه الآي تفصل إلى أربعة أسئلة، والسؤال الثاني: اختلاف حرف العطف.

والجواب عن السؤال الأول، على رعي التفصيل، أنه لما تقدم آية الأنعام قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾[6]، والإشارة إلى أصناف المكذبين من المخاطبين وغيرهم، ثم أشير إليهم بعد في

---

(1) سورة ق: آية 37.

(2) سورة الأنعام: آية 11.

(3) سورة النمل: آية 69.

(4) سورة العنكبوت: آية 20.

(5) سورة الروم: آية 42.

(6) في ن 1، ن 2، ن 4: أجمل عليه، وهذا خطأ يخل بالمعنى.

(7) سورة الأنعام: آية 5.

قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾[1]، وكلهم إنما أهلك بإعراضه وتعاميه المؤديين إلى تكذيبه، أحيل من بعدهم على كل حال من تقدمهم فيما ذكر (مكتفى في الإعراض)[2] والتعامي بما تقدم في الآي المذكورة قبل، ومفصحاً بالتكذيب المسبب عن ذلك في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[3] والتحم هذا بقوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾[4] على أتم مناسبة وأصحها.

وأما آية النمل فمنزلة على ما تقدم من قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾[5] وإنكارهم العودة بقولهم: ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[6] وذلك بعد ما ذكر مما بسط لهم من واضح الدلالات وقدم لهم الشواهد البينة من لدن قوله: ﴿أَمْ مَنْ خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ﴾... الآية[7] المتكلم فيها، فذكروا بما يشاهدونه ويعلمون أن آلهتهم لا تفعل ذلك، فكان مرتكبهم بعد هذا إجراماً وتعامياً عن الاعتبار بما ذكروا به، فقيل لهم: سيروا في الأرض فانظروا عواقب أمثالكم من المتعامين عن النظر، ولم يقع قبل تفسير صريح وتكذيب، وقد بسط من الاعتبار في هذه الآي ما لم يبسط قبل آية الأنعام، فورد التعقيب هنا بوسمهم ـ أعني

---

(1) سورة الأنعام: آية 6.
(2) في ن 1، ن 2، ن 4: من مكتفي الأعراص، وهذا خطأ.
(3) سورة الأنعام: آية 11.
(4) سورة الأنعام: آية 5.
(5) سورة النمل: آية 65.
(6) سورة النمل: آية 67-68.
(7) سورة النمل: آية 60.

المحال[1] ــ بالإجرام فقيل: ﴿ٱنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُجْـرِمِينَ﴾ مناسب[2] لما تقدم من اجترامهم مع الوضوح ومتابعة التذكير وإراءة البراهين.

وأما آية العنكبوت فإن الله سبحانه لما قدم ذكر العودة الأخراوية بما يقوم مقام الإفصاح وتحصل[3] المقصود من ذلك في أربعة مواضع من هذه السورة على القرب والاتصال، منها قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِـقَـاءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ﴾[4]، قوله تعالى: ﴿وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[5]. وقوله: ﴿وَٱشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُـونَ﴾[6]، وقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِىءُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾[7]، ولم يتقدم في السـور الأخر على الاتصـال مثل هـذا، فناسبـه إحالتهم وتـذكيرهم بالاستدلال بالبدأة على العودة فقال تعالى ﴿فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة﴾[8].

وأمـا آيـة الـروم فقـد تقـدم قبلهـا قـولـه: ﴿وَلَا تَكُـونُـوا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[9]، وقوله: ﴿ إِذَا فَـرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُـونَ﴾[10] قوله:

---

(1) في ن 4: الحال.
(2) في ن 4: فناسب.
(3) في ن 4: يحصل.
(4) سورة العنكبوت: آية 5.
(5) سورة العنكبوت: آية 13.
(6) سورة العنكبوت: آية 17.
(7) سورة العنكبوت: آية 19.
(8) سورة العنكبوت: آية 20.
(9) سورة الروم: آية 31.
(10) سورة الروم: آية 33.

﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾[1]، قوله: ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[2]، فلما تقدم ذكر من امتحن بالشرك وسوء عاقبتهم، ولم يتقدم مثل هذا في السور المتقدمة، ناسبه ما أعقب به من قوله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾[3]، فجاء كل على ما يجب.

وأما ورود ما أعقبت به كل آية من هذه (من)[4] المأمور بالنظر فيه والاعتبار به بالفاء من حروف العطف سوى آية الأنعام فذلك بين لأنهم أُمِروا أن يعقِبُوا سيرهم بالتدبر والاعتبار (وحصر نظرهم واعتبارهم في المعقب المذكور بعد الفاء، ولم تقع إشارة إلى اعتبارهم)[5] بغير ذلك، (فكان) [6] مجيء ذلك بحرف التعقيب محرزاً هذا المعنى، ولم يصح غير ذلك، وأما آية الأنعام فإنها افتتحت (بذكر) [7] خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور، وإنما ذكر هذا من الخلق الأكبر ليعتبر بذلك فإنه أعظم معتبر وأوسعه، قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾[8]، فكأن الآية في قوة أن لو قيل: سيروا في الأرض فاعتبروا لخالقها، وكيف دحاها لكم وذللها لسكناكم، وجعل فيها

---

(1) سورة الروم: آية 35.
(2) سورة الروم: آية 40.
(3) سورة الروم: آية 42.
(4) سقط من ن 3.
(5) سقط من ن 1، ن 2.
(6) بهامش ن 1.
(7) بهامش ن 1.
(8) سورة غافر: آية 57.

رواسي أن تميد بكم، وفجر فيها الأنهار إلى عجائب ما أودع فيها، وكيف جعل السماء فوقها سقفاً محفوظاً بغير عماد، وزينها بالنجوم لتهتدوا بها في الظلمات، وجعل الشمس والقمر حسباناً وضياء وزيناً للسماء الدنيا، وكيف محا آية الليل لمصلحة العباد، وجعل آية النهار مبصرة، إلى ما لا يحصى من منافعها وعجائبها لمن منح الاعتبار، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، ثم انظروا عاقبة من كذب ونبه فلم يعتبر، فعطف هذا بثم المقتضية مهلة الزمان حيث يراد ذلك. وتفخيم الأمر[2]، وتفاوت المنظور فيه وتجريد[3] الأمر لكل من الضربين مما قبلها وما بعدها، فليس موضع تعقيب بالفاء إذ لم يرد أن يكون سيرهم لمجرد الاعتبار بمن كذب فأخذ بتكذيبه فقط، بل بالضربين مما ذكرناه ومهدناه، وفي كل منهما أشفى دلالة، وقصد في الآي الأخر تذكيرهم واعتبارهم بأحد المكذبين وهو المعقب بالفاء، فلما افترق القصدان عطف كل بما يناسب، والله أعلم.

الآية الرابعة: غ ـ قوله تعالى: ﴿وَذَلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾[4]، وفي الجاثية: ﴿ذَلِكَ (هو)[5] ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾[6] بزيادة «هو» وسقوط واو العطف[7]، لما تقدم في سورة الأنعام قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ

---

(1) سورة الجاثية: آية 3، وفي ن 1، ن 2: للموقنين وهذا خطأ، وفي ن 3، ن 4: ﴿ان في خلق السماوات. . .﴾ بزيادة خلق، وهو خطأ.

(2) في ن 3: الأمور.

(3) في ن 3: تجديد.

(4) سورة الأنعام: آية 16.

(5) سقط من ن 3.

(6) سورة الجاثية: آية 30.

(7) في ن 4: سطر فارغ بعد قوله: وسقوط واو العطف.

عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[1] ثم أعقب بقوله تعالى: ﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾[2] والمراد من يصرف عنه العذاب في الآخرة فقد رحمه، عطف عليه قوله: ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ﴾ وكان الكلام في قوة (قوله) [3] فقد رحم وفاز كما في قوله: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾[4] ، والفاء هنا وفي قوله ﴿فقد رحمه﴾ جواب الشرط، والفوز مسبب عن الرحمة، فاكتفى بذكره في آية آل عمران، وذكرا معاً في آية الأنعام، فعطفه عليه بين، ولم يتقدم من أول السورة إلى هنا ما يتوهمه العاقل فوزاً فيحترز منه بما يعطيه ضمير هو من المفهوم، فلم يقع الضمير هنا.

أما آية الجاثية فقد ورد قبلها قوله تعالى مخبراً عن قول منكري البعث: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾[5] ، فأفهم قوله ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ أن هذه الحياة هي[6] الحاصلة لهم ولا حياة وراءها فمن تنعم فيها فذاك فوزه، فأخبروا أن الأمر ليس كما ظنوه، وذكر تعالى أمر الساعة وتفصيل الأحوال فيها وقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾[7]، ثم قيل: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾[8] لا الحياة التي هي

(1) سورة الأنعام: آية 15.
(2) سورة الأنعام: آية 16.
(3) سقط من ن 3.
(4) سورة آل عمران: آية 185.
(5) سورة الجاثية: آية 24.
(6) بهامش ن 3.
(7) سورة الجاثية: آية 30.
(8) سورة الجاثية: آية 30.

لهو ولعب، فكأن قد قيل: ذلك هو الفوز لا ما ظننتموه فوزاً، فأحرز مفهوم الضمير هذا المقصود ولم يتقدم في آية الأنعام (ما يستدعيه، كما لم يتقدم في آية الجاثية)[1] ما يستدعي العطف، فجاء كل على ما يناسب، والله أعلم.

الآية الخامسة قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2]، وفي سورة يونس: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[3]، فورد جواب الشرط الثاني في الآية الأولى بقوله: ﴿فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وفي الثانية بقوله: ﴿فلا راد لفضله﴾، وقال في الأولى: ﴿وإن يمسسك﴾، وفي آية يونس: ﴿وإن يردك﴾، وأعقبت (آية)[4] يونس بقوله: ﴿وهو الغفور الرحيم﴾ فخص هاتين الصفتين العليتين من صفاته تعالى، فهذه ثلاثة أسئلة. فللسائل أن يسأل عن توجيهها وموجب ما ورد عليه ما ذكر؟

والجواب عن الأول، والله أعلم: أن مدار الآية الأولى وهي آية الأنعام على أنه سبحانه المنفرد بالخلق والاختراع، والمتصرف في عباده بما يشاء، والقدير على كل شيء، ونفي هذه الصفات عمن سواه سبحانه، وتنزيل هذا على ما افتتحت به السورة من قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ

---

(1) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(2) سورة الأنعام: آية 17.
(3) سورة يونس: آية 107.
(4) سقط من ن 3.

لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَاتِ وَٱلنُّورَ﴾[1]، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾[2]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾[3]، وقوله فيمن أهلكه من القرون بكفرهم: ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَاءَ عَلَيْهِم مِدْرَاراً﴾... الآية [4]، وقوله: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾... الآية[5] ، وقوله [6] : ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي ٱللَّيْلِ وَالنَّهَارِ...﴾[7]. وقوله ﴿قُلْ أَغَيْرَ الله أَتَّخِذُ وَلِياً فَاطِرِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ... الآية﴾[8]، فدارت هذه الآي كلها على التعريف بوحدانيته تعالى وانفراده بخلق الأشياء وملكها وقهرها، ولم يقع فيها تعرض إلى أن أحداً من خلقه يمنع أو يدفع أو يتعاطى استبداداً بشيء وإن كان قد يفهم بعض ذلك من الجاري أثناء الكلام (كقوله)[9]: ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[10] وقوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ الله أَتَّخِذُ وَلِياً... الآية﴾[11]بل في قوة الجاري في

---

(1) سورة الأنعام: آية 1.
(2) سورة الأنعام: آية 2.
(3) سورة الأنعام: آية 3.
(4) سورة الأنعام: آية 6.
(5) سورة الأنعام: آية 12.
(6) سورة الأنعام: آية 13.
(7) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(8) سورة الأنعام: آية 14.
(9) سقط من ن 3.
(10) سورة الأنعام: آية 1.
(11) سورة الأنعام: آية 14.

هذه الآي أن المشار إليهم بمخالفة مقتضاها أخلدوا إلى ترك التغير[1] واشبهوا البهائم في البعد عن النظر، وكأنهم يرون أن الأفعال وما يتجرد في العالم من المدركات المشاهدات من الأجسام والأعراض على كثرة تنوعها واختلاف شيآتها وأشكالها وجدت بأنفسها لا عن فاعل تقدمها أوجدها بالقدرة والاختيار بل تكونت بأنفسها، فقوبل مرتكبهم بالتعريف بقدرته تعالى على كل شيء وأنه الموجد لما في العالم العلوي والسفلي، وقيل له عليه السلام ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ. . . الآية﴾[2] إعلاماً بأن ما يكون من هذا فمنه تعالى لأنه المنفرد بالخلق والقدير على كل شيء فهذا حاصل ما تقتضيه آية الأنعام.

وأما آية يونس فقد ذكر قبلها حال من ظن أن غيره تعالى يضر أو ينفع، قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾[3]، فقد نسبوا لهم النفع بالشفاعة، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ. . . الآيـة﴾[4] وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ[5] وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ. . . الآية﴾ وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ

---

(1) في ن 3: التقيد.
(2) سورة الأنعام: آية 17.
(3) سورة يونس: آية 18.
(4) سورة يونس: آية 28.
(5) في كل النسخ: السماوات بالجمع وهو خطأ.
(6) سورة يونس: آية 31.
(7) سورة يونس: آية 34، وهي ساقطة من ن 3.

شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ [1]، فدارت هذه الآيات على أنهم توهموا نفع ما اتخذوه معبوداً من شركائهم، فبطل توهمهم واضمحل باطلهم، واتبع ما تقدم بقوله جل وتعالي لنبيه عليه السلام ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [2]، ثم بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [3]، وحصل من هذا أن كل ما عبد دونه سبحانه وتوهم أنه يضر أو ينفع ليس كما ظنوه، قال تعالى ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾ [4]، فناسب ما تقدم من التنصيص على إنفراده تعالى بالخلق والأمر.

والجواب عن السؤال الثاني، والله أعلم: أن قوله تعالى هنا ﴿وإن يردك بخير﴾ ولم يقل: ﴿وإن يمسسك بخير﴾ كما في آية الأنعام أنه تقدم قبل هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ [5] رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ... الآية﴾ [6]، فهو إعلام منه سبحانه بجري الخلائق على ما قدر لهم أزلاً وسبق به حكمه تعالى، ثم أعقب بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً﴾ [7] فهذا تأكيد للغرض المذكور من جري العباد على ما قدر لهم وما شاءه سبحانه فيهم وإن ذلك لا يرده راد ولا يعارضه معارض، فناسب هذا قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ

---

(1) سورة يونس: آية 35.
(2) سورة يونس: آية 106.
(3) سورة الأنعام: آية 17.
(4) سورة الحج: آية 73.
(5) قراءة نافع وابن عامر والباقون على التوحيد كلمة ربك.
(6) سورة يونس: آية 96.
(7) سورة يونس: آية 99.

فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [1] أتم مناسبة. ثم قد وقع بعد هـذا قولـه تعالى: ﴿يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [2]، وإصابته سبحانه من يشاء بالخير هو المراد بقوله في آية الأنعام: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ [3]، فاجتمع في آية يونس الأمران معاً وكأن قد قيل فيها: وإن يمسسك بخير ويردك (به) [4] فلا راد لما أصابك به وأراده لك، ففي هذه الآية من إمعان المقصود وتأكيده ما ليس في آية الأنعام ليطابق هذا التأكيد والإمعان ما تقدم من قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [5] وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهم جَمِيعاً﴾ [6]، ولم يتقدم في آية الأنعام مثل هذا فوقع الاكتفاء هناك بقوله ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ﴾ [7]، فجاء كل من هذا على أتم مناسبة وأوضح ملاءمة، والله أعلم.

والجواب عن السؤال الثالث، أنه لما تقدم هذه الآية من مؤثرات الخوف ومهيجات الرهب والخشية ما اقتضاه الاخبار بغيبة للقدر وجهل للمشيئة في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ... الآية﴾ [8] وقوله: ﴿وَلَوْ يَشَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً﴾ [9] وعظم

---

(1) سورة يونس: آية 107.
(2) سورة يونس: آية 107.
(3) سورة الأنعام: آية 17.
(4) سقط من ن 3.
(5) سورة يونس: آية 96.
(6) سورة يونس: آية 99.
(7) سورة الأنعام: آية 17.
(8) سورة يونس: آية 96.
(9) سورة يونس: آية 99.

موقع ذلك على المؤمنين وكان مع ذلك للوفاء بمزدلفات الأعمال مما لا يحصل بالآمال أَنَّسهم سبحانه بذكر الصفتين العليتين فقال: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1]، فناسب ورود الوصفين ما تقدم، والله أعلم بما أراد.

الآية السادسة قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمّنِ ٱفْتَرَى عَلَى الله كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحِ ٱلظَّالِمُونَ﴾[2]، وقال فيما بعد من هذه السورة: غ ـ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَى عَلَى الله كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾[3]، وفي سورة الأعراف: غ ـ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَى عَلَى الله كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ ٱلْكِتَابِ﴾[4]، (وفي سورة يونس[5] ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَى عَلَى الله كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[6]، وفي سورة العنكبوت: غ ـ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَى عَلَى الله كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾[7]، وفي سورة الصف: غ ـ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَى عَلَى الله ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى ٱلإِسْلَامِ﴾[8]، وفي هذه الآيات[9] سؤالان: (أحدهما)[10] وجه ورود الآيات في هذه المواضع بهذا النص من قوله: ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ وتعقيب كل آية منها بما اتصل

---

(1) سورة يونس: آية 107.
(2) سورة الأنعام: آية 21.
(3) سورة الأنعام: آية 93.
(4) سورة الأعراف: آية 37، وهي ساقطة من ن 4 ومكانها آية يونس.
(5) سورة يونس: آية 17.
(6) بهامش ن 2.
(7) سورة العنكبوت: آية 68.
(8) سورة الصف: آية 7.
(9) في ن 1، ن 4: الآية وهو خطأ بين، وفي ن 2: الآي.
(10) بهامش ن 2.

بها، والسؤال الثاني: تعريف الكذب في سورة الصف وتنكيره فيما عداها.

والجواب عن الأول: أن الأولى تقدمها قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أنباءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [1]، ثم قال تعالى بعد: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [2]، فحصل من هذا افتراؤهم، وفي قولهم: إنه سحر. وتكذيبهم قال تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾، وجعلهم مع الله آلهة سواه، فجمعوا بين الشرك والتكذيب، فناسب هذا ورود قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً﴾ على طريقة التعجب من مرتكبهم وسوء حالهم أي: من أظلم يا محمد من هؤلاء الجامعين بين الافتراء والشرك والتكذيب مع وضوح الشواهد وكثرة الدلائل الواردة أثناء هذه الآي مما لا يتوقف فيه معتبر، فقد وضح تناسب هذا كله وحق لمرتكبه الوصف بالظلم الذي لا يفلح المتصف به، وهو ظلم الافتراء على الله والشرك والتكذيب.

وأما الآية الثانية من سورة الأنعام فإن قبلها ذكر الرسل عليهم السلام وتعقيب ذكرهم بقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهِ﴾ [2]، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ

(1) سورة الأنعام: آية 5.
(2) سورة الأنعام: آية 7.
(3) سقط من ن 3.
(4) سورة الأنعام: آية 90.

(عَلَى بَشَرٍ)[1] مِنْ شَيْءٍ﴾[2] فأعظم تعالى مرتكبهم في هذا وفي تعاميهم عن التوراة وما تضمنته من الهدى والنور، ثم أعقب ذلك بقوله تنزيهاً للرسل عليهم السلام عن الافتراء على الله سبحانه وادعاء الوحي، فصار الكلام بجملته في قوة أن لو قيل: ألا ترون ما تضمن كتاب موسى من الهدي والنور والبراهين الواضحة، وهل يمكن أحد أعظم افتراء من هذا ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه بشيء، فهذا أوضح شيء. ولما لم يتقدم في الآية الأولى ذكر الأنبياء والوحي إليهم كما في هذه لم يناسبها ما ورد هنا، فجاء كل على ما يجب ويناسب والله أعلم.

وأما آية الأعراف فتقدمها وعيد من كذّب بآيات الرسل واستكبر عنها وأنهم أهل الخلود في النار، فناسب هذا قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ... الآية﴾[3].

وأما آية يونس فتقدم قبلها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾[4] إلى آخر الآية، ولا أظلم ممن قال من فصحاء العرب العالمين بمقاطع الكلام وجليل النظم وعليّ البلاغة: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرَ هَذَا﴾[5] أو بدله مع علمهم بعليّ فصاحته واعترافهم بالعجز عنه. فجمعوا بين إنكار ما علموا

---

(1) بهامش ن 2.
(2) سورة الأنعام: آية 91.
(3) سورة الأعراف: آية 37.
(4) سورة يونس: آية 15.
(5) في ن 3: غيرها، وهذا لا يناسب السياق.

صدقه ممن عرفوا عَلِيّ حاله[1] وجليل[2] منصبه، فإخباره تعالى عنهم بقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ ٱلظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾[3]، فجمعوا بين الانكار وبين قولهم في إنكارهم «أو بدله» فلا أظلم من هؤلاء، ثم في إنكارهم (وقولهم)[4] «أو بدله» أعظم إقدام وأوضح إجرام لأنه كفر على علم، فلهـذا أعقبت الآية هنـا بقولـه: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[5]، ولم يقع قبل التي في سورة الأنعام وقبل آية الأعراف مثل هذا الاقدام على مثل هذه الجريمة في القول وإنما تقدم عداوتهم وظلمهم أنفسهم في مرتكباتهم وتعاميهم فناسبه قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[6]. وأما آية العنكبوت وآية الصف فجوابهما بين مما تقدم.

وجواب ثان: وهو أنه قد تقدم مما به الاعتبار في الأولى من آيتي الأنعام وآية يونس ما فيه كفاء، وإن تنوع فقد جمعه جامع الاعتبار، وفي كل شفاء لمن وفق للاعتبار به، فمن عدل عنه فظالم، إلا أن الاجترام يبنى على أشد من الظلم وإن كان قد أجري مع الظلم عدم الفلاح إلا أن الجرم أنبأ بالشدة وأخص بالاشعار بشناعة المرتكب، وتقدم أن ترتيب السور والآي مراعى وعظيم الموقع وأنه لا يعارضه ترتيب النزول، فإذا تقرر هذا فنقول: قدم وصفهم[7] بالظلم ثم تكرر ذلك ممن افترى أو كذب وقد وصف أولاً بالظلم فوصف ثانياً بالاجترام ترقياً في الشر كما

---

(1) في ن 3: حالهم، والصحيح حاله.
(2) في ن 3: جلال.
(3) سورة الأنعام: آية 33.
(4) سقط من ن 4.
(5) سورة يونس: آية 17.
(6) سورة الأنعام: آية 21.
(7) في ن 4: قد وصفهم، وهو خطأ.

يترقى في الخير، وأيضاً ليناسب ما وقع [1] في يونس متقدماً من قوله ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [2].

والجواب عن السؤال الثاني [3] (أن) [4] آية الصف قد انفردت عن كل ما تقدم من هذه الآي (بذكر تعيين المفترى فيه الكذب منطوقاً به من غير الاجمال الوارد في الآي[5] الأُخر بل ورد على التفصيل والتعيين وذلك بين من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ٱسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[6] ثم قال: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِٱلْبَيِّنَاتِ﴾ [7] (أي فلما جاءهم الرسول الذي سماه لهم عيسى بالبينات)[8] والدلائل القاطعة والتصديق لما بين يديه من التوراة قالوا هذا سحر مبين، فافتروا الكذب وارتكبوا البهت فيما لا توقف فيه ولا أشكال، فقيل تعجباً من حالهم على الجاري في لسان العرب: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَى عَلَى الله ٱلْكَذِبَ﴾[9] معرفاً بأداة العهد ليقوم مقام الوصف، حتى كأن (قد)[10]قيل: هذا الكذب (الذي)[11]لا امتراء فيه ولا توقف. ولما لم يرد في الآي الأخر

---

(1) في ن 1، ن 2، ن 4: تقدم.
(2) سورة يونس: آية 13.
(3) في ن 4: الثالث وهو خطأ.
(4) بهامش ن 2.
(5) سقط من ن 4.
(6) سورة الصف: آية 6.
(7) سورة الصف: آية 6.
(8) سقط من ن 3.
(9) سورة الصف: آية 7.
(10) بهامش ن 2.
(11) بهامش ن 2.

ما تقدم هنا كان الوجه أن يرد منكراً كما ثبت، فورد على ما يناسب ويجب، والله أعلم.

الآية السابعة قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا... الآية﴾[1]، وفي سورة يونس: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي ٱلْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾[2]، فورد الفعل في الأولى مسنداً إلى ضمير المفرد وفي الثانية إلى ضمير جماعة مع استوائهم في (الجمعية)[3] ومع اتفاق الغايتين[4] في أن استماعهم مع قصدهم إياه لا يجب عليهم[5] فللسائل أن يسأل فيقول: لم ورد في الأولى: «ومنهم من يستمع» وفي الثانية: «ومنهم من يستمعون» مع اتفاق الآيتين فيما ذكر؟

والجواب، والله أعلم: أن نقول «من» لفظ مفرد ويصلح للاثنين والجميع. على هذا وضعه، فإذا ورد في تركيب كلامهم فأول ما يحمل على السابق من حكمه اللفظي من الأفراد، فلهذا ترد صلته إن كان موصولاً، أو صفته إن كان موصوفاً، أو خبره إن كان شرطاً. أو استفهاماً، كصلة الذي الواقع على المفرد، فتقول في الصلة والصفة: من الناس من يفعل كذا، وتقول في الاستفهام: من يفعل ذلك؟ فيرفع (الفعل)[6]

(1) سورة الأنعام: آية 25.
(2) سورة يونس: آية 42.
(3) بهامش ن 3.
(4) في ن 3: الغائبين، وفي ن 4: الفائتين وكلاهما لا يناسب.
(5) في ن 3: لا يجري عليهم.
(6) بهامش ن 3.

ضميراً مفرداً وسواء كان المراد في المعنى واحداً أو أكثر، ثم قد يكون فيما اتصل بالكلام بعد ضمير أو غيره يراعى فيه معنى من حيث يراد أكثر من واحد فيأتون به على معنى «من» لا على لفظها كقولك: من الناس من يفعل كذا ويخطئون في ذلك، ومنهم من يفعل كذا مستمرين على فعلهم، يبين ضمير الجميع في قولك: وهم يخطئون والحال في قوله: مستمرين على فعلهم أن المراد أكثر من واحد، وعلى هذا كلام العرب في الكثير المطرد، وعليه جاء القرآن، قال تعالى: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر﴾ ثم قال ﴿وما هم بمؤمنين﴾[1] فعاد الضّمير مجموعاً في قوله: «وما هم» بعد عودته مفرداً، وهذا كثير، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً نُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلأَنْهَارُ﴾[2] فعاد الضمير من ندخله مفرداً على لفظ «مَن» ثم قال: «خالدين». وهو حال من الضمير، فتبين بهذا الجمع أن المراد جميع، وقد يجري الكلام على أوله في الإفراد كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا... الآيات﴾[3]، فورد فيها ضمائر ثمانية كلها عائدة على لفظ «من» ولم يرجع منها شيء على معنى «من» مع أن المعنى على الكثرة، ثم أعلم بعد أن المراد بما يبينه ما يأتي بعد المضير المفرد المحمول على لفظ «من» إنما هو أعني المبين كثرة أو وحدة، أما إبهام التعيين فمقصود لا يرتفع فإن إبهام الصلة أو الخبر في هذا أبلغ في تكميل فائدة الكلام وإحرازها، ألا ترى أن قول الملك لخاصته: إن

---

(1) سورة البقرة: آية 8.

(2) سورة الطلاق: آية 11.

(3) في كل النسخ: الأيتين، وفي ن 4 تعليق فوق السطر: الآيات وهو الصحيح ويؤكد ما جاء بعد والمراد الآيات 204-206 من سورة البقرة.

منكم من يفعل كذا أهيج لنفوس السامعين وأبلغ في التحريض على الشيء أو الزجر عنه بحسب المرتكب، فإن كان مما يحبه الملك تشوقت نفوس المخاطبين إليه، وإن كان على الضد من ذلك اشتد خوف جميعهم وحذرهم، وهذا يستدعي طولاً قد يخرجنا عن مقصودنا، والوارد من هذا في الكتاب العزيز كثير.

ونرجع إلى مقصودنا فنقول: إن آية الأنعام وردت على الأكثر المطرد، وقد ورد فيما انتظم بالآية بيان كون المستمعين جماعة وذلك قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً﴾[1] فبين أن المراد جماعة وارتفع الاحتمال. ولما لم يرد فيها انتظم مع آية سورة يونس ضمير ولا غير ذلك مما يبين المستمعين جماعة، وكان (بيان)[2] ذلك مراداً مقصوداً[3]، أتى الْضّمير أولاً ضمير جمع حملاً على معنى «مِن» ولم يحمل على لفظها فيفرد لئلا يوهم أن المستمع واحد وذلك غير مقصود فقيل: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾[4] إذْ ليس في الكلام بعد ما يبين ذلك.

فإن قيل فإن «من» قد تقرر من حكمها أنها يراد بها الكثير وإن كانت مفردة اللفظ وصالحة له وإذا كانت في الأكثر من كلامهم مراد بها الكثير فذلك يرفع إيهام إرادة واحد؟ فالجواب أن إرادة الواحد بها ــ وإن كان الأقل ــ مبق حكم الإيهام قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ

(1) سورة الأنعام: آية 25.
(2) سقط من ن 1، ن 2.
(3) في ن 1، ن 2، ن 4: مفرداً مقصوداً.
(4) سورة يونس: آية 42.

قَوْلُهُ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا. . . الآيات﴾[1] إلى قوله «ولبئس المهاد»[2] نزلت هذه الآي في الأخنس بن شريق[3]، وقد تكرر الضمير فيها ثماني مرات ضمير مفرد، وتأكد بذلك أن المعنى بها واحد كما قال المفسرون، وقال تعالى: ﴿مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ٱئْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي﴾[4] نزلت في الجد بن قيس[5] لما دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جهاد الروم وقال: هل لك في جلاد بني الأصفر وقصته مشهورة، وقال تعالى[6]: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ الله. . . الآية﴾[7]، نزلت في ثعلبة بن حاطب[8]، إلى غير هذا من المواضع، وقد تقدم أيضاً أنها تصلح للاثنين، وأنشد سيبويه رحمه الله.

---

(1) سورة البقرة: آية 204.

(2) سورة البقرة: آية 206.

(3) في ن 3: ابن رشيق وهو خطأ إذ الصواب ابن شريق. أنظر أسباب النـزول، للواحدي، ص 43. والأخنس بن شريق: أبو ثعلبة، صحابي شهد حنيناً ومات في أول خلافة عمر، رضي الله عنه، ورد أنه بعد إعلانه إسلامه مر بقوم من المسلمين فحرق زرعهم وقتل حميرهم فنزل فيه قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا﴾ إلى قوله: ﴿بئس المهاد﴾. وقال ابن عطية ما ثبت قط أن الأخنس أسلم (الإصابة ت 61).

(4) سورة التوبة: آية 49.

(5) في ن 4: الجر بن قيس وهو خطأ، والصواب الجد بن قيس، أنظر أسباب النزول، للواحدي، ص 185. والجد بن قيس سيد بني سلمة، ويقال أنه كان منافقاً، روي عن ابن عباس أنه نزل فيه قوله تعالى: ﴿ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني﴾. وروي عن عائشة بسند ضعيف، أنه تخلف يوم الحديبية عن البيعة وقال أبو عمرو في آخر ترجمته، إنه تاب وحسن إسلامه، ومات في خلافة عثمان (الإصابة ت 1110).

(6) بهامش ن 2.

(7) سورة التوبة: آية 75.

(8) ثعلبة بن حاطب: أو ابن أبي حاطب الأنصاري، مات في خلافة عثمان، له ترجمة مطولة في الإصابة، ت 928.

تعال فإن عـاهدتني لا تخـونني نكن مثل من ياذيب يصطحبان [1]

فـإذا ثبت أن «من» تصلح للواحد والاثنين والجمـع والمذكـر والمؤنث، وقد ذكر المفسرون وأهل السير أن المتعرضين لسماع القرآن منه صلى الله عليه وسلم كانوا جماعة سماهم المفسرون[2] فتحرير المراد في الآية محرز للمعنى المقصود ومتأكد إذ ليس فيما بعد مما في المنتظم مع الآية ما يبين المراد كما (في)[3] غيرها فوجب رعي ذلك فقيل: ﴿ومنهم من يستمعون﴾[4]، ولزم ذلك ليرتفع الإيهام.

فإن قيل: فإن قوله تعالى في آية يونس ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾[5] يبين ذلك كما بينه في آية الأنعام قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ (أَكِنَّةً)[6] أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾[7] وما بعد إذ الارتباط حاصل في الآيتين ونظام الكلام ملتئم؟ فالجواب أن ارتباط قوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ بما قبله صحيح كارتباط قوله تعـالى: ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنـة﴾ بما قبله إلا أن قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَـا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ مبين أن ما وقعت عليه «من» جماعة، وكأن الكلام في قوة أن لو قيل: وجعلنا على قلوب السامعين، إذ لا يراد بالضمير غير ما وقعت عليه. أما قوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ فليس كذلك بل المراد بلفظ الصم جنس

---

(1) البيت للفرزدق في البحر الطويل عن الكتاب 473/1.

(2) هم أبو سفيان والوليد بن المغيرة والنظر بن الحارث وعقبة وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وأمية وأبي ابنا خلف والحارث بن عامر وأبو جهل (عن التفسير الكبير، للرازي 185/12).

(3) سقط من ن 3.

(4) سورة يونس: آية 42.

(5) سورة يونس: آية 42..

(6) سقط من ن 3.

(7) سورة الأنعام: آية 25.

الصم، والمستمعون بعض ذلك، فحصل الارتباط بهذا الوجه، (لا أن الصم يراد بهم من وقعت عليه «مَنْ» فقط وهذا كقولهم: زيد نعم الرجل، فإن الرجل لم يرد به زيد وحده إنما أريد به جنس الرجال وإنما زيد واحد منهم فحصل الربط بهذا الوجه)[1] فليس كقوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾. وبهذا يتم المعنى المقصود من تسلية نبينا صلى الله عليه وسلم، وكأن قد قيل له عليه السلام: إن الصم الذين لا يعقلون لم تكلف أسماعهم وهؤلاء منهم، فلا درك عليه فيهم صلى الله عليه وسلم، فانفصلت آية يونس من آية الأنعام، وورد كل على ما يجب.

فإن قيل إذا كان الأكثر في «مَنْ» وقوعها على الكثير فقد وردت آية يونس على ما هو قليل في كلامهم وفي هذا ما يسأل عنه؟ قلت ذلك كله فصيح ومعروف من كلامهم، ولا يلزم من كون الوارد أقل أن يكون دون الكثير في الفصاحة بل كل فصيح، وقد بوب سيبويه رحمه الله على حال «مَنْ» في وقوعها على من ذكر فقال في كتابه[2]: هذا باب إجرائهم صلة من وخبرها إذا عنيت اثنين كصلة الذَيْن وإذا أرادت جماعة كصلة الذين ثم ذكر الآية ﴿ومنهم من يستمعون إليك﴾[3] وأنشد بيت الفرزدق وقد تقدم[4].

تعال فإن عـاهدتني لا تخـونني .... البيت

---

(1) بهامش ن 2.

(2) الكتاب 473/1.

(3) سورة يونس: آية 42.

(4) انظر ص 440.

وقد تقدم ذكر ما أجريت فيه مجرى التي كقول العرب: ومن كانت أمك وأيهن كانت أمك، وأورد عن (   )[1] قراءة من قرأ: ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لله وَرَسُولِهِ﴾[2]، فقد ذكر سيبويه رحمه الله أن هذا كله من كلام العرب، ودل قوله في الترجمة: هذا باب إجرائهم[3] بالاضافة إلى ضمير الجمع وإنما يريد العرب، وهذا مشير إلى أن العرب تتكلم به كثيراً، وأنه ليس في كلام بعضهم دون بعض، ووضح من جملة هذا أن قوله تعالى في آية يونس ﴿ومنهم من يستمعون﴾ بضمير الجماعة لا يلائم الموضع سواه إذ ليس بعده ما يبين أن المراد جمع[4]، أما آية الأنعام فقد ورد في المنتظم بها مما بعد ما يبين المراد، فجاء كل على ما يجب، والله أعلم.

الآية الثامنة[5]: غ ـ قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[6]، وفي سورة المؤمنين [7]: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا [8] وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [9] وفي الجاثية: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا ٱلدَّهْرُ . .

---

(1) بياض في كل النسخ.

(2) سورة الأحزاب: آية 31، قرأ حمزة والكسائي وخلف: ويعمل بالتذكير يؤتها بالياء، وقرأ الباقون بالتأنيث والنون.

(3) الكتاب 473/1.

(4) في ن 1، ن 2: جميع وهذا لا يناسب.

(5) في ن 4: الثانية وهو خطأ.

(6) سورة الأنعام: آية 29.

(7) في ن 2، ن 4: المؤمن، وهو خطأ.

(8) سقط من ن 4.

(9) سورة المؤمنين: آية 37.

الآية﴾ [1]. للسائل أن يسأل فيقول: إن هذه الآي الثلاث قد اتحد محصولها من إنكارهم البعث الأخراوي وزعمهم أن لا حياة بعد هذه الحياة الدنياوية ولم يرد فيها عدول عن هذا من قولهم فما وجه الاقتصار في آية الأنعام؟ وزيادة نموت ونحيا في الأخريين؟ وآنفرد آية الجاثية بقولهم: ﴿وما يهلكنا إلا الدهر﴾ ـ عوض قولهم في الأوليين ﴿وما نحن بمبعوثين﴾؟

فالجواب عن ذلك، والله أعلم: أن آية الأنعام لم يرد فيما تقدمها زيادة على ما أخبروا به من حالهم في إنكارهم البعث، ألا ترى أن بنيت الآية على ما تقدمها من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ. . . الآية﴾[2]، فكأن قد قيل لهم: إنكم كنتم تنكرون البعث ووجود هذه الحياة الأخراوية، ولم يرد أثناء هذا ما يستدعي زائداً. أما آية المؤمنين فترتب الوارد فيها من قولهم: «نموت ونحيا» على ما تقدم من دعاء الرسل إياهم، (وقد)[3] ذكر الامداد في دنياهم الحامل على عتوهم وقولهم في المرسل إليهم: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾[4]، فلما طال هذا الكلام بما أغروا به سفهاءهم ناسب هذا الطول ما زيد هنا من قوله: «نموت ونحيا» أي طائفة تموت وطائفة توجد. وشأن ما يرد في الكتاب العزيز مما ظاهره التكرر زيادة

---

(1) سورة الجاثية: آية 24.
(2) سورة الأنعام: آية 27.
(3) سقط من ن 3.
(4) سورة المؤمنين: آية 33.

فـائدة أو تتميم معنى أو لبنـاء غيره من الكـلام عليه حتى لا يكـون (تكراراً)[1] عند من وفق لاعتباره.

وأما آية الجاثية فهي المفصحة بمرتكبهم الشنيع من إنكارهم (فاعلاً)[2] مختاراً حين قالوا: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا ٱلـدَّهْرُ﴾[3]، فزادوا إلى إنكارهم البعث الأخراوي (إنكارهم)[4] توقف الموت على آجال محدودة للخلائق ووقوعه بإرادة وتقدير من الموحد سبحانه، ثم اتبعوا شنيع مرتكبهم هذا بقولهم للرسل تحكيماً لإنكارهم البعث: ﴿فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[5] أي إن كنتم صادقين في إنا نحيي بعد الموت فأرونا دليلاً على ذلك بإحياء من مات من آبائنا، وبما ورد هنا من هذه الزيادة حصل التعريف بجملة مقالهم الشنيع، وآستوفته هذه الآية ما لا يتأتى في غير هذا مما يتكرر.

الآية التاسعة قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾[6]، وهذه الآية (الأولى)[7] مغفلة[8]، وفي هذه السورة أيضاً: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾[9]، وفي الأعراف: ﴿قَالُوا إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى ٱلْكَافِرِينَ ٱلَّذِينَ

---

(1) سقط من ن 3.
(2) بهامش ن 3.
(3) سورة الجاثية: آية 24.
(4) بهامش ن 3.
(5) سورة الدخان: آية 36.
(6) سورة الأنعام: آية 32.
(7) سقط من ن 4.
(8) أغفلها الخطيب الاسكافي في درة التنزيل.
(9) سورة الأنعام: آية 70.

ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا﴾[1]، وفي سورة العنكبوت ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾[2]، وفي سورة القتال: غ ـ ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾[3]، وفي سورة الحديد: ﴿ٱعْلَمُوا أَنَّمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾[4]، ففي آيتي الأنعام وسورة القتال وسورة الحديد تقديم اللعب وعطف اللهو عليه، وثبت في الأعراف والعنكبوت (بالعكس)[5]، فقدم فيهما اللهو على اللعب، والواو وان كانت لا ترتب فانه لا يتقدم اللفظ في الكتاب العزيز ذكراً أو يتأخر الا لموجب. فوجه تقديم اللعب في الإنعام انه المتقدم في الوجود الدنياوي على اللهو، ولأن أول ابتداء تعقل الإنسان وميزه (حاله)[6] حال[7] اللعب وهو المطابق لسن الابتداء، فإذا استمر أَلْهَى[8] عن التدبر والاعتبار وشغل تماديه عن التفكر فيما به النجاة والفوز وقد ينضاف إلى اللعب شاغل غيره أو يعاقبه فيحصل بالمجموع الغفلة عن النظر في الآيات فيعقب الهلاك، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ . . .﴾ الآية[9]، فلما لم يبرح هؤلاء عن الجري على مهيع الصم البكم الذين لا يعقلون جَرَى الإخبار عنهم في الآية الثانية من

---

(1) سورة الأعراف: آية 51.
(2) سورة العنكبوت: آية 64.
(3) سورة القتال: آية 36.
(4) سورة الحديد: آية 20.
(5) بهامش ن 3.
(6) سقط من ن 4.
(7) في ن 1، ن 2: حالة.
(8) في ن 3، ن 4: إلهي، وهذا خطأ واضح.
(9) سورة الأعراف: آية 179.

الإنعام بمقتضى أحوالهم [1] في أعمارهم [2] التي لم تخرج عن أحوال البهائم، فأول أعمارهم لعب وعقب ذلك لهو، فورد الاخبار على حسب جـري الأعمار، وانهم اعتمـدوا البقاء مـع مقتضى الطبـع الإنساني إذ لم يصغ المكلف إلى داع ولا تكلف الخروج عن مقتضى هـواه، ولا جنح إلى مفارقة مألوف الطباع، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَن ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾[4]، فأمر تعالى نبيه عليه السلام بالأعراض عنهم فقال: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً﴾[5] على مقتضى الهوى والطبع، وهذه الحال هي التي نبه سبحانه عباده المؤمنين على أنها حال الحياة الدنيا وصفتها التي تمتاز بها، فأعلم بذلك ليجتنبوها ويحذروا غرورها، فقال تعالى في الآية الأولى من هذه السورة: ﴿وَمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا (إِلَّا)[6] لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾[7]، وقال في سورة القتال: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾[8]. ألا ترى أن الخطاب قبل هذه الآية خطاب للمؤمنين بالأمر بالطاعة لله ورسوله، ووصية لهم، وإعلام بحال عدوهم من الكفار، وذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُـولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾ الآية[9]، وفي

---

(1) في ن 3: أقوالهم، والصواب أحوالهم.
(2) في ن 1، ن 2، ن 4: أعمالهم، وهذا خطأ واضح.
(3) سورة الجاثية: آية 23.
(4) سورة الأنعام: آية 70.
(5) سقط من ن 3.
(6) سورة الأنعام: آية 32.
(7) سورة القتال: آية 36.
(8) سورة القتال: آية 33.

سورة الحديد: ﴿ٱعْلَمُوا أَنَّمَا ٱلْحَيَاةُ (ٱلدُّنْيَا)[1] لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾[2]، فعرف عباده المؤمنين منها[3] بالصفة التي هي فضلها وبها امتيازها على الترتيب الذي وجودها عليه من تقديم اللعب في هذه الآي الأربع.

أما آية الأعراف فإنها قول المؤمنين أهل الجنة إخباراً عن حال الكافرين الموجبة لتعذيبهم فقدموا في الذكر اللهو الشاغل عن الاستجابة الجاري مع سن التكليف والمساوق له، الثاني [4] عن اللعب، إذ وجود اللعب أولي في السن التي معظمها غير سن التكليف وجري الأقلام بالتزام الطاعة واجتناب المخالفة، فقصدوا أن يخصوا موجب التعذيب من الأعمال فذكروا مساوقه ومظنته وهو معاقب اللعب والذي اتخذه الكافر بالقصد والاختيار عوضاً عن شاق التكاليف، ولم يذكر اللعب أولاً لأنه جار في البدأة وحين لا تكليف، فكأن الكلام في قوة أن لو قيل: ان الله محرم نعيم الجنة على من تأبط الكفر واعتمده واتبع اللعب واللهو من كفره فلم يبرح عن ملازمة الطبع والهوى.

وأما آية العنكبوت فإنها تقدم قبلها قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَـرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[5]، ولا يسأل عن هذا (ويجيب)[6] الا من جاوز سن اللعب وبلغ السن التي فيها يتعلق التكليف بالمخاطب، ويصح خطابه وعتابه على تفريطه.

---

(1) سقط من ن 3.
(2) سورة الحديد: آية 20.
(3) في ن 4: فيها.
(4) في ن 4: الناشيء.
(5) سورة العنكبوت: آية 61.
(6) بهامش ن 3.

فناسب ذلك من ذكر الحياة (الدنيا)[1] تقديم ما يساوق تلك السن، فقدم ذكر اللهو والتالي اللعب ليناسب، وليحصل ذكر مانعهم من الاستجابة وتكميل النظر المخلص لهم، وآخر[2] ذكر اللعب الذي لا يساوق مع انه متبوع اللهو لزوماً لمن لم تسبق له سابقة سعادة، فهذا وجه التقديم والتأخير فيما ذكر، ولو ورد على العكس لما كان ليناسب، والله أعلم.

الآية العاشرة قوله تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[3]، (وفي سورة الأعراف)[4] ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[5]، وفي سورة يوسف: ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[6]، في هذه الآي[7] (ثلاثة)[8] أسؤولة، والآية الأولى من مغفلات صاحب كتاب الدرة، أحدها قوله في الانعام: وللدار باللام الموطية للقسم، وفي الأعراف: «والدار» بغير تلك اللّام، والثاني جري الآخرة على الدّار نعتاً لها في السورتين وفي سورة يوسف: «والدار» الآخرة على الإضافة، والثالث قوله في السورتين: «للذين يتقون»، وفي سورة يوسف: «للذين اتقوا».

والجواب عن الأول: أن آية الأنعام تقدمها قوله تعالى معرفاً بحال الدنيا ﴿وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو﴾، ومعنى التأكيد في هذا حاصل

---

(1) بهامش ن 2.
(2) في ن 1، ن 2، ن 3: أجري، وهذا خطأ يخل بالمعنى.
(3) سورة الأنعام: آية 32.
(4) سقط من ن 1، ن 4، ومثبت بهامش ن 2.
(5) سورة الأعراف: آية 169.
(6) سورة يوسف: آية 109.
(7) في ن 4: الآية، والصواب الآي لما تقدم.
(8) سقط من ن 4.

من جري الكلام وسياقه [1] لأنك إذا قلت: ما المال الا الإبل، فكأنك نفيت عن غير الإبل أن يكون مالاً وأثبت ذلك لها ثباتاً مؤكداً وانها المال حقيقة وكأن ما سواها ليس بمال، وعلى هذا يجري ما دخلته الا بعد ما النافية من مثل هذا، (ومثل هذا) [2] هو المعنى الحاصل من لفظ القسم الصريح، فناسبه هذا مجيء اللام الموطية للقسم داخلة على المبتدأ في الآية المعرفة لحال الدار الأخرى في قوله: ﴿وللدار الآخرة﴾، وكأنه نص قولك والله للدار الآخرة خير، وتناسب هذا مع ما تقدم قبله من تقدير القسم المؤكد كما تبين، وليس في آية الأعراف ما يقتضي هذا لأنها مناطة بقوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا ٱلْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾[3] ثم قال: ﴿وَٱلـدَّارُ الآخرة خَيْرٌ﴾[4]، على هذا نظم (هذا الكلام)[5] وليس فيه ما يقتضي قسماً فلم تدخله تلك اللام.

والجواب عن السؤال الثاني: أن جري النعت بلفظ الآخرة على الدار في الآيتين وجهه مطابقة ما تقدم قبل كل واحدة من الآيتين. أما في آية الأنعام فقوله تعالى مخبراً عنهم: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ [6] فطابق هذا قوله تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ﴾، وأما آية الأعراف فقوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا ٱلْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا

---

(1) في ن 4: مساقة، وهذا خطأ واضح.
(2) سقط من ن 4.
(3) سورة الأعراف: آية 169.
(4) سورة الأعراف: آية 169.
(5) سقط من ن 4.
(6) سورة الأنعام: آية 29.

ٱلْأَدْنَى﴾[1] المراد به الدار الدنيا، فقوبل بقوله: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾، وهذا بين، ولما (لم)[2] يتقدم مثل ذلك قبل آية يوسف ورد لفظ الدار مضافاً بغير الألف واللام فيه فقيل: ﴿وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ﴾ وجاء كل على ما يجب ويناسب، والله أعلم.

والجواب عن السؤال الثالث: ان قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا﴾ قد تقدم قبله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ...﴾ الآية[3]، والحاصل منه انهم ظلموا أنفسهم فأهلكوا، ولو اتقوا لنجوا، فناسب هذا المعنى المقدر ورود الماضي في قوله تعالى: ﴿الذين اتقوا﴾ أوضح مناسبة.

الآية الحادية عشرة: غ ــ قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾[4]، (وفي سورة العنكبوت[5]: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ﴾)[6] في قراءة نافع وأبي عمرو وابن عامر وحفص، ولم يختلف في توحيد لفظ آية في الأنعام والمقصود واحد؟

ووجه ذلك ــ والله أعلم ــ ان لولا في الآيتين تحْضيض، وإنما يجري في كلامهم عندما يراه المتكلم به أولى أو أهم في مقصود ما أو أتم في مطلب ما إلى أشباه هذا مما يستدعي التحضيض ولما تقدم قبل آية الأنعام ذكر دلائل من خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات

---

(1) سورة الأعراف: آية 169.
(2) بهامش ن 3.
(3) سورة يوسف: آية 109.
(4) سورة الأنعام: آية 37.
(5) سورة العنكبوت: آية 50.
(6) سقط من ن 4.

والنور والتنبيه بحال من كذب وعاند إلى ما تبع ذلك من الآيات التي يحتاج فيها إلى النظر وإعمال الفكر، والاعتبار وكان مظنه لتغييظ الجاحد، فطلبوا آية تبهر ولا يحتاج معها إلى كبير نظر كناقة صالح، عليه السلام، أو شبه ذلك فافتحوا فيما[1] ذكره سبحانه عنهم بأداة لولا التحضيضية حرصاً على ما طلبوه، وأتوا بالفعل مضعفاً لما أرادوه من التأكيد فقالوا: نزّل وأفردوا آية لما قصدوه من أنه عليه السلام جاءهم بآية واحدة من الضرب الذي طلبوه، وهذا مناسب. وقد صرحوا بما طلبوه من هذا الضرب بالذي ذكرنا في قولهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تُفَجِّرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنْبُوعاً أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ...﴾ الآية[2]، وفي قولهم: ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾[3] إلى ما أشبه هذا، فقال تعالى: قل لهم يا محمد إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون أي لا يعلمون ما كان يعقبهم ذلك لو وقع على وفق اقتراحهم من تعجيل أخذهم وهلاكهم كما جرى لغيرهم من الأمم كقوم صالح، عليه السلام، وغيرهم، وقد قدم لهؤلاء التنبيه على ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾[4]، وأيضاً ففي ذلك من الحكمة ما سبق في علمه تعالى من هداية من شاء واضلال من شاء، وليرفع بالعلم والنظر من هداه إليه ووفّقه، فلو ورد هذا الفعل غير مضعف، ولم تفرد آية، لما أحرز هذا المعنى.

---

(1) في ن 4: بما، والصواب فيما.
(2) سورة الإسراء: آية 90.
(3) سورة الفرقان: آية 21.
(4) سورة الأنعام: آية 8.

أما آية العنكبوت فقد تقدم قبلها قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ﴾[1]، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا﴾[2]، وتأخر بعدها قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْآيَاتُ عِنْدَ ٱللَّهِ﴾[3]، فلم يكن ليناسب بعد اكتناف هذه الجموع توحيد آية، ثم ان هذه الآية لم يتقدمها من التّهديد وشديد الوعيد ما تقدم آية الأنعام، فناسب ذلك ورود الفعل غير مضعف، وجاء ذلك كله على ما يجب، ولم يكن عكس الوارد ليناسب، والله أعلم.

الآية الثانية عشرة قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[4]، ثم قال بعد ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾[5]، ثم قال بعد ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّالِمُونَ﴾[6]، وفي سورة يونس ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[7]. ففي هذه الآي الأربع أربعة أسئلة: الأول ما وجه التكرار في الواردة في سورة الأنعام؟ والثاني ما وجه اختصاص بعضها بتأكيد الخطاب الحاصل من الضمير بالإتيان بالأداة بعد في قوله: «قل أرأيتم» وسقوط ذلك من بعضها؟. الثالث ما وجه تخصيص كل آية منها بما اتبعت به؟، الرابع ما وجه الترتيب في

---

(1) سورة العنكبوت: آية 49.
(2) سورة العنكبوت: آية 49.
(3) سورة العنكبوت: آية 50.
(4) سورة الأنعام: آية 40.
(5) سورة الأنعام: آية 46.
(6) سورة الأنعام: آية 47.
(7) سورة يونس: آية 50.

الآيات الثلاث وهو قوله في التّنبيه أولاً: ﴿إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾. وتأخير التنبيه بمثل ذلك من ذكر العذاب في قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً...﴾ الآية وتوسيط التنبيه بقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾؟

والجواب عن الأول: أنه إنما أعيد لفظ التنبيه لتسويغ[1] معتبرات كل منها كاف في الدلالة لِمن وفق، ونظير هذا ما ورد في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَى ٱللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[2]، ثم (قال)[3]: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[4] أمن فعل كذا، فهذه الدلالات التي (نبهوا)[5] على الاعتبار بها نظائر الآي الواردة في آية الأنعام، وأما الاتيان (بأداة) [6] الخطاب بعد الضمير المحصل لذلك فتأكيد في إيقاظ المنبه إنباء باستحكام غفلته كما يحرك النائم باليد والمفرط الغفلة باليد واللسان وشبه هذا، ألا ترى وصفهم قبل هذا بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَاتِ﴾[7]، فذكروا أولاً تذكير الصم البكم، وإنما يذكر هؤلاء بأبلغ ما يقع به التحريك والتنبيه، ثم لما بسط الكلام وامتد الوعظ إلى الآية الأخرى قيل لهم: «قل أرأيتم» فلم يحتج إلى التأكيد، وذكروا بأمر مشاهد في كثير

---

(1) في ن 3: لتنويع، وهذا خطأ يخل بالمعنى.
(2) سورة النمل: آية 59.
(3) سقط من ن 3.
(4) سورة النمل: آية 60.
(5) بهامش ن 2.
(6) بهامش ن 4.
(7) سورة الأنعام: آية 39.

من الخلق فقيل لهم: ﴿إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾، ثم لما أخذوا بكل جهة يحصل (منها)[1] ٱلإتعاظ اتبع ذلك بذكر العذاب وسوء الجزاء لمن لم يتعظ، وكررت أداة الخطاب وأكد كما يقال لمن نبه فلم ينتبه ولا أجدى عليه التذكار كيف رأيت؟ ويحرك تحريك المتمادي على غيّه بتكرر أداة الخطاب، فقد حصل الجواب عن الكل.

وأما آية يونس فمنفردة ولم يتقدم قبلها ذكر صم ولا بكم يوجب تأكيد الخطاب، وقد تقدم قبلها قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ (مِنَ ٱلسَّماءِ وَٱلْأَرْضِ)[2] أَمَّنْ يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَارَ﴾[3] إلى ما بعد هذا، فحصل تحريكهم وتنبيههم بما لم يبق بعده الا التذكير بعذابهم ان لم يجد ذلك عليهم، فالتدريج هنا حاصل كما هناك لكن بطريقة أخرى، والله أعلم بما أراد.

فصل: واعلم أن من جعل الأداة المؤكد بها الخطاب في أرأيتكم ضميراً لم يلزمه اعتراض بتعدي فعل المضمر المتصل إلى مضمره المتصل لأن ذلك جائز في باب الظن وفي فعلين من غير باب ظننت وحسبت وهما: فقدت وعدمت، وكذلك تعدي فعل الظاهر إلى مضمره المتصل جائز في الأفعال المذكورة، والآيات المتكلم فيها من باب الظن لأن المراد برأيت رؤية القلب فهي من الباب المستثنى، وإنما الممتنع مطلقاً تعدي فعل المضمر المتصل إلى ظاهره فلا اختلاف في منع هذا

---

(1) سقط من ن 3.
(2) سقط من كل النسخ.
(3) سورة يونس: آية 31.

في كل الأفعال، وأما من جرد أداة الخطاب المؤكد بها للحرفية وهو قول الجمهور فلا كلام في ذلك.

الآية الثالثة عشرة: غ ـ قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾[1]، وفي سورة الأعراف ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ، إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾[2]، بإدغام تاء التفعل في فاء الكلمة مع اتحاد المرمى في الآيتين فيسأل عن وجه ذلك؟

والجواب، والله أعلم: أن العرب تراعي مجاورة الألفاظ فتحمل اللفظ على مجاوره لمجرد المضارعة اللفظية وان اختلف المعنى، ومنه الاتباع في يَنُوؤك وَيَسُوؤك، قال سيبويه، رحمه الله، وقد ذكر بعض ما تتبع فيه العرب وتحمل اللفظ على ما قرن به ولو أفرد عنه لم ينطق به كذلك فقال: كما أن ينوؤك يتبع يسوؤك يريد أنك تقول: يُنيئك بضم الياء وكسر النون متعدياً على مثال يزيلك وزناً وتعدية إلى المفعول، فإذا ذكرته بعد يسوؤك اتبعته إياه فقلت يسوؤك وينوؤك مع اختلاف المعنى، (فهم فيما)[3] اتفق معناه من هذا أحرى أن يفعلوا فيه ذلك. وماضي الفعل من الضراعة لا إدغام فيه إنما تقول تضرع إذ لا حرف مضارعة فيه يسوغ الإدغام، فلما ورد الماضي فيما بني على آية الأنعام من قوله: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾[4] ولا ادغام فيه لما ذكرنا ورد الأول مفكوكاً غير مدغم فقيل يتضرعون رعياً للمناسبة، أما آية

---

(1) سورة الأنعام: آية 42.

(2) سورة الأعراف: آية 94.

(3) في ن 4: فهو مما، وهذا خطأ.

(4) سورة الأنعام: آية 43.

الأعراف فلم يرد فيها ما يستدعي هذه المناسبة فجاء مدغماً على الوجه الأخف إذ لا داعي لخلافه، والله أعلم.

الآية الرابعة عشرة: غ ـ قوله تعالى: ﴿قُلْ لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ ٱللَّهِ وَلاَ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾[1] بتكرير ضمير الخطاب المجرور من قوله: لكم، وفي سورة هود: ﴿وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ ٱللَّهِ وَلاَ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾[2] بغير تكرير الخطاب، فللسائل أن يسأل عن ذلك؟

والجواب ـ والله سبحانه أعلم ـ أن الوارد في سورة هود إنما هو حكاية قول نوح، عليه السلام، متلطفاً[3] ومشفقاً من حال قومه، ألا ترى استفتاح خطابه لهم بقوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ... الآية﴾[4]، وقوله ﴿وَيَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً... الآية﴾[5]، وقوله: ﴿يَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾[6] إلى قوله ﴿إِنِّي إِذاً لَمِنَ ٱلظَّالِمِينَ﴾[7]، فتأمل جليل ملاطفته، عليه السلام، وما يفهم من كلامه من عظيم الإشفاق من حالهم وإرادته ما به نجاتهم من العذاب ومن أخذهم بمرتكباتهم، فهذا كله استلطاف في الدعاء لا يلائمه تكرار كلمة تفهم تعنيفاً أو توبيخاً، والتأكيد والتكرار يفهم ذلك،

---

(1) سورة الأنعام: آية 50.
(2) سورة هود: آية 31.
(3) في ن 1، ن 2: مطلقاً، وهذا خطأ مخل بالمعنى المراد.
(4) سورة هود: آية 28.
(5) سورة هود: آية 29.
(6) سورة هود: آية 30.
(7) سورة هود: آية 31.

ويردان حيث يقصد. وأما قوله تعالى في آية الأنعام: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ فوارد طي كلام أمره[1] صلى الله عليه وسلم بتبليغه عتاة قريش والعرب توبيخاً لهم وتقريعاً، فقيل له: «قل» والمراد: قل لهم يا محمد: ﴿لَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ... الآية﴾، ولم يؤمر أن يقول هذا لأبي بكر وعمر وخاصة أصحابه، إنما عني به من يقول: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾[2]، فمن يصدر عنه هذا وأشباهه مما ينبىء عن الإزراء[3] وفساد الظاهر (والباطن)[4] فهم المقول لهم: ﴿لَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ... الآية﴾، فتكرر فيها قوله: «لكم» تأكيداً يفهم التعنيف ويناسب التوبيخ والتقريع، ونظير هذا وان خالفه في تخصيص المخاطب بمقصود الكلام وإنما قصد به تعنيف مستحقي التعنيف ممن لم يخاطب، فهو من قبيل قولهم: إياك أعني واسمعي يا جارة...[5]، وقوله تعالى في خطاب عيسى، عليه السلام، ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَائِراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ

---

(1) في ن 3: أمر بسقوط الضمير.

(2) سورة الفرقان: آية 7 و 8.

(3) في ن 3: الإزدراء، وفي لسان العرب الإزراء التهاون بالشيء، والإزدراء: الإحتقار والانتقاص والعيب.

(4) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.

(5) في ن 3: جارية. وهو عجز بيت لسهل بن مالك الفزاري وكامل البيت:

أصبح يهوى حرة معطارة إياك أعني واسمعي يا جارة

عن مجمع الأمثال للميداني 190/1.

بـإِذْنِي وإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَـوْتَى بِإِذْنِي﴾ [1]، فتـأمل تكـرار قولـه «بإذني» وما يتضمن من توبيخ من جعل عيسى، عليه السلام، إلهاً واتخذه [2] معبوداً فخوطب عيسى، عليه السلام، وهو المحفوظ المعصوم من توهم استبداد جل قدره صلى الله عليه وسلم عن ذلك، ولكن هذا كما قيل له صلى الله عليه وسلم: ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ﴾[3]، والمراد بذلك تقريع من اتخذه، عليه السلام، إلهاً، ومرادنا من هذا ما اجتمعت عليه هذه الآي من إشعار التقريع والتوبيخ الحاصلين من التأكيد والتكرار، ثم يصرف ذلك في كل من الآيتين لمن تأهل له، ولما لم يكن ذلك مقصوداً في آية هود لم يرد فيها تـأكيد ولا تكرار، وجاء كل من ذلك على ما يناسب، والله أعلم.

الآيـة الخامسـة عشرة: غ ــ قـوله تعـالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾[4]، وفي سورة التكـوير ﴿إِنْ هُـوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَـالَمِينَ﴾[5]، للسائل أن يسأل عن وجه ورود الخبر بلفظ التأنيث في الأولى والتذكير في الثانية مع تذكير المبتدأ فيهما؟

والجواب عنه، والله أعلم: أن آية التكوير لما تقدمها القسم على القرآن بقوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ﴾[6] إلى ما وقع القسم به ثم

---

(1) سورة المائدة: آية 110.
(2) في ن 3: واتخذوه، والصواب: واتخذه، ويؤكد قوله قبل: جَعَل عيسى.
(3) سورة المائدة: آية 116.
(4) سورة الأنعام: آية 90.
(5) سورة التكوير: آية 27.
(6) سورة التكوير: آية 15.

ورد ضمير المقسم[1] عليه في قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾[2] أي أن القرآن لقول رسول كريم، والمراد به جبريل، عليه السلام، ثم اتبع بوصفه إلى قوله ﴿ثَمَّ أَمِينٍ﴾[3]، ثم قيل: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾[4] والإشارة إلى محمد صلى الله عليه وسلم، فنزهه تعالى عن قول أعدائه ونسبتهم إياه إلى الجنون، ثم وصفه تعالى بأنه على الغيب الموحى به إليه والمأمون على تبليغه غير متهم ولا بخيل على القراءتين[5]، فقال: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾[6] ثم أعقب بقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي وما القرآن «بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ»، فجرت هذه الضمائر على التذكير على ما يجب، ثم اتبع بقطع تعلقهم فقيل ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾[7] أي إن كل ما رمتم من رميه، عليه الصلاة والسلام، به من السحر والجنون والتقول لا يقوم شيء من ذلك على ساق ولا يتوهم ذلك ذو عقل سليم، ثم قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ والضمير للقرآن، ولا يمكن وروده على خلاف هذا لمنافرة التناسب ومباعدة التلاؤم.

وأما آية الأنعام فتقدمها قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا

---

(1) في ن 2: القسم، والصواب: المقسم عليه.
(2) سورة التكوير: آية 19.
(3) سورة التكوير: آية 21.
(4) سورة التكوير: آية 22.
(5) قرأ ابن كثير وأبوعمرو والكسائي: بظنين بالظاء والباقون بالضاد (عن التيسير لأبي عمرو الدّاني، ص 220).
(6) سورة التكوير: آية 24.
(7) سورة التكوير: آية 26.

بِكَافِرِينَ﴾[1]، فنوسب بين قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى﴾ وبين ما تقدم فكأن التقدير إن هو أي الأمر أو المراد المقصود أو ما ذكر من الكتاب والحكم والنبوة إلا ذكرى، فناسبه ذكرى هنا لما تقدم بيانه، ولم يتقدم هنا ما يستدعي لفظ التذكير ويناسبه، فجاء كل على ما يجب، والله أعلم.

الآية السادسة عشرة: غ ــ قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[2]، لم يقرأ هنا بغير هذا اللفظ وكذا في المعارج[3] وفي سورة المؤمنين[4] في قراءة الجماعة إلا الشيخين[5]: ﴿عَلَى صَلَوَاتِهِمْ﴾ بالجمع، فللسائل أن يسأل عن وجه ذلك؟

والجواب عنه، والله أعلم: أن ذلك مناسب لما اكتنف هذا الوصف في آية سورة المؤمنين لما كان ذكر محافظتهم على صلاتهم قد اكتنفه ما تقدمه وما تأخر عنه من تفخيم الوصف في المتقدم وتفخيم الجزاء في المتأخر ناسب ذلك تفخيم العبارة عن فعلهم[6]، فورد بلفظ الجمع في قراءة الأكثرين[7] فقيل: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ﴾ أما تفخيم الوصف المتقدم فذكرهم بالفلاح وهو الظفر بالمراد والبقاء[8] في

---

(1) سورة الأنعام: آية 89.
(2) سورة الأنعام: آية 92.
(3) سورة المعارج: آية 34.
(4) سورة المؤمنين: آية 9.
(5) يريد بذلك حمزة والكسائي (عن التيسير، لأبي عمرو الداني، ص 158).
(6) في ن 1، ن 2، ن 4: فضلهم والصواب فعلهم.
(7) قرأ حمزة والكسائي على صلاتهم على التوحيد والباقون على الجمع.
(8) في ن 3: الفناء، وهذا خطأ واضح.

الخير وذكرهم بالخشوع في صلاتهم وإعراضهم عن اللغو ولم يقع في متقدم وصفهم في سورة المعارج ما يوازن هذه الأوصاف.

وأما آية الأنعام فلم يتقدم فيها غير ذكرهم بالإيمان فقط، وأما نعتهم الوارد في جزائهم فوصفهم بأنهم الوارثون ثم تخصيصهم بإرث الفردوس وهو أعلى الجنة ومنه تنفجر أنهار الجنة، ووصفهم بالخلود فيها، ولا يوازن هذا بقوله عقب آية المعارج: ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾[1].

وأما آية الأنعام فلم يرد فيها ذكر جزائهم بالجمع[2] كما في آية سورة المؤمنين وإن لم يقرأ بذلك في الأخريين، وظهرت مناسبة ذلك، والله أعلم.

الآية السابعة عشرة: غ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[3]، وفي سورة الكهف ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[4]، ومرمى الآيتين واحد، فيسأل عن زيادة «فرادى» في آية الأنعام؟

والجواب، والله أعلم: أن ذلك مراعى فيه في آية الأنعام ما أعقبت به من قوله: ﴿وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾[5] أي ما أعطيناكم في الدنيا مما شغلكم عن آخرتكم. ثم قال: ﴿وَمَا نَرَى

---

(1) سورة المعارج: آية 35.
(2) بيان في ن 4، وفي ن 1، ن 2: فرحمة للجميع، وهذا لا يناسب السياق.
(3) سورة الأنعام: آية 94.
(4) سورة الكهف: آية 48.
(5) سورة الأنعام: آية 94.

مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾[1] أي منفردين عما كنتم تؤملون من أندادكم ومعبوداتكم من دونه سبحانه، فلرعي هذا المعقب به في آية الأنعام ما قيل فيها ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى﴾.

أما آية الكهف فقبلها قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾[2]، ثم قال: ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[3] مجردين عن كل متعلق. ولم يقع هنا ذكر ولا إشارة إلى ما عبد من دون الله، فلهذا لم يقع هنا «فرادى»، وذلك بين التناسب، وعكس الوارد لم يناسب، والله أعلم.

الآية الثامنة عشرة[4] قوله تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[5]، وبعد هذه: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾[6]، ثم بعد هذه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[7]، للسائل أن يسأل عن وجه اختلاف هذه الأوصاف التابعة في الآي الثلاث؟

والجواب: أنه لما تقدم الآية الأولى قوله جل وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[8] فذكر سبحانه من المعتبرات التي يتوصل بالنظر فيها إلى معرفة وحدانيته

---

(1) سورة الأنعام: آية 94.
(2) سورة الكهف: آية 47.
(3) سورة الكهف: آية 48.
(4) في ن 3: الآية الثامنة، والصواب الثامنة عشرة.
(5) سورة الأنعام: آية 97.
(6) سورة الأنعام: آية 98.
(7) سورة الأنعام: آية 99.
(8) سورة الأنعام: آية 97.

تعالى ما يحصل الاطلاع عليه تعقلاً وتنقلاً ويستند في كثير منه إلى التعاون في تعرفه والاطلاع عليه بمن تقدمت له به [1] المعرفة، فيحصل في ذلك علم منقول فيما يتعلق بذات المتعرف المطلوب به الاستدلال أو في أدوات موصولة إليه إذ ليس علم ذلك راجعاً إلى مجرد الفكر والتفطن، ألا ترى أن إدراك العلم بنجوم السماء وتفصيل ذلك بتعيين الكواكب الثابتة والسيارة المتنقلة في أبراجها وخنوس الخمسة منها واشتراكها مع الشمس والقمر في انتقالها في منازلها مختلفات الحالات في السرعة والبطء، فكم بين قطع القمر الفلك في ثمان وعشرين ليلة وقطع زحل إياه (في ست وثلاثين)[2] سنة جارية في أفلاكها من غرب إلى شرق وقذف الفلك الأعظم بالكل من شرق إلى غرب على العكس ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[3] ويتعرف هذا القسط مما ذكرنا يتحصل للمعتبر الاهتداء بها على الكمال في ظلمات البر والبحر والعلم بعدد السنين والحساب، والقلب في كثير من هذا الضرب مورد على البصر فيما ينهيه إليه فصار هذا الضرب من المعتبرات الدالة على الصانع تعالى كالمخبر به الحاصل بواسطة من خارج فتناسب ذلك التعبير عن المتذكر به بالعلم الذي مواده ومحصلاته الخبر القاطع مع النظر السديد فقيل في ختام هذه الآية: ﴿لقوم يعلمون﴾، وقيل ما معناه[4] أن الوارد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾[5] إلى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي

---

(1) في ن 1، ن 2، ن 4: لديه.
(2) في ن 3: في ثلاثين سنة بسقوط ست.
(3) سورة الأنعام: آية 96.
(4) جاء ذلك في درة التنزيل، للخطيب الإسكافي، ص 126.
(5) سورة الأنعام: آية 95.

جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[1] آيات تنبيه على معرفة الله تعالى والعلم به وبوحدانيته، وهو أشرف معلوم، فأعقب بأشرف ما يوصف به المعتبرون فقيل: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ وذلك أعلى من الوصف بقوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ و﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ولذلك ما ورد وصفه تعالى بالعلم ولا يوصف سبحانه بالفقه ولا العقل، فلما كان المعلوم أشرف المعلومات عبر عن الآيات التي نصبت للدلالة عليه باللفظ الأشرف، انتهى[2]، وهو قول حسن، والتناسب فيه واضح.

أما الآية الأخرى فتقدم قبلها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾[3] ومرجع العلم بنشأة الإنسان وتقلبه من صلب إلى رحم، وارتباط أعضائه الظاهرة والباطنة، وجمع أجزائه وتصرف كل عضو في ما له خلق، واحتياج الأعضاء بعضها إلى بعض وجري ما وُكِّل منها (بغذاء)[4] الإنسان اجتذاباً وانتحالاً وطبخاً وتقسيماً وتجزئة على الأعضاء واتقان كل عضو (منها)[5] وجرى لما يسر له، إلى غير ذلك، هذا مما يبسطه من تكلم في التشريع، فالعلم بهذا كله جملة وتفصيلاً مما لا يحصل بالسمع والبصر وإنما يطلع عليه بالاعتبار والتفكر من ذوي الفطن السالمة[6] والنظر العقلي السديد والفهم المصيب، فناسب هذا قوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾، والفقه التفهم والتفطن،

---

(1) سورة الأنعام: آية 97.

(2) معنى: كلام صاحب درة التنزيل.

(3) سورة الأنعام: آية 98.

(4) سقط من ن 4، ومكانه بياض.

(5) سقط من ن 3.

(6) في ن 2: بالاعتبار والتفطن من ذوي الفكر السالمة.

وذلك من جملة ما ألهم إليه وأشار قوله تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[1].

وأما الآية الثالثة فإنه سبحانه لما ذكر إنزال الماء من السماء وإخراج النبات من الأرض به في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِباً وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾[2]، فلما أورد هذا كان مذكراً بالبعث الأخراوي والنشأة الثانية كما قال تعالى في آية الأعراف: ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[3]، وإنما يحصل العلم بذلك وسائر أمور الآخرة من قبل الرسل، عليهم الصلاة والسلام، والإيمان بهم وبما جاؤوا به فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[4] أي يصدقون بالبعث وأنه تعالى كما بدأهم يعودون، فقد وضحت مناسبة هذه الآيات الثلاث لما أعقب بها، والله سبحانه أعلم.

الآية التاسعة عشرة: غ ــ قوله تعالى: ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ٱنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾[5]، وورد فيما بعد من هذه السورة: ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾[6]، فورد في الآية الأولى ﴿مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ وفي

---

(1) سورة الذاريات: آية 21.
(2) سورة الأنعام: آية 99.
(3) سورة الأعراف: آية 57.
(4) سورة الأنعام: آية 99.
(5) سورة الأنعام: آية 99.
(6) سورة الأنعام: آية 141.

الثانية: ﴿مُتَشَابِهاً﴾، وفي الأولى: ﴿ٱنظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾[1]، وفي الثانية: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾[2]، يسأل عن المختلف في الآيتين مع اتحاد مرماهما؟

والجواب عن الأول: أن مشتبهاً ومتشابهاً لا فرق بينهما إلا ما لا يعد فارقاً إذ الافتعال والتفاعل متقاربان، أصولهما: الشين والباء والهاء من قوله أشبه هذا هذا إذا قاربه وماثله، (ورد)[3] في أولى الآتين على أخف البناء وفي الثانية على أثقلهما رعياً للترتيب المتقرر، وقد مر نحو هذا في قوله ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾[4] وقوله: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ﴾ في سورة طه[5].

والجواب عن الثاني: أن قوله تعالى في الأولى: ﴿ٱنظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ مبني على ما قبله مما بناه على الاعتبار، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَى﴾... الآية[6]، وقال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَاعِلُ[7] ٱللَّيْلِ سَكَناً﴾... الآية[8]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا﴾... الآية[9]، ثم قال

---

(1) سورة الأنعام: آية 99، وهي بهامش ن 2.

(2) سورة الأنعام: آية 141.

(3) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.

(4) سورة البقرة: آية 38.

(5) سورة طه: آية 123.

(6) سورة الأنعام: آية 95.

(7) قرأ الكوفيون «وجعل» على وزن فعل الليل سكناً بنصب اللام والباقون وجاعل على وزن فاعل وجر اللام من الليل (من التيسير، لأبي عمرو الداني، ص 105).

(8) سورة الأنعام: آية 96.

(9) سورة الأنعام: آية 97.

تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ وَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ [1]، فلما كان مبنى هذه الآي على الاعتبار والتنبيه بما نصب تعالى من الدلائل على وحدانيته لم يكن ليناسب ذلك ويلائمه إلا الأمر بالنظر والاعتبار لا الأمر بالأكل، أما الآية الثانية فمبنية على غير هذا وقد تقدمها قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ [2] أي منع ﴿لاَ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَنْ نَشَاءُ﴾ [3]، وجرى ما بعد على التناسب إلى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ [4] إلى قوله: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾[5]، ثم قال بعد ذكر الأنعام: ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾[6]، وجرى ما بعد على هذا في تفصيل ما أحل سبحانه لعباده ورد ما ظنت يهود تحريمه على هذه الأمة، ثم أتبع سبحانه بذكر ما حرم أكله فقال لنبيه، عليه السلام: ﴿قُلْ لاَ أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً﴾... الآية[7]، ثم أتبع تعالى بما حرم[8] على بني إسرائيل أكله فقال ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ

---

(1) سورة الأنعام: آية 98.
(2) سورة الأنعام: آية 99.
(3) سورة الأنعام: آية 138.
(4) سورة الأنعام: آية 138.
(5) سورة الأنعام: آية 141.
(6) سورة الأنعام: آية 141.
(7) سورة الأنعام: آية 142.
(8) سورة الأنعام: آية 145.
(9) بهامش ن 2.

ذِي ظُفُرٍ﴾[1] فلم يتخلل هذه الآيات من غير أحكام المأكولات في التنويع والإباحة والتحريم خلاف ذلك سوى الأمر بزكاة الحرث في قوله: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾، فدارت هذه الآي على ما أنعم به سبحانه من ضروب ما خلقه تعالى مما أقام به حياة عباده مأكلاً وملبساً ومعونة في حركاتهم وانتقالاتهم ومباح ذلك ومحرمه، فلم يكن ليلائم ذلك إلا ما يناسبه، ولم يكن ليناسب الآية المتقدمة لو قيل: كلوا، ولا هذه الآية لو قيل: انظروا، فجاء كل على ما يجب ويلائم ولا يناسب خلافه، والله أعلم.

الآية الموفية عشرين[2] قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[3]، وفي سورة غافر: ﴿ذَلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُوفَكُونَ﴾[4]. للسائل أن يسأل عن وجه التقديم والتأخير فيما قدم وأخر في هاتين الآيتين؟

والجواب عن ذلك: أن آية الأنعام لما تقدم فيها قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾[6] كان الملائم نفي ما جعلوه وادعوه من الشركاء والصاحبة والولد، فقدم

---

(1) سورة الأنعام: آية 146.
(2) في ن 1، ن 3: التاسعة عشرة، والصواب عشرين.
(3) سورة الأنعام: آية 102.
(4) سورة غافر: آية 62.
(5) سورة الأنعام: آية 100.
(6) سورة الأنعام: آية 101.

ما الأمر عليه من وحدانيته سبحانه وتعاليه عن الشركاء والولد فقال: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وعرف العباد بعد بأن كل ما سواه سبحانه خلقه وملكه فقدم الأهم [1] في الموضع.

وأما آية غافر فتقدمها قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾[2] ثم قوله تعالى: ﴿اللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِراً﴾[3] فلما تقدم ذكر الخلق الأعظم ولم يتقدم هنا ما تقدم في آية الأنعام ما أتبع بالتنبيه على أنه سبحانه خالق كل شيء فكان تقديم هذا التعريف هنا أنسب وأهم، ثم أعقب بالتعريف بوحدانيته تعالى فجاء كل على ما يجب ويناسب، ولم تكن واحدة من الآيتين لتناسب ما تقدم الأخرى، والله سبحانه أعلم.

الآية الحادية والعشرون[4]: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾[5]، وورد بعد هذا: ﴿وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾[6]، للسائل أن يسأل عن وجه اختلاف الاسمين في قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾، ﴿وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ﴾؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أنه لما تقدم الآية الأولى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمِ ٱلْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ

---

(1) في ن 1، ن 2: الأعم.
(2) سورة غافر: آية 57.
(3) سورة غافر: آية 61.
(4) في ن 1، ن 3: الموفية عشرين، والصواب الحادية والعشرون.
(5) سورة الأنعام: آية 112.
(6) سورة الأنعام: آية 137.

شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ ٱللَّهُ﴾[1]، فعرف سبحانه نبيه، عليه السلام، بما سبق لهؤلاء وما قدره تعالى عليهم في الأزل حتى لا يجدي عليهم شيء ولا ينفعهم تذكار، فلما تقدم من القدر على هؤلاء ما يثير أشد الخوف كان مظنة إشفاق فأنس نبيه صلى الله عليه وسلم ولاطفه بإضافة اسم ربوبيته سبحانه لنبيه[2]، عليه السلام، مخاطباً له فقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ فسكن جأشه وتلطف في تأنيسه، عليه السلام، وتأنيس أمته بأنسه، ولما لم يقع قبل الآية بعد مثل هذا وإنما قبلها: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾[3] وليس هذا في اقتضاء الحتم عليهم المؤذن بقطع الرجاء منهم كقوله في الأولى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَائِكَةَ﴾... الآية[4]، فلذلك قال عقب هذه الآية الثانية: ﴿وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾[5] فجاء باسمه الأعظم تعالى من غير إضافة إذ ليس هذا مثل الأول، ولو ورد الاسم الأعظم أولاً والاسم الكريم المضاف ثانياً لما ناسب على ما تمهد، والله سبحانه أعلم.

الآية الثانية والعشرون[6] قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ (هُوَ)[7] أَعْلَمُ[8]

---

(1) سورة الأنعام: آية 111.
(2) في ن 3: لصبره.
(3) سورة الأنعام: آية 137.
(4) سورة الأنعام: آية 111.
(5) سورة الأنعام: آية 137.
(6) في ن 1، ن 3: الحادية والعشرون، والصواب الثانية والعشرون.
(7) سقط من ن 3.
(8) في ن 3: يعلم، وهذا خطأ.

مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[1]، وفي سورة النجم: غ ـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾[2] بزيادة الباء في «من» من قوله: ﴿بِمَنْ ضَلَّ (عَنْ سَبِيلِهِ)﴾[3] وكذا في سورة القلم[4] بخلاف ما في آية الأنعام، وفي آية الأنعام أيضاً: «يَضِلُّ» بياء المضارعة وفي الأخريين «ضَلَّ»، ففي هذا سؤالان: أحدهما زيادة الباء في آيتي النجم والقلم وسقوطها في الأنعام، والثاني ورود الماضي في آيتي النجم (والقلم)[5] وورود المضارع في آية الأنعام.

والجواب عن الأول: (أن) [6] سقوط الباء الداخلة على «من» في آية الأنعام إنما ذلك والله أعلم لاستثقال زيادتها مع الزيادة اللازمة للمضارع مع التقارب إيثاراً للإيجاز والتخفيف، أما آيتا النجم والقلم فلا زيادة في الفعل لكونه ماضياً فزيد باء التأكيد الداخلة على من ويشهد لهذا اطراد زيادتها في الآيتين لورود الماضي فيهما بخلاف آية الأنعام.

والجواب عن الثاني: أن آية الأنعام قد اكتنفها من غير الماضي من الأفعال والإعلام بما يكون قطعياً[7] أو يتوقع في المآل ما يقتضي المناسبة في النظم، ولو ورد غير الماضي هنا لما ناسب ولا لاءم، أما آية النجم فمبنية على مطلع السورة في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَى

---

(1) سورة الأنعام: آية 117.
(2) سورة النجم: آية 30.
(3) سقط من ن 3.
(4) سورة القلم: آية 7.
(5) سقط من ن 3.
(6) بهامش ن 2.
(7) في ن 3: قطعاً.

مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ [1]، فقال تعالى مشيراً إلى حالهم: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [2] فبرأ نبيه صلى الله عليه وسلم مما نسبوا إليه وأثبت ذلك لهم بكناية وتعريض أوقع في نفوسهم من الإفصاح بتعيينهم، وأما آية القلم فإنه لما تقدم فيها قوله (تعالى)[3]: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾[5] تهديداً لهم وتعريفاً بكذبهم في قولهم حين نسبوه إلى الجنون أعقب ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾[6] فسجلت هذه الكناية بضلالهم وكذبهم وتناسب هذا كله أوضح تناسب.

الآية الثالثة والعشرون[7] قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[8]، وفي سورة يونس: ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[9]، للسائل أن يسأل عن الفرق؟

والجواب، أنه لما تقدم قبل آية الأنعام قوله تعالى: ﴿أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي ٱلنَّاسِ﴾[10]والمراد أو من كان

---

(1) سورة النجم: آية 2.
(2) سورة النجم: آية 30.
(3) بهامش ن 2.
(4) سورة القلم: آية 8.
(5) سورة القلم: آية 6.
(6) سورة القلم: آية 7.
(7) في ن 1، ن 2: الثانية والعشرون، والصواب: الثالثة والعشرون.
(8) سورة الأنعام: آية 122.
(9) سورة يونس: آية 12.
(10) سورة الأنعام: آية 122.

ميتاً في غمرات الجهل والكفر فأحييناه بنور الإيمان والعلم كمن مثله في الظلمات أي ظلمات الجهل والكفر متمادياً على غيّه غير مقلع عن كفره لا يجدي عليه إنذار ولا ينتفع بوعظ التذكار فسواء في حقه الإنذار وعدمه، فلما ذكر في هذا الطرف من لم يشم بارق إيمان وسجل بعدم خروجه عن مقتضى موبقاته في شنيع ذلك الخذلان أعقب بقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فوسم بكفره لليأس من خيره. أما آية يونس فقد تقدم قبلها ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنْسَانَ ٱلضُّرُّ﴾ (1) والمراد هنا جنس الإنسان ﴿دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً﴾ (2) أي دعانا على أي حال كان على مقتضى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ (3) ثم قال: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ﴾ (4) فذكر سبحانه من حال الإنسان حال متذكر داع عند مس الضر غير مشرك ولا كافر حال دعائه ففي حاله في دعائه عند الضر ومروره في المخالفات أو الغفلة عند كشفه شبه من حال المقول فيهم: ﴿خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً﴾ (5)، فأعقب ذكر هذا الضرب بقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ (6) أي أن هؤلاء زين لهم لمرتكبهم في مرورهم بعد كشف الضر عنهم على أحوالهم قبل مس الضر إياهم كما زين للمسرفين ما كانوا يعملون، فشبهت أحوالهم بأحوال المسرفين ليزدجر المؤمن ويستعيذ من مثل تلك الحال ويدأب على الطاعة والتضرع

---

(1) سورة يونس: آية 12.

(2) سورة يونس: آية 12.

(3) سورة النحل: آية 53.

(4) سورة يونس: آية 12.

(5) سورة التوبة: آية 102.

(6) سورة يونس: آية 12.

إلى الله سبحانه، والمسرف هنا والله أعلم محتمل أن يراد به المسرف في المعاصي دون الكفر أو المسرف في كفره المقول فيه وفيمن كان على حاله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ﴾[1]، فعدل في آية يونس عن أن يقال: «لِلْكَافِرِينَ» إلى قوله: «ٱلْمُسْرِفِينَ» لما في صفة الإسراف من الاحتمال لمناسبة ما تقدمه من تقلب حالتي الإنسان عند مس الضر إياه وكشفه عنه.

أما آية الأنعام فقد تقدمها قوله تعالى: ﴿كَمَنْ مَثَلُهُ فِي ٱلظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾[2] فإنما ذكر في هذه الآية طرفان قد بولغ فيهما وهما المجعول له نور يمشي به في الناس لا يفارقه والمتخبط في ظلمات لا يخرج عنها فلا يمكن أن تكون حال أسوأ من حال هذا لأن ذكر الطرفين لا واسطة بينهما يقتضي من حيث البلاغة النهاية في كل طرف فعبر هنا بصفة الكفر، أما حال المسرف من حيث ما ذكرنا من الاحتمال فدون حال المتخبط في الظلمات، فعلى هذا يحتمل أن يكون الإسراف فيما دون الكفر (فيكون)[3] المتصف به غير منقطع الرجاء إذا لم يبلغ الكفر، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾[4]، فشتان ما بين مسرف راج ومتخبط في ظلمات كفر داج، فجاء كل على ما يناسب، ولم يكن ليناسب العكس بوجه، والله سبحانه أعلم.

---

(1) سورة غافر: آية 43.
(2) سورة الأنعام: آية 122.
(3) بهامش ن 3.
(4) سورة الزمر: آية 53.

الآية الرابعة والعشرون[1]، قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾[2]، وفي سورة هود: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[5]، فقال في الأولى: ﴿وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾، وقال في الثانية: ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾، فللسائل أن يسأل عن الفرق بين الموضعين؟

والجواب، والله أعلم: أنه لما تقدم هنا قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ﴾[4]، فقدم سبحانه ذكر بعثة الرسل للجن والإنس وإنذارهم وتذكيرهم بالآيات وتعريف الخلق بالجزاء الاخراوي على مقتضى قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[5]، فلا عذر لأحد[6]. وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى[7]: ﴿أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾[8] فلم يتركوا سدى ولا عذر لمغض (ولا)[9] (متغافل)[10] بعد تنبيهه[11] ﴿ذَٰلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ

---

(1) في ن 1، ن 3: الثالثة والعشرون، والصواب: الرابعة والعشرون.
(2) سورة الأنعام: آية 131.
(3) سورة هود: آية 117.
(4) سورة الأنعام: آية 130.
(5) سورة الإسراء: آية 15.
(6) في ن 1، ن 2، ن 4: لذلك.
(7) سورة المائدة: آية 19.
(8) بهامش ن 2.
(9) سقط من ن 3.
(10) بهامش ن 3.
(11) في ن 3 غير واضحة.

وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾[1] فهذا مناسب، وتقدم آية هود قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾[2]، ولو كانوا ينهون عن الفساد في الأرض لكانوا مصلحين فلم يكونوا ليؤخذوا بالعقاب ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[3]، فقد ناسب كلا من الآيتين ما أعقبت به، ولم يكن ليناسب آية الأنعام: ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ ولا آية هود: ﴿وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾، والله أعلم بما أراد، وسيذكر إن شاء الله فرق ما بين قوله: «مُهْلِكَ» فعبر باسم الفاعل وقوله: «لِيُهْلِكَ» بلام الجحود الداخلة على الفعل المستقبل في سورة هود إن شاء الله[4].

الآية الخامسة والعشرون[5] قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[6]، وكذا في سورة الزمر[7]، وفي قصة شعيب عليه السلام من سورة هود: ﴿وَيَا قَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[8] فأفردت آية هود هذه بمجيء حرف (التسويف)[9] عرياً عن اقتران فاء التعقيب به[10]بخلاف

---

(1) سورة الأنعام: آية 131.

(2) سورة هود: آية 116.

(3) سورة هود: آية 117.

(4) أنظر: الآية الخامسة عشرة من سورة هود.

(5) في ن 1، ن 3: الرابعة والعشرون، والصواب: الخامسة والعشرون.

(6) سورة الأنعام: آية 135.

(7) سورة الزمر: آية 39.

(8) سورة هود: آية 93.

(9) بهامش ن 1.

(10) في ن 2: عن اقتران ما أعقبت، وهذا خطأ لا يستقيم معه المعنى وقد سقط الجار والمجرور «به» من ن 1، ن 4.

الأخريين مع اتفاق الآيات الثلاث في التهديد وحرف التسويف، للسائل أن يسأل عن ذلك؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن هذه الآيات الثلاث وعيد لمن كفر وكذب، وآية الأنعام وآية الزمر منها أريد بهما كفار العرب من هذه الأمة، وقد افتتحتا بأمره سبحانه نبيه عليه السلام بوعيدهم في قوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يَا قَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ فقوي في هاتين الآيتين تقدير معنى الشرط المنجر تقديره في الأوامر نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا ٱلصَّلاَةَ﴾[1] لافتتاحها بأمره تعالى نبيه عليه السلام ثم أمره عليه السلام لهم في قوله: «ٱعْمَلُوا»، فاعتضد ما يستدعي الجوابية بالفاء فوردت في الجواب المبني على الشرط المقدر بعد هذا الأمر على أحد مأخذي النحويين أو الذي تضمنته الجملة ونابت منابه على القول الآخر، ولما كانت آية هود إخباراً لنبينا عليه الصلاة والسلام فضعف فيها تقدير الشرط فلم تدخل الفاء، وجاء كل على ما يجب، والله أعلم.

الآية السادسة والعشرون[2] قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ الله مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَحَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾[3]، وفي سورة النحل ﴿لَوْ شَاءَ الله مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِنْ

---

(1) سورة إبراهيم: آية 31.
(2) في ن 1، ن 3: الخامسة والعشرون والسادسة والعشرون.
(3) سورة الأنعام: آية 148.

قَبْلِهِمْ﴾[1]. للسائل أن يسأل عما اختلف في هاتين الآيتين مع أن المقصود واحد؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أنه لما تقدم آية الأنعام قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾[2] وهذا إخبار عن بني اسرائيل فيما حرم عليهم ثم ورد بعدها قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ الله حَرَّمَ هَذَا﴾[3] وهو خطاب لهم أيضاً[4]، فقد اكتنف الآية المذكورة ما مرجعه إلى بني اسرائيل فيما حرم عليهم وما ألحقوه بذلك تحريفاً وتبديلاً، ووردت الآية المتكلم فيها مورد ما يرد من الجمل الاعتراضية لاتصال ما بعدها بما قبلها، فلم يكن ليلائم ذلك الاسهاب وطول الكلام إذ الوجه فيما يرد اعتراضاً أن يؤخر، وأما آية النحل فلم يتقدمها خطاب لغير العرب مؤمنهم وكافرهم، وقد أطنب في تذكيرهم ووعظهم، وقد بسط لهم ذكر نعم ودلائل، فناسب ذلك الاسهاب (الوارد فيها)[5] من قوله: ﴿لَوْ شَاءَ الله مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾[6] ولم يكن ليناسب آية الأنعام ما ورد هنا، ولا الوارد هنا ذلك الايجاز، والله سبحانه أعلم.

الآية السابعة والعشرون[7] قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِٱلْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ

---

(1) سورة النحل: آية 35.

(2) سورة الأنعام: آية 146.

(3) سورة الأنعام: آية 150.

(4) في ن 3: أينما، وهو خطأ واضح.

(5) بهامش ن 3.

(6) سورة النحل: آية 35.

(7) في ن 1، ن 3: السادسة والعشرون، والصواب: السابعة والعشرون.

إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾[1]، وفي سورة بني اسرائيل[2] ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾[3]، ففي الأولى: «مِنْ إِمْلَاقٍ» «ونَرْزُقُكُمْ» بتقديم ضمير المخاطبين، وفي الثانية «خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ» «وَنَرْزُقُهُمْ» بتقديم ضمير الأولاد ثم عطف ضمير المخاطبين، فللسائل أن يسأل عن وجه هذا الاختلاف في الآيتين مع اتحاد المقصد فيهما؟

والجواب عن ذلك ـ والله أعلم ـ أن المخاطبين بآية الأنعام إنما كان فعلهم ذلك من أجل الفقر الحاصل حين فعلهم ذلك، فالحاصل لهم على قتلهم قد كان حاصلاً حال قتلهم فقيل من إملاق أي من أجل الاملاق الحاصل، ثم قيل لهم: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾، فقدم رزقه تعالى لهم لحصول فقرهم في الحال ليكون أمنع لهم، وكأن السياق يشعر بتشفيع الأولاد في رفع فقر الآباء القاتلين، فكأن قد قيل لهم[4]: إنما ترزقون بهم فلا تقتلوهم، فتأكد (تقديم)[5] ضمير الآباء لهذا الغرض. وأما الآية الأخرى فقصد بها كفار العرب، وكان وأدهم البنات خشية الفقر المتوقع والعجز عن مؤنتهن فيما يتوقعونه مستقبلاً فقيل: «خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ»، فجعلت الخشية هي العلة في فعلهم، فانتصبت على ذلك، والمعلول الذي هو الاملاق لم يقع بعد وضمن تعالى لهم رزقهم ورزق أولادهم ودفع ذلك المتوقع ليرفع ذلك خشيتهم، فلهذا قدم هنا

---

(1) سورة الأنعام: آية 151.

(2) سورة الإسراء.

(3) سورة الإسراء: آية 31.

(4) من هذا الحد وجد بياض في ن 4، وهو نقص يمتد في هذه النسخة من ورقة 65 إلى ورقة 71.

(5) بهامش ن 2.

ضمير الأولاد ثم عطف عليه ضمير الآباء. وكان الأهم هنا فقدم، وجاء كل في الموضعين على ما يجب ويناسب، والله أعلم.

الآية الثامنة والعشرون[1] قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[2]، تلوها: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[3]، وفي الثالثة تليها: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[4]، للسائل أن يسأل عن وجه الاختلاف في المعلل به في هذه الآيات؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أنه لما كانت الخلل الخمس في الآية الأولى وهي: الشرك والعقوق وقتل الأولاد لأجل الفقر وارتكاب الفواحش وقتل النفس التي حرم الله بغير الحق، خمستها مما يدرك العقل ابتداء قبحها، ويستقل بدركها أعني أن العقل يستوضح قبحها شرعاً لبيان أمرها في استقباح الشرع إياها، وإلا فالعقل عندنا لا يحسن ولا يقبح. فلما كانت على ما ذكرنا أتبعت بترجي التعقل لأن السلامة منها لا تكون مع وضوح أمرها إلا بتوفيق الله تعالى، ولذلك جاءت بأداة الترجي. ولما كانت الخمس التالية لها وهي قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[5] إلى آخرها مما تؤثر فيه الشهوات والأهواء، وذلك مما يعمي ويصم، أتبع برجاء التذكر، فقيل: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ومن تذكر أبصر فعقل فامتنع، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا

---

(1) في ن 1، ن 3: السابعة والعشرون، والصواب: الثامنة والعشرون.
(2) سورة الأنعام: آية 151.
(3) سورة الأنعام: آية 152.
(4) سورة الأنعام: آية 153.
(5) سورة الأنعام: آية 152.

مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾[1]، ولما كان مجموع هذه المرتكبات العشر مما اتفقت عليه الشرائع ولم ينسخ منها شيء وهي المحكمة[2] التي من أخذ بها كان سالكاً[3] الصراط المستقيم الذي لا عوج فيه ولا أمت واتخذ أسنى وقاية من عذاب الله، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَٱتَّبِعُوهُ﴾[4] والأمر عام لكافة الخلق، ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾[5] أتبعه بقوله ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[6] وترتب حاصلاً من مضمن الآيات الثلاث أنه من عقل وتذكر اتقى والمتقون هم المفلحون فسبحان من هذا كلامه.

الآية التاسعة والعشرون[7]: غ ـ قوله تعالى: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[8]، وفي سورة الأعراف ﴿وَأَنَا أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[9]، يسأل عن الفرق؟

والجواب، والله أعلم: أن هذه الآية لما تقدمها قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾[10]

---

(1) سورة الأعراف: آية 201.
(2) في ن 3: المحكمات.
(3) في ن 3: مالكاً، وهذا خطأ لا يناسب ما بعده.
(4) سورة الأنعام: آية 153.
(5) سورة الأنعام: آية 153.
(6) سورة الأنعام: آية 153.
(7) في ن 1، ن 3: الثامنة والعشرون، والصواب: التاسعة والعشرون.
(8) سورة الأنعام: آية 163.
(9) سورة الأعراف: آية 143.
(10) سورة الأنعام: آية 161.

وقد قال في سورة آل عمران [1] ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِياً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [2]، وفي وصيته عليه السلام لبنيه: ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ الله ٱصْطَفَى لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [3]، وبهذا أوصى يعقوب عليه السلام قال تعالى ﴿وَأَوْصَى [4] بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ. . . الآية﴾ [5]، وهي جواب بني يعقوب حين قال لهم: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾ فأجابوا بقولهم «نَعْبُدُ إِلَهَكَ» إلى قوله ـ ﴿إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [6]، وقال سبحانه لنبينا صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين: ﴿أُولَئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى الله فَبِهُدَاهُمْ ٱقْتَدِهْ﴾ [7]، وقال تعالى: ﴿قُلْ ـ أي يا محمد ـ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قَيِّماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾ [8] إلى قوله: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [9]، فإنما قال عليه السلام وعمل واقتدى ظاهراً وباطناً بما أمر به وما درج عليه هؤلاء الصفوة المذكورون ومن سلك مسلكهم وعبارة الإسلام تعم الاستسلام بالظاهر والباطن، والإيمان الذي هو التصديق داخل تحت ذلك وفي جملة ما يطلق عليه اسم الإسلام، فقد تحصلت عبارته عليه السلام منبئة عن الكمال في مسمى الإيمان

---

(1) في ن 1، ن 2: سورة البقرة، والصواب سورة آل عمران.
(2) سورة آل عمران: آية 67.
(3) سورة البقرة: آية 132.
(4) قرأ نافع وابن عامر «وأوصى» والباقون ووصى.
(5) سورة البقرة: آية 132.
(6) سورة البقرة: آية 133.
(7) سورة البقرة: آية 133.
(8) سورة الأنعام: آية 90.
(9) سورة الأنعام: آية 161.
(10) سورة الأنعام: آية 163.

والإسلام على الحال التي درج عليها المصطفون الاخيار وحالهم في ذلك لا يدركها غيرهم من حيث الكمال التام صلى الله عليهم أجمعين ولا قطعنا عن التمسك بهديهم. فقد وضح بما ورد في هذه الآية الجليلة أنه لا يناسب هنا غير هذا الوارد، والله أعلم.

وأما آية الأعراف وقوله فيها: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فالقائل ذلك موسى عليه السلام حين سأل الرؤية وظنّ أنها جائزة في الدنيا فلم يسأل عليه السلام محالاً وإنما سأل جائزاً ممكناً وحاشاه عليه السلام من أن يسأل محالاً ويجهل من ربه مثل هذا لولا الجواز، فلما استعجل وطلب ذلك في الدنيا قال له ربه تعالى: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾[1] في الدنيا، وأمره أن ينظر إلى الجبل، وأراه تلك الآية العظيمة، وصار الجبل دكا وخر موسى عليه السلام صعقاً لعظيم ذلك المطلع، فلما أفاق قال: «سبحانك تبت إليك»[2]، ولم يُرِد عليه السلام تبت من معصية ولا جهل بربه أن يجوز عليه ما لا يجوز، فأقدار الأنبياء عليهم السلام فوق ذلك، وهم أعلم الخلق بما يجوز عليه تعالى وما يستحيل، ثم قال: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[3] أي أول المصدقين بأنك لا تُرى في الدنيا، وليس موضع التعبير بأن يقول: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ لأن ذلك الوصف حاصل له عليه السلام على الصفة الحاصلة للمصطفين ممن تقدم وإنما أراد ما يعبر عن مجرد التصديق بهذا الذي غاب عند جواز تعجيله مع علمه بجوازه على الجملة، فقد وضح ورود كل من العبارتين بالإسلام والإيمان على ما يجب، ولا يناسب العكس بوجه، والله سبحانه أعلم.

---

(1) سورة الأعراف: آية 143.
(2) سورة الأعراف: آية 143.
(3) سورة الأعراف: آية 143.

الآية الموفية ثلاثين[1] من سورة الأنعام قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ ٱلْأَرْضِ﴾[2]، وفي سورة فاطر: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[3] بإضافة لفظ خلائق في الأولى ولم يضف في الثانية بل جيء بحرف الوعاء، فيسأل عن وجه ذلك؟

والجواب عنه، والله أعلم: أنه قد تقدم قبل آية الأعراف قوله سبحانه لنبيه عليه السلام ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[4]، واستمر الخطاب له معرفاً عن حاله وواضح طريقه إلى قوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾[5]، فعم ما سواه سبحانه بالدخول تحت ملكه وقهره، فناسب هذا ما ذكر من إنعامه على عباده بجعلهم خلائف الأرض، ولو كان بحرف الوعاء لم يكن ليفهم التوسعة في الاستيلاء والاطلاق إلا بضميم يحرز ذلك لأن قوله في الأرض إنما يفهم أنها موضع استخلافهم وهل كلها أو بعضها ذلك محتمل، أما (بغير)[6] حرف الوعاء فأظهر في التعميم[7] وإن لم يكن نصاً إلا أنه أظهر من المتقيد بحرف الوعاء، فناسب الإطلاق الإطلاق.

وأما قوله في سورة الملائكة[8] ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فقد تقدم قبله ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا

---

(1) في ن 1، ن 3: التاسعة والعشرون، والصواب: الموفية ثلاثين.

(2) سورة الأنعام: آية 165.

(3) سورة فاطر: آية 39.

(4) سورة الأنعام: آية 161.

(5) سورة الأنعام: آية 164.

(6) سقط من ن 1، ن 2.

(7) في ن 3: التعبير.

(8) سورة فاطر: آية 39.

﴿وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُم مِنْ عَذَابِهَا﴾[1] إلى قوله ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ... الآية﴾[2]، ثم أعقب قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[3] بقوله: ﴿فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ... الآيات﴾[4]، فلما اكتنف الآية ما ذكرته[5] مما هو نقيض الوارد في آية الأنعام ناسب ذلك التقييد بحرف الوعاء إذ لا يلائم البسط القبض، فجاء كل على ما يجب ولا يناسب العكس، والله سبحانه أعلم بما أراد.

الآية الحادية والثلاثون[6]: غ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[7]، وفي الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[8]، للسائل أن يسأل عن اختصاص آية الأعراف بزيادة اللام المؤكدة في الخبر وسقوطها من آية الأنعام؟

والجواب: والله أعلم أن آية الأنعام لما تقدمها قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[9] ثم استمر ما بعد على خطابه صلى الله عليه وسلم لما منحه الله تعالى إلى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ ٱلْأَرْضِ... الآية﴾[10] فهذا له صلى الله عليه وسلم ولأمته فجاء

---

(1) سورة فاطر: آية 36.
(2) سورة فاطر: آية 37.
(3) سورة فاطر: آية 39.
(4) سورة فاطر: آية 39 وما بعدها.
(5) في ن 3: ما ذكر.
(6) في ن 1، ن 3: الموفية ثلاثين، والصواب: الحادية والثلاثون.
(7) سورة الأنعام: آية 165.
(8) سورة الأعراف: آية 167.
(9) سورة الأنعام: آية 161.
(10) سورة الأنعام: آية 165.

الخبر من قوله ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ بغير لام التأكيد مناسباً للحال إذ هؤلاء المذكورون ليسوا بجملتهم ممن استحق عقاباً، ومن عوقب من أهل القبلة فعقابه منقطع بفضل الله فلا حامل على التأكيد لأن ذكر العقاب هنا تخويف يحمل المؤمن على استصحاب الرغب والرهب وما ينبغي للمؤمن أن يكون عليه.

وأما آية الأعراف فقد ورد قبلها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ ٱلْعَذَابِ﴾[1] وقد تقدم ذكر المقصودين بهذا الوعيد وذكر مرتكباتهم السيئات، فتخلصت الآية للمستحقين العقاب بمجترحاتهم المفصحة بكفرهم فناسب تأكيد الخبر المنبىء[2] بعقابهم وسوء مآلهم وجاء كل على ما يجب ويناسب.

* * *

(1) سورة الأعراف: آية 167.

(2) في ن 3: المبني، وهذا خطأ ظاهر.

سورة الأعراف

الآية الأولى منها قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ. قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾[1]، وقال في سورة الحجر: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَالَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ. قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾[2]، في الآيتين مما يسأل عنه قوله تعالى في الأولى: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ وفي الثانية: ﴿مَالَكَ﴾، وفي الأولى استفتاح بسؤاله عن امتناعه بقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ من غير ندائه باسمه وفي الثانية نداؤه: ﴿يَا إِبْلِيسُ﴾، وفي الأولى قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ وفي الثانية: ﴿أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾، وفي الأولى قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ وفي الثانية: ﴿لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾، وفي الأولى قال: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾، وفي الثانية: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾، فهذه خمس سؤالات.

فأقول: إنه لما تقدم في الأعراف ذكر خلق الإنسان وتصويره من

---

(1) سورة الأعراف: آية 12-13.

(2) سورة الحجر: آية 32-34.

غير ذكر المادة التي خلق منها قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ﴾[1] والخطاب لبني آدم ولم يذكر (خلق)[2] غيرهم من ملك أو جن. ثم إن الأمر بالسجود ورد للملائكة ولم يرد إشعار بأن إبليس (من غيرهم)[3] فسبق من ظاهر الكلام أنه منهم ومأمور معهم لاستثنائه منهم فناسب هذا قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾، لأنه مأمور بظاهر ما تقدم وناسب ذلك أيضاً وعضد ما قلناه قوله: ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾، ولما لم يقع ذكر لخلق غير الآدميين ولا ذكرت مادة خلق الإنسان ناسب ذلك ما ذكره سبحانه عن إبليس من قوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[4]، فاستوفى ذكر المادتين وبنى على ذلك ما توهم من فضل النار على الطين.

أما آية الحجر فقد تقدم قبلها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾[5] إلى قوله: ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[6] فأشارت الآية بظاهرها إلى أن إبليس من الملائكة، وقد نطقت الآية أن الملائكة هم المأمورون بالسجود، فبحسب هذا البادي من الظاهر وردت المعية في قوله: ﴿مَالَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّاجِدِينَ﴾[7]، فلما لم يكن في أصل الخلقة والمادة منهم وكان الأمر بظاهر العبارة لهم وإن كان مراداً أنه

---

(1) سورة الأعراف: آية 11.
(2) بهامش ن 3.
(3) بهامش ن 2.
(4) سورة الأعراف: آية 12.
(5) سورة الحجر: آية 26.
(6) سورة الحجر: آية 29.
(7) سورة الحجر: آية 32.

معهم فبحسب هذا قيل له: ﴿مَالَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّاجِدِينَ﴾، فقيل: «معهم» إذ ليس منهم قال تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾[1]، وبحسب ذلك استؤنف[2] نداؤه فقيل: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَالَكَ﴾ ولم يقل: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ لأن ذلك لو قيل كان يقتضي أنه منهم، ولم يكن ليناسب ما أشار إليه صدر الكلام من أنه ليس منهم فنودي باسمه المشعر بطرده ومغايرته لهم فقيل: «يا إبليس»، فتناسب هذا كما تناسب أيضاً ما ورد في الحجر من تبيين خلق إبليس من النار وفصله من الملائكة ما أعقب به من محكي قوله: ﴿لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾[3] واحتقاره مادة الطين وتفضيله مادة النار عليها، فناسب هذا تعقيب أمره بالخروج في قوله تعالى له: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا﴾، وقيل في آية الأعراف: ﴿ٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ وليس التّعبير بالإخراج كالتعبير بالهبوط فقد أمر آدم بالهبوط ولم يقصد من تعنيفه ما قصد بإبليس فالفرق ما بين العبارتين فيما تعطيانه، قيل في الأعراف: ﴿فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ إذ لم يتقدم فيها من أنه ليس من الملائكة كما تقدم في الحجر بل ظاهر ما في الأعراف أنه منهم، فجرى الأمر آخراً مناسباً لهذا الظاهر فعبر بالهبوط. ولما تقدم في الحجر أنه ليس من الملائكة لخلقه من نار السموم فأشعر ذلك بشر المادة ناسبه قوله: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ وإتباع ذلك بما يلائمه من الوصف ويناسبه من قوله: ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ ثم بما كتب عليه من الطرد واللعنة، ولم يرد في الأعراف هكذا بل روعي فيه مناسبة ما تقدم، ولئلا يتنافر الكلام ويتنافر المعنى فقيل: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ

---

(1) سورة الكهف: آية 50.

(2) في ن 2: استوقف، والصواب: استؤنف.

(3) سورة الحجر: آية 33.

مِنَ ٱلصَّاغِرِينَ﴾[1]. فإن قلت: فقد قيل هنا: «فأخرج» كما قال في سورة الحجر قلت: تدرج به إلى التعنيف وسيق هناك من أول وهلة، وجاء كل على ما يجب ويناسب ولم يكن ليناسب ورود العكس في السورتين، والله أعلم بما أراد، وقد حصل جواب السؤالات بأسرها، والحمد لله.

الآية الثانية (من سورة الأعراف)[2] قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي[3] إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنْظَرِينَ﴾[4]، وفي سورة الحجر وسورة صّ: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾[5]، فورد في آيتي الحجر وصّ زيادة الفاء في قوله: ﴿فَأَنْظِرْنِي﴾ وفي قوله ﴿فَإِنَّكَ﴾ وزيادة قوله: ﴿رَبِّ﴾ ولم يرد ذلك في الأعراف، فيسأل عنه؟

وجواب ذلك، والله أعلم: مناسبة ما تقدم كل واحدة من الآي[6] الثلاث من الإسهاب والتأكيد أو الإيجاز، ألا ترى أن مجموع الكلم الواقعة من لدن قوله في سورة الأعراف: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾[7] وهو ابتداء القصة إلى قوله: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي[8] إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ بضع وأربعون

---

(1) سورة الأعراف: آية 13.
(2) سقط من ن 2.
(3) في ن 3: أنظر وهو خطأ.
(4) سورة الأعراف: الآيات 14-15.
(5) سورة الحجر: الآيات 36-38، وسورة ص: الآيات 79-81.
(6) في ن 3: الآيات.
(7) سورة الأعراف: آية 11.
(8) في ن 1، ن 2: فانظرني بالفاء، وهذا خطأ.

كلمة، والوارد في الحجر من لدن قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ﴾[1] إلى قوله: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي﴾[2] بضع وسبعون كلمة وفي سورة صّ من لدن قوله: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾[3] إلى الآية بضع وستون كلمة، فقد وضح ما قصد في الأعراف من إيجاز الاخبار في القصة وما في السورتين بعد من الأطناب، ثم إنه ورد في سورتي الحجر و صّ التأكيد بكل وأجمع في قوله: ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ ولم يرد ذلك في الأعراف، فقصد ما قلناه وتناسب الإطناب والتأكيد ولاءم ما ورد من الزيادة في السورتين الأخيرتين، ولم يكن ليناسب العكس، والله أعلم بما أراد.

فإن قلت ما وجه ورود القصة الواحدة موجزة مرة ومطولة أخرى؟ قلت: ليحصل من ذلك الاطلاع على علّي[4] البلاغة وجلالة النظم وعلى الفصاحة في طرفي الايجاز والإطناب، فإن الفصيح البليغ من البشر إن رام هذا لم يف في الطرفين بما يريده ووضح التفاوت في هذا بوجه.

فإن قلت فما وجه تقديم الموجز على المطول؟ قلت: شبه ذلك بالمجمل من الكلام والمفصل وإنما يرد التفصيل بعد الإجمال، فهذا الجواب منزل على الترتيب الثابت، والله سبحانه أعلم بما أراد.

الآية الثالثة: قوله تعالى مخبراً عن (قول)[5] إبليس: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَأَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ

---

(1) سورة الحجر: آية 26.
(2) سورة الحجر: آية 36.
(3) سورة ص: آية 71.
(4) بهامش ن 3، وهي في ن 1، ن 2: علم وهو خطأ.
(5) سقط من ن 3.

خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾[1]، وفي سورة الحجر: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلِصِينَ﴾[2].

إن سأل سائل عن وجه اختلاف الوارد في السورتين المحكي من قول إبليس مع اتحاد القصة[3] فجوابه: أن المعنى الحاصل من قوله في السورتين واحد لا إشكال فيه ثم اختلف التعبير عن ذلك بحسب ما تقدم في كل واحدة من السورتين وما استدعاه من المناسبة، ولما تقدم في الأعراف قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[4] والإشارة إلى القرآن لأنه يوضح الطريق إليه وهو الصراط المستقيم قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَٱتَّبِعُوهُ﴾[6]، والإشارة بهذا (إلى)[7] المنزل قرآناً لأنه مبين للصراط المستقيم الذي طمع اللعين في الاستيلاء عليه وقطع سالكه فقيل عبارة عن مرامه من ذلك: ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[8] إلى آخر المحكي من كلامه، ومراده: لأستولين لهم عليه، لا على ما فهمه بعض المتأخرين[9] حين رام الحاق مثل هذا من الظروف المختصة بالمبهمة منها وخالف الناس في ذلك، ولو كان الأمر

---

(1) سورة الأعراف: آية 16-17.
(2) سورة الحجر: آية 39-40.
(3) في ن 3: القضية.
(4) سورة الأعراف: آية 3.
(5) سورة الأنعام: آية 153.
(6) سقط من ن 3.
(7) سورة الأعراف: آية 16.
(8) ربما قصد بذلك القرطبي: جاء في أحكام القرآن 176/7، قوله: «وصراطك» منصوب على حذف على أو في من قوله: صراطك المستقيم.

على ما قال لكان وصول الفعل الذي هو لأقعدن[1] على تقدير حرف الوعاء الذي هو في وكان يفسد المعنى لأن مراد اللعين وطعمه إنما كان في الاستيلاء على الطريق بدليل حصره الجهات في قوله: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْـدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَـائِلِهِمْ﴾[2]، فهذا طلب أخذهم بكل الجهات وطمع في الاستيلاء[3] وأن يكون له سلطان ولهذا قال عز وجل له: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾[4] ولو كان على تقدير حرف الوعاء لناقض[5] هذا الغرض ولكان تقديره لأقعدن لهم في صراطك وهذا ضد ما يقتضيه تقدير على من الاستيلاء، وقد بسط هذا في موضعه، وأن الصواب ما عليه جماعة النحويين وما فهموا عليه كلام سيبويه رحمه الله من أن الطريق مختص لا مبهم وأن المعنى هنا في الآية على تقدير حرف الاستيلاء لا حرف الوعاء، ولما قد كان قد ورد في الحجر منعه ومنع جنوده عن تعرف خبر السماء واستراق السمع في قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ. وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ. إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾[6]، فلما صد من هذه الجهة عدل إلى الأخرى فقال: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[7] أي إن كنت ممنوعاً عن إغوائهم من حيث خبر السماء وإبداء المقدرات مما يوجهه الله إلى ملائكته مما يحدث في علم الأرض

---

(1) في ن 3: لا قعن، وهو خطأ واضح.
(2) سورة الأعراف: آية 17.
(3) في ن 1، ن 2: وطلب الإستيلاء، والصواب: وطمع في الإستيلاء.
(4) سورة الحجر: آية 42.
(5) في ن 3: تناقض.
(6) سورة الحجر: آية 16-18.
(7) سورة الحجر: آية 39.

وقد سبق في العلم القديم، فإن كنت قد منعتني عن إغوائهم من هذه الجهة رجعت إلى إغوائهم من جهة لم تمنعني عنها، لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا من عصمته مني ولم تجعل لي السبيل إليه وهم عبادك المخلصون، فلأجل اختلاف المتقدم في كل من السورتين ما اختلف المبني عليه من المحكي عن إبليس من طعمه وورد كل على ما يناسب، ولم يكن ليناسب تعقيب ما ورد في الأعراف بما أعقب المتقدم في الحجر وتعقيب ما ورد في الحجر بما أعقب المتقدم في سورة الأعراف، والله سبحانه أعلم بما أراد.

الآية الرابعة من سورة الأعراف قوله جل وتعالى ﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾[1]، وفي سورة الأنفال: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾[2]، فورد في الأولى: أن عذابهم بكسبهم وورد في الأنفال أن عذابهم بكفرهم، فللسائل أن يقول ما الفرق الموجب للاختلاف؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن المذكورين قبل آية الأعراف المقول لهم فذوقوا العذاب قد خالفت حالهم حال المذكورين في آية الأنفال وذلك أن آية الأنفال في قوم (بأعيانهم)[3] وهم كفار قريش من أهل مكة، وحالهم معلومة إنما كانوا عبدة أوثان، ولم تتكرر فيهم الرسل ولا كفروا بغير التكذيب به صلى الله عليه وسلم وبتصميمهم على عبادة

---

(1) سورة الأعراف: آية 39.

(2) سورة الأنفال: آية 35.

(3) بهامش ن 3.

آلهتهم. أما آية الأعراف ففي أخلاط من الأمم وأصناف من المكذبين تنوع كفرهم وتكذيبهم وارتكبوا ضروباً من المخالفات وافتروا على الله سبحانه، قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَى عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ. . . الآيات﴾[1]، وفيها: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا فِي أُمَمٍ (قَدْ خَلَتْ)[2] مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ فِي ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ٱدَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا﴾[3]، ثم قال: ﴿وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾[4]. فلشتى مجترحات هؤلاء واتساع مرتكباتهم وأنهم ضلوا وأضلوا ناسب ما وقع جزاؤهم عليه ذكر الاكتساب لا سيما على القول بأن الكفار مخاطبون بالفروع وهو قول حذاق الأصوليين وقول مالك رحمه الله[5]، ولما ٱنحصر مرتكب الآخرين (فيما ذكر)[6] وكان مدار أمرهم على الكفر بما جاء به نبينا صلى الله عليه وسلم ناسب ما وقع جزاؤهم عليه تخصيص اسم الكفر، فكل من الاطلاقين جار على ما يجب ويناسب، والله سبحانه أعلم.

الآية الخامسة قوله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى

---

(1) سورة يونس: آية 17 وما بعدها.

(2) بهامش ن 2.

(3) سورة الأعراف: آية 38.

(4) سورة الأعراف: آية 39.

(5) مالك (93هـ/ 712م ـ 179هـ/ 795م): هو الإمام مالك بن أنس أبو عبد الله إمام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأربعة وإليه تنسب المالكية صاحب الموطأ ومن كتبه الأخرى رسالة في الوعظ وكتاب في المسائل ورسالة في الرد على القدرية وكتاب في النجوم. (الاعلام 128/6؛ الوفيات 439/1؛ الديباج 17. . .).

(6) بهامش ن 2: فيما ذكروا وهذا غير مناسب.

ٱلظَّالِمِينَ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِٱلْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾[1]، وفي سورة هود: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّالِمِينَ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَها عِوَجاً وَهُمْ بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾[2]. (فزيد في)[3] هذه الآية ضمير الفصل ولم يزد في الأولى، فللتسائل أن يسأل عن وجه ذلك؟

وجوابه، والله أعلم: أن ابتداء الإخبار في الأعراف بحال هؤلاء الملعونين في الآيتين هو قوله في الأولى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّالِمِينَ﴾ وابتداء الاخبار عنهم في سورة هود قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّالِمِينَ﴾[4]، ففي هذه إطناب، وتأمل ورود الظاهر في موضع المضمر من قوله: ﴿عَلَى ٱلظَّالِمِينَ﴾ ولم يقل عليهم، فناسب زيادة ضمير الفصل، وفي آية الأعراف إيجاز ناسبه سقوطه. ولو لم يكن ما بين أَن وأَلَا فإن ذلك مراعى فيما قصدناه فأن أوجز من ألا، وأن هنا حرف عبارة وتفسير وهي كالواردة في قوله: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ﴾[5] وفي قوله: ﴿وَٱنْطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا﴾[6]، وتقع بعد ما يراد به القول وليس بلفظه وتفسر بأي وأما ألا فاستفتاح، وكل من الموضعين على ما يجب ويناسب، ولو فرض العكس لما ناسب، والله أعلم.

---

(1) سورة الأعراف: آية 44-45.
(2) سورة هود: آية 18-19.
(3) في ن 1، ن 2: وفي سورة هود مزيد في... وهذا لا يناسب السياق.
(4) سورة هود: آية 18.
(5) سورة الأعراف: آية 43.
(6) سورة ص: آية 6.

الآية السادسة قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ نُشْراً بَيْنَ[1] يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ ٱلْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ﴾[2]، وفي سورة الفرقان: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ ٱلرِّيَاحَ نُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً. لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَنُسْقِيهِ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً﴾[3] وقال في سورة الروم ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي ٱلسَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفاً فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[4]، و(قال)[5] في سورة الملائكة ﴿وَٱللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ ٱلرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾[6][7]. وقع في هذه الآي اختلاف مع تشابهها في اللفظ وتقارب مقاصدها فأول ذلك اختلاف مطالعها بورود يرسل وأرسل، الثاني وصف الرياح وإتباعها بقوله في الأعراف والفرقان: ﴿نُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ ولم يرد ذلك في سواهما، الثالث ما يكون عن إرسال الرياح ففي آية الأعراف: ﴿حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً﴾، وفي سورة الروم وسورة الملائكة: ﴿فَتُثِيرُ سَحَاباً﴾، ولم يذكر ذلك في الفرقان، وفي سورة الأعراف بعد ذكر إقلال الرياح السحاب ﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ﴾[8]،

(1) قرأ عاصم «بشراً» هنا والفرقان والنمل بالباء الموحدة وضمها وإسكان الشين، وقرأ ابن عامر بالنون وضمها والإسكان، وقرأ حمزة والكسائي وخلف بالنون وفتحها والإسكان والباقون بالنون وضم الشين (عن تقريب النشر لابن الجوزي 115).

(2) سورة الأعراف: آية 57.

(3) سورة الفرقان: آية 48-49.

(4) سورة الروم: آية 45.

(5) بهامش ن 2.

(6) سورة فاطر: آية 9.

(7) سقط من ن 1، ن 2.

وفي سورة الملائكة: ﴿فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ﴾ وفي سورة الروم بعد إثارة الريح السحاب: ﴿فَيَبْسُطُهُ فِي ٱلسَّمَاءِ﴾، ﴿وَيَجْعَلُهُ كِسْفاً﴾، وفي الأعراف: ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ ٱلْمَاءَ﴾، وفي الفرقان: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً﴾ وفي الروم: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾، ولم يرد في الملائكة ذكر لإنزال الماء ولا كيفيته، وفي الأعراف: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ﴾، وفي الفرقان: ﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً﴾، وفي الروم: ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾، وفي سورة الملائكة: ﴿كَذَلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ ولم يقع في الأخيرتين إحالة التشبيه، وفي الأعراف: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، ولم يقع في سورة الأعراف مثل هذا الترجي. فهذه جملة سؤالات.

والجواب عن (السؤال)[1] الأول: أن آية الأعراف لما تقدمها قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَى عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[2] فذكر سبحانه ما تقرر وتحصل من خلق السماوات والأرض مما لا تكرر فيه، وهما من أعظم آياته، وأعقب سبحانه بقوله: ﴿ثُم ٱسْتَوَى عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ محمولاً على ما تقرر بثم المقتضية التنبيه على جليل الحال فيما يعطف بها والتحريك للاعتبار بذلك وموقعه ورتبته حيث لا يراد مهلة الترتيب الزماني لأن موضوع ثم في اللسان قصد الترتيب الزماني مع المهملة حيث يراد ذلك، وقصد الترتيب الاعتنائي والتنبيه على حال ما عطف بها حيث لا يقصد زمان ولا يلحظ كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ

(1) بهامش ن 3.
(2) سورة الأعراف: آية 54.

قَدَّرَ﴾[1]، فهذا وارد مورد الدعاء على من يخاطب به البشر كما يرد التعجب والترجي وربنا المنزه عن ذلك كله ولكن خوطب البشر على ما يتعارفون ويجري بينهم، فلما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ فذكر ما هو تعالى عليه منزها[2] عن الآنية والتمكن المكاني والمناسبة والحلول جل وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، فلما ذكر تعالى من هذه الأفعال العظيمة ما ذكر مما لا يتكرر أعقب سبحانه بما يتكرر ويتوالى من إنعامه على الخليقة مما به قوام أحوالهم ومصالح عيشهم، فقال سبحانه: ﴿يُغْشِي ٱللَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾[3]، وأورد ما يتوالى بطول نواله العالم بمشيئته ويتجدد عليهم مما به قوام حالهم إلى انقضاء الأمد المحدود ومجيء اليوم الموعود، واتبع هذا التعريف بما يجاري الجمل الاعتراضية حال الكلام مما يلائم ويناسب ذلك تعريفه بقوله ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[4]، فأعلم باعتراضه لخلق ذلك كله وتصرف أمره في الجميع بما شاء، وأخبر بتعاليه وعظمته فقال: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ﴾[5]، وأمر عباده بالدعاء والتضرع إليه وحذرهم وذكرهم باستصحاب الخوف، وتلك حال الموقنين إذ لا يؤمن مكره ولا ييأس من روحه، ثم رجاهم بقرب رحمته ممن أحسن، ثم عاد الكلام إلى التذكير بجليل المتوالي من إنعامه وعظيم ألطافه فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ نُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾[6]، فانتظم آخر الكلام بأوله، وارتبط عوده ببدئه، وتناسب

---

(1) سورة المدثر: آية 18-20.

(2) في ن 3: متنزهاً.

(3) سورة الأعراف: آية 54.

(4) سورة الأعراف: آية 54.

(5) سورة الأعراف: آية 54.

(6) سورة الأعراف: آية 57.

أوضح تناسب بما يفهمه الفعل المضارع من التكرر من حيث لا يمنع ذلك، ولو ورد هنا بلفظ الماضي لما ناسب لما يقتضيه الانقطاع (إلا)[1] لحامل، والله أعلم. وعلى هذا النحو جرى الوارد في سورة الروم فإنه ورد قَبْلَ الآية قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾[2]، فذكر من آياته وإنعامه بإرسال الرّياح وإجراء الفلك ليبتغى فضله ويطلب الرزق منه حال الظعن والإقامة، ثم اعترض بقوله تأنيساً لرسوله ووعداً بنصره: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُوهُمْ بِٱلْبَيِّنَاتِ فَٱنْتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقاً عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[3] ثم عاد الكلام إلى إتمام ما تقدم مما يرسل سبحانه به ولا (جله)[4] الرياح فقال بصورة الاستئناف لأجل آية الاعتراض: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّـذِي يُرْسِـلُ ٱلرِّيَـاحَ﴾[6]، وأورد [5] من النعم بها ما ذكر قبل، وجاء بلفظ الاستقبال لأنه من تتميم ما تقدم وليناسبه، ولو جاء بلفظ الماضي لما ناسب، والله أعلم.

وأما آية (الفرقان فقد تقدمها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ لِبَاساً وَٱلنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُوراً﴾[7]، فورد قبلها ذكر هذه الدلالات وواضح هذه الشواهد،

---

(1) سقط من ن 2.
(2) سورة الروم: آية 46.
(3) سورة الروم: آية 47.
(4) بهامش ن 3.
(5) سورة الروم: آية 48.
(6)) في ن 3: أورده.
(7) سورة الفرقان: آية 45-47.

وقد تقيد[1] زمان خلقها وجعلها بالماضي في خمس كرات مع أنها مما يتكرر في الآيات ويتوالى، وكذا في مطلع السورة وما وقع بعده مما يعتبر به وليس بإخبار أخراوي فأتبع سبحانه ذلك بموافق مناسب فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي أَرْسَلَ ٱلرِّيَاحَ نُشْراً﴾[2]، ولم يكن ورود المستقبل هنا ليناسب، فجاء على ما يجب)[3].

وأما آية سورة الملائكة فمبنية على مطلع السورة وذلك قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ﴾[4] وفاطرو جاعل هنا بمعنى المضي ولا يمكن فيهما غير ذلك، ولم يقع بعد هذا ذكر مقصود به الاعتبار من مخلوقاته سبحانه مما نصبه دالاً (عليه إلا قوله)[5]: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي أَرْسَلَ ٱلرِّيَاحَ﴾، فجاء ذلك مناسباً لقوله: فَاطِرِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَجَاعِلِ ٱلمَلَائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ﴾ لموافقة الفعل الماضي اسم الفاعل معنى ومناسبته ولا يناسبه المستقبل، وَأَمَّا ما وقع بين الآية وبين ما بنيت عليه مما ذكرنا فليس من قبيل المذكور فيه ما نصبه سبحانه دليلاً للاعتبار[6] لذوي[7] الافتكار كخلق السماوات والأرض وإرسال الرياح، فهذه المذكورات الثلاث هي المقصودة هنا للاعتبار. أما قوله: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ

---

(1) في ن 1، ن 2: تقدم، والصواب: تقيد.

(2) سورة الفرقان: آية 48.

(3) ما بين القوسين بهامش ن 2.

(4) سورة فاطر: آية 1.

(5) في ن 1، ن 2: قوله ولا قوله. وهذا خطأ.

(6) في ن 1، ن 2: على الاعتبار.

(7) في ن 3: الذي، والصواب: لذوي.

مَا يَشَاءُ﴾[1] إلى ما بعده إلى آية إرسال الرياح مع جليل إلتحامه بما اتصل به فليس من قبيل ما ذكرناه ولا يمنع من حمل الآية المتكلم فيها على نحو ما ذكر وحملها عليه، ولا يناسب المستقبل هنا ما تقدمه مما بينا حمله عليه، وأنه لا يصح حمله على غير ما ذكر، والله أعلم بما أراد.

والجواب عن السؤال الثاني: إن آية الأعراف قد تقدمها قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[3]، ثم قال: ﴿ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾[4]، وقال: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾[5]، ثم قال: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[6]. وفي هذا كله استلطاف وتعطف ترج، ومن نحو هذا الاستلطاف ومجاريه في قوة الترجي قوله سبحانه في سورة الفرقان: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً... الآية﴾[7]، ثم قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاساً وَٱلنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُوراً﴾، فهذا (أعظم)[8] استلطاف، فناسب[9] الوارد في السورتين من هذا قوله تعالى عقب إرسال الرياح (قوله)[10] ﴿نُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾[11] ولما لم يرد في

---

(1) سورة فاطر: آية 1.
(2) بهامش ن 3.
(3) سورة الأعراف: آية 54.
(4) سورة الأعراف: آية 55.
(5) سورة الأعراف: آية 56.
(6) سورة الأعراف: آية 56.
(7) سورة الفرقان: آية 45.
(8) سقط من ن 3.
(9) في ن 2: يناسب، والصواب: فناسب.
(10) سقط من ن 1، ن 2.
(11) سورة الفرقان: آية 48.

سورة الروم ولا في سورة الملائكة مثل هذا الاستلطاف ولا بعضه لم يتبع ذكر إرسال الرياح بما اتبع في آيتي الأعراف والفرقان إذ لم يكن ذلك ليناسب، فجاء كل على ما يجب، والله أعلم.

والجواب عن السؤال الثالث: ان آية الأعراف لما قيل فيها: «فأخرجنا له من كل الثمرات»[1] فعم بكل وهي من نصوص ألفاظ العموم، ناسب ذلك ورود ما يفهم كثرة ماء السحاب إذ لا يحصل منه إخراج ما يقدر إخراجه من كل الثمرات الا بكثرته، فذكر استقلال السحاب الكثير وهو الذي يعطيه قوله: «ثقالا»، وانما تثقل بكثرة مائها وذلك يثقلها، ولا يكون استقلالها بما يثقلها من الماء الا بعد إشارتها، فكأن قد قيل: أثارت الرياح السحاب فأثقلتها بالماء الكثير، فناسب هذا كله، ولم يكن مجرد ذكر إثارة السحاب ليعطي كثرة مائها وتكثير الثمر المخرج به مع أن الإثارة مفهومة، فحصل في هذا النظم العلي الإيجاز والوفاء بالتوسعة والتعميم المقصود، ولما لم يقع في الآي ٱلْأُخَرِ توسعة في المخرج بالماء وقع الاكتفاء بذكر إثارة السحاب، وحصل إرسالها الماء مما بعد.

فإن قلت: فقد ورد في سورة الملائكة: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[2] وذلك تعميم ومع ذلك فقد وقع الاكتفاء فيها بقوله: ﴿فَتُثِيرُ سَحَاباً﴾؟ قلت لفظ الأرض لا يعم في كل موضع إذ ليس من ألفاظ العموم بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[3] وهو (لم)[4]

---

(1) سورة الأعراف: آية 57.

(2) سورة فاطر: آية 9.

(3) سورة القصص: آية 4.

(4) سقط من ن 3.

يستـول الا على بعضهـا، وبـدليـل قـولـه تعـالى: ﴿أَوْ يُنْفَـوْا مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾[1]، وبالجملة فليست الألف واللام هنا للعموم ولا هي حيث تفهم العموم بمنزلة كل وطراً وأجمعين ولا نزاع في هذا فالاكتفاء في سورة الملائكة بذكر الإثارة فقط بين.

وأما سورة الروم فليس فيها عموم بل فيها خصوص حاصل من التقييد بقوله: ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾[2]، والاكتفاء فيها بذكر إثارة الريـاح السحاب أبين شيء، فجـاء كل على مـا يناسب ولا يمكن خلافه.

ولم يرد في سورة الفرقان ذكر إثارة الرياح السحاب اكتفاء ببشارة قوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾[3] لأنه قصد هنا ذكر الإنعام ولم ينط بذلك ما يقصد به امتداد الاعتبار، ألا ترى قوله قبل الآية ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ لِبَاساً وَٱلنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُوراً﴾[4] فقصد ذكر الإنعام ثم الاعتبار جار مع ذلك ثان عن المقصود من ذكـر الإنعام فلم يـذكر الا بادىء الإنعام، فجاء كل على ما يناسب، ولا يمكن خلافه، والله سبحانه أعلم.

والجواب عن السؤال الرابع: وهو الفرق بين ما في الأعـراف وسورة[5] الملائكة من سوق الرياح السحاب إلى البلد الميت وما في

---

(1) سورة المائدة: آية 33.

(2) سورة الروم: آية 43.

(3) سورة الفرقان: آية 43.

(4) سورة الفرقان: آية 47.

(5) في ن 3: وبين سورة الملائكة.

سورة الروم من قوله: ﴿فَيَبْسُطُهُ فِي ٱلسَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفاً﴾[1] بزيادة ذكر سوقه إلى بلد ميت في آيتي الأعراف والملائكة وسقوط ذلك في سورة الروم مع زيادة بيان حال السحاب وانتشارها في السماء وتقطعها لانبعاث المطر فيقول السائل: إن كان الكلام مقصوداً به قصد الإطالة فلم لم يرد فيها الوارد في الأخريين من قوله ﴿فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾؟ وإن كان قد قصد به الإيجاز فلم ورد هذا الإطناب هنا بما بسط من حال السحاب؟

والجواب عن ذلك: ان الآيات الثلاث محرزة أجل إيجاز وأبلغه، وان آية الروم لم يسقط منها شيء من التعريف بسوق السحاب إلى البلد الميت وإنما الحاصل على ما زيد فيها من بيان حال السحاب ما قصد من تحريك المعتبر وتنبيهه على ما فيه أعظم دلالة وأوضح برهان، ألا ترى تقديم قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبْشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾[2] وجليل موقع هذه ٱلإستعارة وقوله: ﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِ﴾[3]، ثم أشير إلى تسخير الفلك بقوله: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾[4]، فقد ورد هنا تعداد نعم جليلة، فلما عاد الكلام إلى إرسال الرياح وذكر إثارتها السحاب اتبع ذلك بما يناسب فقال تعالى: ﴿يَبْسُطُهُ فِي ٱلسَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾[5]، والإشارة إلى ما تؤمه السحب ببسطه سبحانه إياها فتواري من أقطار الأرض وجهاتها ما يشاء سبحانه إحياءه وسقيه، ويجعلها

---

(1) سورة الروم: آية 48.
(2) سورة الروم: آية 46.
(3) سورة الروم: آية 46.
(4) سورة الروم: آية 46.
(5) سورة الروم: آية 48.

سبحانه كسفاً أي قطعاً متخلخلة لنفوذ ما تحملت من الماء فينبعث الماء من تلك المسام كانبعاث العرق من مسام الأجساد: ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾[1] وبحسب ما حملها سبحانه أو ثقلها من الماء يكون المرسل عنها في الكثرة وما دونها: ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[2]، فلما انبنت هذه الآية على ما قصد من زيادة التنبيه وتوفيه الاعتبار خصت بما لم يقع في آيتي الأعراف والملائكة، وإنما لم يذكر هنا سوقها للبلد الميت لحصول ذلك من قوله بعد: ﴿فَٱنْظُرْ إِلَى أَثَرِ[3] رَحْمَةِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[4] فلو قيل أولاً: ﴿فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ لكان تكراراً، فإذا تأملت ما ذكرناه وعظيم الحاصل عنه وضح لك ما انطوت عليه هذه الآي من عظيم التنبيه مع جليل الإيجاز بحسب ما قصد، وعلي البلاغة، وموجب المزيد في آية الروم، وما يستدعيه المكتنفان لهما من قوله قبلها: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ﴾[5] وقوله بعدها: ﴿فَٱنْظُرْ إِلَى أَثَرِ رَحْمَةِ ٱللَّهِ... الآية﴾[6]، وتحريك المعتبر ولم ذكر ذلك في الأخريين[7]، (ويتبين)[8] لك انه لم ينقص منها شيء، وان كلاً منها وارد على ما يجب. ولم يكن ليناسب خلافه، والله أعلم.

---

(1) سورة الروم: آية 48.
(2) سورة الروم: آية 48.
(3) قرأ المدنيان والبصريان وابن كثير وأبو بكر: اثر بقصر الهمزة من غير ألف بعد الثاء والباقون بمدها والألف (عن تقريب النشر، لابن الجزري 159).
(4) سورة الروم: آية 50.
(5) سورة الروم: آية 46.
(6) سورة الروم: آية 50.
(7) في ن 1، ن 2: الأخرتين، والصواب: الآخريين.
(8) سقط من ن 3.

والجواب عن السؤال الخامس: أن قوله في الأعراف: ﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ وفي سورة الملائكة: ﴿فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ لفارق بين الموضعين هو أن قوله تعالى في الأعراف: ﴿حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً﴾[1] كلام يستدعي جواباً، ألا ترى أنه في قوة قول القائل: فلما استقلت السحاب بما فيها من الماء، ومثل هذا في استدعاء الجوابية لا توقف فيه وليس مما يجاوب بالفاء وإنما جواب (ذلك)[2] مثل هذا مجرداً فيه الفعل عن الفاء وغيرها قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾[3]، فالجواب هنا قوله: ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾[4]، ومنه آية الأعراف المذكورة لا مدخل فيها للفاء، لا التي تقع جواباً ولا العاطفة إذ ليس قوله تعالى: ﴿فَسُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ﴾ معطوفاً على ما قبله، أما قوله تعالى في سورة الملائكة ﴿اللَّهُ الَّذي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[5] فكلام معطوف بعضه على بعض بالفاء المقتضية الترتيب والتعقيب ليطابق اللفظ ما تحته من المعنى، فلزمت الفاء هنا لاحتراز معناها، وقد تقرر انها لا مدخل لها في آية الأعراف، فورد كل على ما يجب، ولما استدعى لفظ: سقناه المكان المسوق إليه، وإنما يصل إليه بلام الجر أو بإلى، عدي في الإعراب بلام الجر فقيل: «لبلد» ليناسب المجرور فعله الذي

---

(1) سورة الأعراف: آية 57.
(2) سقط من ن 1، ن 2.
(3) سورة يونس: آية 22.
(4) سورة البقرة: آية 89.
(5) سورة فاطر: آية 9.

استدعاه في الوجازة، ولما طال الفعل في الآية الأخرى بما لزمه من حرف التعقيب ناسبه تعديته بإلى إسهاباً مقابل إسهاب وإيجازاً مقابل إيجاز. وأما آية الروم ففيها زيادة التعريف بكيفية انفصال الماء من السحاب، وانه يخرج من خلاله مقسطاً على الأرض مجزءاً ليستوي[1] السقي ويتناسب كسريان الغذاء في الأبدان بعد تهيئته، ولو صب من جانب دون ما أشار إليه التخلل لأضر ولم تحصل به المنفعة، وهو زيادة في الإعتبار وإطلاق على عظيم الحكمة، وكل هذه الآي متلائمة متعاضدة لا تعارض فيها ولا إشكال، وقد تضمن هذا الجواب أجوبة عن مواضع من هذه الآي، وقوله[2] في الأعراف ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ﴾[3] مناسب لقوله: ﴿حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً﴾ لما تقدم ما يشير إلى كثرة مائها نَاسَبَهُ التعريف بكثرة ما يخرج سبحانه به من مختلف الثمرات، ولما قصد في آية الفرقان سقي الحيوان العاقل وغير العاقل ناسبه ما تقدم من وصف الماء بالطهورية والطيب، وقد حصل إخراج الثمرات بقوله لنحيي به بلدة ميتاً[4]، وأما قوله في سورة الروم[5]: ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[6] فجار مع قوله قبل الآية: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾[7]، لما ذكر سبحانه إرسالها مبشرات اتبع ذلك بذكر ما به البشارة وهو الودق

---

(1) في ن 3: لتستوفي.
(2) إلى هذا الحد ينتهي البيان، أي النقص الوراد في ن 4.
(3) سورة الأعراف: آية 57.
(4) سورة الفرقان: آية 49.
(5) في ن 3: وأما قوله، وأما في قوله في سورة الروم وهذا خطأ.
(6) سورة الروم: آية 48.
(7) سورة الروم: آية 46.

المرسل من السحاب المشار بها والإخبار بمن المبشر بها وهو من يشاء تخصيصه من عباده بتلك الرحمة فأوضح آخر الآية المجمل قبلها، وحصلت ما قصد بها على أكمل تناسب. وأما قوله في سورة الملائكة: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فمبني على قوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾[1]، والمراد بهذا العودة الأخراوية فأرى سبحانه مثالاً يوضحها لمن تدبر وعقل فقال تعالى: ﴿سُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[2]، ثم قال ﴿كَذَلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾[3]، والآي قبلها لم يتقدمها مثل ما تقدم هذه من تحريك الخلق وتخويفهم بالوعد الأخراوي، فلم تعقب بمثل ما أعقبت به هذه من تحرير التشبيه وان كان في أكثرها التشبيه على إحياء الموتى ولكنه ليس كالواقع هنا.

والجواب عن قوله في سورة الأعراف: ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَى﴾[4] أنه مقابل بقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ﴾[5] ولم يرد هكذا في سائر الآيات أعني التعبير بلفظ الإخراج لما ينبت المطر وما يَخْلُق سبحانه في الأرض، ولما ورد في سورة الملائكة قوله سبحانه: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾. قوبل تشبيهاً بقوله: ﴿كَذَلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾، ولم يكن ليتحرر المراد لو قيل: كذلك الإحياء، ولو قيل: كذلك إحياء الموتى لاجتمع فيه الطول مع مخالفة الفواصل فيما قبل الآية وما بعدها،

---

(1) سورة فاطر: آية 5.
(2) سورة فاطر: آية 9.
(3) سورة فاطر: آية 9.
(4) سورة الأعراف: آية 57.
(5) سورة الأعراف: آية 57.

ألا ترى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[1]، قوله بعد الآية: ﴿وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾[2] وما تخلل الآيتين وما ورد بعدها، ثم إن النشور هو إخراج الموتى وإحياؤهم مع أنه أوجز وأطبق للفواصل، فجاء كل على ما يناسب. وأما سائر الآي فلم تبن على قصد التشبيه ولا جرى فيها ذلك، فوقع الاكتفاء فيها بمجرد الإيماء والإحالة على غير طريقة التشبيه.

والجواب عن تعقيب آية الأعراف بترجي التذكير من قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[3] مناسب لقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ﴾[4] لأن الماء المنزل من السماء واحد لا يختلف، وان اختلفت أحواله في الكثرة والقلة وطول زمن الإنزال وقصره فالمذاق والطعم والصفة لا تختلف، والمخرج به بإذن الله من ضروب الثمرات مختلف في الطعم واللون والرائحة إلى غير ذلك من صفاته، قال تعالى: ﴿تُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾[5]، ففي هذا أعظم عبرة لمن استبصر، وأدل دليل على القدرة التي تجل عن الحد والغاية، وأعظم شاهد على إحياء الموتى، فلهذا أعقبت برجاء التذكير فقيل: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

الآية السابعة قوله جل وتعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ

---

(1) سورة فاطر: آية 5.
(2) سورة فاطر: آية 10.
(3) سورة الأعراف: آية 57.
(4) سورة الأعراف: آية 57.
(5) سورة الرعد: آية 4.

عَظِيمٍ﴾[1]، وفي سورة هود: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾[2]، وفي سورة المؤمنين: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرِهِ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[3].

في هـذه الآي ست سؤالات: السؤال الأول قوله في سورة الأعراف: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ غير منسوق بواو العطف وفي السورتين الأخريين: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ بواو العطف، والثاني اختلاف مقاله، عليه السلام، لهم، والثالث وجه اختصاص الواقع في كل سورة من الثلاث من مقاله بتلك السور[4]، والرابع وجه اختلاف ما خوفهم به وأنذرهم إثر أمرهم بالعبادة في كل واحدة، والخامس وجه ندائه لهم في السورتين وسقوط ذلك في سورة هود، والسادس وجه افتتاح أمرهم بالعبادة في السورتين وقوله في سورة هود قبل أمره إياهم: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾، فهذه ست سؤالات.

الجواب عن الأول: إن آية الأعراف لم يتقدمها[5] ذكر إرسال ولا أمر بدعاء الخلق ولا جملة يناسبها عطف إرسال الرسل إلى الأمم ودعاء (الخلق)[6] إلى الإيمان، إنما تقدم قبلها ذكر أصحاب الأعراف ثم

---

(1) سورة الأعراف: آية 59.
(2) سورة هود: آية 25.
(3) سورة المؤمنين: آية 23.
(4) في ن 2: من مقالة تلك السورة، وهذا خطأ.
(5) في ن 3: لم يتعلق بها، والصواب لم يتقدمها، ويؤكد ذلك ما جاء بعد: .. وإنما تقدمها...
(6) سقط من ن 3.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[1] إلى قوله: ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾[2]، ثم ابتدأت قصص الرسل مع أممهم فقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ﴾[3] وتتابع قصصهم. أما آية هود فقد تقدم قبلها ذكر رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وبذلك افتتحت السورة قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا ٱللَّهَ﴾[4]، ثم استمر ذكر دعائهم وتحذيرِهِمْ من التولي وما يعقبه إن وقع منهم، ثم ذكر تحديه، عليه السلام، إياهم بالقرآن وطلبهم بمعارضته والإتيان بعشر سور مثله في البلاغة وعلي النظم وان كان ما يأتون به مفترىً ليكون أسهل عليهم، ولم يعدل بالآي عن هذا الغرض وما يرجع إليه إلى ذكر إرسال نوح، عليه السلام، فوردت الآي بذلك منسوقة على ما تقدمها بواو العطف على أتم مناسبة. وأما آية سورة المؤمنين فقد ورد قبلها ما يناسب عطفها عليه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً..﴾ الآيات[5] وبعدها: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ...﴾ الآيات[6]، فذكرهم بإيجادهم وانتقالهم متقلبين في أطوار مكتنفين بتوالي إنعامه منسوقاً بعض ذلك على بعض مفتتحة المطالع بما يتأتى[7] به القسم من قوله تعالى تحكيماً وإظهاراً للظاهر من اكتناف

---

(1) سورة الأعراف: آية 54.

(2) سورة الأعراف: آية 58.

(3) سورة الأعراف: آية 59.

(4) سورة هود: آية 1.

(5) سورة المؤمنين: آية 12-14.

(6) سورة المؤمنين: آية 17 وما بعدها.

(7) في ن 3: يتلقى، والصواب يتأتى.

إنعامه وإحسانه، ثم عطف على ذلك ما أنعم به من إرسال الرسل فذكر أولهم إرسالاً إلى الخلق ليناسب ما بدأوا به من النعم الأولية، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ﴾، وكل ما ذكر في هذه الآي نِعَمٌ متناسبة وآلاء متوالية، ولهذا لم يذكر في هذه الآية ذكر عـذاب الا بالإيمـاء الوجيز، وخصت بقوله عقب الأمر بالعبادة: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[1]، فذكرهم بالتقوى المجردة لنجاتهم وتخلصهم من العذاب، ولم يكن ليلائم ذكر العذاب والإفصاح به ما تقدم من التذكير بإحسانه سبحانه وإنعامه من أول السورة إلى هنا.

والجواب عن السؤال الثاني: إن دعاء الرسل أممهم مما يتكرر ويتوالى في أوقات مختلفة ومحال متباينة، فمرة يرغّبون ومرة يُخوّفون وينذرون، وذلك بسبب حال حال ولكل مقام مقال. فاختلاف المحكي من مقالهم إنما هو بحسب اختلاف الأوقات، وما يناسب كل وقت وقت وما يجري فيه ويشاهد من أقوال المدعوين وأحوالهم، وكل المحكي من معنى مقالاتهم لا إشكال فيه، ألا ترى أن نبيّنا صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين كان يدعو قبائل العرب إذا وفدوا[2] على مكة ويقف على كل قبيلة قبيلة فيكلمهم ويسمعهم القرآن ويدعوهم إلى الله بما يناسب أحوالهم ومقالهم، ألا ترى قوله، عليه السلام، لقبيلة كانت تعرف ببني عبد الله «يا بني عبد الله ان الله قد حسن آسم أبيكم»[3]، فكان

(1) سورة المؤمنين: آية 23.

(2) في ن 2، ن 4: وقفوا، والصواب: وفدوا.

(3) لعله يشير إلى ما ورد في الصحاح من أن أفضل الأسماء عبد الله وعبد الرحمان.

أنظر: صحيح البخاري، أدب 108.

يفتتح دعاء كل طائفة بمثل هذا، فلكل مقام مقال، فلا سؤال في المحكي من قول نوح، عليه السلام، لقومه واختلاف ذلك، وإنما السؤال في اختصاص كل سورة بالوارد فيها من حكاية كلامه، عليه السلام، إذ لا يذكر في كل سورة الا ما يناسب وهو السؤال الثالث.

والجواب عنه: انه لما تقدم ذكر اليوم الآخر في غير ما آية من أول هذه السورة إلى ابتداء قصة نوح، وقد تضمن ما ذكر من ذلك من أهوال ذلك اليوم ما يعظم أمره كقوله: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ. . .﴾ الآية[1]، وقوله ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ فِي ٱلنَّارِ﴾[2] إلى قوله ﴿فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾[3]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَاءِ. . .﴾ الآية[4]، قوله: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ. . .﴾ الآية[5]، وقوله: ﴿إِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ ٱلنَّارِ﴾[6] إلى قوله: ﴿وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾[7]، وقوله: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ ٱلنَّارِ. .﴾ الآية[8]، وقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾[9]، فلما تقدم من أهوال هذا اليوم ما لم يتقدم في السورتين الأخريين ناسبه من مقالات نوح لقومه: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ

---

(1) سورة الأعراف: آية 8.
(2) سورة الأعراف: آية 38.
(3) سورة الأعراف: آية 39.
(4) سورة الأعراف: آية 40.
(5) سورة الأعراف: آية 44.
(6) سورة الأعراف: آية 47.
(7) سورة الأعراف: آية 49.
(8) سورة الأعراف: آية 50.
(9) سورة الأعراف: آية 53.

عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[1]، وناسب قوله: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ﴾[2] قول الممتحنين: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾[3]. وأما افتتاح الآية بأمرهم بالعبادة فبين، وأما آية هود فافتتاح دعاء نوح قومه فيها بقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[4] يناسبه قول نبينا صلى الله عليه وسلم للعرب في إخبار الله تعالى عنه: ﴿إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ بَشِيرٌ﴾[5]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾[6]، وأما قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾[7] فمناسب لقوله تعالى على لسان نبينا، عليه السلام، لقومه ممن خاطبه وشافهه: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾[8]، وقوله: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ﴾[9] وقوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾[10] فتكرر ذكر العذاب يناسبه ما ختمت به آية دعاء نوح، عليه السلام، من قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾[11]، وأما آية المؤمنين فالجواب عنها ما تقدم منجراً[12] في

---

(1) سورة الأعراف: آية 59.
(2) سورة الأعراف: آية 59.
(3) سورة الأعراف: آية 53.
(4) سورة هود: آية 25.
(5) سورة هود: آية 2، في ن 4: اني وهذا خطأ.
(6) سورة هود: آية 12.
(7) سورة هود: آية 26.
(8) سورة هود: آية 3.
(9) سورة هود: آية 8.
(10) سورة هود: آية 17.
(11) سورة هود: آية 26.
(12) في ن 3: منجزاً.

الجواب عن السؤال الأول [1]، وتحصل من أنه حكي من مقالاته، عليه السلام، في كل سورة من هذه الثلاث ما يجري مع ما اتصل بـه ويناسبه حسبما تبين، ولم يكن ليناسب ورود ما في سورة منها ما ورد من ذلك في الأخرى، والله أعلم بما أراد.

والجواب عن السؤال الرابع: قد آنجرّ فيما تقدم، وعن الخامس أن نداءهم في السورتين لا كلام فيه لجريانه على ما ينبغي، فإنما يسأل عن سقوط ذلك في سورة هود؟ ووجهه أن ذلك جار مع ما افتتحت به السورة من قوله على لسان نبينا عليه السلام ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا ٱللَّهَ﴾، فدعاهم إلى عبادة الله وأن يفردوه بها، ولم ينادهم لأن ذلك لم يكن ليلائم مطلع السورة إذ لم يجر ذكره، عليه السلام، منطوقاً به فينزل[2] عليه نداؤهم بل قيل له: ﴿آلر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[3] ثم اتبع هذا بأمرهم مبتدئاً بحرف العبارة والتفسير وهو أن الحرف الواقع بعد ما ينبىء ويحصل منه معنى القول وليس بصريح قول ولا مرادف الا أنه يفهمه كقوله تعالى: ﴿وَٱنْطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا﴾[4]، فأن الواقعة حرف عبارة وتفسير[5] المقدرة بأي إنما تأتي بعد ما يفهم القول، فكما يقع بعدها ما يدل على تقدير القول وليس بقول كذلك يقع بعد ما لا يلتئم معه ذكر القول ويكون مع ذلك مغنياً عنه، ومنه مطلع هذه السورة بعد التنبيه بالحروف المقطعة فقيل: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ

---

(1) سورة ص: آية 40.
(2) في ن 3: فيتنزل.
(3) سورة هود: آية 1.
(4) سورة ص: آية 6.
(5) في ن 1، ن 2، ن 4: وتصديق.

آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾[1]، كما قيل في آية صّ: ﴿أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا﴾[2]، فليس موضع صريح القول الذي (يقصد)[3] به الحكاية، ورد دون صريح قول، ثم وردت قصة نوح، عليه السلام، على هذا المنهج للمناسبة، ثم جيء بقصة هود وصالح بعد هذا مفتتحين بالقول على ما يجب، والله أعلم.

والجواب عن السؤال السادس: ان افتتاح أمرهم بعبادة الله في سورتي الأعراف والمؤمنين لا سؤال فيه لأنه أول ما يطلب به الخلق وإنما يسأل عن افتتاح مكالمتهم في سورة هود بقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[4]؟ ووجه ذلك مطابقته لما افتتحت به السورة من قول محمد صلى الله عليه وسلم بأمر ربه مخاطباً بكلامه تعالى: ﴿إِنَّنِي[5] لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾[6].

الآية الثامنة قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[7]، وقال في سورة هود: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾[8]، وقال في سورة

(1) سورة هود: آية 1.
(2) سورة ص: آية 6.
(3) بهامش ن 2.
(4) سورة هود: آية 25.
(5) في ن 4: إني، والصواب: انني.
(6) سورة هود: آية 2.
(7) سورة الأعراف: آية 60.
(8) سورة هود: آية 27-28.

المؤمنين: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾[1].

قلت هذه أجوبة في مقامات شتى وأحوال مختلفة فلا سؤال في اختلافها، وإنما السؤال عن وجه الواقع في كل سورة إذ لا يكون الا لمناسبة ــ وقد تقدم بيان هذا في الآية قبلها ــ فيسأل عن ذلك؟ وعن ثبوت الفاء في قوله: «فقال» في سورة هود وسورة المؤمنين وسقوطها في سورة الأعراف؟ وعن وصف الملإ بالكفر في السورتين وسقوط هذا الوصف من آية الأعراف؟ فهذه ثلاثة أسؤلة.

والجواب عن الأول، والله أعلم: إن تقول: أن تخصيص الواقع من الملا من قوم نوح، عليه السلام، جواباً له عند دعائهم في سورة الأعراف إلى عبادة الله مناسب لما تقدم فيها من قول مكذبي الرسل حين تتوفاهم الملائكة قال تعالى ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا[2] ضَلُّوا (عَنَّا)﴾[3]، وقول أخراهم لأولاهم عند دخولهم النار وتداركهم فيها جميعاً ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا﴾[4]، فصار هذا مألوفاً من كلامهم وجواباً متكرراً منهم، ثم قد جرى على هذا إخبار الله سبحانه عنهم عند تمنيهم الشفعاء أو الرد إلى الدنيا ليعملوا غير عملهم قال الله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ

---

(1) سورة المؤمنين: آية 24.

(2) في ن 3: قال وهذا خطأ.

(3) سقط من ن 3، والآية من سورة الأعراف: آية 37.

(4) سورة الأعراف: آية 38.

عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[1]، ولم يتقدم في السورتين بعد مثل هـذا، فناسب هذا ما تقدم.

وأما في سورة هود من قول الملا المذكورين من قوم نوح فقد تقدم في صدر السورة قوله تعالى مخبراً عن كفار قريش وغيرهم من معاندي رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾[2]، فأعلم سبحانه بطغيانهم وتمردهم في كفرهم، فناسب هذا قول المتمردين[3] من قوم نوح: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾[4].

وأما الوارد في سورة المؤمنين فإنه قد تقدم فيها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾[5]، فذكر سبحانه تطور الإنسان في تقلبات وأحوال تشهد بحاله الحضيضيّة ومهانته الأولية، إلى أن تلحقه العناية الربانية والاختصاص الاصطفائي فيعز بإعزاز موجده ويختص باختصاص التقريب والتشريف، فتتفاوت أقدار الخلق عند ذلك، فمنهم اللاحق بأشرف المقامات وأسنى الحالات ومنهم الباقي في حضيضيته من غير ترق لما فوقها من الانتقالات، ولما لم يتلمح الملأ من قوم نوح جليل مزية التشريف، وما منحه هذا النبي الكريم من علي قدره المنيف، وظنوا التساوي على مقتضى الحالة

---

(1) سورة الأعراف: آية 53.
(2) سورة هود: آية 5.
(3) في ن 3: المتردين، والصواب: المتمردين.
(4) سورة هود: آية 27.
(5) سورة المؤمنين: آية 12.

الأولية، قالوا يخاطبون أتباعهم وجواباً لنبيهم، عليه السلام: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾... الآية[1]. وتأمّل مقال الملإ هنا ومناسبته لما قدم من خلق الإنسان تجده أنسب شيء، ولم يكن مقالهم في كل موضع من هذه ليناسب غير ما وقع فيه، والله أعلم.

والجواب عن السؤال الثاني: أن الواقع في سورة هود من قوله تعالى مخبراً عن جواب قوم نوح: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا﴾[2] إلى آخر كلامهم كلام لا يستقل مبتدأ به بل يستدعي ما ينبى عليه، إذ لا يفتتح[3] أحد أحداً مبتدئاً بمثل هذا وإنما يتكلم بهذا جواباً. ولما قال لهم نوح، عليه السلام: ﴿يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ﴾[4] إلى ما عرفهم به مما حصل منه الإعلام بمقامه النبوي جاوبوه بعداً عن تعرف صدقه ومعرفة حقه بقولهم: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا﴾[5]، أي لو كنت كما تزعم لكنت من جنس الملائكة ولم تكن من جنس البشر، وقد أفصحوا بهذا في سورة المؤمنين، وتكرر هذا المرتكب من غيرهم في غير ما آية، فلبناء هذا الكلام على ما قبله وتمحض الجوابية فيه ورد بالفاء المقتضية السببية والمبينة للجوابية، ومثل هذا من غير فرق هو الوارد من جوابهم في سورة المؤمنين من قولهم: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾[6]، ثم قالوا: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ

---

(1) سورة المؤمنين: آية 24.
(2) سورة هود: آية 27.
(3) في ن 3: يفاتح.
(4) سورة هود: آية 51.
(5) سورة هود: آية 27.
(6) سورة المؤمنين: آية 24.

مَلاَئِكَةً﴾[1]، وهذا هو الذي أشرنا إليه من مقالهم في هاتين السورتين بالفاء لربط الجوابية ووضوح السببية، وأما قوله في سورة الأعراف ﴿قَالَ ٱلْمَلأَ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾[2] فإن هذا وإن تضمن الجوابية فإنه كلام يستأنف ويبتدأ بمثله ولا يفتقر إلى ما يبنى عليه، فناسب ذلك وروده بغير الفاء، وحصلت الجوابية من حيث المعنى مع رعي ما يناسب في النظم. ونظير هذا في وروده بغير الفاء لما ذكر قوله تعالى في قصة هود، عليه السلام: ﴿قَالَ ٱلْمَلأَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَاذِبِينَ﴾[3]، فتأمل جوابهم هنا لما كان الوارد في قصة نوح، عليه السلام، في أنه يبتدأ بمثله ولا يفتقر إلى ما يبنى عليه كيف ورد بغير الفاء فهذا يزيدك وضوحاً فيما قدمناه، والله سبحانه أعلم.

والجواب عن السؤال الثالث: ويتنزل على تمهيد هو أن الله تعالى أمر رسله، عليهم السلام، بالرفق في دعاء الخلق وحضهم على التلطف بهم والصبر على آذائهم فقال: ﴿ٱدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾[5]، وقال: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾[6]، وقال

---

(1) سورة المؤمنين: آية 24.
(2) سورة الأعراف: آية 60.
(3) سورة الأعراف: آية 66.
(4) سورة النحل: آية 125.
(5) سورة المزمل: آية 10.
(6) سورة الغاشية: آية 23.

تعالى: ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ ٱلْبَلاَغُ﴾[1]، وقال: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [2]، وهذا كثير، وقال تعالى لموسى وهارون: ﴿ٱذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [3]، وعلى هذا جرى دعاء الرسل أممهم في إخبار الله تعالى عنهم، وتأمل ما تحمل من التلطف والرفق بالعباد قول الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [4] إلى قوله: ﴿وَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[5]، وعلى هذا المنهج جرى ما ورد في الكتاب العزيز من دعاء الرسل أممهم: ﴿يَا قَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾... الآيات[6] إلى قوله: ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجاً﴾[8]، ثم اختلف جواب الأمم، فمن مسرع في الإجابة بهداية الله تعالى، ومن مبطىء، ومن مصمم على ضلاله، ﴿وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَى﴾[9]، ثم لكل نبي مقامات ومقالات بحسب اختلاف الموطن والمجتمعات، ولكل مقام مقال يناسبه، فجرى اختلاف ما ورد جواباً بنسبة ما وقع الجواب عليه، مع إحراز الأنبياء، عليهم السلام، ما أمروا به من الصبر والتلطف في أكثر أحوالهم متوقفين

---

(1) سورة الأحزاب: آية 48.
(2) سورة الشورى: آية 48.
(3) سورة آل عمران: آية 159.
(4) سورة طه: آية 43.
(5) سورة البقرة: آية 21.
(6) سورة البقرة: آية 22.
(7) سورة نوح: آية 10 وما بعدها.
(8) سورة نوح: آية 20.
(9) سورة الأنعام: آية 35.

فيما وراء هذا على ما يرد منه تعالى كما قيل لنوح، عليه السلام: ﴿إِنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾[1]، فقطع، عليه السلام، رجاءه منهم، وفهم من ربه تعالى جواز دعائه عليهم، واستشعر انتقامه منهم فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾[2]، وذلك بعد مبالغتهم في البعد عن الاستجابة وقولهم: ﴿قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فأتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ﴾[3]، قال تعالى فيمن سلك مسلكهم في التكذيب: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا ٱنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾[4]، وقال تعالى ﴿حَتَّى إِذَا ٱسْتَيْأَسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾... الآية[5].

فأقول بناء على ما تمهد أن قوم نوح لما ذكر تعالى عنهم في سورتي هود والمؤمنين إساءة في جوابهم لنبيهم وإطالة في المرتكب حين قالوا في سورة هود: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾[6]، فجمعوا في هذه الإطالة توهمهم مساواته، عليه السلام، فيما رآه البادي من البشرية والصورة الإنسانية، إلى استرذال أتباعه كما قالوا في الموضع الآخر: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾[7]، وإلى

---

(1) سورة هود: آية 36.
(2) سورة نوح: آية 26.
(3) سورة هود: آية 32.
(4) سورة الزخرف: آية 55.
(5) سورة يوسف: آية 110.
(6) سورة هود: آية 27-28.
(7) سورة الشعراء: آية 111.

التعامي عن فضله، عليه السلام، عليهم وظنهم كذبه، وقد نزهه [1] الله من ذلك كله، فإذا تأملت مجموع هذا استطلعت منه مكنون كفرهم، ومثل هذا من غير فرق قولهم[2] في آية سورة المؤمنين: ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[3] إلى قولهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾[4]، فلإساءتهم فيما ذكر من الوارد عنهم في الموضعين وصفوا بالكفر، فقال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾[5] فوصفهم بالكفر في السورتين. وأما آية الأعراف فقولهم فيها: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[6] ليس (كجوابهم في السورتين الأخريين، لا من جهة الطول ولا من جهة المعنى، لأن لفظ الضلال ليس)[7] بنص في الضلال عن الدين. لأنه يقال ضل بمعنى تحيز وجار عن دين أو طريق، ويتسع في إطلاق لفظ الضلال على غير ما ذكرنا، وقد قال بعض المفسرين هنا في تفسير الضلال: إنه الذهاب عن طريق الصواب والحق[8]، وبالجملة فإنهم لم يريدوا هنا الضلال الذي هو الكفر، وإن كان قد يقع إذا تقدمته قرينة على أعظم من الكفر، وأما هنا فليس كذلك، فلما لم يكن في الوارد في سورة الأعراف من الإطالة في العبارة والإبلاغ فيما قصدوه من المعنى مثل ما في السورتين ناسبه الإيجاز، وإن لم يوصفوا هنا بالكفر

---

(1) في ن 3: وقد نزه، والصواب: نزهه.
(2) في ن 3: وقولهم بزيادة واو النسق.
(3) سورة المؤمنين: آية 24.
(4) سورة المؤمنين: آية 25.
(5) سورة المؤمنين: آية 24.
(6) سورة الأعراف: آية 60.
(7) بهامش ن 1.
(8) يعني به الزمخشري. أنظر الكشاف 113/2.

فقال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ﴾[1]. ومما يشهد لهذا أن قوم هود، عليه السلام، لما بلغوا في إساءة جوابهم لنبيهم في قولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾[2] وأرادوا في قلة علم وخفة حلم، قاله الغزنوي[3]، وقال غيره[4]: في خفة حلم وسخافة عقل، فلما أساؤوا في مقالهم هذا عبر عنهم[5] بقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾[6]، فوصفوا بالكفر مناسبة لقولهم. ولما لم يقع في جواب قوم صالح مواجهة نبيهم بمثل هذا بل عدلوا إلى مخاطبة ضعفائهم بقولهم لمن آمن منهم ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ﴾[7]، فلما لم يواجهوا نبيهم بما واجه قوم هود عبر عن هؤلاء بقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾[8].

فإن قيل قد وصفوا بما يفهم كفرهم وهو الاستكبار، قلت قوبل بهذا وصف مخاطبيهم بالاستضعاف وليس كالإفصاح بالكفر، فوضح ما بسطناه أولاً، وجرى كل من ذلك على ما يناسب، والله أعلم بما أراد.

---

(1) سورة الأعراف: آية 60.
(2) سورة الأعراف: آية 66.
(3) في كل النسخ: الغزنوي، يريد القرطبي.
راجع: أحكام القرآن 236/7 و 205/1-206.
(4) يعني الزمخشري. أنظر الكشاف 116/2.
(5) في ن 3: عنه.
(6) سورة الأعراف: آية 66.
(7) سورة الأعراف: آية 75.
(8) سورة الأعراف: آية 75.

الآية التاسعة من سورة الأعراف قوله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]، وفي قصة هود: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[2]، فيهما سؤالان، قوله: ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾، وفي الأخرى: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾، والثاني أن كل واحد من هذين النبيين الكريمين يعلم من الله سبحانه ما لا يعلمه قومه، فهل في قصة نوح ما يحمله[3] على قوله لقومه: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ما ليس في قصة هود؟

والجواب عنهما معاً: أن قوم نوح، عليه السلام، لما رموه بالضلال وأكدوا ذلك وزعموا استحكامه بالوصف في قولهم له[4]، عليه السلام: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾، فزعموا أن ضلاله غير خاف وهو الذهاب عن طريق الصواب، ولا يكون (إلا)[6] عن عدم العلم بما فيه رشاد الضال واستقامة حاله، نفى، عليه السلام، كل ذلك عن نفسه بقوله: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ﴾[7]، ثم أتبع بأوصاف علية تناقض قولهم وتدفعه، وتشهد للمتصف بها ببراءته من ذلك، وترد ذلك الوصف عليهم، وأنهم الأهلون لما رموه به فقال: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾[8]، ولا يرسل رب العالمين المالك للكل العليم بهم إلا من

---

(1) سورة الأعراف: آية 62.
(2) سورة الأعراف: آية 68.
(3) في ن 3: ما يحمل.
(4) في ن 1، ن 2: في قوله، وهذا خطأ وسقطت له من ن 4.
(5) سورة الأعراف: آية 60.
(6) سقط من ن 1، ن 2.
(7) سورة الأعراف: آية 61.
(8) سورة الأعراف: آية 67.

جعله في أعلى درجات المهتدين العالمين بنصاب الرسالة وما يلزم متحملها، ثم بين لهم نصحه واستمراره في إبلاغهم ونصحهم فقال: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾[1]، ثم أتبع بتعريفهم بجهلهم بما عنده من ربه وبعلمه هو بذلك فقال: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[2] وإنما قال: «وَأَنْصَحُ»، «وَأَعْلَمُ» ليعلم بتماديه على النصح لهم وهم لا يشعرون ولا يهتدون، وبإمداده بزيادة علومه بالوحي وهم عن ذلك في أشنع ضلال وأبعده، فجمع، عليه السلام، فيما خاطبهم به رد مقالهم ورميهم بأكثر مما رموه به. ورد ذلك عليهم بألطف رد وأبينه لمن وفق، ونزه، عليه السلام، عبارته المخلصة لذلك على أتم الوجوه عن شنيع عبارتهم وقبح مواجهتهم[3]. وأما جواب هود، عليه السلام، فإن قومه لما قالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾[4]، فرموه بخفة الحلم وقلة الثبات وكثرة الطيش، نفى، عليه السلام، ذلك عن نفسه فقال: ﴿لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾[5]، فرد قولهم، ثم عرفهم برسالته، وقدم ما ينبغي للرسول أن يكون عليه، ثم أتبع بجليل أداء أمانة الرسالة من التبليغ والتمادي عليه فقال: «أُبَلِّغُكُمْ»، فجاء بالفعل المشعر بالتكرر والاستمرار قياماً بإبلاغ رسالته وحفظاً لأمانتها، ثم قال: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[6]، فعرفهم بصفتين جليلتين قد اكتنفته العصمة فيهما، ومن كانت صفتاه اللازمتان له النصح والأمانة فقد تنزه قدره عن الطيش وعدم

---

(1) سورة الأعراف: آية 62.
(2) سورة الأعراف: آية 62.
(3) في ن 3: مراجعتهم.
(4) سورة الأعراف: آية 66.
(5) سورة الأعراف: آية 67.
(6) سورة الأعراف: آية 68.

الحلم: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾[1]، وإنما أتى في إخبارهم بنصحه وأمانته بالاسم فقال: ﴿نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ وَكَمْ يقل: أنصح ـ فيأتي بالفعل ـ ليحصل منه أن ذلك الوصف الجليل لازم له غير مفارق، ولم يكن الفعل ليعطي ذلك فجاء بالاسم وجعله الخبر عن ضميره الذي هو: «أنا» فهذا مقصود ثابت الوصف ولزومه مثل الوارد في قوله تعالى مخبراً عن المنافقين: ﴿وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾[2]، فأخبر عن قولهم للمؤمنين: «آمنَّا» بالفعل الماضي وليس من وضعه إعطاء الدوام في الأكثر، إذ قد يقول فعلت من أوقع الفعل مرة واحدة، وأخبر تعالى عن قولهم لإخوانهم وشياطينهم بقولهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ فجاؤوا بالاسم إعلاماً بصفتهم التي هم عليها مستمرون، فكذا هذا الإخبار الواقع هنا في هذا المقصود من التمادي والاستمرار حين قال هود، عليه السلام: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[3]، فجاء الاسم فانتفى ما رموه به من السفاه جملة. وقابل، عليه السلام، مقالهم الشنيع بخبره الصادق عن نفسه فرد مقالهم. ولم يكن الفعل يحرز هذا القصد كما أحرز قول نوح، عليه السلام: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[4] الإخبار عن نفي ما رموه به جملة، فجاء كل على ما يجب، والله أعلم.

---

(1) سورة البقرة: آية 13-15.
(2) سورة البقرة: آية 14-15.
(3) سورة الأعراف: آية 68.
(4) سورة الأعراف: آية 62.

ومما يسأل عنه في هاتين الآيتين أن نوحاً وهوداً، عليهما السلام، إنما دعوا إلى العبادة قوماً كفاراً، وقد ورد في قصة نوح، عليه السلام: ﴿قَالَ ٱلْمَلأَ مِنْ قَوْمِهِ﴾ وفي قصة هود، عليه السلام: ﴿قَالَ ٱلْمَلأَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ فوسموا بالكفر بخلاف قوم نوح؟ ووجه ذلك ـ والله أعلم ـ الاكتفاء بما وقع في دعاء نوح، عليه السلام، من قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[1]، وخوفه من تعذيبهم إنما كان لكفرهم، ولم يقع ذلك في دعاء هود لأن قوله: ﴿أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ ليس فيما يعطيه من التخويف في قوة: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ إذ قد يؤمر بالتقوى المؤمن، ويقال للعاصي بصغيرة أفلا تتقي. فلما كان في دعاء نوح ما يشير إلى الكفر ويدل عليه اقتضى الإيجاز الاكتفاء بذلك، ويشهد لهذا أن قصة صالح وقصة شعيب الوارد فيهما الدعاء إلى الإيمان على هذا المنهج لما لم يقع في دعاء هذين النبيين، عليهما السلام، ما وقع في دعاء نوح، عليه السلام، مما ينبىء بالكفر ورد في حكاية مقالة قومهما ما يحصل منه ذلك المقصود وذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلأَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾[2]، وذلك جار من الواقع في قصة هود من غير فرق لأن استكبارهم عن إجابته والإيمان به كفر، والله أعلم بما أراد.

الآية العاشرة قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ فِي ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ﴾[3]، وفي سورة يونس:

---

(1) سورة الأعراف: آية 59.
(2) سورة الأعراف: آية 75 «من قومه» ساقطة في ن 1، ن 2.
(3) سورة الأعراف: آية 64.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَـاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَـاهُمْ خَلاَئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَٱنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُنْذَرِينَ﴾[1]، ففيهما أربع سؤالات يذكر كل سؤال منها متصلاً به جوابه.

الأول قوله: «فَأَنْجَيْنَاهُ»، وفي الثانية: «فَنَجَّيْنَاهُ»، فاختلف نقل الفعل بالهمزة في الأولى وفي الثانية بالتضعيف. وفي الأولى: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ وفي الثانية: ﴿وَمَنْ مَعَهُ﴾ فاختلف الموصول أيضاً.

والجواب عن هذين السؤالين، والله أعلم: أنّا قد وضّحنا في كتاب البرهان[2] أن ترتيب السور أصل مراعى وترتيب الآي في هذا الحكم أولى وأبين، وإذا تقرر هذا فاعلم أيضاً أن لفظ الذي وما تصرف منه للمثنى والمجموع أصل في الموصولات إذ لا يخرج لفظ الذي عن الموصولية، أما مَنْ فإنها تخرج إلى الاستفهام والشرط وغيرهما، والأصل في النقل أيضاً يكون بالهمزة، وأما النقل بالتضعيف والباء وغيرهما فثان عن الأصل، ومن يقول بالقياس في النقل على اختلاف مذاهبهم من أن المقيس فيه النقل من الفعل إنما هو غير المتعدي أو المتعدي (إلى واحد مع غير المتعدي)[3] إلى اثنين مع الضربين قبله وهو قول الأخفش[4]، فكل هؤلاء إنما المقيس عندهم مما ينقل بالهمزة ويجعلون النقل بالتضعيف وغيره موقوفاً على السمع.

---

(1) سورة يونس: آية 73.

(2) كتاب البرهان في تناسب سور القرآن، ذكر فيه أبو جعفر مناسبة كل سورة لما قبلها. أنظر ما جاء في دراسة مؤلفاته، ص 93 من المقدمة.

(3) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.

(4) الأخفش (ت 177هـ/ 793م): عبد الحميد بن عبد المجيد، مولى قيس بن ثعلبة أبو الخطاب من أئمة العربية.
أنظر: الاعلام 59/4؛ بغية الوعاة 296؛ إنباه الرواة 157/2.

فإذا قرر ما ذكرناه فنقول إن سورة الأعراف ورد فيها قوله: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ﴾[1]، كل منهما على الأصل في نقل الفعل وفي الموصول فقيل «فَأَنْجَيْنَاهُ»، وقيل: «وَالَّذِينَ مَعَهُ»، وورد ذلك في سورة يونس على ما هو ثان عن الأصل في النقل وفي الموصول رعياً للترتيب، ولا يمكن العكس على هذا.

ثم انجر مع ذلك رعي تناسب التقارن لما ورد في الأولى، فأنجيناه بزيادة همزة النقل المثبت لها صورة[2] الألف في الخط ونطق يخصها بحركة الهمزة، فطالت الكلمة بالألف خطاً وبالنطق بحركة الهمزة لفظاً ناسبها الموصول الذي هو: الذين بزيادة حروفه على حروف مَنْ. ولما قيل في الثانية: فنجيناه، فجيء بما هو أخصر في الخط، ناسبه من الموصولات مَنْ المفرد في معنى الذي، وهو أخصر.

السؤال الثالث: زيادة ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ﴾ في سورة يونس، وذلك مثال تفصيلي في طائفة معينة من المجمل الوارد في أول السورة من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِٱلْبَيِّنَاتِ﴾[3]، إلى قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ (مِنْ بَعْدِهِمْ)[4] لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْلَمُونَ﴾[5] وقوم نوح، عليه السلام، أول أمة أهلكت بتكذيبها، ثم خلفها غيرها فذكر من المتقدم مجملاً أول واقع منه، وأنهم جعلوا خلائف كما جرى فيمن بعدهم.

---

(1) سورة الأعراف: آية 64.
(2) في ن 3: سورة، والصواب صورة بالصاد.
(3) سورة يونس: آية 13.
(4) سقط من ن 4، وبهامش ن 1، ن 2.
(5) سورة يونس: آية 14.

والسؤال الرابع: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ﴾[1]، وذلك مقابل به قولهم لنوح، عليه السلام: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[2]، فقيل لهم بل أنتم قوم عمون فأنى لكم بالتفريق بين الهدى والضلالة.

وأما قوله في الأعراف: ﴿فَٱنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُنْذَرِينَ﴾[2] فليجري مع آية الأعراف فيما ورد فيها (من)[4] التعريف بإنذارهم في قوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ﴾[5]، فوقع هنا التعريف بإنذارهم، ثم ورد في يونس بقوله: ﴿فَٱنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُنْذَرِينَ﴾[6] فحصل التعريف في الآيتين بإنذارهم وعاقبة من أنذر فلم يرجع عن غيه.

الآية الحادية عشرة من سورة الأعراف قوله تعالى في قصة صالح: ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[7]، وفي سورة هود: ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾[8]، وفي سورة الشعراء: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ

---

(1) سورة الأعراف: آية 64.
(2) سورة الأعراف: آية 60.
(3) سورة يونس: آية 73.
(4) سقط من ن 3.
(5) سورة الأعراف: آية 63.
(6) سورة يونس: آية 73.
(7) سورة الأعراف: آية 73.
(8) سورة هود: آية 64.

عَظِيمٍ﴾[1]، فاختلف الوصف المختوم به في الآي الثلاث، فقد يسأل عن ذلك؟

والجواب: مثل هذا ليس بخلاف ولا مشكل لأن وصف العذاب بالإيلام لا ينافي وصفه بالقرب، وإنما وصف في سورة هود بالقرب ليجري مع قوله بعد: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [2]، فجرى في الوصف رعي هذا، ولا ينافي [3] (ذلك) [4] الإيلام. وأما الوصف في سورة الشعراء بعظيم فمن صفة اليوم لما فيه من الأهوال لا من صفة العذاب، فلا إشكال في شيء من هذا.

الآية الثانية عشرة قوله تعالى في قصة صالح: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾[5]، وكذا في قصة شعيب فيما بعد، وفي سورة هود في القصة المذكورة قبل: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾[6]، وقال في قصة شعيب في سورة هود أيضاً: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ[7] جَاثِمِينَ﴾[8]، فورد في هذه الآية الأخيرة تسمية عذابهم بالصيحة وجمع اسم الدار وفي الآيات قبل «بالرجفة» وإفراد الدار. فأقول إن وجه اختصاص كل سورة بما خصت به أن اسم الدار لفظ يقع على المنزل الواحد والمسكن

---

(1) سورة الشعراء: آية 155-156.

(2) سورة هود: آية 65.

(3) في ن 4: ينافر.

(4) في ن 3: هذا.

(5) سورة الأعراف: آية 78.

(6) سورة هود: آية 65.

(7) في ن 3: دراهم، والصواب: ديارهم.

(8) سورة هود: آية 67.

المفرد ويقع على مساكن القبيلة والطائفة الكبيرة وإن اتسعت وافترقت وتعددت مساكنها وديارها إذا ضمها إقليم واحد واجتمعت في حكم أو مذهب، وإذا تقرر هذا فوجه اختيار لفظ الجمع في الآية من سورة هود مناسبة ما اقترن به من لفظ الصيحة، وهي عبارة هنا عن العذاب مطلقاً دون تقييد بصفة، وهو من الألفاظ الكلية، فإن لم يكن عاماً فانتشار مواقعه من حيث الكلية حاصلة.

وأما الرجفة الزلزلة[1]، فلهذا اللفظ خصوص وهو جزئي[2]، ومن المعلوم بالضرورة انحصار الألفاظ في الضربين فإن اللغة لا تختلف في ذلك، فالصيحة من حيث الكلية تطلق على ما كان من العذاب بالرجفة وغيرها، وإذا عبرنا بالرجفة لم يتناول لفظها إلا ما كان عذاباً بها، فناسب عموم الصيحة جمع الديار مناسبة تركيب النظم، وناسب خصوص الرجفة إفراد الدار.

ثم إن وجه تخصيص سورة هود بما وقع فيها أنه ذكر قبلها من مرتكبات قوم شعيب وسوء ردهم على نبيهم، عليه السلام، ما لم يرد مثله في آية سورة الأعراف، وتأمل قولهم له: ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾[3]، فتأمل ما في ردهم هذا من الاستهزاء والإساءة وشنيع المقابلة لجليل وعظه، عليه السلام، لهم ورأفته في دعائه إياهم بقوله: ﴿إِنِّي أَرَاكُمْ

(1) في ن 4: فالزلزلة بالفاء.
(2) في ن 1، ن 2: جرى وهذا خطأ.
(3) سورة هود: آية 91.

بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾[1]، وقوله: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾[2]، وقوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَاحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾[3]، وقوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾[4]، وقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾[5]. فما أجل تلطف هذا النبي الكريم في دعائه إياهم وما أشنع ردهم عليه، فلهذا ما عبر عن عذابهم وأخذهم هنا بأعم مما ورد في غير هذه الآية، ولما لم يرد في غيرها مثل هذا في الدعاء والجواب ناسبه اللفظ الأخص رعياً لإحراز النظم الجليل وعليّ تناسبه مع أن لا كبير اختلاف في المعنى الحاصل عن العبارتين، والله أعلم.

وجواب ثان في اختلاف الوارد فيما أخذ به قوم شعيب وهو أن يكون المراد أخذهم بضروب من العذاب لقبيح مرتكبهم وسوء ردهم على نبيهم، فبين ذلك قوله تعالى في سورة الشعراء ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾[6] والظلة غيم تحته سموم، فهذا (ولا بد غير)[7] الرجفة لأنها زلزلة، فعلى هذا يكونون قد أخذوا بعذاب الزلزال وعذاب

---

(1) سورة هود: آية 84.
(2) سورة هود: آية 86.
(3) سورة هود: آية 88.
(4) سورة هود: آية 89.
(5) سورة هود: آية 90.
(6) سورة الشعراء: آية 189.
(7) سقط من ن 4.

الصيحة، وهو عذاب يصحبه[1] صوت، وعذاب الظلة، فورد ذلك على التدريج والتناسب بحسب ما ذكر قبل كل عذاب من هذا من مرتكباتهم. وقد ذكر المفسرون تنوع عذابهم بالرجفة والصيحة والظلة كما امتحن آل[2] فرعون بالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمسة.

الآية الثالثة عشرة من سورة الأعراف قوله تعالى في قصة صالح: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لاَ تُحِبُّونَ ٱلنَّاصِحِينَ﴾[3]، وقال في قصة شعيب، عليه السلام: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَانُوا هُمُ ٱلْخَاسِرِينَ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾[4]، للسائل أن يسأل ويقول: إذا كان كل من الرسل، عليهم السلام، قد أبلغ قومه ما أرسل به، وكلهم في أداء تلك الأمانة وحفظها على نهج سواء من غير تفاضل في هذا ــ أعني الأمانة والإبلاغ والعصمة في ذلك ــ وإنما التفاضل بأشياء غير ما ذكر، فإذا تساووا فيما ذكر، وكلهم أمر بإفراد الله سبحانه بالعبادة، واتقاء عذابه بالتزام الطاعات وامتثال الأوامر والنواهي، وكلهم أمر ونهى وأوضح لقومه طريق النجاة وحذرهم من المهالك، ووصف كل واحد منهم برسول، ووصف ما جاء به بالرسالة، فالإفراد محصل للمقصود، فما وجه الجمع في قوله في قصة شعيب، عليه السلام: ﴿أَبْلَغْتُكُمْ[5]

---

(1) في ن 1، ن 2: بصيحة، والصواب: يصحبه.
(2) في ن 3: إلى وهذا خطأ بين.
(3) سورة الأعراف: آية 79.
(4) سورة الأعراف: آية 93.
(5) في كل النسخ: أبلغكم، والصواب أبلغتكم ــ الوارد في الآية 93 من سورة الأعراف.

رِسَالاَتِ رَبِّي﴾[1]؟ و (لِمَ)[2] لَمْ يرد على الإفراد كما ورد في قصة صالح؟

والجواب: إن العرب تراعي في أجوبتها ما نيتها[3] عليه من سؤال أو غيره، إن إطالة فإطالة أو إيجاز فإيجاز، وربما أتت باللفظ موجزاً وتحته معان كثيرة وبالجملة[4] فأجوبتهم مراعى فيها المعنى، ملحوظ فيما وردت جواباً له. ولما ورد في دعاء شعيب، عليه السلام، تفصيل في الأمر والنهي والتحذير، ألا ترى قوله بعد أمرهم بتوحيد الله ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تُفْسِدُوا[5] فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾[6]، ثم قال: ﴿وَلاَ تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾[7]، وذكرهم بتكثيرهم بعد القلة فقال: ﴿وَٱذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ﴾[8]، وإن يتذكروا حال من تقدمهم ممن كذب فقال: ﴿وَٱنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[9] وورد عقب هذا من قول قومه له في قوله تعالى: حاكياً عنهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾[10]، وقولهم: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً

---

(1) سورة الأعراف: آية 93.
(2) في ن 1، ن 2: لو، والصواب: لم.
(3) في ن 4: ما نبهنا، والصواب: ما نيتها.
(4) في ن 1، ن 2، ن 4: وأيضاً.
(5) في ن 3: ولا في تفسدوا، وهذا خطأ.
(6) سورة الأعراف: آية 85.
(7) سورة الأعراف: آية 86.
(8) سورة الأعراف: آية 86.
(9) سورة الأعراف: آية 86، وفي ن 1، ن 2، ن 4: عاقبة المجرمين، وهذا خطأ.
(10) سورة الأعراف: آية 88.

لَخَاسِرُونَ﴾ (1)، وقد انطوى هذا الكلام من التعريف بقبيح ردهم وشنيع مرتكبهم في مجاوبتهم على أعظم اجترام، فحصل في هذا من خطابه إياهم وما ردوا به وجاوبوه (2)، عليه السلام، إطناب في العبارة وإمعان فيما تحتها من المعاني في كلا الضربين، فناسب ذلك الجمع في قوله: ﴿أبلّغكم رِسَالاَتِ رَبّي﴾ (3). أما قصة صالح، عليه السلام، فلم يقع فيها بعد أمرهم بالعبادة غير تعريفهم بأمر الناقة وأمرهم برعيها وتذكيرهم بقوم هود في قوله: ﴿وَٱذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾... الآية (4)، ولم تنفصل (5) مكالمته إياهم كتفصيل ما تقدم. وأما المحكي عنهم من جوابهم فقوله تعالى مخبراً عنهم من قول كافريهم لمن آمن منهم: ﴿إِنَّا بِٱلَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (6)، وقولهم: ﴿يَا صَالِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾(7)، فليس هذا مثل المتقدم من جواب قوم شعيب له في المحكي من العبارة ولا فيما تحته من المعنى، فناسبه الإفراد الوارد في قوله: ﴿أَبْلَغْتُكُمْ (8) رِسَالَةَ رَبّي﴾(9).

فإن قلت فقد ورد ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاَتِ رَبّي﴾(10) بالجمع في قصة

---

(1) سورة الأعراف: آية 90.
(2) في ن 3: جابوه، والصواب جاوبوه.
(3) سورة الأعراف: آية 62.
(4) سورة الأعراف: آية 74.
(5) في ن 3: تتصل، والصواب تنفصل.
(6) سورة الأعراف: آية 76.
(7) سورة الأعراف: آية 77.
(8) في كل النسخ: أبلغكم، والصواب أبلغتكم.
(9) سورة الأعراف: آية 79.
(10) سورة الأعراف: آية 62.

نوح وقصة هود، عليهما السلام، ولم يتقدم في القصتين إطناب ولا إطالة تقتضي ذلك فإن الوارد في قصة نوح من قول قومه له قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[1] وهذا ليس كجواب قوم شعيب، عليه السلام، في إطالته. وإذا لم يكن في ذلك طول فما وجه الجمع في قوله: ﴿رِسَالَاتِ رَبِّي﴾؟ ولِمَ لَمْ يفرد كما في قصة صالح إذ هي شبيهتها في الإيجاز؟ فالجواب أن لفظ الضلال وإن (كان)[2] هنا لا يرادف الكفر حسبما تقدم وما يأتي فإنه يقتضي بحسب كليته وانتشار مواقعه مقتضيات عدة، وأنهم لم يريدوا تخصيصة بقوله (بعينه)[3] من قوله، عليه السلام، بل أرادوا أقوالاً كثيرة مما أمرهم به ونهاهم عنه ومما حذرهم وأنذرهم من عذاب الآخرة حين قال لهم: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[4]، فلانسحاب اسم الضلال[5] على مسميات شتى كان في وزان ما طال من الكلام، فأشبه الواقع في قصة شعيب، عليه الصلاة والسلام، قال الزمخشري: الضلال الذهاب عن طريق الصواب والحق[6] فكأنهم قد فصحوا بأن قالوا لا نعتمد قولك في شيء ولا نعول عليه لأنك ذاهب فيه عن طريق الصواب والحق، ويشهد لإرادتهم هذا التفصيل قول نوح، عليه السلام، في رد مقالهم: ﴿لَيْسَ بِي

---

(1) سورة الأعراف: آية 60.
(2) سقط من ن 3.
(3) بهامش ن 2.
(4) سورة الأعراف: آية 59.
(5) في ن 2: الضلالة.
(6) الكشاف 113/3.

ضَلَالَةٌ﴾ [1] ولم يقل ليس (بي) [2] ضلال فينفي عين ما قالوه بل عدل إلى ما يدفع قليل ذلك وكثيره في كل قضية قضية، وإذا نفى وجود الضلال في كل واحدة من تلك القضايا بعد انتفاء الضلال عن كلها وبرئت ذمته الرفيعة عن الاتصاف بشيء مما رموه به، ومثله الزمخشري بجواب من قيل له: ألك ثمر فقال ولا ثمرة واحدة [3]، وهو تنظير حسن، فقد حصل من هذا إطناب وتفصيل في المعنى، ولطول المجاورة بينه وبين قومه ما قالوه له في آخر مقالهم ﴿قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾[4] فلهذا قال: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ [5] فجمع، فكأنه، عليه السلام، يقول: كل قضية أبلغتكم إياها فربي أرسلني بها، وكل منها رسالة أرسلت بها إليكم محفوظاً في ذلك بعصمة الله إياي، منزهاً عما توهمتم من الضلال، ثم أتبع بقوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[6]، يريد مما منعكم من تصديقي فيه ما رميتموني به من الضلال، فرد، عليه السلام، قولهم بألطف رد وأرفقه بقوله: ﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[7]، وفي طي هذا الكلام ما يفهم توبيخهم ويشير إلى تعاميهم وجهلهم، فهو يرمي[8] ما تمهد موضع جمع رسالة لما تحصل مما يفهمه النظم الجليل من التفصيل الذي به يتم المعنى المقصود،

---

(1) سورة الأعراف: آية 61.

(2) بهامش ن 2.

(3) الكشاف 114/2.

(4) سورة هود: آية 32.

(5) سورة الأعراف: آية 62.

(6) سورة الأعراف: آية 62.

(7) سورة الأعراف: آية 62.

(8) في ن 4: مرعي، والصواب على ما يبدو هو: على.

فكلامه، عليه السلام، مع ما بني عليه من التفصيل الذي تضمنه جوابهم فليس كالوارد في قصة صالح، عليه السلام، لأن قول صالح، عليه السلام، في قضية[1] خاصة، والله أعلم. ألا ترى (قول)[2] ملإ قومه من كفارهم لمن آمن منهم: أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه فقصروا سؤالهم وخصوه بصحة الرسالة ثم قالوا للملإ من المؤمنين: ﴿إِنَّا بِٱلَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾[3]، ثم بنوا على هذا سائر ما كان منهم من الكفر والعتو وعقر الناقة، وإنما سألوا أولاً ودار أمرهم على صحة إرساله، عليه السلام، فطابق ذلك الإفراد في قوله: ﴿أَبْلَغْتُكُمْ[4] رِسَالَةَ رَبِّي﴾ [5]، وأما قول قوم هود في جوابهم لنبيهم: ﴿إِنَّا لَنَراكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾[6]، والسفاهة الطيش وقلة الحلم، فحال من اتصف بذلك كحال من اتصف بالضلال، فلا يثبت على قول ولا يعتمد عليه، فهذه كقضية قوم نوح، فالجواب عنها كما تقدم في تلك، وكل وارد على ما يجب ويناسب، والله سبحانه أعلم بما أراد.

فصل: قد تقدم لنا في هذه الآية وفيما قبلها أن الضلال يقع على ما دون الكفر، فيكون مع شناعته فيما يقتضيه بوصفه وإن لم يرد به الكفر دون الإفصاح بلفظ الكفر إذ يصح أن يطلق على متصف بالإيمان بريء من الكفر، وقد قال تعالى مخبراً عن إخوة يوسف في قولهم لأبيهم، عليه

---

(1) في ن 3: قصته.
(2) بهامش ن 2.
(3) سورة الأعراف: آية 76.
(4) في ن 4: أبلغكم، والصواب أبلغتكم.
(5) سورة الأعراف: آية 79.
(6) سورة الأعراف: آية 66.

السلام: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾[1]، وإنما أرادوا ما يرجع إلى خاطره، عليه السلام، برجائه يوسف وما يرجع إلى هذا، وقد تكرر نحوه في القرآن. فاعلم أن الرسل، عليهم السلام، لم يجر أمرهم في دعائهم أممهم إلى الإيمان أولاً كما جرى آخراً، وبنسبة ذلك جرى جواب أممهم في مراجعتهم في الأكثر، فإن الرسل، عليهم الصلاة والسلام، ابتدأوا دعاءهم الأمم بالتلطف والرفق والصبر وبذلك أمروا، قال تعالى لموسى، عليه السلام، في إرساله إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً﴾[2] وهذا واضح، والغالب في مجاوبة أممهم إنما جرى نسبة من هذا، ألا ترى قول قوم نوح، عليه السلام، في أول دعائه إياهم: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾[3]، وظاهر هذا أنهم (إنما)[4] أنفوا من الانقياد إلى أمره[5] وقد سبقهم في ذلك ضعفاؤهم ومن لم يروه بحسب التوهم الخيالي الضعيف أهلاً أن يقتدي به، وهذا كما قال غيرهم في إخبار الله تعالى عنهم ﴿أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَا﴾[6]، وقول الآخرين: ﴿لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾[7]، وهذا كله ليس إفصاحاً بالتكذيب وإن أرادوه، وكذا قول قوم نوح، عليه السلام: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِّثْلَنَا﴾[8] إلى ما اتبعوا من هذا، وإنما أفصحوا بالتكذيب أخيراً قال تعالى في أمر

---

(1) سورة يوسف: آية 95.
(2) سورة طه: آية 44.
(3) سورة الشعراء: آية 111.
(4) سقط من ن 3.
(5) في ن 3: لأمره.
(6) سورة الأنعام: آية 53.
(7) سورة الأحقاف: آية 11.
(8) سورة هود: آية 27.

الكافة من الرسل حين توقف أممهم عن الاستجابة: ﴿حَتَّىٰ إِذَا ٱسْتَيْأَسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾[1]، وقال تعالى في مكذبيهم: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا ٱنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾[2]. وتأمل دعاء الرسل حيث دعوا أممهم، والتدريج فيما جرى منهم، وسير نبينا صلى الله عليه وسلم، يلح لك ذلك، وهو أبين من (أن)[3] يطوّل بذكره، فعلى هذا قلنا إن مقول قوم نوح في أول جوابهم له: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[4] ليس كقولهم أخيراً ﴿قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾[5] وإنما قالوا: ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾[6] بعد طول محاورة، ثم إنهم لم يدعوا علماً بما قالوه من ذلك بل أفصحوا بأن ذلك ظن، فالمراد ـ والله أعلم بما رمى به قوم نوح نبيهم من الضلالة ـ وإن تضمن من حيث انتشار مواقع التفصيل واحتمل قصدهم الكفر وغيره ليس كما لو أفصحوا أولاً فقالوا: إنك كاذب أو كافر، واعتبر هذا الذي أوجزته تجده أوضح شيء، والله سبحانه أعلم.

الآية الرابعة عشرة من سورة الأعراف قوله تعالى: ﴿(وَلُوطاً)[7] إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ ٱلْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ ٱلْعَالَمِينَ. إِنَّكُمْ[8] لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ ٱلنِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ وَمَا كَانَ

---

(1) سورة يوسف: آية 110.
(2) سورة الزخرف: آية 55.
(3) بهامش ن 2.
(4) سورة الأعراف: آية 60.
(5) سورة هود: آية 32.
(6) سورة هود: آية 27.
(7) سقط من ن 3.
(8) إنكم: قرأ نافع وحفص بهمزة مكسورة على الخبر والباقون: أئنكم على الاستفهام.

جَوَابُ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا آمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ آلْغَابِرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَطَراً فَآنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ آلْمُجْرِمِينَ﴾[1]، وفي سورة النمل: ﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ آلْفَاحِشَةَ وَأَنْتُم تُبْصِرُونَ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ آلرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ آلنِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ فَما كَانَ جَوَابُ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا (أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ)[2] مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا آمْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ آلْغَابِرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ آلْمُنْذَرِينَ﴾[3]، وقال في سورة العنكبوت: ﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ: أَئِنَّكُمْ[4] لَتَأْتُونَ آلْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ آلْعَالَمِينَ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ آلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ آلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ آلْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابُ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا آئْتِنَا بِعَذَابِ آللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ آلصَّادِقِينَ قَالَ رَبِّ آنْصُرْنِي عَلَى آلْقَوْمِ آلْمُفْسِدِينَ﴾[5].

قلت: قد تقدم البيان أن اختلاف مقالات الأنبياء لأممهم إنما هو لاختلاف مقاماتهم، إذ ليس دعاؤهم إياهم في موقف واحد ولا لقوم مخصوصين، بل يدعو النبي طوائف من قومه في أوقات مختلفة ومواطن شتى، وقد يكون للطائفة منهم خصوص مرتكب فيراعي نبيهم ذلك في دعائهم، وقد يخاطب ملأهم الأعظم في مواطن والفئة القليلة منهم في

---

(1) سورة الأعراف: آية 80-84.

(2) في ن 1، ن 2: أخرجوهم، وهذا خطأ.

(3) سورة النمل: آية 54-58.

(4) أئنكم من الآية 28 من سورة العنكبوت: قرأ الحرميان وابن عامر وحفص إنكم بهمزة مكسورة على الخبر والباقون على الاستفهام، وأجمعوا على الاستفهام في آية 29.

(5) سورة العنكبوت: آية 28-30.

موطن آخر، وربما أطال في موطن وأوجز في موطن، وذلك بحسب ما يرونه، عليهم السلام، أجدى وأرجى، فلا يشكل على هذا اختلاف أقوالهم ولا اختلاف مجاوبة أممهم لهم، فهذا مما لا يحتاج إلى سؤال عنه، وقد مر ذكر بيان ذلك، وإنما يبقى السؤال عن وجه خصوص كل سورة بما خصت به من ذلك؟ وإذا أجبنا عن ذلك وأبدينا بحول الله المناسبة والالتحام حتى يتبين أن كلاً من ذلك لا يصلح تأخيره عن الموضع الذي ورد فيه تعويضاً بالوارد في غير ذلك الموضع منه لم يبق في هذه الآيات ما يشكل، والحمد لله[1].

وفي قصة لوط، عليه السلام[2]، سبع سؤالات: أولها: قوله في مطلع الآيات في الأعراف والنمل: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَاحِشَةَ﴾، وقال في سورة العنكبوت: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَاحِشَةَ﴾، وثانيها: وصف حالهم في مرتكبهم في الأعراف والعنكبوت بقوله: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ ٱلْعَالَمِينَ﴾، وفي سورة النمل: ﴿وأنتم تبصرون﴾.

والجواب عن هذين السؤالين: أن قوله في الأعراف والنمل: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَاحِشَةَ﴾ الهمزة فيه للاستفهام المقصود به الإنكار والتعظيم في توبيخهم على الفاحشة الشنعاء التي لم يأتها غيرهم، ولما كان قد تقدم في الأعراف من ذكر الأمم المكذبين ذكر قوم نوح وهود وصالح، وذكرت مرتكباتهم السيئة: من معاندتهم للرسل، وتكذيبهم، وسوء مراجعتهم، وذلك مما يطلع عليه من أتى بعدهم، وقد خص بالذكر من مرتكباتهم أقبحها مما استوجبوا به العذاب وأخذ كل طائفة بذنبها، قيل لقوم لوط،

---

(1) في ن 3: ما يشكل عنه بحول الله، وفي ن 4: والله أعلم.

(2) في ن 3: قصة لوط هذه.

عليه السلام: إن هؤلاء المكذبين من قبلكم على سوء مرتكباتهم لم يسبقوكم إلى ما أنتم عليه، وقد سمعتم بهم، وخلت من قبلكم المثلات، فناسب ما قدم من أحوال من قبلهم في هذه السورة وذكر تلك الأحوال على التفصيل أن وبخ قوم لوط بقبيح جريمتهم، وأن من قبلهم على سيىء[1] أحوالهم لم يرضها، فكأن قد قيل لهم: هذه قصص من تقدمكم وذكر مرتكباتهم التي أخذوا بها، فهل وقع منهم ما وقع منكم؟ أو هل سبق أحد منهم إلى مرتكبكم الشنيع؟ فناسب ذكر الأمم المكذبين قبلهم تقريع هؤلاء بكونهم أول من فعل تلك الشناعة، وأنهم لم يسبقهم قيل لهم في سورة النمل: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾[2] أي تدركون فحشها ببصائركم وأمرها غير خاف على كل ذي عقل، فهل يصدر هذا إلا عن معاند مُتَّصِفٍ بأعظم الجهل؟ وقيل إنهم كانوا يتجاهرون بها ولا يستحي بعضهم من بعض، فالمراد بقوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَبْصِرُونَ﴾ أي ترون ذلك بأعينكم لا يستتر بعضكم من بعض تهكماً واستهتاراً، هذا أعظم الجهل، فلستم ممن يعقل أو يعلم شيئاً بل أنتم قوم تجهلون.

ولما لم يتقدم في هذه السورة تفصيل أحوال الأمم المكذبين وأخذهم، ولم يذكر ذلك، كان ذكرهم كأن لم يتعرفوا حال من تقدمهم، فعدل عن توبيخهم بما وبخوا ـ حيث ذكر من كان قبلهم ـ إلى ضرب آخر من التوبيخ لم يكن نص عليه في الأعراف، من بيان شنيع المرتكب في فعلهم. وأنه غير خاف، فقيل: ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أي أن من شأن

---

(1) في ن 3: شتى.

(2) سورة النمل: آية 54.

من له عقل أو بصر يبصر به على المأخذ الآخر أن يكتفي بعقله وإبصاره في ميز ما يشنع.

ثم قد تقدم في هذه السورة قوله في قصة موسى عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً﴾[1] أي بينة واضحة أو مرئية مشاهدة بالأبصار جحدوا بها، وهذا من أقبح مرتكب. فلما تقدم هذا ناسبه في قصة لوط عليه السلام قوله: ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾، ولقبح هذا التعامي ما أعقب بقوله بعد: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[2].

ولما تقدم في سورتي الأعراف والنمل تقريرهم تقريعاً وتوبيخاً، وعرفوا[3] بذلك مرة بعد مرة، وردت قصتهم في العنكبوت مؤكدة بأن واللام لثبوتها، فوردت مورد ما يجيء بعد القسم متلقى به القسم، إذ قد تقدم تقريرهم التوبيخي مرتين، فجاء الاخبار (بعد بما به)[4] يخبر عن المتقرر الثابت، ولم يكن ليناسب العكس، وهذا على مقتضى الترتيب في السور والآي، فجاء كل على ما يجب.

والسؤال الثالث، إنه لما تقرر بقوله في الأعراف والنمل: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ ذكر مرتكبهم القبيح، وأنهم في ذلك من حيث لم يراعوا في فعلهم إلا مجرد الشهوة ولم يلحظوا ما يلحظه العقلاء ولا ما قررته الشرائع من قصد التناسل والتوالد وقد جبلت عليه البهائم، وجرى التعريف من حالهم في سورة العنكبوت بمثل

---

(1) سورة النمل: آية 13.

(2) سورة الأعراف: آية 138.

(3) في ن 3: عنفوا، والصواب عرفوا.

(4) في ن 4: بعدها به، وهذا خطأ مخل بالمعنى.

ذلك فقال تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾[1]. فللسائل أن يقول ما وجه اختلاف ما بني على هذا الإخبار في السورتين من وصفهم فقيل في الأولى: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾[2] وفي الثانية: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[3]؟ والعدول في سورة العنكبوت عن قوله: ﴿شَهْوَةً مِنْ دُونِ ٱلنِّسَاءِ﴾ إلى قوله ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنْكَرَ﴾[4]؟ ما الوجه في هذا وقد اتفق الإخبار في مطلع الآي في هذه السور الثلاث؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أنه قصد بما ذكر في سورة الأعراف الإشارة إلى التعريف بإنهماكهم في الجرائم وقبيح المرتكبات، فنص على أفحشها وحصل الإيماء إلى ما وراء ذلك بما ذكر من إسرافهم: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾.

ولما قيل في سورة النمل ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾[5] كان أهم شيء أن تنفى عنهم فائدة الأبصار إذ لم تغن عنهم شيئاً فأعقب بقوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ أي أن مرتكبكم مع علمكم بشنيع ما فيه من أقبح ما يرتكبه الجهال، ولم يذكر هنا إسرافهم إذ قد حصل فيما ذكر في الأعراف.

---

(1) سورة العنكبوت: آية 29.
(2) سورة الأعراف: آية 81.
(3) سورة النمل: آية 55.
(4) سورة العنكبوت: آية 29.
(5) سورة النمل: آية 54.

وأما سورة العنكبوت فقصد فيها تفصيل ما أشير إليه في الأعراف من شنيع ما ارتكبوه من إسرافهم[1] (فقيل)[2]: ﴿أَئِنَّكُمْ[3] لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾[4]، وورد أولاً ــ بحسب الترتيب المتقرر عليه السور والآيات ــ ذكر أفحش مرتكباتهم، ثم أجمل القول في سائر جرائمهم، ثم أتبع في السورة الثانية بشنيع حالهم في تلك الفعلة المنصوص عليها من حيث بيان فحشها للأبصار والبصائر، ثم أتبع ذلك في السورة الثالثة بتفصيل بعض قبائح أفعالهم والتنصيص عليها، وجاء هذا كله على ما يجب، ولا يمكن العكس فيما ورد، والله أعلم.

والسؤال الرابع: ما وجه الاختلاف الوارد في جواب قوم لوط عليه السلام له في سورة الأعراف: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[5]، وفي سورة النمل: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[6]، وفي سورة العنكبوت: ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[7]؟

والجواب، أنه لما زيد في تعنيفهم في النمل وتعريفهم بإتيانهم الفاحشة على علم بها أو مع مشاهدة بعضهم بعضاً وعدم استخفائهم

---

(1) في ن 4: إسرافه، والصواب إسرافهم.
(2) سقط من ن 3.
(3) في ن 3، ن 4: إنكم، والصواب: أئنكم. إذ أجمع القراء على الاستفهام هنا.
(4) سورة العنكبوت: آية 29.
(5) سورة الأعراف: آية 82.
(6) سورة النمل: آية 56.
(7) سورة العنكبوت: آية 29.

بها، وذلك أقبح في المرتكب، فلما زيد في تعريفهم زيد في تعليل الاخراج التنصيص على الآل، لأن قوله: ﴿آل لوط﴾ ـ أنص في إخراج جميع من للوط عليه السلام من ذويه وأهله من قوله: ﴿أَخْرِجُوهُمْ﴾ بزيادة التنصيص الأعم بإزاء الأزيد في التقريع. ولما عدد من قبائح مرتكباتهم في العنكبوت ما عدد بقوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ ٱلْمُنْكَرَ﴾. فكان تعداد مرتكباتهم أشد توبيخاً في تقريعهم وأنكأ (لتمييز)[1] أفئدتهم، كان مظنة تهيج (واشتعال)[2] (لسيء)[3] أخلاقهم وقبيح جوابهم، فجاوبوا جواب من استحكم حنقه وطبع على قلبه فقالوا: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ تحكيماً وتحقيقاً لتكذيبهم وشاهداً (بتصميمهم)[4] على المعاندة والكفر، لأن قولهم في الموضعين قبل: ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ على شناعة مرتكبهم فيه ليس كقوله: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ لأن قولهم: ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ يفهم بفحواه ما يستلزم إخراجهم من مجازاتهم على ذلك، فهو في قوة قول القائل لمعانده: أنا أعاملك بكذا فإن قدرت على الانتصار لنفسك فٱفعل، وقول القائل: أنا أفعل كذا ولا أبالي بما يكون عن ذلك، وكأن قد قالوا: أخرجوهم فإن كان عذاب فليأت به، فلما اشتد حنقهم هنا طلبوا العذاب وعدلوا عن ذلك السبب استعجالاً للمسبب، فجاء كل من هذا على ما يجب، والله سبحانه أعلم.

---

(1) بهامش ن 3 وغير واضحة في ن 4.
(2) بهامش ن 4 بسقوط واو النسق.
(3) في ن 4: الشيء.
(4) بهامش ن 3.

والسؤال الخامس، قوله في الأعراف: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَابِرِينَ﴾[1]، وفي سورة النمل ﴿قَدَّرْنَاهَا مِنَ ٱلْغَابِرِينَ﴾[2]، وقد ورد في إهلاك إمرأة لوط عليه السلام في الحجر: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا أَنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَابِرِينَ﴾[3]، وللسائل أن يسأل عن وجه الاختلاف فيما ذكر وورود [4] كل من هذه العبارات حيث ورد؟

والجواب، أن قدرناها معط من المعنى ما يعطيه كانت من غير فرق، لأن المراد إلحاقها بالهالكين وإخراجها من الناجين، وهذا المعنى هو المراد بقدرناها مشدداً، وكذلك قوله في الحجر: ﴿قَدَّرْنَا أَنَّهَا﴾. وأما وجه اختصاص «كانت» بآية الأعراف فليناسب إيجازاً قوله: ﴿أَخْرِجُوهُمْ﴾، وقوله في النمل قدرناها ليناسب: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ﴾ وقوله في الحجر ﴿قَدَّرْنَا أَنَّهَا﴾ ليجري مع ما وكد قبل بأن ويناسبه كقوله: ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾[6] وقوله: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[7] فقيل مناسباً لذلك: ﴿قَدَرْنَا أَنَّهَا﴾. وتناسب هذا كله.

والسؤال السادس: ما وجه تعقيب قوله في الأعراف: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً﴾ (بقوله: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ وفي النمل بقوله)[8]: ﴿فَسَاءَ مَطَرُ ٱلْمُنْذَرِينَ﴾، وهل كان يحسن العكس؟ والجواب

---

(1) سورة الأعراف: آية 83.
(2) سورة النمل: آية 57.
(3) سورة الحجر: آية 60.
(4) في ن 3: وورد، والصواب: وورود.
(5) سورة الحجر: آية 58.
(6) سورة الحجر: آية 59.
(7) سقط من ن 3.

أنه لما تقدم في الأعراف قوله: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ ٱلْعَالَمِينَ﴾، حصل منه أن ارتكابهم ما لم يسبق إليه غيرهم قد جمع إلى قبيح[1] الفحش الاجترام من حيث لم يفعل تلك الفعلة الشنعاء من تقدمهم، فأجمع إلى الفحش الاجترام فأعقب بقوله: ﴿فَٱنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[2]. ولما تقدم في النمل قوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾[3] حصل منه تعنيف وإنذار لم يقع مثله في الأعراف إذ ليس موقع قوله: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ ٱلْعَالَمِينَ﴾[4] في الانـذار والتعنيف كموقع تعريفهم بعلمهم بها وشنعة معاينة بعضهم بعضاً من ارتكابها. فناسب إنذارهم[5] بهذا ما أعقب به من قوله: ﴿فَسَاءَ مَطَرُ ٱلْمُنْذَرِينَ﴾[6]. ولو أعقبت آية الأعراف بهذا أو آية النمل بما أعقبت (به) [7] آية الأعراف لم يكن متناسباً، فجاء كل على ما يجب، والله أعلم.

والسؤال السابع، ما وجه قوله في الأعراف: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابُ قَوْمِهِ﴾ منسوقاً بالواو وفي النمل والعنكبوت: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابُ قَوْمِهِ﴾ بالفاء مع (أن) [8] القصة واحدة فلا فرق بين الجوابين؟

---

(1) في ن 3، ن 4: قبح.
(2) سورة الأعراف: آية 84.
(3) سورة النمل: آية 54.
(4) سورة الأعراف: آية 80.
(5) في ن 4: الإنذار.
(6) في كل النسخ قوله تعالى: ﴿فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾، وهذا لا يستقيم معه المعنى، والصواب: ﴿فساء مطر المنذرين﴾ (النمل: آية 58).
(7) سقط من ن 1، ن 2.
(8) سقط من ن 3.

والجواب، أنه حيث يراد (مع ما)[1] سببية أو ما يشبه معنى المجازاة وكان الكلام المجاوب بصريح الفعل إذ هو أوضح إحرازاً لهذا المعنى، فحيث يجيء هذا فالوجه والأولى أن يترتب الجواب بالفاء وسواء تسبب عن الأول أو أقيم مقام ما تسبب عن الأول، مثال الجاري على طريقة السببية قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى﴾[2]، (وقوله)[3] ﴿فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾[4]، وقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ﴾[5]، وهذا كثير. ومثال الثاني: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَاناً كَبِيراً﴾[6]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾[7].

ولما تقدم في سورة النمل قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾[8]، أي وقد منحتم بصائر للفهم والاعتبار أو أبصاراً لإدراك الأشياء وإحراز الحياء المانع من مواقعة العار. فما أثمر (أنس)[9] ذلك (لكم)[10] إلا التعامي عن رَشادكم وتمادي عنادكم، فختام الآيتين بقوله: ﴿وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ وقوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ فالجملة الفعلية في

---

(1) في ن 3: معنى، ولا يستقيم بذلك المعنى.
(2) سورة الأعراف: آية 6.
(3) سقط من ن 3.
(4) سورة الصافات: آية 148.
(5) سورة الأعراف: آية 64.
(6) سورة الإسراء: آية 60.
(7) سورة الأحقاف: آية 26.
(8) سورة النحل: آية 54.
(9) سقط من ن 3.
(10) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.

خبر المبتدأ في الأول وفي الصفة الموطئة للخبر في الثانية مسوغ لتقدير معنى السببية وأنسب لذلك من الواو [1] في سورة الأعراف، إذ الختم في الآيتين قبل آية الجواب بالجمل الإسمية ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ ٱلْعَالَمِينَ [2] بَلْ أَنْتُمْ مُسْرِفُونَ﴾ [3]، فليس هـذا في تقديـر السببية كالأول، فالجواب هنا بالواو وحسن مع جواز الفاء، والجواب بالفاء حيث تقدم أقوى لمكان الفعل وكون المعنى عليه، فورد على ما يقويه السياق ويشهد له المعنى.

وأما آية العنكبوت فقد تقدم فيها أيضاً قوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنْكَرَ﴾ [4]، فهذه جملة فعلية، وتقدير معنى السببية فيها كآية النمل، فالجواب فيها بالفاء كما في آية النمل أولى وأجرى [5] مع المعنى وما يعطيه السياق، و(جاء) [6] كل ذلك على ما يناسب، والله أعلم.

الآية الخامسة عشرة من سورة الأعراف) [7] قوله تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [8]، وفي سورة هود [9] ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَالَكُمْ

(1) في ن 1، ن 2، ن 4: الوارد، والصواب الواو.
(2) سورة الأعراف: آية 80.
(3) سورة الأعراف: آية 81.
(4) سورة العنكبوت: آية 29.
(5) في ن 3، ن 4: أحرى، بحاء مهملة والصواب: أجرى.
(6) سقط من ن 3، ن 4، وفي ن 4: وكل من ذلك.
(7) سقط من ن 3.
(8) سورة الأعراف: آية 85.
(9) سورة هود: آية 84.

مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾[1]، وفي سورة العنكبوت ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ﴾[2]، فاختصت آية العنكبوت بالفاء في قوله: «فَقَالَ». فيسأل عن ذلك؟

والجواب عنه: أنه لم يقع في سورة العنكبوت من ذكر إرسال الرسل ما بني على أرسلنا ظاهراً ومقدراً منوطاً به ذكر المرسل إليهم بحرف الغاية الذي هو «إلى» غير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ﴾[3]، وقوله: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شعيباً﴾[4]، وتعلق حرف الغاية في الأولى بالفعل الظاهر وهو «أرسلنا» وتعلق في الثانية بأرسلنا المقدر، وقد قيل فيما بني على الاخبار بالإرسال في الأولى ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً﴾[5] بالفاء في قوله: فَلَبِثَ (فِيهِمْ)[6]، فقيل في الثانية: «فقال» بالفاء لتناسب[7] ما ورد في هذه السورة من ذكر إبراهيم ولوط عليهما السلام فعلى غير البناء على أرسلنا ظاهراً أو مقدراً أو إيصاله إلى المرسل إليهم بإلى بل عدل في ذلك إلى ما يصح فيه تقدير أذكر كقوله: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾[8]، وقوله: ﴿وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾[9]. فلما انفردت الآيتان أوَّلاً وَهُمَا آية إرسال نوح وآية

---

(1) سقط من ن 1، ن 2.
(2) سورة العنكبوت: آية 36.
(3) سورة العنكبوت: آية 14.
(4) سورة العنكبوت: آية 36.
(5) سورة العنكبوت: آية 14.
(6) سقط من ن 3.
(7) في ن 3: ليناسب، والصواب: ليتناسب.
(8) سورة العنكبوت: آية 16.
(9) سورة العنكبوت: آية 28.

إرسال شعيب، لما انفردتا بما ذكر نوسب بينهما فدخلت الفاء في قوله: «فقال» في قصة شعيب عليه السلام كما دخلت في قوله: «فلبث» في قصة نوح كما تقدم.

وأما آية الأعراف وآية هود فإنه لما ذكر في كل واحدة من هاتين السورتين جماعة من الرسل مبيناً أخبارهم على وتيلة واحدة من ذكر الرسل والمرسل إليهم، (وتكرر) [1] ذلك، بدىء بأول قصة على الاستيفاء، فقيل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ﴾ [2]، ثم أوجز بعد فورد بغير الافصاح بلفظ الإرسال وبغير الفاء، والتحم ذلك وتناسب لاتحاد المقصد في السورتين، والله أعلم.

الآية السادسة عشرة قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِٱلْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَى قُلُوبِ ٱلْكَافِرِينَ﴾[3]، وفي سورة يونس: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُوهُمْ بِٱلْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[4]، وورد في أول هذه السورة أيضاً ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِٱلْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[5].

فيها أربع سؤالات: الأول ورود الضمير المجرور في الآية الثانية من سورة يونس وهو قوله: «به» وسقوطه مما سواها، والثاني قوله: ﴿كَذَلِكَ

---

(1) في ن 3: وذكرت، والصواب تكرر.
(2) سورة العنكبوت: آية 14.
(3) سورة الأعراف: آية 101.
(4) سورة يونس: آية 74.
(5) سورة يونس: آية 13.

يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾ فجيء بالاسم الظاهر في سورة الأعراف وأكتفي بالضمير في ثانية يونس فقيل: ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ﴾، والثالث: وصفهم في الأعراف بالكفر وفي ثانية يونس بالاعتداء، والرابع قوله تعالى في الأولى في سورة يونس عدولاً عما في السورتين: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾. للسائل أن يسأل عن ذلك؟

والجواب عن الأول: أنه لما تقدم في سورة الأعراف قوله تعالى: ﴿وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾[1]، وقوله: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِٱلَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾[2]، ثم قال بعد: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا﴾[3]، وقع الاكتفاء بما تقدم من قوله: «(بِالَّذِي)[4] أُرْسِلْتُ بِهِ»، والذي أرسل به هو الذي طلب منهم الإيمان به، فحصل المقصود. فلو قيل أخيراً: «به» لكان تكراراً، فاقتضى الايجاز وإحراز البلاغة حذفه لحصوله، كما حذف من قوله: ﴿وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ مع أنه مراد، فحذف الموصول وصلته ورابطها إذ التقدير[5] وطائفة لم يؤمنوا بالذي أرسلت به لحصول ذلك مما تقدم. وأما قوله في يونس: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾[6] فإنه لم يتقدم هنا ما تقدم هناك، فلم يكن بد من الاتيان بالضمير ليحصل ما وقع من التكذيب ولترتبط الصلة بالموصول.

---

(1) سورة الأعراف: آية 86.

(2) سورة الأعراف: آية 87.

(3) سورة الأعراف: آية 101.

(4) بهامش ن 2.

(5) في ن 3: التقرير.

(6) سورة يونس: آية 74.

والجواب عن الثاني: (أن)[1] قوله تعالى في سورة يونس: ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ مناسب ومرتبط[2] بما افتتحت به الآية من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾، (فأخبر تعالى بإنعامه على عباده. ممن هداه ــ بنعمة الرسل إحساناً وامتناناً ولتقوم الحجة على الخلق، فقال تعالى: ﴿بعثنا﴾[3] بإضافة هذا الفعل إلى الكناية العلية وهي ضمير المتكلم، فناسب ذلك ما بني عليه وارتبط به من قوله تعالى: ﴿كذلك نطبع﴾ (مراعاة)[4] للتناظر والتقابل. وأما آية (الأعراف)[5] فمبنية على مطلعها من قوله تعالى (أول الآية)[6] ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِٱلْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾[7]، فلم يتقدم ما يطلب بورود الفاعل مضمراً، (فجاء)[8] على ما يجب إذلا طالب بمناسبة.

والجواب عن الثالث: أن آية الأعراف لما تقدمها قصص قد جرى فيها ذكر مكذبي الأمم أنبياءهم وما ردوا عليهم وخاطبوهم به، كقول كفار قوم صالح عليه السلام لمن آمن به منهم ﴿إِنَّا بِٱلَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾[9]، وقولهم: ﴿يَا صَالِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾[10] وقول الملإ من

---

(1) سقط من ن 1، ن 2.
(2) في ن 3: مرتب، والصواب: مرتبط.
(3) بهامش ن 2.
(4) بهامش ن 2.
(5) بهامش ن 2.
(6) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(7) سورة الأعراف: آية 101.
(8) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(9) سورة الأعراف: آية 76.
(10) سورة الأعراف: آية 77.

قوم شعيب لمن آمن منهم: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ (إِذاً لَخَاسِرُونَ)[1] إلى ما بعد وما قبل من سيء المحاورة من مكذبي الأمم)[2]، فحصل من هذه الآي من التعريف بحال هؤلاء الأمم وتعقيب هذه القصص بذكر غيرهم من الأمم ممن سلك مسلك من تقدمهم من المذكورين ما ناسبه قوله تعالى عقب جميعها: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَافِرِينَ﴾[3]. وأما آية يونس فلم يتقدم قبلها تفصيل ولا إفصاح بمخاطبة نبي ومواجهته بمثل ما في آي[4] الأعراف بل ورد ذلك مورد الإجمال[5] فناسبه وصفهم بالاعتداء وإن لم يقع إفصاح بكفرهم مع أنهم كفار، وإن ذلك حاصل من مجمل ذكرهم، إلا أن جليل مناسبة النظم مقتض ما ورد عليه كل مما في السورتين وذلك واضح، والله أعلم بما أراد.

والجواب عن السؤال الرابع: أن قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[6] لم يتقدم قبله تفصيل قصص ولا بسط قصة منها، بل أوجز معنى ما انطوت عليه تلك القصة، فعبر عن ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾[7]، فناسب هذا الايجاز ما بني عليه من قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[8]، ومن

---

(1) سورة الأعراف: آية 90.
(2) بهامش ن 3.
(3) سورة الأعراف: آية 101.
(4) من هنا يبدأ نقص في ن 1، ويتواصل إلى الآية الثالثة والعشرون من هذه السورة.
(5) في ن 3: الأعمال، والصواب: الاجمال.
(6) سورة يونس: آية 13.
(7) سورة يونس: آية 13.
(8) سورة يونس: آية 13.

التعبير عن المشار إليهم من المهلكين بالإجرام ـ وهو أكبر موقعاً من الاعتداء ـ ليطابق وصفهم بالظلم، والمراد به تكذيبهم الرسل وكفرهم بما جاؤوهم به، فلم يكن ليطابق ذلك الوصف الاعتداء، ولم يوصفوا أيضاً بالكفر إذ لم يقع (به)[2] إفصاح فيما تقدم، فكان وصفهم بالإجرام أنسب، والله أعلم.

الآية السابعة عشرة قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ وَجَاءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾[2]، وقال في الشعراء: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ﴾[3].

في هذا أربع سؤالات: أولها قوله تعالى في الأعراف: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ وفي الشعراء: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ﴾، والثاني قوله في الشعراء: ﴿بِسِحْرِهِ﴾ ولم يثبت ذلك في الأعراف، والثالث قوله في الأعراف: ﴿وَأَرْسِلْ﴾ وفي الشعراء ﴿وَٱبْعَثْ﴾، والرابع قوله في الأعراف عقب قوله: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾. ﴿وَجَاءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ وأعقب في الشعراء قوله: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ

---

(1) سقط من ن 3.
(2) سورة الأعراف: آية 109-113.
(3) سورة الشعراء: آية 34-38.

مَعْلُومٍ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ ٱلْغَالِبِينَ﴾[1]. وبعد ذلك قيل: ﴿فَلَمَّا جَاءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾[2].

والجواب عن الأول، أنه لا توقف في أن موسى عليه السلام خاطب فرعون وملأه، وأنه أمر بخطابهم وإليهم أرسل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾[3]، وإنه لما دعاهم لتصديقه والإيمان (به جاوب فرعون وجاوب ملأه بقول فرعون: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾[4]، إنما[5] قاله لملئه ولمن حضره[6]، ثم قال ذلك ملؤه لحاضريهم وبعضهم لبعض. وإذا وضح أن ذلك القول صدر من فرعون وقاله أيضاً ملؤه بقي السؤال عن وجه اختصاص كل سورة بما خصت به؟

والجواب أنه لما تقدم في سورة الأعراف قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾[7]، فوقع ذكر الملا مبعوثاً اليهم مع فرعون، ناسب ذلك أن يذكروا في الجواب حتى يكون في قوة أن لو قيل: بعث إليهم وخوطبوا فقالوا، ولم يكن ليناسب «بعث إليهم» فقال: فرعون. ولما تقدم في سورة الشعراء قوله: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ﴾[8]، ثم جرى ما بعد من المحاورة ومراجعة الكلام بين موسى، عليه السلام،

---

(1) سورة الشعراء: آية 38-40.
(2) سورة الشعراء: آية 41.
(3) سورة هود: آية 96.
(4) سقط من ن 3.
(5) في ن 3: بما، والصواب إنما.
(6) في ن 3: وقد حضره، وفي ن 4، ومن حضره.
(7) سورة الأعراف: آية 103.
(8) سورة الشعراء: آية 16.

وفرعون، ولم يقع الملا هنا، ناسب ذلك قوله: «قال فرعون» لأنه الذي راجع وخوطب[1]، فجاء كل على ما يناسب.

فإن قيل: فقد قيل في الأعراف: ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ فقدم فرعون فهو أعمد من الملا لأنهم أتباعه وآله، فَلِمَ لم يبن الجواب على ذلك فيقال[2] «قال فرعون»؟ فالجواب انه لو قيل: قال فرعون لبقي التشوف إلى تعريف قول الملا وهم قد بعث إليهم وخوطبوا ولا (بد)[3] من تعرف جوابهم، وبه (يحصل)[4] تعرف جوابه هو لأنه اله وتابعوه إنما يتكلمون غالباً بما يريده ويصدر عنه ويبدأ به، وقد تبين ذلك في سورة الشعراء وإن فرعون خاطبهم وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ﴾[5] فجاوبوا، فحصل من جوابهم جوابه، ولو جاوب هو وسكت ملؤه لأمكن أن يكونوا قد استوضحوا الحق وخالفوا فرعون كما جرى للسحرة وقد كانوا ناصرين[6] لفرعون و (من)[7] معه، فجاء جواب الملا منصوصاً، وحصل منه جواب متبوعهم، ولم يكن ليحصل من جوابه على انفراده[8] ، وحصلت مناسبة ما تقدم من قوله ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾.

---

(1) في ن 3: خاطبه.
(2) في ن 3 فقال والصواب فيقال.
(3) بهامش ن 3.
(4) بهامش ن 2.
(5) سورة الشعراء: آية 34.
(6) في ن 3: مناصرين.
(7) سقط من ن 3.
(8) في ن 3 على انفراد.

فإن قلت فقد ورد في الشعراء جواب فرعون دون جواب ملئه؟

(فالجواب: انه قد جاوبوا بعد وذلك انه لما خاطب فرعون ملأه) [1] الأقربين وألقى اليهم ما اعتقده بضلاله في أمر نبي الله موسى، عليه السلام، واستشارهم بقوله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [2] ، وجاوبوه بموافقته العائدة على جميعهم بالخسران المبين، بين ذلك قوله تعالى مخبراً عنهم: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ﴾ [3] ، وهذا يوضح أن جوابهم في الأعراف مبني على استطلاع ما عنده وسماع ذلك منه كما وضح هنا، ثم روعي تناسب النظم والتقابل كما تقدم. فقد تبين أن الوارد [4] في سورة الشعراء لم يكن ليناسب المتقدم في سورة الأعراف، ولا الوارد في سورة الأعراف ليناسب ما تقدم في سورة الشعراء بوجه، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَافاً كَثِيراً﴾ [5] .

والجواب عن السؤال الثاني: ان زيادة «بسحره» في الشعراء لأنه من قول فرعون (طاغية) [6] موسى، عليه السلام، وهو أحنق عليه من الملا بجمعهم [7] ، وأعظمهم بغضاً له وكراهه لما جاء به موسى، فأكد بقوله «بسحره» طمعاً في صغوهم لقوله والثبات على مذهبه الشنيع ومرتكبه ورجاء أن يعتقد الملا من قومه أن آية موسى، عليه السلام،

---

(1) سقط من ن 3.
(2) سورة الشعراء: آية 35.
(3) سورة الشعراء: آية 34.
(4) في ن 3: المراد، والصواب الوارد.
(5) سورة النساء: آية 82.
(6) غير واضحة في ن 4.
(7) في ن 2: فجمعهم، والصواب بجمعهم.

سحر لا توقف فيها[1]، فلم يقنع بقوله لملئه: انه لساحر عليم وأنه يريد إخراجهم من أرضهم حتى سجل على ذلك وأكده[2] طمعاً في قبول باطله بقوله: «بسحره». ولما لم يكن حال الملإ من قومه كحاله فيما ذكر اكتفوا بقولهم لرسولهم وبعضهم لبعض: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾[3]، فهذا قول الملا، والذي ثبت في الشعراء قول فرعون، وزيادة «بسحره» لتبين حال الملا من حال فرعون المتولي كبير الأمر، والتناسب بين، وكل في السورتين وأرد على ما يجب، وقد وضح أن العكس غير مناسب، والله أعلم. ويشهد أن زيادة «بسحره» من فرعون لزيادة حنقه تكرر ذلك من قوله في سورة طه: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى﴾[4]. فأما بعد في هذه السورة من قوله سبحانه مخبراً عن الملا: ﴿قَالُوا إِنَّ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا﴾[5] فإنما قالوه بعد تنازع وتعارض وفيما بينهم وفرعون في جملتهم، يدل على هذا ما تقدم من قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾[6]، وقوله ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا ٱلنَّجْوَى﴾[7]، وإنما أسروا نجواهم ــ بعد تنازعهم في أعمال المكيدة ــ فيما حل بهم[8]، وفرعون مرجح لرأيهم وأبلغهم[9] احتيالاً

(1) في ن 3: فيه.
(2) في ن 2، ن 4: واكد، سقوط الضمير.
(3) سورة الشعراء: آية 34.
(4) سورة طه: آية 57.
(5) سورة طه: آية 63.
(6) سورة طه: آية 60.
(7) سورة طه: آية 62.
(8) في ن 2: فيما جابهم، والصواب: فيما حل بهم، وفي ن 4 فيما أجابهم.
(9) في ن 3: بلغهم، والصواب: أبلغهم.

وكيداً فيما تشاوروا فيه فلم يمكنهم في هذا المجتمع الا القول بما رآه بعد تنازعهم عليه، فقالوه بتوقيف منه وهو حاضرهم حال تنازعهم وقولهم لموسى، عليه السلام، فإذا هو القائل لا الملأ وان الوارد في الأعراف فقول الملا إذ لا يقتضي قوله: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾[1] أن فرعون هو القائل وان كان كذلك، بل الظاهر السابق من هذه العبارة انه قول الملا منفردين عن فرعون، والتناسب اللفظي هو المطلوب وقد تبين.

والجواب عن السؤال الثالث وهو ورود «وأرسل» في سورة الأعراف، وفي الشعراء: «وآبعث»، فالجواب عنه مبني على الترتيب الذي استقر عليه المصحف، فنقول: إن أرسل أخص في باب الإرسال من البعث إذ لا يقال أرسل الا فيما كان توجيهاً فيه معنى الانتقال حقيقة أو مجازاً، أما بعث فأوسع فإنه يقع بمعنى الإرسال وبمعنى الإحياء ومنه البعث الأخراوي، ففيه اشترك، فلما كان الإرسال أخص وقع الإخبار به أولاً ثم وقع ثانياً بالبعث تنويعاً للعبارة وعلى الترتيب في موضع اللفظ المطرد في القرآن. ولا يمكن على (ما)[2] تقرر من ذلك العكس. ونظير هذا مما تقدم تبع واتبع ويذبحون ويقتلون وقد مر بيانه[3]، والإطراد واضح شاهد في هذا.

والجواب عن السؤال الرابع وهو ورود قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ ٱلسَّحَرَةُ

---

(1) سورة الأعراف: آية 109.

(2) سقط من ن 3.

(3) في ملاك التأويل، ص 190 و 197.

فِرْعَوْنَ﴾[1] في الأعراف عقب قوله: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾[2] وتـأخير الإخبـار بمجيئهم في الشعراء، وورود «فَجَمِـعَ ٱلسَّحَرَةُ... الآيات﴾ المذكورة فاصلة بين ما اتصل في الأعراف؟ فٱعلم أولاً أن كلاً من العبارتين لا بد منهما في تحصيل المطلوب إذ جمعهم لا يعطي بهذه العبارة أنهم جاؤوا فرعون ولا مجيئهم فرعون يحصل منه المعنى الحاصل من قوله: فجمع السحرة لميقات يوم معلوم[3]، فلا بد من العبارتين، فاجتمع مجموع ذلك في الشعراء، ولم يذكر في الأعراف جمع السحرة وما بعده، فيبقى السؤال عن وجه اختصاص كل من السورتين بما ورد فيهما؟ واختصاص الشعراء بالاستيفاء والجواب عن ذلك (أن)[4] قوله[5] تعالى: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾[6] إلى ما اتصل بهذا مما يتضمن معناه، فيه إطناب يناسب ما تقدم من ذلك في محاورة موسى، عليه السلام، ومكالمته فرعون من لدن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى﴾ [7] إلى هذه الآية، ولم يقع في قصصه، عليه السلام، في السور الوارد فيها قصصه من الإطالة في مراجعة فرعون مثل الوارد هنا، فناسبه ما أعقب به مما لم يقع الإخبار في الأعراف، ولما كان الوارد قبل آية الأعراف مبنياً على الإيجاز، ويحصل المراد بأوجز كلام، ناسبه إيجاز

---

(1) سورة الأعراف: آية 113.
(2) سورة الأعراف: آية 112.
(3) سورة الشعراء: آية 38.
(4) بهامش ن 2.
(5) في ن 3: ان قوله تعالى.
(6) سورة الشعراء: آية 38.
(7) سورة الشعراء: آية 10.

الآية المذكورة، وورد كل من ذلك على ما يجب ويناسب، ولا يحسن فيه العكس، والله أعلم.

الآية الثامنة عشرة قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَجَاءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا أَئِنَّ[1] لَنَا لَأَجْرَاً إِنْ كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَالِبِينَ قَالَ نَعَمْ (وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾[2]، وفي الشعراء)[3]: ﴿فَلَمَّا (جَاءَ[4] ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرً إِنْ كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَالِبِينَ قَالَ نَعَمْ)[5] وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾[6]. فيسأل عن زيادة[7] «إذا» في سورة (الشعراء)[8] وسقوطها في الأعراف؟ وتحرير الأعراف في قوله: ﴿وَجَاءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا﴾ بخلاف الوارد في سورة الشعراء من قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالوَا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْراً﴾؟

والجواب عن الأول: أن «إذا» تقع جواباً وجزاء، والمعنى في السورتين مقصود به الجزاء، فوقع الاكتفاء في الأعراف بقوله (تعالى)[8]: «نعم»، والمعنى: نعم لكم ما أردتم من الأجر وزيادة التقريب والحظوة، ولا شك أن المعنى: إن غلبتم فلكم ذلك، فالمعنى

---

(1) قرأ الحرميان وحفص: «إن لنا لاجراً» بهمزة مكسورة على الخبر والباقون على الاستفهام.

(2) سورة الأعراف: آية 113-114.

(3) بهامش ن 2.

(4) بهامش ن 3.

(5) سقط من ن 2.

(6) سورة الشعراء: آية 41، إن هذه الآية ساقطة من ن 4.

(7) في ن 2: فيسأل عن هذا في زيادة، وهذا خطأ بين.

(8) بهامش ن 4.

(9) سقط من ن 3.

على ذلك، ثم ورد في سورة الشعراء مفصحاً بالأداة المحرزة له وهي «إذا» ليناسب بزيادتها ما مضت عليه ـ أي هذه السورة ـ من الاستيفاء والإطناب كما تقدم، وناسب سقوطها في الأعراف مقصود الإيجاز في هذه القصة وقد مر هذا، وعلى ذلك جرى الوارد من قوله في الأعراف: ﴿وَجَاءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا﴾، ويجري في مثل هذا كثيراً عطفه بالفاء مناسباً لما يقصد في الكلام من الارتباط أو بالواو تحكيماً للاشتراك كقوله ( )[1]، ونظير الآية في سقوط حرف التشريك ﴿وَجَاؤُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ قَالُوا يَا أَبَانَا﴾[11]. ومجرى[3] الإعراب[4] في الآية أن يكون قوله: «قالوا» مقدراً لاستئناف كأن قد قال قائل: لما قال ﴿وَجَاءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ قيل فما فعلوا أو ما قالوا فجووب بهذا المقدر بقوله: ﴿قَالُوا أَئِنَّ لَنَا لَأَجْراً﴾، وهذا الضرب كثير فصيح وموجود حيث يقصد بالإيجاز كهذه الآية، وأما الوارد في الشعراء من قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَ ٱلسَّحَرَةُ قالوا﴾[5] فوارد على ما لا يحتاج فيه إلى تقدير، وعلى ما هو الأصل في تركيب (مثله من)[6] الكلام ومناسب للإطناب المبني عليه ما قبل الآية، وكل (على)[7] ما يجب، والله أعلم.

الآية التاسعة عشرة (من الأعراف)[8] قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى

---

(1) بياض في كل النسخ.
(2) سورة يوسف: آية 16.
(3) في ن 3: تحرير.
(4) في غير ن 3: الأعراف.
(5) سورة الشعراء: آية 41.
(6) بهامش ن 2.
(7) بهامش ن 2.
(8) سقط من ن 2.

إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾[1]، وفي طه ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِي وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾[2]، وهنا سؤالان: أحدهما ان كلام السحرة وتخييرهم في الإلقاء على ظاهر السياق كان في موطن واحد فما وجه اختلاف ما ورد في السورتين؟ والثاني ما وجه اختصاص كل من السورتين بما ورد فيها؟

والجواب عن الأول: أنه لا يلزم من الآية أن كلام السحرة هذا كان في موطن واحد، بل لعله كان في موطنين، أولعله قد تكرر منهم وإن كان في موطن واحد، بل لعله كان في موطنين، أولعله قد تكرر منهم وان كان في موطن واحد، أولعل بعضهم قال هذا وقال بعضهم هذا، أولعل المعنى الذي حكي عنهم تعطيه العبارتان، وهذا أقرب شيء لما بين اللغات من اختلاف المقاصد عند المواضع الأولى أوقصد الإلهام على الخلاف في ذلك، ومع هذه الإمكانات يسقط الاعتراض رأساً.

والجواب عن السؤال الثاني: أن كل واحدة من الآيتين جرت على (وفق فواصل)[3] تلك السورة ورؤوس آياتها، فالعكس لا يناسب بوجه، فوجب اختصاص كل سورة بما ورد فيها.

الآية الموفية عشرين: قوله تعالى: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾[4]، وكذا في الشعراء[5]، وورد في طه: ﴿قَالُوا آمَنَّا

---

(1) سورة الأعراف: آية 115.

(2) سورة طه: آية 65.

(3) في ن 2: على وفق أصل، وفي ن 4: على فواصل، والصواب على وفق فواصل.

(4) سورة الأعراف: آية 121-122.

(5) سورة الشعراء: آية 47-48.

بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ [1] . هنا كالمتقدّمتين، والجواب كالجواب من غير فرق.

الآية الحادية والعشرون قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ [2] ، وقال في طه والشعراء: ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ [3] . هنا سؤالان: أحدهما ظهور إسم فرعون في آية الأعراف وإضماره في السورتين، والثاني قوله في الأعراف: ﴿آمَنْتُمْ بِهِ﴾ بجر ضمير موسى، عليه السلام، بالباء وقوله في طه والشعراء: ﴿آمَنْتُمْ لَهُ﴾ بجر الضمير باللام والمقصود واحد؟

والجواب عن الأول: انه لما تقدم في الأعراف قوله: ﴿قَالَ ٱلْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾[4] فعرفت هذه الآية انهم كانوا المتولين للجريمة من تكذيب الآية ورد ما جاء به موسى، عليه السلام، ولم يجر هنا ذكر لفرعون ولا فيما تلي (الآية)[5] ويتلوها من المحاورة والمراجعة بين الملا وأتباعهم إلى قوله: ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾، فلما لم يقع إفصاح بإسمه في هذه الجملة مع انه هو القائل على كل حال: ﴿آمَنْتُمْ بِهِ﴾ إخباراً أو استفهاماً إنكارياً ناسب هذا أن يفصح باسمه ليرتفع الالتباس، وهو إمكان أن يكون القائل: ﴿آمَنْتُمْ بِهِ﴾ غير فرعون وان بعد ذلك، ولو لم يكن لبس البتة فإن كونه لم يجر له ذكر مما يقتضي أن يذكر.

---

(10) سورة طه: آية 70.
(11) سورة الأعراف: آية 123.
(12) سورة طه: آية 71. وسورة الشعراء: آية 49.
(1) سورة الأعراف: آية 109.
(2) سقط من ن 3.

ولما تقدم في سورة طه أمر موسى، عليه السلام، بإرساله إلى فرعون (في قوله تعالى)[1]: ﴿ٱذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ[2] إِنَّه طَغَى﴾[3]، (وقوله لموسى وهارون: ﴿ٱذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾[4])[5]، ثم كرر ذلك[6]، ثم وقع بعد ذلك سؤال فرعون لهما في قوله: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾[7]، ثم في قوله: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَى﴾[8]، ثم أن الله تعالى أخبر عنه بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾[9]، ثم أخبر أيضاً عنه بقوله: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى﴾[10]، ثم قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾[11]، فتكرر ذكر فرعون واسمه ظاهراً ومضمراً ولم يجر لملئه ذكر مفصح به ظاهر البتة ولا مضمر سوى الجاري مضمراً في قوله: ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا ٱلنَّجْوَى قَالُوا﴾[12] إلى ما بعد هذا من غير إظهار البتة، فلتكرر ٱسم فرعون كثيراً ظاهراً ومضمراً، وارتفاع اللبس البتة،

---

(1) سقط من ن 2.
(2) بهامش ن 2.
(3) سورة طه: آية 24.
(4) سورة طه: آية 43.
(5) سقط من ن 2.
(6) في ن 3 تكرر ذلك.
(7) سورة طه: آية 49.
(8) سورة طه: آية 51.
(9) سورة طه: آية 56.
(10) سورة طه: آية 57.
(11) سقط من ن 2، ن 3.
(12) سورة طه: آية 60.
(13) سورة طه: آية 62-63.

حسن إتيانه مضمراً في قوله: ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ﴾ [1] إذ ليس الوارد هنا كالوارد في الأعراف للافتراق من حيث ذكرنا. وكذا جرى في سورة الشعراء من ترداد ذكر فرعون في محاورته من أول السورة إلى الآية، ولم يجر ذكر ملئه الا مقولاً لهم في قوله ﴿قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ﴾ [2]، فناسب ما ذكر إظهار آسم فرعون في قوله: ﴿آمَنْتُمْ لَهُ﴾[3].

والجواب عن السؤال الثاني: أن الباء في قوله: ﴿﴿آمَنْتُمْ بِهِ﴾ واللام في ﴿آمَنْتُمْ لَهُ﴾ محتاج إلى كل واحدة منهما من حيث أن التصديق والانقياد معنيان يحتاج إليهما، والباء تحرز التصديق واللام تحرز الانقياد والإذعان، فبدىء بالباء المعطية معنى التصديق وهي أخص بالمقصود من اللام، فاقتضى الترتيب تقديمها، ثم أعقب في السورتين بعد باللام[4] حتى كأن قد قيل لهم «أصدقتموه منقادين له في دعائه إياكم إلى الإيمان بما جاء من عند الله، فحصل المقصود على أكمل ما يمكن، والله أعلم.

الآية الثانية والعشرون قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾[5]، وفي سورة الشعراء[6] ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾[7]، وفي سورة طه:

---

(1) سورة طه: آية 71.
(2) سورة الشعراء: آية 34.
(3) في ن 3: قال آمنتم له.
(4) في ن 3: تعدياً للام، والصواب: بعد الكلام.
(5) سورة الأعراف: آية 124.
(6) سورة الشعراء: آية 49.
(7) سقط من ن 3.

﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾[1]. للسائل أن يسأل عن زيادة اللام في قوله في الشعراء «فَلَسَوْفَ» وسقوطها في الأعراف؟ وعن سقوط حرف التسويف واللام في طه جملة؟ فهذان سؤالان.

والجواب عن الأول منهما: أن زيادة اللام في الشعراء مناسب لما تضمنته من الاستيفاء الجاري في هذه القصة، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك، وذلك أن هذه اللام مقربة من زمان الحال وتحقيق الوقوع. ولم يكن تقدم في الأعراف ولا في طه ما يحرز هذا المعنى، فاستوفته هذه السورة ليناسب ذلك استيفاءها لما كان بين موسى، عليه السلام، وفرعون، وهذا مع ما تعطيه من التأكيد، وما سوى هذا المعنى في هذه الآية فلا فرق بين آية الأعراف وآية الشعراء إلى قوله: ﴿من خلاف﴾[2]

وأما سقوط حرف التسويف في طه مع اللام ــ وهو جواب السؤال الثاني ــ فللعوض منهما، وذلك العوض هو اللام والنون الشديدة المؤكدة في قوله: «وَلَتَعْلَمُنَّ»[3] مع أن معنى التسويف قد تقدم بمراعاة الترتيب، وإذا روعي ذلك وجد تدريج زيادة التأكيد على ترتيب السور. فالوعيد الواقع في آية طه آكد من (الذي في)[4] آية الأعراف، والذي[5] في

---

(1) سورة طه: آية 71، وفي ن 4: قدمت آية طه وأخرت آية الشعراء.

(2) في ن 2: فلا عوض، وفي ن 3: فلما عوض.

(3) سورة طه: آية 71.

(4) بهامش ن 2.

(5) في ن 3: والوارد ــ وهو مناسب.

الشعراء آكد من الوارد في طه، وإن استوضحت ذلك[1] فهمت[2] (وجه)[3] تخصيص كل من السور الثلاث بما خصت به.

الآية الثالثة والعشرون (قوله تعالى)[4]: ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[5]، وفي طه والشعراء ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾[6] بالواو والمتوعد به واحد في الموضعين، فيسأل لِمَ لَمْ يكن العطف فيهما بحرف واحد؟ والواو أنسب إذ التوعد[7] بقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ لم يقصد فيه تراخ في الزمان ولا مهلة، فبابه أن يأتي بالواو أو بالفاء إن قصد رعي التعقيب، فللسائل أن يقول: لم عدل في الأعراف إلى ثم.

والجواب أن ثم للتباين والتراخي في الزمان، ويعبر النحويون عن ذلك بالمهلة، وتكون للتباين في الصفات والأحكام وغير ذلك مما يحمل به[8] ما بعدها على ما قبلها من غير قصد مهلة زمانية بل ليعلم موقع ما يعطف بها وحاله، وأنه لو انفرد لكان كافياً فيما قصد به، ومنه قوله تعالى: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾[9]، وقوله تعالى:

---

(1) إلى هنا ينتهي النقص الموجود في ن 1، وقد وقع التنبيه قبل إلى بدايته، ص 269.
(2) في ن 1، ن 2: وجدت، والصواب وجه، وفي ن 4 بياض.
(3) بهامش ن 2.
(4) سقط من ن 1، ن 2.
(5) سورة الأعراف: آية 124.
(6) سورة الشعراء: آية 49، وسورة طه: آية 71.
(7) في ن 3: التواعد، والصواب التوعد.
(8) في ن 3: بها.
(9) سورة المدثر: آية 19-20.

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾[1] ثم عطف بعد قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَعَمِلَ صالحاً ثُمَّ ٱهْتَدَى﴾[3]، ولم يقصد في شيء من هذا ترتيب زماني بل تعظيم الحال فيما عطف وموقعه ومكانته وتحريك النفوس لاعتباره، ولما تقدم في الأعراف تهويل الواقع من فعل السحرة وموقعه من نفوس الحاضرين، ولذلك أنس سبحانه نبيه موسى، عليه السلام، بقوله: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْأَعْلَى﴾[4]، ووقع التعبير عما ذكرنا بقوله: ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاؤُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾[5] فناسبه رعياً لفظياً وتقابلاً نظمياً تهويل ما توعدهم به فرعون، فعطف بثم لتحرز ما قصد فرعون من تعظيم موقع ما توعدهم به ثانياً في قوله: ﴿لَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ عليهم، وأيضاً فإن فرعون وملأه حين رأوا ما جاءت به السحرة ووقع منهم موقعاً[6] أطمعهم وتعلق به رجاؤهم، ثم لما وقع ما أبطله وأوضح كيدهم فيه وباطلهم الخيالي وجد الملا لذلك، واستشعر فرعون ما حل به وبملئه، فهول في توعدهم ومقاله تجلداً وتصبراً أو تعزية لنفسه عما نزل به، فأرعد وأبرق في تهويله ما[7] توعد به السحرة فقال: ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾، فقد تناسب المتقابلان لفظاً ومعنى، ولما[8] ضم

---

(1) سورة البلد: آية 11.

(2) سورة البلد: آية 17.

(3) سورة طه: آية 82.

(4) سورة طه: آية 68.

(5) سورة الأعراف: آية 116.

(6) في ن 4: موقعها، والصواب موقعاً.

(7) في ن 1، ن 2، ن 4: وما.

(8) في ن 3: بيان بعد ولما علق عليه بالهامش: هنا بياض وفي نسخة غيرها لم يكن بياض.

الواقع في سورة الشعراء لم يحتج إلى هذا الرعي فعطف بالواو، ولم يكن على ما تقرر ليمكن العكس، والله أعلم.

الآية الرابعة والعشرون قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾[1] وفي الشعراء: ﴿قَالُوا (لَا ضَيْرَ)[2] إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾[3]، للسائل أن يسأل عن زيادة قوله: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ (في سورة الشعراء ولم يرد ذلك في الأعراف؟

والجواب عنه: أن قوله: ﴿لَا ضَيْرَ﴾[4] مقابل به ما تقدم من قوله: ﴿وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾[5] لما اعتقدوا أولاً أن له عزة ونسبوها إليه، فظنوا أنه يقدر على ما يريده ويستبد بفعله، ثم لما وضح لهم الحق رجعوا عن اعتقادهم وظنهم وعلموا أن القدرة والعزة لله سبحانه وسلموا لخالقهم ولم يبالوا بفرعون وملئه فقالوا: ﴿لَا ضَيْرَ﴾ أي لا ضرر ولا خوف من فرعون إذ العزة لله وحده، ولما لم يقع من قولهم في الأعراف أولاً مثل الواقع هنا لم يجيئوا في الجواب بما جاؤوا هنا، فافترق الموضعان وجاء كل على ما يجب، والله أعلم.

الآية الخامسة والعشرون قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾[6]،

---

(1) سورة الأعراف: آية 125، في كل النسخ: «المنقلبون» والصواب منقلبون دون لام التوكيد.

(2) بهامش ن 2.

(3) سورة الشعراء: آية 50.

(4) بهامش ن 1.

(5) سورة الشعراء: آية 44.

(6) سورة الأعراف: آية 188.

وفي يونس: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلَا نَفْعاً إِلَّا مَا شَاءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[1]، للسائل أن يسأل هنا عن تقديم النفع في الأعراف وتأخيره في يونس؟ وعن تعقيب آية الأعراف بقوله: ﴿لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾... الآية، وآية يونس بقوله: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾؟

والجواب عن الأول: أنه لما تقدم سؤالهم عن الساعة وتكرر في قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾[2] أي عالم بها وكان ظاهر السياق يشير إلى أنهم كانوا يظنون أنه، عليه السلام، يعلمها فطلبوا تعريفهم بها وأن يخصهم بذلك ولا شك أن العلم بالشيء نفع [3] لصاحبه، فعرفهم أنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، وتقدم ذكر النفع لأنه مشير إلى ما ظنوه[4] أنه عنده من علمها، فأعلمهم أنه سبحانه استأثر بعلمها، وأنه، عليه السلام، لا يملك من ذلك شيئاً إلا ما شاء الله له مما عدى علم الساعة لانفراده سبحانه عن خلقه بعلمها، ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾[5]، ثم تأكد هذا الغرض بقوله تعالى على لسان نبيه، عليه السلام: ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾[6]، وهذا كله بين التناسب.

---

(1) سورة يونس: آية 49.
(2) سورة الأعراف: آية 187.
(3) في ن 1، ن 2، ن 3: يقع والصواب: نفع.
(4) في ن 3: ظنوا.
(5) سورة الأعراف: آية 197.
(6) سورة الأعراف: آية 188.

وأما تأخير ما تقدم في الأعراف في سورة يونس وهو قوله: ﴿قُل لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلَا نَفْعاً﴾[1] فقدم الضر فللمتقدم قبله من قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا ٱلْوَعْدُ﴾[2]، فطلبوا تعجيل العذاب استهانة وتكذيباً ولم يعلموا ما في مطلبهم من المحنة والمضرة العاجلة فقال لهم، عليه السلام، بأمر الله تعالى إني لا أملك الضر ولا النفع لنفسي ولا لكم فلا تستعجلوني ذلك فليس بيدي، فقدم الضر لأجل ما تقدم من طلبهم إياه، وأخبروا أن لكل أمة أجلاً لما شاءه (الله)[3] وقدّره لهم: ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[4]، فقد وضح وجه التقديم والتأخير في الضر والنفع وتوجيه التعقيب بما أعقب به كل من الآيتين.

الآية السادسة والعشرون قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[5]، وفي سورة حَمّ السجدة[6]: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ[7] إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[8]، فوردت الصفتان في سورة الأعراف على طريقة التنكير ووردتا في السورة الأخرى معرفتين وزيد قبلهما الضمير الواقع فصلاً فقيل: ﴿إِنَّهُ هُوَ﴾، وللسائل أن يسأل عن وجه التعريف والتنكير؟ وعن زيادة الضمير؟

(1) سورة يونس: آية 49.
(2) سورة يونس: آية 48.
(3) سقط من ن 3.
(4) سورة يونس: آية 49.
(5) سورة الأعراف: آية 200.
(6) سورة فصلت.
(7) بهامش ن 2.
(8) سورة فصلت: آية 36.

والجواب عن السؤالين: أن سورة الأعراف تقدم فيها قبل الآية وصف آلهتهم المنحوتة من الحجارة والخشب التي وبخوا بعبادتها في قوله في موضع آخر: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾[1] فوصفت هنا بأنها لا تخلق شيئاً ولا يستطيعون لهم نصراً ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[2]، فمنفي عنهم القدرة والسمع والبصر وآلة المشي وآلة البطش بقوله: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا﴾[3]، ولم يتقدم هنا ما يوهم أدنى شيء يلحقها بشبه الأحياء فضلاً عما فوق ذلك، فورد الوصفان بقوله: ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ مورداً لم يتقدمه ما يوهم صلاحية شيء من ذلك لغيره تعالى مما عبده من دونه مما قصد هنا، ولا ذكر دعوى شيء من ذلك من مدع فيستدعي ذلك التوهم مفهوماً ينفيه، فجاء على ما يجب.

أما آية الأعراف فتقدم قبلها قوله (تعالى)[4]: ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾[6]، وقوله (تعالى)[7]: ﴿أَرِنَا ٱلَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ﴾[8]، فحصل من هذا أن مضليهم إنما كانوا من عالم الإنس والجن، وكلا الصنفين موصوف بالسمع والبصر

---

(1) سورة الصافات: آية 95.
(2) سورة الأعراف: آية 198.
(3) سورة الأعراف: آية 195.
(4) سقط من ن 3.
(5) سورة فصلت: آية 22.
(6) سورة فصلت: آية 25.
(7) سقط من ن 1، ن 2، ن 3.
(8) سورة فصلت: آية 29.

وممن ينسب إليه علم بخلاف المقدم[1] ذكره في الأعراف، فلما تقدم في سورة السجدة من يظن منه الغنى ويمكن منه أن يسمع ويبصر ويعلم ناسبه التعريف في الصفة ليعطي بالمفهوم نفي ذلك عن غير الموصوف بهما تعالى، ثم أكد ذلك بضمير الفصل المقتضي التخصيص فقوي المفهوم المسمى عند كثير من الأصوليين بدليل الخطاب، فصار الكلام في قوة أن لو قيل: الله هو السميع العليم لا غيره، وأحرز الفصل بالضمير هذا المعنى مع إعطاء المفهوم إياه، ولم يكن ورود ما في سورة الأعراف من التنكير ليناسب الوارد متقدماً في سورة السجدة، ولا التعريف الوارد في الصفتين العليتين في سورة السجدة ليناسب ما تقدم آية الأعراف[2]، فجاء كل على ما يناسب، والله أعلم.

* * *

---

(1) في ن 3: من قدم، وهو مناسب أيضاً.

(2) في ن 4: ما تقدم في سورة الأعراف.

سورة الأنفال

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[1]، وفي سورة براءة: ﴿ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ (بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ)[2] أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ ٱللَّهِ﴾[3]، فتقدم في آية براءة قوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على قوله: ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾، وفي الأنفال عكس ذلك فللسائل أن يسأل عن وجه ذلك وخصوص كل من السورتين بما خصت به؟

والجواب عن ذلك أن آية الأنفال مقصود فيها مع المدحة تعظيم الواقع منهم من الإيمان والهجرة والجهاد بالأموال والأنفس وتغبيطهم بما من الله عليهم به من ذلك وتفخيم فعلهم الموجب لموالاة بعضهم بعضاً، فقدم ذكر الأموال والأنفس تنبيهاً معرفاً بموقع ذلك من النفوس وأنهم بادروا بها على حبها وشح الطباع بها كقوله: ﴿وَآتَى ٱلْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾[4]، وليس تأخير هذا المجرور كتقديمه لأنه إنما يقدم حيث يقصد

---

(1) سورة الأنفال: آية 72.

(2) بهامش ن 4.

(3) سورة براءة: آية 20.

(4) سورة البقرة: آية 177.

اعتناء وتخصيص وتنبيه على موقعه، ومن نحو هذا قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُؤاً أَحَدٌ﴾[1]، وقد تقدم هنا، فإنما قدم هذا تغبيطاً لهم وإعظاماً لفعلهم.

أما آية براءة فتعريف بأمر قد وقع، مبني على التعريف بالمفاضلة بين سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام (وبين من آمن وهاجر وجاهد في سبيل الله بماله ونفسه بقصد رد من ظن أن السقاية وعمارة المسجد الحرام)[2] أفضل، وعرف أن الإيمان وما ذكر معه أعظم درجة عند الله، فلم يعرض هنا داع إلى تقديم ما قدم في الأخرى، فتمخضت فضيلة ذلك المجرور هنا فأخر. وقد نص سيبويه[3]، رحمه الله، على أن المجرور إنما يقدم حيث يكون مستقراً، ويعني بذلك الخبر نحو: عندك مال ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾[4]، (والقصد)[5] تخصيص كناية الإخلاص، والتخصيص مقصود في آية الأنفال (ولم يقصد ذلك في براءة ولا وقع المجرور فيها خبراً، فوجب بمقتضى اللسان أن يقدم في آية الأنفال)[6] قوله: ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ وَيُؤخر في سورة براءة، وقد وقع في كل واحدة من الآيتين في كل من السورتين ما استدعى اتصال ما بعده به، ولم يكن ليناسب لو ورد بالعكس، فوضح وجه تخصيص الواقع في كل من السورتين بموضعه، (والله أعلم)[7].

---

(1) سورة الإخلاص: آية 4.

(2) بهامش ن 2.

(3) الكتاب 324/1 «باب ما يقع موقع الاسم المبتدأ ويسد مسده».

(4) سورة البقرة: آية 36.

(5) بهامش ن 3.

(6) بهامش ن 2.

(7) سقط من ن 1، ن 3، ن 4.

سورة براءة

قوله تعالى: غ ــ وهي أول آية من متشابه هذه السورة ــ ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1]، وفيما بعد: ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ (مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ)[2] عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[3]، فاستوت الآيتان في إعلامه تعالى نبيه والمؤمنين أنه يتوب على من يشاء وفي ختم الآيتين بصفتين من صفاته سبحانه، ثم اختلفت الصفتان فقيل في الأولى: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، وفي الثانية: ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؟

ووجه ذلك والله أعلم أن الآية الأولى أعقب بها ما تقدمها متصلاً بها من الآي في كفار مكة وفعلهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من التضييق والاحراج وبدئهم بالقتال يوم بدر[4] ونقضهم العهد في قصة خزاعة[5] في صلح الحديبية[6]، وهذا كله مبسوط في كتب

---

(1) سورة براءة: آية 15.

(2) سقط من ن 1، ن 2، ن 3.

(3) سورة براءة: آية 27.

(4) يوم بدر: يوم الجمعة 17 من شهر رمضان لثمانية عشر شهراً من الهجرة، وبدر ماء سمي به الموضع.

(5) قصة خزاعة: بنو خزاعة حلفاء النبي صلى الله عليه وسلم، أعانت قريش بني بكر عليهم فاستنجدوا برسول الله فأنجدهم وخرج إلى مكة فكان الفتح.

(6) صلح الحديبية: بين المسلمين وقريش في السنة السادسة للهجرة والحديبية بئر على مرحلة من مكة.

السير والتفسير، فأمر الله تعالى بقتالهم ووعد بتعذيبهم وخزيهم والنصر عليهم وشفاء صدور من آمن من خزاعة وغيرهم ممن آذوه، قال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾[1]، (ثم)[2] قال تعالى: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾[3] كأبي سفيان ابن حرب[4] وعكرمة بن أبي جهل[5] إلى من أسلم منهم بعد ما صدر من اجتهادهم في الاذاية والصد عن سبيل الله، ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي بما في القتال وفي طي ما جرى من ذلك كله بتقديره السابق أولاً إذ لا تتحرك ذرة إلا بإذنه وتقدم علمه أولاً وما في ذلك من الحكمة وختم أفعالهم السيئة بآلأوبئة والرجوع إليه سبحانه بسابق سعادة لمن شاءها له منهم، فهذا وجه النظم والتناسب فيه واضح.

وأما الآية الثانية فسببها ــ والله أعلم ــ ما جرى يوم حنين[6] من تولي الناس مدبرين حين ابتلوا بإعجابهم بكثرتهم فلم تغن عنهم شيئاً، ولم يثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك اليـوم أحد إذ لم يبرح عليه السلام من مكانه، فلم يثبت معه إلا القليل من العدد القليل، فنادى العباس، رضي الله عنه، بآل الأنصار فاستجاب ناس، وأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، ومكن نبيه والمسلمين من

---

(1) سورة براءة: آية 14.

(2) بهامش ن 2.

(3) سورة براءة: آية 15.

(4) أبو سفيان بن حرب: صخر بن حرب بن ابن أمية، صحابي، توفي 31هـ. الأعلام 288/3؛ الإصابة ت 4041.

(5) عكرمة بن أبي جهل (ت 13هـ/ 776م) من صناديد قريش في الجاهلية والإسلام، أسلم بعد فتح مكة وحسن إسلامه، شهد الوقائع واستشهد في اليرموك.

(6) يوم حنين: غزوة حنين (السنة الثامنة للهجرة) وحنين واد قرب الطائف.

أعدائهم. والقصة معروفة، فختمت هذه الآي بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1]، تأنيساً لمن فر من المسلمين في ذلك اليوم، وبشارة لهم بتوبة الله عليهم، وإن ما وقع منهم من الفرار مغفور لهم رحْمة من الله سبحانه، فجاء كل هذا على ما يناسب، ولا يلائم خلافه، والله أعلم.

الآية الثانية قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ﴾[2]، وورد بعد هذا بآيات ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ﴾[3]، وبعد الحزب الأول من هذه السورة: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَافِرِينَ﴾[4]، وفي ذكر المنافقين من هذه السورة: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ﴾[5] للسائل أن يسأل عن وجه افتراق أوصاف المذكورين في هذه الآي بالظلم والفسق والكفر؟ وهل ذلك لداع من المعنى؟

والجواب أن كل وصف منها إنما جرى على ما تقدمه لداع مناسب من المعنى، أما الآية الأولى (فإن)[6] قبلها قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَاجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ ٱللَّهِ﴾[7]، وهؤلاء المقول لهم: ﴿أَجَعَلْتُمْ﴾ إنما هم كفار قريش ممن ظلم نفسه بالتقصير في النظر، وظن أن عمله من سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كاف مخلص عند الله، وأن

---

(1) سورة براءة: آية 27.
(2) سورة براءة: آية 19.
(3) سورة براءة: آية 24.
(4) سورة براءة: آية 37.
(5) سورة براءة: آية 80.
(6) بهامش ن 2.
(7) سورة براءة: آية 19.

المؤمن بالله واليوم الآخر المجاهد في سبيل الله ليس بأفضل حالاً وعملاً منه، فرد الله مقالهم وقيل لهم: ﴿لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ ٱللَّهِ﴾، ومن ظن ذلك كما ظننتم فظالم لنفسه من حيث قصر في نظره مع تنبيهه على النظر في وجه ما به خلاصه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ﴾، وهم الذين سبق في علم الله أنهم لا يؤمنون بظلمهم أنفسهم.

وأما الآية الثانية فكف ومنع للمؤمنين عن[1] ارتكاب ما ليس من شأنهم، ألا ترى أن قبلها: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾[2]، فنهوا عن موالاة من ذكر من آبائهم وإخوانهم إذا كانوا مؤثرين للكفر مستحبيه على الإيمان، ثم قيل لهم: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ﴾[3] ، ثم أعقب بقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ﴾[4] أي إن آثرتم ما ذكر وكان أحب إليكم ﴿مِنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾[5] أي أنكم إذا آتصفتم بهذا فقد خرجتم عن دينكم وفارقتم إيمانكم ولحقتم بمن كفر بعد إيمانه ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ﴾[6]، والفاسق الخارج.

---

(1) في ن 3: علي.
(2) سورة براءة: آية 23.
(3) سورة براءة: آية 23.
(4) سورة براءة: آية 24.
(5) سورة براءة: آية 24.
(6) سورة براءة: آية 24.

وأما الآية الثالثة فقبلها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[1]، (ثم ذكر مرتكبهم فيه وتزيين ذلك لهم لما قدر لهم من تماديهم في كفرهم فقال: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَٱللَّهُ لاَ يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَافِرِينَ﴾[2]، فوسموا أولاً بالكفر فقيل: ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[3]، إذ لم يكن تقدم لهم إيمان ثم خرجوا عنه بل كانت حالهم التمادي على كفرهم (الذي لم يتقدمه إيمان، ولما ذكر بعض ما حملهم عليه كفرهم)[4]، وأنه من سوء أعمالهم ومما زينه الشيطان لهم، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ﴾[5] الآيات، فوصفوا بالتظاهر بالإسلام ثم خرجوا عنه بشنيع كفرهم وقبيح مرتكباتهم، ووصفهم تعالى بأنهم ﴿يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[6] ومن لا يجد إلا جهده إلى قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[7]، ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ لاَ يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ﴾[8]، فلخروجهم ومفارقتهم ما قد كانوا تظاهروا به من الإسلام وصفوا بالفسق الذي هو الخروج والمفارقة، من قولهم فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرها، قال تعالى: ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾[9]، فقد وضح في كل آية من هذه أن ما آنجز فيها

---

(1) سورة براءة: آية 37.
(2) سورة براءة: آية 37.
(3) بهامش ن 2، ووقع تكراره في ن 3.
(4) بهامش ن 4.
(5) سورة براءة: آية 75.
(6) سورة براءة: آية 79.
(7) سورة براءة: آية 80.
(8) في ن 3: الظالمين، وهو خطأ.
(9) سورة الكهف: آية 50.

من وسم من أريد بها وجرى ذكره قبلها يقتضي ورود ذلك الوصف على ما ورد عليه، وأنه لا يلائم كل آية منها إلا ما أعقبت به، والله أعلم.

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ﴾[1]، وفي سورة الصف ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهُ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَافِرُونَ﴾[2]، ومعنى الآيتين في السورتين واحد وقد زادت آية براءة على آية الصف عشرة أحرف صوراً، فللسائل أن يسأل عن وجه ذلك؟

والجواب عنه، والله أعلم: أن زيادة آية براءة مقابل بها ما ورد من الطول في المحكي في هذه السورة من قول الطائفتين من اليهود والنصارى، قال تعالى حاكياً عَنْهُمْ: ﴿وَقَالَتِ اليَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَارَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾[3]، فوقع في المحكي هنا طول (اقتضى)[4] ما بني[5] (جواباً)[6]عليه ليتناسب.

وأما آية الصف فمقابل بها قول عيسى عليه السلام لما قال لهم: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ٱسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[7]، ثم قال تعالى: ﴿فَلَمَّا

---

(1) سورة براءة: آية 32.
(2) سورة الصف: آية 8.
(3) سورة براءة: آية 30.
(4) سقط من ن 3.
(5) في ن 1، ن 2: ما بقي والصواب ما بني.
(6) سقط من ن 4.
(7) سورة الصف: آية 6.

جَاءَهُمْ بِٱلْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[1]، وإنما الجواب على المحكي من قولهم خاصة وهو قولهم: ﴿هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾[2]، وليس هذا في الطول وعدة الكلم المحكي في سورة براءة، ألا ترى أن الواقع في سورة براءة ست كلمات وفي الصف ثلاث كلمات، ثم إن الواقع في سورة براءة مقال طائفتين منهم اليهود والنصارى مفصحاً به، والواقع في الصف مقالة (طائفة)[3] واحدة، وهذا مراعى. فقد وضح (ورود)[4] كل من الآيتين مناسباً لما اتصل به وعلى ما يجب (في السورتين)[5]، والله أعلم بما أراد.

الآية الرابعة: غ ــ قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[6]، وفيما بعد من هذه السورة ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[7]، وكذا في سورتي الحشر[8] والمنافقين[9] فورد في الأولى: ﴿يَعْلَمُ﴾ وفي البواقي: ﴿يَشْهَدُ﴾ مع أن المقصود في الأربع آيات واحد، وهو أنه سبحانه عليم بما يخفونه أو يظهرونه من أعمالهم. فللسائل أن يسأل عن وجه ذلك؟

---

(1) سورة الصف: آية 6.
(2) سورة الصف: آية 6.
(3) بهامش ن 3.
(4) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(5) سقط من ن 3.
(6) سورة براءة: آية 42.
(7) سورة براءة: آية 107.
(8) سورة الحشر: آية 11.
(9) سورة المنافقين: آية 1.

والجواب، والله أعلم: أن الاستطاعة وعدمها حكم لا يطلع عليه في الغالب بل ينفرد كل بحاله في ذلك إلا أن يعلم ذلك بقرينة، فقول المنافقين في إخبار الله تعالى عنهم ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾[1] غير مشاهد من ظاهرهم، فقد كان يمكن صدقهم أو صدق بعضهم لولا أنه سبحانه أعلم نبيه صلى الله عليه وسلم بحالهم وما يكون من اعتذارهم قبل أن يقع منهم وبتقاعسهم عن الخروج، فقال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾[2]، فأعلم تعالى بما يكون منهم قبل أن يكون، وذلك غيب، وأعلم بوجه تقاعسهم وتثبطهم، ثم أعلم بكذبهم فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[3]، فحصل العلم بحالهم بإخباره تعالى، ثم تكاثرت الشواهد عنهم. فلما كان حال الاستطاعة على ما ذكرنا من الخفاء حتى لا يطلع عليها، ناسب ذلك التعريف عن آطلاعه تعالى على ما أخفوه من حالهم بالعلم، فقال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[4]، ولا يناسب غيره.

أما الآية الثانية فهي في أهل مسجد الضرار[5] وأمرهم مما قد كانوا تواطئوا عليه، ولم يخف حال بعضهم عن بعض، وذلك بخلاف[6]

---

(1) سورة التوبة: آية 42.
(2) سورة التوبة: آية 42.
(3) سورة التوبة: آية 42.
(4) سورة براءة: آية 42.
(5) أنظر أسباب النزول، للواحدي، ص 195، وأهل مسجد الضرار: هو بنو غنم بن عوف بنوا مسجداً ودعوا رسول الله ليصلي فيه ويدعو لهم بالبركة، فنزل عليه الوحي يخبره بحقيقة أمره فأمر الرسول بهدمه وإحراقه.
(6) في ن 3: يخاف، والصواب: بخلاف.

حال الاستطاعة وما يمكن فيها من الخفاء[1]، فكان هذا مما يرجع إلى (حكم)[2] الظهور والشهادة، وهو سبحانه عالم الغيب والشهادة، فكان ورود قوله تعالى هنا: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ﴾ أنسب، وكذا الحكم في آية الحشر لبنائها على قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾[3] إلى آخر الآية، وكل هذا قول مشاهد معلوم مدرك بحاسة السمع، وما وعدوا به إخوانهم من نصرتهم والخروج معهم أن خرجوا كل ذلك مما كان يشاهد لو وقع، وليس شيء من ذلك كالاستطاعة في خفائها وغيابها، فناسب هذا قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [4] الوارد في سورة المنافقين، لأن قولهم: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾[5] قول مدرك بالسمع، مع أن هذه الآية قولهم نشهد، فطابق هذا وناسبه قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾[6]، وجاء كل من هذه الآي على ما يجب ويناسب، والله أعلم.

الآية الخامسة (قوله تعالى [7]): ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾[8]، وفيما بعد من هذه السورة: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا

---

(1) في ن 1، ن 2: الجفاء، والصواب الخفاء.
(2) بهامش ن 4.
(3) سورة الحشر: آية 11.
(4) سورة الحشر: آية 11.
(5) سورة المنافقين: آية 1.
(6) سورة المنافقين: آية 1.
(7) سقط من ن 1، ن 2.
(8) سورة براءة: آية 54.

بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَٱللَّهُ لاَ يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ﴾[1]، وبعد هذه الآية: ﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾[2]، للسائل أن يسأل عن زيادة الباء في قوله: «وبرسوله»، ولم تزد في الآيتين بعد والظاهر التساوي في مقصود هذه الاخبار فما الفرق وليس في المعقب من بعد ما يسأل فيه لأنها مقاصد مختلفة؟

والجواب: أنك إذا قلت مثلاً المانع من تقريب زيد نفاقه فإنك لم تزد على أن أخبرت عن علة منع تقريب زيد شيئاً، فإذا قلت أن المانع من تقريب زيد نفاقه فقد زدت على الإخبار بالمانع من تقريب زيد أنه نفاقه، وإن قلت إنما المانع من تقريب زيد نفاقه فقد حصرت المانع من التقريب في النفاق، وأكدت ذلك تأكيداً أكثر من الحاصل بإن، ولذا اتفق الأصوليون على قوة المفهوم الحاصل من قوله صلى الله عليه وسلم: «إنما الولاء لمن أعتق»[3]، ولم يتفقوا في المفهوم الحاصل من قوله عليه الصلاة والسلام: «في سائمة الغنم الزكاة»[4] وذلك بسبب ما تقتضيه إنما من معنى الحصر، وقد جرده بعضهم عن المفهومات وجعله دليلاً برأسه لقوته، وأبى أن يجعل[5] هذا من دليل الخطاب، وفي معنى قوله: «إنما الولاء لمن أعتق» وفي قوة قولك: «ما الولاء إلا لمن أعتق» فإن معناه حصر الولاء في المعتق وأنه لا ولاء لغيره، ومن هذا قوله

---

(1) سورة براءة: آية 80.

(2) سورة براءة: آية 84.

(3) البخاري: صلاة 70.

(4) النسائي: زكاة 5-10.

(5) في ن 3: يحمل، والصواب يجعل.

تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ﴾ [1]. أي ما يخشاه تعالى حق الخشية إلا العلماء، وقال تعالى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[2]، فنزه سبحانه نطق نبيه عن أن يكون غير وحي، وليس قولك في الكلام: هو وحي يوحى في قوة قولك: إنه وحي يوحى لما زدت من التأكيد بإن ولا قولك: إنه يوحى في قوة الاخبار القرآني من قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ لما بين قبل. فإذا وضح هذا فقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[3] وقد ورد على أبلغ وجوه التأكيد، وحصل حصر المانع من القبول في كفرهم، وأنه لو لم يكن الكفر لكان القبول، فناسب هذا التأكيد الذي بلغ به الغاية زيادة الباء في قوله: «وبرسوله» لإعطائها معنى التأكيد وإحرازها إياه. ولما لم يكن هذا التأكيد الحصري واقعاً في الآيتين بعد وإنما وكد فيها بأن قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[4] وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[5] فلم يبلغ بهذا الإخبار مع تأكيده وقوته مبلغ الأول لم تلحقه الباء، وجاء كل على ما يجب، والله أعلم بما أراد.

الآية السادسة (من سورة براءة)[6] قوله تعالى في المنافقين: ﴿وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾[7]، وقال فيما بعد: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ

---

(1) سورة فاطر: آية 28.
(2) سورة النجم: آية 4.
(3) سورة براءة: آية 54.
(4) سورة التوبة: آية 80.
(5) سورة التوبة: آية 84.
(6) سقط من ن 2.
(7) سورة براءة: آية 54-55.

أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي ٱلدُّنْيَا﴾[1]، فحملت الآية الأولى على ما قبلها بالفاء والثانية بالواو، وزيدت لا النافية في الأولى وسقطت من الثانية، وقيل في الأولى «لِيُعَذِّبَهُمْ» (وفي الثانية: أَنْ يُعَذِّبَهُمْ)[2]، وقال[3] في الأولى: ﴿فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ واكتفى بالوصف في الثانية فقيل: ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾، فتلك أربع سؤالات.

والجواب عن الأول: أنه لما وصف تعالى أقوال المنافقين في كفرهم وشتى مرتكباتهم وقرر ما هم عليه في آيات إلى قوله: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾[4]، فلما عرف بأحوالهم قال لنبيه عليه السلام: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ﴾[5]، وكان الكلام في قوة أن (لو)[6] قيل: إذا عرفت أحوالهم فلا تغتر بما لديهم فتظن أن ما مكناهم فيه ومنحناهم إياه من مال وولد إحسان عجلناه[7] لهم ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[8] ﴿وَإِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً﴾[9]، فالكلام في قوة الشرط والجزاء فكان موضع الفاء. أما قوله في الآية الأخرى[10]﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ

---

(1) سورة براءة: آية 85.
(2) سقط من ن 3.
(3) في ن 3 وقيل.
(4) سورة براءة: آية 54.
(5) سورة التوبة: آية 55.
(6) بهامش ن 3.
(7) في ن 3: عجلنا، والصواب عجلناه.
(8) سورة المؤمنين: آية 55.
(9) سورة آل عمران: آية 178.
(10) في ن 3: الآيات الأخرى، والصواب الآية الأخرى.

وَأَوْلَادُهُمْ﴾[1] فمنسوق على قوله ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ﴾[2]، وكل هذا نهي له صلى الله عليه وسلم أن يفعله وليس كالأولى[3] في أن (ذكر)[4] مرتكباتهم ما بني نهيه عليه السلام عليه فيتصور فيه معنى شرط وجزاء، فلا مدخل للفاء هنا ولا هو موضعها.

والجواب عن الثاني: أن (الآية)[5] الأولى مقصود فيها[6] من التأكيد ما لم يقصد في الثانية، لما قيل له عليه السلام: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[7] وذكر له من قبح مرتكباتهم أشنعها أكد نهيه عليه السلام عن أن يلتفت إليهم تنزيهاً لقدره العلي عن الصغو[8] إلى ما حاصله إملاء ولأهله[9] في الحقيقة استدراج وعناء، فدخلت لا النافية تأكيداً يناسب هذا القصد. ولما لم يكن في الآية الأخرى اشتراط وجزاء يقتضي التأكيد (فلم تدخل لا) فجاء كل على ما يجب ويناسب.

---

(1) سورة براءة: آية 85.
(2) سورة براءة: آية 84-85.
(3) في ن 3، ن 4: كالأول.
(4) سقط من ن 3.
(5) بهامش ن 1.
(6) في ن 3: مقصودها، والصواب: مقصود فيها.
(7) سورة براءة: آية 54.
(8) في ن 3: الصعود، والصواب: الصغو.
(9) في ن 1، ن 2: لأهله بسقوط الواو.

والجواب عن السؤال الثالث: أن قوله في الآية الأولى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾[1] بلام كي[2] مناسب لما في الآية من التأكيد)[3] إذ لا تقتضي تراخياً، فناسب هذا ما ذكر من التأكيد. أما قوله في الآية الثانية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ﴾[4] فيقتضي أن التأكيد لما لم يبلغ في هذه الثانية مبلغ الأولى بما تقدم فيها أشعرت أَنْ بما فيها من التراخي، فأن هذه ليست من التأكيد في نمط الأولى وهذا رعي مناسبة لفظية إذ الاخبار بحالهم ومآلهم واحد في الآيتين من غير فرق.

فإن قيل فإن لام كي في قوله تعالى: ﴿ليعذبهم﴾ تقدر بعدها أن على قول الجمهور فقد تساوت الآيتان، قلت ليس المعنى مع تقديرها هو المعنى مع ظهورها بل لظهورها حكم لا يكون في تقديرها، وقد نص سيبويه رحمه الله على ذلك في باب الجواب بالفاء من كتابه[5] أنه كلام العرب، فتبين أن قوله تعالى: ﴿ليعذبهم﴾ ليس كقوله: ﴿أن يعذبهم﴾ فيما يعطيه ظهور أن من التراخي، والله أعلم.

والجواب عن السؤال الرابع: أن قوله ﴿في الحياة الدنيا﴾ في الآية الأولى بالجمع بين الصفة والموصوف مناسب أيضاً وملائم أوضح ملاءمة للتأكيد الجاري فيها، أما الآية الأخرى فلا تأكيد فيها فناسب ذلك الاكتفاء بقوله: ﴿في الدنيا﴾، وجاء الكل على ما يجب ويناسب.

---

(1) سورة براءة: آية 55.

(2) في ن 3 بلام الجر بلام كي.

(3) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.

(4) سورة براءة: آية 85.

(5) الكتاب 489/1.

الآية السابعة (من سورة براءة)[1] قوله سبحانه وتعالى [2] ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِٱللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَأْذَنَكَ أُولُوا ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ ٱلْقَاعِدِينَ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾[3]، وقال بعدها[4] ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[5]، فيهما سؤالان: قوله في الأولى: ﴿وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ ببناء الفعل للمفعول مكتفى به، وفي الثانية: ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ﴾ ببناء الفعل للفاعل على الأصل؟ والثاني قوله في الأولى ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ وفي الثانية: ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

والجواب عن الأول: أن مطلع الآية قبلها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ على بناء الفعل للمفعول فجاء قوله: ﴿وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ على ذلك، ونوسب بختام هذه الآية بداءة[6] ما قبلها، وأما الثانية فلم يقع قبلها فعل بني للمفعول وقد ذكر الفاعل فيها فجرى الكلام على ما يجب فقيل: ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾.

والجواب عن الثاني: أن قوله: ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِٱللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ﴾. لما اجتمع ذكر إنزال السورة والاشارة إلى ذكر المراد بها بقوله: ﴿أَنْ آمِنُوا بِٱللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ﴾. استدعى ذلك

---

(1) سقط من ن 2.
(2) في ن 1، ن 2 قوله سبحانه في ن 4 قوله تعالى.
(3) سورة براءة: آية 86-87.
(4) في ن 3: بعد هذا.
(5) سورة براءة: آية 93.
(6) في ن 3: براءة، والصواب بداءة ـ في ن 4: بدء.

نظر من بلغه هذا المنزل واعتباره وتفهم المقصود به إلى الكمال ليقع الامتثال على وجهه، فلما تراموا إلى الخلود إلى الراحة وترك الجهاد الذي تحملت الآية الأمر به ناسب ذلك أن ينفي عنه الفهم والتدبر فقيل: ﴿وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾[1]، والتفقه التفكر والاعتبار. ولما لم يقع في الآية بعد ذكر ما يحتاج إلى ذكر تدبره وتفهمه لقرب المعنى المراد منه وذلك قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـأْذِنُونَـكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾[2] صرف النفي إلى الحاصل على التفهم وهو العلم فقيل: ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3].

الآية الثامنة من هذه السورة قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[4]، وقال بعد هذا ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ. . . الآية﴾[5]، فيهما أربع سؤالات: الأول: قوله في الأولى ﴿وَسَيَـرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ بـواو النسق ولـم يـرد فيـهـا ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، وقال فيها ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ﴾، وقال في الثانية: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ﴾ بفاء التعقيب، وفيها: «والمؤمنون» ولم يقل في الأولى: «والمؤمنون»، وقال: «وستردون» بالواو وفي الأولى «ثم تردون». فاختلفت الآيتان في ثلاثة مواضع فيسأل عنها وهل كان

---

(1) سورة براءة: آية 87.
(2) سورة براءة: آية 93.
(3) سورة براءة: آية 93.
(4) سورة براءة: آية 94.
(5) سورة براءة: آية 105.

يصح وقوع الأولى في موضع الثانية؟ والثانية في موضع الأولى؟ وكل منهما على ما بني؟ فهذه أربعة أسئلة.

والجواب عنها: على الجملة أن الآية الأولى في المنافقين لم يخالطهم سواهم والثانية في طائفة من المؤمنين كان فيهم تقصير ولهم إيمان فأنسوا وقوي رجاؤهم، قال الطبري[1]: هي فيمن تاب من المخلفين[2]، قلت ويشهد لهذا ما اتصل بالآية مما قبلها والواقع قبل الأولى من قوله: ﴿قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أي لستم صادقين في اعتذاركم، ثم قال ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ أي (قد)[3] أطلعنا على نفاقكم وسوء سرائركم، ثم قال: ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾، وهذا تهديد عطف على مثله، وقصد تعريفهم بالمجموع مما استوجبوا به المقت ولم يعطف بالفاء إذ ليس ما تعطيه من المعنى مقصوداً هنا، ولم يقل هنا والمؤمنون إذ النفاق عمل يخفيه المنافق فلا يطلع عليه إلا الله سبحانه، وقد يطلع عليه رسوله ومن شاء من عباده، وإنما كانوا يتظاهرون بخلاف ما يبطنون، ثم قال: «ثم تردون» فعطف ردهم إلى الله بثم المعطية مع مهلة الزمان هنا تفاوتاً في التهديد والوعيد، ولم تكن الواو لتعطي هذا المعنى وتحرزه، وقد تبينت المواضع الثلاثة التي خالفت فيها هذه الآية الآية التي بعدها.

---

(1) الطبري: (224هـ/ 839م ـ 310هـ/ 923م) هو محمد بن جرير الطبري أبو جعفر المؤرخ المفسر، ولد في آمل طبرستان، وتوفي في بغداد، له أخبار الرسل والملوك في التاريخ، وجامع البيان في التفسير، واختلاف الفقهاء (الأعلام 294/6؛ الوفيات 456/1؛ إرشاد الأديب 423/6).

(2) جامع البيان 462/14.

(3) بهامش ن 3.

وأما الثانية فهي في المتخلفين عن غزوة تبوك[1] قال الطبري: فيمن تاب منهم[2] كما تقدم[3]، وقد وقع قبلها قوله تعالى: ﴿وَآخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى ٱللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾[4]، ثم قال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾[5]، فأمره سبحانه بأخذ زكواتهم، وأخبره أنها تطهير لهم وتزكية، وأمره أن يدعو لهم بقوله: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾، ثم زادهم تأنيساً بقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾[6].

فإن قيل إنك قد عضدت هذا المأخذ في هذه الآية بما اتصل بها من قوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾، وهذه الآية مطلقة يراد بها جميع من أمر بالزكاة وهم المؤمنون ولم تختص بأهل تبوك ولا غيرهم، قلت: إنما دليلي في اتصالها بالآية عقبها المتكلم فيها وفي اتصالها بها تحصل الشهادة ويعتضد المراد ويلتئم النظم لأن من كان مقصوداً بالآية الثانية وهي قوله: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا﴾ على ما تمهد من جملة المؤمنين المخاطبين بالزكاة، فالمعنى ومقتضى النظم وجلالة التركيب وتناسب السياق تحصل

---

(1) غزوة تبوك (السنة الثانية للهجرة) وتعرف بغزوة العسرة تجهز فيها المسلمون لملاقاة الروم، ولكن لم تقع حرب ــ فيها اعتذر جمع من المسلمين عن الخروج ــ وقعد آخرون من المنافقين بغير عذر على رأسهم عبد الله بن أبيّ. وتبوك مكان في منتصف الطريق بين المدينة ودمشق.

(2) جامع البيان 462/14.

(3) صفحة 599.

(4) سورة براءة: آية 102.

(5) سورة براءة: آية 103.

(6) سورة التوبة: آية 104.

الشهادة. ثم نرجع فنقول قال تعالى ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا﴾ والمراد أمرهم بالدأب على أعمال البر[1] ما سلف من تقصيرهم، ونظير هذا ما وقع عقب قوله تعالى ﴿(قُلْ) [2] يا عِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ ٱللَّهِ... الآية﴾[3]، ثم قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [4]، فليس قوله: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا﴾ وإن كان قد يبدو منه تهديد كالواقع[5] في الآية قبل، إنما هو في الحقيقة أمر بالعمل المرجو محوه لما سلف من تقصير، وتهديد لمن لم يتب. وقوله: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ جواب للأمر من قوله: ﴿ٱعْمَلُوا﴾، فالفاء فاء جواب، وكأن قد قيل (تأنيساً)[6] لهم: أعملوا فلن يضيع عملكم، وقيل هنا: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ لأن الأعمال الإسلامية يشاهدها المسلمون بعضهم من بعض كالصلاة والزكاة والحج وغير ذلك من الأعمال، فيرى المسلمون ما تظوهر به من هذه الأعمال ويشهدون لما وراءها مما يرجع إلى قبيل الإيمان من الاعتقادات القلبية وما يرجع إليها، قال عليه السلام: «إذا رأيتم الرجل يشهد المسجد فاشهدوا له بالإيمان»[7]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ مَنْ آمَنَ بِٱللَّهِ الآية﴾[8]، فلهذا قيل في هذه الآية: «والمؤمنون» ولم يقل ذلك في

---

(1) في ن 3: لتمحوا، وفي ن 4: لتمحو، والصواب لمحو.
(2) سقط من ن 3.
(3) سورة الزمر: آية 53.
(4) سورة الزمر: آية 54.
(5) في ن 3: فالواقع، والصواب كالواقع.
(6) بهامش ن 4.
(7) في ن 4: بالإسلام، ونص الحديث «إذا رأيتم الرجل يتعاهد بالمسجد فاشهدوا له بالإيمان». (الترمذي: إيمان 8).
(8) سورة التوبة: آية 18.

أعمال المنافقين لأنها مما لا يتظاهرون بها للمؤمنين، (وهذا مما يعضد قول الطبري: أن الآية في التائبين من المتخلفين)[1]، لأن أعمال المنافقين قل ما يتظاهرون بها للمؤمنين إنما يبدونها لإخوانهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاؤُوكَ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾[4]، فإنما يشاهد المؤمنون ويرون ما يتظاهر به من الأعمال وفي هذا يشاركون نبيهم عليه السلام في رؤيته، فتلك أعمال المسلمين لا أعمال المنافقين، فقوله: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ على هذه الصفة من التشريك بينهم وبين نبيهم، عليه السلام، في رؤيته إنما هي أعمال الطاعة، فهي التي تشاهد ويشاهد التفاوت فيها[5] بين المحافظ والمقصر، ألا ترى قوله تعالى في الآية الأولى: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾[6] فإنما نبأهم سبحانه وتعالى بما لم يشاهدوه ولا رأوه من مضمرات المنافقين، ولما كان وُصولُ المؤمنين إلى تعرف ذلك باخبار الله تعالى (من)[7] غير رؤية من المؤمنين لذلك ما قال تعالى: ﴿وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ ولم يقل هنا: «والمؤمنون» لأنهم لم يحصل لهم شيء من أخبار المنافقين إلا بإنباء الله تعالى لا بإدراك رؤيته.

---

(1) سقط من ن 3.
(2) سورة البقرة: آية 14.
(3) سورة المائدة: آية 61.
(4) سورة آل عمران: آية 154.
(5) في ن 1، ن 2، ن 4: فيا.
(6) سورة براءة: آية 94.
(7) بهامش ن 3.

أما الآية الثانية فقيل فيها: «المؤمنون» لأن الواقع من هؤلاء ـ والله أعلم ـ أعمال مرئية كما قدمنا، فشهد هذا السياق ـ والله أعلم ـ أن الآية الأولى في المنافقين المستمرين على نفاقهم، وان الثانية في التائبين المستمرين بعد على أعمال محمودة تشاهد وترى، هذا حاصل قول الطبري، وان قلنا بما قال أبو محمد بن عطية[1] ورغم أنه الظاهر من أن المراد بقوله ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا... الآية﴾، المعتدون الذين لم يتوبوا المتوعدون المعنيون بقوله ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾[2] فيعارضنا اتصالها بما اتصلت به[3]، وأما على قول الطبري فلا إشكال، وهو أظهر، والله أعلم بما أراد.

وقد استمر كلام من وقفنا على كلامه من المفسرين على عبور هذا الموضع دون نزول للاعتبار، وهو من المواضع التي يجب أن يتعرض لها، وقد جرى فيها كلام الزمخشري[4] على مقتضى قول الطبري من غير تعرض لغير ذلك، وهو ظاهر، والله أعلم.

الآية التاسعة: غ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾[5]، وفي سورة هود: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾[6]، فتقدم في الأولى الوصف بأواه، على حليم وتأخر في الثانية وتقدم فيها وصفه بحليم.

---

(1) أبو محمد بن عطية، سبقت ترجمته، ص 212.
(2) سورة التوبة: آية 78.
(3) تفسير ابن عطية، المجلد الثاني من المخطوطة، ورقة 142، الوجه الأول.
(4) الكشاف 308/2.
(5) سورة التوبة: آية 114.
(6) سورة هود: آية 75.

ووجه ذلك، والله أعلم، ان الأواه الكثير التأوه، وفي كتاب ابن عطية أن التأوه التفجع[1]، فالمراد بالآية أن إبراهيم، عليه السلام، مع غلظة أبيه وقساوته حتى قال له ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾[2] وإبراهيم، عليه السلام، مع ذلك يتأوه تأسفاً وتحسراً على اباية أبيه عن إجابته وأتباعه مع تلطف إبراهيم، عليه السلام، في قوله دعاء[3] لأبيه إلى الإيمان في إخبار الله تعالى عنه: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾[4] إلى قوله: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَانِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً﴾[5]، فكان، عليه السلام، لفرط ترحمه ورأفته[6] وحلمه يتعطف على أبيه ويستغفر له، ولم يزل على ذلك إلى أن قطع من حاله وتبين له أنه عدو الله فتبرأ منه، فأخبر الله تعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بما كان من أبيه إبراهيم في ذلك ليقتدي به ويهتدي بهديه، فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى (مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾[7])[8]، وأعلمه تعالى بعذر إبراهيم في استغفاره، وان ذلك كان عن موعدة تقدمت منه لأبيه، فتقدم وصف إبراهيم، عليه

---

(1) تفسير ابن عطية، المجلد 2، ورقة 182، الوجه 1.
(2) سورة مريم: آية 46.
(3) في ن 3: داعياً.
(4) سورة مريم: آية 42.
(5) سورة مريم: آية 42.
(6) سورة مريم: آية 45.
(7) في ن 3، ن 4: رقته.
(8) سورة التوبة: آية 113.
(9) سقط من ن 3.

السلام، في (هذه الآية بأنه أواه)[1]، وذلك مناسب لما بيناه، أما آية هود فمنزلة على ما ذكر سبحانه من مجادلته في قوم لوط جرياً على ما وصفه سبحانه به من الحلم، فكان تقديم وصفه هنا بالحلم أنسب وأجرى على ما بني عليه، فوضح ورود كلا الموضعين[2] على ما يجب ويناسب، ولا يمكن عكس الوارد على ذلك، والله أعلم.

* * *

---

(1) بهامش ن 2.

(2) في ن 3: كل من الموضعين.

سورة يونس (عليه السلام)

الآية الأولى منها: غ ـ قوله تعالى: ﴿آلر تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْحَكِيمِ﴾[1]، وفي سورة لقمان: ﴿آلمٓ تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْحَكِيمِ﴾[2]، وفي مطلع سورة يوسف ﴿آلر تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ﴾[3]، فافتتحت تلك السور الثلاث بعد الحروف المقطعة في مطالعها بالإشارة إلى الكتاب المذكر[4] به والمنبه بآياته، فقيل: ﴿تِلْكَ آياتُ ٱلْكِتَابِ﴾، ثم وصفه في السورتين بالحكيم وفي سورة يوسف بالمبين، فيسأل عن ذلك؟

والجواب، والله أعلم: ان سورتي يونس ولقمان تردد فيهما من الآيات المعتبر بها المطلعة على عظيم حكمته تعالى واتقانه للأشياء ما لم يرد في سورة يوسف كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[5]، وخلق السماوات والأرض وما انطوت عليه من أعظم المعتبرات قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَاوَاتِ

(1) سورة يونس: آية 1.
(2) سورة لقمان: آية 1، 2.
(3) سورة يوسف: آية 1.
(4) في ن 3: المتذكر.
(5) سورة يونس: آية 3.

وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [1]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [2]، وقد تبع الآية المذكورة من سورة يونس ما يجاريها في التنبيه بما به الاعتبار كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَاءً وَٱلْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ إلى قوله ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [3]، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ [4]، لم يتخللها ما يخرج عن باب الاعتبار من حكم أو غيره ولا من القصص الا ما تضمن اعتباراً كالوارد من قصة نوح من قوله لقومه ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي . . .﴾ الآية إلى قوله: ﴿ثُمَّ ٱقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونَ﴾ [5]، والمراد من هذا الكلام تعجيزهم وقطعهم عما كانوا يرومون من الكفر به، عليه السلام، وإرادة إهلاكه، وقد قطع، عليه السلام، بنصرة الله إياه عليهم وقطعهم دون ما يرومونه [6] وان تألبوا واجتمعوا، وذكر، عليه السلام، شركاءهم وأن يكونوا معهم تهكماً بهم وتوبيخاً على اعتمادهم على ما لا يعقل ولا يضر ولا ينفع، وفي هذا كله أعظم معتبرة ثم ذكر تعالى نجاة نوح، عليه السلام، منهم في الفلك هو ومن آمن معه، وجعلهم خلائف، وإغراق أعدائهم المكذبين ولم يغن عنهم كيدهم. ولم يرد هذا الضرب المقتضب من

---

(1) سورة غافر: آية 57.

(2) سورة الجاثية: آية 3.

(3) سورة يونس: آية 5.

(4) سورة يونس: آية 6-7.

(5) سورة يونس: آية 71.

(6) في ن 2: يرمونه، والصواب يرومونه.

قصة نوح، عليه السلام، على هذه الصفة في غير هذه السورة لما قدمنا ذكره، ولم يكن ليناسب ما بنيت عليه السورة غير هذا الوارد.

ومن نحو هذا ما ورد فيها من قصة موسى، عليه السلام، ودعائه في قوله: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾[1]، فكان ذلك حسب ما دعاه إلى ذكر إغراق فرعون وملئه وطمعه في الإيمان حين أدركه الغرق فقال: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا ٱلَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾[2]، فلم ينفعه ذلك لفوات وقته، فاقتصر أيضاً على هذا القدر من قصة موسى، عليه السلام، لما تقدم من مناسبة هذه السورة.

وأما سورة لقمان فورد فيها قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾[4] إلى قوله: ﴿هَذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾[3]، وبعد ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا[5] أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[6]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ...﴾ الآية[7]، وفي هذه السورة أيضاً ما منح لقمان من الحكمة، وما انطوت عليه قصته من حكمة، وما صدر عنه في وصيته، ولم تخرج آي هذه السورة عن هذا، فهذا وجه وصف الكتاب في هاتين السورتين بالحكيم.

---

(1) سورة يونس: آية 88.
(2) سورة يونس: آية 90.
(3) سورة لقمان: آية 10.
(4) سورة لقمان: آية 11.
(5) في كل النسخ «ألم تر».
(6) سورة لقمان: آية 20.
(7) سورة لقمان: آية 25.
(8) سورة لقمان: آية 34.

وأما سورة يوسف، عليه السلام، فلم تنطو على غير قصته، وبسط التعريف بقضيته، وبيان ما جرى له مع أبيه. من فراقه، وامتحانه بإلقائه في الجب والبيع، والتعرض له بالفتنة وتخلصه بسابق اصطفائه مما كيد به، وابتلائه بالسجن، وجمعه بأخيه، واشتمال شمله بأبيه، عليهما السلام، واخوته. ولم تخرج آية من آي هذه السورة عن هذا، من بسط هذه القصة، فلهذا اتبع الكتاب بالوصف بالمبين[1]. فقد وضح ورود كل من الموضعين على ما يجب ويناسب، والله أعلم.

فإن قيل فما وجه ورود الميم في سيرة لقمان مكان الراء في قوله تعالى: (الـرٓ)[2] في السورتين فقيل في مطلع لقمان: آلم مع موافقتها سورة يونس، عليه السلام، فيما تمهد ثم خالفتها في هذه فقيل: «آلم»؟ فللسائل أن يسأل عن وجه ذلك؟

والجواب عن ذلك ــ والله أعلم ــ ان سورة لقمان تضمنت من التنبيه والتحريك والاعتبار إفصاحاً وإيماء للمؤمن والكافر ما لم تتضمن سورة يونس على طولها، وان كانت آيها كلها آي اعتبار الا أنها ليست كالوارد من ذلك في سورة لقمان، فمن التنبيه المتضمن تقريع من عبد غيره سبحانه قوله تعالى بعد ذكر (خلق)[3] السموات بغير عمد، وإرساء الأرض بالجبال وذكر ما بث فيها من الدواب، وانزال الماء من السماء، وذكر ما أنبت سبحانه به من كل زوج بهيج، فقال تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ

---

(1) في ن 3: المبين.

(2) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.

(3) بهامش ن 3.

ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾[1]، ولا نجد مثل هذا حيث تراد المبالغة في توبيخ من عبد الله غيره.

ويجاري هذا في هذا القصد، الا أنه أرفق في التعنيف، قوله تعالى في سورة يونس ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَـائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾... الآيات[2]، الا أنها ليست كآية لقمان، ولا ختمت بمثل ما ختمت به، وقد تكرر هذا في آيات. وآية لقمان من أشدها وعيداً، ولعظيم ما انطوت عليه اتبعها تعالى بتأنيس نبيه صلى الله عليه وسلم بعد قصة لقمان بقوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلاَ يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ﴾[3]، وبإخباره انهم لو سئلوا من خلق السماوات والأرض لم يجدوا مصرفاً غير الاعتراف فقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[4] ليعلم، عليه السلام أن ذلك من حالهم، جار عليهم بقدر الله وما سبق في علمه، وهو الحكيم في أفعاله.

ومن التنبيه للمؤمنين ولغيرهم ــ ممن سبقت له السعادة ــ قوله مخاطبة لنبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱللَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ... الآية﴾[6]،

---

(1) سورة لقمان: آية 11.
(2) سورة يونس: آية 34.
(3) سورة لقمان: آية 23.
(4) سورة لقمان: آية 25.
(5) سورة لقمان: آية 20.
(6) سورة لقمان: آية 29.

(وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ... الآية﴾[1])[2].
فورد هذا التنبيه بهمزة التقرير ولم الجازمة، وهي الأداة المتكررة في آي التنبيه، فتكررت في هذه السورة في ثلاث آيات، ولم تقع متكررة في شيء مما أتى بعدها من السور إلى آخر ٱلقرآن، ولا في سورة مما قبلها مما يماثلها في عدد كلمها، ولا فيما هو على الضعف منها الا في سورة فاطر وهي أطول من سورة لقمان، فتناسب ذلك مع ما في هذه السورة من التنبيه في مطلعها بوقوع الميم مكان الراء الواردة في مطلع سورة يونس.

وأما سورة يونس فمبنية على التعريف بربوبيته تعالى وقصره، وقد ابتدأت ثالثة آيها بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[3]، ثم تكرر فيها اسمه[4] الرب سبحانه في بضعة عشر موضعاً، أولها هذا، وآخرها قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[5]، ولم يرد من هذا في سورة لقمان غير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا يَوْماً لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ... الآية﴾[6]، ثم إنه تكرر في سورة يونس من الكلم الواقع فيها الراء مائتا كلمة وعشرون كلمة أو نحوها، وأقرب السور إليها مما يليها بعدها من غير المفتتحة بالحروف المقطعة سورة النحل، وهي أطول

(1) سورة لقمان: آية 31.
(2) بهامش ن 2.
(3) سورة يونس: آية 3.
(4) في ن 2، ن 4: اسم.
(5) سورة يونس: آية 108.
(6) سورة لقمان: آية 33.

منها، والوارد فيها مما تركب على الراء[1] من كلمها مئتا كلمة مع زيادتها في الطول عليها، فلمجموع ما ذكرنا وردت في الحروف المقطعة الراء مكان الميم الواردة في لقمان، وجاء كل على ما يجب ويناسب، والله أعلم.

الآية الثانية من سورة يونس قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾[2]، وقال في الأنبياء: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾[3]، (وقال تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾[4])[5]، فقدم في سورة يونس ما أخر في سورة الأنبياء والفرقان، فيسأل عن ذلك؟

والجواب عنه ـ والله أعلم ـ ان الموجب لِتأخير: «ولا ينفعهم» في سورة يونس ما وصل به من قولهم: ﴿ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾[6]، فكأن قد قيل: ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويزعمون أن ذلك ينفعهم، ولم يكن ليناسب لو قيل: ﴿ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ تناسب الوارد من متصل قوله: ﴿ولا ينفعهم﴾ بقوله: ﴿ويقولون هؤلاء شفعاؤنا

---

(1) في ن 1، ن 2 على الراء من الراء.
(2) في ن 3: مائة، والصواب مائتا.
(3) سورة يونس: آية 18.
(4) سورة الأنبياء: آية 66.
(5) سورة الفرقان: آية 55.
(6) بهامش ن 2.
(7) سورة يونس: آية 18.

عند الله﴾[1]، فلما كان الاتصال فيما ذكر أنسب وردت الآية بحسب ذلك.

أما آية الفرقان فان قبلها ذكر دلائل وشواهد من مصنوعاته تعالى، يهتدي المعتبر بالنظر فيها إلى تخلصه من ورطات الشكوك، ويستقيم له دينه، وذلك أعظم النفع وأجله، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾[2] إلى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً﴾[3]، فلما تقدم التنبيه بهذه الآيات الواضحات الموقظات من سنات الغفلات والمحصلات أعظم النفع في امتثال الواجبات والنجاة من الضلالات ناسبها تقديم ما قدّم في الآية من قوله ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾[4]، وصار الكلام بقوته مجاوباً لقوله: أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾[5]، وورد كل على ما يجب، والله أعلم.

الآية الثالثة من سورة يونس: غ ــ قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[6]، وفي سورة سبأ ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[7]، فأفرد لفظ السماء في الأولى وجمع في الثانية مع اتحاد المعنى والتساوي في ألفاظ الآية غير ما ذكر، فيسأل عن ذلك؟

---

(1) بهامش ن 1.
(2) سورة الفرقان: آية 45.
(3) سورة الفرقان: آية 54.
(4) سورة الفرقان: آية 55.
(5) سورة النحل: آية 17.
(6) سورة يونس: آية 31.
(7) سورة سبأ: آية 24.

والجواب[1] عنه ان الأفراد الوارد في آية يونس محصل للمعنى مع الإيجاز، فورد هنا على ما يجب، وأما الوارد في سورة سبأ على الجمع فروعي فيه ما تقدم من قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾[2] والمراد بذلك نفي الشركاء له تعالى، ثم عاد الكلام إلى ذلك أيضاً فقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[3] على الجمع مناسبة، إذ الآية قبل وهذه في قضية واحدة وهي نفي الشركاء والأنداد فجاءت على ما يناسب التي قبلها.

فإن قيل: فلم ورد الجمع في قوله في الأولى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ﴾[4] وقد كان لفظ الإفراد يحرز هذا المعنى مع انه أوجز؟ فالجواب ان ما قصد من قطع توهمهم أن شركاءهم ينفعونهم أو يملكون شيئاً وان قل والتصرف في شيء مما قصد من هذا يقتضي تعميم النفع وتأكيد هذا الغرض بأعم ما يعبر به في ذلك، فناسب ذلك جمع السماوات، ولم يكن الإفراد ليناسب، ثم نوسب بين هذه الآي التي بعدها في الجمع، ولم يكن في آية يونس ما يستدعي ذلك، فجاء كل على ما يجب ويناسب، والله أعلم.

الآية الرابعة من سورة يونس قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ[5]

(1) ما وقع بين القوسين بهامش ن 2.
(2) سورة سبأ: آية 22.
(3) سورة سبأ: آية 24.
(4) سورة سبأ: آية 22.
(5) في ن 4: «كلمات» قرأ نافع وابن عامر: «كلمات ربك» على الجمع والباقون بالتوحيد.

رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1]، وقال في سورة المؤمن: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ﴾[2]، للسائل أن يسأل هنا عن قوله في الأولى: «كذلك» بغير حرف عطف وفي الثانية: «وكذلك»، وعن قوله في الأولى: (﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوا﴾ وفي الثانية: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وعن قوله في الأولى)[3]: ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وقوله في الثانية: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ﴾؟: فتلك ثلاث مسائل.

والجواب: أنه لما تقدم في سورة يونس قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَارَ﴾[4]، إلى قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾[5]، فذكر سبحانه عباده بما لا يجدون محيصاً عن إضافة ذلك كله وإسناده إليه (سبحانه)[6]، إذ الرزق كالخلق، وقد كانوا يقرون بإسناد الخلق إليه سبحانه، قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[7]، وأخبر هنا سبحانه باعترافهم بإسناد ما قرروا عليه إليه بقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾[8] قيل لهم: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[9] أي عجباً لكم كيف تجمعون بين الإقرار بهذا كله ثم لا تخافون من إليه ذلك

(1) سورة يونس: آية 33.
(2) سورة غافر: آية 6.
(3) بهامش ن 1.
(4) سورة يونس: آية 31.
(5) سورة يونس: آية 32.
(6) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(7) سورة الزخرف: آية 87.
(8) سورة يونس: آية 31.
(9) سورة يونس: آية 31.

كله وتتخذون وقاية من عذابه على مخالفتكم، ثم قيل لهم: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾[1]، أي مالك ذلك كله والمنفرد بتدبيره هو ربكم الحق فكيف تتصرفون عنه، ثم أخبر تعالى أن كلمته التي لا مبدل لها حقت[2] على من انصرف عن الحق وتركه بعد بيانه بحسب ما قدر له في الأزل ولم يقلع عن ذلك أنه لا يؤمن أبداً ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ[3] رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾[4]، ولما لم يتقدم قبل هذه الآيات فيما اتصل بها مقال مَنْ ذكر ممن حقت عليه كلمة العذاب أتى (قوله)[5]: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ﴾، فصورة الاستئناف غير معطوفة إذ لم يتقدم ما يعطف عليه وقيل: «فسقوا»، لأن بما تقدم مما قرروا عليه مع ما جعل لهم من الأسماع والأبصار والأفئدة، مكنوا من النظر بما خلق لهم من الأدوات ووضوح المنظور فيه، فبمجموع هذا كانوا بمنزلة من تحصل له الأجر، وكأنه قد اتصف به، وتمكنت حاله فيه، ثم تركه وخرج عنه. ونظير هذا قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلضَّلَالَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾[6]، فلاءم هذا الحال وسمهم بالفسق فقيل: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوا﴾، فاستحقوا على فسقهم بقدر الله عليه أن منعوا التصديق وهو الإيمان فأضلهم الله على علم.

---

(1) سورة يونس: آية 32.

(2) في ن 3: ان لا. وهذا خطأ.

(3) على قراءة نافع وابن عامر.

(4) سورة يونس: آية 96-97.

(5) بهامش ن 2.

(6) سورة البقرة: آية 16.

أما آية غافر فإنه تقدم قبلها قوله تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [1]، ثم أعقب بذكر قوم نوح والأحزاب وهم كل أمة منهم برسولهم ليأخذوه، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذهم الله وأهلكهم بما حق عليهم. ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَاتُ (رَبِّكَ) [2] عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أنهم أَصْحَابُ ٱلنَّارِ﴾ [3] وأهلها، فكيف يصح منهم الإيمان وقد حقت عليهم الكلمة: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي ٱلنَّارِ﴾[4]، فلما تقدم في هذه السورة ذكر من حقت عليه كلمة العذاب عطف عليه ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ﴾. ولم يتقدم ذلك في يونس، ولما تقدم قوله تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [5] ولم يتقدم بسط دلالات مما به الاعتبار لم يكن هؤلاء بمنزلة المذكورين في يونس وإن كانت الدلالات عنده في حق الكل ولكن مراعاة النظم أمر ملتزم، والإفصاح بالذكر كما أفصح في آية يونس لم يقع هنا، فلما لم تكن هذه الآية كتلك فيما ذكر وسم هؤلاء بالكفر وقيل: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ولم يقل: «فَسَقُوا» إذ لم يتقدم هنا ما تقدم هناك مما يتقدم معه ذكر الفسق، وأيضاً فقد تقدم في غافر قوله تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ ٱللَّهِ (إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا)[6]﴾[7] فناسبه ﴿وَكَذَٰلِكَ

---

(1) سورة غافر: آية 4.
(2) بهامش ن 3.
(3) سورة غافر: آية 6.
(4) سورة الزمر: آية 19.
(5) سورة غافر: آية 4.
(6) سورة غافر: آية 4.
(7) سقط من ن 1، ن 2.

حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾[1]، وإذا كانوا كافرين فهم أصحاب النار، فأما الفاسق فإن كان فسقه يخرجه عن الإيمان كان كافراً، وإن كان بالخروج إلى المعصية دون الكفر لم يكن كافراً، إلا أن المراد بفسوق من ذكر في سورة يونس إنما هو ترك الاعتبار الحامل على الإيمان إذا وفق المعتبر، فالتارك لذلك خارج عن التصديق فكان كافراً، فقد حصل الجواب عن السؤالات الثلاث، ووضح مجيء كل على ما يناسب، وإن الوارد في سورة يونس لا يناسبه ما تقدم قبل الآية في سورة غـافر، ولا الوارد في سورة غافر يناسب ما تقدم في سورة يونس، والله أعلم.

الآية الخامسة قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2]، وقال فيما بعد: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَاءَ﴾[3]، ثم قال بعد: ﴿قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾[4]. هنا ثلاث سؤالات، يسأل عن سقوط «مـا» من قوله في الآية الأولى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؟، ووجه ثبوتها في الآية الثالثة في قوله: ﴿لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[5]؟ وعن ورود «من» مكان «ما» في الآية المتوسطة في قوله: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[6]؟

---

(1) سورة غافر: آية 6.
(2) سورة يونس: آية 55.
(3) سورة يونس: آية 66.
(4) سورة يونس: آية 68.
(5) سورة يونس: آية 68.
(6) سورة يونس: آية 66.

والجواب عن السؤال الأول: أنه تقدم قبل الآية قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِ﴾[1] (وهذه الآية مبنية عليها، ومجموع الآيتين في قوة أن لو قيل: ﴿ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض لافتدت به﴾[2] وليس ذلك لها بل كل ذلك لله سبحانه: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[3]، فلما كانت مبنية على هذه التي قبلها ــ والمعنى يبين ذلك ــ وقع الاكتفاء بوقوع ما في الأولى، واجتزىء بذا[4] عن تكرارها في الثانية، وليس الموضع موضع تأكيد فتكرر لذلك.

وأما ثبوتها في الآية الثالثة ــ وهو السؤال الثاني ــ فوجهه أن التأكيد مقصود في هذه الآية لأن قبلها حكاية قول الكفار: ﴿قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَداً﴾[5]، فنزه تعالى نفسه عن مقالهم فقال: ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[6]، وإذا ورد في القرآن ذكر مقال هؤلاء المعتدين في ضلالهم تبعه ذكر ملكه سبحانه لكل من في السماوات والأرض، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَانُ وَلَداً﴾[7]، ثم قال: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا﴾[8] ثم ذكر سبحانه عظيم مرتكبهم في شنيع

---

(1) سورة يونس: آية 54.
(2) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(3) سورة يونس: آية 55.
(4) في ن 3، ن 4: بذلك.
(5) سورة يونس: آية 68.
(6) سورة يونس: آية 68.
(7) سورة مريم: آية 88.
(8) سورة مريم: آية 88.

مقالهم فقال: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ [1] مِنْهُ وَتَنْشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَانِ وَلَداً﴾ [2] أي من أجل ادعائهم الولد لله سبحانه، ثم قال: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَانِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً﴾ [3] وكيف والكل عبيده وملكه ﴿إِنَّ كُلُّ مَنْ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا آتِي ٱلرَّحْمَانِ عَبْداً﴾ [4] وهو الغني عن العالمين، فلما كان موضع تأكيد ناسبه الإتيان بما والتأكيد بها وإن كان المعنى حاصلاً دونها.

والجواب عن السؤال الثالث: أن ورود «مَنْ» في الآية المتوسطة مناسب لما قصد بها وبنيت عليه، ألا ترى أن ما ثبت قبل هذه الآية من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾ [5] فأنسه تعالى وثبته كما قال في موضع آخر: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ ٱلظَّالِمِينَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[6]، فتأمل عظيم هذا التأنيس وما تضمنه قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ من وضوح صدقه، عليه السلام وتصديقه، فلم يبق إلا الحسد وقصد إطفاء نور الله، ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ﴾[7]، فلما قال له تأنيساً وتكفلاً لحفظه إياه: ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾ أتبع ذلك سبحانه بإعلامه إياه أن العزة له جل جلاله، لا يشركه في ذلك أحد، ولا يعتز مخلوق إلا بإعزازه، يعز من يشاء ويذل من

---

(1) قرأ نافع والكسائي يكاد بالياء والباقون بالتاء، وقرأ الحرميان وحفص والكسائي يتفطرون بالتاء، والباقون بالنون وكسر الطاء.

(2) سورة مريم: آية 90-91.

(3) سورة مريم: آية 92.

(4) سورة مريم: آية 93.

(5) سورة يونس: آية 65.

(6) سورة الأنعام: آية 33.

(7) سورة التوبة: آية 32.

يشاء، وإلى ذلك[1] أشار قوله: «جميعاً»، ثم قال: ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[2] أي لا يخفى عليه مقالهم فيك وما يسرونه من مكر أو مكيدة، ثم أعلمه باحتواء ملكه سبحانه على ما أعلمه به في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[3] فهو يعزك بإمداده إياك بمن شاء من مخلوقاته ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[4]، ولما كان تأييده، عليه السلام، في الغالب عند لقاء أعدائه إنما يكون بالملائكة والمؤمنين لذلك ما ورد التعبير بمن، وكررت تأكيداً فقيل: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[5]، وهو[6] مؤيده وممده بمن شاء من عباده: ﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ﴾. وقد وضح أن كل آية من هذه الآيات لا يناسبها غير ما اتصلت به، ولا يمكن على ما تبين وقوع واحدة منهما في موضع الأخرى، والله أعلم بما أراد.

الآية السادسة من سورة يونس: غ ــ قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[7]، وفيما بعد من هذه السورة: ﴿وَأَسَرُّوا ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا ٱلْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[8]، وفي سورة الزمر: ﴿وَجِيءَ بِٱلنَّبِيِّينَ

---

(1) في ن 3: هذا.

(2) سورة يونس: آية 65.

(3) سورة يونس: آية 66.

(4) سورة الفتح: آية 4.

(5) سورة يونس: آية 66.

(6) في ن 3: فهو.

(7) سورة يونس: آية 47.

(8) سورة يونس: آية 54.

وَٱلشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾[11]، وفي آخر السورة: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلاَئِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾[1]، فورد في الموضعين من سورة يونس «بالقسط» وفي الموضعين من سورة الزمر «بالحق»، فللسائل أن يسأل عن الفرق؟

ووجه ذلك والله أعلم أن القسط يراد به العمل والتسوية في الحكم، فمظنة وروده حيث يراد موازنة الجزاء بالأعمال من غير زيادة كما قال تعالى في جزاء الكافرين: ﴿جَزَاءً وِفَاقاً﴾[2] أي موازناً لأعمالهم موافقاً لها: ﴿وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾[3]، والحق الصدق فوروده حيث يراد تصديق وعيد أو إخبار متقدم، وإن الله سبحانه وعد المؤمنين بزيادة الأجور والإحسان بما يفوت الغايات ويفوق الحصر، ولم يجعل جزاءهم على أعمالهم الدينية وفاقاً لأعمالهم في مقادير الجزاء بل قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾[6]، ومنه جعل الحسنة بعشر أمثالها وهذا كثير في الكتاب والسنة. ولما كان الوارد في آيتي الزمر

---

(1) سورة الزمر: آية 69.
(2) سورة الزمر: آية 75.
(3) سورة النبأ: آية 26.
(4) سورة الكهف: آية 49.
(5) سورة الزمر: آية 10.
(6) سورة الزمر: آية 58.
(7) سورة النساء: آية 173.

منزلاً[7] على الحكم حقاً بين النبيين والشهداء والملائكة قال تعالى: ﴿وَجِيءَ بِٱلنَّبِيِّينَ وَٱلشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾[8]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾[9]، والضمير في الأولى إما أن يكون للنبيين والشهداء ولا (كونه)[10] في أن هؤلاء ممن يضاعف أجورهم فجيء بقوله: «بالحق» تصديقاً لما وعدوا من الزيادة وليس موضع ورود القسط، وإما أن يكون للخلق كافة وفيهم المؤمن والكافر فورد قوله: «بالحق» تصديقاً لما ورد في حق الفريقين من الزيادة في أجر المؤمن والعدل في حق الكافر، فلا يظلم مثقال ذرة وإنما جزاؤه وفاق عمله، ولا يصح هذا إن لو قيل: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِٱلْقِسْطِ﴾، وعلى هذا يجري ما ورد في الآية الأخيرة من فروق.

وأما آيتا يونس فقد تقدم الأولى منهما غير ما آيات[11] في تأنيس نبينا صلى الله عليه وسلم، وتعنيف كفار قريش ووعيدهم، وتسليته، عليه السلام، في ابراهيم، ألا ترى ختام الآي قبلها بقوله: ﴿وَإِمَّا[1] نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾[2] أي فسأجري[3]

---

(1) في ن 3: متنزلاً.
(2) سورة الزمر: آية 69.
(3) سورة الزمر: آية 75.
(4) في ن 4 بياض ونقص، وفي بقية النسخ «كونه» وبه لا يستقيم المعنى وربما استقام المعنى بكلمة: شك.
(5) في ن 3: غيره آيات، وهذا خطأ وربما كان الصواب عدة آيات.
(6) في ن 2: وإن ما، والصواب: واما.
(7) سورة يونس: آية 46.
(8) بياض في ن 4.

تكذيبهم عياناً لا يجدون محيصاً عنه، ثم قال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾ أي حضرهم في القيامة وقد كذبوه في الدنيا قضي بينهم وبينه، فصدق وكذب معانده فنجا المصدق وهلك المكذب، ولما لم يقصد هنا تفصيل أحوال المصدقين، بل لحظ الطرفان من التصديق والتكذيب كان موضع التعبير بالقسط الذي هو العدل بين المصدق والمكذب، وإنما بناء الآي على إرغام المكذبين ولا يناسب هذا إلا ذكر العدل بحسب ما بنيت عليه الآي قبله. وأما قوله في الآية بعد: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾[1] (فمُسِرُّو)[2] ندامتهم هم المكذبون وهم المشاهدون العذاب، والضمير في قوله: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ عائد عليهم، فليس موضع التعبير بقوله: «بالحق» لما قد تبين، فقد وضح ورود كل من هذه الآي على ما يناسب ويلائم، ولا يناسب خلافه.

الآية السابعة قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾[3]، وقال تعالى في سورة غافر[4]: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ (عَلَى)[5] النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾[6] فأظهر هنا ما أضمر في الآية الأخرى، فللسائل أن يسأل عن ذلك؟

---

(1) سورة يونس: آية 54.

(2) بياض في ن 4 وحذف من ن 1، ن 2، ن 3، ومن السياق يمكن تقدير الحذف بلفظ فمسرو إذ أسر تفيد: كتم وأظهر.

(3) سورة يونس: آية 60-61.

(4) في ن 1، ن 2: وقال في غافر.

(5) سقط من ن 3.

(6) سورة غافر: آية 61.

والجواب، والله أعلم: أن آية غافر لما تقدمها قوله تعالى [1]: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ (ٱلنَّاسِ) [2] وَلَكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [3] ومقصود هذه الآية تحريك الخلق للاعتبار والتذكير بما نصب سبحانه من الدلائل والآيات، فاقتضى ذلك تكرار الظاهر كما (في) [4] آية التذكير والتنبيه، ثم جيء بعد هذا بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ فنوسب بين هذا وبين ما تقدم لتجيء هذه الآي على منهاج واحد من التذكير، فاقتضت الثانية تكرير الظاهر.

وأما آية يونس فإنما تقدمها تأنيس بقوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾... الآية [5]، ثم رجع الكلام إلىٰ تعنيف الكفار في تحكيمهم فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾... الآية[6]، ثم قال: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾ [7] ولم يتقدم تكرير يطلب بمناسبة[8]، فلذلك ورد الكلام على ما هو الأصل من الإتيان بالضمير ليحصل به ربط الكلام، فجاء كل من الموضعين على ما يقتضيه ما قبله رعياً لتناسب الكلام.

الآية الثامنة من سورة يونس: غ ــ قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ

---

(1) سورة غافر: آية 57.
(2) بهامش ن 3.
(3) في ن 3: لا يؤمنون وهو خطأ.
(4) بهامش ن 3.
(5) سورة يونس: آية 58.
(6) سورة يونس: آية 59.
(7) سورة يونس: آية 60.
(8) في ن 1، ن 2: مناسبة.

وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[1]، وفي سورة سبأ: ﴿عَالِمُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[2]، وقال فيها فيما بعد: ﴿قُلِ ٱدْعُوا ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾[3]، للسائل أن يسأل عن تقديم الأرض على السماء في سورة يونس وعكس ذلك في الموضعين من سورة سبأ؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن آية يونس مقصود فيها من تأكيد الاستيفاء والاستغراق ما لم يقصد في الأخريين، وإن كان العموم مراد في الجميع إلا أن آية يونس قضت بزيادة التأكيد، ولذلك تكررت فيها مع ما قبلها ما النافية المتلقى بها القسم في قوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً﴾[4][5]، فقوي بذلك قصد تأكيد الاستغراق وتضمين الكلام معنى القسم فقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾[6] بزيادة مِنْ في الفاعل، وهي مقتضية معنى الاستغراق في مثل هذا، وبناؤها على (ما)[7] المتلقى[8] بها القسم يفهم ما قلناه من معنى القسم وتأكيد

(1) سورة يونس: آية 61.
(2) سورة سبأ: آية 3.
(3) سورة سبأ: آية 22.
(4) سورة يونس: آية 61.
(5) سقط من ن 3.
(6) سورة يونس: آية 61.
(7) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(8) في ن 3: الملتقى.

الاستغراق، بل أقول إن «من» في مثل هذا نص في ذلك. قال سيبويه، رحمه الله: إذا قلت ما أتاني رجل فإنه يحتمل ثلاثة معان: أحدها أن تريد أنه ما أتاك رجل (واحد بل أتاك أكثر من واحد، والثاني ما أتاك رجل)[1] في قوته ونفاذه، بل أتاك الضعفاء، والثالث أن تريد ما أتاك رجل واحد ولا أكثر من ذلك، فإن قلت: ما أتاني من رجل كان نفياً لذلك كله، هذا معنى كلامه[2]. والحاصل منه أن «من» في سياق النفي تعم وتستغرق.

ثم إنه قد تقدم قبل هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾[3]، فدخول «من» في المفعول في الموضعين من قوله: ﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ فزيدت في المفعول (وهو)[4] اسم نكرة وارد في سياق النفي وذلك محصل للاستغراق، ثم حمل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾... الآية[5]، فناسب هذا تقديم ذكر الأرض على السماء لأن السماء مصعد الأمر، ومحل العلو، ومسكن الملائكة، وهي مشاهدة[6] لهم، ومستقبل الداعين، منها ينزل الأمر ورزق العباد، وفيها الخزنة من الملائكة، وإليها يصعد بأرواح المؤمنين، ويعرج الملائكة السياحون في الأرض المسؤولون عن أفعال العباد، فكان العلم بما فيها أجلى وأظهر، وكان

---

(1) بهامش ن 2.

(2) الكتاب 37/1.

(3) سورة يونس: آية 61.

(4) في ن 3: وهذا.

(5) سورة يونس: آية 61.

(6) في ن 3: مشاهد، والصواب مشاهدة.

العلم بما في الأرض أخفى. وهذا بالنظر (إلينا)[1] وبحسب متعارف أحوالنا وإلا فعلم بارينا سبحانه بما في الأرض وما في السماء على حد سواء، كما أن علمه بالسر والجهر مستو: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾[2]، ولكنا إنما خوطبنا على أحوالنا وبما نتعاهده ونتعارفه من المعاني والصفات، ولذلك ورد في القرآن التعجب والدعاء والترجي وغير ذلك، فخوطب العباد بما يتعارفون ويألفون فيما بينهم. فهذا بيان ما تقدم. فلما كانت الأرض بالنسبة إلى اسمها فيما ذكرنا كان أمرها أخفى، وكان أمر السماء أوضح وأقرب من حيث ذكرنا خوطب الخلق على ذلك فقدم ذكر ما هو عندنا كافة أخفى، فقيل عند قصد المبالغة في تأكيد الاستغراق والقسم على ذلك: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَاءِ﴾[3]، ونظير هذا الوارد هنا قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى ٱللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَاءِ﴾[4]، وهذه الآية في الذي تعطيه من إفهام القسم والاستغراق والابتداء بما هو عندنا أخفى كآية يونس من غير فرق، وعلمه سبحانه بما خفي عندنا أو ظهر سواء، تعالىٰ ربنا عن شبه الخليقة.

فإن قيل فان قوله سبحانه ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[5] قد اجتمع فيه زيادة من الاستغراقية بعد ما النافية

---

(1) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(2) سورة الرعد: آية 10.
(3) سورة يونس: آية 61.
(4) سورة إبراهيم: آية 38.
(5) سورة النمل: آية 75.

المشيرة إلى معنى القسم كما في الآيتين قبل وقد تقدم فيه ذكر السماء بخلاف ما في الآيتين؟ قلت لما تقدم هذه قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾(1)، وقد تقدم في سبأ إحراز ذلك المعنى من تقديم الأخفى، اتبع بما يحرز التسوية من غير فرق، فقدم ذكر السماء، وإنما كانت تكون كالآيتين لو لم يتقدمها ما ذكر. وإذ قد تبين وجه(2) تقديم الأرض في آية يونس (فنقول ان الآيتين من سورة سبأ لما لم يتقدم فيهما ما تقدم في آية يونس)(3) مما يحرز تأكيد العموم والاستغراق، ولم يكن فيهما داع من المعنى لتقديم الأرض على السماء، ثم ان ورود السماوات بلفظ الجمع يحرز(4) في الآيتين من سورة سبأ معنى العموم الاستغراقي، إذ هو مراد في كل هذه الآيات الواردة في هذا الغرض، فأعطاه وأحرزه في آية يونس وآية إبراهيم ما أنجرَّ في هاتين الآيتين من محرز معنى القسم(5) والاستغراق، وأعطاه وأحرزه في آيتي سبأ ما ورد فيهما من جمع السماوات، وجاء كل على ما يجب ويناسب.

الآية التاسعة من سورة يونس قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾(6)، وفي سورة الجاثية: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ

(1) سورة النمل: آية 74.
(2) في ن 4: وجب، والصواب وجه.
(3) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(4) في ن 1، ن 2: يجري.
(5) في ن 2: أنفسهم، والصواب: القسم.
(6) سورة يونس: آية 93.

ٱلطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[1]، للسائل أن يسأل عن وجه الاختلاف الوارد في هاتين السورتين وزيادة ما في الوارد في سورة الجاثية من الألفاظ مع اتحاد المعنى المقصود في الموضعين من منحهم واختلافهم؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: ان آية يونس (تقدم قبلها دعاء موسى، عليه السلام، على فرعون وملئه بقوله)[2] ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ أَتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا. . . الآية﴾[3]، فأجاب سبحانه دعاء نبيه، وطمس على أموال (آل)[4] فرعون وملئه، وأغرقه وآله، ونجى بني إسرائيل من الغرق، وقطع دابر عدوهم، وأورث بني اسرائيل أرضهم وديارهم يتبوّؤون منها حيث شاؤوا، فقال سبحانه معرفاً نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾[5] أي مكناهم ومهدنا لهم أمرهم بإهلاك عدوهم وبما أورثناهم بعد ضعفهم[6] من مشارق الأرض ومغاربها، فبعد تمكن أمرهم واستحكام حالهم واستقرار أمر دينهم بما شاهدوه من الآيات وعظيم البراهين المعقبة لمن شاهدها اليقين اختلفوا جرياً على ما سبق لهم

---

(1) سورة الجاثية: آية 16-17.

(2) في ن 1، ن 2، ن 4: تقدم فيها عليه الصلاة والسلام على فرعون وملئه بقوله والصواب ما ورد في ن 3.

(3) سورة يونس: آية 88.

(4) سقط من ن 3.

(5) سورة يونس: آية 93.

(6) في ن 1، ن 2: صفتها، والصواب: ضعفهم.

ولغيرهم ممن أشار إليه قوله تعالى في أول هذه السورة: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا﴾[1]، ويناسب هذا كله تناسبا لا توقف في وضوحه، ولم يتقدم في السورة ما يستدعي من حالهم أكثر من هذا.

أما آية الجاثية فتقدم قبلها بسط الدلالة والبراهين من لدن قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[2]، إلى ما تبع هذا من التنبيه بخلقها، وما بث سبحانه فيهما من أصناف المخلوقات، واختلاف الليل والنهار وتعاقبهما، وإنزال الرزق من السماء، وإحياء الأرض بعد موتها بما ينزل من الرزق إليها، وتصريف الرياح، ثم ذكر سبحانه ان هذه الآيات إنما يعتبر بها ويهتدي بأنوارها من منحه الله تعالى العقل وهداه إلى الاعتبار فقال: ﴿آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[3]، ولم يرد ذكر هذه الجملة للاعتبار بها في موضع من كتاب الله أوعب منها[4] في هذه السورة وفي سورة البقرة، وهي هناك أوعب لذكر الفلك وجريها في منافع [5] العباد، وتسخير السحاب بين السماء والأرض، وذكر تصريف الرياح، (وقد أعقب) [6] ذكر هذه الآيات في الموضعين بقوله في سورة البقرة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ أَنْدَاداً﴾ [7] الآية إشارة إلى كفار العرب وسوء مرتكبهم وتعاميهم عن الاعتبار والاستدلال مع وضوح الأمر، إذ لا يقبل العقل تَكَوُّنَ هذه المخلوقات العظام بأنفسها، ولا أن

---

(1) سورة يونس: آية 19.
(2) سورة الجاثية: آية 3.
(3) سورة الجاثية: آية 5.
(4) في ن 1، ن 2، ن 4: من هذه.
(5) في ن 3: لمنافع، والصواب: في منافع.
(6) في ن 1، ن 2: ولهذا عقب، وهذا خطأ.
(7) سورة البقرة: آية 165.

بعضها أوجد بعضاً لتساويها فيما قام بها من دلائل الحدوث، فلا بد من صانع مريد مختار عالم قادر منزه عن شبه هذه الجملة والا لافتقر إلى موجد آخر، وذلك يؤدي إلى التسلسل وهو محال عقلاً، والإثنينية ممتنعة عقلاً: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[1]، فتعين توحيد الموجد الحق، وانه ليس كمثله شيء. ولما كان الاستدلال بهذه الجمل المفصلة أوضع شيء (أتبعها)[2] سبحانه بقوله: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾[3]، ولكونه[4] أبسط ما ذكر به مَنْ خوطب بالقرآن، ثم لم يجد ذلك في حق من سبق له الشقاء منهم الا المنافرة والمخالفة أعقبت بذكر من ترادفت وتوالت عليه الآيات وكثرت في حقه الشواهد ثم لم يعقبه ذلك الا الاختلاف والعدول عن سلوك المنهج الواضح، وهم الممتحنون بالاختلاف[5] من بني اسرائيل، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ ٱلأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا إلا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ ربَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[6]، فاقتضى ما قدم من بسط الآيات وواضح ما خصه تعالى[7] من واضح الدلالات في صدر هذه السورة بسط ما منحه بنو اسرائيل وما بين لهم مما

---

(1) سورة الأنبياء: آية 22.

(2) في ن 1، ن 2، ن 4: أوضحها، والصواب: أتبعها.

(3) سورة الجاثية: آية 6.

(4) في ن 3: ولكونها، والصواب: ولكونه.

(5) في ن 1، ن 2، ن 4: الخلاف.

(6) سورة الجاثية: آية 16-17.

(7) في ن 1، ن 2، ن 4: قصة.

أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ ٱلْأَمْرِ﴾[1]، بعد ذكر ما أوتوه من الكتاب والحكم، وتوالي النبوة فيهم، وكثرة الرسل منهم، وما بسط لهم من الرزق وإدرار النعم، فعتوا واعتدوا وقتلوا الأنبياء بغير حق، لينفذ فيهم ما قدر على فاعلي ذلك منهم، من ضرب الذلة والمسكنة، ومسخهم قردة وخنازير، ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم، فلا يأتلف شملهم ولا تجتمع جماعاتهم إلى يوم القيامة، ليعلم المعتبرون بالآيات انه لا يجري على أحد الا سابق سعادة ان قدرت له. الا أن الانقياد للاعتبار والإذعان لموجب الدلالات[2] عنوان رجاء، والمنافرة لذلك عنوان مشقة، وهما شاهدا حال، والشأن كله في الخواتم، والكتاب والسنة موضحان لهذا الإجمال.

ولما لم يكن تقدم آية سورة يونس من الدلالات مثل ما بسط في سورة الجاثية من الاعتبار لما يناسبه الواقع في الجاثية من الإطناب، فنوسب الإيجاز بالإيجاز والإطناب بالإطناب، وجاء كل على ما يجب ويناسب مع اتحاد المقصود في السورتين.

الآية العاشرة من سورة يونس قوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[3]وفي سورة النّمل: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[4]، للسائل أن يسأل عن الفرق الموجب لافتراق الوصفين في الآيتين.

---

(1) سورة الجاثية: آية 17.
(2) في ن 1، ن 2، ن 4: الدلالة، والجمع أولى وأنسب.
(3) سورة يونس: آية 104.
(4) سورة النمل: آية 91.

والجواب: أن الآية الأولى قد ورد قبلها[1] قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي ٱلْأَرْضِ (كُلُّهُمْ)[2] جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[3]، (وبعد هذا: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَاتُ وَٱلنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[4])[5]، وبعد هذا كذلك: ﴿حَقّاً عَلَيْنَا نُنْجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[7]، وبعد هذا الآية المذكورة من قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [8]، وتناسب هذا كله بين.

ثم من المعلوم أن آسم الإيمان إنما يقع لغة على التصديق وعلى هذا يطلقه الأشعرية[9] ومنه: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾[10]، ثم قد يتسع[11] في إطلاقه فيوقع على التصديق والاستسلام ومنه: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[12]، والأصل في

---

(1) في ن 1، ن 2، ن 4: فيها، والصواب قبلها.
(2) بهامش ن 3.
(3) سورة يونس: آية 99-100.
(4) سورة يونس: آية 101.
(5) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(6) سورة يونس: آية 103.
(7) سورة يونس: آية 104.
(8) الأشعرية: أصحاب أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، المنتسب إلى أبي موسى الأشعري، عرف المذهب الأشعري باعتداله وتوسطه في مسألة الجبر والاختيار بين غلاة الجبرية وغلاة القدرية.
راجع: الملل والنحل، للشهرستاني، الجزء الأول، ص 119، بهامش كتاب الفصل لابن حزم.
(9) سورة يوسف: آية 17.
(10) في ن 3: يتبع، والصواب: يتسع.
(11) سورة يونس: آية 104.

(آسم)[1] الإسلام وقوعه على الاستسلام والتزام الأعمال الظاهرة، ثم يتسع فيه فيطلق على مجموع التصديق والاعتقاد والاستسلام ومنه: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[2]. وقد يختص كل من الأسمين بمسماه من غير آتساع ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾[3]، وفي حديث (سؤال)[4] جبريل، عليه السلام: «ما الإسلام؟ قال ان تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ان استطعت إليه سبيلاً قال صدقت فما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله... الحديث»[5]، فوقع فيه التفصيل إجراء على أصل التسمية، فإذا تقرر هذا فاعلم أن ما تقدم قبل آية يونس من تكرار آسم الإيمان لم يكن ليلائمه إطلاق آسم الإسلام[6] لأن رتبة الإيمان فوق رتبة الإسلام ومقامه أعلى، وهذا على إطلاق كل واحد من الأسمين على مسماه لغة، وعلى رعي التفصيل، فكأن يكون عكس الترقي إلى الأعلى أبداً، فلا يمكن في آية يونس الا ما وردت عليه.

أما آية النمل فإن قبلها قوله: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾[7]، وقوله[8]: ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ يقتضي

(1) سقط من ن 3.
(2) سورة النمل: آية 91
(3) سورة الحجرات: آية 14.
(4) سقط من ن 4.
(5) البخاري: إيمان 37، مسلم: إيمان 5.
(6) في ن 4: لم يكن ليلائمه إلا بإطلاق اسم الإيمان، وقد زيدت «الا» بالهامش.
(7) سورة النمل: آية 91.
(8) في ن 4: فقوله.

تسليم كل شيء له، والتبري من توهم شريك أو نظير، فناسب هذا قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[1]، وجاء كل على ما يجب.

الآية الحادية عشرة قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾[2]، وفي سورة النمل: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُنْذِرِينَ﴾[3]، فورد في الأولى عقب قوله: ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ وفي الثانية عقب قوله: ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ قوله ﴿فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُنْذِرِينَ﴾ فللسائل[4] أن يسأل عن الفرق؟

والجواب: ان آية يونس مرتبطة بقوله تعالى فيما قبلها: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[5]، فلما تقدمها هذا ومعناه هو المعنى الوارد في قوله تعالى في سورة الزمر: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾[6]، فقيل هنا على لسانه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾، وتناسب ذلك وارتبط ارتباطاً لا يلائم الموضع خلافه، والله أعلم.

وأما آية النمل فإنها راجعة إلى قوله تعالى فيما تقدمها: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي ٱلْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ

(1) سورة النمل: آية 91.
(2) سورة يونس: آية 108.
(3) سورة النمل: آية 92.
(4) في ن 4: للسائل.
(5) سورة يونس: آية 99.
(6) سورة الزمر: آية 41.

إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾[1]، فناسب هذا أتم مناسبة قوله تعالى: ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُنْذِرِينَ﴾[2]، ولم يكن قوله: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا أَنَـا مِنَ ٱلْمُنْذِرِينَ﴾ ليناسب المتقدم في سورة يونس، ولا قوله: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ ليلائم ما تقدم هنا[3]، والله أعلم[4].

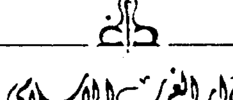
---

(1) سورة النمل: آية 79-81.

(2) سورة النمل: آية 92.

(3) في ن 1، ن 2، ن 4: تقدمها.

(4) جاء في ن 3 عقب هذا قول الناسخ أحمد بن محمد الفخار: تم السفر الأول. . . ويتلوه إن شاء الله السفر الثاني، فيتبين من هذا أن هذا التأليف يتكون من سفرين أو جزئين: الأول إلى سورة يونس، عليه السلام، والثاني من سورة هود، عليه السلام، إلى سورة الناس.



بيروت - لبنان
لصاحبها : الحبيب اللمسي

شارع الصوراني (المعماري) - الحمراء ، بناية الأسود
تلفون: Tel: 009611-350331 / خلوي: Cellulaire: 009613-638535
فاكس: Fax: 009611-742587 / ص.ب. 113-5787 بيروت ، لبنان
DAR AL-GHARB AL-ISLAMI B.P.:113-5787 Beyrouth, LIBAN

الطبعة الأولى 1983 - الطبعة الثانية - 2007

الرقـــــم : 30 / 1000 / 6 / 2007

التنضيد: مطبعة المتوسط

الطباعة : مطبعة الصــــراط - بيروت - لبنان

مِلاكُ التَأْوِيل

القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل

للإمام الحافظ العلامة

أحمد بن ابراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الغرناطي

الجزء الثاني

تحقيق

سعيد الفلاح



الإمام الحافظ العلامة

أحمد بن ابراهيم الغرناطي

مِلاكُ التَأْوِيل



2





بسم الله الرحمن الرحيم

تحقيق كتاب

ملاك التأويل

رسالة دكتوراه، الحلقة الثالثة، بإشراف الأستاذ: عبدالله الأوصيف
عميد الكليّة الزيتونية للشريعة وأصول الدّين

[نالت تقدير: حسن جدّاً]

مِلاكُ التَّأويل

القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللّفظ من آي التنزيل

للإمام الحافظ العلّامة

أحمد بن ابراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الغرناطي

الجزء الثاني

تحقيق

سعيد الفلّاح



الطبعة الأولى
1403 هـ / 1983 م

الطبعة الثانية
1428 هـ / 2007 م

دار الغرب الإسلامي
ص: ب. 5787 ـ 113 بيروت

مقدمة الجزء الثاني

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

لقد كان الكتاب العزيز، ولا يزال، منبعاً ثرًّا ومعيناً لا ينضب لعلوم ومعارف كثيرة. ومن أجلّ علومه علم متشابه القرآن وهو إيراد الله القصة الواحدة من كتابه الكريم في صور شتى وفواصل مختلفة، ويكثر في القصص والأنباء، وحكمته التصرف في الكلام وإتيانه على ضروب ليعلم الجاحدين عجزهم عن جميع طرق ذلك مبتدأ به ومتكرراً[1].

وقد حظي علم متشابه القرآن باهتمام الجلة من العلماء، وقد أفرده بالتصنيف خلق. يقول السيوطي في الإتقان: «إن أولهم فيما أحسب الكسائي»[2] وصنّف في توجيهه أبو عبد الله الرازي المعروف بالخطيب الاسكافي «درّة التنزيل وغرّة التأويل». وممن صنف في هذا الفن بعد الخطيب الكرماني في كتابه: «البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان» أوله: «الحمد لله الذي أنزل الفرقان» ذكر فيه الآيات المتشابهة التي تكررت فيه وسببها وفائدتها وحكمتها، وقد ذكر بشرائطه في كتاب: «لباب التفاسير» الذي أوله: «الحمد لله منزل القرآن غير محدث ولا مخلوق»[3]. وقد نظم السخاوي علم المتشابه في سخاويته «هداية المرتاب في المتشابه». ويذكر السيوطي في الإتقان[4] أن للقاضي بدر الدين بن جماعة في ذلك كتاباً لطيفاً سماه: «كشف المعاني في متشابه المثاني».

وأحسن هذه المصنفات وأبسطها: «ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل» الذي وفقني الله إلى تحقيقه وجعله

---

(1) انظر البرهان للزركشي: 112/1.

(2) الإتقان للسيوطي: 194/2.

(3) كشف الظنون: 241/1 — 1541/2.

(4) الإتقان: 194/2.

بين أيدي القراء. يقول الزركشي في البرهان[1]: وصنف في توجيهه (يعني المتشابه) أبو جعفر بن الزبير وهو أبسطها في مجلدين. ويقول السيوطي في «الإتقان» بعد ذكر بعض المصنفات في هذا العلم: وأحسن من هذا ملاك التأويل لأبي جعفر بن الزبير.

اهتم ابن الزبير في تأليفه، سواء في الجزء الثاني الذي هو بين يدي القارىء الكريم، أو في الجزء الأول منه، اهتم بتوجيه ما تكرر من آيات الكتاب العزيز لفظاً أو اختلف بتقديم أو تأخير أو بعض زيادة في التعبير. فأبرز ما في تلك الآيات المتشابهات من حكم ومعان إلهية سامية تعلو بها عن نقيصة التكرار والحشو والابتذال، وقد قصد من وراء ذلك كله القطع بذوي الإلحاد والتعطيل ممن تعلق بمثل هذه الآيات المتشابهة وخفي عنه وجه الحكمة ورام الطعن في كتاب الله. قال ابن الزبير: إنما كلامنا معتمد فيه القطع بذوي الزيغ والارتياب ممن يتعلق بما تشابه منه طعناً في الدين واتباعاً لسبيل الملحدين[2].

ولمزيد التبسط في هذا المجال ألفت نظر القارىء الكريم إلى المبحث الثالث من المدخل الذي صدّرت به الجزء الأول من «ملاك التأويل» والوارد تحت عنوان: أضواء على ملاك التأويل[3]. ففيه كشف ضاف عن موضوع الكتاب ومحتواه وقصد المؤلف من تأليفه ومنهجه في ذلك..

والجزء الثاني من «ملاك التأويل» خصصه المؤلف للسور الممتدة من سورة هود عليه السلام إلى سورة الناس، وقد سلك فيه نفس المنهج الذي اتبعه في الجزء الأول. فهو يورد ذكر السورة ثم يتناول ما فيها من آيات متشابهات حسب ترتيبها في السورة، يورد الآية الأم ثم يتبعها بما يشبهها من نفس السورة أو من غيرها ويقارن بينها مبرزاً نقاط الاتفاق ونقاط الافتراق. ثم يردف كل هذا بوضع المشكل فيطرح ما تعلق به من أسئلة، وبعد وضع المشكل والأسئلة المتعلقة به يأخذ في الإجابة عنها وتوجيهها أولاً بأول مستعيناً على ذلك بوسائل وعلوم كثيرة كالقرآن ء وأسباب نزوله وقراءاته وكاللغة وفنون الكلام والأصول وآراء العلماء.. فكان كتابه ملاكاً للتأويل حقا وصدرا لما ألّف في فنه. والله ولي التوفيق • المحقق: سعيد الفلاّح

(1) البرهان للزركشي: 112/1.
(2) ملاك التأويل صفحة 242.
(3) المدخل صفحة 103 وما بعدها.

سورة هود (عليه السلام)

الآية الأولى منها قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾[1]، وفي سورة حمٓ السجدة: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي (وَمَا أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَائِمَةً﴾[2])[3]، للسائل أن يسأل عن زيادة «منا» وزيادة «من» في سورة السجدة وسقوطهما[4] معاً في سورة هود؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أنه لم يرد في هود ما يستدعي تلك الزيادة، وأما سورة السجدة فتقدم فيها قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي﴾[5] قطعاً بهم وتنبيهاً على سوء مرتكبهم، وقد عاينوا الحق، وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل من شركاء الله سبحانه، وظنوا أي أيقنوا وعلموا أنه لا محيص لهم ولا مفر، فلما تقدم ذكر الشركاء قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا﴾، فنبه تعالى بقوله: «منا»[6] على أن لا شريك له، ولا معطي غيره، وأنه لا يأتي العبد شيء من سواه سبحانه.

---

(1) سورة هود: آية 10.
(2) سورة فصلت: آية 40.
(3) سقط من ن 3.
(4) في ن 3: سقوطها، والصواب سقوطهما لعودة الضمير على أمرين.
(5) سورة فصلت: آية 47.
(6) في ن 3: هنا، والصواب: منا.

ولما لم يتقدم في سورة هود ذكر لذلك لم يرد فيها التنبيه بقوله: «منا»، وأما زيادة: «من» في قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ فمناسب لإطناب هذا الغرض في هذه السورة، فناسب ذلك الزيادة. ولإيجاز هذا القصد في سورة هود ناسبه سقوط «من»، فجاء كل على ما يناسب ويجب، ولم يكن ليلائم كلاً من الموضعين إلا ما ورد فيه، والله أعلم.

الآية الثانية منها[1]: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[2]، وفي آخر السورة إثر قوله: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾[3]، ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾[4]، وفي سورة السجدة: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ﴾[5] بثبات نون تكن، وحذفها في آيتي سورة هود، فللسائل أن يسأل عن ذلك؟

والجواب عنه، والله أعلم: أن العرب تصرفت في يكون عند دخول الجازم تصرفاً لم تفعله في نظائرها وما يشبهها، وبسط هذا في مظانه، فيكون الوجه في يكون عند دخول الجازم تسكين النون، فتحذف الواو عند التقاء الساكنين كما ورد في سورة السجدة، إلا أن حذف النون في يكون من فصيح كلامهم ما لم تكن متحركة، فإن كانت متحركة

---

(1) في ن 3: من سورة هود، عليه السلام.
(2) سورة هود: آية 17.
(3) سورة هود: آية 108.
(4) سورة هود: آية 109.
(5) سورة السجدة: آية 23.

لم تحذف لقوتها بالحركة وإن كانت عارضة كقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا..﴾[1]، ولا تحذف هذه إلا في الشعر نحو قوله:

لم يك الحق سوى أن هاجه رسم دار قد تعفى بالسرر[2]

فورد في سورة هود على ما اعتمدوه من تحفيف هذا اللفظ ليناسب بذلك إيجاز الكلام المتعلق بقوله: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾[3]، والمتصل به تمامه تمام معنى المقصود وذلك قوله: ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[4]، وكذلك قوله في آخر السورة: ﴿فَلا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾[5] إلى قوله: غَيْرَ مَنْقُوصٍ[6].

وورد في سورة السجدة على أصل الكلمة قبل الحذف فقيل: ﴿فَلَا تَكُنْ﴾، ليجري ذلك مع ما ورد في هذه السورة من طول الكلام المتعلق بقوله ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ﴾[7]، ألا ترى أن الكلام واحد إلى قوله: ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[8]، فنوسب الإيجاز بالإيجاز والطول بالطول والله أعلم.

---

(1) سورة البينة: آية 1.

(2) البيت لحسيل بن عرفطة في البحر الرمل، والسرر بفتحتين اسم واد يدفع من اليمامة إلى حضرموت (عن الخصائص، لابن جني 90/1).

حسيل بن عرفطة بن نضلة الأسدي الفقعسي، صحابي سماه النبي صلى الله عليه وسلم حسيناً، ترجم له في الإصابة عدد الترجمة 1722.

(3) سورة هود: آية 17.

(4) سورة هود: آية 17.

(5) سورة هود: آية 109.

(6) سورة هود: آية 109.

(7) سورة السجدة: آية 23.

(8) سورة السجدة: آية 25.

الآية الثالثة منها قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخرة هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾[1]، (وفي سورة النحل: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخرة هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ﴾[2]) [3]، للسائل أن يسأل عن وجه تخصيص آية هود بقوله: ﴿ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ وآية النحل (بقوله) [4] ﴿ٱلْخَاسِرُونَ﴾؟ (وهل كان يمكن العكس) [5]؟

والجواب: أن آية هود قد تقدمها (ما يفهم) [6] المفاضلة، ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ...﴾[7] الآية يفهم من سياقها أن المراد: أفمن كان على بينة من ربه كمن كفر وجحد (وكذب)[8] الرسل؟ ثم أتبع هذا بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَى عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً﴾[9]، فهذا صريح مفاضلة، ثم استمرت الآي في وصف من ذكر وعرضهم على ربهم وقول الأشهاد: ﴿هَؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّالِمِينَ الّذين يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[10]إلى ذكر مضاعفة العذاب لهم، واستمر ذكرهم إلى قوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾[11] فناسب لفظ الأخسرين بصيغة التفاضل،

---

(1) سورة هود: آية 22.
(2) سورة النحل: آية 109.
(3) . سقط من ن 3.
(4) سقط من ن 3.
(5) بهامش ن 2.
(6) سقط من ن 3.
(7) سورة هود: آية 17.
(8) في ن 3: كذلك، وهذا خطأ.
(9) سورة هود: آية 17.
(10) سورة هود: آية 18-19.
(11) سورة هود: آية 22.

ومقصود التفاوت ما تقدم مما يفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾[1]، وأفعل من كذا في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَى﴾[2]، فالآيات من لدن قوله: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ إلى قوله: ﴿هُمْ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾ (مبنيات على ما ذكرناه غير خارجة عن هذا المقصود، ولو ورد هنا «ٱلْخَاسِرُونَ» مكان «ٱلْأَخْسَرِينَ»)[3] لتنافى النظم وتباين السياق ولم يتناسب.

وأما آية (النحل)[4] فلم يقع قبلها أفعل التي للمفاضلة والتفاوت ولا ما يفهمهما، وإنما قبلها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ (وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمْ ٱلْكَاذِبُونَ﴾[5]، وبعد هذا ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَافِرِينَ﴾[6])[7]، وبعد هذا: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ ٱلْغَافِلُونَ﴾، فتأمل هذه[8] الفواصل واتفاقها في اسم الفاعل المجموع جمع السلامة في قوم متفقي الأحوال في كفرهم إلى أن ختم وصفهم وما قصد من ذكرهم بقوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخرة هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ﴾[9]، فتناسبت الآي في السياق والفواصل، وختمت بمثل ما به بدئت، ولم يكن ليناسب

(1) سورة هود: آية 17.
(2) سورة هود: آية 18.
(3) سقط من ن 3.
(4) سقط من ن 3.
(5) سورة النحل: آية 104-105.
(6) سورة النحل: آية 107.
(7) سقط من ن 3.
(8) في ن 3: هذا، والصواب: هذه.
(9) سورة النحل: آية 109.

ما ورد هنا لفظ المفاضلة، إذ ليس في الكلام ما يستدعي ذلك لا من لفظه ولا من معناه، ووضح اختصاص كل من العبارتين بمكانه، وإن العكس لا يلائم، والله أعلم.

الآية الرابعة من سورة هود قوله تعالى في قصة نوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾(1)، وفي قصة صالح بعد: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾(2)، للسائل أن يسأل عن مجاوبة كل واحد من هذين النبيين الكريمين لقومه، لم تقدم المجرور في قول(3) صالح عليه السلام ﴿وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ على المفعول الثاني من مفعولي أتى التي هو رحمة والوجه تأخيره لأنه فضلة كما تقدم متأخراً في قول نوح عليه السلام: «وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ»؟

والجواب عن ذلك: أن قوم صالح، عليه السلام، بالغوا في إساءة الجواب حين قالوا: ﴿قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾(4) أي قد كنت مرجوا أن تسود فينا حتى نقطع عن رأيك ونرجع إليك من أمورنا، فرموا مقامه النبوي بحط مرتبته عنهم، فلما بالغوا في إساءة الجواب جاوبهم، عليه السلام، رداً لمقالهم الشنيع بقوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾، ولا شك أنه عليه السلام كذلك، وأنه على بصيرة من أمره، ولكنه خاطبهم على ما يجري في المناظرة من فرض

---

(1) سورة هود: آية 28.
(2) سورة هود: آية 63.
(3) في ن 3: قوم والصواب: قوم.
(4) سورة هود: آية 62.

ما لا يعتقده المناظر[1] على حسب نطقه، ولكنه يستنزل بذلك مناظره ليقيم الحجة عليه، فيقول هب كذا على ما تقوله، فعلى هذا جرى قول النبي الكريم: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ أي كيف ترون إن كنت على واضحة وعلى يقين من ربي وآتاني منه رحمة فعصيته بموافقتكم، فإن فعلت ذلك فمن ينصرني ويمنعني من عذابه، فخاطبهم عليه السلام بطريقة فرض هذا: إن كان كذا، وهو عليه السلام العليم بحاله الجليل، وعلى بينة من ربه، وأكد بتقدم المجرور في قوله: ﴿وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ لما يحرز[2] تقديمه من التأكيد ويعطيه بمفهومه من أن الرحمة منه سبحانه لا يشرك فيها غيره، وهو مخصوص لا يحصل مع تأخيره. فتقديم هذا الضمير المجرور كتقديمه في قوله سبحانه: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾[3]، وقد تقدم مثله في إنشاد سيبويه (رحمة الله عليه)[4].

لتقــربن قــربــاً جلذيــا   مــا دام فيهن فصيل حيـا[5]

فلما بالغوا في قبح الجواب بالغ، عليه السلام، في رد مقالهم، فقدم المجرور لتأكيد أن الرحمة من عند الله تعالى فقال: ﴿وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾[6].

---

(1) في ن 3: المناظرة، والصواب: المناظر.
(2) في ن 3: يجوز، والصواب: يحرز.
(3) سورة الإخلاص: آية 4.
(4) سقط من ن 3.
(5) البيت لابن ميادة في الرجز عن الكتاب 38/1.
(6) سورة هود: آية 63.

ولما لم يكن في مراجعة قوم نوح مثل هذا في شناعة الجواب، لأن أقصى المفهوم من قولهم: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا﴾ إلحاقه بهم ومماثلته إياهم، وكلهم يقولون لوكنت رسولاً لكنت من الملائكة ولم تكن لتماثلنا. فلم يكن في قول هؤلاء ما في قول قوم صالح، فجرى جوابه، عليه السلام، على نسبة ذلك فقال: ﴿وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾، فأتى بالمجرور مؤخراً في محله على ما يجب، حيث لا يقصد من إحراز المفهوم ما قصد في الآية الأخرى، فورد كل على ما يلائم، والله أعلم.

الآية الخامسة من سورة هود قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾[1]، وفي سورة: «قد أفلح المؤمنون»: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ... الآية﴾[2]. للسائل أن يسأل عن قوله في سورة هود: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ﴾ وفي السورة الثانية: ﴿فَٱسْلُكْ﴾ والقصة واحدة فهل ذلك لمقتض[3] لكل واحد من الموضعين بما وقع فيه؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن لفظ آحمل أوسع مواقع في اللغة وأكثر تصرفاً في الكلام تقول: حملت الشيء إلى فلان، وحملته على كاهلي، وحملت العلم عن فلان وحُمّل فلان الأمانة، وحمله الغضب على كذا، وحمل الفارس على صاحبه، وحملت المرأة والشجرة، ولا تقول في شيء من هذا سلك إلا أن يكون المحصول فيه

---

(1) سورة هود: آية 40.

(2) سورة المؤمنين: آية 27.

(3) في ن 3: مختص، والصواب: المقتص.

حسبما تعاقب سلك وحمل إن لم يعرض في المعنى ما يمنع. وأما سلك فإن العرب تقول: سلكت الشيء في الشيء وأسلكته أي أدخلته قال الله تعالى: ﴿آسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾[1] أي أدخلها، وقال تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي صَقَرَ﴾[2] أي ما أدخلكم، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ نَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً﴾[3] أي ندخله فيه، وقل ما يخرج سلك عن هذا المعنى من الدخول حقيقة ومجازاً، ففيها من حيث معناها خصوص، وأما حمل ففيها اتساع لا يكون في سلك. فوجه ورودها في سورة هود مناسبتها من حيث المعنى من حيث ما آقترن بها من لفظ: «قلنا»، فطال الكلام لفظاً مع ما أشرنا إليه من سعة المحامل، وإن لم يرد جميعها هنا، لكن ناسب مجموع هذه العبارة ما ورد في سورة هود من استيفاء قصة نوح، عليه السلام، وطول الكلام بذلك.

وأما آية المؤمنين ففي قصة نوح فيها إيجاز وإجمال، ألا ترى أنها في كلمها وعدد حروفها ــ أعني آية هود ــ على الضعف أو أطول مما في سورة المؤمنين، فلذلك ورد في سورة المؤمنين لفظ «أسلك» لإيجازه من حيث معناه[4] وعروه عن (اقتران)[5] لفظ «قلنا» أو غيره مما يحرز الطول، بخلاف ما في سورة هود. ومما يعضد هذا المقصد ويشهد له قوله تعالى في سورة هود: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾[6]، وفي سورة

---

(1) سورة القصص: آية 32.
(2) سورة المدثر: آية 42.
(3) سورة الجن: آية 17.
(4) في ن 3: عناه.
(5) بهامش ن 3.
(6) سورة هود: آية 40.

المؤمنين ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾[1]. فتأمل تنظير «حتى» وهي على أربعة أحرف بفاء التعقيب[2] في سورة المؤمنين في قوله: «فإذا»، وإنما الفاء على حرف واحد، فنوسب بالفاء موضعها المبني على الإيجاز، وبحتى موضعها المبني على الاستيفاء والطول، فقد وضح ورود كل مما في السورتين على ما يجب ويناسب، والله سبحانه أعلم بما أراد.

الآية السادسة من سورة هود قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾[3]، وقال في قصة شعيب عليه السلام: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾[4]، فعطفت[5] لما على ما قبلها بواو النسق في هذين الموضعين وخالفت قصة صالح وقصة لوط، عليهما السلام، في الحرف المعطوف به هذه الجملة المصدرة بحرف الوجوب فقيل في قصة صالح عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾[6]، وفي قصة لوط عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَها﴾[7] بعطف لما[8] على ما قبلها من هاتين الآيتين بفاء التعقيب، فللسائل أن يسأل عن وجه اختصاص آيتي هود وشعيب بالواو وآيتي صالح ولوط، عليهما السلام، (بفاء التعقيب؟ وهل ذلك بواجب؟).

---

(1) سورة المؤمنين: آية 27.

(2) في ن 3: المعقوب، والصواب: التعقيب.

(3) سورة هود: آية 58.

(4) سورة هود: آية 94.

(5) في ن 1، ن 2، ن 3: فقطعت، والصواب: فعطفت.

(6) سورة هود: آية 65.

(7) سورة هود: آية 82.

(8) في ن 1، ن 2: لها، والصواب: لما.

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن آيتي صالح ولوط[1] ورد فيهما ما يقتضي معناه أن يربط بالفاء المقتضية التعقيب، أما قصة صالح منهما فتقدمها قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾[2]، فكأن قد قيل: فلما انقضت، فالموضع للفاء[3] لمقصود التعقيب. ومثل هذا من غير فرق قوله تعالى في قصة لوط عليه السلام: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾[4] ولا شك أن المعنى يستدعي تقدير فلما أصبح تحقيقاً لصدق الوعيد، وإعقاباً لا يتحصل بغير الفاء، فهذا يوجب خصوص الفاء بهذين الموضعين. وأما قصة هود، عليه السلام، فلم يرد فيها ما يستدعي تعقيباً، بل قبلها ما يقتضي أن ينسق[5] ما بعده عليه بواو العطف، وذلك قوله تعالى مخبراً عن قوم هود:[6] ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً﴾[7]، ثم قال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾[8]، فعطف هذه الجمل بعضها على بعض بما يعطي ذلك، ويناسب العطف بالواو، وعلى هذا وردت آية شعيب، عليه السلام، فورد قبلها ﴿وَيَا قَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾[9] ثم بعد ذلك ﴿وَٱرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾[10]، وليس

---

(1) سقط من ن 3.
(2) سورة هود: آية 65.
(3) في ن 3: بالوضع الفاء، والصواب: فالوضع للفاء.
(4) سورة هود: آية 81.
(5) في ن 3: يشق، والصواب: ينسق.
(6) في ن 3: قول هود.
(7) سورة هود: آية 57.
(8) سورة هود: آية 58.
(9) سورة هود: آية 93.
(10) سورة هود: آية 93.

هذا ما يقتضي تعقيباً بل بابه حمل الآي بعضها على بعض بحرف التشريك، فجاء كل على ما يناسب، والله أعلم بما أراد.

الآية السابعة قوله تعالى في قصة هود: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ [1]، وفي قصة موسى بعد من هذه السورة: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً﴾ [2]، فجمع في قصة هود بين اسم الإشارة ولفظ الدنيا الجاري عليه وصفاً، واكتفي في قصة موسى باسم الإشارة دون التابع، فللسائل أن يسأل عن وجه ذلك؟ وهل كان يجوز عكس الوارد؟

والجواب عن ذلك: أن الوارد عليه كل من الآيتين لا يحسن خلافه ولا يناسب، وذلك لوجهين: أحدهما: أن قصة هود، عليه السلام، في هذه السورة أكثر استيفاء من قصة موسى، عليه السلام، بكثير فناسب الطول الطول والإيجاز الإيجاز، ولا يليق العكس. والوجه الثاني أن قوله تعالى في قصة هود: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ [3] وارد على الأصل من الجمع بين التابع نعتاً أو عطف بيان وبين متبوعه، وجاء في قصة موسى عليه السلام: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً﴾ على حذف الوصف للاكتفاء باسم الإشارة، وكل فصيح، فجيء بما هو في الأصل أولاً، ثم جيء ثانياً بما هو ثان عنه على ما ينبغي، ولا يحسن العكس لأن ذلك شبه التفسير [4] وبابه أن يتقدم، فما يحذف يكون لما تقدم مما لا يدل عليه، ولا يحذف لما سيأتي بعد إلا في قليل نحو قوله: نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض، والرأي مختلف، وهذا الوجه كاف. والوجه الأول أنسب لرعي النظم، والله أعلم.

---

(1) سورة هود: آية 60.

(2) سورة هود: آية 99.

(3) سورة هود: آية 60.

(4) في ن 3: سبب التفسير، والصواب: شبه التفسير.

الآية الثامنة من سورة هود قوله تعالى: في قصة صالح ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَايَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾[1]، وقال في سورة إبراهيم عليه السلام: ﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾[2]، للسائل أن يسأل عن ثبات النونين وهما للمضاعفة الداخلة للتأكيد ونون الضمير في «إِنَّنَا» في سورة هود (وسقوط إحدى النونين في سورة إبراهيم من «إِنَّا»؟ وعن إفراد النون في سورة هود (في)[3]) [4] ﴿تَدْعُونَا﴾ والحاق نون ثانية في ﴿تَدْعُونَنَا﴾ من سورة إبراهيم؟

والجواب عن ذلك: أن «إننا» الواردة في سورة هود المضموم فيها إلى أن المشددة الناصبة للاسم والرافعة للخبر نون الضمير المنصوب واردة على ما يجب وعلى الأصل في آتصال الضمير المنصوب، ثم يجوز حذف إحدى المضاعفين تخفيفاً فنقول: «إنا» فنكتفي بالضمير عن النون لمحذوفة، وذلك من فصيح كلامهم، والأصل الأول، وإذا تقرر هذا فآعلم أن الضمير المتصل بالفعل في «تدعونا» في سورة هود ضمير مفرد مستتر وهو ضمير صالح، عليه السلام، ورفع هذا الفعل بالضمة المقدرة في الواو من «تدعونا» ضمير قوم صالح. ولا نون هنا غير هذه، وأما قوله في سورة[5] إبراهيم عليه السلام: ﴿مِمَّا تَدْعُونَنَا﴾ فالواو ضمير الرسل

---

(1) سورة هود: آية 62.
(2) سورة إبراهيم: آية 9.
(3) سقط من ن 3.
(4) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(5) في ن 3: قصة.

المقول[1] لهم: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾، ورفع هذا الفعل بالنون الأولى والنون الثانية ضمير المدعوّين[2]، فلا بد هنا من النّونين في «تدعوننا»، فلما لزمت النونان هنا جيء معهما بإنا المحذوفة النون لتقارب اللفظ أعني قرب إنا من تدعوننا، فكان في مظنة الاستثقال فحسن الحذف حيث يجوز فقيل: ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾[3]، ولما لم يكن في «تدعونا» في سورة هود إلا نون واحدة وهي نون الضمير لم يستثقل، فجيء بإننا على الأصل فجاء كل على ما يجب، والله أعلم بما أراد.

الآية التاسعة من سورة هود، عليه السلام، قوله تعالى في قصة صالح: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾[4]، وقال في هذه السورة في قصة شعيب عليه السلام: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾[5]، يسأل عن سقوط علامة التأنيث من الفعل في قوله: «وأخذ» في قصة صالح وثبوتها فيه في قصة شعيب مع التساوي في الفاعل وهي الصيحة والتساوي في الفصل الواقع بين الفعل وفاعله الرافع له؟

والجواب عن ذلك: أن التأنيث على ضربين حقيقي وغير حقيقي، فالحقيقي لا تحذف تاء التأنيث من فعله غالباً إلا أن يقع فصل نحو قام

---

(1) في ن 1: المفعول، والصواب: المقول.
(2) في ن 3: المدغوم، والصواب: المدعوين.
(3) سورة إبراهيم: آية 9.
(4) سورة هود: آية 67.
(5) سورة هود: آية 94.

اليوم هند، وكلما كثر الفصل حسن الحذف، ومن كلامهم حضر القاضي اليوم إمرأة، والإثبات مع الحقيقي أولى ما لم يكن جمعاً. وأما[1] التأنيث غير الحقيقي فالحذف فيه مع[2] الفصل حسن، قال تعالى[3]: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ (فَٱنْتَهَى)﴾ [4]، وهو كثير، فإن كثر الفصل ازداد حسناً، (ومنه) [5] ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ﴾، فالحذف والإثبات هنا جائزان والحذف أحسن، فجاء الفعل في الآية الأولى على الأولى، ثم ورد في قصة شعيب وهي الثانية بإثبات علامة التأنيث على الوجه الثاني، جمعاً بين الوجهين إذ الآيتان في سورة واحدة وتقدمها الأولى على ما ينبغي، والله أعلم. وهذا ما لم يكن الفاعل ضمير مؤنث فله أحكام تخصه.

الآية العاشرة (من سورة هود عليه السلام)[6] قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُوداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْداً لِثَمُودَ﴾[7]وقرىء ثمود في الموضعين بالوجهين من الصرف وعدمه[8] إلا أن أكثر القراء على الصرف في الأول ومنعه في الثاني[9]، فيترتب على قراءة الأكثرين سؤال وهو لم صرف في الأول في

(1) في ن 2: إنما.
(2) في ن 3: من، والصواب: مع.
(3) سورة البقرة: آية 275.
(4) سقط من ن 3.
(5) سقط من ن 3.
(6) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(7) سورة هود: آية 65.
(8) في ن 3: وعليه، والصواب: وعدمه.
(9) قرأ حفص وحمزة إلا أن ثمودَ «بفتح الدال من غير تنوين ووقفا بغير ألف، وقرأ الباقون بالتنوين ووقفوا بالألف، وقرأ الكسائي: ألا بعداً لثمودٍ بخفض الدال مع التنوين والباقون بفتح الدال من غير تنوين.

قراءة غير حفص وحمزة ومنع الثاني الصرف في قراءة الجماعة غير الكسائي؟

ووجه ذلك، والله أعلم: التفات شيء فيه خفاء يراعى مثله وذلك أن الاسم النكرة إذا تكرر وأريد بالثاني الأول ولم يرد غيره لزمت الألف واللام التي للعهد فصار معرفة تقول: رأيت رجلاً فضربت الرجل تريد المذكور ولا تعيده نكرة بوجهه، ولك[1] أن تأتي به مضمراً فتقول رأيت رجلاً فضربته فإذا تكلمت[2] (بهـذا)[3] في المعرفة فالأكثر أن تأتى به مضمراً أو موصوفاً كقولك المذكور أو ما لا يخرج عن الأول حتى لا يظن أنك تريد سواه فتقول: رأيت زيداً فكلمته ولقيت عمراً فضربت المذكور أو فضربت عمراً المذكور، والثاني المكرر أبداً إن كان الأول نكرة كان هو معرفة بأداة العهد، وإن كان الأول معرفة كان الثاني أمكن في التعريف إذ قد يدخل الأول اشتراك لوجود أمثاله ممن سمّي بآسمه، أما الثاني فلا يدخله اشتراك من حيث هو إلا أن يسري[4] له الاشتراك من الأول، (فقد)[5] ثبت على كل حال أنه أبعد من الاشتراك والالتباس من الأول وذلك شفوف له عليه، فكأنه أعرف منه فإذا تكرر غير مضمر ولا منعوت وكان علماً مما يجوز في مثله الوجهان من الصرف وعدمه وذلك الثلاثي الساكن الوسط، والعرب قد تصرفه لخفته ومنهم من يمنعه الصرف[6] لوجود علتين ولا يراعى خفته، وقد أنشدوا عليه:

---

(1) في ن 3: وذلك، والصواب: ولك.
(2) في ن 3: فإذا غدا، وهذا لا يناسب السياق.
(3) سقط من ن 3.
(4) في ن 1، ن 2، ن 3: يسوي، والصواب: يسري.
(5) بهامش ن 2.
(6) في ن 3: التصرف.

لم تتلفـع بفضل مئـزرها دعـدُ   ولم تسق دعـدُ في العلب [1]

فصرف أولاً ولم يصرف آخراً، فإذا كان أكد تعريفاً كان الوجه منع صرفه إشعاراً لتمكن تعريفه، إذ هذا الضرب من التعريف من موانع الصرف ولا اعتبار بما دونه من المعارف في منع الصرف إلا لموانع أخر، فلهذا كان الثاني في قوله: «ألا بعداً لثمود» أولى بمنع الصرف، والله أعلم، وعلى هذا ورد ما أنشدوه (من قوله)[2]:

لم تتلفـع بفضل مئـزرها دعـدُ   ولـم تسـق دعــدُ في الـعـلـب

فالمؤنث الثلاثي الساكن الوسط إذا لم يكن منقولاً عن مذكر فيه الوجهان الصرف وعدمه، إلا أن في اختصاص مكرره بالمنع تأنيس لما ذكرناه وإن لم ترد به الشواهد[3] إذ باب هذا معروف ومفهوم لا توقف[4] فيه.

الآية الحادية عشرة: غ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾[5]، وفي سورة العنكبوت: ﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ (إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا آمْرَأَتَكَ﴾[6])[7] فوردت آية

---

(1) البيت لجرير: البحر المنسرح، وفي رواية ولم تغذ دعد (الخصائص، لابن جني 61/3).
(2) سقط من ن 3.
(3) في ن 3: الشاهد.
(4) في ن 3: فيأتي توقف وهذا خطأ.
(5) سورة هود: آية 77.
(6) سورة العنكبوت: آية 33.
(7) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.

العنكبوت بزيادة «أنْ» بعد «لَمَّا» بخلاف[1] آية هود، فللسائل أن يسأل عن ذلك؟

الجواب عنه، والله أعلم: أن (أَنْ)[2] هذه الخفيفة كثيراً ما تزاد، وزيادتها على ضربين بقياس وغير قياس، فالذي بغير قياس نحو قوله:

كأن ظبية تعطو[3] إلى وارق السلم[4]

فزيدت بعد كاف التشبيه بينها وبين مجرورها، وأما التي[5] تزاد بقياس فبعد لما[6]، ولما ورد في آية هود قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً﴾ ثم ورد هذا اللفظ بجملته في سورة العنكبوت متكرراً بعينه ورد أولاً بغير «أَنْ» على الأصل، وورد ثانياً بزيادة أَنْ على الثاني ليحصل (بين)[7] التواردين ما يرفع تثاقل اللفظ المذكور.

فإن قلت: فإنه قد تباعد ما بين الآيتين ومثل هذا لا يحصل[8] فيه ما ذكرت، فأقول: لما كان اللفظ اللفظ وكانت زيادة «أن» وعدم زيادتها

---

(1) في ن 3: يخالف، والصواب: بخلاف.
(2) سقط من ن 1، ن 2، ن 3.
(3) في ن 3: تعطي، والصحيح: تعطو.
(4) عجز بيت لباعث بن صريم اليشكري، البحر الطويل، صدر البيت: «ويوما توافينا بوجه مقسم»، (الكتاب 328/1).
(5) في ن 3: الثاني، والصواب: التي.
(6) في ن 3: لا، والصواب: لما.
(7) سقط من ن 3.
(8) في ن 3: يلحظ.

هنا هيّناً[1] فصيحاً جيء بالجائزين معاً، وتأخرت الزيادة إذ هي غير الأصل إلى المتأخر من الآيتين.

فإن قلت: إن قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ ٱلْبَشِيرُ﴾[2] لم يقع فيه تكرر فلم زيد فيه أَنْ ولم يأت على الأصل؟ قلت: لما كان مجيء البشير إلى يعقوب، عليه السلام، بعد طول الحزن وتباعد المدة ناسب ذلك زيادة أَنْ لما في مقتضى وصفها من التراخي، فورد كل من هذا على ما يجب، والله أعلم.

الآية الثانية عشرة من سورة هود، عليه السلام، قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ ٱللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾[3]، وقال في سورة الحجر: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ ٱللَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾[4] هنا ثلاثة سؤالات: أحدها: ﴿إِلَّا[5] ٱمْرَأَتَكَ﴾ في سورة هود، ولم يقع ذلك الاستثناء في الحجر، والثاني: ما ورد في الحجر قوله: ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾، والثالث قوله: ﴿وَٱمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ ولم يذكر في سورة هود.

والجواب عن الأول: أن آية الحجر ورد قبلها قوله في قصة إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا

---

(1) في ن 3: مقيس، وبه يختل المعنى.
(2) سورة يوسف: آية 96.
(3) سورة هود: آية 81.
(4) سورة الحجر: آية 65.
(5) في ن 3: استثناء.

إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لمنجّوهم أَجْمَعِينَ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَابِرِينَ﴾[1]، فلما ورد هنا استثناء المرأة وذكر حالها وقع بذلك الاكتفاء فلم يذكر في الآية بعد، إذ ذلك كله كلام متصل بعضه ببعض، ولم يتقدم لإمرأة لوط، عليه السلام، في سورة هود ذكر فاحتيج إلى استثنائها.

والجواب[2] **عن السؤال الثالث**[3]: أن قوله في سورة الحجر: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ زيادة إخبار بما ليس في سورة هود، وقد تأخرت سورة[4] الحجر عنها. فوفت بما لم يذكر في سورة هود، ومثل هذا لا سؤال فيه.

الآية الثالثة عشرة: غ ـ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾[5]، وفي سورة الحجر: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾[6]، ففي الأولى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾ والضمير للقرية والمراد أهلها، وفي الثانية: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ والضمير لقوم لوط فللسائل (أن يسأل)[7] عن وجه

---

(1) سورة الحجر: آية 57-60.

(2) في ن 3: فالجواب.

(3) يلاحظ أنه لم تقع الإجابة عن السؤال الثاني، وفي ن 4 تعليق بالهامش: هنا بتر فليتأمل.

(4) في ن 3: في سورة ويبدو إن في زائدة.

(5) سورة هود: آية 82.

(6) سورة الحجر: آية 74، وقد وقع الاقتصار في ن 1، ن 2، ن 4 على قوله تعالى: ﴿وأمطرنا عليهم﴾.

(7) سقط من ن (3)

اختلاف الضمير[1] مع اتحاد المقصود؟ والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن كلاً من الموضعين مراعى فيه مناسبة ما تقدمه، ولما تقدم آية الحجر قوله تعالى: ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾[2]، فذكر قوم لوط موصوفين بالإجرام الموجب لهلاكهم فروعي هذا المتقدم فقيل: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾[3]، ونظير هذا قوله تعالى في سورة الذاريات: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾[4]، فقيل: «عليهم» لما تقدم (قوله)[5]: ﴿إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾، وأما آية هود فلم يتقدم فيها مثل هذا، فاكتفي[6] بضمير القرية فقيل: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾[7]، وأغنى ذلك عن ذكر المهلكين إذ هم المقصودون بالعذاب، فورد كل على ما يناسب، والله أعلم.

الآية الرابعة عشرة من سورة هود قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ (فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾[8])[9]، وقال في سورة غافر: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾[10]، وقال

---

(1) في ن 3: وجد اختلاف للضمير، وهذا خطأ مخل بالمعنى.
(2) سورة الحجر: آية 58.
(3) سورة الحجر: آية 74.
(4) سورة الذاريات: آية 32.
(5) سقط من ن 3.
(6) في ن 3: فالمعنى، والصواب: فاكتفي.
(7) سورة هود: آية 82.
(8) سورة هود: آية 96-97.
(9) سقط من ن 3.
(10) سورة غافر: آية 23-24.

في سورة الزخرف: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ [1]، وقد[2] ذكر صاحب كتاب الدرة[3] هذه الآيات الثلاث لإستوائها في الافتتاح والمطالع وانفراد آيتي هود وغافر بزيادة قوله: ﴿وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾، ولم يذكر ذلك في آية سورة الزخرف، وقد ورد في مثل هذا أمثلة في العدد وإن خالفه في المطالع والافتتاح إلا أنها من ضربها وذلك قوله في سورة المؤمنين: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَٱسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ [4]، وتقدم في سورة الأعراف[5]: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا﴾. وفي سورة يونس: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ﴾[6]، فورد في سورة هود وفي سورة المؤمنين وسورة غافر زيادة قوله: ﴿وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ ولم تزد هذه الزيادة في السور الثلاث الأخر، وورد في سورة يونس وسورة المؤمنين ذكر تأييد موسى بأخيه هارون، عليهما السلام، ولم يرد ذلك في غيرهما، وانفردت سورة المؤمنين بالجمع بين تأييده، عليه السلام، بأخيه وسلطان مبين، فللسائل أن يسأل عن توجيه ذلك كله لإتحاد[2] الاخبار؟

---

(1) سورة الزخرف: آية 46.

(2) في ن 3: قلت، ويبدو أنه خطأ.

(3) درة التنزيل، ص 191-192.

(4) سورة المؤمنين: آية 45-47.

(5) سورة الأعراف: آية 103.

(6) سورة يونس: آية 75.

(7) في ن 3: الإيجاد، والصواب: الاتحاد.

والجواب عنه، والله أعلم: أنه حيث يذكر سوء رد المرسل إليهم وقبح جوابهم يقابل[1] أبداً بتأييده بأخيه أوعضده بالآيات مما يقتضي القهر والارغام وهو المعبر عنه بالسلطان المبين[2] فيكون ذلك مقابلة لشنيع مجاوبتهم وسوء ردهم بالجملة، فإنه إذا اجتمع إفصاحهم بالتكذيب واستكبارهم جمع في التهديد المتقدم بين التأييد بهارون والسلطان المبين، وحيث يصرح بالتكذيب أوما يعطيه بياناً كقوله: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ قدم ذكر التأييد بالسلطان (المبين)[3]، وحيث تذكر صفتان محوّمتان على التكذيب من غير إفصاح يقدم ذكر التأييد بهارون، عليه السلام، وما كان دون ما ذكر لم يذكر هارون ولا السلطان المبين، فمن ذلك قوله: ﴿فاتبعوا أمر فرعون﴾ فإنه أخبر تعالى عنهم بأنهم لم تجد عليهم البراهين ولا الآيات إلا آتباع أمر فرعون، وقوله تعالى مخبراً عنهم في سورة المؤمنين بقوله: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ﴾[4] إلى ما تبع هذا محكياً من قبيح قولهم: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ فَكَذَّبُوهُمَا﴾[5] وإخباره تعالى عنهم في سورة غافر بقوله: ﴿سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾[6]، فهذه المواضع لما ذكر فيها شنيع مرتكبهم في تلقي دعاء موسى، عليه السلام، إياهم قدم توطئة لسوء مرتكبهم تأييده، عليه السلام، بالسلطان المبين ليفهم ذلك أخذهم وهلاكهم بسوء مرتكبهم، وقدم في سورة يونس توطئة لما ذكر فيها من استكبارهم

---

(1) في ن 3: يقال، والصواب: يقابل.
(2) في ن 3: بسلطان مبين.
(3) سقط من ن 3.
(4) سورة المؤمنين: آية 46.
(5) سورة المؤمنين: آية 47-48.
(6) سورة غافر: آية 24.

وإجترامهم تأييد موسى بأخيه هارون، عليهما السلام، وذلك من السلطان المبين، ولما تضاعف المحكي من مرتكبهم وقبيح مقالهم في سورة المؤمنين قدم في ذكر إرساله تأييده بأخيه وبالسلطان المبين مقابلة للاخبار عنهم بقوله: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ فَكَذَّبُوهُمَا﴾[1]، فأخبر تعالى عنهم بالتكذيب والاستكبار والاجترام والعلو تمرداً وعتواً وآدعاء المماثلة لهم في البشرية والاختصار لإقدارهما العلية، فقوبل هذا الإسهاب من مقالهم السيء بالإطالة في ذكر التأييد ليتناسب الطرفان. أما حيث لم يرد ذكر السلطان فنجد جوابهم في ذلك دون ما تقدم من التشديد كقولهم في سورة الأعراف: ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾[2]، وقوله في سورة الزخرف: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِٱلْبَيِّنَاتِ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾[3]، فليس موقع جوابهم في هاتين السورتين كموقع ما تقدم في الآيتين، فنوسب بين طرفي الإدعاء والجواب.

الآية الخامسة عشرة (من سورة هود)[4] قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[5]، وفي سورة القصص: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾[6]، للسائل أن يسأل عن

---

(1) سورة المؤمنين: آية 46-48.
(2) سورة الأعراف: آية 103.
(3) سورة الزخرف: آية 47.
(4) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(5) سورة هود: آية 117.
(6) سورة القصص: آية 59.

(قوله في)[1] أولى الآيتين: «وما كان ربك» وفي الثانية: «وما كنا»، وعن قوله في الأولى: «ليهلك» بالفعل الداخلة عليه لام الجحود، وفي الأخرى: «مهلك» و«مهلكي» باسم الفاعل، وعن قوله في الأولى: «مصلحون» وفي الثانية: «حتى نبعث في أمها رسولاً..» الآية وفي الثالثة: «إلا وأهلها ظالمون» فتلك ثلاثة أسئلة.

والجواب: أن آية هود تقدمها قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾[2] أي فهلا كان منهم خيار ينهون عن الفساد والظلم، فلو كان منهم ذلك لما هلكوا: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[3] أي ما كان ليفعل بهم ذلك وإن وقع منهم ظلم إذا كان فيهم مغير للظلم وناه عن الفساد ولكنهم كانوا كما أخبر تعالى عن المعتدين من بني اسرائيل في قوله تعالى عنهم: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾[4]، وجيء بالفعل في قوله: «ليهلك» إشارة إلى التكرر بحسب ما يكون منهم، فلو كان في كل أمة وقرن بعد قرن من ينهى[5] عن الفساد والظلم لما أخذوا بذوي الظلم منهم ولكان تعالى يدفع ببعضهم عن بعض، ولكن تكرر[6] الفساد وعم كل قرن فتكرر[7] عليهم الجزاء والأخذ، فأشار الفعل إلى التكرر ولم يكن الاسم ليعطي ذلك،

---

(1) بهامش ن 2.
(2) سورة هود: آية 116.
(3) سورة هود: آية 117.
(4) سورة المائدة: آية 79.
(5) في ن 3: ينتهي.
(6) في ن 3: تكون، والصواب: تكرر.
(7) في ن 5: فتكون، والصواب: فتكرر.

وهذا كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾[1] ولم يقل: وقابضات لما قصده من معنى التكرر، وأما قوله في سورة القصص ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً. . . الآية﴾[2] فإنه تقدم هذا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[3] أي أتبعنا ووالينا التذكار، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[5]، فلما أعلم سبحانه تتابع التذكار وتعاقب الإنذار قال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً﴾[6]، وناسب هذا ذكر اسم الفاعل[7] لأنه قصد ذكر الاتصاف[8] بهذا ولم يقصد التكرر ولم يكن حاصله[9]، وقال هنا وفي آية هود: ﴿وما كان ربك﴾ بإضافة اسم الرب جل وتعالى إلى ضمير نبينا صلى الله عليه وسلم المخاطب بهذه ملاطفة لهذا النبي صلى الله عليه وسلم وتأنيساً له ولأمته وإشعاراً بعظيم حظوته ومنزلته لديه سبحانه، ثم اتبع تعالى هذا بقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾[10]، فأخبر تعالى أنه ما أهلكهم إلا بعد استحقاق جميعهم العذاب وتساويهم في الظلم، وقيل

---

(1) سورة الملك: آية 19.
(2) سورة القصص: آية 59.
(3) سورة القصص: آية 51.
(4) سورة فاطر: آية 24.
(5) سورة الإسراء: آية 15.
(6) سورة القصص: آية 59.
(7) في ن 1، ن 2: ذكر الفاعل، والصواب: ذكر اسم الفاعل، كلمة اسم بهامش ن 4.
(8) في ن 3: نفا، في ن 4: لأنه ذكر.
(9) في ن 3: وإن كان حاصله، وهذا يخل بالمعنى المراد.
(10) سورة القصص: آية 59.

في هذه الآية الأخيرة: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ﴾ لئلا يتكرر اللفظ بعينه مع الاتصال والقرب، وليس من مواضعه، وقد حصل جواب الأسئلة الثلاثة وبيان خصوص كل آية منها بموضعها، والله أعلم.

* * *

سورة يوسف (عليه السلام)

الآية الأولى منها: غ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّـا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنَاً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1]، وفي سورة الزخرف: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنـاً عَرَبِيّـاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[2]، فورد (هنا)[3] «جعلناه» موضع «أنزلناه» في الآية الأولى، فللسائل أن يسأل عن موجب هذا التخصيص لاتفاق الوارد في الآيتين لفظاً ومعنى في غير[4] ما ذكر؟

والجواب عنه، والله أعلم: أن آية (سورة)[5] يوسف لما كانت توطئة لـذكر قصصـه، عليه السـلام، ولم تتضمن السورة غيـر ذلك الا ما أعقبت به في أخرها مما يعرف بعجيب ما تضمنته مما كان غيباً عند قريش والعرب، مستوفياً ما كان أهل الكتاب يظنون انهم انفردوا بعلمه، فأنزل الله هذه السورة موفية من ذلك أتمة، ومعرفة من قصصه العجيب، ومؤدية أكمله وأعمه[6]، ولا أنسب عبارة هنا من قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً﴾ ليعلم العرب وأهل الكتاب أن ذلك منزل من عند الله

---

(1) سورة يوسف: آية 2.

(2) سورة الزخرف: آية 3.

(3) سقط من ن 3.

(4) في ن 3: غير بسقوط حرف الجر.

(5) بهامش ن 3.

(6) في ن 3: أعجبه.

لموافقته ما عند أهل الكتاب، ولقطع العرب والجميع أن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم لم يتلق ذلك القصص من أحد من العرب، إذ لم يكن عندهم منه نبأ، ولا رحل في تعرفه[1] إلى أحد، فكان قصصاً وآية معلماً[2] بصحة رسالته، عليه السلام، وعظيم تلك العناية، فالتعبير بالإنزال هنا (بين)[3].

وأما آية الزخرف فلم تبن على أخبار بل أعقبت بآي الاعتبار والتلطف في التنبيه والتذكار قال تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ﴾[4]، وهذا أعظم التلطف، وقال تعالى بعد: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ آلسَّمَاوَاتِ وَآلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ آلْعَزِيزُ آلْعَلِيمُ﴾[5]، ثم مضت أكثر آي هذه السورة على نحو هذا الاعتبار وما يناسبه.

وقد ذكر سيبويه، رحمه الله، في أقسام جعل كونها بمعنى صير ملحقاً لها بظننت وأخواتها ومنه قولهم: جعل الطين خزفاً، وذلك انتقال وتصيير[6] فالمراد بالآية جعل الكتاب معتبراً هدى ونوراً والمنبهون به والمعتبرون بآياته المخاطبون به مخلوقون تقدمهم العدم، وإنما صح خطابهم به مشاهدة بعد وجودهم، فصح بانتقال[7] حالهم التصيير، وجل

(1) في ن 3: تحرفه، والصواب: تعرفه.
(2) في ن 3: متعلقاً، والصواب: معلمًا.
(3) سقط من ن 3.
(4) سورة الزخرف: آية 5.
(5) سورة الزخرف: آية 9.
(6) في ن 3: وصير.
(7) في ن 1، ن 2، ن 4: بالتفات، والصواب: بانتقال.

عن التغيير[1] والحدوث كلام الحكيم الخبير، فكلامه سبحانه قديم ليس بمخلوق فيبيد ولا صفة لمخلوق فينفد، فقد وضح معنى الجعل هنا ومسوغه، وانه لا يناسب هنا غير ذلك، ولا يناسب الآية الأخرى غير «أنزل»، فجاء كل على مايجب، والله أعلم.

الآية الثانية من سورة يوسف عليه السلام، قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2] وفي سورة القصص: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَٱسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[3]، للسائل أن يسأل عن ثبوت قوله: «واستوى» في سورة القصص ولم يثبت ذلك في سورة يوسف؟ وهل كان يمكن ورود العكس في الآيتين؟

والجواب عن ذلك: أن الأشد مختلف فيه من البلوغ إلى استكمال أربعين سنة، وقد قيل بالزيادة على الأربعين، وظاهر القرآن أن الأشد يقع على دون الأربعين لقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾[4]، فلو كان الأشد الأربعين لأدى إلى عطف الشيء على نفسه، فإنما الكلام في قوة أن لو قيل: حتى إذا بلغ أشده واستكمل وتم بالزيادة، والله أعلم، وإذا كان وقوع الأشد على ما ذكرنا، ولا يكون الا على حال من العمر يحسن فيه الضبط والتدبير، والإحكام للأمور، والفهم للخطاب، وتحقيق مقادير الأمور، وهذا بِجَرْيِ العادة إنما ابتداؤه عند البلوغ أوقبل البلوغ، ثم يستحكم إلى الغاية التي إليها انتهاء تمام

(1) في ن 1، ن 2: التضير، والصواب: التغير.
(2) سورة يوسف: آية 22.
(3) سورة القصص: آية 14.
(4) سورة الأحقاف: آية 15.

القوة واستحكام العقل، وتلك الأربعون، وعلى رأس الأربعين سنة بعث الله نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم، ثم إن الله سبحانه قال في قصة يحيى بن زكرياء، عليهما السلام: ﴿وَآتَيْنَاهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيّاً﴾[1]، وهذا ولا بد في غير (سن)[2] الأربعين، وقال تعالى في قصة يوسف، عليه السلام، حال القائه في الجب: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[3]، وهذا حال ابتداء الوحي من الله سبحانه إنما يكون بعلم وحكمة، وموسى، عليه السلام، إنما ابتدىء بالوحي وسماع الكلام بعد فراره خوفاً من فرعون، قال تعالى: ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمَاً وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[4] وأفصحت آي القرآن أن ذلك كان بعد رجوعه وإنكاح شعيب عليه السلام إياه ابنته، ولم يخرج من مصر حتى ائتمر به للقتل وبعد وكز الذي كان من عدوه وقضائه عليه، ومجموع هذا إنما هو بخروجه، عليه السلام، عن سن الابتداء إلى استكمال الأشد وهو الاستواء، فقيل في قصته: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَٱسْتَوَى﴾[5] أي استكمل وانتهى إلى أحسن الحالات في السن، وأما يوسف، عليه السلام، في الوحي إليه في الجب فحاله وان بلغ ما يسمى أشداً غير حالة الاستواء، فامتنع مجيء الاستواء في قصته وورد في قصة موسى، وكلام المفسرين إذا تؤمل وان لم يكن إفصاحاً مشعر بهذا، فجاء كل على ما يجب، والله أعلم.

---

(1) سورة مريم: آية 12.
(2) بهامش ن 1، ن 2.
(3) سورة يوسف: آية 15.
(4) سورة الشعراء: آية 21.
(5) سورة القصص: آية 14.

الآيـة الثالثـة من سورة يـوسف، عليه السـلام، قولـه تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَى﴾[1]، وفي سورة النحل ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَٱسْأَلُوا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ (إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[2])[3]، وفي سورة الأنبياء: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾[4]، وفي سورة الفرقان: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾[5]، للسائل أن يسأل عن اختصاص هاتين الآيتين الأخيرتين بسقوط «من» منهما وثبوتها في الآيتين الأوليين.

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن آية يوسف قد تقدمها قوله تعـالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾[6]، وقـولـه: ﴿وَسُبْحَانَ ٱللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[7]، وقوة السياق في هذه الآي[8] يدل على معنى القسم ويعطيه، فناسب ذلك زيادة «من» المقتضيـة الاستغراق، وكذلك قوله في سورة النحل: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا فِي ٱللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾[9] يؤكد ذلك المعنى، فناسبه زيادة «من» لاستغراق ما تقدم من الزمان.

---

(1) سورة يوسف: آية 109.
(2) سورة النحل: آية 43.
(3) سقط من ن 3.
(4) سورة الأنبياء: آية 7.
(5) سورة الفرقان: آية 20.
(6) سورة يوسف: آية 106.
(7) سورة يوسف: آية 108.
(8) في ن 3: الآية، والصواب: الآيات.
(9) سورة النحل: آية 41.

أما قوله تعالى في سورة الأنبياء ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾[1] فتقدم قبلها إنكار الكفار كون الرسل من البشر في قوله: ﴿(هَلْ)[2] هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾[3]، واقتراحهم الآيات في قوله: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾[4]، فلما انطوى هذا الكلام على قضيتين: من اقتراحهم الآيات، وإنكارهم كون الرسل من البشر، وقد بين لهم حال المقترحين في قوله تعالى: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾[5]، فلما تقدم هذا اتبع ببيان الطرف (الآخر)[6] وهو التعريف بأن من تقدم من الرسل إنما كانوا رجالاً من البشر، مختصين بتخصيصه سبحانه، ولم يكونوا ملائكة، فقيل لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾[7]، فقيل هنا: «قبلك» كما قيل في نظيرتها: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ﴾، فلم تدخل هنا «من» كما لم تدخل في النظير (الآخر)[8] لإحراز التناسب، والتحام الجملة المنطوية على طرفي مقصدهم من الاقتراح وإنكار كون الرسل من البشر، وكذلك الوارد في سورة الفرقان في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾[9]، وإنما ورد جواباً

---

(1) سورة الأنبياء: آية 7.
(2) في كل النسخ: ما هذا، والصواب أن آية الأنبياء تبدأ بقوله تعالى: ﴿هل هذا...﴾.
(3) سورة الأنبياء: آية 3.
(4) سورة الأنبياء: آية 5.
(5) سورة الأنبياء: آية 6.
(6) سقط من ن 3.
(7) سورة الأنبياء: آية 7.
(8) سقط من ن 1، ن 2، ن 4، وفي ن 3: النظر الآخران، وهذا خطأ.
(9) سورة الفرقان: آية 7.

لقولهم: ﴿مَالِ هَذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾[10]، ولا داعي في هذا للقسم إذ هو جواب لقولهم، فلا داعي لورود «من»، فورد هذا كله على أبدع نظام وأعلى تناسب، وإذا اعتبر الناظر استوضح أن كلًا من هذه الآي لا يمكن إتيانه في موضع غيره والله أعلم.

الآية الرابعة من سورة يوسف، عليه السلام، قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ ٱلآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا﴾[11]، قلت: تكرر هذا الضرب من الاعتبار بأحوال من تقدم من الأمم وما أعقب المكذبين تكذيبهم في عدة مواضع، منها ما ورد فيه بعد همزة التقرير وفاء التعقيب، ومنها ما ورد بواو النسق، فأما تقدم الهمزة قبلها فلما لها من الصدرية، فلا يتقدم حرف العطف عليها، ولما جرت في هذه الآي على ما ذكرنا من تخصيص بعض هذه المواضع بالفاء المقتضية مع التشريك الترتيب والتعقيب، وبعضها بالواو المقتضية مجرد التشريك والجمع، كان ذلك مظنه سؤال، فللسائل أن يسأل عن تخصيص كل واحد من هذه المواضع بما اختص به في عطفه على ما قبله؟ فمن[1] الوارد بالفاء آية يوسف المذكورة آنفاً وفي سورة الحج: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾[2]، وفي آخر سورة غافر: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ... الآية﴾[3]،

---

(1) سورة الفرقان: آية 7.
(2) سورة يوسف: آية 109.
(3) في ن 3: فهؤلاء، وهذا خطأ.
(4) سورة الحج: آية 46.
(5) سورة غافر: آية 82.

وفي سورة القتال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِنَ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾[1]، فهذه أربع آيات مما ورد بالفاء. ومن الوارد بالواو قوله في سورة الروم: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾[2]، وفي سورة الملائكة: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً. الآية﴾[3]، وفي سورة المؤمن: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي ٱلْأَرْضِ﴾[4]، فهذه ثلاث آيات.

والجواب عن الضرب الأول: أما آية يوسف فقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ . . . الآية﴾[5] مربوط بما قبله ومبني على ما تقدم كالحال في جواب مبني على ما قبله، ألا ترى ان قبل الآية[6] آيات تخويف وترهيب[7]، كقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾[8]، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾[9]، ثم قال تعالى:

---

(1) سورة القتال ـ محمد: آية 10.
(2) سورة الروم: آية 9.
(3) سورة فاطر: آية 44.
(4) سورة غافر: آية 21.
(5) سورة يوسف: آية 109.
(6) في ن 3: الآيات، وقد سقط من ن 4.
(7) في ن 3: زيادة على بعد ترهيب، وهذا لا يناسب.
(8) سورة يوسف: آية 105.
(9) سورة يوسف: آية 106.

﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ [1]، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى ٱللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ [2]، ثم قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [3]، فالكلام [4] (بجملته في قوة أن لو قيل: ما أرسلنا من قبلك الا رجالاً من البشر أمثالك فكذبوا فهلك مكذبوهم وأخذوا كل مأخذ، فإن شاء هؤلاء فليسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة (الذين من قبلهم) [5] ممن تقدمهم)[6]، فالكلام من حيث معناه في قوة الشرط والجزاء فورد بالفاء، وليس موضع الواو، ويشهد لهذا الغرض ويبينه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا ٱلطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلاَلَةُ فَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[7]، (أي)[8] فإن شككتم فسيروا في الأرض، وعلى هذا المعنى كل ما ورد من هذا. ومن هذا القبيل آية سورة الحج، ألا ترى أن قبلها قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾[9]،

---

(1) سورة يوسف: آية 107، وفي ن 1، ن 2، ن 4: حتى قوله: عذاب الله.
(2) سورة يوسف: آية 108.
(3) في ن 3، ن 4 حتى قوله: «إلى الله» وسقط الباقي، سورة يوسف: آية 109.
(4) في ن 3: فلا كلام، والصواب: لا فالكلام.
(5) سقط من ن 1، ن 2.
(6) من قوله: «بجملته» إلى هذا الحد ساقط من ن 4.
(7) سورة النحل: آية 36.
(8) سقط من ن 3.
(9) سورة الحجر: آية 42.

ثم قال: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا[1] وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[2]، أي فهلا ساروا في (الأرض)[3] قاصدين الاعتبار فعقلوا بقلوبهم وانتفعوا بأسماعهم وأبصارهم، فعلى هذا المعنى لا مدخل لواو العطف هنا، وإنما الملائم الفاء لما تعطيه من السببية والارتباط.

وأما الوارد في (آخر)[4] سورة المؤمن فقد تقدم قبلها قوله تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ ٱللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾[5]، ثم قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [6] أي فهلا ساروا في الأرض (فاعتبروا بما) [7] في الأرض من الآيات، قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ [8]، فالمعنى على هذا وليس المعنى على العطف المجرد من معنى التسبب، فالموضع للفاء لا لواو النسق.

وأما الوارد في سورة القتال فان قبل الآية: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا ٱللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [9]، ثم قال:

---

(1) في ن 3: أهلكتها، قرأ أبو عمرو: أهلكتها، بتاء مضمومة والباقون بنون مفتوحة والألف بعدها في ن 3 أمليت لها وهذا خطأ.
(2) سورة الحج: آية 45.
(3) سقط من ن 3.
(4) بهامش ن 3.
(5) سورة غافر: آية 81.
(6) سورة غافر: آية 82.
(7) سقط من ن 3.
(8) سورة الذاريات: آية 20.
(9) سورة محمد: آية 7-9.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [1]، فالملائم هنا الفاء لما في الكلام من معنى التسبب والتخصيص المحرزين هنا ما يلائم ويناسب مرتكبهم من التوبيخ، فالموضع للفاء المقصود بها ربط الكلام بما قبله.

وأما الضرب الثاني مما ورد بالواو فلعطف ذلك (على) [2] ما قبله تشريكاً لا سببية [3] فيه ولا معنى جوابيه ولا مقصود تعقيب ولا ربط مقصودها من المعاني بما قبله سوى التشريك خاصة، ففي سورة الروم ورد متقدماً قبل الآية في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [4]، فعطف على هذه عطف تشريك لا سببية فيه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [5]، فتشاركت الآيتان في الحض على الاعتبار ومقصودهما واحد، فعطفت إحداهما على الأخرى بما يقتضي ذلك وليس الا الواو، وأما الفاء وثم فلا مدخل لواحدة منهما هنا، والله أعلم.

وأما سورة الملائكة فتقدم فيها قوله: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [6]،فأحيلواعلى ما اطرد في من قبلهم من سنّتهِ تعالى فيهم، من أخذهم بتكذيبهم سنة الله التي خلت من قبل، ثم أعقب بإحالتهم على من قرب منهم مِمّن شاهدوا آثاره وتعرفوا على قرب أخباره فقيل: ﴿أَوَلَمْ

---

(1) سورة محمد: آية 10.
(2) بهامش ن 3.
(3) في ن 3: سبب.
(4) سورة الروم: آية 8.
(5) سورة الروم: آية 9.
(6) سورة فاطر: آية 43.

يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[1]، فقوله: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ﴾ وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا﴾ مسلك واحد في الاعتبار، فصل لهم بحسب بعد ما أمروا باعتبار حاله (أو قربه)[2]، فعطف أحد السببين على الآخر مع اتحاد النوع المعتبر به، ولا يعطف مثل هذا الا بالواو خاصة، وما سوى الواو لا يلائم ولا يناسب، والله أعلم.

وأما الآية الأولى من سورة المؤمن فملحوظ فيها من نيطت به في معناها من قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ رِزْقاً وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾[3]، وليس بعد هذه الآية من معناها الا قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[4]، فمن آياته تعالى الّتي رآها عباده ما أجراه من سنته فيمن خلا من الأمم، فوقعت الإحالة على ذلك بعطف الآية من قوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ على ما به نيطت حسبما تقدم، ولا يناسب ذلك غير الواو.

* * *

---

(1) سورة فاطر: آية 44.

(2) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.

(3) سورة غافر: آية 13.

(4) سورة غافر: آية 21.

سورة الرعد

الآية الأولى منها: غ ـ قوله تعالى: ﴿آلمـر تِلْكَ آيَاتُ آلْكِتَابِ وَآلَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ آلْحَقُّ﴾[1]، هنا سؤالان: أحدهما، أن السور الخمس[2] المكتنفة لهذه افتتحت بقوله تعالى: «آلرَ»، وخصت سورة الرعد وهي سادستها بزيادة الميم (فقيل آلمـر)[3]، وللسائل أن يسأل عن ذلك؟ والسؤال الثاني قوله تعالى: ﴿وَآلَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ آلْحَقُّ﴾ وعطف هذه الجملة على ما قبلها يقتضي أن المعطوف مغاير لما عطف عليه وإلا لزم منه عطف الشيء على نفسه؟

والجواب عن الأول، والله أعلم: وإن كان مفهوماً مما تقدم فلهذا الوارد هنا ما يخصه وهو أن السورتين المكتنفتين لهذه السورة وهما سورة يوسف وسورة ابراهيم لم يرد فيهما من الكلم المجتمع في تركيبها الألف واللام والميم والراء (ما ورد)[4] في سورة الرعد، أما سورة يوسف ففيها من ذلك كلمة: «الأمر» في قوله تعالى: ﴿قُضِيَ آلْأَمْـرُ آلَّذِي فِيـهِ تَسْتَفْتِيَانَ﴾[5] ولفظ: «المجرمين» في قوله: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ آلْقَوْمِ

(1) سورة الرعد: آية 1.

(2) هي السورة التالية: يونس هود، يوسف إبراهيم، الحجر.

(3) سقط من ن 3.

(4) سقط من ن 3.

(5) سورة يوسف: آية 41.

ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[1]. وأما سورة ابراهيم ففيها قوله تعالى: ﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾[2]، وقوله: ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ﴾[3]، وقوله: ﴿(وَسَخَّرَ)[4] لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾[5]، وقوله: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾[6]، وقوله: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[7]، فهذه خمس كلمات. وأما سورة الرعد فقد (ورد)[8] فيها من ذلك قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾[9]، وقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾[10]، وقوله: ﴿مِنْ كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ﴾[11]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾[12]، وقوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَانِ﴾[13]، وقوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعاً﴾[14]، فهذه ست كلمات من هذا التركيب[15] لم ترد في مكتنفيها، فلزيادة ما ورد فيها من هذا التركيب ورد في مطلعها ما ورد من زيادة الميم، والله أعلم.

---

(1) سورة يوسف: آية 110.
(2) سورة إبراهيم: آية 22 بهامش ن 4.
(3) سورة إبراهيم: آية 32.
(4) سقط من ن 3.
(5) سورة إبراهيم: آية 33.
(6) سورة إبراهيم: آية 37.
(7) سورة إبراهيم: آية 49.
(8) سقط من ن 3.
(9) سورة الرعد: آية 2، في ن 3، ن 4، وسخر لكم وهذا خطأ.
(10) سورة الرعد: آية 2.
(11) سورة الرعد: آية 3.
(12) سورة الرعد: آية 8.
(13) سورة الرعد: آية 30.
(14) سورة الرعد: آية 42.
(15) في ن 3: المركب.

والجواب عن السؤال الثاني: بعد تمهيد، وهو أنا إن قلنا: إن المراد بالمعطوف الكتاب بجملته، (والكتاب بجملته)[1] هو المنزل، كان من عطف الشيء على نفسه، وإن قلنا: إن المراد بالكتاب التوراة والإنجيل أو أحد الكتابين ففي هذا من البعد ما لا خفاء به، إذ لم نتعبد من هذه الكتب إلا بالإيمان، فإنزالها ووجودها على الجملة على ما تقرر في شريعتنا، فكيف تقع الإحالة في الاعتبار عليهما ولم نؤمر باعتبارهما في حكم ولا أمر ولا نهي، وإن قلنا أن المراد بآيات الكتاب آيات السورة، وبالكتاب السورة، وبالذي أنزل إليك سائر القرآن، كما قال الزمخشري[2] كان أقرب، وفيه نحو تحويم على المقصود من غير إفصاح مخلص، فأقول ونسأل الله توفيقه: إن الدلائل الاعتبارية على تفاصيلها منحصرة في منهجين بهما حصول التوحيد وإثبات الرسالة، وعلى مضمن تفاصيلها دارت الآي الاعتبارية والتذكير في كتاب الله تعالى: أحدهما، ما يدرك بالحواس، وإطالة التفكر في الموجودات وارتباطها، ولحظ الابتداءات والانتهاءات، وتقلب الأكوان، (واختلاف الألسنة والألوان، وحركات الأفلاك وكواكبها الثابتة والسيارة)[3]، واختلاف حركاتها في السرعة والبطء، وخنوس الخمسة منها ومطارح شعاعها، ومقادير الأزمان، وتقلب النهار والليل بالطول والقصر، وإيلاج الليل في النهار والنهار في الليل، وتعاقب الفصول بالحر والبرد، وتسخير الرياح، وما في ذلك كله من عليّ الإحكام وجليل الإتقان، إلى ما يرجع إلى ذلك مما تستقل به العقول وتجزم بدلالته، والمنهج الثاني: ما يرجع الاعتبار به

---

(1) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.

(2) الكشاف 511/2.

(3) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.

إلى المأثور من أحوال الأمم والقرون المتقدمة، ودعاء الرسل إياهم وما كان من أخذ تكذيبهم حين تمردوا وعتوا، فكل أخذ بذنبه، ونجاة المؤمنين من كل أمة. فعلى هذين المنهجين دارت آي الكتاب العزيز المنطوية على تذكير العباد وتحريكهم للاعتبار، فمن الأولى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾[1] إلى قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ (إلى قوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[3])[4]، وقوله: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَاتٍ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ﴾[6]، إلى ما يجاري هذه الآي[7] مما يشير إلى دلائل الآفاق ودلائل الأنفس وما يرجع إلى ذلك من دلائل التوحيد والتذكير به، فالربع الأول من القرآن أكثر، ثم[8] يليه في ذلك الربع الثاني، كما يكثر التذكير في الثاني (بما ورد في المنهج الثاني)[9]، وإنما ذلك ــ والله أعلم ــ لأن الضرب الأول معقول ومستنده ضروري لأن مباديه حسية[10] وبه اعتبر

---

(1) سورة البقرة: آية 21.
(2) سورة البقرة: آية 22.
(3) سورة البقرة: آية 164.
(4) سقط من ن 3.
(5) سورة الجاثية: آية 3.
(6) سورة الذاريات: آية 20-21.
(7) في ن 3: الآية، والصواب: الآي.
(8) في ن 3: مما.
(9) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(10) في ن 3: حسنة، والصواب: حسية.

من انتهى إلى علم من الأوائل[1] ممن كان في الفترات، فمنهم المصيب والمخطىء، وهو معتبر منصوب للعالم من لدن وجودهم إلى قيام الساعة، لا يضطر فيه[2] إلى نقل ناقل ولا الاعتبار به من حيث الدلائل [3] يتنزل النظر في آيات الرسل وما جاؤوا به متحدين، وتعرف الخارق للعادة من غيره، فلهذا ــ والله أعلم ــ تقرر هذا الضرب مبدوءاً به في الترتيب الثابت عليه المصحف وأتبع بالضرب الآخر على مقتضى الاعتبار، فمن عرف الجائز والمستحيل أمكنه الاعتراف بالبدأة والعودة، وإرسال الرسل، والثواب والعقاب، فيحصل العقل الجواز ويحصل التصديق بوقوع هذا الجائز من أخبار الرسل بالنظر في معجزاتهم، فبدىء بالضرب الأول بمقتضى الترتيب كما بينا، ولم يقع في الربع الأول من القرآن بسط اعتبار بالضرب الثاني الإخباري، إنما أمعن بذكره [4] في الربع الثاني وبسط الأخبار عن القرون المهلكة والأمم السالفة مع أنبيائهم وما أعقبهم التكذيب وأخذ كل قرن من المكذبين بما أخذ به، ولم ينقطع التنبيه والتحريك مع ذلك بما في الضرب الأول وما يرجع إليه.

ثم قد تجد السورة الواحدة مجردة لهذا الضرب كسورة الرعد، وللضرب الثاني كسورة الأعراف وسورة يوسف، عليه السلام، وقد تجمع السورة الضربين على السواء أو ما يقاربه كما في سورة الحجر، وأما سورة البقرة فقد تضمنت من كل (من) [5] الضربين ما فيه شفاء على

---

(1) في ن 1، ن 2، ن 4: الدلائل وهذا بعيد.

(2) في ن 1، ن 2، ن 3: فيها، والصواب: فيه.

(3) في ن 3: الاطراد، والصواب: الدلائل.

(4) في ن 3: بتذكرة، والصواب: بذكره.

(5) بهامش ن 3.

إجمال فيما أشير إليه من الضرب الثاني، إذ هذا الضرب إنما استوفى تفصيله في الربع الثاني.

ثم إن الضرب الأول وهو الذي يدرك بالعيان من آيات (اللوح)[1] المحفوظ المتضمن لكل من الضربين، قال تعالى: ﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[2]، وإذا قلنا أن الإشارة إلى اللوح إنما يريد ما يستدل به ويعتبر مما نصب تعالى من الآيات الدالة على عجائب من مضمناته، إذ لولا نصب تلك الدلائل ووضوح الاعتبار بها لما أطلعنا على ما دلت عليه. فكأنا بإدراكها شاهدنا بالعيان طرفاً من اللوح المحفوظ وأطلعنا عليه، وبلغ كل بحسب ما قدر الوصول إليه من مضمنه، إذ هو محتو على كل شيء، قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[3]، وتتباين أحوال المعتبرين، فعلى هذا يفهم المراد من قولنا: (إن الإشارة بقوله)[4]: ﴿تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ﴾ إلى اللوح المحفوظ، وهو مراد من قال بذلك في سورة البقرة من المفسرين وسورة النمل، ومن قال به أيضاً في سورة الرعد وهو الظاهر فيها، وقوله: ﴿وَٱلَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾[5] إشارة إلى الضرب الثاني وهو ما طريق تعرفه الخبر[6] الصادق وذلك أخبار الأمم مع أنبيائهم على ما تقدم وما نبينه بعد، وهذا الضرب موصل أيضاً إلى المقصود، إلا أنه لا يوصل إليه إلا

---

(1) سقط من ن 3.
(2) سورة هود: آية 60.
(3) سورة النمل: آية 75.
(4) سقط من ن 3.
(5) سورة الرعد: آية 1.
(6) في ن 3: المخبر.

من جهة الخبر وإن كان من مضمن ما في اللوح المحفوظ، وإذا وضح هذا التفصيل لم يبق إشكال في فهم ما تقدم من أن الإشارة بقوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ﴾ إلى غير ما أشير مما عطف عليه من قوله: ﴿وَٱلَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ وقوله في الحجر: ﴿وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾[1]، وكذلك الوارد في النمل وإن خالف في التقديم والتأخير لقوله فيها: ﴿تِلْكَ آيَاتُ ٱلْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾[2]، فقدم هذا الإشارة إلى الضرب المؤخر في السورتين قبل، ويشهد لهذا ويوضحه رعي التقابل المناسب في هذه السور وبناء النظم وبيانه على ذلك، ألا ترى أن سورة الرعد لم تنطو من الضرب الثاني على قصة واحدة، وإنما دارت آيها الاعتبارية على ما به الاعتبار من الضرب (الأول خاصة، وسنعود إلى بيان ذلك بإيراد آيها، وإنما لم يذكر فيها شيء من الضرب)[3] الثاني لأن بناء السورة إنما هو على الضرب الأول، ولهذا لم يشترك[4] المعطوفان في اسم الإشارة إلا أن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾[5] جملة مستقلة، وقد وقع الموصول فيها وهو الذي مبتدأ خبره الحق، وما بينها صلة، والجملة معطوفة على الجملة قبلها، وكل واحدة منهما مستقلة، ولا تسلط لاسم الإشارة على الجملة الثانية.

أما قوله في سورة (الحجر)[6]: ﴿تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ وَقُرْآنٍ

---

(1) سورة الحجر: آية 1.
(2) سورة النمل: آية 1.
(3) سقط من ن 2.
(4) في ن 3: يشترط، والصواب: يشترك.
(5) سورة الرعد: آية 1.
(6) سقط من ن 3.

مُبِينٍ﴾[1] معطوف على الكتاب المضاف إلى الخبر عن اسم الإشارة وهو آيات وداخل تحت اسم الإشارة، وهو من عطف المفردات وما عطف عليه وشرك معه بخلاف آية الرعد إذ العطف فيها من عطف الجمل.

وأما الوارد في سورة النمل فمثل ما في سورة الحجر[2]، وحكم اسم الإشارة منسحب على ما أضيف إليه خبر اسم الإشارة وما عطف (عليه)[3]، وهو من عطف المفردات أيضاً كآية الحجر، وكلا الآيتين مخالف لما ورد في سورة الرعد، فلما وقعت الإشارة في سورتي الحجر والنمل إلى الضربين معاً تضمنت كل واحدة من السورتين مما به الاعتبار ذكر الضربين معاً، ولما اختصت الإشارة في سورة الرعد بالضرب الأول لم يقع إخبار بغير ذلك الضرب، وهذا يرفع كل إشكال فيما تقدم، ومما يزيد وضوحاً فيما تقدم أن سورة الحجر لما قدم فيها ذكر الكتاب قدم فيها من الضربين الضرب المعتبر من آيات اللوح المحفوظ، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾[4] إلى قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾.. الآية[5]، ثم بعد ذلك ذكر مما به الاعتبار من الضرب الثاني في قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾[6] إلى قوله: ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[7]، فتأخر ما ورد في هذه السورة من هذا الضرب ليطابق تأخر ذكره في قوله: ﴿وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾.

---

(1) سورة الحجر: آية 1.
(2) في ن 1، ن 2: الحج، وهو خطأ.
(3) سقط من ن 3.
(4) سورة الحجر: آية 16.
(5) سورة الحجر: آية 22.
(6) سورة الحجر: آية 51.
(7) سورة الحجر: آية 84.

ولما تقدم في سورة النمل من الاسمين المضاف إليهما خبر اسم الإشارة القرآن وتأخر الكتاب فقال تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ ٱلْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (1) قوبل بتقديم الضرب المشار إليه أولاً، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ﴾ (2). وذكر من القصة مجملاً ما إذا اعتبر وَفَّى بأتم ما يحصل المعتبر به على أعلى مقصود موف بخلاصه وذلك إلى قوله: ﴿فَٱنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (3)، ثم أتبع بقصة داود وسليمان وما استجر ذلك من قصة بلقيس وما تلاها، ثم أعقب بعد بالضرب الآخر، فقال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ (4) إلى قوله: ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ (5). ولما لم يقع في سورة الرعد الضرب الأول ــ كما تقدم ــ لم يرد فيها من آي الاعتبار إلا ما هو منه، ولم يقع في السورة غير ذلك، فقد بان بحول الله ما اعتمد جواباً عن السؤال الثاني، ووضح التناسب وجلالة النظم، (ومع وضوحه لم أقف على من استقرأه من هذه السورة كما بينته، ولا توقف فيه والحمد لله على ما ألهم إليه من ذلك) (6).

ثم أعلم بعد أن ما اعتمدناه من هذا المأخذ لم ينفرد فيه إذا حقق بغير التمهيد وإيراد (7) النظائر وبيان ما أجمله غير واحد ممن تقدم من

---

(1) سورة النمل: آية 1.
(2) سورة النمل: آية 6-7.
(3) سورة النمل: آية 14.
(4) سورة النمل: آية 60.
(5) سورة النمل: آية 66.
(6) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(7) في ن 1، ن 2: أداة، وفي ن 4: أراءة، والصواب: إيراد.

المفسرين[1] على اختلاف ترجمتهم عما تضمنه، فمنها القريب ومنها البعيد، وكل منها: إذا أمعن فيه النظر ربما أدى إلى ما تقرر، ولم أنفرد عنهم إلا بتوجيه النظر على ما اعتمدته، وإظهار المناسبة، وإبداء شواهد ونظائر لما اعتمد. فمن ذلك ما تردد للمفسرين من قوله تعالى: في سورة البقرة: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَابُ﴾[2] (من)[3] مأثور ما حكوه عن من تقدمهم من أن الإشارة إلى اللوح المحفوظ، ذكر ذلك ابن عطية[4] وغيره من غير تعرض لزيادة، ونسبوا ذلك إلى ابن جبير[5]، وقال بعضهم في قوله تعالى في سورة النمل: ﴿تِلْكَ آيَاتُ ٱلْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾[6]، قال: المراد بقوله: ﴿وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ اللوح المحفوظ وذكره الزمخشري[7]، ولا شك أن هنا إيماء (إلى)[8] ما تقدم بسطه، وزاد الزمخشري على هذا ما ذكره في سورة الرعد من أن المراد ﴿بآيات الكتاب العزيز﴾ آيات السورة، و﴿بالذي أنزل إليك﴾ سائر القرآن[9]، وهو نحو ما قلناه، ألا ترى أن آيات السورة لم تخرج عن الضرب الاعتباري المدرك لكل

---

(1) في ن 3: المقرئين، والصواب: المفسرين.

(2) في ن 3: المفسرون، والصواب: للمفسرين.

(3) سورة البقرة: آية 2.

(4) سقط من ن 3.

(5) تفسير ابن عطية، المجلد الأول، ورقة 17، الوجه الأول.

(6) ابن جبير (45هـ/ 665م ـ 95هـ/ 714م): هو سعيد بن جبير، تابعي كان إماماً في عصره، قتله الحجاج (الاعلام 145/3).

(7) سورة النمل: آية 1.

(8) الكشاف: 346/3.

(9) بهامش ن 2.

(10) الكشاف 511/2.

ذي عقل سليم على ما تقدم وما نبينه بعد، وتلك آيات اللوح وأمّ [1] الكتاب، فهذا ما قلناه وقد أطنبنا فيه (من)[2] الوارد[3] في سورتي الحجر والنمل ما شهد بأنه المقصود قطعاً. وقال بعضهم في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَابُ﴾ أنه واقع على القرآن وعلى الكتاب الذي هو اللوح المحفوظ، ثم قال بعد مستدلاً: ذلك إشارة إلى غائب، يعني أن ذلك إنما يشار به إلى البعيد الغائب، ولوضوح إدراكه صحت الإشارة إليه، ثم قال بعد واسم الكتاب غيب ولذلك حسن فيه ذلك، ثم استدل على أن الإشارة إلى اسم الكتاب الذي هو اللوح المحفوظ في القرآن الحاضر المتلو على ألسنتنا قد ارتاب فيه من لم يرد الله هدايته فقالوا سحر وشعر وأساطير الأولين، وذهبوا به كل مذهب. واسم الكتاب يعني بما بدا منصوباً[4] وظهر ليس كذلك، فهذا الذي لا ريب فيه إذ هو مشاهد للأبصار ومدرك للعيان لمن هدي واستبصر، قال الله جل جلاله: ﴿الٓمٓر تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ﴾[5]، (ثم قال: ﴿وَٱلَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[6]، قال: ثم جعل جل جلاله يسرد آيات الكتاب)[7] المبين فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ﴾[8]

---

(1) في غير ن 3: آسم.
(2) بهامش ن 2.
(3) في ن 3: المراد.
(4) في ن 3: بقي عاقداً منصوباً.
(5) سورة الرعد: آية 1.
(6) سورة الرعد: آية 1.
(7) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(8) سورة الرعد: آية 2، 3.

إلى قوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [1]، قلت: على هذا استمرت وتوالت آيات هذه السور لم يتخللها من غير ما هو آية منصوبة للاعتبار إلا ما استدعاه مقصود آية منها أو معناها، من غير أن يتخللها مما يدرك بالخبر كبير شيء، على هذا دار كلام من أشرنا إليه وهو ما اعتمدته وبسطته واستشهدت عليه ونظرته بما ظهر لي مما ليس في كلامه. قلت ومما استشهد به من ذكرت كلامه على ما اختاره [2] من كون الإشارة بقوله في مطلع سورة البقرة: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَابُ﴾ إلى اللوح المحفوظ، استحكام تنزيل ما بعده عليه، ووضوح النظم وبيانه على ذلك، ألا ترى قوله تعالى: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾[3] أي بما غاب عنهم من مضمون اسم الكتاب استدلالاً بما يدل من آيته على ما غاب، فقبلوا ما أخبر الله به على ألسنة رسله مما لا يدرك مشاهداً استدلالاً بما أدركوه وشهادته لما أخبروا به فآمنوا بالله ورسله، واعتقدوا من صفاته سبحانه ما هو عليه، ونزهوه عما لا يليق به تعالى، وصدقوا ما أخبرت به الرسل من كل غائب عنهم متلقى من إخباره سبحانه، فبنوا ذلك على اهتدائهم الأول ومعتبرهم المشاهد المرئي حين وفقوا للاعتبار فآمنوا بالغيب كما أخبر تعالى عنهم، ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾[4]، والمراد بهذا (المنزل)[5] القرآن، وقوله: ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾[6] أي من الكتب المنزلة كالتوراة والإنجيل، وقال في الجميع: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَى

---

(1) سورة الرعد: آية 4.

(2) في ن 3: أخبره، والصواب: اختاره.

(3) سورة البقرة: آية 2-3.

(4) سورة البقرة: آية 4.

(5) بهامش ن 3.

(6) سورة البقرة: آية 4.

هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1]. فتأمل بيان النظم على هذا فإنه أوضح شيء.

قلت: ومن البين أن (مدار هذا الجواب بجملته إنما بناؤه على أن اسم الكتاب في سورة البقرة أو حيث وقع)[2] من فواتح هذه السور وأشير إليه بذلك أو تلك أو وقع[3] في غير الفواتح فيصح[4] أن يراد به فيها أو في بعضها اللوح المحفوظ، وأن تكون الإشارة إليه إذا شهد له السياق ووضح عليه النظم، فإذا سلم هذا فما بنيناه عليه أوضح شيء، ولا يمكن إلا تسليمه إذ لا معارض يمنع من عقل ولا نقل، وإن اعترض معترض بالمنع فقد خالف جميع المفسرين ممن تقدم أو تأخر، وخالف ما يعترف كل ذي عقل سليم بإمكانه، وقد تبين تنزيل النظم عليه على أكمل تلاؤم، والله أعلم بما أراد.

الآية الثانية من سورة الرعد قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِي ٱللَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[5]، ثم قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ[6] بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي

---

(1) سورة البقرة: آية 5.

(2) سقط من ن 3.

(3) في ن 3: أوقع، والصواب: أو وقع.

(4) في ن 3: يصح.

(5) سورة الرعد: آية 3.

(6) في ن 1، ن 2، ن 3: يسقي. قرأ عاصم وابن عامر يسقي بالياء، والباقون بالتاء، وقرأ حمزة والكسائي: ويفضل بالياء، والباقون بالنون.

ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1]، للسائل أن يسأل عن قوله في الأولى: ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وفي الثانية: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؟ وهل كان يصح ورود الأول مكان الثاني والثاني مكان الأول؟

والجواب: أن معتبرات الآية الأولى من مد الأرض (وما ذكر)[2] بعد ذلك أوضح للاعتبار، ومعتبرات الثانية أغمض، ألا ترى أن تجاور قطع الأرض وتقاربها[3] في الصفات والهيئات من سهل وحزن[4]، ثم تخرج أنواع الجنات من النخل والأعناب وضروب الأشجار والنبات والزرع، واختلاف الطعوم في ثمراتها والألواح والروائح، وتفاوت الطيب والمنافع الحاصلة عن ذلك من غذاء ودواء نافع وضار مع تقارب الأرض وتجاورها وتشاكلها وسقيها بماء واحد كما قال الله تعالى: ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾، وهذا مما تنقطع الأفكار وتقصر العقول عن عجيب الصنع الرباني فيه، وأما معتبرات الأولى فيتوصل بالفكر إلى الحصول على الاعتبار بها وتعقلها وعجيب الحكمة فيها، وغموض ما في الثانية باد ولا يتوصل إلى بعض ذلك إلا بعد طول الاعتبار والتأييد[5] منه سبحانه والتوفيق، فلما كان العقل أشرف وأعلى ناسبه أن يتبع به ما هو أغمض وأخفى، وناسب الفكر ما هو أظهر وأجلى، فقيل في عقب الآية الأولى: ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وفي عقب

---

(1) سورة الرعد: آية 4.

(2) سقط من ن 3.

(3) في ن 2 تعليق بالهامش لعلها وتفاوتها.

(4) في ن 3: خندق، والصواب: حزن.

(5) في ن 3: التدبير، والصواب: والتأييد.

الثـانية: ﴿لِقَـوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ولـو ورد العكس لم يكن ليناسب، والله (سبحانه)[1] أعلم.

الآية الثالثة من سورة الرعد قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾[2]، وفي سورة النحل: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَٱلْمَلَائِكَةُ﴾[3] فيها سؤالان: خصوص آية الرعد «بمَنْ» وآية النحل «بِمَا»، وزيادة قوله: «والملائكة» ولم يرد ذلك في سورة الرعد؟

والجواب عن الأول: أن ورود «من» في سورة الرعد لا سؤال فيه، فإن قبول الأوامر وامتثال الطاعات بالقصد والاختيار بمشيئة الله سبحانه[4] إنما يكون من أصحاب العقول وهم الملائكة والإنس والجن، وهم المقصودون في الآية، فوردت «بِمَنْ» الواقعة على العقلاء، لهذا قيل: «طوعاً وكرهاً» لأن ذلك إنما (يكون)[5] ويستوضح من العاقل، فالآية واردة على ما ينبغي. وأما آية النحل فمراعًى[6] فيها لفظ «دابة» الوارد فيها إذ هو عام للعاقل وغيره، فوردت الآية «بما» الواقعة على الأنواع والأجناس مناسبة لما تقدم من الإطلاق والعموم.

والجواب عن السؤال الثاني: أن قوله تعالى في آية النحل: «والملائكة» تخصيص لهم لجليل حالهم، فعينوا بالذكر مع دخولهم في

---

(1) بهامش ن 3.
(2) سورة الرعد: آية 15.
(3) سورة النحل: آية 49.
(4) في ن 3: تعالى.
(5) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(6) في ن 3: فيراعي، والصواب: فمراعى.

العموم المتقدم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ﴾[1] مع دخولهما تحت لفظ الملائكة. ثم أكد الوارد في آية النحل ما ورد فيها من لفظ دابة.

فإن قلت: لِمَ لَمْ يخصصوا بالذكر في آية الرعد؟ قلت: لأنه لم يقع هناك لفظ دابة الذي هو الموجب لتعيين[2] الملائكة وتخصيصهم بالذكر، فكل على ما يجب ويناسب، والله أعلم.

الآية الرابعة من سورة الرعد قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَى وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلظُّلُمَاتُ وَٱلنُّورُ﴾[3]، وفي سورة الفرقان: ﴿وَٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً﴾[4]، للسائل أن يسأل عن تقديم النفع على الضر في سورة الرعد وعكس ذلك في سورة الفرقان؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن آية الفرقان قد عطف عليها بالواو المشركة في الإعراب والمعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً﴾، وقدم قبلها ما عطفت عليه[5] بالواو أيضاً وذلك

---

(1) سورة البقرة: آية 98.
(2) في ن 3: لعكس، والصواب: لتعيين.
(3) سورة الرعد: آية 16.
(4) سورة الفرقان: آية 3.
(5) في ن 3: هي، والصواب: عليه.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾[1]، فقد اتفقت هذه الجمل المعطوفات في انطواء كل جملة منها على متقابلين كالضدين، ففي الأولى عدم الخلق في قوله: ﴿لا يخلقون﴾ مقابلاً للخلق والإيجاد في قوله: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾، وفي الثانية: الضر مقابلاً بالنفع، وفي الثالثة: الموت والحياة، وبني مجموعها على تأخير أشرف المتقابلين، ففي الأولى الإشارة إلى الخلق في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾، وكذا في الثانية الضر والنفع والنفع أشرف، وفي الثالثة الموت والحياة والحياة أشرف، فروعي تناسب الآي على ما أوضحنا، فقدم الضر على النفع في آية الفرقان.

أما آية الرعد فلم يعرض فيها ما يحمل على ما ذكر من التناسب فجاءت من حيث أفردت على ما يجب من تقديم النفع الذي هو مطلب العاقل، وكأن قد قيل فيها: إذا لم ينفعوا أنفسهم فكيف ينفعونكم؟ ثم أتبع بما يكمل به التعريف بحال (من)[2] اتخذوهم أولياء من أنها لا تضر ولا تنفع، فجاء كل على ما يجب ويناسب، ولا يمكن خلافه.

فإن قلت: إذا كان تقديم النفع ــ كما في سورة الرعد ــ وارداً على ما يجب من (حيث)[3] هو الذي تطلبه نفوس العقلاء فلم بنيت تلك (الجمل)[4] المعطوفات في آية سورة الفرقان على تأخير الأشرف في تلك المتقابلات حتى لزم أن يتقدم فيها الضر (قبل)[5] النفع ليتناسب؟

---

(1) سورة الفرقان: آية 3.
(2) في ن 3: ما، والصواب: من.
(3) سقط من ن 3.
(4) بهامش ن 4.
(5) بهامش ن 3.

وهلا كان بناؤها على عكس ذلك وكان يحسن[1] التقابل (وورود النفع قبل الضر)[2] كما في آية الرعد؟ قلت: لما تقدم قبل الجمل المذكورة في سورة الفرقان قوله سبحانه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾[3]، ناسب هذا من ذكر آلهتهم وصفها بأنها لا تخلق فقيل: ﴿وَٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾[4]، ليحصل من وصفه سبحانه بأنه خالق كل شيء وأن آلهتهم لا تخلق شيئاً ما أفصح به من توبيخهم وتقريعهم في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[5]، وتناسب هذا أوضح تناسب وأبينه، ولا يمكن خلافه، ثم بني عليه ما بعده لتناسب ذلك كله، وحصل منه أن الوارد في كل من السورتين لا يمكن فيه العكس بوجه، وربنا سبحانه أعلم بما أراد.

الآية الخامسة من سورة الرعد قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾[6]، وفي سورة القصص: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾[7]، وفي سورة العنكبوت: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[8]، وفي سورة سبأ: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي

---

(1) في ن 3: يحصل، والصواب: يحسن.
(2) سقط من ن 3.
(3) سورة الفرقان: آية 2.
(4) سورة الفرقان: آية 3.
(5) سورة النحل: آية 17.
(6) سورة الرعد: آية 26.
(7) سورة القصص: آية 82.
(8) سورة العنكبوت: آية 62.

﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾[1]، وفي الشورى: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[2]، للسائل أن يقول: إن هذه الآيات الخمس قد انطوت مطابقة على معنى واحد هو إخباره سبحانه بأنه المنفرد بالقبض والبسط، كما انفرد بالخلق والأمر، فإذا اجتمعت في هذا المعنى فما وجه انفراد آية القصص وآية سبأ بزيادة ما ورد فيهما من التخصيص في قوله: ﴿من عباده﴾ وقوله: «له»؟ وَلِمَ لَمْ يرد ذلك في السورة الأخرى؟

والجواب عنه، والله أعلم: أن آية العنكبوت لما تقدم قبلها في قصة ابراهيم، عليه السلام، قوله لقومه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَٱبْتَغُوا عِنْدَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾[3]، ثم ضرب سبحانه مثلاً لما عبد من دونه فقال: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنْكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتاً (وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)[4]﴾[5]، ثم أنس عباده المؤمنين بقوله: ﴿يَا عِبَادِيَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَٱعْبُدُونِ﴾[6]، ثم قال: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ (وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ)[7]﴾[8]، فأخبر سبحانه أنه المنفرد برزق الكل كما انفرد

---

(1) سورة سبأ: آية 39.
(2) سورة الشورى: آية 12.
(3) سورة العنكبوت: آية 17.
(4) سورة العنكبوت: آية 41.
(5) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(6) سورة العنكبوت: آية 56.
(7) سورة العنكبوت: آية 60.
(8) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.

بخلقهم، فناسب هذا قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ [1]، فخص بعد أن عم بقوله: ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [2] تشريفاً للمؤمنين ليستأنسوا بما يجري لهم من الضربين ويذكروه في حال القبض والبسط بالإضافة إضافة تشريف، ولما لم يتقدم في السورة الأخرى مثل ما تقدم هنا بل فيها ما يفهم منه أن المؤمنين لم يقصد تخصيصهم بذلك الخطاب بوجه، ألا ترى قوله في (آية) [3] الرعد: ﴿وَفَرِحُوا بِٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [4]، وليس (هذا) [5] من شأن المؤمن، فإن الدنيا سجنه وإنما فرحه بربه وبما يرجوه منه [6] في آخرته. وأما آية القصص (فمنصوص) [7] فيها أن الذين تمنوا حال قارون ومكانه هم القائلون: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ [8]، فإنما قالوه عالمين بأن الله سبحانه [9] بسط (لقارون ما بسط) [10] فعلموا أنه القابض والباسط وأنه لا يمنع عن أحد ما بسط له. وأما آية الشورى فقد تقدمها ما هو أبين (شيء) [11] في تعميم المؤمن والكافر وذلك قوله

---

(1) سورة العنكبوت: آية 62.
(2) سورة العنكبوت: آية 60.
(3) سقط من ن 3.
(4) سورة الرعد: آية 26.
(5) سقط من ن 3.
(6) في ن 1: وما يرجو منه.
(7) سقط من ن 4.
(8) سورة القصص: آية 82.
(9) في ن 3: تعالى.
(10) سقط من ن 3.
(11) سقط من ن 3.

تعالى: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1]، (فإذا كانت له مقاليد السماوات والأرض)[2] فمن أين يُرزق المؤمن والكافر؟ ليس إلا من عنده، فلم يقصد في هذه الآية[3] تخصيص المؤمن وتشريفه كما قصد في تلك، فلما اختلف القصد اختلف الوارد، فجاءت كل آية على ما يجب، ولا يمكن خلافه، والله أعلم.

الآية السادسة من سورة الرعد: غ ــ قوله تعالى: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾[4]، وفي سورة الحج: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾[5] للسائل أن يسأل عن وجه تعقيب الأولى بقوله: ﴿فكيف كان عقاب﴾ والثانية بقوله: ﴿فكيف كان نكير﴾ مع تساوي الآيتين (في)[6] مقصود الوعيد لمكذبي الرسل، عليهم السلام؟.

والجواب، والله أعلم: أن العقاب أشد موقعاً من النكير لأن الإنكار يقع على ما لا عقاب فيه بالفعل وعلى ما فيه العقاب بالفعل، وأما مسمى العقاب فإنما يراد به في الغالب أخذ بعذاب مناسب لحال المجرم إثر معصيته وعقيب جريمته، وقد تقدم في آية الرعد قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾[7]، والاستهزاء (أمر)[8] مرتكب زائد

---

(1) سورة الشورى: آية 12.
(2) سقط من ن 1، ن 2.
(3) في ن 3: الآي، والصواب: الآية.
(4) سورة الرعد: آية 32.
(5) سورة الحج: آية 44.
(6) سقط من ن 3.
(7) سورة الرعد: آية 32.
(8) سقط من ن 3.

على التكذيب من التهاون، والاستخفاف بجريمة مرتكبة أشنع جريمة، فناسبها الإفصاح بالعقاب. أما آية الحج فإن الوعيد (بها) [1] للمذكورين بالتكذيب ولم يذكر منهم استهزاء، قال تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى﴾ [2]، فلم يخبر [3] عن هؤلاء بغير التكذيب وليس كالاستهزاء [4]، فقد يؤمن المكذب ويصلح حاله، أما المستهزىء فلا يصلح، وقد كفى الله نبيه إياهم،، قال تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [5]، فناسب النظم تعقيب كل آية بما يناسب مرتكب من قدم، ولم يكن عكس الوارد ليناسب، والله أعلم.

الآية السابعة من سورة الرعد: غ ــ قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً﴾ [6]، وفي سورة طه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً﴾ [7]، والمراد بالمنزل [8] في الموضعين واحد وهو القرآن ثم اختلفت العبارة عنه في السورتين، للسائل أن يسأل عن وجه ذلك؟

والجواب، والله أعلم: أن سورة الرعد لم يتقدم فيها شيء من القصص الإخبارية وإنما المتقدم فيها تفاصيل أحكام مرجعها بجملتها إلى اختلاف أحوال المكلفين جرياً على ما سبق من قضائه فيهم،

---

(1) سقط من ن 3، وفي ن 4: فيها.

(2) سورة الحج: آية 42.

(3) في ن 2: يغل، والصواب: يخبر.

(4) في ن 3: الاستهزاء، والصواب: كالاستهزاء.

(5) سورة الحجر: آية 95.

(6) سورة الرعد: آية 37.

(7) سورة طه: آية 113.

(8) في ن 3: فالمنزل، والصواب: والمراد بالمنزل.

وتفصيل أحوالهم بحسب ما قدره سبحانه في أزله وما حكم به عليهم كقوله سبحانه: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾[1]، ثم بين تعالى حكم كل من الفريقين بعد وصفهم، ثم أعقب بمآل الفريقين[2] فقال فيمن هداه فعلم: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾[3] إلى قوله: ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾[4]، وأتبع بحال الآخرين الموصوفين بنقض عهده سبحانه، وأخبر بأن لهم اللعنة ولهم سوء الدار، وبين تعالى حكمه في بسط الرزق لمن يشاء (وقبضه عمن يشاء، فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾[5] [6]، وأعلم الله تعالى أنه يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب، ثم وصفهم بإيمانهم واطمئنان قلوبهم بذكره في قوله تعالى: ﴿طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾[7]، ودارت الآي بعد على أن كل جار في خلقه فبتقديره، وتناسب ذلك إلى الآية، وكل ما تقدم فهو حكمه السابق في خلقه، فأعقب هذا بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً﴾[8]، قال الزمخشري: حكمة عربية[9] أي مترجمة بلسان العرب.

---

(1) سورة الرعد: آية 19.
(2) في ن 3: بما للفريقين، وفي ن 4: بحال، والصواب بمال الفريقين.
(3) سورة الرعد: آية 23.
(4) سورة الرعد: آية 24.
(5) سورة الرعد: آية 26.
(6) سقط من ن 3.
(7) سورة الرعد: آية 29.
(8) سورة طه: آية 113.
(9) الكشاف 533/2.

ولما تقدم آية سورة طه قصص موسى، عليه السلام، وما جرى من فتنة قومه بعده بفعل السامري، وما كان من قول هارون، عليه السلام، وتذكيره إياهم، وقول بني إسرائيل ﴿لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾[1] إلى قوله: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً﴾[2]، والمراد به القرآن، ثم أتبع هذا بما يلائمه إلى قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً﴾[3] أي قصصاً مقروءاً بلسان العرب مذكراً[4] من وفق لاعتباره والاتعاظ به: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً﴾[5] فناسب كل من العبارتين موضعه أتم مناسبة، ولم يكن العكس ليناسب، والله أعلم.

الآية الثامنة من سورة الرعد قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً﴾[6]، وفي سورة الروم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾[7] فقدم ذكر الرسل على المجرور في سورة الرعد فقيل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ﴾[8]، وورد في سورة الروم بتقديم المجرور فقيل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ﴾، فللسائل أن يسأل عن وجه ذلك؟ وما روعي فيه؟

---

(1) سورة طه: آية 91.
(2) سورة طه: آية 99.
(3) سورة طه: آية 113.
(4) في ن 3: مذكراً بلسان مذكراً، وهذا خطأ بين.
(5) سورة طه: آية 113.
(6) في سورة الرعد: آية 38، زيد في ن 3: ﴿وما كان لرسول أن يأتي﴾.
(7) سورة الروم: آية 47.
(8) في ن 3: زيد إلى قومهم، وهو خطأ.

والجواب عن ذلك: أن المتقرر في الكتاب العزيز أنه إذا ورد اسم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مع غيره من الرسل، عليهم السلام، مفصحاً بأسمائهم في آية واحدة فإنه يتقدم اسمه ظاهراً كان أو مضمراً، ثم يذكر بعده من تضمنته الآية منهم، عليهم السلام، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ﴾... الآية[2]، فإن قيل: فقد قدم هنا قبله قوله: ﴿من النبيين﴾ قلت: المجموع جمع السلامة بالواو والنون رفعاً والياء والنون نصباً وجراً من ألفاظ العموم عند الأصوليين، فقوله: ﴿من النبيين﴾ يعم نبينا صلى الله عليه وسلم وغيره من النبيين، عليهم السلام، (ثم)[3] لما أفصح بمن ذكر في الآية من أولي العزم إشعاراً بتفضيلهم على من سواهم بدىء به، عليه السلام، فقيل: ﴿وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى بنِ مَرْيَمَ﴾[4]... الآية، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ﴾[5] ثم قال[6]: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ﴾ وقد دخلا تحت عموم «وملائكته»، مع أن لفظ النبيين بالألف واللام أوضح في العموم إذ ليس المضاف في العموم كالمعرّف بالألف واللام، فأقول: إنما قدم المجرور في قوله: ﴿مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ﴾[7]

---

(1) سورة النساء: آية 163.
(2) سورة الأحزاب: آية 7.
(3) سقط من ن 3.
(4) سورة الأحزاب: آية 7، وزيد في ن 3 ﴿وأخذنا منهم﴾.
(5) سورة البقرة: آية 98.
(6) بهامش ن 2.
(7) سورة الروم: آية 47.

في سورة الروم لمكان ضميره صلى الله عليه وسلم. أما آية الرعد فموازن لها ومناسب ما تقدمها من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾[1] فتأخر الضمير في الآيتين للموازنة والتقابل، والثانية منهما محمولة على الأولى في رعي ما ذكر.

فإن قلت: فلم تأخر ضميره صلى الله عليه وسلم في الآية الأولى (عن ذكر الرسل)[2]؟ قلت: لأن ذكرهم هنا، عليهم السلام، لم يرد معرفاً بأحوالهم وما منحوا من الاصطفاء والتكريم، ولو ورد ذكرهم لهذا الغرض لكان اسمه، عليه السلام، متقدم الذكر كما في الآية الواردة بذلك، وإنما ذكر هنا إساءة مكذبي أممهم إليهم ونيلهم منهم ضروب المضرات[3]، وليس ذلك مما يعرف بمناصبهم في التفضيل وإنما ذكر (ذلك)[4] ليقاس بهم نبينا صلى الله عليه وسلم في الصبر والتحمل، وليقتدي بهداهم كما أمر في قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾[5]، ثم له صلى الله عليه وسلم السيادة المعروفة والمكانة المتقررة، فتقدم ذكرهم[6] في قوله: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ وتأخر ضميره صلى الله عليه وسلم لما ذكر، ثم وردت الآية بعد فجرى الإخبار فيها على ذلك إحرازاً للمناسبة والموازنة أيضاً،

---

(1) سورة الرعد: آية 32.
(2) بهامش ن 2.
(3) في ن 3: المضار.
(4) بهامش ن 1.
(5) سورة الأحقاف: آية 35.
(6) في ن 3: فقد ذكرهم، والصواب: فقدم ذكرهم.

فليس ذكرهم مجملاً غير مفصل كذكرهم على التعيين بأسمائهم، وقد تقدم الإيماء إلى هذا، (والله سبحانه أعلم بما أراد)[1].

* * *

(1) سقط من ن 3.

سورة ابراهيم (عليه السلام)

الآية الأولى منها: غ ـ قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾[1]. وفي سورة الحج: ﴿وَهُدُوا إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ ٱلْحَمِيدِ﴾[2]، وفي سورة سبأ: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾[3]، فورد في هذه السور الثلاث ذكر الصراط مضافاً في السورتين منها إلى العزيز من أسمائه تعالى ثم أتبع الحميد، واقتصر في سورة الحج على إضافة اسمه الحميد، فللسائل أن يسأل عن ذلك؟

والجواب عنه، والله أعلم: أن آية ابراهيم، عليه السلام، لما ورد فيها قوله تعالى لنبيه، عليه السلام: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، وكان السابق من مفهوم هذا أن ذلك الأمر بيده، عليه السلام، وقد قال له تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[4]، وقال: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ

(1) سورة إبراهيم: آية 1.
(2) سورة الحج: آية 24.
(3) سورة سبأ: آية 6.
(4) سورة آل عمران: آية 128.
(5) سورة الشورى: آية 48.

يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾[1]، فلما كان السابق من مفهوم آية ابراهيم كما ذكر أشار وصفه تعالى بالعزيز إلى قدرته تعالى وقهره، وأنه لا يكون من العباد إلا ما سبقت به إرادته التي لا يخرج واقع عن حكمها، وتعالى أن يكون في ملكه ما لا يريد، ولو شاء لهدى الكل، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾[2]، فأحرز الوصف بالعزة هذا المعنى العظيم، ولو لم يرد هذا الوصف لما تحرر هذا المقصود، وكذلك الوارد في قوله في آية سبأ: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾[3]، والرؤية هنا بمعنى العلم والحق مفعولها الثاني والضمير فصل لا موضع له من الإعراب. ومحال أن يرى من وصفه تعالى بالعلم حكم الله تعالى في خلقه جارياً إلا على ما يشاؤه ويريده، إنه لو شاء لجمعهم على الهدى، فهذه الآية كآية ابراهيم من غير فرق، فوصفه سبحانه بالعزة تمام مقصودها كالمتقدمة، وليس للمدعوين إلا ما سبقت به إرادته تعالى، ولا بيد نبيه، عليه السلام، إخراجهم ولا هداهم، ولم يرد في هاتين الآيتين أن الإخراج من الظلمات إلى النور والهداية مما وقع وانقضى، وإنما مقتضى الآيتين رجاء إجابتهم وهدايتهم[4] (عند دعائه، عليه السلام، ثم الرجاء راجع (إلينا)[5] وربنا المنزه المتعالي عن الاتصاف)[6] به. وقد أحاط علمه سبحانه بما يكون منهم.

---

(1) سورة القصص: آية 56.
(2) سورة السجدة: آية 13.
(3) سورة سبأ: آية 6.
(4) في ن 3: هداهم.
(5) بهامش ن 4.
(6) سقط من ن 3.

وأيضاً خوطبنا على ما نتعارف[1]، قال سيبويه، رحمه الله، وقد تعرض لهذا وقد ذكر قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾[2]، و﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾[3]، فقال: لا ينبغي أن يقال دعاء بالويل ههنا لأن الكلام بذلك قبيح ولكن العباد إنما كلموا بكلامهم، وجاء القرآن على لغتهم وعلى ما يعنون[4]، فكأنه ـ والله أعلم ـ قيل لهم: «ويـل للمطففـين»، «وويـل للمكـذبـين» أي هؤلاء ممن وجب هذا القول لهم لأن (هذا)[5] الكلام إنما يقال لصاحب الشر والمهلكة فقيل هؤلاء ممن دخل في المهلكة ووجب لهم هذا، ومثل هذا: ﴿فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾[6] والعلم قد أتى (من وراء) [7] ما يكون ولكن إذهبا أنتما على طمعكما ورجائكما ومبلغكما من العلم، وليس لهما أكثر من هذا ما لم يعلما. ومثله: ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ [8] فإنما جرى هـذا على كلام العرب وبه أنزل القرآن فقد تبين تساوي هاتين الآيتين في استدعائهما وصفه تعالى بالعزيز لما يحرز من المعنى المتقدم.

أما آية (سورة [9] الحج فقوله تعالى: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾[10] إخبار منه سبحانه بما شاءه لهؤلاء

---

(1) في ن 3: خوطبوا على ما يتعارفونه.
(2) سورة المرسلات: آية 15.
(3) سورة المطففين: آية 1.
(4) الكتاب، ج 1/195-196.
(5) سقط من ن 3.
(6) سورة طه: آية 44.
(7) سقط من ن 3.
(8) سورة التوبة: آية 30.
(9) سقط من ن 3.
(10) سورة الحج: آية 24.

من فوزهم وفلاحهم، قد تم حكمه وانقضى، فلم يكن ليناسبه ما يفهم القهر، وإنما المناسب [1] ما يفهمه اسمه الحميد، وورد كل على ما يجب ويناسب، ولم يكن عكس الوارد ليلائم ولا يناسب، والله (سبحانه) [2] أعلم.

الآية الثانية قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ﴾ [3]، وقال في سورة النمل: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ﴾... الآية [4]، يسأل هنا عن تأخير «لكم» في سورة ابراهيم عن لفظ «أنزل» وإيلائه إياها مقدمة في آية النمل ما وجه ذلك؟

والجواب: أن آية ابراهيم قد تقدمها قوله تعالى: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ﴾ [5] الآية، وقد علم المؤمنون أن الله غني عن العالمين، وأن المنزل من ماء السماء إنما هو رحمة للعباد وإحياء للأرض بعد موتها، ليخرج ما بث فيها سبحانه من أنواع الحبوب والثمرات وغير ذلك مما به صلاح أحوال العباد وتتميم [6] معائشهم، ولم يغب عن المؤمنين المذكورين قبل أن ربهم غني عن ذلك كله ومنفرد بخلقه

---

(1) في ن 3: المناسبة، والصواب: المناسب.
(2) بهامش ن 3.
(3) سورة إبراهيم: آية 32.
(4) سورة النمل: آية 60.
(5) سورة إبراهيم: آية 31، وأضيف في ن 3: وينفقوا.
(6) في ن 3: تتم، والصواب: تتميم.

والإنعام به، فلم يحتج هنا إلى تنبيههم بأن ذلك لهم إذ حالهم[1] التذكر[2] وموالاة الاعتبار لا الغفلة[3]، وأخر ذكر ذلك[4] إلى ذكر الرزق ليجري مع قوله في الزينة والطيب من الرزق: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾[5].

أما آية النمل فقد تقدمها قوله تعالى: ﴿ءَاللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[6]، فلما تضمنت تعنيفاً للمشركين على سوء مرتكبهم وعماهم عن التفكر والاعتبار قصد تحريكهم وإيقاظهم من رقدة الغفلة، فقيل: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ﴾[7]، فحصل تنبيههم وإعلامهم أن إنزال الماء من السماء إنما هو لهم وإنه لا حاجة به سبحانه إليه، فاستجر الكلام تعنيفهم، ويشهد لهذا قوله تعالى عقب الآية: ﴿مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَئِلَٰهٌ مَعَ ٱللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [8] (أي يعدلون) [9] بربهم غيره ويعدلون بعبادته إلى عبادة غيره، وكل هذا شرك لا فلاح معه، فلما قصد في الآية الثانية ما ذكرنا قدم المجرور، وشأنه أبداً إذا قدم إحراز معنى التنبيه حيث يقصد التحريك والإيقاظ لذي غفلة، أما إذا تأخر فلا يحرز هذا المعنى

---

(1) في ن 3: إدخالهم، والصواب: إذ حالهم.
(2) في ن 3: التذكير.
(3) في ن 1، ن 2، ن 4: والغفلة، والصواب: لا الغفلة، كما في ن 3.
(4) في ن 3: تلك، والصواب: ذلك.
(5) سورة الأعراف: آية 32.
(6) سورة النمل: آية 59، في ن 4: تشركون. قرأ عاصم وأبو عمرو: يشركون بالياء، والباقون بالتاء.
(7) سورة النمل: آية 60.
(8) سورة النمل: آية 60.
(9) سقط من ن 3.

على الصفة التي يحرزه متقدماً. وتأمل الوارد من هذا في نظائر هذه (الآيـة) [1] كقولـه تعـالى: ﴿وَجَعَـلَ لَكُمْ مِنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَـامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [2] خطاباً لمن تقدم ذكره في قوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [3]، وقوله خطاباً لفرعون (وملئه: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْداً [4] وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً﴾ [5] وهذا بعد قول فرعون) [6] في إخبار الله تعالى عنه؛ ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾ [7] إلى قوله: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَى﴾ [8]، وقد تقدم بيان هذا [9] في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُؤاً أَحَدٌ﴾ [10] وما أنشده سيبويه، رحمه الله، من قول الشاعر [11]:

لتقـربن قـربـاً جلديـاً ... مـا دام فيهـن فصيـل حيـاً

الآية الثالثة: غ ــ قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [12] وفي سورة النحل: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ

---

(1) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(2) سورة الزخرف: آية 12.
(3) سورة الزخرف: آية 13.
(4) قرأ الكوفيون مَهْداً بفتح الميم وإسكان الهاء، والباقون بكسر الميم وفتح الهاء والألف بعدها.
(5) سورة طه: آية 53.
(6) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(7) سورة طه: آية 49.
(8) سورة طه: آية 51.
(9) انظر صفحة: 342.
(10) سورة الإخلاص: آية 4.
(11) ابن ميادة في الرجز. أنظر الكتاب 38/1.
(12) سورة إبراهيم: آية 34.

لاَ تُحْصُوهَا إنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1]، فأعقب في الأولى قوله تعالى: ﴿وَإنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ بغير ما أعقب في الثانية، يسأل عن ذلك؟

والجواب عنه، والله أعلم: أن آية ابراهيم تقدمها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾[2]، ثم قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾[3]، ثم ذكر إنعامه على عباده في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ﴾[4] إلى قوله: ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾[5]، فناسب ما ذكره تعالى من توالي إنعامه ودرور إحسانه ومقابلة ذلك من العبيد بالتبديل وجعل الأنداد وصف الإنسان بأنه ظلوم كفار.

أما آية النحل فلم يتقدمها غير ما نبه سبحانه عباده المؤمنين من متوالي آلائه وإحسانه[6]، وما ابتدأهم (به)[7] من نعمه من لدن قوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾[8]، (ثم)[9] توالت (آيات)[10] الامتنان

---

(1) سورة النحل: آية 18.
(2) سورة إبراهيم: آية 28.
(3) سورة إبراهيم: آية 30.
(4) سورة إبراهيم: آية 32.
(5) سورة إبراهيم: آية 34.
(6) في ن 3: إحيائه، والصواب: إحسانه.
(7) سقط من ن 3.
(8) سورة النحل: آية 4.
(9) سقط من ن 3.
(10) في ن 1، ن 2، ن 4: آية، والصواب: آيات.

والإحسان [1] فقال تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ﴾ [2]، فذكر تعالى بضعاً وعشرين من أمهات النعم إلى قوله منبهاً [3] وموقظاً من الغفلة والنسيان: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [4]، ثم أتبع بقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [5]، فناسب ختام هذا قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [6] فجاء كل على ما يناسب، والله أعلم.

الآية الرابعة: غ ــ قوله تعالى: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا ٱلْأَلْبَابِ﴾ [7]، وفي سورة صٓ: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا ٱلْأَلْبَابِ﴾ [8]، للسائل أن يسأل عن وجه اختصاص آية ابراهيم بقوله: «ليذكر» وآية صٓ بقوله: «ليتذكر» بتاء التفعيل؟

والجواب، والله أعلم: أن كلا الموضعين حاصل فيه التناسب، أما آية صٓ ففي قوله «ليدبروا» حرفان من الحروف الشديدة وهما الباء والدال [9] وثانيهما مضعف فنسق عليهما قوله: «وليتذكر» وفيه أيضاً حرفان من حروف الشدة وهما الكاف والتاء وثانيهما مضعف، والتناسب

---

(1) في ن 3: الاحيان، والصواب: الإحسان.
(2) سورة النحل: آية 5.
(3) في ن 3: منها، والصواب: منبهاً.
(4) سورة النحل: آية 17.
(5) سورة النحل: آية 18.
(6) سورة النحل: آية 18.
(7) سورة إبراهيم: آية 52.
(8) سورة ص: آية 29.
(9) في ن 1، ن 2، ن 3: الكاف، والصواب: والدال.

بهذا واضح.[1] وأما آية ابراهيم فورد فيها: ﴿وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا﴾[2]، وقد عريت الكلمتان من حروف الشدة وإنما جميعها من الرخوة وهي ضد الشديدة، فناسبها عطفاً عليها قوله: «وليذكر»[3] إذ ليس فيه من الحروف الشديدة غير الكاف، وأيضاً فإن يـذّكّر ويتـذكّر معناهما واحد، والأصل للمدغم[4] مفكوكة، فلفظ يـذّكّر ثان عن يتذكّر، وهو أكثر استعمـالاً وأخف لفظاً، فقدم في سورة ابراهيم وأخر الأثقل في سورة صّ على الترتيب المتقرر، على ما تقدم في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾[5] في البقرة وقوله: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ﴾ في سورة طه[6]. وقد تقدم من هذا نظائر، وسيأتي أمثالها، وآطراد ذلك شاهد برعيه، فحصل التناسب اللفظي من هذين الوجهين، وإن عكس الوارد لا يناسب، والله أعلم.

* * *

(1) في ن 3: أوضح.
(2) في ن 3 زيادة: «إنما هو إله واحد».
(3) في ن 3: ليتذكر وهو خطأ.
(4) بهامش ن 3.
(5) سورة البقرة: آية 38.
(6) سورة طه: آية 123.

سورة الحجر

غ ـ قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ ٱلْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾[1]، وفي سورة النمل: ﴿تِلْكَ آيَاتُ ٱلْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾[2]، فورد في هاتين السورتين ذكر الكتاب والقرآن معاً منسوقاً أحدهما على الآخر، ثم اختلفت كيفية الإيراد، فقدم في الأولى ذكر الكتاب وأخر في الثانية؟

والجواب عن هذا، قد تقدم في سورة الرعد[3].

الآية الثانية: غ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[4]، وفي سورة الزخرف ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[5]، للسائل أن يسأل عن تخصيص آية الحجر بقوله: «من رسول» وآية الزخرف بقوله: «من نبي»؟

والجواب، والله أعلم: انه لما تقدم في آية الزخرف لفظ الخبرية وهي للتكثير ناسب ذلك ذكر من يوحي إليه من نبي مرسل أو نبي غير

---

(1) سورة الحجر: آية 1.
(2) سورة النمل: آية 1.
(3) ج 2 صفحة 686 وما بعدها.
(4) سورة الحجر: آية 10-11.
(5) سورة الحجر: آية 6.

مرسل، فورد هنا ما يعم الصنفين، عليهم السلام. أما آية الحجر فلم يرد فيها ولا قبلها ما يطلب بالتكثير مع ما تضمنت من قصد تأنيسه، عليه السلام، وتسليته، فخصت بالتعبير باسم الرسالة تسلية له عن قولهم: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[1] بما جرى للرسل قبل، عليهم السلام، من مثل ذلك، ومن البين أن موقع الرسل هنا أمكن في تسليته، عليه السلام، فجاء كل على ما يجب من المناسبة، والله أعلم.

الآية الثالثة: غ ــ قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[2]، وفي سورة الشعراء: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ﴾[3]، فللسائل أن يسأل عن وجه ورود: «نسلكه» في سورة الحجر، وورود: «سلكناه» في سورة الشعراء؟

ووجه ذلك، والله أعلم: أنه تقدم في آية الحجر قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[4]، وهو قول العتاة من كفار قريش وغيرهم الذين عُنُوا بقوله (تعالى)[5] تهديداً ووعيداً: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[6] ولم يتقدم في هذه السورة إخبار بحال غيرهم من مكذبي الأمم سوى التعريف بأن كل قرية أهلكت فبأجل معلوم وكتاب سابق لا يتأخر عنه ولا يتقدم، فحال هؤلاء كحال من تقدمهم، كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ

---

(1) في ن 3: أليق.
(2) سورة الحجر: آية 12.
(3) سورة الشعراء: آية 200.
(4) سورة الحجر: آية 6.
(5) بهامش ن 3.
(6) سورة الحجر: آية 3.

ٱلْأَوَّلِينَ﴾[1] وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ﴾، الضمير للمذكر المتقدم وهو هنا القرآن، والمراد بسلوكه في قلوبهم ما تحصل عندهم وقطعوا به من معرفتهم بباهر نظمه، ورفيع إيجازه، وعليّ تناسبه، وانه يفوق كل كلام مع انه بلسانهم، وقد علموا مع هذا عجزهم عن معارضته مع انه لم يرد بغير لسانهم ولا بما لا يعرفونه في محاوراتهم ومخاطباتهم[2]، فهذا المراد بسلوكه في قلوبهم، فقد كانوا متيقنين انه ليس من كلام البشر وبهذا أخبر سبحانه عنهم تسلية لنبيه عليه السلام فقال: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ ٱلظَّالِمِينَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[3] وبعجزهم عن معارضته قامت الحجة عليهم، ثم امتنعوا من الإيمان بما سبق لهم في الأول ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾[4]، فورد هنا «نسلكه» بلفظ المبهم لأن[5] الإخبار عن كفار قريش ممن استمر على كفره فهو حالهم وقت نزول القرآن وبعده. وقوله: «نسلكه» مشعر باستمرار حالهم وموافاتهم على ذلك، وقد[6] تأكد هذا بوصفه بالإجرام وتسجيل حالهم السّيء بقوله: «لا يؤمنون»، وأداة لا نافية للمستقبل فناسب هذا لفظ المبهم المضارع.

أما آية الشعراء فقد تقدمها ذكر قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وغيرهم من الأمم المكذبين، بعد سلوك ما ذكره سبحانه أنه زبر الأولين

---

(1) سورة فاطر: آية 43.

(2) في ن 1، ن 2، ن 4: في محاولتهم ومخاطبتهم، والصواب: في محاوراتهم ومخاطباتهم، كما في ن 3.

(3) سورة الأنعام: آية 33.

(4) سورة يونس: آية 96-97.

(5) في ن 3: ان، والصواب: لأن.

(6) في ن 3: ومن، والصواب: وقد.

في قلوبهم، فلما تقدم أمرها أولاً، وانقطعت أزمانها، وقعت العبارة بالماضي، فقال تعالى: ﴿كذلك سلكناه﴾، ولم يناسب هنا غير الماضي، فقد وضح ورود كل من الموضعين على ما يناسب، ولم يناسب عكس الوارد، والله أعلم.

الآية الرابعة قوله تعالى: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[1]، وفي سورة صٓ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾[2]، للسائل أن يسأل عن وجه اختلاف العبارتين من ورود اللعنة في سورة الحجر بالألف واللام، وفي صٓ بالإضافة مع اتحاد المعنى؟

والجواب عنه، والله أعلم: أن آية الحجر وردت بالألف واللام، وهي الأداة المقتضية الحصر الجنسي[3] حيث لا عهد، وذلك وارد على ما ينبغي لما قصد هنا من المبالغة، ولا سؤال فيه. وأما الوارد في سورة صٓ مضافاً لياء المتكلم فوجهه المناسبة اللفظية لقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[4]، فجرت العبارتان على منهج واحد ومسلك متناسب[5]، ولم يكن ليتناسب العكس فيما ورد، والله أعلم.

الآية الخامسة: غ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾[6]، وكذا في سورة الذاريات: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾[7]،

---

(1) سورة الحجر: آية 34-35.
(2) سورة ص: آية 78.
(3) في ن 3: لحصر الجنس.
(4) سورة ص: آية 75.
(5) في ن 3: فناسب، والصواب: متناسب.
(6) سورة الحجر: آية 53.
(7) سورة الذاريات: آية 28.

وورد في سورة الصافات: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾[1] خلاف الوصف بالعلم في السورتين.

ووجه ذلك، والله أعلم: أن آية والصافات لما وردت كالتمهيد لما تلاها متصلاً بها من قوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَٱنْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾[2]، فتلقى الذبيح، عليه السلام، ما أخبره (به)[3]، أبوه ـ لعلمه أنه من أمر الله ـ بالرضى والصبر. قال ابن عطية في تفسير حليم: صابر محتمل عظيم العقل، قال: والحلم العقل[4]، فأحسن، عليه السلام، جواب أبيه معزياً له محتسباً بنفسه، فناسب هذا الموضع ورود وصف الذبيح[5] بالحلم. ولما لم يرد في الآيتين الأخريين ذكر الأمر بالذبح ناسبها الوصف بالعلم، وهو صفة الأنبياء، فورد كل على ما يجب ويناسب، والله أعلم.

الآية السادسة من سورة الحجر [6] قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [7]، فيها سؤالان: جمع آيات في الأولى وإفراد ذلك في الثانية؟ وتخصيص الاعتبار أولاً [8] بالمتوسمين وثانياً بالمؤمنين؟

---

(1) سورة الصافات: آية 101.
(2) سورة الصافات: آية 102.
(3) سقط من ن 3.
(4) تفسير ابن عطية، المجلد الثاني، الورقة 182، الوجه الأول.
(5) في ن 3: الذبح، والصواب: الذبيح.
(6) في ن 3: الحج، والصواب: الحجر.
(7) سورة الحجر: آية 75-77.
(8) في ن 3: أولى، والصواب: أولاً إذ بعده ثانياً.

والجواب: أن المتقدم في ذكر ضيف إبراهيم ووجله، عليه السلام، منهم مع أنه كان لا يهاب كثرة الرجال لما منح من النبوة والأيد، إلى حال النبوة، وتخصيص الخِلة، ثم بشارة الملائكة له بالولد مع بلوغ الكبر، ثم سؤاله إياهم عن إرسالهم إذ ذاك فاخبروه انهم أرسلوا لإهلاك قوم لوط، وكانت مدينتهم على قرب من حيث كان إبراهيم، عليه السلام، فسألهم ــ إشفاقاً ورحمة جبل عليهما الرسل والأنبياء ــ أيهلكون إن كان فيهم مؤمنون؟ وعن ذلك السؤال والمحاورة عبر بالمجادلة (في قوله)[1]: ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾[2] أي يجادل[3] رسلنا، وهي محاورته معهم وسؤاله إياهم حتى عرفوه أن آل لوط، عليه السلام، ناجون الا امرأته، ثم أعقب ذلك من مجيء الملائكة من عند إبراهيم إلى لوط، وإنكار لوط أولاً إياهم حتى علم انهم الملائكة ثم أمرهم إياه بأن يسري بأهله، وأن يُقدّمهم أمامه، ولا يلتفت إلى ما وراءه، ولا يعرج على شيء فإن قومه هالكون صبح[4] ليلتهم، ثم الإخبار بمجيء قوم لوط لما سمعوا بأضيافه وظنوا انهم من البشر، جاؤوا مسرعين طامعين في غلبة لوط، عليه السلام، وقهره في ضيفه ليأخذوهم لأغراضهم الشنيعة: ﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ﴾[5]، فذكرهم، عليه السلام، وأمرهم بتقوى الله، عز وجل، فقال: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾[6]، ثم عرض عليهم نساء آله وقومه بالوجه المحل لذلك

(1) سقط من ن 3.
(2) سورة هود: آية 74.
(3) في ن 3: يجادلون، والصواب: يجادل.
(4) في غير ن 3: صبيح.
(5) سورة هود: آية 78.
(6) سورة الحجر: آية 68-69.

فقال: ﴿هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾[1]، ونساء قوم كل نبي بنات له[2]، وهو لهم بمنزلة الأب (فلم)[3] يجد ذلك عليهم شيئاً، وعند تمردهم وطغيانهم قال عليه السلام: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[4]، أي عشيرة[5] (وقبيلة)[6] يحمونني، فقالت الملائكة إذ ذاك: إنهم لن يصلوا إليك، أي لا سلطان لهم عليك ولا عون، فروي أن جبريل، عليه السلام، نفخ في أعينهم فخرجوا وقد عموا قائلين لمن وراءهم أن عند لوط سحرة أو كما قالوا، ثم صبحهم العذاب: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾[7]، قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾[8]، هذه جمل ومقدمات عجائب من الآيات يجول فيها اعتبار المعتبر ويتسع له النظر، ويتوسم منها المتفرس مخائل الهلاك ومقدمات التلف لأولئك الأشرار، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾[9] أي المعتبرين أو المتفرسين والناظرين، فهذا مناسب لما تقدم. ثم لما تحصل من قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾[10] قلب مدينتهم المشاهد أثره[11] مرئياً[12] مشاهداً لمن أتى بعدهم قال

---

(1) سورة الحجر: آية 71.
(2) سقط من ن 3.
(3) بهامش ن 3.
(4) سورة هود: آية 80.
(5) في ن 1، ن 2: وعشيرة، والصواب: أي عشيرة على التفسير والبيان.
(6) سقط من ن 1، ن 2.
(7) سورة الحجر: آية 73.
(8) سورة الحجر: آية 74.
(9) سورة الحجر: آية 75.
(10) سورة الحجر: آية 74.
(11) في ن 3: أمره، والصواب: أثره.
(12) في ن 3: بئنا وهو مناسب.

تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾[1] أي طريق واضح ودليل بين لمن شاهده وأبصره، وذلك أمر مدرك ومعتبر متخذ حاصل لنا تفصيل قصصه بخبر الصادق، عليه السلام، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[2]، وقال «للمؤمنين» أي للمصدقين المشاهدين أثرهم، فجاء كل على ما يجب، ولم يكن ليناسب المتقدم إفراد آية، ولا جعل العبرة للمصدقين مع ذكر المتوسمين في الأخرى ولا المتأخر ما ورد في الأولى، بل ورد كل على ما يجب ويناسب، والله سبحانه أعلم.

الآية السابعة: غ ـ قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[3]، وفي سورة الشعراء: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[4]، فزيد هنا قوله: ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ ومقصود الآيتين واحد فللسائل أن يسأل عن وجه هذا التخصيص؟

والجواب عن ذلك: إنه لما لم يتقدم آية الحجر تخصيص بمدعو بل تقدمها خطابه، عليه السلام، بالتأنيس والتسلية عمن أعرض والرفق بمن آمن فقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[5]، لم يحتج هنا إلى زيادة. ولما تقدم آية الشعراء قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[6] والإنذار يستصحب التخويف والاستعلاء على من يخاطب به، اتبع ذلك تعالى تلطفاً وإنعاماً على من آمن من عشيرته، عليه السلام، وغيره بقوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ

(1) سورة الحجر: آية 76، وسقطت لفظة مقيم من ن 3.
(2) سورة الحجر: آية 77.
(3) سورة الحجر: آية 88.
(4) سورة الشعراء: آية 215.
(5) سورة الحجر: آية 88.
(6) سورة الشعراء: آية 214.

ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فقيل هنا: ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ ليكون[1] أنص في تعميم المؤمنين مطلقاً من العشيرة وغيرهم، ولو قيل هنا ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ لما كان نصاً في التعميم بل كان يحتمل أن يراد به خصوص المؤمنين من عشيرته، عليه السلام، وكأن قد قيل: واخفض جناحك لمن آمن منهم أي من العشيرة، لأن لفظ المؤمنين هنا ـ وان عم ـ فإنه مما تقدمه وبني عليه من قوله: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[2] يشبه الوارد من العمومات على سبب خاص، وذلك مما يكسر[3] سورة عمومه ويدخله الخلاف، فجيء بالمجموع من قوله: ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ليرفع ذلك الاحتمال ولا يبقى العموم كما في الآية الأخرى.

فان قلت: إن الضمير المرفوع من قوله: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾[4] راجع إلى عشيرته، عليه السلام، وذلك مما يلزم أن يكون المعنيون بالكلام بقوله هنا: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لا يمتنع أن يراد به الخصوص، فالجواب أن رجوع الضمير إلى العشيرة على اللزوم غير لازم بل يمكن رجوعه إلى الجميع من متماد على كفره ومتبع. أما الأول فبين، وأما الثاني فالارتداد وقد قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾[5]، بل[6] رجوع الضمير إلى الكل أولى ليستصحب المؤمن الخوف، ولهذا قيل: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ لوقوع آسم المعصية على الكفر وما فوقه.

* * *

(1) في ن 3: لمن يكون، والصواب: ليكون.
(2) سورة الشعراء: آية 214.
(3) في ن 3: يعكس، والصواب: يكسر.
(4) سورة الشعراء: آية 216.
(5) سورة آل عمران: آية 86.
(6) في غير ن 3: قيل، والصواب: بل.

سورة النحل

الآية الأولى منها قوله تعالى: ﴿يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾[1]. يسأل عن توحيد آية (في الآية)[2] الأولى والثالثة[3] وجمعها في الآية الثانية المتوسطة؟ وعن تعقيب الأولى بقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ وتعقيب الثانية بقوله: ﴿لقوم يعقلون﴾ والثالثة بقوله: ﴿لقوم يذكرون﴾؟

والجواب عن السؤال الأول: أن الإشارة بقوله: ﴿إن في ذلك﴾ في الآية الأولى إلى المنزل من السماء في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾[4]، ثم قال: ﴿يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ﴾[5] أي

---

(1) سورة النحل: آية 11-13.
(2) بهامش ن 3: وساقط من ن 1، ن 2.
(3) في ن 1، ن 2: الثانية، والصواب: الثالثة.
(4) سورة النحل: آية 10.
(5) سورة النحل: آية 11.

ينبت لكم بالماء المنزل من السماء ــ مع وحدته في الصفة ــ ضروب الأقوات والفواكه وأنواع الثمرات فقيل: ﴿إن في ذلك لآية﴾ بالإفراد، لأن الإشارة إلى الماء أو إلى إنبات أنواع الثمرات المختلفات في الطعم والألوان مع وحدة المادة من الماء وهو واحد، وكذلك، الآية الثالثة الإشارة فيها إلى الجنس الواحد الواقع عليه لفظ «ما» من قوله: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ﴾ فأفرد هذا الضمير أيضاً لرجوعه إلى «ما» الواقعة على جنس واحد مبثوث في الأرض يشتمل على أنواع مختلفة في الطعوم والألوان، فأفرد لفظ الآية لما أفرد لفظ الضمير لوقوع ذلك على الجنس الذي عبرت عنه «ما»، وهو جنس واحد، فاقتضى ذلك إفراد آية. وأما الآية المتوسطة فالإشارة فيها إلى خمسة أشياء مختلفة، أحيل عليها في الاعتبار، وسخرت لنا تسخيراً به قوام معاشنا وصلاح[1] أحوالنا ومعرفة حسابنا، وهي الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم، وكل واحد[2] من هذه تتسع[3] جهات النظر فيه والاعتبار بعجائبه، فالليل للسكون[4] والراحة والنهار للاكتساب والتصرف والسياحة، والشمس للإضاءة والتسخين، والقمر للنورية والترطيب والتكوين، وبكلا[5] النيرين[6] معرفة الشهور والسنين، ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ

---

(1) في ن 3: ولصلاح.

(2) سقط من ن 3.

(3) في ن 1، ن 2، ن 4: تتبع، والصواب: تتسع.

(4) في ن 1، ن 2: المسكن، والصواب: للسكون، وفي ن 4: للسكن وهذا مناسب.

(5) في ن 1، ن 2: بكل، والصواب: بكلا.

(6) سقط من ن 3.

وَلَا ٱللَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾[1]، والنجوم لـلاهتداء في ظلمـات البراري والبحار، وجهات الاعتبار بهذه الخمس يفوت الإحصاء، فللإشارة إلى هذه المتعددات جمع فقيل: «لآيات».

والجواب عن السؤال الثاني، وهو وصف المعتبرين في الآيـة الأولى[2] بالتفكر وفي الثانية بالعقل وفي الثالثة بالتذكر: أن إنبات[3] الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومختلف الثمرات بالماء المنزل من السماء مع كونه واحداً والمنبت مختلف الأنواع والطعوم والمنافع أمر يوصل إلى تعرفه وارتباطه باستعمال الفكر في ذلك وإن لم يطل، بشرط السلامة من الغفلة، فيحصل بمجرد الفكر على عظيم المعتبر. وأما تسخير الليل والنهار إلى ما ذكر معهما فلا يكتفى في (معرفة)[4] ذلك والحصول على الاعتبار به بمجرد الفكر، فإن العلم بتسخير هذه مما يغمض ويخفى إلا على ذوي البصائر والفطن السليمة والعقول الراجحة، فلم يقنع التفكر هنا بل وصف المعتبر بها بما هو فوق الفكر، وتأصل ما تعقب به موضع الاعتبار في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ﴾[5] الآية، إلى قوله: ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[6]، لما كان في الاعتبار بما انطوت عليه الآية غموض وخفاء قيل: ﴿لقوم يعقلون﴾، وأما الآية

---

(1) سورة يس: آية 40.

(2) سقط من ن 1، ن 2.

(3) في ن 3: نبات، والصواب: انبات.

(4) بهامش ن 2.

(5) سورة البقرة: آية 164.

(6) سورة البقرة: آية 164.

الثالثة وهي قوله: ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ﴾ [1] ببدأة الفكر السالم [2]، فقصد التذكير كاف في حصول الاعتبار بذلك. فإذا تأملت ما ذكرناه ألفيت ذلك كله وارداً على أجل مناسبة، وعلمت أن كل آية من هذه الثلاث لا يناسبها إلا ما أعقبت به.

الآية الثانية من سورة النحل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[3]، وقال في سورة الملائكة: ﴿وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[4].

في هذه الآية ثلاثة سؤالات: الأول: لم[5] أخر المجرور وفي سورة النحل فقيل: ﴿مواخر فيه﴾ وقدم في السورة الأخرى فقيل: ﴿فيه مواخر﴾؟، والثاني: زيادة الواو في قوله: ﴿ولتبتغوا من فضله﴾ في سورة النحل وسقوطها في سورة الملائكة؟، والثالث: زيادة «منه» في سورة النحل (في قوله: ﴿وتستخرجوا منه حلية تلبسونها﴾ وسقوط ذلك في سورة الملائكة)[6]؟

والجواب عن الأول: أن آية النحل بنيت على تأخير المجرورات عما تعلقت به، وجرى الكلام جرياً واحداً للتناسب والتشاكل، فقيل:

---

(1) سورة النحل: آية 13.
(2) في ن 3: السليم.
(3) سورة النحل: آية 14.
(4) سورة فاطر: آية 12.
(5) في ن 3: لما، والصواب: لمَ.
(6) سقط من ن 3.

لتأكلوا منه، وتستخرجوا منه، ومواخر فيه. ولو قيل هنا: فيه مواخر وتقدم المجرور على العامل فيه وهو مواخر اسم فاعل مجموع من المخر وهو شق السفينة الماء بحيزومها لما ناسب ما تقدم مما بنيت الآية عليه وتقدم في المجرورين قبله.

أما آية الملائكة فمبنية على تقدم المجرور على ما به تعلق (قال تعالى)[1]: ﴿وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً﴾، وتأكلون العامل في المجرور الذي هو كل متأخر عنه، فناسب ذلك تأخر العامل أيضاً في المجرور الثاني ليتناسب الكلام ببناء آخره على ما بني أوله، ولم يكن ليصح ما لا يناسب.

والجواب عن السؤال الثاني: أن آية النحل مبنية على قصد الاعتبار وتعداد النعم وقد اجتمع في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ﴾ الآية، مجموع الأمرين من الاعتبار وإبداء النعمة بتسخير البحر وأكل اللحم الطري منه وإخراج الحلية للباس ومخر[2] السفن إياه للمنافع والاكتساب، فهذه نعم جليلة، وفي كل منها مجال للاعتبار ومتسع للتفكر والنظر، فلما كان من مقصود هذه الآية تعداد النعم ناسب ذلك عطف بعضها على بعض لأنه مظنّة إطناب وتفصيل، فقيل: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾[3]، والمجرور متعلق بفعل التسخير، واستخراج الحلية، وجري السفن، والابتغاء من فضل الله.

---

(1) سقط من ن 3.
(2) في ن 3: مخرج، والصواب: مخر.
(3) سورة النحل: آية 14.

وأما آية سورة الملائكة فبنيت على إبداء القدرة وجليل الحكمة ألا ترى قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلاَ تَضَعُ إلاَّ بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلاَ يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إلاَّ فِي كِتَابٍ﴾[1]، ثم قال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾[2]، فهذا مقصود به الاعتبار والتعريف بانفراده سبحانه بخلق ذلك كله والقدرة عليه وإحكام الصنعة فيه وإن انجر طي ذلك إبداء النعم وجليل الإحسان، ولكن مقصود الآية وبناءها على ما ذكرنا، ثم تجرد باقي الكلام للتعريف بالإنعام والامتنان فقال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾[3]، فتعلق المجرور الذي هو لتبتغوا باسم الفاعل المجموع أي سخره[4] للابتغاء من فضله، فالابتغاء هنا منجر طي الكلام، والامتنان مقصود، ألا ترى أن مخر[5] السفن كأنه ليس لشيء إلا للابتغاء،فلما تعلقت اللام بمواخر من حيث تحمّل اللفظ معنى الفعل لم يصح دخول الواو، ولم يكن كآية النحل، فافترق القصدان[6]، ولم يلائم كلًّا من الموضعين إلا الوارد فيه.

والجواب عن السؤال الثالث: أن معنى الكلام في قوله: ﴿وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾[7] مستقل، لا إبهام

---

(1) سورة فاطر: آية 11.
(2) سورة فاطر: آية 12.
(3) سورة فاطر: آية 12.
(4) في ن 1، ن 2: مجرد، والصواب: سخره.
(5) في ن 3: سخر، والصواب: مخر.
(6) في ن 3: الفصلان، والصواب: القصدان.
(7) سورة فاطر: آية 12.

فيه ولا احتمال لأن تقدير الكلام: من كل البحر أكلكم واستخراج الحلية للباس، فالكلام في قوة المبتدأ والخبر، لا يوهم خلاف ما ذكر، وأما قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾[1] فلو سقط هنا المجرور الذي هو «منه» لكان مجالاً[2] للاحتمال، لو قيل: وتستخرجوا حلية لم يكن بالنص في أن استخراج الحلية من البحر وإن كان ظاهراً، إلا أن هذا القدر من الاحتمال منقدح هنا وغير منقدح في آية الملائكة، فثبت الضمير المجرور هنا رافعاً لهذا الاحتمال، ولم يثبت في آية سورة الملائكة لأنه لا انقداح فيها للاحتمال، فورد كل على ما يجب، والله أعلم.

الآية الثالثة من سورة النحل قوله تعالى: ﴿فَٱدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾[3]، وفي سورة الزمر: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾[4]، وفي سورة المؤمن: ﴿ٱدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾[5]، للسائل أن يسأل عن زيادة اللام في آية النحل وسقوطها في الآيتين الأخريين وما وجه ذلك؟

والجواب عن ذلك: أن آية النحل تقدمها ثماني آيات أو نحوها في ذكر هؤلاء المقول لهم: ﴿فَٱدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ وفي وصفهم من لدن

---

(1) سورة النحل: آية 14.
(2) في ن 3: مختالاً، والصواب: مجالاً.
(3) سورة النحل: آية 29.
(4) سورة الزمر: آية 72.
(5) سورة غافر: آية 76.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[1] إلى قوله: ﴿فَٱدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾[2]، وتلك إطالة في ذكرهم، والاستيفاء يناسبه التأكيد باللام المشيرة إلى معنى القسم، وأما الآيتان في سورة الزمر وسورة المؤمن فإن المتقدم في الأولى منهما قوله: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً﴾[3] إلى قوله: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾[4]، وذلك كلام قد جمع إلى الوجازة أنه لم يذكر من كفرهم مثل ما ذكر في المذكورين قبل آية النحل من ردهم المنزل بقولهم: ﴿أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وتلك مقالة شنعاء من كفرهم[5]، فناسب الإيجاز الواقع قبل آية الزمر مع ما أجمل فيها من كفرهم بسقوط اللام من قوله: «فبئس». وأما آية سورة المؤمن فلم يقع أيضاً قبلها استيفاء التعريف ما وقع في سورة النحل ولا نص من شنيع مرتكبهم على غير التكذيب، فناسب ذلك سقوط اللام كما في سورة الزمر، وورد كل على ما يجب ويناسب.

الآية الرابعة قوله تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[6]، وفي سورة الزمر: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾[7].

---

(1) سورة النحل: آية 24.
(2) سورة النحل: آية 29.
(3) سورة الزمر: آية 71.
(4) سورة الزمر: آية 72.
(5) في ن 3: لكفرهم، والصواب: من كفرهم.
(6) سورة النحل: آية 34.
(7) سورة الزمر: آية 51.

ووجه ذلك، والله أعلم: استدعاء التناسب في كل من الموضعين، وقد ورد قبل آية النحل قوله تعالى مخبراً عن المشركين: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ ٱلْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [1]، (ثم استمرت الآي إلى قوله: ﴿ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [2]) [3]، ثم صرف الكلام إلى كفار العرب في توقفهم عن الإيمان فقيل: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلاَئِكَةُ﴾ [4]، ثم قيل: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ [5] ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [6]، والمراد من قال: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ [7] ومن كان على مثل حالهم فقيل بناء على قولهم: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾، ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ [8]، وتناسب هذا أبين تناسب.

وأما آية الزمر فقد وقع قبلها قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ [9] إلى قوله: ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [10] وبعد هذا: ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى

---

(1) سورة النحل: آية 28.
(2) سورة النحل: آية 32.
(3) سقط من ن 1، ن 2، ن 40.
(4) سورة النحل: آية 33، في ن 3، ن 4: إلا أن يأتيهم الله، وهذا خطأ.
(5) سقط من ن 3.
(6) سورة النحل: آية 33.
(7) سورة النحل: آية 28.
(8) سورة النحل: آية 34.
(9) سورة الزمر: آية 47.
(10) سورة الزمر: آية 48.

(عَنْهُمْ)[1] مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[2]، ثم قال: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا، وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ (يعني كفار العرب)[3] سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾، فقد وضح وجه التناسب في الآيتين، وعكس الوارد لايناسب، والله أعلم.

الآية الخامسة قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[4]، (وفي الروم: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يُشْرِكُونَ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[5])[6]، وفي العنكبوت: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا ٱلْفُلْكَ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[7]، للسائل أن يسأل عن وجه تكرر اللّام في قوله: «وليتمتعوا» في سورة العنكبوت ولم يتكرر في الآيتين الأخريين؟ وهل بين آية العنكبوت وآيتي النحل والروم فرق في ذلك يوجب تكرر اللام حيث ذكر أم لا ؟ وهل قوله في سورة العنكبوت: ﴿إذا هم يشركون﴾ يعم جميع المذكورين في ذلك؟ وقال في الآيتين

---

(1) سقط من ن 3.

(2) سورة الزمر: آية 50.

(3) بهامش ن 2، وفي ن 3: كفار الأرض، وهذا خطأ.

(4) سورة النحل: آية 53-55.

(5) سورة الروم: آية 34.

(6) سقط من ن 1، ن 2، ن 4، بهامش ن 2، وفي الروم فتمتعوا وبهامش ن 4، وفي الروم: ﴿ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون﴾.

(7) سورة العنكبوت: آية 65-66.

الأخـريين: ﴿إذا فريق منهم﴾ فخص بعضهم ولم يعم فهـل لذلـك موجب؟ فهذان سؤالان.

والجواب: أن هذه اللام في قوله تعالى: «ليكفروا»، وليتمتعوا» لام مقصود به التهديد والوعيد كقوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [1] و ﴿ٱعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ [2] وقوله: ﴿وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[3]. وإذا تقرر هذا فقوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَـإِلَيْـهِ تَجْـأَرُونَ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّـرَّ عَـنْـكُمْ إِذَا فَـرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ. . .﴾[4] خطاب يعم ولا يخص، وإذا كان الخطاب يشمل العام الكثير فأبعد شيء أن يكونوا[5] في تلقيه على حد واحد، بل يكون منهم المقبل والمعرض، فعلى هذا الحكم ورد في سورتي النحل والروم ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾، لأن ما تقدم من الخطاب الإخباري في قوله: ﴿وَمَا بِكُم مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنْكُمْ﴾، وفي قوله في الروم: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَـهُـمْ﴾ عام غير خاص، فأخبر سبحانه بتفصيل أحوالهم في تلقيه، وأن منهم فريقاً يرجعون إلى ما قدر عليهم من الشرك بربهم، ومفهوم هذا الكلام أن غير ذلك الفريق ليسوا مثلهم في الدين، فقد تفصل تلقيهم، وافترقت أحوالهم بشاهد جري العادة الذي لا ينكسر. وإذا تقرر هذا فالوعيد

---

(1) سورة فصّلت: آية 40.

(2) سورة هود: آية 93.

(3) سورة الكهف: آية 29.

(4) سورة النحل: آية 53-54.

(5) في ن 3: يكون، والصواب: يكونوا.

لا يعمهم[1] معنًى، بل يخص الفريق المسمى وإن عم بلفظه تخويفاً لمن عدا ذلك الفريق وليكون أرهب للجميع وإن تفصلت أحوالهم.

أما قوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي ٱلْفُلْكِ﴾[2] فليس هؤلاء كل الناس، ولا يتناول الخطاب غير من ذكر، فقوله بعد: ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ يتناول جميع من شمله[3] الضمير في قوله: «ركبوا»، وظاهر الخطاب تساوي هؤلاء في مرتكبهم، فالوعيد شامل لجميعهم ومتناول جملتهم، فحسن توكيد الوعيد لشموله لهؤلاء المخصومين فقيل: «وَلِيَتَمَتَّعُوا»، ولم يحسن في المذكورين في آيتي النحل والروم لتفصيل أحوالهم، فجاء كل على ما يجب ويناسب، والله أعلم.

الآية السادسة: غ ــ قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَى وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[4]، وفي سورة الروم: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَى فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[5]، للسائل أن يسأل عما زيد في آية الروم من قوله: ﴿في السماوات والأرض﴾[6] مع أن ذلك مفهوم من الآية الأخرى ومعلوم (لا يمكن خلافه)[7] وإن لم يقع به إفصاح في اللفظ؟

---

(1) في ن 1، ن 2: يفهم، وفي ن 4: لا يعم، والصواب: لا يعمهم.
(2) سورة العنكبوت: آية 65.
(3) في ن 3: حمله، والصواب: شمله.
(4) سورة النحل: آية 60.
(5) سورة الروم: آية 27.
(6) بهامش ن 2.
(7) سقط من ن 3.

والجواب أن ذلك إنما جرى بحسب مقتضى المقصود في كل من الآيتين، أما آية النحل فقد تقدمها قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ﴾[1]، فقوبل بحسب التفصيل ومقتضى التقابل بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾[2]، فتطابق الكلام وتناسب موازنة لفظ وجليل تقابل، ولم يقع قبلها ذكر السماوات والأرض، فلم يكن ليناسب ذلك ذكرهما بعده.

وأما آية الروم فتقدمها قوله عز وجل: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ[3] كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾[4]، ثم قال بعد: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[5]، ووضوح التناسب في هذا غير محتاج[6] إلى زيادة بيان.

الآية السابعة منها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾[7]، وفي سورة الملائكة: ﴿وَلَوْ[8] يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾[9]، فيهما سؤالان: أحدهما،

---

(1) سورة النحل: آية 60.
(2) سورة النحل: آية 60.
(3) بهامش ن 2.
(4) سورة الروم: آية 26.
(5) سورة الروم: آية 27.
(6) في ن 3: في غير هذا، وهو محتاج وهذا خطأ.
(7) سورة النحل: آية 61، بهامش ن 4.
(8) بهامش ن 4.
(9) سورة الملائكة: آية 45.

قوله تعالى في الأولى: «بظلمهم» وفي الثانية «بما كسبوا»، والثاني، قوله في الأولى: «عليها» وفي الثانية «على ظهرها».

والجواب: أن آية النحل تقدمها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِٱلْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَى مِنَ ٱلْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي ٱلتُّرَابِ﴾ (1)، فإشارة الآية إلى وأدهم البنات ــ وهو أعظم الظلم وأشنعه إذ لم يتقدم للمؤودة جريمة ولا شبهة يتعلق بها قاتلها ــ فناسب هذا ذكر الظلم، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾، والضمير في عليها للأرض، يفهمه سياق الكلام، فناسب ما أشير إليه من عظيم ظلمهم التوبيخ بذكر الظلم في قوله: «بظلمهم». ولما لم يتقدم في آية سورة الملائكة إفصاح بذكر الظلم بل تقدمها قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً اسْتِكْبَاراً فِي ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّءِ﴾ (2) إلى قوله: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ (3)، فأشير إلى اجتراماتهم وسيّىء اكتسابهم بنفورهم ومكرهم السيىء، فناسب ذلك قوله: «بما كسبوا» وقيل هنا: ﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا﴾ والضمير للأرض يفسره السياق كالأول، وقيل: «على ظهرها» ليناسب في طول تركيبه قوله: «بما كسبوا»، كما ناسب قوله «عليها» في الآية الأولى قوله: «بظلمهم» في قلة حروفه تناسب التوازن والتقابل، فورد كلّ على ما يجب.

---

(1) سورة النحل: آية 58-59.

(2) سورة الملائكة: آية 42-43.

(3) سورة الملائكة: آية 43.

الآية الثامنة منها قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَى بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ (لَآيَةً)[1] لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَامِ (لَعِبْرَةً)[2] نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ وَمِنْ ثَمَرَاتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ (مِنْهُ)[3] سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[4]، في هذا ثلاثة سؤالات: الأول إفراد «آية» في الثلاثة مواضع مع أن الثاني منها قد تفصل فيه الاعتبار بذكر الأنعام ولبنها وذكر ثمرات النخيل والأعناب وما يتخذ منها، فيسبق في الظاهر أن الواجب جمع آيات بخلاف الآية الأولى والثالثة (فقد)[5] أفردت فقيل: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، والسؤال الثاني: ما وجه ختام الأولى بقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾، والثانية ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، والثالثة: ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؟ والسؤال الثالث: ورود ضمير الأنعام مفرداً في قوله: ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾، وما الفرق بين هذا وبين الوارد في سورة المؤمنين: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا﴾[6] والجواب عن السؤال الأول أن قوله: ﴿لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ راجع إلى

---

(1) بهامش ن 2.
(2) بهامش ن 2.
(3) سقط من ن 3.
(4) سورة النحل: آية 65-69.
(5) سقط من ن 3.
(6) سورة المؤمنين: آية 21.

قوله: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَابِ﴾.. الآية، وذلك اعتبار باتخاذ السكر والرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب وهو نوع واحد، وقد أفرد في قوله: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ﴾ فجاء إفراد آية على ذلك، وأما إخراج اللبن من بين الفرث والدم في الأنعام فلا يرجع إليه قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ إذ قد أغنى عن ذلك قوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ﴾، فقوله «لَعِبْرَةً» كاف عن «آية» ومغن ذلك الغنى. فلا حاجة[1] للجمع بينهما، وإنما مرجع آية لما ذكر من المتخذ من ثمرات النخيل والأعناب كما تبين، فليدفع[2] هذا السؤال جملة. وكذلك الآية الأولى الاعتبار فيها بالماء المنزل من السماء، والاعتبار في الثانية بما تضمنت من أمر النحل والإيحاء[3] إليه بما ذكر، فالاعتبار في كل منها إنما وقع بنوع مفرد، وما وقع من تفصيل فمصرفه إلى حال أو وصف مع وحدة النوع.

والجواب عن السؤال الثاني: أن وجه مناسبة قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾[4] لقوله: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾... الآية[5]، بناء ذلك على المتصل به من قوله: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخْتَلَفُوا فِيهِ﴾[6]، ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً﴾، فاتصل ذكر إنزال الكتاب بإنزال الماء،

---

(1) في ن 4: فلا وجه.
(2) في ن 4: فاندفع، والصواب: فليدفع.
(3) في ن 3: الإيجاز، والصواب: الإيحاء.
(4) سورة النحل: آية 65.
(5) سورة النحل: آية 65.
(6) سورة النحل: آية 64.

وما سماه رحمة إلا لرحمته عباده به، وماء السماء رحمة، وقد سماه بذلك، وبالمنزل من الكتاب يتذكر اعتبار الرحمة (بالماء)[1] المنزل من السماء، ولا يحتاج في ذلك إلى كبير تذكر[2]، بل التنبيه على إنزاله بالوارد في الكتاب مع مشاهده منافعه كاف في الاعتبار، وفي إحياء الأرض به بعد موتها أوضح شهادة لإحياء الموتى وإخراجهم لما وعدوا به، فالتحم الكلام، وتناسب النظم والمعنى. وإنما تحصل ثمرة الكتاب المنزل بسماعه، ولذلك نهى المعرضون عنه أتباعهم فقالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا ٱلْقُرْآنِ وَٱلْغَوْا فِيهِ﴾[3] وقال في قسم من رحم بسماعه من الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي﴾[4]، وإنما يستجيب سامعه[5] إذا كان غير معرض، فإذا لم يصغ إلى اعتبار ما أعقب به من إنزال السماء، فلهذا الالتحام أعقبت الآية المذكورة بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾، والله أعلم.

وأما الآية الثانية فلما وقع فيها ذكر السَّكَر في قوله: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً﴾[6] وذلك حكم لا يمكن الوصول إلى معرفة سببه ولا تعليله بطريق الحواس، ولا يوصل إلى ذلك بجهة تفكر[7] أو اعتبار، عبر بقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ إذ العقل يسلم إمكان ما لا تعلم له علة مما ليس

---

(1) سقط من ن 3.
(2) في ن 3: تفكر.
(3) سورة فصلت: آية 26.
(4) سورة الجن: آية 1.
(5) في ن 3: معه، والصواب: سامعه.
(6) سورة النحل: آية 67، في ن 4 زيادة ورزقاً حسناً.
(7) بهامش ن 3.

بمحال [1]، فيكون مما ينفرد تعالى بعلمه، ويعجز البشر عن فهمه. وأما الآية الثالثة فمحل ومجال للتفكر[2] ومتسع للاعتبار فناسبه قوله: ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

والجواب عن السؤال الثالث: أي [3] قوله: ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ [4] بإفراد الضمير وتذكيره مراد به الجنس، وقد حكى سيبويه، رحمه الله، أن من العرب من يقول: هو الأنعام، وعليه حمل آية الأنعام في تذكير الضمير[5]، وورد في سورة المؤمنين على التأنيث والجمع لما بني على ذلك من قوله: ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾[6]، فنوسب بضمير الأنعام ما أتبع به من الضمائر في قوله: فيها، ومنها، وعليها. فورد بصورة التأنيث والجمع.

الآية التاسعة من سورة النحل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ (ٱللَّهَ)[7] عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾[8]، وفي سورة الحج: ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ

---

(1) في ن 3: بحال، والصواب: بمحال.
(2) في ن 3: فمحل لحال التفكر، وفي ن 4: الفكر وهو خطأ.
(3) في ن 1، ن 2، ن 4: ان، والصواب: أي.
(4) سورة النحل: آية 66.
(5) الكتاب 20/2.
(6) سورة المؤمنين: آية 21-22.
(7) سقط من ن 3.
(8) سورة النحل: آية 70.

شَيْئاً وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾[1]، للسائل أن يسأل عن زيادة «من» في قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ وسقوطها من آية النحل مع اتحاد المعنى، هل ذلك لسبب[2] حامل يقتضي زيادتها هنا وسقوطها هناك؟

والجواب: أن سبب ذلك ـ والله أعلم ـ التناسب وتشاكل النظم ومراعاة اللفظ ألا ترى إلى تكرر «من» في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَاءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[3]، فقد تكررت لفظة «من» هذه في هذه الآية في ستة مواضع، الخمسة منها قبل قوله: ﴿مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ والواحدة بعدها، وكلها محرزة معناها الذي جيء بها من أجله إلا التي في قوله: «من بعد» إذ النظم مع سقوطها (ملتئم)[4] والمعنى تام، فاستوى وجودها وعدمها، فاستدعاها سياق آية الحج للتشاكل والتناسب في النظم، ولم يكن في آية النحل ما يستدعيها إذ لم يرد ما يقتضيها، فورد كل على ما يجب ويناسب، ولا يمكن العكس والأولى في قوله: «من البعث» لابتداء الغاية وما بعدها للتبعيض إلا التي في قوله: ﴿من بعد علم﴾ فإنها زائدة رعياً للفظ لا النافية، وإن كانت هنا مزيدة.

---

(1) سورة الحج: آية 5.
(2) سقط من ن 3.
(3) سورة الحج: آية 5.
(4) سقط من ن 3.

الآية العاشرة من سورة النحل قوله تعالى: ﴿أَفَبِٱلْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ[1]، وفي العنكبوت: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً (وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ)[2] مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾[3]، للسائل أن يسأل عن ثبوت الضمير المنفصل المبتدإ في قوله: ﴿هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ في آية النحل وسقوطه من آية العنكبوت مع أن المعنى متحد والعبارة متكررة أعني قوله: ﴿أَفَبِٱلْبَـاطِلِ يُؤْمِنُـونَ... الآية﴾، فما وجه ذلك؟

والجواب، والله أعلم: أن الوارد في آية النحل راجع إلى من قدم ذكرهم في قوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾[4]، وفي قـولـه: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلبَنَـاتِ﴾[5] إلى قـولـه: ﴿لِلَّذِينَ لاَيُؤْمِنُـونَ﴾[6]، وقوله: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْـرَهُـونَ﴾[7]، فقـولـه: ﴿أَفَبِٱلْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهُ هُمْ يَكْفُرونَ﴾ رَاجع إلى المذكورين في هذه الآي وليس راجعاً إلى ما ٱتصل به من قوله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾[8]، فلما كان قوله: ﴿أَفَبِٱلْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ راجعاً إلى ما تباعد أتى بضميرهم المشعر بالبعد[9] هو ضمير الغائبين فقيل: «هم»، وارتفع بالاتيان به توهم عودة

(1) سورة النحل: آية 72.
(2) بهامش ن 2.
(3) سورة العنكبوت: آية 67.
(4) سورة النحل: آية 56.
(5) سورة النحل: آية 57.
(6) سورة النحل: آية 60.
(7) سورة النحل: آية 62.
(8) سورة النحل: آية 72.
(9) في ن 1، ن 2، ن 4: التعداد.

ضمير يُؤْمِنُونَ إلى المقول لهم: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾.

فإن قيل: لو قيل تؤمنون وتكفرون على الخطاب لكان للمخاطبين بقوله: «لكم» أما على وروده على طريقة الإخبار عن الغائبين فلا يوهم ما ذكرت فلا ضرورة تدعو إلى ضميرهم. قلت: هذا لو لم يكن الالتفات من فصيح كلام العرب، وهو الرجوع عن الخطاب إلى الغيبة ومن الغيبة إلى الخطاب وإلى المتكلم كقوله [1]:

تطاول ليلك بالأثمد	ونام الخلي ولم ترقد
وبات وباتت له ليلة	كليلة ذي العائر الأرمد
وذلك من نبأ جاءني	وخبرته عن أبي الأسود [2]

فتأمل كيف التفت في قوله: «وبات وباتت له ليلة» بعد الخطاب بقوله: «تطاول ليلك. . »«ولم ترقد»، (فرجع) [3] الخطاب إلى الغيبة. ثم قال: «وذلك من نبأ جاءني» ــ فرجع إلى المتكلم، وإنما خاطب بكل ذلك نفسه، وفي الكتاب العزيز: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾[4]، فقوله: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾ رجوع من الخطاب إلى الغيبة، وفي الكتاب من ذلك كثير. فإذا تقرر أن الالتفات من فصيح كلامهم فما يمنع من احتمال أن يفهم قوله: ﴿أَفَبِٱلْبَاطِلِ

---

(1) هو امرؤ القيس الكندي (130ق.هـ/ 497م ــ 80ق.هـ/ 545م) الشاعر الجاهلي المعروف.

(2) الأبيات لامرىء القيس في البحر المتقارب.

(3) بهامش ن 3.

(4) سورة يونس: آية 22.

﴿يُؤْمِنُونَ﴾ على أنه راجع إلى المخاطبين بقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ (مِنْ أَزْوَاجِكُمْ)[1] بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ على طريقة الالتفات رجوعاً من الخطاب إلى الغيبة، فجاء قوله: ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ﴾ بضمير الغائبين رافعاً[2] لهذا الإبهام وما للمعنى المقصود بالكلام من رجوعه إلى من تقدم ذكره، فهذا موجب ورود هذا الضمير المبتدإ هنا.

أما قوله في سورة العنكبوت: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾[3]، فكلامهم لا يرجع شيء منه إلى متقدم قبله فيتباعد عنه بل هو مستقل[4] بنفسه، والمعنيّون بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ هم المرادون (بقوله)[5] ﴿أَفَبِٱلْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾، وليست هذه الآية مثل آية النحل فيما تقدم فيحتاج فيها إلى ما احتيج هناك، فكل من الآيتين وارد على ما يجب ويناسب، ولا يمكن عكس الوارد على ما تمهد، والله أعلم.

الآية الحادية عشرة: غ ــ قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَارَ وَٱلْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[6]، وفي سورة (المؤمنين: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَارَ وَٱلْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً

(1) بهامش ن 2.
(2) في ن 1، ن 2: راجعاً، والصواب: رافعاً.
(3) سورة العنكبوت: آية 67، في ن 3: هم يكفرون وهذا خطأ.
(4) في ن 3: مستعمل، والصواب: مستقل.
(5) بهامش ن 2.
(6) سورة النحل: آية 78.

مَا تَشْكُرُونَ﴾[1])[2]، وفي سورة الملك: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَارَ وَٱلْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾[3]، فورد في هاتين الآيتين نفي شكرهم على المعروف من هذه العبارة أو تقليله بمقتضى اللفظ، وورد في آية سورة النحل ترجي (شكرهم)[4] مع اتحاد المقصود من إبداء عظيم النعمة بالإسماع والإبصار، فللسائل أن يسأل عن الفرق؟

والجواب، والله أعلم: أن آية النحل مبتدأة بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾[5]، فناسب هذا ـ لكونه وصف حال قبل تعيين التكليف وورود الترجي لأن يكون[6] منهم الشكر لذكره[7] إياهم في حال لم يتهيؤوا فيها بعد لقبول[8] أمر أو نهي أو إعراض عن ذلك، ولا يتعلق بهم التكليف، فناسب هذا ذكر الترجي.

أما الآيتان بعد فالإخبار فيهما عن أحوال من استوفى سن التكليف وعقل الخطاب (وشاهد العضات)[9] وفهمها، وتكرر[10] عليه التذكار فلم يجد عليه شيئاً، ألا ترى أن قبل آية المؤمنين ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِٱلْعَذَابِ

---

(1) سورة المؤمنين: آية 78.

(2) بهامش ن 2.

(3) سورة الملك: آية 23.

(4) سقط من ن 3.

(5) سورة النحل: آية 78.

(6) في ن 1، ن 2: لا يكون، والصواب: لأن.

(7) في ن 1، ن 2: لمذكره، والصواب: لذكره.

(8) في ن 3: بقول، والصواب: بقبول.

(9) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.

(10) في ن 3: تكون، والصواب: تكرر.

فَمَا ٱسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ﴾[1]، إلى ما اتصل بهذا. فقد صدر عن هؤلاء التعامي فخالف الوارد في آية النحل، فناسب ذلك هنا نفي شكرهم.

وأما آية الملك المخاطب بها من قيل له تعريفاً وتوبيخاً[2] ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ ٱلرَّحْمَانِ﴾[3] إلى قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِي أَنْشَأَكُمْ﴾[4]، والآي[5] مشيرة إلى موالاة انعامه سبحانه على عباده وإدرار أرزاقهم إلى ما يجري مع هذا، فناسب ذلك حين لم يجد عليهم مستمر إحسانه ومتوالي إنعامه[6] أن نفى تعالى شكرهم، فقد وضح التناسب في هذه الآي، ووردت كل واحدة منها على ما يجب، وإن عكس الوارد غير مناسب.

الآية الثانية عشرة: غ ـ قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ ٱلسَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[7]، وفي سورة الملك: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَانُ﴾[8]، فورد في الأولى: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وفي الثانية: ﴿إِلَّا ٱلرَّحْمَانُ﴾ ومقصود الآيتين في التنبيه على الاعتبار بعظيم قدرته تعالى وعلي حكمته في تسخير الطير في جو السماء وتسخير الهواء

---

(1) سورة المؤمنين: آية 76.
(2) في ن 3: ترجيحاً، والصواب: توبيخاً.
(3) سورة الملك: آية 20.
(4) سورة الملك: آية 28.
(5) في ن 3: الأولى، والصواب: الآي.
(6) في ن 3: موالاة إحسانه.
(7) سورة النحل: آية 79.
(8) سورة الملك: آية 19.

وتهيئته (لذلك) [1] بتقدير العزيز الحكيم مقصود واحد، للسائل أن يسأل عن ذلك؟

والجواب، والله أعلم: أن آية سورة الملك لما انطوت على ذكر حالين للطائر من صفة جناحية وقبضهما، وهما حالتان يستريح إليهما الطائر، فتارة يصف جناحيه كأنه لا حركة به، وتارة يقبضهما إلى جنبيه حتى يلزقهما بهما، ثم يبسطهما ويقبضهما موالاة بسرعة كما يفعل السّابح، فناسب هذا الإنعام منه تعالى ورود آسمه الرحمان. أما آية النحل فلم يرد فيها ذكر هذه الاستراحة فقيل هنا: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا آللَّهُ﴾[2]، وتناسب ذلك وامتنع عكس الوارد بما تبين، والله أعلم.[3]

الآية الثالثة عشرة: غ ــ قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾[4]، وفي آية سادسة من هذه: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ آلْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[5]، ففي الأولى ﴿مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ﴾ وفي الثانية ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾، وفي الأولى: ﴿شَهِيداً ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وفي الثانية: ﴿شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ﴾، فللسائل أن يسأل عن موجب الاختلاف في الآيتين؟

---

(1) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.

(2) سورة النحل: آية 79.

(3) في ن 3: الآية العاشرة، وهذا خطأ.

(4) سورة النحل: آية 84.

(5) سورة النحل: آية 89.

وٱعلم أن الآية الأولى متفق فيها على أن المراد بها الأنبياء، عليهم السلام، مع أممهم، وكل نبي شاهد على أمته ولها بإيمان مؤمنها وكفر كافرها، ولم يختلف المفسرون في هذا، وإنما السؤال في الآية الثانية لاختلافهم فيها، فأكثر المفسرين لم يفرق بينها وبين الأولى فيما قصد بها، وان نبيناً محمداً صلى الله عليه وسلم شاهد على أمته كشهادة الرسل على أممهم، ثم إن هذه تضمنت زائداً على ذلك حسبما نبينه، وأشار بعضهم إلى الفرق بين الآيتين من غير تحرير ولا ركون إلى توجيه يعتمد، فأقول ـ وأسأل الله توفيقه ـ: إن هذه الآية الثانية المراد بها تخصيص نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بالإفصاح فيها ـ ما شاركت فيه الأولى ـ بما منح من الكتاب العزيز وعظيم النعمة عليه وعلى أمته، فٱستؤنف قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً﴾. وكرر ليبنى عليه ما بعد من قوله: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ. . . الآية﴾، فهذا من قبيل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ (كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً﴾ [1]، وقد تقدم هذا قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ) [2] ٱسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ﴾ [3]، فكرر: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ ليبنى عليه ما اتصل به، ونحو هذا قوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [4]، وقد تقدم أمره، عليه السلام، (بهذا) [5] الا أنه أعيد ليبنى عليه ما بعد من قوله

---

(1) سورة الأعراف: آية 90.
(2) بهامش ن 2.
(3) سورة الأعراف: آية 88.
(4) سورة البقرة: آية 150.
(5) سقط من ن 3.

تعالى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [1] ليفهم وحيث ما كنتم من البلاد أو المواضع التي خرجتم إليها، ولم تكن الآية المتقدمة لتعطي ذلك الا باعتماد من غير تحرير، فلم يكن بد من إعادة ما ذكر ليتحرر المعنى المراد من الآية، وقد مر بيان ذلك في سورة البقرة عند ذكر الآية المشار إليها[2]. ومن نحو هذا في الإخبار قوله تعالى: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ﴾[3]، فكرر «أَنَّكُمْ» ليبنى عليه (الخبر)[4] بالإعادة والإخراج بما بعد من قوله في أول الآية: «إنكم»، وهو مرتكب بليغ متكرر في الكتاب العزيز، فكذا الوارد في هذه الآية من قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ﴾، تكرر لعظيم ما بني عليه وقصد الإخبار والبشارة من قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[5]. فلما بين هذا الإنعام العظيم وبين الحاصل طي الآية المتقدمة من مخوف[6] الوعيد، أعقب به التعريف فيها بالشهادة، من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا يُسْتَعْتَبُونَ﴾[7]، إلى ما تلا هذا.

فالآيتان فيما أعقبتا به، وأنيط بكل واحدة منهما، معرفتان بالحال في الطرفين، الأولى معقب فيها التخويف والتهديد بأشد الوعيد، والثانية أعقب مخوف تهديدها بترجي السلامة من مهول وعيدها بما اتبعت به،

---

(1) سورة البقرة: آية 150.

(2) صفحة 240.

(3) سورة المؤمنين: آية 35.

(4) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.

(5) سورة النحل: آية 89.

(6) في ن 1، ن 2، ن 4: تخويف، والصواب: مخوف.

(7) سورة النحل: آية 84.

مما يفهم البشارة والتلطف والإنعام بقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[1]، بعد ذكر نبينا عليه السلام. المراد بهذا الخطاب التعريف بشهادته لأمته مفصحاً بالإشارة إليه تخويفاً وتعظيماً، وبالإنعام بما أولاه ومنح أمته من الرحمة بالكتاب المهيمن على سواه من الكتب والمبين لكل شيء والهدى والرحمة والبشرى، أوزعنا الله شكر نعمه، وجعلنا من أمة هذا النبي الكريم بمنه.

ولما كان قوله تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ﴾[2] حاصلاً منه تعقيبه، عليه السلام، وتحقيق كونه الشهيد على أمته، وكونه من أنفسها ورد ما قبله محرراً فيه ذلك الغرض من تحقيق ذلك الحكم، من أن كل نبي قبله إنما كان من أنفس القوم المرسل إليهم ذلك الرسول لا من غيرهم، وهو الشهيد عليهم، وحقق ذلك في الثانية بما يحرزه حرف الوعاء الذي هو «في» ويقتضيه من[3] استحكام الإخبار بكون الشهيد من نفس الأمة، لأن قوله: ﴿مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ﴾ يحتمل أن يراد به أن يكون منهم في مذهب أو جامع بينهم وبينه، من غير أن يكون من أنفسهم، أما قوله: ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ﴾ فأنص في الاتصال واللزوق، لا سيما بما اتبع به من قوله: ﴿مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾، فطوبق بين المتقابلين من قوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾[4] وقوله ﴿وَجِئْنَا

---

(1) سورة النحل: آية 89.
(2) سورة النحل: آية 89.
(3) في ن 4: في، والصواب: من.
(4) سورة النحل: آية 89.

بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ﴾[1]، فقد وضح ما باينت هذه الآية (به الآية)[2]، وبانت جلالة هذا النظم العجيب، وان ما توهم تكراره ليس بتكرار، إذ كان مقصود ما أعيد مما (تقدم)[3] ذكره الشهيد[4] لما بني عليه. فتحصل من هذه الآية العظيمة جليل الاعتناء بهذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم وسلم تأنيسه، كالآية في قوله تأنيساً للأمة وإعلاماً بعظيم مكانته صلى الله عليه وسلم: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾[5] فهذا ــ والله أعلم ــ فصل ما بين الآيتين، وقد بان فيه التناسب، وجلالة النظم، وحسن الالتئام، والله أعلم بما أراد.

فصل: لم يتعرض لهذه الآية أكثر المفسرين، ومن تعرض منهم لها ألحقها بالأول، وقد وقفت في التفسير الكبير[6] المنسوب للإمام أبي الفضل بن الخطيب، وقد تعرض لهذه الآية فأورد مأخذ الإمامية[7] بأن كل عصر لا يخلو من إمام معصوم، وذكر تخريج الآية عندهم عليه، ثم محله، واتبع بأن قال: فثبت أنه لا بد في كل عصر من أقوام تقوم الحجة بقولهم، ثم حكى عن أبي بكر الأصم[8] ان المراد بالشهيد

---

(1) سورة النحل: آية 89.

(2) سقط من ن 3.

(3) سقط من ن 3.

(4) في ن 1، ن 2، ن 4: التمهيد، والصواب: الشهيد.

(5) سورة التوبة: آية 128، زيد في ن 3: حريص عليكم.

(6) التفسير الكبير 98/20-99، بالمؤمنين غفور رحيم.

(7) الامامية: هم القائلون بإمامة علي، كرم الله وجهه، بعد النبي صلى الله عليه وسلم نصاً ظاهراً ويقيناً صادقاً فافترقوا في تعيين الأئمة بعد الحسن والحسين وعلي بن الحسين إلى فرق عديدة (الملل والنحل، للشهرستاني بهامش الفصل 218/1).

(8) أبو بكر الأصم: محمد بن يعقوب بن يوسف بن معقل أموي بالولاء، محدث حدث ستاً وسبعين سنة (ت346هـ/ 957م) الاعلام 17/8.

هو أنه تعالى ينطق عشرة من أجزاء الإنسان تشهد عليه، وهي: الأذنان والعينان والرجلان واليدان والجلد واللسان، قال والتدليل عليه أنه قال في صفة الشهيد: انه من أنفسهم، وهذه الأعضاء لا شك أنها من أنفسهم، وذكر أن القاضي أجاب عن هذا من وجوه: الأول انه تعالى قال: «شهيد» فيجب أن يكون غيرهم، والثاني أنه من كل أمة فوجب أن يكون ذلك الشهيد من الأمة، وآحاد الأعضاء لا يصح وصفها بأنها من الأمة، هذا حاصل ما وقع في هذا التفسير، ولم يقع فيه تعرض لشيء من ألفاظ الآية، وتنزيل هذه المآخذ على الآية، وأخذها من أبعد شيء، وقد ذكرت في ذلك منزلاً عن الآية ما أراه الأولى في المراد بها،والله أعلم.

وأما قول الإمامية: انه لا بد في كل عصر وقرن من أمام معصوم يشهد عليها في القيامة فباطل، وقد كفانا وجه فساده من تقدم، وقول الأصم بعيد لما قاله القاضي، وأما ما اعتمده أبو الفضل فبعيد أيضاً، فيه ما يشبه الصغو إلى قول الإمامية، وقد ورد في الصحيح أن الرسل هم الذين يشهدون على أممهم، وعلى ذلك حمل المفسرون قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً﴾[1]، ولا فرق بين هذه الآي، والله أعلم.

الآية الرابعة عشرة وهي من تمام ما قبلها: غ ــ قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[2]، وفيما بعد من هذه السورة: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِنْ

(1) سورة النساء: آية 41.

(2) سورة النحل: آية 89.

رَبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[1]، فورد في الأولى زيادة «رحمة» مع اتحاد المقصـود في الموضعين من وصف الكتاب، وهذا يظاهر الوارد في الموضعين، فيسأل عن ذلك؟

والجواب عن ذلك أن الأولى مقصود بها بشارة وإنعام لا يشوبه غيره، وقد تبين ذلك، وأما الثانية فوارده مورد الـزجر والتعنيف لمن لم يؤمن مع البشارة للمؤمنين[2]، ألا ترى ما تقدمها من قوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾[3]، فجووبوا عن هذا بقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾[4]، أي قل لهم يا محمد هذا الكلام، وورد بعدها: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾[5]، فاكتنف الآية المذكورة ما يفهم التعنيف لهم والوعيد على مرتكبهم، ووضح أن المقصود لم يتحد في الآيتين كما يوهم للبادي من ظاهرهما، وان زيادة قوله: «ورحمة» في الأولى مناسب لمقصودها من البشارة والإنعام المجرد عن اتصال [6] ما يفهم تعنيفاً أو وعيداً، ولم يكن ورود ذلك ليناسب الوارد في الثانيـة، فورد في كـل على ما يجب، والله أعلم.

الآية الخامسة عشرة قوله تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [7]، وقال بعد

---

(1) سورة النحل: آية 102.
(2) في ن 3 غير واضحة.
(3) في ن 3: للمرشد، والصواب: للمؤمنين.
(4) سورة النحل: آية 101.
(5) سورة النحل: آية 102، في ن 3 زيادة ليثبت الذين آمنوا.
(6) سورة النحل: آية 103.
(7) في ن 3: اشكال، والصواب: اتصال.
(8) سورة النحل: آية 96.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1]، وفي آية الزمر: ﴿لِيُكَفِّرَ آللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ آلَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ آلَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[2]، فورد هنا «الذي» مكان «ما» في الآيتين في سورة النحل، فللسائل أن يسأل عن ذلك؟

والجواب عنه، والله أعلم: أن آية النحل الأولى لما افتتحت بما الموصولة في قوله تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ﴾، والمراد بها الإطلاق والعموم، كانت في هذا الموضع أولى من لفظ «الذي» وان اشتركا في الموصولية، الا أن «الذي» لا تفارق الموصولية، فهي كأنها أعرق في التعريف من «ما»، لخروج «ما» عن الموصولية من حيث أنها تكون حال إسميتها شرطاً واستفهاماً، ولا يفارقها العموم والإطلاق في هذين الموضعين، ولا الإبهام إذا كانت صفة أو نكرة موصوفة أو تعجباً، وبالجملة فالإطلاق أملك (بها)[3]، وهو هنا مقصود، وأما «الذي» فلا تفارق الموصولية، والعهدية فيها أغلب من الجنسية، فما في الآية أحرز للمقصود منها فوردت فيها، وتكررت في قوله ﴿وَمَا عِنْدَ آللَّهِ بَاقٍ﴾، ومعنى الحصر والتعميم فيهما واحد، والكلام مراعى فيه معناه، وكأن قد قيل: كل ما عندكم ينفد وكل ما عندالله باق، ولفظ «ما» أجرى هنا من «الذي» لما يحرزه من معنى الإطلاق، ولما تقرر من التزامها[4]

(1) سورة النحل: آية 97.
(2) سورة الزمر: آية 35.
(3) سقط من ن 3.
(4) في ن 3: استلزامها، والأنسب التزامها.

العموم في الشرط والاستفهام، وانها لا تمنع الاشتراك حال إبهامها فيما عدا الموضعين.

ومن أهل النظر من يطلق العموم بمعنى منع الشركة، والذي لا يقول هذا لا يمكنه إنكار الإبهام الإطلاقي وكيفما قيل فإن معنى التوسعة لا يفارقها، وليست «الذي» كذلك، فكانت «ما» أملك بالمعنى المقصود في الموضع، ثم ناسبها وجرى معها ورودها في قوله: ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، ولم تكن «الذي» لتناسب فجاء كل على ما يجب.

وقوله في الآية الثانية: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾[1]، الآية جارية مجرى الآية التي قبلها، و«من» أقرب لها من «الذي» لما بينهما من الاشتراك في المعاني التي لا تشاركها فيها «الذي»، ألاترى أن «الذي» لا تكون استفهاماً البتة، ولا نكرة موصوفة ولا مبهمة، إذ لا يفارقها التعريف. فان قلت قد يدخلها معنى الشرط في نحو قوله: الذي يأتيني فله درهم، وهو المسوغ لدخول الفاء في خبرها في مثل هذا المثال ففيها إذ ذاك عموم. قلت ذلك متوقف على شروط معلومة، ولو لم يتوقف ذلك على شرط لبقي اشتراك فيما لا تدخل فيه «الذي». فمن على كل حال أجري مع ما يناسبها وما انجر معها من تقوية قصد الاستغراق من قوله: ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾، وهذا المنجر في هذه الآية يقابل تكرار ما في الآية قبل، هذه كتلك بهذا النظير من غير فرق، فلم يكن ليناسب ذلك ورود «الذي» مكان «ما» في قوله: ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، فتناسب هذا كله أوضح شيء، ولا يمكن في هاتين الآيتين ورود لفظ «الذي» مكان

---

(1) سورة النحل: آية 97.

«ما» لمن لحظ المراعى في الآية من عليّ، نظم الكتاب العزيز، واعتبر التناسب الذي يعجز البشر عن محافظه[1] رعيه، ولا يمكن الوفاء به بوجه الا في كتاب الله سبحانه.

وأما آية الزمر فوارده في معنى الخصوص المقصود به طائفة بعينها ألا ترى ما قبلها من قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي جَاءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾[2]، والمراد بالذي جاء بالصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذي صدق به متقدموا أصحابه ممن سبق وحسن تصديقه كأبي بكر، رضي الله عنه، ومن قارب حاله وجرى في (نحو)[3] مضماره[4]، وهؤلاء مخصوصون لا يشاركهم في حالهم غيرهم، وفيهم ورد ما بعد، وإليهم ترجع الضمائر من قوله: ﴿هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾، وقوله: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاؤونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾[5]، وقوله: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ﴾[6]، فلم يكن ليصلح هنا غير الآداة العهدية، فجاء «بالذي» في الموضعين من قوله: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ[7] أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ٱلَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[8]، ولم تكن «ما» لتناسب هنا لما تقدم، فجاء كل على ما يجب ويناسب، ولا يمكن فيه عكس الوارد في الضربين على ما تقدم، والله سبحانه أعلم.

---

(1) في ن 3: مخاطبة، والصواب: محافظة.
(2) سورة الزمر: آية 33.
(3) سقط من ن 3.
(4) في ن 3: مضاره، والصواب: مضماره.
(5) سورة الزمر: آية 34.
(6) سورة الزمر: آية 35.
(7) ما بين القوسين بهامش ن 2.
(8) سورة الزمر: آية 35.

سورة بني إسرائيل (الإسراء)

الآية الأولى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا ٱلْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً﴾[1]، وفيما بعد: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا ٱلْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُوراً﴾[2]، وفي الكهف: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا ٱلْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾[3]، ففي الأولى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا ٱلْقُرْآنِ﴾، وفي الثانية: ﴿لِلنَّاسِ فِي هَذَا ٱلْقُرْآنِ﴾، وفي الثالثة: بتأخير الناس، يسأل عن ذلك؟

والجواب عنه، والله أعلم: أن الأولى وقع قبلها: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً﴾[4]، وهذا خطاب مراد به كفار العرب، فلم يذكر فيه لفظ الناس العام لهم ولغيرهم، إذ الخطاب خاص بهم.

وأما الآية الثانية فقبلها: ﴿قُلْ لَئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنْسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا ٱلْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾[5]، ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا

---

(1) سورة الإسراء: آية 41.
(2) سورة الإسراء: آية 89.
(3) سورة الكهف: آية 54.
(4) سورة الإسراء: آية 40.
(5) سورة الإسراء: آية 88.

لِلنَّاسِ﴾[1]، فخص الفريقين وعين ممن ذكر الناس اعتناء بهم، أعني بالجنس الإنساني، ليظهر شرفهم على الجن، وقدم الناس لما يعطيه تقديم المجرور، وقد مر هذا، وأيضاً فلثقل التكرر فيما تقارب، ولو قيل: ولقد صرّفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفوراً لجاء لفظ الناس كأنه قد أعيد متصلاً، والعرب تستثقل مثل هذا، فقدم المجرور ليستحكم الفصل فلا يستثقل.

وأما آية الكهف فلم يتكرر فيها لفظ الناس فيقع استثقال، فقدم قوله: ﴿فِي هَذَا ٱلْقُرْآنِ﴾[2]، لأن تقديمه أهم، إذ هو أبلغ في تنبيههم على الاعتبار[3]. وقد مر قول سيبويه في مثل هذا (صفحة 653 و 718).

وأما آية الكهف فلم يقع قبلها ذكر الثّقلين معاً فيحتاج إلى ذكر تقديم الناس كما احتيج في آية الإسراء، ألا ترى أن فصل آية الكهف: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾... الآية[4]، فلم يرد فيها ما في الأخرى، وكان الأهم[5] ذكر القرآن الشافي لمعتبر ما صُرّف فيه من الأمثال. فقيل: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا ٱلْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾[6]، ولكون الخطاب عاماً في الإنسان لم يكن بد من ذكر الناس، بخلاف الآية الأولى من سورة الإسراء، إذ خطابها خاص

---

(1) سورة الإسراء: آية 89.
(2) سورة الكهف: آية 54.
(3) في ن 3: الاحياز.
(4) سورة الكهف: آية 52.
(5) في ن 3: كلامهم، والصواب: الأهم.
(6) سورة الكهف: آية 54.

بالقائلين من كفار العرب: إن الملائكة بنات الله، تعالى (الله)[1] عن ذلك علواً كبيراً، فقد ورد كل من هذه الآيات على ما يناسب ويلائم ما اتصل به.

وأما ختام الأولى بقوله[2]: ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً﴾ فالضمير للمذكورين ممن خص بمقصود الخطاب المكنى عنهم بقوله: «لِيَذَّكَّرُوا»، وأما أعقاب الثانية بقوله: ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُوراً﴾[4] فلتعطي إعادة الظاهر من التعنيف والتقريع ما لا يعطيه المضمر، ولأن أول الخطاب وصدر الآية لما قدم فيه ذكر الناس لشرف الجنس الإنساني على الجن، ثم لم يكن ممن لم يؤمن إلا العناد، قيل: ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ ليعطي بفحواه أن كأن قد قيل: فأبى أكثر الناس على تشريفهم وتفضيلنا إياهم إلا الكفر، فأحرز الظاهر ما لم يكن ليحرزه إضمارهم، فتأمل ذلك.

وأما قوله عقب آية الكهف: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾[5] فمن المعلوم جدال كل فرد ومعاند عن دينه ومذهبه، قال تعالى: ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ ٱللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ﴾[7]، وإذا كان الجدال من صفة كل

---

(1) سقط من ن 3.
(2) سقط من ن 3.
(3) سورة الإسراء: آية 41.
(4) سورة الإسراء: آية 89.
(5) سورة الكهف: آية 54.
(6) سورة الأنفال: آية 6.
(7) سورة غافر: آية 69.

مخالف في مذهب أو معتقد لم يبق السؤال هنا إلا عن وجه تخصيص هذه الآية بوصف الإنسان هنا بالجدل؟ والجواب أنه وصف هنا بذلك ليكون ختام هذه الآية تمهيداً لما سيأتي بعده من قوله تعالى: ﴿وَيُجَادِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِٱلْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ ٱلْحَقَّ﴾[1]، فلما بني هذا على الآية، واتصل الكلام والتحم نوسب بينهما، وليس في الآيتين قبل، ولا فيما تقدم كل واحدة منهما، (وفيما)[2] بني عليهما، ما يستدعي ذكر الجدل ولا الوصف به، فلذلك أعقبت[3] كل واحدة منهما بما تقدم، فأعقبت الأولى بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَزِيدُكُمْ إِلَّا نُفُوراً﴾ لما بين من استدعاء الآية ذلك، وأعقبت الثانية بقوله: ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُوراً﴾ لما بين أيضاً عند ذكر ذلك، وأعقبت هذه الأخرى بما يناسب ما ورد عليه بعده، وجاء كل على ما يجب.

الآية الثانية قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا ٱلَّـذِينَ زَعَمْتُم مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً﴾[4]، وفي سورة سبأ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[5]، للسائل أن يسأل عن الوجه في ورود اسم الجلالة مضمراً في قوله: ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ في سورة الإسراء، ومظهراً في قوله: ﴿مِنْ دُونِ ٱللَّهِ﴾ في السورة الأخرى وهل كان يجوز العكس؟

---

(1) سورة الكهف: آية 56.
(2) سقط من ن 3.
(3) في ن 3: عقب، والصواب: أعقبت.
(4) سورة الإسراء: آية 56.
(5) سورة سبأ: آية 22.

والجواب: أن آية سبأ تقدم قبلها قوله تعالى مخبراً عن الكافرين: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ﴾[1]، ثم قال بعد آية من تمام الآية التي قبلها: ﴿قُلِ ٱدْعُوا ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِنْ دُونِ ٱللَّهِ﴾[2]، فجيء بالاسم الظاهر ليكون أبعد على إيهام عودة الضمير ورجوعه إلى المتبع لهم في الآية المتقدمة، وإنما المراد قل ادعوا كل من اتبعتم بعبادة أو صغو إلى ما يريده من إضلالكم، ولا شك أن إبليس رأس المضلين، وأولى من أمروا تعجيزاً لهم وقطعاً (بهم)[3] بدعائه في قوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِنْ دُونِ ٱللَّهِ﴾[4]، فورد التحفظ بإيراد الظاهر مما كان المضمر يوهمه، وجاءت الآية على ما يجب.

أما آية بني إسرائيل فإن قبلها قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾[5]، ثم قال: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾... الآية[6]، ثم قال: ﴿قُلِ ٱدْعُوا ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِنْ دُونِهِ﴾[7] بالضمير مناسبة، ولم يكن ليناسب الظاهر هنا، فجاء كل على ما يجب ويناسب، والله أعلم.

فإن قيل: فقد ورد قبل قوله: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾[8] قوله: ﴿إِنَّ

---

(1) سورة سبأ: آية 20 زيد في ن 3: إلا فريقاً.
(2) سورة سبأ: آية 22.
(3) سقط من ن 3.
(4) سورة سبأ: آية 22.
(5) سورة الإسراء: آية 54.
(6) سورة الإسراء: آية 55.
(7) سورة الإسراء: آية 56.
(8) سورة الإسراء: آية 54.

ٱلشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ﴾[1] كما ورد قبل آية سبأ، فلم خصت آية سبأ بعودة الاسم ظاهراً دون آية بني إسرائيل؟ قلت: ورد ذكره في بني إسرائيل (محذراً منه)[2] موصوفاً[3] بنزغه وعداوته، مع أن الآية خطاب بأمر المؤمنين بقوله: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا ٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[4]، والإضافة في قوله: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي﴾ إضافة تخصيص، والأمر أمر بما هو أولى، وليس يواجه[5] ولا يخاطب بها إلا المؤمنون[6]، ثم إنها أتبعت بما يلائم الآية المتكلم فيها أجل ملاءمة. وأما ورود ذكر إبليس في سورة سبأ فمتصل بالآية، وإبليس فيها موصوف بأنه أتبع، وأنه صدق ظنه على المذكورين، والآية إخبار عن الكفار، والكلام كله إعلام بحالهم إلى قوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾[7]، فهذا الاعتراض غير لازم، وورود كل من الآيتين على أعلى تناسب وأجل ملاءمة، ولو قدر عكس الوارد لما صح على الجاري المطرد في نظم الكتاب العزيز، والله أعلم بما أراد.

الآية الثالثة قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ[8] بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ

---

(1) سورة الإسراء: آية 53.
(2) سقط من ن 3.
(3) في ن 3: موضوعاً، والصواب: موصوفاً.
(4) سورة الإسراء: آية 53.
(5) في ن 3: يواجد، والصواب: يواجه.
(6) في ن 3: المؤمنين، وهذا خطأ.
(7) سورة سبأ: آية 22.
(8) في ن 3: أن نخسف بالنون، قرأ ابن كثير وأبو عمرو: أن نخسف أو نرسل أن نعيدكم فنرسل ـ فنغرقكم بالنون في الخمسة والباقون بالياء.

تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً﴾[1]، ثم ورد بعد هذا بآيات: ﴿إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَاةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً﴾[2]، (ثم)[3] قال بعد: ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً﴾[4]، للسائل أن يسأل عن وجه ختم الآية الأولى بقوله: ﴿ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً﴾، والثانية بقوله: ﴿ثُمَّ لاَ تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً﴾، والثالثة بقوله: ﴿ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً﴾، والرابعة بقوله: ﴿ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً﴾؟

والجواب: أن معنى كل آية منها استدعى تعقيبها بما به أعقبت، فأما الأولى فلما تقدمها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾[5]، أي اضمحل تعلقكم بشيء من أندادكم ومعبوداتكم سواه، وبطل ذلك، ولجأتم إليه سبحانه، كما قال في آية أخرى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾[6]، فلما دعوتموه ونجاكم إلى البر أعرضتم ورجعتم إلى ما كنتم قبل من شرككم (وظنكم)[7] أن قد أمنتم عذابه، أفأمنتم عذابه ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾[8] أي يقلب بكم جانب البر، وهو الذي حملكم وأقلكم

---

(1) سورة الإسراء: آية 68-69.
(2) سورة الإسراء: آية 75.
(3) سقط من ن 3.
(4) سورة الإسراء: آية 86.
(5) سورة الإسراء: آية 67.
(6) سورة النحل: آية 53.
(7) سقط من ن 3.
(8) سورة الإسراء: آية 68.

عند انفصالكم من البحر، ونجاتكم منه، وذلك جانب من البر إذ ليس البر كله هو المستقل بهم إذ ذاك، وإنما هم[1] في قطعة من البر وجانب من الأرض، والأرض كلها لله سبحانه، أفأمنتم أخذه سبحانه لكم بالخسف وإرسال حاصب من الريح (وهي الريح الشديدة)[2]، ترميكم بالحصباء حتى تهلككم رجماً، ثم لا تجدوا إذ ذاك من يتوكل بصرف ذلك عنكم ودفعه عن إهلاككم، فيتداركم المتوكل لكم بدفع ذلك وصرفه عنكم، فتحصلون في حزب الناجين بعد مشاهدة الهلاك، هل تجدون براً، فهذا تقدير[3] دافع قبل الإمضاء[4]. ثم قال: ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ﴾[5] أي في البحر كحالكم أولاً بتهيئة القدر لكم للحاجة لركوبه كما ركبتموه قبل، فيرسل عليهم قاصفاً من الريح وهي التي تكسر ما مرت به وتفرق أجزاءه، فالمراد تنكسر الفلك بكم فيغرقكم، ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً﴾[6]، أي مطالباً[7] يطلبنا بثأركم بعد إهلاككم بغرقكم، فلما كان القدر تعلقهم[8] به من بعد الموت والتلف بالإغراق ناسب ذلك ولاءمه تسمية هذا المقدر الطالب تبيعاً، لأنه يتبع بعد الموت، كما يسمى طلب ذمة (من مات)[9] تبعاً وإتباعاً، ومنه:

---

(1) في ن 1، ن 2، ن 4: إذا هم، والصواب: إنما هم.
(2) في ن 3: أشد قوة.
(3) في ن 3: تقرير، والصواب: تقدير.
(4) في ن 3: الاقتضاء، والصواب: الإمضاء.
(5) سورة الإسراء: آية 69.
(6) سورة الإسراء: آية 69.
(7) في ن 3: مطلباً، والصواب: مطالباً.
(8) في ن 3: تعلقكم، والصواب: تعلقهم.
(9) سقط من ن 3.

﴿فَٱتِّبَاعٌ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[1]، والتابع من يجيء بعد. ولما كان المقدر في الآية الأولى دافعاً قبل الفوت (ومانعاً)[2] دون الاستئصال ناسبه العبارة: «بوكيل» لأنه الذي يدفع ويمنع الوصول أو الاستئصال، فجاء كل على ما يجب، ولم يكن ليلائم ختام هذه الآية ختام تلك ولا ختام تلك ما ختمت به هذه.

وأما قوله: ﴿إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَاةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾[3] فالمراد تضعيف عذاب الآخرة وعذاب القبر، والتضعيف التكثير، فختم هذه الآية بقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً﴾[4] أبين شيء، لأن الامتحان عندنا في الشاهد، وإذاقة العذاب إنما تكون من ذي استعلاء وقهر، فيلجأ فيه إلى الناصر إن وجد. وأما قوله في الآية بعد هذا: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً﴾[5] فإن قبله: ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾[6]، أي لنرفعن القرآن ونذهبه من الصدور ثم لا تجد وكيلاً يمنعنا عن ذلك، ولا من يقوم بدفعنا عنه، وليس هنا ما يستدعي الانتصار. (فكل)[7] من هاتين الآيتين على ما يجب ويناسب، ولا يلائم ختام هذه الآية ختام ما قبلها، ولا ما ختمت به الآية قبلها، وذلك بحول الله تعالى.

---

(1) سورة البقرة: آية 178.
(2) سقط من ن 4.
(3) سورة الإسراء: آية 75.
(4) سورة الإسراء: آية 75.
(5) سورة الإسراء: آية 86.
(6) سورة الإسراء: آية 89.
(7) سقط من ن 3.

الآية الرابعة: غ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ ٱلْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَراً رَسُولاً﴾ [1]، وفي سورة الكهف: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ ٱلْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [2]، فورد في الثانية: ﴿وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ﴾ ولم يرد في الأولى، فيسأل عن ذلك؟

والجواب، والله أعلم: أن الآية الأولى تقدمها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا ٱلْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُوراً﴾ [3]، فقوله تعالى مخبراً عن عتاة قريش: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنْبُوعاً﴾ [4] إلى الثامنة من مقترحاتهم، وهي [5] تمنيهم تنزل كتاب يقرؤونه، فبالغوا في شنيع اقتراحاتهم، وتوغلوا في مطالبهم المفصحة باليأس (من) [6] فلاحهم، فحصل من جملة حالهم بعدهم عن الإنابة إلى الإيمان، فلم يكن ذكر الاستغفار ليناسب هنا، لأنه إنما يكون مما (لا) [7] يبلغ الكفر من المعاصي، هذا الغالب في وروده، أما حيث [8] يفصح بالكفر فليس موضع ورود الاستغفار، ولما كان المتقدم قبل آية الكهف لا يبلغ مبلغ الآية المتقدمة في الإفصاح بتمردهم وعتوهم ناسبه ذكر الاستغفار، ألا ترى أن قوله

---

(1) سورة الإسراء: آية 94.
(2) سورة الكهف: آية 55.
(3) سورة الإسراء: آية 89.
(4) سورة الإسراء: آية 90.
(5) في ن 3: في، والصواب: وهي.
(6) سقط من ن 3.
(7) سقط من ن 3.
(8) في ن 3: حديث، والصواب: حيث.

تعالى قبل آية الكهف: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا ٱلْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾[1]، وليس قوله فيها: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ في قوة قوله في آية الإسراء: ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُوراً﴾[2]، لأن الجدال لا يلزم[3] منه أن يكون مرتكبه كافراً، وإنما مظنة الجدال التناظر في الطرفين والاحتجاج بمتقابل المذهبين إلى ما يرجع إلى هذا، وقد قال لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[4]، والمراد بذلك ملاطفتهم في الاحتجاج عليهم والصبر والتحمل لما عسى أن يكون منهم. فلما كان الوارد في آية الكهف من وصف حالهم لا يبلغ مبلغ الوارد في آية الإسراء ورد فيه ذكر الاستغفار موازنة للين ما بني عليه من الإخبار بكثرة جدالهم، إذ ليس كالوارد في الآية الأخرى من الإفصاح بكفرهم وسوء حالتهم، ولم يناسب آية سورة الإسراء أن يرد فيها ذكر الاستغفار، وإن كان حال المحكي عنهم في الآيتين غير مفارق للكفر ولا نازح عنه حال الإخبار، وقد تقدم هذا في أول آية من هذه السورة، ولكن تناسب النظم في الشدة واللين مراعى معتمد، فجاء كل على ما يجب، (والله سبحانه أعلم بما أراد)[5].

الآية الخامسة: غ ـ قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾[6]، وفي سورة الكهف: ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا

---

(1) سورة الكهف: آية 54.
(2) سورة الإسراء: آية 89.
(3) في ن 3: لا يرم، وهذا خطأ، والصواب: لا يلزم.
(4) سورة النحل: آية 125.
(5) ما بين القوسين بهامش ن 2.
(6) سورة الإسراء: آية 98.

وَٱتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً﴾ [1] ، ففي هذه الآية «جهنم» ولم ترد في الأولى مع وحدة المعنى، فيسأل عن ذلك؟

والجواب، والله أعلم: أن قوله في الأولى: ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ﴾ إلى ما اتصل به من قوله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾[2]، ثم قال: ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ﴾. الإشارة إلى ضروب عقابهم ومأواهم، واسم الإشارة متصل بما أشير به إليه، لم يفصل بينهما إلا بوصف جهنم التي هي مأواهم، فجاء على ما يجب.

أما قوله في الثانية: ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ﴾ فالإشـارة إلى جهنم[3] المتقدم ذكرها في قوله: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ﴾[4] وقوله: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ﴾[5]، لما بعد ما بين اسم الإشارة والمشار إليه بما فصل به بينهما من قوله: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً﴾[6] وقوله: ﴿أُولَئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ...﴾[7] الآتين، فلبعد[8] اسم الإشارة عما أشير به إليه أعيد مظهراً فقيل: ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ﴾، وجاء كل على ما يجب، والله أعلم.

* * *

---

(1) سورة الكهف: آية 106.
(2) سورة الإسراء: آية 97.
(3) بهامش ن 2.
(4) سورة الكهف: آية 100.
(5) سورة الكهف: آية 102.
(6) سورة الكهف: آية 103.
(7) سورة الكهف: آية 105.
(8) في كل النسخ: فبعد، ولكن السياق يقتضي: فلما بعد أو فلبعد.

سورة الكهف

الآية الأولى منها قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾[1] يسأل عن اختصاص الثمانية[2] بالواو؟ ولِمَ لم ترد الجملة من قوله تعالى: ﴿وثامنهم كلبهم﴾ صفة للنكرة قبلها كما تقدم فيما قبل؟ ولم عدل (إلى)[3] العطف؟.

وأظهر جواب عن هذا ــ والله أعلم ــ أن هذا الإخبار العليّ معرف باختلاف اليهود في فتية الكهف، وإنهم أو أكثرهم لم يتحققوا عددهم، فحكى سبحانه قولهم، وانجر بإيماء وإشارة تقرير الصحيح من قولهم، مع أنهم أعني أكثر يهود غير عالمين بذلك ولا مرجحين، فأتى بالجملة الأولى وهي قوله: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ﴾ أعني المحكية بعد القول، إذ التقدير: هم ثلاثة، ثم سيقت الجملة من قوله: ﴿رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ صفة للثلاثة، والجملة تقع صفة للنكرة وحالاً من المعرفة، ثم قال: ﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، فسادسهم صفة للنكرة كالمتقدمة، ثم أتبع هذا الكلام من اختلافهم بقوله: ﴿رَجْماً بِٱلْغَيْبِ﴾ منتصب على

(1) سورة الكهف: آية 22.
(2) في ن 3: الثامنة.
(3) سقط من ن 3.

الحال راجع معناه إلى المحكي قبله من اختلافهم أي رمياً بالكلام من غير علم بحقيقة، ثم قال سبحانه [1]: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ﴾، وخرج هذا المحكي من قولهم: «سبعة» عن الاتصاف بالحاصل قبله من الوصف الحالي [2] وهو قوله: ﴿رَجْماً بِٱلْغَيْبِ﴾ فأفهم ـ والله أعلم ـ أن هذا ليس من نمط ما تقدم، فكأن (قد)[3] قيل: ويقولون سبعة هم كذلك وثامنهم كلبهم، هذا أظهر[4] ما تخرج عليه الآية وعلى[5] صحة كونهم سبعة وثامنهم كلبهم وأن هذا ليس داخلاً تحت ما تقدم من أنه رجم بالغيب وأن الوصف بتلك الحال إنما يرجع لما قبله من قولهم: ثلاثة رابعهم كلبهم وخمسة سادسهم كلبهم كلام ابن عباس، رضي الله عنه، ومن تبعه من المفسرين.

قلت حكى سيبويه أن العرب تستعمل الحذف كثيراً في كلامها، ومنه قولهم فيما حكى سيبويه، رحمه الله، «اللهم ضبعاً وذيباً»[6]، وإذا كان القائل يدعو بذلك على غنم رجل قال: وإذا سألتهم ما يعنون؟ قالوا: اللهم آجمع فيها ضبعاً وذيباً، وحكى عن أبي الخطاب أنه سمع بعض العرب وقيل له: لم أفسدتم مكانكم فقال: الصبيان بأبي[7]، كأنه

---

(1) سقط من ن 3.
(2) في ن 3: الجلي، والصواب: الحالي.
(3) سقط من ن 3.
(4) في ن 4: أحسن.
(5) في ن 3: محل، وفي ن 4: وعلى تقدير.
(6) الكتاب 153/1.
(7) في ن 3: يا فتى، والصواب: بأبي اختلفت النسخ في هذا الشاهد فوقع إصلاحه بالاعتماد على الكتاب 154/1.

حذر أن يلام فقال: لم الصبيان. وقيل لبعض العرب: أما بمكان كذا وكذا وجذ فقال: بلى وجاذا (أي فاعرف بها وجاذا)[1]، وهو المكان الممسك للماء، ويحذفون الجملة الاسمية برأسها إذا دل الدليل عليها كما يفعلون في الجملة الفعلية، قال تعالى: ﴿وَٱللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ[2] وَٱللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾[3] أي فعدتهن ثلاثة أشهر، والحذف في كلامهم كثير إذا كان في الكلام ما يدل على المحذوف[4]، فظهر لي هنا (والله أعلم) [5] أن الواو في قوله: «وَثَامِنُهُمْ» إنما عطف بها على جملة اسمية محذوفة كما قدمنا، ومن المفسرين من جعل هذه الواو داخلة على الجملة الواقعة صفة للنكرة، كما تدخل (على الواقعة) [6] حالاً عن المعرفة في نحو جاءني زيد ومعه أخوه، ومررت بزيد وفي يده سيف [7]، ومنه قوله عز وجل: ﴿فَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ [8]، وفائدتها توكيد لصوق [9] الصفة بالموصوف، والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر، وهذه الواو وهي التي آذنت بأن الذين قالوا: ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ قالوا عن ثبات علم وطمأنينة نفس، ولم يرجموا بالظن كما فعل

---

(1) سقط من ن 3.

(2) بهامش ن 3.

(3) سورة الطلاق: آية 4.

(4) في ن 3: ما يدل عليه.

(5) سقط من ن 3.

(6) سقط من ن 3.

(7) الكشاف 713/2.

(8) سورة الحجر: آية 4.

(9) في ن 3: الصدق، في ن 1، ن 2، ن 4: لحوق، والصواب: لصوق اعتماداً على ما ورد في الكشاف 713/2.

غيرهم، والدليل عليه أن الله سبحانه أتبع القولين الأولين [1] بقوله: ﴿رَجْماً بِٱلْغَيْبِ﴾، وأتبع القول الثالث بقوله: ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾[2] وقال ابن عباس، رضي الله عنه: «حين وقعت الواو انقطعت العدة»[3] أي لم يبق بعدها عدة عاد يلتفت إليها، وثبت أنهم سبعة وثامنهم كلبهم على القطع والثابت، وقيل: ﴿إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ أي من أهل الكتاب، والضمير في «سَيَقُولُونَ» على هذا لأهل الكتاب خاصة، أي سيقول أهل الكتاب فيهم كذا وكذا، ولا علم لهم بذلك (إلا)[4] في قليل منهم، وأكثرهم على ظن وتخمين[5]. انتهى ما قاله الزمخشري وحكاه[6]، وقد حصل منه أن قليلاً من أهل الكتاب قد كان يعلم عددهم وهذا لا ينافره المأخذ المتقدم. وحكى المفسرون أن ابن عباس، رضي الله عنه، كان يقول في قوله: ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ أنا من ذلك القليل[7]، وهذا القدر كاف، والله أعلم.

الآية الثانية من سورة الكهف قوله تعالى في قصة صاحب الجنة: ﴿وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً﴾[8]، وفي سورة حمّ السجدة: ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾[9]، للسائل أن يسأل عن

---

(1) سقط من ن 3.

(2) سورة الكهف: آية 22.

(3) في ن 3: القوة، والصواب: العدة.

(4) سقط من ن 3.

(5) في ن 3: تحسين، والصواب: تخمين.

(6) الكشاف 2/713-714، وقد نقله المؤلف بتصرف.

(7) أنظر: تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، ص 184.

(8) سورة الكهف: آية 36.

(9) سورة فصلت: آية 50.

اختصاص آية الكهف بقوله: ﴿وَلَئِنْ رُدِدْتُ﴾ واختصاص آية السجدة بقوله: ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ﴾ (مع)[1] أن الظاهر اتحاد المقصود في الآيتين؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن الآيتين وإن اتحدتا في الغاية الحاصل منها وصف حال الكافر المنكر للبعث الوارد في كل واحدة منهما في قوله: ﴿وَمَا أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ [2]، إن آية الكهف منهما أقوى تعريفاً ببعد الكافر المضروب به المثل عن حال الإيمان. وأما آية السجدة فصالحة لاتصاف الكافر والمؤمن بالحال المفتتحة بها من قوله: ﴿لَا يَسْأَمُ ٱلْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ ٱلْخَيْرِ﴾ [3]، من حيث أن هذا الوصف وصف يعم المؤمن والكافر، ولهذا قال ابن عطية [4] بعد أن ذكر أن المراد بها الوليد بن المغيرة أو عتبة بن ربيعة [5]: فإن أكثرها يعطي أن الآية نزلت في كفار، ثم قال: وإن تضمن أولها خلقاً ربما يشارك فيه بعض المؤمنين، فحصل من كلامه أن هذا التعريف بحال المضروب به المثل في هذه الآية أرجأ من حال المضروب به المثل في آية الكهف، ألا ترى أن آية الكهف لا يكاد شيء من كلمها يجري في وصف المؤمنين، ألا ترى ابتداء مطلع وصف المذكور فيها مخبراً عنه بقوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾[6]، وبقوله: ﴿مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً

---

(1) سقط من ن 3.

(2) سورة الكهف: آية 36، سورة فصلت: آية 50.

(3) سورة فصلت: آية 49.

(4) تفسير ابن عطية، المجلد الرابع، ورقة 37، الوجه الثاني.

(5) عتبة بن ربيعة (ت 2هـ/ 624م): أبو الوليد كبير قريش وأحد ساداتها في الجاهلية، كان خطيباً نافذ القول، ساد قريش رغم فقره، وأدرك الإسلام وطغى قتل يوم بدر. الاعلام 359/4؛ الروض الآنف 121/1؛ بلوغ الارب 241/1.

(6) سورة الكهف: آية 35.

﴿وَمَا أَظُنُّ ٱلسَّاعَـةَ قَائِمَـةً﴾[1]، ثم حكم[2] لنفسه بعـد إنكاره البعث باستحقاق ما عجل له من جعل الجنتين[3] كما وصفتا، فقال: ﴿وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً﴾[4]، فتأمل ما بين[5] هذه الكلم الواردة في وصف هذا الكافر والواردة في قوله في آية سورة السجدة ﴿لَا يَسْأَمُ ٱلْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ ٱلْخَيْرِ﴾[6]، أي من أن يدعو بالخير لنفسه ويستزيد منه، وهذه صفة توجـد في المؤمنين، وبها افتتـح الوصف المضروب به المثل في هذه الآية، ثم قال بعدما ذكر من كلامه: ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾[7]، (فقوله: ﴿إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾)[8] ليس في موازنة قول الآخر في آية الكهف: ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً﴾[9] وإن خفي ما بينهما. فلما افترقت الآيتان فيما ذكر، ناسب آية الكهف قوله: ﴿وَلَئِنْ رُدِدْتُ﴾، لما يشعر لفظ رددت ويحتمله من القهر والتعنيف وقوعاً أكثرياً لا بالوضع، بخلاف لفظ رجع إذا قلت منه: رجعته أو رجع فإنه لا يحتمل ولا يفهم من معنى القهر والتعنيف ما يحتمله ردّ، ألا ترى وروده في مثل قوله: ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ

---

(1) سورة الكهف: آية 35-36.
(2) في ن 3: حكى، والصواب: حكم.
(3) في ن 3: الأيتين، والصواب: الجنتين.
(4) سورة الكهف: آية 36.
(5) في ن 3: ما من، والصواب: ما بين.
(6) سورة فصلت: آية 49.
(7) سورة فصلت: آية 50.
(8) سقط من ن 3.
(9) سورة الكهف: آية 36.

عَذَاباً نُكْراً﴾ [1] ، وقوله: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالَمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ﴾ [2] ، وقـولـه بعـد: ﴿وَسَتُـرَدُّونَ إِلَى عَـالَمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـادَةِ﴾[3]، وفي الصحيح قوله صلى الله عليه وسلم في الشيطان حين تعرض (له) [4] في صلاته، قال صلى الله عليه وسلم: «فرده الله خاسئاً» [5] ، ففي كثرة ورود هذا حيث يراد هذا المعنى أدل دليل على ما أشير إليه. أما رجع وما تصرف منه فقل ما يرد لهذا، وإن ورد فليس ككثرة ردّ. فأما قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [6] ، فهذا عام للمؤمن والكافر وإن كان أظهر في المؤمن، فلا معنى تعنيف فيه، فوضح التناسب في الآيتين.

الآية الثالثة من سورة الكهف قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾[7]، وفي سورة سجدة لقمان: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِـمَّـنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾[8]، للسائل أن يسأل عن ورود آية الكهف بفاء التعقيب وآية السجدة بثم المقتضية المهلة؟.

والجـواب عن ذلـك، والله أعلم: أن سـورة الكهف مكيـة، والخطاب فيها من أولها إلى الآية المتكلم فيها لم يخرج إلى غيـر

---

(1) سورة الكهف: آية 87.
(2) سورة التوبة: آية 94.
(3) سورة التوبة: آية 105.
(4) سقط من ن 3.
(5) البخاري: صلاة 75.
(6) سورة البقرة: آية 281.
(7) سورة الكهف: آية 57.
(8) سورة السجدة: آية 22.

العرب، أعني أنه لم يتعرض فيها إلى إخبار بحال غيرهم، إلا ما عرفوه[1] من قصة أهل الكهف وخبرهم، وهو من سؤالات قريش بتنبيه يهود إياهم حسبما وقع في الحديث، فقوله في الآية المذكورة: ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾، والمراد بالآيات القرآن ودلائله الواضحة، وإن كان اللفظ مقتضياً كل ما يسمى آية إلا أن آية القرآن أعمد[2] ما قصد هنا، ويشهد لذلك قوله عز وجل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾[3]، وما تقدم الآية من قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا ٱلْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾... الآية[4]، وقوله: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ ٱلْهُدَى﴾[5]، والمراد به القرآن، قال تعالى: ﴿هَذَا هُدًى﴾[6]، والحجة قائمة عليهم عقب سماعهم وتدبرهم، فورد بالفاء المقتضية التعقيب على ما يجب.

وأما آية السجدة، وإن كانت السورة مكية أيضاً، فإن الآية عامة في حق العرب وغيرهم، والإخبار فيها إنما هو عن جميع من شاهد آية بينة وكذب، ودليل هذا ما تقدمه مما هو على إطلاقه في العرب وغيرهم من قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ﴾[7]، هذا عام في المكلفين، ثم فصل حالهم فيما بعد، ثم قال معلماً بحال الجميع على ما تورده العرب عند التعجب، ليباعد بين الأحوال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ

(1) في ن 3: عروة، والصواب: عرفوه.
(2) في ن 3: أعبد.
(3) سورة الكهف: آية 57.
(4) سورة الكهف: آية 54.
(5) سورة الكهف: آية 55.
(6) سورة الجاثية: آية 11.
(7) سورة السجدة: آية 18.

مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾[1] ، فالمراد بهذه الآيات كل ما قامت به الدلالة ووضح منه الشاهد، كناقة صالح، عليه السلام، وانفلاق[2] صخرة عنها، وانقلاب العصا حية، إلى غير ذلك من آيات موسى، عليه السلام، وبينات عيسى، عليه السلام، كإبراء الأكمة والأبرص، وإحياء الموتى، وانشقاق القمر لنبينا صلى الله عليه وسلم، ونبع الماء من (بين)[3] الأصابع، وتكليم الجمادات، ونطق الحيوان إليه، وانقلاب الأعيان، وتكثير الطعام القليل، إلى آيات الكتاب العزيز المتلوة قرآناً، إلى ما لا يحصى من آيات الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فلما انطوت (الآيات)[4] في قوله: ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِ﴾ من التعميم[5] بحسب الشاهد مما اقترن بها على ما لا يتوقف فيه ذو عقل إلا أن يمنعه مانع من ذلك، عظم مرتكب المعرض فعطف بثم، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾[6] استبعاداً للتوقف عن الإيمان والتصديق عند مشاهدة ما لا غبار عليه من الدلائل، ولا إشكال فيه. قال الزمخشري: «ثم» في قوله: ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ للاستبعاد قال: والمعنى أن الإعراض عن مثل آيات الله في وضوحها وإنارتها وإرشادها إلى سواء السبيل والفوز العظيم بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد في العقل، كما تقول لصاحبك وجدت

---

(1) سورة السجدة: آية 22.
(2) في ن 3: إنفاق.
(3) سقط من ن 3.
(4) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(5) في ن 3: التفهم، والصواب: التعميم.
(6) سورة السجدة: آية 22.

مثل تلك الفرصة ثم لم تنتهزها استبعاداً لتركه الانتهاز[1]، وقال: ومنه «ثم» في بيت الحماسة:

لا يكشف الغماء إلا ابن حرة   يرى غمرات الموت ثم يزورها[2]

قال استبعد أن يزور غمرات الموت بعد أن رآها واستيقنها وأطلع على شدتها. انتهى نص كلامه إلا في لفظة أسقطها لجريها فيما لا يكاد ينفك عنه في إحراز مذهبه الخبيث، فتركها وادحاضها لا يخل بشيء من المعنى[3]، قلت والمراد أن ما ذكرنا من الاستبعاد والاستعظام الذي تقتضيه ثم هنا قائم مقام المهلة، فلتكاثر الآيات وتنويعها مستوضحة عظمت جريمة[4] المتوقف عنها، فأشارت ثم لذلك، فافترق القصدان، وجاء كل على ما يناسب، والله أعلم.

وجواب ثان، وهو أنه لما ذكر في آية الكهف إرسال الرسل، عليهم السلام، في قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِٱلْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ ٱلْحَقَّ﴾[5]، فذكر إرسالهم وتكذيب قومهم إياهم، وإنما وقع تكذيب المكذبين عند دعاء الرسل إياهم معقباً به دعاءهم، فجرى مع هذا وناسبه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾[6]، لأنهم إنما أعرضوا

---

(1) الكشاف 515/3.

(2) البيت لجعفر بن عبلة الحارثي، البحر الطويل. أنظر شرح ديوان الحماسة، للتبريزي 50/1. جعفر بن عبلة الحارثي (ت 125هـ/ 743م)، شاعر من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية (الاعلام 119/2).

(3) يريد بذلك كلمة العدل في قوله: مستبعد في العقل والعدل، الكشاف 515/3.

(4) في ن 3 جرأة.

(5) سورة الكهف: آية 56.

(6) سورة الكهف: آية 57.

عقب دعاء الرسل إياهم وعند جدالهم المذكور في قوله: ﴿وَيُجَادِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِٱلْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ ٱلْحَقَّ﴾[1]، إنما ارتكبوا الجدال جواباً للرسل ليدحضوا الحق بباطلهم، فالتعقيب هنا بين، فورد بالفاء.

وأما آية السجدة فلم يقع فيها ذكر إرسال الرسل، ولا جرى في الآية (ذكر تكذيب)[2] ولا دعاء وإن كانت آيها عامة في العرب، وإنما ورد فيها انقسام المكلفين بحسب السوابق في إشارة قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لاَ يَسْتَوُونَ﴾[3]، ثم ذكر تعالى مآل الفريقين، وأن الفاسقين مأواهم النار، وأن حالهم فيها كما ذكر تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾[4]، ولا شك أن استحقاق جزائهم بذلك إنما هو تماديهم على الكفر مدى حياتهم إلى الوفاة، ولم يقع هنا إشارة إلى مباشرتهم الرسل بالتكذيب، فلما لم يكن في الكلام ذكر مباشرة الرسل والمواجهة بالتكذيب صار إعراضهم وتكذيبهم كأنه إنما علم وتحصل بذكر الجزاء، وإن كان المؤمنون قد علموا ذلك بالخبر الصادق، وأما بتأخر العلم به (للمكذب)[5] حتى يباشر الجزاء، والجزاء متأخر، فناسب ذلك العطف بثم المقتضية للمهلة، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾[6] فورد كل على ما يناسب، والله أعلم.

---

(1) سورة الكهف: آية 56.
(2) سقط من ن 3.
(3) سورة السجدة: آية 18.
(4) سورة السجدة: آية 20.
(5) سقط من ن 3.
(6) سورة السجدة: آية 22.

الآية الرابعة من سورة الكهف قوله تعالى مخبراً عن قول موسى للخضر، عليهما السلام، حين خرق السفينة: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً﴾[1]، وقوله له عند قتل الغلام: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً﴾[2]، للسائل أن يسأل عن الفرق بين الموضعين الموجب لوصف كل من هذين الفعلين بما وصف به؟

والجواب، والله أعلم: أن خرق السفينة لم يبلغ بحيث يتلفها، وإنما قصد به الخضر عيبها ليزهد فيها مريد غصبها بدليل قوله بعد: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً﴾[3]، فإنما أراد إبقاءها على مالكها ودفع هذا الغاصب إذا رأى ما بها من العيب المانع من الرغبة فيها، وهذا لا يبلغ ظاهره مبلغ ظاهر قتل الغلام بغير سبب ظاهر فوصف بإمر في قوله: ﴿شَيْئاً إِمْراً﴾، وهو دون النكر. وأما البادي الظاهر من قتل الغلام عند من يغيب عنه ما علمه من الخضر فشيء نكر، ومرتكب عند من لحظه بظاهره وغاب عنه ما في طيه شنيع ووزر، فوقع التعبير في الموضعين بما يناسب كلا الفعلين، وعن قتادة [4]، رحمه الله: «النكر أشد من الإمر» فجاء كل على ما يلائم، ولم يكن ليحسن مجيء أحد الوصفين في موضع الآخر، والله أعلم.

---

(1) سورة الكهف: آية 71.

(2) سورة الكهف: آية 74.

(3) سورة الكهف: آية 79.

(4) قتادة: هو قتادة بن دعامة السدوسي البصري، مفسر حافظ قال الإمام أحمد بن حنبل قتادة أحفظ أهل البصرة، وكان إلى جانب ذلك إماماً في العربية وأيام العرب والأنساب، مات بواسط سنة 118هـ/ 736م.
(وفيات 427/1؛ الاعلام 27/6).

الآية الخامسة من سورة الكهف قوله تعالى في حكاية قول الخضر لموسى، عليهما السلام: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَـنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾[1]، ثم قوله بعد ذلك في قصة قتل الغلام: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾[2]، للسائل أن يسأل عن الفرق الموجب لزيادة «لك» في هذا القول الثاني؟

والجواب: أن الخضر قد كان قال لموسى حين قال له موسى، عليه السلام: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾[3]، فلما كان من موسى عند خرق السفينة ما كان من الإنكار بقوله: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾[4]، ذكره الخضر بما كان قد قاله له، من غير أن يزيده على إيراد ما كان قد قاله، فقال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾[5]. فاعتذر موسى، عليه السلام، بقوله: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً﴾[6]، فلما وقع منه بعد ذلك إنكار قتل الغلام بقوله: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْساً زَاكِيَةً[7] بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾[8]، وأبلغ في وصف الفعلة بقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً﴾[9]، قابل الخضر ذلك بتأكيد الكلام المتقدم، فقال: ﴿أَلَمْ

---

(1) سورة الكهف: آية 72.
(2) سورة الكهف: آية 75.
(3) سورة الكهف: آية 67.
(4) سورة الكهف: آية 71.
(5) سورة الكهف: آية 72.
(6) سورة الكهف: آية 73.
(7) في ن 2 زكية، قرأ الكوفيون وابن عامر: زكية بتشديد الياء من غير الألف، وقرأ الباقون بالألف وتخفيف الياء.
(8) سورة الكهف: آية 74.
(9) سورة الكهف: آية 74.

أَقُلْ لَكَ﴾، فالضمير المجرور بيان جيء به تأكيداً، ليقابل بالكلام ما وقع جواباً له من قول موسى، عليه السلام، زيادة للتناسب، وتعلق المجرور الواقع بياناً مختلف فيه، فمنهم من يعلقه[1] بفعل مضمر، ومنهم من يجري حرف الجر الذي فيه كحرف الجر الزائد فلا يعلقه بشيء، وقوله: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ على هذا المأخذ معمولاً للقول من قوله: ﴿أَلَمْ أَقُلْ﴾.

ويمكن عندي فيه وجه آخر، وهو أن يكون قوله: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ﴾ كلاماً مستقلاً، محذوفاً منه معمول القول، وكأنه في تقدير: ألم أقل لك ما قلت، ثم استأنف المقالة فقال: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾، فقوله: ﴿إنك لن تستطيع معي صبراً﴾ على هذا ليس معمولاً للقول من قوله: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ﴾، إنما معمول: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ﴾ محذوف مقدر، كما حذف معمول القول من قوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا﴾[2]، ومعمول القول محذوف تقديره: أتقولون للحق لما جاءكم سحر مبين، ثم قال لهم تقريعاً وتوبيخاً: ﴿أَسِحْرٌ هَذَا﴾، فسحر مبين المقدر معمول للقول، وهو من قولهم، وقوله: ﴿أَسِحْرٌ هَذَا﴾ من قول موسى، عليه السلام، توبيخاً لهم كما ذكرنا. فكذا حذف من قوله: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ﴾ كما تقدم، والله أعلم.

الآية السادسة من سورة الكهف، قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً﴾[3]، للسائل أن يسأل عن الفرق الموجب لمجيء استطاعوا بالتاء دون الأول؟

---

(1) في ن 3: يطلقه، والصواب: يعلقه.

(2) سورة يونس: آية 77.

(3) سورة الكهف: آية 97.

والجواب أنه يقال: استطاع واستاع واسطاع[1]، والأول الأصل، ثم يحذفون أحد الحرفين تخفيفاً، فجيء أولاً بالفعل مخففاً عند إرادة نفي قدرتهم على الظهور على السدّ والصعود فوقه، ثم جيء بأصل الفعل مستوفى الحروف عند نفي قدرتهم على نقبه وخرقه، ولا شك أن الظهور أيسر من النقب، والنقب أشد عليهم وأثقل، فجيء بالفعل مخففاً مع الأخف، وجيء به تاماً مستوفى مع الأثقل، فتناسب، ولو قدر بالعكس لما تناسب. وأيضاً فإن الثاني في محل التأكيد لنفي قدرتهم على الاستيلاء على السد وتمكنهم منه، فناسب ذلك الإطالة، وهذا يفتقر إلى بسط وبيان، مع أن الأول أولى، فلنكتف بهذا، والله سبحانه أعلم بما أراد.

الآية السابعة: غ ـ قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾[2]، وفي سورة الأنبياء: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾[3]، فلم يقع في هذه الثانية لفظ ﴿أَنَا بَشَرٌ﴾ وورد في الأولى، فللسائل أن يسأل عن ذلك؟.

والجواب عن ذلك: أنه لما تقدم في أول سورة الأنبياء إثبات كون الرسل، عليهم السلام، من البشر، فيما حكاه تعالى من قول الكفار بعضهم لبعض: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾[4]، ثم قال تعالى راداً لقولهم، مثبتاً كون الرسل من البشر: (﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي

---

(1) في ن 3: استطاعوا أو اسطاعوا.

(2) سورة الكهف: آية 110.

(3) سورة الأنبياء: آية 108، بهامش ن 2، وفي سورة حم السجدة: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ﴾.

(4) سورة الأنبياء: آية 3.

﴿إِلَيْهِمْ﴾[1]، ثم تتابع في السورة ذكر الرسل من البشر)[2] في عدة مواضع إفصاحاً وإشارة، آخرها قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[3]، والخطاب لنبينا، عليه السلام، قال تعالى بعد ذلك: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾[4]، فلم يحتج هنا أن يذكر كونه، عليه السلام، من البشر، إذ قد توالى ذكر ذلك جملة وتفصيلاً.

أما سورة الكهف فلم يتقدم فيها مثل هذا، فكان مظنة الإعلام بكونه صلى الله عليه وسلم من البشر إرغاماً لأعدائه، ولما في ذلك من تلطفه تعالى بالحق ورحمته إياهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنْظَرُونَ﴾[6]، فكون الرسل من البشر من أعظم إنعامه سبحانه على الخلق، وخصت آية الكهف بذكر بشريته، عليه السلام، لما بيناه، وورد كل ذلك على ما يناسب، ولم يكن عكس الوارد ليناسب، والله أعلم بما أراد.

* * *

---

(1) سورة الأنبياء: آية 7.
(2) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(3) سورة الأنبياء: آية 107.
(4) سورة الأنبياء: آية 108.
(5) سورة الأنعام: آية 9.
(6) سورة الأنعام: آية 8.

سورة مريم (عليها السلام)

الآية الأولى منها: غ ـ قوله تعالى في قصة يحيى بن زكرياء، عليهما السلام: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيًّا﴾[1]، وفي قصة عيسى، عليه السلام، ﴿وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا﴾[2]، فاختلف الوصفان في الآيتين مع اتحاد مرماهما في السابق من ظاهرهما، فيسأل عن ذلك؟

والجواب عنه ـ والله أعلم ـ ان الله سبحانه وصف يحيى، عليه السلام، بعظم التقوى في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾[3]، وتقي فعيل من التقوى، وهو من ابنيه المبالغة، فيفهم الوفاء بوجوه التقوى حتى لا يكون من الموصوف به معصية ولا تقصير، فقوله بعد: ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيًّا﴾[4]، المراد ـ والله أعلم ـ نفي للمعاصي جملة، وهو المراد بقوله في الموضع الآخر ﴿وَسَيِّداً وَحَصُوراً﴾[5]، أي ممنوعاً من

---

(1) سورة مريم: آية 14.

(2) سورة مريم: آية 32.

(3) سورة مريم: آية 13.

(4) سورة مريم: آية 14.

(5) سورة آل عمران: آية 39.

المعاصي، والحصر الحبس والمنع، قال مكي، رحمه الله[1]: حصر عن الذنوب فلم يأتها. وما قاله المفسرون[2] من أن المراد هنا منعه من النساء بأي وجه قالوه فلا يصح، والله أعلم، لأن عدم القدرة على النساء نقص، والأنبياء منزهون عن النقص، فكيف يصح ورود هذا الوصف في معرض المدحة، وهو في نفسه نقص، والقوة في ذلك كمال ومدحة، فالمراد هنا بالحصور الممنوع عن المعاصي، وقد روى (عمرو)[3] بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم: «كل ابن آدم يأتي يوم القيامة وله ذنب الا يحيى بن زكـريـاء»[4]، ثم نـوسب بين[5] هذا الـوصف وما تقدمه من قوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً﴾، فورد بلفظ المبالغـة مثله، والمراد نفي المعاصي عنه، عليه السلام، (جملة، والتناسب في هذا كله واضح)[6].

وأما قوله في قصة عيسى، عليه السـلام ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً﴾[7] فملحوظ في ذلك ما جرى لأتباعه، عليه السلام، وما وقعوا

---

(1) مكي (355هـ/ 966 ـ 437هـ/ 1045م): هو مكي بن أبي طالب حموش بن محمد بن مختار الأندلسي القيسي مقرىء مفسر من أهل القيروان، ولد فيها ثم سكن قرطبة سنة 393هـ وخطب وقرأ بجامعها وتوفي فيها. له تفسير في سبعين جزءاً.
وفيات 120/2؛ الاعلام 214/8؛ بغية الوعاة 396.

(2) جاء عن جبير: وحصوراً لا يأتي النساء (البخاري تفسير سورة آل عمران).
أنظر: في هذا التفسير الكبير، للرازي 39/8.

(3) سقط من ن 3.

(4) مسند أحمد 2294/4.

(5) في ن 3: ثم يوسف بن يعقوب، وهذا خطأ، والصواب: ثم نوسب بين.

(6) بهامش ن 2.

(7) سورة مريم: آية 32.

(فيه)[1] من العظيمة حين قالوا: هو ابن الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فاستحقوا الوصف بالشقاء بمقالهم[2]، والشقي مستحق العذاب الأخراوي. وإلى السعادة والشقاء انقسام العالم في الآخرة، قال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾[3]، فهما طرفا حصر العالم في الآخرة وهذا كقوله: ﴿فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾[4]، فلما لحظ في قصة عيسى، عليه السلام، عصمته من الرضا بما وقع فيه أتباعه ناسب ذلك نفي صفة الضالين[5]، ممن توهم أنه ممن اتبعه، ليتبرأ، عليه السلام، من حالهم كما يتبرأ حين يقول في الآخرة: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾[6]، فقد وضح ورود كل من الوصفين على أجل النظم وأتم المناسبة، وان عكس الوارد لا يمكن، والله أعلم.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[7]، وفي سورة الزخرف: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾[8]، للسائل أن يسأل عن قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وقوله في الأخرى: ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وما وجه تخصيص كل آية منهما بما ورد فيها؟ وعن قوله في الأولى: ﴿مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وفي الثانية: ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾؟ فهذان سؤالان.

---

(1) سقط من ن 3.
(2) في ن 3: بمآلهم.
(3) سورة هود: آية 105.
(4) سورة التغابن: آية 2.
(5) في ن 3: الظالمين.
(6) سورة المائدة: آية 117.
(7) سورة مريم: آية 37.
(8) سورة الزخرف: آية 65.

والجواب عن الأول منها: أن الكفر بالله سبحانه أعظم من كل خطيئة، والذي لا ينفع معه شيء من أعمال البر، فهو أعظم من الظلم، ثم قد يوصف الكافر[1] بالظلم إشارة إلى الصفة اللازمة له من ظلمه نفسه بكفره وشنيع مرتكبه، فيشعر[2] إذ ذاك هذا[3] الوصف إذا ورد تابعاً لِلكفر ولفظ الكفر منطوق به أو مفهوم من سياق الكلام بزيادة توجب زيادة التنكيل، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ [4]، فقوله في آية سورة مريم: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [5] معقب بها قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾[6]، ثم قال: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[7]، والمراد اختلافهم في نبي الله عيسى، عليه السلام، حيث قال بعضهم: هو الله، وبعضهم يقول: ابن الله، وبعضهم: ثالث ثلاثة، فهذا اختلافهم، وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، فوسمهم بالكفر الذي هو ضابط أقوالهم وأم مرتكباتهم، وأخبر باستحقاق الويل لهم لكفرهم من شهود ذلك اليوم الفاضح لهم على رؤوس الأشهاد، وفيه قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ

---

(1) في ن 3: الكفر، والصواب: الكافر ويؤكد ذلك ما ورد بعد.

(2) في ن 3: فيعسر، والصواب: فيشعر.

(3) في ن 3: هو، والصواب: هذا.

(4) سورة النساء: آية 168.

(5) سورة مريم: آية 37.

(6) سورة مريم: آية 34-36.

(7) سورة مريم: آية 37.

لَهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾[1]، وفيه يقول الأشهاد: ﴿هَٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّالِمِينَ﴾[2]، ثم ذكرهم في آية الزخرف بصفتهم من الظلم اللازم لكفرهم، وليناسب بذلك ما تقدم من وهم من اعتمد غير الله سبحانه، فقرن بمعتمده في العذاب وهو المقول فيه: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾[3]، فقيل فيه وفي متخذه: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾[4]، والظلم هنا ظلم الكفر وحال من عبد عيسى، عليه السلام، من الأحزاب المذكور اختلافهم في خاصته دون متخذه بحال هؤلاء، فوسموا بالظلم كوسم من تقدم فقيل: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، وظلم هؤلاء كفر كحال من تقدم، فتناسب هذا، ولم يقع في آية سورة مريم ما يطلب بمناسبة، فوصفوا هناك بالكفر بخلاف آية الزخرف، فجاء كل على ما يجب، ثم قال: ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾[5]، فذكر العذاب المعقب به ذلك اليوم المشهود، ووصف اليوم بالإيلام وان كان المؤلم إنما هو العذاب مبالغة في شدة الإيلام من عذاب ذلك اليوم، كما قالوا: نهارك صائم وليلك قائم، وهذا العذاب ثان عن قيامهم في ذلك اليوم المشهود وسوء حالهم فيه، وجاء ذلك على الترتيب الذي استقر عليه الكتاب العزيز، فذكر في المتقدم من الآيتين المتقدم وجوداً من حالهم الأخراوي، وفي الآية الثانية ترتيب ما هو ثان عن ذلك، وجاء كل على ما يجب ويناسب، والله أعلم.

---

(1) سورة هود: آية 103.
(2) سورة هود: آية 18.
(3) سورة الزخرف: آية 36.
(4) سورة الزخرف: آية 39.
(5) سورة الزخرف: آية 65.

الآية الثالثة: غ ـ قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾[1]، وفي سورة المؤمن: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾[2]، والمراد في الآيتين تذكيرهم بالقيامة وأهوالها، ثم اختلفت العبارة في الكناية، ففي سورة مريم: ﴿يوم الحسرة﴾، وفي سورة المؤمن: ﴿يوم الأزفة﴾، فللسائل أن يسأل عن ذلك؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن اليوم المشار إليه يشتمل على مواقف ومواطن مهولة وأحوال مختلفة، وبحسب ذلك تختلف العبارة والأخبار لاختلاف المقاصد والمواطن، ألا ترى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾[5]، وقوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾[6]، ولا شك[7] في أن هذا في مواطن مختلفة، وبحسب ذلك اختلفت الكناية كما أضيف إليه اليوم هنا، فيوم الحسرة عبارة عن الوقت الذي يحصل فيه العلم اليقين لأهل النار بتأبيد خلودهم واستمرار عذابهم إلى غير نهاية، ويتأكد لأهل الجنة علمهم بذلك، فلا أشد فرحاً من أهل الجنة يومئذ، ولا أشد حسرة من أهل النار، وفي هذا ورد الخبر الصحيح

---

(1) سورة مريم: آية 39، زيد في ن 3: ﴿وهم في غفلة﴾.
(2) سورة غافر: آية 18.
(3) سورة المؤمنين: آية 101.
(4) سورة الصافات: آية 27.
(5) سورة الصافات: آية 24.
(6) سورة الرحمان: آية 39.
(7) في ن 3: ولا إشكال.

من انه إذا استقر أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار ينادي يا أهل الجنة فيشرئبون، وينادى يا أهل النار كذلك، ويؤتى بالموت فيقال لهذا هل تعرفونه فيقولون نعم. . . الحديث، إلى قوله فيه: يا أهل الجنة خلود لا موت، ويا أهل النار خلود لا موت[1]، فإذ ذاك تعضم حسرتهم ويشتد كربهم، ونص الحديث على ما رُويناه في صحيح مسلم[2] عن أبي سعيد[3]، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح، زاد أبو كريب[4] فيوقف بين الجنة والنار، واتفقا في سياقي الحديث فقيل: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت، قال: ويقال: يا أهل النار هل تعرفون هذا فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت، قال: فيؤمر به فيذبح، قال: ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [5]، وأشار إلى الدنيا [6].

قلت وهذا الحديث من مشكلات الأحاديث، وله وجه من التأويل يرفع إشكاله، وقد تفسرت مظنة الحسرة في قوله تعالى: ﴿إِذْ قُضِيَ

---

(1) البخاري: الرقاق 50، مسلم: جنة 40.

(2) مسلم: جنة 40.

(3) أبو سعيد الخدري (10 ق. هـ/ 613م ـ 74هـ/ 693م): سعد بن مالك الخدري الأنصاري الخزرجي، صحابي روى عن النبي أحاديث كثيرة، توفي بالمدينة. الاعلام 138/3؛ تهذيب التهذيب 379/3.

(4) أبو كريب (ت 139هـ): عبد الرحمان بن كريب المعافري البصري، قاضي تونس ورع ثقة، ولي قضاء القيروان سنة 132هـ (الاعلام 98/4).

(5) سورة مريم: آية 39.

(6) مسلم: جنة 40.

﴿ٱلْأَمْرُ﴾ والمراد به استقرار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار كما ورد في الخبر، وحق لمن تقدم ذكره قبل هذه الآية ممن وقع في العظيمة من أمر عيسى، عليه السلام، حين قالوا: ابن الله مع إقرارهم بالبعث الأخراوي والجزاء، فحق لهم أن يذكروا تحذيراً وتخويفاً بمثل هذا، ولم يتقدم الآية ذكر غيرهم، فهذا أوضح تناسب.

وأما آية سورة المؤمن فقد ورد قبلها قوله تعالى خطاباً للمؤمنين: ﴿فَٱدْعُوا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[1]، ثم تابع الكلام معه إلى الآية من قوله: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ﴾[2]، فخوفوا بإسراع أمر الساعة وتعجيل وقوعها كما قال سبحانه: ﴿إِقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾[3]، أزف الشيء أسرع ومنه قوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾[4]، وتأمل ما اتصل بقوله: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ﴾[5]، وقوله: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾[6]، فقد تناسب هذا ووضح، أما ما ورد في الآيتين فهو على أتم مناسبة، وان عكس (الوارد)[7] على ما بينا لا يلائم، والله أعلم.

الآية الرابعة: غ ــ قوله تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً﴾[8]، وفي سورة

---

(1) سورة غافر: آية 14، في ن 3 سقط له الدين.
(2) سورة غافر: آية 18.
(3) سورة الأنبياء: آية 1، سقط من ن 1، ن 2، ن 4: ﴿وهم في غفلة معرضون﴾.
(4) سورة النجم: آية 57.
(5) سورة غافر: آية 18.
(6) سورة غافر: آية 18.
(7) سقط من ن 3.
(8) سورة مريم: آية 52-53.

الفرقان: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً﴾[1]، ومقصود الآيتين تأييد موسى، عليه السلام، بأخيه هارون، ثم اختلف الوصف بالنبوة والوزارة مع اتحاد المقصود، للسائل أن يسأل عن ذلك؟

والجواب عنه، والله أعلم: محصل طي تمهيد وهو أن السور المتردد فيها ذكر الرسل، عليهم السلام، منوطاً فيها ذكرهم بذكر أممهم، وما كان من معاندة الأمم وتكذيبهم، وأخذ المكذبين بمرتكباتهم، ولا تكاد تجد سورة منها وارد فيها ذكرهم الا على ما ذكرنا، وأكثر تلك السور استيفاء لهذا الغرض سور ثلاث، وهي: سورة الأعراف، وسورة هود، وسورة الشعراء، ثم يليها في ذلك سورة قد أفلح، وقلّ ما تجد سورة ورد فيها قصة منها واحدة فصاعدا الا جارية على ما ذكرته، وربما أجمل ذلك في بعضها مع تحصيل ما ذكرنا من أخذ الأمم بعد تكذيبهم، وآخر سورة ذكرت فيها قصصهم معتمداً فيها ما اطرد من أخذ كل أمة بتكذيبها، وبيان ما به أهلكت من الغرق والريح والصيحة والحاصب وعنيف الأخذ بالعزة والاقتدار سورة القمر مع إيجاز القصص، ولم يرد في غير هذه السورة الوفاء بما ذكرنا، وإنما خصت هذه السورة ببيان كيفية أخذ المكذبين كما بيّنته في كتاب البرهان[2]، ثم إن سورة مريم تضمنت طائفة عظيمة فصل[3] ذكر بعضهم وأجمل ذكر البعض، وقد تجرد فيها من الإخبار بأحوالهم ذكر التعريف بخصائص من منحهم وعلي

(1) سورة الفرقان: آية 35.

(2) كتاب البرهان في تناسب سور القرآن، لأبي جعفر ذكر فيه مناسبة كل سورة لما قبلها. (كشف الظنون 241/1، أنظر مؤلفات ابن الزبير بالمقدمة، ص 93).

(3) في ن 3: فحصل، والصواب: فصل، ويؤكد ذلك ما ورد بعد، فتأمل.

أقدارهم[1]، وما أيدوا به من ذلك، من غير أن يشوب هذا ذكر شيء من تكذيب من كذب منهم، الا ما ورد في ذكر إبراهيم، عليه السلام، من قول أبيه له: ﴿أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ...﴾ الآية[2]، ولم يذكر من حال قومه، عليه السلام، شيء، ولا ذكر فيما بعد ولا فيما تقدم من هذه السورة (الا خصائصهم ومنحهم العلية التي بها امتازوا عمن سواهم من صالحي الأمم)[3] كما تقيدت به مما ذكرنا.

ثم إن النبوة أعظم خصائصهم التي تساووا في تحمل أمانتها، وأفردوا[4]، عليهم الصلاة والسلام، (بها)[5]، ولم يشاركهم فيها غيرهم، أما آسم الوزارة والوصف بها فليس مما يخصهم ولا مما أفردوا به، فلم يكن وصف هارون، عليه السلام، هنا (بها)[6] ليناسب هذا القصد العلي ولا ليلائمه[7]. أما قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً﴾[8] فمرتب على سؤال موسى عليه السلام في سورة طه في قوله: ﴿وَٱجْعَلْ لِيَ وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هَارُونَ﴾[9]، فأعطي عليه السلام مطلبه. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيراً﴾، ورد هذا على الترتيب المتقرر في المصحف. ثم إن ما اتصل بهذه الآية وآية

---

(1) في ن 3: وعلي اقرارهم: والصواب، وعليّ أقدارهم.
(2) سورة مريم: آية 46.
(3) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(4) في ن 3: وفوردوا، والصواب: وأفردوا.
(5) سقط من ن 3.
(6) سقط من ن 3، وفي ن 4: بها هنا.
(7) في ن 3: ولا يلائمها.
(8) سورة الفرقان: آية 35.
(9) سورة طه: آية 29.

سورة مريم مما قبلهما وبعدهما يستدعي التناسب في مقاطع الآي وفواصلها، فلم يكن ورود الآيتين في السورتين على غير ما ورد ليناسب، فجاء ذلك على ما يجب من الوجهين المذكورين، والله أعلم بما أراد.

الآية الخامسة من سورة مريم، عليها السلام، قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئاً﴾[1]، وفي سورة الفرقان: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ آثَاماً يُضَاعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾[2]، للسائل أن يسأل عن قوله في الأولى: ﴿وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ وفي الثانية ﴿وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً﴾؟ وعن قوله في الأولى في جزائهم[3] ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئاً﴾ وفي الجزاء في الثانية: ﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾؟

والجواب: أن الآية الأولى ورد قبلها بعد ذكر المنعم عليهم ومن آهتدى بهديهم قوله: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا ٱلصَّلاَةَ وَٱتَّبَعُوا ٱلشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾[4]، وهذا قول موجز مجمل، فناسبه الإيجاز في قوله ﴿إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً...﴾ الآية، فتناسبا في التقابل الإيجازي كما تناسبا أيضاً في الفواصل ومقاطع الآي، وذلك

---

(1) سورة مريم: آية 59-60.
(2) سورة الفرقان: آية 68-70.
(3) في ن 3: جوابهم، والصواب: جزائهم.
(4) سورة مريم: آية 59.

قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾ وقوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئاً﴾، والمسهل من القراء[1] يقول: شَيًّا فيقف بالياء المشددة. وأما قوله في آية الفرقان: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ (عَمَلًا)[2] صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾[3] فإطناب يناسب التفصيل الواقع قبله في قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾[4]، ثم قال: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾، يريد ما ذُكّر المتصف بتقوى الله بتركه والتنزه عن مواقعة شيء منه ـ ﴿يَلْقَ أَثَاماً﴾[5]، ثم فسر ما يلقاه (بقوله)[6]: ﴿يُضَاعَفُ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾، أي يكثر عليه ويزداد ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً إِلَّا مَنْ تَابَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾[7]، فحصل بإزاء مضاعفة العذاب لفاعل ذلك تبديل السيئات بالحسنات إلى الغفران والرحمة، فإيجاز بإيجاز وإطناب بإطناب مناسبة بين الجواب وما جووب به، وكل على ما يجب، ولا يسوغ العكس على ما تمهد، والله أعلم.

* * *

(1) عرف حمزة بتسهيل الهمزة المتوسطة.
(أنظر التيسير في القراءات السبع، لأبي عمرو الداني / 39).
(2) سقط من ن 3.
(3) سورة الفرقان: آية 70.
(4) سورة الفرقان: آية 68.
(5) سورة الفرقان: آية 68.
(6) بهامش ن 2.
(7) سورة الفرقان: آية 70.

سورة طه

الآية الأولى منها، وما يتعلق بها، وما يرجع إلى معناها، ويتم به ما يتصل بها، قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ رَأَى نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوىً وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى إِنَّنِي أَنَا ٱللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَاةَ لِذِكْرِي إِنَّ ٱلسَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا﴾[1]، وفي سورة النمل: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ[2] إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[3] إلى قوله: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾[4].

وفي سورة القصص: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ ٱلطُّورِ نَاراً قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ ٱلْوَادِ

---

(1) سورة طه: آية 9-18.

(2) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.

(3) سورة النمل: آية 7-8.

(4) سورة النمل: آية 10.

ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَارَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾[1]، هذه الآي من مشكلات الضرب (الثاني)[2] الذي بنينا عليه مقصود هذا الكتاب، لأن محصولها الاخبار عن ابتداء أمر موسى، عليه السلام، في رسالته، وتكليم الله سبحانه إياه، وهو خبر واحد عن قصة واحدة قد وقعت وعين وقوعها ما وقعت عليه من الصفة التي اتحدت بوقوعها وتبينت، فلا يمكن فيها العدول عما وقعت عليه، فكيف هذا الواقع الوارد في السورتين ﴿ٱمْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً﴾ ولم يقع لفظ آمكثوا في سورة النمل؟ وفي السورتين: ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا﴾ وفي النمل: ﴿سَآتِيكُمْ مِنْهَا﴾ فورد: سآتيكم عوض: لعلي؟ وفي طه ﴿بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ وفي النمل: ﴿بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾، فقدم ذكر القبس في طه وآخر في السورتين، ثم اختلف التعبير عنه، فعبر عنه في القصص: ﴿بِجَذْوَةٍ﴾ وعوض في النمل فقيل ﴿بِشِهَابٍ﴾ مضافاً إلى ٱلقبس وكرر: ﴿أَوْ آتِيكُمْ﴾ في النمل ولم يقع ذلك في غيرها؟ وأفصح في السورتين الأخيرتين بالحاجة إلى النار وهو الاصطلاء ولم يقع ذلك في طه جملة؟ وعبر عن الخبر في طه بقوله: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ ولم يذكر ذلك في السورتين؟ فهذه مواضع اختلفت العبارة (فيها، واختلفت)[3] في الزيادة والنقص، والتقديم والتأخير والتعويض، مع أن الاخبار عن واقعة معينة وقصة متحدة، والخبر الواحد الصدق لا تمكن فيه الزيادة

---

(1) سورة القصص: آية 29-31.
(2) سقط من ن 3.
(3) سقط من ن 3.

ولا النقص ولا النسخ من حيث هو خبر ولا شيء مما ذكر[1]، (ويرجع)[2] السؤال فيها إلى شيئين[3]: أحدهما وجه الاختلاف؟ والثاني وجه تخصيص كل موضع بما خص (به)[4]؟

فأقول مستعيناً بالله وسائلاً منه سبحانه (توفيقه)[5] وإرشاده[6] أن المعاني المتصورة في الأذهان المعقولة القائمة بنفوس العقلاء لا تحصل تعديتها إلى غير من قامت به إلا بالعبارات[7] المترجمة عنها من الألفاظ الاصطلاحية، وربما خوطب العالم بغيرها وما سوى اللفظ من إشارة وغيرها لا يستقل في تحصيل المعنى المترجم عنه استقلالها، وبالجملة فلم يخاطب إلا بها، وإذا تقرر هذا، فمن المعلوم أن اللفظ بالتفات مدلوله المعنوي يتعدد، ومرجع[8] الألفاظ بالنظر إلى مسمياتها ينحصر في أربعة أقسام: أما أن يتحد اللفظ والمعنى، أو يختلف اللفظ والمعنى، أو يتحد اللفظ ويختلف المعنى، أو يختلف اللفظ ويتحد المعنى، ولا يقتضي النظر العقلي زائداً على هذا التقسيم، وعلى مقتضاه دارت اللغات، وتخاطب العقلاء.

فالقسم الأول وهو المتحد اللفظ والمعنى هو المتواطىء، وهو دلالة لفظ على معنى، ثم يعرض لذلك المعنى عند التشخص كثرة

---

(1) في ن 3: ولا شيء يذكر، والصواب: ولا شيء مما ذكر.
(2) سقط من ن 3.
(3) في ن 3: سببين، والصواب: شيئين.
(4) سقط من ن 3.
(5) سقط من ن 3.
(6) في ن 3: وإرشاداً، والصواب: إرشاده.
(7) في ن 3: بالمعبرات.
(8) في ن 3: ترجع، والصواب: مرجع.

فيكون ذلك اللفظ يدل على تلك الأشخاص بتواطىء، ومثاله: رجل وفرس وأسد، ومنه دلالة اسم النوع كالإنسان على أشخاصه، وكذلك دلالة الجنس على أنواعه كالحيوان على الإنسان والفرس والطائر.

والقسم الثاني هو مختلف اللفظ والمعنى، وهي الأسماء المتباينة، وهي أسماء مختلفة لمعان مختلفة، كل اسم منها يخص معناه الذي وضع له، نحو السواد والبياض والقدرة والعجز.

والقسم الثالث ما اتحد فيه اللفظ واختلف المعنى، وهي الأسماء المشتركة نحو عين للعضو الباصر[1] وعين الماء ونحو ذلك، فاللفظ متحد والمعنى[2] مختلف.

والقسم الرابع هو ما تعدد لفظه واتحد معناه، وهي المترادفة كالأسد والليث للحيوان المعروف، ثم يعرض للمشترك، وهو المتحد اللفظ مع اختلاف المعنى، تفاوت في قوة دلالته على ما تحته، وأعني بالتفاوت استقلال المعنى بنفسه غير مفتقر إلى الغير، وعدم استقلاله، (فينقسم)[3] بحسب هذا إلى متواطىء ومشكك كوقوع اسم موجود على الجوهر والعرض، إذ الجوهر قائم بنفسه والعرض لا يقوم بنفسه، ففي وقوع[4] اسم موجود عليهما تفاوت بين، فهو في وقوعه على الجوهر (من)[5] قسم المتواطىء، ووقوعه على العرض بتشكيك.

(1) في ن 3: الناظر، في ن 4: نحو العين الباصرة.
(2) في ن 3: أو المعنى، والصواب: والمعنى.
(3) بهامش ن 3.
(4) في ن 3: في وقوع، والصواب: ففي وقوع.
(5) سقط من ن 3.

ثم من الألفاظ على الجملة مجازية، وهي الواقعة على مسمياتها (لا)[1] على أنها أسماء لها بل وضعت لمناسبتها لما)[2] وضعت الأسماء الحقيقية بإزائها، ومن المعلوم في عوارض التركيب الضرب المسمى بلحن الخطاب، وهو حذف الكلمة من الجملة مع إرادتها، ودلالة السياق والمعنى عليها، كالواقع في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱضْرِبْ بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنْفَلَقَ﴾[3]، ولا شك أن المراد: فضرب فٱنفلق، ومما يلحق به عند الجمهور ـ إلا من قال بقول الكرخي[4] ـ ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾[5]، والتقدير: فأفطر فعدة من أيام أخر، فهذا من لحن الخطاب ومن معروف التخاطب الجاري، وهي دلالة المنطوق على مسكوت عنه يفهمه السياق وقصد المتكلم من عرف اللغة، نحو فهم (منع)[6] الضرب والشتم من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾[7]، وهذا الضرب من المفهوم يجاري النصوص ولهذا لم يختلف فيه من أنكر القياس، فهذه جملة يستعان بها على تلقي ما يرد، وليست خاصة بالذي نحن فيه من هذه السورة ولا بموضع دون موضع.

---

(1) بهامش ن 2.

(2) سقط من ن 3.

(3) سورة الشعراء: آية 63.

(4) قال: إن الصوم لا ينعقد في السفر وعلى المسافر القضاء أبداً، ولا حذف في الكلام ولا إضمار: أي فمن كان مريضاً أو على سفر فعليه عدة من أيام أخر.

راجع: أحكام القرآن، للقرطبي 286/2.

(5) سورة البقرة: آية 184.

(6) بهامش ن 3.

(7) سورة الإسراء: آية 23.

ثم من المعلوم ـ بإعلام الله سبحانه ـ أنه تعالى لم يرسل رسولاً إلا بلسان قومه، فموسى، عليه السلام، إنما خاطب أهله في هذه المحاورة باللسان العبراني (الذي هو لسان قومه، وجل كلام ربنا عن الحرف والصوت والتقييد بالجملة، فالوارد في كتابنا إنما هو حكاية المعنى الذي خوطب به موسى، عليه السلام، وخاطب به، واللسان العبراني)[1] أقرب الألسنة إلى[2] اللسان العربي، فما المانع أن يجري فيه ويطرد كل ما في اللسان العربي من الضروب المذكورة قل أو كثر (ذلك)[3].

(ثم)[4] في الجواب عما تقدم ما لا يفتقر فيه إلى بنـائة على ما مهدناه. فأقول مستعيناً بالله سبحانه في قول موسى، عليه السلام، لأهله: «آمكثوا» وسقوط ذلك في سورة النمل قد يكون مما قاله، عليه السلام، نطقاً باللغة التي كلمهم بها، وقد يكون مما فهمه عنه أهله بإشارة أو قرينة أو حال، فيكون قد أمرهم بذلك على كل حال فإما بنطق أو غيره، فمرة حكى معنى نطقه أو مراده بما قد فهم عنه أهله الأمر، ومرة اكتفى بمـا بعد (هـذا)[5] الأمر اقتصـاراً على ما يحصـل المقصود، فلا اختلاف ولا اعتراض في ذلك.

---

(1) سقط من ن 3، ن 4.
(2) في ن 3: من.
(3) سقط من ن 3.
(4) بهامش ن 2.
(5) سقط من ن 3.

وأما قوله: ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ﴾ في السورتين وقوله في النمل ﴿سآتيكم﴾ فإن حرف التسويف يفهم الاستقبال، (ولفظ)[1] لعل[2] أيضا يعطي ذلك مع زيادة الترجي والطمع، فيمكن لتقارب معنييهما أن يكون في لسانهم عبارة موضوعة للمعنيين معاً، فلم يكن بد من ورود الحرفين عند الحكاية ليحرز ذلك وقوع المعنى وحصوله على ما هو في لسانهم.

وأما تقديم ذكر القبس في سورة طه على الخبر وتأخيره في السورتين فعنوان بين يعرف أن القصة محكية على معناها لضرورة اختلاف اللغتين ولو ورد الأخبار على التزام التقديم في إحداهما وتأخير الآخر على اللزوم لما أحرز ما ذكرنا.

وأما القبس والجذوة والشهاب من القبس فإن ذلك مما يتصل في لغتنا بمراعاة أدنى شيء يسوغ افتراق التسمية، وذلك كثير في لغتنا[3] كقولهم: سيف وصارم ومنهد، وقولهم في التمر[4] طلع وضحك وإغريض وبلح وسياب إلى تمام أحواله العشر[5]، له في كل حالة منها اسم والمسمى واحد، ومتى كان للعرب تهمم بشيء من الموجودات، وكان مما يكثر في كلامهم، وضعوا له عدة أسماء إتساعاً، حتى أنهم قد أنهوا بعض المسميات إلى مائة اسم أو نحوها. وإنما ما كان هذا في لغة العرب لاضطرارهم إليه في الشعر والاسجاع، فلو لم تتسع اللغة العربية

---

(1) سقط من ن 3.

(2) في ن 3: لعلي.

(3) في ن 3: بألسنتنا.

(4) في ن 1، ن 2: الثمر، والصواب: التمر.

(5) الطلع، الضحك، الاغريض، الغضيض، البسر، الزهو، السياب، البلح، الرطب، التمر أو اليبيس.

فيما ذكر لضاق عليهم الأمر واعتاص النظم والنثر، وأقرب شيء (أن)[1] يكون التعبير في تلك اللغة وقع بلفظ واحد لا يعبر في لغتهم عن ذلك المراد المقصود لغيره، وقد أحرز وضع ذلك اللفظ العبراني ما عبر عنه في لغتنا بعدة أسماء، وسواء عني في كل اسم منها معنى ما في المسمى (أو كانت مترادفة على المسمى من غير أن يراعى في شيء منها معنى ما في المسمى)[2].

وأما تكرار: أو آتيكم في سورة النمل فليس فيه إلا تكرار ما يحرز التأكيد، وتأكيد ما هو خبر ليس أمراً ولا نهياً إنما ثمرته وفائدته صدق الإخبار، وذلك حاصل هنا[3] سواء تأكد أو لم يتأكد. وإذا كان الكلام على ما قلنا والصدق حاصل على كل حال فلا ينكر إذا حكي بمعناه. أو يؤكد مرة ولا يؤكد أخرى، إذ لا زيادة للتأكيد فيه سوى الجري على مرتكبات العرب في مثله.

وأما الافصاح في السورتين الأخريين بالحاجة إلى النار وهو الاصطلاء، ولم يقع ذلك في طه، فإن ذلك إخبار بزيادة لا يعارضها شيء مما في سورة طه، فقوله: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾[4]، فإفصاح بما هو معلوم من قوله في سورة النمل: ﴿سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾[5]، لأن أهله لم يكن بهم من حاجة لغير الاصطلاء واستعلام طريقهم، فورد في

---

(1) سقط من ن 3.

(2) بهامش ن 2.

(3) في ن 3: منها.

(4) سورة طه: آية 10.

(5) سورة النمل: آية 7.

سورة طه مفصحاً بالمقصود مفسراً لما هو مفهوم في آيتي النمل والقصص من معنى الكلام وسياقه، فلا اختلاف في شيء من ذلك كله ولا تعارض ولا خلاف، والحمد لله.

والجواب عن السؤال الثاني: أن تخصيص كل سورة من هذه السور بما ورد فيها مقتضيه بين. أما أولاً فإن فواصل هذه السورة ومقاطع آيها مناسبة للوارد فيها، أما سورة طه فمقاطع آيها لازمة الألف المقصورة وعلى ذلك أي السورة كلها، وأما النمل والقصص فقد اكتنف الواقع في آي هذه القصة فيها ما مقطعه النون الواقع قبلها الياء والواو الساكنتان بحسب ما تقدمهما من حركتي الضمة والكسرة. فإن قلت: إن السورتين مستويتان في هذا فما الفارق؟ قلت: الايجاز والطول، أما سورة النمل فأوجز في هذا المقصد، وأما سورة القصص فإن خبر موسى، عليه السلام، فيها يكاد يستغرق آيها كلها، فناسبه طول الوارد فيها مما فيه الكلام، وذلك غير خاف. وتأمل الوارد في سورة طه من قوله تعالى مخبراً عن نبيه موسى، عليه السلام، من قوله: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾، ومناسبة ذلك لما بنيت عليه سورة طه من تأنيس نبينا صلى الله عليه وسلم، وافتتاحها بقوله تعالى: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾[1]، يَلُحْ لك التلاؤم والتناسب، وقد وضح أن كل ما في كل سورة من السور الثلاث من هذه القصة لا يلائم غيرها، وأن كل قصة منها لا يحسن وقوعها في موضع الآخر لعدم المناسبة وبعد التلاؤم، والله أعلم.

الآية الثانية من سورة طه ــ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ

---

(1) سورة طه: آية 2.

أُخْفِيهَا﴾[1]، وفي سورة غافر: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾[2]، للسائل أن يسأل عن تخصيص آية طه بقوله في وصف الساعة: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ ووصفها في سورة غافر بقوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾؟ وعن زيادة اللام في قوله في آية غافر: ﴿لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾؟ فهذان سؤالان.

والجواب عن الأول منهما: أن آية طه خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، يتضمن تأنيسه وتسليته عن حال كفار قريش في (توقفهم عن)[3] الإيمان، فافتتحت السورة بأجل التأنيس وهو قوله تعالى مبشراً لنبيه، عليه السلام، مقسماً على ذلك: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾[4]، ثم تابع التعريف بتعظيم الكتاب، وذكر منزلته سبحانه وتعالى بما انفرد فيه من ملك السماوات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى، ووصفه بأنه يعلم السر وأخفى، وانفراده بأسمائه الحسنى، ثم عرف نبيه صلى الله عليه وسلم بابتداء (أمر)[5] موسى، عليه السلام، (إلى قوله)[6]: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ[7] آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾[8] تعريفاً بعظيم خفاء أمر الساعة وتغييب كنهها عن الخلق حتى كأن أمرها لم يخبر عنه ولا وقع تعريف بشيء منه، فهو إخبار بفرط إخفاء أمرها، وذلك إعلام بوصف وحال من قد تقرر بوقوعها يقينه، وانطوى على علم كيانها إيمانه، ولما كان هذا الخطاب

---

(1) سورة طه: آية 15.
(2) سورة غافر: آية 59.
(3) سقط من ن 3.
(4) سورة طه: آية 2.
(5) سقط من ن 3.
(6) بهامش ن 2، وسقط من ن 3.
(7) سقط من ن 3.
(8) سورة طه: آية 15.

والتعريف لمن جرى ذكره من تنزهه صلى الله عليه وسلم عن الارتياب في أمر الساعة، لم يحتج إلى نفي الريب، إذ مقام النبوة في الإيمان بها المقام الذي لا يداني، فلم يكن نفي الارتياب ليلائم ولا يناسب، وإنما عرفوا بحال وصف تابع.

أما آية غافر، في أكثر الخطاب المتقدم قبلها، من أول السورة إليها، خطاب لقريش وسائر كفار العرب. وهم المجادلون في أمر الساعة، والجاهلون بكيانها، والقائلون: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[1]، فقدم لهم قبل ذكر الآيات قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾[2]، فذكروا بما لا يمكن لأحد من المخلوقين إلا الاعتراف بعظيم أمره والعجز عنه، وهو الخلق الأعظم، ثم اتبع بنفي الريب الذي هو ملتبسهم وصفتهم، واتبع بتأكيد الاخبار بدخول اللام[3] ونفي الريب في ذلك، وذلك أوضح شيء في المناسبة، فكل من الآيتين وارد على أتم مناسبة، ولا يمكن أن يقع الوارد في سورة غافر في سورة طه. ولا الوارد في سورة طه في سورة غافر، والله أعلم بما أراد.

والجواب عن الثاني: أن آية طه وردت أثناء خطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتأنيس والتسلية عما يلقاه من مكابدة قريش وسائر كفار (العرب)[4]، وتعريفه بما جرى لموسى، عليه السلام، وظهوره

---

(1) سورة المؤمنين: آية 37.

(2) سورة غافر: آية 57.

(3) في ن 3: الألف واللام، والصواب: اللام.

(4) بهامش ن 2.

على فرعون، فلم يكن ليناسب ذلك تأكيد الخبر عن أمر الساعة، إذ هو، عليه السلام، من أمرها على أوضح الجادة.

أما آية غافر فإن قبلها تعنيفاً لكفار من قريش وغيرها، وعلى ذلك استمرت الآيات من أول السورة إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾[1] إلى قوله ﴿قَلِيلاً مَا تَتَذَكَّرُونَ﴾[2]، فناسب ذلك من حالهم تأكيد الاخبار عن إتيان الساعة بدخول اللام، وصيرورة الآية بذلك في قوة المقيس عليه[3] تحقيقاً للأمر وتأكيداً لما في طي ذلك من وعيدهم بسوء مآلهم، فورد كل من الآيتين على ما يناسب، والله أعلم.

الآية الثالثة[4] من سورة طه ـ قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ[5] إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَٱجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي ٱشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾[6]، وفي سورة الشعراء: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلاَ يَتَّقُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلاَ يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾[7]، وفي سورة القصص:

---

(1) سورة غافر: آية 56.
(2) سورة غافر: آية 58.
(3) في ن 3: المعبر عنه.
(4) في ن 3: الثانية، والصواب: الثالثة.
(5) في ن 3: إذهبا، وهو خطأ.
(6) سورة طه: آية 24-36.
(7) سورة الشعراء: آية 10-14.

﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [1] إلى قوله: ﴿أَنْتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَالِبُونَ﴾ [2]. للسائل أن يسأل عن اختلاف المحكي من قول موسى، عليه السلام، حين بعث إلى فرعون مع اتحاد القضية في السور الثلاث وقد وقع في كل سورة منها ما ليس في الأخرى، فيسأل عن هذا؟ وعن وجه اختصاص كل سورة بما ورد فيها؟

والجواب عن السؤال الأول: أن قول موسى، عليه السلام، لا توقف في أنه لم ترد حكايته إلا بالمعنى لاختلاف اللسانين كما تقدم، وإذا تقرر كونها بالمعنى، والترادف فيما بين اللغتين في كل لفظتين يراد بهما معنى واحد غير مطرد، فلا إشكال في أن المعنى قد يتوقف حصوله على الكمال على تعبيرين أو أكثر، لا سيما مع ما في اللسان العربي من الاشتراك والعموم والخصوص والاطلاق والتقييد والحقيقة والمجاز وغير ذلك من عوارض الألفاظ، فكيف ينكر اختلاف التعبير عن المعنى الواحد بألفاظ وعبارات مختلفة، بل نقول إنه لو كان المحكي قولاً عربياً وحكي بالمعنى لما استنكر اختلاف العبارة،، فكيف مع اختلاف اللسانين؟ والحاصل من قول موسى، عليه السلام، في هذه السور الثلاث سؤاله ربه شرح صدره وتيسير أمره وإطلاق لسانه وتشكيه منه والتعاون بأخيه هارون، عليهما السلام، وخوفه أن يكذب وذكره ما تقدم منه من قتل القبطي، على هذه القضيات السبع دار المحكي من كلامه،

---

(1) سورة القصص: آية 32-35.
(2) سورة القصص: آية 35.

عليه السلام، وقد يرد في سورة منها بعض ذلك مما ليس في الأخرى، ولم يتعارض شيء من ذلك، فآرتفع الإشكال المتوهم جملة.

والجواب عن السؤال الثاني: أن الوارد في سورة طه من قوله: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾[1] إلى أن قيل له: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾[2] مناسب لما بنيت عليه السورة من التأنيس والبشارة لنبينا صلى الله عليه وسلم من لدن افتتاحها بقوله: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾[3] إلى ختامها بقوله لنبيه عليه السلام: ﴿لَا نسألك رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾[4] وقوله تهديداً ووعيداً لأعداء نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا...﴾[5] الآية، ولا توقف في بيان هذا التناسب.

وأما سورة الشعراء وسورة القصص فإنما بناؤهما على قصص موسى، عليه السلام، أما الشعراء فمبنية على ابتداء الرسالة ودعائه فرعون ومراجعة فرعون إياه إلى نجاة بني اسرائيل وإغراق فرعون، وأما سورة القصص[6] فمبنية على ابتداء امتحان بني اسرائيل بذبح الأبناء واستحياء النساء للخدمة والمهنة، وتخليص موسى، عليه السلام، من ذلك، وتكفل الله سبحانه من ابتداء ونشأة، إلى توجهه إلى مدين ورجوعه من عند شعيب، عليهما السلام، إلى ما تخلل ذلك وما أعقبت به، إلى أخذ فرعون وهلاكه، ولما كانت سورة الشعراء مذكوراً فيها

---

(1) سورة طه: آية 25.
(2) سورة طه: آية 36.
(3) سورة طه: آية 2، زيد في ن 2 إلا تذكرة.
(4) سورة طه: آية 132.
(5) سورة طه: آية 135.
(6) سقط من ن 3.

قصص الرسل مع أممهم ابتداء واختتاماً[1] فيما يخص حال الرسالة، إلى أخذ[2] كل طائفة بما أخذت به، خصت من قصص موسى، عليه السلام، بما يلائم دعاء ومحاورة، إلى أخذ فرعون وملئه.

ولما كان قوله تعالى في سورة القصص: ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ﴾[3] تأنيساً وتنبيهاً لنبينا صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [4]، وفي آخر السورة الإفصاح من هذا التأنيس برجوعه إلى مكة بعد أن أخرج عنها، عليه السلام، مهاجراً لأجل قومه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ [5]، ناسب ذلك من قصص موسى، عليه السلام، خروجه إلى مدين ورجوعه إلى مصر، فتناسب هذا أكمل مناسبة في السور الثلاث، (وإذا اعتبر ذلك علم أنه لا يناسب كل سورة من الثلاث)[6] إلا ما خصت به، والله أعلم بما أراد.

الآية الرابعة من سورة طه: غ ـ[7] قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[8]، وفي سورة الشعراء: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[9]،

---

(1) في ن 3: انتهاء.
(2) في ن 3: آخر، والصواب: أخذ.
(3) سورة القصص: آية 3.
(4) سورة هود: آية 120.
(5) سورة القصص: آية 85.
(6) بهامش ن 2.
(7) لم تقع الإشارة إلى إغفالها في ن 3.
(8) سورة طه: آية 47.
(9) سورة الشعراء: آية 16-17.

ففي الأولى: ﴿فَأْتِيَاهُ﴾ وفي الثانية ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ﴾، وفي الأولى: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ بالتثنية[1] والاضافة إلى ضمير الخطاب وفي الثانية ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾، فورد هنا «رسول» بلفظ الإفراد وإضافة رب (إلى)[2] العالمين، والظاهر أن أمر موسى وهارون، عليهما السلام، في الآيتين كان أول أمر أُمِرَا به في إرسالهما إلى فرعون، وأن أمرهما معاً بهذا لم يتكرر، وقد تقدم في سورة طه[3] أمر موسى، عليه السلام منفرداً عن أخيه هارون في أول تكليم الله تعالى، وأمره بخلع نعليه، وإعطائه آيتي العصا واليد، وأمره بالذهاب إلى فرعون، وطلبه شرح صدره، إلى طلبه المعونة بأخيه هارون، وبعد ذلك أُمِرَا معاً بما في هاتين الآيتين، ثم لم يتكرر حسبما ذكرناه بمقتضى الظاهر، فللسائل أن يسأل عن وجه الاختلاف فيهما؟ ووجه اختصاص كل سورة بما ورد فيها؟

والجواب عن الأول: ما تقدم من أن الإخبار عن ذلك كله في كتابنا معتمد فيه المعنى، وقد تقدم بيان ذلك مستوفى[4]، وأما وجه التخصيص، فإن ورود اسم فرعون مضمراً في قوله: «فأتياه» إنما ذلك لتقدم ذكره في قوله: ﴿ٱذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ﴾[5]، فلم تكن إعادة اسمه ظاهراً مع الاتصال والقرب، إذ لم يفصل بين ظاهره ومضمره إلا كلمتان. أما آية الشعراء فقد اجتمع فيها أمران: أحدهما الفصل بين مضمر الاسم وظاهره، مع إتيان الظاهر مضافاً إليه

---

(1) في ن 3: بالتنبيه، والصواب: بالتثنية.
(2) سقط من ن 3، ن 4.
(3) سورة طه: آية 24، وما بعدها.
(4) أنظر تفسيره للآية الثالثة من هذه السورة. ص 817.
(5) سورة طه: آية 43-44.

فضلة إلى ما ذكر إليه من الفصل ببضع وعشرين كلمة، والثاني أن أمر موسى، عليه السلام، أولاً إنما ورد بإتيانه قوم فرعون، قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ آئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ﴾[1]، فقد يتوهم أن الجاري على هذا أن لو قيل عوض قوله: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ﴾ فأتياه، إلا أنه لم يقصد إلا ذكر متبوعهم، فلم يكن بد من الافصاح بإسمه غير مضمر.

وأما قوله تعالى في الأولى: ﴿فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾[2] بتثنية لفظ الرسول فوارد على اللغة الشهيرة، أما قوله في الثانية ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾[3] فعلى لغة من يقول رسول للواحد والاثنين والجمع[4] والمذكر والمؤنث، وعلى ذلك قول الهذلي[5]:

الكني إليهـا وخيـر الـرسـول أعلمهـم بنـواحـي الخبـر[6]

فورد (الأول)[7] في الترتيب على اللغة الشهيرة، والثاني على اللغة الأخرى على ما تقدم في مثل هذا، وعكس الوارد مخالف للترتيب ولا يناسب.

---

(1) سورة الشعراء: آية 10-11.
(2) سورة طه: آية 47.
(3) سورة الشعراء: آية 16.
(4) في ن 3: الجميع.
(5) هو أبو ذئيب الهذلي: هو خويلد بن خالد بن محرث أبو ذئيب من بني هذيل، شاعر فحل مخضرم، سكن المدينة وشارك في الغزو والفتوح. عاش إلى أيام عثمان، شهد فتح افريقية في جيش عبد الله بن سعيد بن أبي سرح سنة 26هـ من الذين حملوا بشرى الفتح إلى عثمان وقيل مات بـإفريقيـة وهو أشعر هذيل، له ديوان شعر.
(6) لأبي ذويب المذكور آنفاً من ديوان الهذليين 146/1.
(7) سقط من ن 3.

وأما قوله: ﴿إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ﴾ بإضافة اسمه تعالى إلى ضمير الخطاب، فإنه يناسب من حيث ما فيه من (التلطف)[1] والرفق لما تقدمه من قوله تعالى: ﴿فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً﴾[2]، وقد تفسر هذا القول وتبين ما فيه من التلطف بقوله تعالى في سورة والنازعات: ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾[3]، وناسب هذا ما بنيت عليه سورة طه من تأنيس نبينا صلى الله عليه وسلم وتأنيس موسى كليمه صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾[4] وما بعد إلى قوله تعالى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾[5] وما بعد، فلما كان بناء هذه السورة بجملتها على التلطف (والتأنيس ناسب ذلك ما أمر به موسى، عليه السلام، من دعاء فرعون آنسه وألطفه)[6]، وأمر موسى، عليه السلام، وأخوه هارون بذلك فقيل لهما: ﴿فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً﴾، وجرى على ذلك (قوله)[7]: ﴿إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ﴾، فأشعرت هذه الاضافة بالتلطف الرباني[8]، ولما لم تكن سورة الشعراء مبنية على ما ذكر، وإنما تضمنت تعنيف فرعون وملئه وإغراقهم وأخذ المكذبين للرسل بتكذيبهم، وهذا في طرف من التلطف، ورد فيها: ﴿فَقُولاَ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ بإضافة اسمه سبحانه (إلى العالمين)[9] ليحصل منه أنه مالك

---

(1) سقط من ن 3.
(2) سورة طه: آية 44.
(3) سورة النازعات: آية 19.
(4) سورة طه: آية 13.
(5) سورة طه: آية 36.
(6) بهامش ن 2.
(7) سقط من ن 3.
(8) في ن 1، ن 2، ن 4: الزماني، والصواب: الرباني.
(9) سقط من ن 3.

الكل وأنهم تحت قهره تعالى وفي قبضته، وعدل عن الاضافة إلى ضمير الخطاب إذ لم يقصد هنا ما تقدم من التلطف، ونظير الوارد في هاتين الآيتين قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾[1] تأنيساً لنبينا صلى الله عليه وسلم ثم ورد فيما بعد ﴿وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾[2]، فقف على ذلك في سورة الأنعام، وقد تبين جليل النظم وعلي التناسب في كل ما تقدم، وأن عكس الوارد في هذه الآي لا يناسب، والله سبحانه أعلم.

الآية الخامسة من سورة طه: غ ـ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مِهَاداً[3] وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً﴾[4]، وقال في سورة الزخرف: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمْ ٱلْأَرْضَ مِهَاداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً﴾[5]، للسائل أن يسأل عن وجه الاختلاف بين سلك وجعل؟ ووجه اختصاص كل من السورتين[6] بما ورد فيها؟

والجواب عن ذلك: أن العبارتين في السورتين معناهما متقارب وهو ما هيأه سبحانه لعباده من المذكور[7] في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمْ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾[8]، والمراد (بسلك)[9] وجعل

---

(1) سورة الأنعام: آية 112.

(2) سورة الأنعام: آية 137.

(3) في ن 1، ن 2: مهداً، قرأ الكوفيون مَهْداً بفتح الميم وإسكان الهاء والباقون بكسر الميم وفتح الهاء والألف بعدها.

(4) سورة طه: آية 53.

(5) سورة الزخرف: آية 10.

(6) في ن 3: كل سورة.

(7) في ن 3: الذكور، والصواب: المذكور.

(8) سورة الملك: آية 15.

(9) سقط من ن 3.

ما خلق وذلل[1] سبحانه منها وهيأه لتصرفنا في معايشنا ومنافعها.

والجواب عن الثاني أن اختصاص كل واحدة من العبارتين بموضعها في آية طه مقصود بها التلطف بالدعاء إلى الله (عز وجل)[2] على ما تقدم من أمره تعالى لموسى وهارون، عليهما السلام، في قوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾، فلما بني الكلام على هذا وأعقب بقوله: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا (مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى)[3] كُلُوا وَٱرْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾[4]، ـ ولا إشكال في أن هذا من التلطف والرفق في الدعاء ـ ناسب ذلك العبارة بسلك عما أنهج تعالى من السبل والطرق لمرافق العباد ومصالحهم، وهي منبئة[5] عما تعطيه جعل في الآية الأخرى مع زيادة الوضوح وكمال التهيئة، فهي أنسب[6] لما قصدفي هذه السورة، تقول: منهج سالك[7] أي واضح، ولو قلت مجعول لم يعط هذا المعنى من الوضوح. أما آية الزخرف فمبنية على توبيخ من كفر من العرب وتقريعهم[8]، ألا ترى قوله سبحانه: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾[9]، وقوله إخباراً عن مكذبي الأمم: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ

---

(1) في ن 3: وذلك، والصواب: ذلل.
(2) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(3) سقط من ن 3.
(4) سورة طه: آية 53-54.
(5) في ن 3: مبنية، والصواب: منبئة.
(6) في ن 3: فناسب، والصواب: فهي أنسب.
(7) في ن 1، ن 2، ن 4: هنالك، والصواب: سالك.
(8) في ن 3: تعريفهم، والصواب: تقريعهم.
(9) سورة الزخرف: آية 5.

نَبِيّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[1]، وقوله: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً﴾[2] أي من هؤلاء الذين كذبوك يا محمد، فهذا كله توبيخ للجاحدين والمعاندين، وتأمل ما افتتحت به السورة من قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[3]، والتعقل لا يستلزم الاهتداء والإيمان، ألا ترى قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْتَمِعُونَ كَلَامَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[4]، فأين موقع قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ من قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ و ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾؟ فتدبر ذلك يلح لك الفرق، فناسب هذا ما ينبىء عن الخلق[5] والاختراع من غير زيادة، فعبر هنا بجعل.

وأيضاً فقد اكتنف لفظ جعل في الزخرف قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً﴾[6]، وقوله بعدها: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾[7]، فناسب هذا ذكر الجعل، ولم يناسب هنا هذه المناسبة لفظ سلك، فجاء كل على ما يجب ويناسب، والله أعلم.

الآية السادسة من سورة طه: غ ــ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً﴾[10]، وفي سورة الأنبياء: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ

---

(1) سورة الزخرف: آية 7.
(2) سورة الزخرف: آية 8.
(3) سورة الزخرف: آية 3.
(4) سورة البقرة: آية 75.
(5) في ن 3، ن 4: ما بني على الخلق، والصواب: ما ينبىء على الخلق.
(6) سورة الزخرف: آية 3.
(7) سورة الزخرف: آية 12.
(8) سورة طه: آية 12.

كَاتِبُونَ﴾ [1] ، فوردت آية طه منسوقة على ما قبلها بالواو، والثانية بالفاء المقتضية في مثل هذا استئناف التفصيل مع بنائه على ما قبله بمقتضى الفاء، ثم أعقبت الأولى بقوله: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْماً وَلَا هَضْماً﴾، والثانية بقوله: ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ [2] ومقصود الآيتين واحد، فللسائل أن يسأل عن الفرق؟

والجواب عن الأول: أن قوله: «ومن يعمل» بواو النسق ورد في مقابلة ما تقدمه من المعنى الحاصل من قوله: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [3] وقد خاب من حمل ظلماً لأن عنت الوجوه ذلتها في القيامة، ومنه قولهم: العاني للأسير، فمن حمل ظلماً خاب وخسر، ومن قدم خيراً وعمل صالحاً فلا يخاف ظلماً أي زيادة في سيئاته، ولا هضماً أي نقصاً في حسناته، وهذا معنى الكلام، والله أعلم، فهذا موضع الواو ولا مدخل فيه للفاء. أما قوله في آية الأنبياء: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّالِحَاتِ﴾ [4] فافتتاح تفصيل أحوال الفريقين لما قال تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ [5]، والمراد اختلافهم وافتراقهم في المذاهب والأديان، اتبع ذلك تعالى ببيان [6] حال المحسن والمسيء في افتراقهم، فاستؤنف تفصيل جزائهم فقال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ [7] إلى ما بعد وفي قوله تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ

---

(1) سورة الأنبياء: آية 94.
(2) زيد في ن 3: وإنا له كاتبون.
(3) سورة طه: آية 111.
(4) سورة الأنبياء: آية 94.
(5) سورة الأنبياء: آية 93.
(6) في ن 3: اتبع ذلك بقوله تعالى بيان، ولا يستقيم به المعنى.
(7) سورة الأنبياء: آية 94.

أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾[1] إلى ما يتلوه[2] بيان جزاء المسمى وحكمه، وربطت الفاء ما فصل من الجزاء بما وقع الجزاء المفصل مربوطاً به ومنبهاً عليه، فالموضع للفاء ولا مدخل للواو هنا.

وأما[3] تعقيب آية طه بقوله: ﴿فَلاَ يَخَافُ ظُلْماً وَلاَ هَضْماً﴾[4] فإفصاح بالتأنيس المناسب لما بنيت عليه، وقد وضح هذا في الآية المترجم عليها قبل التي تلي هذا، ولم تبن آية سورة الأنبياء على ما ذكر فجيء فيها بما يناسب، وورد كل على ما يجب، ولا يلائم عكس الوارد ولا يناسب، والله أعلم.

الآية السابعة من سورة طه قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾[5]، وفي سورة السجدة ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾[6]، فلحقت همزة الاستفهام الواردة هنا تقريراً وتوبيخاً حرف العطف متقدمة قبله كما يجب واختلف حرف العطف، فللسائل أن يسأل: لم اختصت الأولى بالفاء من حروف العطف والثانية بالواو؟وعن زيادة «من» في سورة السجدة؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن قوله في الآية الأولى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ كلام لم يتقدمه ما يكون هذا معطوفاً عليه، وإنما هو كلام

(1) سورة الأنبياء: آية 95.
(2) في ن 3: يتلو بسقوط الضمير.
(3) في ن 3: وما.
(4) سورة طه: آية 112.
(5) سورة طه: آية 128.
(6) سورة السجدة: آية 26.

مستأنف مبتدأ، ألا ترى ما تقدم قبله من قوله تعالى إخباراً عمن أعرض عما جاءت به الرسل فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي﴾ ـ أي بإعراضه عن إتباع الرسل ـ ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً. . .﴾ [1] الآيات إلى قوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾[2]، هذا إخبار عن جزاء من أعرض ولم يؤمن، ثم ورد ما بعد مستأنفاً وارداً مورد ما يرد من الكلام التفاتاً، وهذا مراد أبي محمد بن عطية[3]، ثم ابتدأ توبيخهم وتذكيرهم فقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾، والضمير المجرور لكفار قريش ومن كان معهم، أي أفلم يتبين لهم، والفاعل[4] ما يفهم من جملة الكلام وسياقه، أي أفلم يهد لهم هذا المشاهد لهم الواضح من تقلبهم في بلاء عاد وثمود يمشون في مساكنهم ويعاينون آثار هلاكهم، وكم مفعولة بأهلكنا. واستمر الكلام[5] مع المذكورين إلى آخر السورة، وإذا كان قوله: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ مبتدأ مستأنفاً فالموضع للفاء، وهذا كقوله في سورة الرعد: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعاً﴾[6]، وقوله في سورة القتال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[7]، وما أتى مثل هذا مما الوجه فيه الاستئناف، ولم يقصد عطفه على ما قبله، وإنما ارتباطه بما تقدمه من جهة المعنى، ولا مدخل فيه للعطف مع أن الالتحام حاصل من وجه كما بينا.

---

(1) سورة طه: آية 124.
(2) سورة طه: آية 127.
(3) تفسير ابن عطية، المجلد الثالث، ورقة 29، الوجه الأول.
(4) في ن 3 والفاء على، ولا يستقيم بذلك المعنى.
(5) في ن 3: واستمر في الكلام.
(6) سورة الرعد: آية 31.
(7) سورة محمد ـ القتال: آية 24.

وأما آية السجدة فالواو فيها عاطفة على مقدر لما قاله الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾[1]، كأن قد قيل: أفلا تذكروا ولم يعرضوا: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾[2] أولم يبين لهم إهلاك من تقدمهم من القرون، وقال الزمخشري في الواو في: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ للعطف على معطوف عليه منوي من جنس المعطوف والضمير في لهم لأهل مكة[3]، قلت وهذا هو عين ما قدمنا، وإنما لم تكن الواو هنا لغير العطف لأن الواو لا يستأنف بها بخلاف الفاء كما قدمنا، فاختلف المقصود في الآيتين ووضح وجه مجيء الفاء في آية طه والواو في آية السجدة.

وأما زيادة «من» في قوله في آية السجدة: ﴿من قبلهم﴾ فإنها مقصود فيها استغراق عموم لمناسبة ما تقدم هذه الآية من حصر التقسيم في قوله: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لاَ يَسْتَوُونَ﴾[4] وأعقبت: (به)[5] مما يفهمه قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾[6]، إذ ليس هنا الوارد كالوارد في سورة طه من قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾[7]، فهذا يشعر بخصوص يناسبه سقوط «من» الاستغراقية، وما في آية السجدة يشعر بعموم واستغراق تناسبه «من» في قوله: ﴿من قبلهم﴾، فجاء كل على ما يناسب ويجب، والله أعلم.

---

(1) سورة السجدة: آية 22.
(2) سورة السجدة: آية 26.
(3) الكشاف 516/3.
(4) سورة السجدة: آية 18.
(5) سقط من ن 3.
(6) سورة السجدة: آية 26.
(7) سورة طه: آية 123.

الآية الثامنة من سورة طه قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾[1]، وفي سورة قَ: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾[2]، فقال في الأولى: ﴿قَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ وفي الثانية: ﴿وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾، وفي سورة الطور: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ (رَبِّكَ)[3] فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومَ وَمِنَ ٱللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ ٱلنُّجُومِ﴾[4]، (فيسأل[5] عن الفرق)[6]؟

والجواب أن ذلك، والله أعلم: لرعي الفواصل ومقاطع الآي، ألا ترى ما تقدم قبل آية قَ من قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾[7]، فناسب هذا قوله: ﴿وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾، وأما آية طه فقد اكتنفها أي مقاطعها الألف المفتوح ما قبلها نطقاً وتقديراً، فجاء ذلك على ما يجب في السورتين.

فصل: وأما قوله تعالى في السورتين: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ بناء على المتقدم فيهما من قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ بِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ واتصاله به فبين الوضوح، لأن المراد أمره عليه السلام بالصبر على أذاهم في قولهم[8] كاهن ومجنون وساحر إلى غير ذلك مما نزه الله نبيه، عليه

---

(1) سورة طه: آية 130.

(2) سورة ق: آية 39.

(3) سقط من ن 3.

(4) سورة الطور: آية 48-49.

(5) في ن 3: فليسأل.

(6) بهامش ن 2.

(7) سورة ق: آية 38.

(8) في ن 3: قوله، وهو خطأ.

السلام، منه، فأُمر (بالصبر)[1] على ذلك وأُمر أن يستعين بصبره وصلاته كما قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَاةِ﴾[2] ، وهو المراد أيضاً هنا، وعن الصلاة عبر بالتسبيح في قول أكثر المفسرين، وإن أريد بالتسبيح معنى التنزيه بالذكر المعروف فذلك أيضاً بين والمعنى متعارف[3] ، ويكون مأموراً بالصبر والذكر والتنزيه، فالالتحام بين، وإنما المشكل قوله تعالى في سورة صّ: ﴿ٱصْبِرْ عَلَى ما يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ. . . الآية﴾[4]، وربط قوله: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ﴾ بما قبله ومطابقته إياه، وقد أجاب الزمخشري عن ذلك[5] بما جرى فيه على شنيع المرتكب وسوء الأدب، بناء على استبداد العبيد وفعلهم ما لا يرضاه الخالق سبحانه ولا يريد، فجعل لله شركاء، وأفرد العباد بأفعالهم استبداداً وملكاً، وأجاب (بناء)[6] على ما أصل ولم يوفق في هذا الموضوع لوجه المطابقة ولا حصّل، وأذكر إن شاء الله ذلك في أول آية من سورة صّ على أوضح منهج بحول الله تعالى[7].

* * *

(1) سقط من ن 3.
(2) سورة البقرة: آية 45.
(3) في ن 3: متقارب.
(4) سورة ص: آية 17.
(5) الكشاف 77/4.
(6) سقط من ن 3.
(7) صفحة 977 وما بعدها.

سورة الأنبياء (عليهم السلام)

الآية الأولى منها قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا آسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾[1]، وفي سورة الشعراء: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ آلرَّحْمَانِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾[2]، فورد في الأولى: ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وفي الثانية ﴿مِنَ آلرَّحْمَانِ﴾ مع اجتماع الآيتين في أن التذكير لا يجدي على من ذكر في الآيتين، فللسائل أن يسأل عن وجه ذلك[3]؟

والجواب، والله أعلم: أن هذين الاسمين العظيمين وهما: الرب والرحمان تواردا في الكتاب العزيز كثيراً، أول ذلك في الفاتحة، ثم أن اسمه سبحانه الرحمان يغلب وروده حيث يراد الإشارة إلى العفو والإحسان والرفق بالعباد والتلطف والتأنيس، فمن مراده في التأنيس البسملة، وأم القرآن، وصدر سورة طه، وآية الشعراء المتكلم فيها، وما ورد من مثل الوارد في سورة الفرقان في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ آسْجُدُوا لِلرَّحْمَانِ﴾[4]، فتحقيق الاعتبار يقتضي تأويله بالرجوع إلى ما ذكرنا، وأما اسمه الرب فيعم وروده طرفي الترغيب والترهيب.

---

(1) سورة الأنبياء: آية 2.

(2) سورة الشعراء: آية 5.

(3) في ن 3: عن الوجه في الوجه في ذلك، وهو خلل بين.

(4) سورة الفرقان: آية 60.

أما الترغيب فبين، وأما الترهيب فحيث يرد معنى ملكيته سبحانه لهم، وانفراده بإيجادهم، وإدرار أرزاقهم، وبيان انفراده تعالى بذلك، ثم هم مع ذلك على كفرهم. ولما تقدم قبل آية الأنبياء من الأخبار ما طيه وعيد وترهيب مع تلطفه سبحانه بهم بتذكيرهم لم يكن ليناسب ذلك ورود اسمه الرحمان، ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾[1] أشد تخويفاً للمخاطبين، ثم لفظ الناس لفظ لا يخص به المؤمنون، إنما يرد[2] حيث يراد عموم المخاطبين، ويكثر حيث يراد الوعيد والإنذار والتخويف والدعاء الأولي[3] إلى العبادة والدخول في الإسلام، وأما ما ذكر بعد وصفه بالغفلة والإعراض وما انجر مع ذلك فأهل الكفر والتكذيب، والسورة مكية ولفظ الناس عام كما تقدم، إلا أن قوله بعد: ﴿وَأَسَرُّوا ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾[4] خاص بمن حكى قولهم الذي أسروه وهو: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾[5].

أما آية الشعراء فمبنية على تأنيس النبي صلى الله عليه وسلم وإعلامه أن توقف قومه عن الإيمان إنما هو بقدرته تعالى عليهم، ولو شاء لأراهم آية تبهرهم كشق الجبل فوق بني إسرائيل. وإلى هذه[6] الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾[7]، ثم رجع الكلام إلى تعنيف المكذبين، فلما كان بناء

---

(1) سورة الأنبياء: آية 1.
(2) في ن 3: يراد، والصواب: يرد.
(3) في ن 3: الأول.
(4) سورة الأنبياء: آية 3.
(5) سورة الأنبياء: آية 3.
(6) في ن 3: هما، ولا يستقيم بذلك المعنى.
(7) سورة الشعراء: آية 4.

الآية على التأنيس والتلطف بنبينا صلى الله عليه وسلم، وإعلامه بأن تأخير العذاب عنهم إنما هو إبقاء منه تعالى ليستجيب من قدر له الإيمان منهم، فأشار إلى هذا وناسبه آسمه الرحمان، فقال تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ آلرَّحْمَانِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ [1]، فقد وضح ورود كل من الآيتين في موضعه على ما يجب ويناسب، والله أعلم بما أراد.

الآية الثانية ــ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً [2] أَهَذَا آلَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ آلرَّحْمَانِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [3]، وفي سورة الفرقان: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً [4] أَهَذَا آلَّذِي بَعَثَ آللَّهُ رَسُولاً إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾... الآية [5]، هنا سؤالان: أحدهما ظهور الفاعل في الآية الأولى وإضماره في الثانية، والثاني ما وجه تعقيب الآية الثانية بما أعقبت به؟

والجواب عن الأول، والله أعلم: أن الكفار المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتقدم قبل آية الأنبياء أو فيما يليها من آي السورة [6] أو يقرب منها خطاب يعنيهم ويخصهم من غيرهم، إنما تقدم

---

(1) سورة الشعراء: آية 5.

(2) في ن 2: هزوا قراءة حمزة وهشام المعروفين بتسهيل الهمزة.
(التيسير لأبي عمرو الداني 37).

(3) سورة الأنبياء: آية 36.

(4) في ن 2: هزوا، ارجع إلى التعليق رقم 2.

(5) سورة الفرقان: آية 41-42.

(6) في ن 2: السور، والصواب: السورة.

قبلها قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[1]، وهذا يتناول كل كافر مكلف ذي عقل كان من العرب أو من غيرهم معاصر أو غير معاصر، ثم لم يقع بعد هذه الآية ما يعارض عمومها، فلهذا تعين إظهار الفاعل في قوله: ﴿وَإِذَا رَآكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾[2] إذ لو قيل: وإذا رأوك، لما كان يمكن رجوعه إلا للمذكورين قبل في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾[3][4]، وليس خاصاً بالمعاصرين، فلم يكن ليناسب.

أما آية الفرقان فإن قبلها قوله تعالى: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾[5]، والمنزل عليه القرآن معلوم صلى الله عليه وسلم، فالقائلون معاصرون وهم الذين عنوا على القطع بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾، فلما تقدم ذكرهم غير متناول غيرهم، وعنوا بالذكر، واحتيج بعد إلى الإخبار عنهم، أتى بضميرهم، إذ هو أوجز وقد علم، (فقيل)[6]: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ﴾، ولم يكن الإضمار ليناسب في آية الأنبياء، ولم يمكن الإظهار هنا، فورد كل على ما يجب ويناسب، والله أعلم.

---

(1) سورة الأنبياء: آية 30، توقفت الآية في ن 1، ن 2، ن 4 عند: ففتقناهما.

(2) سورة الأنبياء: آية 36.

(3) سورة الأنبياء: آية 30.

(4) بهامش ن 2.

(5) سورة الفرقان: آية 32، بدئت الآية في كل النسخ بـ: وقالوا، وهو خطأ، والصواب: وقال الذين كفروا.

(6) سقط من ن 3.

والجواب عن السؤال الثاني: أنه لما تقدم في سورة الأنبياء قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ﴾[1]، وقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[2]، وقوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً﴾ [3] ، فتكرر ذكر مرتكبهم في اتخاذهم معبودات لا تغني عنهم، ناسبه قولهم: ﴿أَهَذَا ٱلَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ [4] .

أما آية الفرقان فقد تقدمها قوله: ﴿مَالِ هَذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [5] ، فأنكروا كون الرسول من البشر، (فجرى مع ذلك وناسبه قولهم: ﴿أَهَذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولاً﴾ [6] تعجباً واستبعاداً أن يكون الرسل من البشر) [7] ، وقد رد ذلك عليهم بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْواقِ﴾ [8] ، فوضح التناسب فيها، والله أعلم.

الآية الثالثة قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ﴾[9]، قراءة الجماعة إلا ابن عامر: ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَاءَ﴾، وقرأ ابن عامر: ﴿ولا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَاءَ﴾ بضم التاء وفتح

---

(1) سورة الأنبياء: آية 21.
(2) سورة الأنبياء: آية 22.
(3) سورة الأنبياء: آية 24.
(4) سورة الأنبياء: آية 36.
(5) سورة الفرقان: آية 7.
(6) سورة الفرقان: آية 41.
(7) بهامش ن 2.
(8) سورة الفرقان: آية 20.
(9) سورة الأنبياء: آية 45.

الميم من الصم، وفي النمل والروم: ﴿ولا يُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَاءَ﴾[1]. قراءة ابن كثير بضم الياء وفتح الميم كقراءة الجماعة في آية الأنبيٰاء، وقراءة الباقين: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ بضم التاء وفتح الميم كقراءة ابن عامر في الأنبياء، فاستوت الآي الثلاث في ورود القراءتين على الجملة وفي المعنى المقصود، ثم ختمت الأولى بقوله: ﴿إِذَا مَا يُنْذَرُونَ﴾، وآيتا النمل والروم بقوله: ﴿إِذَا وَلَّوا مُدْبِرِينَ﴾، فيسأل عن ذلك.

والجواب، والله أعلم: أن آية الأنبياء قد تقدمها أمره، عليه السلام، بخطاب حاضريه، وإنذارهم بما أوحي إليه[2]، وإعلامهم بأن إنذاره إياهم لا يجدي عليهم، تسلية له، عليه السلام، وإعلاماً بما سبق لهم أزلاً، فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِٱلْوَحْيِ﴾ [3]، ثم قال لهم: ﴿وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ﴾[4]، فأعلمهم بإعلام الله تعالى بأنهم صموا عن سماعه، ومنعوا ثمرته من الإجابة لما سبق عليهم فقيل: ﴿إِذَا مَا يُنْذَرُونَ﴾، أي أنهم وقت إنذارهم ممنوعون عن السمع، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً﴾[5]، وكما ورد قبل آيتي النمل والروم قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَى﴾[6] إلحاقاً لحال المخاطبين بهم في عدم الجدوى عليهم، ناسب ذلك قوله: ﴿إِذَا وَلَّوا مُدْبِرِينَ﴾، فوضح التناسب في نظام هذه الآي، وإن العكس لا يناسب، والله أعلم.

---

(1) سورة النمل: آية 80.
(2) سورة الروم: آية 52.
(3) في ن 3: بما أوحى الله تعالى.
(4) سورة الأنبياء: آية 45.
(5) سورة الكهف: آية 57.
(6) سورة الروم: آية 52، في النمل: إنك بدون الفاء.

الآية الرابعة قوله تعالى في ابراهيم: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا (هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾[1]، وفي سورة الشعراء: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ[2] مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ (إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ)[3] أَوْ يَضُرُّونَ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[4]، فورد في الأولى: ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا﴾ وفي الثانية: ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا[5]، فيسأل عن زيادة «بل» في الثانية؟ وقد يسأل عن المختلف من حكاية قول ابراهيم، عليه السلام في الأولى: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾[6] وفي الثانية: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ وظاهر القصة أنها واحدة وقد اختلف المحكي؟

والجواب عن الأول، والله أعلم: أن جوابهم في الموضعين ليس جواباً لسؤال واحد، وإنما ورد (جواباً)[7] لسؤالين، فاختلف بحسبهما، فسؤاله في آية الأنبياء سؤال مطلع على معبوداتهم ما هي؟ بعد أن شاهد عبادتهم لها، ولزومهم إياها، وكيفية صورها[8]. فقال: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ أي ملازمون، فلم يجدوا جواباً إلا اعترافهم بتقليد آبائهم في عبادتها، فجاوبوه بقولهم: ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾،

---

(1) سورة الأنبياء: آية 52-53.
(2) بهامش ن 2.
(3) بهامش ن 2.
(4) سورة الشعراء: آية 69-74.
(5) في ن 3 بإضافة كذلك.
(6) سورة الأنبياء: آية 52.
(7) سقط من ن 3.
(8) في ن 3: صدرها، وفي ن 4: وليفيد ظهورها، والصواب: وكيفية صورها.

وحصل اعترافهم بأنها تماثيل مصورة منحوتة، والتماثيل ما جعل من الصور مثالاً لغيره ونحي[1] به نحوه، فأقروا بالعجز عن جواب مقنع، واستشعروا ما يلزمهم في عبادة ما يصنعونه بأيديهم، وتقدم وجودهم وجوده، فرجعوا إلى التقليد فوقع جوابهم على ما تقدم.

وأما آية الشعراء فإن سؤال ابراهيم، عليه السلام، إياهم بقوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ ورد (مورد)[2] سؤال عن ماهية[3] معبوداتهم وكيفيتها، وكأنه، عليه السلام، لم يشاهدها، وعلم أنهم يعبدون ما لا يعبد، فسألهم عن ماهيته فجاوبوه: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ فجاوبوه[4] معترفين بماهية معبوداتهم[5] على ما أمرهم عليه، وطابق جوابهم سؤاله، فأردف، عليه السلام، بسؤال آخر، قاصداً تعجيزهم والقطع بهم فقال: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾[6] أي إذا كانوا هكذا مستبدين غير مفتقرين فذلك عذر في عبادتكم إياهم، فلما استشعروا ما يلزمهم عدلوا عن الجواب، وأضربوا عن طرفي الإثبات والنفي إلى تقليد الآباء وقالوا: ﴿بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[7]، وحصل من جوابهم بمفهوم الإضراب ببل أن آلهتهم

---

(1) في ن 3: ويجيء.
(2) سقط من ن 3.
(3) في ن 3: سالفة.
(4) سقط من ن 3.
(5) من قوله: وكيفيتها إلى هذا الحد بهامش ن 2.
(6) سورة الشعراء: آية 72-73.
(7) سورة الشعراء: آية 74.

لا تسمع ولا تنفع ولا تضر، إذ لو اتصفت[1] بوجود هذه الصفات لما عدلوا إلى الإضراب.

فإن قيل إنما أضربوا عن أن يجيبوا بنفي أو بإثبات فكيف يقال: إن اعترافهم حاصل بأنها لا تسمع ولا تنفع ولا تضر؟ فأقول: لو وجدوا أدنى شبهة لترامَوا عليها، فقد وضح أن جوابهم هنا بناء على ما بنوه جواباً عليه لا يمكن غيره إلا بمخالفتهم المحسوس لو أنهم قالوا: إنها تسمع أو تنفع أو تضر، أو نسبتهم أنفسهم إلى ما لا عذر لعاقل في ارتكابه، ولا شبهة لو أفصحوا جواباً بأنها لا تسمع ولا تنفع ولا تضر، ثم استمروا على عبادتهم إياها، فأضربوا عن ذلك إلى اعتمادهم على تعبد آبائهم، وجعلوا ذلك حجة على مرتكبهم على وهن هذا التعلق، ولهذا قيل لهم: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[2]، إن جوابهم هنا بل لازم لما قصده، ولا يمكن بسقوطها، وإن جوابهم في آية الأنبياء لا يمكن فيه بل بوجه[3]، فورد كل على ما يجب ويناسب، والله أعلم.

والجواب عن السؤال الثاني أنه لا حامل على القول بأن القصة واحدة، وإذا أمكن أن يكون ذلك في محلين ووقتين لم يلزم اتحاد الجواب، فلا سؤال، والله أعلم.

الآية الخامسة قوله تعالى: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾[4]، وفي والصافات: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ

---

(1) في ن 1، ن 2: انطفت، والصواب: اتصفت.

(2) سورة الأنبياء: آية 54.

(3) في ن 3: يوجد، والصواب: بوجه.

(4) سورة الأنبياء: آية 70.

ٱلْأَسْفَلِينَ﴾[1]، هنا سؤالان: أحدهما: ما وجه الاختلاف مع اتحاد المقصود في الموضعين؟ والثاني: ما وجه اختصاص كل من الموضعين بما ورد فيه؟

والجواب عن السؤالين معاً: أن الخاسر عندنا من فقد ما بيده من مال أو سبب كان يعتمده لدنياه ومعاشه، أو محاولة فسدت عليه فساءت حاله، لذلك ومهما استحكمت حاله في ذلك كان أخسر، وقد جعل سبحانه في الخسران المبين من خسر الدنيا والآخرة، وأعلمنا تعالى أن الأخسرين لا يقام لهم (وزن في القيامة، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً﴾[2] إلى قوله: ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ)[3] يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَزْناً﴾[4]، فلا أدون حالاً من هؤلاء. ولما أراد قوم ابراهيم، عليه السلام، به الكيد ألحقهم تعالى بهؤلاء عقوبة توافق مرتكبهم وسوء انتحالهم[5]، والأخسرون هم الأسفلون، ولهذا كان مطلب الكافر في الآخرة وتمنيه لو بلغه إلحاق من أضله من الجن والإنس بهذا النمط، قال تعالى مخبراً عن حالهم في الآخرة: ﴿رَبَّنَا أَرِنَا ٱلَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾[6]، فالصفتان من الخسران والسفالة غاية حالة[7] الكافر[8]، ومن كان من الأسفلين فقد

---

(1) سورة الصافات: آية 98.
(2) سورة الكهف: آية 103.
(3) بهامش ن 2.
(4) سورة الكهف: آية 105.
(5) في ن 3: استحالهم، والصواب: انتحالهم.
(6) سورة فصلت: آية 29.
(7) في ن 3: حالة غاية، وهو خطأ بين.
(8) في ن 3: الكافرين بالجمع، وفي ن 4: غاية حال الكافر.

خسر خسراناً مبيناً، فلا تضاد بين الصفتين سوى أن السفول لاحق في ذات المسفل، والخسران حقيقة في خارج عنه، فالسفول أبلغ، فقدم ما هو لاحق خارجي، وأخر ما لا يتعدى ذات المتصف تكملة وتتمة، إذ هو أبلغ على ما يجب وعلى ما قدمنا من رعي الترتيب، والتسفل (ضد)[1] التّعالي، فورد كل على ما يجب ويناسب، وقيل روعي في آية والصافات مقابلة قولهم: آبنوا له بنياناً، لأنه يفهم منه إرادتهم علو أمرهم بفعلهم ذلك، فقوبلوا بالضد، فجعلوا الأسفلين. قال معناه صاحب الدرة[2]، وهو حسن، والله أعلم.

الآية السادسة ــ قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبُ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ [3]، وفي سورة صٓ: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي ٱلْأَلْبَابِ﴾ [4]، ففي آية الأنبياء: ﴿رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾ وفي آية صٓ: ﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾، وفي آية الأنبياء: ﴿وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾، وفي آية صٓ: ﴿لِأُولِي ٱلْأَلْبَابِ﴾، فيسأل عن الفرق بين الوصفين[5]؟ ووجه الاختصاص؟

---

(1) سقط من ن 3.

(2) درة التنزيل، للخطيب الاسكافي، ص 238.

(3) سورة الأنبياء: آية 83-84.

(4) سورة ص: آية 41-43.

(5) في ن 4: في الموضعين، والصحيح: الوصفين.

والجواب على[1] **الجملة**، والله أعلم: أنه لما ورد في الأنبياء تلطف أيوب عليه السلام بقوله: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ﴾[2]، فلما تلطف في سؤاله، ولم يفصح، عليه السلام، تلطفاً وتضرعاً بعظيم ما أصابه من البلاء إفصاحه في آية صٓ بقوله: ﴿مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾[3]، فبني كل (من الآيتين)[4] على ما يناسبه، فقيل جواباً على عظيم تضرعه وتلطفه في قوله: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ ما يلائم لطيف هذه الشكوى، وعلى قوله: ﴿مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ ما يناسب إفصاحه بهذه البلوى، فقيل بناء على الأول: ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾[5]، وقيل بناء على الثانية: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾[6]، لما وقع ذكر الشيطان، وأنه السبب في ذلك الامتحان، جووب باستعمال سبب فقيل له: اركض برجلك[7] واغتسل وذلك يذهب عنك ما مسك به الشيطان، وحين لم يذكر، عليه السلام، واسطة جووب برفع ما به بغير واسطة سبب، فقيل جواباً لقوله: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾[8]، وبنى على الأول قوله: ﴿رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾ لتمكن «عند» فيما قصد، وعلى الثاني: ﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾ إذ ليس موقعها موقع ﴿مِنْ عِنْدِنَا﴾، ثم قيل في الأولى: ﴿وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ مناسبة لما تقدم،

---

(1) في ن 3: عن، والصواب هنا: على.
(2) سورة الأنبياء: آية 83.
(3) سورة ص: آية 41.
(4) سقط من ن 1، ن 2، ن 4، وفي ن 4 فمبني على كل ما يناسب.
(5) سورة الأنبياء: آية 84.
(6) سورة ص: آية 42.
(7) ما بين القوسين بهامش ن 2.
(8) سورة الأنبياء: آية 84.

وقيل في الثانية: ﴿لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَابِ﴾ مناسبة أيضاً، إذ اعتبار أولي الألباب يورثهم مقام العابدين، وهو أسنى مقام، وكل ذلك بعد مقامات علية وأحوال جليلة، وقد جرى مع (كل)[1] مقام ما يناسبه، ووضح أن كلاً من هذه المبنيات على ما قبلها لا يناسبه غير ما بني عليه، والله أعلم.

وأما وجه خصوص الواقع في كل من السورتين بموضعه، فإن سورة الأنبياء لما ورد فيها من قصص الأنبياء المذكورين قبل ذكر أيوب، عليه السلام، إعلاء مقاماتهم، ولم يرد في ذلك ما يخرج عن هذا، وذلك من لدن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ﴾[2] إلى قوله: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾[3]، ناسب ذلك من قصة أيوب، عليه السلام، ما يلائم هذا الغرض، فلما ورد في صٓ ما بني عليه قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾[4] إلى قوله: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ﴾... الآية[5] وما بني عليه (قوله)[6]: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾[7] إلى قوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي﴾[8]، ناسب ذلك أيضاً ما أعقبت به من قصة أيوب، عليهم السلام، فتأمل الوارد من قصص داود وسليمان في قوله في الأنبياء ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ﴾[9] إلى قوله: ﴿فَهَلْ

---

(1) سقط من ن 3.
(2) سورة الأنبياء: آية 51.
(3) سورة الأنبياء: آية 82.
(4) سورة ص: آية 24.
(5) سورة ص: آية 25.
(6) سقط من ن 3.
(7) سورة ص: آية 34.
(8) سورة ص: آية 35.
(9) سورة الأنبياء: آية 78.

أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾[1]، والوارد من قصصهما في سورة صٓ، واعتبر ذلك، فإن الفرق في ذلك بين، وقد تنزل على كل من هذه القصص في السورتين ما يناسبهما من قصص أيوب، وإذا استوضحت ذلك علمت أن كلًّا منهما لا يناسبه غير موضعه، ثم إن كـلًّا من الآيتين في السورتين قد جرى على ما اتصل به مما تقدمه وتأخر عنه من فواصل الآي ومقاطعها، فلو وردت على العكس لما ناسب آية منها ما اتصل بها[2]، فحصل التناسب في اللفظ والمعنى على أوضح شيء، وأنه لا يمكن عكس الوارد على ما قد تمهد بوجه، والله أعلم بما أراد.

الآية السابعة من سورة الأنبياء قوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾[3]، وفي سورة التحريم: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَةَ عِمْرَانَ ٱلَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيـهِ مِنْ رُوحِنَا﴾[4]، فيسأل عن وجه الاختلاف في الضميرين مع اتحاد المعنى المقصـود من الواقـع به الثناء[5] وإن اختلف الحامل[6] على ذكر قصتها في الموضعين؟ وعن وجه اختصاص كل واحد من الموضعين بالوارد (فيه)[7]؟

والجواب عن الأول، والله أعلم: بعد تسليم اتحاد المعنى الواقع به البناء، إن الضمير في الأولى عائد إلى ما أشير إليه بالموصول الذي

---

(1) سورة الأنبياء: آية 80.
(2) في ن 3: لما ناسب آية ما اتصل منها بها، وهذا لا يستقيم به المعنى.
(3) سورة الأنبياء: آية 91.
(4) سورة التحريم: آية 12.
(5) في ن 3: البناء، والصواب: الثناء.
(6) في ن 3: التحامل، والصواب: الحامل.
(7) سقط من ن 3.

هو التي، وهي مريم ابنة عمران المفتتح [1] باسمها في آية التحريم، أعيد الضمير هنا إليها من حيث أن ذلك تخصيص وتكريم جليل وآية باهرة، وقد قصد ههنا تشريفها وتشريف ابنها، عليه السلام، بالذكر في قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَٱبْنَهَا آيَةً﴾ [2] ، ولم يقع في آية التحريم ذكر ابنها، فلما اتسع المقصود هنا بذكر من لم يذكر هناك، وقصد من التشريف ما هو أكثر، ناسبه التوسعة في عودة الضمير، فأعيد إلى الذات المطهرة (بجملتها، فقيل)[3]: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾، وأفهم ذلك ما أفهمه الضمير الخاص بمحل النفخ من غير إشكال، وقيل في آية التحريم: «فِيهِ» لعوده إلى الموضع المخصوص على ما يجب، لم يقصد هنا من توسع المدح ما قصد في الأولى، وإنما قصد بآية التحريم تخصيصها في ذاتها بعظيم إيمانها، وتصديقها، وإثباتها في القانتين، وتشبيه حالها في سابق سعادتها بالمذكورة قبلها، واجتماعهما في ضرب المثل بهما للمؤمنين، فالحامل على ذكرها هنا غير الحامل في سورة الأنبياء مع اتحاد الوصف الواقع به التمدح، مع تناظر الألفاظ (وتشاكلها)[4]، وهي [5] قوله تعالى: ﴿ٱلَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَٱبْنَهَا﴾[6]، فاجتمع في هذا الموضع ما قصد من مدحها ومدح ابنها، عليه السلام، مع مضارعة الألفاظ وتشاكلها، فجاء كل على

---

(1) في ن 3: المفتتحة، والصواب: المفتتح.
(2) سورة الأنبياء: آية 91. زيد في ن 3 للعالمين.
(3) سقط من ن 3.
(4) بهامش ن 3.
(5) في ن 3: وفي.
(6) سورة الأنبياء: آية 91.

ما ثبت فيه، ولم يقصد في التحريم غير ذكرها بالحال التي ناسبتها فيها امرأة فرعون، ولم يوسع الكلام بذكر ابنها، عليه السلام، كما ذكر في الأخرى، ولا هنا داعية تشاكل كما هناك[1]، فلهذا ورد الضمير على ما ورد من الخصوص فقيل: «فيه».

والجواب، عن وجه اختصاص كل واحد من الموضعين[2] بالوارد فيه: أن آية الأنبياء وردت منسوقة على آيات تضمنت ذكر جملة من الرسل، موصوفين بخصائص علية وآيات نبوية، أولهم ابراهيم، عليه السلام، ثم ابنه اسحاق ثم ابنه يعقوب ثم نوح ولوط وداود وسليمان وأيوب واسماعيل وإدريس وذو الكفل وذو النون وزكرياء، فلما ذكر هؤلاء العلية، عليهم السلام، بخصائص ومنح ناسب ذلك ذكر مريم وابنها بما منحا عليهما السلام. وأما آية التحريم فمقصود فيها ذكر عظيمتين جليلتين[3] يبين بهما حكم سبقية القدر بالإيمان والكفر، وهما قضية امرأتي نوح ولوط، وإن انضواءهما إلى هذين النبيين الكريمين، عليهما السلام، انضواء الزوجية التي لا أقرب منها، ومع ذلك لم يغنيا عنهما من الله شيئاً، وقصة امرأة فرعون وقد انضوت إلى أكفر كافر، فلم يضرها كفره، ثم ذكرت مريم، عليها السلام، للالتقاء في الاختصاص وسبقية السعادة، ولم يدع داع إلى ذكر ابنها. فلا وجه لذكره هنا، وأما آية الأنبياء فلذكره هناك أوضح حامل، فجاء كل على ما يجب، ولا يمكن فيه عكس الوارد[4]، والله أعلم.

---

(1) في ن 3: ولا هنا عنه تشاغل كل ما هنالك وهذا بعيد عن المعنى المراد.

(2) في ن 3: الوصفين، والصواب: الموضعين.

(3) في ن 3: عظتين جليتين.

(4) في ن 3: ولا يمكن فيه العكس في الوارد.

الآية الثامنة من سورة الأنبياء قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾[1]، وفي سورة المؤمنين: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[2]، للسائل أن يسأل عن قوله في الأولى: «فَاعْبُدُونِ» وفي الثانية: «فَاتَّقُونِ»؟ وفي الأولى: «وَتَقَطَّعُوا» وفي الثانية: «فَتَقَطَّعُوا»؟ وفيها أيضاً: «زُبُراً» ولم يرد ذلك في الأولى؟ وأتبعت الأولى بقوله: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ والثانية بقوله: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾؟ فهذه أربعة مواضع مما يسأل عنها؟

فأقول تمهيداً للجواب: الأمة هنا الملة، وقوله: ﴿وإن هذه﴾ إشارة إلى ملة الإسلام، قال الزمخشري: أي ملة الإسلام هي ملتكم التي يجب أن تكونوا عليها، لا تنحرفون عنها، ملة واحدة وغير مختلفة، وإنا إلهكم إله واحد فاعبدون، والخطاب للناس كافة، قال: والأصل وتقطعتم إلا أن الكلام صرف إلى الغيبة على طريقة الالتفات، كأنه ينفي عنهم ما أسندوه، ويقبح عندهم فعله، ويقول لهم: ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله، قال والمعنى جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً كما تتوزع الجماعة الشيء ويقتسمونه فيصير لهذا نصيب ولذاك نصيب، تمثيلاً لاختلافهم فيه وصيرورتهم فرقاً وأحزاباً شتى، ثم توعدهم بأن هؤلاء الفرق المختلفة إليه يرجعون، فهو يحاسبهم ويجازيهم، هذا معنى كلامه[3].

---

(1) سورة الأنبياء: آية 92-93.

(2) سورة المؤمنين: آية 52-53.

(3) الكشاف 134/3.

ونرجع إلى الجواب (فنقول: الجواب)[1] عن الأول أن سورة الأنبياء لم يرد فيها ذكر لفظ التقوى في أمر ولا خبر من أولها إلى آخرها، وورد الأمر بالعبادة في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[2]. وأما سورة المؤمنين فتكرر فيها ذكر التقوى في ثلاثة مواضع، أولها ــ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[3]، وفي القصة التالية[4] لهذه: ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[5]، وفي ما بعد الآية المتكلم فيها ﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[6]، فروعي في الأولى ما تقدمها، ونوسب بالثانية ما اكتنفها، وأيضاً فإن العبادة مأمور بها ليحصل الاتقاء، فهي مقدمة في الطلب لتحصيل ما يتسبب عنها إذا كانت الإجابة، وعلى ذلك ورد دعاء الخلق، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[7]، وفي سورة المؤمنين المذكورة: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[8]، فالاتصاف بالتقوى ثان عن الاتصاف بالعبادة، فقيل في الأنبياء: «فاعبدون» وفي سورة المؤمنين: «فاتقون»، وكلاهما ذكر على مقتضى

---

(1) سقط من ن 1، ن 2، ن 3.
(2) سورة الأنبياء: آية 25.
(3) سورة المؤمنين: آية 23.
(4) في ن 3: الثانية، والصواب: التالية.
(5) سورة المؤمنين: آية 32.
(6) سورة المؤمنين: آية 87.
(7) سورة البقرة: آية 21.
(8) سورة المؤمنين: آية 23.

الترتيب، وأيضاً فإنا إذا اعتبرنا ما قدم من قصص الرسل في السورتين وجدنا الوارد في سورة الأنبياء مقصوراً على ذكر منحهم وتخليصهم وتأييدهم من لدن قوله تعالى في ابـراهيم: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَـا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ﴾[1] الآيات، إلى قوله: ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[2]، فتضمنت هذه الآي بضعة عشر نبياً، أولهم ابراهيم وآخرهم من أعقب ذكره بالآية المذكورة، وقد اقتصر من قصصهم في هذه الآي على ما يطلع المؤمنين على تكفله سبحانه بالمصطفين من عباده وما اختصهم به، ولم يرد مع ذلك تكذيب قومهم لهم، ولا ما يرجع إلى هذا وكل هذا تأنيس وذكر نعم وآلاء وألطاف يناسبها قوله: «فاعبدون» لكونه أمراً بالعبادة مجرداً عما في قوله: «فاتقون» من التخويف.

وأما الوارد في سورة طه فمتضمن الطرف الذي عدل عنه في سورة الأنبياء، وهو ذكر جواب الأمم للرسل وقبيح تكذيبهم إياهم وشنيع ردهم وقبيح مقالهم كقول قوم نوح، عليه السلام: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُـرِيـدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾[3]، ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾[4]، ثم بالغوا في الاستهزاء[5] بقولهم في إخبار الله تعـالى عنهم: ﴿فَتَرَبَّصُـوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾[6]، وقـول أهـل القـرون المذكورين بعد قوم نوح لنبيهم: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا

---

(1) سورة الأنبياء: آية 51.
(2) سورة الأنبياء: آية 73.
(3) سورة المؤمنين: آية 24.
(4) سورة المؤمنين: آية 24-25.
(5) في ن 3: الاستمرار، والصواب: الاستهزاء.
(6) سورة المؤمنين: آية 25.

تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾[1]، وقوله: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ (إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ)﴾[2] إلى قوله[3]: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَى عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾[4]، وقوله تعالى لما تواتر ذكر إرسال الرسل وتكذيب قومهم لهم فقال تعالى: ﴿كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾[5] إلى قوله: ﴿فَبُعْداً لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[6]، وقال تعالى مخبراً عن قوم موسى: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ﴾[7]، فناسب هذا التخويف بقوله عقب هذا: «فاتقون»، كما ناسب ما تقدم في آية سورة الأنبياء قوله تعالى: «فاعبدون»، ولم يكن ليناسب ورود واحدة منها موضع الأخرى، فجاء كل على ما يجب، ولا يمكن خلافه.

والجواب عن السؤال الثاني، وهو الفرق بين قوله في سورة الأنبياء «وتقطعوا»، وفي سورة المؤمنين «فتقطعوا» بفاء التعقيب: أنه ورد في آي[8] الأنبياء قبل هذه الآية تأنيساً لنبينا صلى الله عليه وسلم قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾[9] وقوله: ﴿فَٱسْأَلُوا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[10]، ثم قال: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً

(1) سورة المؤمنين: آية 33.
(2) سورة المؤمنين: آية 34.
(3) سقط من ن 3.
(4) سورة المؤمنين: آية 38.
(5) سورة المؤمنين: آية 44.
(6) سورة المؤمنين: آية 44.
(7) سورة المؤمنين: آية 46.
(8) في ن 2: آية، والصواب: آي.
(9) سورة الأنبياء: آية 7.
(10) سورة الأنبياء: آية 7.

لَا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾[1] إلى قوله: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾[2]، الآيات، فنبهوا على السؤال، ثم ذكر من قصص الأنبياء أوضحه وأجلاه لمن اعتبر، وأورد ذلك إيراد التلطف بذكر تخليص أولئك العلية، عليهم السلام، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَانُ وَلَداً سُبْحَانَهُ﴾[3]، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَانِ﴾[4]. فهذه الآي في قوة أن لو قيل: نحن نبين لهم وهم يكفرون، فهو سبحانه يذكر لنبيه صلى الله عليه وسلم أحوال الأمم مع الرسل مع مشاهدة الآيات تأنيساً له صلى الله عليه وسلم وتذكيراً بالصبر على قومه، (فعلى)[5] هذا المنهج جرى الوارد من قوله: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ﴾[6] أي نبهناهم[7] على السؤال، وأوضحنا (لهم)[8] أمر من تقدمهم وعاقبة الاستجابة لمن تمسك بهدي المذكورين، وهم مع ذلك على عنادهم وافتراقهم، وكأن الكلام وارد مورد التعجب من أمرهم، ولم يشبه شدة الوعيد ليبقى رجاؤه، عليه السلام، في استجابتهم، فلم يخل معنى الكلام مع الإخبار بتفرقهم عن بعض إبقاء تأنيس مناسباً

---

(1) سورة الأنبياء: آية 8.
(2) سورة الأنبياء: آية 9.
(3) سورة الأنبياء: آية 25-26.
(4) سورة الرعد: آية 30.
(5) سقط من ن 3.
(6) سورة الأنبياء: آية 93.
(7) في ن 3: نهيناهم.
(8) سقط من ن 3.

لما تقدمه، ولهذا لم يقع بعد الآية تسجيل بتصميم[1] على الكفر ولا إمعان في طرف التخويف الوارد في آية المؤمنين من قوله: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[2] إلى قوله: ﴿بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[3] كما في آية الأنبياء آنفاً.

أما قوله في المؤمنين: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾[4] فمنزل على ما قبله منزلة قوله في سورة النحل: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ﴾[5] إلى قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَالَةُ﴾[6]، وهذا وعيد شديد لمن حقت عليه كلمة العذاب ولم يجد عليه التذكار[7]، فكان مجموع هذه الآي في قوة أن لو قيل لهم: قد بين لكم، وأطلعتم على مآل من كذب، وخوطبتم بما قيل للرسل: ﴿كُلُوا مِنَ ٱلطَّيِّبَاتِ وَٱعْمَلُوا صَالِحاً﴾[8]، وملة الكل ملة واحدة، ولم تؤمروا بما لا تطيقونه، فتقطعتم. إلا أن الكلام صرف إلى الغيبة على طريقة الالتفات، كما جرى في سورة الأنبياء فقيل: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ﴾ أي فتفرقوا وما أجدى عليهم القرآن شيئاً، فهذه الآية أشد في التخويف والترهيب من الأخرى، وكل يناسب ما قبله. ولو وردت إحداهما موضع الأخرى لما ناسب، والله أعلم.

---

(1) في ن 3: بتصميمهم.
(2) سورة المؤمنين: آية 53.
(3) سورة المؤمنين: آية 65.
(4) سورة المؤمنين: آية 53.
(5) سورة النحل: آية 36.
(6) سورة النحل: آية 36.
(7) في ن 3: إدكار، وبه يستقيم المعنى.
(8) سورة المؤمنين: آية 51.

والجواب عن السؤال الثالث: أن قوله في آية المؤمنين «زُبُراً» تأكيد لافتراقهم، وانتصابه على الحال الواردة بياناً وتأكيداً لقبح تفرقهم وشنيع مرتكبهم، فناسب ذلك مقصود هذه الآيـة هنا من التخـويف والإنذار، ولم يكن ليناسب آية الأنبياء لبنائها على غير ما قصد هنا، لما تقدمها من تأنيس نبينا صلى الله عليه وسلم، وتعريفه بما منح سبحانه متقدمي الرسل، وما أعقبهم صبرهم على أممهم، وهو، عليه السلام، قد قيل له: ﴿أُولَئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[1]، فقدم له، عليه السلام، في سورة الأنبياء من قصصهم ما ثبت فؤاده، وصار جليل هذا التأنيس مما بنيت عليه السورة، وعلى ذلك جرت سورة مريم وسورة طه على ما مهدته وبسطته في ترتيب هذه السور الكريمة، فمن حيث الإشارة إلى ما ذكر لم يكن ليناسب ذلك تأكيد افتراقهم وتشتتهم[2]، ولما رجع الكلام للآية الثانية، بعد تثبيته، عليه السلام، وتـأنيسه، إلى التعريف بمرتكبات الأمم، وذكر ما استحقوا به ما عوقبوا به، وإن كلاً من المكذبين أخذ بذنبه، كان ذلك مظنة تأكيد المرتكب، فقيل: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً﴾[3]، والله أعلم.

والجواب عن السؤال الرابع: أن تعقيب آية الأنبياء بقوله: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾[4] وإن كان وعيداً وتهديداً فليس في شدة التهديد ومخوف الوعيد كالواقع في سورة المؤمنين، يوضح ذلك ويبينه ما اتصل بكل من الآيتين من قوله في آية الأنبياء: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ

---

(1) سورة الأنعام: آية 90.
(2) في ن 4: تشبثهم، وذلك غير ملائم.
(3) سورة المؤمنين: آية 53.
(4) سورة الأنبياء: آية 93.

فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾[1]، فذكر عند رجوعهم إليه سبحانه جزاء من أجاب وأحسن، وطوى الكلام عن الإفصاح بحكم الطرف الآخر من ذكر من أساء، فلم يجر[2] لهم ذكر مفصح به كما في الطرف الآخر، مع أن إجمال[3] قوله تعالى: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾[4] يقتضي أن لو قيـل: فالمؤمن حكمه كذا والكافر حكمه[5] كذا، ولكن ليس كالمفصح، فلما كان في آية الأنبياء ما قد بين من إغضاء[6] يناسب هذا التأنيس ناسب ذلك إغضاء الكرم وعدم ذكر نقيض الإحسان، (فليس)[7] قوله: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾[8] وما أعقب به من قوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ الآية[9] كقوله في آية المؤمنين: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ﴾[10] وقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[11] فقد وضح مناسبة المتبع به في كل من الآيتين لما تقدمه، ولم يكن ليناسب عكس الوارد، والله أعلم.

* * *

---

(1) سورة الأنبياء: آية 94.

(2) في ن 3: يجد، والصواب: يجر.

(3) في ن 3: احتمال، والصواب: إجمال.

(4) سورة الأنبياء: آية 93.

(5) سقط من ن 3.

(6) في ن 4: إبقاء، والصواب: إغضاء.

(7) سقط من ن 3.

(8) سورة الأنبياء: آية 93.

(9) سورة الأنبياء: آية 94.

(10) سورة المؤمنين: آية 54.

(11) سورة المؤمنين: آية 55-56.

سورة الحج

الآية الأولى منها: غ ـ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ. . .﴾ الآية[1]، وفي سورة المؤمن: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[2]، ففي الأولى ﴿ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ ولم يقع التعريف بهذه الأحوال من الانتقال عن العلقة، وهو الدم المتعقد المتغير عن النطفة، وهو هنا المني المنفصل يصير (هنا)[3] دماً جامداً، ثم يصير مضغة، والمضغة قطعة لحم قدر ما يمضغ مثله، ثم قد يتم سبحانه خلق تلك النطفة وتخطيطها وتصويرها على ما يشاء من هيئة وصورة ولونية كما قال تعالى: ﴿يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾[4]، وقد لا

---

(1) سورة الحج: آية 5، وقد زيد في ن 3 «لكيلا يعلم».
(2) سورة غافر: آية 67.
(3) سقط من ن 3.
(4) سورة آل عمران: آية 6.

يتم [1] ، فينقص من خلقها يشاء من الأعضاء والحواشي، وإلى هاتين الحالتين الإشارة، والله أعلم، بقوله: ﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾، أي تامة الخلق وغير تامة، فأشار تضعيف لفظ مخلقه إلى هذا فقيل مخلقه وغير مخلقه، أما السقط المولود لغير التمام فحصل من مفهوم قوله تعالى بعد: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [2]، إذ مفهوم هذه ــ والله أعلم ــ أن بعض ذلك لا يقره تعالى وهو السقط، هذا ــ والله أعلم ــ مفهوم قوله: «ما نشاء» ودليل خطابه، أما قوله: ﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ فمصرفه ــ والله أعلم ــ إلى ما قدمنا [3]، قوله: ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي الأجل الذي يشاء تعالى إبراز الموجود فيه وولادته، فهذه الانتقالات والأحوال قد اختصت بها هذه الآية، ولم ترد في آية سورة المؤمن مع البادي في اتحاد المقصود في الموضعين، فلسائل أن يسأل عن وجه ما ورد في الآيتين؟

والجواب، والله أعلم: أن آية سورة الحج مقصود فيها إقامة [4] البرهان على البعث الأخراوي وبسط الدلالات على كيفية وإرغام منكريه، ألا ترى أن هذه الأحوال والانتقالات على ما وضح من التدريج لا تكون الا من فاعل قادر مختار عليم حكيم، وقد فسر مقصود هذه الآية وزاده إيضاحاً قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ...﴾ الآيات [5]، وقال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ...﴾ الآية [6]،

---

(1) في ن 3: يتمها.
(2) سورة الحج: آية 5.
(3) في ن 3: ما تقدم هنا.
(4) في ن 3: آية.
(5) سورة يس: آية 78.
(6) سورة الأنبياء: آية 104.

ويزيد هذا المقصود أيضاً بياناً تعقيب آية الحج بقوله: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَـاءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُـلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[1]، فهذا إحياء بعد الموت، ثم قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِـي ٱلْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2]، فتأمل هذا التعقيب وافتتاح الآية بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّـاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ ٱلْبَعْثِ﴾[3]، واعتبر ما انطوت عليه هذه الآي يلح لك مـا تقدم من مقصودها.

أما آية سورة المؤمن فلم تتجرد لهذا الغرض وان تضمنت ذلك بالإيجاز، وإنما بناؤها على تذكير الخلق وتنبيههم على وحـدانيتـه سبحانه وانفراده بالخلق والأمر وتنزيهه عن الشركاء والأنداد ونفي ما عبد من دونه تعالى، وتـأمّـلْ ما تقدم من لدن قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّـمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾[4] الآية المذكورة وما بعدها يَبِنْ لك ما قصد بهذه الآية، وإنما اختصت عن آية سورة الحج بما ذكرنا، واختصت تلك بما تقدم، فلذلك زيد فيها من التفصيل ما تقدم، ولم يكن العكس ليناسب، والله أعلم بما أراد.

الآية الثانية قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾[5]، وفي سورة السجدة: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنْتُمْ

---

(1) سورة الحج: آية 5.
(2) سورة الحج: آية 6.
(3) سورة الحج: آية 5.
(4) سورة المؤمنين: آية 57.
(5) سورة الحج: آية 22.

بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾[1]، هنا سؤالان: الأول قوله في آية الحج: «من غم» ولم يرد ذلك في سورة السجدة؟ والثاني ما أعقبت به كل من الآيتين؟

الجواب عن الأول: أن زيادة قوله: «من غم» في الآية الأولى مناسب لما ورد قبله وبعده من تفصيل الجزاء في الطرفين بعد ذكر الحالين من نعيم أوعذاب لما قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾[2] إلى قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾[3]، وقال في الطرف الآخر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ...﴾[4] إلى قوله: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾[5]، ففصل حال هؤلاء، فناسب هذا زيادة: «من غم»، ونظير هذا التفصيل قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ﴾[6] إلى قوله: ﴿ظِلًّا ظَلِيلًا﴾[7]، والإطناب يناسب الإطناب، ولما قال في سورة السجدة: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ ٱلْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ ٱلنَّارُ﴾[8]، فلم يقع تفصيل في الطرفين، وأوجز الكلام ناسبه الإيجاز، فلم يرد هنا قوله: «من غم»، ونظير هذا في إيجاز الجزاء

---

(1) سورة السجدة: آية 20.
(2) سورة الحج: آية 19.
(3) سورة الحج: آية 21.
(4) سورة الحج: آية 23.
(5) سورة الحج: آية 23.
(6) سورة النساء: آية 57.
(7) سورة النساء: آية 57.
(8) سورة السجدة: آية 19-20.

قوله تعالى جزاء من الطرفين: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [1] وقوله: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [2]، فلم يقع وصف الجزاء ولا تفصيل هذه كآية السجدة من غير فرق، وللإطناب في التفصيل زيد في آية الحج ما حذف للإيجاز في آية السجدة، وورد كل على ما يجب ويناسب، ولم يكن عكس الوارد ليناسب على ما تمهد.

والجواب عن الثاني: أن آية السّجدة لما قيل فيها: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا﴾، والفسق الخروج، وقد يكون إلى معصية دون الكفر، ويكون إلى الكفر وهو المراد هنا، فأعقبت الآية بما يرفع الاحتمال ويوضح أن فسقهم إلى الكفر حين كذبوا بالوعد والوعيد الأخراوي، فقيل لهم: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾[3]، أما آية الحج فتقدم قبلُ ذكر الإفصاح بكفرهم في قوله ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾[4]، فلم يحتج إلى التعريف الوارد في سورة السجدة، فجاء كل على ما يجب ويناسب، ونظير الواقع في آية السجدة وصف النار واتباعها بصفة المعذب بها قوله تعالى في سورة سبأ: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾[5]، لما تنزل عذابهم على الظلم، والظلم يقع على الكفر وعلى ما دونه، فاتبع الوعيد بما يبين أن المراد ظلم التكذيب والكفر لا ظلم معصية دون الكفر، كما بين في

---

(1) سورة النازعات: آية 39.

(2) سورة النازعات: آية 41.

(3) سورة السجدة: آية 20.

(4) سورة الحج: آية 19.

(5) سورة سبأ: آية 42.

سورة السجدة أن المراد بالفسق الكفر لا فسق معصية دونه، فوضح ما قلته. والحمد لله.

فأما ما وقع في هاتين الآيتين من التذكير والتأنيث في الموصول والضمير في قوله: ﴿ٱلَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾[1]، وقوله في الآية الأخرى: ﴿ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾[2]، مع التساوي فيما جرى عليه الوصف، فان ذلك لرجوع الوصف في آية السجدة إلى العذاب وهو مذكر، ورجوعه في آية سبأ إلى النار وهي مؤنثة، ويذكر وجه التخصيص في سورة سجدة لقمان إن شاء الله تعالى.

الآية الثالثة ــ قوله تعالى: ﴿فَكَأَيِّن[3] مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾[4]، وقال تعالى بعد هذا: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾[5]، يسأل عن الفرق الموجب لاختلاف الواقع في الآيتين؟

والجواب: أن الآية الأولى تنزلت على ما ذكر قبلها ممن أهلك من القرون والأمم السالفة بتكذيبهم للرسل، ممن قال فيهم بعد تفصيل ذكرهم: ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾[6]، وأما الآية الثانية فوقع قبلها ذكر استعجالهم العذاب تكذيباً واستبعاداً في قوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾[7]، فعرفوا بأن تأخره عنهم املاء للمكذبين به: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي

---

(1) سورة السجدة: آية 20.
(2) سورة سبأ: آية 42.
(3) في ن 1، ن 2: وكأين، وهو خطأ.
(4) سورة الحج: آية 45، زيد في ن 3 ﴿فهي خاوية﴾.
(5) سورة الحج: آية 48.
(6) سورة الحج: آية 44.
(7) سورة الحج: آية 47.

لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً﴾[1]، وقيل في حالهم في التكذيب واستبعاد وقوع العذاب، قد جرى لمن قبلهم من المكذبين ثم جاءهم ما كذبوا به وحل بهم ما استبعدوه فقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾[2]، فاستعجالهم العذاب أوجب تعريفهم بحال غيرهم ممن ناسب حالهم لعلهم يتذكرون، يزيد[3] ذلك بياناً قوله: ﴿وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾[4]، وكأن الكلام في قوة أن لو قيل لهم: إنما يعجل من يخاف الفوت[5]، أمّا إذا كان مرجع الكل ومصيرهم إليه فيأخذ المكذب متى شاء، وان أخره فإملاء لزيادة مِحَنِه، فوضح ما بين الآيتين، وانه لا يمكن على ما تمهد وقوع واحدة منهما في موضع الأخرى، والله أعلم.

الآية الرابعة من سورة الحج قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾[6]، وفي سورة السجدة: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾[7]، وفي سورة المعارج: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَائِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[8]، يسأل عن وجه الفرق؟ وما معنى تقدير اليوم بما ذكر تعالى؟

---

(1) سورة آل عمران: آية 178.
(2) سورة الحج: آية 48.
(3) في ن 3: فهو، ولا يستقيم به المعنى.
(4) سورة الحج: آية 48، في ن 3: وإلى الله المصير، وهو خطأ.
(5) في ن 3: الفوق، والصواب: الفوت.
(6) سورة الحج: آية 47.
(7) سورة السجدة: آية 5.
(8) سورة المعارج: آية 4.

والجواب عنه، والله أعلم: ان المراد تبيين أفعاله سبحانه، وانه لا تكلف فيها ولا معالجة: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [1]، فكأن قد قيل لهم: إذا شاء عذابكم كان، فانه سبحانه المتعالي عن التعاون والمعالجة والافتقار، فإذا قدر الشيء وأراد انفاذه كان وتحصل في الوقت الوجيز القريب، منه ما تصدرون حصوله ومعالجة وقوعه في ألف سنة من أيامكم أو ما تقدرون تهيئته ونفوذه بألف سنة من أيامكم على مألوفكم [2]، وإذا أراد سبحانه وقوع ذلك كان (عن أمره كن) [3] أعجل من كل عاجل، إذ ليست أفعاله كأفعال خلقه التي يحتاجون فيها إلى العون والعلاج والآلات، تعالى الله عن شبه خلقه، فَلِمَ يستعجلون ما لا تكلف في وقوعه وحلوله؟ فإنما يمنع من استعجاله ربطه بأجل، إذا بلغ الأجل كان وقوعه، وهو يوم القيامة، وهو الأجل المسمى، ومن شاء تعجيل عذابه في دنياه أو ما شاء من امتحانه حل به إذا آن وقته، وتوقفه عمن قدره عليه املاء وزيادة في امتحانه، ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾[4]، ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[5]، وعلى هذا قوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ...﴾ الآية[6]، المراد أن بعد هذه المسافة لا تحول دون استعجال نفوذ تدبيره وإمضاء مقاديره، وأنه

---

(1) سورة يس: آية 32.

(2) في ن 3: على ما لزمكم، والصواب: على مألوفكم.

(3) سقط من ن 3.

(4) سورة الحج: آية 48.

(5) سورة الأعراف: آية 34.

(6) سورة السجدة: آية 5.

سبحانه ليديرها ثم ترجع إليه في وقت لو وُكل ذلك إليكم وكان من مقدوراتكم لفعلتموه في ألف سنة على نحو ما تقدم في الآية الأخرى.

وأما آية المعارج فالمراد باليوم المذكور فيها يوم القيامة، الواقع فيها حساب الخلائق، ووزن أعمالهم، وفصل ما بينهم، إلى استقرار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار، ففيه من الأعمال المتعلقة بالخلق ما يتقدر[1] وقوعه وتخلصه من أيام الدنيا على متعارفها، مع عظيم أهواله وشدة كروبه، وأيام الأهوال والشدائد توصف[2] بالطول لعظيم أهوالها، مع ما يقتضى فيه. مقدر من أيامنا بخمسين ألف سنة، وهو على المؤمن التقي كصلاة صلاها، قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾[3]، ويدل على أن المراد به يوم القيامة ما ذكره الله سبحانه عقب تقديره من وصفه بقوله: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَاءُ كَٱلْمُهْلِ﴾[4] إلى قوله: ﴿ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾[5].

الآية الخامسة من سورة الحج قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[6]، وبعد هذه الآية قوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[7]، يسأل عن وجه الاختلاف فيما ذكر من الجزاء مع اتفاق وصفهم بالإيمان وعمل الصالحات؟

---

(1) في ن 1، ن 2: يتعذر.
(2) في ن 4: فوصف، والصواب: توصف.
(3) سورة المدثر: آية 8.
(4) سورة المعارج: آية 8.
(5) سورة المعارج: آية 14.
(6) سورة الحج: آية 50.
(7) سورة الحج: آية 56.

والجواب عنه أن الآية الأولى إخبار لهم عند دعائهم قبل: أن «آمنوا»، ألا ترى أن قبله أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بما يقول لهم في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[1]، ثم أخبرهم بمـآلهم إن آمنوا من غفران ما تقدم لهم من أعمال المخالفات والمجترحات، والرزق الكريم، ولما ذكر في الآية الأولى حالهم في الدار الأخرى بعد انصرام الدنيا، وحصول اتصافهم بالإيمان وأعمال الطاعات، اخبروا فيها بالحاصل من المغفرة، وبين لهم الرزق الكريم وانه نعيم الجنة والخلود الأبدي فيها، فالآية الأولى تضمنت وعدهم إن آمنوا، وذلك عند دعائهم إلى الإيمان، ويزيدك في ذلك بياناً نداؤهم في دعائهم إلى الاستجابة بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾[2]، ولو كانوا قد حصل لهم الإيمان لَـوُسِمُوا بذلك في خطابهم، فكأن يقال: يا أيها الذين آمنوا، فإنما دعوا بما به (يدعى)[3] من لم يحصل له الإيمان ولا اتصف به، وبشروا إن آمنوا، ثم اخبروا ثانياً بالحاصل لهم بياناً لمضمن[4] البشارة الأولى واخباراً لهم بغاية الجزاء، فالآية الثانية بيان وتفصيل لما أجمل في الأولى، مرتب عليه وآت بعده بما يجب فيما يأتي فيه الإجمال والتفصيل، فكأنهم قالوا: ما الرزق الكريم؟ فقيل لهم: جنات النعيم، فورد كل من الآيتين على ما يجب ويناسب، ولا يلائم ما ورد من الجزاء في الآية الثانية ــ على ما تمهد ــ ما وقع دعاء أو خطاباً

(1) سورة الحج: آية 49.
(2) سورة الحج: آية 49.
(3) سقط من ن 3.
(4) في ن 3: ليضمن.

في الأولى، ولا ما بني على الآية الأولى أن وقع اخباراً في الثانية، بل ورد كل على ما يجب، والله أعلم.

الآية السادسة من سورة الحج قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ ٱلْبَاطِلُ﴾[1]، وفي سورة لقمان: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ٱلْبَاطِلُ﴾[2]، للسائل أن يسأل عن التأكيد بزيادة «هو» في سورة الحج وسقوطه من سورة لقمان؟

ووجه ذلك، والله أعلم: أن سورة الحج ورد فيها ما يستدعي هذا التأكيد بالضمير المنفصل ويناسبه، وهو تكرر الإشارة إلى الهتهم والإفصاح بذكرها تعريفاً بوهن مرتكبهم وشنيع حالهم، وأوضح هذا المتكرر وأشده ملاءمة الإتيان بهذا الضمير المعد[3] فصلاً أو مبتدأ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[4]، وقوله في آخر السورة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾[5]، فهذه الآية والتي ذكرنا قبلها أنسب شيء لقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ ٱلْبَاطِلُ﴾[6]، فورد قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الآية بناء على قوله: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾، وتمهيداً وتوطئه لما وبخوا به بعدها وقرعوا مما لا يجدون

---

(1) سورة الحجّ: آية 62.
(2) سورة لقمان: آية 30، وقد سقط من ن 4.
(3) في ن 1، ن 2: المعتد، وفي ن 3: المعقد.
(4) سورة الحج: آية 31.
(5) سورة الحج: آية 73.
(6) سورة الحج: آية 62.

عليه جواباً من قوله: ﴿لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾[1] إلى قوله: ﴿مَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[2]. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ ٱلْبَاطِلُ﴾[3]، فتأمل عظيم هذه المناسبة والتئام هذه الآية العظيمة، ولو لم تتقدم الآية المتقدمة من قوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾[4] الآية لكانت الآية الأخيرة وهي قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً﴾[5] والتقديم والتأخير مما يرتكبه العرب كثيراً، ويوجد في فصيح كلامهم، ومن نحو هذه الآية التي بينا مفهومها على تقدير التقديم والتأخير قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَٱدَّٰرَأْتُمْ فِيهَا﴾[6]، فتأخر هذا في الترتيب والتلاوة عن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾[7]. وفعلهم متقدم من جهة معناه لأنهم إنما امروا بذبح البقرة عند تشاجرهم في أمر القتيل المشار إليه، فالآيتان في قوة أن لو قيل: وإذ قتلتم نفساً فأدرأتم فيها فأمرتم بذبح البقرة فأوضح لكم ذلك حكم القتيل، فعلى هذا كانت تكون آية سورة الحج لو لم يرد قوله أولاً: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ...﴾ الآية، فكان ترتيب الآية على قصور أفهامنا وما عليه ترتيب الكتاب العزيز أعلى نظماً وأجل، ولكن أفهامنا

---

(1) سورة الحج: آية 73.
(2) سورة الحج: آية 74.
(3) سورة الحج: آية 62.
(4) سورة الحج: آية 31.
(5) سورة الحج: آية 73.
(6) سورة البقرة: آية 72.
(7) سورة البقرة: آية 67، في ن 1، ن 2، ن 3: فالإتيان، والصواب: فالآيتان.

قاصرة: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَو ٱجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[1] ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ ٱلْبَاطِلُ﴾[2]، فقدم واخر لعامل أيضاً على التقديم والتأخير لسنا الآن له، فهذه كآية البقرة سـواء، ولما لم يقع في سورة لقمان مثل هذا لم يرد فيها التأكيد، وذلك أبين شيء وأنسبه، وإعراب هذا الضمير مبتدأ أو فصلاً، وثمـرته التـأكيد لما ذكر، والله أعلم.

الآية السابعة من سورة الحج: «قوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[3]، وفي سورة لقمان: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[4]، للسائل أن يسأل عن زيادة «ما» في قوله في الآية الأولى: ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؟ وزيادة لام الابتداء المؤكدة في الجملة التي هي خبر إن وسقوط الحرفين في آية لقمان؟

والجواب: أن الزيادتين معاً للتأكيد، لا تدخل اللام الخبرَ لغير ذلك، وتكرار الموصول أيضاً لذلك فدخلتا في آية الحج لما قدرت الآية قبلها من السورة من بنائها على مقصود التأكيد فجواب هذين السؤالين حاصل مما تقدم، والله أعلم.

* * *

---

(1) سورة الحج: آية 73-74.
(2) سورة الحج: آية 62.
(3) سورة الحج: آية 64.
(4) سورة لقمان: آية 26.

سورة المؤمنين

الآية الأولى منها قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ٱبْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ هُمُ ٱلْوَارِثُونَ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1]، وفي سورة المعارج: ﴿إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعاً إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ وَٱلَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَٱلْمَحْرُومِ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ وَٱلَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ فَمَنِ ٱبْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَٱلَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾[2]، للسائل أن يسأل عما اختلف في هاتين السورتين من هذه الأوصاف بالتكرر فيهما والزيادة مع اتحاد مرماهما من ذكر حِلي[3] المؤمنين وأوصافهم التي بها نجاتهم بتوفيق الله إياهم؟ ففي

---

(1) سورة المؤمنين: آية 1-11.

(2) سورة المعارج: آية 19-35.

(3) في ن 1، ن 2: حالي، والصواب: حلي.

الأولى: ذكر الخشوع في الصلاة، والإعراض عن اللغو، والتنصيص على الزكاة، ولم يرد إفصاح بهذه الخصال الثلاث في سورة المعارج، وفي سورة المعارج المداومة على الصلاة، وتعيين ذوي الحق في المال بأنهم السائل والمحروم، وذكر التصديق بيوم الدين، والدين الجزاء، وذكر الإشفاق من عذاب ربهم وأنه غير مأمون، وذكر القيام بالشهادة، ولم يقع إفصاح بهذه الخصال الخمس من سورة المؤمنين، وتوارد على الاتفاق في السورتين التساوي على حفظ الفروج، وذكر الأمانة، والعهد، والمحافظة على الصلاة، أربعتها، فهذه ثلاثة سؤالات: أحدها التكرر والاتفاق؟ والثاني وجه ما اختصت به سورة المؤمنين؟ والثالث (وجه)[1] ما اختصت به سورة المعارج؟

والجواب عن الأول: أن حفظ الفروج أحد الأصول الخمسة التي اتفقت فيها الشرائع، ولم يخالف فيها أحد من العقلاء، وهي: حفظ النفوس، والأموال، والفروج، والعقول، والأعراض.

وأما الأمانة فلا يتم حفظ هذه الخصال إلا بها، فهي الأصل لتلك الأصول، والضابط لجميع التكاليف، وزمام الأديان، وفي الحديث: «الدين الأمانة ولا دين لمن لا أمانة له»[2]، وهي التي عرضت على السّماوات والأرض والجبال فأبت عن حملها، وهي بالجملة ملاك الدين.

وأما الوفاء بالعهد فَلاَحِقٌ بالأمانة في نصاب التأكيد، قال تعالى:

---

(1) سقط من ن 3.

(2) مسند أحمد 135/3.

﴿وَأَوْفُوا بِٱلْعَهْدِ﴾[1]، وتكرر الأمر بذلك لعظيم قدر الأمانة و (العهد)[2].

وأما المحافظة على الصلوات، رعياً لأوقاتها، وكيفية آدائها، وما تنطوي عليه من جميع مطلوباتها ومتعلقاتها، وما تستلزمه وتستتبعه[3] حتى تكون ناهية عن الفحشاء والمنكر، فذلك كل الدين، والمعبر به عن أخص صفات الناجين[4] في قوله تعالى إخباراً عن جواب الهالكين: ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾[5]، فموقع هذه الخصال الأربع وضمها لما سواها من المطالب الإيمانية، وآشتمالها على جميعها، أوجب تعيينها بالذكر، ولم يكن ليحصل من ذكر غيرها ما حصل من[6] التنصيص، عليها فتكررت[7] في السورتين، ونص فيهما عليها لأنها أمهات لما سواها.

فإن قلت: فإن الزكاة شقيقة الصلاة في التأكيد لأنها أم العبادات المالية، ولهذا قاتل أبوبكر مانعيها[8] ورجع الصحابة، رضي الله عنهم، إلى قوله، وقل ما يرد الأمر بالصلاة في كتاب الله إلا مقروناً به الأمر بالزكاة، قال تعالى:

---

(1) سورة الإسراء: آية 34.
(2) سقط من ن 3.
(3) في ن 1، ن 2: تستتبه، ولا يستقيم بذلك المعنى.
(4) في ن 1، ن 2: التأخير، وبه لا يستقيم المعنى.
(5) سورة المدثر: آية 43.
(6) في ن 3: على، والصواب: من.
(7) في ن 3: فكررت.
(8) في ن 3: مانعها.

﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتَوا ٱلزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾[1]، وهذا هو الذي تهدى إليه الصديق، رضي الله عنه، غير متذكر في الوقت والله أعلم للآية، وإذا وضح ذلك فللقائل أن يقول: فلم لم تذكر مع أنها من الأمهات؟ والجواب عن هذا ــ والله أعلم ــ أن وصف الحق بمعلوم في قوله: ﴿فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ﴾ جار مجرى الافصاح بذكر الزكاة، إذ لا مطلوب معلوماً مقدراً في المال إلا الزكاة، فقام الوصف مقام الافصاح بذكرها.

والجواب عن السؤال الثاني، وهو وجه ما خصت[2] به آية المؤمنين، وهو أنه افتتحها تعالى بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، والمفلح الظافر ببغيته، ابتدأ من أوصاف المفلحين بأجلّ خصالهم، وهو خشوعهم في صلاتهم المنبىء بعظيم خوفهم الذي لا يمكن معه تفريط ولا فتور في العبادة، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾، ومن أعرض عَنِ اللغو سلم من كل ما يشين دينه، وحصل من هذا وما قبله ترك المخالفات جملة، ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ للزَّكَـاةِ فَاعِلُونَ﴾[3]، وهذه أخت الصلاة، قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا ٱلصَّلَاةَ وَآتَوا ٱلزَّكَـاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾[4]، وقال بعد: ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي ٱلـدِّينِ﴾[5]، وقد حصـل بحصول هـذه الخصائص ما به وصف المتّقون في قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[6]، فوضح منه أن هذه أخص صفات من

---

(1) سورة التوبة: آية 5.
(2) في ن 1: اختصت، وهو فصيح.
(3) سورة المؤمنين: آية 4.
(4) سورة التوبة: آية 5.
(5) سورة التوبة: آية 11.
(6) سورة البقرة: آية 3-5.

أفلح وفاز برضى الله سبحانه، فهذا ما أوجب تخصيص هذه السورة بالإفصاح بهذه الأوصاف الثلاثة.

وأما ما خصت به سورة المعارج ــ وهو الجواب الثالث ــ فإنه سبحانه لما وصف الإنسان بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنْسَـانَ خُلِقَ هَلُوعاً﴾[1]، والهلوع الفزع الشديد يقال هلِع بكسر ثانيه فهو هلع وهلوع[2]، ثم ذكر سبحانه ما يثمره للإنسان هلعه فقال: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَـزُوعاً﴾[3]، والجزع[4] ضد الصبر، ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعاً﴾[5] والمنع ضد الإعطاء وكلا الوصفين[6] من الجزع والمنع مذموم، مأمـور شرعـاً بضدهما من الصبر والايثار، وقد أثنى سبحانه على الصابرين والمؤثرين، فالهلع من أرذل صفات الإنسان، فذكر تعالى صفات من سلم منه، وأنهم المداومون على صلاتهم، لأن المداومة على الصلاة عنوان على تلقي الأوامر بالقبول والامتثال، ولا يكون ذلك إلا عن يقين[7] صادق، وقد قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَاةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾[8]، ومن تيقن أن خالقه تكفل له برزقه أجمل في الطلب، وذهب عنه الجزع، ومن علم الحق في ماله من زكاة مفروضة أو صدقة مندوب إليها لم يكن منوعاً للخير، فإذا اتصف بما ذكر، وكان ذلك

---

(1) سورة المعارج: آية 19.

(2) في ن 3: هلوعاً بالنصب وهو خطأ.

(3) سورة المعارج: آية 20.

(4) في ن 3: الجزوع، والصواب: الجزع، ويؤكده ما بعد.

(5) سورة المعارج: آية 21.

(6) في ن 3: الموضعين، والصواب: الوضعين.

(7) في ن 3: نفس، والصواب: يقين.

(8) سورة طه: آية 132.

عن[1] تصديق يقيني بيوم حسابه، وإشفاق من عذاب ربه وعقابه، ولم يأمن المكر ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَاسِرُونَ﴾[2]، فمن كان هكذا فليس بهلوع، فلهذا استثنى من اتصف بهذه الصفات الجليلة عن مسببات[3] الهلع من المنع والجزع، فهذا وجه تخصيص هذه السورة بالافصاح بما خصت به من هذه الأوصاف مفصحاً به.

وإنما قلت: مفصحاً به لأن ما ذكر في هذه السورة مما لم يقع به إفصاح في سورة المؤمنين داخل تحت ما ذكر هناك، كما أن ما أفصح به هناك داخل تحت ما ذكر مفصحاً به هنا. ألا ترى أن أفعال المكلفين من الأحكام الخمسة وهي: الواجب والمحظور والمندوب والمكروه والمباح، كل ذلك داخل تحت ضابط الأمانة والوفاء بالعهد، ومن أوفى بما عهد عليه الله في أمانة فقد أتى ووفى بجميع التكاليف الشرعية أخذاً وتركاً، وكذا الصلاة الموصوفة تماماً وخشوعاً بأنها ناهية عن الفحشاء والمنكر، إلا أن الإفصاح والتنصيص النطقي حكم[4]، عليه بنينا ما تقدم، فقد وضحت النسبة فيما خصت به كل واحدة من السورتين، ووجه ما اتفقنا في وروده مفصحاً به، والله سبحانه أعلم.

وأما الشهادة فداخلة تحت الأمانة، ووجه تخصيص هذه السورة بالإفصاح بها أنها الثانية في الترتيب الثابت، فاستوفت وأكدت ما أشير إليه في الأخرى، والله أعلم.

---

(1) في ن 1، ن 2: على، وعن أنسب.
(2) سورة الأعراف: آية 99.
(3) في ن 3: سيئات.
(4) في ن 3: حكمًا، والصواب: حكم بالرفع.

الآية الثانية من سورة المؤمنين قوله تعالى في قصة نوح عليه السلام: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾[1]، وفي القصة الثانية بعدُ: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ ٱلْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾[2]، في هاتين الآيتين سؤالان، الأول: لِمَ قدم المجرور في القصة الثانية على الصفة فقيل: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾[3] ولم يؤخر عنها كما ورد في قصة نوح مع الاتفاق في وصف الملأ في القصتين بالكفر؟ والسؤال الثاني: وجه[4] زيادة ما عطف على الوصف بالكفر في القصة الثانية من قوله: ﴿وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ ٱلْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾[5] مع استحقاقهم العذاب بمجرد كفرهم، فما ثمرة الزيادة عليه؟

والجواب عن الأول: أن المجرور الذي هو: «من قومه» رافع إمكان أن يكون القائلون غيرهم. ويليه في الحاجة إلى ذكره وَسْمُهم بالكفر، لأنه سبب أخذهم وهلاكهم، إلا أنه لما كان قد يفهمه سياق الكلام لم يلزم الافصاح (به)[6] في كل موضع وإن أفصح به هنا، ألا ترى أنه لم يرد في قصة نوح، عليه السلام، من سورة الأعراف[7]، أما

---

(1) سورة المؤمنين: آية 24.
(2) سورة المؤمنين: آية 33.
(3) سورة المؤمنين: آية 33.
(4) في ن 3: وصف، والصواب: وجه.
(5) سورة المؤمنين: آية 33.
(6) سقط من ن 1، ن 2.
(7) سورة الأعراف: آية 60، ﴿قال الملا من قومه إنا لنراك في ضلال مبين﴾.

الإفصاح[1] بالمجرور فالإفصاح به أو بضمير يقوم مقامه ضروري لا بد منه ليحصل منه تخصيص الحكم بمن تقدم كما لو قيل: قالوا، ثم حيث يفيد تأكيداً في البيان أو زيادة في التخصيص اعتناء برفع المفهوم ورفع آحتماله جملة يقدم في فصيح الكلام وإن كان فضلة ومنه:

لتقــربن قــربــا جلزيــا ما دام فيهن فصيل حيا[2]

أي ما دام في هذه النوق، فرفع بتقديم المجرور احتمال أن يكون المراد ما دام في الوجود، وقد تقدم مثل هذا، فكما يقدم على الخبر فكذلك يقدم على الصفة للحاجة إليه.

فإن قلت: لا فرق بين هذه القصة وقصة نوح قبلها في الحاجة إلى هذا المجرور أو ما يقوم مقامه فَلِمَ لَمْ يقدم هناك؟ قلت: لم يرد هناك غير صفة واحدة جعلت مع موصوفها كشيء واحد وإن كان الوصف بموصول[3]، والموصول يطول بصلته، إلا أن طوله بصلته لا يزيله عن تقديره باسم واحد، فمن حيث جعلت الصفة مع موصوفها كشيء واحد للحاجة إليها، وكونها مفردة، قرنت بموصوفها وتأخر المجرور، فقال تعالى: ﴿(فَقَالَ)[4] ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾[5]، وحيث لم يقع الاكتفاء بصفة واحدة وزيد عليها، ولا يمكن جعل صفتين فما زاد مع موصوفها كشيء واحد، قدم المجرور، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِنْ

---

(1) في ن 3: التخصيص.
(2) البيت لابن ميادة الرماح بن أبرد، البحر الرّجز.
(3) في ن 3: وإن كان الوصف وإن كان بموصول، وهو خلل.
(4) سقط من ن 3.
(5) المؤمنين: آية 24.

قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ ٱلْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾[1]، فوقع المجرور في كل من الآيتين على ما يجب، وعطفت الصفات بعضها على بعض لورودها غير صفة.

والجواب عن السؤال الثاني: أن وجه الزيادة على الوصف بالكفر في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ[2] ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ ٱلْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾[3] (أنها)[4] منبئة[5] بأن المذكورين في القصة الثانية ليسوا في شمول الكفر إياهم واستيلائه على معظمهم كقوم نوح، عليه السلام، بل الإيمان[6] في هؤلاء أفشى وأكثر، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا[7] هُوداً وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾[8]، ولم يقع هنا وصف من آمن من قوم هود بقلة ولا بكثرة، فبقي الاحتمال في الطرفين على حد سواء، إلا أنه ورد في وصف الملأ المكذبين من قوم هود في هذه السورة، ممن أفصح بالرد والتكذيب وصد الناس عن آتباعه، ما يشعر بأنهم[9] ليسوا أكثر قومه، وذلك لما وصفهم به بعد الكفر من التكذيب والإتراف وهو التنعم والترفه[10]، والعقل

---

(1) سورة المؤمنين: آية 33.
(2) في هامش ن 3.
(3) سورة المؤمنين: آية 33.
(4) سقط من ن 3.
(5) في ن 3: مبينة.
(6) في ن 2: بالإيمان، والصواب: بل الإيمان.
(7) بهامش ن 3.
(8) سورة هود: آية 58.
(9) في ن 2: انهم، والصواب: بأنهم.
(10) في ن 3: السرف وهو مناسب.

شاهد أن المترفين ليسوا جميعهم، أما الكفر فلا يبعد اتصاف أمة بأسرها به، ويبعد اتصاف جميعهم بالامتداد في التنعم والترفه، بل ذلك يمتنع به أن يتصف به الأكثر، فأشعر وصفهم بما ذكر بعد كفرهم بكثرة ما ذكر فيمن عداهم بخلاف الحال في قوم نوح، وأشعر أيضاً بامتدادهم وتمكنهم في دنياهم أكثر من غيرهم، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَادِ﴾[1]، فأشعرت زيادة الوصف بتوسع الحال وامتداد الآماد، فلم يكن بد من وصفهم بما ذكر.

الآية الثالثة من سورة المؤمنين ــ قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْداً لِلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ﴾[2]، ثم قال تعالى عند ذكر القرون: ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[3]، فقال في الأولى: ﴿فَبُعْداً لِلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ﴾[4] ثم قال في الثانية: ﴿فَبُعْداً لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[5]، للسائل[6] أن يسأل عن الفرق؟

والجواب، أن الآية الأولى في أمة معينة، قد بين حالها وقبيح مرتكبها، وتحصل العلم بكفرهم وظلمهم أنفسهم، فقيل: ﴿فَبُعْداً لِلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ﴾[7]، ووقوع اسم الظلم عليهم على أتم ما يقع عليه، من عدم

---

(1) سورة الفجر: آية 6-8.

(2) سورة المؤمنين: آية 41.

(3) سورة المؤمنين: آية 44.

(4) سورة المؤمنين: آية 41.

(5) سورة المؤمنين: آية 44.

(6) في ن 3: فللسائل.

(7) سورة المؤمنين: آية 41.

الإيمان، وارتكاب العظائم من كفر وتكذيب وقبيح[1] الرد، على ما تفصل في الآي قبلها، وأما قوله بعد: ﴿فَبُعْداً لِقَوْمٍ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾[2] فورد[3] عقب إجمال إخبار بطوائف وأمم اجتمعوا في التكذيب ورد ما جاءتهم به رسلهم، فأعقب بوصف إذا وجد كان ما سواه[4] من قول وعمل مناسباً له وبحسبه وهو عدم الإيمان، ولم يكن وصفهم بالظلم ليعطي ذلك لوقوعه على الظلم بالكفر وعلى الظلم بمعصية والمعصية ليست كفراً، ألا ترى أن بعض من يقع عليه اسم الظلم ويوسم به قد يكون مبقى عليه اسم الإيمان، بل لم يقترن به ما يقتضي كفره، أما من اتصف بعدم الإيمان فلا فلاح معه، فلما اجتمع هؤلاء الطوائف في عدم الإيمان وُسِمُوا به. ولما كان عدم الإيمان حاصلاً لمن تقدم بما ذكر من تكذيبهم وأخذهم بالصيحة وجعلهم غثاء أعقب وصفهم بما ينبىء بالزيادة على كفرهم، إذ الكفر حاصل.

فإن قلت: فقد تقدم في وصف هؤلاء الأمم: ﴿كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾[5]، وحصل من ذلك عدم إيمانهم فلم كرر؟ ولِمَ لَمْ يوصفوا بالظلم؟ قلت: لم يقع في ذكر هؤلاء تفصيل مرتكباتهم كما ورد فيمن تقدمهم، فناسب إجمال الواقع من التكذيب إجمال الوصف بعدم الإيمان، وجاء كل من ذلك على ما يجب، والله أعلم.

---

(1) في ن 3: قبح.
(2) سورة المؤمنين: آية 44.
(3) في ن 3: فوردت، والصواب: فورد لعودته على قوله.
(4) في ن 3: ما في سواه، والصواب: ما سواه.
(5) سورة المؤمنين: آية 44.

الآية الرابعة من سورة المؤمنين ــ قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[1]، وفي سورة النمل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[2]، للسائل أن يسأل عن تقديم المضمر المذكور والمعطوف عليه على المفعول الذي (هو)[3] «هذا» في آية المؤمنين وعكس ذلك في آية النمل؟

والجواب عنه، والله أعلم: أنه لما تقدم قبل آية المؤمنين قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا ٱلْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[4]، فتقدم التعريف في هذه الآية أن آباءهم قد جاءتهم الرسل، وانذروا كما أنذر هؤلاء، لهذا قالوا: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[5]، ولما لم يتقدم في آية النمل ذكر إنذار آبائهم كان أهم شيء ذكر الموعود به الذي هو «هذا»، فقالوا: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا﴾.

الآية الخامسة ــ قوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[6]، ثم قال في الآية التي تليها: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[7]، وفي (الآية)[8] التالية: ﴿سَيَقُولُونَ

(1) سورة المؤمنين: آية 81-83.
(2) سورة النمل: آية 67-68.
(3) سقط من ن 3.
(4) سورة المؤمنين: آية 68.
(5) سورة المؤمنين: آية 83.
(6) سورة المؤمنين: آية 84-85.
(7) سورة المؤمنين: آية 87.
(8) سقط من ن 3.

لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾[1]، للسائل أن يسأل عن الوجه فيما أعقبت به كل آية من هذه؟

والجواب عن ذلك بوجهين: أحدهما. أن كل توبيخ أعقب به في الآيات الثلاث مناسب للتذكير الواقع قبله المترتب عليه الجواب بالتوبيخ، أما الأولى فإنه لما قيل فيها: ﴿قُلْ لِمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2]، والمراد الأرض ومن فيها وما فيها وما اشتملت عليه من بحارها وأنهارها وأشجارها وجبال إرسائها ومختلف عوالمها وما انطوت عليه واشتملت، هذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا﴾[3]، فوقع الاجتزاء بمن فيها عما فيها إيجازاً لحصول[4] ذلك في قوة الكلام، كما قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾[6]، وليس المراد في هاتين الآيتين تخصيص ما تقع عليه «من» فكذلك[7] قوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا﴾[8]، إذ مقصود الآية الاعتبار والاستدلال بمصنوعاته (سبحانه)[9] على انفراده بالخلق والأمر، قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾[10] فكأن

---

(1) سورة المؤمنين: آية 89.
(2) سورة المؤمنين: آية 84.
(3) سورة المؤمنين: آية 84.
(4) في ن 3: بحصول، والصواب: لحصول.
(5) سورة يونس: آية 66.
(6) سورة مريم: آية 40.
(7) في ن 3: وكذلك.
(8) سورة المؤمنين: آية 84.
(9) سقط من ن 1، ن 2.
(10) سورة الذاريات: آية 20.

قد قيل لهم إذا أقررتم بأن ذلك (كله)[1] ملك الله تعالى [2] وخلقه فهلا اعتبرتم بما في الأرض من الآيات، واستدللتم بذلك على نفي الشريك والند للمنفرد بملك الأرض والسماوات إذ ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [3] ﴿وَلاَ تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [4] ، وهلا استدللتم بتكرر إنبات[5] النبات وعودة إخراج الثمرات على إحياء الأموات ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [6]، ثم لما قال [7] تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ ٱلسَّمَاوَاتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [8] ، وذلك الخلق أعظم من خلقكم [9] وخلق الأرض الحاملة لكم[10]، وأخبر بقوله ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾[11] فقل لهم إذا أقررتم أنه مالك ذلك على عظيم أمره أفلا أتقيتموه إذ أنتم في قبضته بإقراركم، ثم لما قال: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[12] (فبلغوا)[13] بالاقرار بذلك مع (عظيم)[14] ما قرروا عليه قبله مبلغ غاية

---

(1) سقط من ن 1، ن 2.

(2) في ن 3: لله تعالى، وهو مناسب.

(3) سورة الأنبياء: آية 22.

(4) سورة الأعراف: آية 3.

(5) في ن 3: آيات، وقد زيدت بالهامش.

(6) سورة الأعراف: آية 57.

(7) في ن 3: ثم قال لنا قال.

(8) سورة المؤمنين: آية 86.

(9) في ن 1، ن 2: خلقهم.

(10) في ن 1، ن 2: لكم من خلقكم.

(11) في كل النسخ فسيقولون الله، والصواب: ﴿سيقولن لله﴾ من سورة المؤمنين: آية 87.

(12) سورة المؤمنين: آية 88.

(13) بهامش ن 2.

(14) سقط من ن 1، ن 2.

توجب الإيمان للمعتبر بما قيل لهم وذكروا به من علم هذا، وقيل لهم من علم هذا ثم لم يطع[1] من له ذلك ويفرده تعالى بالعبادة فهو مسحور ﴿فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾[2] أي كيف تسحرون؟

والجواب الثاني، وهو أجرى مع ظاهر الآية[3]، من غير تكلف تقدير[4]، وليس بخلاف للأول[5] إلا في عبارة، وهو أن تقول: إن تذكيرهم ورد أولاً بذكر ما كانوا يقرون ولا يتوقفون فيه وهو ملكه سبحانه الأرض ومن فيها قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[6]، والخالق مالك لما خلقه، فكأن قد قيل لهم: إذا علمتم بانفراده سبحانه بذلك فهلا أفردتموه بالعبادة واستدللتم بالبدأة[7] على العودة ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟ ثم ذكروا بربوبيته سبحانه وملكه السماوات السبع والعرش، فاعترفوا إلى اعترافهم بما تقدم وإقرارهم بملكه لما ذكر وقدرته وقهره. ولو سبقت لهم سعادة لكان تذكرهم لذلك يؤثر خوفهم من عذابه، فلما لم يقع ذلك منهم قيل لهم: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[8]، ثم ذكروا بعظيم سلطانه تعالى، وعلو قهره لجميع الموجودات، وكونها في قبضته، وأنه لا حكم لأحد عليه تعالى فقال: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ

---

(1) في ن 3: يطلع، والصواب: يطع.
(2) سورة المؤمنين: آية 89.
(3) في ن 3: تظاهر الآية والصواب: ظاهر الآية.
(4) في ن 3: تقرير، والصواب: تقدير.
(5) في ن 1، ن 2: الأولى.
(6) سورة لقمان: آية 25.
(7) في ن 3: البداية.
(8) سورة المؤمنين: آية 87.

يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1]، ثم ذكر اعترافهم بهذا في قوله: ﴿سَيَقُولُونَ[2] لِلَّهِ﴾[3]. فلما تم تقريرهم على جميع ما تقدم مما ذكروا به، واعترافهم بكل ذلك، ولم يعقبهم إقرارهم ولا اعترافهم الإيمان والانقياد، كانوا كمن فقد عقله أو سحر، فاختل نظره وعقله، فقيل لهم: كيف تسحرون ما بالكم أنى تستحرون؟ ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ عَالِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[4]، فقد وضح تناسب هذا كله، وتبين التحامه.

* * *

---

(1) سورة المؤمنين: آية 88.

(2) في كل النسخ: فسيقولون، والصواب: سيقولون.

(3) سورة المؤمنين: آية 89.

(4) سورة المؤمنين: آية 91-92.

سورة النور

الآية الأولى (منها)[1] قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾[2]، (وبعد ذلك)[3]: ﴿(وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ)[4] وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[5]، يسأل عن وجه الاختلاف في المعطوفات[6] في الآيتين من الصفات العلية إخباراً من قوله في الأولى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾[7] وفي الثانية: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[8]؟ وهل كان يناسب عكس الوارد؟

والجواب أن الآية الأولى لما انبنت على آية التلاعن، وفيها من الستر على المسلمين ممن امتحن بتلك البلية، ومن إخفاء الحكمة في حكم التلاعن وشرعيته على ما استقر (عليه)[9] أمره، مما يعجز عن فهمه كل معتبر، أعقبت بالصفتين المناسبتين لما ذكرنا مما هو غير خاف فقيل:

---

(1) سقط من ن 3.
(2) سورة النور: آية 10، في ن 1: وإن الله رؤوف رحيم، وهو خطأ.
(3) سقط من ن 1، وفي ن 2 وبعدها.
(4) سقط من ن 1، ن 2.
(5) سورة النور: آية 20.
(6) في ن 1، ن 2: المعطوف.
(7) سورة النور: آية 10.
(8) سورة النور: آية 20.
(9) سقط من ن 2.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾[1]، ولما تقدم قبل الآية[2] الثانية قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ ٱلْفَاحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾[3]، وجرى بظاهر هذه الآية من الوعيد ما يشتد خوف كل مؤمن (منه)[4]، أعقب ذلك بصفتين مبقيتين رجاء المؤمنين، ومشعرتين[5] بأن هذا العذاب ان نفذ الوعيد به ليس الخلود في النار، ما لم يكن من فاعل ذلك كفر باعتقاد حلية تلك المعصية أو التكذيب بالوعيد أو التلبس بما هو كفر، وأنه إذا لم يكن شيء من هذا فلا قاطع عن التوبة، فقال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رؤوف رَحِيمٌ﴾[6]، فقد وضح أن ورود كل من هذه الصفات المعطوفة على ما يجب ويناسب، وان العكس لا يناسب، والله أعلم.

ومما يسأل عنه هنا جواب لولا كيف تقديره ولم حذف؟ وان لم يكن هذا من مقصود هذا الكتاب. والجواب عنه ان التقدير في الآية الأولى: لَفَضَحَ فاعلَ ذلك، أو ما يرجع إلى هذا، وجوابها في الثانية: لَعَجَّل[7] عذابَ فاعِل ذلك من حيث إشاعة الفاحشة في المؤمنين، أو لأَهْلَكَهم، وأما مسوغ الحذف فطول الكلام بالمعطوف، والطول داع للحذف فحذف ذلك، ولدلالة ما تقدم عليه وذلك كثير في كلامهم.

---

(1) سورة النور: آية 10.
(2) في ن 3 في الآية، ولا داعي لحرف الجر هنا.
(3) سورة النور: آية 19.
(4) سقط من ن 3.
(5) في ن 1، ن 2: مشيرتين، ومشعرتين أنسب.
(6) سورة النور: آية 20، في ن 3: رؤوف بالعباد، وهذا خطأ.
(7) في ن 2: تعجيل.

الآية الثانية من سورة النور قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1]، ثم قال: [2] ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَالُ مِنْكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا ٱسْتَأْذَنَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ (وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)﴾[3]، للسائل أن يقول: لم قال في الأولى: «الآيات» وفي الثانية: «آياته؟»

والجواب انه لما تقارب اللفظ الواحد عدل عن تكراره بلفظ واحد فيما تقارب، على عادة العرب في استثقالها تكرر اللفظ الواحد بعينه في بيت واحد من الشعر أو ما تقارب من الكلام، ما لم يحمل على ذلك حامل من المعنى، فجيء بالآيات في الأولى معرفاً بالألف واللام للعهد فيما تقدم من المعتبرات الواضحة الدلالة، وفي الآية الثانية مضافاً إلى الضمير (المتصل)[4] لتحصل نسبة الآيات لمن هي له تعالى، كانت الثانية هي المضافة لأنها مع ما تعطيه من النسبة مبينة للأولى بياناً تأكيدياً، إذ من المعلوم أنها آياته سبحانه، فجاء ذلك على ما يجب، ومن الوارد على هذا الرعي ـ والله أعلم ـ قوله في سورة البقرة ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[5]، ثم قال تعالى بعد آي: ﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ[6] لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[7]، فهذا مثل الوارد في سورة البقرة، والله أعلم.

---

(1) سورة النور: آية 58.
(2) سورة النور: آية 59.
(3) سقط من ن 3.
(4) سقط من ن 3.
(5) سورة البقرة: آية 219.
(6) في ن 3: ويبين الله آياته، وهو خطأ.
(7) سورة البقرة: آية 221.

سورة الفرقان

الآية الأولى (منها)[1] قوله تعـالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِـهِ آلِهَةً لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾[2]، وفي سورة يسٓ: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ﴾[3]، للسائل أن يسأل عن ورود اسمه سبحانه مضمراً في قوله سبحانه ﴿من دونه﴾ في سورة الفرقان ومظهراً في قوله ﴿من دون الله﴾ في سورة يسٓ ما وجه ذلك؟

والجواب عنه: أن آية الفرقان تقدم قبلها اسمه سبحانه مكنياً عنه جل وتعالى في قوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ٱلَّذِي لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾[4]، فورد اسمه سبحانه مكنياً عنه ثماني مرات: أولها الموصول[5] (وهو)[6] الذي من قوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي﴾، وفاعل نزل المضمر، والضمير[7] في ﴿عَبْدِهِ﴾

---

(1) سقط من ن 3.

(2) سورة الفرقان: آية 3.

(3) سورة يس: آية 74.

(4) سورة الفرقان: آية 1-2.

(5) في ن 3: الوصول، والصواب: الموصول.

(6) سقط من ن 3.

(7) في ن 3: المضمر.

والموصول الثاني، والضمير المجرور باللام، والضمير الفاعل في ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً﴾، والضمير في «له» المجرور، والضمير الفاعل في ﴿خَلَقَ﴾، فلما تكرر اسمه مكنياً عنه ثماني مرات جرى بعد ذلك في قوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ﴾ مضمراً على حكم ما تقدم، ولو ورد مظهراً[1] لم يكن ليناسب، وأما الوارد في سورة يٓس فتقدم قبل الآية قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[2]، فلم يكن ورود اسم الله تعالى هنا مضمراً ليناسبه لو قيل: واتخذوا من دونه لما تقدم قبله ذكر الشيطان وتحذيرهم من عبادته، فجاء كل من الآيتين على ما يجب ويناسب.

* * *

(1) في ن 3: مظهر، والصواب: مظهراً بالنصب.
(2) سورة يس: آية 60.

سورة الشعراء

الآية الأولى (منها) [1] قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ [2]، وفي سورة الزخرف: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ [3]، للسائل أن يسأل عن تخصيص خبر إن هنا بزيادة لام التأكيد وحذفها من الأولى؟

والجواب: أنه لما كان قول السحرة ﴿لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ [4] جواباً لفرعون لما توعدهم بقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [5] فجاوبوه بقولهم «لا ضير» ـ أي لا ضرر ـ «انا إلى ربنا منقلبون»، أي إذا فعلت بنا ذلك فإنا منقلبون إلى ربنا ومجازون على صبرنا، فجاوبوه معزين أنفسهم ومتناسين بما ينتظرون من الثواب وعظيم الجزاء بسبقهم إلى الإيمان وصبرهم أن فعل بهم ذلك الامتحان، فليس موضع قسم ولا تأكيد بما هو إخبار عن رجائهم وما ينتظرونه ثواباً على إيمانهم، فلا مدخل للام التأكيد هنا.

---

(1) سقط من ن 3.
(2) سورة الشعراء: آية 50.
(3) سورة الزخرف: آية 14.
(4) سورة الشعراء: آية 50.
(5) سورة الشعراء: آية 49.

وأما آية الزخرف فمبنية على ما تقدمها من الإخبار عن مشركي العرب في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1] الآيات، والمراد[2] بذلك إقامة الحجة عليهم في إنكار البعث، فطابق ذلك وناسبه تأكيد قول المؤمنين المقول لهم: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾[3]، فأكد هذا وضمن معنى القسم، وأحرز ذلك تقديم ما النافية في قولهم: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾، فوطأت ما في هذه الجملة من معنى القسم وأشعرت به، ثم جيء بالجملة مؤكدة بحرفي التأكيد وهما إن واللام، فدخلت إن على الاسم واللام على الخبر لما تقدم منهم إنكار البعث جاوبهم المؤمنون، فكأنهم قالوا: والله انه لحق، فسوغ دخول اللام ما قصد من هذا الغرض، وليس ذلك في آية الشعراء، فورد كل على ما يناسب، والله أعلم.

الآية الثانية من سورة الشعراء[4] قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ (لَهَا)[5] عَاكِفِينَ﴾[6]، وفي سورة والصافات: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ أَئِفْكاً آلِهَةً دُونَ ٱللَّهِ

---

(1) سورة الزخرف: آية 9.
(2) في ن 3: المراد بسقوط الواو، والصواب: بثبوت الواو.
(3) سورة الزخرف: آية 13-14.
(4) في ن 3: آية، وهو خطأ.
(5) سقط من ن 3.
(6) سورة الشعراء: آية 70-71.

تُرِيدُونَ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾[1]، يسأل عَن زيادة آسم الإشارة في قوله: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ وسقوطها في سورة الشعراء؟

والجواب عن ذلك أن قصص الرسل، عليهم السلام، مع أممهم لم تأت في القرآن العظيم على نهج واحد في الدعاء والجواب والمراجعة والمحاورة[2]، ولا يمكن ذلك لاختلاف طباع الأمم وأغراضهم واختلاف الحالات، ولكل مقام مقال، فمرة ترد القصة على الدعاء وإبداء الحجة والتوبيخ من غير ذكر شيء من جواب المدعوين[3] سوى الإخبار بتكذيبهم، ومرة يورد من مقالات الأمم لرسلهم اليسير، ومرة يمد إطناب الكلام في المحاورات بين الرسل والأمم.

فمن الضرب الأول قول إبراهيم، عليه السلام، في سورة والصافات: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ إلى آخر القصة، ولم يرد فيها كلمة واحدة من مراجعتهم له سوى الوارد من قولهم: ﴿ٱبْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي ٱلْجَحِيمِ﴾[4]، وليس هذا بمراجعة له ولا جواباً على كلامه، عليه السلام.

ومن الضرب الثاني آية الشعراء فانه ذكر فيها جوابهم بقوله تعالى مخبراً عنهم: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾[5]، ثم لما سألهم، عليه السلام، تقريعاً لهم وتوبيخاً فقال: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ

---

(1) سورة الصافات: آية 83-87.

(2) في ن 3: المجاورة، والصواب: المحاورة بالمهملة.

(3) في ن 3: من جواب ذكر المدعوين، ولا يستقيم بذلك المعنى.

(4) سورة الصافات: آية 97.

(5) سورة الشعراء: آية 41.

أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾[1] جاوبوا بقولهم: ﴿بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[2].

ومن الضرب الثالث قصة شعيب، عليه السلام، في سورة هود وأشباهها، وتأمل القصص الواردة في القرآن تجدها جارية على ما ذكرته، فلما كان في آية الصافات دعاء إبراهيم، عليه السلام، لهم مُبيِّنـًا حالهم الشنيع وسيّء مرتكبهم ممتد الإطناب فيما يقطع بهم من قوله: ﴿أَئِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾[3] (وقوله: ﴿أَتَعْبُدُونَ)[4] مَا تَنْحِتُونَ﴾[5]، وعيوا بالجواب ولم يحك عنهم[6] غير قولهم: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾[7]، ناسب[8] ذلك زيادة اسم الإشارة، ولما كانت آية الشعراء واردة على غير هذا النهج ناسب سقوط اسم الإشارة فقيل: «ما تعبدون» ولم يقل «ماذا» كما في آية والصافات، ومن المفهوم عن العرب أن المستفهم إذا قصد التقريع والتوبيخ أطال كلامه ادلاء بحجته وتعنيفاً لمن يخالفه، والمقهور أبداً محصور.

وقوله: «ما تعبدون» جملة تقدم فيها المفعول وهو ما الاستفهامية، فهو في موضع نصب بالفعل بعدها، وقوله[9] في الآية الأخرى: «ماذا»

---

(1) سورة الشعراء: آية 72-73.
(2) سورة الشعراء: آية 74.
(3) سورة الصافات: آية 86.
(4) مكررة في ن 3.
(5) سورة الصافات: آية 95.
(6) في ن 3: لم يحط عليهم، ولا يستقيم به المعنى.
(7) سورة الصافات: آية 97.
(8) في ن 3: ناب، وهو خطأ.
(9) في ن 3، وهو قوله والصواب: وقوله.

استفهام أيضاً ركبت فيه «ما» مع آسم الإشارة وجعلا آسماً واحداً في موضع نصب بالفعل (بعدها)[1]، ويمكن تركها على بابها من الاستفهام غير مركبة وتكون «ذا» آسماً موصولاً في موضع رفع خبر للمبتدأ الذي هو «ما»، والجملة من قوله: «تعبدون» صلة، والجملة من المبتدأ والخبر محكية بعد القول، كأنه قال: أي شيء (الذي[2] تعبدونه، وحذف الضمير الرابط لأنه ضمير نصب منفصل، وليس في الصلة ضمير غيره، فحسن حذفه.

الآية الثالثة من سورة الشعراء ـ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِين وَالَّذِي (هُوَ)[3] يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾[4]، يسأل عن زيادة الضمير في قوله: ﴿وَٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ وفي قوله ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾؟ ولم لم يدخل في قوله: ﴿وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾؟

والجواب: أن أمر الإمَاتة والإحياء لا مطمع فيه لأحد بخلاف أمر الإطعام والسقي، إذ قد يتوهم[5] من ضعف نظره أن ذلك مما تصح فيه النسبة لغيره تعالى إذ يقال: أطعمني فلان وسقاني، ويسبق إلى الوهم الاستقلال، وإنما ذلك على المجاز، ولا يقال أمات فلان فلاناً أو أحياه الا ويسبق إلى الوهم ما الأمر عليه من المجاز، فلما كان أمر الإماتة والإحياء ونسبة ذلك إليه تعالى مما لا يخفَى على أحد لم يحتج إلى

(1) سقط من ن 3.
(2) سقط من ن 3.
(3) سقط من ن 3، وهو خطأ.
(4) سورة الشعراء: آية 78-81.
(5) في ن 3: الذي هو قد يتوهم، وهذا لا يستقيم به المعنى.

الضمير، واحتيج إليه فيما قبل لرفع الإيهام، إذ مفهومه انه هو لا غيره يطعمني ويسقيني، فاحتيج إلى «هو» هنا ليحرز ما ذكرنا، ولم يحتج إليه في قوله: ﴿وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ لأنه لا يتوهم (ان)[1] غيره يفعل ذلك، فجاء كل على ما يجب ويناسب، وسنزيد هذا بياناً في سورة النجم ان شاء الله[2]، والله أعلم.

الآية الرابعة من سورة الشعراء قوله تعالى في قصة صالح، عليه السلام: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ﴾[3]، وفي قصة شعيب، عليه السلام: ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾[4]، يسأل عن زيادة الواو العاطفة هنا وَلَمْ تثبت في قصة صالح؟

والجواب عنه ــ والله أعلم ــ أن ذلك لرعي المناسبة، بيان ذلك ما ثبت قبل الآية الثانية من قوله تعالى حكاية لما عد شعيب في أمره قومه وذكر من مرتكباتهم[5] في قوله: ﴿أَوْفُوا[6] ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ وَزِنُوا بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ وَٱتَّقُوا ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[7]، فهذه خمس معطوفات من مأمور به ومنهي عنه، طابقها العطف في جوابهم من قوله تعالى: حكاية عنهم: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ

---

(1) سقط من ن 3.
(2) لم يرد شيء من هذا في سورة النجم.
(3) سورة الشعراء: آية 154.
(4) سورة الشعراء: آية 186.
(5) في ن 3: وذكره مرتكباتهم.
(6) في ن 3: وأوفوا، والصواب: بسقوط الواو.
(7) سورة الشعراء: آية 181-184.

ٱلْمُسَحَّرِينَ وَمَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَاذِبِينَ﴾[1]، فهذه مناسبة واضحة، ولما تقدم في قصة صالح، عليه السلام، قوله: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَا هُنَا آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَلاَ تُطِيعُوا أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ (ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ﴾[2]، فلم يقع في هذه القصة من المعطوفات أمراً أو نهياً سوى قوله: ﴿وَأَطِيعُونِ وَلاَ تُطِيعُوا أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ)﴾[3]، فناسب ذلك ورود جوابهم في دعوى المماثلة في البشرية بغير حرف النسق[4] فقالوا: ﴿مَا أَنْتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ بخلاف الآية الثانية، وجاء كل على ما يجب ويناسب، ولا يناسب عكس الوارد، والله أعلم.

* * *

(1) سورة الشعراء: آية 185-186.
(2) سورة الشعراء: آية 146-152.
(3) بهامش ن 2.
(4) في ن 3: السين، والصواب: النسق.

سورة النمل

الآية الأولى منها ـ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ. يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1]، وفي سورة القصص: ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ﴾[2]، للسائل أن يسأل عن القول لموسى، عليه السلام، عقب قوله عندما ولّى مدبراً (لما رأى)[3] من فعل الله سبحانه في عصاه حين ألقاها من اهتزازها كأنها جان، فنودي تأنيساً وإعلاماً بما الأمر عليه، ولا شك أن ذلك في مقام واحد وحال ابتداء أمره ورسالته، فالمعنى واحد، فما وجه اختلاف العبارة؟ فأقول جواباً لهذا السؤال ـ وأسأل الله توفيقه وعصمته ـ إنه قد تقدم في سورة طه أن الوارد من هذا القصص[4] إنما أخبرنا به على المعنى، وإنما خوطبنا باللسان العربي، وخاطب موسى قومه باللسان العبراني، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾[5]، وجل كلام ربنا عن الحرف والصوت وعن شبه كلام البشر، وبسط هذا في مظانه[6]، وإذا تقرر أنا

---

(1) سورة النمل: آية 10-11.

(2) سورة القصص: آية 31.

(3) بهامش ن 3.

(4) في ن 1، ن 2: هذه القصص طه، وهذا خطأ مخل بالمعنى.

(5) سورة إبراهيم: آية 4.

(6) أنظر: صفحة 810.

إنما خوطبنا بلساننا، وأن الاختلاف والتفاوت فيما بين الألسنة معلوم، والمعاني لا تختلف، فالمراد من الوارد في السورتين أن موسى، عليه السلام، أُمّن من خوفه الذي لحقه، وأُعلم أنه من الآمنين، وأن الآمنين لديه سبحانه هم المرسلون، ومن اهتدى بهديهم ممن سبقت له الحسنى، ومن لحق بهم ممن ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء وسبقت له من الله الحسنى، فهؤلاء هم الآمنون لديه سبحانه بما سبق لهم، ولا يجب عليه سبحانه إلا ما أوجبه على نفسه، فهذا الحاصل من المقول لموسى، عليه السلام، في السورتين من غير اختلاف في شيء من معناه، وهو المراد بقوله سبحانه: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ﴾[1] وبقوله: ﴿لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾... الآية[2]، والاستثناء منقطع، وليس المراد إلا من ظلم من الرسل، ولا يكون من الاستثناء المتصل كما قاله بعض المحرفين من ذوي الضلال، فإن الرسل، عليهم السلام، معصومون من الكفر مطلقاً باتفاق من أهل القبلة إلا ما قالته الشوذية[3] ومن قال بقولهم من المارقين ممن لا عبرة به، والظلم هنا هو الكفر فما دون، وقد عصم الله الرسل ومن شاء عصمته من ذلك ممن سواهم، ثم إن من كان ظالماً لنفسه بالكفر أو بما دون الكفر ثم بدل حسناً بعد سوء فإنه راج ما وعد (الله)[4] سبحانه، ومن مات على ظلمه ولم يكن كفراً فهو في المشيئة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ

---

(1) سورة القصص: آية 31.

(2) سورة النمل: آية 10-11.

(3) الشوذية: فرقة صوفية ظهرت بالمغرب، تنسب إلى أبي عبد الله الشوذي الإشبيلي، المعروف بالحلوي دفين تلمسان.

(4) سقط من ن 1، ن 2.

مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[1]، فما أفهمت آية النمل من هذا فهو المراد بآية القصص من قوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ﴾، ولم يقع في آية النمل (ذكر)[2] غير المرسلين ممن لم يظلم نفسه إيجازاً، لأنه من المعلوم أنه إذا كان حال الظالم لنفسه المبدل حسناً بعد سوء على ما ذكرنا من الرجاء[3] فحال من لم يظلم نفسه أولى، فسمع موسى، عليه السلام، من كلام ربه ما حصل به المعنى المقصود، ثم اختلف التعبير عندنا عن ذلك والمعنى (واحد)[4]، فلا اختلاف.

فإن قيل: فما وجه اختصاص آية النمل بما ورد فيها وآية القصص بما ورد فيها؟ قلت: (هذا)[5] سؤال لازم على شرطنا، والجواب عنه ــ إن شاء الله ــ أن سورة النمل لما ورد فيها قصة بلقيس وقومها، وعبادتهم الشمس حسب ما ورد في السورة في قوله: ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ﴾... الآيات[6]، ثم هداها الله بسليمان، عليه السلام، حتى قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾[7]، ناسب هذا قوله تعالى في تأنيس موسى، عليه السلام: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ﴾[8]، ولما ورد في آخر سورة القصص: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ

---

(1) سورة النساء: آية 48.
(2) سقط من ن 3.
(3) في ن 3: الرجال، وهذا خطأ.
(4) سقط من ن 3.
(5) سقط من ن 3.
(6) سورة النمل: آية 24.
(7) سورة النمل: آية 44.
(8) سورة النمل: آية 11.

لاَ يُرِيدُونَ عُـلُوّاً فِي ٱلْأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً﴾[1]، وهي آية عامة في كل متصف بالإيمان متمسك بما في الآية، وقد أشارت إلى أمنهم لأنهم ممن سبقت لهم الحسنى، وقد نص الكتاب على أنهم آمنون لديه سبحانه حين قـال: ﴿إِنَّ ٱلَّـذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّـا ٱلْحُسْنَى أُولَئِـكَ عَنْهَـا مُبْـعَـدُونَ﴾[2]، ثم قال: ﴿لاَ يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾[3] فهم آمنون، فناسب قوله سبحانه: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي ٱلْأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً﴾[4] ما خصت به هذه السورة من قوله في قصة موسى، عليه السلام: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلآمِنِينَ﴾.

وجواب ثان، وهو أن الآمنين لما تقدم بيان أنهم المرسلون ومن ظلم من غيرهم (ثم)[5] بدل حسناً بسوء، وحصل في طي هذا الكلام وضمنه أن من لم يظلم نفسه من غير المسلمين فلا توقف أنه من الآمنين، فلما تحصل بيان الآمنين وقعت الإحالة في آية القصص على ذلك، ولم يحتج إلى تفصيل أحوالهم اكتفاء بما تقدم فقيل: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلآمِنِينَ﴾، وهذا الوجه الثاني كاف في حصول التناسب، والله أعلم.

الآية الثانية من سورة النمل، قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلاَمٌ عَلَى عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَى﴾... الآيات[6]، إلى قوله: ﴿قُلْ هَاتُوا

---

(1) سورة القصص: آية 83.
(2) سورة الأنبياء: آية 101.
(3) سورة الأنبياء: آية 103.
(4) سورة القصص: آية 83.
(5) سقط من ن 3.
(6) سورة النمل: آية 59.

بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[1]، للسائل أن يسأل عن وجه الاختلاف فيما أعقبت به كل آيةٌ منها وإبداء[2] التناسب في ذلك؟

والجواب، والله أعلم: أن الآية الأولى لما نبهوا فيها وذكروا بما تشهد العقول بديهياً وتعترف بدلالته ــ إذ لا إشكال فيه ــ من أن السماوات والأرض تشهد بـإحكام منعتهـا، وإتقان خلقهـا، وما أودع سبحانه فيها من العجائب والآيات المشاهدة للعيان، مع انسحاب التغير على جميعها وعلى ما فيها، بأن لها[3] موجداً أوجدها وأحكم صنعتها واتقانها، وأنه لا يمكن أن أوجدت أَنْفسها ولا أوجدها غيرها مما يماثلها في شواهد الافتقار وانسحاب التغير[4]، وذلك مما لا تنفك عنه سائر الموجودات فيشهد العقل بأن لها موجداً من غير جنسها متعالياً عن شبهها. إذ لو شبهها لافتقر إلى موجد آخر، فلبيان الأمر ما أعقبت هذه الآية الأولى بقوله: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾[5]، أي أن الأمر غير خاف ولكنهم يعدلون عنه، وكذا قيل لهم في دعائهم إلى الإيمان في أول سورة البقرة حين ذكروا بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا[6] رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ. . . ﴾[7] إلى قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[8]، فهذا كقوله: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ من غير فرق، لما ذكـروا في

---

(1) سورة النمل: آية 64.
(2) في ن 1، ن 2، ن 4: وابتداء ــ وإبداء أنسب.
(3) في ن 3: بيان له، والصواب: بأن لها.
(4) في ن 3: التغيير.
(5) سورة النحل: آية 60.
(6) في ن 3: اتقوا، وهو خطأ.
(7) سورة البقرة: آية 21.
(8) سورة البقرة: آية 22.

الموضعين بخلق السماوات والأرض، وإنزال الماء من السماء، وإخراج الثمرات، وإنبات الحدائق العجيبة، وكانوا يعترفون بخلقه سبحانه جميع ذلك ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[1]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[2]، فاعترافهم بهذا ثم يجعلون له تعالى الند والشريك عدول واضح بعد قيام الحجة عليهم، فقيل هنا: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾.

ثم لما ذكّروا بما هو أخفى[3] في قوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَاراً﴾... الآية[4]، فإن تمهيد الأرض للسكنى، وتفجير الأنهار خلالها، وحجز ما بين العذب والمالح من مياهها، ليس مما ظهور الاعتبار به وبيانه في الجلاء والوضوح كخلق السماوات والأرض وإنزال الماء إلى ما في الآية، فلما كان التذكر بما في الآية الثانية أخفى أُعقب هذا بقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[5]، ثم تدرج الاعتبار إلى ما هو أخفى فقيل: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ ٱلْأَرْضِ﴾[6]، وخفاء الاعتبار بهذا واضح، ولا يحصل عليه إلا من أمعن النظر فيما تقدم قبله، فأعقب هذا لخفائه بقوله: ﴿قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾[7]، ثم أعقب بما لا يمكن أن يتعاطاه أحد مع

---

(1) سورة العنكبوت: آية 61.
(2) سورة العنكبوت: آية 63.
(3) في ن 1، ن 2، ن 4: بما أخفي.
(4) سورة النمل: آية 61.
(5) سورة النمل: آية 61.
(6) سورة النمل: آية 62.
(7) سورة النمل: آية 63.

وضوح الأمر عند تدبره وهو قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾. . . الآية[1]، وذلك مما لا يتصور فيه من العاقل التسليم، فأعقب بحسب ذلك والتفات ما قبله بقوله: ﴿تَعَالَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[2]، ثم ختم ما قدم من هذه المعتبرات الجليلة بما لا يحصل الاعتبار[3] إلا بعد إحكام النظر فيما قبله، والاعتراف بما يجب لله سبحانه من الاتصاف بالعلم والقدرة، إذ بهما وبثبوتهما تَتِمُّ وتثبت العودة والبدأة، إلى ما يجب له سبحانه من الصفات العُلى التي يثمر العلم بثبوتها له سبحانه النظر التام الصحيح والاعتبار بما تقدم في الآيات قبل هذه، فلما كمل ذكر ما به (يحصل الاعتراف)[4] والإيمان، ويستوضح منه (أنه)[5] سبحانه المنفرد بالخلق والأمر والمالك للدارين، أعقب بطلب المعاند بالبرهان على ما يدعيه، فقيل: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[6] أي إن صدقتم أن لله شريكاً في ملكه تعالى: ﴿تَعَالَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، فقد وضح أن كل معقب به آية من هذه الآيات، المذكر بها من استبصر والقاطعة بكل من أشرك وكفر، جار على أوضح مناسبة.

* * *

---

(1) سورة النمل: آية 63.
(2) سورة النمل: آية 63.
(3) في ن 3: إلا اعتباراً، والصواب: الاعتبار.
(4) سقط من ن 3 ومكانه بياض.
(5) سقط من ن 3.
(6) سورة النمل: آية 64.

سورة القصص

الآية الأولى منها ـ قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾[1]، وفي سورة يٰس: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ ٱتَّبِعُوا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[2]، للسائل أن يسأل عن تأخير الفاعل عن المجرور في سورة يٰس ولم يأت متقدماً يلي الفعل كما ورد في سورة القصص؟

والجواب عن ذلك، بعد تسليم أن وروده في سورة القصص متقدماً فقيل: ﴿وجاء رجل﴾ وارد على ما يجب، لأن مرتبة الفاعل التقديم، ولا يتأخر عن ولايته الفعل إلا لعارض من جهة اللفظ أو من جهة المعنى أو اتساعاً[3] ، وذلك غير الأولى أعني إذا كان تأخره لمجرد الاتساع. وإذا تقرر هذا فإنما السؤال عن وجه تأخره في سورة يسٓ؟ ووجه ذلك ـ والله أعلم ـ أن تقديم المجرور الذي هو قوله: ﴿مِنْ أَقْصَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ مشيراً إلى إحراز معنى جليل مطلع على حكم السوابق من بعد مسافة عن داعيه إلى الهداية، فلم (يضره)[4] بعد الدار وكفر من باشر الرسل وشافههم فلم ينتفع بقرب الدار، وذلك بحسب ما قدر[5]

---

(1) سورة القصص: آية 20.
(2) سورة يٰس: آية 20.
(3) في ن 3: اتباعاً.
(4) سقط من ن 3، وفي ن 2: تضره.
(5) في ن 3: تقرر، والصواب: قدر.

لكل من المكلفين وسبق له، وحاصل الإخبار[1] من هذه الآيات مثال لحال كفار قريش من أهل مكة، وحال الأنصار من أهل المدينة، حين جاء هؤلاء وآمنوا به صلى الله عليه وسلم مع بعد دارهم، وعاند عتاة[2] قريش (فكفروا)[3] مع الالتحام في النسب واتحاد الدار، ويوضح هذا أن السورة مكية، وإنما افتتحت بذكر قريش وهم المعنيون بقوله: ﴿لِتُنْذِرَ قَوْماً مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾[4] إلى ما بعد من الآيات، والإخبار بأن ذلك لا يجدي عليهم في قوله: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[5]، فهذا الإخبار بحال كفار قريش، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ...﴾[6] الآية، أي من انقاد وأصغى إليك وإن بعدت داره وهذا حال الأنصار[7]، ثم قال: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً﴾[8] أي الفريقين ممن كفر مع قرب داره ومن آمن مع بعد داره، وذكر تعالى أصحاب القرية (وحالهم مع من أرسل إليهم، وأنهم أرسل إليهم اثنان ثم عززوا بثالث، فجاوبهم أصحاب القرية)[9] المخاطبون مجاوبة الرد والتكذيب فقالوا: ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا مِثْلُنَا﴾[10] كما قالت قريش: ﴿مَالِ هَذَا

---

(1) في ن 3: وحاصل الافصا، ولا يستقيم به المعنى.
(2) في ن 3: كفار.
(3) سقط من ن 3.
(4) سورة يٓس: آية 6.
(5) سورة يٓس: آية 10.
(6) سورة يٓس: آية 11.
(7) في ن 3: الأمصار، والصواب: الأخطار.
(8) سورة يس: آية 13.
(9) بهامش ن 2.
(10) سورة يس: آية 15.

ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾[1]، ثم ذكر تعالى قول الرسل لأصحاب القرية: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ﴾[2]، وقول أصحاب القرية: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾[3]. فلما ذكر سبحانه هذه المحاورة والمراجعة قال تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى ٱلْمَدِينَةِ﴾[4] أي ممن لم يحضر معهم ولا شاهد ما طال من مراجعتهم، فجاء بحسب ما سبق له من السعادة يقول: ﴿يَا قَوْمِ ٱتَّبِعُوا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[5] إلى ما أخبر تعالى من قوله، فمجيئه من أقصى المدينة مثال لمن بعد فلم يضره بعده، وذكره المراجعين للرسل من أصحاب القرية مثال لمن قرب وطالت مباشرته وشاهد الآيات[6] فلم ينفعه قربه، فلما قصد[7] في آية يٓس مثال من ذكر من الفريقين خصت من تقديم المجرور على الفاعل ما يحرز المعنى المقصود، فهو من قبيل ما قدم للاعتبار والتهمم، وقد تقدم في مواضع إنشاد سيبويه، رحمة (الله)[8] عليه[9]:

لتقربن قرباً جلزياً   ما دام فيهن فصيل حياً[10]

---

(1) سورة الفرقان: آية 7.
(2) سورة يٓس: آية 16-17.
(3) سورة يٓس: آية 18.
(4) سورة يٓس: آية 20.
(5) سورة يٓس: آية 20.
(6) في ن 1، ن 2: الأيام.
(7) في ن 1، ن 2: قصدت، والصواب: قصد.
(8) سقط من ن 1، ن 2.
(9) الكتاب 38/1.
(10) البيت لابن ميادة في الرجز.

فلإحراز هذا المعنى قدم هذا المجرور وتأخر الفاعل.

أما آية القصص فلم يقصد فيها شيء من هذا فجاءت على ما يجب من تقديم الفاعل، وتناسب هذا كله، ووضح أن كلاً من الموضعين لا يناسبه ولا يلائمه غير الوارد فيه، والله أعلم بما أراد.

الآية الثانية من سورة القصص قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى (أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1]، وفي سورة الشورى: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى)[2] لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[3]، يسأل عن زيادة قوله: «وزينتها» في الأولى؟ وعن تعقيبها بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وتعقيب الثانية بقوله: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾؟

والجواب عن الأول: أن سورة القصص تضمنت ذكر قارون وما أتيه من المال الذي هو زينة الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِٱلْعُصْبَةِ أُولِي ٱلْقُوَّةِ﴾[4]، ثم أخبر تعالى عن زهوه[5] واختياله بماله وظنه استحقاقه[6] إياه، قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾[7] حتى قال من غفل عن آخرته ولم يعلم ما أعد الله فيها للمؤمنين: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُومَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾[8]، فقدم

---

(1) سورة القصص: آية 60.

(2) بهامش ن 2.

(3) سورة الشورى: آية 36.

(4) سورة القصص: آية 76.

(5) في ن 3: زهده، والصواب: زهوه.

(6) في ن 3: واستحقاقه ولا مكان للواو هنا وإلا اختل المعنى.

(7) سورة القصص: آية 79.

(8) سورة القصص: آية 79.

سبحانه للمعتبرين من عباده المؤمنين وتنبيهاً للغافلين لتحصل[1] السلامة للسعداء ممن عصم بما ابتلي به قارون فقال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ ـ أي للمؤمنين ـ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[2]، وقد أخبرهم سبحانه في موضع آخر أن الدنيا وحياتها غرور، وأخبرهم أن الآخرة هي دار القرار، وبعد تحذير المؤمنين وردت[3] قصة قارون فالتحمت الآية بتلك القصة، وقيل هنا: «وزينتها» كما قيل في تلك: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦ﴾[4]، ومن الذي يعدل عما عند الله سبحانه إلى ما جعله تعالى سبباً لإهلاك المشركين[5]؟ فتناسب هذا كله وتلاءم.

ولم يقع في آية الشورى ذكر «وزينتها» إذ لم يرد فيها ما ورد هنا مما آستدعى هذه المناسبة، ولم يرد في سورة الشورى من أولها إلى آخرها ذكر بسط حال دنياوي لأحد، بل تضمنت حقارة الدنيا ونزارة رزقها، وأنه مقدور غير مبسوط، وتلك حال الأكثر، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾[6]، وقال عند ذكر من اختار الدنيا ومال إليها: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾[7]، فقال: «منها» بأداة

---

(1) في ن 3: لتحصيل.
(2) سورة القصص: آية 60.
(3) في ن 3: ورد، والصواب: وردت.
(4) سورة القصص: آية 79.
(5) في ن 3: المسرفين.
(6) سورة الشورى: آية 27.
(7) سورة الشورى: آية 20.

التبعيض، فلم يقع في هذه السورة ما يستدعي ذكر الزينة المالية، فلذلك لم تذكر[1]، والله أعلم.

والجواب عن السؤال[2] الثاني أن قوله تعالى في آية القصص ﴿أفلا تعقلون﴾ ملتحم أوضح التحام بما اتصل به من قوله: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾[3]، فكأن قد قيل بعد قوله: ﴿وَمَا عِنْدَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ فكأن قد قيل: أفلا تعقلون ما بين الأمرين، ثم أخبر بقوله: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ في العذاب الذي لا آخر له، فقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ من تمام ما قبله وذلك بين التناسب.

ولما ورد قبل آية الشورى: ﴿وَتُنْذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾[4]، قوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً﴾[5] إلى قوله: ﴿فَادْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ ـ الآية[6] وقوله: ﴿أَلَا إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾[7]، قوله: ﴿تَرَى ٱلظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ

---

(1) في ن 1، ن 2: يذكر، والصواب: تذكر.
(2) سقط من ن 3.
(3) سورة القصص: آية 61.
(4) سورة الشورى: آية 7.
(5) سورة الشورى: آية 13.
(6) سورة الشورى: آية 15.
(7) سورة الشورى: آية 18.

بِهِمْ﴾[1]، وقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[2]، ناسب هذا المتقدم من التخويف ما ينبىء المؤمنين المستجيبين بأصناف قوله: ﴿وَمَا عِنْدَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ بقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي صدقوا بكل هذا وعلى انفراده سبحانه بالخلق والأمر فتوكلوا عليه، فأعقبت كل آية منها بما يناسبها ووردت على ما يجب، والله أعلم.

الآية الثالثة من سورة القصص ــ قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾[3]، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[4]، للسائل أن يسأل لم قدم الليل؟ ولم ختمت الأولى بقوله: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾، والثانية بقوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؟

والجواب عن الأول أن تقديم الليل على النهار جار على ما بنت العرب عليه حساب شهورها من تقديم الليل وجعل النهار تابعاً له، ولم يرد في كتاب الله تعالى على كثرة ترداده إلا ذلك.

والجواب عن السؤال الثاني: أن قوله تعالى في الآية الأولى: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ مناسب للمدرك ليلاً من ضربي ما يعتبر به[5] من

---

(1) سورة الشورى: آية 22.
(2) سورة الشورى: آية 31.
(3) سورة القصص: آية 71.
(4) سورة القصص: آية 72.
(5) في ن 1، ن 2: فيه، والصواب: به.

المسموعات والمبصرات، إذ الليل حائل دون المبصرات، وإنما تدرك فيه المسموعات لأن ظلمة الليل غير مانعة من إدراكها، فجيء بما يناسب، وجيء مع ذكر النهار بما يناسب أيضاً، فقيل: ﴿أفلا تبصرون﴾، لأن المبصرات تدرك نهاراً ولا تدرك ليلاً، فجيء مع كل بما يناسب، والله أعلم.

* * *

سورة العنكبوت

الآية الأولى منها ـ قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1]، وفي سورة لقمان: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2]، وفي سورة الأحقاف: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كَرْهاً وَوَضَعَتْهُ كَرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْراً. . .﴾ إلى قوله: ﴿مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[3]، اشتملت هذه الآي في السور الثلاث على التعريف بما يجب من حقوق الوالدين، وما يرعى لهما، ومنتهى ذلك وغايته، وقد اجتمعت في هذا المعنى، ثم اختلف إيرادها، ففي العنكبوت والأحقاف حسناً ولم يرد ذلك في سورة لقمان، وفي العنكبوت: «لتشرك» بتعدية الفعل باللام وفي لقمان: ﴿عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي﴾ فعدّي بعلى، وفي لقمان: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا

---

(1) سورة العنكبوت: آية 8.
(2) سورة لقمان: آية 14-15.
(3) سورة الأحقاف: آية 15.

مَعْرُوفاً﴾ ولم يرد ذلك في السورتين، وفي لقمان: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ وفي الأحقاف: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْراً﴾، وفي لقمان والأحقاف ذكر الأم منصوصاً عليها وورد ذكرها في العنكبوت مجملاً، وفي العنكبوت ولقمان التعريف بالرجوع إليه سبحانه ولم يرد ذلك في الأحقاف، فيسأل عن هذا؟ وعن وجه اختصاص كل سورة من الثلاث بما خصت به؟ وإن كان ذلك حاصلاً من جواب ما تقدم، فتلك تسعة أسئلة.

والجواب عن الأول: أن بناء آية العنكبوت على قصة سعد بن أبي وقاص وما كان من فعل أمه وحلفها على ألا تأكل[1] ولا تشرب ولا تستظل حتى يرجع سعد إلى دينها، والقصة مشهورة[2]، فنزلت الآية، ولما لم يقصد غير هذا اكتفي بالتنبيه على الإحسان بهما ما لم يدعُوَا معاً أو أحدهما إلى الشرك، ولما كان حكماً لا يخص أباً من أم لم يحتج إلى التنصيص على أحدهما، فوقع الاكتفاء هنا بقوله: «حسناً»، ونصبه على الحال لأن المصدر إذا حذف اكتفاء بصفته فانتصابها عند سيبويه، رحمه الله، على الحال، ذكر ذلك في باب «وأما ورود حسناً في الأحقاف» [3]، فلما قصد فيها من البسط والإطالة حسبما تبين بعد وقد انجر في هذا الجواب عن السؤال (السابع)[4].

والجواب عن السؤال الثاني: أن النهي عن الشرك ورد في سورة العنكبوت لبناء الآية وما قبلها على ذكر ذلك، وهو المراد بالفتنة الوارد

---

(1) في ن 3: وجعلها أن لا تأكل، ولا يستقيم بذلك المعنى.
(2) أنظر: أسباب النزول، للواحدي، ص 256.
(3) سورة الأحقاف: آية 15.
(4) سقط من ن 1، ن 3.

ذكرها في مطلع السورة. وورد في آية لقمان لما تقدم من قول لقمان لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1]، ولم يرد في سورة الأحقاف لأن آية الأحقاف فيمن كان مؤمناً، ألا ترى قوله: ﴿أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[2] إلى ما بعد هذا، ولا مدخل هناك للشرك.

والجواب عن السؤال الثالث: أن قوله في سورة العنكبوت: ﴿لتشرك بي﴾ بتعدية الفعل باللام وتعديته في آية لقمان بعلى فإنما ذلك لفرق ما بين الآيتين في السورتين، من حيث بناء آية العنكبوت على الإيجاز فناسب ذلك الاكتفاء باللام، وبناء آية لقمان على الإطالة فناسب ذلك التعدية بعلى، ولو قدرنا عكس الوارد لما ناسب، فجاء كل على ما يناسب.

والجواب عن السؤال الرابع: أن قوله في آية لقمان: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفاً﴾ أمر بالرفق بهما والقيام من حقهما بما ليس بمعصية، ولما كان مبنى الآية على الأمر بما يفعل بهما ومعهما من غير (تقدم)[3] مطلب لهما، وإنما ذلك على التعريف بما ينبغي أن يكون الأمر معهما، ناسبة الوارد هنا من قوله: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفاً﴾، ولما كانت آية العنكبوت مبنية على حكم من طلب من الأبوين الشرك والرجوع إلى الكفر كما تقدم، لم يناسب ذلك أن يقال فيهما: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا

(1) سورة لقمان: آية 13.
(2) سورة الأحقاف: آية 15.
(3) سقط من ن 1، ن 2.

﴿مَعْرُوفاً﴾ لما كان يكون فيه ـ بالسابق من ظاهر الكلام ـ من الإذن في الصغو إلى مطلبهما، وهو ما لا يمكن أن يؤذن فيه لا ظاهراً ولا باطناً، فلم يرد هنا ما كان يوهم جوازاً ولو في إراءتهما الانقياد لهما في الظاهر مع اعتقاد ما يجب اعتقاده في الباطن من التوحيد كما في آية الإكراه من قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِٱلإِيمَانِ﴾[1]، وإنما قصد هنا العزم[2] على ما هو الحق، وألا يصغى إلى مرادهما لا ظاهراً ولا باطناً إذا جاهدا في طلب الشرك، فلم يكن ليناسب ولا ليلائم ورود: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفاً﴾ في آية العنكبوت بوجه.

وأما آية الأحقاف فمبنية وواردة على حال إيمان الموصى بوالديه، وقد علم المؤمن ما يلزمه من أبويه المؤمنين، وأنه أكبر من الموصى به في آية لقمان، فجاء كل على ما يجب.

والجواب عن السؤال الخامس: أن قوله: ﴿وَهْناً عَلَى وَهْنٍ﴾ المراد به الضعف، وقوله في الأحقاف: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كَرْهاً وَوَضَعَتْهُ كَرْهاً﴾ المراد أنها حملته ووضعته على صفة من المشقة تكره ولا تراد، فتحصل من الآيتين الإخبار بحاليهما من الضعف والكراهة فلا تعارض.

والجواب عن السؤال السادس: أن قوله تعالى في سورة لقمان: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ وقوله في الأحقاف: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْراً﴾ لا تعارض بينهما لأنهما إخباران عن قضيتين[3]، لأن الحمل والفصال مدتان، ومدة الحمل غير مدة الرضاع، فأخبر في الآية الواحدة

---

(1) سورة النحل: آية 106.

(2) في ن 3: التقديم، والصواب: العزم.

(3) في ن 3: قصتين.

عن مجرد مدة الرضاع، وفي الثانية عن المدتين، وقد تقدم التنبيه على انجرار السؤال السابع. (ص 913).

والجواب عن السؤال الثامن: من أن قوله تعالى في العنكبوت ولقمان: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ تحذير من طاعتهما في الشرك وإبلاغ في النهي عن الصغو إليهما في ذلك إلى الغاية لئلّا يظن أن ذلك كآية الإكراه (كما)[1] تقدم، ولما لم يقع في آية الأحقاف ذكر الشرك، وكانت فيمن كان على إيمان، وقد علم المؤمن رجوعه إلى ربه، لم يردف فيها ذكر ذلك.

والجواب عن السؤال التاسع: حاصل في الجواب المتقدم، وتلخيصه أن تخصيص هذه السورة بما ورد فيها مختلف بهذا السياق[2] لما لم يذكر، وقد مر. أما آية العنكبوت فلما تقدم ذكره من قصة سعد. وأما آية لقمان فلتقدم قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[3]، وأما سورة الأحقاف فلما انجر في جواب السؤال الرابع.

الآية الثانية من سورة العنكبوت ــ قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[4]، وفي سورة الشوري: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[5]، للسائل أن يسأل عن زيادة

---

(1) سقط من ن 3.
(2) في ن 3: مختلف هذا السياق.
(3) سورة لقمان: آية 13.
(4) سورة العنكبوت: آية 22.
(5) سورة الشورى: آية 31.

الواو في سورة العنكبوت من قوله ﴿وَلَا فِي ٱلسَّمَاءِ﴾ ولم يرد ذلك في سورة الشوري؟

والجواب عنه، والله أعلم: انه لما تقدم فيها قوله تعالى[1]: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا (سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾)[2]، وهذا من أشد الوعيد إذ حاصله انه لا يفوته سبحانه أحد ولا مهرب منه تعالى الا إليه، ناسب هذا قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَاءِ﴾، كما قال: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا[3] يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعاً﴾[4] إلى ما ورد من هذا، وذلك تناسب بين، ولما لم يرد في سورة الشورى من أولها إلى الآية مثل هذا الوعيد الشديد، ولا كان فيها ما يستدعي في هذا التعميم والاستيفاء الوعيدي[5]، وردت الآية مناسبة، لذلك، فقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، ولم يكن التعميم هنا ليناسب، فورد كل على ما يجب، والله سبحانه أعلم.

الآية الثالثة من سورة العنكبوت ــ قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابُ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاه ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[6]، وورد بعد هذا: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ (إِنَّ فِي ذَلِكَ)[7] لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[8]، فأفرد هنا آية وجمع في

---

(1) سورة العنكبوت: آية 4.
(2) سقط من ن 1، ن 2.
(3) في ن 3: تكون، وهذا خطأ.
(4) سورة البقرة: آية 143.
(5) في ن 3: الوعدي.
(6) سورة العنكبوت: آية 24.
(7) في ن 3: مكررة، وهذا خطأ.
(8) سورة العنكبوت: آية 44.

الأولى فقال: «الآيات»، مع أن هذه الثانية أعظم: قال تعالى: «﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [1]، فللسائل أن يسأل عن وجه ذلك؟

والجواب عنه، والله أعلم: ان الإشارة في الآية الأولى بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ ليست لقصة [2] إبراهيم، عليه السلام، وانجائه من النار فقط بل الإشارة لمجموع معتبرات، منها لبث نوح، عليه السلام، في قومه ألف سنة الا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله ويريهم الآيات فما آمن معه الا قليل، ومنها آية أخذهم بالطوفان وبعميم الغرق لجميع أهل الأرض، ومنها إنجاء أهل السفينة وجعلها آية للعالمين، ومنها ما أحيلوا عليه من الإعتبار بمن قبلهم في قوله: ﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ. . .﴾ الآية[3]، ومنها دعاء إبراهيم، عليه السلام وعظيم بيانه وما استجر دعاؤه إياهم من الآيات والبراهين على نبوته، ومنها ما أحيلوا عليه آخر الآيات في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾[4]، فلما تقدم تفصيل الآيات ورد التنبيه بالإشارة إلى جميعها فقيل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾.

أما قوله في الآية الأخرى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ فالإشارة إلى المصدر وهو الخلق المفهوم من (قوله)[5] ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَاوَاتِ

---

(1) سورة غافر: آية 57.
(2) في ن 3: لقصد.
(3) سورة العنكبوت: آية 18.
(4) سورة العنكبوت: آية 19.
(5) سقط من ن 1، ن 2.

وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً)﴾[1]، كما ورد في قوله تعالى: ﴿ٱعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾[2]، فالضمير للمصدر وهو العدل المفهوم من قوله: ﴿ٱعْدِلُوا﴾، وهذا جار في الضمير[3] واسم الإشارة ومتردد في كلام العرب، فكل من الآيتين على ما يجب.

الآية الرابعة من سورة العنكبوت ــ قوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا[4] إِلَّا ٱلْكَافِرُونَ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا ٱلظَّالِمُونَ﴾[5]، للسائل أن يسأل عن وسم الجاحدين أولاً بالكافرين ثم وسموا بعد بالظالمين، والظلم يصح إطلاقه على ما دون الكفر، فقد يسبق[6] إلى الوهم انه لو ورد وسمهم أولاً بالظلم ثم ثانياً بالكفر لكان أنسب؟

والجواب: أن الظلم وإن كان يطلق على الكفر وعلى ما دونه قال تعالى: ﴿وَٱلْكَافِرُونَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ﴾ [7]، فانه إذا ذكر بعد الكفر ووصف به من قد وصف بالكفر أفهم زيادة مرتكب على الكفر، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً إِلَّا طَرِيقَ

---

(1) سقط من ن 1، ن 2.

(2) سورة المائدة: آية 8.

(3) في ن 3: المضمر.

(4) في ن 3: بإايات الله، وهو خطأ.

(5) سورة العنكبوت: آية 47-48.

(6) في ن 3: سبق، ويسبق أنسب.

(7) سورة البقرة: آية 254.

جَهَنَّمَ. . . الآية﴾[1]، وعلى هذا ورد في القرآن، وقد تقدم ذلك. فقد وضح ما وردت عليه آيتا العنكبوت، وليس من المشكل.

الآية الخامسة من سورة العنكبوت ـ قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[2]، وفي سورة لقمان: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3]، وفي سورة الزخرف: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾[4]، تواردت هذه الآي الثلاث على معنى واحد وهو[5] تقريرهم على ما كانوا يعترفون به من انفراده سبحـانه بخلق السماوات والأرض واعترافهم بذلك ان سئلوا، ثم اتبع ذلك في سورة العنكبوت بقوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ، قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[6]، فأعلم تعالى انهم لو سئلوا أيضاً عن هذا لاعترفوا، ثم اختلف ما أعقبت به هذه الآي من وصفهم حيث وصفوا فيها بعد فرض سؤالهم واعترافهم، فأعقبت الأولى بقوله: ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾، وآية لقمان بقوله: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وآية العنكبوت الثانية بقوله: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، ولم يرد في آية الزخرف إتباع بوصف،

---

(1) سورة النساء: آية 168-169.
(2) سورة العنكبوت: آية 61.
(3) سورة لقمان: آية 25.
(4) سورة الزخرف: آية 9.
(5) في ن 1، ن 2: من، والصواب: وهو.
(6) سورة العنكبوت: آية 63.

فللسائل أن يسأل عن اتحاد مقصود هذه الآي أو تفصيله؟ وعن وجه اختلاف الدليل فيما ورد في التعقيب به في هذه الآي؟

والجواب عن الأول: أن المقصود فيها ليس واحداً، أما الثلاث آيات الأول فالمراد منها استدلال بهذا الخلق العظيم، وما هو عليه من جليل التناسب، واتقان الصنعة وأحكامها من غير تفاوت ولا فطور، على وحدانيته تعالى، وانفراده بالخلق والأمر، واتصافه بالعلم والقدرة إلى ما يجب له تعالى من صفات الكمال، والتعالي عن شبه الخليقة، ولوضوح هذا الدليل ما أخبر تعالى عنهم انهم لو سئلوا لاعترفوا فقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[1]، وأما قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَى بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[2]، فمقصودها إقامة البرهان على الإحياء من بعد الموت[3]، وبيان ذلك بمثال (مشاهد)[4] للعالم يحصل عن اعتباره جواز ما قصد تمثيله، وبذلك أفصحت آية الأعراف في تعقيبها بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[5]، وذلك أبين شيء، فقد اختلف المقصد كما تقدم.

ووجه تخصيص سورة العنكبوت بهذه الآية مناسبتها لما تردد فيها وتكرر من ذكر العودة الأخراوية أو الإشارة إليها في ما نيف على عشرة مواضع، أولها: قوله: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ

---

(1) سورة لقمان: آية 25.
(2) سورة العنكبوت: آية 63.
(3) في ن 3: من بعد موتها، والصواب: من بعد الموت.
(4) بهامش ن 1.
(5) سورة الأعراف: آية 57.

﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1]، وآخرها ما ورد قبل الآية المتكلم فيها من قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[2] وما اتصل بها، وأنصّها في المقصود قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِيءُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[3] إلى قوله: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنْشِىءُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾[4]، فناسب ما تردد في هذه السورة من هذه الآي إيراد آية المثال المذكورة، ولما لم يرد في السورتين الأخريين مثل الوارد المتكرر في سورة العنكبوت لم يكن ليناسبها ورود آية المثال مناسبتها حيث وردت.

والجواب عن السؤال الثاني، وهو توجيه اختلاف الحال فيما وقع فيه التعقيب في هذه الآي، أن ذلك مبني على الترتيب الثابت في الكتاب العزيز (لما)[5] ذكر تعالى حالهم لو سئلوا عن خلق السماوات والأرض وتسخير النيرين، ولا إشكال فيه لمن وفق، قال تعالى: ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[6] أي كيف يصرفون عن الدلالة مع وضوحها، ثم قال عقب آية لقمان: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[7]، وحصل مما أعقبت به الآيتان ما في قوة أن لو قيل: كيف يصرفون مع بيان الأمر ما ذلك الا لمنعهم عن العلم: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾[8].

---

(1) سورة العنكبوت: آية 5.
(2) سورة العنكبوت: آية 57.
(3) سورة العنكبوت: آية 19.
(4) سورة العنكبوت: آية 20.
(5) سقط من ن 1، ن 2.
(6) سورة العنكبوت: آية 61.
(7) سورة لقمان: آية 25.
(8) سورة الكهف: آية 57.

وأما ختام آية الزخرف بقوله: ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1] فاعتراف تام منهم بوصفه سبحانه بالقدرة والعلم، وإذا اعترفوا بذلك لم يبق الا العناد بما قدر عليهم، ومناسبة هذا الختام على ما تمهد من رعي الترتيب، وكأن هذه الآية الأخيرة في قوة أن لو قيل: وإذا حقق عليهم وتوبعوا في سؤالهم اعترفوا بالأمر على ما هو عليه، فكفرهم بعد ذلك اتباع للهوى وضلال على علم، والتناسب في هذا كله بين.

وأما آية العنكبوت الثانية وهي قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَـى بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنْ بَعْدَ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[2] ثم قال: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[3] فوصف أكثرهم هنا بعدم العقل[4]، فوجه ذلك ــ والله أعلم ــ التعريف بإفراط[5] قصورهم حتى استحقوا الوصف بصفات البهائم ومن لا يصح خطابه، وذلك أن العقل فضل الإنسان، وبه امتيازه عن البهيمة، ولا يمكن العلم بشيء الا بعد حصوله والاتصاف به، وهو مناط التكليف. وهو عند المتكلمين عبارة عن علوم ضرورية، وليس كل العلوم الضرورية، وهو مع هذا خصيصة جليلة إن عـدمت لم يكن التكليف ولا وجود علم، واضـداد العلم العامـة والخاصة أضداد للعقل، وهو من قولهم عقلت البعير إذا أمسكته بعقال، وبه وضع خطاب المكلفين، فإذا فقد لحق فاقده بالبهائم، ثم نقول إن إنزال الماء من السماء وهو ماء واحد يكون عنه مختلف النبات وضروب

(1) سورة الزّخرف: آية 9.

(2) سورة العنكبوت: آية 63.

(3) سورة العنكبوت: آية 63.

(4) في ن 3: بعد العقل، والصواب: بعدم العقل.

(5) في ن 3: بإجراد.

الأشجار وأنواع الثمر المختلف الحالات مع وحدة المادة، فمن عقل هذا عقل وجود الإنسان من نطفة واحدة كوحدة الماء النازل من السماء، ثم يكون عن تلك النطفة شكل الإنسان، وما ينطوي عليه خلقه وتشتمل عليه جملته والمادة واحدة، فالتلاقي والشبه بين الماءين وما يوجده سبحانه عنهما أوضح شيء لمن عقل، فكيف يستبعد العودة من يشاهد ذلك أو يعتبر به.

وقد أرانا سبحانه في ماء السماء وما يكون عنه الإحياء بعد الموت ما أوضحه في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا...﴾ الآية[1] ما فيه أبين دليل لمن وفقه سبحانه للنظر والاعتبار، لا توقف فيه، وجعل ذلك متكرراً، ونبه تعالى عليه بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[2]، وقال تعالى[3]: (﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي ٱلسَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾)[4]، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِي أَرْسَلَ ٱلرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ[5] مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا...﴾[6].

* * *

---

(1) سورة الروم: آية 24.

(2) سورة الأعراف: آية 57.

(3) سورة الروم: آية 48.

(4) سقط من ن 1، ن 3.

(5) إلى هنا توقفت الآية في ن 1، ن 3، وتواصلت في ن 2 إلى آخر ما ورد هنا.

(6) سورة فاطر: آية 9.

ملاحظة: وجد في النسخ الثلاث بياض إثر سورة العنكبوت علق عليه في ن 3 بقوله: كذا وجد في الأصل، وعلق عليه في ن 2 بقوله: كذا.

سورة الروم

الآية الأولى منها ـ قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾[1]، وفي سورة فاطر: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[2]، وفي سورة غافر: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ ٱللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾[3]، وفي آخرها: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي ٱلْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[4]، للسائل أن يسأل عن اختلاف هذه الآيات مع اتفاقها في المعنى المقصود بها؟ وعن (وجه)[5] اختصاص كل موضع من مواضعها بما خص به منها؟ والجواب عن السؤالين معاً: أن هذه الآيات لم يختلف المقصود

(1) سورة الروم: آية 9.
(2) سورة فاطر: آية 44.
(3) سورة غافر: آية 21.
(4) سورة غافر: آية 82.
(5) سقط من ن 3.

بها وهو التنبيه على الاعتبار بحال من تقدم من القرون في أخذهم بمرتكباتهم[1]، وإنما ورد في كل موضع منها من ذكر ممن تقدم من القرون ما يلائم ما جرى في تلك السورة قبل ذلك الموضع أو بعده من إشارة أو تعريف اخباراً من غير تنبيه أو تحريك إلى الاعتبار بهم، فحين جيء بالتنبيه بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ (فَيَنْظُرُوا كَيْفَ)﴾[2] روعي ما ورد قبل أو بعد من إخبار أو إشارة، لذلك فبني ما عرض عليهم وحركوا به من التنبيه على ذلك المتقدم أو المتأخر والتحم معه، وكمل التعريف التنبيهي بحال المذكورين، والتأم ذلك وتناسب، وربما جرى ذكر أخذهم وهلاكهم بتكذيبهم في غير آية التنبيه ثم أفصح به في آية التنبيه (تأكيداً لموجب يستدعيه، فلرعي هذا اختلف التنبيه)[3] الوارد في هذه المواضع، لا لاختلاف في المعنى. بيان ذلك: أن آية الروم، وهي أولى تلك الآيات، فقد ورد فيما بعدها من تلك السورة قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنَ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُوهُمْ بِٱلْبَيِّنَاتِ فَٱنْتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[4]، فهذا تعريف منه سبحانه بما فعل بأولئك الذين كانوا من قبل هؤلاء وجاءتهم البينات، فذكر في أول السورة من حالهم هذا، ولم يذكر ما فعل بمن كذب منهم ولا بمن آمن، فعرفت الآية الأخيرة بذلك، وانه سبحانه انتقم منهم لاجترامهم بالتكذيب، وعرف بنصر مؤمنيهم ونجاتهم، فحصل من الآيتين التعريف التام بما جرى منهم ابتداء وانتهاء، وصار مجموع

---

(1) في ن 3: بمرتكبهم.
(2) سقط من ن 1، ن 2.
(3) سقط من ن 1، ن 2.
(4) سورة الروم: آية 47.

الآيتين من الالتحام كأن قد قيل: أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم مع زيادة قوتهم وانتشارهم وطول أعمارهم أكثر من هؤلاء، فجاءتهم رسلهم بالبينات فكذبوا فانتقمنا ممن أجرم وكذب، ونصرنا من آمن، وكان حقاً علينا نصر المؤمنين، وما ظلمنا من انتقمنا منه: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ. . .﴾[1] الآية، فتأمل وضوح هذا[2] كله وتناسبه والتئامه.

فإن قيل: فلم لم يرد ذكر أخذهم بالانتقام منهم لما أجرموا متصلاً بما تقدم من التذكير بالاعتبار بهم وكان يحصل ذلك كله في كلام متصل بعضه ببعض؟ ولم وقع ذكر أخذهم بالانتقام منهم لما كذبوا متأخراً عن الوارد من حالهم أولاً (التي)[3] أمر هؤلاء ونهوا عن الاعتبار بها؟ قلت: جرى ذلك على المعتاد منه سبحانه في دعاء الخلق إلى الإيمان من التلطف والرفق في الدعاء، وبذلك أمر رسله، عليهم السلام، فقال لنبينا صلى الله عليه وسلم: ﴿ٱدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[4]، وقال لموسى، عليه السلام: ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ ٱللَّهِ﴾[5] أي بنعمه وآلائه قبلهم، وقال لبني اسرائيل[6]: ﴿ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾[7]، وقال: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ

---

(1) سورة الروم: آية 9.

(2) في ن 3: هذه، والصواب: هذا.

(3) سقط من ن 3.

(4) سورة النحل: آية 125.

(5) سورة إبراهيم: آية 5.

(6) في ن 1، ن 2: يا بني إسرائيل.

(7) سورة البقرة: آية 47.

مِنْ عَدُوِّكُمْ﴾[1]، وهذا في القرآن كثير، فلما أمر هؤلاء وذكروا بالاعتبار بمن تقدم من القرون، ولم يتقدم قبل الآية الا التلطف والتأنيس، لم يكن ليناسب ذلك من أخذ المكذبين الا ما يكون إيماء وإشارة لا إفصاحاً، فلذلك اكتفى أولاً من الإشارة إلى أخذهم بقوله سبحانه: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾[2]، وترك الإفصاح بالانتقام إلى أن ورد إخباراً منه سبحانه لنبيه، عليه السلام، في غير معرض الدعاء إلى الإيمان فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُوهُمْ بِٱلْبَيِّنَاتِ فَٱنْتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾[3]، وحصل التعريف بغاية حال المذكورين[4] قبل في تكذيبهم، فهذا موجب تفريق هذا الإخبار، والله أعلم.

فإن قلت: فقد ورد في آية غافر من هذه الآي مجموع التنبيه والأخذ[5] متصلاً على غير ما قصدت الآية، قلت: ذلك لسبب اقتضاه يذكر بعد، فآيات الدعاء إلى الله تعالى إنما ترد في الأغلب على ما ذكرنا من التلطف والإبقاء على العباد وذكر الإحسان والرفق، وقد ترد على غير هذا لداع وحامل، والأكثر ما ذكرته. وأما آية فاطر فقد تقدمها قوله تعالى إخباراً لنبيه وتأنيساً: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِٱلْبَيِّنَاتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَابِ ٱلْمُنِيرِ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾[6]، فقيل بعد هذه فيما هو منها ومرتبط بمعناها: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ

---

(1) سورة طه: آية 80.
(2) سورة الروم: آية 9.
(3) سورة الروم: آية 47.
(4) في ن 3: المكذبين، والصواب: المذكورين.
(5) في ن 3: الآخر، وهذا لا يناسب السياق.
(6) سورة فاطر: آية 25-26.

﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾[1] فأخذتهم يا محمد بتكذيبهم وكفرهم، ولم يفت منهم أحد لأني عليم بأحوالهم القدير الذي لا يعجز في شيء ولا يفوتني هارب، وتأمل التحام هذا كله وتناسبه وكيف تم الاختبار وكمل انتهاء وابتداء، وتأمل كيف وقع الاكتفاء في آية الاعتبار بالإيمان إلى أخذهم بقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[2] إحالة على ما تقدم في إخبار نبيه، عليه السلام، بأخذهم في قوله: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾[3]، والتحم هذا كله وتناسب.

وأما الآية الأولى من سورة غافر فوردت على الجمع بين التنبيه للاعتبار بمن تقدم وبين أخذهم، ولم يرد فيها التفصيل الوارد فيما تقدم، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ ٱللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾[4]، ثم اتبع الآية بما يؤكد أخذهم، وذكرت العلة في ذلك من كفرهم، واجتمع في هذه الآية ما افترق في غيرها فقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِٱلْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[5]، فتحصل منها التعريف بأخذهم وذكر العلة الموجبة لذلك من تكذيبهم وكفرهم متصلاً ذلك كله بعضه ببعض، ولم تجر هذه الآية في التلطف في الدعاء والتنبيه على ما جرت نظائرها مما تقدم ونبه عليه، وسبب ذلك أنه تقدم في أول

---

(1) سورة فاطر: آية 44.
(2) سورة فاطر: آية 44.
(3) سورة فاطر: آية 26.
(4) سورة غافر: آية 21.
(5) سورة غافر: آية 22.

هذه السورة من الإخبار بسوء مراجعتهم وقبيح معاملتهم مع أنبيائهم ما يوجب سريع الأخذ وينافر التلطف، وذلك قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِٱلْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ ٱلْحَقَّ﴾[1]، فلما تقدم هذا من جوابهم بالباطل وما هموا به من أخذ رسلهم وامتحانهم زائداً إلى التكذيب ناسب هذا تعجيل أخذهم، فوردت آية التنبيه على ذلك، ولهذا اختصت من التأكيد ما لم يرد مثله فيما تقدمها: ﴿كَانُوا هُمْ أَشَدَّ﴾، فوكد بالضمير تخصيصاً وتعييناً للمذكورين قبل من قوم نوح والأحزاب، ثم اتبع ذلك بقوله في قراءة ابن عامر[2] بتخصيص من وعظ بذلك وخوطب فقيل: «مِنْكُمْ»، فتقابل التأكيد في الطرفين تأكيداً يناسب ما بنيت عليه الآية ويشهد له، ولرعي ما تقدم من السبب الأول وردت الآية الأخيرة من قوله في آخر السورة: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ . . .﴾[3] إلى قوله: ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[4]، ثم أعقب هذا بقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِٱلْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ[5] مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾[6] إشارة إلى ما كانوا يظنونه علماً ويجادلون به من قولهم: ﴿أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وقولهم: ﴿مَا[7] هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى﴾[8]، وقولهم: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾[9]، إلى ما ورد

(1) سورة غافر: آية 5.
(2) قراءة ابن عامر: قرأ ابن عامر: «هم أشد منكم».
(3) سورة غافر: آية 82.
(4) سورة غافر: آية 82.
(5) في ن 3: عند، والصواب: عندهم.
(6) سورة غافر: آية 83.
(7) في النسخ الثلاث: ان، والصواب: ما.
(8) سورة القصص: آية 36.
(9) سورة الأنفال: آية 31.

من متعلقاتهم ومجاوباتهم المشار إليها في قوله: ﴿وَيُجَادِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِٱلْبَاطِلِ لِيَدْحَضُوا بِهِ ٱلْحَقَّ﴾[1]، فسماه سبحانه علماً في قوله: ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾[2] بحسب اعتقادهم وظنهم، كما قال تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾[3] أي في زعمهم، وهو سبحانه المنزه عن الشريك والنظير، أو يكون ﴿عِنْدَهُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ المراد به ما كان لدَى من تعاطى النظر منهم فلم يوفق، من استبعاد العودة الأخراوية، وانكار حشر الأجساد بعد تفرق الأشلاء[4] والأجزاء وصيرورة بعضها غذاء لحيوان آخر ولتفرقها وفنائها، قالوا: ﴿مَنْ يُحْيِي ٱلْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾[5]، وقالوا: ﴿أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾[6]، وهو نظر مبني على قاعدتين واهيتين، وهما: إنكار القدرة، وانكار علمه تعالى بالجزئيات وعليهما بني منكرو حشر الأجساد من الفلاسفة، وهو قول زعيمهم أرسطو[7] ومن تبعه من المشائين[8] ومن قال بقولهم، وليس مما اتفقوا عليه، فقد نقلوا عن أفلاطون[9] وغيره من زعمائهم مخالفة هذا القول وموافقة

---

(1) سورة الكهف: آية 56.

(2) سورة غافر: آية 83.

(3) سورة القصص: آية 62.

(4) في ن 3: الأشياء، والصواب: الأشلاء، ويؤكده: تفرق.

(5) سورة يس: آية 78.

(6) سورة الإسراء: آية 49.

(7) أرسطو (حوالي 384-322ق. م.) أنظر: الموسوعة الفلسفية المختصرة، ترجمة فؤاد كامل ورفاقه، ص 32، ط. القاهرة 1963.

(8) المشاؤون: سمو بذلك لأخذهم الحكمة، وهو يمشون.

(9) أفلاطون (حوالي 427-347ق. م.): الفيلسوف اليوناني المعروف بمحاوراتـه الكثيرة كمحاورة بارمندس وتتياتوس والسفسطائي وتيماوس. . .
أنظر: الموسوعة الفلسفية المختصرة، ترجمة فؤاد كامل، ص 45.

المتشرعين في حشر الأجساد، وقد نقلوا عن جالينوس[1] التوقف، وقد رام بعض متفلسفة الإسلام الجمع بين المرتكبين فقال: تحشر الأجساد على تأويل لا يعلمه المتشرعون وذلك لما أرغمه من براهين الشريعة.

ولما بنى المنكرون مذهبهم على إنكار القدرة والعلم بالجزئيات آطراد في الكتاب العزيز، مهما ذكرت العودة الأخراوية، أن يناط بها وصفه سبحانه بالعلم والقدرة إفصاحاً أو إشارة[2] بينة إطراداً لا ينكسر ارغاماً للمنكر الجاحد وحجة قاطعة بالمعاند، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَأُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ إلى قوله ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[3]، فوصفه سبحانه بالعزيز[4] إشارة إلى القدرة وأشار قوله: «الحكيم» إلى العلم، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي ٱلْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾[5] ثم قال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٍ﴾[6] فقوله: «يحييها» «وأنشأها» إشارة إلى القدرة، وقد وقع الإفصاح بها بعد في قوله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾... الآية[7]، وبسط هذا وردّ أقوال هؤلاء الكفرة مستوفى في مظانه، وقد شفى فيه أئمتنا، رضي الله عنهم، وكتاب الله سبحانه (وتعالى)[8] واف لمن وفق لتدبره واعتباره بالبراهين القاطعة بخصومنا،

(1) جالينوس: أشهر الأطباء اليونانيين القدامى بعد أبقراط في نيرون، له ترجمة مطولة في دائرة معارف القرن العشرين، لمحمد فريد وجدي 3/3 وما بعدها.
(2) في ن 3: وإشارة، والأنسب أو إشارة.
(3) سورة الروم: آية 27.
(4) في ن 3: بالعزة.
(5) سورة يس: آية 78.
(6) سورة يس: آية 79.
(7) سورة يس: آية 81.
(8) سقط من ن 1، ن 3.

فما كان بأيدي من قدم ذكره من الشبهات فيما ذكرنا هو الذي فرحوا به واعتقدوه علماً، فورد التعبير على معتقدهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون، فقد وضح وجه مناسبة هذا لقوله تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وتبين ما أوجب خصوص كل آية من هذه الأربع بمواضعها، والله أعلم.

الآية الثانية من سورة الروم ـ قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ، وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ ٱلْبَرْقَ خَوْفاً (وَطَمَعاً)[1] وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[2]، للسائل أن يسأل عن وجه اختصاص كل آية من هذه الأربع بما ختمت به من وصف المعتبرين؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن الآية الأولى لما انطوت من حكمته سبحانه في سبب التناسل والتكاثر على ما أبداه تعالى في خلق الأزواج منا ليحصل السكن[3] وعدم التنافر، ثم غرس سبحانه المودة والرحمة في قلب كل واحد من الزوجين ليتم الالتئام ويحصل التعاون على ما به قوام العيش، إلى ما جعل في قلوبهما من حب الولد وهيأ له

(1) سقط من ن 3.
(2) سورة الروم: آية 21-24.
(3) في ن 3: السكون، والسكن أنسب.

عند وجوده من الرفق، إلى ما يتعلق بهذا[1] ويرجع إليه مما يحصل على عجائبه ولا يحاط ببعض الحكمة فيه إلا بمداومة الفكر وطول الاعتبار، ناسب هذا إعقاب هذه الآية بوصف التفكر فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. ولما كان خلق السماوات والأرض واختلاف الألسنة والألوان مع عظيم الأمر في ذلك باد منه الشهادة بأن وراء ذلك موجداً متنزهاً عن شبه هذه الأجرام، ومتعالياً عن تعبير مختلف الألسنة والألوان، ولم تكن شهادة هذه بحيث تخفى حتى يحتاج فيها إلى طول التفكر في البادي لمتصف بالعقل وإن اتسع النظر في عجائب ما انطوت عليهٔ الأجرام السماوية وانتشرت وجوه الاعتبارات اتساعاً تنحسر[2] العقول دونه وتكل الأذهان عن درك أدناه، ولهذا تحصل ذكر الاعتبار بالسماوات والأرض فقيل: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وقيل: ﴿فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وقيل: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ آيَاتٌ﴾، فأشير أولاً إلى خلق أجرامها وصورها[3]، وأشير ثانياً إلى خلق ما فيها، فهذا بحر لا تدركه الدلاء، وباب لا يسعه تدوين ولا إملاء، ومع ذلك فإن ربنا سبحانه ذكر عباده من ذلك بما تبدو شهادته فقال: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[4] إلى ما يتلو هذا مما يشهد بأول اعتبار مما لا تكل عنه البصائر والأبصار، وتأمل لطف دعائه سبحانه الخلق إلى عبادته[5] في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا

---

(1) في ن 3: بها، والصواب: بهذا.
(2) في ن 3: تتعير، والصواب: تنحسر.
(3) في ن 3: صورتها.
(4) سورة ق: آية 6-7.
(5) في ن 3: عباده، والصواب: عبادته.

رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ﴾[1] إلى قوله: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَاشاً وَٱلسَّمَاءَ بِنَاءً﴾[2] إلى أشباه هذه، فلما كان هذا الضرب من الإعتبار يحصل بأوله المقصود لكل أحد قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾[3]، فوضح تناسب هذا الختام، ولاح التلاحم والالتئام.

ولما كان أمر الليل والنهار منصوصاً على رحمة الخلائق بهما في عدة آيات بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ ٱللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾[4]، وقوله ﴿ٱللَّهُ[5] ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِراً﴾[6]، وقوله ﴿وَجَعَلْنَا ٱللَّيْلَ لِبَاساً وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشاً﴾[7]، إلى غير هذه من الآيات، فتحصل من مجموعها وفاء الاعتبار بهما وما فيهما، ومستند ذلك المحرك للاعتبار به السماع والأخبار الواردة به[8] أعقب بقوله: ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾[9].

وأما إراءته سبحانه البرق خوفاً وطمعاً، وإنزال الماء من السماء، وإحياء الأرض بعد موتها، فلا تحصل ثمرة الاعتبار به إلا لمن أطال

---

(1) سورة البقرة: آية 21.
(2) سورة البقرة: آية 22.
(3) سورة الروم: آية 22.
(4) سورة الإسراء: آية 12.
(5) في ن 3: والله، ولا وجود للواو.
(6) سورة غافر: آية 61.
(7) سورة النبأ: آية 10-11.
(8) في ن 1، ن 2: الوارد بسقوط تاء التأنيث والجار والمجرور «به».
(9) سورة الروم: آية 23.

الاعتبار وأمعن النظر وبالغ في ذلك، ولما كان حصول الثمرة المطلوبة هنا يتوقف على ما ذكر أعقب بقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

الآية الثالثة من سورة الروم ــ قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [1]، وفي سورة الزمر: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [2]، ففي آية الروم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ وفي الأخرى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا﴾، فللسائل أن يسأل عن الفرق؟

والجواب، والله أعلم: أن سورة الروم لما تقدم فيها قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [3]، وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [4]، والتفكر تردد نظر ومباحثة واعتبار، والنظر المحال عليه فيما حضوا عليه من سيرهم في الأرض إنما هو استعلام وبحث واعتبار بحال من تقدمهم، ناسب ذلك قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾، لأن قول القائل منا لغيره: ماترى في هذا الأمر؟ إنما يريد آبحث [5] عما يتردد في خاطرك ويختلج في فكرك وعرفني بما يظهر لك وتختاره، وكذا قول القائل: آفعل في هذه القضية بما أراك الله، إنما يريد اجتهد وأمض فيها من المتردد في خاطرك ما تراه أولى، والحاصل من الرأي هنا في مثل هذا غالب ظن وليس بعلم لإمكان الخطأ فيما يراه،

---

(1) سورة الروم: آية 37.
(2) سورة الزمر: آية 52.
(3) سورة الروم: آية 8.
(4) سورة الروم: آية 9.
(5) في ن 3: بحث، والصواب: الحث.

إذ لسنا بمعصومين، ولو فرضنا العصمة لكان الحاصل علماً، وفي كتاب الله سبحانه قوله لنبيه صلى الله عليه وسلم[1]: فأحكم بينهم بما أراك الله[2]، وإنما أحيل، عليه السلام، على اجتهاده والاعتبار بما لديه من الوحي وما أنزل عليه، إلا أنه، عليه السلام، مكتنف بالعصمة والحفظ من الخطإ والغلط فيما يراه مما يرجع إلى التبليغ وتقعيد أحكام شريعته، فالحاصل عن نظره صلى الله عليه وسلم وما يراه علم، وأما عن نظر غيره ممن ليس بمعصوم فظن كما تقدم. ولفظ رأى يصلح في الحالين، ويقع بالاشتراك على المعنيين وعلى الإبصار، فناسب لتردد لفظه بين هذه المعاني، وإن كان في سورة الروم يراد به العلم، ما تقدم في السورتين قوله: ﴿أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ وقوله: ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا في الأرض﴾ لجامع التردد في وضع اللفظ، وإن كان الفكر من قبيل المتواطىء والرؤية من المشترك، إلا أن التردد حاصل في المتواطىء بلحظ التشخص، فوضح التناسب.

وأما سورة الزمر فلم يتقدم (بها ما تقدم)[3] في سورة الروم مما يستدعي ذلك التناسب، فجيء بقوله: ﴿أَوَ لَمْ يَعْلَمُوا﴾، فطوبق باللفظ المعنى من حيث لا تردد فيهما ولا اشتراك، وأيضاً فقد تقدم في هذه السورة قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً﴾[4] وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً﴾[5] وقوله: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي﴾[6]،

---

(1) في ن 1، ن 2: عليه السلام.
(2) لعله يشير إلى الآية 105 من سورة النساء: ﴿لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾.
(3) سقط من ن 3.
(4) سورة الزمر: آية 2.
(5) سورة الزمر: آية 11.
(6) سورة الزمر: آية 14.

والاخلاص مسبب عن العلم، وهو ثمرته، أعني ثمرة العلم، فناسب هذا قوله: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾[1]، فإنهم إذا علموا تسبب عن علمهم الاخلاص إن سبقت سابقة سعادة، فناسب هذا أتم مناسبة، فهذا وجه ثان من الجواب، وكأنه مما قدم فيه المسبب[2] وهو الاخلاص بين يدي سببه وهو العلم، ووضح على هذا أن ما ورد هنا لم يكن ليناسب ما في سورة الروم[3]، ولا ما ورد في سورة الروم ليناسب ما في سورة الزمر، والله أعلم.

الآية الرابعة من سورة الروم قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ ٱللَّهِ (يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾[4]، وفي سورة الشورى قوله تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ ٱللَّهِ[5] مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾[6]، للسائل أن يسأل عن وجه اختلاف ما وقع به الإتباع في الآيتين فقيل في الأولى: ﴿يومئذ يصدعون﴾ وفي الثانية: ﴿ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير﴾؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن آية الروم إنما أعقبت بقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ تمهيداً لما اتصل بها من تفصيل الأحوال في قوله: ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾[7]، لأن

(1) سورة الزمر: آية 52.
(2) في ن 3: قام به المسبب.
(3) في ن 3: في سورة الزمر، وهو خطأ.
(4) سورة الروم: آية 43.
(5) بهامش ن 2.
(6) سورة الشورى: آية 47.
(7) سورة الروم: آية 44.

تصدعهم يراد به افتراقهم كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾[1]، فالمراد يومئذ يصدعون إلى ما أعد لكل منهم بحسب مرتكبه وحاله في كفره وإيمانه، وقد تضمن قوله: ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ جزاءه، وأشار إلى تفصيل أحوالهم في عذابهم كل بحسب مرتكبه: ﴿جَزَاءً وِفَاقاً﴾[2]، وكان الكلام في قوة أن لو قيل: فعليه مطابق كفره من العذاب، وكذلك تضمن قوله في الناجين: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ من تفصيل الأحوال في الثواب كل بحسب ما مهد لنفسه كما في قوله: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3]، فعبر عن ذلك بأوجز عبارة وأوفاها بالمقصود، وقدمت الاشارة إلى ذلك التفصيل في الطرفين بقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أي يبعدون[4] مفترقين كل لما سبق له مسبباً عن سالف عمله ومرتبطاً وفاقاً به، فهذا وجه تعقيب آية الروم بقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾.

وأما آية الشورى فإنه تقدم قبلها قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ﴾[5]، والولي من يرجع إليه انضواء[6] واعتماداً، ثم قال تعالى مخبراً عن الظالمين في نفي الولي والنصير عنهم: ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَالَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾[7]، فلما نفى عنهم الأولياء الناصرين والسبيل إلى التخلص

---

(1) سورة الروم: آية 14.

(2) سورة النبأ: آية 26.

(3) سورة الطور: آية 16.

(4) في ن 3: يعبدون، والصواب: يبعدون.

(5) سورة الشورى: آية 44.

(6) في ن 3: انطواء.

(7) سورة الشورى: آية 46.

ناسب ذلك أمره تعالى العباد بالاستجابة له فقال: ﴿ٱسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ ٱللَّهِ﴾[1] أي أنه آت لا محالة: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ﴾ أي من ولي ترجعون إليه أو يدفع عنكم، ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾ أي إنكار، فلا تعلق لكم ولا ينفعكم إنكاركم إن تعلقتم، فحذر تعالى عباده من حال الظالمين في عدم الولي والناصر، وأمرهم بالاستجابة قبل التورط وانقطاع الطمع والرجاء في التخلص، وعدم جدوى الانكار لمن ظن التعلق به، فحذرهم مما امتحن به غيرهم بعد ذكر حال من امتحن، فناسب ذلك كله أوضح تناسب.

الآية الخامسة من سورة الروم ــ قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾[2] وفي سورة الجاثية: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾[3]، للسائل أن يسأل عن زيادة «فيه» في سورة الجاثية وكونه لم يثبت في سورة الروم؟

والجواب، أن هذا لا إشكال فيه، لأن البحر لم يجر له ذكر في آية الروم، فلم يكن للضمير ما يرجع إليه، فلم يؤت به لهذا، ولو قصد محل جري الفلك ألزم الإتيان بالظاهر (ولقيل)[4]: ولتجري الفلك في البحر، وهو مفهوم من السياق، فلم يحتج إليه هناك. أما آية الجاثية فإنه لما قدم فيها ذكر البحر جيء بالضمير المجرور العائد إليه على ما ينبغي، وكان له مفسراً، فحسن الإتيان به بخلاف آية الروم، فالفرق بينهما لا خفاء به.

---

(1) سورة الشورى: آية 47.
(2) سورة الروم: آية 46.
(3) سورة الجاثية: آية 12.
(4) سقط من ن 3.

سورة لقمان

الآية الأولى منها ــ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَـاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1]، وفي سورة الجاثية: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ آيَاتِ آللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[2]، للسائل أن يسأل عن تخصيص آية لقمان بقوله: ﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً﴾؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن آية الجاثية لما تقدم فيها: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ آيَاتِ آللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً﴾، فوصفه بسماع آيات الله لم يكن ليطابقه ذكر الوقر في الأذن لأنه قد ذكر سماعه الآيات، والوقر مانع من السمع، فلم يناسب الاعلام بالسماع ذكر الوقر المانع منه. فإن قيل: لو ذكر هنا الوقر في الأذنين[3] لم يكن ليكون إلا تأكيداً لبيان توليه وإعراضه فكان يناسب، قلت لو وكد بذلك[4] لاقتضى مقاربة عدم السماع، وليس المراد ــ والله أعلم ــ إلا أنه سمع وأعرض، فكأنه لم يسمع، ليجري الوارد هنا مع قوله تعالى فيمن صمم على كفره من يهود: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ آللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ

---

(1) سورة لقمان: آية 7.

(2) سورة الجاثية: آية 7-8.

(3) في ن 3: الأذن، والصواب: الأذنين، ويؤكده ما ورد في الآية.

(4) في ن 1، ن 2: بدلالة، ولا يستقيم به المعنى.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[1]، وإذا أريد إبقاء سماعهم، ولم يرد منعه البتة، لم يناسبه التأكيد المقرب من المنع من أن التنبيه الواقع (مراد)[2]، فحصل المقصود، والله أعلم. ولما لم يقع ذكر سماع الآيات في آية لقمان، وتقدم ذكر المشار إليه فيها بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾[3]، وهذه زيادة مرتكب، فناسبها ذكر زيادة الوقر. مع أنه لم يرد فيها ذكر سماعه الآيات كما ورد في آية الجاثية، فازداد وضوح التلاؤم، وإن عكس الوارد لا يلائم، والله أعلم بما أراد.

الآية الثانية من سورة لقمان ـ قوله تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[4]، (وقال في سورة)[5] الشورى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[6]، يسأل عن مقتضى توكيد الخبر في هذه الآية وسقوط التوكيد من الأولى؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن آية الشورى، لما دخلها معنى القسم، وكانت على تقديره، إذ اللام في قوله: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ توطئة له ودالة على تضمين الآية معناه، ناسب ذلك زيادة لام التأكيد في خبر إن، وذلك ظاهر في معنى الآية. وأما آية لقمان فقوله فيها: ﴿إِنَّ

---

(1) سورة البقرة: آية 75.
(2) سقط من ن 3.
(3) سورة لقمان: آية 6.
(4) سورة لقمان: آية 17.
(5) سقط من ن 3 وعوض بقوله: وفي الشورى.
(6) سورة الشورى: آية 43.

ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ مجرد إخبار عن حال ما وقعت الوصية به، ولا مدخل للقسم هنا ولا معنى له، فلم تدخل لام التأكيد في الخبر إذ ليس في الآية معنى قسم يستدعيها، ولا وقع في اللفظ ما يطابقها، فورد كل على ما يجب ويناسب، ولو قدر العكس لما ناسب، والله أعلم.

الآية الثالثة من سورة لقمان قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[1]، وفي سورة فاطر: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾[2]، وفي سورة الزمر: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّارُ﴾[3]، للسائل أن يسأل عن قوله في سورة لقمان: ﴿إِلَى أَجَلٍ﴾ بإلى، وفي السورتين بعد ﴿لِأَجَلٍ﴾ فجُرّ أجل باللام مع اتحاد المعنى، فما الفرق؟

والجواب، والله أعلم: أن آية لقمان تقدمها التنبيه على الاعتبار بها بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ ثم قال: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ فعطف بواو النسق المقتضية الجمع، فدخل هذا مع ما قبله تحت حكم التنبيه بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، وحكم التنبيه بالاعتبار منسحب على المجموع للاشتراك في اللفظ والمعنى، فطال الكلام بحسب ما اقتضاه مقصوده، فناسب طوله الجر بما

(1) سورة لقمان: آية 29.
(2) سورة فاطر: آية 13.
(3) سورة الزمر: آية 5.

يناسبه مما لا يخرج عن معنى اللام الجارة وهو إلى، فآنجر الأجل بها.
ولما بنيت الآيتان بعد على إيجاز ليس في آية لقمان. ناسبه الجر باللام آكتفاء بما يحرز المعنى المقصود ويناسب التركيب، وورد كل على ما يناسب أتم مناسبة، والله أعلم.

* * *

سورة السجدة

(الآية الأولى منها)[1] قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾[2]، وفي سورة سبأ ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾[3]، للسائل أن يسأل عن صرف الوصف إلى العذاب أولاً فذكر فقيل: ﴿ٱلَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ وصرفه ثانياً إلى آلنار فقيل: ﴿ٱلَّتِي كُنْتُمْ بِهَا﴾ فأنث الموصول وآلضّمير، ما وجه ذلك؟

والجواب: إنهم يكذبون بالنار وبعذابها، وقد ورد العذاب مضافاً إليها في السورتين، والعذاب مذكر والنار مؤنثة، وعودة الضمير إلى كل من المضافين تحصل[4] المقصود على السواء، فإنما يبقى[5] السؤال عن تخصيص كل واحدة من السورتين بما ورد فيها؟

والجواب عنه: أن آية السجدة اقترن بها ما يستدعي أن يناسب وهو قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَى دُونَ ٱلْعَذَابِ

---

(1) سقط من ن 3.
(2) سورة السجدة: آية 20.
(3) سورة سبأ: آية 42.
(4) في ن 3: فحصل، ولا يستقيم به المعنى.
(5) في ن 3: فأما معنى، وبه يختل المعنى.

ٱلْأَكْبَرِ﴾[1]، فلما تفصل ذكر العذاب إعلاماً بإلحاق ضريبة الأدنى والأكبر بمن جرى الوعيد لهم، والعذاب مذكر[2]، وقد تكرر، فتأكد[3] رعيه، فناسبه عودة الضمير قبله إلى العذاب المضاف إلى النار مذكراً ليجري ذلك كله مجرى[4] واحداً. ولما لم يكن يتلو آية سورة سبأ ولا قبلها ما يستدعي ذلك، أعيد الضمير إلى النار مؤنثاً، ليحصل في السورتين ورود الوجهين الجائزين كماتقدم مع التناسب، والله أعلم.

* * *

---

(1) سورة السجدة: آية 21.

(2) في ن 3: فذكر، والصواب: مذكر.

(3) في ن 3: بتأكيد، والصواب: فتأكد.

(4) في ن 3: جرياً.

سورة الأحزاب

الآية الأولى منها قوله تعالى: ﴿لِيَسْأَلَ ٱلصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً﴾[1]، وفيما بعد من السورة: ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾[2]، (يسأل عما أعقبت[3] به كل من الآيتين مع تقارب ما بني عليه التعقيب)[4]؟

والجواب، والله أعلم: أن اختلاف التعقيب مرعي[5] فيه ما تقدم قبل كل واحدة من الآيتين، أما الأولى فالمتقدم قبلها قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَافِرِينَ وَٱلْمُنَافِقِينَ﴾[6]، ثم لم يعد الكلام إلى شيء من مرتكبات المنافقين ولا تفصيل أحوالهم، فناسب هذا قوله: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً﴾[7]، والكافر بالنفاق كالكافر المتظاهر بكفره. وأما الآية الثانية فتقدمها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَافِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ

---

(1) سورة الأحزاب: آية 8.
(2) سورة الأحزاب: آية 24.
(3) في ن 3: أعقب.
(4) بهامش ن 1.
(5) في ن 3: يرعى.
(6) سورة الأحزاب: آية 1.
(7) سورة الأحزاب: آية 8.

مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً﴾ [1] ، ثم تتابعت الآي بعدُ معرّفةً بسوء مرتكبهم وقبيح أفعالهم في ثماني آيات أو نحوها إلى قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [2] ، ثم أعقب هذا بذكر حال المؤمنين، وذكروا بأحسن ما يتحلى به الصادق في إيمانه، فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً﴾ [3] . إلى عظيم ما وصفهم به سبحانه، ثم أعقب بذكر حال الفريقين فقال: ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾[4]، (وقد أبقى سبحانه عليهم بقوله: ﴿إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾)[5]جرياً على المطرد من عظيم حلمه[6] وسعة عفوه.ورحمته، وكل من هذا وارد على أعظم مناسبة. قلت: وهذا (مما)[7] يشبه المتشابه من الضرب الذي بني عليه هذا الكتاب وليس منه.

الآية الثانية من سورة الأحزاب[8] قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً﴾[9]، وفي آخر السورة: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً﴾[10]

---

(1) سورة الأحزاب: آية 12.
(2) سورة الأحزاب: آية 21.
(3) سورة الأحزاب: آية 22.
(4) سورة الأحزاب: آية 24.
(5) سقط من ن 3.
(6) في ن 3: ذاته، والصواب: حلمه.
(7) سقط من ن 3.
(8) في ن 1: الأعراف، وهو خطأ.
(9) سورة الأحزاب: آية 38.
(10) سورة الأحزاب: آية 62.

للسائل أن يسأل عن وجه الاختلاف فيما أعقبت به كل آية منها؟ ففي الأولى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً﴾، وفي عقب الثانية: ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً﴾.

ووجه ذلك، والله أعلم: أن الآية الأولى معقب (بها)[1] قصة زينب أم المؤمنين وزيد بن حارثة، رضي الله عنهما وما جرى في ذلك إلى أن تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم(فهذه الآية تأنيس لرسول الله صلى الله عليه وسلم)[2]، وإعلام له أن تلك سنته سبحانه في عباده التي شاءها وقدرها حكماً ثابتاً[3] فيمن[4] تقدم من الرسل والأنبياء ومن اهتدى بهديهم، فلا حرج عليك يا محمد فلا تصغ إلى قول منافق (يقول)[5] تزوج محمد حليلة ابنه، فإن زيداً ليس ابنك: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾[6]، وأنا شئت تزويجك إياها وحكمت به[7] في سابق علمي بعد تطليق زيد لها وانفصاله عنها: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا﴾[8] ليعلم أن تلك سنتك وسنة أمتك بعدك ﴿لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً﴾[9]، فهذه الآيات تأنيس للنبي صلى الله عليه وسلم، وتسلية له عن خوض المنافقين، وتنزيه لقدره

---

(1) سقط من ن 3.
(2) سقط من ن 1، ن 2.
(3) في ن 3: ثانياً، والصواب: ثابتاً.
(4) في ن 3: فيما، والصواب: فيمن إذ يقصد به العاقل.
(5) سقط من ن 3.
(6) سورة الأحزاب: آية 40.
(7) في ن 3: حكمته، والصواب: حكمت به.
(8) سورة الأحزاب: آية 37.
(9) سورة الأحزاب: آية 37.

العلي وتبرئة[1] من كل متوهم فيه أدنى نقص، ورفع لما يتوهم ويقدر وليس على ظاهره السابق من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾[2]. فهذه آية تعلق (بها)[3] من كان في قلبه مرض وتهجموا على باد من مفهومها، فقالوا: أنه عليه السلام رآها فمال إليها وأحبها في حكاية ذكرها المفسرون، يبطلها ويردها المقطوع به من أن زينب نشأت معه، ولم يزل يراها لمكان قرابتها منه، وقوله لزيد عتيقه الذي أنعم عليه بالعتق: اتق الله ــ يريد اتق الله فيما تذكر عن زينب، لأن زيداً نسب إليها نشوزاً وتوقفاً عن طاعته، فأمره بتقوى الله في أمرها والتثبت فيما يحكيه عنها مما كان يظنه نشوزاً، وكانت زينب، رضي الله عنها، أعظم قدراً من أن تقع في معصية النشوز عمداً، ولكن الزوجين يطلب كل منهما غاية في الوفاء يرى عند غلبة (حب)[4] هذا المطلب عليه ما يقتصر عنه نشوزاً، ففي الجاري من هذا قال له عليه السلام: اتق الله، وأخفى عنه ما كان تقدم له الإخبار به بالوحي من أنه[5] سيطلقها وأنه، عليه السلام، سيتزوجها، فهذا الذي أخفاه، عليه السلام، في نفسه ولم يتكلم به حتى أبداه الله، وقوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ أي تخشى كلام المنافقين وقولهم إن محمداً تزوج آمرأة ابنه، من حيث كان، عليه السلام، قد تبناه[6] قبل الوحي،

---

(1) في ن 3: تنزه، والأنسب تبرئة.
(2) سورة الأحزاب: آية 37.
(3) سقط من ن 3.
(4) سقط من ن 3.
(5) في ن 3: ومن انه، والواو هنا زائدة.
(6) في ن 3: نباه، والصواب: تبناه.

وقصة ذلك معروفة مشهورة، فكانوا يقولون: زيد بن محمد حتى نزل قوله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ ٱللَّهِ﴾[1]، فقيل له، عليه السلام، وقد أدرك الاستحياء من أن يتكلم المنافقون بذلك وخشية منهم فقال له: لا تَخش أحداً فإنك إنما جريت في ذلك كله على ما بين الله لك من الشرع الذي جعله سبحانه سبيلك ودينك الذي تدعو إليه، وطريق من تقدمك من الرسل الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله، فالله أحق أن تخشاه أنت يا محمد، ولا تصغ إلى أحد[2]، ولا تستحيي منه، فإنك على صراط مستقيم، فقد وضح ما أخفاه في نفسه وهذا الذي أبداه تعالى، ألا ترى أنه سبحانه قد وعد أنه يبدي ما أخفاه صلى الله عليه وسلم في نفسه، فهل ترى في تلك القصة خلاف ما نطق به كتابه من قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا﴾[3]، وكانت زينب تفخر بهذا وتقول لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم: زوجكن أهلوكن وزوجني الله من فوق سبع سماوات[4]، فهذا إخباره سبحانه وما أبداه مما أخفاه نبيه صلى الله عليه وسلم في نفسه وما سوى هذا فاختلاق[5]. ونقول: وقد تسامح المفسرون هنا، وتبع آخرهم أولهم في نقل ما كان الواجب تركه، إذ هو خلاق القرآن لمن وفق لتدبره ولحظ شهادة بعضه لبعض، فهذا مقصود هذه الآية، ولمجموع

---

(1) سورة الأحزاب: آية 5.

(2) في ن 3: إلى قول أحد.

(3) سورة الأحزاب: آية 37.

(4) الإصابة: كتاب النساء 470؛ الاستيعاب بهامش الإصابة 306/4-307.

(5) في ن 3: فاختلال، ولا يستقيم به المعنى.

ما ذكرنا أعقبت[1] بقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً﴾[2]. وقد اتبعت الآية بذكر من سن سبحانه حكم هذه الآية لهم، وأنهم الرسل، عليهم السلام، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ ٱللَّهَ﴾[3]، فتأمل هذا التعقيب، وقد قيل له، عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾[4]، وقيل له: ﴿أُولَئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[5]، وعرفنا ربنا سبحانه أن نبينا كذلك فعل. فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[6].

وأما الآية الثانية فإنه سبحانه لما قال: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ ٱلْمُنَافِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ (ثُمَّ لاَ يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً) [7] مَلْعُونِينَ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً﴾[8] أتبع تعالى بالإخبار أن تلك سنته الجارية في الذين خلوا من قبل، وهذا كقوله: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾[9]، فأعلم أنها سنته الجارية فيهم: ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً﴾[10]، وقد تكرر هذا في مواضع من كتاب الله سبحانه، ووضح هذا التناسب في كل من الإعقابين، والله سبحانه أعلم بما أراد.

---

(1) في ن 3: ما أعقبت ويبدو أن ما هنا زائدة.
(2) سورة الأحزاب: آية 38.
(3) سورة الأحزاب: آية 39.
(4) سورة الإسراء: آية 77.
(5) سورة الأنعام: آية 90.
(6) سورة الشورى: آية 52.
(7) سقط من ن 1، ن 2: ومعوض بقوله إلى قوله: ملعونين.
(8) سورة الأحزاب: آية 60-61.
(9) سورة غافر: آية 35.
(10) سورة الأحزاب: آية 62.

سورة سبأ

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾[1]، وقال بعد: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[2] بالإفراد في الأولى والجمع في الثانية، فللسائل أن يسأل عن ذلك؟

والجواب عنه[3]، أن الإشارة أولاً إلى قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ ٱلسَّمَاءِ﴾[4]، ولم يتقدم ما حركوا إلى الاعتبار به غير هذا، وقد انضم ذلك تحت ما الموصولة، ولفظها مفرد فروعي من حيث اللفظ فقيل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ بالإفراد. وأما الثانية فتقدم قبلها قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾[5]، ثم قال: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾[6]، ثم قال: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ﴾[7] إلى قوله:

---

(1) سورة سبأ: آية 9.
(2) سورة سبأ: آية 19.
(3) في ن 3: عن ذلك.
(4) سورة سبأ: آية 9.
(5) سورة سبأ: آية 10.
(6) سورة سبأ: آية 12.
(7) سورة سبأ: آية 13.

﴿مَا لَبِثُوا فِي ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [1]، ثم قال: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسَاكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾. . . الآيات [2]، فذكر سبحانه بالاعتبار بما منح داود من تسبيح الجبال والطير معه وإلانة الحديد، وبما سخر لسليمان، عليهما السلام، من الريح تحمله [3] وجنوده حيث شاء في السرعة التي أشارت إليها الآية، وإسالة عين القطر له وهو النحاس المذاب، وعينه معدنه، وعمل الجن بين يديه تسخيراً فيما يريده من عمل ما شاء مما في قواهم، ثم ذكر ما كان لسبإ في مساكنهم من آية الجنتين عن يمين وشمال وأكلهم منها وتنعيمهم إلى أن أعرضوا فأرسل عليهم سيل العرم إلى آخر قصتهم، فهذه المعتبرات لم تدخل تحت موصول ولا اسم مفرد يضم جميعها بل ذكرت مفصلة، فقيل إشارة إلى جميعها: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾، ولا يمكن إلا هذا إذ لم يتقدم مفرد من موصول أو غير ذلك ما يجمع الكل يرجع إليه الضمير مفرداً كما في الآية الأخرى، فقيل هنا: «لآيات» ولم يمكن إفرادها هنا، وأمكن في الآية الأخرى لوحدية الموصول الجامع لما تفصل بعده، فروعي لفظه لأن ذلك أوجز من رعي معناه.

ثم إن المعلوم من لسان العرب إذا تقدم من الأسماء المفردة ما له لفظ ومعنى فإن رعي لفظه في عودة ضمير أو تفسير أولى، ثم قد يراعى المعنى بعد فيعود الضمير بحسبه من تثنية أو جمع، ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

---

(1) سورة سبأ: آية 14.

(2) سورة سبأ: آية 15.

(3) في ن 2: فحمله، والصواب: تحمله.

ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداًۖ﴾[1]، فقوله: «يؤمن» «ويعمل» «وندخله» رعي للفظ «مَنْ» وهو مفرد فعاد الضمير إليه مفرداً، (وقوله بعد: «خالدين» رجوع إلى المعنى، ويقل رعي المعنى بديهاً في هذه الألفاظ التي هي مفردات)[2] تحتها كثرة، ومنه بيت الكتاب[3].

تعال فإن عاهدتني لا تخونني نكن مثل من يا ذيب يصطحبان[4]

فقال: يصطحبان، فأعاد على معنى من، والإعادة إلى اللفظ أكثر، وعليه قيل في الآية الأولى: ﴿إن في ذلك لآية﴾ بالإفراد على الأولى والأكثر مع جواز وروده عائداً على المعنى إن اعتضد ذلك.

أما الآية الثانية فجمع آيات فيها لا يمكن خلافه، فورد كل على مايجب، ويمتنع العكس لما ذكر. فإن قيل: (إن)[5] قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾... الآيات، استئناف باللام التي تقع جواباً للقسم، فقد يقال إنها تقطع ما بعدها عما قبلها. وإذا أمكن هذا فما المانع من رجوع اسم الإشارة إلى ما بعد قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسَاكِنِهِمْ...﴾ الآية[6] وتلك قصة مفردة فكان يكون الوارد هنا أي الآية على الإفراد رعياً لمعنى القصة؟

فالجواب أنّا لو فرضنا هذا الاعتراض لازماً لقلنا: ان قصة سبأ قد انطوت على تفصيل يقتضي جمع آيات، إلا أن الاعتراض أولاً غير لازم

---

(1) سورة الطلاق: آية 11.

(2) بهامش ن 2.

(3) الكتاب 473/1.

(4) البيت للفرزدق، البحر الطويل.

(5) سقط من ن 3.

(6) سورة سبأ: آية 15.

(إذ)[1] قد يشار إلى مجموع قصص تفصلت ودخل كل قصة في أولها هذه اللام، فلم يمنع ذلك من عودة اسم الإشارة إلى الجميع كقوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ﴾[2]، والإشارة بأولئكم إلى كل من تقدم ذكره من أول قصة نوح، عليه السلام، إلى قصة آل فرعون، وقد ابتدئت كل قصة منها «بلقد»، ثم أشير (بعد)[3] إلى الجميع ليعتبر بأحوالهم، فكذلك في الآية التي نحن فيها، فسقط الاعتراض، وتبين أن لك «آية» واردة على أوضح التناسب، والله أعلم.

سورة الملائكة: قد تقدم ما فيها، وكذلك **سورة يس**[4]

* * *

(1) سقط من ن 3.
(2) سورة القمر: آية 43.
(3) بهامش ن 3.
(4) مواطن كثيرة يصعب حصرها هنا، ويمكن الوقوف عليه بالرجوع إلى فهرس الآيات.

سورة الصافات

الآية الأولى منها ـ قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾[1]، وقال فيما بعد: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾[2]، للسائل أن يسأل عن قوله أولاً: ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ وثانياً: ﴿أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ لم اختلفا مع أن مرادهم في الموضعين إنكار البعث بعد الموت؟

والجواب: أن الموضع الأول لم يتقدمه شيء يوجب عدولهم[3] عن التعبير عن معتقدهم (في إنكار الإحياء بعد الموت فورد على ما يطابق معتقدهم)[4]، وأما الآية الأخرى فقد تمهد قبلها ذكر الجزاء الأخراوي وذكر السؤال، فأول ذلك ذكر ما يقال لهم إذا حشروا قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ﴾[5] وقوله بعد: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[6]، وقوله بعد: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ

---

(1) سورة الصافات: آية 15-16.
(2) سورة الصافات: آية 51-53.
(3) في ن 3: عدوله، والصواب: عدولهم.
(4) سقط من ن 3.
(5) سورة الصافات: آية 24.
(6) سورة الصافات: آية 39.

يَتَسَاءَلُونَ﴾[1]، وهذا في الآخرة إلى قوله[2]: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ يَقُولُ﴾[3]، وهذا قول الكافر وقد باشر العذاب، فأخبر عن قرينه الذي قيض له[4] المشار إليه بقوله: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ ٱلرَّحْمَانِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾[5]، فأخبر عنه سبحانه أنه كان يقول له في دنياه: ﴿أَئِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ أَئِذا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾[6] أي لمجزيون بأعمالنا وما اجترحناه في دنيانا، وفي طي قولهم: ﴿أَئِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ إنكار للبعث لإنكارهم ما ينبني عليه[7] ويترتب بعده من الجزاء، وقد تقدم ذكر الجزاء فناسبه ذكر تعجبهم منكرين وقوعه، ولم يكن ليحسن وقوع «لمدينون»[8] في الآية الأولى إذا كان يكون هناك غير مفصح بإنكارهم البعث ولا ورد قبله ما يستدعيه، فجاء كل على ما يجب ويناسب، والله أعلم.

الآية الثانية (من سورة والصافات)[9] قوله تعالى في ختام قصة نوح، عليه السلام: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[10]، ثم أعقب القصص الثلاث بمثل هذا، أعني قصة ابراهيم وقصة موسى وهارون

---

(1) سورة الصافات: آية 27.
(2) في ن 3: وقوله والسياق يقتضي إلى قوله.
(3) سورة الصافات: آية 51-52.
(4) في ن 1، ن 2: فأخبر عن قوله المقيص له، ولا يستقيم به المعنى.
(5) سورة الزخرف: آية 36.
(6) سورة الصافات: آية 52-53.
(7) في ن 3: ما بني عليه، والصواب: ينبني.
(8) في ن 3: الذنوب، ولا يستقيم به المعنى.
(9) سقط من ن 1، ن 2.
(10) سورة الصافات: آية 80.

وقصة الياس [1] ، إلا أنه ورد في قصة ابراهيم، عليه السلام: ﴿(سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ) [2] كَذَلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [3] ، فسقط منه لفظ «إنا» وثبت في القصص الأخر، فيسأل عن وجه اختصاص قصة ابراهيم دون غيرها بذلك؟

والجواب، والله أعلم: أنه تقدم في قصة ابراهيم بعينها قوله: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [4] ، ثم لما كرر ليبنى عليه قوله: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [6] كما في نظائره من ختام القصص الأخر كرر قوله: «كذلك» لبناء علة الجزاء وموجبه عليه، كما تكرر قوله: «أنكم» في قوله: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ﴾[7]، (فكرر)[8] «أنكم» تأكيداً[9] لينبني عليه الخبر، فكذلك كررت هنا الجملة (بأسرها)[10]وهي قوله: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ لينبني عليها ما ورد علة موجبة لجزائهم لتجري هذه القصة مجرى نظائرها، ولم يكرر حرف التأكيد والضمير المنصوب به إيجازاً واختصاراً لذكره فيما تقدم في

---

(1) في ن 1: الناس، والصواب: الياس.
(2) بهامش ن 2.
(3) سورة الصافات: آية 109-110.
(4) سورة الصافات: آية 104-105.
(5) سورة الصافات: آية 111.
(6) سورة المؤمنين: آية 35.
(7) سقط من ن 3.
(8) في ن 3.
(9) في ن 3: تأكيد، والصحيح: تأكيداً.
(10) سقط من ن 1، ن 2.

القصة نفسها، فوضح أنه لا فرق بينها وبين ما اكتنفها من القصص الوارد فيها ذكر «إنا» بوجه.

فإن قيل: ولم أخر قوله: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] عن قوله أولاً: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؟ قلت: لما أعقب به قوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ من الجمل الواردة مورد جمل الاعتراض إشادة بجلالة ابراهيم وإعلاماً بعظيم (جلاله فقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَاءُ ٱلْمُبِينُ﴾[2]، ثم أكد)[3] عظيم الاعتناء به فقال: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾[4]، فلما طال الكلام بما ورد تتميماً وتكميلاً لحاله، عليه السلام، وبعد عن قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أعيد منه الجملة الواقعة خبراً لأن ينبني عليه ما بني على نظائره من قوله: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فقصة ابراهيم، عليه السلام، أوفى هذه القصص تعريفاً بكمال الحال، ولم ينقص منها شيء من الإخبار بصفة الجزاء وسببه كما في غيرها، بل زاد فيها ما ورد اعتراضاً كما تبين، وذلك لما زاد في قصته من عظيم ابتلائه زيادة[5]، والله أعلم بما أراد.

الآية الثالثة من سورة الصافات: غ ــ قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾[6]، وفي الذاريات: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ

---

(1) سورة الصافات: آية 111.
(2) سورة الصافات: آية 106.
(3) سقط من ن 3.
(4) سورة الصافات: آية 107-109.
(5) في ن 1، ن 2: وزيادته.
(6) سورة الصافات: آية 101.

عَلِيمٍ﴾ [1]، والمبشر به واحد والقصة واحدة. فللسائل أن يسأل عن موجب[2] اختلاف الصفتين في السورتين؟

والجواب أن موجب تخصيص الآية الأولى بصفة الحلم ما اقترن بها من قوله تعالى[3]: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ (قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَٱنْظُرْ مَاذَا تَرَى)﴾[4]، وجواب ابنه، عليهما السلام، بقوله: ﴿يَا أَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾[5]، واتباعه ذلك تسلية لأبيه وامتثالاً لأمر ربه (﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّابِرِينَ﴾[6]، فلما دل جوابه على عظيم حاله)[7] وتلقيه عظيم هذا الابتلاء بالرضا والصبر التام امتثالاً لأمر ربه (وإرضاء لأبيه، كان ذلك مبيناً لجليل حلمه ووفور كماله)[8] في حاله مع وصفه في سنه بالأولية والابتداء. أما آية سورة والذاريات فلم يقع فيها ذكر هذه القصة، فورد فيها وصفه بالعلم المحرز لجليل نبوته، ولو ورد في السورتين عكس الوصف الوارد لما ناسب هذه المناسبة الحاصلة، والله أعلم.

الآية الرابعة من سورة والصافات قوله تعالى: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾[9]، ثم قال: ﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾[10] يسأل عن

---

(1) سورة الذاريات: آية 28.

(2) في ن 3: وجوب، والصواب: موجب.

(3) سورة الصافات: آية 102.

(4) سقط من ن 1، ن 2.

(5) سورة الصافات: آية 102.

(6) سورة الصافات: آية 102.

(7) سقط من ن 3.

(8) سقط من ن 3.

(9) سورة الصافات: آية 175.

(10) سورة الصافات: آية 179، وهي بهامش ن 2.

الضمير المفعول وثبوته أولاً في قوله: «وأبصرهم» وسقوطه ثانياً في قوله: «وأبصر»؟ وعن وجه التكرار؟

والجواب عن ذلك: أن التكرار تأكيد وتشديد في الوعيد، وتناسب ذلك بين مألوف في كلام العرب، وأما سقوط الضمير في الثاني فيحرز عموماً لهم ولغيرهم في الوعيد لأن قوله: «وأبصرهم» المراد به أمره، عليه السلام، بأن يترقب ما ينزل (بهم)[1] ويحل بساحتهم من الانتقام، وإعلامه[2] صلى الله عليه وسلم بكفايته إياهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِئِينَ﴾[3] فكان كذلك[4]، وقال تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾[5]، ففعل بهم ذلك يوم بدر، فقدم[6] (الله)[7] سبحانه تأنيس نبيه، عليه السلام، بإخباره إياه في هذا الوعيد (لهم)[8] بأخذهم وقطع دابرهم، ثم أردف هذا الوعيد بوعيد ثان فيه عموم يشملهم ولا يرجع عن تناول غيرهم ممن سلك مسلكهم، ويشعر بحاله[9] هو، عليه السلام، وحال من أذعن واستجاب له فقال: «وأبصر» أي ترقب ما أفعل لك من تأييدك[10] ونصرك وجزائك الأخراوي

---

(1) سقط من ن 3.
(2) في ن 3: وإعلاماً له.
(3) سورة الحجر: آية 95.
(4) في ن 3: ذلك.
(5) سورة القمر: آية 45.
(6) في ن 1، ن 2: فقد من، والصواب: فقدم.
(7) سقط من ن 1، ن 3.
(8) سقط من ن 3.
(9) في ن 3: ماله، والصواب: حاله، ويؤكد ذلك ما ورد بعد.
(10) في ن 3: مما بيدك، والصواب: من تأييدك.

وجزاء من أمن بك بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وما أفعل بمن عاداك وعاندك ممن باشرك بتمرده وطغيانه أو بعد عنك، من أخذهم وقطع دابرهم ووبيل جزائهم الأخراوي، هذا مفهوم لا يرجع إطلاق قوله: «وأبصر» عن عطائه وتعميمه، ذلك كله مما يعتضد من مواضع أخر، وتأمل ما فعل سبحانه بكسرى حين مزق كتابه صلى الله عليه وسلم تمرداً وطغياناً وإن لم يباشره، لما جاوز حد كفره إلى التمرد والطغيان مُزق هو وآله كل ممزق.

أما قوله: «وأبصرهم» فخاص التناول للمباشرين[1] لمكان[2] التقييد بإعمال الفعل في ضميرهم، فهو وإن تناول أخذهم في الدنيا وتمكين نبيه والمسلمين منهم، ثم عقابهم الأخراوي ليبلغ بالتهديد والوعيد أقصى ما يحتمله، فإنه لا يتعداهم إلى غيرهم وأما قوله «وأبصر» بإطلاق الفعل عن التقييد فقابل غير ممتنع عن تناولهم ومن سواهم من كل من خالفه، عليه السلام، وعاداه، ومقتضى الوعيد لهم ومقصود بشارته له، عليه السلام[3]، يحبّذان أن إطلاق الأمرين وتعميم الطرفين من الوعيد والبشارة، فقد وضح أنه لا تكرار في الحقيقة، بل ورد ذلك كله على ما يلائم ويناسب، وعبر عن ذلك كله بعبارة الإبصار إشعاراً بقربه، فكأنه بمنزلة المعاين المدرك بالبصر لتعجيل الدنياوي منه وتحقيق وقوع الأخراوي وتيقنه، فكل هذا على أوضح مناسبة، والله أعلم.

* * *

---

(1) في ن 3: للمباشر، والصواب: للمباشرين.
(2) في ن 3: لما كان، والصواب: لمكان.
(3) سقط من ن 3.

سورة صٓ

الآية الأولى منها ـ قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَافِرونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾(1) وفي سورة قٓ: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾(2)، للسائل أن يسأل عن ورود قوله في صٓ: ﴿وقال الكافرون﴾ بواو النسق وفي سورة قٓ بفاء التعقيب والإخبار عن حالهم واحد؟

والجواب ـ والله أعلم ـ أن آية صٓ وردت مورد الإخبار بمرتكبات من أفعال كفار العرب وأقوالهم فجيء بتلك الجمل منسوقا بعضها على بعض، فأخبر تعالى أنهم في عزة وشقاق، وأنهم عجبوا أن جاءهم منذر منهم ولم يكن من الملائكة كما قالوا: ﴿لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلاَئِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾(3)، وأنهم رموه بالسحر والكذب، وتعجبوا من جعله الآلهة إلهاً واحداً، وانهم تمالؤوا على قولهم ﴿أَنِ ٱمْشُوا وَٱصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾، وأنهم قالوا: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلآخِرَةِ﴾(4) أي في ملة عيسى، عليه السلام، ومن هذا قولهم في إخبار الله تعالى عنهم: ﴿ءَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ

---

(1) سورة ص: آية 4.
(2) سورة ق: آية 2.
(3) سورة الفرقان: آية 21.
(4) سورة ص: آية 7.

هُوَ﴾[1]، وتحريهم على الإفصاح بمرتكب النصارى في التثليث[2]، وأنهم أقرب الملل إليهم وآخر من تقدمهم وهم مثلثون، فكيف تجعل أنت يا محمد الآلهة الهاً واحداً ان هذا لشيء عجاب، فجعلوا ما جاء به اختلافاً وتقولاً، إلى ما ارتكبوه من هذا، فلما قصد هنا الإخبار بجملة مرتكباتهم جاءت منسوقاً بعضها على بعض بالواو التي[3] لا تقتضي ترتيباً ولا تعقيباً[4].

وأما آية قٓ فمقصود بها التعريف بتعجبهم من البعث الأخراوي واستبعادهم إياه، ولم يقصد هناك غير ما قصده، الا ترى إقامة الدلالة عليهم باعتبار خلق السماوات، وتزيينها بالنجوم، وإحكام صنعها، ومد الأرض، وإرسائها بالجبال، وإخراج أصناف النبات، وإنزال الماء من السماء، وإنبات الجنات وضروب الحبوب والنخل الباسقات ذات الطلع النضيد، ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾[5]، ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾[6]، ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾[7]، فلما كان قولهم: ﴿هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ مبنياً على ما جاءهم به، عليه السلام، وأعلمهم من البعث بعد الموت جعل الأول ــ أعني مجيئه، عليه السلام، مخبراً بذلك ــ سبباً في تعجيزهم فربط فيه بالفاء، أي عجبوا من البعث بعد الموت فقالوا كذا، فجيء لكل بما يحرزه،

---

(1) سورة الزخرف: آية 58.
(2) بهامش ن 1.
(3) في ن 3: الذي.
(4) في ن 3: ولا تسبيباً.
(5) سورة ق: آية 11.
(6) سورة الأنبياء: آية 104.
(7) سورة يس: آية 81.

ولم تكن الفاء لتقع هناك، ولا الواو لتقع هنا، بل ورد كل على ما يجب، والله أعلم.

الآية الثانية[1] من سورة صّ ـ قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ ٱلْأَيْكَةِ أُولَٰئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾[2]، وفي سورة قّ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾[3]، للسائل أن يسأل عن وجه ورود هاتين الآيتين في السورتين على خلاف الترتيب المتقرر من ذكر الرسل وأممهم وما جرى بين الرسل والأمم في سورة الأعراف وهود والشعراء؟ ثم عن وجه الخلاف الوارد في سياق آيتي صاد وقاف من جهة الترتيب في السورتين؟ ووجه اختصاص كل واحدة منهما بما ورد فيها؟ وتعقيب آية صّ بقوله: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾[4] وآية قّ بقوله: ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾[5]؟ فهذه أربعة أسئلة.

والجواب عن ذلك، والله أعلم: عن الجملة أن الوارد في السور الثلاث مقصود فيه إخبار الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بما كان من الرسل المذكورين مع أممهم تثبيتاً لفؤاده صلى الله عليه وسلم وتأنيساً، قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾[6]، فذكر أنباءهم، عليهم السلام، على الترتيب في أزمنتهم وإرسالهم،

---

(1) في ن 1: الثالثة، وهذا خطأ، والصواب: الثانية.
(2) سورة ص: آية 12-13.
(3) سورة ق: آية 12-14.
(4) سورة ص: آية 14.
(5) سورة ق: آية 14.
(6) سورة هود: آية 120.

أما سورة صّ وسورة قّ فلم يُبْنَ ما ورد فيهما على ذلك القصد، وإنما بناء ما في السورتين من ذلك على تسليته صلى الله عليه وسلم فيما كان يكابده من عتاة قريش وكفار العرب في توقفهم عن الإيمان، فجرد لهذا القصد ذكر عتاة المكذبين وأخذه سبحانه إياهم، وقيل له، عليه السلام، تعريفاً بمآل كفار قريش: ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾[1] مخالفاً لإيراد ما في هاتين السورتين ما تقدم في غيرهما لاختلاف المقاصد، وجاء في كل واحدة منهما من الترتيب ما يلائم ويناسب على ما تبين بحول الله تعالى.

فإن قيل: فإن سورة الحج ورد فيها ذكر الأمم السالفة المكذبين في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ. . .﴾ الآية[2] فجرد ذكرهم عن ذكر الرسل إخباراً بمجرد تكذيبهم وأخذهم كما في سورة صّ وسورة قّ، وقد وردت على الترتيب الوارد في السور الثلاث، فقد خالفت مقصود ما في تلك السور، ثم جرت على ما فيها من الترتيب، فما الفرق بينهما وبين هاتين السورتين؟ قلت: الفرق بينهما ان مقصد آية سورة الحج الإخبار بتكذيب أولئك الأمم وأخذهم تسلية لنبينا صلى الله عليه وسلم من غير زيادة لما تعرضت له آية صّ وآية قّ، وأما هاتان الآيتان فقد انجر فيهما مع ذكر التكذيب والأخذ التعريف بتعزز عتاة قريش[3] ومن وافقهم وذكر[4]

(1) سورة ص: آية 15.
(2) سورة الحج: آية 42-44.
(3) في ن 3: كفار قريش.
(4) في ن 3: وفي ذكر. ولا داعي لحرف الجر هنا.

شقاقهم. وقبيح ردهم وتعاميهم عن النظر في الآيات والاعتبار بما نصب منها في الأرض والسماوات، فلهذا[1] المنجر هنا انفردت سورة صٓ وسورة قٓ بالوارد فيهما من الترتيب عن سورة الحج.

فان قلت: فإذا اجتمعت السورتان فيما ذكر فما وجه اختصاص كل واحدة منهما بما خصت به عن أختها من الترتيب؟ قلت: أما آية صٓ فوجه اختصاصها بما ورد ترتيبها عليه انه سبحانه لما وصف كفار قريش والعرب بالاعتزاز والشقاق في قوله: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾[2]، ثم أعقب بذكر القرون المهلكة فقال: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾[3]، ثم أعاد ذكرهم مفصلاً قرناً قرناً وأمة أمة، كان الأنسب لما قدم من ذكر عتو كفار العرب وشقاقهم ذكر أعتى القرون من الأمم وأجرمهم، فذكر قوم نوح من حيث لم يجد[4] عليهم تكرار الإنذار مع طول الأمد، قال تعالى مخبراً عن طول مدتهم وبعد إجابتهم قال نوح: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَاراً﴾[5]، إلى قوله: ﴿وَأَصَرُّوا وَٱسْتَكْبَرُوا ٱسْتِكْبَاراً﴾[6]، إلى دعائه، عليه السلام، عليهم عند قطع رجائه منهم بقوله: ﴿لاَ تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ دَيَّاراً إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً﴾[7]، إلى ما وصفهم سبحانه به وانه لم يؤمن منهم مع

---

(1) في ن 3: ولهذا والفاء أنسب.
(2) سورة ص: آية 2.
(3) سورة ص: آية 3.
(4) في ن 3: لم يجدر، والصواب: لم يجد.
(5) سورة نوح: آية 5.
(6) سورة نوح: آية 7.
(7) سورة نوح: آية 26-27.

نوح الا القليل، فوجود ما تحلت به عتاة قريش ومتمردو كفار العرب من العزة والشقاق في قوم نوح أوضح شيء، ثم أتبع ذكرهم بدعاء عاد الموصوفين بالقوة والطغيان القائلين: من أشد منا قوة، والقائلين لنبيهم عليه السلام: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَوْ لَمْ تَكُنْ مِنَ ٱلْوَاعِظِينَ﴾[1]، إلى قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[2]، ثم اتبع بذكر فرعون ذي الأوتاد، والمراد هو وآله وقومه. وقد تكرر في القرآن مع ذكر فرعون وعلوه في الأرض وطغيانه مع ما أوضح شنيع مرتكبه وبعد شقاقه، ثم اتبع بمن ذكر بعدهم مراعى في ذلك مناسبة ما قدم، ثم ذكر اجتماعهم في موجب تمردهم وعتوهم وهو تكذيبهم للرسل، فقال تعالى: ﴿إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾[3]، ثم أعاد الكلام إلى كفار قريش والعرب المبدو بهم والمنبهين لو تنبهوا بأخذ من عاند وكذب ممن تقدمهم فقال: ﴿وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾[4]، أي إنهم إن تمادوا على شقاقهم فلا فرق بينهم وبين من تقدمهم من هؤلاء القرون ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَاتُ﴾[5]، ﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾[6]، ثم اتبع سبحانه بذكر شنيع مرتكبهم في استعجالهم العذاب وقولهم: ﴿عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾[7]، فأنبأ تعالى باستحكام كفرهم وتكذيبهم واستهزائهم الموجب لتعجيل

---

(1) سورة الشعراء: آية 136.

(2) سورة الشعراء: آية 138.

(3) سورة ص: آية 14.

(4) سورة ص: آية 15.

(5) سورة الرعد: آية 6.

(6) سورة يونس: آية 102.

(7) سورة ص: آية 16.

أخذهم، ثم انصرف الكلام إلى أمره سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر على معاندتهم[1] وردي[2] مقالتهم، وتذكر[3] أخيه داود والاعتبار بأمره، وتسخيره سبحانه له الجبال، وحشره[4] له الطير منقادة إلى أمره، وإلانته له الحديد، وقلوب الآدميين أهين[5] وأقرب، فلو شاء لهدى هؤلاء كما سخر الجبال لداود ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [6] وهذا وجه ذكر داود، عليه السلام، هنا، لا ما قاله الزمخشري [7]، وقد تقدم (الإيماء) [8] إليـه عند قوله تعالى في سورة طه ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ. . .﴾ الآية [9] ويستوفى عقب هذا بحول الله، فهذا وجه اختصاص آية صٓ بما ورد فيها من الترتيب في ذكر[10] القرون المهلكة بتكذيبها.

وأما آية قٓ فوجه الوارد فيها من إتباع ذكر قوم نوح بذكر أصحاب الرس ومخالفة الوارد في سورة صٓ، ان آية قٓ قد انفردت عن آية صٓ بما قصد فيها مفصحاً به، من ذكر تعامي كفار قريش والعرب عن النظر في خلق السماوات والأرض، والاعتبار بمن تقدمهم من الأمم، وأخذهم

---

(1) في ن 3: معانداتهم بالجمع.
(2) في ن 3، ن 4: ورد.
(3) في ن 3: تذكير.
(4) في ن 3: وحشر بسقوط الضمير.
(5) في ن 3: أهيأ، والصواب: أهين.
(6) سورة السجدة: آية 13.
(7) أنظر ما يتعلق بالآية الثامنة في سورة طه، ص 830، وانظر الكشاف 77/4.
(8) سقط من ن 3.
(9) سورة طه: آية 130.
(10) في ن 1، ن 2: وذكر.

بتكذيبهم، ففي آية صٓ ذكر تجبرهم وشقاقهم وطغيانهم، وفي قٓ ذكر تعاميهم عن الاعتبار والنظر، فبدأ سبحانه بتذكيرهم بذكر حال السماء وإتقانها فقال: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾[1] إلى قوله: ﴿كَذَلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾[2]، والمراد انهم لو وقفوا[3] فـأمعنوا النظر في بناء السماء، وتزيينها بما جعل تعالى فيها من نجومها، وسلامتها من فطور أو فروج، وفي امتداد الأرض وإرسائها بالجبال، وإنبات ما فيها من كل زوج بهيج، وإنزال الماء من السماء، وإنبات الجنات وحب الحصيد وٱلنّخل الباسقات ذات الطلع النضيد، وإحياء البلاد الميّتة، وتكرر ذلك عليها، فلو اعتبـروا بهذا لاستـوضحوا العـودة والبعثة، الأخـراويـة ﴿كَـذَلِـكَ ٱلْخُرُوجُ﴾[4]، ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾[5]، فلما ذكرهم سبحانه بخلق السماوات والأرض أعقب ذلك تتميماً جارياً على التذكير المتكرر في الكتاب بذكر القرون السالفة المهلكة بتكذيبها فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾[6]، ولما (بني)[7] (ما)[8] تقدم من الاعتبار على الإشارة إلى الاستيفاء (في عجائب الأرض والسماء، ناسب ذلك بناء ذكر من نبه عليه ممن هلك (بتضييع)[9] نظره واعتباره على الاستيفاء)[10]، فذكر طرفان

---

(1) سورة ق: آية 6.
(2) سورة ق: آية 11.
(3) في ن 1، ن 2: وفقوا.
(4) سورة ق: آية 11.
(5) سورة الأنبياء: آية 104.
(6) سورة ق: آية 12.
(7) بهامش ن 3.
(8) بهامش ن 3.
(9) سقط من ن 3.
(10) بهامش ن 2.

ليحصل حصر من بينهما أمة ممن تقدم وهم قوم نوح وأمة ممن تَأَخَّرَ وهم أصحاب الرس، ليحصل ما بينهما بإشارة الطرفين كما قال سبحانه في سورة الفرقان: ﴿وَعَاداً وَثَمُوداً وَأَصْحَابَ آلرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً﴾ [1] ، وهذه الآية وآية قٓ مشيرتان إلى تأخير أصحاب الرس عن كل من ذكر في الفرقان من الأمم المهلكين بتكذيبهم ممن عين ذكره،والله أعلم.

وقد اختلف المفسرون في أصحاب الرس، والواقع في مختلف أقوالهم في ذلك ثمانية أقوال [2] ، ومن جملتها أنهم أصحاب الأخدود، وقيل كانوا قوماً قتلوا نبيهم ورموه في بئر لهم، زاد بعضهم انه كان [3] أسم نبيهم حنظلة، وقيل هم من قوم شعيب، عليه السلام، وقيل غير ذلك، والمقطوع به ما نطق به القرآن من وجود قرون كثيرة بين قوم نوح وأصحاب الرس، ويظهر من هذا الوارد في سورة قٓ أن مقصود الآية من استيفاء القرون المأخوذين بتكذيبهم غير وارد في غيرها، ألا ترى أنه قد أفصح فيها بثمانية قرون منصوص عليها، وهم قوم نوح، وأصحاب الرس، وثمود، وعاد، وفرعون، وإخوان لوط، وأصحاب الأيكة، وقوم تبّع والمراد هو وقومه، ولم يرد في أوفى المتكرر من الكتاب العزيز غير سبعة. والأكثر ستة، فدل على قصد الاستيفاء في هذه السورة. على كل حال، فقد ورد قوم نوح وأصحاب الرس طرفين لمن بينهما من القرون، ومقصود بهما ـــ والله أعلم ـــ استيفاء ما بينهما، إشعاراً، (في هذه السورة

---

(1) سورة الفرقان: آية 38.

(2) أنظر: التفسير الكبير 82/24، ففيه ذكر للأقوال الثمانية بتفصيل وإطناب.

(3) في ن 3: انه لما كان ويبدو أنه لا داعي لـ: لما.

وإفصاحاً بكثرة من بينهما بقوله في سورة الفرقان[1] ﴿وَقُرُوناً بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيراً﴾)[2].

وأما الوارد بعد الطرفين في سورة قٓ من ذكر ثمود وعاد ومن ذكر بعد، فقد يكون ـ والله أعلم ـ من قبيل ما ورد في القرآن ممن شمله لفظ متقدم غير مصرح ثم نص عليه اعتناء واهتماماً[3] مع كونه قد ضمه ذلك اللفظ[4] المتقدم، كقوله تعالى: ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ﴾[5] بعد دخولهما تحت لفظ الملائكة، وعلى كل حال فأصحاب الرس متأخرون عن قرون كثيرة بعد قوم نوح بنص القرآن، والله سبحانه أعلم.

فلما ورد هنا ما يشير إلى الاستيفاء للاعتبار بهم جرياً مع ما تقدم من استيفاء الاعتبار بعجائب الأرض والسماء قدم ما يحصل بتقديمه ما أشير إليه من الاستيفاء، ولم يكن القصد هنا ما قصد في آية صٓ، فجاء كل على ما يجب، والله أعلم.

وأما المعقب به كل واحدة من الآيتين من قوله في سورة صٓ: ﴿إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾[6]، وقوله بعد آية قٓ: ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾[7]، مراعى في ذلك الفواصل (في كل من السورتين والا فالعقاب

---

(1) سورة الفرقان: آية 38.

(2) بهامش ن 2.

(3) في ن 3: واستتماماً، والصواب: واهتماماً.

(4) في ن 3: اللطف، والصواب: اللفظ.

(5) سورة البقرة: آية 98. قال تعالى: ﴿من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكائيل فإن الله عدو للكافرين﴾.

(6) سورة ص: آية 14.

(7) سورة ق: آية 14.

والوعيد حق على كل من هؤلاء المكذبين، فإنما روعي الفواصل)[1]، فقوله قبل آية صٓ: ﴿بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾[2]، واستمرت فواصل الآي هكذا إلى ما بعد الآية، فاستدعى ذلك مناسبة الآية المتكلم فيها فقيل: ﴿إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾[3]، وأما آية قٓ فنوسب بها أيضاً ما تقدمها من قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾[4]، ثم قال: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾[5] وورد أيضاً في الفواصل بعدها: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[6]، إلى بضع عشرة آية جارية في مقاطعها على ما ذكر، فناسب ذكر قوله: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾[7]، وجاء كل على ما يناسب، وذلك واضح.

الآية الثالثة من سورة صٓ: غ ـ قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا (رَبَّنَا)[8] عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ٱصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[9]، وفي سورة الاحقاف: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[10] وفي سورة القلم: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

---

(1) سقط من ن 2.
(2) سورة ص: آية 8-9.
(3) سورة ص: آية 14.
(4) سورة ق: آية 9.
(5) سورة ق: آية 10.
(6) سورة ق: آية 15.
(7) سورة ق: آية 14.
(8) سقط من ن 3.
(9) سورة ص: آية 16-17.
(10) سورة الأحقاف: آية 35.

وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾[1]، ورد في هذه السور الثلاث أمره صلى الله عليه وسلم بالصبر، محالاً في الأولى على الاعتبار بحال داود وأبنائه، وفي الثانية: على أولى العزم في اهتدائه واقتدائه، وفي الثالثة منبهاً بالجاري لذي النون في مغاضبته ونداله، والمتردد في غير هذه الآي إنما هو أمره، عليه السلام، بالصبر غير مناط بذكر أحد من الرسل، كقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[2]، وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَاةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾[3]، وقوله: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾[4]، وقوله: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[5]، إلى غير هذا من الآي[6]، فللسائل أن يسأل عن وجه ذلك؟ وعن اختصاص كل سورة من الثلاث بما ورد فيها إذ ليست الإحالة فيها على حد سواء؟ فهذان سؤالان.

والجواب عن الأول، والله أعلم: أن تكرر أمره، عليه السلام، بالصبر في الآيات المترددة على كثرتها أدل دليل على الاعتناء به صلى الله عليه وسلم لعظيم أمر الصبر وشدة الحاجة إليه في كل مطلب ديني من أخذ أو ترك، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم في صفته: «الصبر ضياء»[7]، وقال تعالى في قصة أيوب وحال ابتلائه[8]: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ

---

(1) سورة القلم: آية 48.
(2) سورة النحل: آية 127.
(3) سورة الكهف: آية 28.
(4) سورة ق: آية 39.
(5) سورة الطور: آية 48.
(6) في ن 3: إلى غير ذلك هذا من الآي. وذلك هنا زائدة.
(7) مسلم: طهارة 1.
(8) سورة ص: آية 44.

صَابِراً (نِعْمَ ٱلْعَبْدُ)[1]﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ٱلصَّابِرُونَ﴾[4]، وأحوج الخلق إلى الصبر الرسل، عليهم السلام، لعظيم ما يلقونه من مكابدة الخلق، فلشدة الحاجة إلى الصبر ما تكرر في عدة آيات أمراً له، عليه السلام، ولأمته.

والجواب عن السؤال الثاني: ان أمره، عليه السلام، بالاقتداء بالرسل قد ورد وتكرر في غير آية، وتردد أيضاً أمره بالاقتداء بأبيه إبراهيم، عليهما السلام، لعظيم مقام إبراهيم وجليل خلته وأبوته وتنبيهاً للعرب لرجوعهم إليه انتساباً واعترافهم مقرين بتعظيمه.

وأما تخصيص السور الثلاث بتعيين ما ورد فيها فلما نذكره من الوجه الحامل والمناسبة في النظم، أما سورة صٓ فوجه اختصاصها بالوارد فيها التئام نظم الآية بما تقدمها، وارتباط قوله تعالى فيها: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ﴾ بما اتصل به من قوله: ﴿ٱصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ بيان النظم[5] في ذلك والتئامه أوضح التئام، إن الله سبحانه لما ذكر حال العتاة من كفار قريش وشنيع مقالهم لنبيه صلى الله عليه وسلم، من لدن قولهم: ﴿سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ إلى ختمهم ما ذكر تعالى من سوء مراجعتهم بقولهم استهزاء وتكذيباً: ﴿عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾[6]، أتبع ذلك ملاطفة

---

(1) سقط من ن 1، ن 2.
(2) سورة الزمر: آية 10.
(3) سورة الأنفال: آية 46.
(4) سورة القصص: آية 80.
(5) في ن 3: النظر، والصواب: النظم.
(6) سورة ص: آية 16.

وتأنيساً لنبيه صلى الله عليه وسلم: بقوله: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾[1] (تذكيراً له بأن الجاري من ذلك إنما هو على ما شاءه لهم في أزله وقدره عليهم، فليس خارجاً عن إرادته، فكأنه يقول لنبيه، عليه السلام، اصبر على ما)[2] يرد منهم وما يقولونه فانه مرادي منهم في سابق قدري، ولو شئت لهديت قلوبهم وسخرتها لاجابتك، فقد سخرت الجبال مع داود والطير وألنت له الحديد وقلب الآدمي ألين وأقرب ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾[3]، فإذا علمت أن قلوبهم بيدي أقلبها كيف شئت، فاصبر على ما يقولون، واعتبر بما سخرته لداود، واقتد بما منحته من الأيد والقوة، فهذا وجه النظم والارتباط في هذه الآي، والله أعلم.

وقد تعرض أبو الفضل بن الخطيب[4] في تفسيره الكبير لتوجيه النظم فيما قدمناه فقال: إن قيل أي تعلق بين قوله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ وبين قوله: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ﴾ قلنا: من وجوه. الأول: كأنه قيل: ان كنت قد شاهدت من هؤلاء الجهال جرأتهم على الله وإنكارهم الحشر والنشر فاذكر قصة داود حتى تعرف شدة خوفه من الله ومن يوم الحشر فانه بقدر ما يزداد أحد الضدين شرفاً يزداد الآخر نقصاناً. انتهى معنى كلامه[5]. قلت وهذا الذي حكاه ضعيف، لأن هذا الكلام إنما يثمر التعجب من فعل الله سبحانه ولا يثمر تسلية ولا تأنيساً وهما أنسب في الموضع، وذكر وجهاً ثانياً وهو أنه كأنه قيل لنبينا صلى الله عليه

---

(1) سورة ص: آية 17.
(2) بهامش ن 2.
(3) سورة السجدة: آية 13.
(4) هو فخر الدين الرازي، وقد تقدمت ترجمته. 163/1.
(5) التفسير الكبير، للرازي 183/26.

وسلم: لا يضِقْ صدرك بسبب إنكارهم لقولك ودينك فإنهم ان خالفوك فالأكابر من الأنبياء موافقوك[1]، قلت: وهذا أضعف من الأول، لأنه، عليه الصلاة والسلام، إنما يأنس بمصدقيه من أمته، وأيضاً فقد كان ذكر إبراهيم لو قصد هذا الغرض من الموافقة أنسب لتعظيم العرب إياه، وللاتفاق عليه ولعظيم خلته، وذكر وجهاً ثالثاً[2] وهو أن الخصمين الذين دخلا على داود، عليه السلام، كانا من البشر، وإنما دخلا عليه لقصد قتله، فخاف داود ومع ذلك فلم يتعرض لإيذائهما ولا دعا عليهما بل استغفر لهما، فأمر نبينا عليه السلام أن يقتدي به في حسن الخلق. قلت: وهذا ضعيف كالذي قبله، وذكر الإمام أبو الفضل غير هذه الوجوه مما دون هذه في القوة، ثم أعقب هذا بأن قال: ولي هنا وجه آخر أقوى وأحسن من كل ما تقدم[3]، ثم اعتمد في هذا التوجيه على أن قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ﴾ ليس مما تقدمه، وإنما هو وجه اتصاله به، وان العقلاء قالوا من ابتلى بخصم جاهل مقر متعصب ورآه قد خاض في التَعَصُّبِ وٱلإقرار وجب عليه أن يقطع الكلام معه في (تلك)[4] المسألة، لأنه كلما كان خوضه في تقرره أكثر[5] كان بعده عن القبول أشد، فالوجه حينئذ أن يقطع الكلام معه في تلك المسألة، وأن يؤخذ في كلام آخر أجنبي عن المسألة الأولى (بالكلية، ويطنب في ذلك الكلام الأجنبي، فإذا اشتغل خاطره بهذا الكلام الأجنبي ونسي تلك المسألة

---

(1) التفسير الكبير، للرازي 184/26.

(2) التفسير الكبير، للرازي 195/26.

(3) التفسير الكبير، للرازي 202/26.

(4) بهامش ن 2.

(5) في ن 3: أكفر، وهو خطأ.

الأولى)[1] أدرج له أثناء الكلام في هذا الفصل الأجنبي مقدمة تناسب ذلك المطلوب الأول، فيحصل عن ذلك تسليم المتعصب لهذه المقدمة، فإذا أسلمها فحينئذ يتمسك بها في (ثبات)[2] المطلوب الأول، فيتمكن من انقياده ويرجى رجوعه إلى ما طلب به أولاً، هذا معنى ما أراده أبو الفضل في هذا الفصل، ثم أشار إلى أن المدرج في هذا الكلام من المقدمة المناسبة للمطلب الأول في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَاءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾[3] إلى قوله: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُو ٱلْأَلْبَابِ﴾[4]، قلت: وعندي ان ما ذكره من هذا، وان العقلاء قالوه، ان كانت العرب تفعله ويعرف من كلامها ارتكابه فإنما يكون ــ والله أعلم ــ على أوضح وأنسب مما ذكره، والذي أراه جارياً على هذا المنهج الذي أراه ــ والله أعلم ــ قوله تعالى: ﴿قَ وَٱلْقُرْآنِ ٱلْمَجِيدِ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾[5]، فهذا إنكار منهم للبعث الأخراوي واستبعاد، وهو نحو من الوارد في سورة صّ، فأعقب تعالى ذلك بقوله مما يشبه الالتفات، وهو الذي زعم أبو الفضل أن العقلاء يرتكبونه عند لوذ الخصم والأخذ فيما هو كالأجنبي، فقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا (وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِي)[6] وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ

(1) بهامش ن 2.
(2) بهامش ن 3.
(3) سورة ص: آية 27.
(4) سورة ص: آية 29.
(5) سورة ق: آية 1-3.
(6) سقط من ن 3.

بَهِيجٍ﴾[1]، إلى قوله في ماء السماء ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَـذَلِكَ ٱلْخُرُجُ﴾[2]، فبعد العدول عن مجاوبتهم في قولهم: ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ وذكر اختلاطهم المسبب عن تكذيبهم وتجبرهم المعبر عنه بقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾[3] أي مختلط، صرف تعالى الكلام إلى نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فقال: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَوْقَهُمْ﴾[4] إلى قوله: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً﴾[5]، وذلك كله مدرك مشاهد لهم، لا يمكنهم التوقف في شيء منه، ولا حفظ عنهم إنكاره، فعند تكرر هذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾، فهذا ــ والله أعلم ــ أقرب فيما ذكره أبو الفضل فزعم أن العقلاء يرتكبونه.

وأما الوارد في سورة صٓ فيبعد ــ والله أعلم ــ أن يكون من هذا، ثم إن القول بأن الوارد في سورة[6] صٓ من قوله: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ﴾ أجنبي عما قبله، وغير مناسب البتة، وانه إنما أوتي به لما ذكر من شغل الخصم المتعصب عن ذلك على الوجه الذي ذكر بعيد بالكلية، وان ورد شيء مما يمكن أن يقال انه من ذلك الضرب فلا أنسب أن يكون منه الوارد في سورة قٓ لا الوارد في سورة صٓ، وإذا تأملته وضح لك ذلك، وإن الوجه في نظم الكلام ما قدمته أولاً، وهو مما لا غبار عليه، والله أعلم.

---

(1) سورة ق: آية 6-7.
(2) سورة ق: آية 11.
(3) سورة ق: آية 5.
(4) سورة ق: آية 6.
(5) سورة ق: آية 11.
(6) بهامش ن 3: آي.

وقد تعرض الزمخشري لما تقدم في هذه الآي، فأجاب عن ذلك بما جرى فيه على شنيع المرتكب وسوء الأدب، بناء على استبداد العبيد، وفعلهم ما لا يرضاه الخالق سبحانه ولا يريد، فجعل لِلَّهِ شركاء، وأفرد العباد بأفعالهم استبداداً أو ملكاً، فأجاب بناء على ما اتصل، وما وفق في هذا الموضوع لوجه المطابقة ولا حصل، فان قلت كيف تطابق قوله: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ﴾ حتى عطف أحدهما على صاحبه؟ ثم (قال)[1]: قلت: كأنه قال لنبيه صلى الله عليه وسلم اصبر على ما يقولون، وعَظِّم أمر معصية (الله)[2] في أعينهم بذكر قصة داود، وهو انه نبي من أنبياء الله تعالى قد أولاه ما أولاه من النبوة والملك لكرامته عليه ورأفته لديه، ثم زل زلة فبعث الله الملائكة ووبخه عليها، على طريق التمثيل والتعريض، حتى فطن لما وقع[3] فيه فاستغفر ربه وأناب، ووجد منه ما يحكى من بكائه الدائم. وغمه الواصب، ونقش جنايته في بطن كفه حتى لا يزال مجدداً للندم عليها، فما الظن بكم مع كفركم ومعاصيكم؟ أو قال له صلى الله عليه وسلم: اصبر على ما يقولون، وصن نفسك، وحافظ عليها أن تزل فيما كلفت من مصابرتهم وتحملِ أذاهم، واذكر أخاك داود وكراماته على الله كيف زل تلك الزلة اليسيرة فلقي من توبيخ الله ونسبته إلى البغي ما لقي. انتهى جوابه[4].

وقد اجتمع فيه مخالفة الصواب والبعد عن المطابقة، فان تعظيم معصية الله ـ كما قال الزمخشري ـ بذكر قصة داود لقوم غير مؤمنين بأحد من

---

(1) سقط من ن 3.

(2) سقط من ن 3.

(3) في ن 3: فظن ما وقع، والصواب: لما وقع.

(4) الكشاف 77/4.

الأنبياء، فالتذكير بذلك لمن يقول استهزاء وكفراً: ﴿عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾[1]، فتذكيرهم بهذا مع ذكر الأنبياء بلفظ الزلل أقرب شيء لاستمرارهم على الاستهزاء (والكفر)[2] مع عصمة الأنبياء عما وقع عليه الزلل حقيقة. ثم قوله في الجواب الثاني عن داود، عليه السلام: إنه لقي من توبيخ الله وتظليمه ونسبته[3] للبغي، هذا كله خلف من المرتكب وإطلاق لا يجوز في حق الأنبياء، فقد جمع جوابه سوء الأدب[4] وشنيع المرتكب والبعد عن المطابقة، والذي جاوبنا به لا غبار عليه ولا توقف في مطابقته، نسأل الله سبحانه أن ينفعنا[5] بذلك يوم تبلى السرائر.

* * *

(1) سورة ص: آية 16.
(2) سقط من ن 1، ن 2.
(3) في ن 3: من نسبته.
(4) في ن 3: سؤالات، وهو خطأ مخل بالمعنى.
(5) في ن 3: ينفع، والصواب: أن ينفعنا.

سورة الزمر

الآية الأولى منها ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَابَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ ٱلدِّينَ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾[1]، وقال فيما بعد: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ﴾[2]، للسائل أن يسأل عن قوله أولاً: «إليك» وثانياً «عليك» وهل بينهما فرق يوجب خصوص كل واحدة من العبارتين بمكانها؟

والجواب: أن «إليك» و«عليك» هنا مترادفتان على معنى واحد من معنى الخطاب، فتارة يراعى وصول المنزل بواسطة المَلَك، وتارة يراعى وصوله من عند الله سبحانه من غير واسطة، فإذا روعي هذا قيل عليك، وإذا روعي الأول قيل إليك، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ... الآية﴾[3]، وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ ٱلْكِتَابَ﴾[4]، والأول أكثر فبدىء هنا به.

ثم إنه ورد في الآية الثانية: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾، واللام الجارة في قوله «للناس» تفيد الاختصاص وترادف كثيراً

---

(1) سورة الزمر: آية 2-3.
(2) سورة الزمر: آية 41.
(3) سورة البقرة: آية 4.
(4) سورة الكهف: آية 1.

لفظة: «إلى»، تقول[1] الأمر لزيد والأمر إلى زيد، قال تعالى: «وَأَمْرُهُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ[2]، وقال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾[3]، فلو وردت الآية الثانية بإلى فقيل: إنا أنزلنا إليك الكتاب للناس، لكان ذلك كالمرادف[4] لقوله: إنا أنزلنا إليك الكتاب إلى الناس[5]، وكان يكون فيه ايصال الفعل إلى مجرورين بحرف واحد، وليس أحدهما معطوفاً على الآخر، والعرب لا تقضي الفعل مما يطلب إلا واحداً، فلا تقضيه ظرفي زمان بغير حرف تشريك، ولا ظرفي مكان، ولا تقضي مفعولين لفعل متعد إلى واحد، ولا ثلاثة مفعولين لمتعد إلى مفعولَيْن إلا على طريقة البدلية، ولا يصحّ ذلك في الآية، أوعلى التشريك بحرف العطف، وليس ذلك في الآية أيضاً، فجيء بالآيتين على ما يناسب ويلائم، والله أعلم.

الآية الثانية من سورة الزمر قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ ٱلدِّينَ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[6]، للسائل أن يسأل لم عُدّي الفعل الذي هو أمرت أولاً بغير حرف جر ثم عدي ثانياً في قوله: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ﴾ بحرف الجر؟

---

(1) في ن 3: تنزل، والصواب: تقول.

(2) جاء في النسخ الثلاث ن1، ن 2، ن 3: ومن عاد فأمره إلى الله، ولا وجود لآية بهذا التركيب ولعله يريد قوله تعالى: ﴿وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار﴾، (سورة البقرة: آية 275).

(3) سورة آل عمران: آية 154.

(4) في ن 3: المراد، والصواب: المرادف.

(5) في ن 3: للناس، ولا يستقيم بذلك المعنى المراد.

(6) سورة الزمر: آية 11-12.

والجواب عن ذلك: أن العرب تقول: أمرتك الخير وأمرتك بالخير، فعدي هذا الفعل بنفسه وبحرف الجر، وهو الأصل فيه، والحذف فصيح كثير، ويلحق إذ ذاك بباب أعطى وكسا في أحكامه، ومنه:

أمرتك الخير فآفعل ما أمرت به ... فقد تركتك ذا مال وذا شنب[1]

والآية من قوله: ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ﴾ مثل البيت، وإذا تقرر هذا فمفعول أمرت الأول ــ وهو الضمير ــ مقام مقام الفاعل، والثاني أن يكون وصل الفعل إليه بنفسه، والأصل بأن أكون. وأما قوله: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ﴾ فأقول أنه محذوف منه حرف الجر كالأول، تقديره: وأمرت بأن أكون، فحذف منه حرف الجر الذي هو أصل الفعل أن يصل به وهو الباء، وأما اللّام في: ﴿لِأَنْ أَكُونَ﴾ فمبقاة من محذوف يفهمه سياق الكلام مع الحرف المبني منه، تقديره: وأمرت لعلمي أولاً أن أكون أول المؤمنين. ألا ترى أن الوارد في الآيتين أمران: أولهما عام والثاني خاص، لأن أمره، عليه السلام، بالعبادة والإخلاص أمر له ولأمته. قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[2]، فالآية من قبيل ما توجه فيه الخطاب له عليه السلام والمراد هو وأمته، والخطاب

---

(1) البيت لعمرو بن معد يكرب الزبيدي ــ البحر البسيط ــ الكتاب 26/1.

عمرو بن معد يكرب الزبيدي: أبو ثور من فحول الفرسان والشعراء مخضرم أسلم في حياة رسول الله، ثم ارتد مع مرتدي اليمن، ثم عاد إلى الإسلام وشهد الفتوح، مات زمن عثمان، رضي الله عنه. (عن معجم الشعراء، للمرزباني أبي عبيد الله محمد بن عمران بن موسى، ص 15، تحقيق عبد الستار بن أحمد فراج. ط. دار إحياء الكتب العربية 1960).

(2) سورة البينة: آية 5.

يأتي كذلك، يأتي أوله خاص وآخره عام. ومنه: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَاءَ﴾[1]، وإذا ورد بصورة الخصوص به كان أمراً أو نهياً فأمته داخلة معه في ذلك الحكم ما لم ينص على خصوصه كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ ٱللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاَتِكَ ٱللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾[2]، فحكمه، عليه السلام، وحكم أمته في هذا واحد، ثم قال تعالى: ﴿وَٱمْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[3]، فأفرده سبحانه بجواز الموهوبة بالنص على ذلك، ولولا قوله تعالى: ﴿خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لكان حكم أمته في ذلك كحكمه، وإذا تقرر هذا فقوله: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أمر خاص به، لا يشركه فيه غيره، ونظير هذا قوله: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ[4] أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾[5]، والمعنى يحرز ذلك، بل لا يمكن خلافه، وذلك أن (الحكم من)[6] الأمر والنهي إذا جاء به المَلَك وتلقى منه صلى الله عليه وسلم ما خوطب به وصدق به وأسلم وجهه لربه وبعد ذلك يتلقاه منه، عليه السلام، من حضره وخاطبه به، ولا طريق لأحد أن يتلقى حكماً إلا منه، عليه السلام، بعد تلقيه هو ذلك من جبريل، فهو، عليه السلام، أول مؤمن

---

(1) سورة الطلاق: آية 1.
(2) سورة الأحزاب: آية 50.
(3) سورة الأحزاب: آية 50.
(4) في ن 1: وأمرت، وهو خطأ.
(5) سورة الأنعام: آية 14.
(6) بهامش ن 2.

وأول مسلم، ولا تمكن تلك الأولية لغيره، ولا نسبة إليها لأحد[1] فقد وضح وجه دخول هذه اللام في قوله له: ﴿لِأَنْ أَكُونَ﴾[2].

الآية الثالثة[3] من سورة الزمر قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَراً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً﴾ [4]، وفي سورة الحديد ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَراً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً﴾ [5]، فورد هنا: «ثم يكون» وفي الأولى: «ثم يجعله» مكان «ثم يكون»، فللسائل أن يسأل عن وجه ذلك؟ وهل كان يمكن أن يرد في الأولى: «ثم يكون»، وفي الثانية: «ثم يجعله»؟

والجواب، والله أعلم: أنه لا يناسب كلا من الموضعين إلا ما ورد فيه، ولا يجوز على رعي التناسب اللازم رعيه في الكتاب العزيز غير ما ورد عليه الموضعان، ووجه ذلك أن آية الزمر وردت مورد التنبيه على الاعتبار، وبالنّصيّة على ذلك افتتحت الآية فقال تعالى خطاباً لنبيه صلى الله عليه وسلم، والمراد هو وأمته: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً﴾[6]، والمراد به المطر، فسلكه ينابيع في الأرض أي أنقذه وأسراه في الأرض فبرزت[7] عيونها وجرت مياهها من تلك المادة السماوية

---

(1) في ن 1: أحد بدون لام الجر.
(2) إن كل ما يتعلق بالآية الثانية ساقط من ن 3.
(3) في ن 3: الثانية، وسبب ذلك سقوط ما يتعلق بالآية الثانية من هذه النسخة كما سبق، وفي ن 1: الثانية، وهو خطأ.
(4) سورة الزمر: آية 21.
(5) سورة الحديد: آية 20.
(6) سورة الزمر: آية 21.
(7) في ن 3: فبدت.

﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَارُ﴾[1]، فيخرج به سبحانه الزرع المختلف الألوان والطعوم المتباينة: ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾[2]، ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَراً ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَاماً﴾[3]، فنسب سبحانه كل حالة من تقلبات الزرع إلى نفسه، وتنقلاته من لدن خروجه ونباته وما بعد ذلك إلى تخلصه إلى نفسه، إذ لا طمع لمخلوق في إعادة شيء من ذلك، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَابِ﴾[4]، فافتتحت الآية واختتمت بالتنبيه على الاعتبار، فلما كان مبناها على ذلك ناسبه نسبة الفعل إليه تعالى فقال: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ﴾.

وأما آية الحديد فوردت مثالاً للدنيا وابتداء غرورها، وصغو الكافر الغافل إلى ذلك، وإعراضه عن سرعة تقلبها وزوالها وفنائها، فلما قصد هنا المثال ناسب هذا المقصود قوله: ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً﴾، إذ لم يتقدم في أول الآية النسبة للفاعل اكتفاء بما هو غير خاف على كل ذي عقل سليم، فجرى آخرها على ما يجري عليه أولها، كما جرى في آية الزمر (من آخرها من التنبيه على ما جرى عليه أولها، وتناسب ذلك كله، وورد على ما يجب، ولم يكن بناء على ما صدرت به كل آية منهما أن يكون في آية الزمر)[5]: «ثم يكون» ولا في آية الحديد: «ثم يجعله»، بل ورد كل على ما يناسب، والله أعلم.

---

(1) سورة البقرة: آية 74.
(2) سورة الرعد: آية 4.
(3) سورة الزمر: آية 21.
(4) سورة الزمر: آية 21.
(5) بهامش ن 2.

الآية الرابعة[1] من سورة الزمر قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[2]، وفي سورة الجاثية: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾[3]، للسائل أن يسأل عن وجه اختصاص آية الزمر بقوله: «ما كسبوا» وآية الجاثية بقوله: «ما عملوا» مع أن المقصد في الموضعين واحد وهو أنه لم يغب[4] من أعمالهم السيئة شيء؟

والجواب عنه، أن العمل أعم من الكسب لأن الكسب واقع على ما للإنسان فيه تعمل وعلاج، وقد يطلق على غير الإنسان إذا كان الواقع منه ذلك حيواناً يصح منه القصد كالجوارح المعلمة وشبهها، ومنه قوله[5]:

وتجر مجرية لها لحمى إلى أجر حواشب[6]

وأجر جمع جرو، وأما العمل فيقع على ذلك وعلى ما جرى من فاعله وإن لم يكن منه قصد ولا تعمل ولا هو فاعل حقيقة، فيطلق على ما لا يطلق فيه الكسب، ومنه بيت الكتاب[7].

---

(1) في ن 3: الثالثة، والصواب: الرابعة.

(2) سورة الزمر: آية 48.

(3) سورة الجاثية: آية 33.

(4) في ن 3: لم يفت.

(5) البيت لحبيب بن عبد الله الأعلم الهذلي من قصيدة مطلعها:
لما رأيت القوم بالعلياء دون قدى المناصب
عن ديوان الهذليين 80/2.

(6) في كل النسخ: كواسب، والصواب: حواشب كما جاء في الديوان 80/2، وفي لسان العرب: 449/1.

(7) الكتاب 75/1، والبيت لساعدة بن جؤية من البحر البسيط.

حتى شـآها كليـل موهنـا عمل   باتت طرابا وبات الليل لم ينم[1]

فوصف البرق بأنه عمل، ومقصود الآية أنه بدا لهم كل ما كان منهم على الاستيفاء، لأنه إخبار موعظة وتهديد وإشعار بالوعيد، فيناسبه ما يجري في المناقشة. وإذا كان المعنى على ما ذكرنا[2] فالمطابق لهذا ما ورد في الجاثية من التعبير ببدأ والعمل، وعلى هذا ورد قوله في سورة النحل وعيد للمقول فيهم: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمْ ٱلْمَلاَئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ... الآية[3] ثم قال: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾[4]، ولم يرد هنا: ﴿مَا كَسَبُـوا﴾ لأنه[5] من قصد التوسعة (والاستيفاء)[6] (مما يبـدون من أعمالهم ويظهر الاستيفاء لذلك)[7]، وكذلك الوارد في الجاثية، وإذا وضح هذا فينبغي السؤال عما ورد[8] في سورة الزمر، لم عدل به عن هذا فقيل: ﴿مَا كَسَبُوا﴾؟

والجواب عنه، والله أعلم: أنه إنما ورد تتمة لما تقدمه من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُـوءِ ٱلْعَذَابِ يَـوْمَ ٱلْقِيَـامَـةِ وَبَـدَا لَهُمْ مِنَ ٱللَّهِ مَـا لَمْ يَكُـونُـوا

---

(1) هكذا وردت في الكتاب، أما في النسخ الثلاث فقد جاءت على النحو التالي:
حتى شناها .... باتت طرافا

(2) في ن 3: وإذا كان المعنى على ذلك ما ذكرنا.

(3) سورة النحل: آية 33.

(4) سورة النحل: آية 34.

(5) في ن 1، ن 2: الآية، والصواب: لأنه.

(6) سقط من ن 1، ن 2.

(7) سقط من ن 3.

(8) في ن 1، ن 2: عنا وضح.

يَحْتَسِبُونَ﴾[1]، فقوله: ﴿مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ يتناول ما قدموه من سيء أعمالهم غافلين عنه وناسين إياه[2]، كان مما قصدوه فيه أنفسهم أو دون ذلك فقد حمل من هذا مع بعده ما تحصل من قوله: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾، وكان قوله مع ذلك[3]: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ كالتتمة المؤكدة[4] ومتناولاً ما قصدوه وأعملوا أنفسهم فيه، حصل من مجموع ذلك المكتسب وغير المكتسب، فلا فرق بين آية الزمر وآية الجاثية.

ولو قيل في آية الزمر: ﴿مَا عَمِلُوا﴾ لكان تكراراً لأن ذلك حاصل مما قبلها، ولو قيل في آية الجاثية ﴿مَا كَسَبُوا﴾ لما كان وافياً بما بينا قبل أنه مقصود الكلام، فتبين خصوص كل من الواردين بموضعه، وأن عكس الوارد لا يمكن.

فإن قلت: ما الوجه هنا من قوله: ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾[5]؟ تلك هي نكرة موصوفة كقولهم: مررت بما معجب لك. وإذ ذاك يحرز ما تقرر من المعنى بإبهامها، كما أن ما الاستفهامية حيث يقصد الابهام تعظيماً للأمر وتفخيماً كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَاقَّةُ مَا ٱلْحَاقَّةُ﴾[6] وقوله: ﴿ٱلْقَارِعَةُ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾[7] تحرز لإبهامها من عظيم

---

(1) سورة الزمر: آية 47.
(2) في ن 1، ن 2: له.
(3) في ن 1، ن 2: ذا.
(4) في ن 1، ن 3: المذكورة.
(5) سورة الزمر: آية 47.
(6) سورة الحاقة: آية 1-2.
(7) سورة القارعة: آية 1-2.

أمر الحاقة والقارعة ما لا يفي به الوصف، والابهام مقصود في التعظيم والتفخيم للأمر المعبّر بها عنه.

فإن قلت: إن «ما» يقل وقوعها نكرة موصوفة، قلت: بل هي حيث يقصد بها هذا المعنى موجودة في كثير من كلامهم وإن كانت الموصولة أكثر منها، إلا أن الموصولة لا تحرز ما ذكرنا من المعنى إحرازها.

فإن قلت: إنما يصح ما اعتمدت من المعنى على القول بتكليف ما لا يطاق، وذلك أمر[1] لم يكلف به. قلت: إما أنه من الأمر فصحيح وقد آمتحن به من قبلنا، وحمل عليهم بنص القرآن، وأما أنه مما لا يطاق فلا يبلغ هذا، بل نقول: إنه يطاق بمشقة، والآية ليست نصاً في هذه الأمة بل ولا في أهل الشرائع وحدهم، وإنما هي فيمن ينكر البعث الأخراوي ومن جاراهم، ويبين ذلك ما قد ورد قبل آية الجاثية من قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فيها... الآية﴾[2]، وهو قول من لا يصدق بالبعث وليس هذا من أتباع الرسل، ثم إن تخويفها يعم جميع المكلفين، والمؤمن الموفق أشد الخلق خوفاً منها: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَاسِرُونَ﴾[3]، ثم إنا نقول بجواز التكليف بما لا يطاق عقلاً ونمنعه شرعاً، وبسط هذا في مظانه.

الآية الخامسة من سورة الزمر ــ قوله تعالى في أهل النار: ﴿حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾[4]، ثم قال تعالى في أهل الجنة: ﴿حَتَّى إِذَا

---

(1) بهامش ن 2.

(2) سورة الجاثية: آية 32.

(3) سورة الأعراف: آية 99.

(4) سورة الزمر: آية 71.

جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾[1]، للسائل أن يسأل عن زيادة الواو في قوله: ﴿وَفُتِحَتْ﴾ في الآية الثانية؟

والجواب، والله أعلم: أن «إذا» في مثل هذا الكلام جارية[2] مجرى أدوات الشرط في احتياج الفعل بعدها إلى الجواب، إلا أن جوابها في قول البصريين لا ينجزم إلا في الشعر، وأهل الكوفة يرون أنها تجزم في الكلام، وقد اتفقا في استدعائها الجواب، فوقع جوابها في الآية الأولى منطوقاً به وهو قوله: ﴿فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾، فلا مدخل. وأما الآية الثانية فجوابها محذوف مقدر، وقولـه: «وفتحت أبوابهـا» كلام معطوف على ما قبله كما عطف عليه ما بعده، ولو كان جواباً لكان مقتضاه أنها لا تفتح إلا عند[3] مجيئهم، كالحال في أهل النار، وليس كذلك، والله أعلم. ألا ترى قوله تعالى في سورة صّ: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَئَابٍ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمْ ٱلْأَبْوَابُ﴾[4] فانتصاب «مفتحة» إنما هو على الحال، والحال قيد فيما قبلها.

فإذا قلت: جاء زيد ضاحكاً فالمعنى: جاء زيد متصفاً وقت مجيئه بالضحك، فالضحك هيئة حين المجيء وليس المراد أن ضحكه بعد المجيء، وإنما المعنى أن تلك صفته التي جاء عليها بل تقدمت مجيئه ولهذا قدر سيبويه رحمه الله قول بعض العرب مررت برجل معه صقر (صائداً به غدا، فقدره: مررت برجل معه صقر)[5] مقدراً الصيد به

---

(1) سورة الزمر: آية 73.

(2) بهامش ن 3.

(3) في ن 3: بعد، والصواب: عند.

(4) سورة ص: آية 49-50.

(5) بهامش ن 2.

غداً، فقدره بما هو حاصل ثابت وقت المرور، ولهذا قالوا في قول العرب: قمت وأَصُكّ عينه أنه من الشاذ النادر ونحوه ما أنشدوه من قول الشاعر:

فلما خشيت أظافيرهم[1]   نجوت وأرهنهم[2] مالكا[3]

فهذا في غاية القلة، ويحسن ورود الماضي حالاً إذا كانت معه قد لاقتضائها القرب، حتى يزول احتمال أن يكون منقطعاً فيضاد مقصود الحال، فإن قويت الدلالة عليه من المعنى جاز وروده في فصيح الكلام، وعليه جاء قوله في قراءة الأكثر[4] ﴿أَوْ جَاؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ... الآية﴾[5] لدلالة المعنى، وقرأ يعقوب[6] ﴿حَصِرَةً صُدُورُهُمْ﴾ فبينت قراءته ما قرأ به الجماعة، فقد تبين أن قوله تعالى: ﴿فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ معطوف على قوله: ﴿جَاؤُوهَا﴾ وليس جواباً، ومما يبين ما ذكرناه في معنى الآية ويشهد له إخباره صلى الله عليه وسلم في الصحيح أنه أول من يفتح وأول من يقرع باب الجنة[7]، فقد أوضح هذا

---

(1) في ن 1، ن 2: أظافير، وفي ن 3: أظافره، والصواب: أظافيرهم (عن المقرب، لابن عصفور 155/1).

(2) في ن 3: أرهبهم بالباء.

(3) البيت لعبد الله بن همام السلوسي، البحر المتقارب عن المقرب لابن عصفور 155/1.
عبد الله بن همام السلوسي من بني مرة بن صعصعة، شاعر إسلامي من التابعين (الخزانة 639/638).

(4) ربما أشار بذلك إلى من خالف كيعقوب الذي قرأ حصرة صدورهم أو أبي الذي قرأ «بينكم وبينهم ميثاق جاؤوكم حصرت صدوركم» بغير أو.

(5) سورة النساء: آية 90.

(6) يعقوب: هو يعقوب بن إسحاق بن زيد الحضرمي البصري، أبو محمد أحد القراء العشرة، توفي سنة 205هـ الاعلام 255/9.

(7) مسلم: إيمان 339.

أن الداخلين تالون له وبعده فيجدونها مفتوحة الأبواب، وإذا لم يتوقف فتح أبوابها على مجيئهم فليس قوله: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ جواباً لو فرضنا أن لا يعتد بالواو كما يقول أهل الكوفة.

فإن قيل: فما جواب إذا؟ قلت: الجواب ـ والله أعلم ـ مقدر بعد، يفسره المعنى، كأن قد قيل: حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فأدخلوها خالدين أنسوا وأَمِنوا[1] أو ما يرجع إلى هذا المعنى ويحرزه، وإذ ذاك يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾[2]، وقد نقل منسوباً إلى أهل الكوفة أن الواو قد تزاد في الجواب في مثل هذا، وعليه عندهم ما ورد في مثل قول امرىء القيس[3]:

فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى[4]

قالوا: قوله: وانتحى جواب «لما» والواو زائدة، وعند غيرهم أن قوله: «وانتحى» معطوف على «أجزنا»، والجواب محذوف أي أنسنا أو تحدثنا أو ما يحرز هذا المعنى، ومن محسنات الحذف الطول هنا وفي الآية الكريمة، ثم إن الآية قد أوضح مقصودها ما ورد في سورة صٓ.

---

(1) في ن 3: أو آمنوا.

(2) سورة فاطر: آية 34.

(3) امرؤ القيس، تقدمت ترجمته، ص 257.

(4) البيت 29 من معلقة امرىء القيس التي مطلعها:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

عجز البيت:

بنا بطن خبت ذي حقاف عقنقل

أنظر: ديوان امرىء القيس، ص 41.

فإن قيل: إن قوله[1] في تقدير الجواب في البيت: أنسنا أو تحدثنا التقدير فليس ذلك[2] بمعين، ولا يحذف الجواب أو الخبر أو ما يحذف إلا بعد أن يتعين؟ فالجواب انا لم نقدر ما يتغاير معناه، ولا شك أن المراد تعيينه إنما هو المعنى، ثم نحوم على ما نحصله من العبارة اللفظية مما يرجع إلى معنى واحد، هذا قول المحصلين، وهذا رد[3] على من جعل خبرالمبتدإ في قولهم: كل رجل وضيعته هذا المعطوف الذي: هو وضيعته، وقال إن الفائدة قد حصلت بذلك وتم الكلام، وتأول[4] كلام سيبويه على هذا[5] وقال: إن الذي قدره الفارسي[6] وغيره من أن الخبر: مقرونان[7] لا يصح، لأنه يحتمل أن تقدر مقرونان أو متلازمان فلا يتعين المحذوف، وإذا لم يتعين لم يجز حذفه، قيل (له)[8]: إن سيبويه قدره كما قَدَّرَهُ الفارسي وغيره، فقولهم واحد. فقال: تقدير سيبويه تقدير معنى، وإنما كلامنا في تقدير الإعراب وما يجوز حذفه من اللفظ وما لا يجوز، وجوابه أن سيبويه وأبا علي ومن قال بقولهما إنما اعتمدوا في الدلالة على أن الخبر محذوف ما تعطيه وتدل عليه واو مع في قوله: «وضيعته» التي اتفق الكل

---

(1) في ن 3: قولك.

(2) في ن 3: فليس إذ ذاك، والصواب: فليس ذلك.

(3) في ن 3: وبهذا رد، والصواب: وهذا رد.

(4) في ن 3: وتأمل، والصواب: وتأول.

(5) الكتاب 1/177-178.

(6) الفارسي: الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسي الأصل، أبو علي أحد الأئمة في علم العربية، توفي سنة 377 هـ.
(الاعلام 2/193-194).

(7) في ن 1، ن 2: مقترنان.

(8) سقط من ن 3.

وأنت معهم أنها بمعنى (مع)[1] فدلت على معنى الالتزام[2]، فلا مبالاة بالاختلاف في تقدير الألفاظ المترادفة ما لم يختلف المعنى، فتقدير مقرونان أو متلازمان أو متلاصقان إلى ما يحرز معنى الاجتماع الذي تعطيه وتقتضيه واو مع لا تضييق في ذلك، وشأن من اغتر بنظره فلم يتلبث[3]، ولم يتهم نفسه، ولا بالى بمخالفته الجماهير في كل صناعة، أنه قل ما يصيب، والناس في هذه المسألة متفقون على ما اعتمده سيبويه والفارسي، ولم يجعل واحد منهما خلافاً إلا ما زعمه هذا القائل، وقد خرج بنا (الكلام)[4] إلى ما موضعه أولى به، وأما الآية فقد (وضح)[5] أمرها، والحمد لله.

* * *

---

(1) سقط من ن 3.

(2) الكتاب 230/1.

(3) في ن 3: يتثبت والتلبث التوقف والتثبت (لسان العرب 332/3).

(4) سقط من ن 3.

(5) مضاف بهامش ن 2.

سورة المؤمن

الآية الأولى منها[1]: غ ـ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا (رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[2]، وفي سورة الشورى: ﴿وَٱلْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[3]، للسائل أن يسأل عن الوجه في تخصيص سؤال الاستغفار للمؤمنين في الأولى وتعميمه في الثانية؟

والجواب، والله أعلم: أن ذلك جار بحسب المناسبة، ولما تقدم الآية الأولى فيما ختمت به سورة الزمر من ذكر المتقين في قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَراً﴾[4]، وقول الملائكة لهم عند دخولهم الجنة: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾[5]، وقول الداخلين عند دخولها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾[6]، إلى ختام السورة، ثم تبع ذلك قوله تعالى في مطلع سورة المؤمن: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنْبِ

---

(1) سورة غافر: آية 7.
(2) سقط من ن 1، ن 2.
(3) سورة الشورى: آية 5.
(4) سورة الزمر: آية 73.
(5) سورة الزمر: آية 73.
(6) سورة الزمر: آية 74.

وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِي ٱلطَّوْلِ﴾[1]، ناسب هـذا استغفار الملائكة للمتصفين بصفات المذكورين، ويشهد لهذا ما ورد بعده من قوله تعالى مخبراً عن ملائكته بقولهم داعين: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَٱتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾[2]، وأما قوله تعالى أثناء هذه الآية: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَادِ﴾[3]، وقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾[4] إلى قوله: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾، فتأنيس للمؤمنين وباعث على شكر النعمة[5] على مـا مَنَّ[6] به عليهم من هدايتهم وسلامتهم من موجب أخذ من كذب وعاند، فبان التناسب في هذا كله.

وأما سورة الشورى فتقدمها قوله تعالى في خاتمة سورة السجدة: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾[7] إلى قوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾[8]، (ثم)[9] اتبع هذا في مطلع سورة الشورى بقوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ[10] وَٱلْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾[11]، فناسب هـذا

---

(1) سورة غافر: آية 3.
(2) سورة غافر: آية 7.
(3) سورة غافر: آية 4.
(4) سورة غافر: آية 5.
(5) في ن 3: النعم.
(6) في ن 3: يد.
(7) سورة فصلت: آية 52.
(8) سورة فصلت: آية 54.
(9) بهامش ن 1.
(10) في ن 3: فوقهم، وهو خطأ.
(11) سورة الشورى: آية 5.

استغفارهم لمن في الأرض لعظيم ما تقدم منهم مما أشار إليه قوله ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾، فلولا حلمه تعالى لتعجل هلاكهم، فاستغفار الملائكة إبقاء سبحانه عليهم إذ لا يفوتونه، وقد يؤمن من سبقت له السعادة منهم، فقد وضح مناسبة الوارد في الموضعين لما بني عليه، وإن عكس الوارد غير مناسب، والله أعلم بما أراد.

الآية الثانية من سورة المؤمن ـ قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (1)، وقال: ﴿وما يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَى وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَلَا ٱلْمُسِيءُ قَلِيلاً مَا تَتَذَكَّرُونَ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (2)، ثم قال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ٱدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾(3)، للسائل أن يسأل عن اختصاص كل آية من هذه الثلاث بما فصلت به؟ فقيل في الأولى: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾، وفي الثانية: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وفي الثالثة: ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾.

والجواب عن ذلك مجملاً، والله أعلم: أن المخاطبين ممن عقل لو نظروا واعتبروا لعلموا، ولو علموا لآمنوا، ولو آمنوا واستوضحوا النعم لشكروا، وبسط هذا الاجمال أن قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾(4) مبسوط الدلالة في آية البقرة وهي

---

(1) سورة غافر: آية 57.

(2) سورة غافر: آية 58-59.

(3) سورة غافر: آية 60-61.

(4) سورة غافر: آية 57.

قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ. . . ﴾ إلى قوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1]، ثم ورد في الكتاب العزيز بيان الدلالة بكل فصل من هذه الآية فقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَاءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ (تَرَوْنَهَا)[5] إلى ما جعل تعالى فيها من آيات الشمس والقمر والنجوم والكواكب السيارة وجريها في بروجها ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱللَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[6]، إلى إدخال الليل على النهار والنهار على الليل بتدرج لا يخل بالأبصار، إلى إنزال القطر من السماء إلى الأرض عند حاجتها فتنبت من كل زوج بهيج وتخرج من أنواع الثمرات مختلفات الألوان والطعوم ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾[7]، إلى جعل الأرض مهاداً، وإرسائها بالجبال، وجري الأنهار بالمنافع [8]، وتهيئة البحار لرجوع ما يفضل عن حاجة الأرض وعمارها

---

(1) سورة البقرة: آية 164.
(2) سورة ق: آية 6.
(3) سورة الملك: آية 5.
(4) سورة الأنبياء: آية 32.
(5) سقط من ن 3، سورة الرعد: آية 2.
(6) سورة يس: آية 40.
(7) سورة الرعد: آية 4.
(8) في ن 3: للمنافع.

من الحيوان العاقل وغير العاقل إليها، وتسنيد [1] الأرض لجري المياه لئلا تقف فتضر معالمها [2] ولا يتم لهم النفع بها، وهذا مع دحوها دحواً يتهيأ به التصرف والمشي في مناكبها لمصالح الخليقة ومنافعهم، وجعل ماء البحر مالحاً لئلا تتغير رائحته لطول مكثه، وتسخير الحيوان لتحريك مياه البحار من أسفلها، وتسخير الرياح المختلفة لتحريكها من أعلاها، فيحرز ذلك بقاء مياهها سالمة من النتن والجمود على مرور الأيام، وليصل العباد إلى منافعهم بالتصرف فيها إلى حيث شاؤوا باختلاف الرياح الحاملة (فيها) [3] والمبددة[4] لما يتصاعد من أبخرة الخلق وأنفاسهم، إذ لولا تبديدها[5] لركدت في الجو وأضرت بالعالم، إلى تقلب فصول السنة بتصاعد الشمس من برج الجدي إلى سرطانها ثم إنحدارها إلى الجدي جرياً محكم الترتيب لانتقال النبات بإذن الله، وإصلاح أبدان الحيوان، وإنضاج الفواكه وتهيئتها بالانتفاع بها. وتلوينها وترطيبها بحركة الشمس والقمر، إلى ما يقصر عن استيعابه الذكر، ذلك تقدير العزيز العليم، أفيتكون شيء من هذا بنفسه، أو يوجده نظيره ومماثله في الافتقار والاضطرار؟ لقد شهدت الجملة ودلت أجزاؤها على الخالق المنزه عن سماتها، المتعالي عن شبهها، المتقدس عن الند والمثل والشريك والنظير، المنفرد بالخلق والتدبير، ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ

---

(1) في ن 1، ن 2: تشييد.
(2) في ن 3: فعالها.
(3) سقط من ن 3.
(4) في ن 3: المبردة، والصواب: المبددة، ويؤكده ما جاء بعد فتأمله.
(5) في ن 3: تبريدها وتبديدها، أنسب.

إلاَّ ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[1] فحق الآية الكريمة المشيرة إلى ما وقع الايماء إلى بعضه أن يكون ختامها ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[2].

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَى وَٱلْبَصِيرُ﴾[3]، فضرب سبحانه المثل بذكر الأعمى والبصير، وهما حالا المعتبر بخلق السماوات والأرض وغير المعتبر، وحالا المؤمن الموفق للاعتبار والمسيء بتركه، ثم أعقب بذكر الساعة التي لا يعلم كنهها إلا من الخبر الصدق، فحق لهذه الآية أن يكون ختامها: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾[4]. لو اعتبروا أولاً ونظروا في معجزات الرسل لوضح لهم صحة ما جاؤوا به وصدقوا[5] بالساعة.

ثم أعقب من ذكر نعمه بجعل الليل سكناً لراحة الحيوان وسكونه والنهار مبصراً ـ أي يبصر فيه ـ لتصرف الخلق في معائشهم، إلى ما ينجر في الليل والنهار مما لا يحصى، وأوضحها ما نصت عليه الآية، فحق لهذه أن يكون ختامها ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾[6]، فقد تبين مناسبة هذه الخواتم لما ختم به، والله سبحانه أعلم[7].

* * *

---

(1) سورة الأنبياء: آية 22.
(2) سورة غافر: آية 57.
(3) سورة غافر: آية 58.
(4) سورة غافر: آية 59.
(5) في ن 3: فصدقوا.
(6) سورة غافر: آية 61.
(7) ورد عقب هذا في ن 1 فصل عن قوله تعالى: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾.

سورة السجدة[1]

الآية الأولى منها ـ قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ[2] فِي يَوْمَيْنِ...﴾[3] الآيات، فقد تقدم ذكرها في سورة الأعراف[4].

الآية الثانية منها ـ قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا مَا (جَاؤُوهَا)[5] شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾... الآية[6]، وفي سورة الزخرف: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾[7]، وقد تقدم في سورة الزمر[8] قوله تعالى في أهل النار: ﴿حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾[9]، وفي أهل الجنة: ﴿حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾[10]، للسائل أن يسأل عن زيادة «ما» في قوله

---

(1) يراد بها سورة فصلت.
(2) في ن 3: خلق السماوات والأرض، وهو خطأ.
(3) سورة فصلت: آية 9.
(4) صفحة 543 وما بعدها.
(5) سقط من ن 3.
(6) سورة فصلت: آية 20.
(7) سورة الزخرف: آية 38.
(8) سورة ص: آية 526.
(9) انظر ذلك صفحة 992.
(10) سورة الزمر: آية 73.

في سورة السجدة: ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاؤُوهَا﴾ وسقوطها في[1] سوى هذه الآية؟

والجواب، والله أعلم: أن «إذا» تزاد بعدها «ما» كثيراً فصيحاً، وقد لا تزاد، وكلا المرتكبين فصيح. إذا تقرر هذا فمن المعلوم أيضاً أن العرب مع أنهم يؤثرون إيجاز الكلام في الأكثر قد[2] يختارون الطول وإطناب الكلام في بعض المواضع، وذلك بحسب ما تدعو إليه الحال:

يـرمون بـالخطب الـطوال وتارة وحي الملاحظ خيفة الرقباء[3]

وإذا تأملت آية السجدة وجدتها مبنية على ما يستدعي الإطالة وينافر الإيجاز لقصد استيفاء ما تضمنت من حال أهل النار في امتحانهم، ألا ترى تخصيصها بما ذكر فيها من شهادة الأسماع والأبصار والجلود، وعتبهم جلودهم في الشهادة عليهم بقولهم: ﴿لِمَ شَهِدْتُّمْ عَلَيْنَا﴾[4]، ومجاوبة الجلود بقولها: ﴿أَنْطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[5]، إلى آخر ما كلمتهم به، ألا ترى أن الوارد هنا من قصصهم قد نيف على عشر آيات، وأن آية الزخرف وهي أطول البواقي ورد مضمونها في أربع آيات، وأما آية الزمر فلم تبلغ واحدة منها ثلاث آيات. فزيدت ــ ما ــ في آية السجدة مناسبة لما انجر في ذلك المقصود بها من الإطناب والاستيفاء،

---

(1) في ن 3: فيها، والصواب: في.

(2) في ن 3/ وقد ولا داعي للواو هنا.

(3) جاء في العقد الفريد 120/2 وأنشدني بيتاً من خطبة إياد:

يـومـون بـاللفظ الخفي وتـارة وحي المـلاحظ خيفـة الـرقبـاء

(البحر الكامل)

(4) سورة فصلت: آية 21.

(5) سورة فصلت: آية 21.

ولم تزد في البواقي لما بنيت عليه من الإيجاز، فجاء كل منها على ما يلائم ويناسب، ولم يكن ليناسب عكس الوارد على ما تمهد، والله أعلم.

الآية الثالثة[1] من سورة السجدة[2] ـ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾[3]، وفي سورة الشورى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا ٱلْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾[4]، للسائل أن يسأل عن خلو آية السجدة من ذكر النهاية المذكورة في (الآية)[5] الأخرى؟

والجواب[6] **عن ذلك**، والله أعلم: أن آية الشورى تقدم قبلها ذكر تلك الغاية والأجل في قوله: ﴿وَتُنْذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾[7]، فهذا هو الوقت الموعود والأجل المسمى، فلما تقدم ذكره وقعت الإحالة عليه في قوله: ﴿أَجَلٍ مُسَمًّى﴾، (وأما)[8] آية السجدة فلم يتقدم (فيها)[9] ذكر هذه الغاية على الوفاء به وبما فيه،

---

(1) مكان هذا بياض في ن 1.

(2) في ن 2: منها.

(3) سورة فصلت: آية 45.

(4) سورة الشورى: آية 14.

(5) سقط من ن 1، ن 2.

(6) مكان هذه اللفظة بياض في ن 1.

(7) سورة الشورى: آية 7.

(8) في ن 1: بياض.

(9) سقط من ن 3.

وأما قوله تعالى فيها: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾[1] فأشار إلى وقت حشرهم وإدخالهم في النار، وإنما ذلك فعل يقصد هؤلاء في ذلك اليوم وبعض ما فيه، فأوقع اسم اليوم على الوقت الذي يؤمر فيه بهؤلاء إلى النار، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ﴾[2] أي وقت القتال، فوقع اسم اليوم على الوقت، إذ لا يتقيد لقاء العدو وقتاله بيوم برأسه ولا بنهار دون ليل، فإنما وقع اليوم في قوله: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ ٱللَّهِ (إِلَى ٱلنَّارِ)﴾[3] الآية[4] على وقت من اليوم يتقيد به بعض أفعال ذلك اليوم، أما تفصيل ما فيه من استغراق الفريقين والإفصاح باسمه فإنما ذلك حيث ذكر، فكان هناك ما يحال عليه، وقد تكرر ذكره في قوله تعالى في سورة التغابن: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾[5]، فلتقدم ذكره موفى التعريف باسمه وقعت الإحالة عليه والإشارة بقوله: ﴿إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾، فقد وضح ورود[6] كل من الآيتين على ما يناسب، ولا يناسب عكس الوارد، والله أعلم.

(الآية الرابعة)[7] من سورة السجدة قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾[8]، وفي سورة الأحقاف: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ

(1) سورة فصلت: آية 19.
(2) سقط من ن 1، ن 2.
(3) سورة الأنفال: آية 16.
(4) سورة فصلت: آية 19.
(5) سورة التغابن: آية 9.
(6) في ن 1: وورد، وهذا خطأ.
(7) بياض في ن 1.
(8) سورة فصلت: آية 52.

مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾[1]، قد يسأل عن وقوع ـ ثم ـ في الأولى ووقوع واو النسق مكانها في الآية الثانية؟

والجواب[2] **عن ذلك**، والله أعلم: أن ثم للترتيب الزماني واقتضاء المهلة فيه، وتأتي أيضاً لبيان رتبة ما يعطف بها، وأن له موقعاً وخطراً وبه اعتناء، وقد مر بيان ذلك. وإن تفاوت الرتب كتفاوت الزمان، ولا توقف في أن كفرهم بالقرآن بعد علمهم أنه من عند الله (أو ثبوت أنه من عند الله كما هو)[3] وكما قد علم من سعد بالإيمان به وإن كذبوهم، فلا شك أن ذلك مرتكب شنيع وضلال بعيد، فجيء هنا بثم لتحرز عظيم اجترامهم[4] وشنيع مرتكبهم، فجاءت على ما يجب.

ولما قصد في آية الأحقاف زيادة شهادة عليهم بتصديق من تقرر عنده علم الكتاب المنزل قبل كتابنا، ممن يعرف علمه، فشهد بما عنده من العلم، أن هذا الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم إنما هو من عند الله، وكان ذلك أبين في الحجة عليهم فلم يرد بثم لاقتضائها مهلة لم تقصد هنا، وبيان النظم الجليل الوارد في الآية بما تقدره تقريباً لإفهامنا أن كأن قد قيل لهم: يا محمد أرأيتم إن كان القرآن من عند الله وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فكفرتم وآمن ذلك الشاهد واستكبرتم أنتم عن الإيمان فكيف تكون حالكم؟

---

(1) سورة الأحقاف: آية 10.
(2) بياض في ن 1.
(3) سقط من ن 1، ن 2.
(4) في ن 3: إجرامهم.

واقتضى[1] حكم هذا معنى الآية، ففي الكلام تقديم (وتأخير)[2] اقتضاه جليل نظم الكتاب[3] وعلي براعته، وإذا كان المعنى على تشريك ما تأخر في التركيب من قوله: وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله أن كان من عند الله لم يكن ليصح بين المنسوقين المحمول أحدهما على الآخر بما يقتضي الجمع من غير فتور ولا مهلة الفصل بثم لأنها منافرة لهذا الغرض، فورد هذا بالواو ليحرز ما قررناه من المعنى، ووردت الآية الأولى بثم لتحرز معناها أيضاً، وجاء كل على ما يجب ويناسب، ولا يمكن خلافه، والله أعلم.

* * *

(1) في ن 3: وأقضى، والصواب: واقتضى.
(2) سقط من ن 3.
(3) في ن 1، ن 2: جليل النظم الكتاب، وهو خطأ.

سورة الشورى

الآية الأولى منها ــ قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ ٱلذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾(1)، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾(2)، للسائل أن يسأل عن وجه الاختلاف فيما أعقبت به كل آية من هاتين الآيتين فقيل في الأولى: ﴿إنه عليم قدير﴾ وفي الثانية: ﴿إنه علي حكيم﴾ وهل كان يمكن عكس الواقع؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن الآية الأولى لما تضمنت الإعلام بانفراده سبحانه بملك السماوات والأرض وقهره جميع (من)(3) فيهن، وأنه الخالق لكل شيء فلا اختيار لمخلوق ولا مشيئة، وكل صادر منه إحسان، فيهب لمن يشاء إناثاً، وقدم ذكر الإناث لكراهة العرب إياهن، فأشار بتقديم ذكرهن إلى أن فعلهم وكراهتهم معارضة لما نفذت به مشيئته، ثم قال: ﴿وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ ٱلذُّكُورَ﴾، وجاء لفظ الذكور

(1) سورة الشورى: آية 49-50.
(2) سورة الشورى: آية 51.
(3) سقط من ن 3.

معرفاً ليشير بما تعطيه الألف واللام من العهدية إلى حالهم من الفضل ودرجة التقدم على الإناث، فكأنه في قوة أن لو قيل[1]: الذين من أمرهم و(من)[2] شأنهم، بتوازن تقديم الإناث وتعريف الذكور، فقدم ذكر الإناث لإرغام العرب، وعرف الذكور لشرف المنزلة، ثم قال: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً﴾ أي على التساوي عدداً، ثم قال: ﴿﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً﴾، فجعل من هذا كله أن الفعل لا يشركه فيه غيره، يفعل في ذلك كله ما أراده. فلما تضمنت الآية قهر العباد وانفراده سبحانه بالخلق والأمر ناسبها الختام بقوله تعالى: ﴿إنه عليم قدير﴾ أي عليم بوجه الحكمة في ذلك، قدير على ما يريده.

ولما قال[3] في الآية بعد: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾[4] فأوضحت الآية عليّ كماله تعالى وتنزيهه عن سمات الحدوث وأن المخصوصين من البشر للسفارة والرسالة إنما خطابه سبحانه لهم بهذه الوجوه المفصحة بتنزيهه عن شبه خليقته، فلا يصلون إلى ما يتقرر عنهم من خطابه تعالى إلا بأحد هذه الوجوه، وهي الوحي[5] مناماً أو إلهاماً، وخلقاً في قلب النبي، وعن هذا الضرب عبر بالوحي، ومنه قول ابراهيم، عليه السلام، لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّي

---

(1) في ن 3: إن قيل.
(2) سقط من ن 3.
(3) في ن 3: قدم، وهذا ينافر المعنى.
(4) سورة الشورى: آية 51.
(5) في ن 3: الوجه، والصواب: الوحي.

أَذْبَحُكَ﴾[1]، أو من وراء حجاب كتكليم موسى، عليه السلام، أو إرساله سبحانه ملكاً من المقربين لديه يوحي بإذنه ما يشاء كما كان جبريل، عليه السلام، وهو المعروف بهذه الخصيصة، والمعد من الملائكة للسفارة بينه سبحانه وبين رسله، يأتيهم بما يرسله تعالى به من القصص والأوامر والنواهي، فبهذه الطرق الثلاث وصول الرسل والأنبياء إلى ما عندهم من الله تعالى، وقد حصل من ذلك الإعلام بتنزيهه سبحانه وتعاليه عن التكيّف، فناسب هذا ختام هذه الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ أي عليّ عن مداناة البشر إلا باللطف والإحسان، حكيم في أفعاله. فتبين وجه مناسبة هذا إتمام ما به ختم كما ناسب الختام قبله وهو قوله: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ ما أعقب به، فوضح أن كل ختام منهما لا يلائم غير موضعه، وأنه لو ختمت هذه الأخيرة بما به ختمت الأولى والأولى بما به ختمت هذه لم يكن ليناسب هذه المناسبة الحاصلة، والله أعلم بما أراد.

* * *

(1) سورة الصافات: آية 102.

سورة الزخرف

الآية الأولى منها ـ قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ ٱلرَّحْمَانُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾[1]، وقال في الجاثية: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[2]، فأعقب في الأولى قوله: ﴿ما لهم بذلك من علم﴾ بقوله: ﴿إن هم إلّا يخرصون﴾، وأعقب في الثانية قوله: ﴿ما لهم بذلك من علم﴾ (بقوله)[3]: ﴿إن هم إلا يظنون﴾، فللسائل أن يسأل عن وجه اختصاص كل من الموضعين بما به أعقب؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أنهم لما قالوا: ﴿لَوْ شَاءَ ٱلرَّحْمَانُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾[4] فتعلقوا في احتجاجهم[5] بقول الحق، وهو أنه سبحانه لا يجري في ملكه إلا ما يريده ويشاؤه، ثم في اختصاصهم من أسمائه الرحمان عضد لتعلقهم وتقوية لما رأوا الاحتجاج به، وكأنهم قالوا: إذا كان متصفاً بالرحمة ولا استبداد لأحد من الخلق بشيء من أفعالهم وإنما يجري ما يصدر عنهم بحسب مشيئته وإرادته، وقد جرى منا ما نحن عليه

---

(1) سورة الزخرف: آية 20.
(2) سورة الجاثية: آية 24.
(3) سقط من ن 2، ن 3.
(4) في ن 3: زيادة ما لهم بذلك.
(5) في ن 3: باحتجاجهم، والصواب: في احتجاجهم.

من عبادة أصنامنا وما اتخذناه من معبوداتنا، وليس لنا استبداد بما يصدر عنا فهو مراد له وبمشيئته وهو رحمة لأنه الرحمان، فلو كانت الرحمة في تركنا معبوداتنا لشاء ذلك (لنا)[1] لأن الرحمان لا يكون منه إلا ما هو رحمة، وإنما الفعل له لا لنا، فلو شاء أن لا نعبدها ما عبدناها، فلما تعلقوا بما يبدو منه أن لديهم علماً، أخبر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أنه لا علم عندهم، ولا قالوا ذلك عن معتقد تركن إليه قلوبهم، وإنما هو تخرص قولي لا علم وراءه، ومن وحي الشياطين[2] لأنهم أولياؤهم[3] كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾[4]، فكلامهم تخرص بالقول لا علم وراءه، إذ الكلام في القدر وأحكامه، وإن الإرادة تخالف الرضا، وإن الأمر قد يأمر بما لا يريده، وإنه سبحانه قد يريد إيقاع ما لا يرضاه، وبيان ما تبنى عليه التكاليف وتتعلق به الأوامر والنواهي من القدرة الكسبية[5] التي بمعرفتها وثبوتها حصول السلامة من مذهب الجبر[6]، وبإنكارها التورط في مذهب الاعتزال[7] أو قول أهل القدر[8]، وكلا المذهبين[9] ضلال

---

(1) سقط من ن 3.
(2) في ن 3: الشيطان، والصواب: بالجمع ويؤكده ما ورد بعده.
(3) في ن 3: أولاهم، والصواب: أولياؤهم.
(4) سورة الأنعام: آية 121.
(5) في ن 3: والكسبة، والصواب: الكسبية.
(6) مذهب الجبر: ينفي عن الإنسان الحرية فيما يقوم به من أعمال ويجعله مجبراً عليها ينفذ ما هو مقضي ومقدر له من الله فهو مُغَالٍ في القول بالقضاء والقدر.
(7) يقول المعتزلة بخلق الإنسان لأفعاله وحريته المطلقة فيما يأتيه منها وقد جرهم إلى هذا قولهم بالعدل.
(8) هم نفاة القضاء والقدر ينسبون للإنسان إرادة مستقلة عن إرادة الله وحرية مطلقة فيما يأتيه من أفعال.
(9) في ن 3: وكلام المذهبين، والصواب: وكلا المذهبين.

ونزوح عن الحق، وكل من المذهبين له تهجم سبقية إلى الأذهان، يدفعها التوفيق إلى النظر الصحيح، وإلا كان التخرص المورط في الضلالات، وهنا بحار طامية من دقائق العلم والنظر لا شيء عند هؤلاء الكفار منها[1] ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾[2]، ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [3]، فقد وضح التناسب في هذا.

وأما الآية الثانية فإنه تعالى لما حكى عنهم قولهم منكرين للبعث الأخراوي: ﴿وَقَالُوا مَا[4] هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [5] أي وما يهلكنا إلا تعاقب الأيام والليالي، فلم ينسبوا الإحياء والإماتة لفاعل مختار يميت ويحيي، وبنوا على ذلك إنكار العودة، أخبر تعالى عنهم أنهم لا متعلق لهم إلا مجرد ظن لا مستند له فقال: ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [6]، فأخبر تعالى أن مرجعهم إلى الظن، وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً، وتناسب هذا واضح لا خفاء به.

الآية الثانية من سورة الزخرف قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾[7]، ثم قال: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى

---

(1) في ن 1، ن 2: ومنها وبزيادة الواو يختل المعنى.
(2) سورة يونس: آية 39.
(3) سورة يونس: آية 66.
(4) في النسخ الثلاث: إن هي، وهذا خطأ.
(5) سورة الجاثية: آية 24.
(6) سورة الجاثية: آية 24.
(7) سورة الزخرف: آية 22.

أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾[1]، للسائل أن يسأل عن الفرق الموجب لقول الفريق الأول: ﴿وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾ وقول الفريق الثاني: ﴿وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ مع الاتفاق من جميعهم في قولهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ أي على دين وملة، ثم وقع الاختلاف في وصف أنفسهم في اتباع آبائهم بالاهتداء والاقتداء؟

ووجه ذلك، والله أعلم: أن ما تقدم الآية الأولى حكاية قول كفار العرب المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم والسامعين منه القرآن المسمى هدى في غير موضع كقوله سبحانه: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾[2]، وقوله: ﴿هَذَا هُدًى﴾[3]، وقوله: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ﴾[4]، فلما دعاهم صلى الله عليه وسلم ليهتدوا بهديه قابلوا دعاءه بقولهم: إنهم[5] مهتدون وإنهم وجدوا آباءهم على أمة وإن ما وجدوهم عليه هدى، فقالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ أي على دين وإنا على آثارهم مهتدون كهديهم، فلما دعاهم زعموا أنهم على هدى، وهذا أبين تناسب.

وأما الآية الثانية فحكاية أقوال قرون مختلفة، وقد ذكر تعالى من قول بعضهم: ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾[6]، وفي موضع آخر:

---

(1) سورة الزخرف: آية 23.
(2) سورة البقرة: آية 2.
(3) سورة الجاثية: آية 11.
(4) سورة لقمان: آية 3.
(5) في ن 3: انا، وإنهم أنسب ويؤكد ذلك ما جاء بعد.
(6) سورة الأنبياء: آية 53.

﴿كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[1]، فهذا اتّباع مجرد عن ادعاء كونه هدى أو غير هدى، فهو اعتراف بتقليد واتّباع تعظيم[2] لفعل آبائهم من غير ادعاء شبهة، فلم يكن ليطابق هذا[3] إلا الوارد في قوله تعالى عنهم: ﴿وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾، فجاء كل على ما يناسب، والله أعلم.

* * *

(1) سورة الشعراء: آية 74.
(2) في ن 3: عظيم، والصواب: تعظيم.
(3) في ن 3: بهذا، والصواب: هذا.

سورة الجاثية

الآية الأولى منها ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَايَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ وَٱخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1]، للسائل أن يسأل عن وجه اختصاص كل آية من هذه الثلاث بما به خصت خواتمها من صفات المعتبرين بها، فقيل في الأولى: ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، وفي الثانية: ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، وفي الثالثة: ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؟.

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن خلق السماوات والأرض للمعتبر المنصف كاف في التصديق بحدوثهما وافتقارهما من حيث أن وجودهما أو عدمهما من قبيل الجائز[2]، والتخصيص بأحد الجائزين لا يكون إلا بمخصص مقتض هذا الجائز الواقع، ثم ذلك المخصص لا يكون مماثلاً وإلا لافتقر[3] إلى مخصص، وذلك مؤد إلى التسلسل وهو محال، وأيضاً فليس أحد المتماثلين في إيجاب حكم المماثلة بأولى مما يوجبه الآخر، وهذا كله محال، فلا بد من صانع متعال عن شبه

---

(1) سورة الجاثية: آية 3-5.
(2) في ن 3: الجائزات.
(3) في ن 3: وإلا افتقر.

المصنوع، منزه عن المماثل والنظير وسمات الحدوث، متصف بالكمال لكمال[1] المصنوع وإتقانه، متصف بالعلم والقدرة والإرادة، إلى ما هو سبحانه أهله، وإذا حصل الاعتراف بالصانع علم المعترف بما ذكرنا أنه تعالى قادر على خلق ما يشاء، وإلى هذا أشار قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ ٱلْخَلَّاقُ ٱلْعَلِيمُ﴾[2]، فمن اعتبر بالسماوات والأرض أو بخلقهما إذ يمكن في قوله: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أن يؤخذ على (أن)[3] لا مضاف محذوفاً، وأن يكون على حذف المضاف، أي إن في خلق السماوات والأرض، وطريقة الاعتبار واحدة على التقديرين لمن اعتبروا، فمن اعتبر وأنصف آمن، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[4]، فحصل لهم الإيمان، فوسموا قبل حصوله بما يؤول أمرهم ــ إذا اعتبروا ــ إليه، فهو من قبيل التسمية بالمآل، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنِّي (أَرَانِي)[5] أَعْصِرُ خَمْراً﴾[6].

ثم قال تعالى: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[7]، والمراد أن المعتبر بالسماوات والأرض إذا حسن اعتباره وأنصف من نفسه حصل له الإيمان بالصانع سبحانه، فإذا أضاف إلى

---

(1) في ن 2: بكمال، والصواب: لكمال.
(2) سورة يس: آية 81.
(3) سقط من ن 3.
(4) سورة الجاثية: آية 3.
(5) سقط من ن 3.
(6) سورة يوسف: آية 36.
(7) سورة الجاثية: آية 4.

ذلك الاعتبار بخلق الإنسان وتطوره [1] في الأرحام من حال النطفة،إلى حال العلقة، إلى حال المضغة، إلى حال العظام وكسوتها باللحم، إلى الإبراز إلى عالم الشهادة بشراً سوياً محكماً متناسب الأعضاء تام الخلق، إلى تدريجه بعد هذا، وكل ذلك من غير توقف شيء من صفاته وخواصه على اختيار أب أو أم، إلى اختلاف الألسنة والألوان والصور إلى ما يتعلق بذلك، واعتبر بخلق الحيوانات وما بث سبحانه في الأرض برها وبحرها من ذلك، وركون كل ذي شكل إلى شكله، وقيام أغذية الجميع بما يصلح لهم، وتسخير المسخر منها للآدمي وإيناسه، وتوحش المتوحش، وإجراء الجميع على اختلاف الأحوال في ذلك، ففي الاعتبار بذلك كله ما يثمر للمؤمن اليقين ويرقيه إلى أعالي درجات المتقين.

ثم إذا اعتبر بما أشارت إليه الآية الثالثة، من اختلاف الليل والنهار، وتهيئة الليل للسكون والاستراحة والنهار للتصريف في المعاش والحاجات، وتداولهما كالمتعاوضين في الطول والقصر، وإيلاج أحدهما في الآخر إيلاجاً خفياً حتى لا يدخل أحدهما على الآخر دفعة فيضر (بأبصار)[2] الحيوان، إلى ما يتعلق بهذا ويرجع إليه، فمن أحكم تدبر ذلك وآعتبر به، واعتبر جري الرياح ومنافعها من سوقها للسحاب والأمطار وإحياء الأرض بالماء النازل منها بعد موت الأرض وإخراجها ضروب النبات لانتعاش الحيوان ومصالحه، فإذا اعتبر المؤمن الموقن بهذا أعقبه ثبات يقينه وتمكن دينه فآمن وأيقن وعقل عن ربه، فانتفت

---

(1) في ن 3: تصوره، وتطوره أنسب للسياق.
(2) بهامش ن 2.

الشبهات، وأفصحت بالبراهين الآيات، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا ٱلْعَالِمُونَ﴾[1].

فتأمل كيف جعل سبحانه تعقل الأمثال موقفاً على العالمين، وإنما تحصل لهم الاتصاف بأن كانوا عالمين بما منحوه من كمال عقولهم، فتبين التدريج الوارد[2] في الآيات، وأنه لا يلائم آية منها ما ختم به غيرها، بل كان كل ختام من الأوصاف الثلاثة لا يليق بغير موضعه، وتأمل آية البقرة وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ (بِمَا يَنْفَعُ ٱلنَّاسَ)﴾[3] إلى قوله: ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[4] فأجمعت آية البقرة ما وقع في هذه الآيات الثلاث من سورة الجاثية منسوقاً ذلك بعضه على بعض غير مستأنف الابتداء للاعتبار به كما ورد في هذه الآي، بل ورد مجموعة في آية واحدة، كيف ختم ذلك بقوله: ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ كما ختمت هذه الآي الثلاث بقوله: ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ إعلاماً بشرف العقل الذي به ـ بإذن الله ـ يحصل الإيمان ثم اليقين ثم الثبات المحصل للكمال بحصول العلم الحاصر[5] لذلك كله.

سورة الأحقاف، قد تقدم ما فيها

* * *

---

(1) سورة العنكبوت: آية 43.

(2) في ن 1، ن 2: المراد، والصواب: الوارد.

(3) سقط من ن 1، ن 2.

(4) سورة البقرة: آية 164.

(5) في ن 1، ن 2: الحاضر، والصواب: الحاصر بالمهملة.

سورة القتال [1]

الآية الأولى منها: غ ـ قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾[2]، وفيما بعد من هذه السورة: ﴿ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ[3] ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾[4]، للسائل أن يسأل عن وجه ورود «أنزل» في الأولى وفي الثانية «نزّل» مضعفاً؟

والجواب، والله أعلم: أن ذلك مفهوم مما تقدم في (أول)[5] سورة آل عمران باعتبار ما يخص هذه السورة، وهو أن المتقدم من أول هذه السورة إلى قوله بعد الآية المتكلم فيها ﴿وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾[6] يقصد ممن تضمنته هذه الآي من الكفار غير مشركي العرب من قريش وغيرهم، ولا شك أن كفرهم منسحب على كل المنزل من القرآن وما تقدم نزوله من التوراة وغيرها من الكتب، فلم يكن ليلائم ذلك عبارة نزّل المبينـة عن تنجيم المنزّل، ولم ينزّل كذلك غير القرآن، وهم ينكرون كل الكتب المنزلة ويكرهونها فقيل هنا: ﴿كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ﴾.

---

(1) سورة محمد صلى الله عليه وسلم.
(2) سورة محمد: آية 9.
(3) في ن 3: أنزل، وهو خطأ.
(4) سورة محمد: آية 26.
(5) بهامش ن 1.
(6) سورة محمد: آية 11.

أما الآية الثانية فالمراد بها ذوو النفاق والمرتدون على أدبارهم، ويبين ذلك ما تقدمها من قوله تعالى: ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [1]، وهؤلاء هم المنافقون، ولم يقع فيما بعد عدول عنهم إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ﴾[2] وإنما هؤلاء قوم كفروا بعد إسلامهم، وهم القائلون بمقتضى نفاقهم وما أبطنوه من الكفر لغيرهم ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾[3]، ولهؤلاء اطلاعٌ على المنزّل من القرآن وخصوص كراهية له، وهي المهيجة لنفاقهم، فهو الذي كرهوه حقيقة فقيل هنا: ﴿كَرِهُوا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ [4] بلفظ التضعيف إذ الإشارة إلى القرآن، وهذه صفته أعني ما يشير إليه التضعيف من التنجيم في النزول، فكل من الموضعين وارد على أنسب نظام وأتمه.

الآية الثانية: غ ـ قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾[5]، (ثم قال)[6]: ﴿فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ﴾، فورد الفعل أولاً مضعفاً وثانياً غير مضعف؟

ووجه ذلك، والله أعلم: أن المؤمنين هم الذين يودون نزول السورة، وطلبهم نزولها إنما هو على ما اعتادوه[7] جارياً في غيرها من

---

(1) سورة محمد: آية 20.
(2) سورة محمد: آية 25.
(3) سورة محمد: آية 26.
(4) في ن 3: أنزل الله، وهو خطأ.
(5) سورة محمد: آية 20.
(6) بهامش ن 3.
(7) في ن 3: من أعادوه، والصواب: ما اعتادوه.

التنجيم وتفصيل النزول، فالملائم هنا عبارة التضعيف. وقوله: ﴿فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ﴾ إنما المراد تحصيلها بجملتها بعد كمالها وذلك مفهوم من سياق الكلام، والملائم ــ لما تحصّل وتم ــ عبارة الإنزال من غير تضعيف.

فكل من الموضعين وارد على أنسب نظم، والعكس غير ملائم، والله أعلم.

* * *

سورة الفتح

الآية الأولى منها ـ قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي أَنْزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ [1]، ثم قال بعد: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾[2]، للسائل أن يسأل عن تعقيب جنود السماوات في الآية الأولى بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ وتعقيب الثانية بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن الآية الثانية لما تقدمها قوله تعالى: ﴿لِيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَافِقِينَ وَٱلْمُنَافِقَاتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَاتِ ٱلظَّانِينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾[3]، ناسب هذا المتقدم، من فعله تعالى بالفريقين، من مجازاة المؤمنين بالنعيم المقيم، وتعذيب المنافقين وغضبه عليهم ولعنهم وإعداده لهم جهنم، وَصفُه تعالى بالعزة ليعلم أنه سبحانه لا مغالب له

---

(1) سورة الفتح: آية 4.

(2) سورة الفتح: آية 7.

(3) سورة الفتح: آية 5-6.

وأن الكل تحت قهره، إذ لعزته يفعل في الكل ما يريده وما تقتضيه حكمته، إذ هو العزيز في ملكه الحكيم في أفعاله.

ولما[1] لم يتقدم الآية المتقدمة ما يقتضي القصر كهذه، وإنما قبلها قوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي أَنْزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَاناً مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [2]، وهذا تعريف بإنعامه سبحانه ورحمته، فأعلم سبحانه أنه العليم بمن يرحمه، كما قال تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ [3]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ [5] حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالاَتِهِ﴾ [6]، وجاء كل من الآيتين على ما يجب، والله أعلم.

الآية الثانية: غ ـ قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ (لَكَ)[7] ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾[8]، وفيما بعد منها: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾[9]، ففي الآية الأولى إفراده، عليه السلام، بخطابهم له في قوله تعالى آفصاحا بحرف الخطاب: «لك» ولم يرد ذلك في الثانية؟

---

(1) بهامش ن 3.
(2) سورة الفتح: آية 4.
(3) سورة الإسراء: آية 54.
(4) سورة النحل: آية 125.
(5) في ن 3: يعلم، وهو خطأ.
(6) سورة الأنعام: آية 124.
(7) بهامش ن 3.
(8) سورة الفتح: آية 11.
(9) سورة الفتح: آية 15.

ووجه ذلك أن المخبر عنهم من المخلفين طلبوا منه صلى الله عليه وسلم الاستغفار لهم لتخلفهم عنه، وأفردوه بخطابهم إذ ليس ذلك من مطلوبهم لغيره فوردت العبارة عن ذلك بإفراد الخطاب. وأعلم تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بنفاقهم وكذبهم في اعتذارهم فقال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾[1]..

وأما الآية الثانية فليس قولهم: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ خطاباً خاصاً له صلى الله عليه وسلم، بل هو خطاب له وللمؤمنين، والسياق يفصح بذلك، وما أمره به، عليه السلام، من مجاوبتهم في قوله لهم: «لن تتبعونا» فلم يرد هنا إفراده صلى الله عليه وسلم بخطابهم له كما ورد في الأولى، وجاء كل على ما يناسب.

فإن قيل: إن خطابهم له خاص كالأول ولكن[2] خاطبوه مخاطبة التعظيم بقولهم: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾، قلت: وعلى (فرض)[3] هذا فمراعاة الألفاظ في التعظيم[4] أكيدة جداً وبها إحرازه، وعلى هذا لا يلائم هنا الخطاب كيف ما قدر إلا بصورة[5] ما للجميع، والله أعلم بما أراد.

الآية الثالثة من سورة الفتح ـ قوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ ٱللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾[6]، ثم قال فيما بعد: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ

---

(1) سورة الفتح: آية 11.
(2) في ن 3: لا، والصواب: لكن.
(3) سقط من ن 3.
(4) في ن 3: النظم.
(5) في ن 3: صورة، والصواب: بصورة.
(6) سورة الفتح: آية 11.

عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾[1]، للسائل أن يسأل عن وجه اختلاف الوصفين الواقع بهما ختام الآيتين وهما «خبير» في الأولى و«بصير» في الثانية؟

والجواب عنه: أنه قد تقدم قبل الآية الأولى قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾[2] فناسب هذا وصفه تعالى بالخبير لأن الخبير هو العليم بما خفي وبطن، فتأمل مناسبة هذا لقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

وأما الآية الثانية فتقدمها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾[3] وليس في هذا إبطان شيء[4] أظهر خلافه، فكان إيراد وصفه سبحانه ببصير أنسب، وورد كل على ما يجب.

* * *

سورة الحجرات، قد تقدم ما فيها[5].

* * *

---

(1) سورة الفتح: آية 24.
(2) سورة الفتح: آية 11.
(3) سورة الفتح: آية 24.
(4) في ن 3: حتى وشيء أنسب.
(5) أنظر صفحة 635.

سورة قٓ

قوله تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ أَلْقِيَا في جَهَنَّمَ﴾[1]، ثم قال بعد هذا: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾[2]. يسأل عن ثبوت واو العطف في قوله أولاً: «وَقَالَ قَرِينُهُ» ولم يثبت الواو في الآية الثانية؟

والجواب عن ذلك: أن الآية معطوفة على ما قبلها من آيات هي إخبار عما يلقاه الإنسان المتقدم ذكره من الأهوال والشدائد في المواقف الأخراوية وما بين يديها، أولها قوله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾[3]، ثم قال: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾[4]، ثم قال: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾[5]، فهذه إخبارات عن شدائد بعضها تلو بعض، فطابق ذلك ورود بعضها معطوفاً على بعض. وأما قوله: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ فهو إخبار مبتدأ

---

(1) سورة ق: آية 22-24.
(2) سورة ق: آية 26-27.
(3) سورة ق: آية 19.
(4) سورة ق: آية 20-21.
(5) سورة ق: آية 23.

مستأنف معرف بتبرّيء قرينه من جملة ما تأبطه واجترحه، ولا طريق لعطف ذلك على ما قبله،إنما هو استئناف إخبار، فورد كل من الآيتين على ما يجب ويناسب.

* * *

سورة والذاريات

الآية الأولى منها: غ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾[1]، وفي الطور: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾[2]، وفي والمرسلات: ﴿إِنَّما تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾[3]، للسائل أن يسأل عن موجب اختلاف العبارة عما وقع القسم عليه؟ وما جُووب به مع أن المراد بذلك كله الجزاء الاخراوي؟

والجواب، والله أعلم: أن سورة والذاريات تقدمها في سورة قٓ اخباره سبحانه بالعودة الاخراوية وإقامة البرهان على ذلك لمن وفق لاعتباره فقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾، إلى قوله: ﴿كَذَلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾[4]، ثم أعقب بذكر مكذبي الأمم وما حق عليهم من الوعيد الأخراوي بعد أخذ كل منهم في الدنيا بذنبه، ثم استمرت آي هذه السورة على هذا المنهج من ذكر البعث وحصر أعمال المكلفين وكتبها عليهم، مع علمه سبحانه بما توسوس به نفوسهم ووقوع الجزاء على ذلك، وغفلة المكذب عن ذلك

---

(1) سورة والذاريات: آية 5-6.
(2) سورة الطور: آية 7-8.
(3) سورة المرسلات: آية 7.
(4) سورة قٓ: آية 6-11.

كله حتى يكشف له الغطاء فيشاهد ما لم يكن يحتسبه، أعقب بإزلاف الجنة للمتقين ووصفهم بما منحهم ووعدهم عليه، ثم أعقب بأمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر والتزام ما أمره به، وأن يذكّر بالقرآن المستجيبين الخائفين وعيده سبحانه، فلما اشتملت السورة على أوعاد وجزاء أعقبت بالقسم على ذلك، من صدق وعده سبحانه ووعيده، ووقوع الحساب على الأعمال، فقال تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾[1] إلى قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾[2]، وتناسب النظم في ذلك كله أبين تناسب.

أما سورة الطور فالقسم فيها مرتبط بما اتصل به ووقع عليه القسم من قوله تعالى خاتمة سورة الذاريات ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوباً مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِم فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾[3] فأتبع قسماً على هذا بقوله: ﴿وَٱلطُّورِ﴾[4] إلى قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾[5].

وأما قوله في سورة والمرسلات: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ فمرتبط بما بنيت عليه سورة الإنسان، فإنها بجملتها دارت آياتها وجرت على ما به ختمت من قوله تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَٱلظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾[6]، فتحصل مجرد وعد ووعيد، ولم تخرج السورة عن

---

(1) سورة الذاريات: آية 1.
(2) سورة الذاريات: آية 5-6.
(3) سورة الذاريات: آية 59-60.
(4) سورة الطور: آية 1.
(5) سورة الطور: آية 8.
(6) سورة الإنسان: آية 31.

ذكر الفريقين ممن وعد وتوعد، فناسب ذلك قوله تعالى جواباً للقسم: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ فجاء كل من المواضع الثلاثة على ما يناسب، ولا يلائم النظم في ثلاثتها غير ما ورد عليه، والله أعلم.

الآية الثانية ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ كَانُوا قَلِيلاً مِنَ ٱللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾[1] إلى قوله: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾[2]، وفي سورة والطور: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾[3] إلى قوله: ﴿هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[4]. للسائل أن يسأل عن وجه اختلاف الإخبار عن أهل الجنة في هاتين السورتين؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن هاتين السورتين اتحدتا في القصد من وعيد كفار قريش[5] والعرب ذوي العناد والتكذيب والإخبار بجزائهم الأخراوي، فعلى هذا مبنى السورتين، ولهذا آفتتحتا بالقسم على ذلك كما تقدم، والموعود به فيهما جزاء فريقي السعادة والشقاء، وإليه الاشارة بقوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾، وهو حساب[6] الكل وجزاؤهم بما سلف من جميعهم من خير أو شر. فلم يكن بد من ذكر أهل النعيم ذوي الاستجابة والتصديق للرسل، والإخبار بحال الفريقين على ما هو الجاري المطرد في الكتاب العزيز، أعني أنه إذا ذكر حال المكذبين أتبع

---

(1) سورة الذاريات: آية 15-17.
(2) سورة الذاريات: آية 23.
(3) سورة الطور: آية 17.
(4) سورة الطور: آية 19.
(5) في ن 3 من كفار قريش، ومن هنا زائدة.
(6) في ن 3: الحساب، والصواب: حساب.

بحال المصدقين[1]، أو ذكر حال ذوي الاستجابة والتصديق)[2] بحال من كان على الضد منهم، وهذا قانون مطرد، فلمجموع هذين: من أن الكل هم[3] المرادون بمقتضى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾[4]، وأنه إذا ذكر أحد الفريقين أتبع بذكر الفريق الآخر، فلهذا ما ذكر فريق المتقين وجزاؤهم مع أن مبنى السورتين على ما ذكر، فبدىء فيهما بذكر حال المعاندين، وبذلك ختمت كل سورة منهما، ثم ذكر بعد المبدو[5] به في السورتين حال المتقين، ونص في السورة[6] الأولى على أسنى أعمالهم وأجل ملتزماتهم المستتبعة لما (سواها)[7] من سائر أعمالهم المترتب عليها جزاؤهم فقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ ٱللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾[8]، فذكرهم الله تعالى بالاحسان، وقيام الليل، والاستغفار بالأسحار، والمساهمة في أموالهم للسائل والمحروم، وكأن هذه أمهات اقتصر منا[9] عليها، وأمعن في الثانية بذكر الجزاء وضروب النعم. في مجموع السورتين الوفاء بذكر أعمالهم وجزائهم فقيل في الأولى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ آخِذِينَ

---

(1) في ن 3: الصدقين، والصواب: المصدقين.
(2) بهامش ن 2.
(3) في ن 3: منهم، والصواب: هم.
(4) سورة الذاريات: آية 5-6.
(5) في ن 1، ن 2: البدوية.
(6) في ن 2: السورتين، والصواب: السورة بالإفراد.
(7) سقط من ن 3.
(8) سورة الذاريات: آية 16-19.
(9) في ن 3: منها، والصواب: هنا.

مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾[1] فهذا من ذكر جزائهم الموفى في الثانية معظمه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾[2] في آيات[3] إلى قوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾[4]، وحصل في هذا استيفاء كثير من جزائهم. وفي السورة قبل ما عليه يترتب ذلك[5] من أعمالهم، فٱرتبطت الآيتان، (وتبين)[6] أنه لا اختلاف بينهما. وفي ختم كل واحدة من السورتين بمثل ما به بدئت إشعار ببنائهما على (كل)[7] ما قدمنا من وعيد من ذكر، وأن ما ذكر فيهما من حال أهل الجنة أعمالاً وجزاء فلما قدم ذكره من الارتباط بين الجزاءين في آي الوعد والوعيد متى ذكر أحدهما، والله أعلم بما أراد.

الآية الثالثة ــ وهي من تمام ما قبلها ــ وذلك قوله تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾[8]، وفي سورة الحج: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾[9]، يسأل عن وجه زيادة الصفة في سورة المعارج من قوله: ﴿مَعْلُومٌ﴾ وسقوط ذلك في الذاريات؟ وهل كان يناسب عكس الوارد؟

---

(1) سورة الذاريات: آية 15-16.
(2) سورة الطور: آية 17.
(3) سقط من ن 2.
(4) سورة الطور: آية 28.
(5) في ن 2: ما يترتب عليه ذلك.
(6) سقط من ن 3.
(7) سقط من ن 1، ن 2.
(8) سورة الذاريات: آية 19.
(9) سورة المعارج: آية 24-25.

والجواب، والله أعلم: أن آية المعارج قد تقدمها متصلاً بها قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [1] ، والمراد بالصلاة هنا المكتوبة، وأيضاً [2] يقرن بها في آي الكتاب الزكاة المفروضة، وبها فسر المفسرون الحق المعلوم في آية المعارج. قال الزمخشري: لأنها مقدرة معلومة [3] . قلت: وليس في المال حق مقدر معلوم وقتاً ونصاباً ووجوباً غيرها، فلما أريد بالحق هنا الزكاة أتبع بوصف يحرز المقصود، ولما قصد في آية والذاريات غير هذا المقصد بدليل ما تقدمها من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ ٱللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [4] ، فوصف هؤلاء بطول صلاتهم وتهجدهم ومداومتهم الاستغفار في الأسحار، فذكروا بزيادة من التطوع والنفل على ما فرض عليهم و(من الزيادة في أعمالهم على ما فرض عليهم)[5] مما يعد[6] تاركه إذا تركه مهملاً[7]، (فناسب هذا)[8] الإطلاق الوارد في إنفاقهم[9] ليفهم الزيادة على ما فرض عليهم من الزكاة المقدرة، ولم يكن ليناسب هنا الإشارة إلى قدر المنفوق[10] كما في سورة المعارج، ولم يكن عكس الوارد ليناسب، فورد كل على ما يجب، والله أعلم.

---

(1) سورة المعارج: آية 22.
(2) في ن 3: وإنما.
(3) الكشاف 613/4.
(4) سورة الذاريات: آية 16-18.
(5) سقط من ن 1، ن 2.
(6) في ن 3: يكفر وبه يختل المعنى.
(7) في ن 1، ن 2: مستحلاً.
(8) سقط من ن 1، ن 2.
(9) في ن 3: إشفاقهم، والصواب: إنفاقهم.
(10) في ن 2: المنفق، وبه يصح المعنى.

الآية الرابعة: قوله تعالى ﴿فَفِرُّوا إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[1]، للسائل أن يسأل عن وجه تكرر[2] قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾؟ وعن الإنذارين: في التوجه له سبحانه في كل المطلوبات واعتماد تلقي كل من عنده، ومن أن يشرك به سبحانه أو يعبد معه سواه؟ فعلى هذين الضربين ورد التحذير والإنذار، وهما الواردان في قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾[3]، فأمر سبحانه بعبادته وأن لا يعبد معه غيره.

والجواب: أنه سبحانه لما قدم من المعتبرات الدالة على وجوده تعالى، وانفراده بالايجاد والخلق ما قدم في السورة قبلها من قوله: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾[4] إلى قوله: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾[5]، ثم قال: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكاً﴾[6] إلى قوله: ﴿رِّزْقاً لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾[7]، ثم ذكر تعالى أخذه للمكذبين من القرون السالفة فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾[8] إلى قوله: ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾[9]، ثم ذكر تعالى أنه خلق الإنسان، وعلمه تعالى بما توسوس به نفسه، وقربه تعالى

---

(1) سورة الذاريات: آية 50-51.
(2) في ن 3: تكرار.
(3) سورة النساء: آية 36.
(4) سورة ق: آية 6.
(5) سورة ق: آية 8.
(6) سورة ق: آية 9.
(7) سورة ق: آية 10-11.
(8) سورة ق: آية 12.
(9) سورة ق: آية 14.

منه قرب العلم والاحاطة لا قرب المكانية والمسافة، ثم ذكر إحصاء الحفظة على المكلفين ولزومهم إلى موت الإنسان وبعثه، ومجيء كل نفس في القيامة معها سائق وشهيد، ولم يقع عدول عن هذه الإنذارات والإخبارات الأخراوية والإعتبارات الجلية إلى قوله تعالى (إعلاماً)[1] لنبيه صلى الله عليه وسلم بمقال المدعويين وأمرا له بتذكيرهم بالقرآن فقال: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾[2]، ثم أقسم تعالى على صدق تلك المواعد والاخبارات فقال تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾[3] إلى قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾[4]، ثم سؤالهم عن يوم الحساب سؤال استهزاء واستعجال تكذيب فقال: ﴿يَسْأَلُونَ[5] أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾[6]، إلى ذكر حالهم وحال المتقين، والاشارة إلى جزاء الفريقين، ثم أعقب بذكر الآيات في الأرض وفي أنفسنا وأن رزق العباد وما يوعدون في السماء، وأقسم تعالى على ذلك بقوله: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[7]، ثم اعترض سبحانه بذكر ضيق إبراهيم وقصتهم، ثم عطف على التذكار والتنبيه المتقدم في قوله[8]: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ (لِّلْمُوقِنِينَ)﴾[9]،

---

(1) بهامش ن 2.
(2) سورة ق: آية 45.
(3) سورة الذاريات: آية 1.
(4) سورة الذاريات: آية 5-6.
(5) في ن 3: يسألونك، وهو خطأ.
(6) سورة الذاريات: آية 12.
(7) سورة الذاريات: آية 23.
(8) سورة الذاريات: آية 20.
(9) سقط من ن 3.

وقال: ﴿وَفِي مُوسَى . . .﴾ [1]، فذكر إرساله، وأخذ فرعون وجنوده بتكذيبهم، ثم ذكر عادا وأخذها، وثمود، وقوم نوح، واقتصر على ذكر تكذيبهم وأخذهم تنبيهاً بأحوالهم مرتبطاً بأول التنبيه بقوله: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ [2]، وارتبط أول التنبيه بآخره معقباً بقوله: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ ٱلْمَاهِدُونَ﴾ [3]، فهذا من تمام قوله ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَوْقَهُمْ. . الآيات﴾. وقد ورد أثناء ذلك قوله فيمن أشرك به سبحانه قوله: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ)﴾[4] إلى قوله: ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ [5]، فلما حصل التنبيه بعدة آيات وأوضح بينات على انفراده سبحانه، وحصل ذكر من أشرك به، واتصل ذلك ولم ينقطع بعضه من بعض، أعقب بقوله: ﴿فَفِرُّوا إِلَى ٱللَّهِ﴾[6] المنفرد بخلقكم وإيجادكم، المنعم عليكم بما أنعم من واضح الأدلة عليه سبحانه: ﴿إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [7] أي من عذابه وأخذه كما فعل بمن كذب قبلكم، مبين بما أوضح لكم من البراهين ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [8]، فقد

---

(1) سورة الذاريات: آية 38.
(2) سورة ق: آية 6-7.
(3) سورة الذاريات: آية 47-48.
(4) سورة ق: آية 24-25.
(5) سقط من ن 1، ن 2.
(6) سورة ق: آية 26.
(7) سورة الذاريات: آية 50.
(8) سورة الذاريات: آية 51.

تبين ارتباط كل من الآيتين بما تقدم، وأن الثانية مؤكدة للأولى. وورد ذلك على أتم مناسبة، والله أعلم بما أراد.

* * *

سورة والطور

الآية الأولى منها: غ ـ قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ﴾ (1)، وفي سورة الواقعة ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾ (2)، وفي سورة الإنسان: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً﴾ (3)، فورد في سورة والطور ﴿غلمان لهم﴾ وفي السورتين: ﴿ولدان﴾ والمراد في السور الثلاث الخدام. للسائل أن يسأل عن الموجب لتخصيص كل آية بما ورد فيها؟

والجواب، والله أعلم: يترتب على تمهيد، وهو أن الغلام هو الطار الشارب، وقيل باستصحابه(4) هذا الاسم إلى أن يشيب، والجمع غلمان. وأما الوليد فاسم للمولود حين يولد، وهو فعيل وهي بنيه مبالغة، وفائدتها هنا استحكام الصغر، وجمعه ولدان، وعلى هذا لا يرادف أحد الاسمين الآخر. فإن ورد أحدهما في موضع الآخر فعلى المجاز والتوسع، والأصل ما مهد. وإذا تقرر هذا فوجه ورود الغلمان في سورة الطور ـ والله أعلم ـ مناسبة اللفظ باتساع مواقعه في أحد القولين وهي

---

(1) سورة الطور: آية 24.

(2) سورة الواقعة: آية 17-18.

(3) سورة الإنسان: آية 19.

(4) في ن 1، ن 2: باستصحاب بسقوط الضمير والأنسب ثبوته.

استصحاب اسم الغلومية إلى المشيب، أو لإحتياج التوسع فيما يطوفون به ويستخدمون فيه بحسب أسنانهم لمن تقدم من صنفي المخدومين وهم الآباء والأبناء في قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهم﴾[1]، فذُكر هنا الآباء الداخلون الجنة[2] مجازاة على أعمالهم، والأبناء من الذرية ممن لم يبلغ سن التكليف فدخل الجنة بغير عمل، فناسب الاتساع.

وأما آية الواقعة فلم يقع فيها ذكر الاتباع فناسب ذلك ذكر الولدان الذين لا تحتمل أسنانهم خدمة الغلمان، فناسب الاقتصار الاقتصار والتوسع التوسع، ووضح أن العكس لا يناسب، والله أعلم.

ووصَفَ الولدان بقوله: ﴿مخلدون﴾ إعلاماً بأنهم باقون على مقتضى سن الوليدية لا تتغير أحوالهم عن ذلك، وإلا فالخلود الاخراوي عام (لهم)[3] ولغيرهم.

وجواب ثان: وهو أنه لما ذكرت الذرية في سورة والطور بما كان يوهم ذكرهم من حيث دخولهم الجنة بغير عمل أنهم فيها خدام لمن اتبعوه بين قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ﴾[4] أن الكل من تابع ومتبوع مخدومون، وقيل: «لهم» باللام المقتضية الملك مع كون الضمير في لهم للكل من متبوع وتابع إشعاراً بأنهم ملكهم غلمان لهم، يتصرفون في كل بما يؤمرون به وينهون عنه، ولما لم (يقع)[5] في سورة

(1) سورة الطور: آية 21.
(2) في ن 3: في الجنة.
(3) سقط من ن 3.
(4) سورة الطور: آية 24.
(5) سقط من ن 3.

الواقعة وسورة الإنسان ذكر الأتباع من الذرية لم يرد فيهما إلا اسم الولدان، وهم في الخدمة بمقتضى أسنانهم دون الغلمان، وتناسب هذا، والله أعلم.

الآية الثانية من سورة والطور ـ قوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً﴾[1]، وفي سورة القلم: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾[2]، للسائل أن يسأل عن وجه تعقيب هذه الآية في السورتين بما ورد فيهما؟ ووجه المناسبة في ذلك؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أنه جل وتعالى أرغم معاندي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقطع تعلقهم، وأوضح عجزهم، وأوقفهم على قبيح تكذيبهم وشنيع مرتكبهم في بضع وعشرين آية من سورة الطور وسورة القلم، وفي سورة الطور أكثرها، وباقيها في سورة القلم، وتحصل محصوراً فيها كل متعلق بمجادلتهم ظناً أو توهماً، وقدم ذلك في السورتين حال المتقين وما منحوه، على تفصيل في سورة الطور واستيفاء يناسب ما فصل أيضاً[3] من حال المعاندين في متعلقاتهم، وإيجاز في سورة القلم يناسب الوارد فيها من ذلك التعلق[4]، مكتفى من ذلك في (وصف)[5] المتقين بقوله تعالى: ﴿إِنَّ

---

(1) سورة الطور: آية 41-42.
(2) سورة القلم: آية 47-48.
(3) في ن 3: يناسب أيضاً ما فصل.
(4) في ن 1، ن 2: التعليق.
(5) بهامش ن 2.

لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ (1). فلما تقعد في السورتين حال المتقين أعقب بتوبيخ من ارتكب ضد حالهم، فبدأ سبحانه في سورة الطور بقوله لنبيه صلى الله عليه وسلم أمراً له باستمراره على الدعاء (إلى ربه)(2): ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾(3)، فنفى عنه ما نسبوه إليه صلى الله عليه وسلم بهاتين، وقد علموا براءته من ذلك واعترفوا به في الخبر الصحيح(*) بل كانوا يعلمون صدقه قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ ٱلظَّالِمِينَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾(4)، فهذا اخبار منه سبحانه بمعتقدهم فيه، ولكنهم كانوا يرون أن رميه بالتكهن والجنون كأنه مخيل في توقفهم عن تصديقه وأتباعه لذلك أكد سبحانه نفي ذلك عنه بالقسم في السورتين فقال: ﴿فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ (5)، وهذا في قوة القسم الصريح، وقال في سورة القلم مفصحاً بذلك: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ (6)، ثم كرر ذلك توبيخاً لقائله فقال: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ (7)، ولم يتكرر في السورتين مفصحاً به من الصادر عنهم فيما كانوا يرمونه به غير صفة الجنون، ثم قال تعالى قاطعاً

---

(1) سورة القلم: آية 34.
(2) سقط من ن 1، ن 2.
(3) سورة الطور: آية 29.
(*) إلى هذا الحد ينتهي نقص ن 4، وقد امتد من صفحة 877 من قوله: من التكذيب والإتراف. . .
(4) سورة الأنعام: آية 33.
(5) سورة الطور: آية 29.
(6) سورة القلم: آية 1-2.
(7) سورة القلم: آية 51.

بهم في احتجاجهم ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾[1]، وقد عرفوا أن ما جادلهم به ليس بشعر، ثم قال تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَـٰذَا﴾[2]، ومن المعلوم الذي قد علموه هم أن عقولهم لا ترجح ذلك من مقالهم فكيف تأمرهم به؟ ثم قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ (تَقَوَّلَهُ)[3]﴾[4] أي فإن قالوا ــ فليأتوا بمثله وعجزهم عن ذلك قاطع[5] هذا التعلق، ثم قال: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾[6]، وقد كذبوا أنفسهم بهذا واعترفوا بخلق الله تعالى إياهم: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[7]، ثم قال: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَالِقُونَ﴾[8] ﴿أَمْ خَلَقُوا ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[9]، وقد أخبر تعالى عنهم بقوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[10] فلا تعلق لهم بشيء من هذه المرتكبات لتكذيبهم أنفسهم وكل ما يقدر أن يتعلقوا به من المذكور بعد هذا من قوله: ﴿أَمْ عِنْدَهُم خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾[11] إلى قوله: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾[12] لا توقف في آضحلال تعلقهم به، فلم يبق بعد وضوح الحق إلا الضلال

---

(1) سورة الطور: آية 30.
(2) سورة الطور: آية 32.
(3) سورة الطور: آية 33.
(4) سقط من ن 3.
(5) في ن 1، ن 2: قاصر وقاطع أنسب.
(6) سورة الطور: آية 35.
(7) سورة الزخرف: آية 87.
(8) سورة الطور: آية 35.
(9) سورة الطور: آية 36.
(10) سورة لقمان: آية 25.
(11) سورة الطور: آية 37.
(12) سورة الطور: آية 40.

ولما بلغ المتقرر[1] من رد متَعلقاتهم الغاية في قطع كل متوهم من متوهماتهم المفروضة قال تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ [2]، وهذا آخر ما يتوهم متعلقاً لهم وإن لم يقولوه، فلم يبق لهم إلا أعمال[3] المكيدة فأخبر تعالى أنهم: ﴿هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ [4] ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [5]، فقد وضح وجه تعقيب آي سورة الطور بهذه الآية.

ولما كمل[6] في سورة «ن والقلم» ذكر كل ما يمكن تعلقهم به، واستوفي ما قد وقع منهم وما يشبه ذلك مما لم يقولوه لبعده كآدعاء آطلاع الغيب واستراق السمع، وآدعاء خلق السماوات والأرض، وإيجادهم من غير صانع مريد مختار قادر، أو أن خزائنه سبحانه عندهم، فلما لم يبق ما يتوهم إمكان تصوره، وانقطع تعلقهم، وتبين أن توقفهم وامتناعهم عناد بيّن، قال لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾[7]، وأعلمه بحسدهم في قوله: ﴿وَإِنْ يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا ٱلذِّكْرَ﴾[8]، فأرغمهم وفضحهم وأعقب الآية من قوله: ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾[9] في سورة القلم بالأمر بالصبر لكمال ما قصد من قطعهم بكل جهة واستيضاح تمردهم من بعد ما تبين لهم

---

(1) في ن 3: المنذر، والصواب: المتقرر.

(2) سورة الطور: آية 41.

(3) في ن 3: الأعمال، والصواب: إلا أعمال.

(4) سورة الطور: آية 42.

(5) سورة القمر: آية 45.

(6) في ن 1، ن 2: كان، وكمل أنسب، ويؤكدها ما جاء بعد.

(7) سورة القلم: آية 48.

(8) سورة القلم: آية 51.

(9) سورة القلم: آية 47.

الحق إلا الصبر عليهم حتى يحكم الله فيهم بما شاء، وقال له تحذيراً من أن تدركه السآمة[1] والضجر: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾[2] وبَانَ أيضاً وجه هذا التعقيب.

ولما كانت سورة الطور متقدمة في الترتيب المستقر، وورد بعدها في سورة القلم ما هو راجع إلى الوارد في الطور ومن تمامه أعقبت الآية هناك بقوله: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً﴾[3]، وأعلم تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن كيدهم راجع عليهم، وأن ما راموه حال بهم: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً﴾[4] تأنيساً له، عليه السلام، وإعلاماً بنصره عليهم. ثم لما تم المقصود في سورة القلم من ذلك الغرض أمر بالصبر، وأعلم أن العاقبة له، وأنه سيستجيبُ له غيرهم ممن سبقت له الحسنى فأناب وتذكر، قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾[5]، وجاء كل على ما يجب ويناسب، والله أعلم.

* * *

(1) في ن 2: السلامة، والصواب: السآمة.
(2) سورة القلم: آية 48.
(3) سورة القلم: آية 42.
(4) سورة الطارق: آية 17.
(5) سورة القلم: آية 52.

سورة والنجم

الآية الأولى منها ـ قوله تعالى: ﴿تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنْفُسُ﴾[1]، وقال بعدها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنْثَى وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئاً﴾[2]، للسائل أن يسأل عن تعقيب قوله أولاً: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ بقوله: ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنْفُسُ﴾ وثانياً[3] بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئاً﴾؟ وما الفائدة من تقديم ما قدم وتأخير ما تأخر؟ وهل كان العكس يناسب؟

والجواب، والله أعلم: أنه لما قال تعالى قبل هذا: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ ٱللَّاتَ وَٱلْعُزَّى وَمَنَاةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَى﴾[4] فذكر أصنامهم وتسميتهم إياها آلهة واتخاذها معبودات، وذكر تعالى في مواضع أخر أنهم جعلوا الملائكة إناثاً، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا ٱلْمَلَائِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَانِ إِنَاثاً﴾[5] وأنهم بنات الله.. قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَاتِ

---

(1) سورة النجم: آية 22-23.
(2) سورة النجم: آية 27-28.
(3) في ن 3: تأنيساً، والصواب: وثانياً.
(4) سورة النجم: آية 19-20.
(5) سورة الزخرف: آية 19.

سُبْحَانَهُ﴾[1]، وكرهوا البنات لأنفسهم وإليه الاشارة بقوله: ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾[2] (أي وجعلوا لأنفسهم ما يشتهون)[3]، قال تعالى مخاطباً نبيّه صلى الله عليه وسلم ومعلماً بحالهم وتوبيخاً لهم «وتقريعاً»[4] (مع)[5] إبقاء أعظم التلطف وأجل الحلم: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنْثَى تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾[6] أي جائرة [7]، ثم عرفهم بما لا جواب لهم عليه وأنه مرتكب لا مستند[8] له فقال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾[9] إلا آتباع ظن[10] وهوى: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنْفُسُ﴾[11]، ثم نبه تعالى على الرحمة بما جاءهم به نبيه صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ ٱلْهُدَى﴾[12]، وعرفهم بما تشهد العقول بتصديقه لإدراك ذلك إدراكاً ضرورياً فقال تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى﴾[13] أي الجاري في الوجود أن الإنسان قد يتمنى الشيء فلا يدركه إذا لم يقدر له وقد يجيئه

---

(1) سورة النحل: آية 57.
(2) سورة النحل: آية 57.
(3) بهامش ن 2.
(4) في ن 1، ن 2: تعريفاً، والصواب: تقريعاً.
(5) سقط من ن 3.
(6) سورة النجم: آية 21-22.
(7) في ن 1، ن 2: جائزة، والصواب: جائرة براء مهملة.
(8) في ن 3: سند.
(9) سورة النجم: آية 23.
(10) في ن 3: الظن، والصواب: بالتنكير.
(11) سورة النجم: آية 23.
(12) سورة النجم: آية 23.
(13) سورة النجم: آية 24.

ما لا يريده لا بحسب تمني المتمني منكم إلا إن شاء الله[1] ذلك، ثم أخبر تعالى عن الملائكة وأشار إلى عليّ أقدارهم فقال ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ ٱللَّهُ (لِمَنْ يَشَاءُ) [2] وَيَرْضَى﴾[3]، فقطع تعالى بهم (في قولهم)[4] في آلهتهم ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ[5] إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَى﴾[6]، ثم صرف تعالى الخطاب إلى نبيه صلى الله عليه وسلم فقال تعالى[7]: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ (يُسَمُّونَ ٱلْمَلَائِكَةَ)﴾[8]، ولم يقل له: إن قومك، أو (إن)[9] العرب، أو ما يحرز هذا المعنى، إبقاء عليهم، وَأَخْبَرَ[10] أنهم لا علم عندهم ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾[11]، ثم قال: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئاً﴾[12]، فهذا موضع قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِيَ مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْئاً﴾ وأما الموضع الأول فموضع ذكر اتباعهم أهواءهم، لما أوضح تعالى (لهم)[13] أن ليس للإنسان ما يتمناه[14] فبطل هوى الأنفس ولم يبق إلا

---

(1) سقط من ن 3.
(2) بهامش ن 2.
(3) سورة النجم: آية 26.
(4) بهامش ن 3.
(5) في ن 3: نعبدوهم وهو خطأ.
(6) سورة الزمر: آية 3.
(7) سورة النجم: آية 27.
(8) سقط من ن 1، ن 2.
(9) سقط من ن 3.
(10) في غير ن 3: وإخباراً الآ.
(11) سورة النجم: آية 27.
(12) سورة النجم: آية 28.
(13) سقط من ن 3.
(14) في ن 3: إلا ما يتمناه ولا داعي للحصر هنا.

مجرد ظن، أخبر تعالى أن الظن لا يغني من الحق شيئاً. فتناسب هذا كله، وتبين أن كلاً من المعقب (به)[1] في الموضعين لا يصح في غير موضعه، ولا يمكن العكس، والله أعلم.

* * *

(1) سقط من ن 3، ن 4.

سورة القمر[1]

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عليهم رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ تَنْزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾[2]، للسائل أن يسأل عن تكرر قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ في قصة عاد مرتين ولم يقع في قصة قوم نوح وقصة ثمود بعد إلا مرة واحدة فما وجه تكرار ذلك في قصة عاد مرتين؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن عاداً لما كذبوا هودا، عليه السلام، امتحنوا بالقحط ثلاث سنين، واشتد الأمر عليهم حتى بعثوا وجوههم إلى مكة ليستسقوا لهم، وقد اشتد الأمر عليهم، وهذا أشد تخويف لو وفقوا للتذكر، وقد خوف بذلك آل فرعون قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[3]، فخوفت بذلك عاد، فلما لم يجد ذلك عليهم مع أليم امتحانهم به أهلكوا بالريح العقيم، فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم، فامتحنوا بعذابين، وإنما كان أخذ قوم نوح قبلهم وهلاكهم بالطوفان، ولم يتعرف من الكتاب

---

(1) في ن 1: والقمر.
(2) سورة القمر: آية 18-22.
(3) سورة الأعراف: آية 130.

العزيز أنه تقدمهم قبله أخذ[1] بغيره من ضروب ما أهلك به غيرهم، وكذلك ثمود أخذوا بالصيحة، وقوم لوط بالخسف والحجارة، وإنما تكرر الامتحان بعد عاد على آل فرعون فأخذوا بضروب من العذاب والإمتحان إلى أن أغرق الله آخرهم مع فرعون، وممن أشار الكتاب العزيز إلى تنوع أخذهم قوم شعيب، ولم يقع ذكرهم في هذه السورة، فلما أخذت عاد بالسنين ثم استؤصلوا بالريح العقيم ورد متكرراً، فأشار قوله أولاً: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ إلى ما قدم لهم من منع المطر وشدة السنين عليهم وما أنذروا به من ذلك، وأشار قوله ثانياً: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ إلى استئصالهم بالريح العقيم، ويجري مع ذكره ويشير إليه قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾[2]، والرجس هنا العذاب ومنه أخذهم بالسنين، وأما الريح العقيم فمن غضبه سبحانه إلى ما يلحقهم منه في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ[3] الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[4]، فتكرر قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ مرتين مشيراً إلى ما قدم لهم مما باشروه وشاهدوه من العذاب بالسنين وقطع دابرهم واستئصالهم بالريح العقيم وجارياً مع هذا التنويع من امتحانهم في الدنيا والآخرة.

ولما لم يذكر من حال قوم نوح وقوم صالح وقوم لوط مثل هذا التنويع لم يتكرر ما ورد في أعقاب قصصهم من قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾، وتناسب ذلك كله أتم مناسبة، وجرى مع كل قصة

---

(1) في ن 3: أحد، والصواب: أخذ.
(2) سورة الأعراف: آية 71.
(3) في ن 3: هذا، وهو خطأ.
(4) سورة هود: آية 60.

ما يلائمها فإن قيل: فإن آل فرعون قد تكرر عليهم الإمتحان قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾[1] وقد تقدمت الاشارة إلى ذلك ولم يقع التنبيه على تعذيبهم وإنذارهم متكرراً كما وقع في قصة عاد؟ فالجواب أن قصة آل فرعون لم يقع تعقيبها بقوله ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ كما ورد في القصص الثلاث، وإذ لم يرد تعقيبها بذلك فقد سقط السؤال عن التكرر، ثم أعقبت بما يحرز امتحانهم بأشد امتحان وهو قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾[2]. فلما خالف إيرادها تلك القصص ولم يجر في ذلك التعقيب مجراها لم يلزم السؤال المفروض، والله أعلم (بما أراد)[3].

وأما الجواب عن قصة عاد فإنما اختص ما نزل فيها من كتاب الله بذكر عذابين أحدهما قوله تعالى: ﴿لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا﴾[4] والثاني قوله: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾[5]، فأشار قوله أولاً: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ إلى عذابهم في الدنيا، وأشار التكرار إلى عذاب الآخرة. وهذا الجواب، والله أعلم: بعيد لأن سورة القمر بأسرها مقصودها تذكير كفار العرب من قريش وغيرهم بما نزل بمن تقدمهم من مكذبي[6] الأمم، وإنما ذكروا بحاصل قد وقع بمن سلك مسلكهم ليتعرفوا خبره فيتعظوا، وعلى هذا جرى تذكارهم في

---

(1) سورة الأعراف: آية 130.
(2) سورة القمر: آية 42.
(3) سقط من ن 3.
(4) سورة فصلت: آية 16.
(5) سورة فصلت: آية 16.
(6) في ن 3: شكوى، وبها يختل المعنى.

الكتاب العزيز، فتارة بما يشاهد من خلق السماوات والأرض وشبه ذلك، وتارة بما يعلم خبراً. أما وعظهم بعذاب الآخرة وهم يكفرون بالرحمان فبعيد ولا يطابق قوله عقب كل قصة: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ ولا قوله: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾[1] فتأمله، وهو أعمد جوابي[2] صاحب كتاب الدرة وأراه (لا يصلح)[3]، والله أعلم.

* * *

(1) سورة القمر: آية 15.

(2) في ن 3: وهذا غير جوابي وهذا يخل بالمعنى.

(3) سقط من ن 3.

سورة الرحمان

الآية الأولى منها ــ قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي ٱلْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا ٱلْمِيزَانَ﴾[1]، للسائل أن يسأل عن وجه تكرر (لفظ)[2] الميزان ثلاث مرات؟ ووجه تخصيص هذه السورة بذلك؟

والجواب عن ذلك ــ والله أعلم ــ أن المراد بذكر الميزان إعلام العباد بما به قوام أحوالهم واستقامة أديانهم من إجراء أمورهم على العدل الذي أمر به سبحانه في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا ٱلْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِٱلْعَدْلِ﴾[3]، وفي قوله: ﴿ٱعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾[4]، وفي قوله: ﴿وَأَقْسِطُوا إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[5]، وفي الحديث: إن المقسطين على منابر[6] من نور يوم القيامة[7]. وتكرر في الكتاب العزيز الوصية بالوفاء في الكيل والوزن

---

(1) سورة الرحمان: آية 7-9.

(2) سقط من ن 3.

(3) سورة النساء: آية 58.

(4) سورة المائدة: آية 8.

(5) سورة الحجرات: آية 9.

(6) في ن 3: ساير، والصواب: منابر.

(7) مسلم: امارة 13.

المحسوسين لبيان الأمر فيهما فقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾[1]، وذمّ سبحانه من بخس فيهما، وجعل جزاءه الويل والهلاك فقال: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ...﴾ الآيات[2]، وأعلمنا سبحانه بعاقبة (قوم)[3] شعيب، عليه السلام، في ذلك، وأخذهم بالصيحة وعذاب يوم الظلة، وأعلمنا سبحانه بوزن أعمال العباد في القيامة فقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَازِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً...﴾[4] الآية، وتكررت الآيات والأحاديث معلمة بذلك ليشاهد العباد عظيم العدل واستيفاء جزاء الأعمال مرئياً محسوساً جارياً على مألوفهم في دنياهم مشاهداً للصالح والطالح على المعتقد المتقرر عند كافة أهل السنة. فلما كانت الاستقامة في الكيل والوزن مشعرة بالاستقامة فيما سواهما وتأكدا[5] لأنفسهما (ولما وراءهما أكد سبحانه الأمر بذلك، وأخبر بوضعه للخلق في القيامة)[6] ليمتثلوا بذلك أمره، فقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾[7]، وقال مفسراً وآمراً: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي ٱلْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا ٱلْمِيزَانَ﴾[8]،و«أن» في قوله: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا﴾ يحتمل أن تكون علة أي لئلا تطغوا في الميزان، وأن تكون حرف عبارة وتفسير نائبة مناب أي ومقدرة بها كالواقعة في قوله تعالى:

---

(1) سورة الإسراء: آية 35.
(2) سورة المطففين: آية 1.
(3) بهامش ن 2.
(4) سورة الأنبياء: آية 47.
(5) في غير ن 3: تأكدا.
(6) سقط من ن 3.
(7) سورة الرحمان: آية 7.
(8) سورة الرحمان: آية 8-9.

﴿وَٱنْطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا وَٱصْبِرُوا﴾ [1]، وكرر لفظ الميزان جرياً[2] على عادة[3] العرب فيما لها به اعتناء وتهمم كقول الخنساء[4]:

وإنَّ صخرا لوالينا وسيدنا　　وإن صخرا إذا نشتو لنحار[5]
وإن صخرا لتأتم الحداة[6] به　　كأنه علم في رأسه نار[7]

فكررت ذكر صخر ثلاث مرات ظاهراً غير مضمر، وكقول آخر[8]:

لا أرى الموت يسبق الموت شيء　　نغص الموت ذا الغنى والفقيرا

فكرر لفظ الموت ثلاث مرات في بيت واحد. وقال [9]:

ليت الغراب غداة ينعب دائباً　　كان الغراب مقطع الأوداج

وهذا موجود في كلامهم كثيراً إذا قصدوا[10] الاهتمام والاعتناء والتهويل والاستعظام، ومن الوارد في هذا في التنزيل: ﴿ٱلْحَاقَّةُ

---

(1) سورة ص: آية 6.
(2) في ن 3: جواباً، والصواب: جرياً.
(3) في ن 3: عبارة.
(4) الخنساء: وهي تماضر بنت عمرو بن الحارث والخنساء لقب غلب عليها شاعرة مشهورة، ماتت سنة 24هـ.
(5) في ن 4: لمنحار.
(6) في الديوان: الهداة (ديوان الخنساء 49).
(7) البيتان للخنساء، البحر البسيط.
أنظر: الديوان، ص 48-49، دار صادر، بيروت 1963.
(8) سوادة بن عدي: البحر الخفيف، الكتاب 42/1؛ وأمالي ابن الشجري 258/1، ط 1، مصر 1930.
(9) مجهول قائله، البحر الكامل، أمالي ابن الشجري 217/1؛ في الأمالي: «مقطع الأكباد».
(10) في ن 3: قصد.

﴿مَـا ٱلْحَاقَّـةُ﴾[1] ﴿وَٱلْقَارِعَـةُ مَـا ٱلْقَـارِعَـةُ﴾[2]، ومـا ورد من هـذا.

وأما تخصيص هذه السورة بذكر الميزان وتأكيده والوصاة[3] بحفظه وفاء والتزاماً ــ وهو الجواب الثاني ــ فمن حيث أن بناء السورة على إعلام الثقلين بنعمه سبحانه لديهم، وإقامة الحجة عليهم، وتعريفهم (بأنهم)[4] لو وفقوا للحظ نعمه تعالى وما بث في السماوات والأرض ومخلوقاتهما من عجائب صنعه ما كفر منهم أحد ولا كذب، وإنما أتى على من قدم ذكره من الأمم المكذبة في سورة القمر المتصلة بهذه لعدولهم عن النظر السديد اعتماداً على الأهواء ونبذاً للعدل[5]، والإنصاف ولو اعتبروا بخلق الإنسان وما منح وعلم من البيان وشرف به على سائر الحيوان، واعتبروا بآيتي الشمس والقمر وجريهما بحسبان لتفصيل الفصول وربط الأزمان، وتعاقب الملوين للتصرف والاستراحة ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾[6] ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾[7]، فلو اعتبروا بهذا وما يستدعيه وينجر معه، وبالنبات نجماً وشجراً، ورفع السماء، ووضع الميزان للأنام، وإخراج ضروب الأطعمة وأصناف الفواكه منها، واختلاف أنواعها في الطعم واللون والرّوائح مع اتحاد المادة: ﴿تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ

---

(1) سورة الحاقة: آية 1-2.

(2) سورة القارعة: آية 1-2.

(3) في ن 3: الوصاية.

(4) سقط من ن 3.

(5) في ن 1، ن 2، ن 4: العهد، وللعدل أنسب.

(6) سورة الإسراء: آية 12.

(7) سورة يٓس: آية 40.

بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾[1]، وكيف مرج سبحانه البحرين: ﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾[2]، وقد حجز سبحانه ما بينهما وأحكم فلا يلتقيان التقاء يعود بعدم المنفعة على العباد، وأخرج منهما اللؤلؤ والمرجان. وأجرى فيهما السفن بإجراء[3] الرياح، وأقام على الجميع دلائل الافتقار والحدوث، وحكم عليهم بالفناء والعجز: ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾[4]، وما من معتبر من هذه[5] الا كان في مشاهدته مفصحاً بلسان حاله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[6]، فلو اعتبر أولئك الأمم ببعض المنصوبات للاعتبار من المنبه عليه في سورة الرحمان لدلهم ذلك على الصانع الذي ليس كمثله شيء، ولنبذوا معبوداتهم[7] من دونه جل وتعالى وأجابوا الرسل فلم يهلكوا، ولكنهم انحرفوا عن ميدان الإنصاف فكذبوا فهلكوا [8]، فلبناء السورة على هذا اختصت بذكر الميزان مكرراً مؤكداً على ما وقع فيها. ولما لم ترد هذه الأغراض في غير هذه السورة مبنية على ما تقدمها في السورة قبلها من أخذ المكذبين على الصفة الواردة فيها، وانفردت هي بما قدم، كانت مظنة الاعتناء بما ينسحب على كل طرق السلامة في كل عمل، وهو العدل الذي به قوام المخلوقات، والوزن بالقسط الذي

---

(1) سورة الرعد: آية 4.
(2) سورة الفرقان: آية 53.
(3) في ن 3: بإرسال.
(4) سورة الروم: آية 40.
(5) في ن 3: هذا.
(6) سورة البقرة: آية 22.
(7) في ن 4: معبوداً لكم، والصواب: معبوداتهم.
(8) في ن 4: وهلكوا.

تستوضح كل نفس في القيامة (به) [1] ما لها وعليها، ولم تكن غير هذه السورة[2] لتكون أولى بذكر ذلك فيها منها، والله أعلم.

الآية الثانية من سورة الرحمان قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[3]، للسائل أن يسأل عن وجه تكرار هذه الآية إحدى وثلاثين مرة، ما وجه ذلك؟ وهل لتخصيص هذا العدد سبب موجب؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أنه افتتح سبحانه السورة بذكر ضروب من النعم تجل عن الإحاطة بوصفها، ويعجز العارفون عن شكرها، وكلها دلائل للمعتبر[4] واضحة، وشواهد قاطعة[5] بانفراده سبحانه بالخلق والاقتراع والإنشاء والإبداع، فقال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَانُ عَلَّمَ ٱلْقُرْآنَ﴾[6]، وخص سبحانه من أسمائه: «الرحمان» مناسبة[7] لما رحم به عباده، فبدأ سبحانه بتعليمه القرآن، ولا نعمة أعظم من ذلك إذ بتعليمه الحصول على الإيمان والفوز في الدارين، ثم أردف بنعمة خلقه الإنسان، ثم بتعليمه البيان المتوصل به إلى الإبانة عما في نفسه واستيضاح ما آنبهم[8] عليه[9] وإيضاح ذلك لغيره، وبه يعرف قدر النعمة بالقرآن، ثم أردف فذكر نعمة الشمس والقمر، ونبه تعالى على جريهما

---

(1) سقط من ن 3 وبهامش ن 2.
(2) في ن 4: الصورة، وهو خطأ.
(3) سورة الرحمان: آية 13.
(4) في ن 3: للمعتبرين.
(5) في ن 3: قواطعه، والصواب: قاطعه.
(6) سورة الرحمان: آية 1-2.
(7) في ن 3: لمناسبة، والصواب: مناسبة بسقوط اللام.
(8) في ن 2: أبهم، والصواب: أنبهم.
(9) في ن 3: عليهم، والصواب: عليه ويؤكده ما ورد بعد.

في بروجهما بحسبان ولما يدرك العالم من منافعهما انضاجاًوتيبيساً[1] وإضاءة وحسباناً: ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [2] ثم قال تعالى تحريكاً للمعتبرين وإيقاضا للمتفكرين: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [3]، والنجم ما نجم من النبات وارتفع [4] عن أرضه، ثم قال: ﴿وَٱلسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ [5]، فأشار إلى جعلها سقفاً محفوظاً من غير عمد مزينة بالنجوم للدلالة ورجم الشياطين، وقد مر [6] التنبيه بما فيها وفي خلقها من العبر، ثم قال: ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ [7]، وقد تقدم الكلام في ذلك، ثم قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ [8] للمشي في مناكبها والأكل مما بث فيها والإعتبار بها وبعجائبها، وعجائب السماوات والأرض أكثر من أن تحصى بالعد، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[9]، ثم ذكر تعالى بعض ما بثه فيها من الرزق فقال: ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ (وَٱلنَّخْلُ)[10] ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانِ﴾[11].

ولما كانت هذه النعم مشاهدة للخلائق، ولا طمع لأحد في نسبتها

---

(1) في ن 3: إيضاحاً وتبييناً، والصواب: انضاجاً وتيبيساً.
(2) سورة الإسراء: آية 12.
(3) سورة الرحمان: آية 6.
(4) في ن 3: ارتع.
(5) سورة الرحمان: آية 7.
(6) في ن 3: فقدم، والصواب: وقد مر.
(7) سورة الرحمان: آية 7.
(8) سورة الرحمان: آية 10.
(9) سورة الجاثية: آية 3.
(10) سقط من ن 3.
(11) سورة الرحمان: آية 11-12.

إلى غيره سبحانه، قد شهدت العقول وعرفت انفراده سبحانه بإيجادها واختراعها، أتبع ذلك بتقرير الثقلين وتعجيز الفريقين فقال لهما عقب هذه الضروب الثمانية: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[1] أي أمن[2] هذه ما يمكن للجاحد أن يكذب به ويتعاطاه لغيره سبحانه في وضوح شهادتها لخالقه ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾[3]، ثم عرفنا سبحانه بخلقه الثقلين وبالمادة التي أوجد منها كلا من الصنفين فقال: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَٱلْفَخَّارِ وَخَلَقَ ٱلْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾[4]، أينسب ذلك إلى غيره؟ أيستبد به سواه؟ ثم أتبع سبحانه بأنه ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾[5] أي مشرق الشتاء ومشرق الصيف إشارة إلى الغايتين[6] في الانتهاء من رأس الجدي إلى رأس السرطان، ثم بخلق البحرين الحلو والمالح والتقائهما وفصلهما، ثم بما يخرج منهما للانتفاع والزينة، ثم بتسخير السفن وجريها، ثم بذكر فناء دل من عليها وبقائه سبحانه، ثم بافتقار أهل السماوات والأرض إليه جل وتعالى وسؤالهم إياه شؤونهم وحاجاتهم كل يوم، وأعقب كل قصة من هذه بتقرير الثقلين وتعجيزهم لقيام الحجة عليهم فقال: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، وتكررت الآية بتكرر القضايا، وكلها مما لا مطمع لأحد في آدعائه، فقامت الحجة بها، وكانت سبعاً جرياً على سنة ما وقع التنبيه به من تحريك المعتبرين، وآطرد هذا العدد في ذلك فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ

---

(1) سورة الرحمان: آية 11-12.

(2) في ن 1، ن 2، ن 4: من، والصواب: أَمِنْ للاستفهام.

(3) سورة آل عمران: آية 83.

(4) سورة الرحمان: آية 14-15.

(5) سورة الرحمان: آية 17.

(6) في ن 3: الغاية.

خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [1] إلى تمام سبعة أطوار آخرها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ﴾ [2]، وقال عقب هذا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾ [3]. ولما ذكر سبحانه الحالات التعبدية التي بها خلاص المكلفين ذكر سبعاً فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [4] فعد للمؤمنين خصالاً سبعاً جعلهم بها وارثين نعيمه وساكنين جنته فقال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ ٱلْوَارِثُونَ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[5]، وهذا العدد مطرد جار في أشياء يشهد اطراده فيها على قصد حكمة تقتضيها، فمنها ما ذكر آنفاً ومنها أن أم القرآن سبع آيات، والأيام سبع[6]، (والسماوات سبعـة)[7]، والأرض (سبعة)[8] مثلها، وأبواب جهنم سبعة، (وحد)[9] الإثغار سبعة أعوام، ويعق عن المولود يوم سابعه، ومن مسنوناته، عليه السلام التسبيع للبكر، وهذا كثير جداً. ثم انصرفت الآيات عقب هذه السبع المذكر بها إلى سبع قضايا وعيدية: أولها قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا ٱلثَّقَلَانِ﴾[10] إلى قوله:

---

(1) سورة المؤمنين: آية 12.
(2) سورة المؤمنين: آية 14.
(3) سورة المؤمنين: آية 17.
(4) سورة المؤمنين: آية 1-2.
(5) سورة المؤمنين: آية 10.
(6) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(7) سقط من ن 3.
(8) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(9) سقط من ن 3.
(10) سورة الرحمان: آية 31.

﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [1] معقباً فيها كل قضية بقوله تعالى مقرعاً[2] وقامعاً للمعاندين بقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ثم انصرفت الآي إلى فريق النجاة ووعدهم بما أعد تعالى لهم فقال تعالى﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [3]، واستمرت الآي فيما أعد تعالى لهم وأعطاهم إلى قوله: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [4] مختتمة [5] كل قضية منها بقوله في ثماني كرات [6] في أعقاب ثماني قضايا على ما تقدم: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾. وكانت هذه ثمانية لكونها في أهل الجنة فجاءت على وفق أبوابها، ويشهد لهذا القصد تعقيبها بمثلها عدداً فيما زادهم في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [7] إلى آخر السورة، وهي ثماني آيات كعدد ما قبلها معقبة كل آية منها بقوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ رعياً لما ذكرنا. فتحصل في المجموع العدد المتقدم، ولم تكن الزيادة على ذلك لتناسب إذ لا قضية سوى هذه المعقبات، كما أن النقص من هذا العدد لا يناسب لطلب كل قضية بذلك الإعقاب تناسباً وتوازناً على ما تقدم من الرعي، فورد ذلك كله على الوجه الذي لا يناسب خلافه، والله أعلم.

---

(1) سورة الرحمان: آية 44.
(2) في ن 3: مفرغاً، والصواب: مقرعاً.
(3) سورة الرحمان: آية 46.
(4) سورة الرحمان: آية 60.
(5) في ن 3، ن 4: مختمة، وهذا يخل بالمعنى.
(6) في ن 3: مرات.
(7) سورة الرحمان: آية 62.

فـإن قلت ما وجـه اختصاص سـورة الـرحمـان بهـذا التعقيب مما هو إيقاظ للغافلين وتنبيه للمؤمنين وتقريع وتوبيخ للغافلين؟ وما وجه ذلك؟ فالجواب: (. . . . . .)[1].

* * *

(1) نقص في كل النسخ علق عليه في ن 2، كذا في النسخة المنقول عنها وعلق عليه بهامش ن 4، كذا وجد البياض في الأصل المنسوخ منه، لعل هذا البياض مكان لما بقي من سورة الرحمان ولما تعلق بسورة الواقعة.

سورة الواقعة[1]

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَالِقُونَ﴾[2]، وبعد ذلك: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَا تَحْرُثُونَ،ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّارِعُونَ﴾[3]، وبعده ﴿أَفَرَأَيْتُمُ ٱلْمَاءَ ٱلَّذِي تَشْرَبُونَ﴾[4]، ثم قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ﴾[5]، للسائل أن يسأل عن وجه هذا الترتيب؟ وهل كان يمكن تقديم أحد هذه النعم المنعم بها على ما وقع في الآية متقدماً عليه؟

والجواب عن هذه أن ذكر المتنعم بالنعم متقدم في الرتبة على ما ذكر من النعم، لأن النعم إنما خلقت للمتنعم بها ومن أجله، فذكره أولاً بين اللزوم، فلهذا تقدم ذكر خلق الإنسان المتنعم بالنعم فقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَا تُمْنُونَ..﴾ الآية، وأما تقديم الأكل على الشرب فمعقول الرتبة وبحسب ذلك ورد المقول المنقول فقال تعالى: ﴿كُلُوا وَٱشْرَبُوا﴾[6]، فالشرب في الغالب للاستمراء وليس أولياً في الغذاء

---

(1) سقط ما يتعلق بسورة الواقعة من ن 1، ن 2، ن 4، ولم يثبت إلا في ن 3.
(2) سورة الواقعة: آية 58-59.
(3) سورة الواقعة: آية 63-64.
(4) سورة الواقعة: آية 68.
(5) سورة الواقعة: آية 71.
(6) سورة الطور: آية 19.

ولا معتمداً في الجسوم الحيوانية للنماء، وإنما ورد ذكره مع الأكل تالياً لكونه في الرتبة ثانياً فقال تعالى: ﴿كُلُوا وَٱشْرَبُوا﴾. وأما النار فللمنافع من الإنضاج والإسخان والإضاءة فهي متممة وليست كالأكل والشرب مدعمة، وإذ لم تكن كالأولى في الغذاء والنماء فليس من المناسبة تقدم ذكرها على الماء.

وورد عقب الآية الأولى قوله: ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [1] وعقب الثانية: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [2]، ووجه المناسبة أن الآية الأولى لمن تدبرها تذكرة بالعودة الأخراوية قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [3]، فأعقب بالتحضيض على التذكر بالبداءة على العودة. وأما الآية الثانية فمستدعية الشكر على عذوبة الماء ولو شاء لجعله أجاجاً، فخلقه وجعله عذباً فوجب شكره تعالى على النعمة بذلك.

* * *

(1) سورة الواقعة: آية 62.
(2) سورة الواقعة: آية 70.
(3) سورة الأعراف: آية 29.

سورة الحديد

الآية الأولى منها ـ قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1]، وفي سائر المسبحات ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، ثم في سورة الحديد وسورة الحشر وسورة الصف: «سَبَّحَ» بلفظ الماضي، وفي سورة الجمعة والتغابن «يُسَبِّحُ» بلفظ المضارع، فهذان سؤالان؟

والجواب عن الأول، والله أعلم: أن كون «ما» لم تتكرر في هذه السورة إنما ذلك ليطابق بالكلام ما اتصل به من قوله تعالى: ﴿لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2]، فلما لم تكن هذه الآية مستدعية لفظة[3] «ما» روعي ذلك فيما قبلها لتناسب الآيتين، مع حصول ما تعطيه «ما» من المعنى، فلو وردت لم تكن لتكون إلا تأكيداً، وكان يسقط التناسب اللفظي، ثم قد ورد بعد هذا قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[4]، فتناسب هذا كله على ما يجب. أما المسبحات فلم يرد فيها ما يستدعي هذه المناسبة، فوردت على ما هو أنسب لما يفهم لفظ المضارع في التمادي والتكرر، والله أعلم.

---

(1) سورة الحديد: آية 1.
(2) سورة الحديد: آية 2.
(3) في ن 3: لفظ.
(4) سورة الحديد: آية 4.

والجواب عن السؤال الثاني: أن لفظ الماضي في «سَبَّحَ» ولفظ المضارع في «يُسَبِّحُ» يحرزان الاستمرار والدوام، ولا تحرز إحدى العبارتين ذلك بالتأويل والتقدير، فكان الجمع بين محرزي ذلك أولى. وإنما تقدم الماضي(1) لثبات رتبته وجوداً قبل المضارع، ثم أتبع بما يقتضي الاستمرار، وكان ورود أكثرها على التعبير بالماضي لأنه أوضح في استحكام الثبات وامتداده، فورد هذا كله على أنسب وجه.

الآية الثانية من سورة الحديد ــ قوله تعالى: ﴿لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(2)، ثم ورد بعدُ قوله: ﴿لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾(3)، للسائل أن يسأل عن إعادة قوله: ﴿لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مع قرب هاتين الآيتين وعن تعقيب الأولى بقوله: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ والثانية بقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾؟

والجواب عن الأول: أن إعادة قوله: ﴿لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إنما أعيد ليبنى عليه قوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾. لما تقدم وصفه سبحانه أنه المسبّح المتعالي ذو العزة والحكمة، وأنه الذي له ملك السماوات والأرض، والقدير على كل شيء والأول والآخر، والظاهر والباطن، العليم بكل شيء، والخالق للسماوات والأرض، والذي استوى على العرش بالقهر والقدرة، (والعليم بما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، وأنه مع الكل

(1) سقط من ن 3.
(2) سورة الحديد: آية 2.
(3) سورة الحديد: آية 5.

بالعلم)[1] والإحاطة والبصر (بأعمالهم)[2]، أكد ما تقدم بإخباره تعالى بأنه له ملك السماوات والأرض (وإليه رجوع أمر الخلائق، فلا تتحرك ذرة إلا بإذنه، ولا يصدر شيء إلا منه وعن قضائه، فتكرر قوله: ﴿لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[3] لبناء ما ذكر عليه أبين شيء لحصول الجمل المفصلة قبله تحت مفهومه، فقد تبين وجه التكرار ووجه تعقيب المكرر بقوله: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، فلما تقدم متصلاً به قوله: ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ فالمراد وهو على كل شيء قدير من الإماتة والإحياء وغير ذلك مما يدخل تحت حكم القدرة، فهذا التعقيب أنسب شيء وأوضحه، والله أعلم.

الآية الثالثة من سورة الحديد: غ ــ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾[4]، وفي سورة التحريم: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى﴾[5]، قدم الفعل في الأولى وأخر في الثانية؟

ووجه ذلك، والله أعلم: أن قوله في سورة التحريم: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ يفهم من حيث المعية قرب المنزلة وعلو الحال فتقدم ثبوته، فناسب ذلك ورود الجملة الاسمية هنا لما تقتضيه من الثبات وتقدمه واستحكامه. أما قوله في سورة الحديد: ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ فبشارة للمؤمنين، ولم يأت هنا كونهم مع نبيهم، فلم يتحصل مما يفهم

(1) بهامش ن 2.
(2) سقط من ن 3.
(3) سورة الحديد: آية 2.
(4) سورة الحديد: آية 12.
(5) سورة التحريم: آية 8.

تمكن المنزلة وثبوتها ما تحصل في آية التحريم إنما هذه بشارة، فناسبها التجدد والحدوث، فناسب ذلك الفعل بما يعطيه من المعنى فقيل: ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ليفهم التكرر وحدوث الشيء بعد الشيء، فورد كل على ما يجب ويناسب.

الآية الرابعة: غ ــ قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾[1]، وفي سورة التغابن: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ)﴾[2]، للسائل أن يسأل عما زيد في آية الحديد من قوله: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ إلى ما بعد مما خلت منه آية التغابن مع اتحادهما فيما انطوت عليه من المعنى؟

فأقول ــ وأسأل الله التوفيق ــ إن المسبحات الخمس وهي: سورة الحديد وسورة الحشر وسورة الصف وسورة الجمعة وسورة التغابن، مع اشتراك خمستها في مطالعها لم تتلاق منها في عدّة معان وترادف ألفاظ واحدة مع أخرى تلاقي هاتين السورتين أعني سورة الحديد وسورة التغابن، ألا ترى اجتماع السورتين في ذكر خلق السماوات والأرض، والإعلام بإحاطة علمه سبحانه، وما يترتب على ذلك من الجزاء الأخراوي وذكر الأموال والأولاد والفتنة بهما، وتحقير أمر الدنيا وما انطوت عليه الإشارة إلى تفصيل أحوال الخلق وجزائهم الأخراوي، وإن كل واقع في الوجود واقع بإذنه سبحانه وتقديره، وانطواء كل واحدة

---

(1) سورة الحديد: آية 22.

(2) سورة التغابن: آية 11، وما بين القوسين سقط من ن 1، ن 2، ن 4.

من هاتين السورتين على جملة من أسمائه سبحانه، ولم يرد في غيرهما من السور الخمس المذكورة من ذلك ما يجاريهما فيما اشتركتا فيه من الأسماء العلية، وإن كانت سورة الحشر قد انطوت من ذلك على نحو ما انطوت عليه سورة الحديد إلا أنها لم تلتق معهما في موافقة ما اجتمعتا عليه من تعيين عدة منهما (فلما)[1] اتفقت السورتان فيما ذكر، ولم يجتمع معهما غيرهما من المسبحات في ذلك ولا قارب، مع طول سورة الحشر ومجاراتها في الطول (سورة الحديد، وكون سورة التغابن لا تقارب واحدة منهما في الطول)[2]، ومع ذلك فقد شاركت سورة الحديد في تلك الأغراض الجليلة والمقاصد العظيمة وجارتها في ذلك عدداً واستيفاء، وعريت سائر المسبحات عن التعرض لذلك أو الوفاء منه بما وفتا به وعرفتا من حاله. فلما اتفقتا في هذا كله، وكانت سورة الحديد أمعن في كل ضرب مما ذكر وأوفى تعريفاً وأمد تفصيلاً، وكانت هذه الآية المتكلم فيها من جملة ما اتفقت السورتان فيه وروداً واتحاد معنى، أجريت في كل واحدة من السورتين من التفصيل في الأولى والاستيفاء والإجمال في الثانية والاكتفاء على ما جرت (به)[3] سائر الآي فيما اشتركت فيه السورتان مما ذكر قبل، فناسب ذلك ما زيد فيها في الآية المذكورة فقيل: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾[4] مناسبة لما بنيت عليه السورة من الوفاء بالأغراض المذكورة. وقيل في آية التغابن: ﴿مَآ أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ

---

(1) سقط من ن 3.
(2) سقط من ن 2.
(3) سقط من ن 3.
(4) سورة الحديد: آية 22.

﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[1] مناسبة للإجمال الوارد فيها من ذلك المشترك. وتحصل نظم السورتين على أتم مناسبة وأجلّ تلاؤم، وجرى ذلك على مسلك العرب وتفننها في كلامها وتصرفها إذا أطالت لداع موجب وفصلت أو أوجزت لمقتضى من المعنى وأجملت.

يرمون بالخطب الطوال وتارة وحي الملاحظ خيفة الرقباء[2]

ولا يمكن على ما تبين عكس الوارد في السورتين بوجه، والله أعلم بما أراد.

* * *

(1) سورة التغابن: آية 11.

(2) جاء في العقد الفريد 120/2: وأنشدني بيتاً في خطبة اياد:

يـومـون بـاللفظ الخفي وتـارة وحي الملاحظ خيفة الـرقبـاء

(البحر الكامل)

سورة المجادلة

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1]، وقال بعد: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَادُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾[2]، يسأل عن تعقيب الأولى بقوله: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ والثانية بقوله: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾؟ ووجه اختصاص كل موضع بالوارد فيه؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن الآية الأولى لما تقدمها ذكر الظهار، وقد سماه سبحانه منكراً من القول وزوراً، وشرع الكفارة فيه رحمة وتداركاً للواقع فيه إذا اتعظ وأناب، وجعلها (على التدرج)[3] من تحرير رقبة للواجد القادر عليها، وإلا فحكمه صيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا، فمن عجز عن الصيام فإطعام ستين مسكيناً، ثم قال: ﴿ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[4] أي أن الانقياد لأمر الله سبحانه (والتزام حدوده عنوان كبير على كمال الأديان والتزام ما به التخلص لديه سبحانه)[5]، فشرع لكم الحدود، فمن التزمها ولم يتعداها فذلك

---

(1) سورة المجادلة: آية 4.

(2) سورة المجادلة: آية 5.

(3) سقط من ن 3، في ن 4: التدريج.

(4) سورة المجادلة: آية 4.

(5) بهامش ن 2.

المؤمن، ومن تنكب عنها وحاد عن التزامها فتلك صفة الكافرين: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [1]، ووصف العذاب بالإيلام ليكون أوقع (وذلك أوقع)[2]، وذلك بين التناسب.

وأما الآية الثانية فتقدمها قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَادُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾[3]، والمحادة المشاقة والمحاربة، ولذلك كان جزاؤهم أن كبتوا وأذلوا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَادُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ﴾[4]، فلما تعزز هؤلاء وارتكبوا المحادة والمشاقة كان جزاؤهم إكباتهم وإذلالهم وإهانتهم في مقابلة تعززهم كفراً وعناداً، فقال تعالى في جزاء هؤلاء: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [5] أي مذل لهم قامع لعنادهم، وهذا بين التناسب، والله أعلم.

* * *

---

(1) سورة المجادلة: آية 4.
(2) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(3) سورة المجادلة: آية 5.
(4) سورة المجادلة: آية 20.
(5) سورة المجادلة: آية 5.

سورة الحشر

قوله تعالى: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ ٱللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾[1]، ثم قال بعد: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾[2]، (فيسأل عن اختصاص كل آية بما أعقبت به من قوله في الأولى: ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ وفي الثانية: ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾)[3]؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن الله تعالى لما أخبر عن يهود والمنافقين بسوء أحوالهم وأن الرعب قد سكن قلوبهم حتى كأن خوفهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد من خوفهم من الله، قال تعالى: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ ٱللَّهِ﴾، فناسب هذا نفي فهمهم وانسلاخهم عن النظر والتدبر والتوفيق، فقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾، ثم أتبع ذلك بالتعريف بشدة بأسهم بينهم وشتات أحوالهم فقال تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾، فناسب هذا ما يفهم عدم الثبوت على شيء والرجوع إلى قانون يقفون[4] عنده ويرتبطون إليه فقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾، والعقل هو علوم ضرورية يوقف عند مقتضاه ويحكم بما أمضاه ولا يتعدى،

---

(1) سورة الحشر: آية 13.
(2) سورة الحشر: آية 14.
(3) بهامش ن 2.
(4) في ن 3: يفقهون، والصواب: يقفون.

ويحصل من ذلك الثبوت، واشتقاقه من قولهم: عقلت البعير إذا ربطته بعقال، وهو الحبل وشبهه مما يتقيد به. ولما نفي عنهم الارتباط مع وصفهم بشتات القلوب وجوداً فقال: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾[1]، أخبر تعالى أن سبب ذلك: أنهم لا يعقلون، وتناسب هذا أبين شيء، ولا يناسب الأولى قبلها إلا ما أعقبت به، والله أعلم.

* * *

(1) سورة الحشر: آية 14.

سورة الممتحنة

قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾[(1)]، وبعد هذا: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾[(2)]، فيسأل عن موجب إعادة قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾؟ وعن متعلق كل واحدة من الآيتين هل كان يصلح ورود كل واحدة منها مكان الأخرى؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أنه تعالى لما أمر المؤمنين ألا يتخذوا أعداءه وأعداءهم أولياء بإلقاء أسباب المودة والنصيحة لهم، وسبب نزول هذه السورة قصة حاطب بن أبي بلتعة[(3)]، رحمه الله، في كتابه إلى أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يريده فيهم، ودفعه ذلك إلى ظعينة، ونزول الوحي بذلك، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً والمقداد وأمرهما أن يأتيا روضة حاّج[(4)]، وقال لهما: إن بها ظعينة معها كتاب إلى أهل مكة، فذهب

---

(1) سورة الممتحنة: آية 4.

(2) سورة الممتحنة: آية 6.

(3) حاطب بن أبي بلتعة (95ق. هـ ـ 30هـ) صحابي، شهد الوقائع كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان من الرماة، واسع التجارة، هو حامل كتاب رسول الله إلى المقوقس بالاسكندرية، مات بالمدينة (الاعلام 163/2؛ الإصابة 299/1-300).

(4) روضة حاّج: لعلها ذات حاّج موضع بين المدينة والشام (عن معجم البلدان 182/2، طبعة ليبزغ 1867).

علي والمقداد، رضي الله عنهما، فوجدا الظعينة كما أخبرهما صلى الله عليه وسلم. وأنكرت الكتاب، فاشتد عليها علي، رضي الله عنه، وقال: لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب، فأخرجته من عقاصها، فأتى به علي، رضي الله عنه، رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا الكتاب من حاطب، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتبرأ حاطب من أن يكون فعل ذلك نفاقاً، واعتذر بما قبله منه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزل القرآن بتصديقه في اعتذاره فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾... الآيات[1]، فأمر تعالى بالتبري منهم وذكر كفرهم بما جاء المؤمنين (من الحق)[2] وإخراجهم الرسول والمؤمنين من مكة من أجل إيمانهم، وتوعد فاعل ذلك فأخبر أنه قد ضل سواء السبيل. وقبل تعالى توبة حاطب، وأمر بالاقتداء بإبراهيم، عليه السلام، حين تبرأ هو ومن معه من المؤمنين من قولهم[3] إلا ما كان من موعدة ابراهيم لأبيه بالاستغفار إلى أن تبين له أنه عدو الله تبرأ منه، فقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾[4] الآيات. فلما أوضح تعالى من ذلك ما فيه شفاء المؤمنين أتبعه تعالى بالقسم المؤكد لذلك فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[5]، ودلت اللام الموطية للقسم في: ﴿لَقَدْ كَانَ﴾ على تأكيد ما تقدمه من الأمر بالاقتداء والتأسي بابراهيم، عليه السلام، ومن كان معه فقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ﴾ (أي

(1) سورة الممتحنة: آية 1.
(2) سقط من ن 3.
(3) في ن 3: قومهم.
(4) سورة الممتحنة: آية 4.
(5) سورة الممتحنة: آية 6.

المذكورين)[1] أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، ثم قال: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ أي عن الاقتداء والتأسي بمن أرشد سبحانه إلى التأسي به فيما ذكر: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[2]، فالأولى تنبيه وإرشاد، والثانية تأكيد، وسبب كل آية منهما الذي به اتصالها وتعلقها بين، ولا يلائم كل واحدة ولا يناسبها غير موضعها، والله أعلم[3].

* * *

(1) بهامش ن 2.

(2) سورة الممتحنة: آية 6.

(3) يوجد اثر هذا في ن 4 صفحة بيضاء، لعله نقص يشمل سورتي الصف والجمعة ومما يغلب هذا الظن أن الخطيب تناول هاتين السورتين في «الدرة» وعادة ابن الزبير اقتفاء أثره فيما تناوله بالتفسير والزيادة عليه.

سورة المنافقين

قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾[1]، ثم قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2]، للسائل أن يسأل عن نفي الفقه عنهم أولاً ونفي العلم في الآية الثانية؟ وهل كان يمكن وقوع ما نفي في الأولى منفياً في الثانية ووقوع ما نفي في الثانية في الأولى؟

والجواب، والله أعلم: أن الاعتزاز بالدين والاطلاع على تشريف المؤمن به واعتزازه بسببه أمر لا يوصل إليه إلا بعلم ويقين لا طريق لمنافق إليه ما دام على نفاقه، وإنما يعلمه ويصل إلى رحمة الله به المؤمن العالم حق العلم بما منح الله المؤمنين، من الاعتزاز بدينه سبحانه، والاعتصام باتباع نبيه صلى الله عليه وسلم، والتمسك بما جاء به، فنفي ذلك عن المنافقين بين لا خفاء فيه، ولا يناسب سواه. وأما ما راموه من قطع الرفد والإنفاق وما يرجع إلى ذلك عن المؤمنين حتى يتفرقوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويفردوه، فإن ذلك أمر

(1) سورة المنافقين: آية 7.
(2) سورة المنافقين: آية 8.

لو تثبتوا فيه مع كفرهم ونفاقهم وأمعنوا النظر لعلموا بجري العادة أن أرزاق العالم لا تتوقف على منع مانع منهم، بل مشيئة جميعهم في هذا غير نافذة، وأن وصول أرزاق العباد إليهم أمر ليس لمخلوق (فيه)[1] كنزول المطر وإرسال الرياح، وذلك مما لا طمع لمخلوق في إرساله ولا إمساكه. فلو فقه المنافقون وتفهموا السنة الجارية لما فاهوا بمقالهم، ﴿وَلَكِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾، فنفي الفقـه عنهم هنا أنسب شيء، فلا يلائم وقوع أحد المنفيين في موضع الآخر، والله أعلم.

* * *

(1) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.

سورة التغابن

الآية الأولى منها قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1]، وقال تعالى بعد: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾[2]، للسائل أن يسأل عن تكرر «ما» في أول السورة وتركها في الآية بعدها؟ وهل كانت الفائدة تحصل بعكس ذلك؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن الآيتين معاً قصد بهما الاستيفاء والإحاطة بكل المسبّحين وبما أحاط به علمه سبحانه، وقد اقترن بالآية الثانية واتصل بها قوله سبحانه: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ فحصل من ذلك إحاطة علمه سبحانه بما ظهر وما بطن وما اشتملت عليه السماوات والأرض، فلما اقترن[3] بهذه الآية ما يعطي إحاطة علمه سبحانه بجزئيات«ما»في الجملة وأنه لا يغيب عنه شيء لم يحتج في قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إلى إعادة «ما» لأن ذلك يكون كالتكرار الذي لا يحرز معنى.

---

(1) سورة التغابن: آية 1.

(2) سورة التغابن: آية 4.

(3) في ن 3: افترق، والصواب: اقترن.

وأما الآية الأولى فلم يقترن بها ما يعطي ملفوظاً به مع أنه قد قصدت الإحاطة، فلم يكن بد من إعادة ـ ما ـ استئناف إحصاء[1] وتأكيد، فلا يلائم كلاً من الموضعين إلا ما ورد فيه.

الآية الثانية من سورة التغابن ـ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً نُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَنُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ﴾[2]، (وفي سورة الطلاق: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً نُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ﴾[3])[4]، للسائل أن يسأل عن زيادة: ﴿نُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ في سورة التغابن ولم يرد في سورة الطلاق مع أن المقصود واحد في الآيتين؟

والجواب عنه، والله أعلم: أنه لما تقدم في سورة التغابن قوله تعالى مخبراً عن المكذبين: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا﴾[5] وقوله تعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾[6]، ثم قال تعالى: ﴿فَآمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِي أَنْزَلْنَا وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[7]، فأعلم تعالى بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ وبين أنه تعالى لا يخفى عليه شيء من أعمال المكلفين، وأن

---

(1) في ن 3: أيضاً، والصواب: إحصاء.
(2) سورة التغابن: آية 9، وفي ن 2: يكفر عنه... ويدخله بياء الغيبة، قرأ نافع وابن عامر وندخله بالنون فيهما والباقون بالياء (عن التيسير لأبي عمرو الداني، ص 24).
(3) سورة الطلاق: آية 11.
(4) سقط من ن 1، ن 2.
(5) سورة التغابن: آية 7.
(6) سورة التغابن: آية 7.
(7) سورة التغابن: آية 8.

المنبأ به كل أعمالهم من غير فوات شيء، ثم ذكر تعالى جمعهم ليوم الجمع، ثم أنس المؤمنين فقال: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً﴾، وفي قوله: ﴿وَيَعْمَلْ صَالِحاً﴾ إشارة إلى المؤمنين الموعودين هنا، وليس من شرطهم استيفاء أعمال الطاعات إذ يحرز التنكير في قوله: ﴿وَيَعْمَلْ صَالِحاً﴾ ويشعر بهذا[1] المعنى، وما لم تكن العصمة فالتقصير حاصل، ولا انفكاك عن مجترحات. وقد سمع المؤمن: ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ فأشفق من تقصيره وهناته، وتوقع مخوف سيئاته، وتشوف إلى تعرف تفصيل الحال في المنبإ به من الأعمال ليعلم المآل، فجووب على الكمال بكيفية ما به تقابل أعماله فقيل: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً نُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ [2] إذ لا بد من محتاج إلى تكفيره إذا كانت السلامة وسبقت السعادة، ثم قال: ﴿وَنُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ﴾ إلى آخر الآية، فهذا وجه زيادة قوله تعالى: ﴿نُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ في هذه الآية. ويشهد لهذا المفهوم قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ [3] إلى غيرها من الآيات.

وأما آية الطلاق فلا داعي فيها إلى زيادة قوله: ﴿نُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ بل سياقها يستدعي ألا يكون ذلك فيها لأن قبلها: ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ يَا أُوْلِي ٱلْأَلْبَابِ﴾ [4]، والأمر بالتقوى يعم ولا يخص، ثم قال تعالى: ﴿قَدْ أَنْزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً وَرَسُولاً﴾ [5] إلى قوله: ﴿لِيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

---

(1) في ن 3: بها، والصواب: بهذا.
(2) سورة التغابن: آية 9.
(3) سورة الأنبياء: آية 94.
(4) سورة الطلاق: آية 10.
(5) سورة الطلاق: آية 10-11.

ﱡﭐﭐٱلصَّالِحَاتِﱠ[1]، فأشار إلى النمط الأعلى من المؤمنين المستوفين أعمال الطاعات، أشار إلى ذلك لفظ: «الصالحات» بالألف واللام، ثم قال: ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[2] أي من الظلمات كلها إلى النور التام، وهذه حال المخلصين المحسنين (من المستجيبين)[3]، ثم تدارك تعالى من لم يبلغ حال هؤلاء من المؤمنين ولحق بهم في النجاة فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً نُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ﴾، فناسب حال المتقدمين من ذوي الإحسان ألا يقع إفصاح يشعر بعصيان «هم القوم لا يشقى بهم جليسهم»[4]، فوقع الاكتفاء بإيماء: ﴿وَيَعْمَلْ صَالِحاً﴾ وقوله: ﴿نُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ﴾ وقوله: ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُ رِزْقاً﴾[5]، فجاء كل من الآيتين على ما يلائم ويناسب، ولم يكن ليناسب ورود العكس.

* * *

---

(1) سورة الطلاق: آية 11.
(2) سورة الطلاق: آية 11.
(3) سقط من ن 3.
(4) صحيح البخاري: دعوات 66؛ سنن الترمذي: دعوات 129، وورد فيه بلفظ: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم.
(5) سورة الطلاق: آية 11.

سورة الطلاق

الآية الأولى ــ قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[1]، ثم قال: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾[2]، ثمّ قال بعد: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً﴾[3] للسائل أن يسأل عن تكرر الأمر بتقواه تعالى أثناء[4] ما ذكره سبحانه من الطلاق والعدة وما يرجع إليهما؟ وعن وجه تخصيص هذا العدد والجزاء على ذلك بقوله في الأولى: ﴿يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، وفي الثانية: ﴿يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾، وفي الثالثة: ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعَظِّمْ لَهُ أَجْراً﴾؟

ويمكن أن يجاب عن ذلك، والله أعلم: بأن الأوامر التي دارت عليها هذه السورة وبنيت عليها ثلاثة، الأول: الأمر بالمحافظة على إيقاع الطلاق إذا[5] ضمت إليه الضرورة في وقته لاستقبال العدة حتى لا يقع إضرار بالمطلقة بتطويل عدتها. والثاني: الأمر بإحصاء العدة والمحافظة عليها، وألا تخرج المعتدة من بيتها حيث وقع عليها الطلاق ولا تبيت

(1) سورة الطلاق: آية 2-3

(2) سورة الطلاق: آية 4 .

(3) سورة الطلاق: آية 5.

(4) في ن 3: آنفاً، والصواب: أثناء.

(5) في ن 1، ن 4: لما، وفي ن 2 بياض، والصواب: إذا.

عنه، إلى ما يرجع إلى هذا. والثالث: إنفاذ ما يقع الاعتماد عليه في إمساك أو مفارقة، من حسن الصحبة وجميل العشرة إن اعتمد الإمساك (أو بالإمتاع)[1] والتلطف رعياً لما تقدم من الصحبة إن عوّل على المفارقة، فعلى هذه القضايا الثلاث بناء هذه السورة، وعلى الوعظ في ذلك والتأكيد بالتزام تقوى الله والتزام ما حد سبحانه فيما ذكر. ولرعي هذه الأوامر الثلاثة ما ورد الإخبار بجزاء من اتقاه سبحانه في ثلاث كرات[2]، فبإزاء أول قضية من أوامر السورة قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ آللَّهَ﴾، أي في إيقاع الطلاق في محله ووقته كما أوضح صلى الله عليه وسلم في قضية عبد الله بن عمر المشهورة[3]، ﴿يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾ بحكمه نفسه إن لحقه ندم كما قال تعالى: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً﴾[4] أي من تقلب الأحوال وصيرورة البغض وداً فيجد السبيل إلى المراجعة سهلاً بالتزامه الوجه الجاري على السنة وأخذه بالطاعة فينشرح صدره بتيسير أمره ويكثر رزقه بتقوى ربه: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ آللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[5]، ومن يتق الله في صبره أيام العدة على ما يلزمه من نفقة وسكنى ـ حيث يلزم[6] ذلك وإن طالت الأيام ـ فكأن طولها مع ما يتكلفه فيها مظنة للضجر[7] وكرب

---

(1) في بهامش ن 2.

(2) في ن 3: مرات.

(3) سنن النسائي: طلاق 1، والموطأ: طلاق 79.

(4) سورة الطلاق: آية 1.

(5) سورة الطلاق: آية 2-3.

(6) في ن 3: يأمن.

(7) في ن 1، ن 2: الشجر، والصواب: الضجر.

النفس، فإذا اتقى الله في ذلك (يسر عليه)[1] تلك المشقة. وقرب عليه أمرها وإن بعدت المشقة، وأنسه في وحشتها وجعل له من أمره يسراً.

فإذا اتقى الله عند تمامها والإشراف على انفصالها، وأخذ بالسنة، واتقى الله فيما يختاره تعالى له ويقضيه من إمساك أو فراق، فيلتزم المعروف إن أمسك، ويتبع كل سيئة جرت حال طلاقه وغضبه ـ من قبح كلام أو قصد مضرة وإن كانت بأدنى إيلام أو إساءة معاملة تنافر المجاملة والمكارمة ـ بحسنة[2] تقابلها وتمحوها من إظهار التندم، وطلاقة البشر، والإغضاء عن كل ما جرى أيام المنافرة، ويستبدل المناقشة بالمياسرة، فإذا فعل هذا واتقى الله في ذلك كفر عنه سيئاته وأعظم أجره جزاء على تلك الأعمال[3]، ويشهد لما تمهد من جزاء تقوى الله سبحانه في تلك الحالات ما أفصح به ما بعد من الآيات، قال تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾[4] إلى قوله سبحانه: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾[5]، وتأمل جري هذه الآيات والوصايا الجليلة وما تشير إليه من الإشفاق وجميل التجمل والإنفاق[6] مع ما تقدم تجده جارياً على أوضح التناسب وأجل الالتئام، والله أعلم بما أراد[7].

* * *

(1) سقط من ن 3.

(2) في ن 3: بحسب، والصواب: بحسنه.

(3) في ن 3: الأحوال، والصواب: الأعمال.

(4) سورة الطلاق: آية 6.

(5) سورة الطلاق: آية 7.

(6) في ن 3: الارفاق.

(7) يوجد أثر هذا في ن 4 بياض في آخر الصفحة، لعله لسورة التحريم.

سورة الملك

قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾[1]، للسائل أن يسأل عن وجه تقديم التوعد (بخسف الأرض على التوعد)[2] بإرسال الحاصب من السماء؟ ولم اختير تقديم الوعيد بالخسف؟ وما الفرق بين الوارد هنا والوارد في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾[3]؟

والجواب، والله أعلم: أنه لما تقدم ما اتصل به التوعد من قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولاً فَٱمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾[4] فحضر في النفوس عند ذلك وتقرر تذكر هذه النعمة وجليل الامتنان بها شاهداً حاضراً للمتذكر وعليها قراره حال تذكره وتنعمه بالتقلب فيها حين خطابه متصلاً غير منفصل وملتصقاً غير متباعد كان أنسب شيء لهذه في

---

(1) سورة الملك: آية 16-17.
(2) بهامش ن 3.
(3) سورة الأنعام: آية 65.
(4) سورة الملك: آية 15.

الموعظة تذكيره اتعاظاً بخسفها[1] من تحته، حتى كأن ذلك الأمر جاء منه[2] لا من خارج عنه.

أما آية الأنعام فتقدمها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾[3]، فصرف هذا الخطاب تَفَكُّرَ النفس في عين الجهة التي ذكر منها القهر، فكان أنسب شيء ذكر التخويف من تلك الجهة بخلاف آية الملك. فكل آية من هاتين (الآيتين)[4] تبين حال الأخرى، وإن التناسب إنما هو فيما وردت عليه كل آية منهما، وإن العكس غير مناسب، والله أعلم.

* * *

---

(1) في ن 1، ن 2: بجميعها.
(2) في ن 3: حاف عنه.
(3) سورة الأنعام: آية 61.
(4) سقط من ن 3.

سورة القلم

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾[1] إلى قوله: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ سَنَسِمُهُ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾[2]، وقال في سورة المطففين ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾[3] إلى قوله: ﴿أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[4]، للسائل أن يسأل عن التعقيب في الأولى بقوله: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ وفي الثانية بقوله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ مع اتحاد وصف من أعقب بهذا المعقب حاله وحكي مقاله[5]؟ وهل كان يجوز تعقيب آية سورة القلم (بما أعقبت به آية التطفيف وآية التطفيف بما أعقبت به آية القلم)[6]؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: ان آية القلم نزلت في شخص

---

(1) سورة القلم: آية 10-11.

(2) سورة القلم: آية 15-16.

(3) سورة المطففين: آية 11-12.

(4) سورة المطففين: آية 13-14.

(5) في ن 3: حال مقاله، والصواب: وحكي مقاله.

(6) سقط من ن 3.

بعينه، قيل هو الأخنس بن شريق[1]، وقيل الوليد بن المغيرة[2] وكان مظهراً لعداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو القائل: سأنزل مثل ما أنزل الله، وكان من أكثر قريش مالاً وولداً، فلهذا قيل فيه: ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾[3]، وهو القائل يوم مات إبراهيم بن النبي صلى الله عليه وسلم: أصبح محمد أبتر، أي لا ولد له، فأنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾[4]، والشانيء المبغض. وأسلم ولده فقطعه الله بالإسلام عنه، فكان هو الأبتر كما أخبر الله نبيه، وصار أولاده في عداد المسلمين الذين هم أولاد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأزواجه أمهاتهم، ففي هذا نزلت الآية من قوله: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾[5] إلى آخرها، فأغنى استيفاء صفاته المذمومة عن تعيين آسمه بقوله سبحانه: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ إخباراً منه تعالى بأول عقاب ينزل بعدو الله المذكور ـ والخرطوم الأنف ـ فكان ذلك يوم بدر، فهذا وعيد لخاص معين أنزل به معجله، ولعذاب الآخرة أكبر.

وأما آية المطففين فليست في معينين بغير مرتكباتهم قال تعالى: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ﴾[6] أي بيوم الدين وهو يوم الجزاء ﴿إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ

---

(1) الأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب اسمه أبي، له ترجمة مطولة بالإصابة (الإصابة 61/1).

(2) الوليد بن المغيرة:)95هـ ــ 1هـ) من زعماء قريش وزنادقتها، يقال له العدل لأنه كان عدل قريش كلها، أدرك الإسلام وعاداه وقاوم دعوته وهو والد سيف الله خالد.
الأعلام 144/9؛ الكامل 26/2.

(3) سورة القلم: آية 14.

(4) سورة الكوثر: آية 3.

(5) سورة القلم: آية 10-12.

(6) سورة المطففين: آية 12.

أَثِيمٍ ﴾، مكذب بالوحي، ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[1]، فقال تعالى: ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[2] أي أن المانع لهم من فهم الوحي والعلم بأنه منزل من عند الله ما غطى قلوبهم من الرين، وهو ما يغشى القلب ويمنعه من الوصول إلى ما ينفعه، وأعاد الضمير في قلوبهم على المعنى من حيث أن المراد هنا جميع من وقع عليهم: «كل» بخلاف آية القلم فان «كل» فيها واقعة على مفرد، وعبر بكل ليعم[3] المقصود بذلك المراد ومن كان على صفته إبلاغاً في ذمة، والضمير في سنسمه لمفرد كما تقدم، ولفظ ـ كل ـ مطابق بمعناه، وقد تبين أنه لا يصح في كل موضع من السورتين الا ما وقع به التعقيب به، فلا يناسب آية القلم ما أعقبت به آية سورة التطفيف ولا آية التطفيف ما أعقبت به آية سورة القلم، وأن كل آية منها أعقبت بما هو مناسب لا يلائم غيره، والله أعلم.

* * *

(1) سورة المطففين: آية 13.
(2) سورة المطففين: آية 14.
(3) في ن 1، ن 2: النعم، وفي ن 3: ليفهم.

سورة الحاقة

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾[1]، للسائل أن يسأل عن الوجه في نفي الإيمان عنهم عقب تنزيه[2] ما جاء به صلى الله عليه وسلم من القرآن عن أن يكون شعراً ونفي التذكر عنهم عقب تنزيهه عن أن يكون من قبيل قول الكهان؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن نفي كون القرآن من أقوال الكهنة أمر لا يحتاج إلى كبير (نظر ولا استعمال طول فكر، بل يوصل إلى ذلك بأدنى التفات، فناسب هذا نفي)[3] التذكر، وأما تنزيهه عن إلحاقه بقبيل الشعر وما يرجع إلى نحو ذلك من أقوال الخطباء وأسجاعهم فقد توهم الجاحد الظلوم المتعامي عن النظر وصرف التفكر إلى تدبره والإصغاء إلى سماعه[4]، المترامي إلى التعلق بأدنى شبهة يستريح إليها رجوعه إلى ذلك. فناسب هذا نفي التصديق لأنه إنما يكون عن ركون[5] إلى نظر وتفكر، فجاء كل على ما يناسب، والله أعلم.

* * *

---

(1) سورة الحاقة: آية 41-42.

(2) في ن 1، ن 2، ن 4: تنزيل، والصواب: تنزيه، وفي ن 3: تسمية.

(3) سقط من ن 3.

(4) في ن 3: إسماعه.

(5) في ن 3: تكون، والصواب: ركون.

سورة نوح (عليه السلام)

ـ وقد تقدم ما في سورة المعارج[1].

وقوله في سورة نوح، عليه السلام: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾[2]، وبعده ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾[3]، للسائل أن يسأل عن وجه اختلاف ما دعا به نوح صلى الله عليه وسلم على قومه في الموضعين؟

والجواب عن ذلك أن نوحاً، عليه السلام، لما ذكر أولاً في إخبار الله سبحانه عنه عصيان قومه له وقولهم: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾[4] أي لا تتركوها ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا﴾[5] إلى قوله: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾[6]، أردف هذا بما يناسبه من الدعاء في زيادة ضلالهم، ولم يدع هنا بهلاكهم.

وأما الآية الثانية فتقدمها دعاؤه، عليه السلام، بهلاكهم وأخذهم

---

(1) صفحة 862 و869.
(2) سورة نوح: آية 24.
(3) سورة نوح: آية 28.
(4) سورة نوح: آية 23.
(5) سورة نوح: آية 24.
(6) سورة نوح: آية 24.

في قوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾[1]، فأتبع ذلك بما يناسب فقال: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً﴾[2] أي هلاكاً.

* * *

(1) سورة نوح: آية 26.
(2) سورة نوح: آية 28.

سورة الجن

غ ـ قوله تعالى: ﴿عَالِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً﴾[1]

للسائل أن يسأل عن قوله تعالى: ﴿عَلَى غَيْبِهِ﴾. بإعادة الظاهر مضافاً إلى الضمير[2]، هل ذلك من قبيل ما تكرره العرب لتفخيم الأمر وتعظيمه؟ كما قال قائلهم[3]:

لا أرى الموت يسبق الموت شيء نغص الموت ذا الغنى والفقيرا[4]

وقال تعالى: ﴿ٱلْحَاقَّةُ مَا ٱلْحَاقَّةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا ٱلْحَاقَّةُ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ مَا ٱلْقَارِعَةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾[6]، فيكون قوله: ﴿عَلَى غَيْبِهِ﴾ واقعاً موقع: «عليه»، وتكون الآية على هذا مثل قوله: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[7] وما ورد من مثله وهو الذي يقتضيه قوله تعالى في مطلع هذه الآية: ﴿عَالِمُ ٱلْغَيْبِ﴾، فلا يكون بين الآي الواردة في هذا المعنى خلاف، ويكون مجمل جميعها على

---

(1) سورة الجن: آية 26.
(2) في ن 3: المضمر.
(3) سوادة بن عدي.
(4) البيت لسوادة بن عدي، البحر الخفيف عن الكتاب 42/1.
(5) سورة الحاقة: آية 1-3.
(6) سورة القارعة: آية 1-3.
(7) سورة النمل: آية 65.

العموم؟ أم يراد بهذه (الآية)[1] خصوص لم يرد بسواها من الآي الأخر وان كان داخلاً تحت عموم تلك الآي؟

والجواب، والله أعلم: أن هذه الآية مراد بها خصوص ما انفرد سبحانه بعلمه ولم يطلع عليه أحد من خلقه ولا يظهر سبحانه عليه الا من ارتضاه من رسله[2] مع سلوك الرصد من الملائكة بين يديه ومن خلفه حفظاً لغيبه تعالى من مسترق سمع أو مستطلع[3]، فهذا غيب لا سبيل لأحد من الخلق إليه على مقتضى الآية لا بتكهن ولا تنجيم ولا زجر ولا غير ذلك، وهو كوقوع الساعة وتجليها لوقتها، إلى غيرها من غيوب استأثر سبحانه بها ولم يعلم أحداً بشيء منها ما هية فيتشوف مخلوق إلى تعرف وقت شيء منها أو كيفية ظهور أو غاية إذ لولا الإخبار الصدق بماهية الساعة لما وقع لأحد من العالم تشوف إلى تعرف قيامها ولا كنا لنعلم ما الساعة، وإذا لم نعلم ماهية مغيب ما لم نتشوف إلى تعرف ما هو تابع للماهية، فلهذا ضاق عنها نطاق التمثيل حتى أوهم كلام بعض الجلة أن المراد بهذا الغيب الذي استأثر سبحانه بعلمه إنما هو علم الساعة، وان ما سواها يمكن الوصول إليه بالكهانة والتنجيم والإلهام وغير ذلك، ولو أن هذا القائل أراد ظاهر ما يسبق من كلامه لما سلم له، لأنه لو لم نسمع بآسم الساعة لعجزنا عن تعرف موجود مقدر الوقوع يسمى بهذا الاسم، فالذي يجب أن يفهم عن هذا القائل أنه يريد أن لله غيوباً لا تحصى لا يظهر عليها أحداً من خلقه على مقتضى هذه الآية الخاصة بهذا المعنى المجردة له، ومن نحو هذا ما يشير إليه قوله تعالى:

---

(1) سقط من ن 3.

(2) في ن 3: ارتضى من رسوله.

(3) في ن 4: متطلع.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [1]، وإذا أظهر تعالى شيئاً من هذا الغيب فإنما يدركه الخلق أومن شاء الله منهم بعد ظهوره وكيانه، فيعلم إذ ذاك وقد كان هذا الظاهر في غيبه الذي انفرد به عن خلقه لم يعلم أحد من الخلق له ماهية الا بعد ظهوره، وما غاب عن الخلق أكثر. هذا ــ والله أعلم ــ هو المراد بهذا الغيب المذكور هنا، وعليه يحمل ما قدم عما ذكر وان أوهم من حيث حصر التمثيل أنه غيب الساعة خاصة، وهو ولا بد لم يرد ذلك وإنما أراد غيب الساعة وما كان مثله مما لم تذكر له ماهية، فلم يكن التمثيل كما تقدم إلا بما أعلمنا بماهيته فصح السؤال عنه.

وأما أمر الساعة فهذا ــ والله أعلم ــ ما يمكن أن يقال إنه الذي تجردت له آية سورة الجن، وأما الوارد في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلا ٱللَّهُ﴾[2] وما ورد من مثله فليس بخاص بل هو عام على أطلاقه وعمومه، ومصرف المنع إلى الإحاطة والاستيفاء والتيقن وحصر جزئيات المعلومات، فلا يعلم ذلك علم استيفاء وإحاطة إلا الله. فهو الذي أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً، ثم لا يمتنع إظهاره سبحانه من شاء من خلقه من غير الرسل على ما شاء مما أشير إليه ولا يتجزأ ما أطلعهم[3] عليه مما عنده سبحانه، ويدخل تحت هذا العموم العلم الذي استأثر سبحانه بعلمه وانفرد به دون خلقه، الا أن حكم ذلك على ما تقدم وتقرر، ومن نحو العموم الواقع هنا قوله تعالى:

---

(1) سورة البقرة: آية 255.

(2) سورة النمل: آية 65.

(3) في ن 1، ن 2، ن 4: أطلعتم، والصواب: أطلعهم.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(1)، فهذا كقوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾(2)، فملك السماوات والأرض له سبحانه لا شريك له في ذلك ثم قد قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَالِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾(3)، وأعلمنا سبحانه أن نبيه سليمان طلب ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، وأتاه الله ذلك، وليس ما أوتيه هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم جزءاً له نسبة إلى ملك الله تعالى، ولا يمكن توهم ذلك. وإذا كان ما أوتي سليمان، عليه السلام، هذه حاله فكيف ما أوتيه غيره مما لا يبلغ معشار ما أوتيه سليمان، عليه السلام؟ فكذا الأمر في الغيب، فلا يعلم غيب السماوات والأرض على ما هو علم إحاطة وتفصيل إلا هو سبحانه، يطلع من يشاء من خلقه على ما شاء من ذلك، ولا يتجزأ ما اطلع عليه الكل من نبي ومن سواه مما لم يطلعهم عليه، ثم إن ما عند من سوى الأنبياء والمصطفين من العباد لا يعلم أنهم تيقنوا ذلك، فإذا لم يكن علمهم علم تيقن وتحقيق فإطلاق آسم العلم عليه مجاز، بل هو ظن وإن قوي إذ لم يصحبه اليقين ولا الاستيفاء ولا الإحاطة بالجزئيات فالمتصف به ليس بعالم غيب على الحقيقة، وبهذه الصفة القاصرة هو العلم الموجود عند الكهان وغيرهم ممن لم يستمد من الوحي وما تسلمه الشريعة، فنفي آلإتصاف بعلم الغيب عمن عري عن التيقن أو من لم يحط علمه بجزئيات ما يعلمه ولم يستوفه وجه واضح، والإطلاق بأنه ليس عالماً بالغيب إطلاق صحيح، ثم إن القول بأنه مخبر بغيب وبعض تفاصيل عن

---

(1) سورة الجاثية: آية 27.

(2) سورة هود: آية 123.

(3) سورة آل عمران: آية 26.

مغيبات غير معارض ولا متناقض، فلا يلزم على ذلك اعتراض بعلم شق وسطيح[1] وما أخبرا به، لأنهما وإن أخبرًا بعجائب وتفاصيل فقد فاتهما غير ذلك من جزئيات في معلومهما الذي أخبرا بـه لم يخبرا بهـا ولا أحاطا بعلمها. وكذا غيرهما من الكهان والمنجمين، فقد وضح محمل آيات العموم.

وأما آية سورة الجن فمحملها على الخصوص كما تقدم، ومما يزيد ذلك وضوحاً ويعضد ما قدمنا من المفهوم في الضربين أن الله سبحانه لما ذكر المغيبات الخمس فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ ٱلساعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾[2] إلى آخرها أفرد علم الساعة بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ ٱلساعَةِ﴾، وعبارة: «عند» تقتضي بوضعها خصوصاً وقرباً وتمكناً، وكذا أورد تعالى هذا الاخبار حيث تكرر قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾[3]، وقال تعالى بعد: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ ٱللَّهِ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا ٱلْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ إِنَّما ٱلْعِلْمُ عِنْدَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[5]، فجرى هذا ٱلإخبار مقيداً بعبارة «عند» حيث تكرر ولم يشترك معها في آية لقمان ما ذكـر بعدهـا في الدخـول تحت حكم «عند» وما تقتضيه من الخصوص بل قال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي

(1) شق وسطيح: أنظر هامش صفحة 1106.
(2) سورة لقمان: آية 34.
(3) سورة الأعراف: آية 187.
(4) سورة الأعراف: آية 187.
(5) سورة الملك: آية 25-26.

ٱلْأَرْحَامِ﴾[1] إلى ما بعده فتفصيل هذا الاخبار والتفصيل في نظم الآية يفهم منع التساوي، ولا شك أن عدم اعتبار الجزئيات في تركيب الألفاظ يؤدي إلى عدم فهم ما آنتظم منها.

فإن قيل: إنما ورد بعد ذكر الساعة من قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ إلى ما بعد مفصولاً عن حكم «عند» ليفهم التكرار، إذ المعلوم أن تكرّر نزول الغيث ـ مهما كانت الحاجة إليه ـ هو عين آلإنعام والإحسان إلى العباد[2]، فلهذا ورد بلفظ يقتضي التكرر وهو لفظ المستقبل من الفعل، فأحرز بذلك هذا آلإنعام العظيم والتذكير به، فهو كالوارد في قوله تعالى: ﴿إنا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ [3] (ولم يقل)[4] مسبحات، وقال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ [5]، وهذا كثير فلإحرازه ورد تفصيل الإخبار. قلت: قصد هذا المعنى بين الإمكان وإحراز ـ عند ـ ما تقتضيه من معناها كذلك، ولا تعارض بين المقصدين، والإيجاز مقتض حصول المعنيين فجيء بما يحرزهم بأوجز لفظ وأبلغ عبارة، والله أعلم.

فإن قلت: فإن التعبير «بعند» قد ورد في ذكر ما ورد من الضرب العام من الغيب قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾[6]،

---

(1) سورة لقمان: آية 34.
(2) في ن 3: العبادة، والصواب: العباد.
(3) سورة ص: آية 18.
(4) سقط من ن 1، ن 2، وفي ن 4: آي.
(5) سورة الملك: آية 19.
(6) سورة الأنعام: آية 59.

وهي استعارة عبر بها عن التوصل للغيوب كما يتوصل في الشاهد بالمفاتح إلى المغيب عن الإنسان مما لا يصل إليه من ليست عنده مفاتحه، وقد دخل ذلك تحت حكم «عند» ومقتضاها من الاختصاص، مع أن الآية لم يرد فيها خصوص على علم الساعة على ما تقدم.
فالجواب أن هذا مما يزيد ما تقدم وضوحاً إذ قد تبين قبل أن المراد من ذكر الغيب في كتاب الله ضربان: أحدهما خاص وهو المراد في سورة الجن وإنه لا مطمع لأحد من الخلق في الوصول إلى شيء منه على ما مر في ذكر الآية، والثاني عام على ما تقدم والوصول إلى علمه علم استيفاء وحصر بجزئياته مقدّراً وغاية وتيقناً لذلك كله جملة وتفصيلاً ممنوع، فهو لاحق من هذه الجهة بخصوص الضرب الأول، فلا يحيط بعلمه على ما تبين الا الله تعالى، فحق لهذا الضرب إذا أريد به ما ذكرنا من الدخول تحت حكم «عند» وهو المراد بهذه الآية، ألا ترى أنها مفصحة بذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[1]، فقد وفت هذه الآية بتفاصيل المغيبات وحصرها والإحاطة بها بكل جهاتها ولا يعلمها على ذلك إلا الله سبحانه.

ولنتبع هذا بكلام من تعرض لبسط المراد من آية الجن فأقول: وقع في التفسير المنسوب لفخر الدين أبي الفضل بن الخطيب، رحمه الله، بعد تقرير[2] مفهوم آية سورة الجن وان المراد بها ما تقدم من التخصيص، فقال في رده على الزمخشري ومن قال بقوله في إنكار

(1) سورة الأنعام: آية 59.
(2) في ن 3: تقدير.

كرامات الأولياء واستجراره مع ذلك انكار التكهن والتنجيم وما يرجع إلى هذا، ودعواه أن هذا نص القرآن تعلقاً بهذه الآية[1]، فقال أبو الفضل رداً على من ذكرت: وآعلم أنه لا بد من القطع بأن ليس مراد الله من هذه الآية أنه لا يطلع أحداً على شيء من المغيبات إلا الرسل، بدليل ما ثبت من الأخبار القريبة من التواتر أن شقا وسطحياً[2] كانا كاهنين، واخبارهما بظهور نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، (وتعيين زمانه، وشهرتهما بهذا العلم حتى رجع إليهما كسرى في تعرف أخبار نبينا صلى الله عليه وسلم)[3]، فثبت أنه تعالى قد يطلع على ما يشاء من الغيب غير الرسل. ودليل ثان وهو أن جميع أرباب الملل والأديان مطبقون على صحة التعبير، وأن المعبر يخبر عن وقوع الأشياء الآتية في المستقبل فتقع كما أخبر. ودليل ثالث وهو أن الكاهنة البغدادية التي نقلها السلطان سنجر بن ملكشاه[4] من بغداد إلى خراسان سألها عن الأحوال الآتية في

---

(1) الكشاف 632/4.

(2) شق الكاهن (ت 55ق.هـ/ 573م): هو شق بن صعب القشري البجلي الانماري الأزدي جاهلي من عجائب المخلوقات من معاصري سطيح الكاهن يستدعيان أحياناً للاستشارة أو تفسير الأحلام، كان من المعمرين فيذكرون أنه كان نصف إنسان، له يد واحدة ورجل واحدة.

(الأعلام 243/3؛ الأغاني 304/4 . . .)

سطيح الكاهن: (ت نحو 52ق. هـ/ 572م): هو ربيع بن ربيعة من بني مازن من الأزد كاهن جاهلي من المعمرين، كان العرب يحتكمون إليه ويضربون المثل بجودة رأيه. قال الفيروز أبادي: ما كان فيه عظم سوى رأسه، ويقال كان يطوى كما تطوى الحصيرة ويتكلم بكل أعجوبة.

(الأعلام 38/3؛ الجمهرة 254؛ الأغاني 305/4.)

(3) سقط من ن 3.

(4) سنجر بن ملك شاه أبو الحارث سلطان خراسان وما وراء النهر، لقب بالسلطان الأعظم، توفي سنة 552هـ. له ترجمة مطولة بوفيات الأعيان 427/2.

المستقبل، وذكر ما وقع على وفق إخبارها. قال أبو الفضل بن الخطيب: وإنا قد رأينا أناساً من المحققين في علوم الكلام والحكمة حكوا[1] عنها أنها أخبرت عن الأشياء الغائبة إخباراً على سبيل التفصيل وجاءت تلك الوقائع على وفق خبرها. قال وبالغ أبو البركات[2] في كتاب المعتبر[3] في شرح حالها وقال: تفحصت عن حالها مدة من ثلاثين سنة حتى تيقنت أنها كانت تخبر عن المغيبات إخباراً مطابقاً. ودليل رابع: أنا شاهدنا أصحاب الإلهامات الصادقة، وليس هذا مختصاً بالأولياء بل قد يوجد في السحرة من يكون كذلك، ونرى الأخبار النجومية قد تكون مطابقة موافقة للأمور وإن كانوا قد يكذبون في كثير منها، وإذا كان ذلك مشاهداً محسوساً فالقول بأن القرآن مما يدل على خلافه مما يجر إلى الطعن في القرآن وذلك باطل، فعلمنا أن الأولى الصحيح ما ذكرناه، والله أعلم[4].

ونشير إلى ما قدم قبل كلامه هذا وهو أن قوله تعالى: ﴿عَلَى غَيْبِهِ﴾ ليس فيه عموم، فيكفي في مقتضاه ألا يطلع سبحانه ولا يظهر خلقه على غيب واحد[5] من غيوبه، فيحمل على وقت وقوع القيامة، فيكون المراد من الآية أنه تعالى لا يظهر هذا الغيب لأحد، فلا يبقى في الآية دلالة على أنه لا يظهر شيئاً من الغيوب لأحد. ويؤكد هذا التأويل انه تعالى

---

(1) في ن 3: ذكروا.

(2) أبو البركات (454هـ/ 1062م ــ 547هـ/ 1152م): هو أبو البركات بن ملكان طبيب فيلسوف له تصانيف كثيرة منها كتاب المعتبر، وكتاب النفس، معجم المؤلفين 42/3.

(3) كتاب المعتبر: ذكر صاحب كشف الظنون أنه في المنطق، كشف الظنون 1731/2.

(4) أنظر: التفسير الكبير، للرازي 168/30-169.

(5) في ن 3: أحد، وهذا خطأ واضح.

إنما ذكر هذه الآية عقب قوله: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَداً﴾ [1] يعني وقوع القيامة، فإنه من الغيب الذي لا يظهره الله لأحد بالجملة، فقوله: «عَلَى غَيْبِهِ» لفظ مفرد مضاف فيكفي في العمل به إرادة غيب واحد، وأما العموم فليس في الآية لفظ يدل عليه. انتهى معنى كلام أبي الفضل، رحمه الله[2]. وقد تحصل مضمنة فيما تقدم بأوفى مما أوردنا[3] من كلامه.

فان قلت: قد تبين ما بين الضربين من العموم والخصوص، واتضحت الحال فيهما، فما وجه انتظام ما ورد في آية لقمان مع ذكر الساعة، وظاهر ما تقدم من التأويل حاكم بالفرق، وإن أمر الساعة يخالف بخصوصه ما ذكر معها من الأربع، والحديث الصحيح[4] قد ورد على مقتضى ظاهر الآية حين ذكر، عليه السلام، مجيباً للسائل فأتبع بقوله: في خمس لا يعلمهن الا الله، وذلك ملحق لهذه الأربع، بحكم الساعة في خصوص غيبها؟

فأقول، وأسأل الله توفيقه: إن الحديث الصحيح مشير إلى هذه الغيوب، وإنها في استعلامها والإطلاع على ما شاء تعالى أن يطلع عليه منها ليست على منهج واحد، ألا ترى أن منها أموراً يعظم موقعها في العالم ويعم ويخص[5] كتقلب الدهور والدول وتغير الحالات التي تعم وما يرجع إلى هذا، وهذه هي المرادة بحديث ابن عباس الذي أخرجه

(1) سورة الجن: آية 25.
(2) أنظر: التفسير الكبير 163/30، وما بعدها.
(3) في ن 3: أردنا، والصواب: أوردنا.
(4) البخاري: توحيد 3.
(5) في ن 1، ن 2، ن 4: ولا يخص.

الترمذي، قال: «بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في نفر من أصحابه إذ رمي بنجم فاستنار، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كنتم تقولون لمثل هذا في الجاهلية إذا رأيتموه؟ قالوا: كنا نقول: يموت عظيم أو يولد عظيم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لا يرمى به لموت واحد ولا لحياته ولكنَّ ربنا تبارك اسمه وتعالى إذا قضى أمراً سبح حملة العرش وسبح أهل السماء الذين يلونهم ثم الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح إلى هذه السماء، ثم يسأل أهل السماء السادسة أهل السماء السابعة ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم، ثم يستخبر أهل كل سماء حتى يبلغ الخبر أهل السماء الدنيا وتختطف الشياطين السمع فيرمون ـ يعني بالشهب ـ فيقذفونه إلى أوليائهم فما جاؤوا به على وجه فهو حق، ولكنهم يحرفونه ويزيدون»[1]. وفي حديث أبي هريرة الـذي خرجه البخاري[2]، وهو أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت (الملائكة)[3] بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا؟ قال ربكم، قالوا: لَلّذي قال الحق وهو العلي الكبير، فيسمعهما مسترق السمع ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض، وصفه سفيان[4] بكفه فحرقها وبدد بين أصابعه، فيسمع الكلمة ويلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب

(1) مسلم: إسلام 124؛ ترمذي: تفسير سورة 3/34.
(2) البخاري: توحيد 32.
(3) سقط من ن 3.
(4) في ن 3: صفوان.

معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء»[1].

قلت: وهذان الحديثان وما ورد من مثلهما معرفة بقضايا ترتج لها السماوات وتستطلعها الملائكة السبع بجملتها وتختطفها الشياطين مترصدين لتلقفها، ولا يختص بها صنف من الملائكة عن غيرهم، إما ما يتكرر في عالم الغيب من الكون والفساد، من متوالي إيجاد الآحاد، وتكرر نزول الأمطار. وشبه ذلك، فلا يستطلعها من الملائكة إلا آحاد وكّلوا بها، وإن تكاثروا عدداً فليس ذلك كالمتقدم في الحديثين لعظيم عمومه، من ذلك حديث ابن مسعود: «يجمع خلق أحدكم في بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون علقة ثم يكون مضغة[2]، إلى قوله في الحديث: أذكر أم أنثى أشقي أم سعيد... الحديث[3]، وكما أشار إليه حديث «   »[4] وقوله فيه: اسق حديقة فلان[5]، إلى ما يرجع إلى هذا القبيل، ولا توقف في أن أربعة الغيوب المذكورة مع الساعة في سورة لقمان راجعة إلى قبيل ما ذكرنا، وذلك كله ليس من تلك المقدورات العامة، بل هي بالنسبة إلى تلك جزئيات يعلمها من وكل بها من الملائكة، ولا يستخبرها أهل السماوات، ولا تترصدها الشياطين ترصد تلك القضايا العامة، وصحيح الحديث قاض بالفرق البين.

---

(1) البخاري: توحيد 32.

(2) في ن 3: نطفة، وهذا خطأ اعتماداً على أصل الحديث.

(3) البخاري: توحيد 28؛ مسلم: قدر 16.

(4) بياض في كل النسخ، وربما كان المحذوف «فضل الصدقة والإحسان».

(5) مسلم: زهد 45.

فأشارت الآيات الأربع والأحاديث المشار إليها إلى أن هذا الضرب من المغيبات كأنها تلي في حالها الغيبي ما ذكر معها من أمر الساعة، وللساعة خصوص ما تقتضيه «عند» كما تقدم، فهذا ــ والله أعلم ــ وجه انتظام هذه الغيوب الأربعة مع ذكر الساعة، وتحصل بهذا الاعتبار تفصيل الغيوب إلى عام وخاص وخاص من ذلك الخاص، وهذا الخاص الأخير لا يعلمه مطلقاً إلا المنفرد بعلمه سبحانه، ثم لا يحيط بالضربين قبله على ما أشير إليه من تفصيل أحكامها على الاستيفاء والاحاطة والحصر إلا هو سبحانه، وأنه تعالى المنفرد بكل الغيوب، ولا يعلمها أحد على ما هي عنده كما وضح قبل وتبين، ولم يبق للطاعنين مدخل بوجه ولا على حال.

وأما تخصيص آية سورة الجن بما ورد فيها فوجه ذلك ــ والله أعلم ــ إما لما تقدم من قول الجن في إخبار الله تعالى عنهم: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ ٱلآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً﴾ [1]، فلما تقدم هذا من قولهم وإخبارهم عما كانت الحال عليه قبل بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن في ذلك من قولهم وآطلاعهم على الغيوب أو الكثير منها، أعلم تعالى أن من الغيب ما ليس لهم ولا لغيرهم مطمع في الاطلاع عليه، وأنهم في ترصدهم ومقاعدهم للسمع ممنوعون هم ومن سواهم عما انفرد بعلمه سبحانه وحكم أن لا يطلع عليه أحد من خلقه، فهذا وجه ورود هذه الآية هنا. وهنا انتهى ما ألهم الله تعالى إليه في هذه الآية مما تعرض إليه الإمام أبو الفضل رحمه الله وبسطناه بما يدفع

---

(1) سورة الجن: آية 8-9.

ما يوهمه موجز كلامه في التمثيل للغيب المخصوص، فبسطته بما أرجو أنه مراده ودافع لما يعترض[1] عليه فيه حين أجمل في إغفاله توجيه تخصيص الغيوب الأربعة بذكرها مع غيب الساعة في سورة لقمان ووجه آختصاص سورة الجن بالوارد فيها. وأتيت في ذلك بما ألهم الله سبحانه إليه، وأرجو أنه شاف إن شاء الله، وإن تَحَمَّل غفلة أو سهواً فأسأل الله عفوه في ذلك، وعذري أنّي لم أجد في ذلك من تعرض لشيء من هذا إلا ما قدمت ذكره مع إشكال الأمر في ذلك)[2]، والله سبحانه أعلم بما أراد.

* * *

(1) في ن 3: يتعرض ولا يستقيم به المعنى.
(2) بهامش ن 2.

سورة المزمل والمدثر

غ ـ قوله تعالى في أولاهما: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ [1] إلى ما بعده، وقال في أول سورة المدثر تلوها: ﴿يَا أَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ [2] إلى ما بعده، للسائل أن يسأل عما ورد في هاتين السورتين من تسميته صلى الله عليه وسلم في الأولى بالمزمل وفي الثانية بالمدثر؟ وأمره في الأولى بقيام الليل وما أعقب به ذلك وفي الثانية بإنذار الخلق ودعائهم إلى الله، ما وجه هذا التخصيص في السورتين بما ذكرنا من التسمية والأمر؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن الله سبحانه أمرنا في كتابه العزيز بتعزيز نبينا صلى الله عليه وسلم وتوقيره، ونهانا أن نجري في خطابه على حد تخاطبنا فقال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً﴾ [3]، وجرى المسلمون بتوفيق الله على ذلك في دعائهم إياه: يا رسول الله، يا نبي الله، غير رافعي أصواتهم في ندائه ودعائه على مقتضى أمره سبحانه بذلك. ثم إن العرب قد علم من حالهم في ذلك أن السيد إذا خاطب عبده متلطفاً به ومشيراً إلى مكانته لديه

---

(1) سورة المزمل: آية 1-2.
(2) سورة المدثر: آية 1-2.
(3) سورة النور: آية 63.

أو قصد تأنيسه خاطبه باسم يشتقه من حال أو صفة يكون العبد عليها، ويعدل عن معروف آسميته ليريه مكانته ويظهر كريم تحفّيه به وعظيم تلطفه كقول نبينا صلى الله عليه وسلم لعليّ رضي الله عنه في قضيته المعلومة، وقد وجده نائماً، وقد أثر التراب في جنبه: قم أبا تراب[1]، فعلى ذلك جرى الوارد في نداء نبينا صلى الله عليه وسلم في هاتين السورتين بالمزمل والمدثر. وخصت هاتان السورتان بهما لبنائهما على ما ابتدىء به صلى الله عليه وسلم.

فأما تعقيب كل من الاسمين في السورتين بما أعقب به فعلى مقتضى كل واحدة من السورتين وما بنينا عليه، أما الأولى فمبناها على أوامر من جليل أعمال الطاعات مما يزلف عند الله سبحانه، من قيام الليل، وترتيل القرآن، والتجلد والتحمل لتلقي أوامر الكتاب ونواهيه المفهوم في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾[2]، والأمر بذكر اسمه تعالى تضرعاً وسؤالاً، وآلتبتل إليه سبحانه، واعتماده تعالى وكيلاً، والصبر على قول الضالين من الكفار، والأمر بجميل هجرهم، فهذه أمور ثمانية بين صريح ومكنى. وأما سورة المدثر فمتضمنها من الأوامر دون ما في السورة قبلها عدداً، وليس أكثرها من نمط تلك الأوامر، وهي مع ذلك أوامر أولية في الأكثر، فنوسب بين تلك الأوامر العلية[3] من سورة المزمل وبين ما تقدمها في الترتيب الثابت من قوله تعالى في سورة الجن: ﴿عَالِمُ ٱلْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إِلاَّ مَنِ ٱرْتَضَى مِنْ

(1) البخاري: أدب 113.
(2) سورة المزمل: آية 5.
(3) في ن 3: القليلة، وهذا خطأ واضح.

رَسُولٍ﴾[1] ليعلم نبينا صلى الله عليه وسلم أنه أمام المرتضين من أولئك المصطفين بما خص صلى الله عليه وسلم من الأمر بقيام الليل والترتيل وجليل التلقي والامتثال لما ألقي عليه اعتناء وتخصيصاً محفوظاً فيه مشيراً عليه من القول الثقيل، كما نوسب بين أمره، عليه السلام، بالدعاء وآلإنذار والتأنيس فيمن أفرط تمرداً وعناداً من عتاة الكفار حين قيل لنبينا صلى الله عليه وسلم تهديداً لعدوه وإعلاماً بما يعقبه كفره: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً﴾[2] إلى قوله: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً﴾[3]، وقوله: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾[4]، فحصل من مجموع متقدم الإنذار والإعلام بعاقبة المعاندين من الكفار ما تحصل من قوله تعالى في سورة الغاشية تعريفاً لنبينا صلى الله عليه وسلم: ﴿فَذَكِّرْ فَإِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ﴾[5]، وانتظم أول (هذا)[6] الكلام العليّ وآخره أجل انتظام، وورد كل على ما يجب، ولا يلائم غيره، والله سبحانه أعلم بما أراد.

الآية الثانية من سورة المدثر ــ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾[7])[8]، للسائل أن يسأل عن تكرر قوله: «قدر» ثلاث مرات في كلام متصل متقارب؟

---

(1) سورة الجن: آية 27.
(2) سورة المدثر: آية 11.
(3) سورة المدثر: آية 17.
(4) سورة المدثر: آية 26.
(5) سورة الغاشية: آية 21-22.
(6) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(7) سورة المدثر: آية 18-20.
(8) سقط من ن 3.

والجواب، والله أعلم: أن قوله: ﴿إنه فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ إخبار عن حال الوليد[1] المنزل فيه هذا حين قال لقريش: إن الناس يريدون الموسم فليكن قولكم في محمد واحداً، وفكر في أقرب ما يمكن أن تستمال به العرب وتصدق قريشاً، ورأى الوليد أنهم مكذبون بأول نظر إن قالوا إنه شاعر مجنون أو كاهن أو ساحر، ووافقته قريش لوضوح ذلك من أمره، عليه السلام، مع تصميمهم على عناده، وبهذا أنسه تعالى في قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ ٱلظَّالِمِينَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[2]. وروي أن الوليد قال لبني مخزوم: والله لقد سمعت من محمد كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يعلى. ولما كلم قريشاً في شأنه صلى الله عليه وسلم قال لهم: «تزعمون أن محمداً لمجنون فهل رأيتموه يخرق، وتقولون إنه كاهن فهل رأيتموه قط يتكهن، وتزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قط، وتزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب، فقالوا في كل ذلك: اللّهم لا. وعلى هذا من كلام الوليد ورد الوارد بما جاء بطريقة ما تعجب العرب من مثله من قوله: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾[3]، كما تقول (العرب)[4] قاتله

---

(1) الوليد بن المغيرة: (95ق. هـ/ 530م ــ 1هـ/ 622م) أبو عبد شمس من زعماء قريش وقضاتها في الجاهلية من الأثرياء، أدرك الإسلام وهو هرم فعاداه وقاوم دعوته، هلك بعد الهجرة بثلاثة أشهر وهو والد سيف الله خالد بن الوليد.

(الأعلام 144/9؛ الكامل، لابن الأثير 26/2؛ اليعقوبي 215/1).

(2) سورة الأنعام: آية 33.

(3) سورة المدثر: آية 18-19.

(4) سقط من ن 3.

(الله)[1] ما أشعره، لا يريدون دعاء على من يقولون له ذلك وإنما يقولون متعجبين، وإنما نزل القرآن بلسانهم، فقوله: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ مناط بمن يصح منه التعجب، والله سبحانه متعال عن ذلك، وكأن قد قيل لهم: هذا مما تتعجبون منه وتقولون هذا الكلام، فقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ إخبار عن حال الوليد وتفكره فيما يقول وتقديره ما يرد عليه إذ قال بأنه عليه السلام شاعر أو مجنون أو غير ذلك مما رموه به، وأنهم مكذبون في كل ما يرومون[2] رميه به من ذلك لبيان حاله عليه السلام، وقوله: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ تعجب من إصابته في نفي الجنون والتكهن والشعر عنه صلى الله عليه وسلم في قوله: لقد سمعت من محمد كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، فصدق تقديره في هذا لو أتم الله له الأمر. فالأول إخبار أعني قوله: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾، والثاني تعجب عن إصابة تقديره بعد الفكر[3] وهو قوله: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾، والثالث وهو قوله: ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ تأكيد للتعجب من حاله في تحويمه لولا سابقة: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً﴾[4]، والسابقة هي التي حملته على أدباره واستكباره فقال: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾[5]، فنكص على عقيبه لما سبق له بعد مقاربته وتحويمه[6]، (وبإزاء)[7] ما تقدم من مقاربته وتحويمه في تنزيهه النبي صلى الله عليه وسلم عما رموه به ورد

(1) سقط من ن 3.
(2) في ن 3: يرمون، والصواب: يرومون.
(3) في ن 1، ن 2: هذا الفكر.
(4) من هنا يبدأ نقص في ن 1 ويتواصل حتى الآية الأولى من سورة القيامة.
(5) سورة المدثر: آية 24.
(6) في ن 3: بخريمة، وهذا غريب.
(7) سقط من ن 3.

التعجب، وفي طي الكلام شديد توعده على كفره بعد أن تبين له الأمر فضل على علم، ومثل هذا التكرار استعظاماً للـواقـع موجود في فصيح كلامهم، ومنه قول الشاعر[1] :

ألا يا اسلمي ثم اسلمي ثمت اسلمي

وجاء بثم لتحرز نية اعتناء بهذا المعطوف بها وأنه أكد من الأول، فوضح وجه ورود ما يتوهم تكراراً واستدعاء مقصود الكلام إياه، والله سبحانه أعلم.

الآية الثالثة من سورة المدثر قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ ٱللَّهُ﴾[2]، وقال في سورة الإنسان: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ٱتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾[3]. للسائل أن يسأل عما بين الآيتين من الاختلاف؟ وورود الضمير في قوله: «إِنَّه» في الأولى مذكراً وتأنيثه في الثانية؟

والجواب، أن هذا مما لا إشكال فيه لأن المذكر به عظة أو موعظة وهو أيضاً وعظ وتنبيه. فتارة تراعي العرب في مثل هذا جهة التذكير وتارة تراعي جهة التأنيث، فتحمل الضمير على ما تقدره من تأنيث وتذكير،

---

(1) البيت للعجاج في الرجز. أنظر ديوان العجاج 289، ط. مكتبة دار الشرق، بيروت 1971، وروي على النحو التالي:

يا دار سلمى يا اسلمي ثم اسلمي   بسمسم أو عن يمين سمسم

(2) سورة المدثر: آية 53-56.

(3) سورة الإنسان: آية 29-30، بهامش ن 2 وزيد في حاشية ن 2، وفي عبس أيضاً «كلا إنه تذكرة فمن شاء ذكره».

وهذا كثير ومنه قول بعض العرب: فلان جاءته كتابي (فمزقها)[1] فيسأل عن التأنيث في قوله: جاءته وفي قوله فمزقها فيقال: أليست بصحيفة، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ[2] مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَٱنْتَهَى﴾[3].

وأما فواصل الآيتين ومقاطعهما فمراعى فيها موافقة ما اتصل بها للتناسب مع اتحاد المعنى، ألا ترى صحة بناء ما في آية الإنسان على ما في آية المدثر لو قيل في الكلام: إنه تذكرة فمن شاء ذكره فاتخذ إلى ربه سبيلاً بتذكير ما ذكر به، ثم اقتضت الفواصل المناسبة. ولما اكتنفت آية المدثر فواصل تكون في الوقف هاء من لدن قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ [4] إلى قوله: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَى وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾[5] ناسبها قوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾. وأما آية سورة الإنسان فما قبلها وما بعدها من الفواصل مستدع أيضاً ورود الهاء على ما وردت فقيل: ﴿فَمَنْ شَاءَ ٱتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ ليجري على ما تقدم في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ تَنْزِيلاً﴾[6] وما بعد، ولم يكن ليناسب هنا ما ورد في سورة المدثر من قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾، كما لا يناسب قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ ٱتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ ما ورد في سورة المدثر، فكل هذا لا إشكال فيه لرعي المناسبة وحصولها في كل من السورتين على أتم وجه، والله أعلم.

* * *

(1) بهامش ن 2.
(2) في ن 3: جاءته، وهذا خطأ.
(3) سورة البقرة: آية 275.
(4) سورة المدثر: آية 50-51.
(5) سورة المدثر: آية 56.
(6) سورة الإنسان: آية 23.

سورة القيامة

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾[1]، يسأل عن إعادة القمر في الفاصلتين؟

والجواب عنه أن ذلك لبيان أهوال القيامة وتعظيمها، والعرب تستعمل هذا فيما تقصد به التهويل والتعظيم، ومنه:

لا أرى الموت يسبق الموت شيء نغص الموت ذا الغنى والفقيرا[2]

فكررت الموت ثلاث مرات تعظيماً لأمره، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾.[3] وقد اجتمع في آية القيامة قصد التعظيم ورعي الأسجاع فتأكد الحامل على التكرير. وإذا تكرر أحد النيرين المراد اجتماعهما أغنى عن تكرر الآخر، وطلبت الفواصل منها ما يناسب فجاء على أتم وجه في البلاغة، والله أعلم.

الآية الثانية قوله تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾[4] يسأل عن إعادة اللفظ وفائدة ذلك؟ ويستجر من ذلك استدعاء اشتقاق اللفظ ومعناه.

---

(1) سورة القيامة: آية 7-9.

(2) البيت لسوادة بن عدي، في البحر الخفيف.
(أنظر: الكتاب 42/1).

(3) سورة صَ: آية 67-68.

(4) سورة القيامة: آية 34-35.

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أنه لما تقدم وصف المجرم المكذب بقوله: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾[1] ـ أي يختال في مشيته ويتبختر عضدا لتكذيبه وإغناء بكفره ـ كان مظنه للتعريف بسوء عاقبته واستحقاقه العـذاب فقيل: ﴿أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾، فعدل بالكلام عن إخبار الغيبة إلى الخطاب تحكيماً لاستحقاقه نيل الجزاء على فعله، وهو كلام يقال لمستوجب الامتحان، جار مجرى الدعاء.

وقد جعله بعضهم مقلوباً من قولك: ويل، فهو على هذا من الدعاء بالويل، وكأن قد قيل للمخاطب به أعظم الويل وأشده له، ويستجر التعجب الجاري من الدعاء، وكأن قد قيل في هذه الآية: الويل له ثم أشد الويل له، فأكد بتكرير اللفظ إشعاراً بالأهلية والاستحقاق كما قالوا: ويلاً له ويلاً ويلاً. وعطف بثم المقتضية رتبة في المعطوف بها وضرب تهمم واعتناء ليكون الدعاء ثانياً للمولي به تأكيداً أبلغ من الأول، وذلك من معنى «ثم» وهو هنا قائم مقام مهلة الزمان ليبلغ عندها (معه)[2] الغاية[3] فيما قصد منه.

ويبين المعنى المفهوم هنا من لفظة: «أولى» قوله تعالى في سورة القتال: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ

(1) سورة القيامة: آية 31-33.

(2) سقط من ن 1، ن 4.

(3) بهامش ن 1.

عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾[1]، فلما ذكر سبحانه من حال المنافقين عند نزول سورة محكمة واضحة المقاصد ما ذكر مما يشهد بقبح ضمائرهم وسوء سرائرهم اتبعه بالدعاء عليهم فقال: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾[2]، كأن قد قال: فأشد الويل لهم. قال (سبحانه)[3] لنبيه عليه السلام: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾[4]، (قدره سيبويه، رحمه الله: طاعة وقول معروف)[5] أمثل[6]، ونظير هذا الوارد في سورة القتال، وبيان مناسبة التحامه قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيراً إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾[7] إلى قوله ﴿وَٱدْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً﴾[8]، ثم قال: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[9]، فقوله: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾... الآية إلى آخرها مع ما قبله نظير قوله في القتال: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ مع ما قبله.

* * *

---

(1) سورة القتال ـ محمد: آية 20.

(2) سورة القتال: آية 20.

(3) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.

(4) سورة محمد: آية 21.

(5) سقط من ن 3.

(6) الكتاب 89/1.

(7) سورة الفرقان: آية 11-12.

(8) سورة الفرقان: آية 14.

(9) سورة الفرقان: آية 15.

سورة الإنسان

قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيراً قَوَارِيراً[1] مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾[2]، ثم قال بعد: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً﴾[3]، للسائل أن يسأل عن بناء الفعل في الآية الأولى للمجهول ولم يسم الفاعل وبنائه في الثانية للفاعل؟ ولم يذكر مستدعاه المجرور فلم يقل بكذا، ما الفائدة في ذلك؟ وهل الفاعل في الآية الثانية هو الذي لم يسم أولاً في قوله: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ﴾؟

والجواب عن ذلك أن بناء الآيتين في هذه السورة على تعظيم حال أهل الجنة وما أعد الله لهم، فذكر فيها ما يطاف (به)[4] عليهم من أواني الفضة والأكواب بالطعام والشراب، وما يمزج به شرابهم من الزنجبيل

---

(1) في ن 2: قوارير، قوارير بالمنع من الصرف، قرأ نافع والكسائي وأبو بكر «قواريراً قواريراً» في الآيتين 15 و16 من سورة الإنسان بتنوينهما ووقفوا عليهما بالألف، وابن كثير في الأول بالتنوين ووقف عليه بالألف والثاني بغير تنوين ووقف عليه بغير الألف، والباقون بغير تنوين فيهما، ووقف حمزة عليهما بغير الألف، ووقف هشام بالألف صلة للفتحة، ووقف الباقون على الأول بالألف وعلى الثاني بغير الألف.

(2) سورة الإنسان: آية 16.

(3) سورة الإنسان: آية 19.

(4) سقط من ن 3.

والعين التي تسمى سلسبيلاً، ثم ذكر الطائفون عليهم بذلك، ووصفوا بكونهم ولدانا لا أثر عليهم للعياء ولا يلحقهم في طوافهم مشقة وانهم كالؤلؤ المنثور حسناً وتناسباً، فلما ذكرت أحوالهم على التفصيل، وقصد الاستيفاء لما منحوه، ناسب ذلك إيراد تنعمهم مفصلاً بذكر المطاف به مستوفى، ثم ذكر الطائفون وقدم المطاف به لأنه الذي به تنعمهم تناولاً واتصالاً وتطعماً وغذاء مأكلاً ومشرباً، فكان أهم للتقديم، ثم أعقب بذكر الطائفين وهم الولدان المخلدون، فكمل مفصلاً تفصيلاً يحرز الاعتناء في التعريف والثناء، وقد جمعت هذا المفصل آية واحدة وهي المفسرة لما ذكرته من (أن)[1] الطائفين بأواني الفضة والأكواب هم الولدان المذكورون بعد وذلك قوله تعالى في سورة الواقعة: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾[2]... الآية، وضح الجواب عن الأسئلة الثلاثة على أبين وجه، والله أعلم.

* * *

(1) سقط من ن 3.
(2) سورة الواقعة: آية 17-18.

سورة المرسلات

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ للسائل أن يسأل عن تكريرها عشر مرات؟ وعن الترتيب فيما تخلل متكرر هذه الآية من الآيات وإبداء الفائدة في كل آية واختصاصها بموضعها؟ وعن الفرق الوارد من هذه الآية هنا وفي سورة التطفيف من حيث تكررت هنا ولم تتكرر في سورة التطفيف؟ فهذه ثلاثة سؤالات في ثانيها تفصيل[1].

والجواب عن الأول: أن سورة الإنسان لما تضمنت التعريف بحال الفريقين ذوي السعادة وأهل الشقاء، وابتدئت بذكر حال المكذبين فقال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا[2] وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾[3]، ثم أردف هذا بالتعريف بحال ذوي التنعم وجرى في وصفهم إطناب، ثم عاد الكلام إلى حال من تقدم (فقال: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾[4]، فلما قدم)[5] هذا من وعد الكافرين أقسم تعالى على

---

(1) في ن 2: تعليق بالهامش وردت أيضاً في سورة والطور.

(2) في ن 3، ن 4: سلاسلاً. قرأ نافع والكسائي وأبو بكر وهشام سلاسلاً بالتنوين ووقفوا بالألف عوضاً منه، والباقون بغير تنوين.

(3) سورة الإنسان: آية 4.

(4) سورة الإنسان: آية 27.

(5) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.

وقوعه ابلاغاً في الإنذار فقال تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَاتِ عُرْفاً﴾ [1] إلى قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ [2]، ثم عرف سبحانه بصفة يوم الوقوع، وكأنه على تقدير سؤال كأن قد قيل: ومتى ذلك؟ فقال: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ وَإِذَا ٱلسَّمَاءُ فُرِجَتْ﴾[3] إلى قوله﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾[4]، ثم أكد هول ذلك اليوم بسؤاله صلى الله عليه وسلم عن تعرفه فقال[5]: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾[6] تعظيماً لأمره وإنباء بأهواله وشدائده، ثم قال: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾[7]، ثم تكرر هذا الدعاء بالويل الحال بهم سبع مرات[8] ــ رعياً لما تقدم في سورة الرحمان ــ آخرها: ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾[9]، ثم رجع الكلام إلى التعريف بحال الناجين في آيات ثلاث لم يتخللها الدعاء بالويل لئلا يشوب بشارتهم تنقيص فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ الآيات إلى قوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[10]، ثم عادت الآي إلى ما بنيت عليه السورة من وعيد المكذبين وتخويفهم إلى آخر السورة، وتكرر فيها ذلك الدعاء بالويل للمكذبين ثلاث مرات، طوبق بها عدد

---

(1) سورة المرسلات: آية 1.
(2) سورة المرسلات: آية 7.
(3) سورة المرسلات: آية 8.
(4) سورة المرسلات: آية 13.
(5) في ن 3: فقبل.
(6) سورة المرسلات: آية 14.
(7) سورة المرسلات: آية 15.
(8) في ن 1، ن 3، ن 4: سبع مرار، وهو فصيح أيضاً.
(9) سورة المرسلات: آية 39-40.
(10) سورة المرسلات: آية 41-44.

آيات وصف المتقين ليكون زيادة في تنكيل المكذبين وتحسرهم بسماع حال من حاله على الضد منهم، فتلك العشرة التي تضمنتها السورة.

فإن قلت: لم فصل بين ما جرى من الآي المتقدمة[1] وبين هاتين الآيتين من قوله: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ﴾ [2] مع أن جميعها راجع إلى مقصد واحد من تقريع المكذبين ووصف أحوالهم، فلم فصل بين ذلك بذكر المتقين وأحوالهم؟ قلت: بدأ أولاً بتوبيخهم في عدم اعتبارهم بما ذكروا به من إهلاك من تقدمهم ممن كذب، وبدأة خلقهم من ماء مهين، وجعل الأرض تكفت إحياءهم وموتاهم، ثم عرفوا بجزائهم الأخراوي وما يشاهدون ويقال لهم عند مصيرهم إلى العذاب ووصف جهنم، ثم أعقب بذكر الضد من حال المتقين ليكون زائداً ومحركاً لندم المكذبين حين لا ينفع الندم، وتم هذا المقصد على أتم مناسبة، ثم رجع إلى الضرب الآخر المتقدم من التوبيخ بذكر حالهم الدنياوي في تنعمهم (وتمتعهم)[3]، وأورد ذلك بصيغة الأمر تهكماً بهم وقيل: «كُلُوا وَتَمَتَّعُوا» فسيعقبكم ذلك ما تقدم ذكره لكم، ثم نبه على إبايتهم عن الاستجابة للإيمان فقيل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾[4]، فلم يكن الوارد في هاتين الآيتين ليناسب ما تقدم من توبيخهم، ففصل عنه.

والجواب عن السؤال الثاني: أن وجه الترتيب فيما تخلل متكرر

---

(1) في ن 3: المتقدمات.
(2) سورة المرسلات: آية 46.
(3) سقط من ن 3.
(4) سورة المرسلات: آية 48.

آية الدعاء من الآيات انه لما ذكر سبحانه أهوال ذلك اليوم في قوله: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ الآية[1] أعقب تعالى بتوبيخ المكذبين على غفلتهم عن التذكر بأخذ من تقدم من مكذبي الأمم وإهلاكهم[2] بجزائهم[3] فقال تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[4] أي فهلا اتعظوا بهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾[5]، وقال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَاتُ﴾[6]، ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَٰئِكُمْ﴾[7]، ثم أردف سبحانه بقوله: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾[8]، فذكر بأصل الخلقة وتطور الإنسان وتقلبه إلى كمال أمره بتعرف الخطاب وكمال التعقل كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾[9]، ثم ذكر سبحانه خلق الأرض ومنافعها وما به أرساها من الجبال وفجر فيها من المياه لسقينا، فحصل التذكير بضروب ثلاثة وهي: إهلاك الأمم السالفة بتكذيبهم، وخلق الإنسان، وخلق الأرض وما جعل فيها، ثم أعقب بما يقال لهم في الآخرة وما يشاهدونه مما يحل بهم جزاء على تكذيبهم وتعاميهم عن الاعتبار فقال ﴿ٱنْطَلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾[10] إلى قوله ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ

---

(1) سورة المرسلات: آية 8.
(2) في ن 3: واكلاهم وهو خطأ بين لا يستقيم به المعنى.
(3) في ن 3: وبجزائهم، وهذا منافر للمعنى.
(4) سورة المرسلات: آية 16.
(5) سورة الأنعام: آية 6.
(6) سورة الرعد: آية 6.
(7) سورة القمر: آية 43.
(8) سورة المرسلات: آية 20.
(9) سورة يس: آية 77.
(10) سورة المرسلات: آية 29.

كَيْـدٌ فَكِيدُونِ﴾[1] ثم ذكر تعالى حال المتقين ومصيرهم في ثلاث آيات تأنيسا للمؤمنين، وعلى المطّرد في الكتاب العزيز من ذكر الإعقـاب، متى ذكر أحد الفريقين من أهل النجاة وأهل الامتحان أن يعقب بذكر الفريق الآخر ثم عاد الكلام إلى تهديد من قدم وأعقب بما يلائم من امتناعهم عن الاستجابة والخشوع.

والجواب عن السؤال الثالث: أن سورة التطفيف لم تبن على التفصيل المقصود هنا فلم تتكرر فيها آية الدعاء، والله أعلم.

* * *

---

(13) سورة المرسلات: آية39.

سورة التساؤل[1]

قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾، يسأل عن تكرر التهديد وفائدته؟

والجواب عن ذلك: قد تقدم أن العرب متى تهممت بشيء أرادته[2] لتحققه وقرب وقوعه أو قصدت الدعاء عليه كررته توكيداً، وكأنها تقيم تكرارها مكان القسم عليه والاجتهاد في الدعاء عليه حيث يقصد الدعاء، وإنما نزل القرآن بلسانهم وكأن مخاطباته جارية فيما بين بعضهم وبعض، وبهذا المسلك تستحكم الحجة عليهم في عجزهم عن المعارضة، وقد تقدم هذا وتقرر، وعلى ذلك يجري ما ورد في هذا الوعيد. ومنه قوله تعالى: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾[4] وقوله: ﴿أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾[5] ومنه: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾[6] وهو كثير.

---

(1) يعني بذلك سورة النبأ.
(2) في ن 1، ن 3، ن 4: إرادة.
(3) في ن 3: «مخاطباً به»، وهو لا يناسب السياق.
(4) سورة المدثر: آية 19-20.
(5) سورة القيامة: آية 34-35.
(6) سورة التكاثر: آية 6-7.

الآية الثانية ـ قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً جَزَاءً وِفَاقاً﴾[1]، (وقال في أهل الجنة: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازاً حَدَائِقَ وَأَعْنَاباً﴾[2] إلى قوله: ﴿جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً﴾[3]، للسائل أن يسأل عن موجب الفرق بين الفريقين حتى قيل في أهل النار: ﴿جَزَاءً وِفَاقاً﴾)[4] وفي أهل الجنة: ﴿جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَاباً﴾ مع أن كل ذلك جزاء؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن الله سبحانه أعلمنا أنه يجازي على الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، قال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[5]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[7]، وقال: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا ما تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾[8] وقال تعالى في الجزاء على السيئات: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها﴾[9]، وقال تعالى: ﴿إِنَّما تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ

---

(1) سورة النبأ: آية 24-26.
(2) سورة النبأ: آية 31-32.
(3) سورة النبأ: آية 36.
(4) ما بين القوسين ساقط من ن 1، ن 2، ن 4.
(5) سورة الأنعام: آية 160.
(6) سورة البقرة: آية 261.
(7) سورة السجدة: آية 17.
(8) سورة فصلت: آية 31.
(9) سورة الشورى: آية 40.

تَعْمَلُونَ﴾[1]، فحصل من هذا أن حكم السيئات المقابلة بأمثالها، وذلك فيمن نفذ عليه الوعيد ولم يغفر له، إذ المعتقد أنه تعالى يغفر ما دون الشرك لمن يشاء، وأنه لا يخلد في النار إلا الكافر، فإذا تقرر ما ذكرناه فاعلم أن تسمية ما يمنحه الله سبحانه أهل الجنة جزاء إنما ذلك فضل منه سبحانه، إذ الجزاء لهم على أعمالهم أكثر من أعمالهم بوعده سبحانه، فإذاً إنما حاصله عطاء وإحسان وإنعام، وإنما سمي جزاء من حيث قوبل به عمل وارتبط به بحسب الإنعام، إذ لا يجب عليه شيء، فهذا حال الجزاء والإحسان.

وأما الطرف الآخر فاسم الجزاء عليه أوقع وأطبق من حيث المقابلة، فلهذا قيل في هذا: ﴿جَزَاءً وِفَاقاً﴾ كما قال تعالى: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾[2] ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3]، وأما الجزاء الإحساني[4] فقد فاق الوفاق وعجز عنه التقدير، فلهذا أعقب قوله تعالى: ﴿جَزَاءً﴾ بما يشعر بجريانه[5] على حكم الإنعام والإحسان فقال تعالى: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾، وفي هذه الإضافة ما يشعر بعظيم الرحمة وزلفى القرب بقوله: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾، ثم قال: ﴿عَطَاءً﴾ فأعلم أنه لا يماثل ما ارتبط به من عمل العبد بل يفوق رجاء العبد وتقديره، ثم قال تعالى: ﴿حِسَاباً﴾ فأشار إلى التضعيف المتقدم، ولم يكن ليلائم جزاء السيئة أن يقال فيها: ﴿مِنْ

---

(1) سورة الطور: آية 16.
(2) سورة غافر: آية 17.
(3) سورة الطور: آية 16.
(4) في ن 3: الإحسان غير منسوب.
(5) في ن 3: بجزائهم، وهو غير مناسب للمعنى.

رَبِّكَ﴾، ولا لتسمى عطاء ولا حساباً لما بيناه، فورد كل على ما يناسب ولا يمكن فيه العكس، والله أعلم.

فإن قيل: قد ورد التصنيف في جزاء السيئات قال تعالى: ﴿(أولئِكَ)[1] لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾[2].

فالجواب أن التضعيف هنا ليس على الحد المتقدم في تضعيف جزاء الحسنة، فإن المراد هناك أن الحسنة الواحدة يتضاعف عليها الجزاء بعشر أمثالها إلى أكثر كما تقدم، وأما المراد بتضعيف العذاب بتكثيره بحسب تكثير المجترحات، لأن السيئة الواحدة لا يضاعف الجزاء عليها بدليل قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾[3]، وقد تمهد هذا، وتقدم قبل قوله في أهل الامتحان: ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ ما يشهد بما ذكرته يبيّن المراد وهو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَى عَلَى ٱللَّهِ كَذِباً أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَادُ هَؤُلاءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّالِمِينَ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾[4]، فهؤلاء كذبوا على ربّهم وصدّوا عن سبيله وبغوها[5] عوجاً، وكفروا بالجزاء، فهذه مرتكبات

---

(1) سقط من ن 3.

(2) سورة هود: آية 20.

(3) سورة الشورى: آية 40.

(4) سورة هود: آية 18-19.

(5) في ن 3: ويبغوها في المضارع والصحيح وبغوها.

عـذبوا بكـل مرتكب (منهـا)[1] فتضاعف عليهم العـذاب لتضـاعف مرتكباتهم، لكل مرتكب منها عذاب يخصه فليس ما ذكر من التضعيف في هذا الطرف على حد ما في الطرف الآخر، وقد بين القرآن ذلك بغير الجواب عن تخليدهم وكيف نبه عليه أنه وفاق لكفرهم.

* * *

---

(1) سقط من ن 3.

سورة والنازعات

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ ٱلطَّامَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [1]، و(قال)[2] في سورة عيسى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ ٱلصَّاخَّةُ﴾[3] والمراد بهما القيامة. يسأل عن وجه افتراق العبارة؟ وهل كان يحسن ورود الصّاخّة هنا والطّامّة هناك؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن الطّامّة والصّاخّة وإن أريد بهما في السورتين شيء واحد فإن اسم الطّامّة أرهب وأنبأ بأهوال القيامة لأنها من قولهم طم السيل[4] إذا علا وغلب. وأما الصّاخّة فالصيحة الشديدة من قولهم صخ بأذنيه مثل أصاخ فاستعيرت من أسماء القيامة مجازاً لأن الناس يصيخون لها، فلما كانت الطّامّة أبلغ في الإشارة إلى أهوالها خص بها أبلغ الصورتين في التّخويف والإنذار، وعلى ذلك بنيت سورة النّازعات [5]، ألا ترى قوله: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾[6]، ووصف ٱلطّامّة بالكبرى، وما أتبع به بعد، وابتداء السورة وختامها، فكلها تخويف وترهيب، فناسبها أشد العبارتين موقعاً وأرهبها.

---

(1) سورة النازعات: آية 34.
(2) سقط من ن 3.
(3) سورة عبس: آية 33.
(4) في ن 2: السهل ولا يؤدي هذا المعنى المقصود.
(5) في ن 3: النازعات بسقوط الواو.
(6) سورة والنازعات: آية 6-7.

وأما سورة عبس وتولى فلم تبن على ذلك الغرض وإنما بنيت على قصة عبد الله بن أم مكتوم الأعمى[1]، وذلك مشهور، ثم ورد قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ ٱلصَّاخَّةُ﴾ عقب التذكير بقوله: ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ [2] والتحريك للاعتبار بقوله: ﴿فَلْيَنْظُرِ ٱلْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ [3] إلى قوله: ﴿مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾[4]، ثم أتبع بعد ذكر ٱلصّاخّة بقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ [5]. فسورة «والنازعات» على الجملة أشد في التخويف والترهيب فناسبها أبلغ العبارتين من أسماء القيامة في التخويف (والإنذار بحالها، وليست سورة «عبس وتولى» كسورة «النازعات» في التخويف)[6] والترهيب فناسبها إيراد آسم القيامة بالصّاخّة، إذ ليس في الإرهاب كالطّامّة فجاء كل على ما يناسب، ولا يناسب عكس الوارد على ما تمهّد، والله أعلم.

* * *

---

(1) عبد الله بن أم مكتوم: هو عمرو بن قيس (ت 23هـ/ 643م) صحابي، كان ضرير البصر، أسلم بمكة وهاجر إلى المدينة بعد بدر كان يؤذن مع بلال، كان النبي صلى الله عليه وسلم يستخلفه على المدينة يصلي بالناس في عامة غزواته، قاتل في القادسية وهو أعمى وتوفي بالمدينة.

(الأعلام 255/5؛ صفة الصفوة 237/1؛ طبقات ابن سعد 453/4.)

(2) سورة عبس: آية 11.

(3) سورة عبس: آية 24.

(4) سورة عبس: آية 32.

(5) سورة عبس: آية 38-39.

(6) ما بين القوسين بهامش ن 2.

سورة التكوير

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [1]، وفي سورة الانفطار: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ [2]، يسأل عن اختصاص الأولى بقوله: «سُجِّرَتْ» والثانية بقوله: «فُجِّرَتْ»؟ والجواب عن ذلك ـ والله أعلم ـ ان قوله: «سجرت» معناه ملئت، من قولك: سجرت التنور إذا ملأته بالحطب، وقرىء مخففاً ومثقلاً [3] والمعنى واحد، والمراد اجتماع مياهها وأما قوله: «فجرت» فتح بعضها إلى بعض وآختلط العذب بالمالح فصار بحراً واحداً بزوال البرزخ الحاجز بينهما، وكل من الإخبارين (يؤدي معنى غير المعنى الآخر، فان الامتلاء غير الانفجار، ثم كل من الإخبارين) [4] مناط بالآخر لما بينهما من الشبه، ولهذا جرى كلام أكثر المفسرين على تفسير كل واحد من اللفظين بما يحرز المجموع من معنييهما، وتفاصيل ذلك على ما ذكرته مما يقتضي التباين لا الترادف، والإخبار بكل واحد منهما مقصود معتمد لكمال المراد.

وإنما خصت سورة الانفطار بلفظ الانفجار ليناسب مطلع السورة

---

(1) سورة التكوير: آية 6.

(2) سورة الانفطار: آية 3.

(3) قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «سجرت» بتخفيف الجيم والباقون بتشديدها.

(4) ما بين القوسين بهامش ن 2.

وافتتاحها، ألا ترى في انفجار العذب إلى المالح والمالح إلى العذب وبعضها إلى بعض انفطار ناسب انشقاق السماء وانفطارها. فانفطار السماء، وانفجار البحار، وبعثرة القبور، وانتشار النجوم، كل ذلك متناسب أوضح تناسب وأبينه. وحشر الوحوش وتزويج النفوس، وتسجير البحار، هذا كله اجتماع وائتلاف يناسب بعضه بعضاً، كما أن انفطار السماء، وانتثار الكواكب، وتفجر البحار، وبعثرة القبور، يناسب بعض ذلك بعضاً، فالتحام هذه الجمل في السورتين أبين التحام وأوضحه ملاءمة وتناسباً. فورد كل من ذلك على ما يجب ويناسب، والله أعلم بما أراد.

الآية الثانية (منها)[1] قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾[2]، وفي سورة الانفطار: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾[3]، (للسائل أن يسأل عن موجب الاختلاف مع اتحاد المقصود في السورتين)[4]؟

والجواب عن ذلك (والله أعلم)[5] أن المعنى في الآيتين واحد، إذ الذي تحضره كل نفس هو الذي قدمت من عملها وأخرت، الا أن كلًّا من الموضعين في السورتين خصّ بما يناسبه.

---

(1) سقط من ن 2.
(2) سورة التكوير: آية 14.
(3) سورة الانفطار: آية 5.
(4) ما بين القوسين بهامش ن 2.
(5) سقط من ن 1، ن 3، ن 4.

أما الآية الأولى فانه لما انحصر فيها وفيما قبلها من أولّ قوله: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾[1] إلى آخر قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾[2] الأهوال المشاهدة، من لدن ابتداء نفخة الصعق، إلى انتهاء تلك المقامات بتسعير الجحيم، وإزلاف الجنة، وهو عبارة عن إدنائها لداخلها، وجيء بتلك الإخبارات منسوقة بالواو المقتضية الجمع حتى كأن تلك المقامات قد عبر (عنها)[3] بلفظ واحد وتحصلت حاضرة للتصور الذهني، ناسب ذلك تقدير الأعمال المترتب عليها الجزاء حاضرة والعبارة عنها بما يحصل ذلك، فقيل: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾[4]، وكأن قد قيل: إذا حضرت هذه الأهوال مدركة للعيان حضرت أعمالكم بالتذكير لها ومطالعتها مكتوبة محصورة في الصحف التي لا تغادر صغير ولا كبيرة الا محصاة فيها، يبين هذا قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ ٱلطَّامَّةُ ٱلْكُبْرَى يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنْسَانُ مَا سَعَى﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً﴾[6].

أما الآية الثانية فانه لما كان قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾[7] غير مفصح بأستيفاء أعمال الخلائق جيء بهذه الآية بعدها مشيرة إلى الحصر بما أشير إليه من ضبط طرفي أعمال المكلفين فقيل: ﴿عَلِمَتْ

---

(1) سورة التكوير: آية 1.
(2) سورة التكوير: آية 13.
(3) سقط من ن 3.
(4) سورة التكوير: آية 14.
(5) سورة والنازعات: آية 34-35.
(6) سورة الكهف: آية 49.
(7) سورة التكوير: آية 14.

نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ [1] من متقدم عملها ومتأخره، وآقتضى التناسب تقدم الإحضار حيث ذكر، وتأخير ذكر التقديم والتأخير حيث ذكر، واتصل كل بما يشاكله ويلائمه، ولا يمكن سواه، إذ التعريف بآلإحضار والحصر بذكر ما قدم وما أخر مقصود، معتمد، إما أن يذكر ذلك على الاستيفاء في كل من السورتين من غير تفصيل، وذلك تكرار من غير داع ولا مسوغ له، وأما أن يذكر مفصلاً على غير ما ورد وذلك غير مناسب، فلم يبق إلا وروده على أتم الملاءمة والمناسبة، وهذا على رعي ترتيب القرآن على ما تقرر عليه، فعرفت الآيتان بإحصاء الأعمال المحضرة ما تقدم منها وما تأخر أي ما عمله المكلف في أول عمره وبدء تكليفه وفي آخر عمره وختم عمله كما أخبر تعالى من قول المجرمين: ﴿يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا ٱلْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾[2]، فقدم ذكر إحضارها أولاً ليناسب به ما تقدم، وأخر ذكر إحصائها ليعلم بالحصر والاستيفاء، وجاء كل على ما يناسب، والله سبحانه أعلم بما أراد.

* * *

(1) سورة الانفطار: آية 5.

(2) سورة الكهف: آية 49.

سورة الانشقاق

قوله فيها: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [1]، وتكرر ذلك بعد لا سؤال فيه لأن كل واحد من الإخبارين معقب به غير ما أعقب به الآخر، فالأول إخبار عن السماء في طاعتها وانقيادها، والآخر إخبار عن الأرض بمثل ذلك، وإن كل واحدة منهما سمعت وانقادت، انفطرت السماء وتشققت وانتثرت نجومها، وأزيلت الجبال عن الأرض فامتدت وألقت ما تحمله من الأموات وغير ذلك مما استودعته من المعادن والكنوز وتخلت عنها سامعة مطيعة، وإن كان الإخبار الأول عن السماء والآخر عن الأرض فلا تكرار.

آية ثانية منها قوله (تعالى)[2]: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾[3]، وفي سورة البروج: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ وَٱللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ [4]، للسائل أن يسأل عن اختصاص الأول بقوله: «يُكَذِّبُونَ» بلفظ المضارع والثانية بقوله: ﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾ بلفظ المصدر مع اتحاد المعنى المقصود؟

---

(1) سورة الانشقاق: آية 2.

(2) سقط من ن 2.

(3) سورة الانشقاق: آية 22-23.

(4) سورة البروج: آية 19-20.

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن آية الإنشقاق تقدمها وعيد أخراوي كله لم يقع بَعْدُ وهم مكذبون بجميعه، فجيء هنا باللفظ المقول على الاستقبال ــ وان كان يصلح للحال ــ ليطابق الإخبار، لأنه عما يأتي ولم يقع بعد، فجيء بما يطابقه في استقباله. فأما آية البروج فقد تقدمها قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ [1]، وحديث هؤلاء وأخذهم بتكذيبهم قد تقدم ومضى زمانه، وهؤلاء مستمرون على تكذيبهم فقيل: ﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾، وجيء بالمصدر ليحرز تماديهم وأن ذلك شأنهم أبداً فيما أخبرهم به وفيما يدعوهم إليه وينهاهم عنه، ولفظ المصدر أعطى لما قصد من هذا من لفظ المضارع، فجيء في كل من الآيتين بما يناسب[2].

* * *

(1) سورة البروج: آية 17-18.

(2) اثر هذا وجد بياض في كل النسخ، علق عليه الناسخ في حاشية ن 4 بقوله: «كذا وجد بياض بالأصل المنسوخ منه».

سورة البلد

الآية الأولى منها ـ قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾[1]، للسائل أن يسأل عن تكرير لفظ البلد وجعله معطوفاً وفاصلة في الآيتين؟ وكيف موقع ذلك في البلاغة وعند الفصحاء؟

والجواب أنه قد تقدم أن العرب مهما اعتنت بشيء وتهممت به كررته، وإن ذلك من فصيح كلامهم، وإن منه قولهم[2]:

وإن صخرا لوالينا وسيدنا .... البيتين[3]

والبلد الحرام لم يزل معظماً عند العرب، وما (دام)[4] شأنه كذلك فتكريره مستحسن، مع أن التكرير هنا ليس كالتكرير الواقع في قوله[5]:

---

(1) سورة البلد: آية 1-2.

(2) يريد بذلك الخنساء الشاعرة المعروفة.

(3) صدر بيت من قصيد للخنساء مطلعه:

قذى بعينك أم بالعين عوار ... أم ذرفت إذ خلت من أهلها الدار

والبيتان هما:

وإن صخراً لمقدام إذا ركبوا ... وإن صخراً إذا جاعوا لعقار

وإن صخراً لتأتم الهداة به ... كأنه علم في رأسه نار

والبيتان من البحر البسيط. أنظر ديوان الخنساء، ص 48-49، طبع دار صادر، بيروت 1963.

(4) سقط من ن 1، ن 2.

(5) البيت لسوادة بن عدي في البحر الخفيف، الكشاف 42/1.

لا أرى الموت يسبق الموت شيء   نغص الموت ذا الغنى والفقيرا

وقال الآخر[1]:

ليت الغراب غداة ينعب دائبا   كان الغراب مقطع الأوداج

لأن هذا مما أوقعوا فيه الظّاهرموقع المضمر المحتاج إليه في ربط الخبر، فجاؤوا به ظاهراً تهويلاً لأمر الموت فقال: «يسبق الموت»، وهو يريد يسبقه، وهو ضمير لازم جعل موضعه الظاهر تعظيماً له، والكلام واحد حصل فيه الربط بإعادة الاسم ظاهراً، وكذا فعل الآخر في قوله: «كان الغراب مقطع الأوداج»، أعاد الظاهر موضع الضمير، وارتبط الكلام وحسن إعادة الظاهر لما قصد من التهويل والتشنيع وعظيم ما توهم من التفاؤل به، وهذا فيما وقع في جملة واحدة، وأما ما يقع من تكرير المكرر في جملتين إذا كرر اعتناء أو تهويلاً فأفصح عندهم من الواقع في جملة واحدة لحصول مناسبة تحسن كقوله في عجز البيت المتقدم:

....   نغص الموت ذا الغني والفقيرا

فتكرير الموت هنا أوسع في التهويل من تكراره في قوله صدر البيت: «يسبق الموت شيء»، لأنا إذا عللنا هذا إنما نقول أعاد الظاهر موضع المضمر لما أراد من تعظيم الموت وتهويل أمره، فإذا عللنا تكريره في قوله: «نغص الموت ذا الغنى والفقيرا» عللناه بهذا، وبأن الكلام جملتان فحسن فيهما ما لا يحسن في الجملة الواحدة. وإذا تقرر هذا فاعلم أن الواقع في الآية العلية أجل في البلاغة من هذا كله وأعظم

---

(1) مجهول القائل: البيت في البحر الكامل، أنظر أمالي ابن الشجري 243/1.

موقعاً في الفصاحة لاتساع مجال التوسع، ألا ترى أن البلد معظم فهذا مسوغ كاف، والكلام جملتان وهذا مسوغ أيضاً، والجملة الواقع فيها التكرر جملة اعتراض، وجمل الاعتراض كالكلام الأجنبي بوجه عام، إنما يؤتى بالجملة تشديداً وإنباء بما يقصد من اعتناء أو تحرير كلام، فلكون جمل الاعتراض أجنبية في الأصل عن الكلام حسن فيها ما لا يحسن في غيرها، فساغ التكرير وحسن في الآية من هذه الأوجه الثلاثة. إلا أن القسم إنما وقع بقوله: ﴿أُقْسِمُ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾، وليس قوله: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا ٱلْبَلَدِ﴾ مما وقع به القسم بوجه، وإنما هي جملة اعتراض سيقت بياناً لعظم قدره صلى الله عليه وسلم وأن هذا البلد العظيم الحرمة أحل له ولم يحل لأحد غيره. فكأن قد قيل: أقسم بهذا البلد العظيم لدينا وقد حللناه لك على عظم قدره، وذكره ظاهراً لما يحرز هذا المعنى من تعظيمه لما فيه من التنبيه والتحريك، فسيقت هذه الجملة اعتراضاً وكلاماً قائماً بنفسه. ليس من المقسم به في شيء، وإنما جيء به لما ذكر. وإذا تباين الكلام بجهة ما لم يستثقلوا فيه إعادة الظاهر إذ هو بمثابة ما الثاني فيه غير الأول، فوضح أن الآية واردة على أعلى وجوه البلاغة وأفصح الكلام، وانه لو جيء هنا بالمضمر مكان الظاهر لم يكن بوجه، والله أعلم.

الآية الثانية من سورة البلد ــ قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾[1]، وفي سورة والتين والزيتون: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[2]، إن سئل عن قوله في الأولى: «فِي كَبَدٍ» وفي الثانية: «فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ»؟

(1) سورة البلد: آية 4.
(2) سورة التين: آية 4.

فالجواب عنه: انهما حالان من حالات الإنسان لا تعارض بينهما لأن مصرف كل من هاتين الحالتين بين، وكلام المفسرين في ذلك شاف، وليس هذا بالجملة من الغرض المبني عليه هذا الكتاب إذ لا إشكال فيه.

* * *

سورة ألم نشرح لك صدرك

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْراً إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْراً﴾[1]، يسأل عن وجه التكرير؟

والجواب عنه: أن هذه السورة تضمنت ذكر إنعامه سبحانه على نبيه صلى الله عليه وسلم، ثم أتبعت تلك المنح الجليلة بما تشركه فيه أمته من التأنيس بتيسير ما عرض فيه عسر للمؤمن في أمر دينه ودنياه، فقال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْراً﴾، فبشر عباده بأن العسر يتبعه اليسر، وتأكد ذلك بإن المؤكدة للخبر، وزيد تأكيداً بالتكرير وتوسيع التأنيس بآلإشعار الحاصل من تنكير اليسر وتعريف العسر، فإن العرب إذا أعادت الاسم بأداة العهد ــ وهي الألف واللام ــ كان المذكور ثانياً هو المذكور أولاً وسواء كان المذكور أولاً نكرة أو معرفة، تقول: لقيت رجلاً فأكرمت الرجل، إنما تريد الرجل الذي لقيته. فإن قلت: (لقيت)[2] رجلاً فأكرمت رجلاً كان الثاني غير الأول، هكذا كلامهم. وقد وقع اليسر في الآية منكراً في الموضعين فأشعر بالتوسعة، ولهذا قيل: «لن يغلب عسر يسرين»[3]، فتحصل من التكرير وتنكير ما نكر توسعة طرف الرجاء والتأنيس، وذلك المناسب لما بنيت عليه السورة، والله أعلم.

---

(1) سورة الشرح: آية 5-6.

(2) سقط من ن 1، ن 2.

(3) الموطأ؛ جهاد 6.

سورة القلم[1]

قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ خَلَقَ ٱلْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾[2]، يسأل عن تكرير «خلق»؟

والجواب عنه: أنهما قصدان، فالمراد أولاً خلق المخلوقات وشتى العوالم، والمراد ثانياً تخصيص خلق الإنسان وأنه خلقه من علق، ولا تكرير على هذا.

* * *

(1) يريد بذلك سورة العلق.
(2) سورة العلق: آية 1-2.

سورة التكاثر

قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[1]، يسأل عن تكرير قوله: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾؟ والجواب أنه تهديد ووعيد فناسبه التكرير تحقيقاً وتثبيتاً[2] كقوله: ﴿ٱلْحَاقَّةُ مَا ٱلْحَاقَّةُ﴾[3] و﴿ٱلْقَارِعَةُ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾[4] وما أتى من مثل هذا، ودخلت «ثم» العاطفة في المعطوف بها كما دخلت في قوله: ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾[5] وقد تقدم[6].

* * *

(1) سورة التكاثر: آية 3-4.
(2) في ن 2: تثبتاً.
(3) سورة الحاقة: آية 1-2.
(4) سورة القارعة: آية 1-2.
(5) سورة المدثر: آية 20.
(6) أنظر صفحة 1115 وما بعدها.

سورة الكافرين

للسائل أن يسأل عن تكرير ما ورد فيها؟ والجواب أنها لم تتكرر فيها آية واحدة إذا اعتبرت أن كلّ آية منها تفيد من المعنى وتحرر ما لا تفيده الأخرى[1] بذلك التحرير، فكأنها متباينة الألفاظ لتباين معانيها مع جليل التشاكل وعليّ التلاؤم والتناسب.

بيان ذلك أنه ورد في سبب نزول هذه السورة أن قريشاً قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة، وروي أنهم قالوا: تعال فلنشترك في عبادة آلهتنا وإلهك فنأخذ الخير حيث كان، فتبرأ صلى الله عليه وسلم من مقالهم وأنزل الله السورة فتلاها عليهم وهم مجتمعون في المسجد. فقوله: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾[2] أي لا أفعل ذلك فيما أستقبله من زماني ولا أنتم تفعلونه فيما يستقبل، وهذا إخبار منه سبحانه عن أولئك العصبة أنهم لا يؤمنون، وهم الذين قتلهم (الله)[3] يوم بدر، فهو إخبار بغيب. ثم قال تعالى: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾[4] أي ولا أنا متصف فيما مضى من عمري إلى

(1) في ن 3: الأولى.
(2) سورة الكافرين: آية 2.
(3) سقط من ن 3.
(4) سورة الكافرين: آية 4.

الآن بعبادة آلهتكم ولا كنتم أنتم فيما مضى متصفين بعبادة الله سبحانه، فحصل من ذلك الإخبار عن حال ما يستقبل منه صلى الله عليه وسلم ومنهم وعن حال ما مضى وتقدم منه صلى الله عليه وسلم ومنهم، فعبر عن أربعة أحوال متباينة وهي: حاله، عليه السلام، فيما يستقبل وحالهم، وحاله فيما تقدم قبل وحالهم، فعبر عن هذه الأربعة بأربع آيات، فلا تكرار.

فإن قلت: فكيف تنزيل آي السورة[1] على هذا؟ قلت: إن لا النافية إذا دخلت على المضارع المبهم مجردة عن قرينة من لفظ ( )[2] خلصته للاستقبال، وقد دخلت في أول آية على قوله: «أعبد» فتخلص هذا الإخبار لما يستقبل، ثم بنيت الجملة من قوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ على ما قبلها ليتقابل[3] الإخبار ويلتئم نظم[4] الكلام، وجيء فيه بالجملة الاسمية لأنها تحرز من حيث تسلط النفي على الصفة أنها لا توجد فيهم ولا يتصرفون بها في شيء مما يستقبلونه من الزمان، ففي الصفة أحرز بتعميم ما يستقبل من[5] نفي الفعل.

فإن قيل: فإذا كان نفي الصفة على ما ذكر فلم لم يأت كذلك أولاً فكأن يقال: لا أنا عابد ما تعبدون (أو ما أنا عابد)[6] ما تعبدون؟ قلت:

---

(1) في ن 3: القرآن، وهو خطأ بين.
(2) في ن 3 بياض بعد كلمة لفظ، قد يكون مكان كلمة ساقطة لعلها: أَوْ معنىً.
(3) في ن 3: ليتقال، وهو خطأ بين لا يؤدي المعنى المراد.
(4) في ن 3: نظام، والأنسب نظم.
(5) في ن 3: ما وبذلك يختل التركيب.
(6) سقط من ن 3.

لم يكن كذلك لأمرين: أحدهما أنه جواب لقولهم: آعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة، فلما كان جواباً لفعل أتي فيه بالفعل نفياً لعين ما طلبوه[1] ولو نفي الاسم لما كان مطابقاً لقولهم، والثاني أن الجملة الاسمية إنما نفيها بما لا بلا، وما ليست بمخلصة للاستقبال، ونفي المستقبل مقصود، فلم يكن بد مما يحرزه، فهذا ما حمل أولاً على ما عليه الكلام. وأما الجملة المنفية على هذه وهي قوله: ﴿وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ فتنبيه لما قصد تعريفهم به، إذ هي طرف معرف بحالهم[2] بناء على ما تقدمها من بيان حاله، عليه السلام، فهي جملة جوابهم، وبناؤها على ما تخلص استقباله مغن عن الأداة المخلصة لأن حكمها حكم ما بنيت عليه، وتم بها أنه قد وقع الفعل المبهم في صلة ما وهي معمولة لاسم الفاعل المجموع الواقع خبراً عن «أنتم» ولا يعمل إلا بمعنى الحال والاستقبال، ولكن المعتمد الجوابية على ما تقرر. فقد تبين أن قوله: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ إخبار عما يستقبل من الزمان وعن حاله، عليه السلام، فيه وحالهم فيه أيضاً. ثم قال: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدتُّمْ﴾ فهذا نفي لما تقدم ومضى على كفاية الحال الماضية ولهذا عمل اسم الفاعل في «ما». ولما كان الإفصاح هنا بالماضي يحرز المقصود جاءت الجملة اسمية لتحصل الماضي والحال. أما الماضي فمفهوم ببنية[3] الفعل وهو قوله: ﴿مَا عَبَدتُّمْ﴾، ولو لم يقع الإفصاح بالفعل لأفهم السياق ما ذكر لأنه قد تقدم ما يستقبل في حق الفريقين فلم يبق إلا ما مضى، ولا مانع من اللفظ، فتعين المقصود.

---

(1) في ن 3: طلبوا.

(2) في ن 3: بحال.

(3) في ن 1، ن 2: غير واضحة في ن 4: بزنة.

أما الحال فإن الجملة الاسمية إذا دخل[1] عليها النفي حملت على الحال ما لم يقع في الكلام ما يقيدها بغيره. فإن قيل: التقييد بقوله: ﴿مَا عَبَدْتُمْ﴾ قلت: قوله: ﴿مَا عَبَدْتُمْ﴾ من صلة ما بعد حصول المبتدإ الذي هو أنا وهو اسم الفاعل، فحصل من قوله: ﴿وَلَآ أَنَا عَابِدٌ﴾ نفي اتصافه صلى الله عليه وسلم في الحال بعبادة آلهتهم، وإنما الحال عندنا الماضي غير المنقطع، قال سيبويه، رحمه الله، معرفاً بما يطلق عليه اسم الحال فقال: وهو كائن لم ينقطع، فحصل عن المبتدأ والخبر من قوله: ﴿وَلَآ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ الإخبار عن حاله المستمرة على ذلك فيما تقدم متصلة غير منفصلة، وحصل من الجملة الخبرية الواقعة صلة وهي: «عَبَدْتُمْ» أنهم لم يفعلوا ذلك فيما مضى، وقد حصل فيما تقدم استمرارهم على ذلك حال الإخبار، وزيد بياناً وتأكيداً لقوله بعد: ﴿وَلَآ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾. وقد حصل أيضاً فيما تقدم أن تلك حالهم فيما يستقبلونه، فيحصل المجموع أنه صلى الله عليه وسلم تبرأ من عبادة آلهتهم فيما مضى وفي الحال وما يأتي، (وأنهم ما عبدوا الله كما يجب له سبحانه فيما مضى ولا في الحال ولا يفعلون ذلك فيما يأتي)[2]، وهو الحاصل من قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ[3] رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. الآية[4]. ثم قال سبحانه على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَآ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾، هذا في مقابلة قوله: ﴿وَلَآ أَنَا عَابِدٌ

(1) في ن 3: إذا خل، وهو خطأ بين.
(2) سقط من ن 1، ن 2.
(3) في ن 1، ن 2: «كلمة» قرأ نافع وابن عامر «كلمات ربك» على الجمع، وقرأ الباقون على التوحيد.
(4) سورة يونس: آية 96.

مَا عَبَدْتُمْ﴾، فهو إخبار عن حاله صلى الله عليه وسلم فيما مضى وتقدم من عمره صلى الله عليه وسلم، وقد تبين ما قيل.

فإن قيل: لم لم يقل هنا: ولا أنتم عابدون ما عبدت[1] فكان يجري جري ما بني عليه وقوبل (به)[2]؟ قلت لو قيل: «ما عبدت» لأوهم انقطاعاً، لأن قول القائل: فعلت لا يقتضي الدوام والاتصال، وذلك وإن كان هنا مفهوماً فيما تقدم من مقصود الكلام بالجملة فإن الأولى رفع الاحتمال من اللفظ كما أحرز المعنى، وهو الجاري في الكتاب العزيز. ثم قال: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِي﴾[3] فحصل التبري، ووضح التفصيل المتقدم.

* * *

(1) في ن 3: عبدتم، وهو خطأ ويؤكده ما جاء بعد في قوله: فلو قيل ما عبدت.
(2) سقط من ن 3.
(3) سورة الكافرين: آية 6.

سورة الإخلاص

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[1]، قيل في «أحد» هنا: أنه بمعنى واحد وأصله وحد[2]، وربما يعتضد من قال بهذا بقراءة من قرأ: «قل هو الله الواحد»[3] فيجعل هذه القراءة مفسرة للأخرى، وهي قراءة شاذة خارجة عن خط المصحف فليست مما يقطع به، وربما عضد هذا القول أيضاً بأن أحداً الواقع في الجواب[4] إنما ينبغي أن يكون بمعنى واحد ومرادفاً له لأنه قد صح عن أئمة اللسان اتفاقهم على (أن)[5] أحداً لفظ يخص الواجب[6] من الكلام ويقع عاماً، فتقول: ما جاءني أحد، فيحصل منه النفي العام، ولا تقول: جاءني أحد. قال سيبويه، رحمه الله: لو قلت: كان أحد من آل فلان لم يكن كلاماً[7]، فإذا ورد في واجب فينبغي أن يحمل على أنه بمعنى واحد، إذ قد تبين أن أحداً المقتضي العموم والاستغراق لا يرد في واجب ولا يتكلم به فيه، وعلى

---

(1) سورة الإخلاص: آية 1.

(2) في ن 3: وحيد، وهو خطأ. أنظر ذلك في الكشاف 817/4، وفي ن 4 واحد وهو خطأ أيضاً.

(3) قرأ بذلك الأعمش وهي قراءة شاذة.

(4) في ن 3: الواحد، وفي ن 4: الموجب، وهو صحيح ويؤكده ما ورد بعد.

(5) سقط من ن 3.

(6) في ن 4: الموجب.

(7) الكتاب 37/1.

هذا كلام العرب، فحصل منه أن أحداً لفظ مجمل يكون للنفي العام، فهذا لا يقع في (كل)[1] واجب، ويكون بمعنى واحد فيقع في الواجب وغيره، والواقع في سورة الإخلاص من هذا القبيل أعني الذي أحد فيه بمعنى واحد.

فإن قلت: فكيف ترى موقع هذا التفسير[2]؟ قلت: أما القول بأن أحداً هنا مرادف لواحد وبمعناه من كل جهة فقول ليس ببدع[3]، ولذلك جرى عليه أكثر كلام المفسرين، ولكن فيه ادعاء ترادف للفظين من غير حامل قطعي أكثر من وقوع أحد في بعض المواضع مستغنى به عن واحد كالواقع في العدد عند التركيب أو العطف في قولك[4] أحد عشر، وواحد وعشرون وشبه ذلك، ولا ينكر من كلامهم الاستغناء بالشيء عن الشيء لتقارب ما أو نسبة واشتراك في طرف ما، وما أراك تجد في كلامهم لفظ أحد المجرد عن التركيب والإضافة والعطف وارداً في معنى واحد ومرادفاً له على القطع أبداً. وإذا ثبت هذا وجب إجراء الكلام على إبقاء كل واحدة من اللفظتين على ما استقر لها من المعنى وإلا[5] يعدل عن ذلك ما وجدت عنه مندوحة.

وقد أوضح الاعتبار الفرق بين أحد وواحد من جهة اللفظ وحكمه ومن جهة المعنى. أما الفارق اللفظي فإن لفظ واحد قد فرقوا فيه بين

---

(1) سقط من ن 3.

(2) بهامش ن 4: كإصلاح مكان التعبير.

(3) في ن 4: بمدع، والصحيح ببدع والبدع الشيء الذي يكون أولاً.

(4) في ن 3: قوله.

(5) في ن 1، ن 2، ن 4: ولا.

المذكر والمؤنث، قالوا: واحد وواحدة فألحقوا مؤنثه الهاء، وجمعوه فقالوا: وحدان. وأما أحد[1] فلم يلحقوه علامة تأنيث ولا جمعوه.

وفرق ثان وهو أنهم استعملوا واحداً في الواجب وغير الواجب[2] تقول: جاءني رجل واحد ومررت برجل واحد، قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾[3] ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾[4] ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ﴾[5] أي بخصلة واحدة أو بموعظة واحدة[6]، ومن غير الواجب[7] ﴿أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ﴾[8]، ﴿أَجَعَلَ ٱللَّهَ إِلَٰهاً وَاحِداً﴾[9]. أما أحد فلا يقع مفرداً عن إضافة أو تركيب في كلام واجب أصلاً، فلا تقول: جاءني أحد ولا مررت بأحد ولا ورد في كتاب الله سبحانه في كلام واجب إلا قوله سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ويقع في غير الواجب وهو بابه الذي اختص به، تقول: ما جاءني أحد وما مررت بأحد، قال تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً﴾[10]، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾[11]، ﴿وَلَا أُشْرِكُ

(1) في ن 3: واحد، وهو خطأ يختل به المعنى المراد.
(2) في ن 4: في الموجب وغير الموجب.
(3) سورة البقرة: آية 163.
(4) سورة النساء: آية 171.
(5) سورة سبأ: آية 46.
(6) في ن 3: بعظة، وهو فصيح.
(7) في ن 4: الموجب.
(8) سورة القمر: آية 24.
(9) سورة ص: آية 5.
(10) سورة الكهف: آية 26.
(11) سورة الكهف: آية 110.

بِرَبِّي أَحَداً﴾[1]، ﴿لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾[2])[3]، ﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً﴾[4] وذلك كثير جداً.

وفرق ثالث وهو أن واحداً يقع تابعاً في أكثر موارده، وهو الوجه فيه، لأنه يجري صفة وإن كان الوصف به عارضاً كما في الأعداد، لكنه (قد) أجري صفة، وحكم ما ليس بخاص من الصفات لزوم التبعية، ولا يقع أحد تابعاً أصلاً إلا في نادر فلا تقول: جاءني رجل أحد كما تقول: رجل واحد ولا ما شابه ذلك، فهذه فروق (ثلاثة)[5] من جهة حكم اللفظ.

وأما الفرق من جهة المعنى فإن واحدا يقع على كل مفرد كان، مما يتصف بالعقل والعلم أو لا يتصف، تقول: رجل واحد وجمل واحد، وهذا خلاف حكم أحد فإنه لا يقع إلا لأولي العلم والعقل من الملائكة والإنس والجن.

وفرق ثان، وهو أنك تقول: ما جاءني رجل (واحد)[6] فيحتمل ذلك ثلاثة معان: أحدها أن تريد ما جاءني (رجل واحد بل جاءني)[7] أكثر، والثاني أن تريد ما جاء رجل عناء وقوة بل جاء الضعفاء، والثالث

---

(1) سورة الكهف: آية 38.

(2) سورة الجن: آية 22.

(3) ما بين القوسين بهامش ن 2.

(4) سورة الجن: آية 2.

(5) سقط من ن 4.

(6) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.

(7) سقط من كل النسخ واللفظة مفهومة من السياق، ولا يتم المعنى إلا بها.

أن تـريد النفي العـام أي ما جـاءني رجل واحـد ولا أكثر ولا قـوي ولا ضعيف. فـإذا قلت ما جـاءني أحد لم يحتمـل غير معنى واحـد وهو النفي العام، وهذا أوضح فارق بين لفظ واحد (وأحد)[1].

فـإن قلت: قـد تقـرر فـرق (مـا)[2] بين لفظ واحـد وأحـد (فما الحاصل المعتمد في معنى أحد)[3] ومقتضاه؟ قلت: معناه وحدة لا غيرية معها ولا آثنينية، وإليه يشير ما فسره به أهل اللغة، قال صاحب العين[4]: الوحد[5] المنفرد وهو أوحد في هذا الأمر أي منفرد. وقد استشعر الفرق من المفسرين من قال: أحد بمعنى واحد فرد[6] من جميع جهات الوحدانية: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[7] وهو قول بعض جلة المفسرين وقد أحسن. أما اقتصار الزمخشري على تزاكيه في البيان وتوفر حظه من علم اللسان على أن قال: أحد بمعنى واحد وأصله وحد ولم يزد على هـذا فغير مناسب لمسلكه. وقال بعض الأئمة الفرق بين أحد وواحد أن الواحد المنفرد بالذات والأحد المنفرد بالمعنى ومنه في أسمائه تعالى: الواحد ــ الأحد. وقيل واحد اسم لمفتاح العدد ومن

---

(1) سقط من ن 3.

(2) سقط من ن 3.

(3) سقط من ن 3.

(4) صاحب العين الخليل بن أحمد (100هـ/ 718م ــ 170هـ/ 786م) الفراهيدي الأزدي اليحمدي أبو عبد الرحمان من أئمة اللغة والأدب وواضع علم العـروض، أستاذ سيبويه، ولد ومات بالبصرة، له كتاب العين وكتاب العروض والنقط والشكل.
(الأعلام 363/2؛ وفيات 172/1؛ إنباه الرواة 341/1.).

(5) في ن 3: الواحد.

(6) في ن 1، ن 2: ورد، وبها لا يستقيم المعنى.

(7) سورة الشورى: آية 11.

جنسه وأحد لنفي ما يذكر معه من العدد، وقيل أحد يدل على محض الوحدة، ألا ترى أنه ناف لما يرد معه يريد في نحو قولك: ما أتاني أحد لانتفاء الواحد وما سواه، بخلاف قولك: ما أتاني واحد إذ قد يحتمل أن يراد أنه أتاك أكثر من واحد، وقد تقدم هذا، ولا يحتمل ذلك قولك: ما أتاني أحد. ومن المعلوم المطرد أن حكم اللفظ المنفي لا يغاير موجبه في غير ما اقتضته أداة النفي، وأن يبقي الكلام فيما عدا حكم النفي على ما كان ولا يتغير منه شيء سوى انتقاله من الإيجاب إلى النفي، وكذلك الحكم في كل أداة تدخل على لفظ الواجب من تمن أو استفهام أو عرض أو غير ذلك، هكذا كلام العرب. ولفظ أحد لا يتناول بوضعه غير الوحدة فلو تكلم به في الواجب فقيل جاءني أحد لكان معناه: أحد لا ثاني له بوجه، ولو قلت: جاءني واحد لم يلزم فيه ذلك بل كان يحتمل أن تريد: جاءني واحد يعتد به ويعتمد، ولم ينتف أن يجيء معه من لا يعتد به أو يعتمد عليه، إذ ليس يمنع بوضعه الزائد على واحد إذا غايره من حيث ذكر. فإذا تقرر أن حكم أحد من مقتضى الوحدة ما ذكر، تبين أنه لا يتصور ولا يصح بمعناه في واجب حيث يراد المخلوق المحدث، لأن كلاً من المخلوقات له النظير والمثيل، حتى أن المتباعدات والمتباينات متماثلة من حيث الافتقار وانسحاب سمات الحدوث ودلائل عدم الاستقلال إلى غير ذلك من شواهد الحدوث، فكلها لا تنفك عن وجود النظراء والأنداد[1]، فلم يصح وقوع لفظ أحد في كلام واجب يقع فيه لفظ أحد لمخلوق لما تبين[2]، وصح[3] ورود ذلك في

---

(1) في ن 3: والأمثال.

(2) سقط من ن 3.

(3) في ن 3: ووضع، وهذا لا يناسب السياق.

حق[1] الخالق جل جلاله لانفراده بالوحدانية وتنزيهه عن النظير والمثيل، فورد لفظ أحد حيث صح معناه من الكلام الـواجب، (وامتنع)[2] حيث لا يصح معناه. أما غير الواجب فيصح فيه معنى أحد لصحة معنى الكلام، لأنك إذا قلت[3]: ما أتاني أحد[4] انتفى كل ما يمكن وصفه بالإتيان بمقتضى العموم، فانتفى ما وقع عليه لفظ أحد وانتفى النظير والمثيل، وصح هذا في المخلوق. بخلاف أن لو قلت: أتاني أحد فإنك فيه تتكلم بما لا يصح معنى ولا يعقل، إذ ليس في المخلوقـات من لا مثيل له.

فلما كان لفظ أحد بالنظر إلى المخلوقين يصح معناه في غير الواجب ورد من كلامهم حيث يصح معناه وآمتنع حيث لا يستقيم معناه، ووضع قول أئمة اللسان أنه لا يرد في الواجب، يريدون في محاورات المخلوقين وتخاطبهم، إذ لا يصح معناه هناك، فأما في حق الخالق جل جلاله فهو موضعه الذي يصح فيه ولا يتعدّاه، ولم يتعرض النحويون لعلة امتناعه في الواجب، بل اكتفوا بتقرير السماع من غير تعرض للعلة، إذ لا يبنى لهم على ذلك قانون تتسع جهاته وتنتشر مسائله. وإذ وضحت العلة تبين وجه وروده في السورة الكريمة، ولم يحتج إلى ادعاء اشتراك ولا تأويل، والله أعلم.

* * *

(1) في ن 3: هاتين، وهو خطأ بين ينافر المعنى.
(2) سقط من ن 3.
(3) في ن 3: تقول، والصواب: قلت.
(4) في ن 3: ما أوتي أحد، وهذا خطأ.

سورة الفلق

قوله تعالى :﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾[1]، للسائل أن يسأل عن التقييد بالظرف في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ وفي قوله: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾، فلِمَ تقع الاستعاذة من شر هذين بتقييد الوقوب في الغاسق ووقوع الحسد من الحاسد ويطلق حكم الاستعاذة من شر النفاثات وهن الساحرات، ولم يقل إذا نفثن أو سحرن فيقيد كما قيد ما قبل وما بعد، فما الفرق؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن قوله سبحانه في سورة طه: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾،[2] إطلاق حاكم بتماديه وتمادي حكمه على تلك الصفة المذمومة، فلم يكن التقييد في آية الفلق لو قيل: إذا كذا[3] ليطابق ما ورد في سورة طه من الإطلاق. ثم إن السحر كفر، وقد ذكر سبحانه قول الملكين للطالب تعلمه: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾[4] أي بتعلم السحر، (ولا يسحركم سحر الساحر ولا يسمى ساحراً إلا

---

(1) سورة الفلق: آية 3-5.

(2) سورة طه: آية 69.

(3) في ن 2: مثبتة بالهامش، وفي ن 1، ن 3 ساقطة ومكانها بياض.

(4) سورة البقرة: آية 102.

باعتقاد. فتبين أن السحر شر مطلق)[1]، فورد التعوذ منه مطلقاً غير مقيد بوقوع أو (   )[2] وتأثير الكواكب وذلك كفر، وما أجرى الله سبحانه من التأثير في العالم عند تلاقيها وتقابلها وتناظرها وما في ذلك من تفصيل التناظر، كل ذلك فعل الله سبحانه ولا تأثير إلا له جل وتعالى، (   )[3]، (ويقتل الساحر ولا استتابة)[4] في قول.

أما الغاسق فإنه الليل إذا أظلم، وليس الشر منه بما هو ليل مظلم إنما هو ستر لذوي الشر لاحتجابهم[5] بظلمته عن أعين الناس فيوقعون فيه شرهم، فالشر فيه لا منه. ألا ترى أنه لأهل الخير رحمة ونعمة، وكذلك لكل من لا يترصده لشر، قال تعالى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [6] أي لتسكنوا في الليل ولتبتغوا من فضل الله في النهار. وتردد ذكر الليل في غير ما آية في كتاب الله معدوداً في نعم الله تعالى على عباده، وهو شقيق النهار في تلك. ثم إنه من حيث هو لباس وستر عن الأعين فيمكن فيه لأهل الشر ما لا يمكنهم في نهارهم، فيستحكم فيه شرهم عند امتداد ظلمته لأمنهم من الناس في[7] ذلك. فتبين أنه ليس شراً بما هو ليل إنما الشر فيه وعنده لا به[8] بما هو ليل ولا منه، ولا يتمكن مطلوب ذوي الشر إلا في

---

(1) سقط من ن 1، ن 2، ن 4.

(2) بياض في كل النسخ، لعله مكان كلمة: نَفْثٍ.

(3) بياض في كل النسخ.

(4) في ن 3: ولعل الساحر ولأن أشباهه، وهذا خطأ بين لا يستقيم به المعنى.

(5) في ن 1، ن 2: «لاحتجاب»، وفي ن 4: للاحتجاب، وهذا مناسب.

(6) سورة القصص: آية 73.

(7) في ن 3: من.

(8) في ن 3: لأنه، وهو خطأ مخل بالمعنى.

ظلمته، فنسبة الشر إليه بهذا الوجه، والإضافة في لسان العرب تكون بأدنى ملابسة، قال تعالى: ﴿لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾[1] والضحى ليس للعشية وإنما هما[2] طرفان للنهار فصحت الإضافة بهذا القدر، وقال تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [3] والليل والنهار لا يمكران إنما يكون المكر فيهما، قال معناه سيبويه، رحمه الله[4].

وأما الحاسد فإن القائم بنفسه من هذه الصفة قبل أن يمضي يمكن أن ينفذها حسداً ويمكن أن ينفذها غبطة، فإذاً لا يتبين كونه حسداً إلا بعد أن يمضى ويوقع، ألا ترى اتحاد ما يقوم بالنفس أولاً من هذه الصفة. بيان ذلك أن كل عاقل ــ بما هو عاقل ــ إذا رأى نعمة على غيره من دين أو دنيا أعجبته وتمناها لنفسه، فإن أراد زوالها عمن ظهرت عليه وانفراده هو بها فهذا هو الحسد المذموم، وإن تمنى مثلها أو أكثر وبقاء تلك على صاحبها فهذه هي الغبطة، وهي من صفات المؤمنين. فقد وضح أنه إنما يكون حسداً ويوصف بتلك الصفة عند ظهوره ووقوعه على الصفة المذمومة وأما قبل ذلك فلا شر فيه ولا هو شر، ألا ترى أن الحاسد لو قامت به تلك الصفة ثم تذكر واستغفر لمن رأى النعمة به والخير وركن قلبه إلى ذلك لم يؤاخذ شرعاً بتلك الهمة والخطرة، وقد نص الشرع على ذلك، واتفق العلماء والقاضي أبو بكر[5] ومن قال بقوله على تلقي

(1) سورة النازعات: آية 46.
(2) في ن 3: وهو، والصحيح هما إذ المراد العشية والضحى ويؤكد ذلك قوله: طرفان.
(3) سورة سبأ: آية 33.
(4) الكتاب 110/1.
(5) في ن 3 يمكن أن يكون أن ينفذها. ويبدو أن: «أن يكون» حشو.
(6) هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله المعافري المعروف بابن العربي، أحد فقهاء اشبيلية وعلمائها، توفي سنة 544.
(الصلة، لابن بشكوال، ت 1181، ط. مدينة سجريط بمطبعة روخس 1883.)

الوارد في هذا عن الشارع، عليه السلام، منزلاً على ما ذكرته. فلما كان حال الحسد على ما ذكر وحال الغاسق على ما تقدم ذلك وقع التقييد في الاستعاذة من شرهما بالظرف فقيل: ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ و﴿إِذَا حَسَدَ﴾، ولم يقع تقييد في الاستعاذة من شر السحرة، وجاء كل من ذلك على ما يجب ويناسب، ولا يمكن خلافه، والله أعلم.

* * *

سورة قل أعوذ برب الناس

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾[1] إلى آخر السورة، يسأل عن تكرر الناس في قوله تعالى: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ إِلَهِ ٱلنَّاسِ﴾[2]؟ وما وجه ذلك؟

والجواب، أن التبعية[3] في ملك الناس على عطف البيان ولا تحسن فيه الإضافة إلى الضمير لأن ذلك يؤدي إلى تعرف الاسمين بضمير الأول الذي عليه حملهما، فكأن يكون الأول في حكم الأعرف من اللفظ التابع له وذلك عكس ما عليه عطف البيان، أما إذا أضيف التابع لما أضيف إليه متبوعه فإنه إذ ذاك لا يكون مساوياً له، وذلك هو الجاري المطرد في هذا الضرب من التوابع ـ أعني أن يكون في الأغلب الكثير مساوياً للأول أو أعرف ـ فلهذا جاء مضافاً إلى الظاهر هنا[4]، والله أعلم.

□ □ □

(1) سورة الناس: آية 1.
(2) سورة الناس: آية 2-3.
(3) في ن 3: السبية، وهذا خطأ مخل بالمعنى.
(4) في ن 1، ن 2، ن 4: منها، وهذا غير مناسب.

خاتمة

تيسر لي ـ بعون من الله ـ تحقيق ملاك التأويل، فتم بذلك: من جهة كشفُ الغطاء عن مؤلف عظيم وكنز ثمين من كنوز المكتبة الإسلامية تناول فيه صاحبه علمًا جليلاً من علوم القرآن الكريم علم متشابه القرآن الذي كان وما يزال معترك الأقران على مدى الأزمان، ومن جهة أخرى التعريف بعَلَم من أعلام الأندلس الأفذاذ بقي إلى حد الآن مجهولاً أو يكاد ـ وإن ترجمت له أغلب كتب التراجم ـ إذ أن المعـرِّف الحقيقي بالمؤلف مؤلفاته وإنتاجه. ولئن عرف ابن الزبير «بصلته» التي تم لها الظهور على يد «لڤي بروفنصال» فلم يكن هذا الكتاب ترجماناً حقيقياً عن صاحبه، ويجيء «ملاك التأويل» ليكون الترجمان الصادق والأمين عن مؤلفه لما احتواه من إنتاج عظيم كمًا وكيفاً، ففيه ظهرت قدرات المؤلف الحقيقية والفائقة في شتى الفنون، وتبلور تضلعه ورسوخ قدمه في مختلف العلوم، فصح بذلك ما وصفه به تلاميذه ومعاصروه من أنه «كان محدث الأندلس بل المغرب في زمانه» وأن «إليه انتهت الرئاسة بالجزيرة في شتى العلوم».

وإن مما زاد تعريفاً بملاك التأويل ومؤلفه ومكن من تسليط الأضواء على كل جوانب الموضوع، المدخل الذي صدرت به التحقيق. فقد انكشفت به جوانب بالأهمية بمكان، سواء ما تعلق منها بالجانب السياسي والفكري لعصر ابن الزبير وما عرف به من مد وجزر، أو ما تعلق بترجمة المؤلف وما اتضح بها من أسرار هامة عن حياته، أو بالمنهج العام الذي سلكه في تفسيره وما تبين به من رسوخ قدم في هذا المجال.

ولقد بذلت قصارى الجهد في إنجاز هذا العمل وحرصت على أن أكون موفقاً. ولا أدعي أنني بلغت به درجة الكمال ـ فالكمال لله وحده ـ فإن وفقت فبتوفيق من عنده، وإن كانت الأخرى فحسبي أني قد بذلت وسعي وما قصّرت. ولا يسعني إلا أن أدعو العلي القدير بقوله:

«رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا»

والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

□ □ □

الفهارس

(1)
فهرس الآيات

رقم الآية	نص الآية	رقم الصفحة
133	أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب	482
134	تلك أمة قد خلت	237
135	وقالوا كونوا هوداً أو نصارى	234
136	قولوا آمنا بآلله	238، 240
141	تلك أمة قد خلت	237
143	وكذلك جعلناكم أمة وسطا	917
144	قد نرى تقلب وجهك في السماء	109، 240، 242
145	ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب	228، 231
149	ومن حيث خرجت فول وجهك	240، 242
150	ومن حيث خرجت فول وجهك	117، 240، 243، 756، 757
153	يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر	194، 195
159	إن الذين يكتمون ما أنزلنا	253، 254
163	وإلهكم إله واحد	1157
164	إن في خلق السماوات والأرض	109، 244، 689، 733، 1001، 1021
165	ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً	293، 631
168	يا أيّها الناس كلوا مما في الأرض	246، 250، 255
169	إنما يأمركم بالسوء والفحشاء	246
170	وإذا قيل لهم اتبعوا	246
171	ومثل الذين كفروا	180
172	يا أيها الذين آمنوا كلوا	248، 250، 251، 255
173	إنما حرّم عليكم الميتة	248
174	إن الذين يكتمون ما أنزل الله	253، 254، 255
175	أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ...	255
177	ليس البرّ أن تولوا وجوهكم	159، 320، 581
178	يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص	773
183	يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصّيام ..	241
184	أيّاماً معدودات	809
187	أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم	258

رقم الآية	نص الآية	رقم الصفحة

سورة الأنعام (6)

رقم الآية	نص الآية	رقم الصفحة
60	قال الملأ من قومه	517، 521، 524، 525، 526، 532، 539، 543، 875
61	قال يا قوم ليس بي ضلالة	526، 540
62	أبلغكم رسالات ربي	526، 527، 528، 538، 540
63	أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم	532
64	فكذبوه فأنجيناه	529، 553، 531، 532
66	قال الملأ الذين كفروا من قومه	521، 527، 541
67	قال يا قوم ليس بي سفاهة	526، 567
68	أبلغكم رسالات ربي	526، 527، 568
74	واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد	538
75	قال الملأ الذين استكبروا	525، 529
76	قال الذين استكبروا	538، 541، 558
77	فعقروا الناقة	538، 558
78	فأخذتهم الرجفة	533
79	فتولى عنهم وقال	536، 538، 541
80	ولوط إذ قال لقومه	544، 552، 554
81	إنكم لتأتون الرجال شهوة	544، 548، 554
82	وما كان جواب قومه إلا أن قالوا	544، 549
83	فأنجيناه وأهله إلا امرأته	544، 551
84	وأمطرنا عليهم مطرا	544، 552
86	ولا تقعدوا بكل سراط	537، 557
87	وإن كان طائفة منكم آمنوا	557
88	قال الملأ الذين استكبروا من قومه	537، 756
90	وقال الملأ الذين كفروا	538، 559، 756
93	فتولى عنهم وقال يا قوم	536، 537
94	وما أرسلنا في قرية من نبي	105، 455
99	ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة	874، 992
101	تلك القرى نقص عليك من أنبائها	556، 557، 558، 559
103	ثم بعثنا من بعدهم موسى	561، 668، 670

رقم الآية	نص الآية	رقم الصفحة
47	ويوم نسير الجبال	462
48	وعرضوا على ربك صفا	461، 462
49	ووضع الكتاب	622، 1139، 1140
50	وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم	209، 398، 587، 489
52	ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم ..	766
54	ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل	765، 766، 767، 775، 784
55	وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى	774، 784
56	وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين	768، 786، 787، 931
57	ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها	783، 784، 786، 837
67	قال إنك لن تستطيع معي صبرا	789
71	فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة	788، 789
72	قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا ..	789
73	قال لا تؤاخذني بما نسيت	789
74	فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما	788، 789
75	قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا	789
79	أما السفينة فكانت لمساكين	788
87	قال أما من ظلم فسوف نعذبه	783
97	فما استطاعوا أن يظهروه	790
100	وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين	776
102	أفحسب الذين كفروا	776
103	قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا	776، 841
105	أولئك الذين كفروا بآيات ربك ولقائه ...	776، 841
106	ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا	776
108	خالدين فيها لا يبغون عنها حولا	776
110	قل إنما أنا بشر مثلكم	791، 1157

سورة مريم (19)

رقم الآية	نص الآية	رقم الصفحة
2	ذكر رحمة ربك عبده زكريا	299
8	قال ربي أنى يكون لي غلام	298

سورة طه (20)

رقم الآية	نص الآية	رقم الصفحة
9	وهل أتاك حديث موسى	805
10	إذ رأى نارا فقال لأهله	111، 805، 812
12	إني أنا ربك فآخلع نعليك	805، 825
13	وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى	805، 822
15	إن الساعة آتية أكاد أخفيها	805، 814
24	اذهب الى فرعون إنه طغى	571، 816، 820
29	واجعل لي وزيراً من اهلي	802، 816
36	قال قد أوتيت سؤلك يا موسى	816، 818، 822
43	اذهبا الى فرعون إنه طغى	522، 571، 820
44	فقولا له قولا لينا	542، 715، 820، 822
47	فأتياه فقولا إنا رسولا ربك	819، 821
49	قال فمن ربكما يا موسى	571، 718
51	قال فما بال القرون الأولى	571، 718
53	الذي جعل لكم الأرض مهدا	718، 823، 824
56	ولقد أريناه آياتنا كلها	571
57	قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا	564، 571
60	فتولى فرعون	564، 571
62	فتنازعوا أمرهم بينهم	564، 571
63	قالوا إن هذان لساحران	564، 571
65	قالوا يا موسى إما أن تلقي	569
69	قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى	575
69	وألق ما في يمينك	1162
70	فألقى السحرة سجدا	570
71	قال ءآمنتم له قبل أن آذن لكم	570، 572، 574
80	يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم . .	928
82	وإني لغفار لمن تاب	332، 575
91	قالوا لن نبرح عليه عاكفين	709
99	كذلك نقص عليك	709

سورة الأنبياء (21)

سورة النمل (27)

سورة لقمان (31)

(2)

فهرس الأحاديث والآثار

(3)

فهرس الأعلام

(س)

(ش)

(غ)

(ف)

(4)

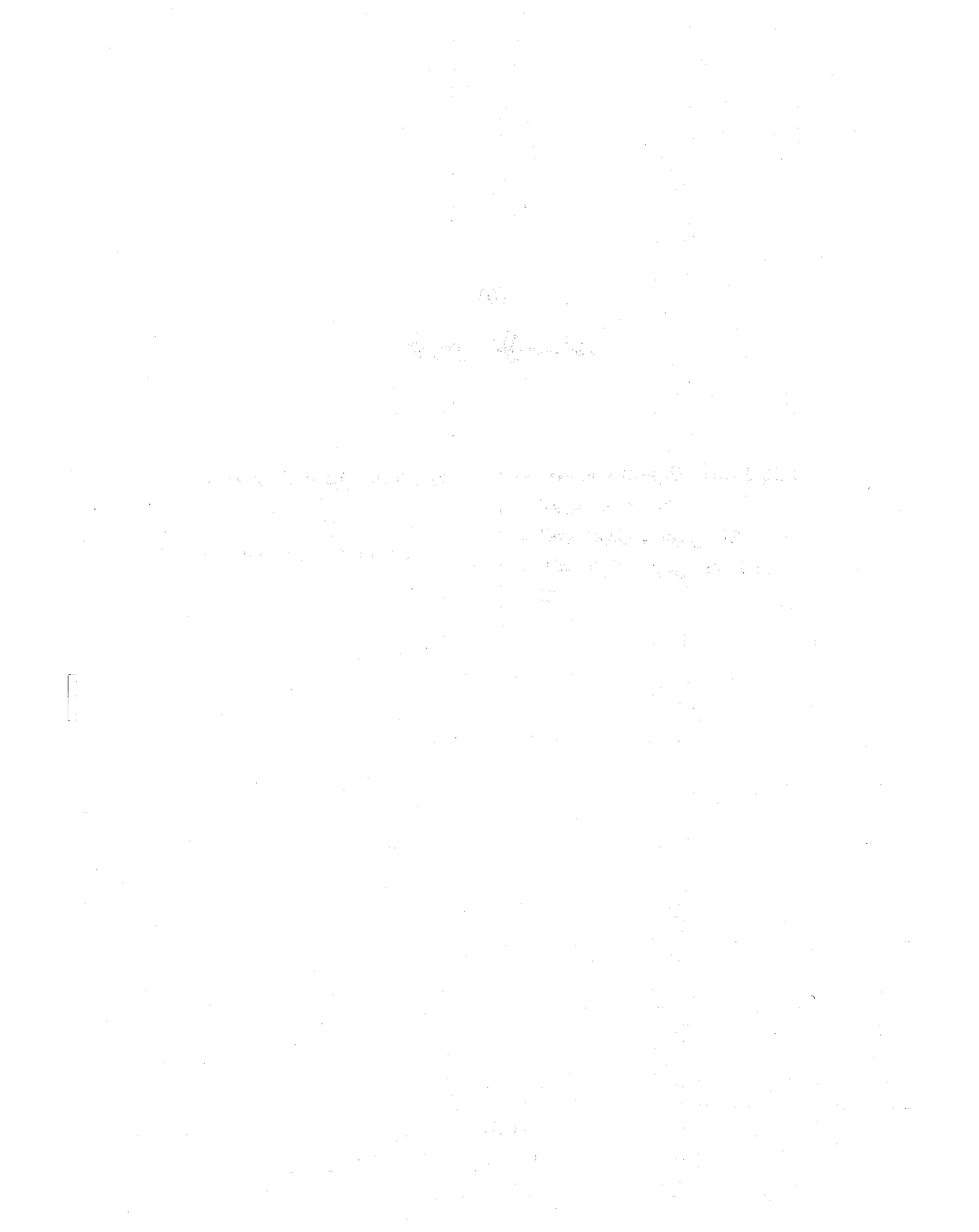
فهرس الأماكن والبلدان

(5)

فهرس الجماعات والقبائل والفرق

(6)

فهرس المؤسسات



(7)
فهرس الأبيات الشعرية

صدر البيت	القافية	البحر	الشاعر	الصفحة
إذ ابن أبي موسى بلال بلغته	جازر	الطويل	ذو الرمة	161
أصبحت لا أحمل السلاح ولا	نفرا	المنسرح	الربيع بن ضبع الفزاري	161
ألا يا آسلمي ثم آسلمي ثمت آسلمي	سمسم	الرجز	العجاج	333، 1118
ألكني إليها وخير الرسول	الخبر	المتقارب	ابو ذؤيب الهذلي	821
أما النهار ففي قيد وسلسلة	الساج	البسيط	مجهول	318
أمرتك الخير فآفعل ما أمرت به	شنب	البسيط	عمرو بن معد	985
إن الربيع الجود والخريفا	الصيوفا	الرجز	رؤبة العجاج	317
إن علّي الله أن تبايعا	طائعا	الرجز	مجهول	162
إن قيدوه وبالغوا في عصره	يقيد	الرجز	أبو الحسن النوري	65
إيّاك أعني واسمعي يا جارة	جارة	الرجز	سهل بن مالك الفزاري	457
تجاوزت أحداسا وأهوال معشر	مقتلي	الطويل	امرؤ القيس	257
تطاول ليلك بالأثمد	ترقد	المتقارب	امرؤ القيس	751
تعال فإن عاهدتني لا تخونني	يصطحبان	الطويل	الفرزدق	440، 441، 955
حتى شآها كليل موهن عمل	ينم	البسيط	ساعدة بن جوبة	990
حقيق لعمري أن تفيض نفوسنا	تتفطرا	الطويل	أبو جعفر بن أبي حبل	102
الحمد لله العلي ذي المنن	الدِيَن	السريع	عمرو بن جموح	166
الخائض الغمر والميمون طائره	المطر	البسيط	الأخطل	163
عزيز على الاسلام والعلم ماجد	الكرى	الطويل	أبو جعفر بن أبي حبل	102
فلما أجزنا ساحة الحي وانتحى	عقنقل	الطويل	أمرؤ القيس	995

(8)
فهرس بأسماء الكتب

(9)

فهرس بأهم المصادر والمراجع

1 ـ ما تعلق بالقرآن وعلومه:

ـ القرآن الكريم.

ـ ابن الجزري (أبو الخير شمس الدين، شيخ القراء محمد بن محمد بن محمد): النشر في القراءات العشر (مجلد واحد)، نشر: محمد أحمد دهمان، ط. دمشق 1345هـ.

ـ الخطيب الاسكافي (أبو عبد الله محمد بن عبد الله): درة التنزيل وغرة التأويل (مجلد واحد)، نشر: دار الآفاق الجديدة، ط. الثالثة، بيروت 1979.

ـ الرازي (أبو عبد الله محمد بن عمر، فخر الدين): مفاتيح الغيب (32جزءاً)، ط. أولى، دار إحياء الكتب العربية، 1957/1376.

ـ الزركشي (بدر الدين محمد بن عبد الله): البرهان في علوم القرآن (4 أجزاء)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. أولى، دار إحياء الكتب العربية، 1957/1376.

ـ الزمخشري (محمد بن عمر): الكشاف عن غوامض التنزيل (4 أجزاء)، تحقيق: مصطفى حسين أحمد، ط. أولى، مطبعة الاستقامة، مصر 1365هـ/ 1946م.

ـ ابن زنجلة (أبو زرعة عبد الرحمان بن محمد): حجة القراءات (مجلد واحد، تحقيق: سعيد الأفغاني)، نشر جامعة بنغازي، 1974.

ـ الزين العراقي (زين الدين عبد الرحيم): التقييد والايضاح، شرح مقدمة ابن الصلاح، تحقيق عبد الرحمان محمد عثمان، القاهرة 1970.

ـ السيوطي (عبد الرحمان بن أبي بكر):

* الإتقان في علوم القرآن (جزآن). ط. ثالثة، مطبعة حجازي، القاهرة 1360هـ/ 1941م.
* لباب النقول في أسباب النزول (مجلد واحد). طبعة سنة 1290هـ.

– الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير): جامع البيان عن تأويل آي القرآن (30 جزءاً). تحقيق: محمود محمد شاكر، ط. دا المعارف، مصر 1957.
– ابن عطية (عبد الحق بن غالب): المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (مخطوط في أجزاء متفرقة). دار الكتب الوطنية بتونس.
– أبو عمرو الداني (عثمان بن سعيد): التيسير في القراءات السبع (مجلد واحد). تصحيح: اوتوبرتزل، استنبول 1930.
– الفيروزبادي (محمد بن يعقوب): تنوير المقباس من تفسير ابن عباس (مجلد واحد). طبع ونشر بابي الحلبي، 1951.
– القرطبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري): الجامع لأحكام القرآن (20 مجلدا) ط. ثالثة، دار الكتاب العربي، 1967م.
– مجاهد (مجاهد بن جبر التابعي المكي لمخزومي): تفسير مجاهد (مجلد واحد). تحقيق: عبد الرحمان الطاهر الشورتي، ط. اولى، قطر 1396هـ/ 1976م.
– محمد الفاضل ابن عاشور: التفسير ورجاله (جزء واحد). ط ثانية، دار الكتب الشرقية، تونس 1972.
– محمد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن (مجلد واحد). طبع دار الكتب المصرية، 1364 هـ.
– الواحدي (أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري): أسباب النزول (مجلد واحد). طبعة مصر، 1315هـ.

2 – ما تعلق بالسنة والآثار:

– البخاري (محمد بن اسماعيل بن ابراهيم): صحيح البخاري (9 أجزاء). طبع مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1345هـ.
– الترمذي (أبو عبد الله محمد بن عيسى بن سورة): سنن الترمذي. طبع مكتبة القلعي، بدون تاريخ.
– أبو داود (سليمان السجستاني الوذاري): سنن أبي داود (صحيح سنن المصطفى) (مجلدان). ط. القاهرة، 1348هـ.
– ابن العربي المالكي: عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي (12 مجلدا). ط دار العلم للجميع، مصر، بدون تاريخ.
– ابن ماجه (محمد بن يزيد القزويني): سنن ابن ماجه (مجلدان). تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، نشر عيسى بابي الحلبي، بدون تاريخ.

- مالك بن أنس: الموطأ (مجلد واحد). تحقيق: أحمد راتب عرموش. نشر النفائس، مطابع دار القلم، بيروت 1971.
- مسلم (مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري): صحيح مسلم بشرح النووي (18 جزءاً). نشر: محمود توفيق، مطبعة حجازي، القاهرة، بدون تاريخ.
- النسائي (أبو عبد الرحمان أحمد بن شعيب): سنن النسائي بشرح جلال الدين السيوطي (8 أجزاء). الطبعة الأولى، مطبعة الأزهر، 1343هـ/ 1930م.

* مراجع تكميلية:
- صبحي الصالح: علوم الحديث ومصطلحه (مجلد واحد). ط. سادسة، دار العلم للملايين، بيروت 1971.
- ونسنك (المستشرق): المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي. ط. بريل، ليدن 1936

3 ـ ما تعلق باللغة وفنونها:
- البغدادي (عبد القادر بن عمر): خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب (4 مجلدات). ط. اولى، المطبعة الأميرية ببولاق.
- التبريزي (أبو زكرياء يحيى بن علي): ديوان الحماسة، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. طبعة مصر، بدون تاريخ.
- أبو تمام (حبيب بن أوس الطائي): ديوان الحماسة (جزآن). تحقيق: محمد عبد القادر سعيد الرافعي، ط. مصر 1322هـ.
- ابن جني (أبو الفتح عثمان): الخصائص (3 مجلدات). تحقيق: محمد علي النجار، طبع دار الكتب المصرية، 1956.
- ابن أبي الخطاب (محمد القرشي): جمهرة أشعار العربية في الجاهلية والإسلام. طبعة مصر، 1308هـ.
- سيبويه (أبو بشر عمرو): كتاب سيبويه، (جزآن). ط. ثانية، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1387هـ/ 1967م.
- ابن عبد ربه (أحمد بن محمد الأندلسي): العقد الفريد (٧ أجزاء) طبعة مصر 1372هـ و 1384هـ.
- ابن عصفور (علي بن مؤمن): المقرب (جزآن). تحقيق: أحمد عبد الستار الجواري وعبد الله الجبوري. مطبعة العاني بغداد، 1971/1391.
- أبو الفرج الأصبهاني (علي بن الحسين): الأغاني (24 مجلدا)، نشر دار الثقافة، بيروت.
- ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم): الشعر والشعراء (جزان). تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، طبعة القاهرة، 1364هـ.

- الميداني (أبو الفضل أحمد النيسابوري): مجمع الأمثال (مجلدان). تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط. ثانية، مصر 1959.
- المرزباني (أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى): معجم الشعراء (مجلد واحد). تحقيق: عبد الستار بن أحمد فراج، ط. دار إحياء الكتب العربية، 1960.
- ابن منظور (محمد بن مكرم بن علي الأنصاري): لسان العرب (4 مجلدات) اعداد وتصنيف يوسف الخياط، نديم مرعشلي، ط. دار لسان العرب، بيروت.
- ابن هشام (جمال الدين، الأنصاري): مغني اللبيب عن كتب الأعاريب (مجلد واحد). ط. دار الفكر، الطبعة الثانية، 1969.

* مصادر ومراجع ثانوية:
- أحمد راتب النفاخ: فهرس شواهد سيبويه (مجلد واحد). ط. اولى، طبع دار الارشاد، دار الأمانة، 1970.
- أمرؤ القيس: ديوان امرىء القيس. طبع دار صادر، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.
- الخنساء (تماضر بنت عمرو بن الحارث): ديوان الخنساء. طبع دار صادر، بيروت، لبنان، 1963.
- العجاج (عبد الله بن رؤبة): ديوان العجاج. تحقيق الدكتور عزة حسن، طبع مكتبة دار الشرق، بيروت 1971.
- محمد هارون: معجم شواهد العربية. ط. اولى، مكتبة الخانجي، مصر، 1972.
- الهذليون: ديوان الهذليين. طبع المكتبة العربية للتراث، مصر، 1965.

4 ـ ما تعلق بالتاريخ والتراجم:
- ابن الأبار (محمد بن عبد الله القضاعي): التكملة لكتاب الصلة (جزآن). مطبعة روخس، مجريط 1887.
- ابن الأثير (علي بن أبي الكرم): الكامل في التاريخ (9 مجلدات). ط. ادارة الطباعة المنيرية، القاهرة، 1348هـ.
- الألوسي (محمود شكري الألوسي البغدادي): بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب (3 أجزاء). طبعة ثانية، مصر 1342هـ/ 1924م.
- ابن بشكوال (خلف بن عبد الله): كتاب الصلة (مجلدان). ط مدينة مجريط، مطبعة روخس، 1883.
- البكري (حسين بن محمد الديار): تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس (مجلدان). طبعة مصر 1283هـ.

- ابن الجزري (شمس الدين أبو الخير، محمد بن محمد): غاية النهاية في طبقات القراء (مجلدان). طبعة مصر 1351هـ/ 1932م.
- ابن الجوزي (جمال الدين أبو الفرج): صفة الصفوة (جزآن). طبعة حيدراباد، 1355هـ.
- حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله): كشف الظنون (مجلدان). طبعة استنبول، 1360هـ/ 1941م.
- ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي):
  * الإصابة في تمييز الصحابة (4 اجزاء). بهامشه الاستيعاب لابن عبد البر. طبعة مصر، 1939.
  * لسان الميزان (6 اجزاء). الطبعة الأولى، طبع حيدر أباد، الهند، 1331هـ.
  * الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (4 مجلدات). طبعة دار الكتب الحديثة، 1966م.
  * تهذيب التهذيب (12 مجلدا). ط. حيدراباد الدكن، الهند، 1325هـ/ 1327هـ.
- أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن النباهي المالقي: تاريخ قضاة الأندلس (مجلد واحد). نشر لڤي بروفنصال، ط. دار الكتاب المصري، القاهرة 1948.
- الخطيب البغدادي (احمد بن علي): تاريخ بغداد (14 مجلدا). طبعة مصر، 1349هـ.
- ابن الخطيب (لسان الدين): الاحاطة في أخبار غرناطة (مجلدان). تحقيق: محمد عبد الله عنان. طا ثانية، القاهرة، 1973.
- ابن خلدون (عبد الرحمان بن محمد): العبر وديوان المبتدأ والخبر. (7 اجزاء)، طبعة بولاق.
- ابن خلكان (أحمد بن محمد بن أبي بكر): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. تحقيق إحسان عباس، طبعة دار صادر 1971، وأخذت عن طبعات اخرى.
- الذهبي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن احمد):
  * تذكرة الحفاظ (4 أجزاء). طبعة حيدر اباد، 1334هـ.
  * ميزان الاعتدال في نقد الرجال (3 مجلدات). طبعة مصر، 1325.
- ابن الزبير الثقفي (احمد بن ابراهيم): صلة الصلة. تحقيق لاڤي بروفنصال. ط. الرباط 1938.
- ابن سعد (محمد بن سعد): الطبقات الكبرى (9 مجلدات). طبع دار صادر، لبنان، وأخذت عن طبعة ليدن.
- السهيلي (عبد الرحمان بن عبد الله): الروض الأنف (جزآن). طبعة مصر 1332هـ/ 1914م.
- السيوطي (الحافظ جلال الدين عبد الرحمان):

* ذيل طبقة الحفاظ للذهبي. مطبعة التوفيق، دمشق، 1347هـ.
* بغية الوعاة في طبقات النحاة (مجلدان). طبع عيسى البابي الحلبي، 1964م.

- الشوكاني (القاضي محمد بن علي): البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (مجلدان). طبعة القاهرة، 1343هـ.
- الصفدي (صلاح الدين خليل بن ايبك): الوافي بالوفيات (9 اجزاء)، تحقيق س. ديدرينغ. ط. فيسبادن، 1972م.
- طاش كبري زاده (احمد بن مصطفى): مفتاح السعادة ومصباح السيادة (3 مجلدات). ط. اولى، مطبعة دائرة المعارف، الهند، 1328.
- عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي اليمني المكي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان (4 اجزاء) ط. اولى، حيدرأباد، الهند 1337-1339.
- ابن عبد الملك (أبو عبد الله محمد بن محمد): الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (4 مجلدات). تحقيق محمد بن شريفة وإحسان عباس، طبع دار الثقافة، بيروت، لبنان.
- ابن عماد الحنبلي (عبد الحي): شذرات الذهب في أخبار من ذهب (8 اجزاء). طبعة بيروت، بدون تاريخ.
- ابن فرحون (برهان الدين إبراهيم): الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب. ط. مصر 1329-1351.
- ابن القاضي(ابو العباس أحمد بن محمد المكناسي): درة الحجال في أسماء الرجال (ذيل وفيات الأعيان) (3 أجزاء). تحقيق محمد ابو النور. طبعة القاهرة، 1970.
- القفطي (علي بن يوسف): انباه الرواة على أنباه النحاة. تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، طبع دار الكتب، مصر 1950-1973.
- الكتاني (محمدعبد الحي بن عبد الكبير الادريسي): فهرس الفهارس والاثبات (مجلدان). طبعة فاس 1346-1347هـ.
- محمد بن محمد بن فهد الهاشمي المكي الحافظ تقي الدين: لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ. طبعة التوفيق، دمشق، 1347هـ.
- محمد بن محمد مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية. طبعة القاهرة، 1349هـ.
- المقري (أحمد بن محمد): نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب (8 مجلدات). ط. بيروت 1968م.
- ابن هشام (أبو محمد عبد الملك بن هشام): سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) (4 أجزاء). طبعة مصر، 1355هـ/ 1936م.

ـ ياقوت الحموي: معجم البلدان (11 مجلدا). طبعة ليبزغ، 1867.
ـ اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب): تاريخ مختصر الدول (3 أجزاء). طبعة النجف، 1338هـ.

* مراجع مكملة:

ـ بروكلمان (كارل): تاريخ الأدب العربي. الملحق رقم 2، طبعة ليدن 1938.
ـ البغدادي (اسماعيل باشا):
* ايضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون (مجلدان). تحقيق: رفعت بيلكة الكليسي، ط ج1 ـ 1945، ط ج2 ـ 1947.
* هدية العارفين (مجلدان). طبع الجزء الأول عام 1951 والثاني عام 1955.
ـ الزركلي (خير الدين): الأعلام (10 أجزاء). الطبعة الثانية 1373-1378/1954/1959.
ـ عبد الحميد العبادي: المجمل في تاريخ الأندلس. طبعة دار القلم، الطبعة الثانية، القاهرة 1964.
ـ كحالة (عمر رضا): معجم المؤلفين (15 جزءا). نشر المكتبة العربية بدمشق، مطبعة الترقي، 1957/1961.
ـ محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين. ط اولى، القاهرة 1368هـ/ 1949م.

5 ـ ما تعلق بالملل والنحل:

ـ ابن حزم (علي بن أحمد بن حزم الظاهري): الفصل في الملل والأهواء والنحل (3 أجزاء). طبعة القاهرة، المطبعة الأدبية، 1317هـ، بهامشه: الملل والنحل للشهرستاني.
ـ الشهرستاني (أبو الفتح محمد بن عبد الكريم): الملل والنحل (بهامش الفصل لابن حزم). طبعة القاهرة، المطبعة الأدبية، مصر 1317هـ.

6 ـ مراجع عامة:

ـ محمد فريد وجدي: دائرة معارف القرن العشرين (10 مجلدات). ط ثالثة، طبع دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت 1971.
ـ الموسوعة الفلسفية المختصرة، ترجمة فؤاد كامل ورفاقه، طبعة القاهرة 1963.

(10)
فهرس الموضوعات العام

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

سورة آل عمران: (328-286)

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة



بيروت - لبنان
لصاحبها : الحبيب اللمسي

شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء ، بناية الأسود
تلفون: Tel: 009611-350331 / خليوي: Cellulaire: 009613-638535
فاكس: Fax: 009611-742587 / ص.ب. 5787-113 بيروت ، لبنان
DAR AL-GHARB AL-ISLAMI B.P.:113-5787 Beyrouth, LIBAN

الطبعة الأولى 1983 - الطبعة الثانية - 2007

الرقـــــم : 30 / 1000 / 6 / 2007

التنضيد: مطبعة المتوسط

الطباعة: مطبعة الصـــراط - بيروت - لبنان